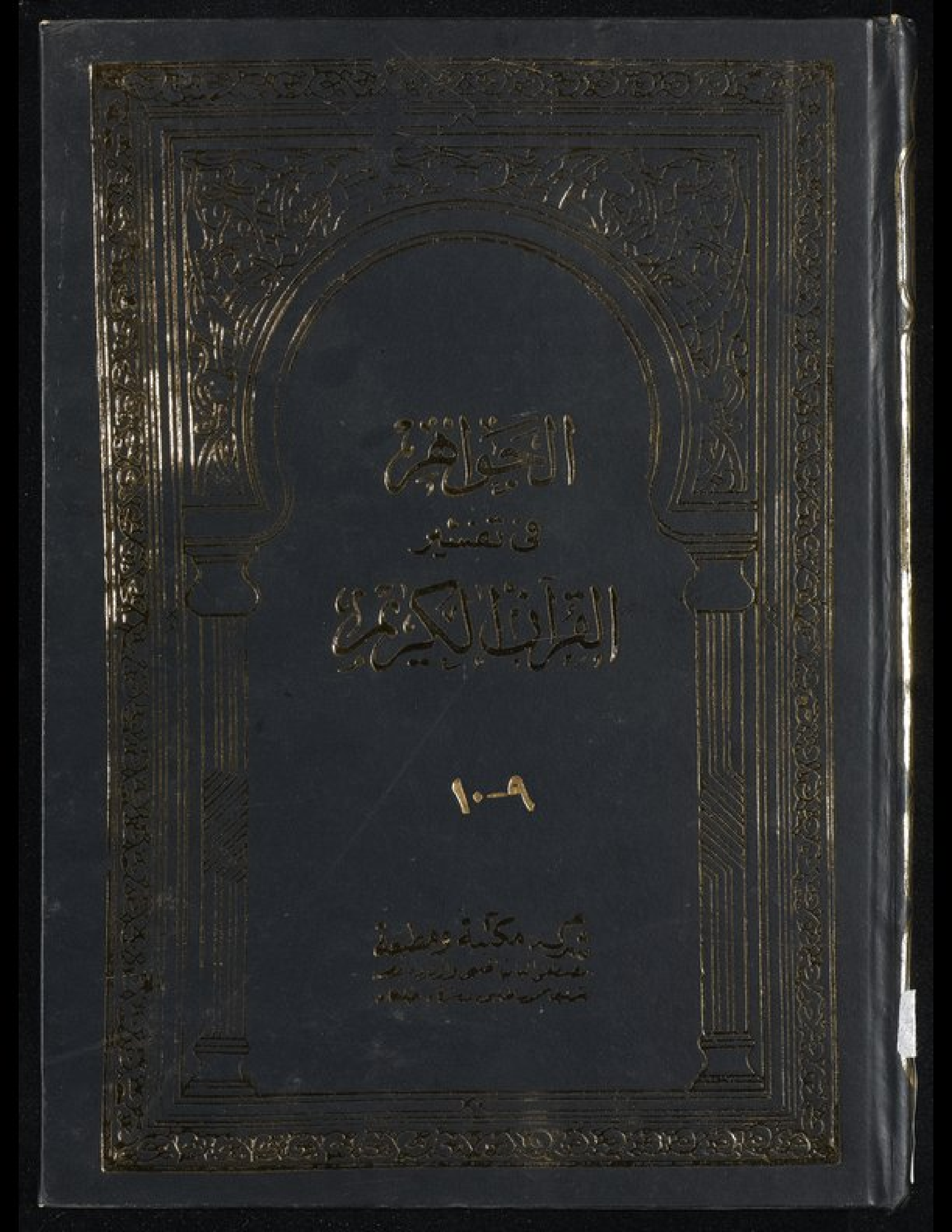

الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم
٩-١٠
شركة مكتبة ومطبعة

الجواهر

فى تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء التاسع

الطبعة الثانية
١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
بمباشرة محمد أمين عمران

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة بنى إسرائيل مكية

إلا قوله ـ وان كادوا ليفتنونك ـ إلى آخر ثمان آيات

(وهى مائة وعشر آيات)

هذه السورة ﴿ قسمان . القسم الأول ﴾ من أول السورة إلى قوله تعالى « وقالوا أ إذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا »

﴿ القسم الثانى ﴾ من قوله تعالى « قل كونوا حجارة أو حديدا » إلى آخر السورة .

القسم الأول فيه (١) الإسراء (٢) وتاريخ بنى إسرائيل ارتقاء وانحطاطا (٣) وحكم تتبع ذلك وعظات للأمة الاسلامية لئلا تذهب دولها كما ذهبت دولة اليهود (٤) ثم تبيان أن كل ما فى السموات والأرض مسبح لله رجوعا إلى مبدإ السورة مع نصائح .

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا
حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ
عَبْدًا شَكُورًا * وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ
عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا

خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً • ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ
وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً • إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا
مَا عَلَوْا تَتْبِيراً • عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
حَصِيراً • إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ
أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً • وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً • وَيَدْعُ
الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً • وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا
آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ
وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً • وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً • اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً •
مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً • وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا
فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً • وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ
نُوحٍ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً • مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ
فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً • وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ
وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً • كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ
مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً • انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً • لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً
مَخْذُولاً • وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ
أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً • وَاخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً • رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً • وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ

وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ
قَوْلًا مَيْسُورًا ۝ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْسُورًا ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۝
وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ۝
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ
إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ
خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ
الْجِبَالَ طُولًا ۝ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ
الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ۝ أَفَأَصْفَاكُمْ
رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا
فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ
إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ تُسَبِّحُ لَهُ
السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۝
وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ۝ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ
بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝
انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا
وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا .

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أسبح (سبحان) الله أى تنزيهه ، فسبحان اسم بمعنى التنزيه أى أنزه الله أن يعجز عما سيذكر بعده (الذى أسرى بعبده) محمد صلى الله عليه وسلم وسرى وأسرى لغتان (ليلا) فى مدة قليلة منه دلّ عليها تنكير ليل (من المسجد الحرام) هو المسجد بعينه لا الحرم كله ، لقوله عليه الصلاة والسلام «بينا أنا نائم فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل بالبراق وقد عرج بى إلى السماء فى تلك الليلة» وكان العروج به من بيت المقدس وقد أخبر قريشا عن عيرهم وعدد جمالها وأحوالها وأخبرهم أيضاً بما رأى فى السماء من العجائب وأنه لقى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى وكان الاسراء قبل الهجرة بسنة . والخلاف مشهور أكان باليقظة أم فى المنام ؟ فعائشة رضى الله عنها تقول بروحه ، والجمهور يقولون بجسده وسيأتى تحقيقه ، وقوله (إلى المسجد الأقصى) أى بيت المقدس إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذى باركنا حوله) ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحى ومتعبد الأنبياء من أيام موسى عليه السلام وحوله الأشجار المثمرة والأنهار الجارية (لنريه) أى محمدا صلى الله عليه وسلم (من آياتنا) من عجائب قدرتنا كذهابه فى برهة من الليل مسيرة شهر ومشاهدته بيت المقدس وتمثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له ووقوفه على مقاماتهم ورؤيته عجائب السموات وغرائب المخلوقات فيها (إنه هو السميع) لأقوال محمد صلى الله عليه وسلم (البصير) بأفعاله فيكرمه ويقرّبه على حسب مااستعدله بذلك . ولما كان بيت المقدس مقرّ الأنبياء من أول موسى عليه السلام ولهم دول تتابعت وأمم تناسقت فى تلك الأقطار أطلع الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على أحوالهم إطلعنا عليها وأوحى إليه ماحل بقوم موسى من عزة وذلة وشرف وحطة وقد أنزل عليهم كتاب التوراة المنزل على موسى ليدلنا على ماسيكون لنا فى مستقبل الزمان وأنا سنلاق مالاقت الأمم فلنحترس مما وقعوا فيه ولذلك أعقبها بآداب ونصائح وفضائل لم تكن فى سورة قبلها متتابعة على هذا المنوال وشدّد فى ذلك حتى أعطى (٢٥) نصيحة فى نسق واحد . فأما التوراة فان مدار نصائحها على الكلمات العشر المعروفة فقال سبحانه موضحا ذلك (وآتينا موسى الكتاب) التوراة (وجعلناه) أى الكتاب (هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا) يعنى قلنا لهم لا تتخذوا من دونى ربا تكلون إليه أموركم ، يا (ذرية من حملنا مع نوح) فى السفينة (إنه كان عبدا شكورا) يحمد الله على جميع حالاته ويقوم بحق النعمة ويصرف كل ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله فلذلك أنجيته من الغرق فاذا سرتم على طريقه أنجيتكم من الهلاك فاشكرونى بمعرفة حق النعمة أدم لكم النعم كما أدمتها عليه . ثم أخذ يفصل ما حصل لبنى إسرائيل ، وهل هم قاموا بالشكر كنوح أبيهم أم هم ضلوا السبيل فغضب عليهم ، وكل ذلك ليس يقصد منه إلا نحن أصحاب هذا القرآن ، ثم قال (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب) أى وقضينا على بنى إسرائيل فى كتابنا الذى كتبناه على الخلق وقدّرناه عليهم قبل خلقهم وأن لكل دولة أيام رفعة وأيام ذلّ وأقسمنا (لتفسدن فى الأرض) أى أرض الشام وبيت المقدس (مرتين) كما هو شأن كل أمة نالت حظا من الحضارة والترف وسكرت بالنعيم (ولتعلنّ علوا كبيرا) أى ولتستكبرن ولتظلمن ظلما كبيرا (فاذا جاء وعد أولاهما) أولى المرتين بأن خالفتم أحكام التوراة وركبتم المحارم فقتلتم شعياء فى الشجرة مثلا (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) أشداء فى القتال لأنكم لم تسيروا على سنن أبيكم نوح فى شكر نعمائى وهؤلاء العباد بختنصر وجنوده فقتلوا علماءكم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا سبعين ألفا (فجاسوا خلال الديار) ترددوا للغارة فيها . والجوس طلب الشئ بالاستقصاء (وكان وعدا

مفعولا) يكان وعد العقاب وعدا لابد أن يفعل (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) أى الدولة والغلبة على الذين جاسوا عليكم حين تبتم وتهذبتم (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) مما كنتم، والنفير جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) أى إن الإحسان والاساءة مختصان بأنفسكم لايتعدى النفع والضرر إلى غيركم . وعن على رضى الله عنه : ماأحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه . (فاذا جاء وعد الآخرة) وعد العقوبة للمرة الآخرة بعثناهم (ليسوءوا وجوهكم) أى ليجعلوا آثار المساءة بادية فيها (وليدخلوا المسجد) بيت المقدس ونواحيه (كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا) أى وليهلكوا كل شئ غلبوه واستولوا عليه وهؤلاء هم الروم حاصروهم وافتتحوا بيت المقدس وأثخنوا فى القتل والأسر والتحريق وخربوا البيت وأجلوهم إلى رومة وماوراءها وهو الخراب الثانى للمسجد ويسمى الجلوة الكبرى (عسى ربكم) بعد المرة الأخرى (أن يرحمكم وإن عدتم) نوبة أخرى (عدنا) مرة ثالثة إلى عقوبتكم وقد عادوا بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم بعد الثانية كما عادوا بعد الأولى بتكذيب عيسى فسلط الله عليهم الروم إذ ذاك فهكذا هنا سلط عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فقتل قريظة وأجلى بنى النضير وقرر الجزية على الباقين هذا لهم فى الدنيا (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) محبسا لايخرجون منه أو بساطا كما يبسط الحصير . هذا ماكان من أمر التوراة ونتائجها فى الأمة التى اتبعته، وهذا القرآن أنزلناه لأمم ستأتى وأنزلنا فيه حكما أرقى مما فى التوراة لأن العالم سائر إلى الأمام (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) للطريقة التى هى أقوم الطرق (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) هذه هى القاعدة العامة فى القرآن وفى كل دين . ثم أخذ يفصل ذلك والتفصيل [قسمان] قسم علمى وقسم عملى. فاما القسم العلمى فهو :

(١) أن يتثبت الإنسان ويتبصر فى أموره .

(٢) ويعينه على ذلك اطلاعه على حساب الليل والنهار وعجائبهما فان الدقة فى حركات الأفلاك وحسابها تعلم الإنسان الثبات والصبر والسير على النهج الأكمل فى الحياة.

(٣) ومتى علم ذلك فليقرأ علوم النفس البشرية ونظامها فانها ذات حساب بل حساب أعمالها قائم فيها ثابت وهو مخبوء فى الدنيا لاتطلع عليه إلابعد الموت كما لا يطلع الناس على حساب الأفلاك إلابدراستها والخلوص من الجهالة بالعلوم الرياضية ، ويوم القيامة يقرأ كل إنسان كتابه بنفسه لأنه حاضر فيها .

(٤) وهكذا الدول والأمم فان لكل دولة نظاما فى كيانها ولو اطلعت عليه لأدركت سبب سقوطها فهى متى غمست فى الترف والنعيم هلكت وساء مصيرها وذلك آت من نفسها وطباع أهلها فكأنه مكتوب فى جبلتها يقرأ فى صحائف نفوسها كما يقرأ الناس صحائف أعمالهم يوم القيامة .

(٥) وهذا قانون الأمم كلها متى طغت هلكت فلا فرق بين الأمم التى بعد نوح وهم كثيرون وبين الأمم الآتين من دول الاسلام والشرق والغرب .

(٦) هذا قانون عام فمن قصر نظره على الأمور الوقتية نالها وحرم غيرها ومن اتسعت بصيرته فأدرك الحقائق وعمل للمستقبل فازبه . هذا هو القسم العلمى وما تفرع منه .

وأما القسم العملى فهو ٢٥ نصيحة سيأتى ذكرها . فهذه هى الطرق التى سنها الله فى القرآن ليحترس علماء الإسلام مما وقع فيه اليهود من ضياع ملكهم وخراب ممالكهم وهذا من معنى قوله تعالى «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »

﴿ القسم العملي ﴾

الفصل الأول منه قوله تعالى (ويدع الانسان بالشر دعاءه الخير) فيدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله وولده كما يدعو لهم بالخير (وكان الإنسان عجولا) يتسرع إلى طلب مايقع فى قلبه ولا يتأنى ومن هذا ما حصل من النضر بن الحارث قال « اللهم ان كان هذا هو الحق الخ » فاذا كانت هذه حال الإنسان فليس ينبغى أن نتركه وشأنه بل نرسل له الأنبياء ونعلمه ولا ندعه يسرع الى أهوائه فاذا كره البنات مثلا جبرناه على تربيتهن وإلا فسد ملكنا وأمرناه بطريق الدين وبالشفقة المحرقة للأفئدة أن يحافظ عليهن فهذا من التسرع بلا فكر ولا روية . وإذا تعم وشره وظلم سلطنا عليه من يهلكه لئلا يفسد فى الأرض كما حصل لبنى إسرائيل .

(الفصل الثانى)

فلنطلعكم على نظامنا وحسابنا؛ فعلم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة ومافوق ذلك من علم الفلك نلهمكم بقراءتها أبواب الخيرات والحكمة كما يقوله الحكماء (وجعلنا الليل والنهار آيتين) تدلان على قدرتنا وعلمنا وعلى نسقنا العجيب (فمحونا آية الليل) أى الآية التى هى الليل أى جعلناه ممحوّ الضوء مطموسا مظلما لايستبان فيه شئ (وجعلنا آية النهار مبصرة) مضيئة تبصر فيها الأشياء رؤية بينة (لتبتغوا فضلا من ربكم) تطلبوا فى بياض النهار أسباب معاشكم (ولتعلموا) باختلافهما وبحركاتهما (عدد السنين والحساب) أى وجنس الحساب . فكما كان الليل لنومكم والنهار لمعاشكم كان تعاقبهما لتعليمكم السنين والحساب . فالأول بالضوء والظلمة ، والثانى بالحساب المبنى على الحركات، فالضوء نعمة والظلمة نعمة والحركات الفلكية نعمة فنعمة الضوء للأمور المحسوسات ونعمة الحركة تعم العقليات والحسيات، فنحن ما فرطنا فيما ينفعكم (وكل شئ) تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) فيما أبدعناه من النظام وما خلقناه من الأجرام العظام وحركاتها وإبداعها ومن ذلك التفصيل التام مافصلنا فى النفس الانسانية فانما هى صورة لما فصلناه فى السموات والارض بل هى على طبقها.

(الفصل الثالث)

قال تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره) عمله (فى عنقه) أى إن عمله لازم له لزوم القلادة أو الغل للعنق كما تقول جعلت هذا فى عنقك أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به وإنما عبر بالطائر على عادة العرب أنهم كانوا يتشاءمون ويتيمنون ببروح الطائر وسنوحه فاستعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى فكل امرئ قد ثبت فى نفسه كأنه مكتوب فيها ماعمل من خير أو شرّ فأصبح كأنه مطبوع فيها لايفارقها ثم يكشف الغشاء عن الانسان فيقرأ ماعمله ويجده حاضرا فى نفسه فيسره أو يسوؤه «ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » لأنهم هكذا شأنهم وطباعهم واستعدادهم فأصبحوا على مقتضاه فحزنوا أو فرحوا ثم قال (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) أى حال كونه غير مطوى عنه كما كان فى الدنيا ونقول له (اقرأ كتابك) أى كتاب أعمالك فيقرؤه (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) الباء زائدة أى كفى نفسك وحسيبا تميز وعليك متعلق به أى حاسبا عليك من قولك حسب عليه كذا . وإذا كان المرء يرى أعماله مسطورة مكشوفة يطالعها فالأمر إذن واضح (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) فلها ثواب الاهتداء وعليها وبال الضلال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ولا تحمل نفس حاملة وزرها وزر نفس أخرى بل إنما تحمل وزرها لأنه هو المسطور فيها والذى تطالعه والذنوب على مقدار العلم والمعرفة والقدرة فمن قصر

من علم منهم كما هي الحال في الدنيا . إن المرء ملزم بعمل ما يطيق وما يعلم، فلا يجب على الباعة والتجار تعليم الجبر ولا نظام الدولة بل كل ملزم بما علم واستعد له والأمم في الجاهلية لا شيء عليهم إذ لا علم لهم (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) يبين الحجج ويمهد الشرائع . ولا جرم أن النفس الانسانية التي سطرفيها أعمالها كما كتب في سجل الأفلاك حسابها ونهجت منهجها فيه على قاعدة « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » حكم الواحد منها حكم جميعها . فما الأمم إلا أفراد مجتمعة ولها طباع وأحوال وقد كتب في سجلها ما كتب في سجل الأفراد من ذنوب وطاعات وكما يعذب الأشخاص يوم القيامة وفي الدنيا . هكذا تعذب الأمم متى طغت في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بجهنم، وطغيان الأمم باتباع الشهوات والظلم والجور الذي ينجم عن التمتع والتنعم وهذا قوله في : (الفصل الرابع والخامس)

(وإذا أردنا أن نهلك قرية) أي وإذا تعلقت إرادتنا باهلاك قوم لإنفاذ قضائنا السابق عليهم (أمرنا مترفيها) أي أكثرنا المتنعمين فيها . يقال أمرت الشيء، وآمرته فأمر كفرح إذا أكثرته وذلك بأن نصب عليهم النعم فيبطرهم ونفضي بهم إلى الفسق كما حصل لبني إسرائيل فيما تقدم فلتحذر أمة الاسلام ذلك وهذا قوله تعالى (ففسقوا فيها) أي خرجوا عن طاعة أوامرنا (فحق عليها القول) أي فوجب لها الوعيد كما جرى لبني إسرائيل إذا سلطت عليهم بختنصر أولا، ودولة الروم ثانيا فأخذوا إلى أصبهان وماوالاها من البلدان أولا وشتتوا في بلاد الروم وأخرجوا من ديارهم ثانيا (فدمرناها تدميرا) فاهلكناها إهلاكا وليس ذلك خاصا ببني إسرائيل المذكورين بل هذا قانون عام يعم الأمم السابقة واللاحقة وهذا قوله تعالى (وكم أهلكنا من القرون) بيان لكم (من بعد نوح) كعاد وثمود وغيرهما وهذا الاهلاك بالسبب المتقدم وهو التنعم والترف فيكون الجبن من جهة والظلم من جهة أخرى ليسدوا جشعهم (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) وإن أخفوها في صدورهم فاذا نسوها فلم ننسها نحن « أحصاه الله ونسوه » فلذلك نعاقب في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بجهنم وذلك كله بحب الانسان العاجلة وقصر نظره . فهذا هو الدرس الذي ألقاه الله لنا ليبين العجلة التي تحمل الانسان على مطامع وقتية فيما تقدم إذ يدعو الانسان بالشر كما يدعو بالخير ومثل ذلك طلبه العاجلة بالتنعم فهو كما يطلب الشر بالدعاء، فكلاهما تسرع وطلب للشيء قبل وقته وليس التنعم محط الآمال في الدنيا بل الدنيا محط التعليم والتهذيب . فاذا تعجل الناس واغتروا بما لديهم أهلكهم وأضاع دولهم وهذا هو (الفصل السادس) الآتي، وقبل أن نبدأ فيه نختم هذا الفصل بما شاع من العثور على حضارة قديمة جدا يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٦ وهو ما يأتي .

(اكتشاف حضارة غابرة في أمريكا الوسطى)

عاد إلى انجلترا حديثا من غابات أمريكا الوسطى ومفاوزها كل من المستر (متشل هدجس) و (اللايدي رتشمند براون) المستكشفان بعد أن قضيا عاما هناك في البحث عن بقايا حضارة غابرة وقد لاقيا كثيرا من الصعاب وكشفا النقاب عن كثير من الأسرار . ولقد بدأت البعثة عملها بأن تلاشت في الفضاء الواسع المجهول بغية العثور على خرائب مدينة (مايا) القديمة في لوبانتان من هندراس البريطانية .

ولقد مرت على البعثة المستكشفة أوقات أيقنوا فيها بفقدان الأمل ولكن عزم المستر (هدجس) وزميلته (لايدي براون) كان باعثا على الاستمرار وعدم اليأس . ولقد كانت تخوض بهم خيولهم المستنقعات حتى رقابها خلال الغابات والأدغال .

واجتاز

واجتاز المستر (هدجس) وجماعته النهر يصحبهم المرشدون من الهنود وأخذوا طريقهم خلال الأدغال طويلا حتى ظهر لهم فجأة هرم عظيم يبلغ ارتفاعه ثلثمائة قدم . وهنا تأكدوا أنهم عثروا على شيء في غاية القدم كما أنه في منتهى الجدة للعالم وكان ذلك هو أهرام (مايا) الكبير . ولقد كانت (مايا) هذه تمثل أسمى نوع من أنواع الحضارات في القارة الأمريكية . وفي اليوم التالي ظهر من الاكتشاف والبحث أنه كان هناك ما لايقل عن ستة أهرامات على ساحة كبرى حجرية مساحتها ربع ميل مربع . وفي اليوم الثالث اكتشف أهراما يبلغ ارتفاعه مائة وثمانيا وثلاثين قدما وعرضه ست وثلاثون قدما . ولما جردت الأدغال وجدت سلالم حجرية هائلة متدرجة يبلغ وزن الدرج الأسفل منها مايقرب من طنين . ويقول المستر هدجس إنه على ثقة من أنه في وسط وشمال وجنوب أمريكا يوجد مفتاح لأسرار غامضة لو أنها فتحت للعالم جليا لسببت حيرة عامة في الأفكار العلمية لنظريات النشوء والارتقاء . انتهى

ولنشرع في (الفصل السادس) وهو إتمام لتبيان ما تقدّم من أن الانسان عجول فقال تعالى (من كان يريد العاجلة) مقصورا همه عليها (عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) بدل من له بإعادة الجار بدل البعض من الكل فالذين قصرت همهم على العاجلة نعطى بعضهم بعض مايطلبون وآخرون نحرمهم مما يطلبون جميعه (ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا) مطرودا من رحمة الله (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) أي عمل لها عملها وحقها من السعى لكفاها من الأعمال الصالحة (وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله . فالقسم الأوّل إتمام لإيضاح ــ وكان الانسان عجولا ــ والقسم الثاني من هذه الآيات في مقابله وهم المؤمنون (كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) أي كل واحد من الفريقين وهؤلاء بدل من كل والعطاء الرزق ومن متعلق بنمد فلا نبخل على مطيع ولا عاص بل نزيدهم جميعا من عطائنا ونجعل اللاحق منه مددا للسابق (وما كان عطاء ربك محظورا) ممنوعا عن عباده إن عصوا . ولا ضير في ذلك فالانسان العاصي أو الكافر لم يخرج عن حظيرة النعمة الحيوانية فليكن حيوانا كتلك التي ترتع في البوادي، وإذا متعنا الحيوان وأكثرناه في الأرض وانضم فريق من الانسان إليه وصار في عداده فهل نبخل عليه؟. كلا. وهل عطاؤنا محظورا (أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) في الرزق والعمل ، كيف منصوب بفضلنا على الحال فتشاهد أنهم درجات شتى (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) أي أن التفاوت في الآخرة أكبر مما تراه في الأخلاق والأرزاق والأعمال . انتهى القسم العملي

(القسم الثاني العلمي)

لما فرغ من الكلام على القسم العملي من نظر في السموات والحساب والسنين وأن كل شيء مفصل تفصيلا وأن كل إنسان قد سطرت في صحيفة عقله أعماله فهو يقرؤها متى قامت قيامته بموته وبالقيامة الكبرى وانحلال بدنه ، وهكذا الأمم كالأفراد يطبع على أفرادها طبائع الكسل والشره والظلم والترف فيهلكها وذلك لقصر نظرهم واتباعهم أمر العاجلة والحياة الفانية فألق نظرك لمن حولك من الناس تجدهم درجات كثيرة والآخرة أوسع نطاقا وأكثر مراتب . فلما فرغ من هذا شرع يبين القسم العلمي وهو ٢٥ نوعا وقليل فيه عملي كالنوع الأول وهذه الأنواع هي:

(١) عدم الشرك اعتقادا (٢) وعبادة الله (٣) النهي عن عبادة غيره (٤) الاحسان للوالدين وجوبا (٥) وهذا الاحسان يوجب أن لايقول لهما أفّ (٦) ولا ينهرهما (٧) وأن يقول لهما قولا كريما (٨) وأن يخفض لهما جناح الذل تواضعا (٩) وأن يدعو لهما بالرحمة (١٠) وأن يؤتي ذا القربى حقه (١١) والمسكين (١٠) وابن السبيل (١٣) وأن لايبذر (١٤) وأن يقول لمن لم يجد مالا يعطيه قولا ميسورا (١٥) وأن

لايجعل اليد مغلولة إلى العنق فيقبضها ، وأن لايبسطها كل البسط . وقد جعل هذا داخلا فى الخامس عشر والأولى أن يجعل قسما مستقلا ويكون هو الخامس عشر ويكون الثانى والثالث واحدا وهو أن لا تعبدوا إلا إياه فقد جعل ذلك اثنين (١٦) ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق (١٧) ولا تقتلوا النفس (١٨) ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا (١٩) فلا يسرف فى القتل (٢٠) وأوفوا بالعهد (٢١) وأوفوا الكيل (٢٢) وزنوا بالقسطاس المستقيم (٢٣) ولا تقف ماليس لك به علم (٢٤) ولا تمش فى الأرض مرحا (٢٥) لا تجعل مع الله إلها آخر . ولنرجع إلى بقية التفسير اللفظى فنقول :

قال تعالى (لاتجعل مع الله إلها آخر) أيها الانسان (فتقعد) فتصير (مذموما مخذولا) يذمك الملائكة والمؤمنون ويخذلك الله تعالى (وقضى ربك) أمر أمرا مقطوعا به بأن لاتعبدوا (إلا إياه و) بأن تحسنوا (بالوالدين إحسانا) أى برّاً بهما وعطفا عليهما ، ولفظ الاحسان قد يوصل بحرف الباء تارة وبحرف إلى تارة أخرى وكذا الاساءة تقول أحسنت به وإليه وأسأت به وإليه قال تعالى « وقد أحسن بى » وقال الشاعر

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة   لدينا ولا مقلية إن تقلت

وقال تعالى (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) أى إن يبلغن وما زائدة للتأكيد (فلا تقل لهما أف) أى فلا تضجر مما يستقذر منهما ولا تستثقل من مؤنتهما ، وأف اسم فعل الضجر وهو مثل الآخر منونا وغير منون على اختلاف القراءات فيه ست قراءات (ولاتنهرهما) تزجرهما عما يتعاطيانه مما لايعجبك ونهره وانتهره بمعنى (وقل لهما قولا كريما) حسنا جميلا كما يقتضيه حسن الأدب معهما (واخفض لهما جناح الذل) تذلل لهما وتواضع وقد جعل للذل جناحا وأراد جناحه هو أى اخفض جناحك كقوله تعالى « واخفض جناحك للمؤمنين » وأضيف إلى الذل للمبالغة كما أضيف حاتم الى الجود أى واخفض لهما جناحك الذليل (من الرحمة) من فرط رحمتك وشفقتك (وقل رب ارحمهما) وادع الله لهما أن يرحمهما رحمته الباقية فإن رحمتك الفانية لاتكفيهما (كما ربيانى صغيرا) أى رحمة مثل رحمتهما لى وتربيتهما وإرشادهما حين كنت صغيرا . روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أبوىّ بلغا من الكبر وإنى ألى منهما ماوليانى فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لافإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما » (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) من بر الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير وعدم عقوتهما (إن تكونوا صالحين) مطيعين قاصدين البرّ بعد تقصير كان منكم أو بعد ما فرط منكم فى حال غضب فاستغفرتم من ذلك فإن الله يغفر لكم (فإنه كان للأوابين) التوّابين (غفورا) . قال سعيد بن جبير هو لرجل تكون منه البادرة الى أبويه لايريد بذلك إلا الخير فإنه لايؤاخذ بها (وآت ذا القربى حقه) من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبرّ بهم (والمسكين وابن السبيل ولاتبذّر تبذيرا) ولاتسرف إسرافا وذلك بصرف المال فيما لاينبغى . وأصل التبذير التفريق (إنّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين) أمثالهم فى الشرّ وذلك غاية المذمة أو يقال إنهم من حيث إنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف (وكان الشيطان لربه كفورا) شديد الكفر فكيف يطيعونه (وإما تعرضنّ عنهم) أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل وأنت تستحى أن تردّ عليهم (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) لانتظار فرج من الله ترجوه أن يأتيك (فقل لهم قولا ميسورا) أى قل لهم قولا لينا جميلا ، أى عدهم وعدا طيبا تطيب به قلوبهم (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط) هذا أمر بالتوسط الذى هو الكرم فلا يكون الانسان شحيحا ولا مسرفا وخير الأمور الوسط (فتقعد ملوما) على الشح بجعل يدك مغلولة الى عنقك (محسورا) منقطعا بك لاشىء عندك من حسره السفر إذا بلغ منه فالأوّل البخل والثانى التبذير . ذكر المفسرون عن جابر رضى الله عنه قال و بينا رسول الله

صلى

صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبي فقال أمي تستكسيك درعا فقال صلى الله عليه وسلم من ساعة الى ساعة يظهر فعد الينا فذهب إلى أمه فقالت قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذى عليك فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه للصبي وقعد بلا لباس وأذن بلال وانتظروه للصلاة فلم يخرج فأنزل الله ذلك » ثم تلاه بقوله (إنّ ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يقتر ويضيق لمصلحة العباد فليس الارهاق بالاضافة لشيء سوى مصالح العباد (إنه كان بعباده خبيرا) بمصالحهم (بصيرا) بحوائجهم فيقضيها (ولاتقتلوا أولادكم) أى لاتئدوا بناتكم (خشية إملاق) خيفة فقر (نحن نرزقهم وإياكم) نهى عن القتل وضمن الرزق (إنّ قتلهم كان خطئا كبيرا) أى إثما عظيما . الخطء والخطأ كالحذر والحذر (ولاتقربوا الزنا) بالعزم والإتيان بالمقدّمات فضلا عن فعله (إنه كان فاحشة) فعلة ظاهرة القبح (وساء سبيلا) وبئس طريقا طريقه فيه قطع الأنساب وتهييج الفتنة (ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحقّ) وذلك فى ثلاث كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمدا (ومن قتل مظلوما) أى لم يستوجب القتل (فقد جعلنا لوليه) للذى يلى أمره بعد وفاته وهو الوارث (سلطانا) تسلطا فان شاء أخذ الدية وإن شاء استقاد منه وإذا اختار القود (فلا يسرف فى القتل) بأن يقتل غير القاتل من أشراف قومه أو يقتل جماعة منهم أو يمثل بالقاتل كما كان ذلك فى الجاهلية (إنه كان منصورا) والضمير للولى فان الله نصره حيث أوجب القصاص له وأمر الولاة بمعونته (ولا تقربوا مال اليتيم) وإذا كان قربه منهيا عنه فكيف يكون التصرّف فيه (إلا بالتى هى أحسن) أى إلا بالطريقة التى هى أحسن وهى حفظه والقيام عليه وتنميته (وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولا) مطلوبا فعلى المعاهد ألا يضيعه ويفى به (وأوفوا الكيل إذا كلتم) ولا تبخسوه (وزنوا بالقسطاس المستقيم) أى بالميزان السوىّ والقسطاس القبان وهو عربى من القسط (ذلك خير وأحسن تأويلا) أى أحسن عاقبة ، من آل إذا رجع وهومايئول إليه أمره (ولاتقف ماليس لك به علم) أى ولاتتبع ذلك فلاتقل رأيت ولم تر ولاسمعت ولم تسمع ولا علمت ولم تعلم ولاتقل فى أحد ماليس لك به علم ولا تتبعه ولاتتكلم فيه بالحدس والظنّ (إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) أى كان كل واحد منها مسئولا عن نفسه فيقال له مافعل بك صاحبك كما فى آية « وإذا الموؤدة سئلت * بأىّ ذنب قتلت » فتشهد على القاتل وهذه الأعضاء تشهد على صاحبها « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » (ولا تمش فى الأرض مرحا) أى ذا مرح أى ذا بطر وكبر وخيلاء (إنك لن تخرق الأرض) أى لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها (ولن تبلغ الجبال طولا) أى لاتقدر أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك ، فمن أنت أيها المتكبر المختال البطر ؟

أطرق كرا « إنّ النعام فى القرى. عن علىّ رضى الله عنه قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب » . ومعنى التكفؤ التمايل فى المشى الى قدّام ، ومعنى ينحط من صبب أى ينحدر من موضع عال وهو قريب من التكفؤ ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوى له إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث» والاكتراث الأمر الذى يشق على الانسان (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) أى الاشارة إلى الخصال الخمس والعشرين المتقدّمة وسيئها مانهى عنه فيها . أما المأمورات فليست بسيئة (ذلك) الاشارة للأحكام المتقدّمة (مما أوحى إليك ربك من الحكمة) وهى معرفة الحق والخير فالأوّل لذاته والثانى للعمل له أى الحكمة العلمية والحكمة العملية وأكثرها من النوع الثانى ثم قال تعالى (ولاتجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) لأنما نفسك مبعدا من رحمة الله وقدبدأ بالتوحيد وختم به للمبالغة فى الحثّ عليه إذلاتتمّ تلك الصفات إلا به . ثم خاطب من قالوا

للملائكة بنات الله قال (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا) بناتا لنفسه (إنكم لتقولون قولا عظيما) إذ تضيفون الأولاد إليه . إن المقاصد السابقة عظيمة الوقع بديعة النظم تربو على مافى التوراة من الوصايا العشر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآيات وهى الوصايا الخمسة والعشرون مكتوبة فى ألواح موسى عليه السلام وهذا حق . ولكن هذه تعلو عليها لأن أهم مافى الألواح الوصايا العشر وهى (لاتسرق لاتزن الخ) وهذه أفضل منها وقد جاء قبلها بآيات « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين » فلما أتم القسم العلمى والقسم العملى قال (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا) عسى ألا يكونوا كبنى إسرائيل إذ جاء لهم موسى بالتوراة فعتوا فأبيدت دولتهم فالتكرار هنا لهذه الفائدة ليشدد على الناس أن لايتهاونوا قال تعالى ومع ذلك يزدادون نفورا (وما يزيدهم إلا نفورا) عن الحق (قل لوكان معه آلهة كما يقولون) أو تقولون أيها المشركون (إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) أى لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة كما تفعل الملوك بعضهم مع بعض ، وإذن تدل على أن مابعدها جواب للو قبلها (سبحانه) ينزه تنزيها (وتعالى عما يقولون علوا) تعاليا (كبيرا) تباعدا غاية البعد وهذا رجوع لأول السورة فهناك تنزيه له عن أن يكون كالحوادث كما سأوضحه ، وهنا يقول «سبحانه وتعالى عما يقولون» فانه فى أعلى المراتب وكيف يكون له شركاء وقد نزهه عن ذلك السموات والأرض ومن فيهن . فكل هذه ناطقات بلسان الحال أنه لا إله إلا هو (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) أنزل العوالم منزلة العقلاء أو تغليبا وعلى الأول يكون ذلك لأن دلالتها مفهمة كما يفهم عن العقلاء يقول أنتم أيها الكفار لاتفقهون تسبيح هذه المخلوقات أى لقصر عقولكم واختلال آرائكم ولكنه لايعجل عليكم بالعقوبة (إنه كان حليما) إذ لم يعاجلكم بالعقوبة على الغفلة التى أوجبت إشراككم (غفورا) لمن تاب منكم . فهؤلاء حجبت عقولهم عن فهم مافى السموات والأرض وتسبيحهما كما حجبت عقولهم عن فهم القرآن حين تتلوه عليهم (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا) عن فهم ماتقرؤه (مستورا) بحجاب آخر فهم لايفهمون ولا يفهمون أنهم لايفهمون (وجعلنا على قلوبهم أكنة) كراهة (أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) ثقلا يمنع من الاستماع وإذن لا يعقلون اللفظ كما لم يفهموا المعنى . ثم بين ماهو كالسبب فى ذلك فقال (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده) أى حال كونه واحدا غير مشفوع به آلهتهم (ولوا على أدبارهم نفورا) حال كونهم نافرين جمع نافر كقعود جمع قاعد أو هربا من الاستماع (نحن أعلم بما يستمعون به) أى بسببه ولأجله من الهزء بك وبالقرآن (إذ يستمعون إليك) ظرف لأعلم (وإذهم نجوى) ظرف آخر له أى ذوو نجوى فبعضهم يقول مجنون وبعضهم يقول كاهن وبعضهم يقول ساحر ، اذكر (إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) سحر فجن (انظر كيف ضربوا لك الأمثال) مثلوك بالشاعر وبالساحر وبالمجنون (فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) فضلوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب طريقا يسلكه فى التيه فلا يقدر عليه فهو متحير (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) أجزاء مفتتة (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) وكيف تقترب حال الحى الغض من حال الرميم اليابس .

انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول من السورة . وفى هذا المقام لطائف :

(اللطيفة الأولى) فى قوله تعالى « سبحان الذى أسرى الخ » ومناسبة هذه السورة لما قبلها .

(اللطيفة الثانية) « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل » وفيها بيان دعوة موسى لقومه فى التوراة ونتائجها ودعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المذكورة فى آخر النحل وكيف يجب أن تكون .

(اللطيفة الثالثة) « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب الخ » .

(اللطيفة الرابعة) « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »
(اللطيفة الخامسة) « ويدعو الانسان بالشر ـ الخ »
(اللطيفة السادسة) « وجعلنا الليل والنهار آيتين » إلى قوله « وكل شىء فصلناه تفصيلا »
(اللطيفة السابعة) « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » إلى قوله « حسيبا »
(اللطيفة الثامنة) « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وكيف جاء بعدها « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها » إلى قوله « بصيرا » وما القصد بهذا التعقيب .
(اللطيفة التاسعة) « من كان يريد العاجلة » إلى قوله « تفصيلا » .
(اللطيفة العاشرة) « إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما » الخ .
(اللطيفة الحادية عشرة) « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .
(اللطيفة الثانية عشرة) « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » الخ .

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ سبحان الذى أسرى الخ)

اعلم أن هذه السورة متصلة بما قبلها جارية على نسقها منتظمة معها فى سلك ، فانه أفاض فى سورة الحجر وفى سورة النحل فى شرح النظام العام فى هـذا العالم فانتظمه أولا من مبدأ الخليقة سائرا إلى نهايتها ومن أبسط المخلوقات إلى أرقى الموجودات وذلك فى سورة الحجر ، ثم كرّ راجعا إلى نفس السلسلة فابتدأها من أعلاها إلى أدناها وأخذ ثالثا يذكرها بطريق وسط بحيث كان الانسان الذى جاء فى أولها تارة وفى آخرها أخرى قد جاء وسطا فى نظامها كما قدمنا ليكون حاكما على هـذه العجائب عالما متوسطا مطلعا على طرفيها ووسطها .

ولما فرغ من ذلك شرع يلقى الحكم والنصائح والعدل الذى شرحناه ونظام الأمم الذى بيناه وسنّ القانون وأعلم الجماهير أن العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وغيرها هى الموجبات للحياة والسعادة . ثم أتم السورة السابقة بذكر إبراهيم وماله من الخلال الشريفة والخصال الحميدة . وقد قلنا إنه اتصف بأربعين صفة قدمناها فى سورة البقرة نقلا عن المفسرين ، فهو للفلك ناظر وللطبيعة دارس وللفضل غارس وللعلم حارس ولله عابد وللناس هاد ومرشد وهو على صراط مستقيم وهو أمة واحدة ، أتبعه بذكر نبينا محمد ﷺ وأنه على قدمه فيكون أيضا جامعا للصفات الحميدة . وختم السورة بهيئة الدعوة التى يقوم بها حتى يكون على قدم إبراهيم عليه السلام ويكون ذخرا للآخرين فأمره أن يسلك سبيل الحكمة مع الخواصّ والموعظة مع العوام والمجادلة مع المعاندين وكل ذلك تجلى فى سورة النحل وانتهت السورة بقوله ـ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ـ وإذا لم يكن الأنبياء محسنين فمن هم المحسنون ؟ فإذن هو ﷺ أول المحسنين فهو مع الله والله معه فوجب أن تكون السورة بعدها مبتدئة بما يفيد معنى المعية وهل هى جسمية أم هى معنوية فلذلك قال « سبحان الذى أسرى بعبده »

يقول الله تعالى إن إبراهيم ومحمدا عليهما الصلاة والسلام قد عرجا إلى سماء الجمال ومقام الكمال وبلغا مبلغا لم يبلغه أعاظم الرجال فليس ذلك مفيدا أنهما هما وسائر الأنبياء مع الله معية حقيقية فان الله منزّه عن المخلوق متعال عن المحدثين فان الله تعالى وإن أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فليس معناه المعية المعهودة بينكم . فقرب الأنبياء وقرب الأولياء قرب الهداية والارشاد والارتقاء العلمى ـ لنريه من آياتنا ـ ويطلع على عجائبنا ويقف على ما حواه العالم العلوى والسفلى مما يرفع الغشاوة عن أعين أمته ويخرجها من ظلمتها وينير بصيرتها . فانظر رواية البخارى فى ذلك . وهى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ليلة أسري به من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام وذكر كلاما فى ذلك ثم أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل . وهنا ذكر كيف شق ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه . وذكر أن الطست من ذهب فيه إناء من ذهب محشوّ إيمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعنى عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا وهنا ذكر سؤال أهل السماء عنه وقول جبريل معى محمد فيقولون وقد بعث إليه فيقول نعم فيقولون مرحبا وأهلا به، وذكر مقابلته فى السماء الدنيا لآدم وأن هناك نهرين وأن جبريل قال هما النيل والفرات عنصرهما ثم رأى نهرا آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب يده فاذا هو مسك فلما سأل جبريل قال هذا الكوثر الذى خبأه لك ربك وهكذا وأن هناك فى السماء الدنيا عن يمين آدم أسودة وعن شماله أسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى وقال له جبريل إنّ الأسودة عن اليمين وعن الشمال نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة وأهل الشمال أهل النار . ووجد فى السماء الثانية يحى وعيسى وهما ابنا الخالة فسلم عليهما وردّا عليه ورحبا به . ووجد فى السماء الثالثة يوسف . وفى السماء الرابعة إدريس . وفى الخامسة هارون . وفى السماء السادسة موسى وقد بكى فسأله صلى الله عليه وسلم فقال أبكى لأن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى . وفى السماء السابعة وجد إبراهيم ثم رفع إلى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر وإذا أوراقها مثل آذان الفيلة . قال جبريل هذه سدرة المنتهى فاذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران وأخبره جبريل أن الظاهرين النيل والفرات وأن الباطنين نهران فى الجنة ثم رفع إلى البيت المعمور وأتى له بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك وهنا ذكر مسألة الصلاة وفرضها وأنها كانت خمسين صلاة ثم راجع ربه بإشارة موسى عليه السلام حتى صارت خمسا فى اليوم والليلة . وقد جاء فى رواية مسلم فى وصف البيت المعمور أنه يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه . وفى وصف سدرة المنتهى أنها لما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها . وسميت سدرة المنتهى بهذا الاسم لأن علم الملائكة ينتهى إليها .

وقد جاء فى روايات أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال ومثل لى النبيون عليهم الصلاة والسلام فصليت بهم ثم خرج إلى المسجد الحرام وأخبر به قريشا فتعجبوا منه وارتدّ ناس ممن آمن به وسعى رجال إلى أبى بكر فقال إن كان قال لقد صدق فقالوا أتصدّقه على ذلك قال إنى لأصدّقه على أبعد من ذلك فسمى الصديق، وكان فى القوم من أتى المسجد الأقصى قالوا هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد فنعته لهم وكان ينظر إليه كأنه وضع دون دار عقيل قال القوم أما النعت فو الله لقد أصاب فيه ثم سألوه عن عيرهم فقال مررت بعير بنى فلان وهى بالروحاء وقد أضلوا بعيرا وهم فى طلبه وفى رحالهم قدح ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته كما كان فسلوا هل وجدوا الماء فى القدح حين رجعوا . ثم قال ومررت بعير بنى فلان وفلان وفلان راكبان قعودا لهما بذى مر فنفر بعيرهما منى فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما فسألوه عن عيرهم فوصفها وصفا تاما ووصف أحمالها وقال يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس ثم خرجوا عند الثنية حتى أتوا كداء فرأوا العير عند طلوع الشمس يقدمها بعير أورق فقالوا هذا سحر . ولما ذكر الأنبياء فى الصلاة ذكر أن موسى كأنه من رجال شنوءة وأن عيسى كعروة بن مسعود الثقفى وإبراهيم يشبه النبي ﷺ ثم قال إنه رأى مالكا خازن النار وكانت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم مع الأنبياء فى بيت المقدس وقد جاء أيضا أن البراق دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض وهو يضع خطوه عند أقصى طرفه وهو الذى

انطلق به إلى السماء » وهل كان ذلك كله قبل الهجرة بسنة . وهل كان فى المنام أو كان فى اليقظة . بروحه أو بجسده ؟ . والأكثر على أنه أسرى به بجسده إلى البيت المقدس ثم عرج به إلى السموات حتى انتهى إلى سدرة المنتهى . ولم يرد فى هذه السورة عروجه إلى السماء وإنما ذكر الاسراء فقط إلى المسجد الأقصى . أما العروج فلم يذكر إلا فى الحديث . وأقرب الأمرين إلى الناس الإسراء إلى المسجد الأقصى ولذلك امتحنوه بعلامات تدل على الصدق فلذلك صرح بها فى القرآن وجعلت قبل عروجه إلى السماء ليكون المحسوس دليلا على ما لا يحس وإذا صدق فى الأولى فليصدق فى الآخرة . ها أنا ذا أيها الذكى قد لخصت لك ماجاء فى الروايات المختلفة وآراء العلماء المتناقضة حتى تكون أمامك واضحة جلية بأخصر عبارة .

(إيضاح المقام)

إن هذه الأمور الغائبة عنا لاتحل بالفكر الانسانى وحده فان عقولنا قاصرة على ماحولنا فأنى لنا أن ندرك تلك العجائب النبوية ولكن ورد قوله تعالى فى التنزيل « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وها نحن أولاء الآن نرى علماء الأرواح يقولون مايأتى :

إن هذه الأجسام البشرية فى الدنيا تنظمها أرواحها وكل جسم يربى فيه جسم آخر على مثاله نورانى أثيرى أى من مادة أثيرية وهذا الجسم الأثيرى البرزخى منطبق تمام الانطباق على هذا الجسم المادى وأن الانسان إذا تجرد من هذا الجسم سواء كان التجرد بالموت أم بالرياضة أم بأعمال أخر صناعية عندهم يرى أنه فى جسمه كأنه هو وكأنه لم يكن هناك فرق بين الجسمين . وقد ألفوا كتبا كثيرة فى هذا حتى قالوا إن بعض الناس بعد الموت يظن أنه هو الذى كان حيا ولا يعرف أنه مات لأحوال خاصة ثم ينبه بعد ذلك إلى خطئه .

وهذه حكاية (أوليفر لودج) وابنه الذى مات فى الحرب الألمانية وهو المسمى (ريموند) إذ قال لأبيه يا أبت إن أجسامنا هنا كالأجسام عندكم والأعضاء كلها تامة ولكنها أجسام من عالم لطيف ونراها بحسب مشاهدتنا كالأجسام عندكم . إذا عرفت هذا فسواء أكان الاسراء بالجسم المادى أو بذلك الجسم الأثيرى اللطيف فليس أمرا بعيدا وكلاهما فى القدرة . فأما الجسم المادى فان حركات الأفلاك أظهرت عجبا فى سرعة سيرها تعرفها فى سابق التفسير والمطلع على سير الضوء يرى عجبا عجابا . هكذا إذا قلنا إن المعراج والاسراء بالجسد البرزخى فلا بدع فى ذلك فيسير فى أقل من لمح البصر كلمع البرق إلى أقصى العالم ويرجع وقد وعى مالايتناهى من الحوادث وهذا عالم البرزخ المسمى عند علمائنا (عالم المثال) وهكذا عند أفلاطون فهذا العالم هو الذى تمثلت فيه الأنبياء فصلا وصلوا معه ثم رآهم على مراتبهم فى السماء . وإذا كان الانسان قد يرى فى المنام الذى لاقيمة له أعمالا تستغرق سنين فى ثانية واحدة فما بالك بعالم البرزخ الذى تتجلى فيه صورة الحقائق بارزة لمن هم فى حال برزخية . وهناك تجلى له آدم وعيسى وإدريس وهارون وموسى وإبراهيم وكان أقرب الناس شبها به . أولست ترى أن فى ذكر إبراهيم وشبهه به مناسبة فانه قد ذكر فى آخر سورة النحل أن محمدا صلى الله عليه وسلم أمر أن يتبع ملة إبراهيم فلذلك رآه فى السماء السابعة وقال إنه يشبهه . ومتى قلنا إن الاسراء والمعراج بهذه الحالة البرزخية كانت جميع الأقوال المتناقضة متحدة . فاذا قالت السيدة عائشة إنه كان بروحه قلنا صدقت لأن هذه الحالة ليست جسمية محضة . وإذا قال غيرها إنه بجسمه قلنا نعم ، إذ لا فرق عند علماء الأرواح بين الجسم البرزخى والجسم المادى . فالجسم البرزخى ويسمى الأثيرى وسط بين عالم الأرواح الصرف وبين عالم المادة ؛ فمن قال بالروح فقد اقترب من الحقيقة ، ومن قال بالجسم فقد اقترب منها لأنها حال متوسطة وسرعتها أشبه بسرعة المنام وصورتها أشبه بصورة الجسد فهو جسد كالمادة يطير أسرع من البرق بل سرعته كسرعة الخاطر ونرى أحدنا يجلس فى حجرته ويكون فى الشرق بفكره ثم يكون فى الغرب فى أسرع

من لمح البصر فهذه فى فكرنا كالحال المشاهدة هناك تمثيلا . ويقول علماء الأرواح إن الروح وراء ذلك الجسم البرزخى بل قد جعلوا درجات الأجسام سبعة والروح وراء ذلك فى عالم يجل عن الوصف « وإن إلى ربك المنتهى » وإنما ذكرت هذا لأفتح باب البحث لذوى النفوس الشريفة من بعدنا ليفكروا وليعملوا بأنفسهم :

ما القصد من ذكر الاسراء لنا ؟

وليعلموا أن الله لم ينزل الاسراء فى القرآن وهو يتلى علينا للآن لمجرد التلاوة أو لمعرفة حال الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب . كلا . إنه يريدمنا أن نتبع الدين والشريعة ونخلص وندعو الناس كما دعا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذى قال الله له « عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً » وقد قال هذا فى وسط السورة وأمره أن يتهجد بالليل نافلة لأجل ذلك . ففى أول السورة ذكر أنه أسرى به وفى أواخرها أفاد أنه يبعث مقاما محمودا بالتهجد وذكر أن الروح من أمر ربنا وأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلا . وعليه يكون ذكر ذلك فى هذه السورة ليدلنا على أن الاسراء أمر وراء معارفنا وإذا عثرنا على شىء مثل ما بينته لك عن الفرنجة فان هذا ليس كل شىء لأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلا . ولكن جاء فى سورة طه « وقل رب زدنى علما » فازدياد العلم مطلوب ولكن لانقف عند حد واحد لئلا نكون مقلدين بل نظل مجدّين فى البحث والطلب لأنه قال « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وعليه فلنجدّ فى تهذيب النفوس وهداية الناس والنوافل فى ظلمات الليالى حتى تصفو النفوس ، وإذا أسرى به صلى الله عليه وسلم فليس القصد أن يسرى بنا بل القصد أن تصفو نفوسنا ليرينا الله من آياته . وكم لله من آيات . فالقصد من أمثال هذا الموضوع فى القرآن أن يفتح لنا باب التفكر فى عالم الأرواح فنفهم كيف تخلص أرواحنا بالتهذيب وكيف نلحق بالأفق الأعلى وما حقيقة الأرواح وإذا لم نقف على حقائقها فلنلتمس من العلوم مايشم منه رائحتها وهذا لعمرك هو علم الأرواح الذى انتشر فى الأقطار الأوروبية . وهذا العلم لايفترق عن العلوم التى ورثناها عن قدمائنا فى مثل هذا الموضوع . إن الناس كلهم أرواحهم من عالم أعلى وبالتصفية وبطرق صناعية يرون هذا العالم وهناك تعرف بعض حقائقه « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . ومما يلحق بهذا الموضوع مارواه البخارى فى باب تعبير الرؤيا وهو وإن لم يكن ليلة الاسراء فإنه فيه معارف وعلوم لايعرف قيمتها إلا المطلعون على علوم الحكماء فانه عليه الصلاة والسلام أطلع فى عالم البرزخ المذكور على صور للحقائق تعب فى مثلها الفلاسفة قديما وأضاعوا فيها أعمارهم كلوحة (قابس) الفيلسوف اليونانى الذى ذكرنا مقالته فى سورة البقرة ، فأما النبى صلى الله عليه وسلم فانه لم يكتب ولم يقرأ وأطلع على صور عجيبة تمثل الرذيلة والفضيلة وهذه من دلائل النبوة ومن سر قوله تعالى « لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ، فاذا رأى ليلة المعراج آدم يضحك تارة ويبكى أخرى فانه من ذلك العالم فهكذا فى الحديث الآتى إذ روى البخارى بسنده عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه هل رأى أحد منكم رؤيا قال فيقص عليه ماشاء الله أن يقص وإنه قال لنا ذات غداة إنه أتانى الليلة آتيان وإنهما ابتعثانى وإنهما قالا لى انطلق وإنى انطلقت معهما وإنا أتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل مافعل المرة الأولى قال قلت لهما سبحان الله ماهذان قال قالا لى انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه . وفى رواية « فيشق » ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل مافعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل مافعل المرة الأولى . قال قلت سبحان الله ماهذان قالا انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور

قال

قال فأحسب أنه كان يقول فاذا فيه لغط وأصوات قال فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة وإذاهم يأتيهم لهب من أسفل منهم فاذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا قال قلت لهما ما هؤلاء قال قالا لى انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح مايسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر فاه فيلقمه حجرا فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغرفاه فألقمه حجرا قال قلت لهما ماهذان قال قالا لى انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة كأ كره ما أنت راء رجلا مرآة واذا عنده نار يحشها ويسعى حولها قال قلت لهما ماهذا قال قالا لى انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على روضة (معتمة) فيها من كل نور الربيع وإذا بين ظهرى الروضة رجل طويل لاأكاد أرى رأسه طولا فى السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال قلت لهما ماهذا ماهؤلاء قال قالا انطلق انطلق فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن قال قالا لى ارق فيها قال فارتقينا فيها فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ماأنت راء وشطر كأقبح ماأنت راء قال قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر وإذا نهر معترض يجرى كأن ماءه المحض فى البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة قال قالا لى هذه جنة عدن وهذاك منزلك قال فسما بصرى صعدا فاذا قصر مثل الربابة البيضاء قال قالا لى هذاك منزلك قال قلت لهما بارك الله فيكما ذرانى فأدخله قالا أما الآن فلا وأنت داخله . قال قلت لهما فانى قد رأيت منذ الليلة عجبا فما هذا الذى رأيت قال قالا لى أما إنا سنخبرك . أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة . وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق . وأما الرجال والنساء العراة الذين فى مثل بناء التنور فانهم الزناة والزوانى . وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجر فانه آكل الربا . وأما الرجل الكريه المرآة الذى عند النار يحشها ويسعى حولها فانه مالك خازن جهنم . وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فانه إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة قال فقال بعض المسلمين يا رسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاد المشركين . وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسنا وشطر منهم قبيحا فانهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم اه .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل » وفيها بيان أن الإسراء يشير إلى الارتقاء فى عالم الانسانية وإلى أن الأمة الاسلامية الحقيقية تسبق الأمم

فى علومها وأنها تؤمها كلها بعد أن تستوعب فضائلها

اعلم أن ذكر موسى فى هذا المقام وذكر إبراهيم قبله فى آخر سورة النحل له صلة بحديث الاسراء فالقرب بينه وبين إبراهيم فى السنة وفى القدوة وفى دين الفطرة هى التى جعلت درجته فى السماء السابعة والنبى صلى الله عليه وسلم قد ارتقى فوق ذلك للاشارة إلى أن اللاحق يتقدم على السابق وأيضا هذه الاحاديث تشير إلى ارتقاء العالم الانسانى وأن الأمة الإسلامية المستقبلة ستمر على هذه الأمم أمة أمة ثم تطير إلى المعالى ولا تقف عند حد ولا تقلد بل تفكر وإذن تطير إلى سماء المجد كما أن نبينا صلى الله عليه وسلم مر على آدم ، فعيسى ويحيى فيوسف فإدريس فهارون فموسى فإبراهيم فارتقى إلى سدرة المنتهى فالبيت المعمور . وفى رواية أنه سمع صريف الأقلام . فالذى يشار به إلينا من هذا أمران : ارتقاء المسلمين فى عقولهم حتى يصلوا إلى الحقائق . وارتقاؤهم فى مدنيتهم ونظامهم حتى يسبقوا أمة عيسى وموسى وإبراهيم وإدريس . هذا هو القصد وهذا يشبه النشوء والارتقاء . وإذا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم صلى إماما للأنبياء فمعناه أننا خير أمة أخرجت

للناس وأننا أئمة الأمم كلها . فيا عجبا للمسلمين يكون هذا دينهم وهذا نبيهم ثم ينامون وتدوسهم الأمم . يمر نبينا على أنبياء الأمم أمة أمة ثم يغادر عيسى فى السماء الثانية ويوسف فى الثالثة وإدريس فى الرابعة وهكذا ثم ينام المسلمون عن هذا كله ، يمر على الأنبياء حتى يتركهم ويصل إلى مستوى فوق السبع الطباق والمسلمون يسمعون هذا الكلام كأنهم لا يعلمون . ولكن بعد ظهور هذا الكتاب سيظهر فى هذه الأمة رجال يعقلون ويعملون فيعرفون ما الحكمة فى هذا الارتقاء ولم يخبرنا الله به ، نحن لسنا نفرح كالعامة أن نبينا ارتقى بل نحن يجب أن نعمل . يقول لنا نبينا صلى الله عليه وسلم أيها المسلمون ها أنا ذا ذاهب إلى المعالى وقد سموت وعلوت وتركت موسى فى السماء السادسة وإبراهيم فى السماء السابعة وها هو ذا إبراهيم مذكور فى آخر سورة النحل وقد أمرت أن أكون تابعا له ولكنى سأرقى عليه وهذا الرقى معناه أن الأمم فى ارتقاء كما هى القاعدة التى تفتخر بها أوروبا عليكم . فأما موسى فها هو ذا يقول لى راجع ربك يخفف عن أمتك ظانا أن أمتى كبنى إسرائيل يصيبها ما أصابهم ، ولكن لما وصلت إلى خمس صلوات لم أراجع ربى ، ولكن موسى طلب منى أن تنقص الصلوات عن خمس ، لماذا ؟ لأن أمته ضعفت فى العمل ولكنى أنا لا أقول ذلك . وعليه هذه الأمة ستكون أرقى من أمة موسى .

إن الحديث يشير إلى الآية لأن فيها أن موسى آتيناه الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل ثم قص قصصهم فكانوا مثلا سوءا وأتبعه بقوله « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » فهو إذن أحسن من التوراة وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أحسن من أمة موسى عليه السلام فلتدرس أمة الإسلام علوم الأمم فاذا مر على عيسى فليدرس المسلمون علوم النصارى ، وإذا مر على يوسف وإدريس فليدرس المسلمون علوم قدماء المصريين لأنهما نبيان مصريان . وإذا مر على هرون وموسى فليدرس المسلمون علوم اليهود . وإذا مر على إبراهيم فليدرس المسلمون علوم سائر الملل لأن إبراهيم لهم . وإذا جاوز النبى صلى الله عليه وسلم السموات السبع فليدرس المسلمون الحقائق التى لا تطيقها الأمم . فاذن هذه النبوة سيظهر أثرها فى أمم آتية لا هذه الأمة الحالية .

﴿ بهجة الاسراء فى حديث (فرض الله على أمتى خمسين صلاة فراجعت ربى وسألته التخفيف حتى جعلها خمسا فى العدد وخمسين فى الأجر) اهـ ﴾

اعلم أن هذا المقام غزير الفائدة جم العائدة كثير المزايا جامع الحكم سار لمجموع الأمة الإسلامية يظهر سره فى هذا الزمان . ذلك أن كلام النبوة لم يكن رمية من غير رام ولم يكن ذكر الخمسين ثم إرجاعها إلى الخمس مجرد خبر لا نتيجة له بل ذلك إشارة إلى أن الله عز وجل هو الأول وهو أصل الوجود وجميع الناس على الأرض لا فائدة من وجودهم ولا معنى لحياتهم إلا إذا اتصلوا بأصل وجودهم ومنشأ حياتهم . وليس معنى هذا الاتصال تلاصق الأجسام إذ لا جسم له تعالى وإنما هو توجه أرواحهم إلى روح الأرواح وهو الله عز وجل .

إن الناس فى الدنيا أرواح حالة فى أجسام ، فالأجسام متصلة دائما بالطين والهواء والماء والحرارة والضوء فكان يجب أن تلتجىء الأرواح دائما إلى مبدئها ومبدعها وتفكر فيه وتذكره . ولكن الحياة الدنيا لشدة اتصالها بعالم المادة لا تسمح لكل امرىء أن يكون على الدوام ذاكرا ربه ، فههنا أمران : الأول أن الروح يجب ذكرها لله على الدوام . الثانى أن تعلقها بالمادة يمنعها من ذلك الدوام لشدة ارتباطها بها ، وللأول الاشارة بفرض الخمسين صلاة لأن الانسان ينام ثمان ساعات أو سبع ساعات ومدة اليقظة ما بين ١٦ و ١٧ ساعة والصلاة المشروعة ربما تستغرق (٢٠) دقيقة مع مقدماتها ونوافلها وهذه بضربها فى (٥٠) تستغرق مدة اليقظة . إذن معنى الخمسين صلاة دوام استحضار الله والاتصال به ذكرا ليقاوم اتصال الجسم بالمادة فعلا فكأن اللازم الواجب بحسب الأصل دوام الذكر لتقاوم الروح اللطيفة الجسم الكثيف الثقيل فترتفع إلى عالم الملائكة .

ولما

ولما تعذر ما ذكر على نوع الإنسان استبدل الخمس بالخمسين وجعل الخمس أجرها كأجر الخمسين . واعلم أن أجرها لا يكون كأجر الخمسين إلا إذا كان المصلى عاملا بصلاته فاهما لحكمها جاريا على مقتضاها حتى يصدق عليه قوله تعالى « الذين هم على صلاتهم دائمون » وقوله تعالى « وأقم الصلاة لذكرى » فالصلاة تكون دائمة وتستوجب ذكر الله . إذن رجعت الصلوات الخمس إلى الخمسين لأن المقصود من الخمسين أن يكون مصليا دائما فاستعيض عنه بخمس صلوات بحيث يكون المصلى دائما على صلاته ذاكرا ربه . وههنا يجب إيضاح المقام فنقول :

أعلم أن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم . الله أكبر . جل العلم وجل تعريف الفقهاء للصلاة . ذلك أن الصلاة كلها ترجع (لأمرين اثنين) لا ثالث لهما (أولهما) ذكر الله وتعظيمه كالشق الأوّل من الفاتحة من الثناء عليه ووصفه بالرحمة الخ وكألفاظ التشهد الأولى من أن التحيات خاصة بالله تعالى الخ . ومثل وصف الله بأنه فطر السموات والأرض حنيفا الخ . ومثل وصفه بأن الحمد له ملء السموات وملء الأرض الخ . ومثل وصفه بأنه خلق الوجه وصوره وهكذا (وثانيهما) الالتجاء اليه أن يجعلنا فى سلام وأمان وهداية إلى الصراط المستقيم مثل الدعاء بالهداية فى الفاتحة ومثل السلام على النبى وعلى عباد الله الصالحين فى التشهد . أفلا ترى أن الشق الأوّل أشير له كله بتكبيرة الاحرام والثانى أشير له بالتسليم فى ختام الصلاة . إذن التكبير فى أول الصلاة يشرحه توجه المصلى إذ يوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفا وذلك كالخليل الذى قال الله فيه ـ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ـ الخ .

فيا ليت شعرى لماذا جعلنا على ملة أبينا إبراهيم ولم خصصه بالذكر ؟ أقول إنما خصصه بالذكر وجعل ملتنا منسوبة له لأنه لم يوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفا توجها جسميا فحسب بل وجهه توجها عقليا . ألا ترى أنه لم يتوجه ذلك التوجه إلا بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض وكان من الموقنين وقد فصله بعد ذلك بأنه نظر الكوكب والقمر والشمس ثم توجه إلى الله . هذه هى ملة إبراهيم الذى جعله الله أبا المسلمين الأبوّة العلمية العامة التى هى أشرف من الأبوة النسبية الخاصة ببعض العرب كقريش ونحوهم فهذا توجه الخليل وهو بالعلم ويجب أن يكون كذلك توجه خواص هذه الأمة أى أنهم يدرسون هذه العوالم العلوية والسفلية التى درسها الخليل حتى يكونوا كاملين فى العلم بهذه العوالم المذكرات بربها ويكونوا على صلاتهم دائمين وتكون الصلاة مذكرة بالله على الدوام . وهنا لك تكون الصلوات الخمس فى حكم الخمسين من حيث الثواب ولا ثواب إلا على عمل والعمل هنا ذكر الله وذكره بالتحقق من جمال هذا العالم حتى يذكر الله عند كل حجر وشجر ولا يرى شيئا إلا رأى الله قبله أو معه أو بعده كما نقل عن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كل خصلة من هذه نسبت لأحدهم . فهذه هى الصلاة الدائمة ، يرى المؤمن جمال الله فى الشمس والقمر والنجم كالخليل وفى النبات وفى الحيوان كما أنه أيقن بالبعث لما أخذ أربعة من الطير فقطع رؤوسها ثم دعاها فجيئت . فإذن يكون المسلم فى ذكر الله بين العالم العلوى والسفلى . هذا كله مأخوذ من قول المصلى « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض الخ » فيكون كالخليل إذ أيقن بملكوت السموات إذ نظر فيها وملكوت الأرض إذ نظر فيها فأيقن فلما تم له ذلك قال إنى وجهت وجهى الخ . هذا هو التوجه لله وهذه هى الصلاة الدائمة بدوام ذكر الله كما قال « وأقم الصلاة لذكرى » فهذا هو الذكر الدائم المذكور فى قوله « الذين هم على صلاتهم دائمون » وهذا كله شرح لتكبيرة الاحرام . فقول المصلى الله أكبر فى أوّل الصلاة يشرح معناها ما ذكر وكذلك البسملة والحمدلة وبقية نصف الفاتحة الأوّل . إن الحمد لا يكون إلا على نعمة والنعمة لا يحمد عليها إلا إذا عرفت . إذن المسلم يتوجه لله بالعلم ، أى بعلم ما فى السموات والأرض ويحمد

الله بعد العلم بالمحمود عليه . فأما التكبير فهو يشمل الحمد ويشمل غيره . إن المصلى يقول بعد الصلاة سبحان الله والحمد لله والله أكبر فالتسبيح تنزيه والحمد شكر ، وتكبير الله هو تعاليه وعظمته كأنه قيل إن حمدنا لله على نعم معلومة لنا ولكن هناك نعم أخرى فهو إذن أكبر مما نحمد عليه . فقول المصلى فى أول الصلاة: الله أكبر بيان لأن الحمد المذكور فى الفاتحة والبسملة وكذلك التحيات وما عطف عليها وتصويره السمع والبصر وخلقه لها وخلقه لجميع العالمين . كل ذلك قليل بالنسبة لعظمة الله فهذا معنى كونه أكبر ، فالمصلى فى أول صلاته يكبر وفى آخر أذكار الصلاة يكبر . إذن المسلم يقول إن الله أكبر من كل ما علمناه من العلوم ومن النعم المحمود عليها .

إيضاح التكبير والتسليم أيضاً

ياليت شعرى . هل يعلم الناس أن التكبير والتسليم اللذين هما ملخص صلاة المسلم هما كل علوم أهل الأرض . وما علوم أهل الأرض ؟ هى العلوم الرياضيات والطبيعيات والإلهيات هذه علوم علمية وعلم تدبير المنزل وتهذيب الشخص وتدبير المدينة وهذه الثلاث هى العلوم العملية . فكل ما تسمعه من علم النبات أو الزراعة أو الطب أو الهندسة أو الحساب أو الفلك أو الميقات أو الهيئة أو علم النفس الخ . فكل ذلك وغيره راجع للقسم الأول ويتبعه الصناعات ، كالنجارة التابعة لعلم النبات والحدادة التابعة لعلم المعادن وهكذا مما يعد بالمئات بل الألوف من الصناعات والقسم الأول المذكور هو التكبير لله فتكبير الله معناه أنه أكبر مما نعلم والذى نعلمه هو هذه العلوم . وكل ما تسمعه من علم التهذيب والأخلاق أو تدبير المنزل والمعاشرة وسياسات الأمم وأمثالها فذلك كله راجع للسلام العام أو الخاص . ولا معنى لتهذيب النفس إلا لتستقيم مع الناس ، ولا لتدبير المنزل إلا لحفظ الأسرة فى المنزل من التفرق والشتات ، ولا لعلوم السياسة إلا لصيانة الأمم وحفظها من الاصطدام والشجار والقتال . فياليت شعرى هل يعلم الناس ذلك . وأن أول الفاتحة راجع للتكبير وآخر الفاتحة راجع للسلام فالأول للأول والآخر للآخر . وأن أول الفاتحة أيضاً مجمل العلوم العلمية وآخرها مجمل العلوم العملية فهداية الصراط المستقيم إنما هى السلوك المستقيم والسير على سنن العدل وذلك فى المنزل وفى النفس وفى الدولة وهل يعلم الناس أن قول المصلى « السلام عليك أيها النبى » وقوله « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » راجع لآخر الفاتحة وللسلام فى آخر الصلاة ولتهذيب النفس فى السلام عليها وللأدب مع الناس فى المنزل وفى السياسة العامة فى السلام على عباد الله الصالحين . ثم إن السلام على النبى والصلاة عليه وعلى إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، كل ذلك راجع لحفظ الجميل وذكر المحسنين والدعاء لهم والبر بهم وتذكر إحسانهم وربط القديم بالحديث وتذكر فضائل السلف الصالح والسير على منوالهم والجرى على منهجهم .

الصلاة رمز لتعميم التعليم ولتعميم السلام فى الأرض

هل يعلم الناس أن الصلاة فى الإسلام توحى بالسلام بين الأمم وتأمر بالعلوم كافة بدليل أن الذى يصلى هو كل مسلم فكأن كل مسلم تأمره صلاته أن يكبر الله بمعرفة سائر العلوم على قدر طاقته ، فإن كان من العامة فليعرف الظواهر التى فى متناوله وإن كان من الخواص فليزد فى العلم ما يشاء . يظهر لى أن هذا الدين لو علمه أهل الأرض لاتحدوا . يظهر لى أن أكثر المسلمين الذين اعتنقوا هذا الدين لم يدرسوا علوم الصلاة . يظهر لى أن ما أكتبه الآن سيقوم به قوم وينشرونه بين أمم الاسلام . يظهر لى أن هذا الدين لم يأخذ حقه من البحث . يظهر لى أن القتال فى هذا الدين إنما جاء على سبيل الاضطرار كما يضطر الفلاح لتنقية الشوك والأعشاب من الأرض لإصلاح الأرض . يظهر لى أن نشر الاسلام فى المستقبل سيكون أكثره بالجهاد العلمى لأن العلم الآن هو السلاح لكل مطلوب .

جاء فى بعض الروايات أنه شق عن صدره ﷺ وغسل بماء زمزم حتى نقى وأنه أتى له بطست من ذهب فيه نور محشواً إيماناً وحكمة . ولما عرج به إلى السماء الأولى وما بعدها رأى آدم ويحيى وعيسى الخ أفليس هذا يذكرنا بتهذيب النفوس والسلام العام . وبعبارة أخرى أن غسل قلبه وحشوه إيماناً وحكمة يفيض على الأمة علماً جماً بأن نقلده فى طهارة نفسه فهو قد طهره الله لأنه اجتباه ونحن لابد لنا من العلاج وذلك بالعلوم العملية المتقدمة . ثم إن آدم ومن بعده لكل منهم مزية علية . أفلا ترى إدريس فى السماء الرابعة كيف كان هو نبى المصريين المسمى (أخنوخ) و (سوزستريس) ألم تقرأ ما مر فى سورة يونس من أنهم وضعوا على صندوق أحد كبرائهم سورة البروج ، وقد تقدم إيضاحها ورسمها هناك . أليس ذلك دليلا على أن القوم كانوا مغرمين بهذه العلوم الجميلة فهكذا فليكن المسلمون بعدنا مغرمين بها لأن الله يقول « فبهداهم اقتده » وأيضاً الفلك علم أبينا إبراهيم الذى رآه فى السماء السابعة وتراه فى السماء الأولى رأى آدم ، وفى الثانية عيسى ويحيى وهما ظاهران إشارة إلى أن متبعيه يجب أن يقتبسوا من أنوارهما ويوسف صاحب النظام الاجتماعى فى الثالثة لنقتدى به كما تقدم فى سورة يوسف ثم هارون وموسى وهكذا إبراهيم فلكل من هؤلاء مزية تستحقها هذه الأمة . إذن المعراج مفتاح العلوم وعروج إلى الله بها فهى إما طهارة النفس فى يحيى وعيسى وإما نظام المدينة فى يوسف وإما العلوم الفلكية فى إدريس وإما الجهاد والخروج من الظلم فى هارون وموسى . إذن المعراج أيضاً رجع إلى العلم والعمل أو التكبير والسلام فهو كالصلاة . إذن هذا الدين أوله وآخره علوم جهلها المسلمون اليوم . اللهم إنك أنت المنتقم ممن يصدون المسلمين عن العلوم .

ثم هنالك تكون العلوم والمعارف التى تكون فوق متناول الناس فيفتح على الانسان بما لم يتعلمه ولذلك الاشارة بسدرة المنتهى التى أوراقها كآذان الفيلة وثمرها كقلال هجر وقد غشيها من أمر الله ما غشى فتغيرت فما من أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها . ولا جرم أن ذلك راجع للعلوم . ثم إن المخلوقات على قسمين : مخلوقات تحس بالحواس الخمس ومخلوقات تعرف بالعقل . ثم إن التعبير بآذان الفيلة وبأن الثمر كقلال هجر الخ يرجع إلى ما فى العالم من عظائم وجلائل وقد امتلأت الكرة الأرضية بعلوم الكواكب الكبيرة العظيمة وإن شمسنا بالنسبة لها ليست شيئاً مذكوراً . إن المسلمين أولى بهذه العلوم . هاهوذا نبينا صلى الله عليه وسلم يقول لنا أيها الناس ، إن هناك عوالم أرقى من عوالمكم وقد رأيتها ، قال هذا وقد رفع إلى ربه . أفليس يخجل المسلمون من هذه الجهالة ؟ يقول صلى الله عليه وسلم « فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها » فماذا يريد المسلمون بعد ذلك . ماذا كان يقول لنا نبينا صلى الله عليه وسلم . ها هو ذا يقول لكم إن هناك عوالم لايمكن نعتها من حسنها . أيها المسلمون . ها هو ذا علم الفلك الحديث الذى ذكرت لكم منه نبذاً كثيرة فى هذا التفسير . ألم تروا إلى الكواكب العظيمة كالسماك الرامح إذ يكون ضوءه أعظم من ضوء الشمس ثمانية آلاف مرة وهناك كواكب أعظم وأعظم . ولست أقول إن هذا مقصود الحديث . كلا . وإنما أقول فيه الجمال الذى لا يمكن أحداً أن ينعته . وهناك جمال أرقى وأرقى وهو جمال النظام كما تقدم فى سورة الرعد من نبات يفترس حيواناً ومن مسدسات منتظمات ثلجية مهندسات هندسة إلهية فارجع إليها هناك ترها مرسومة جميلة . وفى سورة الحجر ترى هناك عند قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » ، وكيف كان للورقات نظام بديع له قوانين فراجعها هناك مرسومة مشروحة . كل ذلك من أنواع الجمال الذى يشير له قوله صلى الله عليه وسلم « فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها » . نعم هذا قد استطعنا نعته وفيه حسن ولكن الحسن الذى لاينعته الناس فى النظام يفوق الوصف وذلك الذى يفوق الوصف رآه نبينا صلى

الله عليه وسلم فلنجدّ في معرفة ما أمامنا حتى نستعد لما فوقه ونلحق بالنبيين والصديقين الخ والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

الإسراء والمعراج والحسن والجمال في الخلق

ههنا ذكرت الاسراء والمعراج والحسن والجمال . نبيّ أرسله الله لأمته فقال لهم: أتيت بالبراق ووصفه بأنه دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبه وأتى إلى بيت المقدس ثم اخترق السموات العلى ووصل إلى سدرة المنتهى فوصف أوراقها وأنها غشيها من أمر الله ماغشيها وأنها تغيرت ولا يستطيع أحد من خلق الله أن ينعتها من حسنها وهنالك أوحى الله له فرض الصلوات الخمس .

الأنبياء أرسلوا لإرشاد الناس . هذه القصة قيلت لنا نحن . إن هذه القصة لبّ العلوم وخلاصة الحكمة فياليت شعرى كيف أعرض الناس عنها . فرض الله الصلوات ولكن ذلك الفرض كان بعد الإسراء والمعراج ونظر الجمال : إن هذه القصة تدعو حثيثا المسلمين أن يخترقوا حجب هذه العوالم بالتعلم ويرتقوا . هل كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول ذلك مجرد حكاية أو إثبات نبوة ؟ كلا ، بل كان أيضا يقولها للاقتداء به في علو الهمة واختراق الآفاق سياحة وعلما . من ذا كان يظن أن أمة يخترق الجوّ نبيها ويصل إلى السماء لاتكون أسبق أمة إلى اختراق طبقات الجوّ القريبة بكل طيارة وبكل منطاد . من ذا الذى كان يظن أن أمة هذه أحوال نبيهم صلى الله عليه وسلم لايكونون أسبق الأمم إلى دراسة علوم الكواكب والنجوم وسيرها وعددها وأبعادها وكل سديم ومجرة في السماء . اخترق الأفلاك النبى صلى الله عليه وسلم ليعلمنا . فلماذا لا نقرأ تلك الأفلاك ثم هو فوق ذلك وصل إلى سدرة المنتهى ورأى هناك الحسن الفتان والجمال الذى لايقدر أحد من الناس أن ينعته . هذا هو نبينا صلى الله عليه وسلم فهل هكذا يكون أتباعه . إن أتباع نبي هذه صفته يكونون أسبق الناس إلى دروس الجمال ولا جمال يظهر لنا إلا بالعلم والحكمة . ولقد ملأ الله الأرض اليوم بالجمال . وذلك الجمال لايراه إلا الحكماء . وأضرب لذلك مثلا :

لو أن نجارا وقف أمام شباك مصنوع بصناعة بديعة وهيئة غريبة وهو من العلماء بهذا الفن المتقنين فانه يقف مبهوتا أمام ذلك المنظر وهو ذاهل عمن حوله والناس لايدركون من ذلك شيئا حوله . ومثل النجار علماء العربية الذين لهم ذوق في الإنشاء . فهؤلاء إذا وقع لهم موضوع جميل مكتوب كتابة محكمة فرحوا به وأعجبوا وأخذوا يدركون دقائق المحاسن والناس حولهم لايعقلون ما يقولون وهكذا في كل صناعة فانظر إلى الصنعة العامة وهى هذا الوجود فهذا الوجود كله خلق الله له أناسا في الأرض واصطفاهم لذلك يدرسون علوم الأمم وهم ليسوا بأنبياء ومن هؤلاء من هم أتباع الأنبياء فهؤلاء يزدادون سعادة بازدياد الدراسة ويرون من الحسن والجمال ما لايعقله سواهم . فهؤلاء هم الذين يفهمون قول نبينا صلى الله عليه وسلم « فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينظر اليها » .

ترك المسلمون العلوم . تركوها غفلة وجهالة . الله أكبر الله أكبر . اشتغل المسلم بالصلاة ولم يدر أكثر المسلمين أن الصلاة يراد بها الحسن والجمال . ألا ترى إلى أنه صلى الله عليه وسلم في الحديث لم تفرض عليه الصلاة إلا بعد مشاهدة الجمال الذى يدهش العقول كأنه قيل لنا هذه الصلاة لذكرى وذكرى يقويه كل علوم هذه الدنيا وعلوم هذه الدنيا تفتح لكم طرق البحث . وإدراك الجمال إما بهبة ربانية للأنبياء وإما بالبحث العلمى لأفراد الأمم ، والصلاة فيها الحمد والتكبير وفيها التشويق إلى جميع العلوم كما تقدم . فاستبان من هذا أن فرض الصلاة بعد إدراك الجمال والحسن في سدرة المنتهى يقصد به أن نتيجة الصلاة العلم والعلم يعرف هذا الحسن كله كأن الله يقول يامحمد ها أنت ذا قد شاهدت الجمال في سدرة المنتهى فافتح باب هذا الجمال والحسن لأمتك وقل

لهم

لهم يصلون الصلوات الخمس التى يقصد بها أمران : معرفة العوالم التى يعيشون فيها ، وإفشاء السلام بينهم ، فبهذا يدركون من الجمال مايناسبهم كما أنك أدركت مايلائمه . هـذا هو الذى فهمته فى مسألة الإسراء أن الصلاة لهذا أنزلت . هـذا وإنى أذكرك أيها الذكى بما نقلته فيما تقدم فى سورة هود من كتابين من مؤلفات الفرنجة عند قوله تعالى على لسان هود « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » الكتاب الأول هو المسمى [مملكة الظلام] مؤلفه (مترلنك) . والثانى [موسوعات العلوم] لمؤلفه (روبرت براون) فقد جاء فى الأول أننا نحتاج إلى دراسة علم الحشرات حتى نعرف سليقة أعضاء أجسامنا التى تختفى فيها أسرار الحياة والموت وأن أعضاءنا كلها متحدة مندمجة وتلك الحشرات متفرقة ظاهرا متحدات حقيقة برباط خفى . وجاء فى الثانى أن فى أجسامنا من الوظائف والأعمال وأنواع الاحساس عجائب وغرائب مدهشات ولكن لما كنا معتادين عليها أصبحت لايلتفت إليها النظر ولا تدهش العقل فان المألوف يظن أنه معروف لاعتياده والدأب عليه ، وإنما الذى يلفتنا لغرابة هذه الأعمال فى أجسامنا والإحساس فى إدراكنا إنما هى المواهب العلية الخاصة فهى التى تدفع ماأسدلته يد العادة على عجائب أعمالنا وإحساسنا من الأستار وتوحى إلينا جمال أنفسنا وغرائب أجسامنا وبدائع تركيبها بطرق الملاحظات والتفكير فيما حولنا وما يحيط بنا من العوالم . ثم قال إن دراسة العوالم التى تحيط بنا أسهل تناولا من دراسة أنفسنا . إن دراسة أنفسنا جسما وعقلا قد عجزت عن إيقافنا على بعض من عويصات المسائل المادية والعقلية . أما دراسة العوالم المحيطة بنا فهى نبراس لدراسة أنفسنا الخ .

هذا مانقلته هناك فى سورة هود . نقلته هناك وما كنت لأعلم أو ليجيش فى خاطرى أن ذلك نفسه معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم . كيف لاوهاهم أولاء حكماء أوروبا وفلاسفتها ينطقون بحديث المعراج . المعراج جاء فيه ذكر الحسن والجمال وأن من الجمال مالايقدر على نعته أحد من خلق الله وجاء بعد ذلك فرض الصلوات. وبعبارة أخرى بحث على العلوم إذ الصلاة فى الاسلام هذا مقصدها والعلوم هى الدالة على الجمال إذ لا جمال إلا بعلم بما هو جميل .

أيها المسلمون هل تعلمون ؟ هل تعلمون أن حديث الاسراء جاء مايطابقه عند فلاسفة أوروبا . هل تعلمون أيها المسلمون . هاأنتم أولاء تصلون وأكثركم لايعلمون لم تصلون. يصلى المسلم خوفا من النار أو طمعا فى الجنة . وهذا حسن. يصلى المسلم وهو يحافظ على أركان الصلاة وشروطها وآدابها. هذا حسن وحسن ولكن أحسن منه وأحسن أن يعرف المسلم لماذا فرضت الصلاة ، ولماذا لم تفرض إلا عند ظهور الجمال، ومنتهى الجمال لنبينا صلى الله عليه وسلم وأن ذلك الفرض إنما كان لتوجيه النفوس إلى ماتضمنته الصلاة من معرفة العوالم العلوية والسفلية . إذن الصلاة درس علم . الصلاة متن تشرحه العلوم . ومن عجب أن نسمع هـذا القول « الصلاة معراج » فبهذا تبين أنها معراج ، وإنى أبشر الأمم الاسلامية أن هذه الأمة سيظهر فيها مصلون حقيقة بعد نشر هذا التفسير سيصلون صلاة تشرح صدورهم لحوز العلوم . اللهم إن الدنيا مقفلة على عقولنا مسدلة حجبها على أفهامنا وأنت الذى أرشدت نبينا صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يعرف أكثرنا مايراد من ذلك إلا أنهم يخافون من نارك أو يطمعون فى جنتك . فأرنا اللهم سبل الهداية وافتح قلوبنا للعلوم واجعل الصلاة مفتاحا للدروس بحيث يصلى المسلم مستحضرا المعنى واستحضاره المعنى يحفزه إلى الدرس والتفكر ، وبهذا يصلون إليك مقتدين بنبينا صلى الله عليه وسلم الذى رأى الحسن والجمال .

اللهم إنك تعلم أن المسلمين وقفوا عند ألفاظ الصلاة ولم يدرك أكثرهم أن علوم الكائنات مطلوبة منهم بل وقفوا على علم الفقه وعلى قشور من علم التوحيد فافتح لهم باب العلوم والمعارف حتى يسعدوا فى الدارين .

اللهم إنك قلت « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وذلك حق فانها ترجع إلى أمرين كما أوضحناه : درس العلوم، وإفشاء السلام ، والعلم يدفع الجهل والمعاصى . وتعميم السلام بين الناس لايكون معه فحشاء ولا منكر. هذا بعض سرّ حديث المعراج وبعض سر الصلاة، والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

الإسراء والمعراج والسياحات والقوى العاقلة

نامت الأمم الانسانية قبيل النبوة ؛ فالرومان كانوا فى أيام انحطاطهم بما نالوا من عزّ وسعة وبسطة فى الرزق والملك فانحطت عزائمهم وهكذا الفرس . وهاتان المملكتان كانت لهما السيادة فى الأرض . ودين البراهمة والبوذية فى الهند تراكمت عليهما الخرافات فهوت بأتباعهما وهكذا أهل الصين ودياناتهم . إن الله خلق الناس وأودع فيهم قوى عاقلة وأهمها المخيلة والمفكرة والذاكرة . فبالذاكرة يكون علم التاريخ بجميع أقسامه وبالمخيلة تكون الأسفار والاختراع والفنون الجميلة . وبالمفكرة تكون العلوم المختلفة من الرياضيات والطبيعيات ومعرفة الله تعالى ونظام الجسم الانسانى والنفس ونظام الطبيعة ، ويتفرع عن علم النفس المنطق والأخلاق وعلوم الجمال ونظام الأمم وسياساتها . هذه هى القوى الانسانية التى كمنت وسكنت قبيل البعثة المحمدية فأرسل الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فأسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ومما قاله ما نصه « مثل لى النبيون كلهم فصليت بهم » ثم خرج إلى المسجد الحرام . ولما رفع إلى السماء قابل النبيين ومنهم موسى ولما تجاوزه بكى موسى فقيل له ما يبكيك قال أبكى لأن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى وأيضا لما رفع إلى البيت المعمور أتى بإناء من خمر وإناء فيه لبن وإناء من عسل فأخذ اللبن وقال هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك ثم فرضت الصلوات . وأيضا لما رأى آدم وجد أسودة عن يمينه وأسودة عن شماله فالأولون أهل الجنة من بنيه والآخرون أهل النار منهم فكان يضحك إذا رأى الأولين ويبكى إذا رأى الآخرين . ولما وصل إلى سدرة المنتهى رأى ما لا يصفه الواصفون .

هذا بعض ماجاء فى الاسراء . فياليت شعرى كيف تمر هذه على المسلمين وهم نائمون . ليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن الاسراء نموذج لنا وسنة سنت لنا . وبيانه أن العقول الجامدة والنفوس النائمة عليها ألا تذر علما من العلوم إلا درسته .

(١) ألا ترى أنه عليه الصلاة والسلام ساح فى الأرض واخترق السماء ، وهل العلوم جميعها تخرج عن الأرض والسماء .

(٢) ليقرأ الناس علوم الأرض وعلوم السماء .

(٣) صلى النبى صلى الله عليه وسلم بالنبيين ثم عرج إلى السماء هكذا الصلاة معراج وبفهم الصلاة والعمل بمقتضاها يعرج الناس إلى ربهم ، يعرجون بعلم وعمل . أما العلم فقد شرحناه قريبا . وأما العمل فكذلك فالسلام العام فى الأمم بتهذيب النفوس وحفظ الأسرات وحفظ الأمم هو العمل وقراءة علوم الرياضيات والطبيعيات والفلكيات هى عروج النفوس إلى ربها وفهمها نظام عمله فى هذا الوجود هذا هو مقتضى الصلاة فالصلاة كتاب علم أوحى به الله إلى نبيه وقال صلوا ثم اعرجوا إلى ربكم بالعلم الذى تضمنته الصلاة . فاذا كان صلى الله عليه وسلم عرج بعد الصلاة فهكذا أنتم بعملكم بما تضمنته الصلاة من العلوم العلمية والعلوم العملية تعرجون إلىّ .

(٤) إن نبينا قد أم الأنبياء فى الصلاة وهذا إشارة إلى أن جميع الأمم التى تتبع الأنبياء قد أخذت لها قسطا من الآراء الاسلامية فقد حررت العقول فى أوروبا وفى أمريكا وبلاد الشرق . كل هذا بسبب الاسلام فارجع إلى هذا المقام فى سورة التوبة فقد نقلت لك هناك عن (سديو) الفرنسى وغيره أن تحرير العقول فى أوروبا إنما جاء من دين الاسلام . هكذا بكى موسى من أن غلاما بعث بعده دخل الجنة من أمته أكثر مما دخل من أمة موسى، وهذا حق لأن أتباع دين عيسى هم اليهود وهم شرذمة قليلة لاتبلغ (١٥) مليونا والمسلمون

نحو

نحو (٣٦٠) مليونا ومسألة آدم وبكائه وضحكه ظاهرة واضحة ومسألة اللبن واختياره لأنه الفطرة ترجع إلى هذه العلوم التي حظيت بها الأمم فان علوم الطبيعة وعلوم الفلك الخ هي الفطرة التي فطر الله هذا العالم عليها فاذا درسناها فقد رجعنا إلى الفطرة . ومعلوم أن اللبن يفسر بالعلم كما في حديث آخر .

(٥) هذه الوقائع التي حصلت له صلى الله عليه وسلم في معراجه قد تمت وظهر مصداقها ولكن أتباعه صلى الله عليه وسلم فهموا دينه أيام الصحابة والتابعين وغفلت عنه أمم كثيرة بعدهم ولم يعلموا أنه قد سنّ لنا السياحات العقلية .

(السياحات على قسمين)

اعلم أن السياحات على (قسمين) سياحات جسمية وسياحات عقلية والسياحات الجسمية مقدمة على السياحات العقلية وذلك واضح في قوله تعالى « قل سيروا في الارض فانظروا » والسير بلا نظر لايفيد . فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ساح في الأرض بالاسراء ، وعرج في السماء ، ولم تكن سياحاته ولا عروجه خاليين من الروح العلمية بل تراه بين السياحين صلى ليعلمنا أن الصلاة قد تضمنت العلوم التي بها المعراج فلما عرج إلى السماء ، لم يترك واقعة بلا فائدة . فهاهو ذا يرى آدم وهو يبكي ويضحك ، وموسى وهو يبكي على قلة من يدخلون الجنة من أمته وهكذا إبراهيم وقد قال له « يا محمد بشر أمتك بأن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ولا جرم أن هذه هي ملخص الصلاة إذ الصلاة حمد يرجع إلى كل العلوم وتنزيه الله بالتسبيح في الركوع والسجود الخ .

ولو أن امرأ ساح في الارض ورفع إلى السماء ، وساح في أقطارها بلا عقل ولا فكر لكان ذلك أشبه بأضغاث الأحلام ولا فائدة له . إذن الاسراء والمعراج قدجاآ لإيقاظ نفوس المسلمين لإحياء عقولهم وخيالهم وتعقلهم وذاكرتهم لأن المقصود من السياحات تعقلها وفهمها والتبصر فيها . ذلك هو مقصود السياحات في هذه الدنيا . الصلاة يراد بها الحث على العلوم والعلوم بها تعرف السموات والأرض . عرج صلى الله عليه وسلم بعد أن صلى . ولما تم معراجه ورأى عجائب لاتوصف فرضت الصلاة على أمته . لماذا هذا ؟ لأنه عرج إلى السماء بعد الصلاة فهو يريد أن تعرج أمته كما عرج ولكن عروج أمته بالعلم والتعلم فعروجه بالوحي والنبوة وعروجه أمته بالعلم والتعلم ومبدأ التعليم ماتحث عليه الصلاة ، والصلاة كما قدمناه وأوضحناه حثت على العلوم العلمية والعلوم العملية .

(٦) وما مثل المعراج بعد الصلاة إلا كمثل ابتداء سورة النجم بعد أواخر سورة الطور ففي آخر سورة الطور « ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وفي أول سورة النجم ذكر قربه صلى الله عليه وسلم من ربه إذ قيل « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » فآخر الطور التسبيح والصلاة في آخر الليل وفي أول النجم القرب من الله . هكذا هنا صلى النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء فهو كآخر الطور وعرج إلى السماء فهو كأول النجم وهذا هو قوله تعالى « واسجد واقترب » فهنا سجود وهنا اقتراب وقد عرفت سره فالأنبياء يلهمون ويوهبون والأتباع يجدّون ويتعلمون ، فالصلاة كتاب يقرؤه المسلم صباحا ومساء ، وهذا الكتاب مختصر العلوم كلها علوية وسفلية . ناهيك ماتراه في هذا التفسير عند تفسير سورة الفاتحة وقد زدت عليه في أول هذا المقال مسألة السلام والهداية في التشهد والفاتحة فانهما يشملان علوم الأخلاق ونظام الأمم .

فاذا سمعت قوله تعالى « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد » الخ فاعلم أن ذلك من علم الأخلاق الداخل في قول المسلم « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ومثل هذا « يا بنيّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك » وقوله « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا » وقوله « واقصد في مشيك واغضض من صوتك الخ » وهكذا مما تراه في (٧٥٠) آية في القرآن

وإذا سمعت قول المصلي « الحمد لله رب العالمين » أو قوله « التحيات لله الخ » فاعلم أن ذلك ظاهر في قوله تعالى « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » وقوله « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » وقوله « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » الخ

(٧) إن الاسراء والمعراج درسان ألقيا للمسلمين ليرجوا إلى ربهم بالعلم وليفتحوا عقولهم وخيالهم وقوائم الفكرية وذاكرتهم النفسية ذلك ليسيحوا في الأرض بعقولهم لا بمجرد أجسامهم . فأما إذا صلوا ولم يعرجوا أي لم يدرسوا ولم يفكروا فيما تضمنه الصلاة فإنهم يكونون محكوما عليهم بالهلاك . ذلك لأن المسلم إذا صلى ووقف عند ألفاظ الصلاة أو فهم معناها واستحضره ولكنه لم يعمل بمقتضاه كما فعل رسول الله ﷺ من الإسراء والعقل في أثناء الإسراء فإنه يكون مغروراً اغترّ بمجرد الصلاة وأنام قواه العقلية ولم تفتح بصيرته لما حوله من عجائب هذه الدنيا وهذا قوله تعالى « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » .

المسلمون يصلون ولكن أكثرهم لايعلمون بما تحثّ عليه الصلاة فانحطت مداركهم فتخطفتهم الأمم . هم ساهون عن الصلاة لاهون عنها . إن الصلاة (لأمرين) ذكر الله على سبيل العبادة وارتقاء النفس بذلك الذكر فههنا (أمران) أمر عملي وأمر علمي ، فأكثر المسلمين اقتصروا على الأمر العملي ونسوا العلمي ونسوا أنه ﷺ عرج إلى السماء بعد أن صلى كأنه يقول عروجكم العقلي إنما يكون بعد الصلاة أي بالعمل بما تضمنته من العلوم . إذن الإسراء والمعراج درسان علميان والصلاة هي كتاب ذينك الدرسين

(٨) غفل الناس عن الإسراء وعن عقولهم . من عادة الناس أن لا يعقلوا ما شاع عندهم وما يحيط بهم . هذا الإنسان في هذه الأرض لايعقل ما هو حاضر عنده مبصر أو مسموع أو مذكور . لكل امرىء مخيلة وعاقلة وذاكرة كما تقدم ، فقد يعيش المرء ويموت ولا يخطر بباله ماتلك القوى وما عجائبها ، وهكذا يرى أن له سمعا وبصرا وشما وذوقا وأعضاء داخلة وأخرى خارجة وكلها طافحة بالعجائب مملوءة بالغرائب ولكنه لايخطر بباله أن يفكر فيها أو يرى فيها عجائب وهكذا أكثر هذا النوع الإنساني يعيشون كالحيوان ويموتون ولاهم يذكرون فلذلك أرسل الأنبياء ، وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ فأسرى به وعرج ، والإسراء والمعراج لفتح هذه القوى العقلية فينا وفعلا تمّ ذلك في عصر الصحابة والتابعين فإن أحوالهم كلها اعتراها انقلاب وتغيرت وتحولت إلى الأحسن.

أما الأمم المتأخرة فإنها تسمع الإسراء والمعراج كما تعرف يدها وعقلها وجسمها . فالإسراء والمعراج أصبحا متداولين بين المسلمين فلم يبق تعجب منهما ولا تذكر بهما كما نسي الناس نفوسهم وعقولهم ومخيلاتهم وأعضاءهم فسيان عندهم عقولهم وأعضاؤهم وإسراء نبيهم

واعلم أن هذا التفسير سيكون من المبشرات بنهضة مقبلة قريبة وسيخرج جيل جديد سائح سياحات عقلية وعارج إلى رب البرية .

كيف يسرى المؤمنون ويعرجون ليصلوا إلى اليقين بالعلم

اعلم أن الأمم جميعها قد جاء في تاريخها أن أناسا حكموا أنفسهم بالرياضيات فوصلوا إلى ما قصدوا وهؤلاء كثير في أمم الهنود والأمم الإسلامية ولكن الذي ظهر أن هؤلاء غالبا لم يحدثوا في الأمم انقلابا كثيرا إلا قليلا منهم وأكثر انقلاب الأمم إنما يكون برجال مفكرين نالوا حظا من العلم باجتهادهم لا برياضاتهم . فلأذكر لك هنا مسألة واحدة وهي تفسير قوله تعالى في سورة تبارك « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » أي شقوق. وقبل الشروع في هذا المعنى أذكر مقدمة فأقول :

اعلم أنه قد سبق في هذا التفسير أن العوالم التي نعيش فيها مركبة من ذرات وتلك الذرات مركبات من جواهر فردية وتلك الجواهر الدقيقة جاريات حول نواتها جريا حثيثا فترى كل ذرة بعضها أشبه بالشمس

وبعضها أشبه بالسيارات وهذه التي تشبه السيارات تدور حولها وكل ما في هذا الوجود مركب من تلك الذرات وتلك الذرات ماهي إلا كالمجموعة الشمسية . فاذا رأيت الحديد والنحاس والأحجار وظننت أنها ساكنة فأنت لم تقرأ علما بل العلم أثبت أنها متحركات كما شرحته لك ، بل قال المحققون مثل (جوستاف لوبون) كلما كانت حركات الذرات أسرع كان الجسم المركب منها أصلب وكلما كانت أبطأ كان الجسم المركب منها أبعد من الصلابة وأقرب إلى التفرق أو السيلان الخ .

وهناك مسألة أخرى ستأتي في سورة تبارك وهي أن طيف الضوء المركب من الألوان السبعة المعروفة يتخلله خطوط سود وذلك بواسطة آلة للنظر مذكورة هناك مصورة من ثلاثة مناظر معظمة وتلك الخطوط السود عمودية على ذلك الطيف وهذه الخطوط السود واضحة في شكل ستراه هناك وكل خط له هيئة خاصة ، وقد شاهدوا مثل هذه الخطوط في لهب المعادن فمكنوا من ضوء الشمس على المعادن التي تركبت منها هي فكلما رأوا خطا في الطيف الشمسي بهيئة توافق نظيرها في لهب معدن من المعادن قطعوا بأن ذلك المعدن من عناصر الشمس وهكذا الكواكب الأخرى . هاتان النظريتان هما أس ماسأذكره من الإسراء العقلي والمعراج الفكري الذي يسير عليه المسلمون . فههنا نقول في تفسير الآية :

(١) فاذا أبقينا على ماهو معلوم من التفسير المعروف قلنا « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » لأن البصر لاترى في السماء المشاهدة فطورا ، ولا جرم أن السماء من فعل الله فتكن أفعاله كلها على هذا النظام .

(٢) وإذا لاحظنا أن في المادة فراغا معلوما بين جميع الذرات كما هو مقرر في الطبيعة حتى أنهم أثبتوا أن الخلاء بين كل ذرة وأخرى بالنسبة لحجمها لايقل عن الفراغ الحاصل بين الأرض والسماء بنسبتهما وهذا وإن كان بعيد التصديق مسلم في علم الطبيعة . وهكذا نلاحظ أن في طيف الضوء تلك الخطوط المتقدمة إذا اعتبرنا ذلك كله قلنا « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » مع مافيه من الخلاء بين الذرات والخطوط السود وسط الألوان وذلك لشدة إحكامه وتمام إتقانه فذلك الاتقان جعله لاخطوط فيه ولا فراغ والبصر لايدرك شيئا من ذلك « فارجع البصر هل ترى من فطور » فيه بين الألوان وبين الذرات مع أن ذلك كله موجود فعلا ، فالفطور مع وجودها أصبحت لاترى لشدة إحكام المادة وانتظام النور كما أن العالم كله يتحرك ولكنه لشدة الإحكام يرى ساكنا كما قال تعالى « وله ماسكن في الليل والنهار الخ » .

(٣) والوجه الثالث أننا نلاحظ ما في الوجه الثاني أيضا ولكنا نقول « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » وهذه الرؤية عقلية لابصرية ، فالعقل أدرك أن الذرات تشبه السيارات وصغير العالم كبيره فأشبه جزؤه كله وكبيره صغيره من وجهين : الأول أن الذرات تشبه السيارات من حيث الفراغ الحاصل بينهما ومن حيث دوران جزئياتها حول نواتها دورانا منتظما . والثاني أن تركيب الشمس مثلا كتركيب الأرض ولم يعلم ذلك إلا بتلك الخطوط السود في الطيف التي أبانت باختلافها اختلاف العناصر في الشمس وحينئذ يقال هل ترى ببصرك من فطور حتى تحكم بها على تشابه المادة بحيث تشابه الذرات السيارات ويشابه المعدن بالخطوط المعترضة في لهبه نظيره في الكون فيحكم بوجوده فيه وبهذا يحكم بتشابه العوالم ، كلا ، أنت لاترى ذلك ببصرك مطلقا بل البصر يرى المادة لاخلاء فيها ويرى آثار الضوء في قوس قزح لاأثر للخطوط السود فيه مع أن الحقيقة أن للمادة وألوان الطيف فيهما فراغ ؛ ففي الأول بين الذرات ، وفي الثاني خطوط سود بين تلك الألوان وإنما لم تبصر ذلك لأن البصر لايقوى على ذلك وإنما يقوى الانسان عليه بالآلات التي اخترعها العقل البشري وبالاستنتاج بالعقل والفكر ، انتهى .

فهذه الآية بدرسها من علم الطبيعة في الأرض فتحت لنا باب العروج إلى السموات فأدركنا تركيب أجسامها وعرفنا عناصرها . فهذا مثال واحد من الأمثلة التي لاتحصى بها، أدركنا نظام العالم العلوي بعضاغة

نوره بأنوار معادن العالم السفلى . فهذه سياحة عقلية بها يرتقى العقل الانسانى ويشاهد حكما وعلوما متبعا فى ذلك نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم إذ رأى جمالا لايصفه الواصفون . هكذا فلنجدّ فى العلم ولنرتق فى الأسباب.

إنّ الإسراء والمعراج جعلا لنا درسا لنجدّ ونسرى فى العلوم الأرضية ونعرج إلى العلوم العقلية والحمد لله رب العالمين ، انتهت اللطيفة الثانية .

(اللطيفة الثالثة ـ وقضينا إلى بنى إسرائيل ـ الخ)

اعلم أن بنى إسرائيل من بعد موسى لم يكونوا ملتزمين بالجهاد كالأمة الاسلامية بل كانوا يحافظون على شرائعهم ويدافعون عن بلادهم فبقى القوم بعد موسى ويوشع عليهما السلام نحو أربعمائة سنة على هذه الحالة لايعنيهم شىء سواها وكان القائم بأمرهم يسمى (الكوهن) كأنه خليفة موسى عليه الصلاة والسلام يقيم لهم أمر دينهم ولابدّ أن يكون من ذرّية هرون لأن موسى لم يعقب ويكون مع الكوهن سبعون شيخا يقومون بأحكامهم العامة تحت إشراف الكوهن وفى أثناء ذلك غلبوا الكنعانيين على بيت المقدس وماجاوره وحاربوا أهل فلسطين والأردن وعمان ومأرب ولكن لم تكن لهم صولة الملك فطلبوا من شمويل نبيهم أن يجعل الله لهم ملكا يجمع شملهم فملك طالوت وقتل داود من عسكره جالوت عدوّه فتولى داود الملك بعد طالوت فسليمان ابنه عليهما السلام واستفحل الملك وامتدّ إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم أطراف بلاد الروم ثم افترق الأسباط من بعد سليمان إلى دولتين : إحداهما كانت بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة ، والأخرى بالقدس والشام لبنى يهوذا وبنيامين ثم غلبهم بختنصر ملك بابل فاستولى على الأسباط العشرة أوّلا ثم ثانيا على بنى يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال ملكهم نحو ألف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أصبهان وبلاد العراق إلى أن ردّهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول .

تغلب اليونان على الفرس فاليهود

ولما غلب الإسكندر واليونانيون قومه على الفرس أصبح اليهود فى قبضتهم فلما فشل أمر اليونان اعتزّ اليهود بعصبيتهم وأخرجوهم من ديارهم وأقاموا دينهم على الطريقة الأولى وكهنتهم من بنى حشمناى فلما غلب الروم اليونان على أمرهم رجعوا إلى بيت المقدس وفيه بنو هيردوس أصهار بنى حشمناى وبقية دولتهم فاستحوذوا عليهم وبقوا فى قبضتهم فتحوها عنوة حتى أرسل عيسى فى أيامهم ودالت دولتهم بعد رفعه إلى السماء بنحو(٧٠) سنة فأجلوهم عن بلادهم إلى رومية وما وراءها وهو الخراب الثانى للمسجد ويسميه اليهود الجلوة الكبرى فلم يقم لهم بعدها ملك بفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك فى مملكة الروم ومن بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن . ثم إن عيسى عليه السلام أرسل فى مدة (هيردوس) ملك اليهود الذى انتزع الملك من بنى حشمناى أصهاره فى أيام الملك (أوغسطس) فحسده اليهود فكاتب (هيردوس) ملكهم ملك القياصرة (أوغسطس) فأذن لهم فى قتله وكان ماكان مما قصه الله فى القرآن ثم افترق الحواريون فدخلوا بلاد الروم داعين إلى النصرانية وبعد ذلك أجلاهم الروم كما تقدم . هذا هو التاريخ الذى يشير له القرآن . فالمرة الأولى هى غزوة الفرس لهم ، والمرة الثانية غزوة الروم لهم لما عصوا بعد عيسى عليه السلام ، انتهت اللطيفة الثالثة .

(اللطيفة الرابعة ـ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ـ)

لما ذكر أمر اليهود وتفرق دولهم وتسلط الأمم عليهم وأنهم أجلوهم عن بلادهم . فالفرس إلى أصبهان وما والاها من البلدان ، والروم إلى رومية وما والاها من أوروبا وكانت مدتهم إلى زمن عيسى عليه السلام نحو (١٤٠٠) سنة أربعمائة إلى حكم سليمان وستمائة إلى جلوتهم فى بلادالفرس وأربعمائة إلى جلوتهم الكبرى .

ولقد

ولقد كانوا فى مصر قبل ذلك نحو أربعمائة سنة قدمتهم من أيام يوسف إلى زمن المسيح (١٨٠٠) سنة وقد اعتراهم الذل بعد رسالة موسى بألف سنة فأخرجوا من ديارهم ثم بعد أربعمائة أخرى أذلهم الروم . ولقد اتفق لأمة الاسلام أن غلب بعضها على أمره ولكن لم يحصل إجلاء عن البلاد إلا فى الأندلس بعد النبوة بما يقرب من ألف سنة فأخرج الأسبانيون العرب من أمتنا من ديارهم بأوروبا . ولم يعم الإخراج المسلمين جميعا لأنهم أمة عظيمة وليس فيهم جشع اليهود الذى بغض الأمم فيهم فأذلوهم .

يقول الله « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ولقد بينا فى اللطائف السابقة الاشارات الدالة على أن للاسلام أمما ستفوق غيرها . إن اليهود اليوم هم أصحاب العلم فى العالم الانسانى . إن اليهود هم الذين أشاعوا الدول البلشفية وهم هم الذين بفلسفتهم قد حركوا ألمانيا إلى الحرب الكبرى وفيلسوفهم (نيتشيه) أشاع فيهم هذه الفكرة (الرحمة ضعف وخور فليمت الضعيف وليعش القوى) .

اليهود اليوم هم الذين يديرون العالم كما يشاءون . يقوم الفيلسوف منهم فيحرك العالم تحريكا بعقله . جاء فى (التلمود) وهو ملخص دين اليهود وقد تقدم فى التفسير : إن الله فرقنا فى الأمم لأنه يعلم أننا شعبه وأبناؤه وأن العالم الانسانى كله خادم لنا وهذا الانسان كله وسط بيننا وبين البهائم نستعملهم للتفاهم بيننا وبين الحيوانات فوجب علينا أن نجعلهم متشاكسين متقاتلين متعادين وندخل فى سياساتهم ونجعلهم فى حرب لنستفيد منهم ونزوج بناتنا لعظمائهم وندخل فى كل دين لنفسده على أهله وتكون لنا السيادة على هذا الانسان الذى سخره الله لنا انتهى .

ولقد فعلوا ذلك أو قريبا منه . وهاهم أولاء قد أسسوا دولة البلشفية فى بلاد الروس ومنهم (لينين) وأعوانه الذى توفى قريبا وهاهى دولتهم تناظر دول أوروبا وقد اتسعت اليوم ولاندرى مايفعل الله بالانسان غدا . هذا ماكان من أمر اليهود الذين مضى على دينهم نحو (٣٤٠٠) سنة فهل يقوم الاسلام بأمر العالم ويعلو فى فلسفته وحكمته على الأمم ومنهم اليهود ويجعل أهل الأرض فى حال أخوة وسلام لاتنابذ ولاشقاق وإذا كان هذا هو الذى وصل اليه اليهود الذين على يديهم أرسل عيسى منهم وهم هم الذين نشروا دينه فى الشرق والغرب ثم اخترعوا البلشفية فهم إذن سادة العالم الأدنى فهل المسلمون الذين جاء دينهم بعد الدينين اليهوديين يقومون بدور يناسب ديننا وهل قوله تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » يشير إلى أن أمما ستكون بعد الآن فى الاسلام تحمل أهل الأرض قاطبة على الرقى . إن (ماركس) الألمانى الذى هو أصل البلشفية يهودي ألمانى وهو الذى أخرج العالم من حال إلى حال بعد موت موسى بثلاثة آلاف وأربعمائة سنة فهل يقوم فى المسلمين بعد اليوم وقد مضى للاسلام ١٤ قرنا قائم يرقى المسلمين ويرقى العالم كله ويكون ذلك سعادة للناس لاشقاء كما فعل اليهود فى أوروبا والشرق وهل زمن عيسى الذى جاء فى شريعتنا وفى شريعة النصارى أنه سينزل حيا . هل هذا الزمن بعيد حصوله . إنه ليس ببعيد أى أن المسلمين إذا قاموا بدورهم الانسانى ورقوا الأمم وساد السلام على يديهم فهناك يعم السلام فى الأرض وتكون جيوش المسلمين مؤدبة للأمم لاظالمة كما تفعل أوروبا الآن . هذا هو الذى يرتقب من أمة الاسلام وهذا هو الذى فهمته من قوله تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وأن أمة الاسلام ستلعب دورها يوما ما وتبنى مجدا للعالم كله ويكون الناس جميعا أبناءنا . إن هذه المدة التى مضت فى الاسلام كالمدة التى مضت على بنى إسرائيل حين أجلاهم الروم الجلوة الكبرى فقد كانت نحو (١٤٠٠) سنة فذل اليهود إذ ذاك وذل المسلمون الآن ولكن فرق بين الذلين فالمسلمون لهم دول مستقلة وإن كانت قليلة فاذا قسنا هذه الحال بتلك قلنا إن ماقلته ربما يتم لأنه إذا مضى بعد ذلك مئات السنين يكون هناك دول تعارف من الاسلام ويكونون رحمة للعالمين وهم يمنعون الظالمين عن المظلومين . فهذا هو الذى نفهمه من ذكر قصة موسى بعد الاسراء ومن العلاقة بين نبينا محمد ﷺ

وموسى عليه السلام ومن ارتقاء نبينا عليه فهو فى السماء السادسة ونبينا فوق السابعة ولا معنى لهذا بالنسبة للأمم إلا ماذكرناه ، انتهت اللطيفة الرابعة .

(اللطيفة الخامسة ـ ويدع الانسان بالشرّ دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا ـ)

لما ذكر الله أمة بنى اسرائيل وماحلّ بهم وأتبع ذلك بأن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم وسيذكر بعد ذلك سنن الكون ونواميسه وحسابه أبان فى هذه الآية المذكورة مابين القرآن الذى هو أقوم ومابين النواميس والحساب السماوى فقال إن هذا الانسان خلق عجولا بطبعه ميالا إلى ما لاتحمد عقباه . فطرة فطرناه عليها فهو يتمادى فى الشهوات ويتغالى فيما يظنه خيرات فهو يحرص على المال والولد والصيت والشهرة وافتتاح البلدان وإزالة الممالك وهو يظنّ ذلك خيرات بشهوته وعجلته الطبيعية ثم يتمادى فى ذلك الذى ظنه خيرا إلى أن يصل إلى ماظنه شرا فيدعو على نفسه وعلى ولده وعلى أهله ويتمنى الموت . كل ذلك لعجلته . وإذا كان هكذا أمره فانه لاينبغى أن يترك وشأنه . ولتهذّب طباعه بالكتب الدينية والعجائب الكونية والحساب السماوى والعالم الطبيعى والنظام الالهى

هذا شأن الانسان بيناه ، وهذا أمره كشفناه . فليقم بالدين وليقرأ العلوم حتى يقف على الحقائق ويعلم أن أكثر مايظنه خيرا إنما هو شرّ من وجه فاذا فتح البلدان لقهر الأمم عاد ذلك عليه بالوبال كما حصل لبنى إسرائيل . فليحترس المسلمون أن يغلبوا الأمم لقهرها لا لتعليمها وإلا حلّ بهم ما حلّ باليهود وقد كان ذلك ومضى . وحلّ بالأمم الاسلامية ما يقابل أفعالها الظالمة فى بعض القرون واضمحلت الشوكة . لماذا ؟ لأن الانسان جهول . فليقرأ العلوم ، وإنما قال الله « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » لأنه أرشد إلى علم الكائنات . فالقرآن لايقف عند تلاوة الألفاظ فحسب . ولذلك ترى هذه الآية جاءت بعدها فقال إن الانسان عجول فلتهذبه العلوم ثم أتبعها بذلك النظام .

إن القرآن يهدى للتى هى أقوم . إنه يدعو الى قراءة كتاب الله المفتوح ، كتاب السموات والأرض كتاب الطبيعة ، كتاب النبات ، كتاب الحيوان ، كتاب الانسان ، كتاب علم النفس ، كتاب علم التشريح ، كتاب علم السياسة ، كتاب علم الأجنة ، كتاب علم آثار الأمم ، كتاب كتاب الخ .

فهذه هى الهداية للطريق الأقوم . وهذا هو دين الاسلام . وهذه هى طريقه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . انتهت اللطيفة الخامسة .

(اللطيفة السادسة ـ وجعلنا الليل والنهار آيتين ـ إلى قوله ـ وكل شىء فصلناه تفصيلا ـ)

لقد قدمت فى هذا التفسير حساب الأفلاك مرارا وتبين لك فيه كيف فصل الله العالم تفصيلا . ولكن لأذكر لك درة يتيمة وجوهرة مضيئة وآية شريفة وزبرجدة خضراء، وياقوتة حمراء، وألماسة بيضاء، وحكمة بديعة وشمسا مضيئة فأقول :

انظر (مسألتين اثنتين : الأولى) مسألة السنين القمرية وأن كل سنة منها ٣٥٤ يوما وسدس يوم وخمسه وهذا السدس وهذا الخمس باجتماعهما سنة بعد سنة يكونان أياما وتلك الأيام التامة تكون السنة التى تمت فيها كبيسة والتى لم يضم لها يوم يقال لها بسيطة . ولقد وجد ذلك فى كل ثلاثين سنة ١١ كبيسة و ١٩ بسيطة وتكون النسبة منتظمة عجيبة لاخطأ فيها ولا خطل وكل (٧) أدوار يقال لها دور كبير وهو (٢١٠) سنة فكل دور من الأدوار الصغيرة يكون مماثلا لنظيره فى الأدوار الكبيرة التالية أياما وشهورا ويمكن أن يجعل نسبة منتظمة فيقال هكذا نسبة ١١ إلى ١٩ كنسبة ٢٢ إلى ٣٨ كنسبة ٤٤ إلى ٧٦ كنسبة ٨٨ إلى ١٥٢ وهكذا إلى تمام الدور فالأدوار تابع والحساب لايتغير والنسبة منتظمة ولها جداول لاخطأ فيها والسنة (٣٥٤) يوما و ٣٥٥ يوما على مقتضى البسيطة والكبيسة وهكذا .

فقل لى بربك . ألست ترى أن الله هكذا فصل وهكذا بين . ألست ترى أنك بهذا الحساب المتقن تحسب السنين العربية من أول التاريخ العربى وتسقط أدوارها ثلاثين و٢١٠ و٢١٠ وهكذا وقد أوضحناه فى هذا التفسير سابقا فارجع اليه فى مظانه لتعرف أوائل السنين العربية فى آخر (آل عمران) ولست اليوم أقول هــذا لمعرفة أوائل السنين وإنما أقوله لما هو أعلى . أقوله للتفسير . الله يقول « وكل شىء فصلناه تفصيلا » فهكذا يكون التفصيل وهكذا يكون البيان ولهذا أنزل القرآن . أنزل القرآن ليلفتنا إلى كتاب الله الذى خلق قبل إنزال القرآن بالوحى . كتاب الله الذى فى الطبيعة وهو الكتاب المفصل وهو الكتاب المبين . هو الكتاب الذى كتبه الله بيده وأودعه فى الطبيعة وقال يامحمد أشر الى تفصيل ودل أمتك على بيانى وقل لهم هذا خلق الله وهذا جمال الله وهذا بيان الله، فبه فاقتدوا وبعلومه فانتفعوا . القرآن يقرؤه الجاهل والعالم والطبيعة لايدركها إلا العلماء فلذلك كفر بها كثير من جهلة الاسلام « وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام ، انتهت المسألة الأولى .

(المسألة الثانية النظر فى جسم الانسان وحسابه)

إذا خرج الانسان من الرحم تام البنية سالما من سوء الأخلاط يكون فيه أشياء متماثلة وأشياء تزيد بالثلث وبالربع وأشياء بالمثل والثمن وما أشبه ذلك . فالتى هى متساوية إذا قيست بشبره نفسه هى :

(١) من رأس ركبته إلى أسفل قدميه يساوى الذى من ركبته إلى حقويه يساوى الذى من حقويه إلى رأس فؤاده يساوى الذى من رأس فؤاده إلى مفرق رأسه فكل مقدار من هذه شبران بشبره .

(٢) إذا فتح يديه كالطائر كان هكذا مابين رأس أصابع يده إلى مرفقه يساوى مقدار مابين مرفقه إلى ترقوته يساوى مقدار مابين ترقوته إلى مرفقه اليسرى يساوى مابين مرفق اليسرى وأطراف أصابعها كل منها شبران .

(٣) إن الانسان إذا صنع دائرة مركزها سرته ومر محيطها بأصابع رجليه ومد يديه إلى أعلى فان المحيط يمر بأطراف أصابعهما فتزيد عن قامته ربعها ويكون النصف خمسة أشبار من أعلى النصف ومن أسفل النصف .

(٤) طول وجهه من رأس ذقنه إلى منبت الشعر فوق جبينه شبر وثمن وطول جبينه ثلث شبر .

(٥) طول عينيه كل واحدة منهما ثمن شبره وطول أنفه ربع شبره يساوى شق فمه وشفتيه .

(٦) طول كفيه من رأس الكرسوع إلى رأس الأصبع الوسطى شبر .

(٧) الابهام والخنصر متساويان، ومابين ثدييه شبر يساوى مابين عانته وسرته يساوى مابين رأس فؤاده وترقوته . وقد تقدم فى هذا التفسير أكثر من هذا وأعدناه هنا للمناسبة .

هذا بعض ماذكروه فى جسم الانسان وقالوا إن كل حيوان بل كل نبات منظم تمام الانتظام على هذا المنوال، وقد ظهر فى هذه الأمثلة المماثلة والثمن والربع والثلث . ومن هاتين القاعدتين فى النسب الهندسية بنوا علم الموسيقى وعلم الجمال ولقد أوضحناه فى كتاب [الفلسفة العربية] . فانظر كيف فصل الله هــذا العالم تفصيلا وانظر كيف جعل الحساب مفصلا واضحا لايخطىء بعد آلاف الآلاف من السنين، وكيف فصل أعضاءنا وقدر الجمال إذا تم حسابها والقبح إذا حصل اختلاف يسير . إن هذا هو التفصيل وهــذا هو البيان . ولقد ظهر ذات الجمال فى علم الشعر والنسبة الهندسية فيه وفى ظلال الأشجار وفى السفينتين على وجه الماء، ونسبتهما ونسبة الماء الذى أزاحاه من ماء البحر وهكذا الثمن والثمن وأن بينهما ثمان نسب أربعة طردية وأربعة عكسية كل ذلك فى (كتاب الفلسفة) كتب تذكرة للمؤمنين وعظة للمتقين .

إن الحساب يعلم الصبر والصدق وذلك ضد عجلة الانسان الذى يسعى فى فتوح البلدان يظنها خيرا مطلقا وما درى أن السم فى الدسم ، وهكذا المال والولد والصيت فكل ذلك سعادة وتحته آلام . فليكن الصبر هو

الملجأ . ولكن العلوم هى السلوة . ولكن الجمال هو المنظر . جمال هذا العالم البديع المتلىء بهجة وحسنا وكمالا ونظاما وبهاء . لقد بينت يا أقد بعض معانى القرآن وإنى قادم إليك من هذا العالم ورثت من الكمان وأنت المستعان .

(اللطيفة السابعة ـ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ـ الخ)

اعلم أن هذا الجسم الانسانى قصر النفس ومسكنها ولوحها المقروء وكتابها الذى تدرس تشريحه وتفصيله وهذا الكتاب يوما ماستذره الروح وتتركه ولكنها تجد كل ماعملت مسطرا فيها مكتوبا مفصلا تفصيلا كما فصلت أعضاؤه التى رأيها وكما فصل حساب السموات التى عرفتها . لهذا ذكر علم النفس بعد علم العوالم المادية لتعرف أن هذه الظواهر السماوية والأرضية المفصلة الموضحة البديعة الجميلة وراءها أرواح مفصلة موضحة أكثر من هذه ، ولأقرب لك الأمر بما هو مشاهد معروف . انظر إلى الدول الأوروبية وإلى دولتنا المصرية وتوجه إلى محافظة مصر وانظر هناك كيف جعلوا علامات الابهام لكل إنسان دالة عليه ووجدوا أنه لا إبهام يشابه الأخرى أى أن إبهام زيد إذا طبعه على الورق يكون أصدق من ختمه الصناعى لأن هذا الختم لايقلد فان الخطوط التى فى إبهام زيد تخالف الخطوط التى فى إبهام عمرو فلا يتشابهان كل المشابهة . فهذا أيضا من معنى قوله « وكل شىء فصلناه تفصيلا » .

وانظر أيضا إلى لون كل امرىء وإلى صورته وإذا كان الجنس الأبيض من الناس والجنس الأحمر والجنس الأصفر كل طائفة منهم قد اشتركوا فى اللون فانك لاتجد واحدا يشبه لونه لون الآخر سوادا وبياضا وحمرة وصفرة هكذا هيئة الوجه والأعضاء . هـذا هو معنى « فصلناه تفصيلا » ووضحناه إيضاحا . هـذا توضيح الله لنا . هكذا نقول فى أرواحنا كما قدمناه فى هـذا التفسير فان الأرواح الانسانية يسطر فيها كل شىء عملناه وبالتكرار يصير هذا العمل ملكة راسخة وهذا الملكة الراسخة فينا تبقى ثابتة . فالجهل والعداوة والحرص والطمع والبخل وما أشبه ذلك يصبح فينا جزءا منا فهو يؤذينا كما نحس بالأذى من الأخبار المحزنة . وهـذا الأذى لايفارق النفس ويؤلمها أشد الألم بل هو يؤلمها فى الحياة الدنيا كما يحس الانسان بالوخز فى ضميره فاذا وقعت الواقعة وانشقت سماء رؤوسنا فهى يومئذ واهية وزلزلت المادة الأرضية فى أجسامنا وأخرجت أثقالها فرمتها بالأرض « وقال الانسان مالها . يومئذ تحدث أخبارها » بأن الموت قد أتى لها وإذن تبقى النفس خالصة لاشىء يحجبها فتحزن حزنا شديدا فان فارقت المألوفات حزنت عليها وإن اقترفت الخطيئات احترق قلبها عليها وإن جهلت علوم الكائنات أصبحت فى ألم عظيم إذ تحس بأن العلماء ارتقوا إلى أعلى الدرجات وهى باقية فى الظلمات . وهذه قيامة كل امرىء فكل امرىء تقوم قيامته بموته كما روى « من مات فقد قامت قيامته » وهذا مبدأ الحساب والحساب واضح لايحتاج لشرح ، فاذا نظر الانسان لصورته الحقيقية ورآها ملوثة قذرة أنف أن ينظر إليها وكره منظرها وهو غير قادر على التخلص منها وهذا له الدنيا ؟ فان أصحاب العلاقات العشقية الذين حكم عليهم أن يعيشوا مع أخس النساء والذين يتعاطون المسكرات ويعلمون أن هذين الوصفين يضيعان شرفهم وصحتهم وسمعتهم ووظائفهم فهؤلاء يقولون نود لو نقدر على الترك ولكن الملكة فينا متمكنة فلا نقدر على المفارقة ، فكل من هؤلاء يود لو يتوب ولكن استحكام العادة يقعده عن الخروج منها فهذا سجن وحسرة وإحراق قلبى زيادة عن الجسمى . هذا هو قوله تعالى « اقرأ كتابك » فليست قراءة كتابية بل قراءة نظرية علمية يقرؤها الجاهل والعالم والذكى والغبى والكافر والمؤمن لاتحتاج إلى ذكاء ولا إلى عين وضياء ويقال للانسان إذ ذاك « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وأى بصر أحدّ من هذا . إن هذا العذاب يحس ببعضه الناس فى الدنيا ولكنه محجوب عنهم أكثره فتجد العقلاء فى أوقات فراغهم إذا رأوا عالما أحسوا بحزنهم على تقصيرهم فى العلم وإذا رأوا ذا خلق حميد ودّوا لو يكونون مثله ويذكرون نقائصهم فتحزنهم وهكذا . فعذاب الانسان بعد الموت أكثر مقدماته معلومة من الآن

فان الجاهل يثق فى مزرعته أو تجارته مثلا لايفارقها وإذا كان عنده علم رأيته يخلو به فى بعض أوقاته ليرقى نفسه .

على نفسه فليبك من ضاع عمره   وليس له منها نصيب ولا سهم

هذا هو مابينه الله وهو أن حساب النفس فى أخلاقها وأعمالها مسطر فيها مفصل كحساب الأفلاك وحساب ظواهر الأجسام . واعلم أن هذا القول هو الحقيقة أى أن الناس اليوم فى الحياة الدنيا مسطرة فى نفوسهم نقائصهم وكمالاتهم وأن ذلك ينكشف بالموت ويبتدئ النعيم والجحيم ويزيد الانكشاف يوم القيامة الكبرى ، فالأطفال والنساء والصبيان يكتفون بعذاب جهنم والعقلاء يستبعدون ذلك فجاءت هذه الآية لتريهم سرعة العذاب ، وهذا أيضا ربما لايكفى بعض النفوس فعجل الله العذاب فى الدنيا وكشفه عنهم وأظهر علاماته ليرتدع الناس عن الذنوب وليعلموا أن لكل ذنب جزاء مبتدئا من العمل منتهيا إلى آجال غير معلومة . هذه هى الحقائق الناصعة والآيات الواضحة .

جوهرة فى قوله تعالى « إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »

اعلم أيدك الله أن العالم الذى نعيش فيه يكاد ينطق بهذه الآية . يخيل للانسان أن أعماله لا أثر لها ولكن المفكرون الدارسون من علمائنا السابقين وعلماء القرن العشرين يعلمون بمزاولة الدراسة هذا المقام علما إقناعيا تارة ويقينيا أخرى ، ولأقدم لك مقدمة فأقول :

إن تفاوت الحركات فى المادة بطأ وسرعة كتفاوت الأجسام خفة وثقلا وتفاوت الآثار ذهابا وبقاء . أما كون التفاوت عظيم فى الحركات فان الناس يشاهدون السلحفاة القليلة الخطوات والأرنب السريع العدو والرياح العواصف وقطرات السكة الحديدية والبرق والنور فأى نسبة بين السلحفاة والأرنب وزد على ذلك مابينهما وبين الريح .

يرينا الله البرق ويرينا السلحفاة ويقول أنا أخلق هذا البطء لحكمة وهذه السرعة لحكمة أخرى ولا أضن على خلق بكل ماهو فى الامكان والبخل بالممكن ظلم والظلم لايتصف به الحكيم العليم . وترى العلماء يقولون إن سرعة الصوت فى الهواء ١٠٩٠ قدما فى الثانية بميزان (فارنهيت) و ١٤٦٣ قدما فى الهيدروجين فى الثانية وفى الأكسوجين ١٠٤٠ قدما . كل هذا فى الثانية وفى الماء ٤٧٠٨ أقدام فى الثانية وفى الحديد ١٦٨٠٠ قدما فى الثانية وفى النحاس ١٦٠٠ قدما فى الثانية وذلك نحو عشرة أمثال سرعته فى الهواء وفى السنديان ١٠٩٠٠ قدما فى الثانية . إذا فهمت هذا فانظر النور فانه يقطع فى الثانية الواحدة ١٩٢٠٠٠ ميل فى الثانية . ومعلوم أن محيط الأرض ٢٣٨٠٠ ميل . إذن النور يقطع محيط الكرة الأرضية ثمان مرات فى الثانية وبعبارة أخرى ٤٠ ألف كيلو مضروبة فى (٨) وهو ٣٢٠٠٠٠ كيلو مع أن قطر سكة الحديد يقطع فى الثانية الواحدة نحو واحد من ستين من الكيلو وذلك نحو ١٨ مترا فتكون سرعة النور أكثر من سرعة القطر فى سكة الحديد ٣٢٠٠٠٠ فى ٦٠ أو ١٩٢٠٠٠٠٠ أى ١٩ ألف ألف ومائتى ألف مرة تقريبا . ومعلوم أن قطر سكة الحديد أسرع من جرى الخيل والخيل أسرع من الحمير وهكذا إلى السلحفاة فاعجب لقطار أعجبنا جريه أصبح كسلحفاة بالنسبة للنور .

الكثافة واللطافة

وكما عرفت اختلاف الصوت تعرف اختلاف الأجسام خفة وكثافة فترى للماء ألطف من الأرض نحو خمس مرات والهواء ألطف من الماء ٨٠٠ مرة والبخار ألطف من الماء ١٧٢٨ مرة كما تقدم فى التفسير فيكون ألطف من الهواء مرتين فأكثر قليلا ثم وراء البخار الذى يعلو على الهواء النور فهو ألطف وألطف . وماهو النور هو إما مادة لطيفة وإما عرض قائم بالمادة فاذا كان مادة لطيفة فكيف ينتقل من الشمس والكواكب

إلينا إلا على جسم يحمله إلينا كما تنقل الدوّاب أجسامنا وأمتعتنا وإن كان عرضا فى المادة بأن يكون تموّجا فى الأثير حصل المقصود وهو تلك المادة اللطيفة . إذن النور لابد أن يكون دالا على شىء موجود إما أن يكون هو نفس ذلك الشىء وإما أن يكون هو قائما به . الله أكبر . جلّ العلم وجلت الحكمة اقتربنا من المقصود وهو ماجاء فى كتاب [إخوان الصفاء] وماجاء فى كتاب اللورد (أوليفرلودج) . إن الذى جاء فى كتاب [إخوان الصفاء] هو أن هذا الفراغ الذى نراه ليس فراغا والفراغ مستحيل لأننا لانتصور هذا الفراغ إلا ظلمة أو نورا ، والظلمة والنور إما عرضان وإما جوهران وإما أحدهما عرض والآخر جوهر؛ فان كانا جوهرين فقد تم المقصود وهو أنه لاخلاء فى الكون وإن كانا عرضين كالبياض والسواد فلابد أنهما قائمان بجوهر وقد تم المقصود وإن كان أحدهما جوهرا والآخر عرضا فحكمهما قد ظهر مما قبلهما وهذا برهان يقينى . هذا ماجاء فى [إخوان الصفاء] فاسمع إذن لما جاء فى كلام اللورد (أوليفرلودج) المعاصر لنا الذى ألف كتابا سماه [الأثير والحقيقة] طبع فى شهر مايو سنة ١٩٢٥ ثلاث طبعات أى قبل كتابة هذه المقالة بسنتين اثنتين وبضعة أشهر . فانظر ماذا يقول فى هذا الكتاب . يقول : النور إما أن يكون مادة أو ظاهرة طبيعية — يريد عرضا قائما بالمادة — فان كان مادة منبعثة من الأجرام السماوية فى شكل ذرات دقيقة فلا بد من شىء يحمله كما يحمل الماء البواخر . وإذا كان النور ظاهرة طبيعية أى تموجا وجب أن يكون هنالك شىء يتموج ، وعلى كلتا الحالتين لابد من وجود شىء يحمل النور أو يتموج فيكون النور وذلك الشىء هو الأثير . ألست تعجب معى أن يكون مايقوله (أو ليفرلودج) الانجليزى هو عين مايقوله [إخوان الصفاء] وبينهما نحو ١١٠٠ سنة .

اللهم إن العقول الانسانية الفاضلة فى عالمك الذى خلقته متلاقية متصاحبة والعقول الجاهلة متباعدة متنافرة . هاأنا ذا وصلت معك من الكثيف إلى اللطيف وذكرت لك الحركات ودرجاتها . فههنا مادة كثيفة وأخرى لطيفة وحركة بطيئة وأخرى سريعة . وبعبارة أخرى حجر وسلحفاة أولا ونور وحركات النور ثانيا فالنور مقابل الحجر وحركات النور مقابلة لحركات السلحفاة واعجب كيف يتلاقى الأمران فى النور جوهره وحركته . ثم انظر فى الأمر الثالث معى وهو ذهاب الآثار وبقاؤها فبقاء الآثار أشبه بالحجر وبحركات السلحفاة وذهابها أشبه بحركات النور . فانظر أمواج البحار وأمواج الهواء بالعواصف والرياح فهذه آثار سريعة الزوال ثم تذكر بعد ذلك صور العناصر المركبة فى أرضنا مثل النبات والحيوان فلها مدد أطول ثم أطول جدا من مدى أمواج البحار وحركات الرياح من يوم إلى شهر إلى سنة إلى مائة سنة إلى أطول فى بعض الأشجار وبعض الحيوان . ثم انظر إلى ماهو أطول من ذلك كآثار المؤلفين الذين أودعوا نفائس علومهم فى بطون الكتب والطوامير وبقى ذلك مئات ومئات من السنين ثم انظر لما فوق ذلك مما أودعه القدماء من الكتابة على الأحجار والجدران المتينة الصلدة بحيث بقيت تلك الآثار آلافا وآلافا من السنين . فانظر لهذا الوجود واعجب ، مواد جامدة وأخرى لطيفة وحركات بطيئة وأخرى سريعة وآثار باقية وأخرى زائلة . وجود ملىء بالأمور المتقابلة وكلها نافعة فى هذا الوجود .

ثمرة هذا المقام معرفة حقيقة النفس الإنسانية وموافقة أبحاث اللورد (أوليفرلودج) فى كتابه [الأثير والحقيقة] المتقدم ذكره للآراء التى أودعها الرئيس (ابن سينا) فى كتاب الإشارات وأنا موقن أنك أيها الذكى فى أعظم الشوق إلى أن أقص عليك قصصهما لتعجب من العلم الذى ملأ الكرة الأرضية والمسلمون اليوم هم النائمون . ثم تعجب بعد ذلك كيف يكون هذا القول فيه مناسبة لمساق الآية التى نحن بصددها وإذن وجب أن أظهر لك هنا ثلاث زبرجدات (الزبرجدة الأولى) فى آراء الرئيس ابن سينا (الزبرجدة الثانية) فى آراء العلامة (أوليفرلودج) فى الكتاب المتقدم (الزبرجدة الثالثة) فيما يناسب ماتقدم من مساق هذه الآية .

الزبرجدة الأولى فى آراء ابن سينا

جاء فى كتاب [الإشارات] مع كلام شارحه هذه الجملة (القوة المحركة للسماء غير متناهية وغير جسمانية فهى مفارقة عقلية) يريد بذلك أن المحرك لهذه العوالم كلها قوة عقلية ليست فى المادة بل هى مفارقة لها ، ثم ذكر بعد ذلك أن هذا العقل العام تنبعث منه نفوس وهو يمدها دائما بما عنده من العلم وتلك النفوس هى التى تقوم بعوالم السماء فكل جرم سماوى أشبه بالجسم الإنسانى له قوة كامنة فيه كقوة الانسان نسميه نفسا وفوق هذه القوة شىء نسميه عقلا وله السلطة عليها كما تجد فينا نحن عقلا له السلطان على نفوسنا الشهوية، ويقول إن الله أول ما خلق إنما خلق العقل الأول الذى ليس بجسم ولا هو جزء من جسم ولا يتعلق بجسم بل هو عقل محض وهذا العقل المحض تولدت منه النفس المذكورة والنفس المذكورة أهل لملابسة الأجسام وكل جرم سماوى له عقل وله نفس وآخر العقول العقل الإنسانى وله اتصال بالعقول العالية المستمدة من العقل الأول الذى يستمد من الله وهذه العقول كلها مع اختلافها فى الدرجة ليست فى مادة كما أنها ليست مادة ولا جزءا من مادة فهى مفارقة.

ومما يستدل به هو وغيره على أن الآثار فى الأرض للعقول لا للأجسام أننا نرى الشمس تسخن الأرض وتجعلها قابلة لبعض الأعراض والسخونة نراها باقية بعد ذهاب ضوء الشمس . وهكذا نرى الثمار والحبوب قد صارت صالحة لما يراد منها بواسطة الشمس وحرارتها وتبقى تلك الصفات فيها وإن فارقت حرارة الشمس فذلك من الدلائل على أن هذه الآثار ليست للعالم الجسمى بل لعالم عقلى وما الشمس ولا الهواء ولا الحرارة ولا البرودة ولا الرطوبة إلا معدات ومؤهلات لا مؤثرات وكيف يكن مؤثرات وقد بقى الأثر مع عدمها هى . فهذا من ثمرات كون المؤثر فى العالم المادى عالما عقليا مفارقا للمادة . ثم يقول بعد ذلك :

أول موجود هو العقل الذى له السلطان على هذه العوالم كلها وهكذا العقول الأخرى ثم يليها صور الأفلاك والعناصر ثم يليها مواد العوالم العلوية والسفلية، والمادة (الهيولى) هى أخس مراتب الوجود ثم يرتقى الوجود فيكون معدنا فنباتا فحيوانا فانسانا والعقل الإنسانى أعلاه يكون منه عقول الحكماء ونحوهم وهى العقول التى رسمت فيها صور الوجود على ما هو عليه بقدر الطاقة البشرية فصار هؤلاء أقرب إلى العقول العالية الفلكية والعقل الأول وإن كانت صور الموجودات فى الانسان انفعالية وهى فى العقول العالية فعلية . ومعنى هذا أن صور الموجودات فى العقول الانسانية جاءت بواسطة المخلوقات التى وجدت بتأثير العقول العالية المحيطة بهذا الكون وبتأثيرها هى فى عقولنا فلا عقل فى الأرض يدرك علوما إلا إذا استمد هذه القوة من العقول العالية، كما أن أرضنا قد استمدت جرمها من جرم الشمس ونحن استمددنا أجسامنا وأغذيتنا من الأرض فالأصغر يستمد من الأكبر عقلا كما استمد منه جسما ، ههنا وصلنا إلى بيت القصيد من هذا الموضوع . لقد قدمنا أن الحجر والسلحفاة يغايران الضوء وحركة الضوء . وأن بقاء الأمواج المائية والهوائية أقل من بقاء النبات والحيوان وهذان بقاؤهما أقل من بقاء بعض الكتب المؤلفة والكتابة على الأحجار أبقى وأدوم . فهنا نقول ها نحن أولاء نرى أن علماء الفلسفة قديما كالرئيس ابن سينا يقولون إن هناك دواما لصور العلوم فى العقل الأول والعقول التى بعده وأن هذه العوالم العلوية كلها ذات نفوس كنفوسنا وعقول كعقولنا وأن عقولنا مستمدة من العقل الفعال الذى فى فلك القمر . هذا كلامهم وهذا رأيهم على مقتضى ما وصل اليه العلم فى زمانهم ويقولون إن هذه العقول الانسانية لهذا العقل الفعال أشبه بآلات له وهذه العقول السماوية تدبر هذه العقول الانسانية . هذا قولهم ويقولون إن تلك العقول العالية بالنسبة للعقول الانسانية أشبه بالشمس بالنسبة للعيون البصرية . فكما أن العين لا تبصر إلا بضوء كضوء الشمس كذلك هذه العقول الانسانية لا بصيرة لها ولا فهم إلا باشراق تلك العقول العالية عليها وهذه العقول رسم فيها هذا العالم كله . إذن نرجع لمثالنا ونقول هذه العقول تبقى العلوم فيها سرمدا أبدا فهى تفوق فى البقاء الأمواج فى الهواء والماء وصور النبات

والحيوان وكتب المؤلفين والكاتبين على الأحجار وعقولنا نحن تصبح بعد الموت حافظة لكل ماوقع لها لاتنساه كما قال تعالى « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا »

هذا كلام المتقدمين من الفلاسفة الإسلاميين وبه تمت الزبرجدة الأولى .

الزبرجدة الثانية فى ذكر ماقاله العلامة (أوليفرلودج) الموافق لآراء الرئيس ابن سينا .

ها أنت ذا اطلعت على آراء الفلاسفة المتقدمين وطريق تفكيرهم بطريق الرئيس ابن سينا الذى نقل هو والعلامة الفارابى قبله (١) علوم علماء الاسكندرية الذين لخصوا فلسفة اليونان والرومان (٢) وعلوم علماء اليونان الذين هم أساتذة علماء الرومان كسنيكا وشيشرون ومن بعدهم ، وقد جاء فى تاريخ الفارابى أنه قرأ الفلسفة على أساتذة تعلوها من علماء بالاسكندرية ، وقدكانت النصرانية حرمت عليهم التوغل فيها بعد الصدر الأول من التاريخ المسيحى . فها هو ذا طريق تفكيرهم ، يقولون بالعقول وبالنفوس السماوية ثم بالعقل الانسانى الذى تفيض عليه العقول العالية المفارقة للمادة وهو مثلها مفارق لها . فاذا مات الإنسان لم تمت روحه لأنها فى طبعها مفارقة للمادة فكيف تفنى . هذا كلامهم فاسمع إذن مايقوله السر (أوليفرلودج) .

(١) المادة (٢) الحى (٣) العاقل (٤) الأثير (٥) كل من علاقة الحياة والعقل والنور والكهرباء والمغناطيس بالأثير (٦) تأثير العقل فى المادة وسيادة مالا نراه من العواطف على مانراه من المادة (٧) انتقال الآراء من الدماغ إلى الأعصاب إلى الأيدى مثلا إلى الورق أو الهواء إلى عقول الآخرين بتوسط حواسهم وأعصابهم ، ثم أبان فهم العقل الانسانى لآثار العقل الكلى الذى أحاط بهذه العوالم كفهمه لآثار العقل الانسانى هذه صفة تفكير السر (أوليفرلودج) . هذه صفة تفكير علماء العصر الحاضر . هؤلاء الذين درسوا عالم السموات والأرض فرأوا أن الشموس والكواكب ليست شيئا سوى أنها مركبة من عناصر مثل التى ظهرت لنا فى أرضنا كالنحاس والحديد والبوتاسيوم والصوديوم . عرفوا ذلك بطريق النور . ذلك النور الواصل من تلك الأجرام المضيئة الذى هو مركب من ألوان سبعة تتخللها خطوط سود ، تلك الخطوط تتنوع فى الأجسام المضيئة بحيث تخالف خطوط الحديد السوداء مثلا نظائرها فى النحاس عند التهابها . فبهذا عرفوا مواد الشمس وغيرها من الكواكب الثابتة والسيارة . فاذن صرفوا طرق التفكير عن منهج القدماء الذين ظنوا أن هذه عوالم من عنصر غير عناصر الأرض . الفلاسفة القدماء كانوا يفكرون ذلك التفكير ليوصلهم إلى ماشعروا به فى نفوسهم من بقاء الأرواح فتحيلوا على ذلك بما سمعته فاتهم رأوا هذه النفوس الإنسانية قد تخبر بما غاب فى الرؤى فبتم ذلك فاحتالوا بالطرق العلمية على إثبات بقائها واتصالها بعوالم أخرى . هكذا علماء العصر الحاضر كاللورد (أوليفرلودج) هؤلاء الذين لما صدق بعضهم بعوالم الأرواح ومناجاتها أخذوا يقررون ذلك بالطرق العلمية المعروفة فى زماننا فتراهم يقولون إن العالم الذى نحن فيه ليس من المادة وحدها بل فيه عالم غير مادى . يقول السر (أوليفرلودج) الذى هو سائر على نهج التفكير العصرى . إننا نظرنا للمادة فوجدناها خالية من الحياة فى العناصر والمعادن والسوائل والغازات والكهرباء ثم رأيناها ارتقت فى (البروتوبلازم) .

(١) للمادة والحياة وهى (المادة التى ظهرت فيها الحياة) بصفة (مركب هلامى) ثم نرى تلك الحياة تزداد ارتقاء طبقا عن طبق حتى وصلت إلى العقل .

(٢) ولا ريب أن الحياة العامة والعقل الانسانى لم ندركهما وإنما عرفناهما بآثارهما . فنرى الحيوان يتحرك ويحس ونرى الانسان يبنى ويزرع وينظم فحكمنا بالحياة فى الأول والحياة والعقل فى الثانى .

(٣) ثم رأى العلماء أمرين عجيبين منذ القرن التاسع عشر فى عهد (نيوتن) وهما الجوهر الفرد الذى أثبتوه بالامتحان العلمى والأثير الذى لم يحكموا عليه لعدم خضوعه للامتحان العلمى لأنه لاشكل له كالمادة

ولا

ولا هو مركب وإنما عرفوه كما قدمناه فى هذا المقال بطريق النور إلى آخر ماتقدم .

(٤) النور والمغناطيسية الخ مع الحياة والعقل . ثم إن هــذا النور فيه حرارة والحرارة تنقلب إلى حركة والحركة إلى كهرباء والكهرباء تنقلب ضوءا . فهذه الظواهر ينقلب بعضها إلى بعض . فالنور كهرباء والكهرباء نور وكل هذه الظواهر فى العالم الذى سميناه (أثيرا) .

تأثير مالا نراه من العقل والحياة فيما نراه من المادة

يقول السر (أوليفرلودج) ماملخصه إن هذا العالم كما تقدم فيه المادة وغير المادة وأكثر العلماء على ذلك ، فالحياة والعقل والحب والرحمة والغرائز المتنوعة فى سائر الحيوان هى التى لها السلطان على المادة . ألا ترى أننا نعلم أن فى خلايا الدماغ قوة تنبع من هناك وتسير فى الأعصاب فالأعضاء ، فيتكلم اللسان وتكتب اليد والكلام يحمله الهواء والكتابة يحملها الورق أو الأحجار أو المبانى . والهواء يسلم الكلمات لأذن السامع وأذن السامع توصلها للأعصاب والأعصاب توصلها إلى خلايا الدماغ عند السامع وهكذا الكتابة يرها القارئ صورا فى الورق أو على الأحجار فيعقل صور معانيها فتنتقل إلى المخ فيعقلها الانسان بطرق مجهولة الناس كل الجهل وهكذا إرسال البريد البرقى بسلك وبلا سلك على هــذا النمط بل من الناس من يخاطب بعضهم بعضا بطريق أخرى لادخل للمادة فيه المسمى التلبثية .

فها هو ذا الانسان استخدم المادة لتحمل مافى ذهنــه إلى ذهن الآخرين . إذن المادة نراها وراكبها العقــل والعواطف لا نراها . رأينا الدابة وما رأينا راكبها ، راكبها من عالم لطيف لايرى كما لايرى الأثير الذى يحمل رسائل عقولنا فى البريد البرقى (التلغراف والتلفون) ويحمل صور الموجودات فى النور فيوصلها إلى العين ومنها إلى العقل . إن الحامل لذلك هو الأثير الذى يحمــل النور أو النور ظاهرة من ظواهره . ويقال فى علم الأرواح الحديث : إن للجسم الانسانى جسما آخر على صورته من عالم الأثير أشبه بما يراه الانسان من صورته فى المرآة . فصورة الانسان فى المرآة من عالم الأثير ولذلك أمكن بقاؤها بالتصوير الشمسى : فهذا الأثيرى يتربى مع هذا الجسم الطبيعى ، فهل إذا فنى الجسم الطبيعى تفنى الروح أى هــل إذا فنى الفرس يحتم فناء الفارس . كلا ، إن الجسم الانسانى أيضا لايفنى بعد الموت ولــكن مادته تحوّلت إلى أجسام أخرى . إذن الجسم لا يفنى وقد تحول فــكيف نحكم بفناء الروح . فهذه الروح الباقية التى لا تفنى والتى استقرت فيها علوم الإنسان ومعارفه باقية وقد استخدمت المادة والأثير فى فهم عقل الإنسان الآخر . وهكذا فهمت هذه النفس النظام العام للعقل الكلى المحيط بعوالمنا الأرضية والسماوية وعلى قدر فهمها من تدبير ذلك العقل ونظامه يكون ارتقاؤها واختراعها وباتصال بعض النفوس فى الأرض بذلك العقل تقدر على الاختراع والابتداع ونظام الجمال وجمال النظام . وعلى ذلك أصبحت النفس اليوم فى العلم الحديث أشبه بالرجل الذى يضرب على آلة الطرب فاذا كسرت الآلة فهو حىّ باق . ذلك هو رأى اللورد (أو ليفرلودج) فى النفوس الإنسانية والحمد لله رب العالمين

الزبرجدة الثالثة فى مساق هذه الآية ومناسبته للعلم الحديث وأن هذه من عجائب القرآن

يقول الله تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا . وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك » الخ .

ياعجبا كل العجب . ها هو ذا ذكر النور والظلمة وجعل النور مبصرا . لماذا ؟ لنطلب الرزق ولنعرف علم الفلك ولنعرف علم الحساب ثم يقول بعد ذلك كلاما آخر . يقول إن كل شئ مما يرى ومما لا يرى فصله تفصيلا . فأما ما يرى فقد تقــدم . وأما مالايرى فهو مسألة كتاب حساب الانسان الذى جعله الله ملازما للانسان وهذا الكتاب سيقرؤه الانسان يوم القيامة . إذن ما السبب فى ذكر هذه الجملة بعد النور والحساب

للمستنتج منه ذكر النور وذكر سير الكواكب والحساب الذى لا يتم ذلك إلا به ثم أتبعه بجملة تصل ما يرى بما لايرى ثم شرع فى ذكر مالايرى وقال إنكم ستقرءون كتابكم بأنفسكم وتعرفون حسابكم منه .

أفلا ترى أيها الذكى أن للنور علاقة بهذا الموضوع والنور هو تموج فى عالم الأثير وعالم الأثير هو الباقى كبقاء أرواحنا وأرواحنا تكمن فيها آثارنا . إن الذكر النور هنا وذكر طلب المعاش الذى هو أمر مادى ثم اتباعه بذكر ما هو ألطف من علم سير النجوم والحساب ثم ما هو ألطف وهو كتاب أعمال الانسان يدل على أن المسائل واحد وأن النور الذى نراه كما كان مكملا لأمر المعاش المحسوس وأمر الحساب المعقول قد سرى إلى ألطف من ذلك وهو كتاب الحساب للانسان بعد الموت الذى هو أقرب إلى عالم الأثير الذى هو باق لايفنى والذى كان النور المذكور ظاهرة من ظواهره .

فاذا سمعت الله يقول « الله نور السموات والأرض » فهمت أن الأمر عظيم فان هذا النور الذى نراه ولا نفقه يتصل بأمر باق عظيم لطيف وهو الأثير والأثير لايضيع فيه شئ بل هو حافظ لمافيه فلا يذهب منه شئ فهو أشبه بمرآة اللوح المحفوظ ، إذن نحن نعيش فى عالم الجمال ونتصل بالبهجة والكمال وتحيط بنا العلوم والعقول ونحن محبوسون . اللهم أنر بصائرنا حتى ندرك الجمال ونعشق ذلك العالم الجميل حتى نفرح بالموت فرح العاشق الذى غاب عن معشوقه فتمنى لقاءه . إن هذه الحياة إن لم تكن سببا فى حبنا الخلوص من المادة والموت فانها تكون حملا ثقيلا لم يفد الفائدة المطلوبة . وفى الحديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » انتهى ، والحمد لله رب العالمين .

إشراق وبهجة لفهم ماتقدم

لعل أكثر الأذكياء الذين يقرءون هذا التفسير قد طالت عبارات الرئيس (ابن سينا) وعبارات السر (أو ليفرلودج) عليهم فعسر عليهم تلخيص المعانى . فها أناذا ألخصها ليفهمها العموم فأقول :

آراء القدماء من الفلاسفة

كان قدماء الحكماء من يونانيين ورومانيين واسكندريين وفلاسفة إسلاميين أكثرهم يؤمنون بالله وبالعقل وبالنفس . وملخص ذلك أنهم رأوا نفوسا حيوانية يصدر عنها الحس والحركة وعقولا يصدر عنها الحكمة والفهم ، ذلك مشاهد فى الحيوان والانسان فرأوا الشمس والقمر والكواكب ولها حركات كحركات الحيوان فقالوا هذه حركات منظمات والحركات نتيجة نفوس قائمة بتلك العوالم العالية والنظام نتيجة عقول مدبرة لها فكما رأينا للانسان حركات نتجت من نفس تدبره تدبيرا منظما غالبا من عقل يفكر به . هكذا نرى هذه العوالم العلوية لها نفوس ولها عقول وكل عقل فى السموات يستمد من عقل أعلى منه وهكذا حتى تنتهى السلسلة إلى العقل الأول والعقل الأول مستمد من الله مباشرة . وهذه العقول كلها لاعلاقة لها بالمادة إلا كعلاقة الملك بالمدينة فقد يدبرها وهو خارج عنها . إذن العقل الإنسانى له صلة بالعقول السماوية المتصلة بالعقل الأول المستمد من الله . فهذه العقول الإنسانية نسبتها لما يسمى بالعقل الفعال كنسبة العين والأذن وحاسة اللمس والذوق والشم للنفس الانسانية . فهذه العقول الانسانية مستمدة من العقل الفعال ومتصلة به وهذا العقل الفعال متصل بما قبله وهكذا « وأن إلى ربك المنتهى » .

وما هذه النفوس الإنسانية والفلكية إلا كالغضروف الذى يكون بين العظم واللحم فيكون صلة بينهما فالعظم لا يمكن إيصاله باللحم . لذلك جاء الغضروف مناسبا للحم من جهة وللعظم من جهة . هكذا نفس الإنسان الشهوية والغضبية وقوة الحس والحركة فهى تناسب العقل من جهة أعلاها وتناسب البدن من جهة أدناها فتكون صلة بين عقولنا وأجسامنا . ونحن فى كل آن نحس فى أنفسنا بشئ يردعنا ويؤنبنا ويعطينا علما وحكمة، فذلك هو العقل المتصل بالعقول العالية . هذا كلامهم وهذا صورته :

(١) عقل (٢) نفس لها حس وحركة يظهران فى جسم .
(٣) جسم مركب من لحم وعظم وأوردة وشرايين الخ .

أما السر (أوليفرلودج) فانه يقول : هنا شيئان لانراهما الأثير والروح والأثير يقوم به النور والكهرباء والحرارة والمغناطيس . الروح يكون معه الحياة والعقل والحب والبغض والرحمة والحسد الخ والنور وماعطف عليه يكون منها وضوح المبصرات والتلغراف والتلفون وأن تدور الآلات النافعة للسق والطحن والخبز الخ والروح وتوابعها يكون منها الحس والحركة وصون العلوم والاقتراب والابتعاد وإفاضة الخير وإيصال الأذى الخ وهاتان هما الصورتان لهما :

(أثير)

نور للظهور المبصرات	كهرباء	مغناطيس	حرارة

(روح)

بغض لافتراق الأجسام	حب لتقارب الأجسام	عقل لنظام الحياة	حياة للحس والحركة	حسد لايصال الأذى للناس	رحمة لإيصال الخير

لإدارة الآلات النافعة وإيصال
الأخبار وتسهيل الأسفار

فها أنت ذا رأيت أن هنا درجات ثلاث : الروح والأثير وهما لا نراهما وقد صدر عنهما الدرجة الثانية وهى قريبة منهما فلانرى الكهرباء ولاالمغناطيس ولا نرى العقل ولا الحب وهذه الدرجة الثانية فى القامين ظهر أثرها فى الدرجة الثالثة فى الأجسام المحسوسة فترى الآلات الدائرة بالكهرباء والأجسام المتحركات بالحياة وتكون النتيجة أن مالا نراه يؤثر فيا نراه . ثم إن العقل والأثير والحياة كلها أصبحت من واد واحد وقد علمنا أن المادة التى نراها لا تعدم بل تتغير صفاتها لا غير فمن باب أولى عالم الأثير وعالم الحياة والعقل فانها أولى بالبقاء ، وإذن تكون عقولنا وحياتنا وعواطفنا باقية . هذا ما أردت إيضاحه لتقف على آراء المتقدمين والمتأخرين واتفاقهم على بقاء الروح إما بالبرهان القديم من اشتقاق أرواحنا من عقول فوق عقولنا لا تفنى وإما بالبرهان الحديث من أن الأثير والروح من واد واحد لايفنيان انتهى .

بهذا نفهم قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » . ويقول علماؤنا إن العالم (عالمان) عالم الأمر وعالم الخلق وعالم الخلق يدخله التقدير والمساحة وعالم الأمر لا يدخله تقدير ولا مساحة ولا شكل له . أليس من عجب أن يكون كلام السر (أوليفرلودج) العالم الطبيعى فى زماننا هو عين مايقول علماؤنا فى تفسير الآية كالعلامة الرازى . الله أكبر . اجتمع علماء الدنيا أى أكابرهم على بقاء الروح وأحوالها.

ومن المدهشات أنك ترى علماء الاسلام قديما لما كفر الملدون فلاسفتهم رجعوا إلى المواربة والتقية فيقول العلامة محيى الدين بن عربى كما نقلته فى آخر سورة هود عنه : إن عذاب الأنفس بعد الموت ما هو إلا كالمرض يعترى الجسم فى الدنيا . ويقول العلامة الغزالى فى بعض كتبه (إن أكثر الناس أقرب إلى الخير وأقلهم من نال أعلى مقام أو انحط إلى درجات الهوان كما نشاهد ذلك فى الجمال . فكمال الجمال وكمال القبح كلاهما قليل والمتوسطون هم أكثرهم) .

أقول يقولان ذلك لأن هذين القولين مذكوران فى كتاب (الاشارات) لابن سينا . إذن أكابر

الصوفية من المسلمين تستروا بالتصوف وأدخلوا الحكمة وجعلوها من ضمن الكشف وذلك بسبب المرض العقلى الذى حل بأمم الاسلام فاختلت حياتهم وضاعت دولهم ولله عاقبة الأمور . وسيرجع لهذه الأمم مجدها ورقيها وعزها بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله والله هو الولى الحميد ، انتهى .

اعلم أيها الذكى أنى لما كتبت هذا الموضوع كان ذلك فى ليلة الثلاثاء ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٧ فاضطجعت للاستراحة فأخذتنى سنة من النوم فرأيت جماعة يسألوننى فقال قائل منهم هل كل ما كتبته فى هذا الموضوع قام عليه البرهان . قلت كلا بل فيه بعض البراهين الاقناعية والخطابية وما هو أقل من ذلك وإنما فعلت ذلك لأبين للناس كيف كان الناس يفكرون قديما وكيف يفكرون حديثا فرأيت أنهم سروا بهذا الجواب ثم استيقظت حالا فكتبت هذا وخطر لى أن هذا مناسب لما قاله (سقراط) الفيلسوف لتلاميذه قال (لعل ما سمعتموه يكفى لاثبات بقاء النفس بعد الموت وفى الأقل ترجيح هذا الرأى على غيره وهى الغاية القصوى التى يمكن إدراكها فى هذه الحياة فى هذا الموضوع) اهـ

فهذا القول من (سقراط) يفيدنا أن العلم بأمور الحياة عقلا إنما يعطى فكرة الترجيح لا التحقيق التام لأننا فى هذه الأجسام الأرضية وذاك عالم أعلى . فهذا العالم الأعلى يعرف بحال أخرى غير البرهان مثل ما يوقن به بعض علماء الأرواح أو بعض أهل الرياضة والصلاح أو نحو ذلك ، وقد رأيت أن أنقل لك ما قاله الفيلسوف (سقراط) لتلاميذه نقلا عن كتابى (الأرواح) فربما كانت هذه الرؤيا يقصد منها إثبات ذلك هنا ، فهاك ما كتبته هناك بنصه :

المجلس الحادى عشر فى بيان براهين (سقراط) على بقاء النفس وكيف كان مبدأ التفكير عند المؤلف وكيف استدل ابن مسكويه عليها وهيئة المفكرين فى هذا العصر الحاضر

قابلنى الشيخ شير محمد وقال : لقد فهمت فى المجلس السابق كيف كان انتشار الروحانية فى الدنيا وطرق الإحضار واليوم أرجو أن تذكر لى كيف أنكر الناس فى هذا العصر وكيف ينسبون هذا الانكار إلى رجال محلة مشهورة فى هذه البلاد . فقلت ياشير محمد إن الناس على أقسام : فمنهم المفكرون الناظرون ومنهم المقلدون فأما المفكرون فما أحراهم أن ينظروا بعقولهم وكثير ماهم فى بلادنا وقد يطلعون على آراء أفلاطون وسقراط وقدماء الفلاسفة ومحدثيهم . فأما براهين المتقدمين العقلية فمنها ما قاله (سقراط) ترجمة الفيلسوف (سنتلانه) الطليانى والقفطى المصرى وهذا نصها :

(أولا) إنا نشاهد الضد يتولد عن ضده ؛ فالجميل ينشأ عن القبيح والعدل من الجور واليقظة من النوم والنوم من اليقظة والقوة من الضعف وبالعكس ، فالأشياء يستحيل بعضها إلى بعض ثم ترجع بصفة دائرة إلى ما كانت عليه . والحياة والموت والوجود والعدم نقيضان ، فالوجود ينشأ من العدم والموت ينشأ من الحياة وعلى ذلك يلزم أن تنشأ الحياة من الموت إذ لابد أن يكون للموت ما يناقضه وإلا فقد خالفت الطبيعة قاعدتها المطردة فى جميع الأشياء .

(ثانيا) ما يستدل به من طبيعة العلم وذلك أن العلم إنما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته فى حياة سابقة ومصداقه أن أجهل الناس إذا سئل سؤالا منظما عن مبادى الهندسة مثلا وانتقل به السؤال من أصل إلى أصل شيئا فشيئا على الترتيب فقد يجد من نفسه مبادىء الهندسة ومبادىء كل علم وهذا لا يمكن إلا إذا كانت الأصول منطبقة فى فطرته موجودة عنده قبل ولادته . وهناك دليل آخر من هذا النوع وهو أننا لولا فرضنا علما سابقا موجودا فى ذهننا ما تمكنا من فهم شىء من الموجودات ، فاننا إذا قابلنا شيئا بآخر مثلا ما أمكن أن نقول إنه مساو أو غير مساو لو لم يكن فى ذهننا قبل كل مقابلة معنى المساواة المطلقة التى لم نستفدها من الأشياء المحسوسة إذ لا شىء منها يتحقق فيه المساواة إلا بنوع التقريب ومسامحة توجب أن يكون معنى المساواة

مرتسما فى ذهننا حتى نحكم على الأشياء أنها متساوية أو غير متساوية . ومثل هذا ما نحكم به فكرنا كالجمال والعدل والوجود وغيره فإن ذلك يستدعى معرفة تلك المعانى قبل الحكم عليها فيلزم منه أن العقل البشرى إنما اكتسب هذه المعرفة بمشاهدة تلك المعانى صافية غير مشوبة بالمادة قبل ورودها إلى هذا العالم وهذا من كلام (سقراط) فى الدلالة على أن النفس كانت موجودة قبل هذه الحياة . أما الدليل على أنها موجودة بعد الموت فقد قال أيضا ما يأتى :

(إن النفس جوهر غير مرئى فيلزم أنه على غير طبيعة الأجسام لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركا بإحدى الحواس . وإذا كانت على غير طبيعة الجسم فهى إذن غير مركبة لأن التركيب من طبيعة الأجسام وإذا كانت بسيطة فإنها غير قابلة للانحلال لأن الانحلال يعترى المركب إلى المواد التى منها تركب . فاذا كانت النفس بسيطة لم يتصور انحلالها . إن النفس هى الآمر والبدن هو المأمور . فمن طبيعة الأمور الإلهية أن تكون آمرة ومتصرفة . ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون مأمورة فالنفس إذن من الأمور الإلهية وهى غير قابلة للزوال فهى إذا بقيت على صفائها وفطرتها من غير أن تشارك البدن فى أدناسه فإنها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها فتبقى معه سعيدة مبتهجة محررة من أوهامها وأخوافها وكل ما كان يسخرها ويهوش عليها إذ كانت فى قيد الحياة . وإذا تركت البدن ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا ما يؤكل ويشرب ويدرك بالحس فلا يسعها إلا أن ترجع إلى حياة مشاكلة لطبيعتها) إلى أن قال :

(وأما الالتحاق بالعالم الأعلى الإلهى فلا يجوز إلا لمن ترك الحياة وهو فى غاية من النقاوة والصفاء وهذا مختص بالفيلسوف الحقيقى دون غيره) ثم سكت (سقراط) برهة وقال (لعل ما سمعتموه يكفى لإثبات بقاء النفس بعد الموت وفى الأقل ترجيح هذا الرأى على غيره إذ هى الغاية القصوى التى يمكن إدراكها فى هذه الحياة فى هذا الموضوع) فاعترض عليه بعض تلاميذه باعتراضين : الأول : أنه لقائل أن يقول إن النفس للبدن كالألحان لآلات الموسيقى فاذا انكسرت الآلة وفسدت لم يبق للألحان وجود وهكذا يمكن أن يقال إن النفس ما هى إلا نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها فى المزاج الإنسانى ، فاذا فسد الاعتدال وتلاشى المزاج تفسد النفس لا محالة . والاعتراض الثانى : أن يقال قد سلمنا وجود النفس قبل هذه الحياة وأنها أفضل من البدن وأقوى منه وأنها تبقى بعد موته ، غير أنه لا يترتب على ذلك بقاؤها على الدوام إذ قد يمكن أنها تبقى بعد موت بدنها ثم تفنى كما يموت الانسان وهو قد أخلق الثوب بعد الثوب ثم يموت عن آخر ثوب قد أخلقه . فأجاب (سقراط) عن الاعتراض الأول بقوله (إنا إذا سلمنا أن التعلم إنما هو تذكر النفس ما كانت قد علمته فى حياة سابقة فلا يسوغ أن يقال إن النفس نتيجة اعتدال المزاج إذ لو كان كذلك ماسبق وجودها وجود المزاج فكيف تذكر معلوماتها فى حياة سابقة فإذا وجب الاعتراف بأن العلم لا يتصور إلا بوجود هذه المعلومات السابقة فى النفس لزم منه أن لا تكون النفس نتيجة المزاج . وأيضا لو كانت النفس نتيجة المزاج لكانت تابعة للمزاج ولا تخالفه فى شىء بل تكون مسخرة له وتجد خلاف ذلك فى الواقع إذ قد ترى النفس تنهى البدن عن أشياء وتأمره بأشياء وتتصرف فيه بوجوه مختلفة ، وهذا يدل على أنها مغايرة للبدن مستقلة عنه وأن جوهرها أعلى وأفضل من طبيعة البدن إذ لو كانت تابعة للمزاج لما كانت تفارقه فى شىء ما ، ولما كانت النفس تختلف عن النفس إذ لا فرق بين الألحان والألحان إلا فى القوة والضعف لا من حيث إنها ألحان . ونحن نشاهد أن بين النفوس تفاوتا عظيما . وأما الاعتراض الثانى ، فجوابه : أن الأشياء المحسوسة الفانية لا يتصور قيامها إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية كاملة الوجود وأن هذه المعانى ما دامت فهى لا تقبل شيئا مما يناقضها . ومثال ذلك أن العدل لا يقبل شيئا من الجور والمساواة لا يدخلها شىء من التفاوت والفرد ما دام على جوهر الفردية لا يقبل شيئا من الزوجية والعكس بالعكس . والقول فى النفس مثل القول فى المعانى

سواء بسواء، إذ تقرر أن النفس جوهر مسيطر قائم بنفسه مجانس للمعانى فيكون حكمه مثل حكم المعانى من عدم قبول الضد والنقيض . ولا شك أن النفس أصل الحياة فهى إذن حية من ذاتها وهى إذن لا تقبل نقيضها أى الموت مادامت على جوهرها وهو الحياة . فكما أن الفرد لا يكون زوجا والعدل لا يكون جورا مابقيا على حالهما كذلك النفس لا تقبل الموت ولا يداخلها الفناء فهى إذن أزلية . ثم إذا كان الموت نهاية كل شىء كان فيه فائدة عظيمة للشرير والظالم فانهما يستريحان بالموت من أنفسهما ومن البدن ومن شره ومن عواقب الشر دفعة واحدة . وهذا مما لا يرتضيه العقل ولا الإنصاف فتعين أن نعتقد فى النفس أنها إذا فارقت البدن فقد تحمل معها ما كانت عليه من الأوصاف إن خيرا فخير وإن شرا فشر فمن ترك وهو فى قيد الحياة ملاذ البدن ومتاع الدنيا واجتنبها كما يجتنب ما لا يعنى أو يضر ولم يطلب إلا ما يعين على العلم وزين ضميره بالعفة والعدل والمروءة والحرية والصدق فله أن يترقب وقت السفر من غير اضطراب كمن تهيأ للرحيل .

وكل ماتقدم من المحاورة الموسومة فاذون أو فيذون كتبه القفطى فى تاريخه وفيها زيادات ترجمها الفيلسوف (سنتلانه) الطليانى أدخلتها هنا . وقد اطلعت على كتاب بالانجليزية مطولا بهذا العنوان وما لدينا من كلام القفطى والأستاذ (سنتلانه) الطليانى مختصرة .

﴿ كيف كان مبدأ تفكر المؤلف فى أمر الروح ﴾

ولما انتهى بنا القول إلى هذا المقام قال شير محمد قد فهمت ما قلت من آراء (سقراط) وأن الروح عنده قديمة وعرفت براهينه الاقناعية ولكنى أريد قبل أن نخرج من قسم المفكرين إلى قسم المقلدين أن تخبرنى كيف كان أول مافكرت فى هذا المقام ؟ لقد رأيتك فى كتاب [التاج المرصع] تبدأ بالشك فى نظام هذا العالم، وتبين كيف كان تشككك وكيف كنت تطلب الحقيقة بنفسك فأرجو أن تبين لى السبيل التى سلكتها حتى تعرف حقيقة الروح وهل كان الشك مبدأ أمرك فيها؟ . فقلت اعلم ياشير محمد أن مبدأ أمرى فى مسألة الروح كان الشك المطلق بل الإنكار . ذلك أنى كنت يوما واقفا فى حقلنا بأرض (كفر عوض الله حجازى) بجانب نهره المسمى ترعة كفر عوض الله وكنت أزاول بعض العمل فاعترانى دوار لضعف صحى فجلست مدة فلما أفقت مما أغشى على نظرت فى أمر الروح وقلت ياليت شعرى إذا كنت الآن لا أزال حيا لم أفارق الجسم وما هو إلا أن أغشى على حتى فقدت الشعور والإحساس فكيف تكون حالى إذا فارقت الجسم وتفرقت الأوصال وتناثرت الأعضاء فهل يبقى لى عقل أو علم، وكنت إذ ذاك فى زمان العطلة الأزهرية وكانت سنى حوالى العشرين ثم بعد ذلك رجعت إلى الأزهر وأنا منكب على طلب العلوم اللسانية والشرعية فذات ليلة رأيت وأنا نائم فى مقابر قريتنا (كفر عوض الله حجازى) وكأن قائلا يقول انظر فنظرت فى الجو فرأيت كأن هناك نورا أبيض مضفورا فى وسط الزرقة فقال هذه هى الروح وكانت ليلة الخميس فلما استيقظت قمت مع رفاق المجاورين للرياضة خارج القاهرة قاصدين بيت أحد أقاربنا فلما جلست وجدت فى الطاق كتابا فأخذته فاذا هو كتاب [تهذيب الأخلاق] للشيخ أبى على أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ ولم يكن لى عهد بهذا الكتاب ولا بغيره من الكتب الفلسفية فتصفحته فوجدته ابتداء بالبرهان على وجود النفس وأتى ببراهين أشبه بما تقدم ذكره عن (أفلاطون) و (سقراط) فمنها أننا لما وجدنا فينا شيئا ضاد الجسم وأعراض الجسم ويباينهما كل المباينة حكمنا أنه ليس بجسم ولا جزءا من جسم ولا عرضا . ألا ترى أن الجسم المثلث لايقبل التربيع إلا بعد زوال الصورة الأولى وهى التثليث وهكذا سائر الأشكال والأعراض ليس يقبل الجسم واحدا منها إلا إذا خلع الآخر ، والعقل تراه يقبل سائر الأشكال والألوان والمقادير فليس يتغير بل يقبلها كلها دفعة واحدة وهذه العلوم تزيد العقل قوة بخلاف الجسم فلا يقبل إلا لونا أو شكلا ولا يجمع شكلين معا . وهذا هو التباين العظيم بين المادة والعقل ومنها أن القوى الجسمية لاتعرف العلوم إلا من الحواس فتتشوقها

بالملامسة

باللامسة والمشابكة كالشهوات البدنية ومحبة الانتقام والجسم يزداد بها قوة فهو يفرح بها . فأما النفس فانها كلما اقتربت من المادة ضعف إدراكها ، وكلما رجعت إلى ذاتها ازدادت قوة . ومنها أن النفس تحرص على العلوم والأمور الإلهية ولا يتشوق شيء إلى ماليس من طبعه ولاينصرف عما يكمل ذاته ويقوم جوهره فالنفس بانصرافها عن الحواس عند التفكير لتكمل معارفها مخالفة أفعال البدن فهي إذن جوهر مفارق للبدن . ومنها أنها أخذت مبادىء للعلوم غير التي أخذتها عن الحواس فانها حكمت مثلا بأنه ليس بين طرفي النقيض واسطة وهذا لاتدركه الحواس . ومنها أن الحواس تدرك المحسوسات وحدها ، وأما النفس فانها تدرك أسباب الاتفاقات وأسباب الاختلافات وهي معقولاتها التي لا تستعين عليها بشيء من الجسم وهي تحكم على الحس أنه صادق أو كاذب . ألا ترى أن البصر يرى الكبير صغيرا والصغير كبيرا كالشمس والأصبع الغائص في الماء فان الأول أكبر بالبرهان والأصبع ليس حجمه الحقيقي ما يرى في الماء بل أكبر مما هو عليه في النظر وأسباب ذلك مذكورة في علم المناظر . هذا ملخص ما ذكره ابن مسكويه ولم أشأ أن أخرج مع المجاورين للرياضة بل بقيت أقرأ الكتاب بقية النهار . فهذا كان مبدأ نظري في النفس وبقائها . قال شير محمد لقد أوضحت المقام وتبين لي ما قاله القدماء والمحدثون وعرفت كيف يتفكر العقلاء في بلادكم وإلى أي الكتب يرجعون وعرفت النحو الذي ينحونه في معرفة الروح . ولقد رأيت ما قاله (سقراط) يشابه ماذكر آنفا في المحاضرات السابقة في كلام غاليلي الفلكي الشهير حين استحضرت روحه وقال إنها من المادة الأولى بسيطة لاتقبل العدم وأخذ يفهم ما معنى الأبدية . فاذا صح ما قيل عن روح (غاليلي) سابقا وأنها هي الروح حقيقة رأينا تطابقا غريبا بين كلام الأرواح ومقال (سقراط) وابن مسكويه فإن إجماعهم أنها بسيطة لاتقبل العدم .

ألا إن العلم الحديث والقديم متفقان فما أجمل العلم وما أعجب الحكمة !! . ولقد فهمت هذا المقام حق الفهم فلننتقل لبيان القسم الثاني من الناس بالنسبة للعلم، وهم المقلدون كما وعدت في أول هذا المجلس . قلت موعدنا الصبح ، أليس الصبح بقريب [انتهى مانقلته من كتابي المسمى الأرواح]

﴿ زيادة إيضاح عن علماء الأرواح في قوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم حسيبا » ﴾

لقد تقدم في سورة التوبة عند قوله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم » الخ أني نقلت هناك ترجمة حياة (عمانوئيل سودنبرج) وأنه كلم الأرواح وذكرنا هناك مستأنسين للآية بماحدثته به الأرواح مما يوافق شريعتنا الغراء ، ولقد جاء فيه ما يوافق هذه الآية تحت عنوان ﴿ إن الذاكرة والفكر والعاطفة وكل حاسة كانت للانسان في العالم تبقى معه بعد الموت وأنه لايترك شيئا من ورائه إلا الجسد الأرضي ﴾

قال ما ملخصه في صفحة (٢٧١) في النسخة المترجمة ومابعدها: إن الانسان لايحس أنه مات بعد الموت لأنه يرى له جسدا كالجسد الأرضي مع أنه أصبح روحا فهو يسمع ويبصر ويذوق ويلمس ويحب ويكره. فالروح على صورة الجسم وله سائر خواصه وهو يقرأ ويكتب كما كان قبلا . والفرق بين الحالين أن جميع الحواس بعد الموت أقوى وأشد وأعظم ومثلها بنور الظهيرة بالنسبة لظل المساء ، ثم ذكر (أولا) أن هناك قوما أنكروا جرائم فكشفت لهم جميع أعمالهم وأعيد إظهارها من نفس ذاكرتهم بترتيب الأشهر والسنين من أول سنة الى آخر سنة وكان أكثرها زنا وعهارة وخديعة للناس بحيل رديئة وسرقات مريعة فلما حصل ذلك اعترفوا (ثانيا) ومنهم من أحصيت الرشوة التي أخذوها بسبب القضاء وذلك ليس له واسطة ولا كتاب إلا ذاكرتهم ومن نفس هذه الذاكرة أحصيت جميع الأشياء التي أخذوها من أول عهد الوظيفة إلى النهاية وأضيف إلى ذلك أدق مافي هذه الأمور وقيم تلك الهدايا وما قصدوه في نفوسهم . ذلك كله أعيد بنفس الذاكرة ثم ظهر لهم عيانا وقد بلغ عدة مئات . قال ومن غريب الأمور أن مفكراتهم التي كتبوا فيها أشياء هكذا فتحت بعض الأحيان وقرئت أمامهم صفحة صفحة وبعضهم قادوا العذارى إلى العار واغتصبوا العفة فقد دعوا إلى القضاء والنساء

عرضت كأنها حاضرة وحضر نفس الزمن ونفس الكلمات والمقاصد كأنه خيال ظهر فجأة . وهذه المناظر التي تشبه السينما (الصور المتحركة) التي تسمى الخيالة قد تدوم ساعات متوالية . (ثالثا) قد كان رجل يرى أن النميمة ليست شيئا مذكورا فأحصيت نمائمه أمامه بترتيب ونفس الكلمات التي قالها ذما . وهكذا الأشخاص الذين وجهها إليهم والذين قيل القول أمامهم . جميع ذلك أخرج وظهر مع أنه قد أخفى بكل دقة عند ما كان حيا (رابعا) أن رجلا معروفا كان قد حرم أقاربه من الإرث بواسطة دعوى مزوّرة فظهر ذنبه وحكم عليه . والعجب أن الكتب والأوراق التي جرت مبادلتها بينهما تليت على مسمع مني ولم تفقد كلة واحدة ، وهذا الرجل قبل موته كاد يقتل قريبه بالسم فظهر بكيفية واضحة ، وصورتها أنه حفر نقرة تحت قدميه ، ومنها خرج رجل كأنه خارج من قبره وناداه ماذا فعلت بي فكشف كل شيء وذلك أن القاتل تكلم معه بهيئة صداقة ومحبة وقدم له الكأس وحضر الفكر الذي تفكره قبل ذلك ثم ماذا جرى بعد ذلك . ولما ظهرت هذه الأشياء حكم عليه بالسقوط في جهنم . ثم قال وبالجملة فإن جميع شرورهم وجرائمهم وسرقاتهم وتمويهاتهم وخداعهم تعلن لأرواحهم الشريرة وتخرج بنفس ذاكرتهم ويحكم عليهم ولا سبيل إلى الإنكار . ثم قال متى كشفت أعمال الانسان له جاءت ملائكة مفتشون فنظروا وجهها وفتشوا جميع جسمه مبتدئين من أصابع اليدين إلى آخر الجسم . قال وقد عجبت من أن الأشياء التي فعلها الانسان لم تكن مرسومة في الدماغ وحده . كلا بل هي مرسومة على جميع الجسد . ومعنى هذا أن أوائلها في أول الجسم وباقيها مرسوم على الجسم كله مرتبطا منظما . فكل مافكر فيه الإنسان أو عمله مرسوم على الإنسان كله ويظهر كأنه كتاب يقرأ وذلك عند ظهوره من الذاكرة . قال وقد رأيت كتابا وفيه كتابات كما ترى في الدنيا وأخبرت أنها كانت ذاكرة أولئك الذين كتبوا وأنه لم تبق كلة ناقصة مما كتبه ذلك المرء في الحياة الدنيا . ومن ذاكرة المرء تؤخذ كل صغيرة وكبيرة . وذلك كله من ذاكرته الروحانية الداخلية لا ذاكرته الخارجية الطبيعية والمرسوم في الذاكرة الروحانية الداخلية لا يمحى ولا يزول ، وهي يرسم فيها كل فعل وفكر وقول وكل ما رآه المرء أو سمعه أو أحس به . هذا ما نقلته من ذلك الكتاب ملخصا من صفحة ٢٧١ إلى صفحة (٢٧٦)

أليس هذا هو نص قوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » وقوله « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » وقوله « ذوقوا ما كنتم تكسبون » وقوله « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » وقوله « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » وقوله « وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » وقوله « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » الخ وقوله « ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » وقوله « وكل شيء أحصيناه كتابا » وقوله « وأحصى كل شيء عددا » وقوله « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » وقوله « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون »

فهذه الآيات كلها موضحة أشد وضوح في هذه الحادثات التي ظهرت في علم الأرواح الحديث . ثم إن علم الأرواح حدث في القرن التاسع عشر وهذا المؤلف ظهر قبل ذلك ولكنه موافق لعلم الأرواح وهذا كل مافيه أنه موافق للقرآن فان صح كان معجزة صريحة لأنه جاء بما نطق به القرآن . والحق أن هذا زمان ظهور الحقائق ومصداق قوله تعالى « ثم إن علينا بيانه » وقوله « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وقوله « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » الخ ، والحمد لله رب العالمين انتهى .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى أيضا « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » مع قوله تعالى فيما يأتى فى هذه السورة « قل الروح من أمر ربى » الخ ، وقوله تعالى فيها أيضا « إن الشيطان ينزغ بينهم » الخ وقوله تعالى فى سورة مريم « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين » وقوله تعالى فى هذه السورة « إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم » الخ ﴾

اعلم أيها الذكى أن النفس الإنسانية لايسعها أن تصدق بعوالم تحيط بنا من كل جانب وتلهمنا خيرا أو تحدث فى قلوبنا شرا . ولقد قدمت فى مواضع من هذا التفسير نصوصا عن كبار العلماء شرقا وغربا والذى ذكرته من ذلك كاف موجب للطمأنينة ولكنى الآن أريد أن أضم إلى ما تقدم ماعثرت عليه بعد ذلك . فأولا أذكر لك كلام الامام الغزالى فى الإحياء ثم أتبعه بكلام بعض علماء الأرواح لتعجب من هذه الدنيا ومن علومها وأن الانسان قديمه وحديثه يبحث عن الحقائق . فها أنا ذا قد ذكرت فيما مضى فى غير ما موضع وأقربها ماقى آخر سورة النحل أن عالمنا الذى نعيش فيه قد جعل الله فيه الخير والشر مقرونين فى قرن . فترى السباع فى مقابلة الأنعام والحيات والعقارب فيها سمها يقابل ترياق أجسامها كما تراه هناك مبرهنا عليه بتجارب الأطباء وهكذا الحيوانات الذرية التى لا ترى إلا بالمنظار المعظم ظهر كما تقدم هناك أن جرمها ترياق لسمها كالحيات سواء بسواء . هذا كله تقدم ثم تخطى الناس ذلك إلى عالم الأرواح لأنه ما الذى بعد هذه الحيوانات التى لاترى بالعين إلا العوالم التى لاترى أصلا. فانظر إلى كلام الامام الغزالى رحمه الله فهو يقول فى المجلد الثالث من الإحياء تحت عنوان (بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها) لقد أفاض فى هذا المقام فى بيان أسباب قبول العبد الوسوسة تارة والإلهام أخرى إلى أن أوضح أن هذه الخواطر للتقسمة إلى قسمين : خواطر الخير وخواطر الشر حادثة والحادث لابد له من محدث ومحدث الخير غير محدث الشر فالداعى إلى الخير نسميه ملكا والداعى إلى الشر نسميه شيطانا، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول الأول يسمى (توفيقا) والذى يتهيأ به لقبول الثانى يسمى (إغواء) والملك عبارة عن خلق خلقه الله شأنه إفاضة الخير وسخره لذلك، والشيطان خلق ضد ذلك وإليه الاشارة بقوله تعالى « ومن كل شىء خلقنا زوجين » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « فى القلب لمتان : لمة من الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وتعالى وليحمد الله، ولمة من العدو إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى ـ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » الآية .

ثم انظر إلى ما يقوله علماء الأرواح فى الأعصر الحديثة . جاء فى كتاب [السماء وجهنم] الذى نقلت عنه فى سورة التوبة قال فى عدد ٥٧٨ ما ملخصه :

إن شرأهل جهنم جميعا أولئك الذين كانوا فى حياتهم يحبون الشر ولا يحبون إلا ذواتهم وحدها ولا يسلكون إلا مسالك الخداع وطرق الغش وهذا الخداع الذى تشبعت به أفكارهم يفيض منهم على غيرهم فيوسوسون إليهم ويكون ذلك عدوى . أقول كالعدوى الحاصلة بالحيوانات الذرية . قال وهؤلاء يسمون جنا وهؤلاء يكون نعيمهم وسعادتهم وسرورهم بأن يدسوا السم فى الدسم ويخدعوا غيرهم بالوسوسة فينفثون السم فى نفوس غيرهم كما تنفث الأفاعى سمومها فى الأجسام ، فالحيات بتفريق سمها تفرح وهؤلاء بتفريق وسوستهم وغشهم يفرحون ويمرحون . قال والذين ليس عندهم هذا المكر وهذا الخداع المستمد من حب الذات يكونون فى عذاب أقل . ثم قال إنهم يشمون العواطف كما تشم الكلاب الهائم البرية فى حرش . ثم إن العواطف الصالحة متى أدركوها تتحول حالا إلى عواطف شريرة وتقودهم بكيفية عجيبة وعذر خفى ويتحيلون بحيل أن يدخلوا المقاصد الرديئة بأوهام تؤثر فى الانسان وهو لايشعر فهؤلاء يفعلون بعدالموت نفس ما كانوا يفعلون فى الحياة الدنيا ويرون فى هذا نعيمهم وسعادتهم وعزهم . قال والله يمد هؤلاء عمن هو صالح

قال وهذه الأرواح الشريرة تهيج فى الإنسان الشرور والرذائل الموروثة التى تبق مخبأة ، فهؤلاء يستخرجونها ويظهرونها فتكون ضرا وبيلا على الإنسان .

وقال فى عدد (٥٩٤) ماملخصه : إن سكان الجنة طوائف طوائف وهكذا سكان جهنم ، وكل عقاب لطائفة من طوائف أهل النار يقابله نعيم لطائفة توازيها فى جهنم . ويقول إن هذين القسمين لا بدّ منهما فى الوجود كله . فنى عالم الطبيعة نرى الحرّ والبرد والظلمة والنور والرطوبة واليبوسة . ويقول إن الانسان لاحرية له إلا بأن يكون له وسوسة وإلهام فيكون عنده الداعيان داعى الخير وداعى الشرّ ، وهذان الداعيان يتجاذبانه فهو بينهما يختار ما يوافقه ويجاهد فى دفع الآخر حتى يختصّ بأحد الأمرين ، انتهى .

أفلاتعجب أن ترى العقول البشرية فى الشرق والغرب التقت فى نقطة واحدة ، فترى الامام الغزالىّ يأتى بالحديث ويذكر الوسوسة والإلهام ويقول هما مسخران من الله ، وترى هذا العالم الافرنجى الروحى يقول مثل ما يقول بعبارة أخرى ويرجع إلى أن كل شئ زوجان . انظر كيف اتفق القولان مع ما بينهما من بعد الشقة والدين والزمان ، وهذا من العجب العجاب .

اللهم إن العلم هو السعادة فى هذه الحياة . انظر كيف يقول فى كتاب [السماء وجهنم] : إن هذه الأرواح الشريرة تحسّ بلذة . فياعجبا . إذن هى مستلذة بالوسوسة كما يستلذ الناس فى الدنيا بالتغلب على أعدائهم وبذل من يحسدونهم وهلاكهم .

(موازنة بين ما جاء فى كتاب [السماء وجهنم] المذكور ، وبين ماجاء فى كتاب الإبريز الذى ألفه الحافظ أحمد بن المبارك عن أستاذه عبد العزيز الدباغ الذى عاش فى القرن الثانى عشر الهجرى أى قبل أيامنا هذه بنحو قرنين اثنين ، والكتابان فى زمان واحد وهذا شرقى وهذا غربى وكلاهما يرجمان . لعلم الأرواح)

إن الأستاذ الحافظ أحمد بن المبارك المذكور قد ظهر من كلامه الذى قرأته أنه كان بحرا فى العلوم الإسلامية والحكمية والصوفية وهو ذكىّ قدير ولكنه لما قابل الشيخ عبد العزيز الدباغ رآه رجلا أميا . وهذا الأمى أدهشه فانه لايحفظ القرآن ولا الحديث ولا يعرف من هذا شيئا ولكنه رآه يعلم فوق ما يعلمه جميع الفلاسفة وعلماء الدين فى أمة الإسلام . وسأذكر فى مواضع أخرى من هذا الكتاب بعض المحاورات التى جرت بينهما بمناسبات آيات من القرآن ، وأذكر هنا ما يناسب ما نحن فيه . ذلك أنه قال فى صفحة ١٦٥ ما يأتى :

(إن الرجل الذى إذا أمكنته المعصية أقبل عليها واستحلاها غاية الاستحلاء وتشوّق اليها بالكلية يستحليها يوم القيامة فينقطع إلى العذاب بجميع شراشره ويتشوق اليه بالكلية ويقع فيه المرة بعد المرة ويستحليه استحلاء المجروب الحك وعلى قدر ماحك يكون وباله) انتهى .

أقول: وهذا هو نفس ما نشاهده فى الدنيا فان الانسان على مقدار حبه لزيادة المال أو المناصب يزداد نصبا وتعبا فهو كالأجرب . أفلست ترى أن هذا المعنى هو الذى جاء فى كتاب [السماء وجهنم] فيما قدمته لك هنا إن الأرواح الشريرة تفرح وتنعم بخداع غيرها . إذن نحن الآن فى حياتنا الدنيا على هذين الرأيين تتجاذبنا أرواح وتحيط بنا نفوس : منها من يريد بنا الخير . ومنها من يريد بنا الشر ، وكل يفرح بظهور آثاره فينا والأرواح الشريرة تزيد عذابا بتنعمها بإضلالنا ، والعكس بالعكس . إذن صار عذاب هذه الأرواح الجهنمية فى البرزخ بما به تستلذ كما تستلذ الحيات والعقارب والناموس بإدخال السم والأمراض فى أجسامنا فنهرب منا ونطاردها فى أماكنها .

(نظرة

﴿ نظرة أخرى فى هذين الكتابين وذكرهما عذاب جهنم ﴾

جاء فى كتاب [السماء وجهنم] فى هذا المقام ما يأتى :

إن الكوى والأبواب تكون تحت السهول والأودية بهيئات متنوّعة وتحت الجبال والتلال والصخور وتكون أشبه بالمغائر والكهوف أو كالغياض وبحيرات الماء وهى مغطاة لاتفتح إلا عند ما تطرح فيها أرواح شريرة من عالم الأرواح بعد امتحانها ، وإذ ذاك يخرج بخار مع نار ودخان كالسخام الذى يخرج من المشاعل ومعها لهب وبعضها سراديب مملوءة ظلمة . وفى بعض طبقات جهنم أكواخ سيئة البناء كأنها مدينة طافحة بالأزقة والشوارع وفيها تسكن الأرواح الجهنمية وهم فى قتال مستمرّ وقد تقدّم بعض هذا ، انتهى .

وانظر مايقوله الشيخ عبدالعزيز الدباغ فيما نقله الحافظ أحمد بن المبارك فى صفحة ١٤٢ فى كتاب الإبريز .

قال الحافظ أحمد بن المبارك : أذكر هنا بعض ما يشاهده المفتوح عليه . قال إنه يكاشف بأمور : منها أفعال العباد فى خلواتهم . ومنها مشاهدة الأرضين والسموات . ومنها مشاهدة نار البرزخ وهذا البرزخ ممتدّ بين السموات السبع والأرضين السبع وتكون فيه الأرواح بعد خروجها من الأشباح على درجاتها وأرواح أهل الشقاوة فى أهل النار وهى على هيئة منازل ضيقة كالآبار والكهوف والأعطاش وأهلها فى نزول وصعود دائما لا يكلمك الواحد منهم كلة حتى تهوى به هاويته . قال وليست هذه النار هى جهنم لأن جهنم خارجة عن كرة السموات السبع والأرضين السبع وكذلك الجنة الخ ، انتهى .

فتعجب من اتفاق الكتابين على رأى واحد وأن جهنم تكون بعد الموت فعلا ولكنها جهنم البرزخ . والذى عرّفنا أنها جهنم البرزخ هو الشيخ عبد العزيز الدباغ . أما صاحب كتاب [السماء وجهنم] الذى تقدم فانه يظن أنها جهنم الأصلية . إذن الشيخ عبد العزيز الدباغ أعلم من صاحب كتاب [السماء وجهنم]

يظهر من هذا كله أن هؤلاء يرون أن المجموعة الشمسية التى نسكنها هى التى فيها البرزخ وأن هذا البرزخ هو هذا الجوّ الواسع الذى بين الكواكب السيارة الدائرة حول الشمس ، وأن أرواح الأحياء إذا خرجوا من الأجساد سارعوا إلى الأماكن المعدة لهم فى ذلك الجوّ . ولا جرم أن هذا أمر روحى لأننا فى عالم الأجسام لانعرف شيئا له وجود فى هذا الخلاء . ومتى قامت الساعة وطاحت هذه المجموعة الشمسية هى وغيرها جعل أصحاب النار وأصحاب الجنة فى أماكنهم التى سيصلون إليها فى الجنة والنار اللذين هما فى عوالم أخرى لاندريها . وسترى إن شاء الله فى سورة النور عند قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » مبحثا فى نقطة الماء وأن هذه النقطة وجميع المادة التى نعيش فيها ليس فيها من المادة إلا جزء قليل جدا وما هى إلا خلاء نسبة المملوء منه بالمادة إلى الخالى منها كنسبة واحد إلى مائة ألف ألف ألف ألف جزء فاذا كانت نقطة الماء تسع (خمسمائة ألف ألف ألف ألف ألف ألف) جوهر فرد وهذه كلها لاتشغل من القطرة المذكورة إلا جزءا يكاد يكون معدوما . فاذن المادة من هذه الوجهة تكاد تكون عدما . فلو فرضنا هذه النقطة مدينة تسع (مائة ألف ألف ألف ألف) حجرة فلا تشغل تلك الجواهر الفردة المتقدمة إلى حجرة واحدة منها . وعلى ذلك يكون هذا العالم الذى نعيش فيه من أرض وسماوات ومعدن ونبات وحيوان أشبه بالمعدوم وإنما الموجود كله هو الأثير المالئ لهذه العوالم كلها ، وهذا الأثير هو الذى توجد فيه الأرض والكواكب وفيه تكون الأرواح ولها حياة قبل اليوم الآخر روحية تقدم وصفها . إذا علمت هذا فانك ستفهم ما سيعرض لك من المراسلات بين الأرواح وبين الناس .

إن علم الأرواح انتشر وملأ الأقطار كلها ، والمسلم لا يمكنه أن يعيش فى خلوة فهو يقرأ هذه العلوم التى ملأت أوروبا والشرق ويقرأ رسائل كثيرة ترد من الأرواح بالطرق التى ذكرتها فى كتاب [الأرواح] فيحصل للمسلم من هذه المراسلات شكوك وأوهام فيقول فى نفسه (إذا كانت هذه الأرواح فرحة مسرورة

فأين عذاب الكافر منها والفاسق؟) فاذا علم المسلم ما كتبناه هنـا أدرك أن شقاء الفاسق والكافر منها أشبه بحك الأجرب لجربه وأن العذاب يصحب اللذات ؛ كما أن الحية والعقرب فرحتان بحياتهما بل لاتعرفان حياة سواها فافهم ذلك . وهاك أمثلة على ذلك من كتاب [بهجة الأفراح فى مناجاة الأرواح] للمؤلف حديثا المطبوع سنة ١٩٢٨ م جاء فيه ما يأتى :

(محلنا هذا الروحى الذى نسكنه الآن محل شغل وحركة لامحل كسل وبطالة غير أن قليلا من الموسيقى والترتيل يكون مستطابا ومقبولا لـكن بشرط أن لايدوم النهار كله) اهـ .

وأوضح من هذا ما جاء فى رسالة من روح والد يسمى يوسف وردت فى نيسان (إبريل) سنة ١٩١٩ فى (واشنطون) بأمريكا جاء فيها نصائح لابنه، ومنها ما يأتى :

(سيحصد الانسان مازرعه وسينال مكافأة أعماله فى هـذه الحياة الأرضية . وأما الغفران فليس مجرد التخلص من القصاص بواسطة أمر الله بل هو مغفرة أو محو الأعمال الغابرة التى ليست مرضية وتؤثر ببطء تدريجا فى نفس الانسان وهكذا عند مايصير روحا من الأرواح السماوية يجب أن يجد ويتكل على نفسه ؛ فالروح يجب أن توفى كل ماعليها من الدين قبل أن تنال النفس المغفرة وتوافق النفس إرادة الله ونواميسه)

ثم قال (وهنا أقول لك دعنى أقل لك إنه لايوجد إيمان أو سر أو معتقد كنيسة من الـكنائس يقدر أن يمنح هذا الغفران إنما هو عمل من أعمال النفس، وينبغى للانسان أن يسعى له ويجد ويجتهد . كتبت كل هذا حتى أريك يابنى أن النظام قاس لايلين . وقد تـكلم قليلون وهم الذين يفهمون نظام الأعمال وتأثيرها فى الانسان فيهملونها ويسيئون استعمالها خصوصا خدمة الـكنائس ووعاظها المتحلين دائما السلطة الروحية . وقد عرفت مما تقدم أنه يجب على الإنسان أن يبتعد عن هذه الأشياء التى تدنس نفسه وتفسد أخلاقه ولـكن بالأسف أكثر الناس بدل أن يتحاشوا هذه الأشياء يزيدون الطين بلة يأتون إلى العالم الروحى مثقلين أنفسهم بأحمال ثقيلة . وهكذا تبقى أعمالهم وأفكارهم غارقة فى لجج الأهواء التى لا ترضى ، فهؤلاء يجب أن يقضوا فى عالم الأرواح أدوارا عديدة لـكى تطهر نفوسهم من هذه الأشياء . فالإيمان والرجاء الـكاذب لا يفيدانهم شيئا لتطهير نفوسهم بل يكونان حجر عثرة) انتهى المقصود منه .

أفلا ترى أن هذا القول وما قبله صريحان فى أن كثيرا من هذه الأرواح معذبة وإن كانت تخاطب أحبابها فى عالمنا . ها هى ذه الرسالة الأولى يقول فيها: إن الحياة كلها عمل، والله يقول « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة » الخ فهذا نوع من النصب، وانظر كيف يقول إن الإيمان والرجاء الـكاذب عقبة فى سبيل المغفرة . إذن ليفهم المسلمون أن هذه الأرواح التى تراسل أقاربها فى أمريكا وفى أوروبا تـكون فى عذاب . ومن العذاب الشغل الشاق، وانظر كيف يقول: إن النظام قاس لا يلين . ثم انظر كيف يئس من العقيدة الدينية الزائغة عن محجة الصواب بسبب القسيسين والقائمين بأمر الدين . وليعلم المسلمون قاطبة أن هذه العاقبة هى عاقبة الـكسالى المسلمين الذين تركوا مواهبهم وعقولهم فى الدنيا واتكلوا على شيوخهم ونظرائهم، أولئك هم المغرورون . انتهى، والحمد لله رب العالمين.

وجاء فى الـكتاب المذكور (بهجة الأفراح) أيضا صفحة ٩٣ و ٩٤ ما يأتى :

سئلت روح (بوب أنجرسول الجاحد) ماهو الشىء الذى أدهشك بالأكثر حينما انتقلت إلى عالم الأرواح (فأجاب) معرفتى الحق وأنى ذو نفس أزلية خالدة لم أمت ولن أموت . ثم سئل ما الدين الحق (أجاب) هى أن تبلغ نفوسنا أسمى درجة فى القرب من خالقها وتـكتسب من محبته الفائقة ومن ألوهيته العظيمة التى لا تتناهى . وقد سئلت أيضا الأسئلة الآتية :

(س) هل تقدر أن تعرفنا ما هو الإله ؟

(ج) إن الله هو الخالق والمبدع والكل فى الكل والذى بدونه لم يكن شىء مما كان وسيكون هو علة كل العلل ومصور كل الحوادث الطبيعية . هو البداية والنهاية والأول والآخر الذى لم يكن قبله ولا بعده شىء من الكائنات .

(س) هل الإله موجود منذ الأزل ؟

(ج) نعم . نعم . نعم . هو أزلى وكل مادة الكون صادرة منه .

وجاء فى الكتاب المذكور أيضاً أن طبيباً يسمى (الدكتور هانسهان) جرى شوطاً عظيماً وجدّ فى بحث علم الأرواح وكتب عشرات من الأرواح أسماءها على الأوراق تارة وعلى الأحجار أخرى بدون أن تمسها يد إنسان بحضوره مع جم غفير من العلماء والفلاسفة . وهذه الإمضاآت شهد الحاضرون إنها هى نفسها إمضاآت أولئك العلماء فى حال حياتهم بالدقة . ومن جملة الذين كانوا يظهرون بأشخاصهم بسبب وجود الوسيطة روح رجل يسمى (جورج خريسق) فلم يسع الدكتور (هانسهان) فى مقابلة مساعدة روح (خريسق) المذكور إلا أن يشكره شكراً جزيلا على مساعدته فى إظهار الحقائق ثم قال الدكتور (هانسهان) لروح (خريسق) المذكور إنى مستعد لمساعدتك . فأجابت الروح بما يأتى :

أيها الدكتور . أظهرت كل لطف ورقة بقولك لى إنك مستعد لأن تجرى نحوى كل مساعدة فأقدّر لك هذا القول اللطيف حق قدره ولكنك لا تقدر أن تصنع لى شيئاً . إن الغلطة التى ارتكبتها المسيحية هى ترك ملابسنا الكتانية الملوثة دعارة ونجاسة ليسوع المسيح لكى يغسلها وينظفها ويقصرها بينما نحن نقضى معظم حياتنا الأرضية فى ارتكاب المعاصى والآثام . الحياة الشريرة التى تضعف رجاء الآخرين وتقطع آمالهم من الخلاص والمحبة الإلهية . هؤلاء الخطاة والأئمة انهمكوا بالخلاعة فتعلمهم الديانة المسيحية أنهم إذا تابوا فى آخر ساعة وآمنوا بالمسيح وندموا ندامة تامة تغفر لهم كل خطاياهم ويغسلون بدم المسيح فيصبحون أبراراً أطهاراً يستحقون أن يدخلوا السماء . فهذا الاعتقاد فاسد لا نبشر به هنا ولا نعلمه لأن النفس لايلزمها كفارة بل يجب عليها أن تقلع لشراعها كما تسير السفينة إلى ميناء الأمان حالما تنطلق من الجسم المادى المسجونة فيه قاصدة أن تملك لنور الطهارة حيث تستعد لترفل فى حلل الراحة والسلام والسعادة الأبدية مع الله عز وجل الذى هو أصل المحبة والجمال ، وعلى كل إنسان أن يقرع باب السماء بنفسه وبحسب استحقاقه ويرى صك المرور فلا يستطيع أن يختلس الدخول إلى السماء خلسة بل يجب عليه أن يشتغل بجدّ واجتهاد وكل منا يسكن المنطقة التى تليق به وعلى مقتضى تقدمه ودرجة اختباره وارتقائه وما يحصله من المعارف والعلوم وأسباب الرقى . وهكذا يظل يجاهد بنفسه ليرتقى من كون إلى كون ومن كرة إلى كرة ومن مسكن إلى مسكن ، وتختلف هذه المساكن الكثيرة بالمجد والسناء والكرامة والراحة والنور ولا نقدر أن نصفها بلسان ليفهمه العالم الأرضى . وفى هذه الأحوال قد بذلت مقدرتى لأوضح ما نحن فيه من السعادة والعدل انتهى .

ويلى ذلك الإمضاء . (جورج خريسق)

ويقول الدكتور (هانسهان) إنه حصل على كل ما ذكر هنا فى (١٥) دقيقة .

تذكرة

سيرد على خاطرك أيها الذكى أن هذا مسيحى وكيف ينطق بهذا القول . أقول لك إنه قد أظهر فى قوله إن المسيحية مغشوشة ضارة بالنوع الإنسانى . أليس هذا هو النسخ الذى ورد فى ديننا فترجع وتقول لى كيف يصف الأنوار فى الحياة الأخرى وأنهم فى ارتقاء ؟ . أقول لك هل نسيت ماتقدم عن الشيخ عبدالعزيز الدباغ وعن الأستاذ (عمانوئيل) العالم الروحانى . فهذا أفرنجى وهذا مسلم كما قدمت وكلاهما يقول إن

العذاب فى البرزخ أى بعد الموت يكون أشبه بحك الأجرب جربه فهو يحك ليستلذ فيزيده الحك مرضاً كما نرى فى الدنيا أن الإنسان يعطى المال فيطمع فى الزيادة فكلما ازداد مالا ازداد غماً . وهكذا الصيت والذكر وهكذا الملك . فهاهوذا (نابليون) توغل فى الملك وكان آخر أمره أنه حبس فى جزيرة (سنت هيلانة) فهل نحن نعرف تلك الأنوار التى ذكرها فلعلها كالأنوار التى يراها الفراش فيطير إليها فيحترق . وقولى لك حك الأجرب هى عبارة الشيخ عبد العزيز الدباغ . وقد تقدم أيضا عنه أن العصاة يشتاقون إلى العذاب فاشتياق هؤلاء إلى درجاتهم ربما كان اشتياقا إلى العذاب . وأما (عمانوئيل) فعبارته المتقدمة تقرب من هذه . فانظر كيف يقولون إنهم يعملون ويجدّون أليس هذا العمل عذاباً مع أن المعلوم عندنا فى ديننا أن أهل الجنة فى نعيم إلخ . فقال وماذا تقول فى قولهم إن الرقى بالعلوم والمعارف ؟! أقول لك قد رأيت فى كلام (عمانوئيل) المتقدم وفى كتاب الشيخ (عبد العزيز الدباغ) أن الأرواح الشريرة تكونُ علومها هى علوم السحر والطلسمات فهذه العلوم تكون عذاباً لها ويكلها الله إلى نفسها ويكون ذلك كله عذابا لها فلعلك تقول بعد هذا كله أنا غير مقتنع ، فأقول أحيلك على ما تقدم من أن هذه هى حال البرزخ وليست هذه هى الجنة ولا ضدها والرجل لم يقل ذلك إلا لأنهم ملوثون بالمعاصى وهم الآن يجدّون فى العمل ليخلصوا منها ، فتقول لى وكيف يخلصون منها وهم كفار . أقول لك أذكرك بما نقلته فى هذا الكتاب فى موضع آخر عن الإمام الغزالى إن عذاب الناس بعد الموت لا يكون على الكفر . كلا . وإنما يكون العذاب أولا بترك الشهوات ثم بعد أمد يعذب على الذنوب وهكذا . فأما العذاب على الكفر فانما يكون يوم القيامة فراجعه إما فيما سبق فى هذا الكتاب وإما فى شرح العلامة المناوى على قصيدة ابن سينا فى النفس التى أولها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ولعلك تقول كلامك لايروى من غلة ولا يشفى من علة فأنا إلى الآن لم أفهم . فأقول لك اقرأ كتاب [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] للغزالى ، فتقول أنت قرأته فلم أعرف ما تقصد . أقول إن الخواتم مجهولة فربما يكون بعض من نتوهم أنهم فى راحة من الأرواح قد أسلموا ونحن لا نعلم أو تكون بعض تلك الأرواح لا علم لها بالإسلام مطلقا ولم تسمع به أو سمعت به مشوها على غير حقيقته فتقول لى أنا إلى الآن لم يسترح ضميرى . أقول إذن يكون الكلام بعد هذا كله من باب الوسوسة ونحن نريد رقّ الأمم الإسلامية بالعلم والحكمة . وإياك أن تظن أن اعتناقك الإسلام وحده بلا علم ولا عمل يكفيك فلا بد من الجهاد فى الحياة الدنيا : وإياك أن تضيع وقتك فيما لا يجدى نفعا . ودع الوساوس واقرأ قوله تعالى « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وقوله « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » .

فلما أتممت هذا المقال حضر العلامة الذى اعتاد أن يسألنى فى هذا التفسير فقال قد ذكرت هنا وفى مواضع أخرى من هذا التفسير أن أرواح الأموات يهتمون بأقاربهم ويعلمون أحوالهم كما ذكرت هنا فهذا يدل على اتصال بين الحى والميت وإن لم يعلم الحى . وهذه النصوص التى نقلتها عن أهل أمريكا وأوروبا لا يثق الناس بها وأنا أولهم إلا إذا جاء فى ديننا ما يماثلها . فقلت فاسمع ما جاء عن علمائنا الأجلاء .

جاء فى كتاب [مشارق الأنوار] نقلا عن العارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه ما نصه (كان سعيد بن جبير رضى الله عنه يقول إن الأموات لتأتيهم أخبار الأحياء فما من أحد له حميم أى قريب إلا ويأتيه خبر أقاربه فان كان خيراً سرّ به وإن كان شراً عبس له وحزن)

وقال أيضاً وكان أبو الدرداء يقول (اللهم إنى أعوذ بك أن أعمل عملا تخزى به أمواتى) قال وكان

وهب

وهب بن منبه يقول (إن الله تعالى بنى دارا فى السماء السابعة يقال لها البيضاء يجتمع فيها أرواح المؤمنين فاذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح فيسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم من سفر) . وروى أن الأموات يسألون القادم عليهم عن أهل البيت كلهم ما فعل فلان ؟ هل تزوج فلان ؟ أو تزوجت فلانة ؟ ونحو ذلك .

ثم قال فى صفحة (٣٩) من كتاب المشارق المذكور إن بعض العارفين قال إنه يؤخذ للروح صورة من بدنها تتميز بها عن غيرها ولذلك تتصف بالاتصال والانفصال والصعود والنزول وغير ذلك من الأعراض ، وأشخاص كل نوع تميل إلى بعضها وتنفر عن مخالفيها .

ونقل فى صفحة (٣٨) عن الإمام النووى ما نصه (وأصح ما قيل فى ذلك قول إمام الحرمين : إن الروح جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر) .

وإلى هذا الخلاف قال اللقانى :

ولا تخض فى الروح إذ ما وردا نص عن الشارع لكن وجدا
لمالك هى صورة كالجسد فحسبك النص بهذا السند

ثم قلت له . إذن ظهر لك أن علماءنا كانوا يتناقلون فيما بينهم هذه الآراء فهم يقولون إن الأرواح تهتم بأقاربها الأحياء . ويقولون إن صورة الروح كصورة الجسم الجسدى ولكنها لطيفة . وهذان الأمران هما اللذان ظهرا فى علم الأرواح . فهذه الصورة يقول علماء الأرواح إنهم رأوها كصورة الجسم فى الحياة وإن الأموات يهتمون بالأحياء . وتقدم عن اللورد (أوليفرلودج) الإنجليزى مثل ذلك فى مواضع كثيرة من هذا التفسير ، إذن صار علم الأرواح الحديث موافقا لما كان يقوله علماؤنا . فقال وهل هذه الأحاديث المتقدمة صحيحة . فقلت عجباً . نحن الآن لسنا فى مقام صحة الاحاديث وضعفها بل نحن فى مقام أن هذه كانت آراء يقولها المسلمون فلتكن هذه أقوال الصحابة أو غيرهم من الصالحين ، إنما المراد أن نوع هذه الآراء لا ينكرها الإسلام ، فقال قد اكتفيت . فقلت الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . انتهى

﴿ اللطيفة الثامنة « ولاتزر وازرة وزر أخرى » إلى قوله « خبيراً بصيراً » ﴾

بعد أن بين قبل هذا كيف تفضح الذنوب وتظهر العيوب عقد سبحانه هذا الباب ليبين لنا مالنا وما علينا ومحصله أن الذنوب على (قسمين) قسم يختص بالمرء . وقسم يعم كثيراً من الناس . ولأوضحه بمثال فأقول : قتل رجل رجلا ، فهذا القاتل قد أذنب ولا يعاقب سواه على جريمته لا فى القانون ولا فى الشرع وهكذا جميع الذنوب . ورجل آخر أعلن فسقه وزينه للناس وأخذ يذيع شعره الفسقى ونظمه الضار فاتبعه أناس فذلك ذنبه على نفسه أيضا . ولكن هناك أمر آخر وراء ذلك وهو أن الأمم تتأثر بمؤثرات ترسخ فيها فتنتقل العدوى من زيد إلى عمرو . ألم تر إلى الأمراض المعدية والطاعون وبعض أنواع الحيات المعديات . ومن المشهور أن زيداً يتثاءب فيتثاءب خالد والعادات تؤثر تأثير الطاعون والأمراض المعدية . إن الناس يعيشون بالقدوة لا بالتعليم فالتعلم فى الكتب ، والأخلاق والعادات جاريات بين الناس معلقة بأذهانهم لاصقة بهم محكمة فيهم لا يجدون عنها حولا فيكون للأمة ذنوب عامة وعيوب جارحة تشملهم جميعاً . وما مثل الأمة إلا كمثل رجل ابتلى بمرض الزهرى فولد أولاداً مرضوا بهذا الداء فتصبح أجسامهم وأخلاقهم وآدابهم معتلة فهنا عذب صاحب الذنب فى الدنيا والآخرة ولحقه فى هذه الذلة أبناؤه ومن اقتبس المرض منه بالملامسة ولكن هذا العذاب ليس على الجناية بل هو نقص طبيعى يحرمهم من بعض منافع الدنيا وتسوء أخلاقهم وتنحط فتكون سعادتهم فى الآخرة أقل ، ولذلك يقولون (إن البلاء يعم) فالذنوب إذن . قسمان : خاصة ووبالها على صاحبها . وذنوب عامة يعذب بها الشعب كافة والعذاب فى الدنيا بانحطاط الأخلاق والاعمال

وفى الآخرة بعدم ارتقائهم لنقص أعمالهم . إن الشعب أشبه بشجرة لها أغصان وللأغصان فروع والفروع أوراق فاذا ساء سقيها أو ساءت عناصرها المغذية لها شملها الضعف وإن أوذى غصن أو ورقة أو فرع اختص به ماينتج من ذلك . إن بين النفوس رابطة متينة فالأسرة مرتبطة والأمة مرتبطة ومستحيل أن تكمل الأفراد إلا بمجموع جيل يجمعهم ورأى شريف يعمهم ثم هم يتفاوتون على مقتضى اجتهادهم .

اللهم إنا جئنا إلى هذه الأرض فرادى ولكنك جمعتنا وطلبت من الجمع أن يتحد أخلاقا وعادات ولذلك لما رأى الأنبياء ذلك اهتموا بأمر الشعوب فعلموهم . فأما إذا اقتصر النبي على تعليم نفسه لم يكن لهذا من أثر فعال . ومن اقتصر على تعليم أولاده ورقاهم في أى شعب كان فليعلم أن الوسط له أثره السيء فان الخادم والطاهي والجار والشريك كل هؤلاء سيأخذون بجرائم على حسب عاداتهم ويكون أبناؤه غرباء بينهم فلا بد من روابط عامة في المجموع . فالذنوب على ذلك قسمان : أحدهما للشخص خاصة ، والثانى للمجموع وهذا معنى هذه الآية . فقوله « ولا تزر وازرة وزر أخرى » إشارة إلى الأول ، وقوله « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها » الخ إشارة إلى الثانى . إن الأمة الضالة كلها كشجرة سيء سقيها وعناصرها الأرضية فتذبل كلها . هذا هو قوله تعالى « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » لأنا وجدناهم لايعملون للحياة فان الأفراد الذين فسقوا فيهم لم يجدوا من يردعهم ، فالقوم إذن في عداد الذين ليسوا بأحياء فليموتوا أو فليذلوا . إن الأمة التى انغمست فى الترف والنعيم يتقاطع رجالها وتفسد أخلاقهم وهو الذى حصل فى أمتنا الإسلامية . انظر إلى الدول الإسلامية كيف اضمحلت بالشهوات وحب الذات وجهل المنافع العامة فتفرقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض فى بلاد الشرق وفى بلاد الأندلس . فلقد استكثر الأمويون فى الأندلس من البربر وهم شيعتهم وهم الذين قاموا بنصر عبد الرحمن الداخل أول مرة على مناوئيه من شيعة العباسيين الذين كان لهم الحكم قبله بل هم نصروه أيضا على جيوش (شرلمان) التى أرسلها لحربه تزلفا لصديقه الخليفة العباسى فى الظاهر وخوفا من اتساع ملكه إلى أرض فرنسا فى الواقع . ولقد كان العباسيون يستعينون بالفرس فكسروا شوكة الأمويين وأكثروا من المماليك . هكذا الأمويون بالأندلس فانهم لما ثبتت قدمهم فى الملك أخذوا يقلدون العباسيين فى استكثارهم من المماليك الصقالبة وغيرهم خصوصا فى أيام الحكم ابن هشام وعبد الرحمن الناصر حتى أصبحت لهم الكلمة النافذة فى البلاد وصار حكمها من بعده فى أيديهم وأصبح حالهم هنا حالهم فى الشرق شبرا بشبر وقدما بقدم وكانت أنفس كثير منهم تحدث فى قرارتها بتخطى الرقاب وطرق كل باب إلى الوصول إلى منصة الحكم ولا يقعد بهم عنها إلا ما كان يحيطها من رمح مشروع وسيف مسلول وعظمة قائمة وسلطان قدمه فى الأرض ورأسه فى السماء . وعلى كل حال فانهم كان لهم التصرف المطلق فى داخلية الدولة . وخالف الأمويون فى الأندلس آباءهم فى دمشق فى محافظتهم على عصبيتهم العربية وضعفت بذلك شوكة العرب ونقموا على حكومتهم وما زالوا يترقبون الفرصة للخروج عليها حتى أيام ابن أبى عامر وزير الحكم بن الناصر وكان من العرب المتعصبين إلى عصبيتهم فأخذ بدهائه فى التفرقة بين العناصر المتغلبة من صقالبة وأتراك وبربر ثم بالايقاع بهم شيئا فشيئا . وكان فى أثناء ذلك يستقدم رجالات من بربر المغرب من (زناتة ومصمودة) وغيرهم وكان يوليهم مناصب الدولة حتى إذا شعروا بضعف الخلفاء ومن والاهم أخذوا يخرجون على دولتهم ويستقلون بأطرافها . وأول من بدأ منهم باستقلالهم بنو حمود فى قرطبة ثم بنو عباد فى أشبيلية ثم بنو زيرى فى غرناطة ثم بنو جهور فى قرطبة ثم بنو ذى النون فى طليطلة ثم بنو عامر فى بلنسيه ثم بنو هود فى سرقوسة حتى غلبهم على أمرهم الفرنجة من الشمال والمرابطون من الجنوب .

وكثيرا ما كانت ملوك الطوائف يحاربون بعضهم بعضا طمعا فى استيلاء هذا على ما كان فى يد الآخر حتى

انتهى أمرهم إلى الضعف وصاروا يدفعون الجزية إلى (الأذيفونش) غير ما كانوا يلاقونه من الهوان من الفرنجة وما زالوا حتى ضاقت صدورهم من غدر ملوك الفرنجة بهم وسوء معاملتهم لهم فأجمعوا فيما بينهم على استدعاء عرب المغرب لنصرتهم وكان هذا رأى ابن عباد صاحب أشبيلية وكان المغرب وقتئذ فى حكم المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين سلطان المغرب من أقصاه إلى أقصاه فلما وصلت إليه دعوة ابن عباد قبلها وأجاز إلى الجزيرة سنة ٤٤٩ هـ بجيوش جرارة على رأسها قائده العظيم داود بن عائشة وسار هو وفى مقدمته وزيره الكبير سير بن أبى بكر اللمتونى فقابلته جيوش الأسبان متجمعة بقرب بطليوس وعلى رأسها الأذيفونش ملك (القوط) ووقعت بينهم موقعة تشيب لها الولدان انتصر فيها ابن تاشفين انتصاراً باهراً . وهذه الواقعة يسمونها (واقعة الزلاقة) وهرب الأذيفونش بعد أن جرح فى يده جرحاً بليغاً ثم طلب الصلح من بنى تاشفين فمنحه ذلك لمدة خمس سنين فأخذ فيها الأذيفونش على نفسه أن لا يتعرض للمسلمين بشىء مطلقا وخلصت بلاد الأندلس من مظالمه ومما كانت تدفعه إليه سنويا من الجزية وتسمى ابن تاشفين بعد هذه الواقعة بأمير المسلمين . وقد غنم المسلمون من هذه الواقعة شيئاً كثيراً جدا من الأموال والأنفس فعف ابن تاشفين عنه وتركه جميعه لأهل البلاد وانصرف عن الأندلس إلى المغرب تاركا وراءه جمال العمل وجميل السيرة .

وفى سنة ٤٨٦ هـ أجاز ابن تاشفين إلى الأندلس جوازه الثانى لأن أهله شكوا إليه من كثرة المكوس (الضرائب) التى تأخذها منهم ملوكهم . فلما وصل إلى الجزيرة الخضراء خافه ملوك العرب وقطعوا الميرة عن جيوشه بعد أن اتفقوا مع ملوك الفرنجة عليه فقصد بلادهم واستولى عليها واحدة بعد واحدة وبعث بنى بلكين أصحاب غرناطة إلى المغرب فقضوا فيه بقية حياتهم ثم قصد أشبيلية لما علم بفساد دخيلة ابن عباد وأنه استجار بالأذيفونش عليه وأخذه أسيراً وأرسل به إلى أغمات من أعمال مراكش حتى مات فى اعتقاله بها سنة ٤٩١ هـ ثم قصد بطليوس وقبض على ملكها ابن الأفطس وقتله وبذلك أصبحت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها فى حوزته إلا (سرقسطة) وهى فى شمال (أسبانيا) فانها بقيت فى يد بنى هود لاعتصامه بالأذيفونش ولبعدها عن مركز القوة الإسلامية . ولما خلص ابن تاشفين من استيلائه على الأندلس فوض أمره إلى وزيره سير اللمتونى ورجع إلى بلاده ومن ثم أصبحت الأندلس فى يد المرابطين وما زالت فى أيديهم إلى أن دب الشقاق بين أحفاد ابن تاشفين طلبا للملك فى أواخر القرن الخامس الهجرى مما كان سببا لضعفهم وقيام بلاد المغرب عليهم حتى سقطت دولتهم بقيام دولة الموحدين على يد المهدى بن تومرت .

ولما مات المهدى سنة ٥٢٤ هـ اتفقت رجالات المغرب على مبايعة عبد المؤمن بن على ، وكان فى مقدمة رجال المهدى علما وفضلا ودهاء ، وهو أول من تسمى فى المغرب بأمير المؤمنين .

وفى سنة ٥٤٦ أجاز عبد المؤمن إلى الأندلس جيشاً من الموحدين للفتح فتغلب على عزيبه ثم حاصر المرية فاستغاث من كان فيها بالأذيفونش الذى أرسل إليهم محمد بن مردنيش وزيره على جيش من النصارى والمسلمين فكسره عبد المؤمن . وتم استيلاء الموحدين على الأندلس فى مدة ولده أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ، وله إصلاحات كثيرة فى أشبيلية وهو الذى بنى جامعها وأقام جسرها . وأتى من بعده ولده المنصور يعقوب فأكمل الجامع بحيث أصبح لا يضاهيه شىء فى الدنيا . وقد حارب المنصور يعقوب (الأذيفونش) ومعه ملوك النصرانية فانتصر عليهم انتصاراً باهراً فى واقعة الكرك الشهيرة وفتح كثيراً من الحصون والبلاد التى كانت فى أيديهم وما زال يتقدم فى الفتح حتى طلبوا إليه الصلح فصالحهم على خمس سنين وذلك فى سنة ٥٩٢ هـ .

وقد ذكر المؤرخون أن من قتل فى هذه الموقعة من الإفرنج أكثر من مائة ألف . أما ما غنمه المسلمون فيها فهو شىء لا يحصيه الحصر ولا يحيط به العدد حتى أصبحت العرب تبيع الأسير بدرهم والسيف بنصف درهم والحمار بدرهم والفرس بخمسة دراهم ، وبعد هذه الواقعة استولى المنصور على طلبيرة . ثم قصد طليطلة وهى

عاصمة (الأذفونش) وحاصرها . ولما لم يبق غير نزول من فيها على إرادته نزلت والدة (الأذفونش) وبناته وحرمه واستغاثوا به وبمروءته فأكرم مثواهن وأعادهن إلى مقرهن معززات مكرمات وعاد هو إلى بلاده بالغنائم التى لاحصر لها .

ولما مات يعقوب المنصور سنة ٥٩٥ هـ استولى بعده ولده أبو عبد الله محمد الناصر فأجاز إلى الأندلس عام ٦٠٩ هـ بجيوش من العرب يقدرونها بستمائة ألف . هنالك أعلن البابا الحرب المقدسة فهرعت جيوش النصرانية من إيطاليا وفرنسا وألمانيا واتحدت جيوشها فى أسبانيا واستعدوا لملاقاة الناصر بسهول (نافاد) و (تولوزا) وهى قرية تبعد عن قرطبة شمالا بمائة وأربعين كيلومتراً ، وكان الناصر قد أعجبته كثرة جيوشه فأخذ يفتك فى طريقه برجالات (الأندلس) بإيعاز وزيره ابن جامع الذى أراد أن تكون له وحده الكلمة فى البلاد وقد أهمل الناصر رؤساء الأندلس ولم يستشرهم فى أمر عدوه وهم أدرى الناس بالجهة التى يأخذونه منها . وما زال حتى التحمت جيوشه بجيوش النصرانية فى موقعة يسمونها موقعة العقاب لكثرة ما كان فيها من العقبات التى كانت سببا فى خذلانهم وانتصار الفرنجة عليهم انتصاراً باهراً تمزقت معه جيوش المسلمين على كثرتها بحيث لم ينج منهم غير القليل . وفى هذه الواقعة ظهر كوكب نحس المسلمين فى الأندلس وغربت شمس سعودهم « والله تعالى غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وعلى أثر هذه الوقعة مات الناصر فبايع أهل المغرب ولده يحيى فلجأ أخوه المأمون بن الناصر إلى ملك (قشتيلة) يستنصره على أخيه وعلى الموحدين فاشترط عليه شروطاً جمة : منها أن يعطيه عشرة حصون يختارها هو مما فى يد المسلمين مما يلى بلاده وأن تبنى له كنيسة فى مراكش وجهز له جيشا من الفرنجة دخل به أرض المغرب ، وهنالك جمع المأمون شيوخ الموحدين وقتلهم صبراً وكان عددهم أكثر من أربعة آلاف نفس ، ومن هذا الوقت أخذت الأطراف تثور عليه فى المغرب وأخذ حكم الموحدين فى الضعف .

وفى هذه الأثناء استولى الفرنجة على قرطبة ثم على جزر البليار وبلنسية واستولى أسطولهم على (سبتة) وغيرها من سواحل المغرب ثم استولوا على أشبيلية ، وما زالوا يستولون على بلاد الأندلس وحصونه حتى لم يبق مع المسلمين غير (غرناطة) التى بقيت فى يد بنى الأحمر لمنعتها وكثرة أهلها لأن سواد البلاد التى كان يفتحها الإفرنج كانت تلجأ إليها ومع هذا فقد كانت تدفع الجزية لملوك قشتالة .

ولما استولى بنو مرين على المغرب كان بنو الأحمر يساعدون الفرنجة عليهم كما كان بنو مرين يقفون أحياناً مع ملك قشتالة على بنى الأحمر . وما زال ملك بنى الأحمر قائماً بغرناطة حتى حصل الخلاف بين أبى عبد الله ابن أبى الحسن وأمه أسبانية وبين عمه على الملك انتهى بتغلب الفرنجة على غرناطة فى سنة ٨٩٢ هـ الموافقة لسنة ١٤٩٢م وبه انقضى ملك المسلمين بالأندلس وانطوت صحيفتهم . وسبحان من له الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء . ذلك كله لأنهم مترفون وقد فسقوا وعصوا ربهم . انتهى من رحلة الأندلس .

(اللطيفة التاسعة فى قوله تعالى « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد »)

هذه الآيات جاءت كالختام لهذا المقام كله لأنه مبتدأ بما يفيد أن الإنسان عجول يدعو بالشر دعاءه بالخير ثم ذكر الطرق التى تجعله غير عجول كالعلوم الرياضية والتفكر فى أمر النفس وأمور الدولة . ولما أتم الكلام فى ذلك أخذ يشرح الحجة التى كان الكلام مسوقا لها وأعطى قاعدة عامة وهى أن النتائج على مقتضى المقدمات فالأعمال الجسمية نتيجتها الأمور الجسمية والأعمال العقلية نتائجها الأمور العقلية . والأولى مصيرها الفناء والثانية مصيرها للبقاء وليس يقوم أحدهما مقام الآخر . فلو أن أمرأ درس العلوم والأخلاق وعمل بهما وواظب على ذلك ثم هو فى الوقت نفسه قد أهمل الرياضة البدنية فلم يعش فى خلاء نقى ، أو أهمل مضغ الطعام جيداً ، أو لم يحافظ على قوته العقلية فبذر فيها بكثرة الكلام والضحك ، أو تعرض للبرد ، أو كان جسمه

معرّضاً للأمراض الباردة فأخذ يمشي على شطوط الأنهار والحدائق مثل من لم يكونوا مستعدين لذلك . فمثل هذا تصيبه الأمراض كخمول النفس وضعف الأعضاء في الحركات في الأول وسوء الهضم في الثاني وضعف القوة المفكرة في الثالث ومرض (الروماتزم) في الرابع .

فهل أنتج الصلاح والعلم نتيجة في غير ما خلقا له ؟ وهل صح البدن بهما ؟ كلا . فنتيجة العلم والصلاح آثار خاصة بهما لا تتعداهما إلى صحة الأجسام . وهكذا لو أن امرأ حافظ على جسمه فمضغ الطعام جيداً ولم يزد ولم يخلط أصنافاً كثيرة وكان في غاية البساطة مأكلا ومشربا وحافظ على الرياضة واحترس من كثرة الكلام والضحك فحفظ عقله وجسمه واقتصر على ذلك . فهل ذلك ينفعه في العلم وهو لم يدرسه ؟ كلا . فالثمرات توابع الشجرات ، فلا شجرة تثمر ما ليس من ثمراتها . هكذا أعمالنا فما كان متعلقا بالعاجلة فثمرته في العاجلة وما كان في الآجلة فهو لها ، ولا جرم أن الناس درجات في الأعمال والآراء والعلوم والثروة، وأوضح شيء في هذا العالم الثروة، فلو أنك جمعت الناس في صعيد واحد لم تجد اثنين يتساويان ثروة فلابد من التفاضل ولو قليلا وإذن يمكن أن يكونوا سلسلة لها أدنى وهو أفقر الناس ، وأعلى وهو أغناهم وهم جميعاً بين هذين . هكذا حكمهم في الجمال وفي العلم وفي الصلاح وفي الأخلاق وهكذا . فهذه درجات بعضها فوق بعض . هكذا سيكونون في الآخرة درجات باعتبار ما انطبع في نفوسهم من العلوم والأخلاق وهم درجات ، إنما التفاوت هناك أشد والدرجات أكبر . هذا ملخص هذه الآيات . انتهت اللطيفة التاسعة .

(اللطيفة العاشرة « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » إلخ)

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك » رواه البخاري ومسلم .

وروى مسلم حديثاً آخر قال رسول الله ﷺ « رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه ، قيل من يارسول الله ؟ قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة » .

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد ، فقال أحيّ والدك ؟ قال نعم قال ففيهما فجاهد » انتهت اللطيفة العاشرة .

(اللطيفة الحادية عشرة « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »)

إن تفسير هذه الآية جميع الشرائع والعلوم فكيف نقول فيها إلا ملخص ما مضى ؟.

(اللطيفة الثانية عشرة « وإن من شئ إلا يسبح بحمده »)

اعلم أن بعض الحكماء مثل الشيرازي في كتابه [الأسفار] في علم الحكمة قرر أن هذا الوجود كله حيّ ولا معنى للوجود بغير حياة وأن الحياة على مقدار إشراق أنوار الوجود الأعلى على المخلوق فللانسان والحيوان والنبات حياة ، أي أن هناك نوعا من الشعور وهكذا الجماد له نوع من الشعور أقل لأنه أفيض عليه من الحي . هذا ملخص ما أطال به . وأنت تعلم أن الأدلة لاتكفي ونحن يصعب علينا تصديق ذلك إلا ببراهين أجلى وأدلة أوضح فلذلك ترى العلماء يعولون على أن التسبيح للعوالم إنما هو دلالتها وهو تسبيح بلسان الحال لا بلسان المقال ويظهر أثر التسبيح فعلا لأهل الرياضة وللنفوس التي شغلت بذكر الله ، فهؤلاء حقا إذا سمعوا هبوب النسيم أوصرير الباب أوموج البحار أسرع إلى قلوبهم معان يقصر دونها التسبيح اللفظي ويرون لذة ليس يدركها الذين لم يذوقوها ، فتسبيح العالم الذي بلسان الحال قد انطبع في نفوس هذه الطائفة وأعطاهم معاني تدل على التسبيح وتؤدّي مؤدّاه . هذا لايحتاج إلى برهان بل يرجع إلى الوجدان وليس يصدق به إلا أرباب الوجدان ولكن ليس في ذلك أن الجماد نفسه يسبح غاية الأمر أنه يكون سبباً في حدوث التسبيح في نفوس المسبحين . أما كون المخلوقات نفسها تسبح وتعقل ما تقول فهذا ليس في مقدور الناس تصديقه

والناس يرون فى ذرات الماء وضربه وهبوب النسيم وزئير الأسد وعجائب الأرض والسماء من المعانى ما يجل عن الوصف « يسبح له ما فى السموات وما فى الأرض »

فأما ما ورد عن ابن عباس أن النبات والحيوان يسبحان فذلك يؤمن به لأنه مسموع مسلم به إن صح

﴿ كيف يتجلى لك تسبيح السموات والأرض ومن فيهن ؟ ﴾

اجلس فى الخلوات ودع الأعمال ولتسكن الحركات وتنظر فيما أمامك من حقل أخضر ونبات أزهر يأتلق وجمال بهيج وشجر نضير ونخل ظليل وأثل طويل وسرو سحيق وكلأ يزن . وقد هبت النسمات ومالت الأفياء وتقلب الزرع ذات اليمين وذات الشمال وغنت الأعواد بنغمات مشجية وأنماط عدة وتمايلت عجبا وتيها وتناوحت تناوح الحلم واعتنقت اعتناق العشاق وطنت الحشرات بمختلف الأصوات والطير فوق الأفنان تصدح بالألحان والكون يرقص طربا والأرض تزداد عجبا والسماء ترسل الضياء فى فسيح الأرجاء والوحش فى الفلوات يقتنص السخلات . فاذا جن الليل وأرخى سدوله تبدلت الأرض غير الأرض والسماء غير السماء وطويت صحائف النهار وأسدل عليها الستار وأقبلت عرائس الليل سافرات الوجوه مشرقات المصابيح ناعسات الطرف مرسلات نور ابتساماتهن على الأحياء فى الأرض أن هلموا إلى وانظروا جمالى فتعالوا أتل ما أنعم ربكم على من جمال وبهاء وحسن ونضارة وقد حشركم فى الأرض وزوى نور الشمس عنكم ليالى وليالى لتتوفروا على النظر إلى وتعلموا أن هذا الجمال هو الذى سترونه بعد الموت حين تغرب شموس أرواحكم فتصلون فى العالم الثانى إلى جمال وسكون وبهجة نحن نمثلها الآن تمثيلا . فحياتكم كضياء النهار وموتكم كظلمة الليل وتشرق عليها المشرقات المنعشات الآنسات ، وتتجلى لكم أوانس العالم الجميل عالم الأرواح فانكم اليوم تشهدون مشهدا جميلا يعرب لكم عن المشهد الذى ستلاقونه بعد الموت ، وشتان ما بين المشهدين . فهذا نور وإشراق جسمى ، وذلك نور وإشراق روحى مع الملأ الأعلى . إنهم أرسلونى إليكم تبشيرا بمستقبلكم وطليعة لسعادتكم وفرطا لأنفسكم فنحن الأوانس وأنتم المستبشرون فاقبلوا نعمة الجمال واستشعروا الجلال واذكروا ذلك فى الأجيال . هذا نظامنا المتقن بحساب الرق للألباب .

هنالك أيها الذكى تفهم لغة العواصف والريح وقصائد الورد والشيح . وهنالك تفهم شيئاً من التسبيح ؟

(جوهرة لتذكرة معنى هذه الآية فيما تقدم فى سورة هود عند قوله تعالى على لسان هود)

« إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم »

تقدم هناك معنى الصراط المستقيم . صراط الله ، وصراط الذين أنعم الله عليهم ، وتقدم هناك معنى تسبيح كل شىء ونحن محجوبون عن فهمه فارجع إليه إن شئت ، ولكنى أزيد هنا بعض إيضاح المعنى فاقرأ ذلك هناك ثم انظر إلى ما أقوله لك الآن . وسترى أيضا فيما سيأتى عند قوله تعالى « قد أفلح المؤمنون » بعض صور الحيوان المرسومة بالتصوير الشمسى الدالة على أن لون الحيوان إنما خلق لحمايته بحيث يكون بعضه مماثلا للون الرمل والحجارة التى يعيش عليها أو للون الليل الذى يخرج ويأكل فيه أو للون الورق الجاف الذى يقع عليه أو جذوع الأشجار التى يلجأ إليها أو تكون رأسه ورجلاه وصندوقه أشبه بأفرع الأشجار وجناحاها يشبهان الورق وهما ملونان بلون ما يحيط بهم من الزهر بحيث لا يشك من يرى ذلك الحيوان أنه عبارة عن غصن ذى أوراق وهكذا مما لا حصر له سبق ذكره هناك وسيأتى ذكره وصورته وقد قلنا هناك إن هذا هو تسبيح هذه المخلوقات وحمدها لأن هذا دل على عدل الله وتنزهه عن الميل عن الصراط المستقيم فلم يكن إعطاؤه للفار لون السواد لظلمه ولا للطائر الأمريكى الليلى المذكور هناك لون البياض والذيل الطويل تفضيلا له على الفار . كلا بل سواد الفار ينفعه فى اختفائه عن العيون ليلا ، وبياض هذا الطائر ليكون هو مع طول ذيله علما لأعدائه فلا تقربه لعلمها بما له من رائحة منتنة يطلقها عليها فيكون ذلك العلم راحة لهذا الطائر ولما يريد اقتناصه من

من الحيوان . فهذا غيض من فيض من ذلك المقام ؛ ثم نقول : هذا هو التسبيح وهذا هو التحميد الذى لم نفهمه فى قوله تعالى « ولـكن لاتفقهون تسبيحهم » وكيف نفقه تسبيحهم إلا بالعلم المذكور فى آية الأنعام إذ يقول « قل هل عنـدكم من علم » الخ ، فهذا العلم الذى فتح بابه فى هذا التفسير لا سيما هذا المقال هناك عرفنا به تسبيح كل شىء إذ يقول الله « سبح لله مافى السموات وما فى الأرض » . فها أنت ذا رأيت الله قد سبحناه أى نزهناه عن الجور والظلم ، فلم يظلم الفأر بسواده ولا الحية بلونها الضعيف الذى ليس كلون الطاووس فإذا اسودّ الفأر و ا بس الحلة الزنبور فـكلاهما قد دفع عنه الشرّ بما اتصف به :

(١) فالشرّ كالسواد به بقاء الحيوان ودفع الشرّ عنه .

(٢) فهذا تنزيه لله عن قصد الإذلال .

فإذا سبح لله مافى السموات وما فى الأرض . وإذا كانت الملائكة يسبحون بحمد ربهم . وإذا كان أهل الجنة آخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين فان ذلك كله يرجع إلى هـذا النظام الجميل . إن الفأر وإن الزنبور وإن الدب القطبى وإن الطائر الليلى الأمريكى وغير هذه مما يعدّ بمئات الآلاف لو أعطيت ألوانا أو أشكالا غير مالهـا لـكان وبالا عليها فبهذا تنزه الله عن المحاباة بل عمله متجه إلى حفظ هذه الحيوانات ، فهو منزه عن العبث بإعطاء مالافائدة منه لهذه الحيوانات وعن المحاباة وفى الوقت نفسه أعطى نعمة . فإعطاء النعمة مقرون بدفع المضرة فهو منزه عما لا فائدة منه معط لنعمة البقاء والهناء . إذن التسبيح والتحميد مقرونان فى قرن ، فهذا هو تسبيح مافى السموات ومافى الأرض ، وهذا هو السرّ فى أن التسبيح قد ذكر ملتبسا بالحمد . يقول الله تعالى « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » فها أنت ذا رأيت التسبيح مقرونا بالحمد لا يفترقان فستحيل أن يدفع ضرر بلا جلب نفع للمدفوع عنه كما رأيت .

﴿ موازنة بين تسبيح اللسان وحمده وبين تسبيح المخلوقات ﴾

يسبح الناس بألسنتهم وتسبح المخلوقات بأوصافها وألوانها . فياليت شعرى أيها أصدق ؟ . لاجرم أن التسبيح العملى أفصح من التسبيح اللفظى . واللافظ بالتسبيح قد يغفل عن معناه وهكذا التحميد . أما صور هذه المخلوقات فإنها ناطقة نطقا يفقهه الحكماء بالحمد والتسبيح . واعلم أن التسبيح الحقيق من العقلاء كالانسان والملك لن يكون إلا بمعرفة أمثال ماذكرناه . فتسبيح كل شىء هو التسبيح الحقيق ، فإذا عرفناه فقد سبحنا وحمدنا . فهذه الصور الحيوانية الدالة على التسبيح والحمد إذا قرنت بالتلفظ بهما كان الحمد والتسبيح حقيقيين وهذا هو الذى جاء فى معنى قوله تعالى « فسبح بحمد ربك » مخاطبا رسول ﷺ ، قرن التسبيح بالتحميد كما قرنهما فى تسبيح كل شىء فى آيتنا التى نحن بصدد الكلام عليها .

يقول الله لرسوله ﷺ ليـكن تسبيحك وحمدك مقترنين كما اقترنا فى تسبيح كل شىء ولا يكون ذلك إلا إذا كان الوجود ممثلا أمامك على هيئته التى تقدّم ذكرها (ذكر بعضها فى هذا المقام) وهكذا فى تسبيح الملائكة قال « والملائكة يسبحون بحمد ربهم » أى أنهم عالمون بإبداع هذه المخلوقات التى كلها تسبيح وتحميد عملى . ولا جرم أن العلم بالشىء حضور صورته فى الذهن . إذن تسبيح الملائكة وتسبيح الأنبياء بحضور أمثال ما ذكرناه من المعانى فى الحيوان أو النبات أو غيرهما .

﴿ الـكلام على قوله تعالى « ولـكن لاتفقهون تسبيحهم » ﴾

قد يقول قائل إن الله يقول ـ ولـكن لا تفقهون تسبيحهم ـ والمخاطب بذلك جميع الناس فـكيف يعقل أن ما لا نفقه تسبيحه هو الذى يكون بتصوره وتعقله التسبيح . إذن بمقتضى نص الآية يستحيل على الناس أن يعقلوا هذه المعانى

الجواب على ذلك

اعلم أن هذا الخطاب وإن كان عاما فقد خصص فى آية (آل عمران) . يقول الله « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط » فالله يشهد أنه واحد لاشريك له وأنه قائم بالقسط والعدل، وهكذا الملائكة يشهدون بالأمرين ، وهكذا أولو العلم أى الدارسون لهذا الوجود على نحو ما قررناه . إذن الدارسون لهذا الوجود مستثنون من المخاطبين الذين لا يفقهون تسبيح هذه المخلوقات . فثبت إذن نقلا كما ثبت عقلا أن النوع الإنسانى إذا عرف نظام الحيوان ودقته كما ذكرناه هنا وفيما مضى وفيما سيأتى يكون مسبحاً حامداً ويكون العارفون بهذا مسبحين حامدين ويكون التسبيح والتحميد اللفظيان مذكرين بهذه المعانى . فاذا قال المسلم « سبحان الله والحمد لله » عقب كل صلاة ثلاثا وثلاثين . وإذا قالهما المسلم عند نومه كذلك بهذا العدد . وإذا قال المسلم فى الركوع « سبحان ربى العظيم » ١١ مرة أو فى السجود « سبحان ربى الأعلى » ١١ مرة أيضاً ، وإذا كرر ذلك فى كل صلاة واجبة أو مسنونة وكان العدد مئات ومئات كل يوم فمعنى هذا كله أنه يدرك الأسرار التى ضربنا لها الأمثال هنا وفيما مضى وفيما سيأتى من العلوم المنتشرة فى الدنيا كما كان ﷺ يقوم فى آخر الليل وينظر فى السماء ويقرأ آيات آخر (آل عمران) كل ذلك قبل صلاة الليل . لماذا هذا ؟ ليتذكر ذلك فى تسبيحه وتحميده ويكون الوجود حاضرا مجملا فى عقله ، فيسبح ربه ويحمده مراعيا نحو ما قررناه . وبعبارة أخرى ليدلنا على أن تسبيحنا الحقيقى وتحميدنا الحقيقى لا يكونان إلا بعد النظر فى الوجود ونظره هو ﷺ مجرد لمحة لأنه مملوء علما . أما نظرنا نحن فلتكن جميع العلوم التى ملأت الدنيا اليوم لأن الله علمه بالوحى ونحن لم يعلمنا الله بالوحى ولكن أمرنا أن نتعلم تعلما عملياً بعقولنا . وقوله تعالى « قائماً بالقسط » أى العدل فى النظام هو عين قوله تعالى « إن ربى على صراط مستقيم » الذى ذكره هود عليه السلام فى معرض التوكل على الله وفى معرض أنه آخذ بناصية كل دابة . وأنت تعلم من هذا التفسير أن ذلك راجع لإعطاء كل ذى حق حقه من الحيوان ، فلا يعطى الحية لون الطاووس لئلا يكون هلاكها ولا الضب لون الزنبور لئلا يكون هلاكه . فتبين إذن أن المسلمين عليهم أن يدرسوا هذه الدنيا ليكونوا فى الدنيا سادة وفى الآخرة مع الله ومع الملائكة والنبيين وذلك بالعلم بحقائق هذا الوجود . وههنا اعترض بعض الإخوان فقال : إذن جميع التسبيح والتحميد من أزمان النبوّة إلى الآن لاثواب فيه وقد مضى ١٣٠٠ سنة فأكثر والناس لم يلاحظوا هذه المعانى . إذن كل تسبيح كان باطلا وهذا لا يقرك عليه عالم فى الإسلام . فقلت له إن الذكر اللفظى يكفيه المعنى الإجمالى فيكفى الذاكر أن يتصور معنى إجماليا وهذا موجود عند جميع المسلمين ، بل إن الذى غفل قلبه عن المعنى الإجمالى يكون تكرار التسبيح والتحميد وقتا فوقتا مما يلفت الذهن إلى الله وجلاله . فكل تسبيح من جهال المسلمين وكل تحميد وكل ذكر لها آثار فى القلوب مشهودة ، هكذا قراءة القرآن وتكرار الصلوات والعبادات . كل هذه سبب فى استحضار الله فى النفوس وهذا الاستحضار له فعل عجيب فى النفوس وآثار مشهودة معلومة . على ذلك درجت الأمم فى الديانات قديماً وحديثاً وهذه فضلا عن لفت القلوب لحب الله بكثرة التكرار تجعل القلوب مستعدة لهذه العلوم عند قراءتها . وإذا كنا نرى المرأة التى استحضرت فى ذهنها الضفدعة لشدة خوفها من الضفادع قد تحول ولدها فى رحمها نوعا ما إلى هيئة الضفدعة كما تقدم فى هذا التفسير . وإذا رأينا قدماء المصريين كانوا يأتون بصورة العجل المعبود الذى له لون خاص وعلامة أشبه بالمثلث على جبهته فيضعونها أمام بقرة فى حال حملها ثم يكون نتيجة ذلك أن يولد العجل على الهيئة التى رأتها أمه فيجعلونه إلها . أقول : إذا كانت هذه هى هيئة النفوس الحيوانية فلا جرم أن يكون استحضار الله فى القلوب بالتسبيح والتحميد داعياً إلى حبه وكون ذكره فى القلوب ورسوخ الربوبية فى الأفئدة وذلك نتائج صادقة مشاهدة معروفة فى الدنيا ثم هذه تكون ملازمة الروح فى العوالم الأخرى .

ومن عجب أن هذه هي التي ورد في القرآن مايفيدها إذ رأى زكريا مريم وهي لم يمسها الرجال وكانت سيدة النساء وعابدة فدعا الله فجاء له يحيى على صفات كصفاتها فهو سيد وهي سيدة النساء وهو حصور لايأتي النساء وهي مثله مع الرجال وهو مصدق بعيسى وهي كذلك كما تقدم ذكر هذا في (آل عمران)

إنما جاء ذلك في القرآن ليرينا الله أن النفوس آثاراً ومن ذلك التسبيح والتحميد مع جهل هذا الوجود فلهما آثار في العقول ولكن هناك طائفة أرقى وهم أولو العلم الذين هم مع الملائكة ومع ربهم ويشهدون هذا النظام ، والحمد لله الذي ألهم وعلم .

ولما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه من اعتاد من الإخوان أن يقرأ مسودات التفسير فقال هذا القول مشبع وجميل وقد ظهرت حقائق ما كنا لنذكرها ، ولكن أريد أبين من هذا ، قلت ماذا تريد ؟ فقال أريد أن أرى من القرآن مايشبه النص على ماتقول : أي أن التسبيح والتحميد الحقيقيين إنما يكونان بإدراك حقائق الوجود مع علمي أنك أقررت بأن تسبيح العامة وتقديسهم وإن لم يكن مقرونا بالعلم له فضل عظيم . ولكن أريد التحقق من مقام الحكماء وأولي الألباب الذين ذكرت أن تسبيحهم لابد أن يكون مع العلم حتى يكونوا أقرب إلى ربهم وإلى ملائكته وإلى أنبيائه . فقلت ألم تقرأ قوله تعالى « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » . ألست ترى أنهم سبحوا الله مساء وصباحاً وعشياً وظهراً وأتى بجملة بين الصباح والمساء وبين العشي والظهر وهي أنه محمود في السموات والأرض . ولا جرم أن كونه محمودا في السموات والأرض التي أتى بها بين صلواتنا في الذكر لحكمة أن تسبيحكم يستحسن أن يكون مع إدراك الحمد المرسوم في صور السموات والأرضين الذي تدركه عقولكم وإلا فلماذا أتى بهذه الجملة بين صلواتنا الخمس كأنه يقول لنا إن تسبيحكم وصلواتكم بينها وبين العوالم المحيطة بكم مناسبة وهي أنكم تدرسون هذا الوجود قبيل الرحيل إلى السموات التي استعددتم للعروج اليها طبقا عن طبق حتى تصلوا إلى لقاء ربكم وتكونوا مع الملائكة في أعلى عليين وذلك لايكون إلا بالعلوم . فقال حسن جداً : فقلت الحمد لله رب العالمين .

﴿ التسبيح والتحميد وظواهر الصلوات وقصص الأولين
في الكتب السماوية أشبه بأشجار ثمارها الحكمة والعلم ﴾

التسبيح والتحميد باللسان مثلها كمثل أشجار البساتين المزهرة . فانظر رعاك الله لهذا العالم الذي نعيش فيه . خلقنا بأجسام ذات أعضاء وحواس وأحشاء وأطراف . ومست الحاجة إلى طعام وشراب فكان هناك نفس داخل وخارج . داخل بما يصلح الدم ، خارج بما هو ضار . فهو إذن داخل مدخل صدق وخارج مخرج صدق . جالب خيراً في الأول ودافع ضرراً بالثاني . انظر هنا قليلا ، انظر إلى هذا الداخل والخارج لإصلاح الجسم ودفع الضرر عنه وإقامة بنيانه . لم يرد الله أن يذر ذلك الداخل والخارج بلا عمل آخر في دخوله وخروجه فخلق له هذه الأسنان واللسان والشفتين والحلق الخ . ففي أثناء دخول الهواء وخروجه يتميز على حسب هذه الأعضاء فيكون حروفا والحروف كلمات والكلمات تعبر عن هذه الدنيا كلها وعن الآخرة

الله أكبر ، هذا العالم الذي نعيش فيه أشبه بصورة جميلة جاء المصورون من كل فج عميق لينسخوا صورتها وهم آلاف آلاف أفواجا أفواجا لاينقطع عددهم ولامددهم من يوم أن خلق السموات والأرض إلى قيام الساعة . أتدري ما معنى هذا ؟ معناه أن الألفاظ المعبرة عن هذه المخلوقات ترصد في الكتب وتقال في القصائد وتذكر في المجالس فيتصور كل واحد من الناس هذه الدنيا على مقدار ماسمع من القول وماعلم بالحواس وما فكر بالعقل . إذن كل امرئ في الدنيا قد صورت له هذه الدنيا بصورة ما أي أن كل دماغ أشبه بالخزانة المظلمة وفيه لوحة قد رسمت فيها كل مايسمعه أو يراه والكلام الذي سببه الهواء يضع في النفس صور المعلومات

علويها وسفليها ، جَلّ الله وجلّ العلم . نفس داخل وخارج لإصلاح الجسم حمل معه صور العالم الذي تعيش فيه فرسمت في دماغ كل امرىء . إذن هذه الدنيا لها صور لا عدد لها تقال باللسان في عالم الهواء وترسم في الدماغ . فاذا كان هذا العالم واحداً فهو آلاف وآلاف في آلاف بالصور المتخذة منه بالكلام وبالصور العقلية .

﴿ آثار الكلام ﴾

الكلام آثار في القلوب ، فيه بلغ الأنبياء ، وأثر الخطباء ، وبه ارتقاء الأمم وعظمة الدول وحفظ آثارهم في حياة كلهم وكتبهم وحفظ الشرائع في الطوامير وبطون الدفاتر . فالكلام آثار وأي آثار ، تلك كلها قد جاءت تبعاً لإصلاح الجسم بالهواء داخلا وخارجا . لا عجب إذا كان للتسبيح والتحميد والصلوات آثار في نفوس المسبحين الحامدين المصلين . ولا عجب إذا قلنا إن هذه التسبيحات والتحميدات بساتين . وهل بعد مقال الوحي مقال ؟ . ألم يقل صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء محدّثاً عن الخليل عليه السلام قال « يا محمد بشر أمتك بأن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وغراسها سبحان الله والحمد لله الخ » . إذن التسبيح والتحميد أشجار والأشجار لها أثمار . وما أثمار التسبيح والتحميد يا ترى ؟ أثمارها المعرفة والعلم : أي أن يعرف المرء أن الله منزه عن وضع الأشياء في غير مواضعها وهو مع ذلك محسن كريم . إذن الهواء في الزفير والشهيق يمثل التسبيح والتحميد ، فالشهيق يمثل التحميد لأنه يدخل النافع والزفير يمثل التسبيح لأنه لإخراج الضارّ . فإذا رأيته سبحانه قد جعل لون الحية أشبه بما حولها فهو بذلك دفع عنها غوائل ما يهلكها وحفظ حياتها ؛ فدفع الغوائل يشير له التسبيح وبقاء الحياة يشير له التحميد والأول كالزفير والثاني كالشهيق . الله أكبر ، جلّ العلم وجلت الحكمة وجلّ الله . أليست هذه المعاني هي التي ورد بها الحديث في وصف أهل الجنة « يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون أنتم النفس » فانظر لدقة المعنى وتعجب لإلهام النفس المشتمل على الدفع والنفع والتسبيح والتحميد المشتملين عليهما . اللهم إنك أنت للعلم والملهم . تبين من هذا أن التسبيح والتحميد إن تبعهما العلم العام كما في هذا التفسير فبها ونعمت ، وإن لم يتبعهما ذلك كانا أشبه بأشجار وأزهار من غير ثمر والأشجار والأزهار لها منافع الظلّ وجمال الزهر ومنافع أخرى . والمسبح الجاهل له في التسبيح منافع كثيرة فهو في أثناء ذلك نزه نفسه عن الغيبة والنميمة وقول الزور . وأيضا بدخول النفس وخروجه تتأثر الأعصاب بالمعاني التي حملها الكلام فتسرى إلى الروح سريان الضوء في الأثير فتصل إلى الروح آثار نورية فتكون أشبه بنور الشمس والقمر في العالم المادي ومن رأى نور الشمس والقمر اهتدى بهما وإن كان لا يدرك نظامهما وحسن إتقان جريهما . فمثل المسبحين الحامدين كمثل الناظرين للأنوار . فالعامة والجهلاء ينتفعون بنفس الضوء ، والعلماء والحكماء يدركون سر سير الشمس والقمر ؛ هكذا هنا فظواهر التسبيح تفيد نورا في القلب إجماليا ومعرفة العلوم تفيد معرفة الحقائق التي تدخل تحت التسبيح والتحميد . وتسبيح الناس في الجنة وتسبيح الملائكة وتحميدهم إنما يرجع كل ذلك إلى العلم والحكمة المستفادين من قوله « يلهمون التسبيح والتحميد الخ » والإلهام للمعاني وتتبعها الألفاظ . ومثل ما ذكرت في التسبيح والتحميد يكون الكلام في قصص الأنبياء في القرآن ؛ فالعامة يفرحون بظواهر القصص ، والحكماء والعلماء لا يقفون على الظواهر ، العامة بنفس القصص يفرحون والعلماء والحكماء يستخرجون الدرر من البحار ويعلمون أن المقصود ما هو مكنون في ذلك القصص كما رأيت في سورة هود إذ بدأها بذكر عالم الحيوان وأن الله عليه رزقها وأعاد الكرة بذلك في قصة هود إذ قال « إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » وقد تقدم هناك ذلك فكان المقصد من قصته أخذ الله بنواصي كل حي كما جاء في مبدأ السورة . وهكذا هنا في سورة الإسراء ذكر أنه

أسرى بجسده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . ولما كان ذلك أمراً يرجع إلى خلوص الروح وشرفها أومأ إلى ذلك بذكر أن الروح من أمر ربى ليتبين للناس أن النفوس ترجع إلى ربها والنبوة نبراس ذلك الرجوع «وأن إلى ربك المنتهى» وهذه الآية التى نحن بصدد الكلام عليها تحوم حول هذا المعنى فان من يفقه التسبيح هو الذى يصل إلى الله ومن لم يفقه فهو محجوب .

﴿ تذييل . آثار كلام الناس وآثار كلام الله ﴾

هذه آثار كلامنا . آثار كلامنا صور فى الأذهان أى صور ماتكلم به . فإذا نطقنا بلفظ شمس أو قمر أو شجرة رسمت صورة الشمس وصورة القمر وصورة الشجرة فى ذهن من نخاطبه . فكلامنا أشبه بالزارع والأذهان أشبه بالمزرعة والصور تحدث فى النفوس بمجرد نطقنا بها . ولا جرم أننا من آثار فعل الله وقد خلق آدم على صورته كما فى بعض الآثار . فإذا قال الله للشىء كن فان ذلك الشىء يكون ولكن كونه هناك كونا فى العيان . وإذا قلنا للشىء كن فبمجرد نطقنا يكون ذلك الشىء ولكن وجوده فى الأذهان ، وهذا قوله تعالى «إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» أى على منوال ماتقولون أنتم ، فأنتم تنطقون باسم الشىء فتوجد صورته الذهنية فى نفس السامع ، وأنا أقول كن فتكون صورته الحقيقية فآثارى عملية وجودية وآثاركم ذهنية خيالية . وأقرب شىء لتفهيمنا سرعة خلق الأشياء وطاعتها للصانع هو كلامنا . فكما أن كلامنا لا كلفة فيه وبمجرد حصوله ترسم صور الأشياء هكذا كلام الله ووجود مخلوقاته

﴿ جوهرة فى قوله تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبحمدك تقدست أسماؤك وصفاتك وأفعالك . ههنا فى هذه آية ورد « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » والذى قالوه أنه معه آلهة فهو منزه عن الشريك ، وقال فى آية أخرى « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » الخ ، والذى وصفوه به أن خلق السموات والأرض باطل «وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا » .

إن الله تعالى لم نره ولم نر إلا مصنوعاته . وهذه المصنوعات غامضة على أكثر هذا النوع الإنسانى . لقد أكثر علماء التوحيد غالبا من التنزيه فى الذات والصفات والأفعال ، ولكن الجمهور لم يزايلوا ذلك العموم ولم يهتد أكثر الناس إلى بعض التفصيل والحكم فى العالم المشاهد : كثر التسبيح فى الصلاة وكثر التسبيح فى القرآن ويقول الله « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » هذا والله تهييج لمعرفة هــذا التسبيح .

يسبح المسلم ويحمد . ليس الحمد وليس التسبيح قاصرا على ماتصنعون : إن هذا الدين نزل لرقيكم ولم ينزل لمجرد كلمات تقال ولا آيات تحفظ ولاصلوات تقام بلاعقل ولا تفكر . كثر فى الصلاة التسبيح والتحميد وكثر فى القرآن ذانك الأمران . ألا إنما مثل الديانات فى الأرض كمثل (كليلة ودمنة) الذى ألفه (بيدبا الفيلسوف) لملك الهند فى زمانه قبل الميلاد بنحو ثلثمائة سنة وجعله على ألسنة الأسد والثعلب والحمام والغراب والسلحفاة والغزالة والقرد والفيلة وما أشبه ذلك . فهذا الكتاب ظاهره ينتفع به الجهال يتسلون بالصور التى فيه ويفرحون بأسد يتكلم وثعلب ينم على الثور وثور يسمع النميمة فيظن السوء بالأسد وهكذا الأسد يسمع ذلك فيفتك بالثور ثم تدور الدائرة على النمام وهو (دمنة) فيحكم عليه بالقتل فيقتل . هذه حكايات يفرح بها الجهال ولكن الحكماء لايقفون عند الظواهر بل يدخلون فى علوم السياسة ونظام الأمم والعمران . هذا كتاب (كليلة ودمنة) وهذا قصده ولكن إياك أن تقول إن الديانات على هذا النمط . كلا . وإنما أقول لك إن القصد من هذا التشبيه أن كلام بعض مخلوقات الله فى الأرض إذا كان له ظواهر يكتفى بها العامة وبواطن

يفقهها الخاصة فبالأولى ثم الأولى كلام الله الذى لا يقاس بكلام الناس . إن كلام الله أشبه بفعله إن الله يخلق الأشجار للثمرة يستظل بها قوم ، وقوم يأكلون الأثمار . هكذا هذا القرآن وهذه الصلوات والتسبيحات ، يسبح المسلم ويصلى ويحمد فإن كان جاهلا فقد نال مناه لأنه أثناء التسبيح والتحميد والقراءة وهو غافل عن المعنى قد كفّ نفسه عن المعاصى وأيضا يكون حين القراءة أو الصلاة فى صورة الطاعة وفى استحضار الخالق ، وإن كان الكلام غير مفهوم وهناك تكون البركات والآثار على قدر اجتهاد العابد ونيته فهو إذن كالمستظل بالشجرة وإن لم ينل الثمرة . الله أكبر ، ههنا وصلت إلى المقصود من هذا المقال . سبحانك اللهم وبحمدك سبحانك وسبحك مافى السموات ومافى الأرض وذلك لا يعرف إلا بالعلوم التى ملأت الكرة الأرضية اليوم . اللهم إنك أنت القائل « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » والقائل « ثم إن علينا بيانه » .

اللهم إن هذا هو زمان البيان وزمان العرفان . أنزلت القرآن وحفظه المسلمون وسبحوا وحمدوا وأكثرهم نائمون . حاربوا علماءهم كالغزالى وابن رشد ، فأنت قد ألهمت الأمم التى أخذت علوم المسلمين أن تدرس هذا الوجود فدرسوه على قدر طاقتهم . وها نحن الآن فى هذا التفسير وغيره نسترد الأمانة ونقول — « هذه بضاعتنا ردت إلينا » . فماذا قرأنا فى تلك العلوم ؟ . قرأنا أن كل مخلوق له خاصة بعضها كشف قديما وبعضها كشف حديثا وبعضها سيكشف . وهذا كله هو معنى التسبيح والحمد . . انظره فى سورة هود عند قوله تعالى « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم » وهكذا عند قوله تعالى فى سورة الرعد « وفى الأرض قطع متجاورات » فى بعض اللطائف التى ذكر فيها (النغمات فى الأحجار) هناك ترى فى هذا المقام أن لون الحيوان إنما خلق فيه لمنفعته هو . وترى فى سورة « قد أفلح المؤمنون » نيفا وثلاثين حالا مذكورة للحيوانات بحيث يكون اللون حافظا لنفس الحيوان وكأن الزنبور مثلا وهو حامل سلاحه وملون بلونه قد نطق بتسبيح ربه أى تنزيهه عن العبث فى اختصاص الزنبور باللون الزاهر لما له من السلاح الذى يحميه هذا هو التسبيح حقا : سبح مافى السموات ومافى الأرض وكل مافيهما يسبح كما يسبح الزنبور أى أن لونه الظاهر إنما وضع فيه لأنه له سلاح يحميه . ففى هذا اللون نجاته من الهاجم عليه لأن اللون أعلمه به ونجاة الهاجم عليه من الطيور الآكلات الحشرات لأن لون الزنبور أنذرها . فالله تعالى منزه أن يعطى هذا الزنبور لونه بلا منفعة إذ نفس الزنبور تسبيح عملى ، وقس على مسألة الزنبور كل المسائل هناك فاقرأها واقرأها وقل فى كل منها ماقلته لك الآن .

هذا بعض سر التسبيح فى هذا المكان وغيره وهكذا فى سورة الرعد إذ ترى هناك فى القطع المتجاورات أن الماء والأرض والهواء والبخار والأحجار قد اختص كل واحد بعمل وصارت جميعها أشبه بأوتار الموسيقى كما شرحته لك هناك . يرتفع البخار فوق الهواء ويتكون السحاب وينزل فى أجزاء الهواء قطرات رحمة بالناس لئلا يهلكوا أو يستضروا بنزوله مرة واحدة . وهكذا نرى أن لكل حجر وظيفة لاينفع فيها سواه ؛ فلا الملح يغنى عن حجر الرحى ولا حجر الرحى يغنى عن الجرانيت ولا الماء يغنى عن الهواء ولا الهواء يغنى عن البخار فما من هذه المخلوقات إلا له مقام معلوم لايفيد فيه سواه « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم » إذن الماء والهواء والبخار والملح والأحجار الأخرى كل واحد يقول أنا ما خلقت باطلا بل خلقت لمنفعة وغيرى لايسد مسدى من كل الوجوه ثم يقول كل واحد منها إن الله منزه عن العبث فى خلق إذ خلقنى لعمل : إن هذه العوالم ليست مصادفة عمياء بل معقولة موزونة . فهذه لاعبث فى خلقها وإيجادها . ههنا اتحد الحمد بالتسبيح فشجرة النخل مثلا تقول إنى لايسد غيرى مسدى فى زمن الحمل فاختصاصى بهذه الصفات ليست عبثا وفيها منافع . فقول النخلة لست عبثا معناه أن الله منزه عن عمل بلا تدبير وكونها فيها منافع معناه أنه محمود على نعمه : تبين بهذا معنى قوله تعالى « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » على قدر طاقتنا وتبين أن هذه المعانى

لا تتم لنا إلا بدراسة علوم الأمم المحيطة بنا التي نسلموها من آبائنا . وتبين بهذا أيضا أن المسلمين لن ينالوا هذه المعاني التي توقفهم على حقائق الكائنات وتسبيحها إلا بعد بذل الجهد في توسيع نطاق المعارف العامة ابتدائية وتجهيزية وعالية . وهناك ينبغ من يدركون خواص الموجودات . إذن لا يتم ذلك إلا بعد ازدهار أنوار المدنية في بلاد الإسلام وقراءة علوم الأمم المحيطة بنا وبغير ذلك لا بقاء للمسلمين ولا علم عندهم ولا تسبيح ولا حمد ويكون أتباع هذا الدين الحكيم حفاظين كلمات لا تدخل عقولهم ولا تؤثر في نفوسهم وينطبق عليهم إذ ذاك قوله تعالى «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون» .

الآن أيها المسلمون كشف الغطاء وظهر السر وأشرق النور – وأشرقت الأرض بنور ربها – . اليوم ظهرت أسرار هذا الدين . ومن أجل الأسرار أنه لا تسبيح ولا تقديس على الحقيقة إلا بدراسة العلوم التي عرفتها الأمم حولنا فإن لم ندرسها فحق علينا قول ربنا « فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون » .

إن الساهي عن صلاته لا يعقل المعنى في مثل (سبحان الله والحمد لله) ومن لا يعقل المعنى لا يطلبه ، ومن لا يطلب العلم جاهل وإن جميع العلوم داخلة في الحمد والتسبيح، والويل الذي جاء في الآية حلّ بالأمم الإسلامية اليوم لأنهم قوم ساهون في عمراتهم وأعمالهم ودنياهم ودينهم . فهذه الصلاة معراج . فهل عرج المسلمون عليها للعلوم التي فصلها الله في الأرض وفي السماء . ولكن الله يقول « وما كنا عن الخلق غافلين » فهو سبحانه لعنايته بالمسلمين أودع في العبادة التسبيح والتحميد فكررهما وملأ الأرض بالعلم ثم أظهر هذا التفسير وأمثاله فظهرت الحقيقة وسيقرأ الناس هذا وأمثاله فترتقي أولا مدنهم ومع ارتقاء المدن بالعلوم يكون ارتقاء النفوس بها من حيث إدراك أمثال ما قلنا الآن من أن التسبيح والتحميد ساريان في سائر العوالم وهما معروفان للمفكرين ، والحمد لله رب العالمين :

(التسبيح والتحميد في القرآن لغز الوجود)

هل يعلم المسلمون أنّ هذه الآية هي اللغز الذي انتصب لحله أمم الأرض قاطبة . التسبيح والتحميد هما مسألة (الخير والشرّ) . فالتسبيح تنزيه عن فعل الشرّ أو الاتصاف به والتحميد إيذان بالاتصاف بفعل الخير ، والشرّ والخير المذكوران هما موضوع دراسة الأمم كلها ، إننا على هذه الأرض نحس بآلام ولذات ومحبوب ومكروه . هكذا أبناء آدم من عهده وإن تقادم بحثوا في الخير والشر ونظروا . فانظر في دين المجوس وكيف كان المجوس يقولون إن الذي صنع هذا العالم (إلهان) إله الخير وإله الشر . فإذا قيل لهم من الذي صنع العقارب والحيات . ومن الذي أتى بالأمراض والموت فلا جواب لهم إلا أن يقولوا هو إله الشر . ولقد فروا بذلك من أن إلها رحيما يصبح فاعلا للشر وانتهى الأمر عندهم على ذلك . إن الناس قديما وحديثا لا يعقلون إلها رحيما ثم هو يخلق الشر . فهذه العقدة حلها دين المجوس بهذا الحل الذي فصل الخير عن الشر وجعلوا أن إله الخير تغلب على إله الشر وصنع هذه الخيرات . هذا هو دين المجوس ، وهذا الحل يتناول الشرور التي في العالم والتي في نفس الإنسان . فإذا قيل لم كانت الزلازل؟ يقولون: من فعل إله الشر . وإذا قيل لم كانت الحياة فيقولون من إله الخير ، وهكذا المرض من الأول والصحة من الثاني .

(آراء علماء اليونان في الخير والشر)

ثم إنك ترى أن علماء اليونان بحثوا في الخير والشر ولكن من الجهة الانسانية وحدها . ولقد كان فيهم (الرواقيون) أصحاب (سقراط) والمشاءون أصحاب (أرسطاطاليس) والذي نقل إلينا إنما هو رأى أصحاب الرواق وكلامهم في هذا المقام خاص بالأخلاق . ولقد كان (سقراط) قبل الميلاد بنحو أربعة قرون وكلام هذه الطائفة الرواقية في الأخلاق كان مشهورا في مصر والشام منذ القرن الأول للمسيح ولأقوالهم ما يشبهها في كلام الحكماء والصوفية في الأمم الإسلامية ويرى في الإحياء للإمام الغزالي ما يقرب من آرائهم من حيث الباحث

الأخلاقية كالعفة والصبر والقناعة والحلم والبشاشة وما أشبه ذلك . ولسنا الآن فى مقام مباحث الأخلاق وتفصيلها بل نريد الفكرة العامة لهذه الطائفة من حيث الخير والشر . ولقد كنت وعدت أن أكتب (لنز فابش) جميعه هنا ولكن وجدت فيه بعض تكرار مع ماتقدم فى التفسير فلم أذكره واكتفيت بما تقدم فى سورة البقرة .

(سانحة ليلة الأربعاء ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٧)

(فى صلاة العشاء)

(لم كان التسبيح عقب الصلوات وكذا التحميد والتكبير ؟)

اعلم أن هذا الإنسان خلق على هذه الأرض منذ مئات الآلاف من السنين كما يظن العلماء اليوم ولم يزل يجاهد ويكافح هذه الطبيعة ويكشف مخبآتها لإسعاده وارتقائه ، وهذا الدين الإسلامى قد جاء فى أواخر القرون وأمر المسلم أن يدعو بدعوات يحفظها للتعبد وهذه الأذكار والدعوات تنفع العابد من حيث ثوابها وثوابها فى العبادة واضح فهى تذكره بربه إذا كان جاهلا . ولكن هذا الجاهل يكون فى هذا الوجود أشبه بالذباب المذكور فى سورة الحجر الذى يقع على بعض الأزهار فيدخلها مستدفئا بها حتى إذا حركها ولقحت خرج منها فاستدفأ بغيرها فقد نال دفئا ولكن الزهرة نالت منه حياة . فهكذا العابد الجاهل فى أمة الإسلام يسبح ويحمد ويكبر وستأتى أمم تسمع هذا القول فيقولون : لم كان التسبيح ، ولم كان الحمد ، ولم كان التكبير ؟ ولم يقول الله « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ثم وصف نفسه بالحلم والغفران فعلام هذا الحلم وعلام هذا الغفران ؟ وهل كون الله تسبحه السموات والأرض وكل شىء يتضمن ذنبا حتى يغفره الله ويحلم علينا . هذه الآراء ستقولها أمم بعد ظهور هذا التفسير .

(الاجابة)

وهؤلاء القائلون سيجيبون فيقولون : نعم الله متكلم : نراه كلم النحل والنمل والعنكبوت والذرات وكل دابة وهكذا الإنسان أصبحنا نراه يكلمها بلا حرف ولا صوت . ألا ترى أننا نحس بجوع وبشبع وبشبق وبرحمة وبحزن وبهم وبغم وبحسد وبغير ذلك من أنواع الإحساس والعواطف ثم يقولون بعد ذلك إن هذه اللغات قد علمت آباءنا وأمهاتنا القدماء أن لبسوا الثياب وزرعوا القطن والكتان وأنواع القمح والذرة وغيرها وسائر الفاكهة . كل ذلك حاصل بسبب تلك اللغة وهى كلام الله الذى يكلم به كل دابة تدب بلا حرف ولا صوت . ومن الكلام الذى عرفه الناس أنواع الأمراض فبسببها ظهر علماء الطب وعلماء البيطرة للدواب فى سائر البلاد . ثم إن من بعدنا حين يقولون ذلك يرجعون فيقولون . إذن هذه اللغة صادقة وآثارها واضحة . بها ربت الأم ولدها وزرع الزراع وربى المربى . إذن فلندرس هذه اللغة أى لغة العواطف لنستبين ما صدق منها وما كذب ، والكذب إنما جاء من قبيل جهلنا نحن إذ جعلنا صفة المنافسة مثلا حسدا فبدل أن نجاهد لنساوى غيرنا نسعى فى إماتته . وسيقولون إذ ذاك إن الإنسان اليوم أشبه بالمجنون الذى يخبط ويضرب نفسه ويكاد يكسر رأسه ذلك لأنه يعيش على الأرض ومن جهالته وحماقته أنه إلى الآن لم يستخرج كل قوة كمنت فيه أو فى أرضه أو هوائه فبدل أن يجد الناس جميعا فى استخراج قواهم وقوى الطبيعة التى تكفل لهم السعادة يقاتل بعضهم بعضا نذالة وجهالة وحمقا وقلة عقل . نعم الأمم الجاهلية قد عطلت قواها وعطلت أرضها وحقا هذه لا حق لها فى أن تستولى على الأرض . هذا حق ولكن الأمم التى تهجم عليها أيضا غافلة جاهلة . لجميع أهل الأرض اليوم غافلون . ذلك لأن هذه المهاجمة كان عليها أن تعلم سكان الأرض التى تدخلها وتجعلهم مساوين لهم فى كل شىء ويكون الاستيلاء على الأرض على مقدار المنافع والمقدرة ، أما الآن فالأمم كلها لا تزال غير قادرة على حفظ النظام العام . هذه هى اللغة العامة التى لم يتم الناس دراستها إلى الآن . فهذا الكلام الإلهى

الذى ظهر أثره فى نوع الإنسان قد دخلت فيه آلام كثيرة : آلام لموت الولد ومرضه، وآلام الحرب، وآلام النصب فى كسب المعاش ، وآلام المرض بل إن أكثر هذا الكلام الإلهى آلام . إذن اللغة التى يخاطبنا الله بها كلها إحساس والإحساس متنوع إذن هذا الإحساس لم يكن لإيذائنا بل هو لمنفعتنا . فإذن قول المسلم «سبحان الله» معناه أن هذه الآلام لم ترسل لأهل الأرض ظلما . كلا ، بل هى اللسان الذى يفهمونه وليس هناك طريق توصل للحيوان وللإنسان منافعه إلا من طريق هذه اللغة فعلى قادة الأمم بعدنا أن يكوّنوا جماعات للتفكير فى أسباب الآلام العامة حتى يتداركوا مافرط من نوع الإنسان وعلى مقدار الجهل بهذه اللغة يكون العذاب لهذا الإنسان ، فاذن يجب دراسة هذه الآلام الشاملة لنوع الإنسان ومتى أدركها الناس سعدوا . فما هذه الآلام العامة فى نوع الإنسان من سياسية وجسمية وعقلية إلا مطالبات بالكمال ، وعلى الناس الدراسة هذا معنى سبحان الله يعنى يا أيها الناس إنى لم أنزل عليكم جوعا ولا عريا ولا غيرهما إلا لتكميلكم فالآلام مقدمات الكمال لأنى أريد تعذيبكم بل تهذيبكم . إذن تسبيح المسلمين يراد به دراسة هذا الوجود . أما التحميد فإنه تكميل للتسبيح فانا إذا درسنا الآلام الإنسانية وعرفنا أن القصد منها معرفة مقاصدها . هكذا من باب أولى فلندرس النعم المحيطة بنا فلا نذر هواء ولا ماء ولا عنصرا أرضيا إلا درسناه لنتمتع بنعم الله لأن هذه النعم هى للمطالب العامة التى لها خلق الله فينا أنواع الآلام . فالآلام تدفعنا للعمل والعمل ينيلنا نعم الله التى تحيط بنا وهذه النعم هى المحمود عليها . فاذن يدرس الناس طبائعهم فيكونون مسبحين لأنهم إذا عرفوا الحقائق نزهوا ربهم عن قصد إيذائهم وعذابهم بلا حكمة ثم يخرجون من ذلك إلى تناول النعم فيكون الحمد ثم بعد ذلك يقال لهم أيها الناس إنكم لم تؤتوا من العلم إلا قليلا ، وهذا معنى (الله أكبر) هذا هو التسبيح والتحميد والتكبير عقب الصلوات وهذا بعض سر قوله تعالى — وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . فالجوع يؤلمك وفى الوقت نفسه ينزه الله أن يريد إيذاءك وإنما يرسل الجوع ليدعوك للطعام وبالطعام تحيا فآلامك لإسعادك بالحياة ، فلو أن الناس درسوا مافى نفوسهم لأدركوا أن كل ألم فإنما هو لمصلحة، والمسلم يقول فى سجوده وركوعه: سبحان ربى العظيم وسبحان ربى الأعلى ثم يتبع ذلك بأنه خشع له سمعه وبصره وبأنه سجد وجهه للذى خلقه وصوره الخ .

كل ذلك من هذا الوادى . فهو يقول إن الله لم يرسل الآلام فى الأرض إلا لرحمتنا فلندرس مالم نفهمه لأن الله يقول « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . وقد جاء فى الحديث « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » ومثل هذا الفهم من أجلّ الفقه فى الدين لأنه نهاية حكمة الحكماء، وعلم العلماء وبعض مافضل به أبو بكر رضى الله عنه الذى فضل الناس بشىء وقر فى نفسه .

إذا عرف المسلم هذا ينتقل إلى طبائع هذه الدنيا ويدرسها وينظر منافعها ويحترس من الضار ويجلب النافع وهو هو معنى الحمد . وإذا وصل الناس إلى منافع فى الأرض فليس معنى هذا أنهم قد وصلوا إلى النهاية، كلا . وهذا معنى (الله أكبر) فكلما وصل الناس إلى نعمة فليعلموا أن وراءها نعما . واعلم أن أهل الأرض اليوم كلهم جاهلون لأنهم يجهلون ماخلق فيهم من الآلام مع أنهم لو درسوها لأعطتهم علما جما فإذا رأينا الجوع والعرى وحب الزوج مغروسات فينا فلنعلم يقينا أن هذا قصد وحكمة وهذا القصد وهذه الحكمة يجب علينا دراستهما لتهدينا إلى حياتنا بل لنقلد الله فى ذلك ولكن تعليمنا صامتا إذا قدرنا . وكلما كان التعليم بالصمت كان أقرب إلى التفقه وإلا فنحن ممثلون فنأكل الطعام ونتزوج ونحن مقهورون على ذلك ولا ندرى أننا مقهورون . فلماذا لا يفكر أهل الأرض فى أنهم يكون بعضهم لبعض نافعا بطريق الحب والدافع النفسى كما رأوا أنفسهم يلدون ويأكلون ويشربون وهم يظنون أنهم مختارون مع أنهم جميعا يجهلون أنهم مقهورون

على ذلك . اللهم إننا خلقنا فى هذه الأرض ونحن لم نتم مقصود هذه الحياة كما قال تعالى « كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة » إلى قوله « قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره » إلى قوله « كلا لما يقض ما أمره » وترى القرآن يذكر أن ثمود طغوا بعقر الناقة ويقول « كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها » الخ وهذا كله راجع إلى جهل نعمة أرسلت إليهم وهى الناقة ولما جهلوها عقروها وهى نعمة فى الحياة الدنيا فعوقبوا . ومعنى هذا أن الناس على الأرض اليوم إذا جهلوا النعم التى أحاطت بهم فإنهم لامحالة معاقبون ، وأكثر أهل الأرض اليوم فى عقاب فى الدنيا «ولعذاب الآخرة أشد وأبقى»

فليقرأ الناس جميعا عواطفهم ومنافع أرضهم والله لن يتم ذلك إلا إذا تضافر أهل الأرض على هذه الدراسة ووحدوا الوجهة العلمية والعملية ، وإلا فهم لايزالون فى عذاب مستمر . وأظن أن النوع الإنسانى سيقترب منه هذا اليوم « والله يعلم وأنتم لاتعلمون » انتهى .

(بهجة العلوم فى قوله تعالى أيضا « تسبح له السموات السبع » الخ)

من كلام الصوفية

اعلم أيها الذكى أن الله عز وجل أنذر هذه الأمم الإسلامية بجميع طرق الإنذار ، فلم يذر سبيلا لتعليمهم إلا سلكه ولا طريقا لهدايتهم إلا سنها ، ذلك لأنه رحمن رحيم فهو رءوف بخلقه ، ولا جرم أن هذا العالم الذى نعيش فيه من العوالم المتأخرة التى تأتى الهداية لأهله بطرق خاصة تناسب عقولهم . فانظر ماذا جرى ؟.

قد عرفت فيما سبق فى هذا التفسير أن المسلمين المتأخرين حرموا من العلم بجمال هذه الدنيا وزاد الطين بلة أنه شاع بين المتصوفة أن العلم حجاب وشاعت هذه القضية بين الناس فأصبحت هذه عقيدة معمولا بها فماذا صنع الله مع المسلمين ؟. جعل بعضهم فى أخريات الأمم وسلط عليهم الفرنجة فأحاطوا بهم من كل جانب وقبل ذلك سلط عليهم الصليبيين فحاربوهم . كل ذلك ليوقظهم للعلم والمعرفة لأن العلم هو السلاح العام فى كل زمان لاسيما فى هذا الزمان فهو السلاح المتين فان السلاح فى الحرب نتيجة من نتائج العلم. وهكذا سائر أدوات الحرب من سفن وقلاع الخ .

تعجب من صنعه مع المسلمين . علم سبحانه أنه عز وجل سيلهم أناسا فى عصرنا هذا نشر العلم وتحريض المسلمين عليه مثل مافى هذا الكتاب ، وعلم أن أكثر الأمم الاسلامية أتباع شيوخ الطرق وأكثر شيوخ الطرق ينهون الناس عن العلم وعن قراءة الكتب لتبقى السلطة فى أيديهم لأن المسلم إذا كان أعلم من أستاذه تركه لامحالة . فانظر ماذا دبر الله لقراء هذا التفسير . ألهم الرجل الصالح المسمى (بالشيخ الخواص) بمصر فى القرن العاشر الهجرى أن يلقى بعض مسائل للشيخ عبد الوهاب الشعرانى رحمهما الله تعالى وتلك المسائل تناسب الآية التى نحن بصددها وتناسب العلوم التى كشفت حديثا ولم تكن معلومة فى ذلك العصر ، وإنما فعل ذلك لتكون حجة لأمثال قراء هذا التفسير وتلك الحجة بها يصولون ويهاجمون أولئك الجهلة من المسلمين الذين يقولون إن هذه العلوم لالزوم لها فتكون هذه المسائل أشبه بمن يضرب طيرين بحجر واحد ، فهى أولا حجة على جميع من يدعى من الصوفية جهلا أن الاسلام براء من هذه العلوم فيقال لهم إذن لماذا أظهر الله معرفة ماتسمعه من العجائب العلمية على يد صوفى مثلك فى وقت لم يعلم بهذه العلوم أحد فى الأرض . إذن هذه العلوم إسلامية صوفية وأنت جاهل بها (ثانيا) هذه متى سمعها المسلم وأيقن أن بعض الخواص من المسلمين عرفوا هذه المسائل قبل ظهورها أيقن لامحالة بأن هذا علامة على صدق هذا الدين وتكون هذه من معجزات صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم .

إذا علمت ذلك فهاك ماقاله الشيخ الخواص للشيخ الشعرانى فى كتابه المسمى (الجواهر والدرر)

ذلك

ذلك أن الشيخ الشعراني سأل الخواص شيخه الأمي الذي لم يكتب ولم يقرأ ولم يتعلم فقال إذا كان كل شيء في الوجود حيا درّاكا عند أهل الكشف فبأي شيء زاد الحيوان على الجماد في شهود العامة؟ فقال زاد على الجماد بالشهوة فقط زيادة عن الإدراك ثم ذكر له ما جاء في السنة الصحيحة مما يشهد بمعرفتها لأوامر ربها وبمعرفتها بكل شيء وبفهمها كل كلام ولكنها عاجزة عن إسماعنا النطق بالله. وذكر هنا أحاديث في هذا المعنى اكتفى منها بقوله إنه صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وتعرّض كل من الأنصار لزمام ناقته قال صلى الله عليه وسلم «دعوها فإنها مأمورة» قال ولا يؤمن إلا من يعقل ثم قال وفي القرآن العظيم «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» قال والأمثال هم المشتركون في صفات النفس كلهم حيوان ناطق إلا أن كل جنس يقل في غيره معرفة اصطلاحه ثم قال تعالى «ثم إلى ربهم يحشرون» يعني كما تحشرون أنتم وهو قوله تعالى «وإذا الوحوش حشرت» يعني للشهادة يوم الفصل والقضاء ليفصل الله بينهم كما يفصل بيننا فيأخذ للشاة الجماء من الشاة القرناء كما ورد في ذلك دليل على أنهم مخاطبون مكلفون من عند الله من حيث لا يشعر المحجوبون وذكر آية «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» قال والنذير خاص وعام. قال وورد أن الكلاب أمة من الأمم وهكذا النمل والحشرات أنها أمم أمثالنا. ثم ذكر كلاما لا تتصوره عقولنا مثل أن البهائم قد حارت أشدّ الحيرة في معرفة الله تعالى وأن أعلى ما يصل إليه العلماء في العلم بالله تعالى مبدأ البهائم التي لم تنتقل عنه وإن كانت متنقلة في شؤونه. ويقول إن الناس احتاروا في أمر الحيوان لأنهم يرون أعمالا صادرة بعقل وروية وفكر دقيق ولم يكشف الله لهم عن عقولها ومعرفتها وهم لا يقدرون على إنكار ما يرونه ويصدر عنها من الصنائع المحكمة فحاروا وأخذ هؤلاء المحجوبون يتأولون ما جاء في الكتاب والسنة من نطقهم ونسبة القول إليهم. ثم قال فياليت شعري ماذا يفعلون فيما يرونه مشاهدة كالنحل في أقراص الشمع وما في صنعتها من الحكم والآداب مع الله تعالى. وكالعناكب في ترتيب الحبالات لصيد الذباب حيث جعل الله أرزاقها فيه. وما يدخره النمل وبعض الحيوانات من أقوات وبناء أعشاشهم وإقامتها من القش والطين ونحو ذلك على ميزان معلوم وقدر مخصوص، واحتياطهم على أنفسهم في أقواتهم فيأكلون نصف ما يدخرون خوف الجدب فلا يجدون ما يتقوّتون به فإن كان ذلك عن نظر فهم يشبهون أهل النظر. فأين عدم العقل الذي ينسب إليهم، وإن كان ذلك علما ضروريا فقد أشبهونا فيما لا ندركه إلا بالضرورة فلا فرق إذن بيننا وبينهم ولو رفع الله عن أعين الخلق حجاب العمى كما رفعه عن أهل الشهود لرأوا عجبا في عشق الأشجار بعضها بعضا وطلبها اللقاح وأظهر آية لأهل النظر إذا أنصفوا ثم قال الشعراني بعد ذلك وقد شهدت شيخنا عليا الخواص يعامل كل جماد في الوجود معاملة الحيّ فضلا عن الحيوانات ويقول إن كل جماد يفهم الخطاب ويتألم كما يتألم الحيوان الخ انتهى.

ثم إن الشيخ أحمد بن المبارك بعد ذلك بقرنين اثنين حدّث عن شيخه أيضا المسمى الشيخ عبد العزيز الدباغ بمثل هذا فقد سأله عن تسبيح الحصى ونحوه فقال إن ذلك كلامها وتسبيحها دائما، وإنما سأل النبي ﷺ ربه أن يزيل الحجاب عن الحاضرين حتى يسمعوا ذلك منها. ثم أخذ يشرح هذا المقام بحسب طريقه فأفاد أن الجمادات تعرف ربها كسائر الحيوان وأنها عابدة خاشعة خاضعة. هذه وجهتها لربها، ووجهتها إلينا أنها لا تعلم ولا تسمع الخ وأتى بهذه الآية «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» وقال أيضا إن للأرض علما هي حاملته وعارفة به كما يحمل أحدنا كتاب الله عزّ وجل ويعرفه وكذا كل مخلوق من الجمادات هو حامل له. قال الشيخ ابن المبارك فقلت له فتكون عاقلة عالمة كيف وهي جماد؟. فقال إنما كانت جمادا في أعيننا وأما بالنسبة إلى ربها فهي عالمة به. وأكد في قوله إن كل جماد خاضع خائف خاشع وجل من ربه والناس لجهلهم يظنون أنهم يمشون على جماد. وأتى بعد ذلك بأشياء لا يتخيلها العقل مثل أنه سمع الأحجار بطريق الكشف تذكر الله وتسبحه، انتهى.

وههنا جاء صديق العالم الذى اعتاد أن يسألنى فى الأمور الهامة فقال بعد أن اطلع على ما كتبته هنا : عجبا لقد أتيت هنا بما لا تتصوره العقول . وهل هذا يليق بتفسير القرآن فى هذا الزمان · فما لنا ولهذا القول الذى لا تتصوره العقول ، وأى مناسبة بينه وبين الكشف فى العصر الحاضر الذى ذكرته وأين الكشف الذى كشف هذا ؟ فقلت له إن ما تقدم كله يرجع لعالم الحيوان والنبات والجماد . فأما الحيوان فهذا العصر قد كشف فيه علما جما . ناهيك ماتقدم فى هذا التفسير من علوم عصرنا ومن دقة صناعات الحيوانات وبدائعها وتصرفها فارجع إليه فى سورة هود والنحل وغيرهما ، فذكر ذلك قبل أربعة قرون على لسان رجل مسلم أمى أمر عجب : وأما النبات فأمره أعجب لأنك ترى الشيخ الخواص يقول إن الأشجار تعشق بعضها لأجل الإلقاح وهذا عينه هو الذى كشفه العلم الحديث ، وأنا أحمد الله عز وجل حمدا كثيرا إذ جعل هذا التفسير مستوفيا لهذه المسائل كما تقدم فى سورة الحجر وفى غيرها فإن إلقاح النبات أمر عام لا يختص بعالم واحد نباتى وقد مر شرحه فى سور كثيرة غير الحجر كالأنعام والبقرة وهكذا . وأما الجماد فهو أمر خفى جدا ولكن علماء العصر الحاضر لم يذكروا إلا ما يأتى :

يقول بعض علماء أوربا إن كل الجمادات متحركات وهذا أمر أصبح مبرهنا عليه وتقدم فى هذا التفسير ، ومعنى هذا أن كل قطرة ماء أو قطعة حجر مركبة من ذرات صغيرة والذرات الصغيرة ترجع إلى جواهر فردة والجواهر الفردة ترجع إلى عناصر أولية كالأكسوجين والأدروجين وقد بلغت العناصر الآن فوق الثمانين عدا وجعلوا منها النحاس والحديد والذهب والفضة وهكذا وهذه العناصر متى تحللت لا ترجع إلا إلى كهرباء ، وماهى إلا تموجات وبينها مسافات متباعدات يدور بعضها على بعض كما تدور السيارات حول الشمس ، فالعوالم كلها متحركات دائما لا سكون لها وحركات تلك الذرات دائمة لا فتور لها فهى لا تهدأ من يوم أن خلق الله العالم إلى يوم أن يفنى العالم كله فناء تاما .

ويقول العالم (هنشو) الذى نشر فى مجلة (هاربر) الأمريكية مقالا فى نقطة الماء وإنه فرض تكبيرها حتى صارت بحسب الفرض أكبر من فلك الأرض حول الشمس ما يأتى :

إننا نرى جوهر الأكسوجين مثلا وجوهر الأدروجين ليس كل منهما إلا ذرتين من النور إحداهما تدور حول الأخرى قال وإذا استنبطنا وسيلة تبطىء حركتها رأينا فى كل دائرة منها نقطة صغيرة من النور ولسرعة دورانها يظهر مدارها دائرة من نور لأنها تدور فيه ستة آلاف ألف ألف ألف ألف دورة فى الثانية الواحدة من الزمان . وما هذه النقطة اللامعة النورية الدائرة إلا نقطة كهربائية . إذن الأجسام التى نراها كلها ترجع لعناصر ، والعناصر ترجع إلى كهرباء ، والكهرباء ماهى إلا نقط نورية يدور بعضها على بعض بسرعة ملايين الملايين أى آلاف آلاف أضعافا مضاعفة وهذه السرعة باختلافها اختلفت العناصر وباختلاف العناصر اختلف العالم الذى نعيش فيه من سماوات وأرضين . هذا كلام علماء العصر الحاضر جميعا ثم إن طائفة منهم خاصة فى سائر أنحاء أوروبا يستنتجون من ذلك أن كل مخلوق له حياة لأن الحركة تصحب الحياة . وإذا كان الحيوان بسبب الحياة متحركا حركات مختلفات فها نحن أولاء تحققنا حركات الجماد كله وحركاته أسرع آلاف الآلاف من حركات الحيوان فلم تثبت الحياة لضعيف الحركة وتنفيها عمن الحركة فيه أقوى وأدوم . فهذه الطائفة تقول إن كل موجود حى . هذا آخر ماوصل إليه العلماء فى العصر الحاضر . ثم قلت له . أفلا ترى أيها الأخ أن كشف العصر الحاضر قد أتى بثلاثة أرباع ماقاله شيوخ المسلمين من باب الإلهام وقد نبهوا المسلمين والمسلمون بقوا غافلين لم يتفطنوا لما يقولون . فقال صاحبى حقا إنه من العجب أن يذكر ذلك بعض الشيوخ والعالم الإنسانى كله منذ أربعة قرون كان فى غفلة فان تعاشق الأشجار التى ذكرها الشيخ الخواص لم تعرف إلا فى زماننا ومعرفتها جاءت من أوربا ولم يعلم أحد من المسلمين ولا غيرهم أن للجماد حركات بطيئة أو سريعة إلا

فى هذا الزمان، ولكن كون الجماد له فهم أمره غير معقول. فقلت نعم إنه غير معقول لنا ولكن نحن الآن فى مقام الموازنة بين كلام بعض شيوخ المسلمين وبين الكشف الحديث وإنما نعجب من أن بعض ماقالوه ظهر صدقه فقال نعم هذا حسن وقد قرب لنا معنى أن كل شئ يسبح بحمد الله فعلا . ثم سأل سؤالين (أولهما) ما الفائدة فى ظهور مثل هذه الأقوال فى زمان تأخر المسلمين مع أنه كله فى ذلك الزمان كان خارجا عن العقول وبعضه إلى الآن لا يزال بعيدا عن تصور العقل (ثانيهما) هل كل مايقوله الصوفية حق بالنسبة لما نراه من تحقيق كثير من المسائل العلمية بدون تعليم . فقلت أما فائدة ظهور هذه الأقوال فى زمان تأخر المسلمين فقد قدمت لك جملتها فى هذا المقال ، وأزيدها وضوحا الآن فأقول :

إن فائدتها ترجع لأمرين : الأول أن الناس فى زمان جهالتهم حين يسمعون هذا وهو فوق طاقة العقل يسلمون به تسليما بلا بحث وتكون فائدته لهم ثبات عقيدة الإيمان فهى أشبه بمعجزات الأنبياء فهى من العلوم التى فوق طاقتهم كما أن المعجزة فوق طاقتهم فيكون نتيجة ذلك العلم إيمانا ثابتا . الأمر الثانى أن يعرف المسلمون فى عصرنا حين يطلعون على هذه العلوم والمباحث الطبيعية التى تكاد تنطق بما قاله هؤلاء الشيوخ أن شيوخ الصوفية وتلامذتهم الذين هم أكثر المسلمين الآن إذا تركوا هذه العلوم وهم قادرون عليها وعكفوا على العبادات وحدها والخلوات والدعوات والذكر ، وعقولهم خاوية من معرفة هذه العوالم يكونون آثمين مغرورين مذنبين. وذلك لأمرين ، الأول : ما عرفته من أنها فروض كفايات . الثانى أن نفس رجال الصوفية هم الذين أخبروا بهذه المسائل قبل ظهورها فى أوروبا وبقيت هذه نحو أربعة قرون فى بطون الكتب لتظهر الآن مشروحة فى أمثال هذا التفسير الذى سيكون من الأسباب الفعالة فى انطلاق العقول إلى حوز هذه العلوم إن شاء الله تعالى . فاذا كان شيوخ الصوفية هم الذين أشاروا إليها قبل ظهور علماء أوروبا وقد وصل هؤلاء إلى أهم ماذكره شيوخ الصوفية. فاذن يكون الصوفية فى زماننا إذا جهلوا هذه العلوم مذنبين مغرورين معاقبين . إن الله عز وجل أنطق هؤلاء الشيوخ بذلك تقريعا للصوفية فى هذا الزمان على جهلهم فقال صاحبى هذا حق من وجه ولكنه باطل من وجه آخر . إن الصوفية بسبب الانقطاع إلى الله يفتح عليهم فيعرفون ما لا يعرفه الناس . فقلت هذا أمر نادر والنادر لا حكم له وهذه العقيدة عامة بين تلاميذ الصوفية وأكثرهم يموتون وهم لا يعلمون ، ولو كان هذا الفتوح عاما لأصبحت بلاد الإسلام كلها غنية عامرة أغنى من أوروبا فى هذه العلوم . فقال : المفتوح عليه لا يكلم الناس بعلمه لأنهم لا يعقلون :

فقلت وما فائدتنا منه فرضنا وهذا كله جهل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم » والله عزّ وجل لا يعطى العلم إلا للمجد فيه . وانظر إلى هؤلاء الشيوخ مثل الدباغ الذى ذكر تسبيح الجماد والشيخ الخواص الذى قال ان الأشجار تتعاشق فإن علمهما علم إجمالى ولم يفد المسلمين فائدة عامة ولكن العلوم إذا درست دراسة حقيقية انتشر العلم وانتفع به الناس ولكننا رأينا المسلمين مع كثرة رجال الصوفية فيهم أفقر خلق الله فى هذه العلوم . إذن من الجهل أن نتكل على الفتوح بالعلوم مجانا وأن نترك عقولنا ومواهبنا كمن يترك حرث الأرض وزرعها اتكالا على أنه ربما يعثر على كنز فهذا جهل وغرور . انتهى الأمر الأول.

وأما الثانى وهو هل كل مايقوله الصوفية حق ؟ فأقول جوابا عليه : كلا . وأذكرك بما تقدم فى سورة البقرة عند قوله تعالى ــ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ــ الخ إذ ترى أن فى كل إنسان قوة مخفية عنه وقد استعمل الناس طرقا صناعية بها فقد الإنسان إحساسه واختطف اختطافا روحيا فيسمع من بعد وينبئ بحوادث مستقبلة ويخاطب الأرواح حوله ويكون بالنسبة لجسمه كأنه غريب عنه ثم هو مع ذلك قد يخطئ . ذلك لأن الله عز وجل لا يريد أن يجعلنا فى الأرض نعيش خامدين . فقال إذا صح هذا فى التنويم المغناطيسى فلا يصح فى حق الشيوخ . فقلت له : كلا إن الله عظيم متعال متكبر وقد فعل مع الشيوخ ما فعله مع غيرهم

قال وكيف ذلك ؟ قلت ألم تر إلى ماذكره الشيخ الشعرانى نقلا عن الخواص فى آخر الكتاب المتقدم . يقول (إن يوم الأمة المحمدية ألف سنة أولها من ولاية معاوية قال ولا تزال الشريعة ظاهرة يحكم بها إلى ثلاثين سنة من القرن الحادى عشر ثم يختل نظامها الأكبر وتصير كعقد انقطع سلكه) وقال فى آخر كتاب [درر الغواص] ما يفيد هذا وقال ما نصه :

وقد بين الكشف والذوق اقتراب الأمر الدنيوى وانشقاق الفجر الأخروى وزاد فى البيان عكس الظلمة والظلال وقبض العلوم إلى أن قال وقد اجتمع بعض مشايخنا بالمهدى عليه السلام وأخبره أنه قد قرب ظهوره الخ فهذه الأقوال كلها لم تتم ، وها نحن أولاء فى القرن الرابع عشر الهجرى ولم تقم القيامة مع أنها كان موعدها فى القرن الحادى عشر الهجرى . فينتج من ذلك أن التنويم المغناطيسى وشيوخ الصوفية يخطئون ويصيبون وما أصاب فيه الصوفية إيقاظ للمسلمين ، وما أخطئوا فيه تعليم لنا أن لانتكل إلا على الله ونعمل بأنفسنا ، فهذا زمان رقى المسلمين ، وإنى أحمد الله عز وجل إذ علمنا مالم نكن نعلم .

وقبل الانتقال إلى القسم الثانى أوضح ما جاء فى حديث الإسراء أنه صلى الله عليه وسلم رأى ليلة أسرى به نهرين ظاهرين وهما الفرات والنيل وهناك نهران آخران فى الجنة وأيضاً قوله إنه رفع إلى البيت المعمور وإن هناك ملائكة يدخلونه كل يوم ثم لا يرجعون وإن سدرة المنتهى لما غشيها من أمر الله ماغشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها .

(١) النيل والفرات . اعلم أن الجنة ليس نيلنا فيها ولا فراتنا وإنما هذا الذى رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عالم البرزخ الذى هو المسمى عالم المثال الذى ذكره (أفلاطون) وكثير من الصوفية عندنا . فهذا العالم أرى الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم الحقيقة مجسمة والحقيقة كذلك : أى أن النيل والفرات من السماء . وبيانه أن الحركات الشمسية المنتظمة سبب فى الصيف والربيع والخريف والشتاء ، ومن هذه يكون المطر المستخرج بالحرارة من المياه فمتى أرسلت الشمس أشعتها على الأرض وسخن ظاهر الماء اتجه البخار إلى الجو فتلاقى مع الطبقة الباردة عند خط الاستواء فهطل المطر . إن الأرض يحيط بها خيمة من الهواء البارد مرفوعة عند خط الاستواء راسية على الأرض عند القطبين فهناك الثلج المتراكم والجو بارد فاذا ارتفع البخار فى هواء حار عند خط الاستواء وتلاقى بهذا الهواء البارد نزل المطر وإذا اتجه الريح من المنطقة المعتدلة إلى المنطقة الباردة كالرياح التجارية الضدية المتجهة إلى الدائرتين القطبيتين فان السحاب هناك تهطل . لماذا ؟ لأن الهواء الحار قابله البارد ومثل هذا يحصل فى الرياح الموسمية التى تتجه من الشمال إلى الجنوب شتاء ومن الجنوب إلى الشمال صيفا وتهب على المحيط الهندى فهذه الرياح متى لاقت الرياح الباردة هطلت مطراً . فهذه الأمطار ناجمة من البخار الذى حملته الرياح التى أثارتها وأثارت البخار حرارة الشمس المسيرة فى السماء . فاذن كل ذلك بفعل سماوى لا أرضى فما النيل والفرات وغيرهما من الأنهار التى بيناها فى سورة الرعد إلا قطرة من بحر النظام السماوى لحركات الشمس وحرارتها هما اللذان بسببهما أجرى الله الأنهار من فرات ونيل وغيرهما ولا جرم أن الشمس ونظامها متصلة بشموس أخرى وأخرى وهكذا إلى أن ينقطع فكر العباد ؛ فظهر أن كلام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقصد به البحث والتنقيب عن العجائب والنظام فإن الانسان إذا سمع أن النيل فى الجنة لا يصدّق فيبحث فيصل إلى ماقلته . إن علوم الطبيعة أو صدت أبوابها دوننا معاشر بنى آدم إلا ما تجود به حواسنا وعقولنا ، وغيره محجوب . هكذا جعل الله للأنبياء رموزا لنبحث حتى نصل إلى مقصودها ونقف على الحقائق بقدر الإمكان .

(٢) وأما كون سدرة المنتهى قد غشيها من أمر الله ما غشيها فذلك يعرف مبادئه بعض المنقطعين للعبادة فانهم هناك لهم أحوال خاصة بهم ، حقيقة أنا لا أشك فيها وليس لها مفتاح إلى العبادة والذكر واستحضار الله

فى الصلاة

فى الصلاة بحيث تشعر بأنك تخاطبه فهذه مفتاح التجلى الذى يريك مبادى لهذا الذى ذكر فى الحديث وإن كان الذى يتجلى للسالكين ليس شيئا بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . وإذا كان حديث القرات والنيل البحث فى العوالم لحديث سدرة المنتهى وأنوارها للبحث فى أسرار النفس. وأنا أقول لك إن فيها أسرارا لا تقف عليها إلا بمفتاح العبادة والذكر مع حضور قلبك ولتعلم أن هذه الأنوار النفسية شئ وعلم النفس الذى فى الفلسفة شئ آخر . فعلم النفس الذى ذكرنا بعضه فى سورة البقرة يتناوله البحث ويدخل فيه المنطق والقياس والبرهان . فأما هذا فلا برهان له إلا العبادة والذكر والنتائج لا يعرفها إلا صاحبها فقد يرى مسرات وانشراحا لا يحس بها الذى لم يزاولها فعلم النفس الفلسفى يشترك فيه الناس عموما وعلم النفس الوجدانى خاص بأصحابه ولهم ثمراته.

(٣) وأما مسألة الملائكة وأنهم سبعون ألفا يؤمون البيت المعمور ثم لا يرجعون أبدا فهذا مقام فوق هذا المقام فإن الجمال الذى يتجلى لأصحاب الذكر والمرتاضين مرتبته أقل من مرتبة الذين ارتقوا فشاهدوا عالم الملائكة . وإذا كنا نرى فى أرضنا الضعيفة عوالم لا تعد ولا تحصى حتى إنك لو حسبت مافى دارك وحدها من المكروبات التى لا ترى ربما بلغت مئات آلاف آلاف الآلاف بل هذه الأعداد وما فوقها ربما كانت فى قطرة ماء فى فنجان فما بالك بما فى المنزل . وإذا كان هذا فى عالمنا فما بالك بعالم الملائكة فالأنبياء يطلعون على عوالم شريفة لا تحصى لقرب نفوسهم من نفوسهم والتجانس بينهما . انتهى ما أردناه تابعا للقسم الأول .

القِسْمُ الثَّانى

قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟ قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا . يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا . وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٭ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا . وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا . أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٭ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٭ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٭ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا

التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ۝
وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ۝
قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا
قليلا ۝ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ۝ واستفزز من
استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد
وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ۝ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى
بربك وكيلا ۝ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان
بكم رحيما ۝ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى
البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا ۝ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل
عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ۝ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى
فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به
تبيعا ۝ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم
على كثير ممن خلقنا تفضيلا ۝ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه
فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ۝ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة
أعمى وأضل سبيلا ۝ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا
لاتخذوك خليلا ۝ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ۝ إذا لأذقناك
ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ۝ وإن كادوا ليستفزونك من
الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا ۝ سنة من قد أرسلنا قبلك
من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ۝ أقم الصلوة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن
الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ۝ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك
ربك مقاما محمودا ۝ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل
لى من لدنك سلطانا نصيرا ۝ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ۝

وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا * وإذا
أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤسا * قل كل يعمل على
شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا * ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر
ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا * ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد
لك به علينا وكيلا * إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا * قل لئن اجتمعت
الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيرا * ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا *
وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل
وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى
بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن
لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا * وما
منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا * قل لو كان
فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا * قل كفى
بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا * ومن يهد الله فهو المهتد
ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا
وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا * ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا
بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا * أولم يروا أن الله
الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى
الظالمون إلا كفورا * قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية
الإنفاق، وكان الإنسان قتورا * ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل
إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل
هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا * فأراد أن

يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا * وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا * قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا *

(التفسير اللفظى)

لما قالوا « أئذا متنا وكنا عظاما ورفاتا » قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل كونوا حجارة) فى شدتها (أو حديدا) فى قوته وبأسه (أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) ويستعصى على قبول الحياة لكونه أبعد شئ عنها فقدرة الله لاتقصر عن إحيائكم فيان عندها أصلب الأشياء وألطفها فالعظام النخرة أقرب إذن إلى قبول الحياة لا تستعصى عليها كما أطاع ماهو أكثر منها شدة وأصلب (فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة) وكنتم ترابا، فمن قدر على الإنشاء فهو على الإعادة أقدر (فسينغضون إليك رءوسهم) فيحركونها نحوك تعجبا واستهزاء (ويقولون متى هو ؟) استبعادا له (قل عسى أن يكون قريبا) عسى هنا للوجوب أى هو قريب (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى يوم يدعوكم من قبوركم إلى المحاسبة يوم القيامة فتجيبونه حامدين له إذ تنفضون التراب عن رءوسكم وتقولون سبحانك اللهم وبحمدك أو منقادين له انقياد الحامدين، وإذا حمدوا الله على الأول فهم (فريقان) فريق ينفعه الحمد وهم المؤمنون، والثانى لاينفعه لأنه بعد فوات الفرصة فى الحياة وهم الكافرون (وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أى وتستقصرون مدة لبثكم فى الدنيا عند الموت أو مدة لبثكم فى القبر يوم القيامة «كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها» (وقل لعبادى) المؤمنين (يقولوا) الكلمة (التى هى أحسن) ولاتخاشنوا المشركين (إن الشيطان ينزغ بينهم) يهيج ويفسد ويلق العداوة بينهم (إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة ثم قال تعالى (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم) أى يوفقكم للايمان فتؤمنوا (أو إن يشأ يعذبكم) أى يمتكم على الشرك فتعذبوا (وما أرسلناك عليهم وكيلا) موكولا لك أمرهم فتقهرهم على الإيمان . يروى أن المشركين أفرطوا فى إيذاء المؤمنين فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) بأحوالهم فيقذف الإيمان فى قلب من يشاء والكفر فى قلب من يشاء ويصطفى منهم أفضلهم استعدادا للنبوة، والنبيون أيضا درجات فلابدع إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم نبيا وهو يتيم أبى طالب فإن استعداده هكذا ، ولا بدع أيضا فى أن العراة الضعاف أصحابه، فالتفضيل راجع للقوة الروحية ، لا للمادة الجسمية ولا لكثرة الأموال والذرية . إن تفضيل داود عليه الصلاة والسلام لم يكن للملك وإنما هو لما أوتيه من نعمة الزبور . فهكذا محمد صلى الله عليه وسلم تفضيله واصطفاء الفقراء أن يكونوا أتباعه لم يكن إلا لمآثرهم النفسية، وهذا رد لاستبعادهم أن يكون يتيم أبى طالب نبيا وأصحابه العراة أتباعه ، وهذا

قوله

قوله تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا . قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) أى الذين زعمتم أنهم آلهة كالملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام (فلا يملكون) فلا يستطيعون (كشف الضر عنكم ولا تحويلا) فالضر كالمرض والفقر والقحط لا يقدرون على كشفه عنكم ولا تحويله إلى غيركم وليس الأمر قاصرا على عجزهم عن ذلك ، بل إن أقربهم إلى الله يدعوه يبتغى إليه الوسيلة فكيف يكون غير الأقرب؟ وإذا كان هذا مقامهم عجزا عن كشف الضر عنكم وافتقارا والتجاء إلى الله أعلاهم وأدناهم فكيف تعبدونهم؟ وهذا قوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) ثم أبدل من الواو فى يبتغون فقال (أيهم) هو (أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) فهم كغيرهم فى الرجاء والخوف (إن عذاب ربك كان محذورا) أى حقيقا بأن يحذره كل أحد ملك مقرّب ونبى مرسل فضلا عن سواهما (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة) بالموت والخراب (أو معذبوها عذابا شديدا) بالقتل وأنواع العذاب (كان ذلك فى الكتاب مسطورا) أى مثبتا فى علم الله القديم أو اللوح المحفوظ . لما سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وفضة وأن ينحى الجبال عنهم ليزرعوا أوحى الله لرسوله صلى الله عليه وسلم مخيرا له بين الاستئصال إذا أنزل عليهم الآيات كثمود فيكذبون ، وتأخير العذاب مع عدم إنزال تلك الآيات فاختار التأخير ليكون منهم مؤمنون وذرّيتهم سيكونون من المؤمنين فقال الله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات) أى وما صرفنا عن اقتراح الآيات التى اقترحتها قريش (إلا أن كذّب بها الأولون) أى إلا تكذيب الأوّلين الذين هم مثلهم كعاد وثمود فلو أنزلت لكذبوها فيستأصلون ، وكيف نستأصلهم وفيهم من يؤمن بنفسه أو يؤمن أبناؤه (وآتينا ثمود الناقة) بسؤالهم (مبصرة) آية بينة (فظلموا بها) فكفروا بها وعقروها (وما نرسل بالآيات) المقترحة (إلا تخويفا) من نزول العذاب المستأصل ، فاذا لم يخافوا أنزلناها (و) اذكر (إذ قلنا لك) أى أوحينا إليك (إن ربك أحاط بالناس) فهم فى قبضة قدرته (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك) ليلة المعراج من العجائب والغرائب إذ أسرى به إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء ، والعرب تقول : رأيت جنى رؤيا ورؤية (إلا فتنة للناس) فأنكر قوم ذلك وزاد المؤمنون إخلاصا فهذه الفتنة كنار تميز الخبيث من الطيب ، والمؤمنون منهم من قال إنها رؤيا منام ، ومنهم من قال رؤية يقظة ، ومنهم من قال إن المعراج معراجان معراج فى اليقظة ومعراج فى المنام . ثم إن ماقدمناه يجمع الأقوال المعتدّ بها ، يقول الله فتنا بها الناس كما فتناهم بغيرها فكفر المكذبون فأما المؤمنون فلهم مذاهب شتى ويدخلون فى أبواب من المعارف مختلفة وكل يقف عند ماتذعن له نفسه ، وفريق يتناهى فى البحث إلى كشف الحقائق العلمية والأقوال الروحية ليخرج الناس من ظلمة الجهالة . إن أمثال هذه أشبه بالنار توقد فيصهر المعدن فى البودقة فوقها فيكون الزبد أعلاه والجوهر الصافى أدناه فقد امتازا بالنار امتيازا كذلك هذه الرؤيا فعلت التى أريناك (والشجرة الملعونة فى القرآن) أى وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس فانهم حين سمعوا أن شجرة الزقوم طعام الأثيم اختلفوا فقوم ازدادوا إيمانا وقوم ازدادوا كفرا كأبى جهل ، إذ قال إن ابن أبى كبشة أى النبى صلى الله عليه وسلم توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم زعم أنها تنبت شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر . وقال عبد الله بن الزبعرى إن محمدا يخوّفنا بالزقوم وما الزقوم إلا الزبد والتمر ، وإنما كانت ملعونة لأنها فى جهنم وهى أبعد مكان من رحمة الله وآكلوها مبعدون من رحمة الله فجعلت ملعونة مجازا . ويقال لكل طعام ضارّ إنه ملعون . فهؤلاء كما فتنوا بالرؤيا فتنوا بالشجرة فالكافرون ينكرون والمؤمنون (فريقان) فريق يكل الأمر لله ، وفريق يرى أن يبحث فى الحكمة وعلوم الطبيعة هل يجد شجرا لا تحرقه النار فيرون أن هناك حريرا يقال له الحرير الصخرى . ولقد رأيته وأنا فى دار العلوم وألقيت درساً على الطلبة بدل مدرس العلم فيها المرحوم أستاذى أحمد أفندى عبد العزيز فانى وضعت الحرير على النار مقدار ثلث ساعة تقريبا ، والحرير لم يزدد إلا نظافة وهذا الحرير يلبسه الذين يطفئون النار

فى المعمل بأمر الحكومات كحكومتنا المصرية فالحرير الصخرى كالحرير المعتاد وكالقطن فإذا جاز ذلك فى هذه الحياة فكم فى الأرض نفسها من عجب، وكم فى العوالم الأخرى من عجب؟ بل ما من شجر أو حجر إلا وفيه نار بل الأرض مملوءة نارا وما خلص من النار إلا قشرتها التى نحن عليها بل الماء نفسه مادة نارية فنحو ٨ أتساعه أكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا والتسع أودروجين فأرضنا نار وماؤنا نار وأشجارنا وأحجارنا مملوءة نارا وهذا العالم الذى نسكنه تتخلله النار ، ولو لم يكن فى هذه الآية سوى هذا الذى ذكرناه لكفى، فهذه الفتنة أثارت حاجة البحث والتنقيب ، وأوقفت أهل الجهل والتقصير فوقفوا جامدين . ثم قال تعالى (ونخوفهم) بمخاوف الدنيا والآخرة (فما يزيدهم) التخويف (إلا طغيانا كبيرا) فكيف نخاف قوم هذه حالهم بإجابة مايقترحون من الآيات ، فإذن لانرسل الآيات المقترحات لهم إذ لا فائدة فى ذلك . إن هؤلاء ساروا فى طريقهم على منهج إبليس إذ طغى وتكبر بعد ظهور الحق وأتى بشبهات ضئيلات فهم اتبعوه فى تكذيبهم. (و) اذكر (إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) فالملائكة مع آدم يشبههم المؤمنون مع محمد ، وإبليس هناك يقابله الكفار هنا (قال) إبليس (أأسجد لمن خلقت) حال كونه (طينا) وهؤلاء قالوا أنتبع يتيم أبى طالب ولا نصدق المعراج ولا نعقل شجرة فى نار فهذا كله تكذيب بأدلة سفسطائية كأدلة إبليس، ثم إن إبليس تمادى فى ذلك ووعد باغواء بنى آدم ، وهذا قوله تعالى (قال أرأيتك) الكاف للخطاب تأكيدا (هذا) مفعول به؛ والمعنى أخبرنى عن هذا (الذى كرمت على) أى فضلته لم كرمته على وأنا خير منه، خلقتنى من نار وخلقته من طين كما يقول كفار مكة «لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» (لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته) لأستأصلنهم بالإضلال (إلا قليلا) يعنى المعصومين وهم الذين قال الله فيهم «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان» (قال اذهب) امض لما قصدته فطرده وخلى بينه وبين ماسولت له نفسه (فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) أى فإن جزاءك وجزاءهم جزاء مكمل (واستفزز) استخف وأزعج (من استطعت منهم) أى من ذرية آدم (بصوتك) بدعائك إلى الفساد (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) من الجلبة وهى الصياح ، أى صح عليهم بأعوانك من راجل وراكب، والخيل الخيالة والرجل اسم جمع لراجل كركب لراكب وصحب لصاحب ، وهذا تمثيل لسلطته على من يغويهم برجل مغير صاح على قوم فاستفزهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استأصلهم ، ثم قال (وشاركهم فى الأموال والأولاد) فيكسبون الأموال من السحت ويصرفونها فيما لا ينبغى ، ويلدون الأولاد من حرام بإغرائك ويكفر أولادهم ويضلون بتزيينك لهم الباطل مع جهل آبائهم ولو اهتدوا لقنوهم الهدى (وعدهم) المواعيد التى لاتفيد كتأخير التوبة ، وأنه لابعث ولاحساب وكشفاعة الآلهة أوشفاعة الشيوخ الذين مانوا مع تقصير التلاميذ وما أشبه ذلك (ومايعدهم الشيطان إلا غرورا) فإنه يزين الخطأ بما يوهم أنه صواب (إن عبادى) أى المخلصين (ليس لك عليهم سلطان) غلبة (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون عليه فى الاستعاذة منك أو حافظا لهم منك . ثم بين سببه فقال (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر) أى يجريها فيه (لتبتغوا من فضله) الربح وأنواع الأمتعة ويأكل الشرقى مازرع فى الغرب ، ويغزل الغربى مازرع الشرقى من القطن وتتبادل أمريكا والشرق وأوروبا والصين واليابان المنافع ، ولولا هذا لكانت الحياة شقاء والانسانية ذلا وهوانا (إنه كان بكم رحيما) فأتاح لكم النعم وأوصلها لكم على بعد الشقة وتنائى الديار ، إذ فصل بينها بالبحار ليسهل لكم الأسفار بالكهرباء تارة وبالبخار أخرى وبالشراع آونة . وهذه النعم لاتعرفونها إلا عند وقوعكم فى الخطر . ثم مثل لذلك فقال (وإذا مسكم الضر فى البحر) خوف الغرق (ضل من تدعون) ذهب عن أذهانكم تلك الأصنام المعبودة وشيوخكم الذين اتكلتم عليهم فى إنقاذكم من الهلاك (إلا إياه) وحده (فلما نجاكم إلى البر) من الغرق (أعرضتم) عن التوحيد ونسيتم ماذكرناكم به من نعمتنا العظيمة بتخويفكم الغرق ثم إنجائكم منه وهذا كفر عظيم (وكان الإنسان كفورا) فهل ظننتم أنه لاهلاك إلا فى البحر ، وما علمتم أن البرلى والبحرلى وأن فى البر ما فى البحر

من الهلاك والخسف، فني البر آفات عارضة وفى الجو الرياح التى ترميكم بالحصباء، والمقذوفات الجوية الطبيعية والصناعية كالطيارات والطاود جمع منطاد. فهذه كلها مما أعد لإهلاك من فى البر كما يهلك من فى البحر وهذا قوله تعالى على سبيل الاستفهام الإنكارى (أفأمنتم) أى أنجوتم فأمنتم (أن يخسف بكم جانب البر) بالخسف كما حصل فى اليابان سابقا وقررناه وذكرنا معه غيره فى سورة [آل عمران] (أو يرسل عليكم حاصبا) ريحا تحصب أى ترمى بالحصباء (ثم لاتجدوا لكم علينا وكيلا) مانعا وناصرا (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) فى البحر (تارة أخرى) مرة أخرى (فيرسل عليكم قاصفا من الريح) وهى التى لا تمر بشىء إلا قصفته: أى كسرته (فيغرقكم بما كفرتم) أى بسبب إشراككم (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) التبيع المطالب أى لاتجدون أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا لكم ودركا لثأركم. إن الإغراق فى البحر والخسف فى الأرض جاآ كلاما معترضا بين نعمة إزجاء السفن فى البحر لابتغاء الرزق وبين تمام النعمة بتكريم بنى آدم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من المخلوقات، والكلام المعترض للانذار والتخويف وليعرفوا النعمة. وهذا قوله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) بحسن الصورة واعتدال القامة والعقل والصناعة واللغات والخط والهدى لأسباب المعاش الشريفة والتسلط على مافى الأرض والاطلاع على العجائب العلوية والسفلية (وحملناهم فى البر والبحر) على الدواب والقطرات والطيارات، والمطاود (جمع منطاد) والسفن (ورزقناهم من الطيبات) وهى الأغذية النباتية والحيوانية الصفاة النقاة، فلهم خلاصتها لأن أمزجتهم أرق الأمزجة، وخلاصة الغذاء ينشأ منه خلاصة المتغذين (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) بالغلبة والاستعلاء والشرف والكرامة، والقليل الذى لايفضل الانسان عليه خواص الملائكة والمسألة محل نظر لافائدة فى التوغل فيها. ذكر (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) بكتاب أعمالهم التى قدموها، فلا ذكر للأنساب لأنها مقطوعة ولا ذكر إلا للأعمال والأخلاق والآراء والعقائد والقوى النفسية التى هى مغروسة فى النفوس فلا يقال يا ابن فلان وإنما يقال يا صاحب كتاب كذا فالأنساب جسمية والآراء علمية عقلية والباقى هذا الأخير والفانى خلفه الناس فى الأرض (فمن أوتى) من المدعوين (كتابه) كتاب عمله (بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) مبتهجين فرحين (ولا يظلمون فتيلا) ولا ينقصون من أجورهم أدنى شىء. والفتيل الشىء الذى يكون فى شق النواة وذلك ظاهر فى علم الكيمياء فإن وزن الذرات لاخلل فيه فلو أن ذرة واحدة زادت فى نبات أو حيوان أوماء من عنصر من العناصر الداخلة فى تركيب ذلك لم يتكون ذلك المخلوق كما شرحناه فى هذا الكتاب. والذى خلق الدنيا هو الذى خلق الآخرة، فالظلم مستحيل هناك كما استحال هنا الظلم فى نظم الطبيعة فتأمل واعجب وارجع إلى ما تقدم فى مواضع كثيرة فى هذا التفسير (ومن كان فى هذه أعمى) أعمى القلب لا يبصر رشده (فهو فى الآخرة أعمى) لا يرى طريق النجاة (وأضل سبيلا) منه فى الدنيا. ذلك لأنك رأيت فى تفسير هذه السورة وفى غيرها أن الحياة الأخرى بعد الموت مباشرة ويوم القيامة ليست شيئا سوى هذه الروح التى بين جنبينا قد خرجت ولبسها هذا الجسم كما تلد المرأة الصبى، وكما يثمر النخل التمر والأشجار الأخرى الفواكه، وما التمر ولا الفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة. هكذا ما الروح الباقية شىء سوى هذه الروح نفسها وقد خرجت بجميع صفاتها وأخلاقها وأحوالها وأعمالها وآدابها فهى التى تنظر إلى نفسها وتنفر أو تنشرح لذاتها فالثمر على حسب الشجر والروح هناك هى الروح هنا فاذا كانت هنا ساهية لاهية فهى هناك أكثر سهوا وأكثر لهوا، بل هى هناك أبعد مدى فى الضلال والعمى لأن آلات العلم والعمل عطلت وبقيت فيها مناقبها ومثالبها ولا قدرة لها على الزيادة من الأولى ولا النقص من الثانية فهذا تقرير قوله تعالى (وأضل سبيلا) ثم أتى بمثالين القسمين قسم المهتدين وقسم العمى الضالين فهؤلاء الآخرون كبعض قريش إذ قالوا لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا وتمسها بيدك. وكذلك أيضا قال إن أهل مكة كادوا يزعجونك منها وإذن لا يبقون بعدك فيها

إلا زمانا قليلا فهذه حال القسم الأعمى . أما القسم الذى أخذ كتابه بيمينه فهو الذى يعمل بما بعد ذلك من الآيات فيصلون الصلوات الخمس ويتهجدون، وهذا هو قوله (وإن كادوا ليفتنونك) أى وإنه أى الحال والشأن قاربوا بمبالغتهم أن يوقعوك فى الفتنة بالاستنزال والصرف (عن الذى أوحينا إليك) من الأحكام (لتفترى علينا غيره) غير ما أوحينا إليك (وإذن لاتخذوك خليلا) أى ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك وليا وخرجت من ولايتى (ولولا أن ثبتناك) ولولا تثبيتنا إياك (لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم ؛ والمعنى أنك كنت على أهبة الركون إليهم لا لضعف منك ، كلا . ولكن لشدة مبالغتهم فى الخداع لك والتحيل ولكن عنايتنا بك منعتك أن تقترب من الركون فضلا عن أن تركن إليهم (إذن لأذقناك) أى لو فعلت ذلك لأذقناك (ضعف الحياة وضعف الممات) ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة، وأصل الكلام لأذقناك عذابا ضعفا أى مضاعفا ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه وهى الضعف ثم أضيفت الصفة كإضافة الموصوف فقيل ضعف الحياة وضعف الممات فهو ﷺ لو ركن إليهم يكون عذابه ضعف عذاب غيره لأن الذنب من العظيم عقابه أعظم ، وهكذا زلة العلماء يعاقبون عليها أشد من عقاب العامة لأنهم يتبعونهم (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) يدفع عنك العذاب . لما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » (وإن كادوا) أى وإن كاد أهل مكة (ليستفزونك) ليزعجونك بالعداوة (من الأرض) أرض مكة (ليخرجوك منها وإذن لايلبثون خلافك) أى ولو خرجت لايبقون بعد خروجك (إلاقليلا) أى إلازمانا قليلا وقد كان كذلك فإنهم قد غلبوا يوم بدر بعد الهجرة بسنة، وقال بعض المفسرين لو أخرجوك لاستؤصلوا بالعذاب ، ولكنه هو الذى هاجر . وهذه سنة الله فى خلقه أنه يهلك كل أمة تخرج رسولها من ديارها ، ولذلك سن الله (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) إضافة السنة للرسل لأنها لأجلهم سنت (ولا تجد لسنتنا) فيهم (تحويلا) تغييراً . هذا آخر الكلام فى مثال الذين هم عمى فى الدنيا والآخرة، وهم أهل مكة . ثم شرع فى قسم المهتدين كما قدمنا فذكر أشرفهم فقال (أقم الصلاة لدلوك الشمس) أى لزوالها أى بعد زوال الشمس ، لأن الدلوك من الدلك وهو الانتقال والدالك لا تستقر يده فى مكان (إلى غسق الليل) إلى ظلمته ، وذلك وقت صلاة العشاء الأخيرة إذا زال الشفق (وقرآن الفجر) صلاة الصبح ، وسميت قرآنا من تسمية الكل باسم البعض لأن القراءة من أركانها كما تسمى ركوعا وتسمى سجودا (إن قرآن الفجر كان مشهودا) تشهده شواهد القدرة وبدائع الحكمة ونظام الخليقة وبهجة العالم العلوى والسفلى من ظلام حالك أزاله نور ساطع وبهجة باهرة فبينا الناس فى نومتهم خامدون إذ أيقظهم النور فهم منتشرون، فهناك ظهور النور وجمال الإصباح ويقظة النوام بعد الظلام وغيبوبة الحواس . ذلك كله محيط بالمصلى صلاة الصبح كأن ذلك كله طوائف من العقلاء مطلعون عليه يشهدونه ويراقبون حركاته . وهكذا الملائكة الموكلون بحراسة هذا العالم وحراسة المؤمنين يشهدون المصلى وقد أخذت ملائكة الليل ينصرفون وأقبل ملائكة النهار يرقبون كما أدبر الظلام وأقبل الضياء « ومامنا إلا له مقام معلوم » وإذا كانت هذه الصلاة مشهودة من العوالم العاقلة كالمصلين والملائكة وغير العاقلين كما ذكرناه فإن المصلى نفسه يشهد معناها كأنه يطالعه فى صحيفة نفسه ، وقد أصبح وقلبه فارغ لم يصب بهموم النهار فتتدفق المعانى على قلبه وتتجلى له الأنوار المعنوية كما تجلت الأنوار الحسية فى آفاق المشرق وتشرق نفسه كما ينبلج الصبح إشراقا ، وإذا كان حاضر القلب وقد حضرت الملائكة ألهموه المعانى وإلهام الصلاح والتقوى لأنهم لا يلهمون بالخير إلا المستعد وهذا وقت الاستعداد . وهذه هى الصلوات الخمس فمن دلوك الشمس إلى غسق الليل أى غروب الشفق الذى يتبعه الظلام أربع صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقرآن الفجر هو الصبح. ثم قال تعالى (ومن الليل فتهجد به) أى وبعض الليل فاترك الهجود للصلاة . ويقال فى النوم أيضا تهجد (نافلة لك) أى فريضة زائدة لك على

الصلوات الخمس المفروضة عليك فأما أمتك فهو مندوب فى حقها (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) أى عسى أن يقيمك ربك مقاما يحمدك القائم فيه وكل من عرفه، فالبعث هنا ضمن معنى الإقامة . وذلك أن إشراق النفس بالصلوات الخمس وبالنوافل يكسبها قوة وتأثيرا، وهذا مما يبعث على انتشار أنوار الهداية كضياء الشمس والقمر إذ الهداة فى الأرض إما شموس كالأنبياء وإما كواكب كالعلماء، ولا تشرق قلوب هؤلاء ولا هؤلاء إلا بتوجيهها إلى الله فى أوقات خاصة عينت هنا، وزيد فيها للنبى ﷺ صلاة الليل إذ يترك النوم ويقوم للصلاة فتشرق نفوس هؤلاء فيقومون فى الخلق داعين ولا أثر لهم فى العقول إلا على مقدار ما أوتوا من قوة النور النفسى وإشراق القلوب وبهجة النفوس ، ومستحيل أن يكون للارشاد تأثير ولا للعلم نور إلا بهذه الطريقة فيقوم الأنبياء فى الناس داعين ويكون مقامهم محمودا لثناء الناس عليهم ، وهم أنفسهم حامدون لمقامهم وموقفهم الشريف لما يحسون فى أنفسهم من السرور واللذة والبهجة والرضا ، فهم يحمدون مقامهم والناس من حولهم يحمدونهم والله والملائكة من فوقهم كذلك . ولا جرم أن هذا المقام المحمود بالرشد والإرشاد يتبعه مقام الشفاعة كما قررناه فى سورة البقرة، إذ لا شفاعة فى الآخرة إلا على مقدار ماأوتى المشفوع له فى الدنيا من علم ومن أخلاق . فهذا تقرير المقام ، ولله فى الشفاعة مايشاء من غفران وإعلاء درجات . فاذا قال بعض المفسرين إنه مطلق المقام، أوقال آخر هومقام الشفاعة كما دلت عليه الأخبار. وإذا قال غيرهم هومقام يعطى فيه لواء الحمد فقد دخل ذلك كله فيما قررناه لك فهذه الصلوات نتائجها مابيناه هداية الناس أولا والشفاعة التابعة لها ثانيا ، وأى لواء مرفوع للحمد أكثر من هذا اللواء، والشرف العظيم هداية فى الدنيا ونجاة فى الآخرة ومشهد شريف .

هاأنت ذا رأيت كفار مكة كيف بالغوا فى رده عن طريقه الشريف فى الدين، وكيف أرادوا إخراجه من مكة ثم خرج، وكيف أمره الله بالعبادة والتهجد . ولا جرم أن التهجد والصلوات الخمس ترقى النفس وتشرح الصدر وتقرب العبد إلى ربه ويعطى مقاما محمودا، ولذلك أعقبه بمقام من تلك المقامات المحمودة، وهو الدعاء الذى هو مستجاب فقال (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) المراد هنا كل إدخال وكل إخراج كالإدخال فى القبر وكالإخراج منه بالبعث وكالإدخال فى المدينة للهجرة والإخراج من مكة وكإدخاله مكة فاتحا وإخراجه منها مهاجرا . كل ذلك داخل فى الآية، وكل مفسر اختار واحدا منها، والحقيقة تعم الجميع أى أدخلنى إدخالا مرضيا وأخرجنى إخراجا محفوفا بالكرامة والرضا فى كل موطن من مواطنهما (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) أى تسلطا ينصرنى بالحجة وبالملك فأقنع للستمعين للدعوة بالحجة وبنصر الإسلام على الكفر بالاستيلاء والغلبة . ولقد أجاب الله هذا الدعاء بقوله « فإن حزب الله هم الغالبون » وبقوله « ليظهره على الدين كله » وبقوله « ليستخلفنهم فى الأرض » فهذا الدعاء من المقامات المحمودة هو ومقام الشفاعة (وقل جاء الحق وزهق الباطل) جاء الاسلام وذهب وهلك الشرك . يقال زهق روحه إذا خرج (إن الباطل كان زهوقا) مضمحلا غير ثابت . روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد . ولما أتم الكلام على قسمى العمى والبصراء أخذ يبين أولئك العمى الذين أرادوا أن يصرفوا النبى صلى الله عليه وسلم عن سبيله إلى سبلهم وقالوا ألم بآلهتنا قبل أن تلمس الحجر فقال تعالى مبينا أن القرآن شفاء (وننزل من القرآن ماهو شفاء) من أمراض القلوب (ورحمة) وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب (للمؤمنين ولا يزيد الظالمين) الكافرين (إلا خسارا) ضلالا لأنهم كلما كذبوا بآية نزل بها الوحى ازدادوا بها كفرا فأما المؤمنون فانه يشفيهم من العقائد الزائغة ومن الأخلاق المذمومة . ولما كان دعوتهم للنبى صلى الله عليه وسلم أن يركن إليهم كفرا بنعمة القرآن الذى هو شفاء قال (وإذا أنعمنا على الإنسان) بالصحة والسعة، وهكذا إنزال القرآن على أهل مكة (أعرض ونأى

بجانبه) لوى عطفه وبعد بنفسه عنه كأنه مستغن مستبدّ بأمره أى تكبر فلا يذكر الله ولا يبالى بالناس (وإذا مسه الشر)كالفقر والمرض والنوازل التى تنزل عادة بنوع الانسان (كان يئوسا) شديد اليأس من روح الله . ولما أتم الكلام على تقرير هذه الحقائق الثابتة للعمى وللمهتدين ختم القول بأن كلا يسير على ملحبه ، فقال تعالى (قل كلّ) أى كل أحد (يعمل على شاكلته) أى على مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال وحال جوهر روحه وما يلابسها من البدن ومزاجه فعلى مقتضى هذين يكون العقل والعلم والصلاح والجهل والطلاح ، فمن قال الشاكلة الطبيعية أو الدين أو العادة فلم يخرج عما ذكرناه لأن جوهر الروح ومزاج الجسم يتبعهما كل ما تعلق بهما من ذلك ، ونتيجة ذلك كله يعلمها الله (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أسدّ طريقا وأبين منهجا . ولما كان هذا القول يستدعى السؤال عن تلك الشاكلة والجوهر الروحى الذى نشأ عنه كل هذا الاختلاف حتى رأينا أنبياء يهدون وعامة يقلدون وكفارا يعاندون فما تلك الروح التى أسند إليها هذا كله ؟ وعلى مقتضاها ومقتضى مزاج الجسم صدرت هذه الأمور بل إن هذا السؤال نفسه ورد فعلا عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من اليهود فقال بعضهم سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه لا يسمعكم ماتكرهون فقاموا إليه وقالوا ياأبا القاسم حدثنا عن الروح فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه ثم قال (ويسألونك عن الروح) الذى يحيا به بدن الإنسان ويدبره (قل الروح من أمر ربى) مما أبدعه الله من غير مادة وقد استأثر بعلمه لايعلمه سواه لأنكم لاتعلمون إلا ماتراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم وحواسكم لاترى من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر والأصوات للسمع والطعوم للذوق والمشمومات للشم والحرارة والبرودة للمس ، وقد وصلت هذه إلى ست وثلاثين نوعا من أحوال المادة وغاب عنكم فى المادة ماعداها فكيف تدركون ماهو غير مادى وهو الروح (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أخرجه الشيخان والترمذى . وفى رواية أخرى للترمذى، قالوا أوتينا علما كثيرا أوتينا التوراة ومن أوتى التوراة فقد أوتى علما كثيرا فنزلت «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى » الآية ، وأما ماعدا هذا الحديث من حديث أن قريشا باغراء اليهود سألوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح مما ذكره المفسرون فذلك لم يرد فى الأحاديث الصحاح فلذلك ضربنا الذكر عنه صفحا ورجعنا إلى التفسير . ولما فرغ من مسألة الروح وأن الانسان عاجز عن إدراكها وذلك له اتصال بمسألتى الهداية والعمى المتقدمتين ، وأن قريشا حاولوا صرفه عن بعض ماأوحى إليه .

فلما أتم ذلك كله وأبان طريق المهديين بالصلاة والتهجد وطريقة الغافلين بالضلال رجع يخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم بمناسبة إغرائهم له ليبين لنا أن لانفترعن وجهتنا باغراء المغرين ولا بإفساد المفسدين ، فقال مهددا (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) أى والله لئن شئنا لنمحونّ القرآن من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرا وبقيت كما كنت لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) أى ثم لاتجد لك بعد الذهاب به ماضيا وكفيلا يرجعه لك (إلا رحمة من ربك) لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به.

امتنّ الله ببقاء الكتاب بعد المنة بالإنزال وهذا تحذير لنا أن تنزل عن نعمة الهداية بإضلال المضلين وإرجاف المرجفين فاذا كان الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم إياك أن يفتنوك وهو عاصمه من الفتنة ويقول إنى إن شئت أذهبت مايغلبك من القرآن، فكيف بأتباعه وهو لم يعصمهم؟ وهذا هو السبب فى ضلال كثير من أهل العلم فانهم متى ظاهروا العامة باعد الله بينهم وبين العلم. ثم قال تعالى(إن فضله كان عليك كبيرا) إذ أرسلك وأنزل الكتاب عليك وأبقاه فى حفظك وفى مصاحفك وحفظ أتباعك ومصاحفهم. ثم وصف القرآن بأعظم وصف ليثبت قلبه صلى الله عليه وسلم وقلوب تابعيه وكذلك ليردّ على أولئك العمى الذين بالغوا فى طلب صرفه عن الحق فقال (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) بلاغة وحسن معنى وتصرفا

وأحكاما

وأحكاما، وغير ذلك (لايأتون بمثله) وفيهم العرب الفصحاء، وأرباب البيان والمحققون، وهذه الجملة جواب القسم المدلول عليه باللام وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) معينا.

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال (ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل) أى بينا فيه من كل وجه من وجوه العبر والأحكام والوعد والوعيد والقصص (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) جحودا وثبتوا على الكفر: أى لم يرضوا إلا كفورا. ولما أتم الكلام وقام الإقناع بالحجة وقطعت ألسنتهم ولم يبق لهم حجة أرادوا المراوغة باقتراح الآيات (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) عينا غزيرة من شأنها أن ينبع الماء منها لا تقطع وهو على وزن يفعول من نبع (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) أى بستان فيه ذلك (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) كقطع لفظا ومعنى (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) أى نراهم مقابلة عيانا كالعشير بمعنى المعاشر وفى آية أخرى «لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا» ثم قال تعالى (أو يكون لك بيت من زخرف) من ذهب (أو ترقى فى السماء) فى معارجها (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) وفيه تصديقك (قل سبحان ربى) تعجبا من اقتراحاتهم وتنزيها له من أن يتحكم عليه ويشاركه أحد فى القدرة (هل كنت إلا بشرا رسولا) فأنا كسائر الرسل وليس للرسل أن يأتوا إلا بما يظهره الله على يديهم فليس لكم الخيرة.

روى أن أشراف قريش سألوه صلى الله عليه وسلم أنه إن أراد المال أعطوه حتى يكون أغناهم، وإذا أراد السيادة سوّدوه عليهم وإن كان الذى أصابه من تابع من الجن غلبه حتى قال ما قال فان أموالهم يحبسونها عليه ويدفعونها للأطباء حتى يزول مابه من الداء. فأبى وقال لهم إنه رسول الله وما عليه إلا البلاغ فقالوا له إذا كانت هذه منزلتك من الله فأزل عنا جبال مكة ولتكن لك جنة من نخيل وعنب وفيها العيون نابعة الخ.

فلما قام من مجلسهم ومعه عبد الله بن أبى أمية ابن عمته عاتكة شدد عليه فى القول وقال له عرض عليك قومك ماعرضوا فلم تقبل فوالله لا أومن بك أبدا حتى ترقى السماء الخ. فرجع إلى أهله صلى الله عليه وسلم حزينا فنزلت هذه الآية وهذا هو الجواب الإجمالى، وهناك فى آيات أخرى تفصيل لبعض ذلك كقوله تعالى: «ولو فتحنا عليهم بابا من السماء» الخ. ثم أعقب الله ذلك بأن الناس دأبهم أن يقولوا كيف يرسل الله بشرا هلا أنزل ملائكة (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا) أى إلا قولهم ذلك أى فلم يبق لهم شبهة إلا هذه (قل) جوابا لهم (لو كان فى الأرض ملائكة يمشون) كما يمشى بنو آدم (مطمئنين) ساكنين فيها (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) من جنسهم يفهمون عنه وملائكة السماء لاعمل لها مع أهل الأرض فى الهداية إلا الالهام وأكثر الناس ليسوا أهلا لالهامهم (قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أى رسوله إليكم باظهار المعجزات والبيان على يدى وهو الذى ينصرنى لعلمه أنكم معاندون وشهيدا تمييز (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) فهو يعلم أحوالكم الظاهرة والباطنة فيجازيهم عليها، وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) يهدونهم (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) يسحبون عليها أو يمشون. وفى البخارى ومسلم عن أنس «أن رجلا قال: يارسول الله قال الله «الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم» أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

وفى رواية الترمذى «إن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر مشاة وركبانا وعلى وجوههم» هذا ونحن نرى الحيوان منه طائر ومنه ماش ومنه زاحف كالحيات وهوامّ الأرض. فهذا القسم أقرب إلى هيئة الزواحف بحيث يلى الوجه جهة الأرض وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية وهو هائم على وجهه، وقوله (عميا وبكما وصما) أى لايبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون وذلك فى مبدأ الأمر ثم تعاد لهم هذه الحواس فيحاسبون

(مأواهم جهنم كلما خبت) أى سكن لهيبها (زدناهم سعيرا) توقدا (ذلك) العذاب (جزاؤهم) بسبب (أنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) ثم استدل على البعث فقال سبحانه (أولم يروا) أولم يعلموا (أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) من الإنس (وجعل لهم أجلا لاريب فيه) وهو القيامة (فأبى الظالمون إلا كفورا) جحودا مع وضوح الدليل ، وإذا طلبتم من محمد ﷺ ماطلبتم من بساتين وعيون تنبع وأن تروا الملائكة والله عيانا الخ فان الله تعالى لا يرضى بذلك لا بخلا منه ولكن الحكمة قضت أن يكون هذا نظام الدنيا ولا رقىّ لهذا الإنسان إلا على هذا المنوال بل هو يوسع الرزق ويضيقه بالحكمة وعلى مقتضى المصلحة ولو أنكم كنتم ملكتم خزائن السموات والأرض وأنتم على فطرتكم هذه لأمسكتم خشية الانفاق ، فامساك الله للحكمة والمصلحة ولذلك لم ينزل ما اقترحتموه وإمساككم للشح والبخل وهذا قوله تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى) إلى قوله (وكان الإنسان قتورا) أى لو تملكون أنتم فأنتم فاعل الفعل المضمر خزائن الرحمة الرزق وسائر النعم «إذن لأمسكتم خشية الإنفاق» أى لبخلتم خشية أن يفنيه الانفاق (قتورا) بخيلا ، يعنى أن الله لم يمنع محمدا نبيه صلى الله عليه وسلم الآيات التى اقترحوها هوانا له فكأنهم قالوا إن محمدا إما أن يكون نبيا أولا ، فإن لم يكن نبيا فالأمر واضح لأن الآيات التى اقترحناها لم يجب عنها ولم تنزل فإذن هو ليس بنبى وهذا ظاهر ، وإن كان نبيا وهو مقرب من ربه فلم لا ينزل الله ما اقترحناه والله يؤيد عبده عند خلقه. فكان الجواب أن الله لو أنزل ما اقترحتموه لكان ذلك خللا فى النظام وسوء عمل وهذه العطايا الوافرة ربما كانت مصائب إذا أنزلت على غير وجهها وليس ذلك المنع لأن محمدا ليس نبيا بل المنع من جهة الحكمة ولا هو من جهة بخل الله فلا بخل من الله ولا كذب من نبيه ولم يبق إلا أنه حكمة. فأما أنتم فنمكم يجرى على طريقة البخل فلو سلم لكم السموات والأرض وأدرتموها لم تفهموا إلا الإمساك على قدر عقولكم ولن يطلعكم على ملكوته فى الحال ولا فى المآل إلا إذا ارتقت النفوس فصارت إلهية تزن الأشياء بمقدار فيسلم لكم الاطلاع على عجائبه وارتياد مواطن الكمال ولذلك متى كان فى الأرض مستنيرون وقلوبهم صافية ونفوسهم عالية وتعالوا عن المادة وزهدوا فى الأرض فهم من أهلها صورة وهم بينكم فهؤلاء أوصلهم إلى عالم قدسى يطلعون على عجائب لمناسبة عقولهم لذلك العالم الشريف . فهنا الخزائن فتحت لأنهم عرفوا مقدارها وهكذا نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم سأملكه زمام الأمور لأنى علمت أنه سيعطى كلا ما يستحقه فى الدنيا فأسلمه بعض خزائن الأمم المحيطة بكم وسيقسمها بين الناس فعلا بالقسط لأنى أفهمته نظام هذه العوالم وقد حقر الدنيا . فأما أنتم فانى لا أسلمكم مفاتيح أرضى لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولا تنفعوا خلق .

فها أنا ذا أفتح خزائن العلم لمحمد فيوحى إليه ويلهم تابعوه من الله والملائكة وأعطيهم خزائنى فيصرفونها فى وجوهها ومتى زاغت أمة من الأمم عن تلك الجادة صرفت عنها رزقى فلم ألهم العلماء لغباوتهم ولم أملكهم زمام الناس لبخلهم وجشعهم سواء أكانوا من أتباع الأنبياء كأمة محمد صلى الله عليه وسلم أم كانوا من غيرهم فأنا لا أعطى خزائنى فى الأرض ولا فى غيرها إلا للصالحين . أقول وهاهى ذه أمتنا لما طغت وبغت وجهلت أحاطت بها أمم الفرنجة من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق وشخصت الأبصار وذلت النفوس وستكون صرختنا فى هذا الكتاب وأمثاله من كتب المسلمين فرطا للاصلاح ومقدمات الرقى وظهور أمة جديدة غير التى مضت فى الأجيال المتأخرة. ولما تقرر ماتقدم شرع يهددهم أنهم إذا لم يؤمنوا بعد ظهور الأمر والحجج الواضحة هلكوا كما هلك فرعون بالغرق كأنه يقول أما الآيات التى اقترحتموها فلا فائدة فى إنزالها وكفاكم الآيات العلمية التى أنزلناها على محمد صلى الله عليه وسلم كما أنزلنا على موسى عليه الصلاة والسلام تسع آيات واضحات الدلالة فلما لم يؤمن فرعون أهلكناه فالإهلاك لعدم اتباع الصلاح والعلم وهذا قوله تعالى (ولقد آتينا موسى

تسع آيات بينات) دلالات واضحات (فاسأل بنى إسرائيل) كعبد الله بن سلام وأصحابه (إذ جاءهم) موسى (فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا) مغلوب العقل مخدوعا (قال) موسى (لقد علمت) يافرعون (ماأنزل هؤلاء) الآيات (إلا رب السموات والأرض) خالقهما حال كون هؤلاء الآيات (بصائر) بينات (وإنى لأظنك يافرعون مثبورا فأراد أن يستفزهم) يستأصل موسى وقومه (من الأرض) كلها (فأغرقناه ومن معه جميعا) بأن استفزه الله فغرق فى البحر مع جنده (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض) أى أرض الشام التى وعدتم بها (فاذا جاء وعد الآخرة) القيامة (جئنا بكم لفيفا) جماعات من قبائل شتى ثم نحكم بينكم ونميز الخبيث من الطيب . هذا هو القصص الذى يبين ما حصل لموسى مع فرعون فانه آتاه تسع آيات قد رواها النسائى والترمذى، فعن صفوان بن عسال رضى الله عنه « أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبى نسأله فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قوله « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم معشر اليهود خاصة أن لاتعدوا فى السبت فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد أنك نبى ، قال فما يمنعكما أن تسلما؟ قالا إن داود عليه السلام دعا الله أن لا يزال فى ذريته نبى وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود » . والمراد بالزحف القتال وهو الجهاد فى سبيل الله . هذه هى الآيات التسع التى سمعها فرعون ماعدا الآيات المشهورة فجحدها كما جحد أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم وأراد فرعون استفزازهم من الأرض فغرق . هكذا أراد أهل مكة إخراج النبى صلى الله عليه وسلم فقتل صناديدهم يوم بدر . فهذه القصة منطبقة ولم يبق إلا انطباق الآيات على الآيات ولذلك أعقبه بقوله « وبالحق » الخ .

لقد تبين فى أول السورة أن النبى صلى الله عليه وسلم أسرى به وعرج به إلى السماء وقابل موسى وبينه وبينه محاورات وأخذ وردّ وانتهى الأمر بالصلوات الخمس وارتقى صلى الله عليه وسلم إلى مافوق السموات العلى ولم يرد أن موسى ارتقى هذا الإرتقاء . ولقد رأيت أن موسى عليه السلام أنزل عليه التوراة وأن قومه أفسدوا فى الأرض مرتين وأن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم . فها نحن الآن وصلنا إلى آخر السورة . ومن عادة القرآن أن يجعل آخر السورة منطبقا على أولها . فها هو ذا يقول : أنزلنا الآيات التسع على موسى عليه السلام وجاء فى الحديث زيادة واحدة فكأنها هى الوصايا العشر . وقد رأيت هناك عن ابن عباس أن الوصايا الخمسة والعشرين المتقدمة فيها الوصايا العشر أو نحو ذلك . فههنا وصلنا إلى المقصود من هذه الآيات فها هو ذا يعيد الكرة على أول السورة فيقول : أنزلنا الآيات التسع على موسى وأنزلنا إليك (٢٥) وهناك غيرها فى هذه السورة فكأن عماد مافى التوراة هى التسع وعماد مافى هذه السورة (٢٥) ويقول هناك « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ويقول هنا مؤكدا ذلك (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) أى وماأنزلنا القرآن إلا بالحكمة وما نزل إلا ملتبسا بالحكمة والحق فهو مشتمل على الهداية إلى كل . فإذا قلنا هناك إنها (٢٥) حكمة فيقال هنا إن القرآن كله حكمة وهنا بيت القصيد . فإذا كانت تسع آيات لموسى كفر بها فرعون فغرق فما بالكم يا أهل مكة إذا كفرتم بما هو ملتبس بالحق والحكمة فلا جرم ستعاقبون على كفركم فعوقبوا بموت الكافرين يوم بدر وغيره وانتهى الكفر من بلاد العرب (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) للمطيع فى الأول والعاصى فى الثانى (و) فرقنا (قرآنا فرقناه) فرقنا فيه الحق من الباطل : أى فرقنا فيه (لتقرأه على الناس على مكث) على مهل وتؤدة لأنه أيسر حفظا وأعون فهما (ونزلناه تنزيلا) منجما على حسب الحوادث فى تضاعيف نحو عشرين سنة (قل آمنوا به أولا تؤمنوا) هذا وعيد لهم وتهديد وأن القرآن لايتوقف أمر انتشاره عليهم، وعلله بقوله (إن الذين أوتوا العلم من قبله) من قبل القرآن (إذا يتلى عليهم) القرآن (يخرون

للأذقان) يقعون على الوجوه (سجدا) تعظيما لأمر الله وشكرا له (ويقولون سبحان ربنا) عن خلف الوعد (إن كان وعد ربنا لمفعولا) أى إنه كان وعده كائنا لامحالة . يقول الله أعرض عنهم فإنهم إن لم يؤمنوا به فقد آمن من هم خير منهم وهم علماء الأمم السالفة الذين قرءوا الكتب السماوية وعرفوا الحقائق الدينية وأن الله سيبعث نبيا فخروا سجدا لله وشكرا له على إنجاز وعده بإرسالك (ويخرون للأذقان يبكون) لما أثر فيهم من المواعظ ، فالسجود هناك للشكر على إنجاز الوعد وتكراره هنا لتأثير الوعظ ولذا ذكر معه البكاء (ويزيدهم) سماع القرآن (خشوعا) كما يزيدهم علما . ولما كان أهم شىء فى القرآن هو التوحيد كرر فيه تأكيدا وقد تبين فى هذه السورة أن القرآن آمن به أهل الكتاب وهو أفضل من التوراة لأنه آخر كتاب سماوى .

وهنا يرد سؤال فيقال كيف يكون ذلك وأن اختلاف الأسماء يدل على اختلاف المسميات وقد سمعك المشركون كأبى جهل تقول يا ألله يا رحمن وأى فرق بين آلهتنا وآلهتك ؟ .

إذن نحن نعدد الأصنام وأنت تعدد الآلهة فنزل قوله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا) أى سموا الله أو سموا الرحمن أى هذين الاسمين ذكرتم وسميتم فهو حسن ، وقد وضع موضع هذا الجواب (فله الأسماء الحسنى) وإذا كانت أسماؤه كلها حسنى فهذان الاسمان منها . وإنما كانت كل أسمائه أحسن الأسماء لأنها فيها التمجيد والتعظيم والتقديس لأعظم موجود خالق الوجود فشرف المسمى بتبعية شرف الاسم فأسماء الله أحسن الأسماء كلها . قيل قال ابن عباس : سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول ياألله يارحمن ، فقال أبو جهل إن محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين فنزلت . ثم إنه لم يعترض أبو جهل والمشركون معه على الدعاء بالله والرحمن إلا لما سمعوا القراءة فنزل (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) أى بالقراءة فى الصلاة (وابتغ بين ذلك سبيلا) وسطا بين الجهر والمخافتة فلا تجهر حتى يسمع المشركون ولا تخافت حتى لايسمع من وراءك ، وهذه من الاشارات العامة لعلم الأخلاق .

إن الأخلاق ترجع لأربعة أمور : (العفة فى الشهوات . والحلم فى الهفوات والنزوات ، والحكمة فى المعقولات والعدل فى نظم هذه المذكورات) . فلاعفة إلا حيث يكون التوسط بين الشره وخمود الشهوة ولا شجاعة إلا حيث يكون التوسط بين التهور والجبن ، ويتبع الشجاعة كثير من الأخلاق كالحلم انظره فى آل عمران ولاحكمة إلا حيث يكون التوسط بين المتناقضات فلا يكون المرء من المعاندين ولا هو من الجاهلين بل علمه يكون بميزان . فالتوسط بين الجهر والتخافت أحد هذه الأخلاق . ثم ختم هذه السورة بالثناء على الله لأنه لاولد له ولو كان له ولد لحول نعمه إليه ودخل حب الاستئثار عنده بخلاف عباده الذين إذا أعطوا خزائن السموات والأرض فإنهم يمسكونها تقتيرا وضنا بها على الناس ويبقونها لأبنائهم ، فليحمد الناس الله لأنه عدل يعطى على قدر الاستعداد والعمل ، فليس هو كما أنتم عليه من المحاباة والحرص؛ فالانسان ناقص نقصا مفرطا لأن قلبه وإن كان يود لو يملأ الأرض نعما على الناس ويحب أن يغيث كل مضطر فان حاجاته وحاجات أبنائه من بعده تضطره أن يختص به ويخص أبناءه من بعده ولكن الأنبياء وأعاظم الرجال لا يورثون إلا العلم ولا يعتبرون المال ويكونون قائمين بالعدل .

يقول صلى الله عليه وسلم «إنا معاشر الأنبياء لانورث ماتركناه صدقة» ، وقال الله تعالى «وورث سليمان داود وقال ياأيها الناس علمنا منطق الطير» فهذه الاشارات تفيد أن أرقى الناس من يتخلقون بأخلاق الله . فاذا كان الله لم يتخذ ولدا فهو عدل عام الوجود والناس لما حشروا فى هذه الأرض والعالم المادى عالم ضيق اضطروا إلى الامساك فقلوبهم وأرواحهم من عالم أعلى من هذا العالم بل هم قبسة من نور جميل عال يحس به الإنسان من نفسه ويود لو يكون منعما على سائر الناس سيدا على هذا الوجود بعلمه وبماله ولكن غرسه فى الطين الأرضى حكم عليه بالتقتير ولا يسلم من هذه الخصلة إلا أناس عرفوا الوجود وخالقه فتخلصوا كالأنبياء وجعلوا

نفوسهم آباء الشعوب لا آباء واحد أو اثنين . فهذه الآية ترجع لقوله تعالى « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي » إلى آخر ماتقدم ويقول هنا الله احمدوا الله على هذه النعم وعظموه فانه قد اتصف بالرحمة المذكورة وهنا لم يقصرها على أفراد خاصة . فاذا أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم فلم يخصه إلا لاستعداده فلا بنوة ولا قرابة بل هو استعداد واستحقاق . فلتجدّوا أيها الناس فرحمتي وسعت كل شيء . فهذه الآية تنسحب على ذلك كله ، فليس الله مقترا كما تقترون ولا رحمته محصورة كرحماتكم بل هو يريد أن تتخلقوا بأخلاقه لأن من أحب أحدا سار على منهجه وقد سار الأنبياء على ذلك النهج فعموا الأمم ولم يخصوا أحـــدا ولذلك أرسل محمد صلى الله عليه وسلم رحمة العالمين . فليكن العقلاء قدوة الأمم وسعادة الناس اتباعا لربهم واقتداء بكماله ونظرا لجماله .

ولما كان من النقائص في الوجود أن يكون للمالك شريك فانه يعطل أعماله ويقف له بالمرصاد أوعدو ليناوئه فيحتاج إلى ناصر قال الله (ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل) أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر أو لم يوال أحدا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته بل أولياؤه هم الذين استحقوا تلك الولاية بفطرهم وأعمالهم وكما لم يكن له ولد يحبس نعمه عليه لم يكن له شريك يقف أعماله في الملك ولا ناصر يدفع العدو المذل له . وهذه الثلاثة هي آفات هذه الحياة . فالعدو يعيثنا ، والشريك يقاومنا ، والولد يجعلنا جبناء جهلاء أشحاء . وإذا تنزه الله عن ذلك فقد أمن الناس نضوب موارده وأصبحت مفتحة أبوابها لكل قاصد ، فعلى هذا فليحمد الله ، فإذا حمد المصلي ربه على أنه مربي العالمين فليحمده تعالى على أن وجوده لا يعنه شريك ولا عدو ولا ولد وهذا إغراء على اكتساب الفضائل والارتواء من تلك المناهل . ولعمري كم اغتر جهال المسلمين بالاتكال على شيوخهم أو على بعض أمور أو عبادات ثم هم يحصون الله أو يقولون نحن أتباع النبي الفلاني كعيسى وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم ، لقد كذبوا فالله تعالى ليس له ولد وليس له شريك وليس له عدو فيحتاج إلى نصر ، فالله فتح أبواب الخير للعباد فلتغترف أيها العبد من مناهله ولتعلم أنه لايحابيك لأجل أهلك ولا نسلك ولا دينك ولو كنت ابن نبي من الأنبياء ولا شريف من الشرفاء ولا عظيم من العظماء بل أنت أيها العبد عبد من عبيد ربك فاحذر أن تغتر بأنك من أبناء الولي الذي يزوره الناس واحذر أن يقال لك كما قيل لنوح عليه السلام «إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح» .

أيها المسلمون : مامضى فات والمؤمل غيب ولكم الساعة التي أنتم فيها . وضح الحق واستبان السبيل وتبدى في الوجود جماله . يقول الله لكم أنا ليس لي ولد . إن الجماهير من المسلمين واليهود وأكثر الأمم يعرفون أن الله لا يلد والمسلم موقن بهذا فكيف نحمده على أنه لا ولد له ؟ إن المقام أعظم وأعظم . لماذا يكرر هذا القول ويقول احمدوني ، وهل هذا يستحق الحمد ؟ نعم الحمد هنا يراد به معنى عظيم .

الخطاب المفتوح من الله للمسلمين

يقول الله : أيها المسلمون لاتغتروا بأنكم أنزل عليكم آخر الأديان وأن نبيكم خير الأنبياء فليس لي أبناء ولاشركاء . هاأنتم أولاء جهلتم وكسلتم ونمتم فهل نفعكم انتسابكم لأعظم الأديان فالنسبة شيء والعمل شيء آخر، أنا لم أخلقكم لتكونوا عالة على خلقي ، أنا لا ألد فماذا تريدون ، تقاعدتم أيها المسلمون فشردت عنكم المعالي أتعيشون في غرور . أيكسب الناس وأنتم تأكلون ؟ كلا وعزتي وجلالي لا أجعل لأحد سلطانا على أحد ، كلا ثم كلا . احترموا اعملوا فسأرى عملكم وكيف تتكلون على النسبة الدينية أو النسبة الأبوية وأنا لا نسب بيني وبينكم إنما أنتم عبيد مسخرون فان اتبعتم سبيل نبي أعطيتكم ، أنا أعمل فلم لا تقلدوني ، أنا الذي خلقت السموات والأرض ، أنا الذي لا أنام ، أنا الذي أعمم النعم على خلقي ولا أبخل فأنا الله ولا أعطي إلا من يسير على نهجي وينفع خلقي ويجعل مواهبه وقفا على عبادي ويواسيهم بماله أو جاهه أو علمه المنتشر بينهم .

هذه أعمالى فلتقلدون ولتتخلقوا بأخلاق . أيها المسلمون ألم أنزل عليكم « يوم لاينفع مال ولا بنون » فالبنوة والأبوة وقية لنظام الحياة «فاعتبروا يأولى الأبصار» .

ولنذكر هنا (جوهرة وزبرجدتين) أما الجوهرة ففى قوله تعالى «ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر» إلى قوله « ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا » وأما (الزبرجدتان) فهما فى قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى «ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر» إلى قوله «علينا به تبيعا» ﴾

إن فى هذه الآيات الكلام على البحر والبر وأن الله حمل الإنسان فيهما . فاعلم أن البحر أوسع مساحة من البر . ذلك أن مساحة الكرة الأرضية كلها (١٩٧) ألف ألف ميل مربع ونحو ثلاثة أرباع هذه المساحة بحر أعنى (١٤٠) ألف ألف ميل مربع .

وفى هذه المسافات الشاسعة من البحار والتلال والأودية والسهول المختلفة والأراضى الخصبة مثل مافى اليابسة البحار أيضا تختلف فى درجات حرارتها باختلاف الأمكنة وفى أنواع حيوانها ونباتهـا التى تتوقف حياتها فيها على شروط خاصة كما فى أمر سكان اليابسة سواء بسواء .

واعلم أن العلماء فى زماننا بحثوا فى عمق البحار ، فترى أمهر الغواصين على (الاسفنج) فى العالم وهم اليونان لم يصلوا فى غوصهم إلا إلى عمق (٤٠) قامة لاغير فلذلك لجأ العلماء إلى آلات استعملوها لمعرفة الأعماق فوصلوا إلى معرفة الأعماق المختلفة باختلاف الجهات . فترى العلامة (ويفل تامسون) يقول إن العمق وصل إلى ٢٥٠٠ قامة أو ١٥٠٠٠ قدم وهذا باعتبار بعض البحار . وترى العمق فى بحر البلطيق وبحر الشمال وهكذا لايزيد عن ١٨٧٧ قامة ومتوسط أعمق البحار فى الدنيا إنما يكون فى شمال المحيط الهادى المسمى (الباسفيك) فإن المتوسط المذكور هناك وصل إلى (٤٥٧٥) قامة ، وقد مسح بعض العلماء العمق فى الجانب الشرقى من بلاد اليابان فلم يجد له آخرا بعد أن وصل إلى (٤٦٥٥) قامة . ومن أراد الزيادة فليراجع هـذا المقال فى كتاب [علوم الجميع] فى المجلد الثالث تحت عنوان [قاع البحر] باللغة الإنجليزية ، وما ذكرته الآن كاف فى هذا المقام . وأما اليابسة فاقرأ الكلام عليها عند قوله تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات » فى سـورة الرعد فى المجلد السابع . يقول الله «وحملناهم فى البر والبحر» أليس من العجب أن يكون عمق البحر قد يصل إلى مايقرب من (٤٦٠٠) قامة ثم نجد السفن تجرى فوقه ، فهذه حياة مستقرة على هاوية بعيدة الغور سحيقة مهلكة فأى عاصفة قلبت السفينة لم يكن لهويها فى البحر من قرار بل تسقط إلى ذلك البعد السحيق . فإذا حفظ الله حياة الناس فى هذه المهالك فذلك لرحمته ودقة صنعه وحكمته ثم تكريمه لبنى آدم الذين أراهم العجب ، فهم تارة يسافرون على الأرض وتارة يسيرون فوق الماء وآونة يطيرون فى الجو فيصلون إلى حد معين بطياراتهم وتقف عند ذلك الحد . ذلك هو أعظم التكريم بالنسبة لعالمنا الأرضى ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ زبرجدتان فى قوله تعالى ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾

(الزبرجدة الأولى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نظرت فى السماء ليلة الجمعة (١٤) أكتوبر سنة ١٩٢٧ الساعة الرابعة بعد نصف الليل فقلت يا ألله ما أحسن ما صنعت وما أجمل ما أبدعت . خلقت تلك الكواكب العظيمة الشاسعة الأبعاد العظيمة للقادر فما منها من كوكب إلا وهو أكبر من الشمس غالبا جرما وأكثر منها ضوءا وأبعد منها مرمى وأجل منها قدرا . ولقد حشرتنا فى أرضنا هذه لأننا لسنا أهلا بعد لأن نشاهد هذا الجمال الذى أبدعته وهـذا الحسن الذى زينته وتلطفت وأبدعت فأحضرت هذه الشموس العظيمة وأتيت بها من أقطارها الشاسعة وأصغرت أحجامها

وقلت

وقللت من نورها وكللت بها سماءنا ونظمتها فى جونا القريب الأسود ليلا الأزرق نهارا وجعلتها أشبه ببيض الطائر حجما وبهجة الدرة حسنا وبصيص الآمال فى لقائك رجاء . زينت سماءنا بشموسك ، تلك الشموس التى خلقت لها خلائق وأودعتها أمما تسكن فى سياراتها وأراضيها ، تلطفت بها فأسكنتها جونا القريب ورصعته بها وجعلتها حديقة جميلة تقرّ بها أعيننا ليلا . ذلك لأنك لطيف لما تشاء عليم حكيم تعطى الطفل لبنا من أمه على قدر طاقته حتى إذا بلغ أشده فتحت له باب الرزق من العوالم المحيطة به . فها نحن أولاء الآن فى الأرض كالأطفال لاقدرة لنا على مواجهة تلك الشموس الكبيرة خلقت عيوننا الأرضية مناسبة لعالمنا وصغرت هذه الشموس لتراها تلك العيون وتطيق التحديق إليها . وهاهم أولاء لما رأوها مناسبة لعيونهم ومنزلة لعقولهم جعلوها على شاكلة مالديهم فى الأرض فقالوا هذه المجموعة حمل وهذه ثور وهذه جوزاء وهذه سرطان وهذه أسد وهذه سنبلة وهذه ميزان وهذا جدى وهذا دلو وهذا حوت ، الله أكبر . ها هو ذا الإنسان درس نجوم السماء أى تلك الشموس العظيمة فلم يرها إلا دلوا ليستقى به الماء وإلا سنبلة فى حقول الأرض وحملا من الضأن وثورا يحرث عليه الأرض وميزانا يزن به الفاكهة والذهب والفضة وعقربا يفر منه وقوسا يرمى السهم عنه لمحاربة العدو وجديا ينتفع بلحمه وحوتا يجرى فى الماء ، ها هو ذا الانسان بفضل ربه أخذ عوالم الله التى لاحصر لها ونزلها إلى أرضه وجعلها مما يلائم حاله . الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا . اللهم إنك كبير عظيم تعاليت وعظمت فلم تعط الأطفال علوم الحكماء ولم تسمع الدواب وحى الأنبياء فأنت متكبر ومن هذه الصفة أنك تربأ بالنعم أن تعطى لمن لايستحقها فنحن فى أرضنا لا نستحق أن نرى هذه الحقائق بأعيننا فأنزلتها إلينا فى سمائنا مصغرة وأبقيت حقائقها مخزونة عندك فلم تعطها إلا بمقدار بحيث لايعرف بعض هذا أحد من الناس إلا بعد البحث والتنقيب . لماذا ؟ لأنك متكبر ولأنك حكيم ولأنك عظيم . فهذه الكبرياء التى جاءت فى كتابك « وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » قد تجلت فى معاملة نوع الإنسان إذا شيعت فيما بينهم وأذيعت فى مدارسهم أسماء البروج فرسمها قدماء المصريين على صناديق موتاهم (كما تقدم فى سورة يونس بالمجلد السادس من رسم البروج على صندوق حتر من قدماء المصريين فانظر ذلك الرسم هناك مصورا بالتصوير الشمسى) أصبحت أسماء الحمل والثور الخ شائعة بين النوع الإنسانى لاينكرها أحد ولا يغيرها مغير مع أنها صور خيالية لاحقائق لها ولكن هكذا نوع الإنسان فى الأرض كالطفل والنابغون منه الذين درسوا حقائق الشموس والأضواء هم الذين عرفوا ما أكتبه فى هذا التفسير ولكنهم لن يغيروا تلك المصطلحات العامة للتعليم العام . الله أكبر . هكذا كل دين نزل من السماء فيه من ضرب الأمثال مافى منظر السماء من تصغير الشموس فصارت حيوانات خيالية . العلم واحد . علم المبصرات وعلم المسموعات . نبصر شموسا عظيمة فنجعلها حيوانات أو نباتات نعيش بها ونسمع فى الكتب السماوية جنة ونارا ونعيما وجحيما فنتخيلها بما نشاهده فى الدنيا ثم نسمع الحديث النبوى «إن فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» . وهذا بعينه أشبه بما نراه إذ ظهر أن الكواكب التى جعلناها جديا ودلوا وسنبلة هى شموس لم ترها عين ولم تسمعها أذن الغافلين ولم تخطر على قلوب الجاهلين . أليس هذا الموضوع بعينه هو قوله تعالى هنا «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» كيف لا وأنتم لاتعقلون الشموس العظيمة ولاتعرفون حسابها ومنازلها إلا إذا جعلتها صغيرة فى أعينكم ثم ألهمت علماءكم فجعلوها بصور مالديكم من المشاهدات فى أرضكم . فهذا القليل من العلم فى جانب الحقائق فى كواكب السماء أشبه بما لديكم من العلوم التى أنزلتها فى الكتب السماوية والكتب العلمية عند نسبتها إلى الحقائق فى ذاتها قال تعالى « ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » . ونظير هذا قول الخضر لموسى إذ جهل علمه وعلم موسى عليهما السلام وعلم الناس بالنسبة لعلم الله بما أخذه الطائر بمقداره من ماء البحر . انتهت الترجمة الأولى .

(الترجمة الثانية في قوله تعالى أيضا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »)

اعلم أن العلم القليل المذكور كلما تعمقنا فيه زدنا علما بقلته، فالإنسان وهو على فطرته لا يعلم بقلة علمه إلا إجمالا ولكنه إذا درس وتعمق أدرك أن هناك أبوابا من العلم مغلقة وكلما فتح مغلقا أدرك أن وراءه أبوابا لم تفتح فيتسع الشعور بالجهل بنسبة اتساع المادة العلمية . وإذا أردت مثالا لذلك فهاك علم فلسفة الطبيعة . إن هذا العلم يبحث في المادة وصفاتها العامة والخاصة وعند التعمق نرى أمامنا مالا يتناهى ونحن به جاهلون وها أنا ذا بعون الله ذاكر لك نبذة صالحة تشرح صدرك وترى ذلك البرهان . اعلم أن المادة كل ما تشعر به بحواسنا وهي إما أن تحفظ حجمها وشكلها فهي الجامد وإما أن تحفظ حجمها ولا تحفظ شكلها فهو السائل أو لا تحفظ حجمها ولا شكلها فهو الجسم الغازي والأول كالحديد والذهب والثاني كالماء والزيت والثالث كالبخار والهواء . انظر إلى هذا التقسيم وإلى صنع القادر الحكيم . تراه أعطى المادة كل ما يمكن في عقولنا وعقولنا لا تتصور إلا واحدا من ثلاثة حافظ لحجم وصورة، غير حافظ لهما، حافظ للحجم دون الصورة، وهناك صورة رابعة وهي ما يحفظ الصورة ولا يحفظ الحجم وذلك مثل كل نام من حيوان ونبات فليس كالحجر ولا كالماء ولا البخار بل هو قسم رابع ولكنه ليس من الأقسام العامة في المادة بل هو داخل في قسم الجامد . هذه هي الأقسام التي يحصرها العقل وها هي ذه قد وجدت فعلا في المادة والإنسان إذا قرأ هذا يرى أنه عرف الإجمال . فانظر ماذا ترى . للمادة صفات عامة وصفات خاصة، فالصفات العامة هي التي لا يخلو منها جسم ما وأهم ذلك (ثمان صفات)

(١) الامتداد : وهو أن يشغل الجسم حيزا ومقدار الحيز الذي يملؤه الجسم يسمى حجما.

(٢) عدم التداخل : وهو كون الجسم لا يشغل إلا حيزا واحدا في وقت واحد فإذا حل جسم في مكان لا يمكن أن يحل غيره في ذلك المكان .

(٣) التجزؤ: وهو كون الجسم يقبل الانقسام فمهما كان الجسم صغيرا فهو قابل القسمة .

(٤) لكل جسم مسام كبيرة كما في الخبز والإسفنج أو صغيرة كالحديد والذهب .

(٥) الاستمرار ومعناه أن الجسم إذا حرك ولم يعارضه مايوقفه لم يقف . وإذا سكن ولم يجد له محركا يحركه لا يتحرك .

(٦) عدم فناء المادة إلا بأمر خالقها ونحن إنما نغيرها من حال إلى حال .

(٧) قبول الضغط : وهو أن تضيق المسام والغازات أقبل للضغط من الجوامد وهذه أسهل ضغطا من السوائل .

(٨) الثقل فكل جسم تراه منجذبا إلى مركز الكرة التي هو فيها .

هذه هي الصفات العامة للمادة بمعنى أن كل جسم متصف بهذه كلها . فالذهب مثلا يشغل حيزا وهذا الحيز لا يقبل غيره وهو يتجزأ وله مسام سنشرحها قريبا وإذا حرك على سطح أملس لا خشونة فيه ألبتة لم يقف وهذا على سبيل الفرض . وإذا تركناه في مكان لا يتحرك ألبتة . وإذا أذبناه في النار ذاب ولكنه لا يفنى ويمكن ضغطه ولو قليلا وهو ثقيل ومثله الماء والهواء والبخار ، أما الصفات الخاصة فهي ما يأتي :

(١) فهي كون الجسم يمكن سحبه شريطا وأكثر الأجسام قبولا لذلك الذهب والفضة والبلاتين ، أما مثل الزجاج والحجر فلا يمكن ذلك فيهما فلذلك كانت هذه الصفة ليست عامة .

(٢) قبول الطرق . وأشد المعادن قبولا للطرق الذهب وذلك لا يمكن في نحو الزجاج والحجر لذلك كانت هذه صفة خاصة أيضا .

(٣) الصلابة بحيث يعسر تفريق اتصاله أو مطه وأصلب المعادن الحديد .

(٤) المرونة: وهي رجوع الجسم إلى حاله الأصلية بعد ما يكون مضغوطا أو ممطوطا أو مفتولا .

(٥) القساوة وهى كون الجسم لا يذعن للضغط إلا بصعوبة كالذهب والحديد .
(٦) وقبول القصف بحيث يسهل كسر الجسم كالزجاج .
فهذه هى الصفات الخاصة وكلها ترجع لجاذبية الملاصقة وتكيفها بكيفيات شتى . وهناك أحوال أخرى
(١) مثل قوة الجذب والدفع بين دقائق الجسم .
(٢) والجاذبية العامة .
(٣) ومن أحوال الأجسام الساقطة ومركز الثقل ورقاص الساعة .
(٤) والكلام على الحركة ونواميسها والسطوح المائلة التى يرفع الحمل عليها .
(٥) والكلام على السوائل .
(٦) وعلى الهواء وعلى الصوت .
(٧) وعلى الضوء ونواميسه (٨) وعلى الحرارة .
(٩) وعلى الظواهر الجوية (١٠) وأشكال الماء ومنافعه .
(١١) والكهربائية (١٢) والمغناطيسية .

هذا هو مجمل أقسام الفلسفة الطبيعية التى يدرسها الناس فى الشرق والغرب وهى من القليل الذى عرفناه ويدخل تحتها علوم وعلوم وآلات وأعمال ينتفع بها الناس . هذا هو المجمل الذى أردت ذكره الآن .

فهاك بعض عجائبه فهو المقصود فى هذا المقام لأننا لسنا فى مقام علم الطبيعة بل فى تبيان بأى طريق نعرف أننا ما أوتينا من العلم إلا قليلا . أنت تعلم رعاك الله أن هذه المسائل التى ذكرتها لك قد قام بتعلمها جميع أهل الشرق والغرب فى الأمم المتمدينة وقد شغلت سائر الأمم وفرعوا عليها آلاف المسائل والآلات الزراعية والصناعية والانتقالية والبصرية . وهاهم أولاء يجدّون ولا نهاية للاختراع . فهذه المسائل المذكورات هنا أشبه بحروف المعجم أو بالأرقام البسيطة للحساب فهى عند تركيبها لا تقف عند حد . فالحساب لا منتهى لأعداده والكلام لا منتهى لتركيب كلماته . فحروف اللغة العربية وهى (٢٩) والإنجليزية وهى (٢٥) حرفا يمكن الإنسان أن يركب من كل منهما مالا حد له من الكلمات فهكذا هنا وهذا الذى ذكرته مجرد تنظير لتقريب المقام هذا ، ولأريك عجيبة من عجائب العلم ينظره الناس عادة وأكثرهم لايعلمون :

(١) قد ذكرنا فى الصفات العامة أن الجسم له مسام كبيرة وصغيرة كالإسفنج والفخار وكالذهب والحديد أفلا أريك العجائب فى هذا المقام ، قد أسمعتك الآن رؤوس مسائل وهى مجموع علم فلسفة الطبيعة ولكن لم تأخذ بلبك ولم تكن مما يشرح الصدر لأنها إجمال ولأنها أشبه بدروس التلاميذ تلقى إليهم وإن كانوا لا يغرمون بها ولا هم بها معجبين . أتدرى ماهذه العجائب . هى :

﴿ المسامّ ﴾

كل الناس يشاهدون الأحجار والطين والزجاج والذهب والفضة والحديد والنحاس. يشاهدونها، ولكن ليس يخطر لأحدهم أن تلك الجوامد المصمتة مفتحة الأبواب ليس دونها حجاب واسعة الطرقات كثيرة الحجرات.

هذا ، ولما وصلت إلى هذا المقام حضر ذلك العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى عويصات المسائل . فقال حياك الله . ماهذه السجعات والخطرات ؟ تقول مفتحة الأبواب ليس دونها حجاب . ماذا تريد بهذا ؟ أتريد أن تقول إن الحديد كالسفنج ؟ قلت كلا . قال فكالغرابيل ؟ قلت كلا . فهل أجزاء الحديد مثلا بينها متسعات كشوارع المدينة ؟ قلت أوسع . قال فكالفاصل بين البلدتين ؟ قلت كلا بل أوسع من ذلك . قال وهل هذا القول يقال فى تفسير القرآن ؟ أتفسر القرآن وتقول أيها المسلمون إن الحديد منفصل لا متصل وهكذا بقية المعادن وإن فيها فتحات وتلك الفتحات أوسع من الحقول التى بين القرى فى البلاد المصرية

وإنما كان هذا يقال فى التفسير تضيع الثقة لأن هذا إنكار للمحسوس وهل بعد تكذيب الحس من ضلال : قلت كم للحس من غلط وقد غلط الحس فى قوله ليس هنا فتحات وصدق فى فتحات الخبز والسفنج فقال ربما كان ذلك ولكن هذه المبالغات التى تخالف العقول تذهب بثقة الناس بالمؤلفين . قلت له لقد برهنوا على هذه المسامّ بما يأتى :

(١) نملأ كأسا ماء ونزيده ملحا ثم سكرا فإننا بعد هذا كله لانرى الماء زاد ألبتة لأن دقائق السكر أصغر من دقائق الملح ودقائق الملح أصغر من دقائق الماء ؛ فدقائق الماء كالبطيخ والملح كالليمون والسكر كحبات القمح فالليمون يذهب بين البطيخ ولا يكبر حجمه وحب القمح يسعه الليمون بين وحداته .

(٢) أخذ بعض أهل (فلورنسا) بإيطاليا كرة مجوفة من الذهب وملأها ماء ثم سدها سدا محكما وضغطها من الخارج فتسطحت قليلا وصغر حجمها فخرج الماء من مسامها وتجمع على سطحها كالندى .

(٣) إن الذين يجربون المدافع الكبيرة يضغطون الماء فيها حتى يرتشح من مسامها ويصير زبدا على سطحها ثم يجتمع ويقطر عنها .

(٤) الأعمدة الحجرية والقناطر تضغط أحيانا فتقصر إذا كانت تحت بناء عظيم لزيادة ثقله وقد تقدمت فى سورة آل عمران فهل كفاك هذا فى أن لها مسامّ ؟ قال هذا كافينى ولكن المبالغات المذكورة هى التى تخالف كل عقل . قلت إن القوم بحثوا ودققوا كما رأيت أن دقائق السكر أصغر من دقائق الملح ودقائق الملح أصغر من دقائق الماء . فإذن دقائق الماء أكبر وقد رأيت أن دقائق الماء قد اخترقت دقائق الحديد والذهب وهذا الاختراق معناه أن الفتحات تسع ذرات الماء وهذا الاتساع بحثوا فيه وفى الذرات المحيطة به فظهر لهم ما يأتى قالوا (لو تصورنا أن فى المسام حيوانا صغيرا جدا جدا بحيث يعيش على جوهر من الجواهر كما يعيش إنسان منا على الأرض وفرضنا أن ذلك الجوهر واقع فى وسط حجر لكان الحيوان المشار إليه يرى أقرب الجواهر إليه بعيدة جدا عنه كما نرى نحن الشمس والقمر والنجوم وربما كان يحتاج لمعرفة تلك الجواهر إلى مناظير كبيرة كما نحتاج نحن إليها لمعرفة الأجسام السماوية فيظهر بهذا المثال اتساع المسام بالنسبة للجواهر انتهى كلامهم) . ثم قلت إن بعد الشمس المتوسط عن الأرض يعادل تقريبا قطر الأرض (١١٦٥٠) مرة فقتضى كلامهم أن يكون بين الجوهر والجوهر فى الحديد والذهب مسافة تبلغ مقدار أحدها ١١٦٥٠ مرة هذا معنى كلام أولئك العلماء وقد قالوه ولم ينكر أحد منهم هذا بل أقروه والناس لايقرون مثل هذا إلا إذا كان واضحا لديهم أجمعين . هذا شأن جميع العلوم . فإذن هذا أشبه باليقينيات لإجماع الأمم عليه . أفلست بهذا ترى أن الأجرام الجامدة وغير الجامدة أمرها عجب وأن ماتراه مصمتا هو خاو وكلها مسالك بل يكاد يكون أشبه بالخلاء الذى قلت الأجسام فيه وهذا مما يحير العقول ويدهش الألباب ، فأمثال الحديد والذهب على هذا المنوال فهذا أمر عجب وهو من أدل الدلائل أن العلم لانهاية له وأن علمنا قليل . فقال أريد بيانا أزيد من هذا . قلت قد تقدم بعضه فى أول (آل عمران) . فقال أريد ما يقرب منه هنا . فقلت إن رأى العلماء اليوم أن المادة مؤلفة من جواهر غاية فى الصغر ولكل جوهر شكل ولون وثقل وأنها تبقى على حالها فلا يلحقها تغير طبيعى ولا كيماوى وهذه الجواهر لم يرها أحد ولابرهان محسوس على وجودها وإنما هى توافق العلوم لا سيما الكيمياء ولذلك أجمع العلماء على قبولها ويستعان على تصورها بهذه الصفة :

(١) إن بعض الحيوانات لشدة صغرها لا ترى بالعين المجردة وهناك آلاف الآلاف منها تعيش فى نقطة واحدة صغيرة من الماء تعلق برأس الإبرة مثلا وتنمو هناك وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البر فى القفار وحيوانات الماء فى البحار ويسطو بعضها على بعض ويقاتل ويفترس بعضها بعضا كالكواسر والجوارح وهى فى المستنقعات أيام الصيف وتصعد فى البخار بحرارة الشمس وتطير فى الجو مع الهباء ثم تعيش وتتكاثر حيثما

نزلت

نزلت ووافقها الرطوبة والحرارة . وهناك فى سورة [آل عمران] زيادة فارجع إليها وكفاك ما هنا .

أفليس هذا معناه « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وأىّ علم عندنا إذا كانت قطرة فيها آلاف الآلاف من المخلوقات ونحن لا نراها وكل حيوان منها له معدة أو أكثر لهضم طعامه والاغتذاء به وأن طعامه بعد أن يدخل معدته لا يغذيه إلا بعد ما يدور فى قنوات كثيرة فى جسمه وطعام الحيوان مؤلف من دقائق سائلة وأخرى جامدة مثل ما نرى فى الحيوان الشاهد وكل دقيقة مؤلفة مما هو أصغر منها وهكذا فأصبحت تلك الحيوانات التى لا نراها عالما جديدا لا ندرى ما وراءه وربما كان فى باطنه حيوانات ذرّية كما نشاهد فى الحيوان الذى نراه هنا . ونحن فى حيرة فلا الصغير أدركنا صغره ولا الأجرام العظيمة من الشموس والكواكب أدركنا نهايتها .

هذا تفسير قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وقوله « لقد خلقنا الإنسان فى كبد » أى نصب وتعب لأنه بعد هذا النصب كله أصبح جاهلا جهلا حقا ، وقوله « وما ننزله إلا بقدر معلوم » فهو لا يعطينا العلم إلا على مقدار طاقتنا ، وقوله « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » انتهى والحمد لله رب العالمين

(حادثة عجيبة فى الطيارات)

أنا أكتب هذا فى صباح يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، ولما وصلت إلى هذا المقام ذكرت ما اتفق لى أمس . ذلك أن بعض الشبان قتلوا رئيس الجيش الانجليزى والمصرى وهو حاكم السودان من قبل الحكومة الانجليزية والمصرية . وقد ارتجت بلادنا من أقصاها إلى أقصاها لوقوع هذا الحادث لأن بلادنا المصرية قد أعطى لها الإنجليز استقلالا ويراد تسوية الأمور بيننا وبينهم . فلما وقع هـذا الحادث اختلطت الأمور والناس فى ذهول عميق . فبينما أنا فى الغرفة إذ سمعت أصواتا فى الجو فقمت ووقفت خارجها إذا هناك طيارات تتلوها طيارات وهى محلقة فى الهواء على هيئة طيور ذوات أجنحة وذيول ورؤوس تقليدا لطيور السماء ، وطال الأمد على وقوفى وهى تمر مثنى وثلاث ورباع وخماس احتفالا بدفن ذلك الحاكم الكبير الذى أقام انكلترا وأقعدها كما أقلق مصر وأخافها وأنا شاخص إليها أراقب حركاتها وأسمع أصواتها وهى تحلق فوق البيوت لغرضين : الأول : الاحتفال بالجنازة . والثانى : ليقولوا للمصريين انظروا انظروا هذه طياراتنا قد ملكت السماء عليكم وسددناها فى وجوهكم فالبحر من ورائكم فيه أساطيلنا والجو فوقكم فيه طياراتنا فإلى أين تفرّون . هذا ما يقصدون .

(لغة الطيارات التى فهمتها)

أما أنا فكنت أسمع غير هذا . كنت أسمع أننى الآن أكتب فى التفسير وهناك أناس مثل يكتبون لرقىّ المسلمين ، وكأن تلك الأصوات تقول بلسان فصيح سيكون فى هذه الأمة الإسلامية رجال غير ما ترون وسينشر هذا الكتاب ويكون من ورائه ووراء أمثاله ما يرقى هذه الأمة ويكسبها حركة عظيمة وسيعود الإسلام كما بدا أى ينتشر انتشارا غريبا وليس الانتشار هو كثرة الأتباع فلا فائدة فى أتباع أذلاء بل سيكون هذا الإسلام أمره غريب جدا وسيظهر فيه أناس بارعون فى جميع الصناعات ويعملون أعمالا يعجز عنها الأوروبيون ولكنهم يكونون خدام الإنسانية ، خدام الحضرة العلية ، خدام الحق ، خدّام الحكمة يربون العالم تربية علية ، ويكونون صلة بين الأمم المختلفات . هذا هو الذى فهمته من غرير الطيارات ، وأنا لا أقول تكلفا ولا أذكر إلا ما خامر قلبى وتلقاه فؤادى . فالأمة الإسلامية سيكون بها أناس أبرع فى هذه الصناعات من جميع الأمم يؤدبون العاصين ويرفعون المدنية الجاهلة إلى أوج الكمال وتكون دعوتهم الدينية مبنية على الاقناع ولا يستعملون السلاح إلا للفضيلة وتربية الأمم تربية علية لأنهم يحبون الله حبا جما فيعملون لصالح عباده

والخلق كلهم عباد الله . هذا هو الذى فهمته من الطيارات الطائرات الانجليزيات . وهذا هو الذى فهمته فى قوله تعالى « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا » وإنما الأمور بالاستعداد والعمل، والحمد لله رب العالمين .
ولنذكر هنا أربع لطائف :

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « إن قرآن الفجر كان مشهودا »)

أى يشهد معناه المصلى ويطالعه ويحضر فيه قلبه ونفسه إذ ذاك فارغة عقب النوم فهى مستعدة الفهم والخلق المعانى لا سيما وقد تجلى الله على الناس بالصبح منبع الأنوار المشرقة الفائضة على الآفاق فتذكر النفس بالجمال والبهاء وإنما ذكر هذه الجملة لأنه لا معنى للصلاة إلا بحضور القلب ومطابقة القلب للسان وموافقته له كما قال فى آية أخرى « إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا » أى أشد موافقة بحيث يوافق القلب اللسان موافقة أشد وأبين قولا . فهذا هو المعنى المقصود من قوله تعالى « مشهودا » وأما الحديث فانه ذكر بعض لوازم حضور القلب من الانتفاع بحضور الملائكة للالهام فيلهمون المصلى المعانى وترسم فى نفسه عند صلاته

(اللطيفة الثانية « ويسألونك عن الروح »)

(اللطيفة الثالثة « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين »)

(اللطيفة الرابعة زيادة مبحث فى القسم الأول فى قوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »)

هذه اللطائف الثلاث يتجلى لك نورها وتشرق شمسها وتبهرك بحسنها وتراها عروسا حليت فى حبر قد ازينت للناظرين وقالت هيت لك للعاشقين فهاك غادة هيفاء، وكاعبا غيداء، وعقيلة حوراء، أزفها إليك باسمة الثغر حالية المنطق عذبة المورد شارحة الصدر مرقية العقل جالبة الأنس بمنطقها الرخيم وبيانها الفصيح فلأزفها إليك ساعية إليك لم تجشمك مهرا إلا قبولها ولا نفقة إلا وصالها وهى مبتهجة بحليها وحلاها تختال فى غلائلها السندسية وأثوابها العبقرية .

فأقول نقلا من [كتاب الأرواح] الذى ألفته منذ بضع سنين ولا أحيلك عليه بل أذكر منه ما يناسب المقام لترى جمال الاسلام قد أوحى به إلى الأنام، ولتعجب أيها الذكى كيف أشرقت أنوار الله على عباده وأخذ بنوره يتجلى على المخلوقات الإنسانية فأظهر الأرواح وأقامها من برازخها تصل السرى بالسرى لتقابل الأحياء فتريهم أن وعد الله حق وأنهم أحياء فعلا وأن الأبرار والفجار بعد الموت هم هم الذين كانوا نراهم فى الدنيا، ولقد ذكرت لك بعضا من هذا الكتاب فى سورة البقرة مما يناسب المقام هناك فلأزدك الحقيقة الناصعة لترى أن الحياة الأخرى موجودة فعلا وأن الناس لم يموتوا إلا أجسامهم وأن أرواحهم تطالع ما كسبت فى حياتها وأن العذاب والنعيم حاصلان فعلا فى الدنيا وفى الآخرة وهنا يظهر لك سر هذه السورة وكيف تكرر فيها ذكر النفس وأنها تطالع أعمالها ويكشف عنها غطاؤها وأن للملائكة لا يستطيعون المشى على الأرض .
وبالجملة هذا الموضوع سترى فيه معجزات القرآن فى آخر الزمان وهذه هى المعجزات الكبرى التى وعدها الله إذ قال سبحانه « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » أما آيات الله فى الآفاق فهذا الكتاب مملوء منها، وأما آياته فى أنفسنا . فها أنا ذا أتلوها عليك من الكتاب المذكور بعد أن ذكرت مسألة الروح فى سورة البقرة ومباحث العلماء فيها ومباحثى أنا أيضاً عند قصة العزير وحماره وإبراهيم وطيره الذى فرقه على الجبال ثم دعاه فأقول : جاء فى هذا الكتاب ما يأتى وهو تبيان اللطيفة الثانية والثالثة .

﴿ فصل فى طرق إحضار الأرواح ﴾

قال شير محمد : قد فهمت تاريخ مناجاة الأرواح بأوروبا وقد شاقنى هذا إلى أن أعرف كيف أحضرت وإذا كانت العلوم الرياضية والطبيعية قد صدقها الجهال لعلمهم أنهم إن سلكوا السبل التى سار عليها المهندسون

وعلماء

وعلماء الحساب والطبيعة وصلوا إلى النتائج التى وصل إليها أولئك الأعلام حق لنا أن نسأل عن الطرق التى سار عليها علماء الأرواح فى أوروبا حتى إذا اعتورنا الشك فيما أخبرونا به مما لم نحط به علما سلكنا سبيلهم ليحق الحق ويبطل الباطل عند المحققين. فقلت اعلم يا شير محمد أن الطرق التى اطلعت عليها فى كتبهم ست وسأوضحها جهد طاقتى ولا أخرج عن دائرة النقل مما يكتبون (الطريقة الأولى) لا بد من قراءة الفصل الآتى أولا فى آداب المحضرين، فمتى عملت به فلتجلس أنت وأصحابك أو أهل منزلك حول مائدة ذات ثلاثة أرجل وتضعوا أيديكم عليها غير متكئين بقوة وقد لامست يد كل واحد منكم يد الآخر واتصلت بها ثم يدوم ذلك لا تزيد عن ربع ساعة فإذا لم تتحرك فليعد إلى العمل فى اليوم الثانى وهكذا كما سيأتى فى الفصل الآتى، ومتى تحركت فلتسألوا الروح الحاضر أن يرسل لكم من تريدون من أصدقائكم أو أساتذتكم، ومتى حضر فهنا طرق تتفقون عليها معه لأنه إما أن يقال له ان الجواب نعم بضربة أو بضربتين وهكذا وإما أن يقال يكون الجواب كتابة فتكون الألف ضربة والباء ضربتين والتاء ثلاثة وإما أن تنطق حروف الهجاء (ا ب ت الخ) والحرف الذى تضرب المائدة عنده يكتب ثم تكتب الحروف فتكون ذات معنى وهناك يحصل كثير من التهويش والتخليط عند المبتدئين كما فى الفصل الآتى (الطريقة الثانية) تجلس أنت وأصحابك أو أهل منزلك وقد وضعتم فنجانا فوق المائدة مثلا وقد كتبتم حروف الهجاء واضحة جلية حسنة الخط فى ورقة لطيفة وجعلتم هذه الورقة محيطة بهذه المائدة ويكون الفنجان فى وسط المائدة مقلوبا وقد وضعتم أصابعكم على قاعدته ويدوم ذلك ربع ساعة كما تقدم فإن لم يتحرك فليعد العمل وهكذا أسبوعا أو شهرا إلى ستة شهور كما سيأتى فى الفصل التالى ولتكن أنت رئيس القوم ولتفكروا جميعا فى روح صالحة حاضرة فى المكان أو تريدون إحضارها ومتى حضرت فاطلبوا منها أن تعرف اسمها فيتحرك الفنجان والأصابع موضوعة عليه بطريق الملامسة بلا ضغط ويتجه إلى الحروف حرفا حرفا فتكتب تلك الحروف وتقرأ وتكون مفهومة معقولة وقد يحصل تهويش وخلط عند المبتدئين لتداخل أرواح سفلية وإذن تكف حالا عن العمل ثم عاد مرة أخرى ولا بد من الصبر والثبات (الطريقة الثالثة) إن الأرواح أنفسها لما رأت أن فى تحريك المائدة واستخراج الحروف بطرقها صعوبة وضياعا للزمن أشارت بما يأتى: وهى أن تأخذ قطعة صغيرة من الخشب مثلثة الزوايا تجعل لها ثلاث قوائم صغيرة منتهية بدواليب صغيرة وتربط بإحداها قلما من الرصاص وتضعها على صحيفة من الورق فلما فعلوا ذلك ووضع الوسيط يده على هذه المنضدة الصغيرة أخذ القلم يتحرك فخط أحرفا ثم جملا وبعد ذلك أخذت المائدة تكتب بسرعة زائدة وتحرر رسائل مطولة (الطريقة الرابعة) أن يضع الوسيط يده على الورقة وهو ممسك القلم فيستولى عليها الروح ويحركها بذاته ويسمى هذا كتابة آلية لأن الكاتب إذ ذاك لا يدرى ما تخطه يده. ولقد جاءتهم كتابات ورسائل بلغات مختلفة وعجائب من الصور وبدائع من النقش ومن العلوم المختلفة (الطريقة الخامسة) أن توضع الورقة فى علبة مختومة ويضع الوسيط يده خارج العلبة ولما فعلوا ذلك خرجت مشحونة بالكتابة والتصاوير الجميلة (الطريقة السادسة) أن تظهر الأشباح والأنوار وصور أيد بشرية نورية ووجوه مستنيرة لامعة ويدعى القوم أنهم لمسوا الأشباح أخيرا بأيديهم. ولا جرم أن هذا لا يكون إلا بطريقة التنويم المغناطيسى. قال شير محمد: أأجريت بنفسك هذه الطرق الست أم هذا مجرد نقل؟ قلت بل مجرد نقل، قال أراك فى هذا أشبه بمن يصف للناس علم الكيمياء القديم التى يزعم القوم أنها تكون الذهب فتضر للمسلمين بلا فائدة. فقلت إن الإنسان قد يصف المزارع والأشجار والأنهر والبحار والأرض وهو لم يصنع شيئا من ذلك. فقال وهل شاهدت شيئا من هذا؟ قلت نعم قد شاهدت قد قيض الله لى من عمل الطريقة الأولى والثانية وأنا جالس بالقرب منهم وهم قوم صالحون. وهذا كان عندى من العجب لأنه كان أثناء تأليف الكتاب فإنهم طلبوا أناسا منهم روح الأستاذ الإمام الغزالى فتحرك

الفنجان إلى الحروف بهذه العبارة (مسكين شاب عرف الله ولم يهم شوقا إلى جماله) ثم سألته مسائل أخرى لا يعلمها الحضور فأتت الأجوبة مطابقة فعجبت أشد العجب . فقال شير محمد : لعل أعصابهم تأثرت بما فى ذهنك أو بما عندهم من السلاح فجاءت العبارة على مقتضاه . فقلت يا شير محمد هذا هو الذى أريد من الناس أن يمحوه ولست أقطع فى العلم بل هذا يعوزه جماعات وقوم عندهم استعداد « وما على الرسول إلا البلاغ » انتهى .

(أمثلة على ما تقدم)

(المثال الأول) وهاك حادثة مدهشة . وذلك أنه فى سنة ١٨٧٣ ذكرت جرائد أوروبا وأمريكا حادثا مدهشا ، وهو أن المؤلف الإنجليزى (ديكنس) فاجأته المنية فى مدينة لندن سنة (١٨٧٠) م قبل تتمة روايته الأخيرة المدعوة (أسرار ادوين برود) فأتمها بعد موته على يد الوسيط الأمريكى (جيمس) فى مدينة (بوستون) وذلك أن (جيمس) كان غلاما صانعا قليل العلم يقضى أيامه فى العلم وإتقان حرفته فحضر فى إحدى ليالى (تشرين الأول) سنة ١٨٧٢ جلسة روحانية تجلى فيها روح (ديكنس) وطلب أن يكون (جيمس) وسيطا يتم به روايته فقبل (جيمس) وصار يجلس فى كل ليلة فى نحو الساعة السابعة وتتحرك يده وهى تكتب فى القراطيس أقوالا لا يعلمها ودام على ذلك سبعة أشهر أكمل فيها الرواية بألف ومائتى قرطاس . ولقد شهد رجال الصحافة عموما أنه يستحيل على القارىء أن يميز بين ما كتبه (ديكنس) قبل موته وبين ما كتبه الوسيط (جيمس) بعد موته أقل اختلاف لا فى الإنشاء ولا فى الخط ولا فى نسق الرواية حتى إن الأغلاط الإملائية التى كان المؤلف فى حياته يعتادها ثبتت كما هى . ولقد جاءت مقالات فى الفلسفة والعلوم والفنون والتاريخ واللغات الأجنبية كتبتها الأرواح على أيدى فتيان حديثى السن أو فتيات ساذجات لا يحسن القراءة (المثال الثانى) قال : فى المذهب الروحانى إن الأرواح قد أشارت إلى واسطة أسهل من المائدة لمخابرتهم وهى أن يمسك الوسيط بيده قلما ويضعها على قرطاس فيحس بعد ذلك بيده قد تحركت من نفسها وأخذت ترقم نقطا وخطوطا ثم أحرفا تتألف منها المقالة الروحانية وهاك كيفية ما ملك الدكتور (سرباكس) الألمانى الوساطة الخطية بعد أن عزم على استجلاء الحوادث الروحانية فى بيته وما بين آله دفعا للاحتيال فبعد أن أقام تسع عشرة جلسة بدون نتيجة تذكر قال ما ترجمته (فى هذه الجلسة الأخيرة وهى العشرون شعرت فجأة وبالتوالى بإحساس غير مألوف من الحرارة والبرودة ثم بريح باردة جرت على وجهى ويدى فاعترى ذراعى الأيسر نوع من الخدر لا مناسبة بينه وبين التعب الذى كان يعترينى فى الجلسة فكانت يدى مخلفة على نوع القول لا تقوى إرادتى على تحريكها وبعد هنيهة شعرت بقوة أجنبية تحركها بسرعة لم أكن أقوى على تثبيطها ثم أحضرت لى امرأتى ورقا وقلم رصاص ووضعتهما على المائدة فوثبت يدى اليسرى على القلم وأمسكته وبدأت تخط فى الفضاء إشارات لا معنى لها وبسرعة عنيفة أجبرت مجاورى على التخلف للوراء وبعد ذلك انقضت يدى على الورق وضربت بعنف حتى انكسر القلم ثم انحطت على المائدة وجمدت فتأكدت أنه ليس لإرادتى دخل لا فى الحركات التى أحدثتها يدى ولا فى حالة السكينة التى صارت إليها فيما بعد وبعد أن برى القلم من جديد ووضع أمامى أمسكته يدى وأخذت تتلف أوراقا جمة مالئة إياها شطوطا وتقاطيع إلى أن هدأت بعد هنيهة ورأيناها تكتب تمرينات خطية يبدأ بها صبيان المدارس أى خطوطا بسيطة فى الأول ثم أحرفا هجائية وكل ذلك بسرعة عجيبة وبعدها هدأ اضطراب ذراعى وشعرت من جديد بريح باردة مرت على يدى فعادت إلى أصلها وتبدد منها كل ضرر وتعب فسررت جدا بهذه الجلسة لتأكدى فيها ظهور قوة لا تعلق لها بإرادتى ولا فى وسعى مقاومتها ، وفى الليلة الثانية قمنا من جديد إلى العمل وما مضت خمس دقائق حتى شعرت بالريح الباردة والأعراض ذاتها التى تمت فى الجلسة السابقة فكانت يدى اليسرى تهتز بعنف متزايد وتطرق أحيانا طرف المائدة طرقات شديدة مترادفة حتى ظننت أنها قد سلخت إلا

أنى لم أرفها بعد الجلسة أدنى خدش ولا اعترانى فيها أقل وجع ثم تمرنت وساطتى فى الجلسات التالية وتكاملت بسرعة حتى صارت يدى اليسرى تكتب مقالات شتى للأرواح، وفى إحدى الليالى صورت ثلة من الزهور فى منتهى الإتقان ولا حاجة للقول إنى لا أستطيع أن أستعمل يسارى حتى فى الأكل فكيف فى الكتابة . وأما التصور فليس لى إلمام بأصوله ولو بيدى اليمنى، وقد تأكدت تأكيدا لاريب فيه أن القوة التى كانت تستعين بيسارى الكتابة والتصور كانت خارجة عنى ولا تعلق لها بإرادتى وكنت فى حال الكتابة على أتم الانتباه لا أشعر من نفسى بغير خدر يدى وتسلط غريب عليها بمعزل عن اختيارى . والدليل على ذلك أنى كنت فى حال الكتابة أخاطب رفقائى وأطارحهم الحديث دون أن تتوقف يدى عن الكتابة ولا أدرى ماتخط .

وقصد أحد الحضور فى جلسة أن يوقف يدى فوضع عليها يديه وارتفع جسمه حتى وقع كل ثقله عليها فبقيت مع هذا تتحرك للكتابة بقوة ونظام كأنها ليس عليها شىء وأنا لا أحس بالثقل الواقع عليها)

قال فى الكتاب المذكور أحببنا الملاحظات التى نشرها الدكتور (سرياكس) لأنها تحتوى على الأعراض التى تعترى كل وسيط كاتب فى أول وساطته فضلا عما لصاحبها من الشهرة فى العلم والكفاءة واهتدائه إلى الروحانية باختباره حوادثها فى نفسه (المثال الثالث) قال فى الكتاب المذكور قال العلامة (وليام كروكس) فى الوساطة الخطية (كثيرا ماشاهدت الآنسة [فوكس] وهى الوسيطة تكتب مقالة روحانية لأحد الحضور فى حين أن مقالة أخرى وفى موضوع آخر كان يتلقها آخر بواسطة طرقات المائدة الواضحة الوسيطة يدها عليها. وفى الوقت نفسه كانت الوسيطة تكلم إنسانا ثالثا بكل سهولة وانتباه فى موضوع مخالف للموضعين الآخرين)

قال (ولا جرم أن الوساطة الخطية أكمل وأسهل طريقة لمناجاة الأرواح ولنيلها يبذل المتدئون جهدهم خصوصاً لأنهم يتمكنون بها من تمييز الأرواح واستجلاء بواطن أفكارهم وتقدير درجة ارتقائهم)

﴿ الأرواح تكتب بلا أقلام ﴾

(المثال الرابع)

قال البارون (جيلد نستوبه) فى كتابه عن حقيقة الأرواح فى أول شهر (آب) سنة ١٨٥٦ مايأتى :

(خطر لى أن أجرب كتابة الأرواح من غير يد الوسيط !! قرأت فى كتاب موسى عن كتابة الوصايا العشر وفى سفر دانيال عن الكلمات السرية التى خطتها يد غير منظورة فى وليمة بلتشاصر وما قرأته عن أسرار (أستراقور) الأمريكى فى هذا الموضوع فوضعت ورقا أبيض وقلم رصاص فى علبة أقفلتها ووضعت المفتاح معى ولا علم لأحد بما فعلت وفى اليوم الثالث عشر من شهر آب سنة ١٨٥٦ رأيت حروفا سرية مكتوبة فدهشت وعجبت أشد العجب وكررت العمل فى ذلك اليوم عشر مرات فكلل مسعاى بالنجاح وفى اليوم الثانى كررته عشرين مرة والعلبة مفتوحة أمامى وأرى الحروف والكلمات تسطر أمامى بلا قلم فصرت بعد ذلك أضع الورق أمامى على المائدة فتسطر المقالات عليه بيد غير منظورة)

بهذا العمل نفسه حظى الكونت (أورش) برسالة من أمه المتوفاة بالخط والإمضاء نفسه الذى كان لها فى حياتها على يد البارون المتقدم . وقد جرب مثل هذا العلامة (والاس) وكذا العلامة (أكسون) من جمعية العلماء فى (أكسفورد) والعلامة (زولنر) الألمانى والدكتور (جيبيه) الافرنسى والمعلم (أويت كوليس) الأمريكى فى مؤلفاتهم بعد الاحتياط الشديد لرفع الريبة ونفى الشبهة والاثبات واليقين (المثال الخامس) روى المشترع الفقيه (سارجان كوكس) ماتعريبه : كثيرا مارأيت غلاما صيرفيا وهو وسيط عار عن كل علم وتهذيب يجادل عند استيلاء الروح عليه قوما من الفلاسفة فى مسائل المنطق ومعرفة الغيب والارادة والقدرة وغالبا كان يفحمهم بأجوبته السديدة، وأنا نفسى ألقيت عليه يوما بعضا من معضلات علم النفس فحلها لى ببراهين قاطعة وألفاظ فى منتهى الرقة والفصاحة مع أنه فى حالته الطبيعية لايدرى ماالفلسفة ولايجد ألفاظا يعبر بها عن

(أفكاره الصغيرة) ، (المثال السادس) روى العلامة (والاس) فى تكلمه عن أعمال الحاكم (أدمون) الأمريكى ما يأتى : إن ابنة الحاكم المدعوة (لاورا) أصبحت فيا بعد وسيطة متكلمة وصارت تنطق بلغات أجنبية لاتعرف هى منها شيئا وكثيرا ما خاطب أصحاب الحاكم موتاهم على يدها وبلغاتهم الخصوصية . واتفق مرة أن نطقت بعشر لغات فى مدة ساعة فقط منها الأسبانية والإفرنسية واليونانية والإيطالية والبرتغالية واللاتينية والهندية والإنجليزية وغيرها من اللغات التى كان يجهلها الحضور (المثال السابع) هو وبعض ما تقدم خاص بالتنويم المغناطيسى وبعضها يتيسر لجميع الناس بلا تنويم على شرط المثابرة والصبر والاحترام والالتجاء إلى الله عز وجل فلنختم بهذا المثال فنقول : قال فى المذهب الروحانى لابد لأهل الشك أن ينسبوا إلى الأحاديث الخرافية كل الوقائع التى أتينا على ذكرها رغما من ثبوت صحتها وصدق رواتها زاعمين أنه لابد أن يكون للتخيل الوهمى والمبالغة النصيب الأوفر فيها ولكن هل يثبت شكهم إزاء حوادث من هذا النوع تمت فى معمل وحيد العصر وخيرة علماء انكلترا أعنى به (وليام كروكس) إن ضيق المقام لا يمكننا من تفصيل الامتحانات التى أقامها على يد الوسيط هوم والآنسة (فلورنس كوك) فنكتفى بتخليص بعض الأندية التى فيها تجسمت الروح المدعوة (كاتى كينج) وظهرت عيانا للحضور قال العلامة المذكور فى كتابه المدعو [مباحث الروحانية] كنت أقيم الجلسات فى معملى ذاته والمكتبة التى ينفذ إليها أجعلها الحجرة السوداء التى تدخلها الوسيطة لالقائها فى السبات ومنها يظهر خيال الروح بعد إضعاف النور . وقد قال فى الكتاب المذكور كانت (كاتى كينج) هذه روح حى من عالم الغيب تجلت فى البدء بهيئة بخار يظهر فى الظلمة ولا يقوى على تحمل النور ولكنها تدرجت شيئا فشيئا إلى أن تجسمت فى وسط الأشعة الكهربائية وفى معمل عالم كبير تنزه عن الجهل والغش . ثم قال العلامة المذكور لم تظهر (كاتى) قط ظهورا واضحا كهذا فإنها لبثت زهاء ساعتين تتمشى فى الغرفة وتكلم بدالة كلا من الحضور ثم أخذت مرارا بذراعى لنتمشى معا . وناهيك ماتولانى من التأثر عند معرفتى أنى أماشى زائرا من عالم الغيب لا امرأة حية ثم قالت (كاتى) إنها تستطيع فى هذه المرة أن تجلى مع الآنسة (كوك) وهى الوسيطة فأطفأت نور الغاز وأخذت مصباحا من الزيت الفسفورى ودخلت الحجرة السوداء فوجدت الآنسة (كوك) ملقاة على المقعدة فاقدة الحراك فجثوت بجانبها وأدنيت المصباح منها فألفيتها لابسة حلة من المخمل الأسود ثم رفعت المصباح ونظرت إلى ما حولى فرأيت (كاتى) واقفة إزاء الوسيطة لابسة حلة بيضاء ضافية الذيل ثم أمسكت ثلاث مرات يد الآنسة (كوك) لأتحقق أنى ممسك يد امرأة حية ورفعت مصباحى ثلاث مرات نحو يد الآنسة (كاتى) لأفحصها بدقة وأتأكد أنى أعاين حقا أمامى من كنت أتمشى معها ويدى فى يدها منذ بضع دقائق ثم تحركت قليلا الآنسة (كوك) فأوعزت (كاتى) حالا إلىّ بالذهاب فخرجت من الحجرة وبعد قليل استيقظت الوسيطة بعد أن توارى خيال (كاتى) وأعدنا مصباح الغاز إلى ما كان عليه ، ثم أخذ العلامة المذكور يقارن ما بين الآنسة (كوك) الوسيطة والآنسة (كاتى) المتجلية فكان الفرق فى اللون واللمس والطول وثقب الأذن والنبض والشعر والرئتين . فالآنسة (كاتى) كانت ذات شعر ذهبى ووجه أبيض ناصع وعنق ناعم اللمس وقوام أطول وأذن غير مثقوبة ونبضاتها ٧٥ فى الدقيقة والرئة أكثر اعتدالا . فأما الآنسة (كوك) فإنها ذات شعر كأنه أسود ووجه أسمر وعنق فى بعضه خشونة وأذناها مثقوبتان وطولها أقصر قليلا ونبضاتها ٩٠ فى الدقيقة وفى رئتها زكام . ثم وصف العلامة المذكور آخر جلسة للآنسة (كاتى) وذكر فيها عجائب لا يستطيع الخيال فضلا عن العقل تصورها ، فعلى من عندهم قوة على هذه الأعمال أن يجربوها فى بلادنا حتى نوقن بما يقولون . يقول إن الآنسة (كوك) وهى الوسيطة دخلت الحجرة الساعة السابعة والدقيقة ٢٣ مساء وفى الساعة السابعة والدقيقة ٢٨ سمعنا صوت (كاتى) وفى الدقيقة ٣٠ تجلت وظهرت بحلة بيضاء قصيرة الأكمام وعنقها مكشوف وشعرها منسدل حتى خصرها ووجهها مبرقع بخمار طويل

لم تنزعه إلا قليلا ثم أخذت (كاتى) تكلمهم عن رحيلها القريب وقدم لها أحد الحضور باقة من الزهر فقبلتها ثم قعدت على الأرض وأقعدتنا حولها وأخذت تفرق الزهور علينا وحررت رسائل لأصحابها ومنها رسالة للآنسة (كوك) مطولة وذيلتها باسمها الحقيق على الأرض (حنا مرجان) وقد زعمت أنها عاشت فى عصر (كارلوس) الأول ثم عشت مع هذا العلامة آخذة بذراعه فى الغرفة مليا ثم جلست وقصت قطعا شتى من ردائها وخمارها وقدمتها لهم هدايا . قال العلامة المذكور فسألناها هل تستطيع أن تملأ الخروق التى فى ثوبها كما فعلت ذلك مرارا فأجابت نعم وأخذت بيدها القسم المخروق وضربت عليه بيدها فعاد حالا إلى ما كان عليه فسألتها حينئذ أن تأذن لى فى تحقيق الأمر فأذنت فلم أجد فى الرداء أقل أثر الفتق ، ثم دخلت إلى الحجرة السوداء وأيقظت الآنسة (كوك) وقالت لها لقد أزمعت الرحيل فانتحبت الآنسة (كوك) وطلبت أن لا تفارقها ، فقالت لها إنى راحلة إلى عالم آخر غير الذى أنا فيه الآن ، ومما قالته لهم إنها لا تقدر أن تتجلى فيسمعوا صوتها أو يروا شخصها وأنها تأتى لهم بالوساطة الخطية على يد الآنسة (كوك) ولا تظهر لها إلا فى السبات المغناطيسى انتهى .

وهناك حوادث شهيرة لتجسم الأرواح كالتى ظهرت من تجسم (استيل) قرينة الصيرفى الأمريكى ليفرمور فانها تجلت بعد موتها لزوجها ٣٨٨ مرة بهيئة محسوسة فى خلال خمس سنين كذلك العلامة (جيبيه) الافرنسى شهد فى معمله كثيرا من هذا النوع على يد الوسيطة (مدام سلمون) ونشرها مفصلة فى تأليفه وفى سنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ ذكرت الصحافة الإيطالية غرائب الامتحانات التى أقامها العلامة (لومبروزو) فى (جينوا) مع العلماء (مورسلى) و (برو) والكاتب النحرير (فاسالو) مدير جريدة الجيل التاسع عشر الإيطالية وكانت الوسيطة (أوزاپيا بالادينو) وقد تجسم على يدها مرارا ابن (فاسالو) المتوفى وقد أطفأ بتجليه لوعة أبيه وأيد له صحة خلود النفس ، ثم قال فى الكتاب المذكور وإن لنا حوادث أخرى عديدة من تجسم الأرواح على يد الوسطاء وظهورهم لأحبائهم لتعزيتهم وتبديد حزنهم نضرب عن ذكرها لا كتفائنا بشهادات العلماء المتقدم ذكرهم .

قال شير محمد وهل اطلعت على شىء مما يذكره جهلة المسلمين اليوم من قولهم إن العفريت ليس جثة فلانة أو فلان ويأتى شيخ يقرأ ويعزم ، أحق هذا أم ضلال ؟ أفلا يمكن تبيان الحقيقة حتى لا يقع الناس فى شباك الكذابين ؟ فقلت ياشير محمد إنى قابلت كثيرا من هؤلاء فألفيتهم كذابين غاشين للأمة ولطالما قابلت متعلما فاضلا حاز الشهادات العالية وقد أحسن الظن بأحد هؤلاء فاذا قابلته وجدته أفرغ من فؤاد أم موسى وإلى الآن لم أسر بواحد من هؤلاء ، وجدير بالأمة أن تتيقظ وتأنف من مسايرة هؤلاء لاسيما أنها دخلت باب العلم والترقى ، وقد اطلعت على نبذة يسيرة تناسب هذا من الكتاب المذكور . قال [إن الاستيلاء الجسدى ليس لصاحبه قوة كافية للتخلص من مضايقة الروح فلهذا يشترط فى الأمر تدخل شخص ثالث يفعل إما بقوة المغناطيسية وإما بسلطة إرادته . هذه السلطة أدبية محضة فلا يقوى على طرد الروح إلا من كان متغلبا عليها بالفضيلة والكمال] إلى أن قال [وليس التقسيم والتعزيم أقل فعل فى طرد الروح المضايق] ثم قال [إن النقائص الأدبية أقوى جاذب للأرواح الشريرة ، ومن قصد التخلص منها فعليه أن يسعى فى عمل الخير فيجتذب إليه الأرواح وبمجرد إرادتها فقط تكبح جماحها وتطردها إلا أن مساعدتها لا ينالها إلا المجتهدون فى إصلاح أنفسهم الساعون وراء الكمال والفضيلة] .

أقول : إن هذا القول أقرب إلى الصواب فعلى من يتولى أمر من يتخبطه الشيطان من المس أن يأمره بالأعمال الصالحة والاخلاص « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » وإن استيلاء الروح الشريرة على الجسد المذنب أشبه بما جاء فى مجالسنا السابقة ياشير محمد إذ قالت الروح العالية فيما ذكرته لك فى المجلس التاسع ،

[ثم لو لم تكونوا ناقصين ما وافاكم إلا أرواح صالحة فاذا مكر بكم أحد فلا تلوموا إلا ذواتكم وما أنسب هذا لقوله تعالى فى سورة إبراهيم « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم » وفى آية أخرى « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين »] والحكمة فى ذلك تروضنا على الثبات وصدق العزيمة ، وكأن الله عز وجل يريد بذلك تروضنا على مصادمة الأهوال والثبات فى سائر الأحوال ، فكل شر جسمى أو وسوسة عقلية تدعو حثيثا إلى الصبر والثبات فمن صبر وصار ذلك عادة فيه سعد ، ومن مال مع الهوى فرضى بالترف والنعيم ولم يحتمل المشقات أو أطاع الوسوسة سقط فى الهاوية .

وقد تقدم فى المجلس التاسع قول الروح [إن الله يسمح بذلك حتى تروضوا على الصبر والثبات وتعلموا أن تميزوا الخبيث من الطيب فإن لم تفعلوا ذلك يكون هذا دليلا على نقصكم] .

مطابقات للشريعة الاسلامية

ثم قلت : أليس هذا ياشير محمد من العجب العجاب . أو ليس حديث (ديكنس) السابق هذا يومئ إلى قوله عز وجل « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » وقوله « وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » وقوله « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » فقال شير محمد: أما حديث (ديكنس) فهو عجيب إن صح بل هو أعجب ما سمعنا وأما هذه الآيات ، فلا أدرى ما موقعها وأى علاقة لعرض جهنم على الكفار يوم القيامة وعلى الله وقراءة الانسان كتابه لما فى حكاية (ديكنس) من نمط الانشاء وخطأ الإملاء ، فقلت اعلم ياشير محمد أن هذه الآيات فيها دلالة واضحة أن كل عمل نعمله واعتدناه يصبح فينا سجية وغريزة ثابتة فلا ينزعه منا الموت ، وأن (ديكنس) لم يقتلع الموت منه خطأ الإملاء وأبقى عنده حسن الانشاء ، ولا جرم أن كل ذنوبه وأعماله من الخير والشر بقيت فى نفسه يحاسب عليها ويعاقب ، وهذا قوله تعالى « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » لأن الغريزة لا تقاوم كما لم يمكن إصلاح الإملاء بعد الموت عند (ديكنس) وهكذا كل ذرة من الخير والشر حاضرة عندنا باقية فى نفوسنا هى هكذا لم تتغير ، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وكفى بنفسنا حسيبا علينا ، واذا قلنا « ارجعنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل » أجابنا « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » ويقول لورددتكم لعدتم لما نهيتكم عنه وأنتم تكذبون كما كنتم تكذبون فى الدنيا بنقض عهدى بعد مرض يصيبكم أو فاقة تنتابكم أو نازلة تمحقكم فلا عهد لكم عندى ، ياشير محمد إننا غافلون عن نفوسنا فى هذه الدنيا ولقد أفلح المؤمنون ولأذكرك بالحديث الصحيح الشريف « يبعث العبد على ما مات عليه » وقال الشيخ محمد الزرقانى :

وتحشر أطفال وسقط كمثل ما   يكونون عند الموت ثم تكمل

وقال فى شرحه للنظم : هل يحشر الطفل والسقط بصفته وقت الموت أم لا ؟ . جوابه قال الحافظ ابن حجر كل واحد من أهل الموقف يكون على مامات عليه .

أقول: ألست ترى ياشير محمد أن كلام النبوة صريح فى أن الإنسان حافظ لأخلاقه وآدابه حتى يحشر عليها ، أليس هذا بعينه مافى حكاية (ديكنس) وأنه قد حفظ أخلاقه فى أسلوب الانشاء وخطأ الإملاء ، وهكذا يقاس عليها سائر أخلاقه التى يحشر عليها إلا أن هذه الأخلاق الثابتة فينا بعد الموت أعدل ناقد وأكبر شاهد

كنت فينا فأظهرها الله ، ألا وإن العادات المغروسات فينا بالتكرار لن تزول بل تبقى خزيا علينا وعارا وفضيحة يقرؤها الناس فى صحائف أرواحنا ويكون عذاب الخزى . فليقلع المرء عن عاداته وليوطد النفس على منابذة الهوى ومحاربة العادات الذميمة فانها برسوخها فينا تشهد علينا . أو ليس الخطأ فى إملاء (ديكنس) شهد عليه بذلك . أليس ذلك مصداقا لقوله تعالى «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » وقوله « حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » .

﴿فصل: فى آداب من يحضرون الأرواح﴾

قال فى كتاب [المذهب الروحانى] ملخصا من أخص شروطه ما يأتى :

الاختلاء والسكينة والرغبة الصادقة والارادة مع العزيمة والهدوء والتجرد من الاضطراب وقلة الصبر وليكن فى مكان معتزل بعيد عن الضوضاء وتشتيت الفكر وليلجأ المرء إلى الله تعالى وليحترم الأرواح . ولا ينبغى أن يطيل الامتحان أكثر من (١٥) دقيقة كل يوم ، وذلك مدة شهر أو شهرين أو أكثر إذا لزم ذلك فإن من الناس من لا تتحرك أيديهم إلا بعد مرور ستة أشهر من التجربة ، وبعضهم تتحرك أيديهم لأول جلسة وهو نادر جدا ، ومتى شعر المجرب بضعف فى قواه أو ضيق فى صدره ناتج عن فقد كهربائيته العصبية فليكف حالا عن العمل ولا يستأنفه إلا بعد أن تكمل قواه . وإذا أطال الجلسة أكثر من (١٥) دقيقة فهو غير حسن وليكن العمل كل يوم أو يومين على قدر إمكانه وإن خالف ما ذكرناه انتابه أمراض وبيلة ، وليجلس مع أهل منزله على مائدة بهدوء ويمسك كل منهم قلما على قرطاس فعسى أن يكون لأحدهم استعداد سريع . وإذا جلس وحده أضر به . ومن جرب ولم يجد فى نفسه استعدادا فليكف . وإذا ظهرت فيه هذه القوة فليصرفها فى الأمور الشريفة لا فى اللهو واللعب والأمور الشهوية . وليختر يوما فى الأسبوع يحضر مع آله لذلك العمل والأرواح ليست تحت أمرنا بل يحضرون متى وكيفما شاءوا ، وإذا كانت الكتابة غير مفهومة فليطلب من الروح إعادتها ، وبعض الأرواح لا يمكن حضورها فلا يكن فى صدر الطالب حرج من ذلك وكثرة الاستحضار تضر المستحضر ، وقد يحدث الجنون لمن فى دماغهم ضعف وهكذا كل ما يهيج العصب وهى ضارة بالغلمان إلا إذا كان طبيعيا فيهم وليست هذه القوة دليلا على الكمال ولا عدمها دليلا على النقص إنما هى ترجع للاستعداد ، وسوء التصرف بهذه القوة يضر صاحبها لأن من يعلم يعذب أكثر ممن لا يعلم على التقصير ، وكمال صاحب هذه القوة ونقصه يرجعان للأمور النفسية من التواضع وحب الناس والكبر وكراهة الناس وما أشبه ذلك . ألا وإن اجتماع الحاضرين فى الفكر صالح لحضور الأرواح ، وضد ذلك تفرق الأهواء وخير للمستحضر أن يعين وقتا لأحبابه الذين يستحضرهم لأنهم ليسوا تحت أمره بل لهم أعمال غير ذلك هم لها عاملون ، ومن الأرواح من يسر بالحضور وهم أحبابنا أو من يحبون الخير العام ويرون أننا نطلبهم لغاية حميدة بنا ، والروح العلوى قد يحضر مجالس كثيرة فى آن واحد .

أما الأرواح السفلية فلا تحضر إلا مجلسا واحدا لأنهم أقرب إلى الأرض .

أما الأرواح النقية وهى التى ارتفعت عن المادة فلا تناجى إلا قلوبا مخلصة لا يشوبها كبرياء ولا حب ذات . ومن أراد الفوز بتعليم الأرواح فليصنع الخير وليتجنب الكبرياء وحب الذات .

﴿ درجات الأرواح ﴾

إن الأرواح على (ثلاث درجات) أرواح سفلية ، وأرواح علوية ، وأرواح نقية :

(١) فالأرواح السفلية هى التى تغلبت عليها المادة فمالت إلى الشر ، وهى إما نجسة وديدنها الشر وإلقاء الخصومة ، وإما طائشة تحب الخلاعة والخفة والتلاعب . وإما متكبرة بمعارفها القليلة وعلومها الضئيلة فتتعامى عن الحق . وإما عقيمة لاتصلح لخير ولا لشر .

(٢) وأما الأرواح العلوية فلها سلطان على المادة تحب الخير وتبعد عن الرذائل وهى :

(ا) إما صالحة توصف بالجود وحب الصلاح وإلهام الناس أفكارا صالحة ومعارفها قليلة وترقيها النفلى دون ترقيها الأدبى .

(ب) وإما حكيمة وصفاتها الأدبية جيدة لا نقص فيها وعلومها أوفر اتساعا وأغزر مادة .

(ج) وإما رفيعة جمعت مابين الحكمة والعلم والفضيلة ولا تلقى تعاليمها إلا لمن طلب معرفة الحق بخلوص نية وجرد قلبه من المطامع الدنيوية .

(٣) وأما الأرواح النقية فهى التى بلغت ذروة الكمال وتجردت من كل نقص ولم يعد للمادة أدنى تأثير فيها فأصبحت معاينة لله مغتبطة به ، وليست تناجى إلا من كان ذا فضيلة سامية وقلبه مجرد من كل ماهو ذميم ، وعليه فالموت لا يغير طبع الإنسان فالعالم يبقى عالما والمتوحش متوحشا والشاعر شاعرا وهلم جرا كما ورد فى الحديث « إن العبد يحشر على مامات عليه » « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

وعلى ذلك تكون رسائل الأرواح غير مسلم بها ففيها الغث والسمين فربما حضر للمحضر روح طائشة أو نجسة أو متكبرة أو عقيمة فتذكر له حقائق ناقصة لجهلها أو لسوء خلقها . وكما أننا فى الدنيا نرى طوائف الناس على أقسام . فهكذا نرى الأرواح فالآخرون من الأولين . فاذا شككت فيمن حضر من الأرواح فسله عن اسمه ولقبه وعدد السنين التى عاشها على الأرض والأماكن التى حل بها والظروف التى مكنته من التعرف بك إلى غير ذلك وتسأله أن يقسم لك بالله إنه هو حقا روح فلان فأكثرهم لايجسرون على هذا الكذب وقليل منهم يقسمون وهم الفاسقون .

ومن الأدلة أيضا الإمضاء ومضاهاته بإمضائه المعروف فى الأرض . وأهم الأدلة سير الإنشاء وأسلوبه ومعانيه فغالبا لايمكن الجاهل أن يظهر عالما ولا صاحب الرذيلة أن يزور الفضيلة فالأرواح تتميز بالحديث . ألا وإن الرذائل تحيط بالروح بعد موته إحاطة الهواء وإن العالم المتكبر أشد خطرا من الأرواح الشريرة لأن العالم جمع العلم والنباهة والكبرياء والمكر فيغرى الجهال ويشربهم مبادئه السخيفة الكاذبة ، والروح العلوى قد يحضر لطالبه وقد ينيب عنه من يعلم أنه كفؤ . على أن الأرواح كلما ازداد اتفاقها ازدادت فى وحدة الفكر وانضم بعضها إلى بعض فما يراه أحدها يراه الآخرون ، وقد تنتحل بعض الأرواح السفلية أسماء الأرواح العلوية بغير إرادة الآخرين فتعاقب بعد تلك الجريمة ويكون ذلك امتحانا واختبارا للناس ليميز الخبيث من الطيب .

وقد تأتى الرسائل محشوة بأكاذيب تفرق ما بين الأسرة فلا ينبغى أن يصدق ما فيها كما قدمنا ، وللأرواح العلوية سلطة أدبية على السفلية فهى التى تمنعها عن إغواء من هم مخلصون صادقون قال تعالى « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » والأرواح فى حال تمكنهم من فعل ماير يدون كما يتمكن الناس على الأرض ألا وإن الإنسان قد يناجى الأرواح بفكره وإن لم يكن وسيطا وهذا يسمى الاحضار الفكرى ولا يجوز له أن يحضر روحا شريرة إحضارا فكريا إذا كان وحده . والذى يصد الروح عن إجابة محضره أمور كثيرة : منها إرادته الخاصة به فله الحرية المطلقة . ومنها أن يكون فى أعماله الخاصة فلا يتفرغ إلى المحضر . ومنهـا أن

لايؤذن له فى إجابة المحضر عقابا له أو لمن يحضره . ومنها أن يكون فى عالم أدنى من العالم الأرضى وهو لايتسنى له الحضور هنا لتنافى البدأين . فأما إذا كان علويا وقد أرسل إلى العالم السفلى تكفيرا عن ذنبه أو لرسالة يقوم بها فذلك لن يعجز حينئذ عن الحضور لمناجاة أهل الأرض ، ثم إن الفكر تحمله المادة الأثيرية إلى الروح كما يحمل الهواء الصوت ، والأول لاحد له ، والثانى محدود . وجميع الأرواح لها الحرية المطلقة فى الحضور وعدمه ولكن الأرواح السفلية ترغمها الأرواح العلوية على الحضور إذا كان ذلك نافعا لها . والرجل الفاضل تهابه الأرواح السفلية فلا تقربه ولا سيما إن كانت تحميه أرواح علوية والطلاسم لا تأثير لها على الأرواح وإنما ذلك فى عقول السذج والعوام . والروح قد يحضر عند موته ولكنه يكون فى حال اختلاط واختباط وتحضر روح الحى إذا كان نائما ولكن إجابتها لاتكون سهلة وليس يتذكر عند اليقظة ماقاله وقت الإحضار فى نومه والجنين لا يمكن إحضاره ألبتة وإحضار المريض والصغير والشيخ الضعيف يضر بهم كما تقدم أنه يضر بهم أيضا أن يكونوا وسطاء ، ومن المقالات مايكون من روح الوسيط الكامنة وعلومه الخفية التى علمها قبل وروده إلى هذا العالم فلا ندرى أمن النائم هذا أم من روح حاضرة . ولا جرم أن هذا مما يدعو إلى التفكير والتبصر لزوال اللبس . والأرواح العلوية لاتحضر المجالس الروحانية الهزلية وإنما تحضرها الأرواح الطائشة فتشئ طرق الموائد ورفعها وتلقى الأحاديث الهزلية والأكاذيب الفارغة ، إذ شبيه الشىء منجذب إليه ، وليس يؤذن للأرواح الطائشة أن تحضر المجالس الرزينة إلا إذا حضرت للاستفادة فلا تجسر أن ترفع أصواتها . والوسيط قد يفقد الوساطة مؤقتا إما لتصرفه بأن يجعلها بابا للرزق أو اللهو واللعب ، وإما إراحة الوسيط من التعب . ولا يسمح لآخر أن يحل مكانه والذكى يميز بين الأمرين . ثم إن المبتدئ يرغب فى مناجاة أحبائه وهم ربما لايقدرون على مناجاته لجهلهم بطرق ذلك وإما لأنهم فى عالم أقل من عالمنا فليتخذ الإنسان روحا مرشدا من الأرواح العالية ويسأله عمن يحضره من الأرواح وهو يجيبه (أذلك ممكن) وليستعن المبتدأ إذا داخلته الأرواح الشريرة بالأرواح العالية مع التوقف حالا عن الكتابة وقد أطنبت فى هذا المقام لأهمية الموضوع وليكون القارئ على بصيرة ونور وهدى وكتاب منير . هذه الأحكام كلها من محادثات الأرواح أنفسها مع العلماء فيما تقدم نقلا عن الآن كردك .

﴿ تذكرة فى مقارنة مافى هذا بالقرآن وكلام الإمام الغزالى وإخوان الصفا ﴾

قال شير محمد : إذن كل هذا الفصل نقلته من كلام نفس الأرواح . فقلت نعم . قال سبحان الله إن فى هذا لعجبا عجابا . قد قسمت الأرواح إلى درجات من صالحة ونقية وعلوية والصالحة جعلت أقل الجميع والنقية أرقاها . فهل له نظير عند علماء الإسلام . وإذا كانت الأرواح لها حياة بعد الموت وحرية فلم يكره الناس الموت وجهلوا حياتهم بعده وهو فى الحقيقة الحرية التامة ، وأرجو أن تزيدنى يقينا فى أن أرواح الأموات لها اتصال بالأحياء تعلمها وتربيها . فقلت أما درجات الأرواح فقد وردت فى قوله عز وجل « أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله » فالأنبياء هم الأرواح النقية والصديقون والشهداء هم الأرواح العلوية ، ومنهم الصالحون وهم أقل الجميع درجات .

وقال الإمام الغزالى فى كتابه [بداية الهداية] ما ملخصه إن العلم أفضل مايبتغيه الطالبون ويليه كل عمل عام للناس من المنافع المادية كاغاثة الملهوف ودفع الضر والأذى وآخر الدرجات أن ينقطع للعبادة وشر الدرجات له أن يكون شريرا مؤذيا طماعا جماعا . وأما كون الناس يكرهون الموت لجهلهم بالحياة بعده ولايحبونه مع أنهم بعده أحرارا . فهاك أسمعك ما قاله (إخوان الصفا) .

إن علة كراهة الحيوانات الموت هو مايلحقها من الآلام والأوجاع والفزع عند مفارقة الأحياء ، فإن قيل

ثم لاتحرى النفوس بأن لها وجودا خلوا من الأجسام. قلنا لأنه لايصلح لها أن تعلم هذه المعانى لأنها لو علمت لفارقت أجسادها قبل أن تتم وتكمل. وإذا فارقت أجسادها قبل ذلك بقيت فارغة عطلا بلا شغل ولا عمل، وليس من الحكمة أن يكون كذلك إذا كان خالقها لم يخل من تدبير ليكون فارغا بلا شغل بل كل يوم هو فى شأن. وأما قولك كيف كانت الأرواح مهذبة ومربية للأحياء فى الدنيا فقد ذكرنا فى هذا الكتاب ما ورد فى النبوة أن إلهام الناس من الملائكة والوسوسة لهم من الشياطين كما جاء عن الأرواح فى المجامع النفسية. ونزيده بيانا الآن فنقول قال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى وملائكته عليهم السلام وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحر يصلون على معلم الناس الخير » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم » فانظر وتعجب. أليس ذكر الملائكة فى هذا الحديث وأنها تضع أجنحتها لطالب العلم دلالة على المناسبة والملازمة بين المتعلم وبين الملائكة والأرواح العالية. أليس هذا نظير ما جاء فى هذا المقال عن الأرواح ترجمة الآن [كردك] إذ يقول إن الأرواح العلوية لاتحضر المجالس المزلية وإنما تحضرها الأرواح الطائشة ولا يؤذن للأرواح الطائشة أن تحضر المجالس الرزينة. وتقول أيضا إن الأرواح العلوية قد تأمر الأرواح بالحضور فى المجالس النافعة الروحية. فهناك إذن علاقة علمية. وترى مناسبة الملائكة لأهل العلم جاءت فى السنة وفى كلام الأرواح ووردت فى القرآن الشريف « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فجعل أولى العلم بعد الملائكة فإن الأولين يعلمون الآخرين. وقال فى (إخوان الصفاء) فى رسالة (العلل والمعلولات) صفحة ١٣٢ ما يأتى :

ثم اعلم أن النفوس التامة الكاملة إذا فارقت أجسادها تكون مشغولة بتأييد النفوس الناقصة المجسدة لكيما تتم هذه وتكمل تلك وتتخلص من حال النقص وتبلغ تلك إلى حال الكمال وترتقى هذه المؤيدة أيضا إلى حال هى أكمل وأشرف وأعلى « وأن إلى ربك المنتهى » والمثال فى ذلك الأب الشفيق والأستاذ الرفيق وتعليمها التلامذة والأولاد وإخراجها إياهم من ظلمات الجهالات إلى فسحة العلوم وروح المعارف ليتم التلاميذ وليكمل الآباء والأستاذون بإخراج مافى قوة نفوسهم من العلوم والمعارف والصنائع والحكم إلى الفعل والظهور اقتداء بالله تعالى وتشبها به فى حكمته، إذ هو السبب الأول والمبدأ فى إخراج الموجودات من القوة إلى الفعل والظهور. وكل نفس هى أكثر علوما وأحكم صنائع وأجود عملا فهى أقرب تشبها بربها، وهذه هى مرتبة الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب. ولهذا قالت الحكماء [الحكمة هى التشبه بالله بحسب طاقة البشر] معناه أن تكون علومه حقيقية وصناعته محكمة وأعماله صالحة وأخلاقه جميلة وإرادته صحيحة ومعاملته نظيفة وجوده على غيره متصلا والله سبحانه وتعالى كذلك. انتهى ما أردته من (إخوان الصفاء).

فتعجب أيها الذكى. أليس ما قالته الأرواح فى الجمعيات النفسية فى أوروبا هو كما فى القرآن وفى الحديث وفى كلام (إخوان الصفاء). ذلك إجماع من الغرب والشرق والعلم والدين أن أرواح الناس بعد الموت تكون متصلة بالأحياء تشبه الشياطين تارة والملائكة أخرى وأن الكاملة منها تعلم الأحياء وتهديهم الصراط المستقيم. أو ليس هذا معجزة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟.

ماكان ليجول فى خاطرى أن العلم يكشف عن وجه الحقيقة النقاب ويجليها عذراء بهية لأولى الألباب. إن فى هذا لعبرة لقوم مفكرين. أو ليس ذلك قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد. ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط » ولقد تبين فيما مضى أن الإنس لهم تأثير على الأرواح السفلية وهنا تجلى أن للأرواح السفلية والملائكة سلطانا

على

على نفوس الأحياء، وأن الفضلاء منا يتلقون عن الأرواح العالية والسفهاء من الأرواح يتعلمون من الإنس لاقتراب طبيعتهم السفلية من طبيعة الأحياء لانغماسهم فى المادة . وكل هذا يستفاد من كلام الأرواح كما تقدم فانظر كيف صح هذا فى ديننا . تعجب ، أليس النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة الرحمن وكرر آية «فبأىّ آلاء ربكما تكذبان» أى بأىّ نعم ربكما يا معشر الجن والإنس تكذبان . ذكر الصحابة رضوان الله عليهم أن الجن لما سمعوها قالوا (ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد) وكثيرا ما كنا نسمع أن النبى عليه الصلاة والسلام مرسل للانس والجن ونسمعه فى سورة الرحمن يقول سبحانه وتعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان » وقال فى سورة أخرى « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى » فإذا سمع العاقل أمثال هذا قال فى نفسه كيف يرسل للجن وهم مجرّدون عن المادة، وبهذا الكتاب وضح الحق واستبان السبيل وأن الأرواح التى ماتت ناقصة طبيعتها أقرب إلى البشر فيفهمون عنهم أكثر مما يفهمون عن الأرواح العالية التى تفيض العلم على أفئدة العلماء فى الدنيا . وقد تأذن الأرواح العلوية للسفلية أن تحضر مجالسنا لتستفيد منها علوما، وبهذا تجلى لنا كيف كان صلى الله عليه وسلم مرسلا للجن والإنس . ما أجمل العلم والحكمة ! .

(فائدة)

ربما أشارت النبوة من طرف خفى إلى بعض حوادث العصر الحاضر إذ جاء فى السيرة الحلبية الجزء الأول صفحة ٢٠٦ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذى نفس محمد بيده لاتقوم الساعة حتى يكلم الرجل شراك نعله وعذبة سوطه بما فعله أهله» وشراك النعل أحد سيورها الذى يكون على وجهه وعذبة سوطه طرفه ، وقيل سيوره وهذا أشبه بشريط (المسرة) التليفون ولعل فى المستقبل ما يبين معناه من هذا العلم أو غيره ، والله أعلم .

(جوهرة فى النفس وقواها)

بينما كنت فى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٦ قائما إذ وقعت ساعتى فكسرت زجاجتها ووقفت وكان معى صديق هو ملازمى فى الحضر والسفر فقال عقب ذلك : لماذا يألم الإنسان لمثل هذا ، ولم كانت نفوسنا تتأثر تأثرا يطابق ما يحدث فى المادة ، فإن وقفت ساعة أو اختلّ حائط أو سقط منزل أو حصل قحط أو هجم عدو نراها تتأثر على مقدار الحادث . هكذا نألم للحر والبرد وقلة المال والملابس والأغذية كما نحوت من الغرق والحرق والعطش والجوع وبالسيف وبالمدفع . يا عجبا . لماذا هذا التلازم بين المادة والنفس إذا جزعنا على ما يصيب أجسامنا من جوع أو عطش أو مرض . فلماذا نجزع على ما يحصل فى المادة حولنا من قبح أو تخريب الخ هل المادة أم والنفس بنتها . أم النفس أم والمادة بنتها . أم هما ابنتان لأم واحدة ؟ . قلت إنك بهذا السؤال قد تعرضت لأصول علم المادة وعلم النفس وارتباطها . إنك قد أبنت الملازمة بينهما إبانة تامة وأوقعتنى فى حيرة لأنى لا قوة لى على الإجابة التامة لأن العلماء إلى الآن لم يهتدوا إلى سبيل هذه الحقيقة هداية تامة بل هم فى حيرة . وغاية الأمر أن كلا يرجع ما يراه . إنى سأبحث هذا الموضوع بحثا عاما سيتضمن آراء العلماء وسأكون فيه حرا لا أتقيد برأى بل أوجه النفس إلى مبدعها ليعطيها من العلم ما به يستنير وجه الحقيقة . فقال: مع مشاركتى ، فقلت نعم . فقال (س) لم هذا الألم وهذا السرور صفها (ج) إن المادة حولنا مرتبطة بمصالحنا فنفرح وتتم لكمالها ونقصها . إن الله لم يخلق فى الأرض خلقا إلا لحكمة ، ويظهر أن هذه النفس لاتسعد إلا بظهور جميع ما كمن فيها وقد كمن فيها الألم واللذة وكأن هذا الألم مهماز يدفعها إلى الرقى كالجوع والعطش وكسر الساعة . نحن نحتاج إلى الغذاء والشراب والدواء والملابس ومراقبة حركات الشمس وسير

الكواكب ونظام أجمعا والآلام والمسرات تتبع ذلك قلة وكثرة وذلك لارتقائنا ولو كان الألم لا فائدة فيه ما خلقه الله فينا . إن ألم الأم لأجل ولدها والأنبياء والحكماء للأمم والإنسان لجرحه ومرضه كل ذلك مرقى للانسانية (س) ضعف الإنسان ومصاحبته للمادة (ج) الإنسان والحيوان والنبات ، كل هؤلاء ينمون فى المادة أى فى الماء والهواء والتراب بحيث يكون النمو بأجزاء مادية مكونة من هذه العوالم المحيطة بنا (س) ثم ماذا (ج) فيكون الحر والبرد للفرطان والجوع والعطش وعدم اللباس لمن يحتاج إليه كبعض بنى آدم . كل ذلك مضعف للحس وكل من هذه الأحياء ينمو ثم يقف ثم يموت (س) إذن هذا دليل على أن المادة أصل والنفس فرع وما مثل النفس إلا كمثل اللون والشكل والصورة فى المادة . إن كلا من هذه تضمحل على طول الزمان . فإذن هذه النفس تابعة للمادة . ألا ترى أن عقل الإنسان يضعف بمعاقرة بنت الحان وكثرة التدخين وتعاطى الأفيون والحشيش . إن للمادة سلطانا على العقل : فالعقل نتيجة المادة لا أكثر ولا أقل . فأين الحساب والعقاب إذن (ج) اعلم أن هذه العوالم التى نعيش فيها لغز وهذا اللغز لا يحله إلا جميع العلوم . فإذا وقفت عند هذا فمعناه مجاراة العامة لأن ما أوضحته الآن جله الجهلاء ، والحكمة والعلم يترفعان عن مرتبة الجهلاء (س) فأبرز الحكمة إذن ولن تبرزها إذا لم تسمعها لى (ج) ليست نفس الإنسان كالمادة التى نعيش فيها (س) بين ووضح (ج) إن للنفس قوى ظاهرة وقوى باطنة : والقوى الظاهرة هى الحواس الخمس (البصر والسمع والشم والذوق واللمس) وهذه الخمس أربعة منها فى الرأس والخامسة فى الجسد كله وهى حاسة اللمس ، والأربعة الأولى هى السمع والبصر والشم والذوق فى الأذن والعين والأنف واللسان مع سقف الحلق . هذه الحواس الخمس جواسيس لملك رئيس وهو المسمى (الحس المشترك) وما الحس المشترك إلا أمير خضعت له هذه الجنود إن هذه الحواس خاضعة لإرادته . جارية على ناموسه . يأمرها فتأتمر . فترى حاسة البصر تحضر لهذا الأمير الألوان والأشكال والسطوح والأحجام والأنوار والظلمات والحركات والسكنات والقرب والبعد . وترى حاسة السمع تحضر له نغمات الموسيقى وأصوات الإنسان والحيوان وأصوات الرياح من كل فج . وترى حاسة الشم تفرق بين الرائحة الذكية العطرة والرائحة المنتنة المكروهة . وترى حاسة الذوق تبين له الحلو والحامض والملح والعفص والحريف والمز والمر والعذب وهكذا . وحاسة اللمس تبين الثقيل والخفيف والحار والبارد والأملس والخشن واللين والصلب واللزج وضده وقد عدها العلماء (٣٦) لهذه الحواس الخمس (س) ثم ماذا (ج) هذه الصور كلها تقتنصها الحواس الخمس وتعطيها الحس المشترك والحس المشترك يسلمها لقوة سموها (الخيال) فهذا الخيال تحفظ فيه الصور . والدليل على ذلك أننا نرى الصورة أو نشم الرائحة أو نأكل التفاح أو نحس بالحرير ونغفل عن ذلك سنين ثم إذا تذكرناه وجدنا هذه الصورة مخزونة عندنا فنتذكرها ، فياليت شعرى من أين تذكرناها . فإذا كان عقلنا مادة أى تابعا لها كما يتبع اللون المتلون . فلماذا عكس الأمر ؟ لأننا نرى أن الأجسام لا تحمل إلا صورة فصورة وشكلا فشكلا وما رأينا قط أن الإنسان يكون شيخاً وطفلا فى آن واحد ولا للمزارع مثمرة وغير مثمرة فى آن واحد ولا الحجر مربعاً ومثمناً فى آن واحد .

إن المادة نطاقها ضيق إنها لا تقبل إلا صورة فصورة . أما العقل فإنا نراه قد جمع هذه الصور كلها وخزنها عنده وله جواسيس وله أمير وله مخزن وهذا المخزن قد حفظ تلك الصور لا فرق عنده بين السماء والأرض ولا بين الشباب والشيب والقبيح والجمال والحلو والحامض . إن الذى فرق على الحواس اجتمع فى الخيال . جمع الخيال كل صورة رأيناها أو سمعناها أو شممناها أو ذقناها أو لمسناها ، بل هناك ما هو أعجب (س) وما هو ذلك ؟ (ج) إن هذه الصور تحصل فيها أعمال عجيبة (س) ماهى (ج) هناك قوة أخرى فرضها القدماء كما فرضوا خطوط الهندسة فى المادة فقالوا إن عداوة الذئب للشاة ومحبة الأمهات للأبناء تلك معان

جزئية ليست من الصور المحسة فلها قوة تسمى الواهمة ، وهذه المعانى تخزن فى خزانة لها سموها الحافظة . فاذن هنا أربع قوى الحس المشترك والخيال والواهمة والحافظة ، وهناك قوة تتصرف فى أكثر من هذه وهى القوة المتصرفة وهذه تتصرف فى الصور المرسومة فى الخيال والمعانى المخزونة فى الحافظة . ألا ترى أننا نرسم فى نفوسنا أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد ، إذا أردنا أن نشبه الورد وقد لعبت به الرياح ، فهذه الصور مبتكرة ابتكرتها القوة المتصرفة وهى حينئذ تسمى متخيلة . وقد تبتكر هذه القوة المتخيلة صورة ومعنى أو معنى ومعنى . فالصورة والمعنى كبياض صديقك وسخائه ، والمعنى مع المعنى كتصور الشاة أن الذئب متفور منه والولد معطوف عليه (س) هذه مباحث طويلة لاتناسب هذا التفسير فأوجز وائت بالنتيجة . ألا ترى أننا فى مقام الكلام على المادة والنفس الإنسانية فماذا يفيدنا من هذا كله . هل تريد أن تأتى بكل ما قرأته . إن التطويل ممل فالاختصار هو المفيد فائتنا بما يفيد . إن النفس فيها مزايا ليست فى المادة (ج) إنك بهذا القول أشبهت من يسمع قصة أبى زيد طول الليل فلما انصرم الليل قال الشاعر أسمعنا قصة أبى زيد . إن هذا هو الجواب . إن النفس لما جمعت الصور فيها وعجزت المادة عن هذا الجمع دل ذلك على أن النفس غير المادة ، ومعنى هذا أن الحائط فى منزلك لم يحتمل إلا لونا واحدا (س) بل فيه ألوان (ج) إن البقعة الواحدة لاتحتمل إلا لونا واحدا وصورة واحدة والجسم أيا كان لايقبل شكلين معا . قال ثم ماذا ؟ قلت ونحن اخترعنا فى نفوسنا معانى وكليات فان القوة العاقلة فينا تأتى بقضايا كلية وتحل مشكلات وتحكم على المادة . أليس الإنسان بعقله قلب وجه البسيطة وتصرف فى المادة وهندس وزوّق وبنى وهدم وزرع وحصد وغلف وجه الأرض بالأسلاك الكهربائية وحكم على المادة وأدرك أنها كانت أثيرا فصارت أجساما ثم ترجع أثيرا كرة أخرى والانسان بعقله فصل الأعاجيب وحكم ودبر ، فهل خزنت المادة الصور كما خزنها العقل ، فهل تصورت الماضى وأدركت القضايا العقلية كما أدركها العقل . كلا إن الإنسان فى الدنيا أشبه بمسجون فى سجن تكون أطواره تابعة لحال السجن وخدامه ولكن المسجون ربما كان حكيما عليما والسجان جاهل غر . إن الإنسان حبس فى المادة وتغذى بها والتوى تبع التوائها ومات على مقتضى نظامها ولكنه ليس معنى موته أنه فنى ، كما أنه ليس معنى خروج المسجون من السجن أنه مات . كلا بل لاتظهر فائدة المسجون العالم إلا إذا خرج من السجن وليس احتياجه فى أثناء السجن للقوانين عليه فيطعمونه ويسقونه ويلبسونه بمانع من نفعه ورقيه وسعادته بعد خروجه من السجن . هكذا ليس تطور الانسان فى المادة صغرا وكبرا وضعفا وصحة وحياة وموتا بحجة على أنه لاحياة له بعد ذلك . تتشابه المادة والنفس فى ظواهر الأحوال . كلاهما دائم الحركة ليلا ونهارا أمد الدهر . المادة لا تفتأ تتحرك شمسها وقمرها وليلها ونهارها وجميع مافيها . هكذا نفوسنا فى حركة مستمرة حتى أثناء النوم النفس متحركة والأرض متحركة فهما فى ظواهر أمرهما كأنهما شىء واحد تشابها حركات ونموا وذبولا . وهذا يشير له قوله تعالى «والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها » .

علم الله قبل أن يخلق السموات أن الناس سيرون الشمس والقمر والنهار والليل والأرض كلها جاريات بلا انقطاع وعلم أنهم سيعلمون أن النفس لا تفتأ تتحرك فعطفها على الأرض ولكن النفس فيها مزية أرقى فقال «ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها» .

ذكر الله هذه ليبين لك كل ماذكرناه الآن . فالهام الفجور والتقوى يجمع كل ماتقدم من القوى وهى الحواس الخمس الظاهرة والحواس الخمس الباطنة والعقل المخزون فيه . فبهذا فاقت النفس هذه العوالم . الله أكبر . إن النفس هى الواسطة بين المادة وبين العوالم العالية بل إنه قيل إن المادة صنع النفس :

(١) وهل أتاك نبأ الغذاء إذ يتحول فينا قوى كثيرة ومنها قوة الفكر ، فالفكر المشتق من المادة والمادة كانت أولا فكرا فعل المادة فكر متجمد وإلا فكيف رجعت فينا نحن فكرا ؟

(٢) وأيضا الأعمال المادية لا تكون إلا بعد فكر ويتبع الفكر نية والنية يتبعها العمل فلا عمل إلا بعد فكر . فالمادة بعد فكر والفكر فى النفس ، فالعالم المادى من نفس كلية .

(٣) وأيضا أن الانسان يمشى على الأرض فلا يقع وإذا مشى على الحائط وقع لأن فكره أفهمه أنه يقع مع أنه على الأرض لايمشى على أوسع من الحائط . فهذه ثلاثة براهين . رجوع الغذاء فينا إلى فكر ، وأن أعمالنا بعد الفكر وأن الإنسان يسقط عن الحائط بفكره وخوفه وهو على الأرض لايمشى فى أوسع من الحائط .

إن نفوسنا محل الالهام والوسوسة . فبالالهام صلح الأرض ، وبالوسوسة تفسدها ، ولا إلهام ولا وسوسة تقترحان أشياء غير ما ذكرناه مما أتى من الحواس الظاهرة والباطنة .

ولما كانت النفس بهذه المثابة وأنها واسطة لأنها لطيفة والمادة غليظة قال الله فيها فى هـذه السورة «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى» . ههنا بأن معنى الآية ، يقول الله «قل الروح من أمر ربى» أى الروح ليست من المادة بل من أمر الرب والرب فيه معنى التربية . إذن الروح مربية للمادة لأن الرب لطيف والروح أقرب إليه من المادة وكلما كان المخلوق ألطف كان أقدر ، ألا ترى إلى الكهرباء كيف حركت الآلات بل ألم تر إلى البخار كيف أدار الآلات وحرك القطرات « إن ربى لطيف لما يشاء» والروح أقل لطفا من الله والمادة أغلظ شكلا والكهرباء والمغناطيس والبخار أقل لطفا من أرواحنا فلذلك تجد أن البخار والكهرباء سلطت على المعادن وعلى المادة فخضعت لها بالحركات والأعمال . ثم إن البخار والكهرباء والمغناطيس لم تسلط على المادة إلا بتسخير نفوسنا لها بدليل أنها بقيت ساكنة لا حراك لها حتى حركها الإنسان فاستيقظت ، فأما عقولنا فما أجملها وما ألطفها وما أعلاها . ألم تر أنها سخرت هذه اللطائف فحكمت المادة وسخرتها . ألم تر أنها حكمت على الأفلاك حتى عرفت بالمنظار من كواكب السماء نحو (بليونين) أى ألفى ألف ألف وهذا آخر كشف عند كتابة هذه السطور وعرفت أن هذا القدر قطرة من بحر وأدركت حركات كثير منها وأحجامها وأبعادها وأضواءها وعناصرها المركبة هى منها بواسطة ألوان الطيف هل تقدر المادة على هذا أو يقدر الضوء والكهرباء والمغناطيس على هذا ، كلا بل العقل الانسانى فوق هذا كله ولذلك ميزه الله عن الأرض ، فقال «فألهمها فجورها وتقواها» وأبان المقام أعظم إبانة فى هذه السورة فقال « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » أظن أن المقام وضح وأن قوله «من أمر ربى» ظهر بعضه فى هذا الزمان .

(عجب عجاب)

عجب لهذه النفس . إنها قد خبئت فيها عجائب وعجائب (س) بين ذلك (ج) إن عجائب النفس لم تقتصر على قلب وجه البسيطة بل فوق ذلك أدركت مستقبلها وأنها خالدة لاتفنى (س)أما هذا فعقل لايقبله (ج) انظر إلى العنكبوت . ألم تجد فى جسمه مصنعا يصنع فيه الخيوط . قال بلى . قلت ألم تره يفهم كيف يجعله خيوطا وبيوتا وشبكات صيد كما ستراه موضحا فى صورة العنكبوت . قال بلى . قلت فعجب كل العجب ، إن كل نفس تعطى من العلم على مقدار استعدادها . استعدت حشرة العنكبوت إلى النسج وبناء البيوت فوضع مصنع فى جسمها وقوة قائمة فى نفسها تدبر أمر هذا الغزل وتنتفع به . هكذا ترى الطيور والحيوانات الأرضية جميعا خلق فيها بيض وأجنة فى البطون وعلى مقدار ذلك تلهم نفوسها إلهامات مطابقة تمام المطابقة لما فيها فلا طير ولا حيوانا أرضيا إلا ولها غرام بحضن بيضها وتربية ولدها وإرضاعه وحفظه . ياعجبا كل

العجب

العجب . أجسام تظهر فيها مخلوقات صغيرة ونفوس ترسم فيها ما يوافق هذه المخلوقات . انظر إلى الإنسان تراه يعيش ويتمنى أن لا يموت . هذه فكرة عامة . فشيوخه وشبانه كل يحب أن لا يموت وها أنا ذا في هذا التفسير أقول أنا لا أحب أن أموت إلا بعد تمام طبع هذا التفسير فأكون قد أديت ما على وأنا شيخ ولكني لا أدري إذا تم ماذا يحدث في نفسي بعد ذلك فنفوس الناس جميعا تحب الخلود والبقاء الأبدي .

إن هذا الحب وحده قياس إقناعي دال على بقاء النفس . وأي فرق بين بقاء الانسان وغرائز الحيوانات كلها . إن غرائز الحيوان كلها صادقة كما عرفت فلم توضع في نفوسها معادن إلا لأغراض صالحة . فإذا كانت غرائز الحيوان صادقة هكذا الانسان . فلماذا نستثنى منها مسألة واحدة وهي حب البقاء . أحب الانسان الولد فرباه وأحب الطعام والشراب واللباس والفاكهة والماء والهواء والزينة والشجر والنجم والدواء فوجد ذلك كله ، وأحب النغمات فملأت السهل والجبل والماء وأعطاه فوق ذلك علما به يأتي بنغمات أجمل فماذا نقول إن غريزة البقاء كاذبة . الانصاف يقتضي أن تكون حقيقة كبقية الغرائز . إن هذا العالم موضوع على نسق جميل وحكمة (س) قد أبنت تفسير قوله تعالى « ويسألونك عن الروح » وأبنت لماذا ذكر الله النفس بعد الأرض ولم تأت بالنتيجة التي تناسب الآية هنا (ج) إن ما تقدم كله جاء مقدمة لتفسيرها بل تفسيرها يؤخذ ضمنا . ألم تر أن النفس تخزن فيها الصور . قال بلى . قلت فهذا المخزن يدوم فيها ثم يظهر بعد الموت بصفة أجلى . قال فبين هذا المقام . قلت قد تقدم في هذا التفسير أن للنفس أحوالا حال اليقظة وحال التنويم في الدرجة الأولى ثم في الثانية ثم في الثالثة وفي كل حال يظهر للانسان عوالم لم تظهر فيما قبله . اقرأه في سورة البقرة عند إيضاح الكلام على السحر فإنك إذا قرأت هذا المقام هناك تبينت تلك أحوال الآخرة من نفس علم التنويم وبذلك تعرف قوله تعالى هنا « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

(س) قد مضى ما في سورة البقرة حقيقة هو يفيد ذلك ولكن زدنا شيئا جديدا فلعلك اطلعت على زيادة فائدة (ج) .

﴿ جرت حوادث ﴾

(١) عالم سويسري يسمى (هايم) سقط من أعلى جبل فأخذ يدرس ما حصل للناس من الأمور المختلفة وجعلها محاضرة ألقاها في نادي (زوريخ) سنة ١٨٩٥ .

يقول إني عند ما زلت قدمي وأخذت أسقط فقدت حاسة اللمس وظهرت أمامي جميع الحوادث الماضية أسرع من البرق بحيث طالعتها كلها مرتبة مع أنها تحتاج إلى زمان طويل . فهذه اللحظة برز فيها هذا كله لجميع الصور التي مرت على والحوادث ظهرت مرتبة . ففي ثانية واحدة ظهرت مرتبة كأنها في ساعات كثيرة ترتيبا ونظاما ووضوحا ، وهكذا وجد كل الحوادث التي جمعها من غيره تشابه هذه سرعة ووضوحا وفقد حاسة اللمس سواء أكان ذلك سقوطا أم حرقا أم غرقا .

(٢) للمسيو (جون لاموت) كان رئيسا للجمعية النفسية في (ليفربول) فإنه غرق في البحر وأحس بأنه رأى جميع الصور والحوادث الماضية وأنه بعد ذلك انعزل عن الجسم وعاشت روحه وحدها . ولكن لما انتشلوه طاح ذلك كله مرة واحدة فكتب ذلك للناس . وها نحن أولاء نضعه في تفسير قوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

(٣) ومثل ذلك ما حدث لطبيبة أنها عملت لها عملية جراحية ورجعت لصحتها بعد قطع الأطباء الأمل من نجاتها . قالت إن جميع حوادثي وذنوبي مرت على وقد استحضر أقاربي القسيس وهو يلقنني كلمات وصحت كأن قائلا يقول ارجعي إلى حسك فلما تنبهت قلت للقسيس قم فإني لا أموت اليوم فقام .

هذه بعض الأحوال التي مرت على الناس . وهاهي تلك الأحوال المذكورة في سورة البقرة . انظر إلى حوادث الدنيا واعجب من هذا الإنسان وقواه واعجب من نظام هذه الأرض . رأيت الحيوان تساعده غرائزه على ماخلق له كالعسل للنحل والغزل للعنكبوت وحضن الطير لبيضه وإرضاع الأم ولدها . ورأينا هذا الإنسان مغرما بالبقاء يربي ولده كأنه يظن أنه بقاء له ولو بقاء صوريا ويؤلف العلم ويشيد المباني كالأهرام ويكتب اسمه عليها تخليدا له ويبذل المال للشعراء ليحيوا اسمه . أليس ذلك كغريزة الغزل المخلوق في جسم العنكبوت لابد من فائدته . انظر انظر كيف خزنت الصور في عقله . بل انظر انظر كيف جاء التنويم المغناطيسي فأبان أن الحوادث كلها كامنة وأن الإنسان يكاشف عوالم أخرى حينما تضعف رابطته بالجسد . ولسنا الآن نذكر الصالحين وأهل الذكر وأهل الرياضة لأننا في مقام خطاب الجمهور . انظر إلى الأمم جميعها كلها لها ديانات وما من دين إلا وهو يذكر الخلود . لماذا ؟ أليس قبول الأمم للديانات معناه أنهم يحبون حياة خالدة ويحبون أن يكون لهم إله وإلا فلماذا يصدقون ويؤمنون ؟ لم يخلق الله أمة إلا ولها دين . إذن هذا ليس أنقص من غريزة النحلة والنملة والغرائز صادقات . إن الغرائز الإنسانية والأميال قد ظهر صدقها بالديانات والديانات ظهر صدقها في حوادث التنويم المغناطيسي وحوادث الغرق والسقوط من شاهق جبل . إن معنى قوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » قد وضح في الغرائز وفي التنويم المغناطيسي وفي حوادث الغرق والسقوط . إن المسلمين هم المقصرون في العلوم والأمم كلها عرفت من العلم ما هو سر كتابنا وكتابنا لم نعرف منه إلا حفظ الكلمات وعلم الأحكام الشرعية ونحن عن علومه معرضون . اللهم ألهم الأمة الإسلامية علما وحكمة ، والحمد لله رب العالمين .

(ياقوتة في الحياة بعد الموت)

كنت كتبتها في مجلة (نور الإسلام) منذ سنين وهي التي كانت تصدر بالزقازيق .

من العجب أن جميع الجرائد والمجلات العلمية العربية لم تبحث بحثا يعتد به في الحياة بعد الموت إلا ماينقله بعض من نصبوا أنفسهم لترجمة المقالات العلمية عن فلاسفة الإفرنج أولئك هم الباحثون : فيا سبحان الله كأن أهل الشرق لما رأوا أنفسهم خسروا الماديات أتبعوها بالأدبيات والعقليات فتركوا الغربيين العلمين وقرءوا « ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » وتراهم كل يوم يندبون الاتحاد وهم إلى الآن ما اتحدوا في الاعتقاد فعم الفساد في كل ناد . كيف وهذا البحث طالما كان الشغل الشاغل لفلاسفة الشرق بل هو موضوع أبحاث كل ملة في مشارق الأرض ومغاربها وهاك ما اختلج في صدري . فما أحوج الأمة إلى الخوض في هذا الموضوع في هذه النشأة المدنية التي التبس فيها الحق بالباطل حتى إن الناس يخوضون في كل موضوع فإذا وصلوا إلى هذا فلا تسمع منهم إلا همسا كأنهم ظنوا أنه من القضايا التي لم تحم حولها الفلاسفة والكتاب مع أنها أول خاطر يخطر للمتفكر المتبصر ، ولنجعل مدار بحثنا على (ستة أوجه) .

(الوجه الأول)

من نظر إلى الفطرة الإنسانية وجدها تأبى أن تعمل عملا بلا فائدة وتحب أن يكون ماتفعله تاما . وانظر لو رأيت أيها الانسان رجلا أوقد شمعة في ضوء الشمس لحكمت عليه أول وهلة أن موهبة الانسانية وغريزته الفطرية انتزعت منه وقلت هذا فعل الأطفال الذين لايعقلون والفطر فينا كلها صادقة قد اندمجت فيها الحجج والبينات على أمثالها الغريزية والحجة ههنا أن يقال هذا الفعل لابد له من فائدة إما للفاعل أو للمفعول أو لغيرهما وغير ذلك لايكون . فأما فائدة المفعول وهو الشمعة ههنا فالعدم المحض وبئست الفائدة ولا فائدة للفاعل ولا لغيره لشروق الشمس التي لا أثر للمصباح في ضوئها فلننظر إلى أرقى من هذا ألا وهو هذه العوالم

بأجمعها

بأجمعها التى أشرقت بأنوار الحياة السارية فى كلياتها وجزئياتها « الله نور السموات والأرض » ترى نجوما طالعة وأقمارا لامعة وشموسا ساطعة شروقها بنظام وغروبها بإحكام . فليفكر الإنسان « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان » أى يخضعان لما يراد منهما « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » فوامل السموات وقوابل الأرض كالذكر والأنثى وأنت أيها الإنسان نتيجتهما فصل التفصيل السابق فى مثال الشمعة وقل ما الفائدة فى خلقك إذن . فإما أن تكون الخالق ومعلوم أنه غنى وإما أن تكون لك أنت ونحن نعلم أنك فى هذه الدار تسعد يوما وتشقى أياما . وهب أنك ملكت مقاليد السعادة ، أفلا يكون مصيرها إلى الفناء والقصور قصور والحور بور .

أشد الغم عندى فى سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا

وإما أن تكون لغيرك من المخلوقات وقد علمت أن فائدته من نفسه لاقيمة لها فكيف بفائدته منك فتنتج أنه إذا كان مصير هذا العالم إلى الفناء المطلق كان عبثا وباطلا . وإذا كنت أنت أيها العاقل تأبى نفسك أن تفعل العبث وتتكبر عن اللغو والباطل فهل يتصف بذلك الذى أودع تلك الفطرة السامية فيك كيف وقد ورد فى القرآن مايطابق الوجدان قال تعالى « وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » وقال أيضا « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية » وقال « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » . فانظروا أيها العقلاء كيف أعقب خلق السموات والأرض بالحق بذكر قيام الساعة وانقلاب هذا العالم إلى نشأة أخرى كأنه يقول إن لم يكن لهذا العالم نشأة غير هذه بأن هدمناه وأعدمناه كان خلقه بغير حق ولا حكمة فلا بد أن يأخذ دورا جديدا بل نشأة أخرى أرقى من هذه كما هو شأن نظامنا العالى الذى تشاهدونه فى الانسان والحيوان والنبات وجميع العوالم فقيسوا ماغاب على ماشوهد ولما كان الدليل واضحا ظاهرا ظهور الشمس فى رابعة النهار من طريق الاعتبار ، أنكر الله على من لم يتفطن لذلك فقال تعالى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق » كأنه يقول ألم تنظروا فيما ترونه من حكم هذه العوالم وأنها تأخذ فى الترقى فحسبتم أن خلقكم عبث وأنكم لا ترجعون أفلا تعقلون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فثبت بالدلائل العقلية والنقلية أن إعدام العالم بلا نشأة أخرى أرقى من هذه عبث والعبث مستحيل على الله تعالى فلا بد إذن من نشأة أخرى لهذه العوالم « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ـ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » فوق ما تشاهده فى هذه النشأة الصغيرة ، ولولاخوف الملال لأطلت المقال .

(الوجه الثانى)

إننا نرى فطرنا الصادقة فيها داعية عجيبة وهى حب الأخذ بناصر الضعيف على القوى ، فهؤلاء الحكام والقضاة وأرباب المنازل يجدون فى أنفسهم قاهرا وشوقا باعثا على مكافأة المحسنين على الإحسان والمسيئين على الإساءة وهو أمر يقع بالاضطرار من دواعى النفوس ، فبالله ماهذا الوجدان العجيب . أليس هو من العدل المنبعثة أشعته من الحكمة الإلهية العالية فى نفس هذا الإنسان الذى أشرقت عليه أنوار الكمال من الحضرة الإلهية . فكل إنسان من الملوك إلى الصعلوك ومن أعلم عالم إلى أجهل جاهل إذا رأوا ذا روح اعتدى على غيره من إنسان أو حيوان دعتهم أنفسهم إلى المدافعة عنه بل ربما خاطروا بها مخاطرة وتمدحوا بذلك حتى عد هذا من فروع الشجاعة التى هى أحد أركان كمال الفطرة الإنسانية كما أوضحه علماء الأخلاق . فهذه فطرنا الصادقة التى تشف من وراء ستر رقيق عن حكمة عالية وعدل تام فى مصدرها وهو القائم على كل نفس بما

كسبت « وهو القاهر فوق عباده » . أفتكون أنت أيها الانسان مفطورا على العدل والجزاء والقيام بالقسط حتى إن فطرتك السامية كتبت على صفحات ضميرها المستتر « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ومع هذا كله لا ترقى فى الفكر قليلا إلى فاطر هذه الفطرة وموجد هذه الفكرة « وما ربك بظلام للعبيد » .

فساء ما يحكم الجاهلون . كيف ونحن لم نر جزاء فى هذه الدار التى استوى فيها المحسن والمسىء « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » .

فالأرزاق فى هذه الدار جعل الخالق موردها الحياة ولم يفرق فيها بين الخبيث والطيب والبر والفاجر حتى قال « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها » فبالله رعاك الله أين ما يوجد من الفرق بين ذوى النفوس الفاضلة والنفوس الناقصة . وإذا ثبت أنه لا جزاء هنا فالجزاء إذن فى دار أخرى وهى به أحرى « وما ربك بغافل عما تعملون » وهل يستوى عنده الأخيار والأشرار « أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » وهل كل عنــده متساوون « أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » فانظروا أيها العقلاء فى هذا التوبيخ وتأملوا هذه الآية مع ما قدمنا سابقا تجدوا انطباقا تاما بين المعقول والمنقول .

(الوجه الثالث)

إن فطرة الانسان لا تكاد تقنع بالحاجيات من المال ولا بالكماليات من الجمال والحور الحسان ولا بالعقليات من العلوم والمعارف ولا بالحياة الفانية ، فهى أبدا تحب الغنى والجمال والجاه وسعة العلم ودوام البقاء ، فلو أوتيت ما أوتى قارون وهو ذو الحظ العظيم فى المال ، وحكمة لقمان ، وملك سليمان ، وحظيت بأجمل أهل دهرها من بنات الانسان ، بل لو ملكت البسيطة وما حوت والسماء وما وعت لقالت « هل من مزيد » فكأنها تنادى معربة عما خط فيها بالقلم الالهى ، أن هذا المأمل لا يكون إلا فى عالم أرقى من هذا ونشأة تناسب شوقى وتكون منتهى الذوق « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » وإلا فبالله أين العلم الذى لا جهل معه ، وأين الغنى الذى لا فقر بعده وأين الحياة التى لا موت بعدها وأين مقتضى الفطرة من حبنا دوام البقاء ؟ ونفوسنا مستشعرة بذلك فهل يحب أحدنا إلا الحياة الدائمة ، ولما أيس منها فى هذه الدار وخيل له الوهم بادىء بدء أن لا حياة فى غيرها وانحصرت أمانيه فيها إذ لا رسم فى الخيال لدار غيرها أخذ يخترع صورا شتى تصور البقاء بأنواع من الخيالات وضروب من الأوهام التى لا حقيقة لها ، فلو كنا وعظماؤنا بل وعامتنا يحبون تخليد أسمائهم فى بطون التواريخ وعلى المبانى الباقية وأن يلدوا من يبقى لهم شبه الحياة ، كل هذا شهادة من الفطرة بالبقاء ، ولا تظن أن الفطرة ليست من الأدلة فان جميع الفطر المنغرسة فينا لها حكم باهرة وكلها صادقة ، وإن كنت فى شك مما رمزنا إليك فسل قوة الشهوة والغضب وما فينا من كبر وتواضع ورحمة وشجاعة وجبن وحياء وعفة وهكذا فكل منها له نبأ و« لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » فلم تكون هذه الفطرة وحدها بتراء وبقية الفطر صادقة . انتهى الوجه الثالث

(الوجه الرابع)

من المشاهد أن لا لذة فى الدنيا إلا وهى ناقصة ، ولا ألم إلا وهو زائل فهما كالليل والنهار يمحو أحدهما الآخر . ومن المسلم أن لكل شىء غاية يصل إليها ، فأين غاية اللذات . وأين نهاية الآلام فى هذه الحياة التى امتزج فيها الخير بالشر والخبيث بالطيب بل كلّ من اللذة والألم ينتج الآخر فهما فرسا رهان فلابد من دار أخرى تكمل فيها اللذات لقوم والآلام لقوم آخرين « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم » ويجعل أهل الكمال على سرر فى جنات النعيم حتى تتحقق نهاية كل

من

من اللذة والألم ، وإلا كانتا ناقصتين لم يصلا لغايتهما وذلك يخالف القياس ، فمنتهى الألم فى دار يقال فيها « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » ومنتهى اللذات فى دار يقال فيها « ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون »

(الوجه الخامس)

قد ثبت فى الاستكشافات الحديثة فى الجغرافيا الحيلية أن جميع سكان الكرة الأرضية فى مشارق الأرض ومغاربها متوحشين ومتمدينين يدعون بجزاء على الخير والشرّ بعد الموت . فياليت شعرى كيف انغرست الفكرة فى جميع الأذهان . وياالعجب أن سكان المحيط الأعظم مع تباعد جزائرهم وتفرّقها فى أقاصى المحيط وأدانيه عندهم هذا الاعتقاد ولا تواصل بينهم فى محيطهم ولا بينهم وبين الأمم التى فى القارات ، فياليت شعرى ما الذى أثبت تلك الفكرة فى الأذهان من قديم الزمان . ولعمرى ما هى إلا فطرة سارية فى جميع النوع الانسانى . اللهم إلا من شذ من قليل من المتمدينين الذين خرجوا عن الفطرة الأصلية ولم يصلوا إلى الكمال فى العلم فهؤلاء بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . قال الشاعر :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كعيب القادرين على التمام

وإذا كانت هذه الفطرة عامة فلا عجب إذا اتخذناها دليلا وحدها . ولعمرى لا يسلم بهذا الدليل إلا من كانت له قدم راسخة فى العلوم وعرف صدق جميع الفطر المنغرسة فينا وأن شهادتها لا تقبل الرشا ، وهذا يحتاج إلى بصيرة ونظر تام فى جميع العلوم لا سيما علم النفس والتشريح ، ونظير هذه شهادة جميع الفطر أيضا بأن لها ربا صانعا ونوعته بحسب ما يناسب فكرها فى كافة أنحاء الأرض . ولقد أشار الله سبحانه و تعالى لذلك بقوله « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » .

(الوجه السادس)

أردت بهذا الوجه تقريب حال الآخرة بأمثلة الظواهر الطبيعية ، فرب قائل يقول نحن لانعقل للميت نشأة وكيف يعذب أويثاب قبل أن يأتى اليوم الموعود . قلت أنت فى كل يوم وليلة تموت وتحيا ، فالنوم أخو الموت قال تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها و » يتوفى « التى لم تمت فى منامها » وكثيرا ما ترى اثنين فى لحاف واحد قد أحكمت عليهما الحجرة وغلقت الأبواب فقام هذا يقول واحسرتاه على لذة ذهبت قد كنت فى بستان مع الغزلان والندمان أقتطف الريحان وأجنى الثمار ، ويقول الآخر الحمد لله الذى أيقظنى من النوم ولم يكن الحلم واقعا قد أخذوا بخنق إلى رجال الشرطة وحكم علىّ بما يسوء واشتد الأمر فهذا فى النعيم وهذا فى العذاب الأليم مع أن ظاهرهما ساكن قد ضرب على آذانهما وأطبقت أجفانهما وخشعت أصواتهما وهاك مثالا أقرب وهو التنويم المغناطيسى فان المنوم يسمع من المنوم كل غريبة . حتى أنه نوم بعضهم فتاة فقالت أثناء الحادثة أتظن أنك أنت اليقظان وأنا النائمة لا فالأمر بالعكس فانى أرى وأسمع من بعد ما لا ترى ولا تسمع وسوف يأتى وقت نصل فيه لهذه الحال جميعا ، وكأن هذه الفتاة تشير لمعنى الحديث « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » وتشير إلى الآية وهى قوله تعالى « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » أى قوى ثابت ، فيا العجب لهذا الزمان الذى ظهرت فيه العلوم العقلية والنقلية للعيان بعد أن عرفها الأقدمون بالبرهان العقلى حيث أثبتوا أن الجسم متى ضعف واضمحل قويت حالة النفس ورأت المستغربات ولا أفتح علىّ هذا الباب لئلا يطول المقال ويخرج عن حد الاعتدال ، ولكن أقول كلمة ، قد ورد فى بعض الأخبار مايشير إلى أن هذه الأزمنة المتأخرة مصدر العجائب وظهور الغرائب ، ومن أراد أن يطلع على كل جمال وكمال ويرى مافى العالم الأوروبى والأمريكى من المستكشفات التى بهرت العقول مما يدل على بقائنا بعد الموت فعليه

بعلوم الأرواح فانها أتت من سبأ بنبأ يقين وأظهرت للعالم الاسلامى غرائب يجب على كل متنور أن يطلع عليها لاسيما متخرجى المدارس، هذا ، ومثل النشأة الأخرى بالنسبة إلى الدنيا كمثل الحياة الدنيا بالنسبة لحياة الانسان فى الرحم فلايزال الانسان فى ترق من ظهر أبيه إلى بطن أمه إلى عالم الدنيا إلى البرزخ . وكما كان فى حالة لا يكاد يصدق بغيرها ولا يحب الانتقال منها فلوقيل للطفل فى بطن أمه بفرض أنه يعقل إنك ستنزل إلى فضاء واسع سماؤه قدر المشيمة التى أنت فيها ملايين كثيرة وفيها قوم مثلك وأشياء تأكلها وتركبها ولا تقتصر على طعام واحد والأطعمة هناك أحسن من دم أمك الذى يغذيك وستأكل بفمك لا بسرتك بل هذا الدم الذى يغذيك الآن ستستقذره هناك ويمجه طبعك ولاتود الرجوع إلى هذا الرحم فلوذكر بهذا كله لأحاله واستبعده كما نستبعد نحن حال الآخرة لولا البصائر والأخبار ؛ ولنرجع إلى ما نحن بصدده أولا فنقول رب قائل يقول كيف مثلت بالنوم وهوأمر بسيط عادى ، قلنا على رسلك أيها الأخ فما أضاعنا إلا الجهل بما بين أيدينا فالأمم الغربية من حولنا ما ترقت إلا بنظرها حق النظر فى الأمور البسيطة ، من كان بالله قبل اليوم يظن أن الكهرمان الذى كنا نضحك من جذبه للأشياء الصغيرة عند فركه يضىء الأمكنة ويجر الأثقال ويولد الحرارة ، ومن بالله قبل اليوم كان يظن أن البخار الذى يشاهد كل يوم فى كل منزل بحيث يراه العامة يحدث انقلابا عظيما فى عالم المدنية . ومن ذا الذى كان يظن أن المغناطيس بجذبه لقطع الحديد يساعد فى إيصال الأخبار إلى ما بعد من الأقطار مع الكهرباء ؛ إذا كان هذا كله فى الآفاق ونشأت منه هذه العجائب فكيف تركنا النظر فى نفوسنا وعجائبها أظهر وأبهر من عجائب البخار والكهرباء والمغناطيس ، فنحن كنا تاركا بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا « أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » وقال تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » النوم الحقيق والصناعى هى حالة أخرى للانسان ضربت لك مثلا وتكررت كل يوم تمثل حالتك بعد الموت وإن كانت نسبتها إلى الموت كنسبة ضوء الصباح إلى الشمس « ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » وقال « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام ، وقال الحكماء : إن لذة النوم لا فرق بينها وبين لذة اليقظة إلا أن لذة اليقظة يمكن استبقاؤها بخلاف لذة النوم فمن رأى وجها جميلا وتمتع بمشاهدته فى نومه كانت لذته به كلذته فى يقظته لا فرق بينهما ولو دام النوم إذ ذاك لدامت اللذات . ومن فهم هذه المقدمات عرف معنى قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » وقوله صلى الله عليه وسلم للذين قتلوا يوم بدر « يافلان يافلان قد وجدت ماوعدنى ربى حقا فهل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا ؟ فقيل يارسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده إنهم لأسمع بهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب » وما ورد أيضا « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، وأنه إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » وغير ذلك مما لا يحصى ، وبالجملة فأمر الانسان فى حياته وبعد موته يدهش العقول، ولولا خوف الملال لأطلت المقال وفى هذا بلاغ والله أعلم .

وسيأتى فى سورة الكهف زيادة على هذا فى مسألة الروح بمناسبة البعث وقصة أهل الكهف .

﴿ بهجة اللطيفة الثانية والثالثة فى قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى » ﴾

اعلم أن الروح كانت قديما ولم تزل حديثا مناط مباحث العلماء والحكماء أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو ومن نحا نحوهم من علماء الاسكندرية الذين لخصوا فلسفة اليونان واستخلصوا زبدتها وأخرجوها للناس صافية فى القرون الأولى للتاريخ المسيحى ، ومن هؤلاء فى نحو القرن الثانى لميلاد حكيم يقال له (أفلوطين) فكل هؤلاء بحثوا فى النفس ودققوا فيها وجمهور هؤلاء أنها نور إلهى تنزل من الله إلى هذه الأشخاص الانسانية ، ومعلوم أن هذا اللفظ مجاز لأن النور لا يحس وهذه تحس ثم رتبوا على نسبة أرواحنا إلى ربنا علم الأخلاق

جميعه فترى (الرواقيين) منهم يحرصون الحرص كله كما يحرص متبوعهم (سقراط) على التخلق بالأخلاق الجميلة من الصبر والحلم والشجاعة والعفة والحكمة لأن هذه هي التي تنق هذه النفس وترفعها إلى خالقها فترجع له نقية ، لاتكاد تقرأ كتابا من كتب هؤلاء الحكماء ولا من حكماء الإسلام ولا كبار الصوفية إلا وجدت نسبة الروح إلى الله ويسمونها تارة (الجزء الإلهي) وتارة نورا ، والنور مجاز . فانظر للقرآن كيف يقول «من أمر ربي» وهذا هو التعبير الصحيح الخالي من المجاز بخلاف النور ، وتجد (سقراط) في الاستدلال على أن طبيعة النفس غير طبيعة الجسد يقول [إن النفس آمرة والجسم مأمور ومن شأن الأمور الإلهية أن تكون آمرة الخ] .

فاستبان لك من ذلك أن نفوسنا لها شأن من الشئون الإلهية . وبعبارة أخرى : هذه النفس في صفاتها وتعقلها وتفكرها تكون أقرب للعوالم المجرّدة التي هي أقرب إلى الله من عالم الأجساد ، فانظر إلى أفعال هذه النفس في عالمنا الذي نعيش فيه لاسيما في هذا الزمان . اعلم أني اطلعت على كتاب يسمى [راجا يوقا] باللغة الانجليزية كما ذكرته مرارا في هذا التفسير ، وهذا الكتاب مترجم من اللغة الهندية فعرفت منه عجائب النفس وأن القوم لهم طرق يستعملونها لتقدر أرواحهم أن تحكم أجسامهم فيجدّون في التسلط على أنفسهم بحيث يكون الشهيق والزفير أطول من المعتاد شيئا فشيئا إلى دقيقة فخمس دقائق وهكذا ، وبهذه الطريقة أمكنهم حبس النفس مدة طويلة ، ومعنى هذا أن حركة الدم تكون ضعيفة وقد تقف وليس هذا الوقوف الاختيارى موتا ، كلا ، ويقولون إنهم متى حكموا هذا التنفس الذي بواسطته حكموا الدورة الدموية فقد تسلطوا على القوى العقلية بحيث لايدخل في عقله إلا ما ينفع نفسه فلا يلحقه همّ ولا غم لأنه متى أراد شيئا حصل له وهو لا يريد الغم فلا يغتمّ وهكذا ، وهناك فروع كثيرة وكتب مؤلفة ظهرت حديثا بلغات مختلفة في هذا الباب ، وعلى ذلك قدر بعضهم أن ينام في الصندوق ستة أشهر بإرادته

هذا ما كنت قرأته في هذا الكتاب ثم مضى زمن بعد ذلك فقرأت من حوادث حصلت في أوروبا وفي مصر تشابه ما قرأته في ذلك الكتاب ، وهي ثلاث حوادث الحادثة . الأولى : حادثة الفقير الألماني (ديلار) الآتي تفصيل حوادثه هنا . فهذا لما وقع أسيرا قطع (عرق الوريد) من رقبته ثم أحب الحياة فاجتهد أن يقوى إرادته حتى انقطع الدم وكان هذا مبدأ لحصول القوة عند الرجل فصار يفعل بجسمه مايشاء وبريد من غير ألم . الحادثة الثانية الفتاة (تريزنيومان) هذه التي كانت في ليلة الجمعة من كل أسبوع تظهر عليها أعراض تشبه الأعراض التي تسمعها في الكتب الدينية وهي علامات آلام السيد المسيح ، ولعمرى إن ذلك لم يحصل لها إلا بكثرة تأملها في أمر السيد المسيح عليه السلام فأصبحت تظهر عليها الأعراض التي سمعت أنه اتصف بها . الحادثة الثالثة هي حادثة الدكتور (طهرا بك) الذي جاء إلى مصر أثناء طبع هذه السورة وفعل مثل ماقرأته عن علماء الهند تماما في أوروبا وفي مصر . وقد آن أن أسمعك هذه الأخبار الثلاثة ثم أحدثك بعد ذلك عن هذه للناظر مايليق بالمقام من الجمال والجلال والحكمة والنور الإلهي والسعادة الأبدية والسر العظيم

﴿ الحادثة الأولى والثانية ﴾

أرسل مكاتب جريدة (البلق بارزيان) في (برسلو) البرقية الآتية إلى جريدته :

تكلمت الجرائد الألمانية والأجنبية في المدة الأخيرة عن المظاهر الغريبة التي بدت مؤخرا على الفتاة (تريزنيومان) البافارية التي كان يرى على جسدها في يوم الجمعة من كل أسبوع علامات آلام السيد المسيح وقد تألفت لجنة من الأطباء هي الآن مجدّة في البحث لمعرفة كنه هذه الوقائع ، ويظهر أن الاستغراق الديني لم يكن وحده السبب لهذه المظاهر وحدوث هذه العلامات ، فقد قام مؤخرا رجل من العمال في (برسلو) اسمه

(ديلر) وجهر أمام الأطباء ورجال العلم والصحافة فى تلك المدينة بأنه قادر بمجرد إرادته فقط أن يحدث على جسده وبدون أى ألم كل الظواهر (الفسيولوجية) التى بدت على جسم الفتاة (تريزنيومان) وفعلا كان ظهور (ديلر) هذا حادثا خارقا للطبيعة اهتم بشأنه رجال العلم لأنه يضاهى فى غرابته الأعمال التى يقوم بها فقراء الهنود ، عرف (ديلر) لغاية الآن بأنه رجل لايشعر بأى ألم من الآلام الطبيعية ولذلك لقبه مواطنوه (بالفاقد الألم) وقد ظهر على جملة مسارح عمومية وسمر مرارا على صليب بواسطة دق مسامير كبيرة فى يديه ورجليه وطعن أيضا فى جنبه بحربة اخترقته ، ومن المدهش أن كل جراحاته هذه لم تكن قط لتنزف دما وكان يصرح وهو فى هذه الحالات بأنه لايشعر قط بأى ألم ، ولما بلغت أسماع (ديلر) أخبار (تريزنيومان) طلب أن تعقد لجنة مؤلفة من الأطباء ورجال العلم والصحافة فى مدينة (برسلو) ليعرض أمامها مشاهد غريبة من نوع جديد ، وفعلا أمام هذه اللجنة أظهر (ديلر) على يديه ورجليه وجنبه لطخا حمراء بشكل صليب كما كانت تظهر على (تريزنيومان) وجعل هذه اللطخ تنزف دما وبرهن (ديلر) على أنه بمجرد إرادته فقط يستطيع إحداث هذه المظاهر فى أى قسم من جسده وذلك بدون أى ألم ، وقد يكون من المفيد أن نروى للقراء كيف توصل (ديلر) المذكور إلى هذه القدرة الفائقة لإحداث هذه المظاهر الخارقة للعادة .

فى بدء الحرب العالمية كان (ديلر) هذا جنديا فى آلاى (الهوسار) بمدينة أوهلو ثم أخذ أسيرا واعتقل فى (بولونيا) حيث تعلم سريعا اللغة الروسية وساعده ذلك على الفرار مختفيا بملابس ضابط لكن ألقى القبض عليه وحوكم وحكم عليه بالإعدام بتهمة التجسس . وفى الليلة السابقة لليوم المعين موعدا لتنفيذ الحكم حاول الانتحار بأن قطع من عنقه الشريان المعروف (بحبل الوريد) ولكنه قبل أن يسلم الروح عاوده فجأة شوق شديد إلى الحياة وتمكن بقوة إرادة خارقة للعادة من توقيف النزيف الدموى ثم أغمى عليه ولما أفاق من إغمائه وجد نفسه منطرحا على حافة حفرة كانت بدون شك معدة لأن تكون قبرا ولا يعلم للآن لأى سبب لم يطرح فى داخلها . ولماذا لم يهل عليه التراب ، وقد كان ذلك سببا لنجاته وتمكنه من الفرار ثانية ، وبعد رجوعه لألمانيا أخذ يقص على مواطنيه الحوادث الغريبة التى طرأت عليه . ولما لاحظ أنهم كانوا يدهشون لها ولا يكادون يصدقونها آلى على نفسه أن يجتهد لكى يقوى لدرجة عجيبة ، تلك الإرادة التى أحسها فى داخله أثناء ظروف غير عادية وهكذا كان، فإن النتائج المدهشة التى حصل عليها لا تجعل مجالا لأى شك ، ونحن نتساءل ألا تكون هذه النتائج ردا علميا يفسر ما غمض من مظاهر (تريزنيومان) .

﴿ الحادثة الثالثة حوادث روحية فى مصر ﴾

ظهر رجل يقال له (طهرابك) فى أوروبا وفى الشرق وحضر إلى مصر واجتمع به عدد من راغبى مشاهدة التجارب الغريبة ليلة ٢ نوفمبر سنة ١٩٢٧ وكان بين الحاضرين كثيرون من الأطباء ورجال الصحافة العربية والأفرنجية ، ومع أن صاحب الحفلة كان قد نبه على استحسان عدم حضور السيدات لأن معظم تجاربه قد يؤثر فى مزاجهن قد حضر هذه الحفلة كثيرات منهن ، وقبل الساعة العاشرة بدقائق رفع الستار عن الدكتور (طهرا بك) فى لباسه العربى الأبيض وعلى رأسه العقال وعن منضدة غرزت فيها خناجر ودبابيس طويلة وعن سائر أدوات تجاربه مما سنذكره فى خلال وصف هذه التجارب وقد تصاعدت رائحة البخور فى المسرح ووقف أحد أصدقاء الدكتور (طهرا بك) فأخذ يتلو باللغة الفرنسوية شرحا لنظريات الدكتور ثم أكمل هو هذا الشرح وبسط جانبا من برنامج الحفلة . وقبل أن يشرع فى تجاربه طلب من الأطباء ورجال الصحافة أن يصعدوا إلى المسرح فصعد عدد كبير منهم فأعلن لهم أنه سيتدئ بتجربة وقوعه فى غيبوبة أوتيبس وطلب من الأطباء أن يفحصوا نبضه ففحصوه ووجدوا أنه ١١٠ فى الدقيقة ثم زاد النبض حتى

بلغ

بلغ ١٤٠ فأعلنوا ذلك للجمهور . وعندئذ وضع يديه على صدغيه وضغط بأصابعه على الوريدين الموصلين للدم إلى رأسه ضغطا شديدا فغاب عن صوابه وصار فى حالة تخشب حمله اثنان ووضعوه على تصال من الفولاذ محمولة على حاملين ولكنها غير محددة ثم رفعوا عن الأرض حجرا ثقيلا كالحجارة التى تستعمل فى أفاريز الشوارع ووضعوه على بطنه وهوى شخص بمطرقة على هذا الحجر فكسره نصفين ، وعلى أثر ذلك أفاق الدكتور (طهرا بك) من غيبوبته دون أن يصاب بسوء . ثم طلب من الحاضرين من الأطباء ورجال الصحافة أن يفحصوا الخناجر والدبابيس ففحصوها وأعلن أنه أصبح فاقد الإحساس بالألم وتناول خنجرا كبيرا وأدخله بمقدار (٥) سنتيمترات فى الجزء الأسفل من عنقه وطلب من أحد الأطباء الواقفين أن يولج دبوسين فى سطح جلد ساعديه ففعل وأولج هو كذلك دبوسين فى شدقيه ودبوسين فى ثندوتيه فسال دم من هذه الجروح لوث ثوبه الأبيض ولكنه لم يتألم ونزل إلى البهو وطاف بين الحاضرين يريهم هذه الدبابيس المولجة فى جسمه وعاد فصعد إلى المسرح وأخرجها منه . وكان قد أعدّ له لوح من الخشب ثبتت فيه مسامير حادة طول كل منها أكثر من ١٠ سنتيمترات فاستلقى على ظهره فوق هذا اللوح وجاء بعض الأطباء وفحصوا الأمر فقال طبيب منهم إن المسامير لم تمسه وإنه فيما بين أعلى فخذيه قد وضع قطعا من الكاوتشوك . وقال أطباء آخرون بل إن جانبا من المسامير اخترق لحمه ولا سيما فى الجانب العلوى من الظهر وحدث خلاف فى هذا الشأن وأصر كل من الفريقين على رأيه وكان الطبيب المخالف يود أن يرى المسامير تخترق السلسلة الفقرية أو المقاتل الأخرى . وأخيرا ثبت أنه وإن كانت المسامير لم تخترق موضعا قاتلا فقد اخترقت مواضع أخرى وأنه قام من فوق هذا اللوح دون أن يتألم ، وإلى هنا انتهى الفصل الأول . ولما رفع الستار فى الفصل الثانى أعلن الدكتور (طهرا بك) أنه مستعد لقراءة الأفكار عن الماضى والحاضر فقط وطلب من أحدهم أن يفكر فى أى شخص كان فى القاعة ففكر فى صديق له فى أحد اللوجات العليا فقرأ فكره وقاده إلى صديقه ثم طلب منه أن يفكر فى بعض أشياء صديقه ففكر فى منديله فأخرجه من جيبه .

على أنه لم ينجح تماما فى قراءة أفكار آخرين ، وعلل ذلك بترددهم فى الفكر . وانتقل إلى تجربة مقدرته على تنويم الحيوانات تنويما مغناطيسيا فجىء له بديكين وأرنب كبير فنومهما بمجرد لمسه إياهما .

وختم تجاربه بتجربة دفنه فى صندوق وكان قد أعد هذا الصندوق فوق المسرح وإلى جانبه كومة كبيرة من الرمل وجاء كثيرون ففحصوا قاع الصندوق وجوانبه وبعد ماشرح نظريته هذه وتعليلها العلمى ، قال إن هذه النظرية منقولة عن المصريين القدماء ثم سأل الحاضرين كم من الوقت يريدون أن يظل مدفونا فاقترحوا أن تكون المدة ١٠ دقائق ثم جىء له بقطن سدّ به أنفه وأوقع نفسه فى غيبوبة كما فى المرة الأولى وحمل إلى الصندوق وأهيل عليه التراب وسد الصندوق بغطائه وأحكم سده من الخارج بالرمل وعندما انقضت الدقائق العشر كشف التراب عن الصندوق فى الحال وأخرج منه فاذا هو حى ووقف على حافة المسرح وفى يده أوراق صغيرة وازدحم الجمهور حوله وتخاطفوها من يده ، وهى كما قال (طلاسم) مفيدة وكان الحاضرون يصفقون له .

وقد سئل طبيب كبير مشهور من أطباء الأمراض الباطنية فى العاصمة وكان من جملة الحاضرين . بماذا يعلل عدم إحساس الدكتور (طهرا بك) بالألم فى تجربة الخناجر والدبابيس . فأجاب بأن ذلك نتيجة تشنج فى الأوعية . وعلل تجربة الوقوع فى الغيبوبة بأنها نتيجة تمرين المخ تمرينا مستمرا على ذلك وقال إنه يوجد أناس يستطيعون أن يوقفوا حركة القلب مدة معينة دون أن يموتوا . أما هو فيقول إن هذه الأعمال ترجع إلى أصل علمى أى أنها ليست سحرا ولا شعوذة . ثم إنه قد افتتنت به أوروبا فى العامين الماضيين عندما

طاف عواصمها وهو يدهش الناس بأعماله الخارقة للطبيعة وبجعل الصحف الغربيـة تعجب بتجاربه العلمية الساحرة وقد اهتم الأطباء بأمره وعقدوا الجلسات لفحصه ودراسة عجائبه فقرروا أنه ذو مقـدرة عجيبة تتسلط بها روحه على جسده فيأتى بالعجائب، وطيرت التلغرافات فى العام الماضى عجائبه فروتها الجرائد فى مصر .

ولما سئل قال إن هذا العلم اسمه علم (الفقير زم) وقال إن الانسان مركب من [ثلاثة عناصر] الجسم والنفس والروح ، والنفس (قوتان) إحداهما متصلة بالجسم تدبر حركاته والأخرى متصلة بقوة خفية عظيمة هى التى يعرفها أهل الأديان باسم (الله) والغرض من (الفقير زم) البحث عن هذه القوة النفسية وإنمائها والتوصل إلى الانتفاع بها فى جعل الحياة سعيدة هانئة .

وقد ولد الدكتور (طهرا بك) فى الأستانة وتخرج من كلياتها الطبية وشغف بالفقير زم فدرسه على شيخ مصرى يدعى الشيخ الفلكى واستطاع أن يتبحر فى هذا العلم ويقوم بتجاربه العجيبة ومنها أن يطعن نفسه بالمدى والخناجر ويتسلط على الدورة الدموية فلا تسيل الدماء من جروحه ثم تلتحم فى الحال وأن يسيطر على تنفسه وعلى دورته الدموية فيدفن نفسه فى صناديق مفرغة من الهواء ويظل مدفونا ساعات وأياما ثم ينهض حيا ، وقد قضى ١٨ يوما مدفونا فى بطن الأرض فى بلاد اليونان . ويستطيع أن يصلب جسمه فلا يتأثر من الوخز ويغرز فى جسمه المسامير والدبابيس فلا تترك أثرا ، وقال إن فى استطاعة كل إنسان أن يقوم بهذه التجارب إذا مرن إرادته على التحكم فى جسده بقوة روحه . انتهى الكلام على (طهرا بك) .

انظر أيها الذكى إلى العلم قديما وحديثا ، وانظر إلى تعاريف القدماء إذ يقولون إنها نور من الله أوشعاع منه . ثم انظر إلى قول (سقراط) كيف استدل على أنها مخالفة للأجسام بعلامة وهى أنها آمرة والجسم مأمور والأمر إنما يكون من الله . فهى إذن منسوبة إليه مستمدة منه ، ثم انظر كيف جاء القرآن وقال «من أمر ربى» فعبر بما هو أدق ، ثم تعجب ألف مرة من هذا النوع الانسانى ذلك النوع النشط المفكر ، فانظر أولا إلى (ديار) الألمانى ألم تر أن تسلطه على قوى جسمه إنما جاء بطريق المصادفة بحيث إنه لما قطع العرق ونزف الدم واقترب الموت وجد فى نفسه نزوعا إلى المغالبة فغلبت إرادته الدم وقوى عليه . أفلست ترى أن هذه الحادثة التى جرت فى أوروبا تلك الأمم المادية التى أصبحت تعبد المادة عبادة قد جرت قبلها قديما عند الهنود فى مدنياتهم القديمة فأخذوا يفكرون فيما به يحكمون أجسامهم فوجدوا أن النفس الخارج الداخل موصل لذلك بحيث يحبسونه داخلا أو خارجا بنظام خاص . وأيضا رعما أن بعضهم فى الأعصر القديمة حصل له ما حصل إلى (تريزنيومان) البافارية من ألمانيا أيضا فعلموا أن الأفكار الدينية لها تأثير على الجسم فأخذوا يفكرون حتى جعلوا ذلك علما . ولعل مسألة التنفس عندهم أقرب إلى مسألة (ديار) المتقدمة إن الله لذو فضل على وعلى الناس بالعلم ، ونسأل الله أن يلهمنا شكر هذه النعمة العظيمة .

﴿ عجائب العلم ﴾

فانظر كيف يحصل هذا أيام طبع هذا التفسير ونشره بين الناس وابتهج بالعلم الذى ستسمعه فترى من آيات الله عجبا .

فانظر إلى هذا الإنسان إذ عرف روحه الفلاسفة وأصلح القرآن تعريفهم ثم جاء العصر الحاضر فأطلعنا على أسرار للروح جاءت على أيدى أقوام قبل الهجرة بآلاف السنين ثم اقترب العلم منا وظهر لنا ووضح وأصبح ما كان اجتهادا وفلسفة عملا ظاهرا مكشوفا للناس ورأينا أن هذه النفس نافذة العمل فى الجسم بالتصرف فيه تصرفا تاما كأنها تقول أنا نور الله وإن لم تصدقوا فانظروا آثارى القاهرة العجيبة فيه الأمم من ذلك .

ثمرة هذا المقال وبهجته

اللهم إنك أنت المحمود على العلم والحكمة ، اللهم أنت المعلم ، أنت الحكيم بعلم الحكمة المرشد لنفوسنا المسعد لها . أنت الذى أنزلت العبادات على الأمم جميعها ، وأنت الذى أمرتهم أن يصلوا ويقولوا « اهدنا الصراط المستقيم » فها نحن الآن فهمنا فائدة الصلاة .

إن المصلى والذاكر لله كلاهما يحضر فى قلبه عظمة مولاه فيفاض عليه حلل من أنوار ذى الجلال والإكرام من جنس مافكر فيه . فاذا كانت الفتاة البافارية فكرت فى أن المسيح مصلوب فقد ظهرت أعراض الصلب على جسمها وهكذا الفتى الألمانى وهكذا (طهرا بك) .

الله أكبر . جل العلم وجل الله . إذن عقلنا حقا من أمر الله أو نور من الله ولو لم يكن من الله لم يؤثر هذه الآثار المائلة عند الاستعداد لها بالممارسة بالتنفس أو بقوة الارادة أو بالفكر الدينى . أليس هذا بعينه هو قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المشهور « أنا عند ظن عبدى بى » ولسنا نهتم بكون الحديث بسند ضعيف أو صحيح لأن المعنى صحيح . وأظهر من هذا قوله « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » لقد استبان بهذا المقام كيف وصل قوم إلى معانى تظهر على ألسنتهم وتؤثر فى عقول الناس بواسطة طريقة واحدة وهى استدامة الذكر فيذكرون اسما من أسماء الله تعالى أو يلزمون الصمت والجوع والسهر وما أشبه ذلك فيحصل لهم أمور عجيبة . فهذا حقا من هذا الباب لأن النفس الإنسانية تتجه إلى الأغراض السامية إذا وجهت إليها وإلى الدنيئة كذلك . ولما كان الذكر حبسا للنفس الإنسانية عن أمور الدنيا اتجهت النفس إلى ماطلب منها وهذا أمر أجمعت عليه أمم الأرض . ولقد قرأته فى كتاب (راجا يوقا) مترجما إلى الإنجليزية عن الهندية . فهؤلاء الوثنيون بعد أن ذكروا نظام الجسم وفقرات الظهر وأنها فى وسطها فراغ يوصل إلى المخ وفى نهايتها من أسفل مثلث محكم السد يشتمل على عجب الذنب . قالوا وهذا له سر لا يعلمه الناس . وبكثرة المجاهدة يحصل اتصال مجهول بين هذا المثلث وبين المخ به تفاض العلوم على الإنسان جميعها وإن لم يتعلمها ، هذا كلامهم .

وهذه النغمة هى التى يرددها الصوفية وليس لهذا أهمية فى هذا المقام إلا أنهم يقولون إن عجب الذنب موضع العلوم والأسرار وبالتهذيب والعبادة يفتح سد مجهول بينه وبين المخ فيعرف الإنسان العلوم كلها ، هذا القول يذكرنا بقول العلماء إن عجب الذنب باق كالروح كما جاء فى كتب التوحيد إذ قال صاحب الجوهرة

(عجب الذنب كالروح الخ)

نعم إن المسألة فيها خلاف ولكن كيف يرد فى ديننا مسألة عجب الذنب وبقائه وكيف يكون هذا القول حاصلا عند البراهمة قبل آلاف السنين وأن العلم فى ذلك المخزن وإذن يكون الباقى هو العلم لا نفس العجب . إذن عجب الذنب رمز إلى العلوم والعلوم فى النفس تبقى معها . فالروح باقية وعلومها باقية وإذن يكون علم الهنود فى هذا سر هذه المسألة وزوال الخلاف . وعندى أن هذه وحدها أعجب المعجزات فهذا القول لم يسمع به المسلمون فى العصور الأولى ولا المتأخرة . وقد عثرت عليه مصادفة وأنا أقرؤه فى الكتاب .

وجاء فى هذا الكتاب أيضا أن ذكر اسم الله وتكراره فى النفس يؤثر فى الأعصاب فتمتلئ بالأنوار بحكم المجاورة فترتقى النفس وتعرف ربها . ولكن هم يقولون إن كبح جماح الشهوات لابد منه لأن كثيرا من الناس بالذكر يصلون إلى الله ولكن الوصول ناقص لأنهم يحبون الدنيا فلا بد من احتقار الدنيا وحصر الحب فى الله وحده . ههنا ظهرت صفوة العلم فى هذه الدنيا .

(صفوة العلم فى هذا المقام)

إن النفس الإنسانية بالتهذيب والذكر وحصر الفكر والتنفس وقوة الإرادة المكتسبة قد تصل إلى الله

أو تتحكم فى الجسم كما تشاء أو تنفع الناس بعلمها ومواهبها .

يظهر أن الله قد أعطانا هذه القوة وقال لنا سأنظر ماذا تصنعون ونحن منا من جعل ذلك سببا لرفع نفسه ورفع الانسانية ، ومنا من جعلها لملذاته وشهواته .

هذا هو حل المشاكل التى كانت أمامى فلقد سألنى شاب مهذب ذكى من مدينة (تيطوان) من بلاد مراكش قائلا : لقد شهدت جماعة ببلادنا لهم رئيس كبير وهو وأتباعه وأشياعه يجتمعون فى مكان خاص ويوجهون هممهم إلى أمر واحد فلا يلبثون حتى يروا واحداً منهم ارتفع إلى أعلى المنزل وهؤلاء لا صلاة لهم ولا زكاة ولا حج ولا طهارة . وإذا أهداهم أحد كبشا من الضأن أو تيسا من المعز لم يذبحوه بل يخرقون بطنه بسكين ثم يتلقفونه ويأكلونه . ثم قال فهذه القوة الخارقة للعادة ليست عندنا نحن المسلمين فلا أدرى أنحن على الحق أم هم ؟ لهذا أطلت الكلام فى هذا المقام وأتيت بزبدة علوم الأمم قديما وحديثا هنا قائلا للمسلمين وجميع المتعلمين إن روح الانسان فيها قوة إلهية كما رأيتم بالبرهان فى هذا المقام وهذه القوة بحصرها تفعل الأعاجيب ولا تتوقف على دين بل هذه القوة كامنة فى النفس تظهر فى الوثنى والمتدين بل ربما ظهرت فى الوثنيين أكثر ، ذلك لأن الدين جاء لمنع إخراج هذه القوة وبعثرتها فيما لا يفيد وماذا يفيد الانسانية من أمور مثل هذه وما هذا إلا ضرب مثل من السحر لأن السحر يرجع أمره إلى تأثير النفس تأثيرا سافلا ، فههنا انصرفت النفس إلى تعطيل قواها وملكاتها فى هذه الحياة فانبعثت قوتها إلى الشعوذة والشعبذة ، وهذه نفس معذبة فى هذه الحياة وبعد الموت لأنها عالة على الأمم ضالة . فهذه القوة التى ارتفع بها أحد المجتمعين هى نفسها التى صرفها المؤلفون والمدرسون والصانعون والمهندسون فى منفعة الأمم ولهذا جاء الدين . الله أرسل الأنبياء للناس بوحى وقوة قدسية وقال للناس فكروا واعقلوا وإياكم أن تتبعوا الكهانة لأن الكهان يوجهون هممهم إلى الإخبار بالغيب وإعلام الناس بحوادث تافهة منها الصادقة والكاذبة ومن هذه الكهانة ما يرد على ألسنة بعض الذاكرين الذين اتبعوا طرقا من طرق الصوفية فهؤلاء ربما يرد بخواطرهم ويظهر على ألسنتهم بعض حوادث الناس فيظنون هذا وصولا لله وما هو بوصول ولكن هذه قوى كانت كامنة فظهرت لتقويهم على العبادة لا لتكون آلة للشهوات فإذا اتخذوها صناعة وصاروا على الناس عالة أصبحوا شياطين ضالين كما نص عليه أكابر الصوفية وتراه ظاهرا فى كتبهم وبهذا ظهر الأمر واتضح وتحقق «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم» . فالأنبياء جاءوا لإنقاذ الناس من أمثال هذا ووجهوا الناس إلى كشف قواهم التى بها يساعد بعضهم بعضا وهى العلوم والصناعات . فأما أمثال هذا فهو المسمى سحرا أو شعوذة أو شعبذة .

إن فى نفوسنا قوة كامنة يظهرها مؤثرات عليها كما نرى فى التنويم المغناطيسى وكيف يصبح الإنسان عند تنويمه فى الدرجة الأولى عالما بأمور يجهلها فى اليقظة ، وفى الدرجة الثانية عالما بأمور يجهلها فى الدرجة الثالثة يخاطب الأرواح ويكلمهم ويتصرف فى جسمه كأنه غريب عنه ويساعد الأطباء فى قطع عضو من أعضائه وهو ضاحك مستبشر . كل ذلك تقدم فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » فهذه القوة النفسية ظهرت بالتنويم المغناطيسى وهو نوع من السحر ولم يخلقنا الله فى الأرض لنفعل ذلك بل خلقنا لنقوى إرادتنا وندرس العالم الذى نحن فيه لتزيد قوتنا المدخرة المظيمة . ومن هذه القوة ماذكره العلامة الرئيس ابن سينا أن القوة الروحية فى الإنسان قد تظهر فيخبر بأمور غائبة أو يقوى على أعمال جسمية . أقول وهذا حق كما تبين لك فى مسألة (طهرا بك) المذكورة فيما تقدم . وقد ذكر هو أيضا أن الترك إذا أرادوا أن يستخبروا عن الحوادث المستقبلة يضعون رجلا معروفا عندهم باستعداده لذلك ويشدونه بحبل ويلعب ويجىء وهو كالمختنق به وزئيره وشهيقه مرتفعان حتى يغشى

عليه فيخبرهم ببعض الحوادث . وقد يضعون قطرة حبر أسود فى كعوب ماء ويأمرون صبيا مثلا أن يحدق فيه ببصره بمدة طويلة فيخبرهم ببعض الحوادث . أقول : وهذا هو (المندل) المعروف . وكل هذا نوع من التنويم المغناطيسى . ومن هذه القوة ماذكره العلامة ابن خلدون فى مقدمته قال [وبالمغرب صنف من هؤلاء المنتحلين لهذه الأعمال السحرية يعرفون (بالبعاجين) وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيتخرق ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم البعاج لأن أكثر ما ينتحل من السحر بعج الأغنام ، يرهب بذلك أهلها ليعطوه من فضلها وهم متسترون بذلك فى الغاية خوفا على أنفسهم من الحكام. لقيت منهم جماعة وشاهدت من أفعالهم هذه وأخبرونى أن لهم وجهة رياضية بدعوات كفرية وإشراك لروحانية الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى (الخزيرية) يتدارسونها ، ثم قال [وأما أفعالهم فظاهرة موجودة وقفنا على الكثير منها وعاينا ها من غير ريبة. هذا شأن السحر والطلسمات فى العالم] انتهى ما قاله ابن خلدون .

أقول : وهذه الطائفة بعينها التى تقدم ذكرها فى مقال الشاب المراكشى المتقدم فإن هؤلاء يجلسون ويبعجون الغنم ويتكلون على الأمة فى معاشهم بطريق أنهم أولياء وعندهم سر . فالمرجع فى هذا كله النفس الإنسانية فيها قوة كامنة إلهية إن حركناها بعد استخراجها الخير نفعت بالعلوم والصناعات وإن حركناها بعد استخراجها الشر ضلت كما يفعل الناس اليوم فى التنويم المغناطيسى إذ يأمرون المنوم (بالفتح) أن يقتل زيدا فى وقت معين فاذا استيقظ وجد فى نفسه الميل للقتل فى نفس الوقت وهذا أمر معلوم مشاهد ، ولا فرق بين هؤلاء البعاجة وبين المخبرين ببعض الغيب ، كل عنده قوة حركها إلى مالا خير فيه . ولكن العلم فى عصرنا الحاضر استخرج قوات الطبيعة فبدل أن يبعج بقوته الروحية بطن الغنم أهلكوا بقوة السلاح الأمم فالقوة الخفية يجب توجيهها إلى العلوم المعروفة الآن لأنها ترقى الأشخاص والأمم . فأما فعل السحرة وصغار الصوفية فهو فسق وجهل بين ، وقد وقعت الأمم فيه . ومعلوم أن الخوارق للعادات إما معجزة لنبى أو كرامة لولى أو استدراج لفاسق أو معونة لعامى ، ولذلك قال تعالى «وما نرسل بالآيات إلا تخويفا» .

وما مثل القوى المتقدمة إلا كمثل الحرارة والحركة والمغناطيس والكهرباء اللاتى اتضح شرحها فى سورة الرعد فهذه ينقلب بعضها إلى بعض فالحرارة تنقلب حركة والحركة كهرباء وهكذا وهى شىء واحد هكذا قوة النفس إن وجهت إلى المنفعة أعطاها الله معجزة لنبى أو كرامة لولى ، وبالعكس المعونة لعامى والاستدراج لفاسق كما تقدم . وقد وقعت الأمم الإسلامية المتأخرة فى هذه الورطة وصار الناس فرقا متشاكسين لأنهم جهلوا أصول العلوم ولم يفرقوا بين التصوف الصحيح والتصوف المزيف الكاذب . وههنا سألنى بعض الأصدقاء هذا السؤال قائلا : أيها الحبيب أريد أن تدخل شيئا مما دخل من البدع فى علوم المسلمين من الباطنية ونحوهم حتى نتنور ونميز الغث من السمين ، فقلت أنا سأذكر لك (ثلاث مسائل) من أفعال المضلين : [المسألة الأولى] مذهب الباطنية الذى تغلغل فى بلاد الاسلام واتصل من العصور الأولى إلى الآن . [المسألة الثانية] الكلام على نظام الملك الوزير وعمر الخيام الفيلسوف وحسن بن الصباح الباطنى توضيحا للمسألة الأولى . [المسألة الثالثة] زهد أكثر الأمم الإسلامية اليوم فى فهم القرآن والاهتداء به مكتفين بشيوخهم ، وأن هذا مسبب عن المسألتين السابقتين . وسترى الكلام على هذه المسائل فى سورة الكهف عند قوله تعالى « وما كنت متخذ المضلين عضدا» انتهى الكلام على اللطيفتين الثانية والثالثة .

اللطيفة الرابعة الجمال والبهاء والحسن والسحر الحلال فى قوله تعالى
« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستورا »

اعلم أن الحجاب (خمسة أنواع) حجاب جسمى ، وحجاب خلقى ، وحجاب عقلى . وحجاب علمى ، وحجاب دينى . أما الحجاب الجسمى فان الانسان إذا كان ضعيف الجسم خائر القوة مريضا لم يفقه العلم بل تتجه قواه لإتمام مانقص من قوة الجسم فلا تتفرغ لعمل ولا تنصت لعلم ولا تستلذ بالحكمة ولا تهش ولا تبش للحكماء وهذا يفهم من قوله تعالى «وزاده بسطة فى العلم والجسم» فكأن فيه إشارة إلى أن بسطة الجسم قد توافق بسطة العلم . وأما الحجاب الخلقى فهو مايعترى الناس من الشهوات وأنواع العداوات فتشغل النفس عن العلوم وتصد عن سبيل المعارف بما ملئت به من الحسرات على مافات ومن الندم والألم وهكذا الآمال الكثيرة التى تستغرق أمر النفس وتوقعها فى اللبس وتهمكها وتخرجها عن دائرة الحكمة وسواء السبيل، وهذا قوله تعالى «بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» . وأما الحجاب العقلى فهو ذلك النقص الذى يخلق مع الانسان فى مبدأ حياته ، وأول نشأته بحيث يكون قليل التمييز ضعيف الفكر فمثل هذا لاينفعه تعلم المعلمين ولا يرفعه تهذيب المهذبين ولكن هذا النوع نادر أو قليل، وهذا معنى قوله تعالى « فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» . وأما الحجاب العلمى فهو مايغتر به الإنسان من الشهادات الدراسية والمناصب العلمية والإجازات الفنية ومدح الناس وثنائهم عليه والتصدر للفتوى ونحو ذلك فيظن أنه قد كملت نفسه وفاق الأقران علمه . فهنالك لا تكاد تقبل نفسه علم العلماء ولا حكمة الحكماء، وهؤلاء يقول الله فيهم «فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» .

فياحسرة على من طبع الجهل على قلبه وختم الغرور على سمعه وبصره فعمى عن حقيقة نفسه فصار من الجاهلين الهالكين، والله تعالى يقول « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » فإذن أكبر مصيبة وأجل رزية تغتال النفوس وتحصد الرجال الشهادات الدراسية من المعاهد العلمية والمدارس النظامية فهى حجاب بين العقول وارتقاء العلوم وقد يغتر المرء بعلم من العلوم كالنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع وكالإنشاء والتاريخ وكالفقه وكالطب وكالهندسة فيشمخ أحدهم بما حواه من العلم فيكون فى ذلك مصرع نفسه وذهاب أنسه .

فأما الحجاب الدينى فهو مايحتور القلوب من العمى بالاغترار بمذهب من المذاهب الدينية فيظن المجهول أن دين الله إنما هو فى هذا المذهب فيحصر عقله فيه تقليدا لأستاذ ضيق العطن قليل الفطن فيقول ما دمت أقرأ مذهب الشافعية أو الحنفية أو الزيدية أو الشيعية أو غيرهم فانى قد قضيت واجبى وأطعت خالقى . وما عرف المسكين أن ماقرأه إنما هو بعض الدين لا كله، وأن أصل الدين الوقوف على جمال هذا العالم ونظامه، إذ ذلك به زيادة التوحيد وبه اليقين وبه شكر الله تعالى فـلا شكر إلا بعلم ، وأجل العلوم معرفة هذه الدنيا وما دروس اللغات جميعها من عربية وفروعها الاثنى عشر ونحوها ومن فارسية وتركية وأوردية وإنجليزية وألمانية ويونانية إلا مقدمات للعلوم . فعلوم اللسان مقدمات لعلوم الجنان . وعلوم الجنان هى علوم نظام هذه الدنيا من السموات والأرضين . وما دروس الفقه إلا لنظام القضاء بين العباد لنظام هذه الدنيا فمن جعل حياته وقفا عليه فقد باء بإثم عظيم إذا كان عنده استعداد للعلوم . فهذه كلها حجب أسدلت على عقول طوائف من المسلمين منذ تسعة قرون فكان ماكان ، وهذا أوان إشراق شمس المعارف فى بلاد الشرق . انتهى تفسير سورة بنى إسرائيل .

﴿ سورة الكهف مكية ، وهى مائة وإحدى عشرة آية ﴾

المناسبة بين سورة الإسراء والكهف

اعلم أن قوله تعالى « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب » متصل بالحمد فى آخر سورة الإسراء . يقول هناك وقل الحمد لله الذى لم يشغله ولد عن إسداء النعم ولم يعارضه شريك ولم يعوزه ناصر ، فهناك تحميد على أنه لاصارف له يصرفه عن القيام بشئون خلقه وهنا أخذ يتمم صفاته تعالى فهناك صفات الجلال التى يكون بها التنزيه وهنا صفات الجمال وهى إنزال الكتاب الموصوف بوصفين وصف سلبى ووصف إيجابى على الترتيب السابق . ومن العجب أن الحمد فى آخر الإسراء مناسب للتنزيه فى أولها والحمد فى أول الكهف جاء متمما ، فالله كامل فى نفسه مكمل لغيره . وهكذا الإنسان يجب أن يتشبه بالله فيكون كاملا مكملا لغيره وهذه صفات الأنبياء والحكماء والعلماء . وانظر إلى الإسراء فأولها تسبيح وإلى الكهف أولها تحميد والتسبيح مقدم على التحميد كما تقدم فى قوله تعالى فى الإسراء « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » انتهى .

والسورة (قسمان : القسم الأول) فى قصة أهل الكهف وما يناسبها من أمر البعث وبقاء الأرواح . (القسم الثانى) فى قصة الخضر وموسى عليهما الصلاة والسلام وذى القرنين .

القسم الأول

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا * أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا

يأتون عليهم بسلطان بيّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ۝ وإذ اعتزلتموهم وما
يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من
أمركم مرفقا ۝ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت
تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد، ومن
يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ۝ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين
وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا
ولملئت منهم رعبا ۝ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا
لبثنا يوما أو بعض يوم، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه
إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم
أحدا ۝ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا ۝
وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون
بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن
عليهم مسجدا ۝ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما
بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ۝ فلا
تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ۝ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك
غدا ۝ إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من
هذا رشدا ۝ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ۝ قل الله أعلم بما
لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك
في حكمه أحدا ۝ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن
تجد من دونه ملتحدا ۝ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي
يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه
عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ۝ وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا

يغاثوا

يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا • أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا • وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا • كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا • وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا • وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا • وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا • قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا • لَٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا • وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا • فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا • أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا • وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا • وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا • هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا • وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ، فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا • الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا • وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا • وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا • وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ

رَبُّكَ أَحَدًا • وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ
فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا • مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ
الْمُضِلِّينَ عَضُدًا • وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا • وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا •
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا • وَمَا
مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا • وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا • وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا • وَرَبُّكَ
الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا
مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا • وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا •

(تفسير بعض الألفاظ)

قال تعالى (عوجا) شيئا من العوج ، والعوج بوزن عنب فى المعانى كالعوج بوزن سبب فى الأعيان فتقول فى رأيه عوج وفى عصاه عوج (قيما) أى وجعله قيما مستقيما معتدلا أو قيما بمصالح العباد (لينذر) الذين كفروا (بأسا شديدا) عذابا شديدا (من لدنه) من عنده (أجرا حسنا) الجنة (ماكثين فيه) مقيمين فيه (مالهم به) بالولد وباتخاذه: أى إن قولهم لم يصدر عن علم بل هم جهلاء لا يعرفون الأدلة التى توصلهم إلى العلم بنفيه (كبرت كلمة) نصب كلمة على التمييز وفيه معنى التعجب: أى عظمت مقالتهم هذه فى الكفر وهى قولهم اتخذ الله ولدا وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها والمخصوص بالذم محذوف وصف بقوله (تخرج من أفواههم) استعظاما الفعل وفعل كبرت كبئس وفاعله مضمر مميز بالنكرة (إن يقولون إلا كذبا) أى ما يقولون ذلك إلا كذبا (فلعلك باخع نفسك) قاتل نفسك (على آثارهم) أى آثار الكفار فكأنك رجل فارقه أحبته فهو هالع القلب يتحسر ويتساقط حسرات على آثارهم وهو يبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا فكأنه ينتحر أسفا عليهم (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) القرآن (أسفا) أى لفرط الحزن والأسف (إنا جعلنا ما على الأرض) من نبات وشجر وأنهار وعلماء وصلحاء وكل ما على الأرض فهو زينة لها بعضها معروف عند العام والخاص والجميع معروف عند الخواص كالحيات والعقارب والحشرات (زينة لها) ولأهلها (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) فى فهم مقاصد تلك الزينة وخالقها والآثار المترتبة عليها وهل هناك لها نتيجة فى الوجود فيكون الناس محاسبين عليها وهل هى متقنة حقا وصدقا وفى فهم جميع دروسها وهل يأخذون منها ما يكفيهم ويواسون غيرهم بالباقى

وهل يعرفون نعمة الله أم هم ينكرونها (صعيدا جرزا) الصعيد وجه الأرض والجرز الأملس اليابس الذى لا ينبت فيه شئ (أم حسبت) بل أحسبت (أن أصحاب الكهف والرقيم) الكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم لوح حجرى رقمت فيه أسماؤهم كالألواح الحجرية المصرية المشهورة التى يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء، (كانوا من آياتنا عجبا) أى لا تحسب يا محمد أن قصة أصحاب الكهف والرقيم المذكورة فى كتب الأمم السالفة وإبقاء حياتهم أمدا طويلا عجبا بالاضافة إلى ما جعلناه على الأرض من زينتها عجبا فليست هى عجبا من بين آياتنا فقط بل زينة الأرض وعجائبها أبدع وأعظم من قصة أصحاب الكهف فاذا وقف علماء الأديان الأخرى على أمثالها فأنا أدعوك وأمتك إلى ما هو أعظم منها والنظر فى هذا العالم الذى تعيشون فيه لتفوزوا فى الدنيا والآخرة بالعلو والجنة . فأما الوقوف على القصص وغرائبها فذلك ليس يكفى الانسانية فى مستقبل الزمان وإنما يقف عندها العامة والخاصة يقرءون ماتقشته فى الطبيعة وهو الموصل إلى خيرى الدنيا والآخرة والوصول إلى الله .

لقد تقدم فى سورة الإسراء أن الحديث المشهور وهو أنهم سألوه صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن ذى القرنين وعن أصحاب الكهف لم يرد فى الصحيح فلا يعول عليه . ولنذكر لك نبذة صغيرة مما ذكره المفسرون على أنه من غير الصحيح لتقف على ماقاله العلماء لمجرد المعرفة . يقال إن النضر بن الحارث كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومتى جلس صلى الله عليه وسلم مجلسا ليبلغ الرسالة يخلفه النضر ويقول بعد أن يقوم أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثا منه ويحدثهم عن ملوك فارس، ثم إن قريشا بعثوه ومعه آخر إلى اليهود ليسألوهم فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما وصلا إلى المدينة قال الأحبار سلوه عن ثلاث عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فان حديثهم عجب، وعن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح وما هو؟ فان أخبركم فهو نبى وإلا فهو متقوّل، فلما قدم النضر وصاحبه مكة سألوا النبى صلى الله عليه وسلم ، قال أخبركم بما سألتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة فشقّ عليه ذلك ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم وفيه خبر أولئك الفتية وخبر الرجل الطواف وهو ذو القرنين .

قصة أهل الكهف ملخصة

روى أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها الناس فشدد أكثر من الجميع فى ذلك (دقيانوس) الملك فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على الدين فنزع ثيابهم وحليهم وتوعدهم ولكنه رحم شبابهم فأمهلهم حتى يرجعوا إلى رشدهم وانطلق (دقيانوس) إلى مدن أخرى ليأمرهم بعبادة الأصنام أو ليقتلوا . أما الفتية فانهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم المسماة (أفسوس) وهذا الجبل يسمى (ينجايوس) وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم (دقيانوس) وقتلهم ماتوا طائعين عابدين وقد كانوا سبعة فلما مروا فى الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلبه فجلسوا هناك على العبادة والتسبيح وكان أحدهم المسمى (تمليخا) هو الذى يبتاع لهم أرزاقهم ويوصل لهم أخبار (دقيانوس) وهو مجد فى طلبهم وبقوا كذلك أياما حتى رجع دقيانوس إلى بلدتهم وبحث عن عابدى الله يذبحهم أو فليسجدوا للأصنام فسمع بذلك (تمليخا) وهو يشترى الطعام فى اختفاء، فأخبرهم فبكوا ثم ضرب الله على آذانهم فناموا وتذكرهم (دقيانوس) فهدد آباءهم إن لم يحضروهم فدلوه عليهم فى الكهف فتوجه إلى الكهف فسده عليهم ليموتوا وانتهى الأمر على ذلك . ثم إنه كان هناك رجلان مؤمنان

فى حاشية الملك (دقيانوس) يكتمان إيمانهما وهما (يدروس) و (روناس) فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرا فى لوحين من حجر وجعلاهما فى تابوت من نحاس وجعلا التابوت فى البنيان ليكون عبرة وتاريخا فيما بعد، ثم مضت قرون تبعها قرون ولم يبق لدقيانوس ذكر ولا أثر وملك البلاد ملك صالح يقال له (يدروس) وبقى ملكه ٦٨ سنة وانقسم الناس فى أمر البعث فرقتين كافرة ومؤمنة فحزن الملك حزنا شديدا وتضرع إلى الله تعالى أن يرى الناس آية حتى يعلموا أن الساعة لا ريب فيها . واتفق إذ ذاك أن راعيا اسمه (أولياس) خطر له أن يهدم باب هذا الكهف ويبنى به حظيرة لغنمه ولكن الله لم يمكنه من رؤيتهم فلما فتح الكهف استيقظوا جميعا فجلسوا مستبشرين وقاموا الصلاة ثم قال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما «قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما الخ» فذهب تمليخا على عادته يشترى الطعام ويتلطف فى السؤال متخفيا حذرا من (دقيانوس) . فلما خرج تمليخا من باب الكهف عجب من الحجارة التى حوله وذهب إلى المدينة فرأى جميع معالمها متغيرة .

أما الخيام فانها كخيامهم وأرى رجال الحى غير رجالها

وسمع اسم المسيح ينادى به فى كل مكان فقال عجبا لم لم يذبح ؟ (دقيانوس) هؤلاء المؤمنين ، ولما تحير قال ربما كنت نائما ولعل هذه ليست مدينتنا فسأل رجلا ما اسم هذه المدينة قال (أفسوس) وأخيرا تقدم إلى رجل فأعطاه الورق ليشترى به طعاما فدهش الرجل وأخذ يقلبها ويعطيها إلى جيرانه وهم يعجبون ويقولون هذا كنز عثرت عليه فان هذه الدراهم عليها اسم (دقيانوس) وذلك من زمان بعيد فسحبوه حتى دخلوا على رجلين يقومان بأحكام المدينة فظن تمليخا أنهم أخذوه إلى (دقيانوس) فلما عرف أنهم لم يؤت به إلى (دقيانوس) سرى عنه الهم وذهب البكاء فسأله الحاكمان وهما (أريوس) و (طنطيوس) أين الكنز الذى وجدت يافتى . وبعد أخذ ورد ذكر لهما خبر الفتية (ودقيانوس) وأن أمرهما كان أمس ولكنه متحير فى أمره وإنكم إن شئتم فها هو ذا الكهف فاذهبوا معى فانظروه وفيه أصحابى فقاموا معه حتى وصلوا إلى باب الكهف وتقدمهم تمليخا فأخبرهم الخبر كله فعجبوا وعرفوا أنهم ناموا ثلثمائة وتسع سنين وأنهم أوقظوا ليكونوا آية للناس ، ثم دخل (أريوس) فرأى تابوتا من نحاس مكتوبا مختوما بخاتم وفيه قصتهم فى اللوحين المذكورين . وملخصها أنهم فتية هربوا من (دقيانوس) خوفا على دينهم فسد عليهم بالحجارة . وقد كتبنا هذه القصة ليعرفها من بعدنا فخر (اريوس) ومن معه سجدا لله وأرسلوا بريدا إلى ملكهم الذى تضرع لله (يدروس) أن عجل واحضر لترى آية الله فى أمر البعث فهؤلاء فتية ناموا منذ (٣٠٠) سنة الخ فحمد الملك الله وركب وركب معه أهل مدينته حتى أتوا مدينة (أفسوس) وكان يوما مشهودا ، ولما رأى الفتية (يدروس) خر ساجداً لله ثم اعتنقهم وبكى وهم لايزالون يسبحون الله تعالى . ثم قال الفتية له نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن فرجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم ، فأمر الملك أن يجعل كل منهم فى تابوت من ذهب فلما أمسى ونام رآهم فى المنام يقولون اتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله فأمر الملك أن يكونوا فى تابوت من ساج فجعلوا فيه ولم يقدر أحد بعد ذلك أن يدخل عليهم وأمر الملك أن يتخذ على باب الكهف مسجدا يصلى الناس فيه وجعل لهم عيدا عظيما انتهى .

هذا ملخص القصة ذكرتها لك حتى يسهل عليك فهم الآيات الآتية ولم يبق إلا تفسير ألفاظها . فهذه هى القصة التى كان النصارى يجعلونها دليلا على البعث . فأما القرآن فان الله يقول فيه إن آياتى على البعث وعلى بقاء أرواحكم ورجوعها بعد الموت وعلى وجودى ليست قاصرة على هذه القصة فآياتى لا تعد والأقلام لا تحصيها فلا تقفوا على هذا بل اقرءوا نقوش هذا الوجود لا نقوش أهل الكهف والرقيم وحدها فأنتم خير أمة

أخرجت

أخرجت للناس ونظركم عام فى الكائنات لافى مجرد القصص والحكايات وإن كانت فيها دلائل ولكن دلائلها أوسع .

يقول الله تعالى اذكر يامحمد (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أى رحمة من خزائن رحمتك وهى المغفرة والرزق والأمن من الأعداء « وهيء لنا من أمرنا » الذى نحن عليه من مفارقة الكفار «رشدا» حتى نكون بسببه راشدين مهتدين (فضربنا على آذانهم) أى ضربنا عليهم حجابا يمنع السماع بمعنى أننا أنمناهم إنامة لاتنبههم فيها الأصوات فحذف المفعول الذى هو الحجاب (فى الكهف سنين) ظرفان لضربنا (عددا) أى ذوات عدد (ثم بعثناهم) أيقظناهم (لنعلم أى الحزبين) الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم منهم ومن غيرهم (أحصى لما لبثوا أمدا) أى لنعلم اختلافهما موجودا كما علمناه قبل وجوده أنه سيوجد (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) بالصدق (إنهم فتية) شبان جمع فتى كصبية جمع صبى (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) بالتثبت (وربطنا على قلوبهم) قويناها بالصبر لهجر الوطن والحال والجراءة على إظهار الحق والرد على دقيانوس الجبار (إذ قاموا) بين يديه فى مدينة [أفسوس] فقالوا ربنا رب السموات والأرض) إلى قوله (شططا) أى والله لقد قلنا إذن قولا ذا شطط أى ذا بعد عن الحق مفرط فى الظلم ، ثم قال (هؤلاء قومنا) مبتدأ وعطف بيان عليه وخبره (اتخذوا من دونه آلهة لولا) هلا (يأتون عليهم بسلطان بين) على عبادتهم بحجة بينة (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك إليه . ثم خاطب بعضهم بعضا لما رحم الملك شبابهم وأرجأ أمرهم (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) أى وإذا اعتزلتم القوم ومعبوديهم إلا الله لأنهم كانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام (فأووا إلى الكهف) فى الجبل الذى هو بالقرب من أفسوس (ينشر) يبسط (لكم ربكم من رحمته) فى الدارين (ويهيء لكم من ربكم مرفقا) أى ما ترتفقون به : أى تنتفعون وذلك لوثوقهم بأن الله معهم لإخلاصهم وقد فعل الله ذلك بهم إذ أقفل دقيانوس عليهم فم الكهف ليكون ذلك آية (وترى الشمس) أيها الانسان (إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين) أى تميل جهة اليمين أى الجهة صاحبة اسم اليمين . وقرىء « تزاور » بالتشديد وأصلها تتزاور فأدغمت التاء فى الزاى (وإذا غربت تقرضهم) تقطعهم وتتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال وهم فى فجوة منه) أى فى متسع من الكهف أى إنهم فى ظل نهارهم لا تصيبهم الشمس فى طلوعها ولا غروبها، وكان باب الكهف فى مقابلة بنات نعش فهو إلى الجهة الشمالية والشمس لا تسامت ذلك أبدا لأنها لاتصل إلى أبعد من خط السرطان وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة كما يعرفه من له أدنى إلمام بعلم الفلك (ذلك من آيات الله) أى شأنهم وإيواؤهم إلى كهف بهذه الصفة وإخبارك بقصتهم ووضعهم فى موضع بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة وتقرضهم غاربة . كل ذلك من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) أى من يوفقه الله بالتأمل فى آياته الكثيرة هذه وغيرها فهو الذى يصيب الفلاح (ومن يضلل)ومن يضلله الله ولم يرشده (فلن تجد له وليا مرشدا) معينا يرشده (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) وتحسبهم أيها الانسان منتبهين لأن أعينهم مفتحة وهم نيام (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) لئلا تأكل الأرض لحومهم (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أى فناء الكهف أو عتبة الباب (لو اطلعت عليهم) يا محمد (لوليت منهم فرارا) لما ألبسهم الله من الهيبة (ولملئت منهم رعبا) خوفا يملأ صدرك وكما أنمناهم آية بعثناهم آية على كمال قدرتنا وهذا قوله تعالى (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم) ليسأل بعضهم بعضا وليتفقوا بالبعث (قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم) فضتكم (أيها أزكى طعاما) أى أى أهل المدينة أحل طعاما لأن منهم مؤمنين يخفون إيمانهم فلنأكل من ذبائحهم أو أجود (برزق) من قوت

وطعام تأكلونه (وليتلطف) يترفق فى الطريق وفى المدينة (ولايشعرن) يعلمن(بكم أحدا)من غير المؤمنين (إنهم إن يظهروا عليكم) يعلوا بمكانكم (يرجموكم) يقتلوكم بالحجارة وهو أخبث القتل أو يعذبوكم (أو يعيدوكم ملتهم) كما تقدم فى أعمال دقيانوس الذى أرجأ أمرهم (ولن تفلحوا إذا أبدا) أى إن عدتم إليهم (وكذلك أعثرنا عليهم) أى وكما أنمناهم وبعثناهم أطلعنا عليهم (ليعلموا) أى ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم (أن وعد الله) بالبعث (حق) فنومهم كحال الأموات واستيقاظهم كحال البعث (وأن الساعة لاريب فيها) وأن القيامة لا ريب فى إمكانها فمن حفظ أجسامهم مدة ثلثمائة سنة ولم تتعفن ثم أيقظهم قادر أن يحفظ الأرواح أمدا طويلا ثم يردها إلى أبدانها (إذ يتنازعون بينهم أمرهم) متعلق بأعثرنا أى أطلعنا عليهم بيدروس وقومه حين ينازع بعضهم بعضا بعد ما فرحوا وفرح الملك بآية الله تعالى على البعث وذهب مابينهم من الشقاق فى أمر القيامة وحمدوا الله تعالى إلى آخر ما فى القصة ، ففريق يقول نبنى عليهم قرية نسكنها ، وفريق يقول نبنى مسجدا يصلى فيه الناس فغلب هذا الفريق الفريق الآخر فى الرأى وبنوا عليهم مسجداً ، وهذا قوله تعالى (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم) إلى قوله (مسجدا) وقوله «ربهم أعلم بهم» جملة اعتراضية من الله . ولما فرغ من الكلام على القصة وعلى نزاع المتخاصمين فيما يبنى عليهم أخذ الله يقص علينا ما دار فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم بعد ماقص ما دار فى زمن بيدروس الذى بنى المسجد إذ اختلف الناس فى عدد أهل الكهف ، فقال السيد وهو نصرانى يعقوبى من نجران إنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم ، وقال العاقب منهم وكان نسطوريا هم خمسة وسادسهم كلبهم ، وقال أصحاب الملك وهم الملكانية سبعة وثامنهم كلبهم قطمير وهذا قوله تعالى (سيقولون ثلاثة) إلى قوله (ما يعلمهم إلا قليل) وقوله «رجما بالغيب» ظنا بالغيب بغير علم . وروى أن ابن عباس رضى الله عنه قال أنا من القليل هم ثمانية سوى الكلب ولم يرد فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم شئ فى هذا دلالة على أن أمر العدد لايهم والمهم الاعتبار بمجموع القصة وما يكون نافعا لعقولنا وارتقائنا فى حياتنا الدنيا وفى الأخرى . فهذا هو القصص الذى طلبوه (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى لاتجادل فى شأن الفتية إلاجدالا ظاهرا غير متعمق فيه فتقص عليهم مافى القرآن من غير تجهيل لهم ولا رد عليهم (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى لاتستفت فى أصحاب الكهف من أهل الكتاب أحدا أى لا ترجع إلى قول أحد منهم بعد ما أخبرناك وإنما كان التعمق غير مرغوب فيه لأن المقام مقام عظات واعتبار فالبحث عن العدد مثلا هل كان (٣) أو (٥) أو (٧) لا فائدة من تحقيقه ولا غرض فى معرفته . وإذا كانت القصة كلها ليست بالنسبة لآيات الله إلا أمرا قليلا فكيف يكون البحث عن مفصلاتها .

إن القصص لم يكن الغرض منها سوى الوعظ وهذه القصة يقصد منها أمر البعث وأمر البعث يعرف بأمور من العوالم المحيطة بكم لاتتناهى كما سيأتى بيانه من علم الطبيعة فى العلوم الحديثة فكيف تضيعون الوقت فى ذلك والوقت يجب أن يوفر للعلوم الطبيعية التى دخلت فى ضمن « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » ثم قال (ولا تقولن الخ) . يقول العلماء رحمهم الله تعالى إن هذا تأديب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم حين قالت العرب بإشارة اليهود ماتقدم من طلب الأمور الثلاثة ، فقال ائتونى غدا أخبركم ولم يقل إن شاء الله أى ولا تقولن لأجل شئ تعزم عليه إنى فاعل ذلك الشئ غدا إلا حال كونك متلبسا بمشيئة الله أى قائلاً إن شاء الله (واذكر ربك) أى مشيئته وقل إن شاء الله (إذا نسيت) أى إذا فرط منك نسيان لذلك ، أى إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تذكرتها فتداركها بالذكر مادمت فى المجلس عن الحسن وبعد سنة عن ابن عباس وفى أقرب زمن عند بعضهم ، والأحكام الفقهية مبنية على أن يكون الاستثناء متصلا .

(حكاية)

حكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضى الله عنهما فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه ، فقال له أبو حنيفة هذا يرجع عليك إنك تأخذ البيعة بالأيمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك، هذا هو الذى يقصده هذا الذى وشى بى إليك فاستحسن كلامه وأمر أن يخرج الطاعن فى الإمام من عنده . انتهت الحكاية .

(وجوه أخرى فى الآية)

(١) واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء .

(٢) وصلّ صلاة نسيتها إذا ذكرتها .

(٣) إذا نسيت شيئا فاذكره ليذكرك المنسى .

أقول: وهذه الأخيرة جربتها فتذكرت مانسيت، وكان الذكر بلفظ يارب . واعلم أن هذه القصة المذكورة لجىء بها كما تقدم على أنها ليس العجب خاصا بها بل أعجب منها عجائب الله فى الأرض والسماء فما على الأرض من نبات وحيوان الخ أعجب ، وما فى الفلك من بهجة أجمل وأبهر وأبهى من خوارق العادات فى هذه القصة أو فى غيرها ولذلك أتبعه بما بعده فأمره صلى الله عليه وسلم أن يسأله تعالى فقال (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) أى لأظهر دلالة على أنى نبى من نبأ أصحاب الكهف الذى هو عبارة عن حديث جرى لأمم النصارى مع أن آيات الله لا تتناهى فى أرضه وسمائه فهو قادر أن يعطينى منها مايشاء ولذلك أجاب دعاءه حالا وأنزل عليه (ولبثوا فى كهفهم ثلاث مئة) وأبدل منها لفظ (سنين) وقرئ بالاضافة على وضع سنين موضع سنة التى هى الأصل فى تمييز المائة .

يقول الله إخبارا من عنده ولبث أهل الكهف إلى يوم النبوة المحمدية ثلثمائة سنة وتسع سنين ، ولما سمع أهل الكتاب وهم نصارى نجران ذلك قالوا أما الثلثمائة فقد عرفناها وأما التسع فلا علم لنا بها فقال الله له (قل الله أعلم بما لبثوا) كما قلنا لك من قبل «فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا» الخ لأن المقام مقام اعتبار وحكم، والمشاغبة والجدال يضيع المقصود من الرسالة ومن العلم . ثم اعلم أيها الفطن أن هذه معجزة أهم من ذكر قصة أهل الكهف، لأن الله يقول أيها الناس هذا النبى الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس علم الحساب ولا الهندسة ولا الفلك من أين جاء له أن كل ثلثمائة سنة تزداد تسع سنين [وبعبارة أخرى] من أين عرف أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية وكل سنة شمسية تزيد نحو (١١) يوما . من أين جاء له ذلك وهو لم يدرس ذلك وكيف ينزل عليه لفظ «وازدادوا» ليفصل بين الزيادة فى القمرية والمزيد عليه فى الشمسية . هل هذه رمية من غير رام . وإذا وقف أهل نجران وقالوا لانعرف التسع وعرف الثلثمائة أفلا يتفطن الناس لهذا القول ويعرفوا أن هناك معانى وأن أهل عصر النبوة عجزوا عن فهم مثل هذه الأمور ، وإذا كان حبر عظيم من أكبر علماء الإسلام كالعلامة الرازى رحمه الله يقول إن الحساب لا يوافق هذا القول فكيف بغيره من الذين لاعلم لهم . فاذا كان فلاسفة الاسلام وحكماؤهم يترددون فى هذا القول من حيث السنين الشمسية والقمرية ويقولون ليس ذلك حقيقة فكيف بغيرهم ممن لا علم لهم بحساب ولا فلك ؟ ولقد أدركتك الحقيقة ناصعة كما أثبتها المحققون وقرأناه فى الفلك وأصبح معلوما مشهورا عند علمائه ، أفلا تعجب من حكمة عالية وآيات ظاهرة وعجائب باهرة ؟ .

إذن عرفت كيف هداه الله لأقرب من هذا رشدا وكيف لفت الأنظار إلى علم ما على الأرض من زينة لها كضوء الشمس المشرق على وجهها وحسابه وزينته وما نتج عن الضوء من بهجة الأرض وزينتها لأنه لولا

اختلاف الفصول لم تكن للأرض زينة ولا اختلاف الفصول إلا بتقلب الشمس وطلوعها من حيث لا نحس وتنقلها فى البروج فهذا التقلب هو الذى يعطى الأرض زينتها ، فما من دابة ولا حيوان ولا جمال إلا وكان أسه ضوء الشمس الذى أرسله الله إلى الأرض كما يرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ليهدينا للعلم ويقول لنا إن النظر فيما على الأرض من زينة الناجم من ضوء الكواكب أقرب رشدا من قصص الأولين وحكايات الغابرين ، وإن ماترونه فى هذه الأرض أبهر وأجمل من كل ما يصدر من خوارق العادات فكم فى العوالم المحيطة بكم من خوارق فاياكم أن تذروها ابتغاء مايقع على يدى أنبيائكم وأوليائكم فإنى أرسلت الأنبياء ليرشدوكم إلى ملكى حتى إنى لم أشغلكم بما جاء على يدى المختارين منكم لأن ذلك يسير بالاضافة إلى عجائبى فى خلق وما الأنبياء والأولياء إلا بعض خلق . فخلق السموات والأرضين أكبر من خلق الناس فانظروا فيما هو أكبر ، والأنبياء ماجاءوا لكم إلا ليرشدوكم إلىّ وإلى نظامى وعجائبى ، فاذا قصرتم عقولكم على بعض ما يقع لهم كنتم غافلين عما هو أقرب رشدا . وسيأتى إيضاح هذا المقام فانتظر يسيرا تر العجب العجاب . واعلم أن هذا ينافى ماجاء فى القصة وهو أن ثلثمائة سنة كان آخرها العثور عليهم وقت أن بنوا المسجد ولكن القصة فيها تساهل والحكايات يدخلها التحريف فالقول إن المدة إلى زمن النبوة أقرب إلى التاريخ وهى المنقولة عن كثير من العلماء ورجحوها ثم قال تعالى (له غيب السموات والأرض) أى ماغاب وخفى فيهما ومن ذلك الغائب على كثير من العقول حساب السنين الشمسية والقمرية غيبه الله عن بعض الناس حتى يطلع عليه العارفون بحساب الفلك فيعجبون من أمر نبيهم ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها ويتعجبون ويدرسون العلوم المتعلقة بهذا التى مبدؤها العلوم الرياضية ونهايتها العلوم الطبيعية : أى إنى أعلم غيب السموات والأرض وغيبها هو ماغاب عن العقول وسأفطن لها الأجيال المقبلة حتى يدرسوا الرياضة التى أشرت لها بالسنين المذكورة ونتيجة الأضواء والشموس زينة الأرض وهى علوم الطبيعة (أبصر به وأسمع) أى ماأبصر الله وما أسمعه ، صيغة تعجب من أن الله يسمع ويبصر مالا علم لنا به وهو خارج عن إدراكنا (مالهم) لأهل السموات والأرض (من دونه من ولى) من يتولى أمورهم (ولا يشرك فى حكمه) فى قضائه (أحدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا . ومثل هذا القول لا يذكر عادة فى القرآن إلا عند الأمور العظيمة للتنبيه على ما فيها من خفايا وقد أرشدك الله إليها فى هذا التفسير كأنه يقول انظروا فى جمال الفلك وحسابه ونتائج الإشراق وجمال زينة الأرض التى جعلتها لكم ابتلاء واختبارا لعقولكم وأعمالكم فاتجدوا فى العلوم لتعرفونى ولتكونوا أقوياء فى الأرض .

أيها المسلمون . هذا أوانه وهذا أوان ظهور مقاصد القرآن وعلومه وقد أرشد الله كتاب الاسلام أن يظهر الله على أيديهم غرائب القرآن لتتجهوا إلى عجائب ربكم فى أرضه وسمائه والله ولى حميد .

واعلم أن الكلام على مازينت به الأرض المذكور فى أول السورة جاء فى [خمسة فصول] :

[الفصل الأول] قصة أهل الكهف وأنها أقل عجبا من زينة الأرض وما عليها .

[الفصل الثانى] حساب السنين الشمسية والقمرية وجمالها وبدائعها ، وهذا أول قطرة من بحر الزينة الفائض وهى مجملة ، وقدّمت لأنها أصل ماعلى الأرض كما تقدم فى أن النيل والفرات جاآ من الحركات السماوية .

[الفصل الثالث] إيضاح المقام بذكر أن القلوب قسمان : قسم غافل وقسم مستبصر ، فالمستبصرون يفكرون والغافلون يطلبون الزينة المذكورة فى أول السورة للشهوات والحياة الدنيا إلى قوله « وساءت مرتفقا » .

[الفصل الرابع] دخول في المقصود فعلا وإيضاحه بضرب مثل لرجلين فأحدهما له بستان والآخر لا بستان له واغترار الأول وتبصر الثاني . فهذا بيان لمن غفل قلبه فتعلق بظاهر الزينة ومن فكر قلبه فعرف حقائقها وفناءها إلى قوله «وخير عقبا» .

[الفصل الخامس] في استخراج النتيجة كما هي والرجوع لأول السورة إذ ضرب مثل الدنيا بمثل النبات يخضر ثم يصير هشيما تذروه الرياح، وأن المال والبنين كالنبات كلاهما متاع الحياة الدنيا ذاهب أيضا كما يذهب النبات فالمدار على الحقائق لا المظاهر. ثم أتبع ذلك بذكر خراب الأرض وذهاب الجبال وقراءة الناس كتبهم وذكر إبليس وعصيانه الذي هو أصل هذه الأخلاق ؛ وأن هؤلاء الضالين المضلين ومن تبعهم لا يعرفون حقائق الأشياء في السموات والأرض إلى آخر ما سيأتي .

(تفسير كلمات الفصل الثالث)

قال تعالى (من كتاب ربك) القرآن (لا مبدل لكلماته) لا أحد يقدر على تغييرها (ملتحدا) ملتجأ تعدل إليه إن هممت به (واصبر نفسك) احبسها وثبتها (بالغداة والعشي) أي في جميع أوقاتهم أو في طرفي النهار (يريدون وجهه) رضا الله تعالى (ولا تعد عيناك عنهم) أي لا تجاوزهم عيناك ، يقال عداه : جاوزه ولكن عدى هنا بعن لتضمن معنى نبا يقال نبت عنه عينه إذا لم تبصره (تريد زينة الحياة الدنيا) في موضع الحال (من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر كأمية بن خلف لما دعاك إلى طرد الفقراء من مجلسك ليحل محلهم صناديد قريش (واتبع هواه) في طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) مجاوزا الحق مخالفا له (وقل) يا محمد (الحق من ربكم) الحق ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) لا أبالي بإيمان من آمن ولا بكفر من كفر (أعتدنا) هيأنا (سرادقها) فسطاطها فقد شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق ، أو السرادق الدخان لأنه محيط بالنار وبهم فيها فهو كالفسطاط من وجه الشمول والاحاطة (وإن يستغيثوا) من العطش (كالمهل) هو دردي الزيت أو ما أذيب من الجواهر المعدنية كالرصاص والنحاس (يشوي الوجوه) أي ينضج الوجوه من حره (بئس الشراب وساءت) ضلال للنم والمخصوص بالذم المهل والنار (مرتفقا) متكأ جيء به لمشاكلة قوله «وحسنت مرتفقا» في الجنة (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) أي لا نترك أعمالهم تذهب ضياعا بل نجازيهم بأعمالهم الصالحة (أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار) خبر «إن الذين آمنوا» وجملة «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا» اعتراضية ، وقوله (يحلون فيها من أساور من ذهب) خبر ثان من الأولى ابتدائية والثانية للبيان، بين الأساور بأنها من الذهب أي أساور كائنة من ذهب وهي جمع أسورة جمع سوار (ويلبسون ثيابا خضرا) لأن الخضرة أوفق للأبصار ولذلك جعلها الله عامة في النبات وزين بها الأشجار كما لون السماء بالزرقة وهما معا مقبولان نافعان لأبصار الحيوان (من سندس وإستبرق) مارق من الديباج وما غلظ منه (متكئين فيها على الأرائك) السرر (نعم الثواب) الجنة (وحسنت الأرائك (مرتفقا) متكأ . انتهى الفصل الثالث .

الفصل الرابع : ضرب المثل

قال تعالى (واضرب لهم مثلا) للكافر والمؤمن والمتبصر والغافل أي وبين لهم الخ صفة (رجلين) أخوين في بني إسرائيل أو من مكة (جعلنا لأحدهما جنتين) بساتين (من أعناب) من كروم (وحففناهما بنخل) أي وجعلنا النخل محيطا بهما . يقال حفوه إذا طافوا به وحففته بهم أي جعلتهم حافين حوله وهو متعد إلى مفعول واحد وتزيده الباء مفعولا ثانيا (وجعلنا بينهما زرعا) أي جعلناها أرضا جمعت القوت والفاكهة وهي متواصلة متشابكة فليس هناك ما يقطع شكلها الحسن الجميل البهج (كلتا الجنتين آتت) أعطت وجاء الخبر على لفظ

« كلتا » وهو مفرد وصح أن يراعى المعنى فى اللغة (أكلها) ثمرها (ولم تظلم منه شيئا) ولم تنقص من أكلها شيئا . ثم ذكر ما هو أصل هذا الخير والبهجة ، فقال (وفجرنا خلالهما نهرا) ليدوم شربهما ولتظهر بهجتهما ووجود النهر مما يجعل الثمر لاينقص (وكان له ثمر) أى وكان لصاحب الجنتين مال سوى مافى الجنتين . يقال ثمر ماله إذا كثره فهو الأموال الكثيرة المثمرة من الذهب والفضة وغيرهما (فقال له صاحبه وهو يحاوره) يراجعه الكلام ، يقال حار يحور إذا رجع . يقال إن هذين الرجلين هما فطروس وهو كافر ، ويهوذا وهو مؤمن ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرا فاشترى الكافر بها ضياعا وعقارا وصرفها المؤمن فى وجوه الخير وآل أمرهما إلى ماحكاه الله ، أو هما أخوان من بنى مخزوم ولا يهمنا شىء من ذلك لأن الآية تسرى على كل اثنين هذه صفتهما وهذه حال عامة والناس فى كل جيل يحسون بهذه المعانى وبتعالى الغنى على الفقير غرورا وجهالة ولو كانا مؤمنين على سبيل الغفلة ، والمؤمن قد تكون له جهالة تنسيه الآخرة وإيمانه لا يمنعه من الغفلة ، فقال صاحب الجنة لصاحبه (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) حشما وأعوانا وأولادا ذكورا لأن هؤلاء ينفرون معه (ودخل جنته) بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها (وهو ظالم لنفسه) ضار لها بعجبه وبكبره وكفره (قال ما أظن أن تبيد) تفنى (هذه) الجنة (أبدا) لطول أمله وتمادى الغفلة (وما أظن الساعة قائمة) كائنة (ولئن رددت إلى ربى) بالبعث كما زعمت (لأجدن خيرا منها) أى يعطينى هنالك خيرا منها وهو لم يعطنى هنا إلا لأنه يعطينى هناك (منقلبا) مرجعا (قال له صاحبه) المؤمن (وهو يحاوره) كيف تقول «وما أظن الساعة قائمة» (أكفرت بالذى خلقك من تراب) وذلك التراب تغذى به وبالماء النبات والحيوان فأكله أبواك فولداك وأكلته أنت فكان منه الدم فصرت بشرا سويا ، وهو قادر أن يخلقك مرة أخرى كما خلقك هذه المرة بهذا النظام ، وهذا قوله (ثم من نطفة ثم سواك رجلا لكنا) أى لكن أنا حذفت الهمزة بنقل حركتها إلى ما قبلها وحصل الادغام ، وقرى «ولكن أنا» على الأصل (هو الله ربى) الضمير للشأن (ولا أشرك بربى أحدا ، ولولا) هلا (إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله) أى الأمر ماشاء الله مبتدأ وخبر ، أو ماشاء الله كان على أنها شرطية (لا قوة إلا بالله) اقرارا بأن عمارتها لم تكن بقوتك بل بقوة الله (إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا) ولذلك تكبرت على (فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك) فى الدنيا والآخرة (ويرسل عليها) على جنتك (حسبانا) جمع حسبانة أى صاعقة (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) أرضا ملساء يزلق عليها باستئصال نباتها وأشجارها (أو يصبح ماؤها غورا) أى غائرا فى الأرض فهو مصدر وصف به (فلن تستطيع له طلبا) أى للماء الغائر . فلخص المحاورات [ثلاث] الافتخار بالمال والأعوان والأمل الطويل ببقائها وإنكار الساعة .

هذه هى المقالات التى قالها الكافر والإجابات ثلاث على نظام عكسى إذ قال صاحبه « أكفرت بالذى خلقك» الخ ردا على الثالث وقوله «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله» ردا على الثانى وهو« قال ماأظن أن تبيد هذه أبدا» وقوله «إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا» رد على قوله «أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا» يقول له هذا لا يدوم وزخرف الحياة ذاهب لا بقاء له وكل هذا تطبيق على القاعدة التى فى أول السورة . ثم تم ماقال له صاحبه إذ هلك ثمره قال تعالى (وأحيط بثمره) أى أهلكت أمواله أى أحاط الهلاك بثمر جنتيه فوقعت عليها نار من السماء وغار الماء (فأصبح يقلب كفيه) أى يصفق بكف على كف أو يقلب كفيه ظهرا لبطن تأسفا وتلهفا (على ما أنفق فيها) أى فأصبح يندم على ما أنفق فى عمارتها (وهى خاوية على عروشها) أى إن عروشها سقطت على الأرض وسقطت الكروم عليها وهو يقلب كفيه (ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) هناك تذكر موعظة أخيه (ولم تكن له فئة) جماعة (ينصرونه من دون الله) يقدرون على نصرته

فيدفعون

فيدفعون عنه الهلاك (وما كان منتصرا) أى ممتنعا بقوته عن انتقام الله (هنالك) فى ذلك المقام (الولاية لله الحق) الولاية بالفتح النصرة والتولى وبالكسر السلطان والملك فهنالك النصر بيد الله فلا فئة ناصرة أو السلطان والملك له فهو الغالب فمنه النصر وله السلطان وحده (هو خير ثوابا) أى أفضل جزاء (وخير عقبا) أى عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره ، وهذا نهاية الفصل الرابع .

[الفصل الخامس]

قال تعالى (واضرب لهم) أى بين لهم (مثل الحياة الدنيا) أى صفتها الغريبة ، أو بين ما تشبهه الحياة الدنيا فى زهرتها وسرعة زوالها . مثلها كأن (كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) فاختلط بعضه ببعض وتكاثف بسبب الماء (فأصبح هشيما) يابسا متكسرا واحدته هشيمة (تذروه الرياح) أى تنسفه وتطيره (وكان الله على كل شئ مقتدرا) فهو قادر على الإفناء والانشاء ، شبه الدنيا فى نضرتها وبهجتها ثم تصير إلى الزوال بحال النبات اخضرّ والتفّ وأزهر ثم صار هشيما تذروه الرياح ، ثم أخذ يبين المقصود من ضرب المثل فقال (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) لا تنفع فى القبر ولا يوم القيامة ، وهنا أوضح المقصود من هذا كله فقال (والباقيات الصالحات) أعمال الخيرات التى تبقى ثمرتها للانسان كالصلوات والصدقات والجهاد والحج وفعل البرّ ومساعدة المسلمين جميعا ، ومن الباقيات الصالحات « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » وغيرها وكل كلمة طيبة (خير عند ربك) من المال والبنين (ثوابا) جزاء (وخير أملا) ما يؤمله الانسان ، فانظر كيف يقول فى أول السورة « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » ويذم هنا المال والولد لأنهما من تلك الزينة فالكلام مرتبط بعضه ببعض أيما ارتباط ، ثم أخذ سبحانه يزيد المقام إيضاحا فقال (و) اذكر (يوم نسير الجبال) نذهب بها فنجعلها هباء منثورا (وترى الأرض بارزة) ليس عليها ما يسترها مما كان عليها من الجبال والأشجار (وحشرناهم) أى الموتى (فلم نغادر منهم أحدا) أى فلم نترك أحدا يقال غادره فتركه (وعرضوا على ربك صفا) مصطفين ظاهرين لا يحجب أحد أحدا فحالهم أشبهت حال الجند الذين يعرضون على السلطان وقد قلنا لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) عراة حفاة لا شىء معكم من المال والولد (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) يقول ذلك يوم القيامة لمنكرى البعث ، فههنا سيرت الجبال وبرزت الأرض وحشر الناس عراة بعد ما استبان أن الدنيا لاقيمة لها ، وذلك على الترتيب الطبيعى ولم يبق على إلا عرض الأعمال ، ولذلك قال (ووضع الكتاب) صحائف الأعمال فى أيمان قوم وشمائل آخرين (فترى المجرمين مشفقين) خائفين (مما فيه) من الذنوب (ويقولون ياويلتنا) ياهلاكنا كما هو شأن من وقع فى الهلاك (مال هذا الكتاب) يتعجبون من شأنه (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) أى أى هنة صغيرة أو كبيرة من ذنوبنا (إلا أحصاها) إلا عدّها وأحاط بها لأننا قدّمنا أن النفس أشبه بالزجاجة التى يضعها المصور فى صندوق الآلة المصوّرة فكل صورة تقع عليها تحفظها . فهكذا نفوسنا تلتقط كل شىء تحصل عليه من ضار ونافع فاذا كشف الغطاء أبصرنا كل ماعملنا ورأينا صورنا بحالها فتظهر لنا جميع المحاسن وجميع الرذائل فتفعل فى عقولنا فعلها بلا كلام ولا كتابة وكل امرىء يقرأ هذه الكتابة والناس فيها سواء (ووجدوا ما عملوا حاضرا) كيف لا وهو مرسوم واضح (ولا يظلم ربك أحدا) .ومن أين يأتى الظلم إذا كانت المسألة صورا مرسومة فى قوالب حافظة لها فليس يمكن الانسان دفعها ولا ظلم فى ذلك كما لا نعدّ التخمة بعد الأكل الكثير ظلما ولا المرض بعد الشرب من ماء آسن مملوء أدرانا ظلما ، بل نرى ذلك أسبابا ومسببات، وهنا انتهى مبحث الانسان فى دنياه وآخرته . ولما كان ذلك تابعا لعالم ألطف من عالمنا وكان للشياطين مدخل فى كل ما تقدّم أعقبه بذكر إبليس وعصيانه الذى هو قدوة هؤلاء فقال (و) اذكر (إذ قلنا

للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) لأنه (كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فخرج عن أمر ربه بترك السجود، ولو كان من الملائكة لسجد وقد شرحنا هذا الكلام مرارا فى سورة البقرة وفى غيرها فارجع إليها إن شئت ، وإذا كانت هذه حاله وقد عصى أن يسجد لأبيكم آدم كما رأيتم الآساد والنمور والحيوانات المحدثة للطاعون خلقت لإيذائكم . فعجبا لكم كيف تتخذونه وذريته أولياء توالونهم وهذا قوله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) أى أتغفلون وتجهلون فتبدلونهم بى (وهم لكم عدو) أى أعداء والجملة حالية (بئس للظالمين بدلا) أى بئس ما استبدلوا ولاية الله بولاية الشيطان ، ولا جرم أن عالم الأرواح فيه الأخيار والأشرار ، والأشرار يلحقون بعالم الجن ، والأخيار بعالم الملائكة وسترى بعضه قريبا كما تقدم غير مرة، فالأرواح الطيبة كالأنبياء والحكماء والملائكة يطلعهم الله على بعض أسرار خلقه، والأرواح الشريرة من الناس الذين هم أحياء والذين ماتوا ومن نحا نحوهم من أرواح الشياطين يحجبون عن تلك العوالم وهذا المقام أوضحناه فى سورة البقرة أى مقام الملائكة والشياطين ونحوهما وهذا قوله (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فهم لا علم عندهم والذى لا علم عنده بالحقائق كيف تتبعونه وتعملون بما يوسوس به إليكم والمتبوع يجب أن يكون ذا بصيرة ولا بصيرة لهؤلاء كما ترى ذلك عيانا فى الدنيا ، فالشياطين المجسمة تراهم لا يعرفون شيئاً من هذا الوجود إلا طعامهم وشرابهم، هكذا إبليس وجنوده فليس لهم علم إلا بالأمور التى تحوم حول الإضلال والزخارف (وما كنت متخذ المضلين عضدا) أى أعوانا وأنصارا وهم الشياطين فكيف اتبعوهم أو عبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم (و) اذكر (يوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم) أنهم شركائى (فدعوهم) فاستغاثوا بهم (فلم يستجيبوا لهم) أى فلم يغيثوهم (وجعلنا بينهم موبقا) أى جعلنا بينهم وبين آلهتهم مهلكا يهلكون فيه وهو النار (ورأى المجرمون النار فظنوا) أيقنوا (أنهم مواقعوها) داخلوها وواقعون فيها (ولم يجدوا عنها مصرفا) أى معدلا لأنها أحاطت بهم من كل جانب ، وههنا وصل القول إلى آخر الأحوال الانسانية ، غرور بالحياة وزوال وموت وزوال الجبال وبروز الأرض وحشر وعرض وهم حفاة عراة وكتاب يقرءونه وحرق المجرم وحضور جميع الأعمال ووسوسة الشياطين وتوبيخ على اتباعهم وجهلهم وتجريدهم من العلم ودخول النار والهلاك فيها ، وهنا قد تم كل ما يتعلق بالانسان ، وأصل هذا كله « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » وهنا أخذ يصف القرآن وآثاره لأن هذه الفصول المتتابعة حوت علما جما وسأنبئك ببعضه فيما يأتى فكان جديرا أن يوصف القرآن بقوله تعالى (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل) أى بينا فيه من كل وجه من وجوه العبر والعلم، والمثل هو وصف فيه غرابة (وكان الانسان أكثر شىء جدلا) خصومة بالباطل وجدلا تمييز (وما منع الناس أن يؤمنوا) أى من الإيمان (إذ جاءهم الهدى) وهو الرسول والقرآن (ويستغفروا ربهم) من الكفر والذنوب (إلا) طلب أو انتظار (أن تأتيهم سنة الأولين) أى سنتنا فى إهلاك الأولين إن لم يؤمنوا وهو عذاب الاستئصال وإبادتهم (أو يأتيهم العذاب قبلا) أى عيانا أو جمع قبيل أى أنواعا ، ولما كانت الهداية بالقرآن، والرسول هو الذى أنزله الله عليه قال بعد أن وصف القرآن (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) للمؤمنين والكافرين (ويجادل الذين كفروا بالباطل) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات كأن يسألوا عن أصحاب الكهف ونحوهم متناسين أن الأنبياء لم يرسلوا لهذا أى لم يرسلوا للبحث عن غرائب التاريخ ولا غيرها ولكنهم جاءوا ليدربوا الناس على العلم من طرقه ، وطرقه هى النظر فى الذى فوق هذه الأرض من عجائب فليدرسوها ولا يتخذوها للشهوات فحسب ثم ليتزودوا من الدنيا ليسافروا إلى الآخرة . هذا هو المقصود وقد تقدم ذلك ، فهؤلاء الكافرون يجادلون بالباطل (ليدحضوا به) أى ليزيلوا بالجدال (الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا)

أى وإنذارهم (هزوا) أى استهزاء (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) بالقرآن (فأعرض عنها) لم يتدبرها ولم يتذكرها (ونسى ما قدمت يداه) من الكفر والمعاصى ولم يفكر فى عاقبة ذلك ، أى لا أحد أظلم منه ثم بين سبب ذلك فقال (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية (أن يفقهوه) كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم وقرا) أى ثقلا وصمما (وإن تدعهم) يا محمد (إلى الهدى) فى الدين (فلن يهتدوا إذا أبدا) وذلك فيمن علم الله أنهم لا يؤمنون (وربك الغفور) البليغ المغفرة (ذو الرحمة) الموصوف بها (لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) كما فعل مع قريش إذ أمهلهم مع كفرهم (بل لهم موعد) هو يوم القيامة (لن يجدوا من دونه موئلا) ملجأ (وتلك القرى) أى قرى قوم نوح وعاد وثمود الخ (أهلكناهم لما ظلموا) كفروا (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى أجلا لإهلاكهم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول مع بعض تحقيق : وهنا لطائف :

﴿اللطيفة الأولى فى ملخص هذا القسم وبعض مباحثه﴾

لقد علمت أن هذا القسم من السورة أصل وخمسة فصول ، أما الأصل فهو « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب» إلى قوله «أسفا» ، وأما الفصول الخمسة فقد بينا أنها :

(١) قصة أهل الكهف .

(٢) وحساب السنين .

(٣) وبيان القلوب الفاضلة وغيرها .

(٤) ومثل الرجلين المتحاورين .

(٥) ومثل الحياة الدنيا وقد تقدم ذلك فلنبدأ الكلام على الأصل الذى بنيت عليه تلك الفصول فأقول : ليكن الكلام عليه من وجوه

(١) وجه اتصال السورة بما قبلها فوق ماتقدم فى أول السورة .

(٢) وبيان الحمد فيها والسور التى فى أولها الحمد وما القصد من ذلك .

(٣) وبيان أن ماعلى الأرض زينة لها .

﴿الوجه الأول اتصال السورة بما قبلها﴾

(١) لقد تبين فيما تقدم أن سورة الإسراء بدئت بخلوص أكبر نفس بشرية من علائق المادة حال كونها فى عالمنا وارتقت طبقا عن طبق تدريجا حتى جاوزت الأفلاك والسبع الطباق وذلك راجع لصفاء النفس وخلوصها من كثافتها سواء أكان الجسم يسرى ليلا مع الروح أم لا فالأمر واضح إن المقام مقام تجرد النفوس عن العلائق المادية وقد جاء فيها الكلام على الروح وأنها من أمر ربى فهى من عالم الأمر لامن عالم الخلق الذى له طول وعرض وعمق ، وفيها «قل كونوا حجارة أوحديدا» الخ . وملخص ذلك أن السورة فى أولها وفى آخرها تمهد وتبرهن على البعث وانتقال الأرواح من هذا العالم إلى عالم غيره نعيم أو جحيم .

(٢) وهذا القسم من هذه السورة مباحثه كلها فى مسألة البعث وانتقال الروح إلى ذلك العالم فان قصة أصحاب الكهف ماقصت فى القرآن ولا جاءت فى الكتب السابقة عند الأمم الخالية إلا للبرهنة على بقاء أرواحنا وبعثها ولقد علمت كيف كانت الفصول الخمسة متلاحقة لإثبات ذلك .

(٣) وأيضا جاء فى سورة الاسراء السابقة أنهم قالوا «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا» الخ وهكذا هنا طلبوا قصص أهل الكهف تعنتا فأراهم فى كلتا الحالين أن هذا غير المطلوب ، والمهمّ العلم بالنظام والعجائب فيه .

(٤) الوجه الثانى والثالث قوله « الحمد لله » وما بعده . ابتدأ الله هذه السورة بالحمد لله وهكذا الفاتحة وسورة الأنعام ، يقول فى الفاتحة الله يستحق الحمد لأنه ربى العالم كله من نبات وحيوان وإنسان وقد شرحناه هناك ومعناه لتكونوا دارسين للتربية التى نظمها فى هذه الكائنات حتى يكون الحمد على تم عرفتموها وتكون قلوبكم مملوءة بحبه وحمده وإعظامه لا بمجرّد اللفظ ، وقال فى سورة الأنعام ليكن حمدكم على أنى خلقت السموات والأرض وجعلت الظلمات والنور فلتكونوا دارسين لنظامهما وجمالهما وآثارهما ونواميسهما حتى يكون الحمد على علم ، وقال هنا لتحمدونى على القرآن وإنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم وهذا الكتاب فيه الإنذار والتبشير ، وفيه ذكر أن ما على الأرض زينة لها . فإذا كان ما على الأرض زينة لها ثم يكون معدوما فهو لثمرتين (الثمرة الأولى) أن لا تحزن يا محمد فإن كل شىء هالك وسيزول عنك هذا الألم بمفارقة هذه الدنيا فلا تحزن على عدم إيمانهم (والثمرة الثانية) أن كل ذلك عجب فآل الأمر إلى أن الحمد على إنزال القرآن يدخل فيه الحمد على عجائب هذه الدنيا وغرائبها العلية فأصبحت الفاتحة والأنعام والكهف من حيث الحمد فى أوائلها ترجع إلى أن المسلم يحمد الله على هذه الكائنات وتربيتها وأنوارها وظلماتها وعجائبها وعلى القرآن ومعانيه فآل الأمر إلى أن القرآن يوجه المسلم إلى درس هذه الدنيا وعجائبها وههنا فريدتان : (الفريدة الأولى) فى قوله تعالى « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما » (الفريدة الثانية) فى قوله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا . وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا . أم حسبت » الخ .

﴿الفريدة الأولى﴾

وصف الله الكتاب بأنه لاعوج فيه فلا لفظه مختل ولا معانيه متنافية ولا دعوته منحرفة عن جناب الحق وفوق ذلك هو معتدل لاإفراط فيه ولا تفريط وقائم بمصالح العباد ، فاذا كان كاملا بالوصف الأول فهو مكمل بالوصف الثانى ، فهنا أقول : اللهم إن هذا وصف كتابك فكتابك لانقص فيه فهو كامل وهو مكمل وهو معتدل ، ولقد حرت فى أمرى حينما نظرت فى هذه الدنيا ، ولما دخلت الجامع الأزهر وأخذت عن شيوخى الفضلاء عجبت يارب من نظام هذه الدنيا ورأيت نظام التعليم فى الأمم الاسلامية عموما لا يوافق كتابك ولا نظام حقولك ومزارعك التى أنعمت بها على الناس جميعا، فقد كنت حينما أذهب إلى بلاد الريف والقرى أفكر بنفسى فى هذه الدنيا وأبحث عن خالقها ومدبرها ذلك المتكبر المتعال القهار الذى لا يرينا ذاته وقد احتجب عنا فكنت لا أذر زهرا ولا ثمرا ولا فاكهة ولا أبا ولا لونا لنبات ولا رائحة لأمثال الورد إلا فكرت فى أمرها ودرستها دراسة نظرية بلا مرشد ولا معلم ، وكنت أقول من هذا فليدرس الإنسان ومن هذا فليكن العلم ، وتارة أنظر فى السحاب المسخر بين السماء والأرض وما ينزل من المطر ، وآونة أفكر فى سير الشمس وكيف اختلفت الفصول باختلاف قربها وبعدها عنا ، وكيف كان هذا الزرع والثمر يتبع ضوء الشمس وهكذا مما كتبته فى كتابى [التاج المرصع] ثم نظرت فى أحوال الأمم الإسلامية كما ذكرته كثيرا فى هذا التفسير فوجدتهم مختلفين اختلافا بينا فما تركت صوفيا يمرّ ببلادنا إلا جلست أمامه طالبا اليقين ولا عالما دينيا إلا سألته عن الحقائق ، وهكذا كانت هذه حالى مدة الشباب ، فقد رأيت اختلافا بينا ؛ فأما أكثر الصوفية فهم يذمون العلوم الشرعية ويقولون العلم حجاب ويظهرون بهيئة الوقار والخشوع ويقولون إن عندهم أسرارا، وهكذا رجال الدين أكثرهم يقولون إن أكثر هؤلاء جهال . ثم إنى بعد هذه الحيرة قرأت العلوم التى تدرس فى الأمم المحيطة بنا وذلك فى [دار العلوم] وهذا دأبى إلى الآن ، وقد كتبت فى سورة [آل عمران] مافتحت به على عند آية «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب» إذ بينت بما شرحت به صدرى أن علماء الدين وعلماء الصوفية والعباد والأغنياء جميعا مقصرون نقلا عن الإمام الغزالى رحمه الله تعالى

لأن الأمة انقسمت وصارت فرقا وشيعا ، وكل حزب بما لديهم فرحون ولم أجد سبيلا لإنقاذ الأمة من هذا التفرّق إلا بأمر واحد وهو الذى كنت عليه أيام الشباب أى البحث فى نظام العالم الذى نعيش فيه . فالصوفى والفقيه والعابد والغنى بالمال كل هؤلاء لا مندوحة لهم عن دراسة العلوم التى تدرس فى المدارس الثانوية فى الأمم المحيطة بنا وهذه هى الطريقة المثلى التى بها تعتدل العقول الاسلامية فى العالم الذى نعيش فيه ويشاركون غيرهم . فكتاب الله لا عوج فيه وهو مكمل لأتباعه قائم بمصالحهم فى هذه الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ومن أراد المزيد فليقرأ هذا المقام هناك .

ثم إنى أقول الآن . لقد نظرت نظرا عاما فى أمر الأمم الاسلامية بعد ماتقدم فكنت أقول ياليت شعرى لماذا أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى القرون الثلاثة لا نسمع عنهم ما نقرؤه عن المتأخرين من الصوفية بعد الصدر الأول ، أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل ويشرب ويتزوج ، وهكذا أصحابه والتابعون ، فلماذا أرى المسلمين بعد الصدر الأول قد اختطوا خطة أخرى فمنهم من يأمر تلاميذه بالجوع تدريجا حتى يأكل كل أربعين يوما مرة واحدة ويترك بعضهم المال فلا يقتنيه ، وبعضهم يصير عالة على الناس ، وهكذا مما هو ظاهر معلوم ، بل بعضهم يرقصون رقصا دينيا وهم المولوية وقد رصدت لهم الأوقاف فى مصر حتى إن ناظر الأوقاف أخبرنى بأن لهم (٧٠) جنيها كل شهر من الأوقاف . ثم فكرت فى هذا الأمر فوجدت المسيحيين سبقونا بأمر يشبه هذا ، وذلك هو الذى سنراه فى سورة الحديد من معجزات القرآن الكريم إذ يقول تعالى ـ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ـ والرهبانية من الرهبة والخوف إذ كان رجال الدين المسيحى يخافون من الملوك الوثنيين فكانوا يزهدون ويتركون التزوج ويسكنون فى الجبال ويبنون هناك الصوامع فهؤلاء الرهبان لم يعطوا ذلك من المسيح وإنما ابتدعوه ابتداعا اضطروا إليه اضطرارا والله يقول ـ ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ـ وهذا هو الذى جاء به الكشف حديثا فإنك سترى ما سأنقله هناك من كتاب (الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة) الذى ألف فى عصرنا الحاضر من أن عالما دينيا مصريا فى القرن الثالث المسيحى هو الذى خاف من صهره أن يقول للحكومة المصرية إذ ذاك : إنه من أتباع المسيح فزهد وترك النساء وعبد الله فى الجبال فنجا . ثم إن هذه البدعة صارت من قواعد الدين ، ويقول المسيحيون القبط بمصر إنهم لم يعرفوا هذه الحقيقة إلا فى أيامنا هذه ، ونحن نقول إن هذه من أكبر المعجزات فى الاسلام فإن هذا الابتداع لم يعرفه الناس إلا فى هذه الأيام مصداقا للقرآن ، والمهمّ فى هذا المقام أن أقول : فلعل ابتداع تقليل الأكل واعتزال الناس وترك المال بعد القرون الثلاثة الأولى فى الإسلام كان أشبه بما ابتدعته النصارى من الرهبنة فأولئك ابتدعوا الرهبنة للفرار من ظلم الملوك فصارت من الدين ، وهؤلاء ابتدعوا تقليل الطعام والاعتزال عن الناس والبحث عن الأسرار إذ وجدوا الشهوات قد اغتالت الأمم الاسلامية ، وإذا قال الله تعالى فى الرهبان ـ فما رعوها حق رعايتها ـ فهل المسلمون راعوا التصوّف حق رعايته . المسلمون ابتدعوا طرائق حديثة فى التصوّف غير طرائق أكابرهم الذين ذكرهم القشيرى فى القرن الرابع فى رسالته . فهل هذه الطرائق التى ابتدعوها راعوها حق رعايتها ؟ . ألم تنحرف انحرافا قليلا أو كثيرا بعد القرون الأولى ، بل ألم يكن أكثر العاطلين والجاهلين وعباد المال والمناصب والمرشدين للفرنجة أن يحتلوا البلاد منهم ؟ . نعم هذا هو الذى حصل فى أمم الاسلام حقا وصدقا . إن كثيرا من الصوفية قد تنعموا وعاشوا فى رغد من العيش وأغدق الناس عليهم المال من كل جانب وجبيت إليهم الثمرات ، وهوت إليهم القلوب . لما ركز فى النفوس من قربهم إلى الله . فلما رأوا الفرنجة أحاطوا بالمسلمين لم يسعهم إلا أن يسلموا لهم القياد ليعيشوا فى أمن وسلام ، وهذا هو الذى حصل فى أيامنا وذكره الفرنسيون فى جرائدهم قبل الهجوم على مراكش وقرأناه نحن فيها إذ صرحوا بأن المسلمين خاضعون لمشايخ الطرق

وأن الشرفاء القائمين بالملك فى تلك البلاد ورجال الصوفية هم الذين يسلبونا البضاعة فعلى رجال السياسة أن يغدقوا النعم على مشايخ الطرق وعلى الشريف الذى يملك السلطة فى البلاد ، وقالوا هكذا بصريح العبارة (إن هؤلاء جميعا متمتعون بالعيش الهنئ ورغد المعيشة فى ظلال جهل المسلمين وغفلتهم فمتى أكرمناهم وأنعمنا عليهم فهم يكونون معنا ويشاركوننا فى جر المغنم ، وبصريح العبارة يكونون أشبه بالغربان والنسور والعقبان التى تأكل ما فضل من فرائس الآساد والنمور) ولقد مرّ بعض هذا فى سورة البقرة ، ولكن الكلام هنا أوضح لا سيما ما ستراه فى نفس هذه السورة عند قوله تعالى ـ وما كنت متخذ المضلين عضدا ـ فسترى هناك مسألة حسن بن الصباح وتعاليمه ومنعه الناس من قراءة العلوم وأن طريقته لا تزال متبعة إلى الآن فى الهند . أقول هذا هو الذى كتبوه فى جرائدهم وقرأناه فى زمن الشباب ولقد نفذه الفرنسيون بالدقة وملكوا البلاد وتعاونت أمم الفرنجة على ابتلاع تلك الممالك . حجة الله لا تزال قائمة على عباده ، فهل تحب أيها الذكى أن أسمعك بعض ما اطلعت عليه بعد ذلك ؟ . لقد ذكرت لك فى سورة الإسراء عند قوله تعالى ـ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ـ أن صاحب كتاب (الإبريز) الفاضل الشيخ أحمد بن المبارك تلقى عن شيخه الأمى علوما وذكرت بعضها هناك . فلعلك تسرّ إذا رأيت ما ذكرناه هنا بطريق الاستنتاج قد صرح به ذلك الصالح الأمى . الله تعالى هو الذى أرسل نور الشمس والمطر والهواء فالنور دائم والهواء محيط بنا . إن النعم تحيط بالناس، ومن اطلع على هذا التفسير أيقن أن الله لم يذر نملا ولا حشرات ولا حيوانا ذريا لا تراه العيون إلا دبر أمره تدبيرا خاصا . فإذا كان الله عز وجل حاضرا عند كل حيوان صغير فهو لا جرم يراعى أمة الإسلام فى كل زمان ومكان . علم الله أن الجهل فشا فى الإسلام وقلّ العلماء بعد ذهاب الدولة العباسية وأخذ الناس العلوم عن جهال المجاذيب ومشايخ الطرق فألقوا إليهم الأكاذيب والأساطير والخرافات باسم الدين . فماذا فعل الله تعالى تلقاء هذا ؟ ألهم رجلا لا علم عنده بالدين أن يعلم أكبر كبار علماء الاسلام فى ذلك الوقت وأفاض عليه العلم حتى يأخذ المسلمون عنه العلم وذلك فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وذلك ليس أمرا بدعا فان علم الأرواح أثبت اتصال الناس بالأرواح ، وقد اشتهر فى أمريكا وأوروبا هذا العلم فاقرأه فى كتاب (الأرواح) تأليفى فهناك ترى غلاما صيرفيا جاهلا أكمل رواية مات مؤلفها قبل إتمامها فى جلسات روحية بحيث يمسك القلم وروح المؤلف الذى مات قد سلطت عليها وكتبت فوق ألف صفحة وانتشرت تلك الرواية وذلك كثير مشهور . علم الله أن بلاد الإسلام خلت من الحكمة، والنابغون من المسلمين كالعلامة أحمد بن المبارك بمراكش قد درسوا كتب الفلسفة القديمة وتضلعوا من العلوم الشرعية فألهم الله ذلك الأمى الشيخ عبد العزيز الدباغ علوما تظهر بعض الحقائق، والذى يهمنا فى هذا المقام أن نذكر ما جاء عنه فى أمر الصوفية وتاريخهم ، وما مثل هذا الشيخ فى ظهور العلم على يديه بلا معلم فى الأمة الإسلامية إلا كمثل الدين الإسلامى فى الديانات مع الفرق بينهما وإنما هو تنظير لاغير فان الكشف الحديث قد أظهر أن أديان الأمم مقتبسة بعضها من بعض وأن التثليث متوارث ينقله كابر عن كابر كما تقدم فى آخر سورة (المائدة) وكما سيأتى فى سورة (مريم) فالذى فى (المائدة) أن التثليث دين هندى ، والذى فى سورة (مريم) أن التثليث دين بابلى آشورى وفى الوصفين إيضاح تام منقول من الآثار التى عرفت حديثا فاقرأه تر العجب العجاب

هنالك أرسل الله نبيا أميا لم يقرأ تلك الديانات لئلا تعلق بذهنه فتمنع عنه قبول الوحى فصدع بالحق وقال أيها الناس: الله واحد . فهكذا هذه الأمة الإسلامية علم الله أن كل عالم إسلامى لايقرأ إلا كتب أسلافه المصنفة فى الأصول والفقه وبعض شذرات من الفلسفة القديمة المضادة للدين . هنالك أفاض بعض العلوم على

قلب هذا الشيخ الذي لم يتعلم فأدهش علماء الاسلام ، وسأنقل في هذا الكتاب بعض ما قاله مما لم يكن معروفا إذ ذاك وظهر في الكشف الحديث إن شاء الله تعالى ، وأنقل هنا ما يناسب ما نحن فيه وهو ما جاء في صفحة ١٩٣ من الكتاب

سأل (الشيخ الدباغ) بعض الفقهاء عما قاله الشيخ (زروق) إن التربية انقطعت بالاصطلاح ولم يبق إلا التربية بالهمة والحال فعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان الخ . فأجابه بما ملخصه إن مقصود التربية تطهير الذات بإزالة الظلام منها وقطع علائق الباطل عنها ثم قسم الطرق لقطع علائق الباطل إلى (ثلاثة أقسام : القسم الأول) طريق السلف الصالح فقد كانوا في القرون الثلاثة الأولى لا يصرفون وقتا في تطهير نفوس تلاميذهم ، قال وإنما يلقى الشيخ مريده وصاحب سرّه ووارث نوره فيكلمه في أذنه الخ (القسم الثاني) ما كان بعد القرون الثلاثة الأولى إذ فسدت النيات وعمت الشهوات الخ فأمروهم بالخلوة وبالذكر وبتقليل الأكل لينقطع بالخلوة عن المبطلين الذين هم في عداد الموتى ، وبالذكر يزول الكلام الباطل واللهو واللغو ، وبقلة الأكل تقلّ الشهوة فيرجع العقل إلى التعلق بالله ورسوله الخ (القسم الثالث) قال لما اختلط الحقّ بالباطل صار أهل الباطل يربون من يأتيهم بإدخال الخلوة وتلقين الأسماء على نية فاسدة وغرض مخالف للحق ، وقد يضيفون إلى ذلك عزائم واستخدامات تفضي إلى مكر الله واستدراجاته . ثم قال إن الشيخ (زروق) لما رأى هذا نصح بالرجوع إلى الكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقص . قال وهذا خرج مخرج الاحتياط ، وإلا فالبركة باقية إلى يوم القيامة الخ . انتهى باختصار جامع لما فيه من المعاني .

﴿ سؤال آخر من هذا الفقيه ﴾

وجاء في صفحة (١٩٦) أن هذا الفقيه سأله أيضا قائلا (أيهما أفضل أطريق الشكر أم طريق المجاهدة؟ والأولى طريقة الشاذلي إذ يأمر بالشكر والفرح، والثانية طريق أبي حامد محمد الغزالي وهذه الطريقة تحثّ على الرياضة والتعب والمشقة والسهر والجوع) . فأجابه بأن كلا من هاتين الطريقتين لها فضل ولكنه فضل طريقة الشكر على طريقة المجاهدة ، وجعل أن المجاهد بالسهر والجوع وقلة الطعام يعاني ما يعاني ليصفي نفسه قاصدا أن يفتح الله عليه فيطلع على ما لا يعرفه غيره . أما طريقة الشكر فهي التسليم لله وذكره في كل لحظة فلا يحول عنه كل حين ، وهذه الطريقة لا يقصد سالكها إلا حب الله لاشيء سواه فلا هو طالب الاطلاع على أسرار كالمجاهد، ولاهو متوان في ملاحظة جناب الحق ، وما عمل المجاهد إلا باب من أبواب الحظوظ النفسية إذ كشف الحجاب لذة يصرف المريد أوقاته لنيلها . فأما الشاكر فإن كشف له الحجاب فانه لم يعمل لأجله بل عبد الله حبا فيه لا طلبا لشيء سواه ، ومتى كشف الحجاب عن نفس المجاهد ربما انقلب على عقبيه وفرح بما نال من الفتح واغترّ بما يشاهد من العوالم ويفرح بما نال من ذلك ويرى أن ذلك هو الغاية وهذا من — الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا — . ثم قال ومنهم من تتبدل نيته بعد الفتح فيرحمه الله ويأخذ بيده وهذه الحالة التي حصلت لهذا بعد الفتح هي التي كانت البداية في طريق الشكر . ثم قال فيا بعد ما بين الطريقين وتباين ما بين المطلبين . فطريق الشكر سير القلوب ، وطريق المجاهدة سير الأبدان وأعرب بعد ذلك عن أن هذا القول لم يقصد به إلا التعليم العام . وأما الإمام الغزالي فهو إمام حق وصدق. ثم قال وطريق الشكر لا ينال الفتح فيه إلا المؤمن العارف الحبيب القريب ، بخلاف الفتح في طريق المجاهدة فانه يكون للرهبان وأحبار اليهود فإن لهم رياضات يتوصلون بها إلى شيء من الاستدراجات . ومن قوله أيضاً : (إن النية في طريق الرياضة مشوبة، وفي طريق الشكر خالصة، والفتح في الأولى إنما ينال بحيلة وسبب، والفتح في الثانية يكون هجوميا . قال وما هذه الطريقة إلا تعليق القلب بالله عزّ وجل والدوام على ذلك وإن كان في الظاهر غير متلبس بكبير عبادة ولذا كان صاحبها يصوم ويفطر ويقوم وينام ويقارب النساء ويأتي بسائر وظائف

الشرع التي تضاد رياضة الأبدان . وقال مرة أخرى والهجرة في طريقة رياضة الأبدان قصد بها الفتح ونيل المراتب ثم بعد الفتح منهم من يبقى على نيته الأولى فينقطع قلبه مع الأمور التي يشاهدها في العوالم ويفرح بما يرى من الكشف الخ ما تقدم) انتهى .

وهذا عجب عجاب . ثم انظر كيف أعلن الوهابية في زماننا أنهم يمقتون طرق الصوفية بلا استثناء ويرون أنها حائدة عن الصواب كما شرحه العلامة ابن تيمية واعترض على الإمام الغزالي وعلى ابن الفارض .

﴿ فتاوى الشيخ الخواص شيخ الشعراني ﴾

ألا تعجب معي أيها الذكي كيف تكون هذه الآراء في أمم الاسلام وتبقى مدفونة في الكتب يقرؤها الناس ولكنهم لا يدعون إلى ما فيها من الآراء ، وتجد رجال الصوفية يجوبون البلاد ويهيمنون على العقول ويسدون المسالك أمام السالكين ويمنعونهم من العلم الصحيح إلا قليلا منهم، والله عليم بالمفسدين . فانظر كيف كانت فتاوى ذلك الشيخ الذي لم يتعلم علما ثم وازن هذا القول بما حكاه الشيخ الشعراني قبل تاريخ الشيخ الدباغ عن شيخه الخواص الذي لم يقرأ ولم يكتب .

جاء في كتاب الشيخ الشعراني المسمى (درر الغواص : على فتاوى سيدي على الخواص) ما يأتي :
سأله عن قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه إذ قال (رأيت ربي عز وجل فقلت له بم يتقرب إليك المتقربون؟ قال يا أحمد بكلامي فقلت يارب بفهم وبغير فهم؟ فقال تعالى بفهم وبغير فهم) انتهى .

فأجابه أن الفهم خاص بعلماء الشريعة المطهرة، وأما غير الفهم فذلك هو الكشف للعارفين وعلماء الحقيقة لأن العلم يفاض عليهم بالذوق وليس ذلك ككشف الصور إلى أن قال : واعلم أن الله تعالى قد أخبر في كتابه عن أقوام فقال ـ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ـ وأخبر صلى الله عليه وسلم عن أقوام من أمته يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، فكيف تكون هذه الأقوام متقربين إليه، وكيف يتقربون بعدم العلم الذي هو الجهل؟ هذا عجيب و لله أعلم انتهى .

قال ثم سألته عن مقام المجاذيب في الجنة . فأجاب ان المجاذيب ليس لهم مقام عملي فليس لهم في جنة الأعمال نصيب ولكن لهم نوع من النعم يتميزون به . ثم قال : بل أقول إن السوقة وأرباب الحرف والصنائع أعظم نفعا من المجاذيب لقيامهم في الأسباب النافعة لغيرهم ولكثرة خوفهم من الله تعالى إذا وقعوا في ذنب ولا يرون لهم عملا يكفر ذلك الذنب أبدا مع احتقارهم نفوسهم وعدم رؤيتهم لها على أحد من الخلق فضلا وهذه الصفات عزيزة في أهل الجدال الخ .

ثم قال وسألته عن قول بعضهم إن الفقير إذا عرف الله لا يؤثر فيه الأكل من طعام الناس نقصا . فقال إن العبد يتلوّن بحسب القلب ، والقلب يتلون بحسب الطعمة وفسادها . ثم قال إن الله لينطق على لسان عبده بحسب مضغته فان كان طاهر القلب من سائر الرذائل كان كلامه شبيها بالوحي، وإن كان ملطخا بالقاذورات نطق بما يشبه كلام الشياطين ومنعه من أخذ الهدية إلا بمقابل لها ولو بالدعاء في أوقات الإجابة

وسأله عن الأنبياء هل يتخذون واسطة ؟ فأجابه قائلا : لا تجعل بينك وبين الله واسطة أبدا من نبي أو غيره لأن الرسول إنما هو واسطة بين العبد وبين الرب في الدعوة إلى الله لا إلى نفسه فإذا وقع الإيمان الذي هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب إذ ذاك وصار الحق تعالى أقرب إلى العبد من نفسه ومن رسوله ولم يبق للرسول إلا حكم الإقامة على العبد من جانب التشريع والاتباع كما في حال المناجاة في السجود فنفس الرسول يغار أن يقفوا معه دون الله فإنه تعالى يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ كما حصل له الأجر على ذلك كما أشار له صلى الله عليه وسلم بقوله «من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» الحديث . وانظر أيها الأخ إلى غيرة الحق تعالى على عباده لقوله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (وإذا سألك

عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) فأعلمنا الله بأنه أقرب إلينا من أنفسنا ومن رسولنا الذى جعله تعالى واسطة لنا فى كل خير مع أنه تعالى بالغ فى مدحه صلى الله عليه وسلم حتى كاد يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال فى نحو قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وبقوله (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) ومع ذلك قال له (ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) الخ .

ومما يناسب هذا ما ذكره الشيخ أحمد بن المبارك فى كتاب (الإبريز) المتقدم ذكره أنه سأله قائلا : لم استغاث الناس بالصالحين دون الله ويحلفون بهم ؟ . فأجابه بأن الناس انقطعوا باطنا عن ربهم وأظلمت قلوبهم وأطال فى ذلك . ثم قال : ومما يدلك على كثرة المنقطعين وزيادة الظلام فى ذواتهم أنك ترى الواحـــد منهم يؤدى الدراهم إلى ضريح الأولياء ولا يعطى فقيرا من الفقراء الذين يقابلونه حاجة ، وهذا أقبح ما يكون ، وسبب ذلك أن الصدقة لم تخرج لله وإنما قصده أن يخص بهـا الولىّ ليقضى حاجته . ثم أفاد أسباب انقطاع هذه الأمة عن الله عزّ وجل وأبان الذنوب الشاغلة للناس حتى نسوا ربهم . انتهى .

أقول : وها أنا ذا أذكرك أيها الذكى بما تقدّم فى سورة (المائدة) إذ ذكرت هناك محادثة المسيح عليه السلام مع الحواريين وما قصه عليهم من ذلك النبى الذى سبقه وأنكر على الأعمى حبه له . فكلما ألحف الأعمى فى السؤال عنه وهو لا يعلم أنه هو أجابه بأن من تسأل عنه حجاب بينك وبين الله فارجع إليه هناك فانه هو روح ما ذكره الشيخ الخوّاص وأنا أقول : ما كنت أظنّ قبل هذا اليوم أن أحدا من علماء الاسلام صرح بذلك قبل ابن تيمية والوهابية وعجبت كل العجب أن يكون من علماء الصوفية من يقول هذا القول . واعلم أيها الذكى أن الله عز وجل قد جعل هذا التفسير فى هذا الزمان الذى ظهرت فيه مفاسد ومصالح وعلوم لم تكن فيما مضى . فالخواص والشعرانى وابن المبارك والدباغ كل هؤلاء فى القرون المتأخرة ، وهذه نعمة من الله على هذا التفسير ، فلله الحمد على التوفيق . وانظر كيف يفضل الشيخ الخواص الصناع على المجاذيب ويجعل أرباب الصنعة أفضل منهم ، وهذا هو عين ما جاء هذا التفسير لأجله . ولذا أحسن مصطفى باشا كمال صنعا إذ أقفل التكايا وأخرج من فيها لينفعوا أمتهم بأعمالهم .

إن الله عز وجل ألهم هؤلاء الصالحين أن يلقوا هذه العلوم على أتباعهم وبقى ذلك فى الكتب حتى اطلعنا عليه ولكن ثمرة أفكارهم ستظهر فى زماننا هذا وستكون هذه النهضة الحقيقية بعد انتشار هذا التفسير إن شاء الله تعالى فهو الذى جمع زبدة آراء العلماء وأنعم على وشرح صدرى بنقلها لعلمه عز وجل أن المسلمين لا يقنعون غالبا إلا بأن يسمعوا كلام الأكابر ، وهذا فى العامة . أما الخاصة فلا يسمعون إلا آراء الفلاسفة لاسيما علماء أوروبا وهذا الكتاب والحمد لله قد أعطى النعمتين ليرضى الفريقين وإن طريقة الشكر يقرب منها هذا التفسير ، والله عز وجل هو الملهم للخير وهو الجواد الكريم والحمد لله رب العالمين . انتهت هذه الفريدة يوم الخميس ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٦ هـ

(فوائد الفريدة الأولى)

(الفائدة الأولى) إن الطرق التى انتشرت فى الاسلام بعد الصدر الأول جاءت لتصفية النفوس ولكن هذا الدواء انقلب داء فليرجع الناس إلى نص القرآن والسنة كالصدر الأول .

(الفائدة الثانية) إن الخلوة والسهر وترك الطعام أصل القصد بها الاطلاع على ماوراء الحس وهذا مذموم بل يصرف القلب عن الله وطريق الشكر أفضل منها لأن القصد منها كمال النفس وحب الله لاحب الاطلاع على الغيب الذى هو شأن الكهان والعرافين وصغار النفوس . وأذكرك بما تقدم فى سورة الأنفال عند قوله تعالى (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) فقد أوضحت هذا المقال هناك بما فتح الله به ، وهاهو ذا كلام الصالحين

قد أيده تأييدا فاقرأه فسيشرح صدرك مما ترى من الموافقة التامة فالحمد لله الذى وفق وشرح الصدر وهو الحكيم العليم وهدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(الفائدة الثالثة) إن قراءة القرآن بلا عقل مذمومة، والرواية للرؤية عن أحمد بن حنبل إما باطلة وإما مؤولة

(الفائدة الرابعة) إن الصناع لهم مقام فى الجنة أعلى من نصيب المجاذيب لأنهم ينفعون الناس بأعمالهم وهذا هو الذى حث عليه هذا التفسير كثيرا وبه ظهر بطلان الفكرة العامة فى بلاد الإسلام وهى أن الانقطاع عن الناس أو الاعتكاف على العبادة هما المقصودان من الإسلام .

(الفائدة الخامسة) إن تعلق القلب بالناس فى أمر الرزق صارف للقلب عن الله وعن العلم .

(الفائدة السادسة) إن المسلم يجب عليه بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجعل بينه وبين الله واسطة بل يكون القلب معلقا بربه لا يصرفه عنه صارف وهو أقرب إليه من حبل الوريد فيقول « إياك نعبد » ويقول «اللهم لك سجدت» وأيضا النبى صلى الله عليه وسلم لا يرضى من المسلم أن يجعله واسطة بينه وبين الله فى العبادة لأنه دله على الله وهو يعبده رأسا، والفضل فى ذلك له صلى الله عليه وسلم .

هذه (الفوائد الست) لم يكن ليخطر بفكر أكثر المتعلمين فى ديار الإسلام أنها فى دين الإسلام بل هذه تقلب أفكار أهل العلم جميعا لأنها صادرة ممن يعتقدهم أكثر المسلمين . وأنا أعجب أن تكون هذه الصراحة عند رجال الصوفية والناس عنها غافلون. وليس يزيل الخرافات من بلاد الإسلام إلا الاطلاع على تاريخ العلوم ومنها التصوف .

علماء الألمان يعرفون حقائق التصوف وتاريخه والمسلمون نائمون

من عجائب الحكم الإلهية أن خمسة علماء أتوا ضيوفا فى بلاد مصر وأنا أكتب هذا الموضوع، ثلاثة منهم يعلمون الفلسفة الشرقية فى جامعات ألمانيا ، واثنان من الإنجليز يعلمان تلك الفلسفة : أحدهما فى انكلترا ، والثانى فى (اسكوتلانده) لحادثهم أحد مكاتبى الصحف المصرية، وهذا نص الحادثة :

ظننت فى أول الأمر أنهم قنعوا بمشاهدة بعض الطرق وقد عرفهم الشىء الكثير عنها فإذا بهم يريدون أن يشهدوا جميعها وأن يعرفوا كل شىء عنها وقد تم لهم ذلك أو كاد . وقد أدهشنى منهم ماعلمته أثناء الحديث من أنهم درسوا كل شىء عن التصوف والصوفية فى الصدر الأول، بل الأدهى من ذلك أن أحدهم يحفظ من كتاب (إحياء علوم الدين) للامام الغزالى أضعاف ما يحفظ مدمنو قراءته منا . وآخر منهم يعلم كل شىء عن آثار الحسن البصرى والجنيد والإمام جعفر الصادق . والبعض الآخر يعلم من أمر السيد أحمد الرفاعى والسيد عبد القادر الجيلانى والسيد أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى أكثر مما نعلم نحن المسلمين بل طرق التفهم مع الدقة فى الاستقراء والاستقصاء . سألنى أحدهم هلا يعقد شيوخ الصوفية لتلاميذهم دروسا فى التصوف ونشأته وتاريخ أطواره فى الإسلام؟ فأجبته بأنهم يعلمونهم بقدر مايعلمون. وقال آخر هل يدرس التصوف فى الأزهر؟ قلت: نعم ولكن مع عدم اعتباره علما أساسيا. قال وهل يدرس فى الجامعة المصرية؟ قلت نعم تدرس الفلسفة الإسلامية . قال وهلا يحاضر عن غير الإمام الغزالى من فلاسفة الإسلام؟ . قلت قد يكون ذلك بعد هذا العام بحيث يفرد بكل عام فيلسوف مسلم. قال: وابن رشد . قلت وجعفر بن الطفيل قد يكون لهما نصيب من عناية أستاذ الجامعة . وهنا قال: هل تستطيع أن تطلعنى على مقدار ما وصل إليه درس الأستاذ فى فلسفة الإمام الغزالى. قلت: لا أستطيع لأن دروسه لم تذع بعد ، قال يؤخذ من مجمل إجابتك أنكم لاتعنون بدرس الفلسفة الإسلامية مع أنها ثروة عظيمة من ثروات تعاليم الإسلام . قلت سنعنى إن شاء الله ولكن جامعتنا حديثة النشأة وستؤتى أكلها بعد حين وأسأل الله أن يكون شيها حتى إذا وعدت استطعت أن تجد من يحدثك عن الفلسفة الاسلامية والتصوف الإسلامى ومبلغ علاقتهما بالفلسفة الحديثة . ثم أطلعنى أحد العلماء الألمان على سبع

كراسات

كراسات مطبوعة احتوت مباحثه فى فلسفة الغزالى فقلت فى نفسى ليتها تعرّب ليدرسها الطلبة والعلماء مادامو قد أضربوا عن إحياء كتاب ﴿ إحياء علوم الدين ﴾ وغيره .

أما بقية فلاسفة الإسلام فعلى فلسفتهم فى مصر العفاء مادام لايعنى بها أحد ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن عجب أن يحض هؤلاء العلماء على دراسة تاريخ التصوف فإن ذلك هو الذى يزيل الخرافات كما جاء فى هذه الفريدة عن الشيخ (الدباغ) الذى أجمل تاريخ التصوف . انتهى .

(الفريدة الثانية فى قوله تعالى « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .
وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا . أم حسبت الخ » مع قوله تعالى « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وقوله تعالى « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم »)

ولأجمل الكلام فى هذه الفريدة فى ستة فصول : (الفصل الأول) فى بهجة الجمال فى قوله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » وبيان حكمة التأكيد بإنّ واللام من جمال علوم الطبيعة السارة للناظرين . (الفصل الثانى) فى قوله تعالى «وجعلناها رجوما للشياطين» (الفصل الثالث) فى بيان قوله تعالى « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده » الخ (الفصل الرابع) فى قوله تعالى فى هذه السورة « لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (الفصل الخامس) فى قوله تعالى « وزيناها للناظرين » (الفصل السادس فى قوله تعالى بعدها « أم حسبت » الخ وبيان الصلة بين الآيتين) .

الفصل الأول فى بهجة الجمال فى قوله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها »

اعلم أن ما على الأرض من العجائب لاحصر له ، ولنقتصر فى هذا المقام على (صنفين) من الجمال وعجائب المخلوقات (أولهما) عجائب الجمال فى الماء (ثانيهما) عجائب الجمال فى الحيوان .

الصنف الأول عجائب الجمال فى الماء وغرائبه

لقد تقدم فى سورة الأنعام عند قوله تعالى « هو الذى أنزل من السماء ماء » عجائب الثلج القطبى وأن هناك جبالا من الثلج تعوم على سطح الماء ، وهناك فى بلاد (لابونيا) و (السكوف) وبلاد (الإسوجيين) الثلج المصقول السميك الصلب المسهل للسير وأن الثلج يكون عند القطبين على الأرض ثم يرتفع يسيرا يسيرا حتى يصير على ارتفاع (١٣) ألف متر عند قرب خط الاستواء ، وهكذا يأخذ ذلك الخط فى الانحطاط حتى يبلغ القطب الجنوبى وهناك ذكرت لك ألوان ماء البحر وأنها تكون ذات ألوان بهجة فيما بين المدارين وهكذا ذكرت المياه المعدنية النابعة من الأرض واختلاف أوصافها . فهاك اليوم عجبا عجابا لم يذكر هناك . أذكر لك اليوم من جمال الله عز وجل الذى اختاره وأنزله إلى هذه الأرض واختصنا به وقال انظروا ، وفى هذه السورة يقول (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ـ . فإذا قلنا فيما تقدم فى الأنعام إن الثلج يكون فى الجوّ دائما فكما يدوم فى القطبين على وجه الأرض يدوم فى الارتفاعات المختلفة المذكورة هناك . نقول هنا إن الثلج المرتفع لاتؤثر فيه حرارة الشمس فى خط الاستواء إلا قليلا كما ذكر العلامة (بريت) فهو الذى بمقالة فتح لى الباب على مصارعيه هنا ونقلت الصور منه . وقد قال لا شىء من الأعمال العجيبة الطبيعية تلفت النظر وتدهش اللب وتحدث المسرة بالفكر الجميل أكثر من مظاهرتين فاخرتين وهما (١) ينابيع الماء الحار (٢) والقناطر الهائلة من الجليد . فينابيع الماء الحار تنبع (١) فى الأقطار الثلجية بأبدع منظر وأبهج سناء (٢) وفى زيلنده الجديدة (٣) وفى أمريكا الشمالية كمثل أرض الأحجار الصفراء فهما (شكل ١)



(شكل ١ رسم الينبوع العجيب الحار الفاخر فى أرض الحجارة الصفراء فى أمريكا الشمالية)

فأما القادير الهائلة من أجراف الجليد فهى عبارة عن أنهار عظيمة مملوءة بالثلج بدل الماء وهذا الثلج يتحرك بالتدريج حوالى جوانب الجبل ثم يأخذ بالتدريج فى الذوبان بالحرارة التى تتخلله أثناء سقوطه فى

الوادى كما يتجدد بالتدريج من تلك المملكة الثلجية فى الجو على الجبل ، وهذه الأنهر الثلجية تكون فى (سويزرلند) أو فى (نروى) وهذا أصغر وأقل جداً من تلك المقادير الهائلة من الثلج التى تعم داخل أرض (الجزيرة الخضراء) ومن التى كانت قديماً قد غطت أرض الجزائر البريطانية وعمت أرض قارة أوروبا جميعها ولبس الجمال فى ذلك والبهجة قاصرين على محاسن المناظر الحسية . كلا بل إن العقل ليقف أمام تلك المناظر مسحوراً ، وكيف لا يسحر العقل وقد رأى حادثين غريبين (أحدهما) أن القطع الثلجية تنزلت من أعلى الجو وأضواء الشمس المحرقة تتخلل تلك القطع الهائلة ولا تذيبها . فكيف مرت تلك الجروف الباردة وسط الحرارة المحرقة فى خط الاستواء التى دلتنا على ممالك واسعة النطاق ثلجية ، وكيف اجتمع النقيضان حار وبارد ، وما أثر الأول على الثانى؟ . وسترى صورة تلك الثلوج المنزلة من أعلى الجبال فى سورة النور عند قوله تعالى « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » الخ (ثانيهما) تلك الينابيع الحارة التى نبعت من بين الثلوج المتراكمة على الأرض ، فهاك صورة الينابيع الحارة فى الأقطار الثلجية (شكل ٢)



(شكل ٢ رسم الينابيع الحارة فى الأقطار الثلجية)

فهذه هى الغرائب التى تسحر العقل وتبهجه . هذان نهران : نهر حار نبع وسط البارد ، وثلج بارد تنزل وسط الحرارة . إذن تلك الينابيع الحارة الهائلة لها مخزن عظيم تحت وجه الأرض لا يبرد . وهذه الينابيع لقوتها اخترقت الثلج كما يخترق العالم طبقات الجهل فى أمته ويلقى إليهم العلم فيدفئ جوهم البارد ، وذلك لأن البواطن أساس الظواهر تمد الباطن بالحكمة أثارت الظواهر فأدفأتها قال تعالى « ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً » ويقول تعالى أيضاً « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً » فإذا كان الله لم يخلط البحر الملح بالحلو وهما متجاوران فها هو هنا لم يخلط البحر الحار فى باطن الأرض الذى لم نعرفه إلا من تلك الينابيع الحارة التى شاهدناها بالثلج الذى فوق سطح الأرض بل اخترق الحار البارد ولم يختلط به وطار إلى الجو حاراً كما هو وهذا من العجب . إذن ذكر

الملح والعذب فى الآية تنبيه على التميز وجعل كل واحد منهما مستقلا عن الآخر إذ جعل الله بينهما حجرا محجورا ، وهذه الينابيع نابعة صاعدة فى الجو يراها الإنسان كأنها الألماس البديع اللون الحسن الشكل لما تخلل الماء من المواد التى إذا قابلت الشمس عكست لونا بديعا فلذلك ذكرنا هذه هنا إذ صارت حلية للأرض وزينة لها وبهجة ، فأرضنا كعروس زينها الله لنا وقال ياعبادى انظروا هذه الحسناء الجميلة وانظروا أقراطها من الماس قد تدلى وظهر ببهاء وسناء وهذا القرط دائم لينظره العاشقون . وإلى هنا انتهى الكلام على الصنف الأول .

﴿ الصنف الثانى : فى عجائب الجمال فى الحيوان ﴾

أذكرك أيها الذكى بما تقدم فى سورة الرعد إذ ذكرت هناك عند قوله تعالى « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله » الخ الصوت والحرارة والنور وما سبب تكون الحرارة وأن الضوء مكون من سبعة ألوان أدناها الحمرة وأعلاها البنفسجية . وهناك إيضاح بعض الألوان وعدد اهتزازات الضوء فيها وهنا أريد أن أشرح لك شرحا مستفيضا فى جمال هذه الدنيا وكيف رأينا الله عز وجل جعل شمسه أشبه بريشة للصور فكما يرسم المصور بريشته ويصنع بفكر وعقل ويخرج صورا بديعة . هكذا رأينا « ولله المثل الأعلى » لله هذه الشمس التى يطلعها صباحا ويخفيها عنا مساء فنجدها قد أبدع الله بها التصوير والنقش الغريب والجمال والبهاء والحسن فى الإبداع ، لقد ذكرت فى هذا التفسير سابقا أن الله هو الذى أنزل القرآن وهو نفسه الذى أبدع العقول . فبينا نسمعه يقول فى القرآن « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » الخ نراه قد فسر هذه الآية فى أوروبا : أى أنه ألهم قلوبا وقلوبا فدرسوا بعض هذا النظام وجماله . وقد اطلعت الآن فى كلام (وليم اكرويد) تحت عنوان [مظاهر ماشيدته العلوم] على بهجة الجمال فى نظام النبات والحيوان وأن الناس اليوم جميعا لا يزالون أطفالا فى معرفة أسرار الجمال فى الحيوان والنبات وأن ماعرفوه اليوم وإن كان قليلا سيبهرك أن تقرأه وترى رسمه وتعرف بعض سر قوله تعالى هنا « إنا جعلنا » بالتأكيد بإن واللام والتعبير بضمير العظمة فى موضعين من الجملة .

لقد ابتدأ مقاله بالقاعدة المشهورة فى الضوء وأنه مركب من (سبعة ألوان) وهى الأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى وأخذ يوضح أمر الألوان كما هو معروف . ذلك أن الناس فرضوا أن سطوح الأجسام على الأرض تمتص ألوانا من هذه السبعة وما فضل عن امتصاصها تعكسه فتراه العيون . وضرب مثلا لذلك بالآجر الذى تبنى به البيوت فإن عيوننا ترى لون الحمرة مع اللون البرتقالى قليلا فهذان اللونان هما اللذان نشاهدهما من الآجر الذى بنيت به بيوتنا . ومعنى هذا أن ضوء الشمس قد ابتلع الآجر منه خمسة ألوان وهى الأصفر والأخضر والأزرق والنيلى والبنفسجى وعكس لونين اثنين الأحمر والبرتقالى فارتدا إلى أعيننا فقلنا هذا أحمر برتقالى ، وفى الحقيقة لالون للأجسام وإنما هى أضواء الشمس عكست عن الجسم ، وأقول كأن هذه الظاهرة تفهمنا نظام هذا الوجود كله فانك ستقرأ فى سورة النور أن قطرة الماء مركبة من (٥٠٠) مليون مليون مليون جوهر فرد من الماء وأن هذه الجواهر كلها التى كونت منها قطرة الماء إذا حللت رجعت إلى عنصرين (أحدهما) هو الأكسوجين (وثانيهما) هو الأودروجين وكلاهما مركب من كهرباء مضيئة بحيث ترى الكهرباء السالبة فى كل منهما تجرى حول الكهرباء الموجبة دورات تعد بمئات آلاف الآلاف فى الثانية الواحدة . إذن أصبحت المادة كلها سواء أكانت ماء أم هواء أم حجارة وحديدا عبارة عن عناصر تبلغ نحو (٩٠) الآن ، وهذه العناصر بتحليلها ترجع إلى ضوء . إذن العوالم كلها نور فى الواقع ونحن محجوبون عنه وإنما ظهر لنا جموده وسيولته وكونه جسما غازيا (كالحجر والماء والهواء) بتركيبنا ووضعنا فى عوالم متأخرة . فما يقوله العلماء هنا من أن لون الأجسام لا حقيقة له

وإنما

وإنما هو ضوء الشمس لا غير . هكذا يقول نظيره هناك عظماء الفلاسفة إن المادة لا وجود لها وإنما توجود هو نور تنوع فصار جواهر فردة وهذه بتنوع تركيبها صارت عناصر مختلفة والعناصر المختلفة كونت منها هذه المخلوقات في الأرض والسماء، والنور ما هو إلا حركات في الأثير . إذن المادة قوة فرجعت العوالم إلى قوة وهي الحركة ، وإذن قول القدماء إن المادة لادليل على وجودها هو عين قول علماء العصر الحاضر إنها قوة . فاذا قال الناس بحسب الظاهر هنا مادة وهنا قوة فالحقيقة لا موجود إلا القوة وهذه القوة صارت حركة فالحركة تنوعت فصارت كهرباء ونورا والنور باجتماعه صار عناصر ، ومن الأنوار ما نحن بصدده من الألوان في كلام العلامة (ولم) الذي هو أصل كلامنا في ترجمة ما رآه في جمال هذا الوجود إذ قال :

[ليست دراسة الألوان في الحيوان سهلة بل لا بد من أن نبتدئ في البسائط قبل المركبات فاذا أحكمنا البسائط وفهمناها أدركنا سر المركبات ، فلندرس ألوان العناصر فاذا عرفناها أدركنا ألوان ما تركب منها من حيوان ونبات . قال وهاك مثلا . إن المعادن المتحدة مع الاكسوجين تحصل لها حال نسميها نحن (صدأ) فهذا الصدأ ما هو إلا أكسوجين الهواء اتحد مع معدن من المعادن كالرصاص والزئبق والزنك ويقال لذلك المتحد أكسيد الرصاص وأكسيد الزئبق وأكسيد الزنك . ثم إن ألوان ذلك المركب وهو الأوكسيد تكون تابعة لدرجة الحرارة فنجد (أوكسيد الزئبق) لونه على الدرجة المعتادة برتقاليا مع الصفرة . ثم كلما ازدادت الحرارة يزداد تغير اللون تبعا لها فيصير أولا برتقاليا ثم أحمر ثم أسمر ثم أسود بالتتابع والتدريج ويصير ذلك قانونا مسنونا ونظاما ثابتا تغير في الحرارة يتبعه تغير في اللون . فهذا قانون لا يتغير (الأسود ، الأسمر ، الأحمر ، البرتقالي ، الأصفر) وهكذا إلى الأبيض . فالأسود أكثر حرارة وما بعده أقل والأبيض نهاية القلة في الحرارة فلا يتسرب الألوان وبقية الألوان بين السواد والبياض على هذه القاعدة . نظر علماء الحيوان في أمره فقالوا هل ندرس الحيوان المنزلي . كلا ثم كلا . إن الحيوان المنزلي تحت سيطرتنا وتأثيرنا فلا نبحث إلا في الحيوان المتوحش فانه تحت التأثير الطبيعي فدراسته تبين لنا القانون الحقيق وقد انضم إلى ذلك ما تحت سيطرتنا من الحيوان إذا لم يكن لنا عليه تأثير أو كان التأثير قليلا . فلنراقب ذوات الأربع اللاتي ترضع أولادها ولها على جلودها شعر ، وقد وضعوا هذه القواعد بعد البحث والاستقراء . أولا ما انكشف للهواء من أجسام ذوات الأربع يكون أزهى لونا من ظهورها . ذلك لأن ظهر الحيوان أشد تعرضا للشمس من بطنه مثلا ، ولا جرم أن ذلك تبع القاعدة المتقدمة ؛ فلون السمرة والسواد ناجم من شدة الحرارة والبياض وما يقاربه من الصفرة والحمرة ناجم من ضعف الحرارة على تفاوت في ذلك فلذلك يكون لون الظهر أقرب إلى السواد الذي هو النهاية العظمى للحرارة ، وضربوا لذلك مثلا بحيوان (السنجاب) فظهره أسمر وبطنه وصدره أحمران والحمرة ابتعدت عن السواد درجة إلى البياض الذي هو النهاية الصغرى للحرارة ، ومثل هذا يشاهد في الحمار المعتاد الذي أجزاء ظهره أشد سوادا من بقية ظاهر جسمه . قال العلامة (ولم) وهكذا يشاهد في بقرنا المعتاد . قال ومن أراد أن يتحقق هذا القانون فليزر دار الآثار فانه يجد هذه القاعدة تامة إلا قليلا يشذ عنها . ثم أخذ الكاتب يذكر ما زوقته يد القدرة وما أبدعته من الصور الهندسية في جلود الحيوان . قاعدة وضعها الله في المعادن التي صدئت أن يختلف لونها باختلاف الحرارة ومثلها ذوات الأربع فيكون ما تعرض للشمس من ظهورها أقرب إلى السواد مما بعد عنها كبطونها . هذا ظاهر ولكن هنا ظهرت بهجة العجائب إذ ظهرت نقط وخطوط هندسية وتناسبت الأجزاء تناسبا تاما منتظما . فهذه خارجة عن القاعدة أبدعت على شكل يبهج الناظرين ، ولذلك يقول العلامة (ولم) إن هذا العلم لا يزال في طفوليته لم تنظم دراسته ولم تعرف حقائقه . فمن ذلك تلك الخطوط في رأس (نمر البنغال) في بلاد الهند أنها تقترب اقترابا بينا من النموذج الهندسي من حيث تناسب الأجزاء وأن الخطوط على أحد الجانبين جعلت لها نظائرها بهيئة جميلة من الجانب

الآخر . ومثل هذا التناسب الجميل يشاهد في حمار الحبشة وفي حيوان آخر في الهند اسمه (تبر) وبعض الطيور النزلية . إن ذراعى ذوات الأربع الذكورة ورجليها وذيولها معرضات للشمس لا سيما الذيل فهذه أكثر امتصاصا للضوء فتكون أقرب للسواد من بقية أجزاء الجسم والذيل أكثرها امتصاصا وسوادا (انظر شكل ٣)



(شكل ٣ صورة حمار الحبشة)

ألا ترى الى (السنجاب) المتقدم ذكره فإنه إذا كان بطنه أحمر وظهره أسمر فإن ذيله أسود . إذن الذيل يمتاز عن بقية الأجزاء . وقد وجدوا بالاختبار أن (٩٤) في المائة من الخيل السمر تكون ذيولها سوداء وهذا تثبيت لقاعدة الذيل المتقدمة . وقد وجدوا أيضا أن لون الذكر أوضح من ألوان الإناث والقاعدة التي ذكرناها في ذوات الأربع موضحة سارية أيضا في الطيور والزواحف وفي بعض أدنى الحيوان أي التي ليس لها ظهر عظمى . فهذه ترى فيها الأجزاء المتناسبة والخطوط المنتظمة من الجانبين التي تشبه النماذج الهندسية وذلك كالحشرات . خذ مثلا لذلك حشرة [أبي دقيق الطاووسية] . قال الكاتب (ولبم) ابحث هذه الحشرة وانظر عجائب ألوانها فكل جزء منها محلى ببهجة الحلى والجمال البهيج من أحد الجانبين قد ازدان بنظيره الموازن له في الجانب الآخر . وهذه صورتها (شكل ٤) في الصفحة التالية .

ثم أخذ الكاتب (وليم) يصف الطيور قائلا إن ظهر الطيور يكون أشد سوادا من بقية أجسامها مثل ذوات الأربع ويظهر هذا ظهورا أتم فى الطيور المائية المنسوجة أصابعها انتهى .

فانظر كيف كان قانون الألوان ساريا فى المعدن وذوات الأربع والطير . فكل هذه ترى الأعضاء التى هى أكثر تعرضا للشمس كالظهر وكالذيل تكون أشد احمرارا وسوادا وبالعكس ما كانت أسفل البطن مثلا فهذه تكون أكثر ظهورا فى ألوانها لبعدها عن السواد .

(شكل ٤ صورة حشرة أبى دقيق الطاووسية)

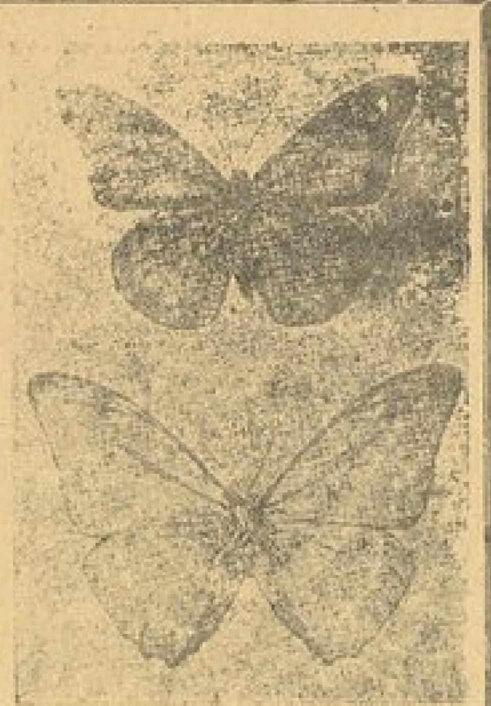
ولكن الذى سقنا له هذا المقال هو تلك النقوش المبدعة التى رأيتها فى حمار الحشة وفى حشرة أبى دقيق الطاووسى .

فانظر إلى الدوائر البديعة المتوازنة فى الجانبين على وزان الحل الهندسى الذى شرحناه سابقا فى المجلد السابع فى التفسير . فإذا كانت الحمرة والسواد جارية على ناموس عرفته .

فما هو الناموس الذى به أبدعت هذه النقوس وزين هذا الحيوان المزوق كما زوق الطاووس . هذه هى الزينة التى أشار لها الله فقال « إنا جعلنا » فها هو ذا سبحانه يقول : ها أنتم أولاء يا أهل الأرض قد اعترفتم أن علم الألوان عندكم لا يزال فى عالم الطفولة بدليل أنكم لم تعرفوا من أين أتت هذه النقوش فإنه لو كانت الألوان راجعة إلى تأثير الشمس كما فى ذوات الأربع والطيور فلماذا يكون التزويق المختلف الأشكال البهيج (نمر البنغال) وفى هذه الحشرة .

أيها الناس إنى أنا الذى وضعت القاعدة العامة لضوء الشمس وأردت مخالفة القاعدة فى هذه الحيوانات لتعلموا أنى أنا الذى صورت هذه الصور وحليتها بتلك الحلى ليتذكر أولو الألباب .

واعلم أنه إنما اختير هذا النوع لأن جماله أظهر وأبهر من جمال غيره من أنواع (أبى دقيق) وفى كل جمال . ولنعد رسم حشرة (أبى دقيق) التى تقدمت فى سورة النحل عند الكلام على اختلاف الألوان لتنظر عجائب ربك وتفهم حكمته وتعجب مما ذكر هناك وذكر هنا فهناك قد ذكرت لك أن الحشرة الواحدة فى جناحيها ألف ألف وخمسمائة ألف بيت وكل بيت منها إما مملوء مادة ملونة فى ذرات الغبار التى فوق أجنحتها . وإما أن يكون مملوءا هواء ، وهذا الهواء متى وقعت الشمس عليه انعكس النور عنه (انظر شكل ٥) فى الصحيفة التالية .



(شكل ٥ صورة أخرى لحشرة أبى دقيق)

الفراشة العليا سبب اللون فيها مادة ملونة فى تلك الآلاف من البيوت . والفراشة السفلى فى بيوتها هواء يعكس النور كما علمت . فانظر لأنواع الجمال والتفنن فى الحشرة وكيف كانت أولاهن أجملهن فهى كالطاووس وكانت الثانية فيها مواد ملونة والثالثة ليس فيها إلا الهواء والنتيجة الجمال وهذا بعض تفسير التأكيد فى الآية .

يقول الله : أيها الناس ، إنى جعلت للنوع ناموسا وهذا الناموس يقتضى أنه كلما كانت قوة الحيوان أضعف كان لونه أميل إلى البياض وكلما كانت قوته أشد كان أميل إلى السواد وهو هكذا بالترتيب (أبيض . أزرق أخضر . أصفر . برتقالى . أحمر . أسمر . أسود) . فالرجل أيام قوته شعره أسود ومتى شاب ابيضّ شعره والمقام لا يحتمل التفصيل وقد علمت بعض التفصيل فيما مرّ آنفا . فماذا يقول الحكماء فى تزويق حمار الوحش وحشرات أبى دقيق المرسومات هنا وما هذا الإبداع فى أجنحتها . الله أكبر . الأجنحة كما تقدم مكشوفة للشمس معرضة لها . وقد تقدم أن هذه تكون أميل إلى السمرة والسواد فما هذه الحمرة وما هذا البياض . أين القاعدة إذن . ما هذا التزويق . الله أكبر . ههنا ظهر الاختراع والإبداع . القاعدة كانت تقضى أن يكون الجناح لونا واحدا . ولكن الحكمة قضت أن تضع فيه مخازن وتملأ موادّ ملونة أو هواء والنتيجة النظام الجميل . هذا هو السبب فى التوكيد ، يقولون فى علم البلاغة :

جاء شقيق عارضا رمحه   إن بنى عمك فيهم رماح

فشقيق لما ورد على بنى عمه ورد عليهم غير مكترث بهم وجعل رمحه بهيئة من لا يكترث ببنى عمه كأنه يعدّهم لاسلاح معهم وكأنهم عزّل من السلاح فهو يعلم أن عندهم سلاحا ولكنه لما لم يكترث بهم نزل منزلة من ينكر سلاحهم وقوتهم فلذلك قالوا « إن بنى عمك فيهم رماح » هكذا هنا يقول الله للناس قاطبة سواء أكانوا من الجهلة أم من علماء الطبيعة .

أيها الناس : مالكم لاتعجبون من صنعى فأنتم (قسمان) إمامعرضون لايفكرون لجهلهم وإمامفكرون ولكنهم مقصرون . فالأولون هم العامة والآخرون هم علماء الطبيعة الذين يقولون كما ذكرنا إننا أطفال فى علم ألوان الحيوان فيقول الله للطرفين مالكم تعرضون عن هذا الجمال ؟ إذن أنتم كالمنكرين فلذلك قال « إنا جعلنا » فأكد لإنزال الطائفتين منزلة المنكرين فإنهم يشاهدون تنوع الألوان فى مثل هذه الحشرة . ومن عجب أن يقول « جعلنا » ففيها معنى التحويل كأنه حول وصرف هذه النواميس فلم يجعلها جامدة بل لون وأبدع وزوق عند الحاجة . ذلك أن الحمار العادى لم يلونه بألوان مزخرفة وكذلك كثير من الحيوان . ولكن هذه الحشرة لما لزم الأمر لتزويقها لم يجعل قاعدة اللون مطردة على وتيرة واحدة بل حوّلها ونوعها وصرّفها وزوقها . هذا هو المعنى الذى يؤخذ من لفظ « إنا جعلنا » . ألسنا بهذا نفهم قوله تعالى « الذى أحسن كل شىء خلقه » انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثانى : فى قوله تعالى « وجعلناها رجوما للشياطين » ﴾

الله عز وجل جعل الجمال فى هذا العالم ليتذكر به أولو الألباب . فأما غيرهم فإن الجمال يكون لهم فتنة فإذا بهرهم الجمال فى الأشكال الحيوانية والمعدنية والإنسانية أخذوا يحرصون عليه ويكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله ويحرصون على المال وجمعه غراما به ويصدون عن حكم هذه الدنيا ويغفلون عنها ولا يفقهون من جمال هذا العالم إلا امرأة يشتهونها أو صورا يغرمون بها . فأما جمال هذا العالم من سماواته وأرضه فلايعرفونه فأصبح الجمال لهؤلاء رجوما يرجمون به وكأنما هم يريدون الصعود فيرهقهم هذا الجمال فيقعدهم عن النهوض إلى العلا وهذا قوله صلى الله عليه وسلم « إن الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » فحلاوة الدنيا هذه هى التى تقعد بهم أكثر الناس عن العلوم والمعارف فهى رجوم لشياطين الإنس والجن الذين لايعقلون .

(إيضاح هذا المقام)

لقد تبين فى هذا المقام وفى غيره من هذا التفسير أن الضوء ينزل على الأرض فتكون منه نفس الألوان إذن لا لون فى الأرض إلا من الضوء . فألوان الشمس السبعة هى الألوان التى نشاهدها فى الأرض . إذن جمال الوجوه وبهجة الحدائق ومحاسن الناس والحيوان كلها أصباغ من لون الشمس وهذه الأصباغ يعكف عليها الجهال فهم لايعرفون إلا الجمال الظاهرى المثير للشهوة التى يشاركهم فيها الحيوان فى الأرض . أما جمال الحكمة وبهجة العلم ورقى العقل فهم محرومون منها فصح إذن أن المشرقات من الكواكب تقذفهم من كل جانب بما يثير شهواتهم التى تصدّهم عن العقل . ولا فرق بين شهب تقتل قتلا حقيقيا وبين صور تصدّ عن العلم فتميت القلب قال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا ... كاسفا باله قليل الرجاء

﴿ الفصل الثالث : فى قوله تعالى « قل من حرّم زينة الله » الخ ﴾

هذه الآية وردت لاباحة اتخاذ الزينة والجمال من كهرباء وحدائق وبساتين جميلة وحقول ظريفة ومساكن لطيفة . فكل هذا من المباح ولا حرج فى المباح ، ومن ذلك الحلى المختلفة الأشكال البديعة الأوصاف ولازال الناس قديما وحديثا يقتنون الأحجار الكريمة ، وقد شاهد الناس ما خلفه الأولون من تلك التحف الجميلة فقد كشف الناس فى عصرنا حلى كثيرة لقدماء المصريين مثل (توت عنخ أمون) وهكذا ورد عند كتابة هذا الموضوع أنه قد كشفت آثار فى العراق هذا وصفها يوم الأربعاء (٢١) مارس سنة ١٩٢٨ م إذ زار مندوب الأوقاف البغدادية المتحف العراقى وشاهد الآثار النفيسة التى أضيفت حديثا إلى المتحف والتى اكتشفتها بعثة المستر (وولى) فى هذه السنة فكتب عن تلك الآثار ما يلى :

تقادم عهد الحضارة

كلما توالت الحفريات فى العراق ظهرت لنا آثار جديدة تدل على حضارة السلف ومعظم الآثار عن حضارة العراق القديمة لا يزال مدفونا تحت أطباق الثرى متواريا عن الأنظار . وكل ماكان يحكى عن الأشوريين والكلدانيين والعيلاميين لم يكن يخرج عن حدود ماورد فى بعض فصول التوراة وما نقل عن سياحات [هيرودوتس واكسنوفون واسترابون] ولم يكن اسم الشعب الشومرى معلوما إلا قبل بضع سنوات لذلك لم يكن هنالك من يجسر على القول بأن حضارة العراق تضارع حضارة مصر فى قدمها . أما اليوم فلم يبق شك فى أن حضارة العراق القديمة لم تكن متأخرة عن حضارة مصر فى شىء إن لم تكن هى السابقة لها فى القدم وأن الكنوز الأثرية لا تزال مطمورة فى جميع أنحاء العراق لم تمدها آلة الحفارين والمنقبين بعد . وهنا نذكر

كلمة البروفسور (كلى) العالم الأثرى الأمريكى الذى كان قد قدم العراق وألقى على المعلمين محاضرة فى المدرسة الثانوية فى شتاء سنة ١٩٢٥ فقد قال [لو أتت عشرات البعثات الأثرية إلى هذه البلاد واستمرت فى العمل ٢٠٠ سنة لاتستطيع أن تكشف جميع الكنوز الأثرية التى فى أرضها] فلا يعلم والحالة هذه المدى الذى يرجع إليه مبدأ الحضارة فى العراق بعد أن اكتشفت فى (أور) آثار حضارة زاهية وبقايا قصور مشيدة يرجع عهدها إلى ٤٦٠٠ سنة قبل الميلاد : أى قبل عصر (الأهرام) بقرون كثيرة .

١٧ قرنا قبل توت عنخ أمون

ليست الاكتشافات الحديثة التى عثر عليها المستر (وولى) فى الشهر الماضى أقل قيمة من الوجهة العلمية والتاريخية من الاكتشافات التى عثر عليها المستر (هوارد أرثر) منذ أربع سنين فى وادى الملوك ، فاذا كانت آثار (توت عنخ آمون) تمثل الحضارة المصرية فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد فان التحف التى ظهرت فى قبر الملكة (شوباد) ملكة (شومر) على يد المستر (وولى) فى الشهر الماضى تمثل حضارة (الشومريين) إلى ماقبل القرن الثلاثين قبل الميلاد: أى أنها سابقة لعهد (توت عنخ آمون) بنحو سبعة عشر قرنا .

العظمة الحربية التالدة

يروى لنا التاريخ العربى أن أمير البصرة (معن بن زائدة الشيبانى) كان يصيغ نصول سهامه من الذهب وذلك ماحمل شعراء عصره على التغنى بعظمته والإشادة بمدحه وإطراء سلطانه . ولم يكن يحكم أحد بأن ملوك العراق وأمراءه قبل خمسة آلاف سنة أو أكثر كانوا يلبسون الخوذة الذهبية ويتمنطقون بالخناجر المرصعة بالحجارة الكريمة ولكن ذلك ماثبته لنا الآثار التى أودعت المتحف العراقى قبل بضعة أيام .

ومن أهم الآثار التى وضعت فى حصة المتحف العراقى وشاهدناها خوذة ذهبية كبيرة تلبس على الرأس وتغطيه حتى أسفل الأذنين وتتجلى دقة الصنعة فى هندامها ونقشها وإتقانها ولها عقدة كبيرة لطيفة تشبه عقدة العقال فى مؤخرة الرأس وللأذنين فيها محل نافر مصنوع على قدر الأذن والقسم الواقع أمام الأذن وتحته يكفى لأن يستر الصدغين والوجه وبجانب الخوذة الأسلحة الذهبية الأخرى وهى عبارة عن خناجر وحراب ذهبية وضعت فى المتحف وشكلها بديع يدل على عناية الشعب الشومرى بأسلحته الحربية وجميع ذلك قد ظهر فى الحفريات الأخيرة التى نحن بصدد ذكرها .

حسن الذوق

لقد ألفنا فى عصرنا هذا أدوات الزينة الدقيقة للرجال والنساء وشاهدنا أنواعها المختلفة ومع ذلك لا نتمالك من إبداء تعجبنا عند مانرى قرطا جميلا أو خاتما أو دبوس صدر يوضع على رباط الرقبة أو ماشاكل ذلك ولكن الأعجب من جميع ذلك أن نجد من هذا القبيل ما كان مألوفا فى العراق قبل خمسة آلاف سنة ففى المتحف العراقى اليوم دبوس فضى ملتوى الرأس وعلى قمته تمثال (قرد) ذهبى صغير لا يزيد ارتفاعه عن ثلث قيراط فيه من دقة الصنعة وجمال المنظر مايدهش الناظر .

إن مثل هذا (الدبوس) كان يحلى عصائب النساء فى ذلك العهد أكثر مما كان يحلى صدور الرجال ، وعلى كل حال فهو دليل على حسن ذوق الأسلاف وتفننهم فى أساليب الزينة . وهناك دبوس آخر ينتهى رأسه بحجر كريم (لازوردى) ودبابيس أخرى مجردة .

التماثيل

من أجمل التماثيل التى ظهرت فى الحفريات الأخيرة والتى أودعت (المتحف العراقى) رأس أسد ورأس ثور وكلاهما من (البرونز) إلا أن رأس الأسد يضرب إلى اللون النحاسى ، والذى يدهش الناظر أن التمثالين عيناهما الصناعيتان اللتان قد قلدت الطبيعة فى صنعهما أجمل تقليد وقد وجدنا كثيرا من التماثيل المصرية

والإفريقية

والافريقية والرومانية وشاهدنا صورها فلم نجد إلا عينا من مادة التمثال نفسه ، وقلما شوهدت تماثيل لها أعين تحاكي العين الطبيعية وتقلدها . أما في هذه التماثيل فالأعين تكاد تجعل التمثال حيا يحدق في وجه الناظر إليه .

الحلي والصوغ

يظهر من القلائد الذهبية التي أودعت المتحف أن الشومريين كانوا يميلون جداً إلى تقليد الطبيعة في معظم مصنوعاتهم وأدوات الزينة عندهم . فهذه القلائد الذهبية عوضا عن أن تكون على شكل عقود الخرز كما ظهرت بين آثار الأكاديين والأشوريين وفي (بابل) نجد هذه القلائد منظمة من قطع ذهبية ومطروقة ومسننة على هيئة أوراق الأشجار وكانت هذه القلائد تحلى صدور الأوانس والسيدات قبل خمسة آلاف سنة انتهى . وإنما ذكرت هذا لتعلم أن الله الذي أنزل القرآن وأبدع الجمال في تلك الحيوانات وغيرها هو الذي أودع في قلوب الناس حبّ الجمال . فطائفة فتنت به فهلكت وطائفة أبيح لها فاعتدلت وما طغت وقد ظهر هنا أن الناس قديما وحديثا مغرمون بالتحلي بكل جميل وهذا التحلي مباح . انتهى الفصل الثالث .

﴿ الفصل الرابع : في قوله تعالى في هذه السورة « لنبلوهم أيهم أحسن عملا » ﴾

اعلم أن الصناعات كلها فرض كفاية كما تقدم في أكثر هذا التفسير ومنها صناعة الحلي التي رأيتها فهي مباحات للابسين وواجبة وجوبا كفائيا على الصائغين . وبيانه أن هذه الحلي وإن كان لبسها مباحا أو مندوبا لم تخرج عن كونها إحدى الصناعات والصناعات إذا لم يقم بها طائفة من الأمة ولو كانت للزينة كهذه الحلي اضطر الأغنياء إذا أرادوا أن يستعملوا الحلي أن يجلبوها من البلاد الأخرى وهذا من أهم أسباب خراب الأمم كما هو الحاصل الآن في بلاد الشرق كمصر وغيرها ففرق ما بين اللابسين والصائغين بل الأمر فوق ذلك لو أن امرأ وجدت فيه قابلية أكثر من غيره لمثل هذه الصناعة وجب على رجال الدولة أن يخصوه بهذه الصناعة تعلما وتعليما فيكون فرض عين عليه وإن كان هو في ذاته فرض كفاية والأمة كلها تذنب إذا تركته كلها والله هو الولي الحميد . انتهى الفصل الرابع .

﴿ الفصل الخامس: في قوله تعالى «وزيناها للناظرين» ﴾

اعلم أن الله عز وجل لم يخلق الخلق عبثا ومن أعجب خلقه الجمال والنقش والتصوير الذي رأيته في نحو الصورتين السابقتين . أما العامة وسائر الجهلاء، بل مثلهم أكثر المتعلمين في ديار الإسلام لا يهتمون بهذا الجمال لأنهم غالبا محرومون من تذكير المذكرين به وفاقد الشيء لا يعطيه . إذن هذا الجمال لطائفة خاصة من الناس وهم المفكرون .

تعجب ثم تعجب من نظم القرآن، لم يقل الله وزيناها للابسين ولا زيناها للعاملين بل جعل هذه الزينة خاصة بالناظرين وهؤلاء الناظرون الذين زين لهم السماء هم المفكرون في خلق السموات والأرض . فأما بقية الناس بالنسبة لهم فهم أشبه بالخدم والعبيد مسوقون للنظام العام ولا ملوك لهؤلاء إلا حكماؤهم المفكرون فهم الذين زين الله لهم السماء .

حكمة باهرة في خرافة ظاهرة

لقد كنت في زمن الصبا أسمع في قريتنا الناس إذا رأوا في السماء سحابا متقطعا زمن الشتاء لا مطر فيه يقولون إن السماء ازينت فهذا اليوم مات فيه عالم فهم يظنون أن العالم إذا مات زين الله السماء له . أقول وهذه الخرافة من الحقائق لأن الله هنا يقول «وزيناها للناظرين» ولا ينظر إلا المفكر العالم .

إذن زينة السماء لن تكون إلا لمن يفرح بالزينة ويعقلها . فانظر كيف كان هذا الجمال مصائب على

صغار النفوس الذين هم كالشياطين وحلالا للابسين وعملا واجبا على العالمين وزينة للمفكرين ، والحمد لله رب العالمين .

(الفصل السادس: في قوله تعالى بعدها « أم حسبت أن أصحاب الكهف » الخ)

اعلم أن هذه الآية أشبه بآية يوسف عليه السلام إذ ذكر القصة بتمامها ثم أفهم القارئين أن هذه القصة من آيات الله وهى كثيرة . وإذا كانوا لا يعقلونها فكم تركوا آيات فى السماء والأرض فلم يعقلوها فهذه عادتهم هكذا هنا يقول سبحانه « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » وهذه الزينة إنما أبدعها لينظرها ويعقلها المفكرون .

إذن ليست قصة الفتية فى الكهف أعجب آياتنا . فكم لنا من آيات ومنها صور الحيوانات والنباتات البديعة البهية السارة للناظرين . ولكن هذه العجائب والجمال والزينة ليست مقصودة لذاتها بل أنا سأجعلها « صعيدا جرزا » وأزيلها من الأرض . فإياكم أيها الناس أن تجعلوها قبلتكم وتؤموها مقصدكم فما ذلك الجمال إلا صور من العوالم زوقتها لتدرسوها . كتبتها يدى كما تكتبون فى الألواح للصبيان فاذا قرأوها محوت ما كتبت وجددت غيره . وما هذه الصور المتلاحقة إلا دلالة على جمال أعلى فانتهزوا الفرصة واخزنوا هذه الصور الجميلة فى خيالكم وادرسوها فى عقولكم حتى ترجعوا إلىّ وقد علمتم نموذج أفعالى وجمال حكمى « وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام . انتهى ليلة الأحد الثالث من شهر شوال سنة ١٣٤٦ هـ .

شمس عقد الزينة فى بهجة الجمال

ألا يارعى الله العلم وحيا أهله وأنار سبل الهدى بنوره . الجاهل لا يعقل الجمال ، ليس الجمال كل الجمال مايفهمه ذكران الناس والأنعام والغنم والبقر والآساد والخنافس من محاسن إناثها ولا ما يفهمه الإناث من قوة ذكورها وجمالهم . هذا جمال حيوانى شهوى تساوى فيه الانسان والحيوان قد أعد لغرض خاص وهو التناسل . ألا إنما الجمال كل الجمال ماخبأته يد الأقدار عن عيون الجاهلين وأبرزته لبصائر الحكماء والعلماء والفهماء . أول الجمال جمال البصر . وثانيهما جمال البصيرة . أبصار الجهال كأبصار الخفافيش لا ترى الصور والسبيل إلا حيث يكون الظلام . وبصائر الحكماء والعلماء أشبه بأبصار سائر الحيوان ترى بنور الشمس من الصور والجمال وأنواع المحاسن ماأظلم على أعين الخفافيش فى وضح النهار . أكثر أهل الأرض الجاهلون وأقلهم الحكماء والمستبصرون، والله عز وجل لم يدع طريقا لفتح البصائر حتى يلج منه الجهال إلى حظائر الجمال فى العلوم والمعارف إلا أوضحه وجلاه ولا سبيلا من سبل الهداية إلا سنها وسهلها . ألا إنما مثل عقول الناس بالنسبة لجمال هذا الوجود كمثل الأرض ومثل العلم كمثل الماء والله تعالى يقول فى الأولى « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير » وهذا أمر مشاهد، فالناس يرون الأرض وهى ساكنة خاشعة لا مرعى فيها ولا نبات ولا شجر ولا حيوان إذا مطر أصابها فتراها أخذت تتفتح وتنفلق عن صغير الحشائش والشجر وأنواع النبات فتزهر وتنمو وتصير عروسا جميلة شابة مقبلة بعد أن كانت عجوزا شوهاء مدبرة . الله أكبر هكذا العقول فانك اليوم ترى أكثر العقول فى بلاد الشرق نائمة خاملة خامدة هامدة . ولكن انظر انظر . انظر إلى غيث العلوم وفنون الحكم والصناعات أقلت ترى سحائبها أخذت تمطر عليها صيبا . فها هو ذا يحييها ويخرجها من جهالتها وينيرها ويقضى على ظلمتها . ألست ترى أن أهل الشرق الآن أخذوا يقرءون العلوم ويحبونها ومنهم بل أكرمهم المسلمون ومن هذه النهضة الحديثة هذا التفسير الذى شرح الله قلبى له وزينه فيه وجعلنى أكتب بشوق وحب عظيمين وسترى فى هذا المقام من الجمال والبهجة ما يشرح صدرك وصدور المؤمنين لحوز العلوم على اختلاف أنواعها وفنونها « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . إن قياس العقول الانسانية على الأرض

وقياس

وقياس العلم على الماء جاء فى نفس القرآن فليس هذا بدعا فالله يقول وأنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل، الخ فجعل الله القرآن والعلم أشبه بالماء والعقول أشبه بالأودية. وجاء فى حديث البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال « مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا الخ » فاذن هذا التشبيه معروف معقول وإنما أوضحته لأرتب عليه ما ترى من الجمال .

﴿ حصر أهم الطرق التى بها تثار العقول لإدراك الجمال وفهم زينة هذه العوالم ﴾

(١) خوارق العادات على أيدى الأنبياء (٢) ظهور غرائب من العلم على ألسنة قوم لم يتعلموا وهم صلحاء فى أمة الإسلام (٣) غرائب من العلم ينتجها الخيال الانسانى فيثير فى النفوس حب المعرفة فتدرك الجمال (٤) الجد والنصب فى معرفة العلوم وذلك بطريقين : طريق الدراسة المعروفة ، وطريق السير فى الأرض لمشاهدة العجائب الطبيعية . فهذه خمس طرق (١) طريق الأنبياء (٢) طريق الأولياء (٣) طريق وضع القصص والأخبار لأجل الحكمة (٤) طريق التعليم فى المدارس (٥) طريق السير فى الأرض كالسفر إلى القطبين مثلا كما سيأتى بيانه (الطريق الأول) طريق الأنبياء ومعجزاتهم . قلت لك إن أكثر العقول فى هذا النوع الانسانى خامدة جامدة خمود الأرض وجمودها وقد ابتلاها الله جميعها بالسير فى الأرض لطلب المعاش ومدافعة الأعداء حتى سد عليها طرقها وعميت عليها مسالكها فأرسل أنبياء فجاءوا بمعجزات فرأوا أو سمعوا أن العصا قلبت حية والميت قد حيى وأن أقوالا نزلت على لسان لم يتعلم فخر له المتعلمون من الأمم سجدا وخضعوا له . سمعت ذلك الأمم أو رأته فقالوا أيام موسى كيف تقلب العصا حية فقال قوم هذا يدل على أن هناك قوة فوق قوتنا ، وهذه القوة بها صار هذا نبيا فأخذوا يفكرون فى العالم ، وفى صانعه وقال آخرون . كلا . هذا سحر فنحن لا نصدقه . فاذن يكون الناس فريقين : مصدق ومكذب وهناك يكون جدال . وضال وأخذ ورد وهذا فتح لباب العلوم والمعارف ومعرفة الجمال فى هـــذا الوجود . إن الله قد جعل هـــذا العالم كله قائما على الإعطاء بعد المنع . وبعبارة أخرى على الشوق . فأما شوق أحد الصنفين للآخر فهو طبيعى والجمال فيه لا يعوزه كبير عناء . أما الشوق لمعرفة جمال هذه الدنيا وما على الأرض من الزينة فانه لا يحصل إلا بمقدمات تتقدمه ومنها ثورة الفكر بحرب أو ظهور نبى يحدث حوله جدال ؛ وبالجملة فكل ما يؤلم النفوس أو يهيجها يفتح لها بابا من أبواب المعرفة ويصقلها أنواع المزعجات من صروف الليالى وثورة الأفكار كلها صاقلات العقول منيرات لسبل العلوم وإدراك الجمال . هنالك ينقسم المؤمنون فريقين : فريق لا يتعدّون الايمان بالأنبياء ، وفريق يقولون إننا إذا رأينا أو سمعنا أن العصا قلبت حية أو أن ميتا رجع حيا على يد نبىّ أو أن نبيا قرأ للناس قرآنا فاتبعته أمم وأمم من دول شتى ولغات مختلفة وهو لم يتعلم حرفا واحدا فمعنى هذا أن هذا الوجود فيه عجائب محجوبة عنا وجمال مستتر فلنمض قدما فى العلم ولنجد حتى نعرف قصة هذا الوجود الذى نعيش فيه وقصة العصا والحية تفتح لنا بابا لدروس علوم العجائب وهى الكيمياء والطبيعة وأمثالها من كل ما يعرفنا جمال هذه الدنيا وقصة الميت الذى حيى على يد المسيح كذلك تشير لنا أن ندرس مناهج عجائب الحيوان والنبات كما سيأتى فى سورة مريم . هذا إجمال الكلام على الطريق الأول وهو طريق معجزات الأنبياء الموقظات عقول الناس لإدراك ما على الأرض من زينة وجمال .

الطريق الثانى العجائب التى تظهر على أيدى الصلحاء

أمامى الآن كتابان أحدهما كتاب [الإبريز] ألفه نجم العرفان الحافظ الشيخ أحمـــد بن المبارك وهذا الكتاب يشهد بأن هذا المؤلف قرأ علوم الأوائل الفلسفية وعلوم الدين الاسلامى وقد كان فى القرن الثانى عشر الهجرى ، ولكن هذا العلامة النحرير يجلس أمام الشيخ عبد العزيز الدباغ الذى لم يتعلم علما

ولا دينا فيجد الرجل حكيما فى كل علم دينى أو فلسفى فصار الشيخ ابن المبارك تلميذه يتلقى عنه العلم وهذا عجب أن يكون من لا علم عنده أعلم من علماء الإسلام جميعا بعلومهم وغيرها . ومعنى هذا أن الله عز وجل يخلق فى هذا العالم خوارق لعوائدهم تقرع أسماعهم وتوقظهم إلى التعقل والتفهم وإنما فعل ذلك الله فى ذلك الزمن لأنه زمان جهالة والمسلمون قد أدبرت دولهم وذهبت ريحهم وكثرت خرافاتهم فجاء لهم بالعلوم من طريق مايعتقدون ، وهم لما أدبرت دولهم وغابت شمس علومهم كانوا قد عكفوا على قبور الصالحين وتقربوا إليهم وطلبوا منهم المعونة فأرسل الله لهم فى ذلك الزمن علوما على ألسنة بعض الصالحين ليرشدوهم ويقولوا لهم أيها المسلمون أنتم فى ضلال فارجعوا عنه وافهموا بعقولكم ولا تتكلوا إلا على ربكم والصالحون والأنبياء ماهم إلا عبيد امتازوا عنكم والله ربكم وربهم . هذه بعض الحكم فى خلق هذه النفوس النادرة الوجود فى أمة الإسلام ، هذا أحد الكتابين . أما الكتاب الثانى فهو كتاب [درر الغواص : على فتاوى سيدى على الخواص] ومعه كتاب آخر وهو كتاب [الجواهر والدرر] مما استفاده الشيخ عبد الوهاب الشعرانى من شيخه على الخواص وكلا الكتابين للشعرانى ، وكان ذلك فى القرن العاشر الهجرى ، أى قبل ابن المبارك بقرنين ، إذن الموقظات للأمم الاسلامية تترى عليهم من حيث لا يشعرون فيكون ظهور الحكمة على ألسنة بعض الصالحين فى فترات لتوقظهم . ولكن يظهر أن هذا الزمان هو الذى سيكون فيه أجلى ظهور للعلم وأبهج السبل وبدائع العرفان فانظر إلى ماجاء فى الكتاب الأول فقد سأل الشيخ ابن المبارك شيخه الدباغ قائلا ماملخصه إن الناس يستغيثون بالصالحين دون الله عز وجل ولا يحلفون إلا بهم ولا يخافون إلا منهم . فأجابه بما يفيد أن هناك أسبابا أوجبت انقطاع الناس عن الله عز وجل طرأت على هذه الأمة من غير أن تشعر بها . وهذه الأسباب التى أوجبت ارتباط قلوبهم بالصالحين وانقطاعها عن الله عز وجل ، وذكر منها :

(١) الهدية للصالحين ليشفعوا لهم عند الله لوجه الله .

(٢) والتوسل بالصالحين بالله عز وجل ليقضوا حاجاتهم .

(٣) أن يترك المسلم فرض الصلوات ويزور الصالحين .

(٤) أن يخاف الانسان من الظالمين على العمر والرزق مع أن المرء إذا قوى علمه بتصرف الله وحده فى ذلك قرب منه بقدر ذلك العلم .

(٥) التقرب للظالم لينال منه رزقا .

(٦) عدم النصيحة للمسلمين ، إذ يرى ما يضرهم ولا يأمرهم بالتحرز منه ، ويرى ما ينفعهم ولا يأمرهم بالتأهب له .

(٧) أن يعبد الانسان ربه ليرحمه وينفعه مع أن الأفضل أن يقصد وجهه مرة واحدة لاحظ الدنيا ولا الآخرة . انتهى .

وجاء فى كتاب الشعرانى حكم مثل أن الشعرانى رضى الله عنه سأل شيخه الخواص عن الأوراد التى يقرؤها المريدون التى لم ترد فى الشرع مثل مافعله البونى . فأجابه شيخه المذكور بما يفيد أن عباد الأوثان أحسن حالا من هؤلاء لأن هؤلاء اتخذوا هذه الأوراد لأجل النصر والجاه والرزق وانقياد الخلق لهم وعباد الأوثان قالوا إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى . وقال له فى موضع آخر من الكتاب الثانى إن الشيخ يلقن ألف تلميذ أذكارا وأورادا فلا ينتج له مريد واحد . وعلى ذلك لايعول على هؤلاء الأشياخ فى هذا الزمان ولا على أورادهم . وأقول : إن هذا مبالغة ولكن فيه حقائق .

واعلم أيها الذكى أن هذه الكتب وأمثالها قد قرئت فى أمة الاسلام فى القرون المتأخرة وفيها حكم كثيرة جدا وعلوم جمة ومنها علوم لم تكن معروفة وظهر بعضها فى الكشف الحديث ولكن فيها هناك أمور أخرى

غامضة، وبعضها لا يوافق الحقائق . أتدرى لم هذا ؟ لأن الله يأتى بالمتناقضين فى هذه كلها ليوجب علينا البحث والتنقيب ولا يجعلنا متكلين على أحد لا على الأولياء ولا على غيرهم ، بل لا نتكل إلا على الله والله هو الذى أعطانا العقول ، والأنبياء أيقظونا لاستعمالها ، فحرام أن نترك عقولنا ونتكل على أحد ولذلك جاء هذا التفسير وأمثاله من كتب المعاصرين لنا لنجد فى بحث العلوم والحكمة بأسرها لنعرف الجمال فالعلم جمال ، وما أقبح وصف الجهال .

الطريق الثالث غرائب العلم التى ينتجها الخيال الإنسانى فيثير فى النفوس حب المعرفة فتدرك الجمال .

إن العقول الإنسانية التى ليست بأنبياء ولا أولياء هى نور مستمد من نور الله عز وجل، فكل نور فهو مستمد من نوره . ولو خلا الإنسان بنفسه وفكر فيها لدهش من هذا العقل والخيال اللذين يسموان به إلى الأفلاك ويقطعان فيافى وموامى ومجاهل تخترق السبع الطباق وتهيم فى تلك المخارق الفسيحة ولا تقف عند حد ثم هى تعرج فى مجاهل بعد مجاهل فتعرف ما شاء الله من الكواكب الثابتة طبقا عن طبق ودائرة وراء دائرة إلى أن ينقطع الفكر « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر » ثم نراهما يرجعان إلى الأرض أى الخيال والعقل فيخترقانها ويجوسان خلالها ويدرسان معادنها وفحمها ثم يغوصان على جواهر علومها فيقولان إن هناك بحرا من نار فى داخلها بحسب مايتخيل المتخيلون. فهذا العقل وهذا الخيال الجليلان المرسلان من الله عز وجل لنا الذى أحاطنا بالأنوار الحسية والأنوار المعنوية هما اللذان بهما اخترعنا أنواع النقش والتصوير والنحت والشعر والموسيقى وأنواع صور الجمال والبهاء فى هذه الدنيا ، ومن ذلك الاختراع ما أنتجه العقول فى علم البيان والبديع من الصور الجميلة الخيالية مثل تشبيه معركة حربية واختلاف السيوف فيها بهيئة ليلة انتثرت نجومها فهى مضيئة فى وسط الظلام وتقول : .

كأنّ مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ولا ريب أن الشعر وبدائعه أمر مشهور معروف فلا نطيل به . وأبدع من ذلك ماتراه من ضروب الخيال والسحر الحلال الذى يسميه الناس خرافات فى أمثال كتاب [ألف ليلة وليلة] وكتاب [كليلة ودمنه] وفى الثانى محاورات بين أنواع الحيوان فيها ضروب الحكم والعلوم والسياسات . وفى الأول اختراع أقاصيص تصور الأمور المستحيلة فتشوق العقول للاغتراف من بحار العلم . فهذه أكاذيب جعلت وسيلة للصدق فى العلوم لقوم يعقلون . وأذكر لك منها الآن (قصتين اثنتين) قصة مدينة النحاس ، وقصة أبى قير وأبى صير .

الأولى قصة مدينة النحاس

إن المؤلف اخترع قصة خيالية ملخصها أن موسى بن نصير المعروف فى التاريخ أنه هو وطارق بن زياد فتحا الأندلس كان معه رجل يقال له الشيخ عبد الصمد وقد كان أمامهما جنى من الجن التى حبسها سليمان عليه السلام فى عمود ولما خرج من العمود حكى لهما عن تاريخ حبسه وعن كل ما جرى له من أيام سليمان إلى أيام عبدالملك بن مروان وموسى بن نصير وبعد ذلك رأيا مدينة من النحاس التى طاف حولها رجال على خيولهم يومين كاملين وفى ثالث يوم رجعوا إلى إخوانهم فأدهشتهم المدينة لنظمها وارتفاع أسوارها ثم اجتهدوا حتى عثروا على مفاتيحها ففتحوها ووجدوا فيها من الجواهر والذهب والفضة مالا حصر له والقوم فيها صرعى جميعا والأسواق مفتحة والبضائع كثيرة وهى خلية إلا من جثث الموتى وإنهم عثروا على فتاة جميلة بعينين تنظران فسلما فلم ترد فعرفوا أن هذه ميتة ولكن عينها تتحرك بالحكمة فالحركة صناعية ، ولما قرب واحد منها تحرك سيافان واقفان حولها بتصوير الحكمة فضرباه بالسيف فقتلاه وقد كانت محلاة بأبدع الحلى التى لانظير لها فى المدينة فتركوها ثم وجدوا لوحا مكتوبا فيه ما ملخصه :

[إن ترمز بن بنت عمالقة الملوك قد حبس المطر عن مملكته سبع سنين ولم يبق شيء يأكلونه بعد أكل الدواب والجيف فأرسل بالمال من طاف الأقطار فلم يجد قوتا يشتريه فأغلقنا حصوننا ومتنا وهذه أموالنا لم تغدنا]

ولما رجع الأمير موسى ومن معه إلى عبد الملك بن مروان أخبره بما حصل وأراه اثنى عشر قمقما من القماقم التي زعموا أن فيها جنا وكلما فتح عبد الملك قمقما خرج له شيطان صارخ يقول : التوبة لله يا نبي الله وما نعود لذلك أبدا . هذا ملخص القصة والقارئ لها أحد رجلين : إما جاهل يعتقد صحة هذه الخرافات التي لاتوافق الحقائق ولا التاريخ ولكنه قد خرج بعلم وحكمة وأشعار كلها حكم تزهد في الدنيا وتصغرها في عينه وإما عالم أدرك أن هذا مجرد خيال وقد خرج بحكم شعر وجمال ، ولا جرم أن أمثال هذا من الزينة التي زين الله بها أرضنا فقال « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » فهذه زينة لم تكن زهر البساتين ولا نور النجوم وإنما هي أنوار العقول برزت فبهرت قوما وهدتهم ، وأضلت آخرين فأغوتهم . انتهت القصة الأولى .

القصة الثانية قصة أبي قير وأبي صير

وملخصها أن الإسكندرية كان فيها رجلان صباغ وحلاق . فأما الصباغ فانه كان رجلا كاذبا خادعا يبيع ما يعطى له ليصبغه ، وأما الحلاق فكان رجلا صادقا مخلصا وقد عضهما الفقر بنابه فخرجا معا في بلاد الله يطلبان الرزق فصار الحلاق يعول الصباغ أسابيع وأسابيع . ثم إن الحلاق أصابه مرض وأغشى عليه فسرق الصباغ الدراهم من جيبه وأقفل عليه الحجرة وسار في المدينة التي هما فيها يتجول فيها وقابل الصباغين فوجدهم لا يعرفون إلا قليلا من فن الصباغة فتوجه للملك وأخبره قائلا [أنا أصبغ ألوانا كثيرة . مثلا الأحمر منه الوردي والعنابي والأخضر منه الفستقي والزيتي وجناح الدرة والأسود منه الفحمي والكحلي والأصفر ألوان مختلفة منه النارنجي والليموني وهكذا] فأمده الملك بالمال وفتح له مصبغة صبغ بها جميع الألوان وأقبلت الدنيا عليه من كل حدب وصوب . ثم إن الحلاق بعد أن هرب الصباغ بقي ثلاثة أيام وهو في الغيبوبة وفي اليوم الرابع أفاق فعلم أن صاحبه هرب ومعه نقوده فصار يتعهده جيرانه ، ولما صح جسمه خرج في المدينة فوصل إلى المصبغة المذكورة فوجد صاحبه فيها فلما رآه أمر بضربه ضربا شديدا فرجع حزينا بائسا ثم خطر له أن يستحم في الحمام فلم يجد في البلاد حماما فتوجه إلى الملك فواساه بمال كثير جدا وصنع الحمام واستحم فيه الملك وجنوده ومن أراد من الناس ، ومنهم صباغ فجاء إليه فعرف أن الحلاق هو الذي فتحه فأخبره بأنه لما ضربه لم يعرف أنه هو وحلف له على ذلك فتصافيا وتصادقا ثانيا لأن الحلاق صدقه ثم إن الصباغ قال للحلاق صاحب الحمام ضع الزرنيخ على الجير وأزل به شعر الملك حينما يدخل إلى الحمام ثم ذهب إلى الملك فقال له إنه يريد قتلك بدواء فقال فلما دخل الملك الحمام دلكه الحلاق كعادته ولما أظهر الدواء الذي ينظف الشعر أمر بأن يمسكوه ولما خرج من الحمام أعطاه لرجل ليرميه في البحر فأخذه الرجل وتوجه به إلى جزيرة وقال لا أقتلك بل خذ شبكة واصطد سمكا فوقعت سمكة في الشبكة فرأى فيها خاتم الملك الذي سقط منه وهو يأمر بأن يرمى الحلاق في البحر فلبس الخاتم وصار كلما أشار على إنسان بيده قتل وهو لا يشعر فدهش أشد الدهش ، وهذا الخاتم هو الذي لا يحكم الملك إلا به فلما سقط منه بقي ضعيفا والقوة انتقلت إلى الحلاق ، فلما عرف هذه الخاصية في الخاتم حفظه معه وتوجه إلى الملك فقال له أنا أمرت بقتلك فكيف جئت حيا فأخبره الخبر وأن هذا الخاتم خاتمك وإني أخاف أن أشير به فيقتلك أو يقتل أحدا من حاشيتك فقبله الملك منه وشكره شكرا جزيلا وطلب الصباغ وحقق أمر هذه السعاية فعرف بعد التحقيق بينهما أن هذا الدواء ليس سما وأنه يريد قتل الحلاق الذي أحسن إليه بعد أن عرف قصتهما فأمر الملك بأن يفضحوه في البلد ويضعوه في زكيبة ويرموه في البحر .

ولما الحلاق فانه استأذن من الملك بعد أن عرض عليه أن يكون وزيره فرفض فأذن له في السفر وأعطاه مالا وفيرا كثيرا لاحصر له فرجع إلى الإسكندرية بحشمه وخدمه ورأى بعض خدمه أن هناك زكية بجوار الإسكندرية فأخرجوها فاذا هي جثة (الصباغ) فأمر الحلاق بدفنها وأوقف عليها أوقافا كثيرة وعمل لها مزارا وكتب على الضريح أبياتا منها :

المرء يعرف في الأنام بفعله وفضائل الحر الكريم كأصله

إلى أن قال :

وتجنب الفحشاء لا تنطق بها مادمت في هزل الكلام وجده

ثم عاش الحلاق ما عاش في هناء وسرور ، ولما توفي دفنوه بجانب قبر (الصباغ) فالصباغ اسمه أبو قير والحلاق اسمه أبوصير . فأبوقير هوالغادر الناكر الذىأحسن إليه أبوصير في حياته وبعد موته ، والمكان الذى بقرب الإسكندرية كان يسمى باسم (أبي قير وأبي صير) وصار الآن يسمى (أباقير) لا غير . انتهى

فهذه الحكاية التي أنتجها العقل الانساني خرافة ولكن الخرافة فيها موعظة حسنة ، والموعظة هي أن فاعل الخير عاقبته السلامة والغادر الخائن عاقبته الندامة ، فأبو قير خائن فمات مقتولا ، وأبو صير صادق فعاش في نعمة وحبور ، وللأمم الأوروبية حكايات مثل هذه ألفوا لها الكتب ويقرؤها صغارهم وجهالهم فيها صور من الخيال ينتفع بها الجهال والأطفال كما في حكاية البنت المستضعفة المتواضعة التي ذهبت إلى البئر لتملأ منها فقابلتها عجوز فطلبت منها الماء فسقتها فدعت الله لها أن يخرج من فمها كلما نطقت جواهر وورد فلما رجعت أدهشت امرأة أبيها بالورود والجواهر فأرسلت امرأة أبيها ابنتها إلى البئر فأظهرت الكبر على السيدة الجميلة التي قابلتها هناك فدعت عليها أن يخرج من فمها عند الكلام الحيات وأنواع الثعابين فلما رجعت إلى أمها ورأت ذلك طردتها من البيت ثم خرجت فماتت . أما البنت الأولى فلما رآها ابن الملك تزوجها .

وهناك حكايات أخرى كثيرة تمثل الصدق والكذب والخيانة والأمانة وهكذا وفيما ذكرناه كفاية . انتهى الكلام على الطريق الثالث للعلوم الذى ينتجه الخيال .

الطريق الرابع : طريق التعليم في المدارس

وهذا معلوم مشهور وهذا يرجع الأشياء إلى حقائقها كما رأيت من دراسة الألوان بارجاعها إلى ألوان الشمس السبعة .

الطريق الخامس طريق السير في الأرض

وهذا هو الذى نريد الإفاضة فيه ، ولقد ذكرنا فيما سبق قريبا عجائب ألوان الحيوان من حيث كونها زينة وهكذا أنواع الماء الجميلة التي تنبع من الأرض وهي حارة وسط الثلوج أو من مواضع حجرية وهذا يعرف بالسير في الأرض ومشاهدة هذه العجائب فلأذكر الآن عجائب مما على الأرض من الزينة التي تشترك فيها غرائب الأرض وبدائع النور في السموات . فلأذكر ما دبجه يراع الكاتب القدير (جورج وليم) تحت عنوان (الضوء الشمالي) . (انظر شكل ٦)



(شكل ٦ ـــ صورة الضوء الشمالي من كتاب [علوم للجميع] ملونة بالحمرة والخضرة والصفرة الخ في الأصل)
هذا (الضوء الشمالي) كنت في شوق إلى معرفته لما كنت أسمعه دائما ونحن نتعلم في مدرسة (دار العلوم) من أستاذنا المرحوم إسماعيل بك رأفت ، إذ كان يقول لنا هناك أنوار عجيبة تسمى (الفجر الشمالي) فهاهي ذه الآن أحدثك عنها من قلم العلامة (ويلم) في كتاب [علوم للجميع] قال :

إن بعض الناس فى بلادنا (بلاد الإنجليز) قد يرى (قبابا) جميلة بهجة المنظر حسنة الشكل من النور تعترض ممتدة فى الأفق بسرعة شديدة وتأخذ صورتها وألوانها تتغيران بما يعرض لها من الأشعة والأنوار التى تكون عمودية عليها . ومن أراد أن يحظى بمحاسن هذه المناظر فى أبهج جمالها وأسطع أنوارها وأعجب أشكالها فليتوجه إلى خطوط العرض العليا مثل عرض (٨٢) درجة و (٢٧) دقيقة شمالا فقد شوهد ذلك المنظر الجميل هناك سنة ١٨٧٥ وسنة ١٨٧٦ م ، وبعض هذه المناظر تكون ذات ألوان بهيئة قباب لامعة مشرقة متلألئة ممتدة من أفق من آفاق السماء إلى أفق آخر منها محلاة بلون أحمر وبآخر أصفر مشرقين بهجين . وهذه الأنوار تسمى (الضوء الشمالى) أو (الشفق الشمالى) وإنما سميت بهذا الاسم لأن خطوط العرض الشمالية التى تظهر فيها هذه الأنوار يؤمها الزائرون ويسافر لها محبو الاطلاع أكثر من خطوط العرض الجنوبية العليا . إن مناظر هذه الأنوار ترى فى الجهات الجنوبية فى خطوط عروضها العليا كما ترى فى خطوط الشمال ويسمى النور هناك (شفقا جنوبيا) . ثم قال ونحن قد اصطفينا له اسم (النور الشمالى) وهذا الاسم مقبول عند الجمهور وإن كانت التسمية المستعملة له عادة (الشفق القطبى) . قال وإذا كان بعض قراء هذا المقال ربما لا تتاح لهم الفرص لارتياد النور الشمالى فى الأقطار الشمالية أو النور القطبى الجنوبى فى الأقطار الجنوبية . فلنفرض أننا فى الفصول القصيرة من السنة أى الخريف والشتاء ، وقد ركبنا سفينة وسارت بنا بسم الله مجراها ومرساها إلى الجهات الشمالية القطبية ولكن ذلك فى أوائل فصل الخريف قبل أن يقترب منا الليل الطويل القطبى . أقول : وإيضاح هذا أن الليل يكون ستة أشهر فى السنة فى الجهات القطبية من أول فصل الخريف إلى آخر فصل الشتاء فتكون الزيارة فى أول الليل أى أول الخريف ليكون ضوء الشفق هناك كافيا لرؤية الأجسام . ثم قال فهناك نلاحظ أن كل ما حولنا فى برد شديد وهو عرضة للرياح الشديدة وأن هناك من الأنوار ما يكفى لنرى فى كل مكان تلك الصور السحرية العجيبة للمناظر من جبال ثلجية عائمة على الماء فى الظلام ، وهناك نسمع أصواتا هائلة بتصادم تلك الجبال الثلجية وتعارضها وارتطامها فلا يمكننا أن ندفع عن أنفسنا الهلع والفزع والخوف من أن تقع سفينتنا بين جزيرتين من جزائر الجليد العائمة فيكون هلاكنا . إننا نشاهد المناظر حولنا أشبه بما يفعله السحرة والمشعوذون بقضبانهم وصوالجهم إذ تخيل لنا تلك المناظر أننا فى قصور مزخرفة محلاة بأنواع الحلى والجواهر فى (ألف ليلة وليلة) وهذه صورة (الشفق الشمالى) الذى شوهد فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٧٢ عند (أورلين) (شكل ٧ و ٨) .





(شكل ٧ و ٨ — صورة الشفق الشمالى الذى شوهد عند (أورلين) فى ١٤ فبراير سنة ١٨٧٢ م)

إننا نرى هنا (قبابا) من النور المتلألئ البهيج ممتدة متسعة فى أكناف السماء من الشرق إلى الغرب وهى تارة تكون واقفة وآونة تسير الهوينا نحو الشمال . ثم نرى ألوانا أخرى تأتى عمودية على تلك القباب المذكورة وإذا كانت القباب تحت فإنا نرى تلك الأشعة وإن كانت متوازية غالبا تتجه إلى أن تكون على هيئة خطوط متجهات إلى نقطة سمت الرأس . وهذه الأشعة الضوئية فى النادر جداً أنها تكون متجهة إلى جهة سمت الرأس فى السماء ، وكثيرا ماتولى وجهها شطر الشرق بهيئة حركة الثعبان التواء وانعطافا من طرف إلى طرف وقد يغطى هذا النور أكناف السماء . هـذا نظرنا فى السماء ، فإذا حوّلنا وجهة نظرنا إلى مباهج المناظر فيما يحيط بنا من الجبال الثلجية وهى مظلمة معتمة ساكنة فإننا لانثق بثبات هذا المنظر فإن هـذه الجبال الهائلة تحكى علينا فى سفينتنا ضوءا مكوّنا من ألف لون آتيا لها من الجوّ فوقها . فلو رأيت ثم رأيت قمم تلك الجبال الثلجية الهائلة قد حليت بأنواع من الألوان كأنما هى محلاة بأنواع من الجواهر المختلفة الألوان وباهر الأنوار الساطعة التى تكاد تذهب بالأبصار . هذه الأشعة تظهر فى صور مختلفة متنوعة ونماذج من أبهج الجمال . وهذه الأشعة قد تستبين كأنها مدلاة من السماء مثنية كهيئة الرداء . (انظر شكل ٩ و ١٠)



(شكل ٩) صورة الشفق الشمالى مشاهدا عند (الاسكا) فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٦٥



(شكل ١٠) صورة الشفق الشمالى الذى شوهد عند (برغلبونت) فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٣١

هذا ما أردت شرحه فى آية « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » ولما كتبت هذا المقال سألنى صاحبى الذى اعتاد أن يبحث معى فى هذا التفسير . فقال : هل هذه الآية يدخل فيها هذا كله ؟ إن الزينة إذا صحت فى الجبال الثلجية وفى الينابيع النابعة من الأرض لما فيها من جمال المناظر وفى مناظر الحيوان لايصح أن تكون فى آراء الصوفية التى نقلتها ولا فى خرافات [ألف ليلة وليلة] و [كليلة ودمنة] وأمثالها . فقلت إن الزينة لاتختص بما يرى بالعين وهى (ثلاثة أنواع) زينة تعرف بالبصر ، وزينة تعرف بالبصيرة والبصر ، وزينة تعرف بالسمع . فأما الأوليان فهما كل زينة رأيناها أو عرفناها كما تقدم ، والأخيرة هى التى نسمعها عن الأنبياء والصالحين أو مما تخيله أصحاب الروايات . فقال : هذا الأخير لا يسمى زينة . فقلت قال الله تعالى « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم » إذن الزينة تكون مرئية بالبصر ومرئية بالبصيرة . ولا جرم أن المجالس تزدان بزينة العلم سواء أكان دينيا أم دنيويا . قال : أما الآن فإنى قد اكتفيت. فقلت الحمد لله . انتهى صباح الخميس ١٤ شوّال سنة ١٣٤٦ هـ .

الكلام على الفصل الأول فى قصة أصحاب الكهف ، وهو وجهان : (الوجه الأول)
فى قوله تعالى « أم حسبت » الخ (الوجه الثانى) فى مقصود القصة
(الوجه الأول والثانى معا)

اعلم أن قوله تعالى « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » دال كما تقدم على أن آيات الله فى السموات والأرض لانهاية لها وأن أمثال هذه القصة ليست كل شىء وهذا فى الحقيقة غريب جداً وعجيب بل إن هذه الآراء وإن كانت حقة وقالها المفسرون بقيت مخبوءة عن العقول مبعدة عن ذكرها فى المنقول . فليسمع المسلمون فى أقاصى المعمورة كيف يقول علماؤنا رحمهم الله إن آيات الله فى السموات والأرض أعجب من هذه القصة التى طلبوها تعنتا وأن الله يقول إذا كان ولابد من البحث عن أمر البعث فليكن فى علوم الطبيعة وآياتها البديعة فعلينا إذن أن نشرح ذلك فى كلمات فنقول :

(١) انظر . أليس الناس ينامون كل ليلة ويستيقظون وهذا نفسه وإن كان معلوما أشبه بأمر البعث ولعمرى أى فرق بين نوم الآلاف المؤلفة من الناس ليلة وبين نوم سبعة أنفس مئات من السنين ؟ ألا إن الغرابة هناك هى التى ذهبت بعقول الناس فقط وإلا فالبرهان واحد فمتى ثبت نوم وإيقاظ لحظات كان ذلك كالسنوات ولكن عادة الناس ألا يخضعوا إلا للغرائب .

(عادة قدماء المصريين)

كان الكهنة المصريون يستخدمون هذه الطريقة فى عباداتهم الوثنية ويجعلون غرابة العجل وكونه على هيئة مخصوصة نادرة جاذبة لعقول العامة فهم كانوا مطلعين على أسرار الكون وقد حجبوا العامة عن تلك الأسرار بالغرائب والعجائب . ألا ترى أنهم إذا مات العجل أخذوا يبحثون عن عجل غيره وهو المسمى (أبيس) ولا يزالون يبحثون حتى يجدوه فيفرح الكهنة بذلك وتخدمه سيدات خاصات أربعين يوما ثم يضعونه فى زورق ويذهبون به إلى الهيكل بمدينة (منفيس) مصحوبا بالكهنة وسراة القوم وجماهير عظيمة من طبقات الأمة ويستعملون لهذا الاحتفال ألف آلة موسيقية يوقعون عليها بمختلف الأنغام ثم يختمون الأحتفال بأنواع الرقص المدهش وهو رقص دينى . فما الذى أفرح المصريين القدماء بذلك . لا شىء إلا الغرابة . فالغرابة هى الباب الواحد لما يراد من الناس . ولكن لا تظن أنى أجعل هؤلاء كأولئك ولكن القرآن وإن كان يذكر القصة على أنها وعظ دينى مرشدة للبحث ، فهو من جهة أخرى يقول كيف يقف الناس عند هذا الحد أى كيف يكون المسلم عاكفا على قراءة قصص الأولين . كلا . بل يقرأ ما خطه الله على لوح الوجود فإن أراد ما هو أعجب من نوم أهل الكهف فها كه .

(٢) لقد ذكرنا نوم الناس وقلنا لافرق بينه وبين نوم أهل الكهف ، ولكن أيها الذكى إن هذا القول غير مألوف وأنت وأكثر الناس لا يرى فيه وضوحا ، فاسمع ما هو أعجب .

النمل وكثير من الحشرات تنام طول الشتاء كأنها أموات فاذا جاء فصل الربيع دبت فيها الحياة وعاشت كما كانت .

(٣) السمك إذا أثلج الماء الذى هو فيه أصبح كالثلج فلو كسرت الثلج أو قطعته قطعا قطع السمك معه لأنه صار ثلجا ويبقى هكذا أمدا طويلا . فإذا أدنيته من النار تحرك السمك وذاب الثلج .

(٤) أذكرك عما مضى فى هذا التفسير أن حبة القمح الذى أصابه مرض فى سنبله وهو فى الحقل قد وجد العلماء فيها عشرات الألوف من الحيوانات الحية ومتى يبست الحبة وزالت الرطوبة ماتت فى تلك الحيوانات ولقد جرب العلماء فى ذلك تجارب فمنهم من أخذ تلك الحيوانات ووضعها فى الشمس أياما ثم بلها فى الماء فحييت كما كانت . ومنهم من وضعها فى الشمس كذلك ، ثم فرغ الهواء حولها مدة طويلة ثم بلها بالماء ثانيا

فتحركت وعاشت كما كانت . ومنهم من أبقاها عنده فوق العشرين سنة وهى يابسة فلما أنزل عليها الماء تحركت وعاشت . فالعجائب التى قال الله فيها إنها أكثر من آية أهل الكهف قد ظهرت لنا حقيقة واضحة وأصبحت حبة القمح الواحدة فيها آلاف مؤلفة تموت وتحيا فعلا بعد عشرات السنين ويقولون إنها لو كانت حية فى حياتها العادية لم تتحمل كل هذا فالله تعالى يسوقنا فى القرآن إلى أن نأخذ الأدلة فى هذا وأمثاله من الطبيعة ولايريد منا إلا التوغل والترقى فيها هذا هو الذى يطلبه القرآن .

(أصحاب الكهف ومقترحات أهل مكة)

طلب أهل مكة أن يزيح جبالها وأن يجعلها جنات وطلبوا كما قيل نبأ أهل الكهف فلم يجبهم فى الأولى مع أخواتها وأجابهم فى الثانية مفصلا آيات الطبيعة عليها كأنه يقول تعالى وما مكتكم وما جبالها وإذا أزحتها عن أما كنها فماذا تفهمون . إنى أبحث لكم عجائب الطبيعة فانظروها . ألا ترون أنى أجعل البر بحرا والبحر برا فى مئات الآلاف من السنين . ألا ترون أن بحرا هناك (هو الذى ذكرته فى قصة نوح) جهة بلاد الروس والترك فحصل زلزلة عظيمة فذهب ماء البحر واتجه إلى البحار الأخرى وأصبح الآن بلادا عامرة (انظره فى سورة هود فى قصة نوح) . أنا لا أنقل الجبال إلا بالزلازل فيكون الهلاك . فانظروا فى عجائب هذا الكون ففيه ما تقولون، وأما التعنت فليس يفيدكم علما . فلا قصة أهل الكهف بغنية عن نظركم فى الطبيعة والعلوم ولا الإجابة على مقترحاتكم بغنية فتيلا إذا أجبناكم. فلينظر فى ذلك المفكرون .

(الكلام فى خوارق العادات وفى الكرامات والأولياء)

خوارق العادات الجزئية توجد فى الدنيا . أما الخوارق الكلية مثل ما فى الطبيعة أى مثل الأحوال والانقلابات الطبيعية فلا وجود له إذ لم تقطع يد الإنسان ثم رجعت كرة أخرى ولم تقلع عين ورجعت على يد ولى مثلا أو ساحر أو كاهن . ولكن هناك غرائب تظهر وقد أوضحناها فى سورة البقرة فى مقامين عند الكلام على عجائب الأرواح وعند الكلام على السحر فلا حاجة للاعادة ، فعلم الأرواح قد انتشر فى المعمورة وعلم السحر أصبح بعضه صنائع فى أيدى الناس بعد أن كانت أمورا مكتومة مخبوءة فانظره فى سورة البقرة .

بقى أن ننظر فى أمور الأولياء ومن هو الولى ، هو فعيل بمعنى مفعول أو فعيل بمعنى فاعل أى تولاه الله أو هو تولى الله بالطاعة .

(صفته)

لاصفة له إلا أن يكون فى الظاهر متخلقا بالشرع وفى باطنه مستغرقا فى الله وآياته وذكره .

(كراماته)

ربما ظهرت خوارق على يديه وهذه الخوارق لاتعد وما يظهر على يد محضرى الأرواح فقد تصدر على أيديهم بعض لمحات مما فى نفوس من حولهم ومنهم من شاهدتهم بنفسى وهم جهلاء ولكن عند الذكر ووجود شيخ أمامه له أتباع كثيرون ترى هذا التلميذ الجاهل قد أخذ يشرح مواضع علية فلسفية تعلو على مدارك من حوله . ولقد دهشت إذ اطلعت على هذا فى بعض المجالس ورأيت من ذلك الذى ينشد فى الذكر من العلم مالا يقدر عليه أكبر العلماء والفلاسفة فإذا رجع إلى حاله الأولى رأيته كما كان لا يدرى شيئا مما كان يقوله وقد أقرّ مرارا بهذا .

(نظير هذا فى أوروبا والهند)

لقد ذكرت لك فى سورة (النحل) الغلام الصيرفى الجاهل الذى كان يتكلم فى الفلسفة وهو منوّم مع فصاحة وذلاقة حتى إذا رجع إلى حاله الأولى لم يدرك شيئا وكذلك ابنة الحاكم المسماة (لاورا) كانت تنطق بلغات لاتعرف منها شيئا وتخاطب الأموات الذين يطلبهم أصحاب ذلك الحاكم الأمريكى المسمى (أدمون) وقد نطقت بعشر لغات فى مدة ساعة (الإسبانية والإفرنسية واليونانية والإيطالية والبرتغالية واللاتينية والهندية والانجليزية)

والإنجليزية) وغيرها من اللغات التى كان يجهلها الحضور . وهكذا فى بلاد الهند يحصل عجائب وغرائب على يد الشيوخ المنقطعين فى الغابات من هذا وأمثاله كثيرا بل عند عباد الأوثان من الغرائب مايحير الألباب كما روى أن قوما منهم أوقدوا نارا على حجر أياما ثم قالوا للضابط الإنجليزى مرّ معنا عليه على شريطة أن لاتنظر خلفك وإلا احترقت حالا ففعل فلم يحترق وأخبار ذلك كثيرة .

(آثار ذلك فى الإسلام ومايجب أن يكون)

المسلمون نظروا فى أمر الشيوخ فرأوا الصالحين منهم لهم بعض كرامات من هذا النوع وهنا بيت القصيد فماذا نقول . نقول إن الأمر موقوف على صاحب هذه الكرامة فإن كان حقيقة مستغرقا فى جلال الله فهذه الكرامة يجب أن تزيده تواضعا ويجب على مريديه أن لايظنوا أن هذا مقصود الإسلام بل مقصود الإسلام ارتقاء العقول والبحث والفكر ، فلو عكف الناس على تلك الخوارق لأضاعوا أعمالهم ولخسروا وضاع الاسلام.

إن الشيخ الذى منح هذه الكرامة إذا ظن أن الله اصطفاه بها وأنه سعيد وأنه مرموق من حضرة الحق وقد أصبح آمنا فإنه يصبح أبعد من الله وتكون الكرامات شرا ووبالا ويكون مثله كمثل الذى له جنتان «فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا » الخ ، فلا فرق بين تلك الكرامة وبين المال فليس إكرام الله الصالح ببعض الخوارق ولا تسهيل مصالح الإنسان وإعطاؤه الغنى وسعة الرزق من أيدى سائر الناس بدليل على أنه من المقربين فقد يسلب العطية كما يسلب المال، وإعارضا الله على مقتضى الإخلاص؛ وكم من رجل دخل الخلوة وصفى نفسه وأعطى بعض الخوارق ثم خرج منها وأخذ الناس يقبلون يديه وقد أصبح شيطانا رجيما لأنه رجع لطلب الدنيا والشهرة والمال ومن أكرمه الله ببعض الخوارق من الصالحين أو ببعض اليسار والغنى منهم ومن غيرهم ثم فرح بالكرامة وفرح بالمال ، فليعلم ذلك الصالح وذلك الغنى أنهما قد استدرجهما الله والاستدراج استبعاد عن الكمال واقتراب من النقص . فالفرح بالكرامة والفرح بالمال يحييان النفس فى الدنيا ومحبة الدنيا بعد عن الله فلا صلاح ينفع ولا مال يشفع . وكلما اقترب العبد من الدنيا بحبها ابتعد عن الله وهذا هو الطرد بعينه . وقد رأيت فى كتاب (الروض المستطاب) لبعض تلاميذ الشيخ خالد رحمه الله تعالى مايوضح هذا المقام إيضاحا تاما .

[فكم من ذاكر لله وقلبه معلق بالدنيا ولذلك ترى كثيرا من شيوخ الطرق فى الإسلام صاروا أعظم نكبة على الأمة وهم جشعون فرحون بالمال مغرمون بالدنيا لاسيما أعقاب أولئك الأولياء الذين لم يسيروا على طرقهم فتصبح العبادة معبدة للدنيا مبعدة عن الآخرة] .

(الصوفية ودول أوروبا)

ومما يناسب هذا ماعرفناه فى زماننا أن فرنسا لما نظرت فوجدت أن المسلمين تحت أمر الشيوخ أعلنت فى جرائدها أنها ستتخذ كل طريق لفتح مراكش وذلك بإعطاء شريف مراكش أموالا طائلة ، وكذلك شيوخ الطرق وبعد ذلك نجحت فعلا وقد قالوا إن هؤلاء الشيوخ يخضع لهم الناس ومتى أغدقنا عليهم النعم والمال كان الناس تابعين لهم وهؤلاء الشيوخ متى نالوا النعم والراحة أحبوا بقاء الحالة على ماهى عليه .

(قصة أهل الكهف)

علم الله عز وجل أن المسلمين سيقعون فى هذه البلايا والنكبات وأنهم إذا عم الجهل ربوعهم سيكون الصلاح وما يتبعه من بعض الكرامات يستعملها قوم من الذين لا خلاق لهم فى جلب المال ونصب المكائد للأمة وأنهم سيكون فيهم كذابون مخترعون لذلك ليصيدوا به القلوب ، وعلم أن أوروبا ستتخذ من هؤلاء شبكات للصيد فأنزل الله هذه السورة ولم ينزل ما اقترحه أهل مكة فى سورة الإسراء بل اعطى هذه القصة وما بعدها وبدأها بقوله «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » فجعل عجائب الملك أرقى

من هذه العجائب وحثّ الناس على النظر فى الكائنات لتصقل عقولهم بالمواهب وأن أمثال هـذا يكتفى به الأصاغر من الرجال .

(واجب المسلمين فى المستقبل)

لا جرم أن الأمم تبدأ بتعليمها بتوسيع الخيال من العجائب القصصية فاذا ارتقى التلميـذ فى التعليم أروه حقائق الأشياء فى الرياضة والطبيعة . هـذا هو الصراط المستقيم فى أوروبا الآن . فهذه القصص يجب أن تعطى للتلاميذ فى أول نشأتهم ولـكن حرام أن تترك العقول فلا يدرس لها نظام الطبيعة والفلك ، وقولى حرام أى على من قدر بالمال وبالعقل ، وإنما كان حراما الترك لأن ذلك فرض كفاية ولا كفاية إلا بتعميم التعليم تقريبا فى هذا الزمان إذ كيف يقول الله إن عجائب السموات والأرض أعجب من هذه القصة وكيف يقول فى سورة يوسف عليه الصلاة والسلام بعد أن أتمها « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ونحهم على جهلهم ماحولهم وقال إذا لم تعتبروا بسورة يوسف ولم تؤمنوا فأنتم قوم جهلتم ماهو أعظم .

عجب للقرآن يذكر السورة بتمامها ويقول هناك ما هو أعظم بلا نهاية وهنا يقول عجائبى أعظم .

اللهم إنى كتبت فى هذا المقام ما أعلم فلا تؤاخذنى فيما لا أعلم ، فليرشد العلماء أممهم فانها أصبحت فى حاجة إلى المرشدين وليعلم الناس من قدر فهذا ما فى طاقتى . ولقد حاولت هـذا الموضوع مدة حياتى ولـكن هذا منتهى جهدى وطاقتى والله ولى حميد . انتهى الفصل الأول .

(الفصل الثانى : فى حساب السنين وفى معنى (٣٠٩) فى الآية)

السنة العربية قد ذكرت فى كتاب [نظام العالم والأمم] مايأتى فى صفحة ٢٣٣

أنا الآن فى يوم الأربعاء خامس يوم من شهر المحرم سنة ١٣١٩ هجرية أى قبل الآن بأربع وعشرين سنة فوجب إذن أن أجعل التمثيل بهذه السنة فأقول :

إذا أردت معرفة أول يوم من السنة العربية فاقسم عدد السنين الهجرية على (٢١٠) واقسم الباقى على (٣٠) ومابقى فانقصه واحدا ثم اضرب البسيط فى (٤) والكبيس فى (٥) واضرب الخارج من قسمة الباقى فى (٥) أيضاوأضف (٥) أخرى فهذهحواصل أربعة فاجمعها واقسمهاعلى (٧) وما بقى فأجره على أيام الأسبوع من يوم الأحد فاليوم الذى يدل عليه العدد هو أول تلك السنة من زمن الهجرة .

ففى مثالنا هذا باقى قسمة سنة ١٣١٩ على (٢١٠) هو (٥٩) وبقسمته على (٣٠) يكون خارج القسمة (١) والباقى (٢٩) وبطرح واحد منه يكون (٢٨) والسنين الكبيسة فى كل سنة هى (٢و٥و٧و١٠و١٣و١٥و١٨و٢١و٢٤و٢٦و٢٩) وضرب الكبيسة فى مثالنا فى (٥) يكون (٥٠) والبسيطة فى (٤) يكون (٧٢) والباقى عندنا (١) نضربه فى (٥) ونضيف (٥) وهذه الحواصل الأربعة (١٣٢) وبقسمتها على (٧) يكون الباقى (٦) فيكون أول السنة على هذا يوم الجمعة ولـكن الهلال لم ير إلا ليلة السبت، فأول السنة الشرعية يوم السبت وقد مكث الهلال نحو ٤٣ دقيقة بعد الغروب فدل على أن الاجتماع سبق بمدة طويلة . ولمعرفة أول الشهر اضرب عدد الأشهر السابقة على الشهر المطلوب على حساب أن المحرم (٣٠) وصفر (٢٩) وهكذاشهر كامل وشهر ناقص فاضرب التام فى (٢) ويضاف إليه عدد الناقصة ويضاف إلى مجموعهما العدد الدال على أول يوم من السنة ويقسم الكل على (٧) فلمعرفة أول شهر ربيع الأول من هذه السنة نأخذ واحدا للناقص و٢ للتام فهنّ (٣) ونجمعها على (٦) وهو الذى كان ابتداء السنة يحصل (٩) فنسقط (٧) فالباقى (٢) ويكون أول شهر ربيع الأول من هذه السنة يوم الاثنين ولـكن على حسب القاعدة نفسها لا على حساب الهلال . فهذا ملخص ماذكره سعادة مختار باشا الفلكى فى كتابه [علم الهيئة] .

فتأمل كيف دارت الأفلاك دورات منتظمة . وكيف كانت الأدوار كل دور (٢١٠) وهذه فيها (٧) أدوار لعدد (٣٠) المشتمل على الكبيسة والبسيطة بحيث يكون الكبس والبسط فى كل (٣٠) منها مماثلا تماما للثلاثين بعدها، ثم إن أوائل الشهور والسنين فى كل دور من الأدوار الكبيرة وهى (٢١٠) هى بعينها تماما أوائل السنين والشهور فى الدور الآخر بحيث إن السنة الثانية من الدور الأول تكون أوائل شهورها مثل أوائل نظيرتها فى الدور الثانى . هذه هى السنة الشمسية والقمرية التى ذكرتها الآية نقلا ملخصا من كتابى [نظام العالم والأمم] .

اعلم أن قدماء المصريين وأهل أوروبا نظروا فى أحوال الأرض من حيث الحر والبرد فوجدوا ذلك تابعا لقرب الشمس وبعدها وأنها تقطع فى كل دورة بحسب الظاهر ٣٦٥ر٢٤٢٢١٧ يوما شمسيا بمعنى أنها تحدث قربا منا وبعدا عنا ينتج عنهما الصيف والخريف والشتاء والربيع ومدة هذه الأربع تسمى سنة شمسية إذ النظر فيها إلى سير الشمس ٣٦٥ر٢٥ يوما وهذه السنة تسمى الانقلابية أيضا لأنها عبارة عن مدة تنقضى ما بين مرورين متتالين للشمس بنقطة اعتدال واحد كالاعتدال الربيعى ، وأما السنة القمرية فانها تتركب من ٣٥٤ر٣٦٧٠٦٨ يوما لأن كل شهر ٢٩ يوما و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة وثانيتان وتسعة أجزاء من عشرة من الثانية أو ٢٩ر٥٣٠٥٨٩ يوما أى ٢٩ يوما وما ينوف عن نصف اليوم . وهذا الحساب مأخوذ من ملاحظة المدة بين كل كسوفين متواليين فيحسبون عدد الدورات الاقترانية المسماة (الحركات الدائرية) أيضا ويقسمون تلك المدة الكلية على عدد تلك الدورات وقد تم المطلوب . فاذا طرحنا السنة القمرية من السنة الشمسية كان الفرق بينهما ١٠ر٧٧٥١٤٩ أيام وهذا العدد يكون فى كل ٣٣ سنة ٣٥٥ر٥٧٩٩١٧ أى ٣٥٥ يوما ونحو ٥٨ جزءا من مائة من اليوم وهذا نحو سنة فتكون كل ٩٩ سنة شمسية زائدة ثلاث سنين إذا اعتبرت قمرية وبالتقريب تزيد كل مائة سنة ثلاث سنين فثلاثمائة تكون (٣٠٩) فهذا هو الذى ذكره القرآن . فاعجب واعلم، والحمد لله رب العالمين .

هذا هو الذى ذكره الله بقوله «وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا» . ولعمرى كم من الفرق بين هذا الحساب الدالّ على النظام الإلهى وعلى حكمة الله وعنايته وبين قصة أهل الكهف التى ليست على طراز عام كافل للمصلحة العامة وإنما هى خوارق جرت على أيدى أقوام شرفاء لتذكير الناس بربهم حتى إذا انتبهوا رجعوا إلى ربهم فقرءوا نقشه وصناعته .

إن الله أفهمنا أن هذه العجائب أشبه بلبن الأم يرضعه الطفل صغيرا فاذا كبر فما أجدره أن يجدّ بنفسه لا يتكل عليها ، فلتقرأ ذلك ولتقرأ بعده العلوم الكونية . ولقد فتح الله الباب فى مثل هذا التفسير فليلجه المسلمون . أقول وسيلجونه وسيكونون «خير أمة أخرجت للناس» وسيتم قول الله وسيتعلم المسلمون وسيكون هذا التفسير من أسباب انتعاش العقول وذهاب الجهالة «ولتعلمنّ نبأه بعد حين - وكان أمر الله قدرا مقدورا» وسيقرأ هذا من بعدنا وسيرونه حقا والحمد لله . انتهى الفصل الثانى .

﴿ الفصل الثالث : فى قوله تعالى «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» الخ ﴾

لما ذكر الله عز وجل حساب السنة القمرية والسنة الشمسية وكان هذا حقا معجزة واضحة بينة ولكنه مجمل أخذ سبحانه يمهد للأمور الطبيعية الآتية بذكر القلوب الغافلة والمستبصرة وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يكون مع الذين قلوبهم مستبصرة ليمهد السبيل إلى ذكر الجنتين وهما من زينة الحياة الدنيا . فانظر كيف ذكر الزينة فى أول السورة ثم قال هنا «ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا» وكأنه بهذا يفهم الناس ما المقصود من زينة ما على الأرض ، فقال ليس المقصود زينة الحياة الدنيا بل تزيين العقول بآثارها بعد استكمال الانتفاع بها ، انتهى الفصل الثالث .

(الفصل الرابع : فى مسألة الجنتين وأن أحد الأخوين اغترّ بهما والآخر عرف الحقائق وقال له كل ذلك لا بقاء له)

إن هذه المحاورة التى بين الأخوين ضرب مثل للناس جميعا . إنها حاصلة فى كل مجتمع فالناس جميعا على هذه الحال فكل من أوتى مالا أوجاها أوقوة يفتخر بما أعطيه بل من أوتى علما يفتخر على الجاهل بل أرباب الكرامات من الأولياء بعضهم تكون هذه الكرامات من أسباب تكبره ، فالمثل هنا شامل كامل وأن هذا الذى يفتخر به العالم والغنى والصالح مما آتاه الله من المال أو الإقبال يكون وبالا عليهم جميعا ولا بقاء له . فكيف يفتخر هؤلاء والدنيا دار انتقال ولكن النفقة متى استحكمت على القلوب تركتها فارغة لا أرى لها . فكل واحد من هؤلاء يقول الله أعطانى المال أو العلم لاستحقاق وكل من أوتى شيئا باستحقاق فانه لا يسلبه فأنا لا أسلب هذا المال ولا أسلب هذا العلم الخ وهذا قوله تعالى « وما أظنّ أن تبيد هذه أبدا » وأيضا يقولون فى أنفسهم إن الله أنعم علىّ فى الدنيا وكل من أنعم عليه فى الدنيا لا بد أن ينال النعيم فى الآخرة فعليه أنا عزيز منعم فى الدنيا والآخرة وهذا قوله تعالى « ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا » ، ولعمرى ما ضرّ الناس إلا هذان البرهانان اللذان هما من السفسطة وهما أشبه بأدلة إبليس إذ جعل كون آدم من تراب سببا فى احتقاره ولذلك جاءت قصة إبليس وذريته بعدها وأنهم عدوّ فكيف نأتى بأدلة ، يغترّ الرجل فيقول هذا مالى وهذا ملكى ولن يفنى مع أنه يشاهد الأحوال المتغيرة أمامه ويقول إن الله ينعمنى فى الآخرة وما درى أنه لا تلازم بين الحياتين بل التلازم للعمل لا للمال ، وقد يظن الصالح أن صلاحه أوجب له ما أنعم به عليه من بعض الأحوال أو ما علم أنه لا دوام للأحوال وأنه ربما كان ذلك استدراجا ، ويظن العالم أن ما كسبه من العلم قربه من الله والعلم قد يكون وبالا على صاحبه يقربه من الدنيا ويفرحه بها ويبعده من الله . أو ما درى من أوتى المال والحدائق أن هذه خلقت له ليعتبرها دروسا يدرسها ويفهم مغازيها ويقرأ علومها فتكون جنة حقا توصل لجنة مستقبلة . إن فى لذات المعانى المفهومة من المروج الواسعات ما يربو على لذات المحسوسات والثمرات « وما يعقلها إلا العالمون » (بكسر اللام)

يقول الله هذه الحدائق زينة الأرض فاحذروا أن تجعلوها خاصة باللذات الشهوية بل استخدموها فى اللذات العقلية وانفعوا بها البرية . انتهى الفصل الرابع .

(الفصل الخامس : فى قوله تعالى «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا» الخ)

ههنا كما تقدم تمّ الكلام فى مسألة الزينة فى الحياة الدنيا ووصلنا إلى يوم المعاد فيحاسب كل امرىء على ما عمل ، وقد قلنا إن هذه السورة متصلة بما قبلها من وجوه وأن المقصد من هذا كله مسألة البعث وكنت أريد أن أسمعك تمام مبحث البعث والمحاورات التى دارت بينى وبين طالب روسى فى كتاب (الأرواح) كما وعدت فى سورة الإسراء وهذه المحاورة قد امتزجت فيها الأدلة العقلية بالأدلة الشرعية مشاكلة لما فى هذه السورة من اجتماع النوعين من الأدلة ؛ ولكن اكتفيت فى مثل هذا المقام بما تقدم فى هذا التفسير فى مواطن كثيرة فمن أراد ذلك فليقرأ الكتاب المذكور . وههنا (ثلاث جواهر : الأولى) فى أمر الجنة والنار (الثانية) فى ضرب المثلين (الثالثة) فى سجود الملائكة قد فتح الله بها بعد ما تقدم .

(الجوهرة الأولى فى قوله تعالى «ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا »)

فى صباح هذا اليوم (١٧) مايو سنة سنة ١٩٢٨ م خرجت للرياضة فى روضة للنيل فى ضاحية مصر فقابلنى أحد الفضلاء وكان من حديثه معى أن قال : ما الذى يطبع من التفسير الآن . قلت سورة الكهف . فقال عندى سؤال لا زال يساودنى طول حياتى . فقلت وما هو ؟ قال يقول الله تعالى ـ ويلبسون ثيابا خضرا

من سندس وإستبرق ـ الخ ويقول فى سورة الحج ـ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ـ ويقول فى سورة أخرى ـ وأنهار من عسل مصفى ـ ففى الجنة حرير ولؤلؤ وعسل . ولا جرم أن الحرير لذة حاسة اللمس فإن اللمس الخشونة والملاسة والثقل والخفة وهكذا الخ مما اطلعت عليه فى كتابك (بهجة العلوم) فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية ، وهذا الكتاب هو الذى جعلنى أفكر فيما أقوله الآن وما العسل إلا لذة حاسة الذوق التى لها تسع صفات من صفات المادة مثل المرارة الحرافة والملوحة والحلاوة وهكذا وما اللؤلؤ إلا لذة الأبصار وللأبصار من صفات المادة عشر من الألوان والأشكال والحركات الخ . كل ذلك قرأته فى ذلك الكتاب، وأرى الله خلق ذلك لنا فى الأرض وأنزل سورة النحل وقال تعالى ـ وتستخرجون منه حلية تلبسونها ـ وهكذا وهذه الحواس ثلاث وحواسنا خمس فأرجو إيضاح ذلك المقام . فقلت إن هذه المذكورات مفاتيح العلوم ورقى المسلمين فى الدنيا والآخرة . فقال .

سارت مشرقة وسرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

فقلت : لا أنا مشرق ولا أنت مغرب . إن المقام مقام علم وحكمة ، اعلم أن هذا النوع الانسانى خلق فى الأرض ليدرسها لا غير ، والدليل على ذلك أنه جعل ألذ طعامه من حشرة طائرة بجناحيها وهو النحل وألذ الملبوسات من دودة تمشى على بطنها فوق الأرض وهو الحرير ، وأبهج الحلى من حيوان بحرى لاصق بالصخور فى البحر وهو الدر . عسل وحرير ودر . قل وجودها وغلا ثمنها وعسر تحصيلها وفرقت على عوالم الهواء والأرض والماء . ذلك درس جميل لهذا الانسان . أفلا ترى أن هذه مفاتيح العلوم الجوية والأرضية والبحرية ، وهل كرتنا الأرضية هى وما حولها غير ذلك ، وقد قلت فى كتابى (جوهرة الشعر والتعريب) ما يأتى من الأبيات :

ومن حمأة سوداء جاءوا بجوهر   يهيج فذاك الناس فى صدرقتية
وخير لباس الناس من نسج دودة   وخير طعام الناس من فم نحلة
وأعجب آيات الجمال جواهر   من الصدف المخلوق فى قاع لجة
فهذا على أرض وذلك فى الهوا   وآخر فى لج البحار العميقة

أكثر هذا الإنسان يشبهون الحيوان يعيشون ويتمتعون ويقفون عند الحواس الخمس ، ولكن هذا الإنسان كله خدم وحشم لأولى الألباب الذين يتفكرون فى هذه الدنيا ويعرفون أن هذه إنما هى مفاتيح العلم ويفطنون لهذا الوجود . وما هذا كله إلا تفسير لقوله تعالى ـ ولدينا مزيد ـ يقول العلماء إن أهل الجنة يتمتعون فيها ولكن أعلاهم الناظرون لوجه ربهم ولا ينال ذلك إلا أولو الألباب الذين عشقوا العلوم فى الدنيا . إذن الناس (قسمان) قسم اكتفى بالظواهر فى هذه الأرض وهؤلاء إذا كانوا صالحين دخلوا الجنة الحسية واكتفوا بها ، وقسم عرف الحقائق فى الدنيا وأدهشه نظام هذا الوجود وكيف كان هذا الإنسان قد قسمت عوالم الهواء والأرض والماء على حواسه فكان منها آلامه ومنها لذاته فهناك يجد فى البحث والتفكير وأمة هذا شأن عقلائها تنال الزيادة فى سعادة الحياة والزيادة فى الجنة وهى النظر لربها والأمم الإسلامية إذا عقلت أمثال هذا نال أحياؤها العز فى الحياة وأمواتها فى الآخرة النظر لوجه الله ولا نظر لوجه الله إلا بمبادىء تكتسب فى هذه الحياة . تلك المبادىء هى معرفة العالم الذى نعيش فيه ، ولولا ذلك لم يكن هناك داعية إلى الإقلال من العسل والحرير والدر ، وفى الإمكان أن يكون الدر فى كل مكان والعسل أنهارا والحرير كالقطن وفى ذكر أنهار العسل واللبن والخمر فى الجنة ما يشير إلى هذا الإمكان . إنه لم يمنع ذلك إلا إرادة توجيه الأنظار للبحث فان ما غلا ثمنه وصعب الحصول عليه تتجه إليه الجهلاء لتملكه والعلماء لتبحثه . هذا بعض السر فى نظام هذا الوجود . فقال وهل اللغة العربية تساعد على ذلك . فقلت وهل اللغة العربية غير

ذلك . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت أسألك عن معنى ما قالته الخنساء فى أخيها صخر .

طويل النجاد رفيع العما د كثير الرماد إذا ما شتا

ما معنى كثير الرماد. قال إن كثرة الرماد تستلزم كثرة إحراق الحطب وكثرة إحراق الحطب تستلزم كثرة الطبخ وكثرة الطبخ تستلزم كثرة الآكلين وكثرة الآكلين تستلزم كثرة الأضياف وكثرة الأضياف تستلزم الكرم. فإذن كثرة الرماد تستلزم الكرم بهذه الوسائط وهذا يسمى كناية ، فهى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى . فقلت إذن يكون أخوها صخر كان عنده رماد كثير وعنده كرم وثانيهما لازم لأولها . قال نعم وهذه هى الكناية المسماة رمزا والرمز إما أن يكون بكثرة الوسائط . وإما بخفاء القرينة مع قلة الوسائط . فقلت له هكذا هنا هى كناية فالمعنى المفهوم من اللفظ للعموم والكناية المسماة رمزا للخصوص فالذين فهموا الرمز ودرسوا العلوم نعموا أنهم فى الدنيا ورأوا ربهم فى الآخرة ، والذين اكتفوا بظواهر الحرير والعسل واللؤلؤ من بعض علماء الدين والعامة والصلحاء فلا جنة لهم إلا ما فرحوا به كما تقدم فى كلام الإمام الغزالى فى أول (سورة البقرة) . فقال: وما القرينة هنا . قلت القرينة هنا قوله تعالى فى آية أخرى «فلاتعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين »وقوله صلى الله عليه وسلم «فى الجنة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر » ولاجرم أن الحرير والعسل واللؤلؤ رأتها العيون وسمعتها الآذان وخطرت على القلوب، فقال ولم خص لون الخضرة . قلت هذا مفتاح رابع للعلوم فالخضرة تعم النبات وهو منتظم موزون جميل وهذا التفسير مملوء به . فقال إن هذا البيان عجيب . فقلت الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . فقال هنا سؤال آخر وكيف تكون هذه رياضة ؟ . فقال هذه رياضة تكون مصاحبة للرياضة الجسمية . فقلت ماهو السؤال . فقال يقول الله تعالى « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق» وقال هنا « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل » وإنما قلت هذا لأن الشىء يخطر بالبال عند ذكر ضده .فقلت له إن القول السابق يفسر اللاحق . فقال وكيف ذلك ؟. فقلت أهل جهنم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وكلما استغاثوا أغيثوا بماء كالمهل كما هى الحال الآن تماما . إن أهل الأرض الذين لا يعرفون إلا الحواس الخمس كالبهائم إذا اقتصروا على تمتع الحواس من المال والولد والصيت وإقبال الناس عليهم فإن كل لذة يحدث بعدها رد فعل فيحتاجون للذة أعلى وهكذا فكلما خرجوا من غم عادوا فيه وكلما طلبوا مالا أوجاها ازدادوا لوعة وحسرة، ولننظر فى أنفسنا . أليست هذه الحال عامة فى أهل الأرض وأقرب مثل لذلك من يدمنون الخمر فكلما أراد أحدهم التوبة عاود الكرة فسكر فإذا صحا ندم وأراد الخروج من الغم فيعاد فيه فأمر الخمر فى هذه الحياة جعله الله مثلا للناس ليعلموا أن هذه حال الحياة الدنيا، وكل ذلك الوقوف على المحسوسات والاكتفاء بظواهر الحياة فى الأعمال وظواهر الألفاظ فى الكتب السماوية « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » . فلما سمع ذلك صاحبى قال قد فهمت وشفيت صدرى والحمد لله رب العالمين . انتهت الجوهرة الأولى .

الجوهرة الثانية فى قوله تعالى « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين » الخ وفى قوله «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء» الخ وقوله «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» الخ مع قوله فى أول السورة «إناجعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم» الخ

يعجب القارىء لهذه السورة فإنه يجد أنه فى أولها ذكر أن ماعلى الأرض زينة لها وأن هذه الزينة تذهب فلا وجود لها ثم يجد هنا ضرب مثل الرجلين إذ اغتر أحدهما بزينة الدنيا فهلك ثمره وضرب مثل الحياة الدنيا كلها فيجدها كالزرع يصير هشيما تذروه الرياح . إذن هذان المثلان وما قبلهما وما بعدهما كله إيضاح لما ذكر من الزينة الفانية فى أولها . لهذا ابتدأ السورة بالحمد على إنزال الكتاب لأنه هو الذى أبان هذه الحقائق . ولما

كثبت

كتبت هذا حضر صديق العالم واطلع عليه فقال . لقد جملت فى هذه السورة صورا جمية تمثل الزينة فى هذه الأرض من حشرات طاووسية إلى حمير مزوقة حبشية إلى عيون ماء حارة بيضاء بهية إلى أنوار بهجة فى الأقطار الشمالية من قباب نورية بلورية وأشعة عمودية عليها إبرية وما يمثل الحياة الساعية للوسوية من الأنوار القطبية . إن هذا جمال وأى جمال ثم يتبع هـذا احتقار الحياة ونبذ هذه الزينة والتبرى منها . إن هـذا يحير العقول . فبينما نرى جمالا على جمال إذا هذا كله فى وبال وذهاب وتباب فكيف نجمع فى عقولنا بين الوجود والعدم والحياة والموت والجمال والوبال وكيف يجتمع الفرح والحزن؟ . هذا هو الذى يحير الألباب . فقلت لقد أشرت لهذا فيما تقدم فى هذه السورة وغيرها ولكن الآن أقول : إن الله لما أنزل هذا الدين ساقه لقوم عقلوه بلغتهم فقهموا غير مافهم نحن الآن وعقلوه بلا فلسفة ولا تعليم ولا مدارس ولا دروس ولا أزيدك على ماجاء فى التاريخ من فتح المسلمين البلاد المصرية فبهذا الذى أذكره يتضح هذا المقام . ذلك أن المسلمين فتحوا بلاد العرب والعراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها فى مدة لا تتجاوز (١٨) سنة هنالك دهش (هرقل) الرومانى ملك القسطنطينية من هذا السيل الجارف وأوجس خيفة على مصر فأقام معاهدة بينه وبين عمر رضى الله عنه أن يدفع الرومان جزية سنوية المسلمين فى مقابلة تركهم لفتوح مصر ولكن هذه الجزية ما كان الروم ليدفعوها فى حينها بل كانوا ينقصونها عما اتفقوا عليه ، وكان إذ ذاك عمرو بن العاص لا يفتأ يذكر الخليفة بفتح مصر ، وكان يقول إنها أكثر الأرض أموالا وأعجز عن القتال والحرب ولكن عمر بن الخطاب لم يقدم على ماقاله عمرو بن العاص إلا بعد أن نقضت المعاهدة بين الطرفين ، وتوجه عمرو بن العاص إلى مصر بأربعة آلاف .

(١) فأولا دخل (رفح) وهى الآن قرية تسمى (رفح) تبعد عشر ساعات عن العريش .

(٢) ثم العريش .

(٣) ثم توغل فى مصر وانضم إليهم قوم من البدو فى طريقهم .

(٤) فقاتلوا فى (الفرما) عسكر الروم نحو شهر ففتحوها .

(٥) ثم قاتلوا فى بلبيس نحو شهر ففتحوها .

(٦) ثم ساروا إلى (حصن بابليون) ويسمى عند قدمائنا مؤرخى العرب (باب اليون) .

ويقولون إنه حصن بناه الفرس لما ملكوا مصر وسموه باسم عاصمة بابل لأنها كانت فى ملكهم إذ ذاك ومكانه الآن مكان (قصر الشمع) وهو يبعد عن ضفة النيل الآن لأن النيل قد تغير مجراه بعد ذلك وهـذا الحصن كان عظيما على ضفة النيل الشرقية مقابل الأهرام وفى شرقيه جبل المقطم ، وهناك أرض فضاء فيها بعض الكنائس وأمام الحصن النيل وفى وسط النيل جزيرة الروضة والماء محيط بها طول السنة وكانت تسمى بجزيرة مصر ، وكان الممر من هـذا الحصن إلى الجزيرة جسر من خشب وهكذا من هذه الجزيرة إلى الجيزة فى البر الغربى للنيل فنصبوا الخيام فيما بين الحصن وجبل المقطم وقد شحن هذا الحصن بالمقاتلة والجيوش المصرية وكان فى الحصن المقوقس مع هؤلاء الجيوش ، وهو حاكم البلاد من قبل (هرقل) والمقوقس كان رجلا يونانيا ولكنه أصبح وطنيا مصريا فحاربهم عمر مدة وأمده الخليفة بأربعة آلاف أيضا فشددوا فى الحصار ولكن المقوقس ومن معه عبروا الجسر إلى الجزيرة ومنها توجهوا إلى (منف) وهى العاصمة فى جهات الجيزة .

وأما عمرو ومن معه فقد دخلوا الحصن وتوجهوا إلى الجزيرة وهناك دارت مكاتبات بينهم وبين المقوقس فأرسل المقوقس لهم خطابا يطلب فيه أن يرسلوا رجالا من العرب ليكون الاتفاق على يديهم فأرسل عمرو خطابا مع عشرة نفر رئيسهم عبادة بن الصامت ، وكان هائل المنظر أسود اللون طوله عشرة أشبار وهو المتكلم

عنهم فركبوا السفن حتى أتوا المقوقس فتقدم عبادة فى صدر أصحابه فهابه المقوقس لسواده وعظم جثته وقال نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى فأجابوا إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا وإنما نرجع جميعنا إلى قوله ورأيه وقد أمرنا الأمير أن لا نخالف له أمرا . فقال المقوقس وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود مقدما عليكم وهو أسود وإنما ينبغى أن يكون دونكم . فقالوا : كلا ، وإن كان أسود فهو أفضلنا . فقال المقوقس لعبادة بن الصامت تقدم يا أسود وكلمنى برفق فإنى أهاب سوادك فتقدم عبادة إليه وقال قد سمعت مقالتك وإن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا منى وأفظع منظرا وجميعهم أشد هيبة منى وأنا قد وليت وأدبر شبابى وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل وذلك إنما رغبتنا وهمتنا فى الجهاد فى الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى الدنيا ولا طلب الاستكثار منها إلا أن الله عز وجل قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالا وما يبالى أحدنا إن كان له قنطار ذهب أو كان لا يملك إلا درهما لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى سبيل الله واقتصر على هذا الذى فى يده ويبلغه ما كان فى الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس نعيما ورضاها ليس رضا إنما النعيم والرضا فى الآخرة وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك به جوعه ويستر عورته وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه . فلما سمع المقوقس منه هذا الكلام قال لمن حوله بلغتهم هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط . لقد هبت منظره وإن قوله لأهيب . إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض . ما أظن ملكهم إلا سيغلب من على الأرض كلها، ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال له [أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالى أحدهم بمن لقى ولا من قاتل وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلة ما بين أيديكم ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به]

فقال عبادة [يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وإنا لا نقوى عليهم فلعمرى ما هذا الذى تخوفنا به بالذى يكسرنا عما نحن به وإن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا من آخرنا كان ذلك أمكن لنا فى رضوانه وجنته وما شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك، وإننا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا وإنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » وما منا رجل إلا ويدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا . وأما قولك إننا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه فانظر الذى تريده فبينه فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من (ثلاث خصال) فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل بذلك أمرنى الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل إلينا . أما إن أجبتم إلى الإسلام الذى هو الدين القيم الذى لا يقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته . أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى

يتصل

يدخل فيه فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا فى دين الله ، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية وأن نعاملكم على شىء نرضى به نحن وأنتم كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم وأن نقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم إن كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا ، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذى ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم] .

فقال المقوقس : هذا ما لا يكون أبدا . ماتريدون إلا أن تتخذونا عبيدا ما كانت الدنيا . فقال عبادة هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت . فقال المقوقس فلا تجيبونا إلى غير هذه الثلاث خصال فرفع عبادة يديه إلى السماء فقال لا ورب هذه السماء ، ورب هذه الأرض ورب كل شىء مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم فالتفت المقوقس إذ ذاك إلى أصحابه فقال قد فرغ القوم فما تريدون فقالوا أيرضى أحد بهذا الذل أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا لايكون أبدا أن نترك دين المسيح ابن مريم وندخل فى دين غيره لانعرفه ، وأما ما أرادوا أن يسبونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك فلو رضوا أن نضاعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا . فقال المقوقس لعبادة قد أبى القوم فما ترى؛ فراجع أصحابك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون . فقال عبادة وأصحابه لا . فقال المقوقس عند ذلك لأصحابه أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله مالكم بهم طاقة ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ماهو أعظم كارهين . فقالوا وأى خصلة نجيبهم إليها . قال أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة قالوا فنكون لهم عبيدا أبدا . قال نعم تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم فأطيعونى من قبل أن تندموا ، فأذعن القوم للجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه . فقال المقوقس لعبادة : أعلم أميرك أنى لا أزال حريصا على إجابتكم إلى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت إلىّ بها فأعطنى أن أجتمع به أنا فى نفر من أصحابى وهو فى نفر من أصحابه ، فإن استقام الأمر بيننا تمّ ذلك جميعا ، وإن لم يتمّ رجعنا إلى ما كنا عليه ، فاجتمع عمرو بن العاص بالمقوقس وكتبوا شروط الصلح بأن يعطوا الأمان للمصريين وهم يدفعون الجزية] . انتهى .

فهذه المحاورات التى دارت بين عبادة بن الصامت والمقوقس تبين لنا ما كان يفهمه آباؤنا حين نزل القرآن فى قوله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » وقوله « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا » وقوله « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . ألا ترى إلى قوله [وما يبالى أحدنا إن كان له قنطار ذهب أو كان لا يملك إلا درهما] وقوله [إن كان له قنطار من الذهب أنفقه فى سبيل الله ... الخ] وقوله [إن نعيم الدنيا ليس نعيما ورضاها ليس رضا] وهكذا قوله [وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده] فهذا القول وأمثاله هو مقصود القرآن والذى فهمه هم الذين نزل بلسانهم وإنما فتحوا مصر وغير مصر لأنهم كانوا يريدون الله والدار الآخرة [فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات] ضاعت هيبتهم وصار فتوح البلدان مقصودا به الدنيا ، فظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها الخ » فبعد أن كان فتوح البلدان قربة من القربات صار مخوفا وفتنة يفتتن بها المسلمون . هذا هو التطبيق من التاريخ على هذه الآيات ، فهذه زينة الحياة الدنيا وهذا ضرب مثلها وهذه نتيجة العمل بها والمخالفة لها . فلما سمع صاحبى ذلك قال لقد اتضح هذا المقام وانشرح صدرى لهذا البيان ولكن ماذا تقول فى المسلمين اليوم . هاهم أولاء أبناء العرب وغير أبناء العرب من المسلمين . هل ترى لهم قوة على فتح البلدان كالسابقين ؟ فقلت أذكرك بأنى قلت فيما مضى فى هذا التفسير ما ملخصه :

« إن آخر سورة الفتح فيه تشبيهان بمثلان الأمة الإسلامية ، فهم فى التوراة « أشداء على الكفار رحماء بينهم، وهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه الخ ».

فمثل التوراة هو الذى ظهر أولا من فتح البلدان ولذلك ترى الإسلام الآن فى الصين واليابان وأمريكا والهند وفى إنكلترا وفرنسا وألمانيا وبلاد الروسيا وبولونيا وبلاد أخرى إذن نحن جثنا فى زمان فيه وجدنا الإسلام منتشرا فى العالم ؛ فجهادنا الآن يختلف عن جهاد آبائنا . هم فتحوا البلدان . فها نحن أولاء نفتح العقول الإسلامية وذلك بالتشويق للعلم . فإذا رأينا عبادة بن الصامت يقف أمام المقوقس ويقول له نحن إذا ملكنا أنفقنا فى سبيل الله وإذا لم نملك لم نرد شيئا من الدنيا ولم نبال بها ، فهكذا هنا فلنقل لنقرأ العلوم حبا لها وغراما بها وشوقا إلى ربها وفرحا بلقائه أقبلت الدنيا أم أدبرت وبهذا نرضى ربنا وهذا الفتح العلمى هو الذى يعطى الأمم الاسلامية اليوم قوة المال والجاه والثروة ويحفظهم فى أى مكان كانوا على شرط أن يكون طلب العلم لذات العلم ولوجه الله تعالى ولحبه فاذا انتشرت هذه الفكرة فبشر المسلمين بالعز فليس الجهاد قاصرا على ضرب الأعداء فالجهاد يرجع إلى كل عمل شريف فاضل فى كل ضرب من ضروب الحياة وأفضله كله العلم. فالعلم أبو العمل . وأنا أرجو أن يكون هذا التفسير حامل لواء الرقى الإسلامى والفتح العلمى ونبوغ طوائف من أمم الإسلام فيرجعون مجدهم ويسبقون غيرهم ويكونون نورا للعالمين وهذا هو المثل الثانى وهو مثلهم فى الانجيل وأنهم كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرع ، فهذا الزمان هو الذى يوافق مثل المسلمين فى الانجيل لأن الانجيل يرجع إلى الرقى الأخلاق والاخلاص والحكمة وبالعلم يقنعون الأمم فى دخول دين الاسلام فهناك لم يكن للعلم سلطان . أما الآن فالعلم هو الذى به تفتح العقول ودين الاسلام الآن ينتشر بالعقل والفهم . وإذا كان الذين يحملون الاسلام جهلاء فقولهم غير مسموع . أما إذا اتصفوا بالعلم فان الناس لقولهم يسمعون ولدينهم يتبعون .

ولقد قال عالم من علماء الألمان [نحن عرفنا دين الإسلام ولكن أين المسلمون الذين نقتدى بهم] فليكن هذا زمان الرقى العلمى، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» إلى قوله « وما كنت متخذ المضلين عضدا »

إن هذه القصة ذكرت فى مواضع فى القرآن فى البقرة وفى الأعراف وفى الحجر فانظر ما كتب عليها هناك تجد أنها فتحت بابا للعلوم المهجورة فى بلاد الاسلام لاسيما إذا قرأت ما كتبناه عليها فى سورة الحجر وأن عصيان آدم وحواء بالأكل من الشجرة تفرع عليه نقائص المدنية الحاضرة فى طعامنا وشرابنا ونجم من تلك النقائص أمراض وتدهور فى الأخلاق وذكرت فى غيرها على هذه القصة أن الطمع والجشع قد نجما من الشهوة البهيمية فى الانسان المعبر عنها بالأكل من الشجرة وأن العداوات والحروب والحقد والغيظ والحسد وأمثالها ترتبت على القوة الغضبية فيه التى يشير إليها كبرياء إبليس وقوله «خلقتنى من نار وخلقته من طين » فهذه الكبرياء فتحت أبواب الشرور والعداوات على مصراعيها فاحتدم وطيس الحروب والعداوات بين الناس أمما وأفرادا . ثم إن الوساوس الشيطانية أكثرت من الخرافات فى الأرض فضلت الأمم فعبدوا الأصنام اتباعا للهوى . فانظر عبادة الأصنام فى أول سورة البقرة عند قوله تعالى «فلا تجعلوا لله أندادا» وفى سورة إبراهيم عند قوله تعالى « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » وما جاء تحت عنوان [جوهرة فى أديان القدماء] من الكلام على ديانة البراهمة والتثليث عندهم وأن برهم جوهر نقى وله (ثلاث صفات) وهى واحدة فهى ثلاثة من وجه واحدة من وجه وهكذا نظام هذه الدنيا مثلث وموحد وكذا نظام هذا الانسان مثلث وموحد

وهكذا

وهكذا أخذوا يعبدون الأصنام بعد التثليث ثم اخترعوا أقاصيص وأساطير الخ ماهناك فراجعه .

ولقد تقدم فى سورة الاسراء عند مسألة الروح مانصه :

وههنا سألنى بعض الأصدقاء هذا السؤال قائلا : أيها الحبيب أريد أن تذكر شيئا مما دخل من البدع فى الأمم الإسلامية حتى تتنور ونميز الغث من السمين فقلت أنا الآن ليس أمامى كتب مهمة فى هذا الموضوع ولكن سأذكر لك (ثلاث مسائل) من أفعال المضلين :

[المسألة الأولى] مذهب الباطنية الذى تغلغل فى بلاد الاسلام واتصل من العصور الأولى إلى الآن .

[المسألة الثانية] الكلام على نظام الملك الوزير وعمر الخيام الفيلسوف وحسن بن الصباح الباطنى توضيحا للمسألة الأولى .

[المسألة الثالثة] زهد أكثر الأمم الاسلامية اليوم فى فهم القرآن والاهتداء به مكتفين بشيوخهم وأن هذا مسبب عن المسألتين السابقتين .

المسألة الأولى من هم الباطنية ؟

اعلم أن دولة الفرس ودولة الروم هما اللتان كانتا سائدتين قبل ظهور الاسلام وكان لكل منهما الغلبة على العرب فيما يليها كما هو واضح فى سورة التوبة فاقرأه هناك منقولا من كلام العلامة (سديو) الفرنسى فلما ظهر الاسلام انتزع الملك من الفرس ودخلوا فى دين الاسلام . هنالك غلت مراجل الحقد فى قلوب بعض الأمة الفارسية فأخذوا يكيدون للاسلام كيدا ليكسروا شوكة العرب فأخذوا يجتمعون سرا ويبطنون غير مايظهرون وكان ماكان من مسألة أبى مسلم الخراسانى الذى حارب تحت إمرة بنى العباس وانتزع الملك من بنى أمية .

ولما استقر القرار لبنى العباس أراد أبو مسلم أن يقلب لهم ظهر المجن ويتخذ الرياسة لنفسه فقطن أبو جعفر المنصور وقتله ، غيلة وهكذا هارون الرشيد حفيده ذلك الذى علم ماانطوت عليه أفئدة الفرس والبرامكة يشدون أزرهم لأن يحيى وجعفرا ابنه كانا من نسل سدنة معبد النار بفارس فكان هؤلاء يجدون سرا فى نزع الملك من بنى العباس وجعله فى بنى على كرم الله وجهه ليكون الأمر لهم ويديرونه كما يشاءون فقتك الرشيد بجعفر والبرامكة فى ليلة واحدة . فلما رأوا أن لا فائدة من ذلك عمدوا إلى الخديعة والكتمان وأسسوا جمعية سرية سموها (الباطنية) .

قال فى شرح المواقف : إن (الغبارية) وهم طائفة من المجوس راموا عند شوكة الاسلام تأويل الشرائع على وجوه تعود على قواعد أسلافهم ، وذلك أنهم اجتمعوا وتذاكروا ماكان عليه أسلافهم من الملك وقالوا لاسبيل لنا إلى دفع المسلمين بالسيف لغلبتهم واستيلائهم على الممالك لكنا نحتال بتأويل شرائعهم إلى ما يعود إلى قواعدنا ونستدرج به الضعفاء منهم فان ذلك يوجب اختلافهم واضطراب كلمتهم ورئيسهم فى ذلك (حمدان قرمط) وقيل (عبد الله بن ميمون القداح) أولهم فى الدعوة . ثم ذكر أن استدراج الطغام (سبع مراتب) .

(١) (الرزق) تفرس حال المدعو هل هو قابل للدعوة ويقولون يمتنع إلقاء البذر فى السبخة أى دعوة من ليس قابلا .

(٢) (التأنيس) وهى أن يستميلوا كل واحد إلى مايهواه ، فالفاسق بالخلاعة والعفيف بتحسين الصلاح والعفة .

(٣) (التشكيك) فى أركان الشريعة كأن يقال (ا) مامعنى الحروف فى أوائل السور . (ب) ولم تقضى الحائض إذا أفطرت أيام رمضان دون صلاتها ؟ (ج) ولم يكون الغسل من المنى دون البول . (د) ولم كان عدد الركعات أربعا أو اثنين وهكذا ولا يجيبونهم على ذلك ليربطوا قلوبهم .

(٤) (الربط) وهو [أمران : الأول] أخذ الميثاق منه أن لا يفشى سرهم . [الثانى] أن يحيله على الامام فى حل ما أشكل عليه لأنه هو العليم به وحده .

(٥) (التدليس والتأسيس) والأول دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا لهم حتى يزيد ميله إلى مادعاهم إليه . والثانى تمهيد مقدمات يقبلها ويسلمها المدعو تدعوه إلى ماسيسمعه من الباطل .

(٦) (الخلع) وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية .

(٧) (السلخ) وهو أن يسلخه من الاعتقادات الدينية وحينئذ يأخذون فى الاباحة واستعجال اللذات وتأويل الشرائع (ا) كأن يقال الوضوء معناه موالاة الامام . (ب) والتيمم الأخذ من المأذون عند غيبة الامام (ج) الصلاة عبارة عن الناطق وهو الرسول . (د) والاحتلام هو إفشاء سر من أسرارهم إلى من ليس هو بأهل بلا قصد منه . (ه) الغسل تجديد العهد . (و) الزكاة تزكية النفس بمعرفة ماهم عليه من الدين . (ز) الكعبة النبى والباب على الخ .

بهذا تفهم أيها الذكى ماتقدم فى سورة إبراهيم من تلك الشكوى المرة التى شكاها أتباع (أغا خان) وقولهم إنه يقول إنه مسلم ولكن يقول القرآن ليس منزلا لكم وهذا المقام واضح هناك ولكن سره ظاهر هنا فهو مسلم ولكن الشريعة كلها حولت إلى عبادة الإمام والإخلاص له ، وبهذا تفهم قولهم له ماذا فعلت للاسلام ونشره وأنت مسلم وتنكر اتباعنا للقرآن فافهم ذلك وافرح بنعمة العلم والعرفان .

وهذه الطائفة تسمى بأسماء مختلفة :

(١) الإسماعيلية لإثباتهم الإمامة لاسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أبنائه .

(٢) الباطنية لقولهم بباطن الكتاب دون ظاهره والتمسك بظاهره معذب بالتكاليف والتمسك بباطنه تارك للعمل بالظاهر سعيد .

(٣) القرامطة لأن أولهم الذى دعا إلى مذهبهم هو رجل يقال له (حمدان قرمط) وهى إحدى قرى واسط .

ومن هؤلاء القرامطة طائفة هجمت على مصر أيام المعز لدين الله الفاطمى فأسدى وزيره العطايا إلى عرب مصر الذين اتحدوا مع القرامطة بأن أعطاهم دنانير فى أكياس وكان ظاهرها ذهبا خالصا والباقى تحتها ذهب مزيف ، فلما التقى الجمعان تقهقرت العرب المصريون ففنيت القرامطة إلا قليلا ثم إن الانجليز لما دخلوا مصر فى أيامنا هذه منذ (٤٥) سنة فعلوا مع عرب مصر بجهة (رأس الوادى) وهم زاحفون على مصر لمحاربة عرابى باشا وجيش المصريين مافعله وزير المعز لدين الله سواء بسواء ، فأعطوا هؤلاء العرب ذهبا فى أكياس ظاهرها ذهب خالص وباطنها مزيف مما دل على أن أوروبا متيقظة تمام التيقظ للتاريخ تنتفع به كما انتفعوا بمسألة جلد الثور فى قصة حسن بن الصباح الآتى بيانها .

(٤) الخرمية لقولهم بإباحة المحرمات والمحارم .

(٥) والسبعية لأنهم يقولون إن النطقاء سبعة سيأتى ذكرهم .

(٦) وبالمحمرة للبسهم الحمرة وغلب عليهم اسم (القرامطة) و(الباطنية) و (المزدكية) بالعراق و(التعليمية) و (الملحدة) بخراسان فى أيام (بابك) أو لتسميتهم المخالفين لهم من المسلمين حميرا . أما النطقاء السبع المتقدم ذكرهم فهم .

(١) إمام يؤدى عن الله .

(٢) حجة تؤدى عن الامام .

(٣) وذومصة يمص العلم من الحجة .

(٤) أكبر أى داع أكبر .

(٥) داع مأذون بأخذ العهود على الطالبين من أهل الظاهر فيدخلهم فى ذمة الإمام .

(٦) وكلب رفيع الدرجات فى الدين لم يؤذن له فى الدعوة بل فى الاحتجاج على الناس فهو ككلب الصائد فهذا يكسر مذهب أهل الظاهر ، ومتى شك سامعه أداه الكلب إلى الداعى ليفهمه المعانى التى جهلها ويأخذ عليه العهود .

(٧) ومؤمن يتبع الداعى وهو الذى أخذ عليه العهود وآمن وأيقن بالعهود ودخل فى ذمة الإمام وحزبه ، ومنهم جماعة يلقبون (بالبابكية) إذ اتبع طائفة منهم (بابك الحزمى) فى الخروج بأذربيجان .

غرام الإسماعيلية بالأعداد

لعلك أيها الذكى آنست فى هـذا المقام التسبيع فى ألقابهم وفى أسماء دعاتهم الناطقين بمذهبهم ذلك أنهم يقولون إن ذلك مطابق للسموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع وأيام الأسبوع السبع والكواكب السيارة السبعة وهى « المدبرات أمرا » وقد برعوا فى هذه المسائل العديدة التى يمكن أن تقابل بمثلها ودخلوا فى آيات القرآن وعددها بالجمل وهكذا الأسماء، وذلك مسطور فى كتب مطولة كشمس المعارف الكبرى وغيره، ولقد صرف الناس عن القرآن العلم بهذه الأمور فتقهقرت الأمم الإسلامية بشيوع أمثال هذه الآراء لا سيما أن حسن بن الصباح لما ظهر جدد الدعوة على أنه الحجة الذى يؤدى عن الإمام الذى لا يجوز خلو الزمان عنه والناس جميعا محتاجون إلى العلم ومنع العوام عن الخوض فى العلوم والخواص من النظر فى الكتب المتقدمة لئلا يطلعوا على فضائحهم كما اطلع أتباع (أغا محنون) فى زماننا ووجهوا شكواهم للعالم فى الجرائد كما تقدم فى سورة إبراهيم عليه السلام .

ومما يزيدنى ويزيدك أيها الذكى مسرة ما منحنا الله من العلم وحبانا من الفضل ، ذلك أنى أنا وأنت قد عرفنا سر ما تصنعه أوروبا فى بلاد الشرق . ذلك أنهم أجمعوا أن يحصروا الأفكار ويمنعوا حقائق العلم ليبقى الناس تحت أمرهم يفعل ذلك الإنجليز والفرنسيون والأمة الهولاندية والبلجيكية وغيرهم . أليس هـذا بعينه هو ما فعله حسن بن الصباح ومشايخ الصوفية أى أكثرهم فإنهم موقنون أنهم لا يتبعهم إلا الجهلاء . اللهم إنك أنت الرب والشهيد على هـذا الإنسان خصوصا الأمم الإسلامية . ترعرع الدين وازدهى فى القرون الأولى فقامت فرق الباطنية فحرّمت العلم وبقى على آثارهم أكثر شيوخ الصوفية وافترق أهـل الجزائر وتونس ومراكش ومصر والعراق وغيرهم . افترقوا لأنهم ورثوا التفرّق عن آبائهم وشيوخهم . أولئك الشيوخ الذين منعوا العلم . ولما أخـذت أوروبا العلوم عن آبائنا أخذت تقلد الباطنية كحسن بن الصباح وشيوخ الصوفية وتعاونت معهم على إخماد أنفاس المسلمين . فهنا مصيبتان حلتا بالمسلمين ، مصيبة قديمة وأخرى حديثة فالقديمة هم بعض شيوخ الصوفية الذين يحرمون العلوم إلا ما نطقوا به والحديثة هى الأمم الأوروبية الذين اتخذوا أولئك الشيوخ أدوات فعالة لإخضاع أهل الشرق ، فالشرق هو الذى علم أوروبا كيف تعم الجهل وهو الذى أنبت الباطنية كحسن بن الصباح الذين منعوا العلم . فهنا اجتمع الأمران فى أبناء العرب والفرس والترك وغيرهم ومتى اشتد الكرب هان وبعد هذا التفسير إن شاء الله وأمثاله سيخرج المسلمون من هذين المحبسين ويعم التعليم وتزول سلطة أولئك الشيوخ المضلين ويصبح الإسلام صافيا نقيا كما بدأ ويتخرج فيه رجال لا سلطة لأوروبا ولا لشيوخ الباطنية أو الصوفية عليهم وهم كاملون .

﴿ المسألة الثانية : فى الكلام على نظام الملك الوزير وعمر الخيام الفيلسوف وحسن بن الصباح الباطنى ﴾

اعلم أن هؤلاء الثلاثة كانوا يحضرون دروس إمام الحرمين فى القرن الخامس الهجرى . وقد قالوا وهم تلامذته : إن أستاذنا ذو فضل عظيم وما تلقى عنه أحد إلا ارتقى ذروة المجد فهلموا نتعاهد أن يكون الفائز بالمنز

والسلطان والقوة آخـذا بيد أخويه فى المستقبل فـكان أول من نال العز والقوة نظام الدولة إذ صار وزير الدولة فقدم إليه عمر الخيام وحسن بن الصباح وذكراه بالعهد فقال لهما اطلبا ما تريدان فطلب عمر الخيام أن يتوفر على الفلسفة وزهد فى الوظائف فأجرى عليه رزقا معلوما كل شهر فقضى حياته ، فى حوز الحكمة وله نظم رائق باللغة الفارسية يسمى (رباعيات الخيام) ظهر منـذ نحو (٨٠) سنة فى بلاد الإنجليز وترجم إلى اللغة الإنجليزية ومنها إلى العربية وعندى نسخة منه وقد اطلعت على الإنجليزية وفيها تاريخ حياته وهـذه الرباعيات ترجمها إلى العربية وديع أفندى البستانى ، وهى فى وصف أحوال هذا الوجود واحتقار الدنيا مع الوصف العجيب فهى أشبه بما فى شعر أبى العلاء المعرى وبما ذكره سيدنا سليمان عليه السلام فى التوراة إذ يذم الحياة الدنيا ويقول كل ذلك باطل وقبض الريح . ورباعيات الخيام قد اشتهرت فى أمريكا فى هذا العصر ولها هناك مسارح للتمثيل عددها (١٢) . هذا هو الخيام .

أما حسن بن الصباح فإنه اختار أن يكون صاحب عمل فى الحكومة يجعله فى الديوان ولـكنه لم يحفظ الجميل فأراد المكر على من أحسن إليه . وذلك أنه قال للملك : نريد أن نجعل للبلاد ميزانية تسير عليها الحكومة فطلب الملك من نظام الملك ذلك ، فقال لا سبيل إلى ذلك فعهد بذلك إلى حسن بن الصباح فشرط أن يجعل الديوان تحت إمرته أربعين يوما وفى أثناء ذلك احتال كاتب نظام الملك فتقرب إلى كاتب السر لابن الصباح وغمره بالهدايا والعطف والمودة حتى إذا كان يوم تسليم أوراق الميزانية قابله قبل الوقت المعين بزمن وجيز فقال له أرنى هذا الورق فأخذ ينظر إليه وتعمد وقوعه على الأرض فاختل نظام وضع الصحائف فقد جعل ابن الصباح لـكل مدينة صحيفة مخصوصة بنمرة خاصة ، فلما أن اختلف الوضع عنـد جمع الصحائف الواقعة حضر ابن الصباح وتسلمه من كاتب سره ودخل فرأى الملك والوزير معا فطلب منه الملك ميزانية إحدى البلاد فلم يجدها فى محلها فأخذ يبحث عنها فقال نظام الملك أين هى وكيف تدعى أنك تعرف ذلك وأين دعواك (منتهزا الفرصة قبل عثوره على تلك الصحيفة) فخرج مغضبا وتوجه إلى مصر التى فيها الدولة الفاطمية . ولأذكر نبذة من ذلك التاريخ لإيضاح المقام ، فأقول : إن الفاطميين بمصر قدكان أول عهدهم ببلاد المغرب لأن المهدوية لا تنبث إلى فى قوم غير متمدنين وكان ابتداء ذلك فى نهاية القرن الثالث الهجرى ، ولما انتهى الأمر إلى المعز لدين الله الفاطمى فى القرن الرابع دخل البـلاد المصرية بعد ذهاب دولة الأخشيديين ومن قبلها دولة الطولونيين فدخلها بلا حرب وبنى القاهرة والجامع الأزهر فى منتصف القرن الرابع الهجرى بهمة وزيره جعفر بن فلاح والقاهرة تسمى (المعزية) نسبة للمعز لدين الله المذكور . وكان مقرهم المسمى (بالباطنية) الذى يسمى بهذا الاسم الآن جنوبى الجامع الأزهر وبقيت دولتهم إلى أواخر القرن السادس الهجرى ثم حصل بمصر مجاعة لقلة ماء النيل فأكل الناس القطط والـكلاب والضيوف والأطباء وأكل الأبوان ابنيهما وهكذا حتى بغلة الملك أكلوها والملك نفسه لم يجد له كل يوم إلا رغيفا وطبقا مملوء لبنا . وفى ذلك الزمن كان نور الدين الشهيد بالشام وله دولة وقد أرسل إلى مصر (شيركوه) ومعه (صلاح الدين الأيوبى) وكان هذا الأخير ليست له شوكة فاستوزره الخليفة الفاطمى فضبط البلاد وحافظ عليها حتى مات الخليفة فأولا جعل الخطبة لنور الدين الشهيد بدل الخليفة الفاطمى ثم جعلها لنفسه ثم أقصى أسرة الخليفة بأن جعلهم جميعا فى بيوت خاصة وجعل النساء لا يختلطن بالرجال حتى لا يتوالدوا ، وكان ما كان من الحروب الصليبية فى الشام وانتصاره عليهم . وقد كان للملوك الفاطميون لهم مقابر فى غرب المشهد الحسينى فيما بينه وبين بيت القاضى فى موضع خان الخليلى فهدمت وبنى الناس عليها وحفظ للمشهد الحسينى إعظاما له ولآل البيت الـكرام وكانت له دعوة منتشرة فى الأقطار . ولـما زالت دولتهم من مصر انتقلت إلى بلاد أخرى منها ما تقدم فى سورة إبراهيم من شكوى الإسماعيلية عن (أغا ممنون) الذى يدعى الألوهية ويأخذ منهم أموالهم . فاقرأ ما هناك .

إذا عرفت هذه المقدّمة فانظر أمر حسن بن الصباح فإنه لما غلب على أمره فى جهات الفرس سار إلى مصر وبق فيها نحو (١٨) سنة على ما أذكر ، ثم رجع إلى بلاد الفرس، وقد كان من دعاة الفاطمية إذ تعلم أسرارهم وأتقنها . هنالك استظهر بالرجال والسلاح وتحصن بالقلاع وكان بدء صعوده على قلعة الموت فى شهر شعبان سنة ٤٨٣ ﻫ وكانت لهم حيل منها شرب الحشيش الذى يجعل المرء أشبه بالمنوّم (بالفتح) الذى يفعل كل مايلق إليه ، ومنها أنهم كانوا يختارون أقوى الرجال وأجملهم ويخدّرونهم بمواد ثم يضعونهم فى بستان عظيم فيه الجوارى الحسان الجميلات وهناك يوقظونهم فيدهش الرجل منهم إذ يراه فى جنات الخلد ويرى هناك مالا يحلم به ثم يخدر ثانيا ويوضع فى مكان الضيافة فيستيقظ ويوقن بأنه كان فى جنات النعيم عيانا فيعتقد أن الإمام هو صاحب التصريف فيصبح من (الفدائيين) إذا قال له اقتل نفسك يمتثل حالا لأنه سيدخل الجنة والحور فى انتظاره الآن . وقد كان استيلاؤه على قلعة الموت بحيلة ، وهى أنه فعل ما اتبعه الإنجليز بعد ذلك فى الهند إذ اشترى من صاحب القلعة مقدار جلد الثور أو كان ذلك فى مقابلة مداواته له من مرض لا أتذكر أيهما كان ، فلما أراد أن يستولى على ما اتفقا عليه جعل ابن الصباح جلد الثور سيورا مدّها فأخذت أرضا واسعة جدّا فأبى صاحب القلعة إلا محاربته فانتصر عليه . هنالك كانت تلاميذه الذين يعاهدهم سرا قد تدخلوا فى بيت الملك والوزير فذبحوا الملك ونظام الملك فى ليلة واحدة بدهائه ومكره الخفى وما هم إلا خدم من تلاميذه السريين ، وابن الأثير يقول ماتا فى زمانين متقاربين والله أعلم .

فها أنت ذا أيها الذكى وقفت على خبر ابن الصباح الذى تقدّم اسمه فى سورة إبراهيم إذ يقول أتباع (أغا محمون) بالهند له إنكم من فرقة حسن بن الصباح فهذا هو قد ذكرته لك هنا لتفرح بنعمة الله والعلم وينشرح صدرك وتنفع أمم الإسلام بحكمتك فإن هذا التفسير من النعم التى أنعم الله بها على المسلمين وسينطلقون سراعا إلى الحكمة ويردون مواردها ويصلون إلى نهايات الحكمة والعلوم . انتهى الكلام على المسألة الثانية

﴿ المسألة الثالثة زهد أكثر الأمم الإسلامية اليوم فى فهم القرآن ﴾

اعلم أن هذه الأمم الإسلامية بأمثال هذه الطوائف وبعض علماء الفقه وبالملوك الظالمين قد تركوا العلوم بتاتا ونسوا مواهبهم التى خلقها الله لهم وأصبحنا نرى أبناء العرب وغير العرب فى ذهول مستمر بسبب الجهالة الشائعة فى بلاد الإسلام . وأذكر لك حادثة واحدة . ذلك أن السلطان عبد العزيز سلطان مراكش وهو من آل البيت لعبت به الأمة الفرنسية لعبا مهلكا فأزالوا ملك هذه الأسرة من تلك البلاد . وأبين السبب لك فأقول :

اعلم أن أمم أوروبا قد استكملت عددها وقوتها ، والمسلمون نائمون ، وقد بلغنى ممن أثق به أن السلطان عبد العزيز كان رجلا صالحا . ولكن ماذا حصل ؟ كنت أنا فى عنفوان شبابى بمدرسة (دار العلوم) وكنت أقرأ الجرائد السياسية وأتتبع مسألة مراكش وهى بلاد إسلامية مستقلة ، وبلادنا كانت محتلة بالإنجليز فرأيت الكلام كثر على بلاد مراكش ورأيت اقتراحا فى الجرائد هذا ملخصه :

[إن الأمم الإسلامية يخضعون لشيوخهم والشيوخ على (قسمين) شيوخ من آل البيت كالسلطان عبد العزيز وشيوخ هم شيوخ الطرق مثل ماء العينين ومثل الكتانى ومثل التيجانى . وهؤلاء إذا غمرناهم بالعطايا وألنا لهم مراقدهم وأنعمنا عليهم وأسعدناهم فإنهم لا يبالون بالشعب لأنهم يريدون المحافظة على مراكزهم وهم يجهلون حق العلم أن فى الثورة ضياعا لمراكزهم . فعلى قادة الأمة الفرنسية أن يفعلوا ذلك] .

فمضت بعد ذلك سنون فرأينا فى الجرائد أنهم أخذوا نساء راقصات من مصر إلى السلطان عبد العزيز فنفر الناس من ذلك الخبر وشاع الخبر فى أقطار المعمورة . ثم خلعوا عبدالعزيز ثم تولى عبد الحفيظ . ثم خلعوه واستولوا على البلاد . وحقيقة الأمر أن المسلمين لما تركوا العلوم وجهلوا التاريخ وعلم السياسة ولم يجاروا الأمم

بحت بهم القول تأخذوا يشيعون هذه الإشاعات فى مصر وغيرها ويأخذون هؤلاء النساء بأجرة وهو لا علم له بها لأنه لا جواسيس له فى بلاده ولا سفراء ذوى حزم يخبرونه بما يقال عنه، بل هم ساهون لا هون يتوارثون هذا الجهل كابرا عن كابر. هذا ما كان من أمر ملوك آل البيت فى مراكش. وأما الكتانى فقد بلغنى أنه أوذى كثيرا فى أمر بلاده وابتلوه بنقص الأموال والأنفس والثمرات. ويقال إن ماء العينين قد أوذى أيضا. هذه أحوال أمم الإسلام اليوم: ويظهر أن المسلمين الآن أخذوا يعلمون عن هذه الجهالة العمياء واستيقظوا وترى من آثار الجهل طوائف من الصوفية يحرّمون على تلاميذهم قراءة العلوم ليبقى فى قبضتهم وتحت إرادتهم وحكمهم يأمرونه فيأتمر. كل ذلك من الضلال الفاشى والجهل المخيم فى بلاد الإسلام، والله يقول « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وهذا أوان زوال هذا الضلال من بلاد الإسلام. واعلم أن أكثر الصوفية الآن فى بلاد الإسلام يدقون الطبول ويحملون البيارق ويأخذون العهود والمواثيق على تلاميذهم وهم لا يعلمون أن هذا الميراث الذى توارثوه إنما هو غالبا لإحراز الملك وقيام الدولة كما حصل أيام أبى مسلم الخراسانى وقلب الدولة الأموية وكذلك الملك فى الدولة الفاطمية والقرامطة، كل ذلك بالعهود والبنود ولكن شيوخ الصوفية اليوم اكتفوا بانغماس تلاميذهم فى الجهالة حتى لا يعرفوا سواهم وحقروا لهم علماء الدين وكل علم وحكمة إلا ما خرج من أفواههم حتى صار الأتباع يحقر بعضهم بعضا لأن كل شيخ أفهم تابعيه أنه وحده على الحق حتى ترى أبناء العرب متفرقة قلوبهم. فلا المراكشى يتعارف مع المصرى ولا كلاهما مع العراقى وهؤلاء لا يتزاورون مع الحضرمى ولا اليمنى لأنهم متقاطعون لجهالتهم بالتاريخ السياسى والعلمى والدينى. كل ذلك سر قوله تعالى « وما كنت متخذ المضلين عضدا » فاقرأ دواء هذا الداء فى سورة (آل عمران) عند قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » الخ انتهى، والحمد لله رب العالمين.

﴿ جوهرة فى إيضاح الكلام على حسن بن الصباح وإجمال تاريخ الإمامية والزيدية والكيسانية ﴾

اعلم أن الشيعة أتباع سيدنا على كرم الله وجهه وبنيه رضى الله عنهم أجمعين ومذهبهم أن الإمامة ليست من المصالح العامة بل هى تكون بالتعيين وهى من أركان الإسلام والإمام المعين يكون معصوما من الكبائر والصغائر، ومن هؤلاء إمامية وزيدية. فالأولون يتبرءون من الشيخين أبى بكر وعمر، والآخرون يجيزون إمامة المفضول مع وجود الفاضل فلا يتبرءون منهما. فأما الإمامية فإنهم يقولون إن الإمامة تنتقل فى ولد فاطمة رضى الله تعالى عنها بالنص واحدا بعد واحد. وأما الزيدية فإنهم يقولون يكون الإمام فى ولد فاطمة رضى الله عنها ولكن ذلك باختيار الشيوخ والانتخاب لا بالتعيين، وصاحب المذهب زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم أجمعين. ولا بد من أن يخرج الإمام فهذا شرط من شروط مذهبه. ولما ناظر الإمامية زيدا ورأوه يقول بإمامة الشيخين رفضوه فسموا (رافضة) ولم يجعلوه من الأئمة. وطائفة ساقوا الخلافة فى محمد بن الحنفية ثم إلى ولده وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاه. ومن هذه الأصول الثلاثة تفرعت فروع يطول شرحها ولا محل لذكرها. ومن هؤلاء طوائف يسمون (الغلاة) قالوا بألوهية هؤلاء الأئمة فهم إما بشر اتصفوا بصفات الألوهية وإما أن الإله نفسه قد حل فى ذواتهم البشرية كما يقوله النصارى فى عيسى عليه السلام، وهذا هو القول بالحلول. ولقد حرق هذه الطائفة سيدنا على بالنار وسخط محمد بن الحنفية على المختار بن أبى عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه ولعنه، وهكذا جعفر الصادق رضى الله عنه لما بلغه مثل ذلك بالنسبة له. ومنهم من يقول إن الإمام إذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون كالله فيه على طريقة التناسخ كمذاهب أهل الهند. ومن هؤلاء الغلاة من يقول بإمام واحد ويحكمون بأن هذا الإمام لم يمت بل هو حى ولكنه غائب عن الناس كمسألة الخضر عليه السلام، وهم الواقفية. فترى منهم طائفة يقولون إن الإمام على وحده رضى الله عنه وإنه فى السحاب والرعد صوته والبرق سوطه، والامامية قالوا مثل هذا فى بنيه لاسيما الاثنى عشرية منهم أى الذين يزعمون أن

الثانى عشر من أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكرى الملقب المهدى عندهم دخل سردابا بدارهم بالحلة وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمونه (المنتظر) لذلك ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجعون إلى الليلة الآتية . إذن الاثنا عشرية يقولون فى محمد بن الحسن العسكرى مايقوله الذين وقفوا على علىّ كرم الله وجهه من حيث البقاء فى الحياة والتغيب عن الناس . ومن الواقفية من يقول إن الإمام الذى مات يرجع إلى حياته كقصة أهل الكهف . وهؤلاء الثلاثة رد عليهم الفطاحل من علماء الشيعة أنفسهم وأبطلوا حججهم .

الكلام على الكيسانية

إن الكيسانية ساقوا الإمامة من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم ويسمون (الهاشمية) وزعم طائفة أن أبا هاشم لما مات بأرض السراة منصرفا من الشام أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام وأوصى إبراهيم إلى أخيه عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح وأوصى هو إلى أخيه عبد الله أبى جعفر المنصور وانتقلت فى ولده بالنص والعهد واحدا بعد واحد وهذا مذهب الهاشمية القائمين بدولة بنى العباس وكان منهم أبو مسلم الخراسانى ويستدلون بأن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم وهو أولى بالوراثة .

الزيدية

وأما الزيدية فقالوا بإمامة على رضى الله عنه فالحسن فالحسين فابنه على زين العابدين فابنه زيد بن على وهو صاحب هذا المذهب وقد خرج بالكوفة داعيا إلى الإمامة وقتل وصلب (بالكناسة) وبعده يحيى فظهر بخراسان وقتل بالجوزجان وبعده محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسين السبط ويقال له النفس الزكية وذلك بوصية يحيى المذكور فخرج بالحجاز وقتله عساكر المنصور . وهناك طوائف كثيرة من الزيدية ونخص بالذكر منهم من نقلوا الإمامة من محمد بن عبد الله المذكور إلى أخيه إدريس الذى فر إلى المغرب وقام بعده بالأمر ابنه إدريس واختط مدينة (فاس) وأعقب ملوكا بالمغرب ثم انقرضوا .

ومن الزيدية من كانت لهم دولة (بطبرستان) وتوسل (الديلم) من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد .

الإمامية

إن الامامية ساقوا الامامة من على كرم الله وجهه إلى ابنه حتى أوصلوها إلى جعفر الصادق وهناك افترقوا فرقتين : فرقة ساقوها فى ولده إسماعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية . وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان كما علمت . فأما الإسماعيلية فيقولون بامامة الامام بالنص من أبيه جعفر الصادق ومن إسماعيل انتقلت إلى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين والمستور عندهم من لاشوكة له فيستتر وتكون دعاته ظاهرين إقامة للحجة على الخلق ، وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته ، وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق ثم ابنه محمد الحبيب وبعده ابنه عبد الله المهدى الذى أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعى فى كتامة بالمغرب وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقله (بسجلماسة) وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر وهذا معروف مشهور فى التاريخ ويسمى هؤلاء (الاسماعيلية) نسبة إلى القول بامامة إسماعيل ويسمون أيضا (بالباطنية) نسبة إلى قولهم بالامام الباطنى أى المستور ويسمون (الملحدة) لما فى مقالاتهم من الإلحاد وهؤلاء لهم مقالات قديمة ومقالات حديثة وهى التى دعا إليها الحسن بن محمد الصباح الذى تقدم كلامنا فيه وقد ملك حصونا بالشام

والعراق ولم تزل دعوته فيها إلى أن توزعها الهلاك بين ملوك الترك بمصر وملوك التتر بالعراق فانقرضت .

واعلم أن الباطنية القديمة خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة وتكلموا على النفس والعقل وما أشبه ذلك وتكلموا على أسرار الحروف والأعداد ويقولون مثلا التسمية مركبة من سبع واثنى عشر والتهليل مركب من أربع كلمات فى إحدى الشهادتين وثلاث كلمات فى الشهادة الثانية وسبع قطع فى الأولى وست فى الثانية واثنى عشر حرفا فى الأولى واثنى عشر حرفا فى الثانية وهكذا فى كل آية استخرجوا أعدادا فأضاعوا زمانهم فيما لا فائدة فيه . وأذكر من ذلك أنى قرأت فى بعض كتبهم فى قوله تعالى « رفيع الدرجات ذو العرش » أن جمل رفيع ٣٦٠ وهى عدد درجات الدوائر الفلكية وغيرها لأن الدائرة ٣٦٠ درجة فكأنه يقول الدرجات ٣٦٠ ويعتبرون أمثال هذا أسرارا القرآن ولن يعرفها أحد إلا الامام . وهكذا يقولون إن جمل اسم (محمد) عليه الصلاة والسلام بحسب ماينطق به (١٣٢) وحروف الفاتحة بحسب النطق أيضا (١٣٢) وهذه يجعلونها أسرارا عالية وتورث قلوب الذين يعرفونها تصديقا بالدين وبالسر المحمدى وبالامام القائم بمذهبهم . ومعلوم أن كل عدد من هذه الأعداد يقابل بضده وبعكس الأمر على قائله ويدخل فى هذا علم الأوفاق الذى فيه يظهر توافق الأعداد كما هو مشهور وهذا قد اتخذوه عن قدماء المصريين والهنود فهؤلاء عندهم هذه الأوفاق كما أوضحناه فى غير هذا المكان إيضاحا تاما فهذا ضياع وقت يصد الناس عن النظام الجميل فى السموات والأرض فهناك التطابق العجيب والنظام البديع الذى ظهر لك فى أمثال هذا التفسير وهو الذى قامت به المدنية العصرية فى العالم كله . فأما أصحاب الدعوة الجديدة فقد تركوا هذا وأظهر حسن بن الصباح دعوته كما تقدم وتحصن فى قلعة الموت وبقى الأمر متوارثا إلى زماننا هذا وقد عرفت فيما تقدم فى هذا التفسير فى المجلد السابع أن (أغاخان) بالهند فى زماننا قد شكا منه أتباعه لأنه على رأى حسن بن الصباح منذ ثمانمائة سنة .

حسن بن الصباح

قال أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ فى كتابه [الملل والنحل] ما ملخصه أن ابن الصباح هاجر إلى إمامه وتلقى منه كيفية الدعوة لأبناء زمانه فجعل كيفية الدعوة فصولا أربعة :

[الفصل الأول] إن الانسان إذا اعتقد عقيدة فهذه إما أن تكون بالعقل وإما أن تكون بالتعليم والقائل بالنظر بالعقل إذا أنكر على المتعلم عن غيره فمعناه أن هذا المنكر عليه جاهل محتاج إلى تعليم غيره فهو إذن مقر بأن التعليم واجب وإذن ر الأمران ضروريين معا العقل والمعلم الذى يعلمنا كيف نعقل ونفهم .

[الفصل الثانى] إنه ليس كل معلم يصلح لتعليمنا لأنه إذا ثبت فى الفصل الأول أن المعلم لابد منه فهنا نقول ليس كل معلم يصلح لذلك وإلا كانت الفوضى . فلابد إذن من معلم صادق . فهنا أمران (أولا) لابد من معلم (ثانيا) لابد من معلم صادق .

[الفصل الثالث] أن هذا المعلم الصادق لابد من معرفته والظفر به ثم التعلم منه إذ لا يجوز التعلم من أى معلم كان .

[الفصل الرابع] أن فى العالم حقا وباطلا وعلامة الحق هى الوحدة وعلامة الباطل هى الكثرة وإن الناس متى تعلموا من الامام المعصوم الذى يعرفه هو صاروا إلى الوحدة والجماعة ، وإذا تعلموا من أى معلم كان صاروا إلى الفرقة والآراء المختلفة . إذن جميع المذاهب والفرق والآراء فى الأمم الاسلامية عنده منبوذة لأنها متفرقة وهم وحدهم على الحق لاتحادهم ، ثم إن كلمة الشهادة وترتيبها فيها نفى وإثبات فالنفى للباطل وهى الفرق المختلفة والإثبات للحق وهى الفرقة التى هو قائم برياستها ويقول (إلهنا إله محمد) صلى الله عليه وسلم وقد تقدم أنه منع أصحابه من العلم وسد عليهم أبوابه وإنما أطلت فى هذا المقام لأشبع تلك العقول المتعطشة للعلم من الأمم

الإسلامية

الاسلامية التي في زماننا وبعدنا ليعلموا لماذا تخاذل المسلمون وكسرت شوكتهم وضاع مجدهم « والحق أحق أن يتبع » .

إن هذه الأمة ليس لها إلا طريق واحد هو الذي ندعو إليه في هذا التفسير وهو ارتقاء جميع العلوم في بلاد الاسلام قاطبة والحمد لله ، إن هذا التفسير قد أوضحه إيضاحا تاما . فأنا أحمد الله وأشكره أن أوفق له وسيرع قلوبا وقلوبا وسيشرح الله به صدورا وصدورا . فليعمم التعلم في بلاد الاسلام وليكن لكل ذكر ولكل أنثى وليكن ابتدائيا وثانويا وعاليا . وهذه هي الطريقة المثلى التي بها نتجاوز تلك السبل الضالة الجاهلة التي مزقت أمم الاسلام، وليكن الكرام من آل البيت قدوة في العلم ورفعة الأمة وشرفها .

هذا هو الحق الصراح «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الخميس (١٥) مارس سنة ١٩٢٨ .

(القِسْمُ الثَّانِي)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ

مالم تستطع عليه صبرا * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن
أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا * وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين
فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب
رحما * وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما
صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن
أمري ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا * ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا
عليكم منه ذكرا * إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا * فأتبع سببا *
حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا
القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا * قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم
يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا * وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول
له من أمرنا يسرا * ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم
لم نجعل لهم من دونها سترا * كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا * ثم أتبع سببا *
حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا * قالوا ياذا
القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل
بيننا وبينهم سدا * قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم
ردما * آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا
قال آتوني أفرغ عليه قطرا * فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا * قال هذا
رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا * وتركنا بعضهم يومئذ
يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا * وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين
عرضا * الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا * أفحسب
الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا * قل
هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم

يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا • أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا • ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا • خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا • قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا • قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا •

جاء فى البخارى ومسلم ماملخصه أن موسى عليه السلام قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم؟ فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه تعالى فأوحى الله سبحانه إليه « إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك وأمره أن يأخذ حوتا فى مكتل فحيثما فقد الحوت فهو ثمة ففعل ذلك وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة ناما فاضطرب الحوت وسقط فى البحر ـ فاتخذ سبيله فى البحر سربا ـ وصار الماء كالطاق عليه وهو يجرى فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما فلما كان الغد طلب موسى الغداء ووجد النصب ولم يكن ذلك النصب إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمر الله به فقال فتاه ـ إنى نسيت الحوت ـ وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ـ فارتدا على آثارهما قصصا ـ حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوب أبيض » وكان من أمرهما ماسترى من مسألة السفينة والغلام والجدار .

التفسير اللفظى

قال تعالى (وإذ قال موسى) أى اذكر إذ قال الخ (لفتاه) يوشع بن نون من ذرية يوسف عليه السلام وكان يخدمه (لا أبرح) لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) ملتقى بحر فارس والروم من جهة المشرق أو بحرى العلم موسى فى علم الشريعة والخضر فى علم الحقائق (أو أمضى حقبا) أوأسير زمانا طويلا (فلما بلغا مجمع بينهما) وهو المكان الذى وعده الله بلقائه عنده أى مجمع وصلهما (نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا) أى فاتخذ الحوت طريقه فى البحر مسلكا وصار الماء كالطاق عليه فكان ذلك للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا (فلما جاوزا قال لفتاه) أى قال موسى (آتنا غداءنا)ما نتغدى به (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) ولم ينصب حتى جاوز الموعد (قال أرأيت إذ أوينا) أرأيت مادهانى إذ أوينا (إلى الصخرة) يعنى الصخرة التى رقد عندها موسى (فإنى نسيت الحوت) نسيت أن أخبرك بما رأيت منه (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) أى وما أنسانى ذكره إلا الشيطان ، فأن أذكره بدل من الهاء (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) سبيلا عجبا وهو كونه كالسرب (قال ذلك) أى أمر الحوت (ما كنا نبغ) نطلب لأنه المطلوب (فارتدا على آثارهما) فرجعا فى الطريق الذى جاآ فيه يقصان (قصصا) يتبعان آثارهما اتباعا حتى أتيا الصخرة (فوجدا عبدا من عبادنا) وهو الخضر مسجى بثوب أبيض فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام فقال أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال نعم ووصف العبد بقوله (آتيناه رحمة من عندنا) هو الوحى والنبوة (وعلمناه من لدنا علما) مما يختص بنا ولا يعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب (قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن) أى على شرط أن تعلمنى وهو حال من الكاف (مما علمت رشدا) أى علما ذا رشد وهو إصابة الخير والرشد ، والرشد كقفل

وسبب قراءتان (قال إنك لن تستطيع معى صبرا) عن الإنكار (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا)وكيف تصبر وأنت نبى على ما أتولى من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها مجهولة (قال ستجدنى إن شاء الله صابرا) معك غير منكر عليك (ولا أعصى لك أمرا) عطف على « ستجدنى » (قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء) فلا تفاتحنى فى شىء أنكرته علىّ (حتى أحدث لك منه ذكرا) أى حتى أبتدىء بذكره فأبين لك شأنه قال تعالى (فانطلقا) يمشيان على الساحل يطلبان سفينة فوجداها فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول أىعوض (حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها) وذلك حين توسطوا فى لجة البحر إذ أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من ألواح السفينة (قال) موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا) عظيما منكرا فأخذ موسى ثوبه فحشا به الخرق (قال) الخضر (ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال) موسى (لا تؤاخذنى بما نسيت) بالذى نسيته (ولا ترهقنى من أمرى عسرا) ولا تغشنى عسرا من أمرى بالمضايقة والمؤاخذة . قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحيح « كانت الأولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر مانقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل مانقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة » (فانطلقا) يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله وهذا قوله تعالى (حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس) أى نفسا طاهرة من الذنوب بغير نفس ، أى لم تقتل نفسا لم يجب عليها القتل (لقد جئت شيئا نكرا) أى منكرا عظيما (قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) وأتى هنا بلفظ « لك » ليواجهه بصريح العتاب (قال إن سألتك عن شىء بعدها) بعد هذه المرة (فلا تصاحبنى) أى فارقنى (قد بلغت من لدنى عذرا) اتضح لك العذر فى مفارقتى ، والمعنى أنه مدحه لاحتماله مرتين ، قال صلى الله عليه وسلم « رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة (١) فقال : إن سألتك عن شىء الخ فلو صبر لرأى العجب » قال تعالى (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) قرية انطاكية (استطعما أهلها) استضافاهم (فأبوا أن يضيفوهما) يقال ضافه إذا نزل به ضيفا وأضافه وضيفه أنزله (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ) يدانى أن يسقط (فأقامه) بحجارته أو بعمود عمده به ، وقيل نقضه وبناه (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أى جعلا لنتعشى به (قال هذا فراق بينى وبينك) أى هذا وقت فراق بينى وبينك (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) قيل إن موسى أخذ بثوب الخضر وقال أخبرنى بمعنى ماعملت قبل أن تفارقنى فقال الخضر (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) وهم لعجزهم عن دفع الملك أو لزمانتهم أو لحاجتهم مساكين ، وقيل كانوا عشرة خمسة زمنى وخمسة يعملون فى البحر (فأردت أن أعيبها) أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) قدامهم ملك (يأخذ كل سفينة غصبا) أى كل سفينة صالحة ولذلك عبتها فاذا جاوزوا أصلحوها وانتفعوا بها (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا) أى خفنا (أن يرهقهما) أن يغشيهما أو يكلفهما (طغيانا وكفرا) أى فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة) صلاحا وتقوى ردا على قوله « أقتلت نفسا زكية » فقال الخضر أردنا أن يرزقهما الله خيرا منه زكاة (وأقرب رحما) أى رحمة وعطفا على والديه . قيل ولدت أمه جارية فتزوجها نبى فولدت نبيا هدى الله به أمة من الأمم (وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما) وكان هذا الكنز جامعا للمال والعلم إذ كان لوحا من ذهب مكتوبا عليه [عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح ؟ ! عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب ؟! عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب ؟! عجبا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل ؟! عجبا لمن أيقن

(١) الذمامة : الحياء والإشفاق من اللوم .

بزوال

بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها] وقيل هو كنز من ذهب وفضة ولا تنافى بينهما ثم قال تعالى (وكان أبوهما صالحا) قيل هو جدهما السابع (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) أى الحلم (ويستخرجا كنزهما رحمة) أى لأجل الرحمة (من ربك ومافعلته) أى وما فعلت مارأيت (عن أمرى) أى عن اجتهادى إنما فعلته بأمر الله (ذلك) أى الأجوبة الثلاثة (تأويل مالم تسطع عليه صبرا) .

اعلم أن هذه القصة كلها ترجع إلى طلب العلم وعدم الوقوف عند حد لأن المكتفى بما عنده مغتر « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ـ فرحوا بما عندهم من العلم ـ » . وروى فى سبب هذه القصة أيضا : أن موسى سأل ربه أى عبادك أحب إليك ؟ قال الذى يذكرنى ولا ينسانى . قال فأى عبادك أقضى ؟ قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال فأى عبادك أعلم ؟ قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى ، فقال إن كان فى عبادك أعلم منى فدلنى عليه قال أعلم منك الخضر ، قال أين أطلبه قال على الساحل عند الصخرة إلى آخر ماتقدم ثم جاء فيها إن علمى وعلمك الخ .

مغزى هذه القصة

اعلم أن هذه القصة جاءت هنا لاتمام ماقبلها . ذلك أن الله فى أول السورة أرانا أن آياته كلها عجب وقال لنا إن قصة أهل الكهف وقصة يوسف بالنسبة لآيات الله شئ قليل فآيات الله لا تتناهى فلا تقتصروا على أنباء القرون الخالية والأمم الماضية وسير الصالحين فان الصالحين والأمم ماهم إلا بعض ملكى والبعض المذكور قليل بالنسبة لهذه الأرض والسماء المحيطة بهما ، فاياكم أن تضيعوا حياتكم فى ذلك بل اقرءوها للإيمان ثم ادرسوا هذا الكون المحيط بكم دراسة علمية ولا تقفوا عند الشهوات فان زينة الحياة الدنيا فانية إلى آخر ما تقدم .

ولقد ظهر هذا المعنى فى حديث الشيخين المتقدم إذ جاء فيه أن علم موسى وعلم الخضر فى جانب علم الله كما أخذ الطائر من البحر .

هذا تصريح من جانب الحضرة النبوية بما ذكرناه سابقا ، فان الخضر وموسى لم يخرجا عن كونهما مخلوقين نبيين ولهما قصص وحكايات وأعاجيب ، فقال الخضر لموسى على الناس أن لا يقفوا عند حد ماسمعوا لأنا لانسمعهم إلا على قدر الهداية العامة فنحن أشبه بالهادى الخريت الذى يهدى الناس إلى السبيل وعلى الناس أن يسيروا فليس الذى يهدى الطريق هو المقصود بل الأرض والسماء أوسع منه والمسافر يسافر لأغراض غير الدليل وإنما عليه أن يتبع الدليل فعلمى وعلمك قليل وعلم الله كثير إشارة إلى ما ذكره الله أول السورة « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » فجعل آيات الله فى السموات والأرض عجائبها أبدع من قصص أهل الكهف كذلك علم موسى وعلم الخضر أقل من علم السموات والأرض وهو المستمد من علم الله . فعلم موسى وعلم الخضر يدلان على علم الله ونحن ندرس مخلوقات الله لنتوصل إلى الحقائق .

إن علم الأنبياء الذى يلقونه إلينا إجماليا وقراءة هذا الكون تفصيل وليس على الأنبياء أن يعلمونا غير ماهو أصل الدين وعلينا نحن التفصيل بعقولنا والنظر فى خلق ربنا . والأنبياء بما أرشدوا إليها صاروا هم المعلمين لها وإن لم يكن مباشرة . فاذا قال الله « خلق السموات والأرض بالحق » فعلينا أن نبحث لنصل إلى الحقائق ولسنا نصل إلى مااتمت به جماهر الأنبياء . ولكن نصل إلى ماتحتمله عقولنا « وفوق كل ذى علم عليم » .

إيضاح هذا المقام : أى أسرار هذه القصة

حدثنى الحارث بن همام ، قال أخذتنى سنة من النوم فرأيت فيما يرى النائمون رجلين أحدهما فلاح بجهله والثانى شيخ عالم بالقرآن وتفسيره والبلاغة وآدابها فأخذا يتحاوران وأنا مصغ لهما ؛ قال الفلاح للشيخ

الأديب : أيها الشيخ إن الله قد أنعم عليك بنعمة القرآن والعلم وآتاك حكمة « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » إنى حرت فى أمر هذه الدنيا ، قال الشيخ وكيف ذلك ؟ قال أنا واقف فى الحقل أرى طيورا فوق تطير وحيوانات وبهائم على الأرض تسير وألفيت الطيور قد اكتست جلابيب الهناء وسرابيل السعادة لم تكبل فى الأرض بالحافر ولا بالخف ولا بالظلف بل أرجلها خفيفة وريشها حريرى وأمرها عجيب . تبيض البيض وتحضن أولادها وتربيهن مترفة ناعمة سعيدة فرحة مغردة .مغنية لا أسنان تعيقها عن الطيران بثقلها ولا آذان لكل منها فان ذات البيض خلقت بلا آذان ظاهرة وذات الحمل والولادة آذانها ظاهرة . الأنعام حولى فأخفافها وأظلافها وغلظ أجسامها وحرمانها من الأجنحة كل ذلك أقعدها عن الطيران وأكسبها السير فى القيعان فخضعت لنا وذللناها فمنها ركوبنا وإنا لها لآكلون ثم أرى طيور السماء وحيوانات الأرض والماء جميعا لها شئون وشئون ونظام مسنون . كل له نظام يخصه لاعوج فيه . قد أعطى كل مايؤهله لحياته فالطير راض عن جوه وعن هواه وحيوان الأرض راض عن مثواه وكأن هذا وذاك مشمولات بالعطاء منحات بكل يابسة وخضراء . أما الذى أذهلنى وآذانى وهيج بلبالى ما أراه من التناقض والاختلاف . فبينما ترى صانع العالم رحيما لطيفا إذا بك تراه قد انقض على المرحوم فآذاه ومنع عنه الرحمة وأرداه ، فلما سمع ذلك الشيخ امتعض وقال له لا تقل ذلك ، فقال الفلاح أجبنى عن سؤالى وأزل شبهتى . أما قولك لا تقل ذلك فانها صناعة العاجزين . قال الشيخ قل وأوضح ما اشتبه عليك . فقال أيها الشيخ :

(١) ألم تعلم أن الله يميت الناس وهم فى متقلبهم يترددون قال الشيخ بلى .

(٢) قال الفلاح : ألم تر أن الباز ينقض على الخطاف والخطاف على العصفور فيبتلعه . قال الشيخ بلى .

(٣) قال الفلاح : ألم تر إلى الطاعون كيف ينقض على جماعة من الناس وجماعة من الحيوان أخرى فيزيلها من الوجود . قال الشيخ بلى .

(٤) قال الفلاح : ألا ترى أن رجلا فقيرا عنده بقرة حلوب وعنده عشرة أطفال فمنها لبنهم وعليها حرثهم وسقيهم فتموت ويصير الرجل وأبناؤه فقراء . قال الشيخ بلى .

(٥) قال الفلاح ويكون جاره غنيا لاصلاح عنده ولا كرم وله ٩٩ بقرة أو أكثر ومع ذلك لايصيبها الموت ؟ قال الشيخ بلى .

قال الفلاح هذه هى شبهى ، وهذه هى الحيرة ، فقل لى بالله أين العطف واللطف والرحمة التى رأيناها للأجنة فى بطون الأمهات وفى الغدو والرواح ، وأين هذا الجمال الساطع فى هذا الوجود من هذا الفتك والقتل والإيلام ولأ كتف لك أيها الأستاذ بهذا وإلا فالأمر فى مثل هذا لا حصر له فما أوسع الوجود ، فقال الشيخ « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ، فقال الفلاح أنا أسمع هذه الآية ولكن هل هذا هو العلم وهل هذه هى الحكمة ، أين الجواب . يقول الله « وفوق كل ذى علم عليم » فأنا ذو العلم وأنت العليم فأفدنى . قال الحارث بن همام : فلما رأيت الشيخ قد أرتج عليه تمنيت لو يفتح عليه بالجواب فأطرق الشيخ رأسه قليلا وبينما هو كذلك إذ انقض طائر أبيض من فوق الشجرة وأقبل إليهما وجلس بينهما ثم انقلب فجأة رجلا سويا فقلت فى نفسى يا سبحان الله ، أنى يقظة أنا أم فى منام . إذا هو ذو هيئة جميلة وشكل بهيج يسر الناظرين ويشرح الصدور فقال قد سمعت قولكما وفهمت مادار بينكما ثم التفت إلى الشيخ وقال هل قرأت قصة الخضر وموسى عليهما السلام فى سورة الكهف ؟ قال نعم . قال هل تدرى مافيها من الحكم؟ قال نعم .

يقول الله تعالى « حتى إذا ركبا فى السفينة » إلى أن قال « فأردت أن أعيبها » فنسب الخضر العيب إلى نفسه . قال حسن . قال الشيخ وقال « فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة » ونسب هذا الخير إلى الله ، وأيضا قال « فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما » فنى هذا نسبة الخير إلى الله والشر العبد وهذا من الأدب الجميل فى العبارة . فتبسم ذلك الطائف وقال هل هذا هو محاسن القرآن . هذه يتعلمها الصغار فى المدارس ليحسنوا النطق والتعبير وليس القرآن منزلا لمثل هذه النكات السهلة التى تلقى إلى المبتدئين ولكن أريد منك أن تجعل جواب صاحبك من هذه القصة . حينئذ فكر الشيخ طويلا وقال أنا لم أر مناسبة بين سؤال صاحبى وبين قصة الخضر . إن ملخص مافيها كما ذكره المفسرون أن العلم (علمان) علم مكاشفة وحقيقة وعلم شريعة ؛ فمن أدرك الآخرة أنكر الأولى ومن أطلعه الله على الحقيقة كالخضر يكون فرحا بمعرفتها ولايكون لديه أى اعتراض على ما يخالفها . قال ذلك الطائف ولكن لم تجب صاحبك إلى الآن ؛ قال هذا ماعلمت فهل عندك علم ؟ قال فاستمع ياصاح . خذ لك عظة مما سيأتى :

(١) قال الله لموسى إن الخضر أعلم منك بعد أن عتب عليه .

(٢) ولما سأله عن مقره قال مجمع البحرين . فلم عبر بالبحرين . فكأن المقام مقام تبحر فى العلوم ولذلك أشار لها الخضر عند نقر الطائر فى البحر .

(٣) ذكر فى الخبر أن عند الصخرة ماء عين الحياة ونام موسى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت فى الماء، وعين الحياة رمز للعلم والعالم هو الحى الحقيق بعد الموت وفى الدنيا والناس جميعا أموات .

(٤) جاء فى الخبر أن الخضر : قال يا موسى أنا على علم علمنيه الله لاتعلمه أنت وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه أنا ثم اتبعه موسى ليعلمه ، كل ذلك ليقال لكم إذا كانت هذه أحوال أنبيائكم فبالأحرى أنتم لابد أن تزدادوا من العلم ولا تقفوا عند حد .

(٥) إذا علمت هذه المقدمات فاعلم أن هذه القصة تشير إلى أمور كثيرة منها ماذكره صاحبك الفلاح . ألا ترى أن قتل الغلام وهو صغير لاذنب له ترونه كل وقت فى أرضكم هذه كما قال صاحبك الفلاح فإن الطاعون وانقضاض الكواسر على الطير والوحوش والآساد على البهائم . كل ذلك من قبيل قتل الغلام فما ذنب البهائم يصطادها السباع والانسان ؟ وماذنب الأمم يصطادها الطاعون فيهلكها ، إن الأمر لعجيب . هذا بعض المقصود من ذكر الغلام . وأما ذكر خرق السفينة التى هى لمساكين فإشارة إلى ماذكر صاحبك الفلاح من موت بقرة فلاح بجانبه رجل غنى لم يصب . وأما ذكر الجدار وإقامته فتشير إلى كل من ترى أنه ليس أهلا للنعمة ظاهرا وقد أغدقت عليه وأهل (أنطاكية) ليسوا أهلا للاكرام فهكذا الغنى ذو المال الكثير البخيل كيف تغدق عليه النعم وتبعد عن هذا الفقير .

فلما سمع ذلك الفلاح والشيخ قاما وقبلا رجليه وقالا لقد آتاك الله علما فحدثنا رعاك الله كيف يكون الجواب . فقال ليس كل مايعلم يقال وأخاف أنكما إذا استيقظتما تخبران الجهلاء بالآراء فلا يفقهون . قالا : كلا ، فنحن للأسرار حافظون :

(١) قال أما موت الناس بعد حياتهم فمن حكمه أنهم لو بقوا على الأرض مائة عام جميعا ولم يمت أحد لضاقت الأرض بمارحبت ولماتوا جوعا ولأكل الابن أباه وأمه ولأصبحت الأرض منتنة قذرة ولهلك الناس أجمعون .

(٢) إن كواسر الطير تأكل غيرها ليخلو الجو والأرض من الحيوانات المزدحمة ولولا ذلك لتعفنت هذه المخلوقات وأضرت بالحيوانات والناس أجمعين فاقتناصها رحمة فهى لا تتعفن هناك بل تصبح دما ولحما وتغذية على الباقين .

(٣) وهكذا افتراس الوحوش والسباع للغزلان والأرانب لنفس الحكمة وهكذا الحيات تفترس الحشرات وإلا لضاقت الأرض بما رحبت ومات الناس أجمعين .

(٤) وأما إبقاء مال الغنى عنده وزيادة الفقير فقرا فذلك لأمور تخص أولئك الأشخاص لا يعلمها إلا الله : منها أن الفقراء عند الموت يكونون خفافا ويفرحون فرحا لا نهاية له ، وأما الأغنياء إذا لم يهذبوا فإن عقولهم وأرواحهم تكون مجذوبة إلى هذا العالم فأصبح النعيم جحيما والجحيم نعيما بعد الموت مباشرة وهناك ما لا يعلمه أحد إلا رب العالمين ويشير لذلك كله ولغيره عيب السفينة في البحر وقتل الغلام في البر وإقامة الجدار فيه كأنه يقول ها أنتم أولاء تشاهدون هذه الأحوال في البحر لأن السمك الكبير يأكل الصغير في البحر . وأما أمر البر فهو معلوم مما تقدم . فقال الشيخ له سألتك بالله من أين جاءك هذا العلم ، إنه لقول جميل . قال له بالنظر الصحيح وقراءة كتب الحكمة . قال له نعم أنا أفهم ذلك ولكن كيف خطر ببالك هذه المعاني في هذه القصة . قال له من سابق الكلام ولاحقه فإن سابق الكلام في عجائب الدنيا وإنها أكثر جدا من عجائب القصص . وأما لاحقه فإنه قال تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » فهذا القول دلنا على أن هذه القصة مسوقة للتبحر في هذه الكائنات والنظر فيها وأن العلم لاحد له فأخذنا نبحث في نفس الكائنات كما أشار لذلك الأنبياء . قال الشيخ إن نفس هذه الإجابة أيضا أسأل عنها كيف عبرت بها ؟ وإني قرأت التفاسير فلم أجد هذه الطريقة فيما أعلم فقال له يقول الله « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » ويقول على لسان إبراهيم « ولكن ليطمئن قلبي » فبهذا يكون الاطمئنان ومثل ما ذكرته لكما يكون الشفاء لما في الصدور ، ألا ترى أن الخضر لما فعل ما فعل رجع فأبان الحكم والغايات التي أريد الفعل لها ثم قال « وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا » . يقول الخضر هذه الأعمال ليست من جنس أعمال الناس بل هي من أعمال الله تعالى وإنما أنا كنت واسطة وهكذا الملائكة الأرضيون كلهم يعملون نفس هذا العمل بما ألهمهم الله ، فهم يحافظون ويساعدون النسور في الجو والآساد في البر والحيتان الكبار في البحر وافتراسها والحيات في التراب وهذه المحافظة ليست مضرة على الناس خيفة تعفن الجو والبر والماء إذ تلك هي الآكلات لهذه الحيوانات لئلا تكثر فتموت فيكون الهلاك لكم ؟ فأما هذه الأمور الثلاثة فإنما هي نموذج لفعل ربكم . هذا مقصود الآيات . فقال الشيخ ولكن خبرني حفظك الله كيف غابت هذه الآراء عمن نعرفهم من العلماء وعني . قال اعلم أنك أنت وصاحبك الفلاح رجلان تقاربتما في طريقة الحياة . قالا له معا فما معنى هذا . قال معناه أن الأمة في تربيتها متلاعبة وجوها العلمي يكون متناسبا . قالا ما فهمنا . قال أوضح لكما ذلك . أنت أيها الشيخ حفظت القرآن من صغرك بلا تدبر على طريقة المسلمين في الأرض ، وأنت أيها الفلاح خرجت فوجدت نفسك في وسط هذه الحقول وقد تركتما بلا مرشدين ، فأما الشيخ فقرأ العلوم العربية ونهايتها البلاغة وهي نحو ١٢ علما وأفهمه شيوخه أنك بهذه العلوم تعرف سر القرآن والدليل على ذلك أني حين سألتك أيها الشيخ أجبتني بإسناد الضمائر وذلك خاص بعلم المعاني ، قال له نعم . قال هذا هو الذي أوقف عقول أمة الإسلام عاشت في القرون الأخيرة في جو من الألفاظ فحجبت عنها الأسرار وقال قوم ممن جاهدوا أنفسهم إنهم وصلوا إلى معان بتصفية الباطن ولكنهم ما أبرزوها للناس لأن الناس لا يصدقونها فرجع الأمر أن الأمة وقفت في مرضها وتقدم غيرها من الأمم فدرسوا هذه الكائنات والمسلمون في سبات قال الشيخ صدقت . قال وأنت أيها الشيخ ما أنت إلا واحد من آلاف حفظوا القرآن كما حفظت ولكنهم تمشوا في أذيال الجهالة والكسل فإنهم اكتفوا منه بالتلاوة أو العبادة أو التبرك أو التغني به وكل ذلك نزر يسير ولم ينزل القرآن ليقتصر على هذا . إنه نزل لإطلاق العقول . قال الشيخ صدقت . ثم قال أما أنت يا أيها

الفلاح فانك درجت فى قريتك ولم تسمع إلا أن الحمام يؤكل والطيور تذبح والبقر والجاموس للحراث وما أشبه ذلك فأنت وحافظ القرآن وأمثالكما كثيرون تعيشون ما تعيشون ثم تموتون مزوّدين بزاد قليل من الدنيا . فلا أنت فهمت الموجودات التى تعيش فيها ولا الشيوخ درسوا القرآن الذى حفظوه وكلما خلت أمة أتبعتها أخرى والعقول واقفة والنفوس نائمة والفرنجة حولكم فرحون مستبشرون .

حديث عجيب

ألا أحدّثكما حديثا سياسيا اقتصاديا ؟ فقالا نحب ذلك . قال إن الملك (غليوم) ملك ألمانيا كان أرسل منذ عشرات السنين شابا قد أكمل الدراسة فى بلادهم وتخرج من مدارسهم وأخذ الشهادات العالية فى الفلسفة والعلوم وهو ذكى الفؤاد . أرسل هذا الشاب إلى بلاد العراق فتعلم العلوم الإسلامية لا بقصد الإسلام بل بقصد أن يعرف إلى أىّ حدّ وصلت أمة الاسلام فتعلم كل شىء عند المسلمين وألف كتابا نشره بالألمانية فكان ملخصه ما يأتى [هذه الأمم تعلم لتموت فعلى ألمانيا أن تجدّ فى طلب الحصول على مراكز اقتصادية وسياسية فى البلاد قبل احتلال غيرها لها] ومضت سنون ثم جاءت الحرب الكبرى . فقال الشيخ والفلاح وا أسفاه . أهكذا وصلنا . وقال نعم ولكن بأمثال هذه الآراء ستحيون ويغير نظام التعليم فى الاسلام وترقى أمم الشرق وقد آن من أوانه وظل إبانه . إن الشرق مهد العرفان ومقر الأنبياء . إنكما أيها الإخوان قد تركتما عادة الخمول وبحثتما وفهمتما شيئا من الوجود . فأما أنت أيها الفلاح فانك فكرت فى أمور لا يفكر فيها الفلاحون وأنت أيها الشيخ عرفت علم اللغة وكفاك فضلا أنك فهمت ما أقول . وأما غيرك فقد أقفل عقله بأقفال من الجهالات فقالا له زدنا . فقال كفى فالحا عليه . فقال سأقول كلة وإذا عاودتمانى لم ترياني . فقالا قل هذه الشريطة فقال ألم تنظر سورة الكهف قد تناسب طرفاها . ابتدأها بأن العجائب لا تنتاهى وأن قصة أهل الكهف نزر يسير وختم السورة كما ابتدأها قائلا إن البحر ومثل البحر لو كان مدادا لم تنفد عجائب الله . أقول هذا وأستغفر الله ثم انتفض انتفاض العصفور وانقلب طائرا وغاب عن الأبصار . قال الحارث بن همام فاستيقظت إذ ذاك ووددت لو أراه كرة أخرى . انتهى الكلام على قصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام الذى هو ميت لا حى قال تعالى « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » .

﴿ بهجة العلم ونور الحكمة قد أشرقا صباح يوم الخميس الثالث من شهر مايو سنة ١٩٢٨ فى تفسير قوله تعالى « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » إلى قوله « قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » ﴾ .

أصبحت هذا اليوم ونفسى متشبعة ببعض ما فى هذه الآيات من المعانى ولقد كانت ترد على قلبى وقتا فوقتا منذ أربعة أشهر حتى إذا كان هذا اليوم ألمت هذه الآراء بنفسى ولم تفارقها وقامت البراهين على ما يخطر بالنفس فأيقنت أن هذه الخواطر واجب كتابتها على فإنى لا أجد محيصا من إثباتها ولا طريقا لمقاومتها فأذعنت للأمر الإلهى وكتبت ما ستسمعه والله هو الولى الحميد .

اعلم أن الله عز وجل علم قبل أن ينزل هذا القرآن وقبل أن يخلق هذا العالم أن الأمم الاسلامية ستنام قرونا وقرونا وستأخذ أقوال الأئمة تقليدا فى الفقه وتترك عقولها وراءها إلا قليلا . علم الله ذلك فأنزل هذه الآيات ليذكرنا بأصول هذا الدين . هذا الدين الاسلامى نزل إلى الأرض وقد كانت مرتبكة قد أضناها النصب والتعب وحل بعقول أهلها الخبل . أفلا ترى إلى الأمم الأوروبية وقد خيم على عقولها الدين المسيحى فأحاط بعقولهم القسيسون وأضروا بهم ضررا شديدا فلم يفكهم من عقالهم إلا الإسلام [راجع ما كتبناه عن علمائهم فى سورة إبراهيم وسورة التوبة وغيرهما] وبهذه الوسيلة انتشرت الحرية العقلية فى العالم الانسانى فى أمريكا واليابان والصين حديثا وكذلك الهند . كل ذلك بانتشار الآراء الإسلامية . إن النهضة الحالية وانتشار

ديمقراطية كل هذا سببه الاسلام ولكن المسلمون الذين كانوا سبب ذلك الارتقاء كبلوا فى قيود من حديد وحجر على عقول كثير منهم . ولقد أصبح كثير منهم أشبه بقدماء المصريين إذ جاء لهم ملك الفرس المسمى (قمبيز) محاربا وقد أدرك أنهم يعبدون الهرة فأوقف الهرر بين الصفين فلم يتجاسر العساكر المصريون على ضرب الآلهة فتمكن الفرس من هزم المصريين وذلك فى الأسرة (٢٦) ومن ذلك الوقت ضاع استقلال مصر وذهب مجدها وطاح عزها ، فأرباب الدين إذا حبست عقولهم كان ذلك الحبس من أقوى أسباب انحطاطهم وذلهم وشقائهم أجمعين .

(الإسلام مبناه العقل فتأمل وتعجب)

ألست ترى أن الأنبياء إنما يصدقون بالمعجزات ولا معنى للمعجزة إلا أنها أمر خارق للعادة يجريه الله على أيدى أناس ادعوا النبوة . فهذا الأمر الخارق للعادة دليل على أن الله هو الذى اختارهم لذلك ، فالإيمان بالأنبياء متوقف إذن على أن نعقل أن للعالم إلها موجودا عالما مريدا قادرا فلولا علمه وإرادته وقدرته ما ظهرت تلك المعجزات على أيدى الأنبياء فهو علمهم وأراد تأييدهم وقدر على ذلك . إذن النبوة لا تعرف إلا بالعقل . وهذه النبوة إذا جاءت بأمور تخالف العقل فنحن بين أمرين: إما نقول العقل لا قيمة له ونسلم للدين ما يقول بلا بحث وهذا معناه أن العقل قد يكذب وإذا كذب العقل فهذا يرجع على الدين بالنقض لأن التصديق به بناء على العقل والعقل قد سقط فإذن سقط الدين بسقوط أساسه . فاذن نلتجىء إلى الأمر الثانى وهو أن نقول إننا نؤول الشرع ليطابق العقل وحينئذ نكون وفقنا بين العقل والشرع . هذا كلام حكماء الاسلام فى مثل هذا المقام أى مقام العقل والدين فلننظر فى علوم الفقه الاسلامى أى شىء هى؟ إن علوم الفقه الاسلامى كلها ظنية لأن الفقه ما هو إلا الأحكام الشرعية الظنية المكتسبة من أدلتها التفصيلية قالوا والمسائل التى ليست ظنية فهى ليست من الفقه . وهنا نقول إذا حدث فى الأمم الاسلامية حوادث أظهرت أن بعض الأحكام الشرعية التى يقول بها مذهب من مذاهب أهل السنة أو الشيعة أو الزيدية قد أضر بالشعب الاسلامى ضررا محققا وتحقق ذلك الضرر عند مجلس الشيوخ فى الأمة ومجلس النواب . فماذا يكون الحكم إذا رأينا أقوالا اجتهادية أو أحاديث صحيحة وكانت نتيجة العمل بها ضررا محققا ، أى إن المضار فيها كثيرة جدا تفوق المنافع أضعافا مضاعفة . فماذا نفعل ؟ نقول إذا حصل هنا يقين بأن حكما من الأحكام ضرره بين فانه لا محالة لا يكون هذا شرعيا . وبيانه أن الضرر المحقق عند نواب الأمة يعارض الحكم المظنون فالحكم مظنون شرعا ولكن الضرر محقق عقلا وقد حكمنا أولا أن العقل لا يلغى حكمه إذا كان محققا . إذن يراجع هذا الحكم ويجب أن يعتقد أنه ليس مشرعا لأنه ظن واليقين مقدم على الظن قال الله تعالى « إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » فهذا ظن وهذا حق والحق يغلب الظن ويلغيه، لذلك أنزل الله هذه الآيات لتذكرنا بالحقائق الدينية وترجع المسلمين إلى التعقل والتفكر . انظر إلى السفينة وقد خرقها وخرق السفينة حرام ولكن لما تحقق الخطر وجب عمل المصلحة وقتل النفس حرام ولكن قد تحقق أنه لا مصلحة فى بقاء هذا الغلام بل فيه مفسدة هنالك أقدم على القتل . وليس معنى هذا أن نأخذ هذا القول بلفظه بل نقول متى ثبت لرجال الأمة وعقلائها ضرر أمر وجب تلافيه بحسب المصلحة فالشرع لم يكن لإحراج المتدينين .

انظر إلى مسألة الربا

الربا حرام، وإنما حرم لسر ظهر فى هذا الزمان وذلك السر عرفه علماء الاسلام قديما ولكن لم ينفذ فعلا إلا على يد (البولشفيك) فاقرأ ذلك فى آية الربا فى سورة البقرة فقد اتفقت أدلتهم مع أدلة علماء الاسلام على أن المرابى لم ينفع الانسانية بعمل ما ؛ هذا سره . لكن انظر إلى المسلمين فى مصر بلادى مثلا .

نحن

نحن الآن نعيش مع الأوروبيين الذين يبيحون الربا ولكن المسلمون يحرمونه ، فماذا جرى ؟ .
حبس الأغنياء نحو (٨٠) ألف ألف جنيه فى مصارف الفرنجة ، والربا الذى يستخرج من هذه فى السنة يبلغ فوق ثلاثة آلاف ألف جنيه وهذا المبلغ يأخذه الفرنجى فيجعله ذخيرة وسلاحا ومدافع ويحارب المسلمين به .
وهنا ننظر ونقول الربا حرام ولكن هذا الحرام جعل سببا فى تخريب بلاد الاسلام ، ولو أن هذا الربا أخذ لدولتنا وسدت به ديون دولتنا لا للافرنجة الذين يحيطون بنا لكان ذلك واجبا لا جائزا فقط ولو أن الربا أخذ منهم واعطى للفقراء والمساكين والذين لا يجدون صناعة يعيشون بها فيشترى به آلات للزراعة مثلا لكان ذلك من باب الاضطرار فى المسألتين . فهذا اضطرار يبيح هذا المحظور مؤقتا ، أنا لست أبيح الربا ، الربا خطر على الانسانية وسيف قاطع ولم يفهم ضرره حق فهمه إلا البلشفية فى الروسيا ، هؤلاء هم الذين حققوا معجزة كبرى للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولست أقول إنا نأخذ الربا لفقرائنا ، ولكن أقول إذا اجتمع [علتان] علة أخذ الفرنجة لربا أموالنا وضربنا بالمدافع المشتراة به ، وعلة أخذ فقرائنا له .
أقول : إذا لم يكن فى الأمة من ينمون هذا المال بزراعة أو تجارة أو صناعة ووضع فى مصارف الفرنجة الذين يعتدون على بلاد الاسلام بالسلاح ، فمن الجهل الأكبر ومن مصائب الأمم الإسلامية أن يؤخذ الربح لهم بل يجب أن يكون لفقرائنا وكان على العلماء أن يفتوا بذلك من باب الاضطرار والحكم الاضطرارى ليس أمرا دائما .

نظرة عامة فى أمم الاسلام ونظام القضاء فيها وأحكامها الشرعية

اعلم أن الأمم الاسلامية قد نامت قرونا كثيرة منذ قهرها (جنكيزخان) وخلفاؤه وتولى الحكم فيها أمم تركية وغير تركية فجمدت القرائح وعظمت الخطوب وقد كنت أيام مجاورتى بالجامع الأزهر أسمع شكوى الناس من القضاء الاسلامى ، ومن ذلك أن المرأة إذا غاب زوجها ولم يعرف خبره يقضى عليها أن تبقى بلا زواج حتى سن الستين وهذا عجب . وقد بحثت بعد ذلك فوجدت أن القضاء فى مصر لا يصح إلا إذا أقره الخلافة فى بلاد الترك من آل عثمان والحكم فى مصر على مذهب الامام أبى حنيفة النعمان الذى هو مذهب الخليفة فقابلت المرحوم الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر منذ أمد فقال لى إن مذهب المالكية سهل جدا فى هذه المسألة ولكن الحكومة الانجليزية التى احتلت البلاد لما رأت أنه لا بد من الاستئذان من الخليفة فى العمل بمذهب غير الحنفى للتسهيل أبت خيفة أن ترجع العلائق بيننا وبينهم . فقلت له إنه من المؤلم أن يكون دين الاسلام الذى هو أسهل الأديان بسببه تكون المرأة عرضة للفاحشة بل الفاحشة محققة فى كثير من هؤلاء المسكينات . فقال وما العمل . وبعد ذلك تغيرت الأحوال وانتهى ملك بنى عثمان فقام القضاة بمصر فى هذه الأيام وعلى رأسهم صديقنا الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى قاضى القضاة بمصر ورئيس المحكمة الشرعية العليا فشمر عن ساعد الجد وبحث فى المذاهب كلها واستخرج منها زبدة صالحة للعمل بقدر الإمكان وقدم للحكومة (مذكرات مشروع قانون الزواج) وسهل الأمر جدا فى أحكام النفقة والزوج الغائب بحيث انتفى الحرج ، وسأنقل منها ما يناسب موضوعنا ، إن علماء الدين الإسلامى فى القرون المتأخرة مع الملوك استبدوا بالأمة الاسلامية استبدادا أدى إلى ضعفها . ومن ذلك ما كان فى القرن التاسع عشر المسيحى أى القرن الماضى فإن أحد الباشوات بمصر قال للشيخ المهدى العباسى المصرى (وهو المفتى بمذهب أبى حنيفة مع القاضى التركى من قبل السلطان التركى) استخرجا من المذاهب الأربعة وغيرها قانونا به تحكم البلاد فإن علماء الدين يناقض بعضهم بعضا بل بعضهم يفتى تبع الدرهم قلة وكثرة ، وهذا يوجب ارتباك الأحوال فرضى قاضى الترك . أما المهدى العباسى فقد قال للقاضى أنت مولى من قبل الخليفة على مذهب أبى حنيفة فمالك وللمذاهب الأخرى!

فلما يئس حاكم مصر من علماء الدين استجلب القانون الفرنسى وحكمت به البلاد إلى الآن . وهكذا فى هذه الآونة لما قامت الحرب الكبرى وانتصر مصطفى كمال باشا على أوروبا جعل الدولة بلا دين محتجا بأن علماء الدين جعلوا الشريعة تحت أقدام الخلفاء فهم الذين أفتوا بمحاربة الجيش التركى الذى كان يقاوم أوروبا وهى زاحفة على البلاد . كل ذلك لإرضاء الخليفة لتبقى له سلطته الظاهرية وإن احتل البلاد أجنبى عنها فعلماء الدين وملوك الاسلام يرضون بأقل عيشة ومذلة تحت حكم الأجنبي ولايبالون بالأمة . هذه حال المسلمين فى وقتنا الحاضر ولكن الله يقول لنا . كلا . ثم كلا ، أنتم غافلون أيها المسلمون إذا كنتم نائمين فاستيقظوا فقد نبهتكم الحوادث . ألم تروا إلى قصة أهل الكهف ناموا ثم أيقظهم . هكذا أنتم يوقظكم (أمران) حوادث الدهر ومصائب الأيام (أولا) قصة الغلام والسفينة والجدار (ثانيا) إن حوادث الدهر قد أحاطت بالمسلمين اليوم فالعلم ينفعهم وعلى ذلك أنزلت محاورات موسى والخضر التى نحن بصدد الكلام عليها ومنها يعلم الناس كما تقدم أنه إذا ثبت لأولى الأمر فى الأمة وهم نوابها أن الأمة أصابها ضرر من أى حكم من الأحكام الشرعية فإن هذا ينافى الإسلام لأن الدين شرع لمنفعة الناس لا لمضرتهم فإذا تحقق الضرر فليزل هذا الحكم حتما لأن الحكم الشرعى مظنون والضرر محقق والمحقق مقدم على المظنون وهذا القول لا يمارى فيه اثنان فى الإسلام. إن علم الفقه هو الأحكام الشرعية الظنية فإذا تحقق الضرر فكيف نعمل بالمظنون . هذه هى القاعدة التى تؤخذ من الآيات التى نحن بصددها والتى أراد الله إظهار سرها فى العصر الحاضر بعد أن ذل كثير من المسلمين فى ديارهم . هذه هى القاعده التى ستكون نبراسا ونورا مبينا للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وسيكون هناك رجال لا تلهيهم مظاهرهم ولا حطام الدنيا عن النظرة العامة لأمم الإسلام أولئك هم المفلحون . ولعلك تقول ماذا قال علماء الإسلام فى أمثال هذا ؟ أقول : إنى سألخص لك فصلا من فصول (مذكرات مشروع قانون الزواج والطلاق) الذى أرسله إلىّ صديق الفاضل الشيخ محمد مصطفى المراغى رئيس القضاة بمصر كما وعدتك تحت عنوان :

تغير الأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة والعرف

(١) قال ابن القيم هذا فصل عظيم النفع جدا وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب الحرج والمشقة أو تكليف مالا سبيل إليه، وما يعلم أن الشريعة الباهرة لاتأتى به فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم والمصالح وهى عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، وكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل وقد ضرب لذلك أمثلة :

(٢) منها أنه شرع لهذه الأمة وجوب إنكار المنكر وتغييره ولكن إذا كان إنكار المنكر يستدعى منكرا أشد منه فإنه لايسوغ الإنكار فى هذه الحالة .

(٣) ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن تقطع الأيدى فى الغزو وهذا حدّ نهى عنه خشية أن يترتب عليه ماهو أبغض من تعطيله أو تأخيره .

(٤) ومنها أن عمر بن الخطاب أسقط الحد بالقطع عن السارق عام المجاعة . قال السعدى حدثنا هرون ابن إسماعيل الحزار حدثنا على بن المبارك حدثنا يحى بن أبى كثير عن حسان بن زاهر أن ابن حدب حدثه عن عمر قال لاتقطع اليد فى عذق ولا عام سنة قال السعدى سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال العذق النخلة وعام سنة المجاعة فقلت لأحمد تقول به قال أى لعمرى قلت إن سرق فى عام المجاعة لاتقطعه فقال لا إذا حملته الحاجة إلى ذلك والناس فى مجاعة وشدة، وهذا على نحو قضية عمر فى غلمان حاطب .

(٥) ذلك أنهم سرقوا ناقة لرجل من مزينة وأتى بهم إلى عمر فأقرّوا على أنفسهم فأمر أن تقطع أيديهم ثم ردهم، وقال لعبد الرحمن بن حاطب سيد الغلمان أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ماحرم الله عليه حلّ له لقطعت أيديهم وايم الله إذا لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك ثم قال يا مزنى بكم أريدت منك ناقتك قال بأربعمائه قال عمر اذهب فأعطه ثمانمائة .

(٦) العرف إذا خالف الدليل الشرعى فى تحريم كأن يتعارف الناس شرب الخمر وعم ذلك فلا يعتبر ذلك العرف وإن خالف العرف العام النص الشرعى من بعض الوجوه فقط فإن العرف يصير مخصصا لذلك النص .

(٧) إذا خالف العرف العام بين الناس حكما قياسيا فإن العرف يترك به القياس . إذن العرف مخصص للنص تارك للقياس .

(٨) العرف الخاص يقول بعض العلماء إنه يثبت به الحكم العام والأكثرون على خلافه ، مثال ذلك أن مشايخ (بلخ) كانوا يجيزون لأهل بلدهم أن يدفع أحدهم إلى حائك غزلا على أن ينسجه بالثلث وإنما أجازوها لتعامل أهل بلدهم به ؛ والتعامل كما تقدم حجة يترك به القياس ويخص به الأثر ، وقد ورد النص على خلاف ذلك فى قفيز الطحان . فاذن يكون الحائك مثله . فإذن هذا تخصيص للنص لا ترك له أصلا .

(٩) إن علماء الحنفية أجازوا بيع الوفاء مع أنه بيع فاسد فرارا من الربا ، قالوا وما ضاق على الناس أمر إلا اتسع حكمه فهو جائز للضرورة .

(١٠) ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن البرّ والشعير والتمر والملح مكيلة وأن الذهب والفضة موزونات . إذن إذا وزن الناس البرّ لم يجز وإذا عدّوا الدراهم عدّا ولم يراعوا وزنها لم يجز ذلك لمخالفته النص ولكن أبو يوسف اعتبر العرف فى هذه الأشياء حتى جوّز الشارى بالكيل فى الذهب وبالوزن فى الحنطة إذا تعارف الناس ذلك فهذا اتبع فيه العرف وترك النص . والحجة فى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما نص على وزن هذا ، وكيل هذا لأن العرف فى زمانه كان كذلك ولو كان العرف خلاف ذلك لنص عليه فلو تعارف الناس بيع الدراهم بالدراهم واستقراضها بالعدد كان جائزا إما بناء على العرف كما تقدم ، وإما للضرورة .

(١١) إن المتأخرين الذين خالفوا النصوص فى كتب المذهب فى بعض الأحكام لم يخالفوه إلا لتغير الزمن وعلمهم أن صاحب المذهب لو كان فى زمنهم لقال بما قالوه مما يستخرج به الحق من ظالم أو يدفع دعوى متعنت ونحوه بعدم سماع دعواه أو بحبسه أو نحو ذلك ولكن لابد لكل من الحاكم والمفتى من نظر سديد فللمفتى الآن أن يفتى على عرف أهل زمانه وإن خالف زمان المتقدمين وكذا للحاكم العمل بالقرائن فى أمثال ماذكر، قال وفى رسم المفتى والتحقيق أن المفتى لابد له من ضرب اجتهاد ومعرفة بأحوال الناس ومن جهل زمانه فهو جاهل ثم قال فهذا وأمثاله دلائل واضحة على أن المفتى ليس له الجمود على المنقول فى كتب ظاهر الرواية من غير مراعاة الزمان وأهله وإلا ضيع حقوقا كثيرة ويكون ضرره أعظم من نفعه . ثم قال بعد كلام مانصه وينبغى أن يطال النظر إلى هذه النصوص فهى تنطق بالروح العالى الذى كان يملأ صدور الفقهاء وتدل على مقدار احترامهم لعرف الناس وعاداتهم وعلى مقدار فهمهم للقواعد الفقهية وأنها ما وضعت إلا لمصلحة العباد وضبط التعامل بينهم وأنه يجب أن تخضع لعرفهم وأن تخضع للضرورات والحرج فلا يجوز أن تجمد الفقهيات الاجتهادية أمام حوادث الزمن وأمام مايجدّ فيه من عادات ومصطلحات وهى قابلة التجدد وقابلة التغير أمام العرف العام وأمام العرف الخاص .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسقط الحد عام المجاعة ولم يقطع أيدى غلمان حاطب لأن الضرورة قامت عذرا عنده درأ به الحد، وأحمد رضى الله عنه وافق عمر فى الفصلين والحنفية تركوا القياس وهو أحد الأدلة الشرعية

بالعرف العام وخصصوا النص بالعرف العام وإذا رجعت إلى قواعدهم التي توجب في المخصص أن يكون متصلا قلت إنهم نسخوا عموم النص بالعرف العام إذ العرف قد لا يطرأ إلا بعد قرون من ورود النص فيظل النص معمولا به قرونا طويلة ثم يجد العرف فينقض النص ويقتصر على ما وراء التعارف ويأخذ المتعارف حكما آخر خلاف حكم النص فيصير الشيء مباحا بالعرف بعد أن كان حراما بالنص، وقد أهدر الحنفية دلالة النص وهي إحدى الدلالات اللفظية حيث جوّزوا الإجارة على نسج الغزل بالثلث مع أن دلالة النص المستفادة من قفيز الطحان تحرم هذه الإجارة، وقد علل أبو يوسف النص في الربويات بالعرف، وبنى على هذا أنه إذا تغير الكيل في البر والشعير وتغير الوزن في الذهب والفضة اعتبر العرف الطارئ لا عرف النص غير أن الفقهاء لم يقفوا عند هذا وأجازوا التعامل في الدراهم بالعدد بدلا واستقراضا وإن تفاوت وزنها مراعاة للعرف ومراعاة الضرورة، وفي هذا خروج على النص جملة لأنه إلغاء للمعيارية بالكيل أو الوزن. وجعل الحنفية العرف الخاص قاضيا على النصوص المذهبية في مسألة ثمن البيع المتقدمة إذا كان من عادة السوق دفع شيء من الثمن كل جمعة لا دفعه جملة واحدة، والمذهب ليس كذلك، وأجازوا بيع الثمار واعتبار تركها مشروطا وقد كان بيع الثمار باطلا وكان شرط الترك فاسدا، ورأى بعضهم أن يعمل العرف الخاص ما يعمله العرف العام أي أنه يلغي قياسا ويخصص نصا ويهدر دلالة نص، وهاهم أولئك فتحوا الباب للمفتين ليفتوا تبعا لتغير العرف العام والخاص وتبعا للضرورة والحرج، وأجازوا للحاكم العمل بالقرائن. وأجازوا له النهي عن سماع دعوى التعنت وما أشبه ذلك. ولا يغيب عن الأذهان أن الأحكام المستفادة من النصوص قليلة جدًّا بالنسبة للأحكام الاجتهادية؛ فالأحكام الاجتهادية قابلة للتغير بالعرف العام والخاص والأحكام المستفادة من النصوص قابلة التخصيص بالعرف العام باتفاق وبالعرف الخاص على رأي بعض الحنفية. فهل توجد مرونة في القوانين تسع الناس أكثر مما في هذه الأحكام، وهل يصح مع هذا أن يقول أحد إن قواعد الفقه جامدة لا تسع الناس في كل عصر ومكان، والحق أن هذا ظلم لهذه القواعد ولكنه ظلم جرَّه تزمت الفقهاء، والمحدَثين الذين لم يفهموا روح الدين ولا روح الفقهاء المتقدمين. انتهى ملخصا.

هذه هي خلاصة الفصل الذي نحتاج إليه من هذه الرسالة، ومنه يتبين أن علماء الدين في مذهب واحد من المذاهب الإسلامية خطوا خطوات واسعة في الاجتهاد للأمة وبناء على هذه الخطوات سهلت الأمور في مصر في زماننا، فوازن رعاك الله بين المفتي في القرن الماضي وبين قاضي القضاة في العصر الحاضر تعرف مقدار ارتقاء عقول المسلمين إذ لا يلق للناس إلا ما استعدّوا له. ومما عرفته من نفس قاضي القضاة المذكور ما قاله لي وأنا معه بحاوان: إن هذا القانون لم نستخرجه من المذاهب الأربعة فحسب، كلا. بل نظرنا في مذاهب أخرى كالزيدية ومذهب داود الظاهري الذي له كتاب في المكتبة الخديوية اطلعت عليه وعليه ختم أحد الملوك السالفين. فلما سمعت ذلك داخلني السرور والفرح إذ رأيت هؤلاء أفضل من كثير من المتأخرين الذين يرون بأعينهم ضرر الناس ولا يفكرون في آيات القرآن.

فصل: في مناسبة ما تقدم لقصة الخضر وموسى عليهما السلام

وأنا أقول: إذا كان عقول علماء الاسلام في العصر الحاضر قد تخطت الحدود التي رسمها المتأخرون وصاروا يأخذون من المذاهب ما يوافق العصر الحاضر (١) فكيف تكون حالهم إذا علم المسلمون في أقطار الاسلام أن الأحكام الشرعية مع كثرتها وكثرة مذاهبها ليس منها بالنص إلا قليل جدا كما تقدم في رسالة الزواج وهذا لا يعرفه إلا قليل من أهل العلم. ألا ترى أن الانسان إذا اتبع مذهبا من المذاهب وقف حياته كلها عليه ورأى عشرات الكتب في فروعه ولا يرى آية ولا حديثا إلا قليلا. ومن الأحاديث ما يكون ضعيفا ولكن المقلد لا يتهم علماء مذهبه مع إجماع علماء الاسلام كما في مقدمة [فتح الباري على البخاري] أن الأحاديث الصحيحة المسلم

بها عند المسلمين وهى التى فى البخارى ومسلم وهى التى تلى القرآن فى صحة نقلها كلها ظنية إلا قليلا جدا . فاذا كانت هذه ظنية فما بالك بغيرها وما بالك بالأحكام المستنتجة منها فهى ظن مستخرج من ظنّ . ومعلوم أن علم الفقه مبناه الظن فليس قولى هذا من باب الشك بل هو من باب شرح الحال (٢) ثم كيف تكون حال المسلمين بعدنا إذا رفعوا أبصارهم قليلا إلى أمثال ماتقول وفهموا قصة الخضر وموسى كما قدمناه ونظروا بعقولهم فى الأحكام التى فى الكتب فاذا رأوا حكما قد أضر بالناس ضررا محققا فليزيلوه لا لأنه ضرورة بل لأنه يقين نسخ الظن . وإذا رأوا حكما نصت عليه آية ورأوا بعض فروعه ضارة فى حال أو زمان خصصوه كما تقدم اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى منعه قطع يد السارق فى حال خاصة كما تقدم وكما تقدم عن عمر رضى الله عنه ، وأنا أكرر القول أن علماء الاسلام لا يتسنى لهم معرفة أمثال ماتقول سواء أكان فى الأحكام الشرعية أم العلوم العقلية والشاهد الطبيعية إلا بأن يقرءوا من كل فن طرفا صالحا حتى تستنير بصائرهم ويعرفوا هذه الحقائق فى المقامين :

ولقد ذكر العلامة الشاطبى هذا المقام ووافق على مايسمى المصالح المرسلة وذكر منها ما يأتى :

(١) الضرب فى التهم .

(٢) وما ذهب إليه مالك من السجن فى التهم .

(٣) وما قرره ونقل مثله عن الغزالى وابن العربى من جواز وضع الامام العادل ضرائب للمدافعة عن البلاد وإكثار الجند عند الضرورة .

(٤) أجاز بعض العلماء فى بعض الجنايات أخذ المال .

(٥) الزيادة على سد الرمق إذا توالت ضرورة الأكل من المحرم كالميتة فى المجاعات أو عمّ الحرام بلدا فيؤخذ بالوجه الشرعى ولا ينظر لأصل المال وعزاه إلى ابن العربى والغزالى .

(٦) وقتل الجماعة بالواحد ، ومستنده المصلحة المرسلة لأنه لم يرد لها نص وقد نقل عن عمر وهو مذهب مالك والشافعى . وبالجملة إن حديث «لا ضرر ولا ضرار» إليه ترجع جميع مسائل المعاملات التى يرجع فيها إلى الحكام فى القضاء والسياسة والحرب .

﴿ تنبيه ﴾

تقدم هنا ذكر مسألة ثمن المبيع إذا كان من عادة السوق دفع شىء من الثمن كل جمعة لادفعة جملة واحدة وإيضاحها (أنه لو باع التاجر فى السوق شيئا بثمن ولم يصرح بحلول ولا تأجيل وكان المتعارف فيما بينهم أن البائع يأخذ كل جمعة قدرا معلوما انصرف إليه بلا بيان واعتبر فيه عرف ذلك السوق الخاص وإن لم يتعارف فى أكثر البلاد مع أن المنصوص عليه فى كتب المذهب حلول الثمن مالم يشترط تأجيله ، وعلى هذا فالحكم الخاص يثبت بالعرف الخاص) انتهى من الرسالة المذكورة .

﴿ فائدة ﴾

مما أجازه علماء الاسلام وعملوا به أنهم يقولون إن الامام إذا أمر بمندوب وجب وإذا رفع له قول ضعيف قواه . كل ذلك ليفتحوا للأمة باب درء المفاسد وجلب المصالح . وأنا أقول الحق والحق أحق أن يتبع قد تقدم فى سورة النساء أن أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد فى البلاد هم الذين لهم هذه المسائل ترفع إليهم وما يقررونه يكون معمولا به .

هذا هو الحق الصراح ، والمسلمون اليوم لهم مجالس عامة . أما الأمراء وغيرهم فلا ، والحمد لله رب العالمين . انتهى .

﴿ فاكهة ﴾

جاء فى محادثة الشيخ الشعرانى مع شيخه الخواص مانصه بالحرف من كلام الخواص (يمكن الانسان الإحاطة بعلم جميع ما كلفه الله به من الأحكام فى نحو شهر فان غالب اشتغال الفقهاء طول عمرهم إنما هو فى فهم كلام بعضهم بعضا وهذا لم يكلف الله أحدا بعلمه ولا العمل به لعدم عصمة قائله إلا أن أجمع عليه) انتهى المقصود منه . وأقول هذا القول لا يصح إطلاقه على علاته لأن الأمة لابد لها من قضاة وحكام وعليهم البحث والجد والاجتهاد . فهذا القول منه نظر فيه إلى حال الصوفية ولكن الدين الاسلامى وسع نظام الشخص ونظام الأمة فلابد من الاجتهاد حصل عليه إجماع أم لم يحصل. وأما قوله إنه يكفى فى معرفة الأحكام نحو شهر فهذا يقرب مما أذكره من كلام الامام الشافعى رحمه الله فى الرسالة إذ يقول (إن الواجب تعلمه وجوبا عينيا هو ماتلقاه العامة جيلا بعد جيل) انتهى بمعناه .

أما إن علم الفقه واجب وجوبا عينيا فإنما ذلك خاص بطائفة تخصصها الأمة بالقيام بنظام الدولة وحفظ أموالها وأعراضها .

إن الأمم الاسلامية اليوم مستعدة للرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة ثم الرجوع إلى العقل فيما تيقنوا ضرره كما أن الخضر لم يبال بحرمة قتل النفس ، ولا بحفظ سفينة اليتامى ، ولا بأن أهل القرية بخلاء فهو مع الحق أينما كان ، أحسن ليتامى البخلاء، وعلم علما يقينا فى مسألتين ضررا فقلب المحرم بالنص حلالا باليقين وأىّ إثم أكبر من التعدى على النفس والمال فى الغلام والسفينة .

ذكر الله هذين فى القصة ليقول للمسلمين ارفعوا عيونكم . انظروا بأبصاركم . أليس موسى نبيا فكيف حلل الحرام أمامه . وهل أنا قصصت ذلك عليكم أيها المسلمون لمحبة القصص ليفرح بسماعه العامة يوم الجمعة فى مساجدكم ؟ كلا، إنى أنزلت هذا لتنظروا فعل نبيكم صلى الله عليه وسلم فاذا نقل إليكم أنه منع قطع اليد فى حال خاصة لحكمة خاصة، وإذا فعل عمر مثله كذلك فهذا يذكركم بمعنى هذه الآية ، الآية صريحة فى القتل وهى من القرآن، والقرآن ليس ظنيا كالحديث بل هو متواتر والمتواتر يقين . فهذه الآية التى جمعت كل هذه الشروط قد خصصت كما خصص الخضر قتل النفس وإتلاف المال بحال خاصة بيقين عنده . وليس معنى قولى هذا أننا نقضى بالكشف والاطلاع على الغيب . كلا ثم كلا . وإنما هذا خاص بقليل من عباد الله وإنما المقام فى فهم اليقين والظن . ومن عجب أن يصطلح الناس فى مصر على سماع القرآن يوم الجمعة بالمسجد ولا يقرأ القارىء إلا الكهف فكأن الله يقول للمسلمين هذه السورة تقرأ فى اجتماعكم يوم الجمعة أفليس منكم رجل رشيد شجاع يفكر فى قصة الخضر وموسى ويخرج المسلمين من حصر الفكر إلى الاجتهاد المطلق المقيد بأصل الدين . هذا ما فتح الله به يوم الثلاثاء (٢٢) مايو سنة ١٩٢٨ م

قصة ذى القرنين

اعلم أن كثيرا من العلماء يقول إنه اسكندر الرومى بن فيلبش ، وقصته الآن معروفة تدرس فى مدارسنا المصرية ومدارس العالم أجمع وهو تلميذ (أورسطاطاليس) الفيلسوف ويسمى للعلم الأول وهو الذى انتشرت فلسفته فى الأمة الاسلامية ، وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة وقد تولى الملك بعد أبيه وهو من أهل (مقدونيا) وحارب الفرس وتولى على ملك (دارا) وتزوج ابنته وقتل الرجل الفارسى الذى قتل دارا وجاء ليأخذ الجائزة منه وأظهر كرما وشجاعة، والناس اليوم يدرسون رسائل بينه وبين أستاذه فى السياسة . ذلك أنه لما دخل بلاد فارس رأى هناك رجالا ذوى وجاهة وبهجة وجمال وأبهة من أبناء الملوك والأمراء فأراد قتلهم فاستشار أستاذه فأرسل إليه الأفضل فى قتلهم وأن قتل الرؤساء تتأجج ناره فى قلوب الأمة ولا

محمد وأمره أن ينعم عليهم ويعطى كلا منهم ملك أبيه ويوقد بينهم العداوة والبغضاء دائما ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوبا فمشى على تلك السياسة . ولما مات قامت بعده ملوك الطوائف التى أسسها ثم إنه سافر إلى الهند وحارب هناك فى (البنغال) وغيرها ثم إنه بنى الإسكندرية لما حكم مصر لأن مصر كانت تحت حكم الفرس فلما غلب الفرس حكم مصر وبنى الاسكندرية المسماة باسمه للآن وعاش ثلاثا وثلاثين سنة ومات عند رجوعه من الهند قبل أن يصل لبلاده . هذا رأى ، وهناك رأى آخر قاله أبو الريحان السرورى المنجم فى كتابه المسمى :[الآثار الباقية عن القرون الخالية] إنه من حمير واسمه أبو كرب بن أفريقش (وأفريقش هذا قد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض فمنها إلى تونس وغيرها فسميت القارة كلها باسمه (أفريقيا) وهو الذى افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ملكا علا فى الأرض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يبتغى أسباب ملك من كريم مرشد

فرأى مآب الشمس عند غروبها فى عين ذى خلب وثأطة حرمد

مآب الشمس ذهابها فى عين ذى خلب أى حمأة والثأطة أيضا الحمأة والحرمد الطين الأسود . هذا ملخص ما قاله العلماء مع ذكر الحقائق الأصلية فى التاريخ بلا تخليط . وإنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس ، ولعلك تقول أى القولين أصح؟ . أقول لك لايهم القرآن أيهما فليست هذه من العقائد وإنما هى نصائح تتلى للموعظة الحسنة فليكن اسكندر المقدونى أو فليكن رجلا حميريا فى أزمان مضت وكان صالحا كما قاله بعض العلماء فليس القرآن جاءنا ليعلمنا تاريخ اليونان أو تاريخ الحميريين . القرآن أكبر من التاريخ العام ومن جميع العلوم بل يكل التاريخ إلى علوم الأدب وعلم الطبيعة والفلك العقول البشرية ولكن لما سألوه صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين أجابهم بالقول الذى يجمع بين إجابة الطلب وبين الفائدة الدينية ففيه الوعظ وفيه ذكر جملة مجملة من التاريخ . فلعمرك ليس القصص من فائدة إلا للمواعظ ، وقد تقدم أن الفوائد فى عجائب هذا الملك وعجائب أصحاب الكهف وأمثالهم وكقصة الخضر مثلا أقل بما لا يتناهى من عجائب هذه الكائنات فلتتوفر الدواعى عليه وليؤخذ من هذا القصص وعظه ولا نمارى فى حقائق هذه القصة إلا مراء ظاهرا ولا نستفتى فيها أحدا من المؤرخين فالقرآن لم يكن للتاريخ بل للعظة والاعتبار .

وإذا كانت الأمم تعلم بحكايات الأشخاص خياليين كما أوجب ذلك فى كتاب [أميل القرن التاسع عشر] فكيف إذا علم القرآن بما يطابق الواقع مراعى فيه الوعظ مسندا لأشخاص حقيقيين ، ولعلك أيها الذكى تقول أنا أفضل أن يكون حميريا فى القرون الأولى لأنه من العرب ، وأنت إما عربى مسلم وإما مسلم من غير العرب فتفضل أن يكون منهم ، وأيضا سيرة اسكندر المقدونى لا تنطبق على ما قصه الله فى القرآن . أقول لك الحق فى ذلك أن كون آبائنا كانوا عظماء لا ينفعنا فهذه الأمم الأوروبية كان أجدادهم منذ ألف وأربعمائة سنة يحاربون دولة الرومان وكانوا يسمون برابرة ومع ذلك غلبونا ونحن أبناء الأكاسرة والفراعنة والأنبياء والفلاسفة وهؤلاء جهلاء مجهولون فهذا الوجه ظاهر ، وأما انطباق التاريخ بالحرف فقد قدمت أنه لايعنينا ولو أردنا أنه المقدونى لقلنا إن فحوى أعماله تقتضى ذلك من الوجهة العامة ولكن فيه تكلف عظيم فكونه اسكندر الحميرى أولى وسأجعل له مقالا خاصا قريبا مع يأجوج ومأجوج . ولنشرع فى المقصود وهو التفسير قال تعالى (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) أى من ذى القرنين خبرا (إنا مكناله فى الأرض) أى مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء (وآتيناه من كل شئ) أراده وتوجه إليه (سببا) أى بلاغا ووصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة فأراد بلوغ المغرب (فأتبع سببا) سلك طريقا يوصله إليه (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) ذات حمأة يقال حمئت البئر صارت ذات حمأة . وفى قراءة

أخرى « تغرب في عين حامية » أى حارة وذلك لأنه لما بلغ مغرب الشمس أى البلاد التي لا بلاد بعدها تغرب عليها الشمس حيث لم يكن عمران إلا ما عرفوه وذلك عند بحر الظلمات المسمى بالمحيط الأطلانطيق إذ وصل ذو القرنين الحميرى إلى بلاد تونس ثم سار حتى وصل إلى بلاد مراكش ووصل إلى ذلك البحر فوجد الشمس تغرب في البحر رأى العين ، وكل بحر فيه ماء وطين أو ماؤه جار لإلحاح الشمس عليه (ووجد عندها قوما)) أى عند تلك العين (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذّب) بالقتل والأسر (وإما أن تتخذ فيهم حسنا) بالإرشاد وتعليم الشرائع وتعفو وتصفح (قال أما من ظلم) أى كفر (فسوف نعذبه) نقتله (ثم يردّ إلى ربه) في الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) منكرا ، يعني النار فهي أنكر من القتل (وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) أى جزاء أعماله الصالحة (وسنقول له من أمرنا يسرا) أى نلين له في القول ونعامله باليسر (ثم) لما أراد بلاد المشرق (أتبع سببا) سلك طريقا يوصله إليه (حتى إذا بلغ مطلع الشمس) أى الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من المعمورة (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) فلا لباس ولا بناء فهم عراة في العراء أو في سراديب في الأرض (كذلك) أى أمر ذى القرنين كما وصفناه من رفعة الشأن وبسطة الملك (وقد أحطنا بما لديه) من الجنود وآلات الحرب (خبرا) علما تعلق بظاهره وخفياته (ثم) لما أراد أن يتوسط بين المشرق والمغرب (أتبع سببا) سلك طريقا ثالثا بينهما (حتى إذا بلغ بين السدين) الجبلين اللذين بينهما سدّ وهما جبلا (أرمينية وأذربيجان) أو جبلان آخران عاليان في آخر الشمال في منقطع أرض الترك ، وسترى تحقيق هذا المقام بأجمل تحقيق قريبا فانتظره (وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا) لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم (قالوا ياذا القرنين) أى قال مترجمهم (إن يأجوج ومأجوج) الآتى ذكرهما مع التحقيق (مفسدون في الأرض) في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع (فهل نجعل لك خرجا) جعلا نخرجه من أموالنا (على أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا) يحجز دون خروجهم علينا (قال ما مكنى فيه ربى خير) أى ما جعلنى مكينا فيه من المال والملك خير مما تبذلون لى من الخراج فإن الدول القوية يجب عليها أن تحافظ على الضعيفة ، وليس يجوز لها أن تأخذ أموالها ما دامت قادرة على إغاثتها وإذا احتاجت إلى شئ فليكن على قدر الحاجة ، بخلاف ما عليه أوروبا الآن وأمم الاسلام في القرون الأخيرة فإنهم ماحكموا الأمم إلا لأخذ أموالهم والتنعم بما جمعوا من الثروة ، وهذا هو الذى سيكون دأب الأمة الاسلامية حين تقوم قائمتها ألا يأخذوا من مال الأمم إذا حكموها شيئا ، وإذا أخذوا فليكن ذلك على قدر الحاجة ويوكل ذلك إلى رأى المجالس الشورية في الممالك الاسلامية التي ستكون أرقى ، ويعلمون أن الله لا يولى على عباده إلا أنفعهم ولا أنفع لهم من هذا (فأعينونى بقوة) أى ما أتقوى به من الآلات (أجعل بينكم وبينهم ردما) حاجزا حصينا وهو أكبر من السدّ ، يقال ثوب مردم إذا كان فيه رقاع فوق رقاع (آتونى زبر الحديد) الزبرة القطعة الكبيرة أى قطع الحديد فأتوه بها وبالحطب فجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب (حتى إذا ساوى بين الصدفين) جانبى الجبلين ، وإنما سميا صدفين لأنهما يتصادفان أى يتقابلان (قال انفخوا) أى قال للعملة انفخوا في الأكوار والحديد (حتى إذا جعله) جعل المنفوخ فيه (نارا) كالنار بالإحماء (قال آتونى أفرغ عليه قطرا) أى أصبّ عليه نحاسا مذابا فجعلت النار تأكل الحطب وجعل النحاس يسيل مكانه حتى لزم الحديد النحاس (فما اسطاعوا أن يظهروه) أى لعلوّه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) من أسفله لشدته وصلابته (قال) ذو القرنين (هذا) السد (رحمة من ربى) أى نعمة من نعمه (فإذا جاء وعد ربى) أى وقت خروجهم (جعله دكاء) أرضا ملساء (وكان وعد ربى حقا) كائنا لا محالة (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) أى وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يخرجون مما وراء السد وبعض الناس يموج في بعض ويختلط العالم كله بحيث يدخل يأجوج ومأجوج في الأمم كلها ويختلطون أجيالا وأجيالا كما ستراه . كل ذلك

قبل النفخ فى الصور بزمن مجهول لايعلم (ونفخ فى الصور) بعد ذلك لقيام الساعة (فجمعناهم جمعا) الضمير للمائجين وهم جميع الناس ومنهم يأجوج ومأجوج (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) وأبرزناها وأظهرناها ليشاهدوها عيانا (الذين كانت أعينهم فى غطاء) غشاء وستر (عن ذكرى) أى عن الإيمان والقرآن والهدى والتبصر فى الدلائل (وكانوا لا يستطيعون سمعا) أى سمع قبول للإيمان (أفحسب الذين كفروا) أفغفل الذين كفروا فحسبوا أى فظنوا والاستفهام للانكار (أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء) أربابا كعيسى والملائكة (إنا أعتدنا) أعددنا (جهنم للكافرين نزلا) مايقام للنزيل وهذا تهكم وإلا فأين الضيافة فى النار (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) منصوب على التمييز، هم (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا) كالرهبان فانهم لا ذرية خلفوا ولا دينا حفظوا لأن دينهم لم يأمرهم بذلك وإنما هم المبتدعون (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) لما عندهم من العجب واعتقادهم أنهم على الحق (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم) المنصوبة فى الآفاق وبآياته المنزلة على النبى صلى الله عليه وسلم (ولقائه) بالبعث (فحبطت أعمالهم) بكفرهم فلا يثابون عليها (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) ميزانا وكيف توزن أعمالهم وقد حبطت فلا قيمة لها، الأمر (ذلك) ثم بينه فقال (جزاؤهم جهنم) بسبب (ما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) حال كونهم (خالدين فيها) والحال هنا مقدرة (لايبغون عنها حولا) تحولا، والفردوس الجنة الملتفة بالأشجار التى تنبت ضروبا من النبات . يطلق النزل على مايهيأ للنازل: أى كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلا وأزمان الجنة مهما طالت يعقبها خلوص الأرواح العالية إلى مراتب سامية «عند مليك مقتدر» وهو الذى يسمى رضوان الله ويسمى أيضا زيادة كما فى قوله تعالى «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» كما تقدم فى هذا التفسير. ولما كانت الجنة فى الحقيقة ترجع إلى العلوم والمعارف لأنها هى السعادة القصوى فى الآخرة ومن لم يتصور ذلك ولم ير جنة إلا ماهو محسوس فانه يعلم أن العلوم تكون سببا لها أعقب ذكر الجنة بأن علم الله لا نهاية له . ولا جرم أن هذه السورة مسوقة إلى العلم وأنه لا نهاية له كما فى قصة الخضر وكما فى قصة أهل الكهف التى قيل إنها بالنسبة لعجائب الله قليلة وهذا قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا) المداد مايكتب به وهو اسم لما يمد به الشىء كالحبر للدواة (لكلمات ربى) لكلمات علمه وحكمته (لنفد البحر) جنس البحر فكل جسم فانه متناه (قبل أن تنفد كلمات ربى) فانها غير متناهية (ولو جئنا بمثله) بمثل البحر (مددا) زيادة ومعونة . روى أن اليهود قالوا يامحمد تزعم أنا قد أوتينا الحكمة وفى كتابك «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» ثم تقول «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» فنزلت هذه الآية : وقيل إنه لما نزل «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» قالت اليهود أوتينا علم التوراة وفيها علم كل شىء فأنزل الله تعالى «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى» أى مايستمده الكاتب ويكتب به . قال مجاهد «لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب والخلائق يكتبون لنفد البحر الخ» ثم قال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم) لا أدعى الإحاطة بعلم الله تعالى (يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) فهذا هو الذى ميزنى عنكم (فمن كان يرجو لقاء ربه) يأمل رؤية ربه (فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أى لا يرائى فى عمله فلابد من [أمرين : أحدهما] أن يكون لله وحده [والثانى] أن يكون مبرأ من الشرك . روى البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : «من سمع سمع الله به ومن يرائى يرائى الله به» أى من عمل عملا مراءاة للناس يشتهر بذلك شهره الله يوم القيامة . وروى مسلم عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله تبارك وتعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشركه» .

لطيفتان فى ذى القرنين والسد وفى الكلام على يأجوج ومأجوج

(اللطيفة الأولى: فى سد ذى القرنين)

اعلم أنه قد ورد فى بعض الكتب التى تنشر حديثا فى مصر وبلاد الإسلام مايأتى ملخصا

إن كتابة علماء العرب المسلمين عن شرقى البحر الأسود دقيقة التحرى وقالوا إن سكانها من الصقالبة (السلاف) وأن هناك مدينة باب الأبواب وسدا منيعا وقد علم الروس أن مدينة (دربت) بجبل قوقاف هى نفسها مدينة (باب الأبواب) وكشفوا فى القرن الماضى سورا منيعا ممتدا على مقربة منها كأنه خط انفصال، قال وقد خلط كثير من الكتبة سد مدينة (باب الأبواب) بالسد الشهير حتى إن أبا الفداء نفسه لم ينج من هذه الغلطة لكن الإدريسى أبان موقع كل منهما بجلاء، واتضح من مقابلة المصنفات العربية وجوب وجود السد الشهير وراء (جيجون) فى عمالة (بلخ) واسمه (سد باب الحديد) بمقربة من مدينة (ترمذ) وقد اجتازه (تيمورلنك) بجيشه ودعا مؤرخه شرف الدين اسم المحل (خلوجة) ومر به أيضا (شاه روخ) وكان فى خدمته ومن بطانته الألمانى (سيلدبرجر) وذكر السد فى كتابه وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر وكذلك ذكره الاسبانى (كلافيجو) فى رحلته سنة ١٤٠٣م وكان رسولا من ملك كستيل(قشتالة) بالأندلس إلى (تيمورلنك) قال إن سد مدينة (باب الحديد) على الطريق الموصل بين سمرقند والهند . هذا ملخص من (المقتطف) سنة ١٨٨٨ م وبه تعلم أن السد موجود فعلا وأن هذا معجزة للقرآن حقا وهذا أمر عجيب . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية فى الكلام على يأجوج ومأجوج وذى القرنين

لقد كتب كاتب هندى حوالى سنة ١٨٩٩ فى مجلة (الهلال) يسأل علماء مصر والشام . أين يأجوج ومأجوج وهل هم موجودون وإذا كانوا موجودين فأين هم؟ والناس قد اطلعوا على أحوال أكثر الشعوب فى الأرض وهل قول الله تعالى يتغير وإذا كان قول الله حقا وصدقا فأين هؤلاء، وقد كرر هذا الموضوع مجلة (الهلال) ثلاث مرات فلم يجب أحد . وقد كنت إذ ذاك فى أول خدمتى فى المدارس المصرية بصفة مدرس وكان لى إلمام بهذا الموضوع ولم أكن اطلعت على ما كتبته فى اللطيفة الأولى كما ذكرته لك فكتبت مايأتى وأرسلته إلى (مجلة الهلال) وهذا أول موضوع كتبته ونشر فى الجرائد فأحمد الله أنى وفقت أن أسير فى تفسير القرآن اليوم سنة ١٩٢٤ وإنى أضم هذا الموضوع إليه بعد نشره فى الجرائد بأمد طويل فها كه .

المقالة الثامنة التى كتبتها فى كتابى نظام العالم والأمم

(يأجوج ومأجوج)

يأجوج ومأجوج أمتان ذكرتا فى القرآن الشريف فى سورة (الكهف) وسورة (الأنبياء) قال تعالى « قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض» وقال فى سورة الأنبياء « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق» الآية . فلنجعل هاتين الآيتين موضوع بحثنا ضاربين صفحا عن وجوه التفسير التى ليس لها مساس به ولنحصره فى خمسة مباحث :

[المبحث الأول] فى معنى لفظ يأجوج ومأجوج وأصلهم وجغرافية بلادهم .

[المبحث الثانى] فى إفسادهم فى الأرض ويستلزم ذكر تاريخهم .

[المبحث الثالث] فى معنى « فتحت يأجوج ومأجوج » وذكر خروجهم وتعيين زمنه وما يشهد له من الأحاديث وأقوال العلماء ومكاتبات الملوك .

[المبحث الرابع] فى ذكر معنى الحدب لغة ومقارنته بكلام المؤرخين .

[المبحث الخامس] اقتراب الوعد الحق .

المبحث الأول

أصل يأجوج ومأجوج من أولاد يافث بن نوح مأخوذان من أجيج النار وهوضوؤها وشررها تشبيهاً لكثرتهم وشدتهم . وذكر بعض المدققين فى البحث عن تأصيلهم أن أصل المغول والتتر من رجل واحد يقال له (ترك) وهو نفس الذى سماه أبو الفداء باسم مأجوج فيظهر من هذا أن المغول والتتر هم المقصودون بيأجوج ومأجوج وهم كانوا يشغلون الجزء الشمالى من آسيا تمتد بلادهم من (التبت والصين) إلى المحيط المتجمد الشمالى وتنتهى غربا بما يلى بلاد (التركستان) كما فى (فاكهة الخلفاء) وابن مسكويه فى [تهذيب الأخلاق] وفى [رسائل إخوان الصفا] فقد ذكروا أن هؤلاء هم يأجوج ومأجوج .

المبحث الثانى الكلام على إفسادهم فى الأرض

وقد ذكر المؤرخون ومنهم الإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير قديما فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها فكم أفسدا وقلبوا الأمم قلبا قبل زمن النبوة ودمروا العالم تدميرا وجعلوا عاليه أسفله فهم مفسدون فى الأرض بنص القرآن وشهادة التاريخ فقد ذكروا أن منهم الأمم المتوحشة والسيول الجارفة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت إلى أوروبا فى قديم العهد فمنهم أمة السيت والسرياق والمسجيت والهون وكم أغاروا على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التى كانت مقرّ الأنبياء وكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء الأمم قديما قبل نزول القرآن وكذلك ورد ذكرهم فى القرآن كما تقدم وفى بعض الأحاديث أيضاً ثم إنهم لم يزالوا فى حدود بلادهم لايتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهرت الداهية الدهياء والغارة الشعواء من تلك الأمم المتوحشة الرحالة إذ ظهر منهم رجل يسمى (تموجين) لقب نفسه (جنكيزخان) وقال مؤرخو الإفرنج إن معناه بلغة المغول (ملك العالم) ولقد ملك من بعده مشارق الأرض ومغاربها إذ أعد نفسه فاتحا لكل العالم وكان خروجه هو وقومه من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التى فى (آسيا الوسطى) فى أوائل القرن السابع من الهجرة فانه بعد أن جمع أمة التتار تحت حكمه أخضع الصين الشمالية أولا ثم ذهب إلى بلاد الاسلام فأخضع السلطان قطب الدين محمد بن تكش علاء الدين بن أرسلان بن محمد من الملوك السلجوقية ملك خوارزم لأسباب سنذكرها . وكان يمتد ملكه على بلاد التركستان والفرس وقد دافع ابنه جلال الدين مدافعة الأبطال لرد هجماتهم فلم يرد شيئا وسقطت الدولة بعد حرب مكثت عشرسنين . ولقد فعلوا بهذه الدولة من المنكرات والفظائع مالم يسمع مثله فى تاريخ فلم يبقوا على رجل ولا امرأة ولا صبى ولا صبية فقتلوا الرجال وسبوا النساء وارتكبوا الفواحش أنواعا . ولقد حسبوا القتلى فى مدينة خوارزم وحدها فلحق كل واحد من جموع (جنكيزخان) التى لاتحصى عدا أربعة وعشرون قتيلا وأحرقوا المدينة وهدموا أسوارها وأجروا بها الدماء أنهارا فضلا عما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما وفتكوا بأهل نيسابور وأفنوهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوانات والقطط والكلاب وأحرقوا البلد وقد عدت القتلى فى واقعة (مرو) فكانوا مليونا وثلاثمائة وثلاثين ألفا . هذا ما أمكن ضبطه وهذه نبذة يسيرة بل قطرة من بحر فظائعهم (راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء) وقس على ماذكرناه جميع البلاد التى سنذكرها فلقد أخضعوا بلاد الهند ومات (جنكيزخان) بعد قفوله من غزوها . ولما ملك بعده ابنا (اقطاى) أغار ابن أخيه المدعو (باتو) على الروس سنة ٧٢٢ ودمروا (بولونيا) و (بلاد المجر) وأحرقوا وخربوا ومات (اقطاى) فقام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية ثم مات (جالوك) وقام مقامه ابن أخيه منجوا فكلف أخويه (كيلاى) و (هولاكو) أن يستمرا فى طريق الفتح فيتجه الأول إلى بلاد الصين والثانى إلى الممالك الإسلامية وقد فعل كل منهما ماأمر به فأخضع (كيلاى) بلاد الصين وزحف (هولاكو) على الممالك الاسلامية ومقر الخلافة العباسية وكان الخليفة إذ ذاك (المستعصم بالله) فأراد أن يدخل إلى هؤلاء الباغين من طريق المداولات فلم يفلح وأخذت بغداد عنوة فى أواسط القرن السابع من الهجرة وأسلمت للسلب والنهب

سبعة أيام سالت فيها الدماء أنهرا وهو أمر معلوم مشهور وطرحوا كتب العلم فى دجلة وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم وهذا الخليفة بعدما أحضر لتسليم مالديه من الكنوز التى لاتحصى وقد ورثها عن أجداده ذبح وعلقت جثته فى ذنب حصان وساروا بها بين أسوار مدينة بغداد وبه انتهت الخلافة العباسية ببغداد ولما استولت ذرية (جنكيزخان) على آسيا كلها وأوروبا الشرقية اقتسموا بينهم الفتوحات وأنشئوا منها أربع ممالك منفصلة فاختصت أسرة (كيلاى) بالصين والمغول وملك جاقاتاى أخواقطاى تركستان وملكت ذرية باطرخان البلاد التى على شواطىء نهر (فلجا) وصارت الروسيا تدفع الجزية إليها زمنا طويلا وانضمت بلاد الفرس إلى (هولاكو) الذى دمر بغداد وقد استمرت فتوحات المغول إلى بلاد الشام .

المبحث الثالث

قال تعالى « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج » أى فتحت جهتهم على أحد تفسيرين ولقد فتحت تلك الجهة فى أوائل القرن السابع من الهجرة كما ذكرنا فى التاريخ وخرج (جنكيزخان) وجنوده وملكوا مشارق الأرض ومغاربها كما أوضحنا . وقد ورد فى بعض الأحاديث مايشير إلى ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم « اتركوا الترك ماتركوكم فإن أول من يسلب أمتى ملكهم بنو قنطورا » أى الترك مع ملاحظة ماذكرناه فى التاريخ أنه لم يسلب الأمة الإسلامية ملكها إلا هؤلاء . وقد ورد أيضا فى حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم تكون فى الشام وساقتهم بخراسان ، فهذه إشارة إلى سيرهم واتجاههم وطريق منتهى ملكهم إذ لم يتجاوز الشام إلى مصر ولا أفريقيا . وقد ورد أيضا أن يأجوج ومأجوج لايدخلون مكة ولا المدينة ولا بيت المقدس . ومن العجيب أن (جنكيزخان) وقومه وذريته طافوا الأرض شرقا وغربا ولم نعثر فيما اطلعنا عليه أنهم دخلوا أحد الأماكن الثلاثة لما أجلها من معجزة ظاهرة . ثم إن (جنكيزخان) هو المراد بحديث « يخرج فى آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب أصحابه محسورون محقرون مقصون عن أبواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها » وقد حمله بعض العلماء قديما على (جنكيزخان) المذكور . وسبب خروجه وحصده الأرواح أن سلطان خوارزم المتقدم ذكره فى التاريخ قتل رسل (جنكيزخان) والتجار المرسلين من بلاده وسلب أموالهم وأغار على أطراف بلاده فاغتاظ (جنكيزخان) وكتب إليه كتابا يهول فيه ويشنع على السلطان قال فيه ما نصه [كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى وأخذتم تجارتى ومالى وهل ورد فى دينكم أو جاز فى اعتقادكم ويقينكم أن تريقوا دم الأبرياء أو تستحلوا أموال الأتقياء أو تعادوا من لا عاداكم وتكدروا صفوا عيش من صادقكم وصافاكم . أتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة أو ماجاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم أن تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن الظلم الضعيف قويكم أو ماخبركم مخبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبأكم محدثوكم « اتركوا الترك ماتركوكم » وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيكم قد أوصى به مع أنكم ماذقتم طعم شهده أو صابه ولا بلوتم شدائد أوصافه وأوصابه ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا إليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التالف قبل أن ينهض داعى الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر مابطن ويروج بحر البلاء ويموج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج وسينصر الله للمظلوم والانتقام من الظالم أمر معلوم ولا بد أن الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآثار عدله فى بريته فإن به الحول والقوة ومنه النصرة مرجوة فلترون من جزاء أفعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب] انتهى المقصود من عبارات كتاب (جنكيزخان)

وانظر كيف كان صريحا بجميع مايراد من هذه المقالة بأوفى بيان وهذا مصداق مارواه البخارى بسنده عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب ابنة جحش « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق بأصبعه الإبهام والتى تليها قالت زينب ابنة جحش فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون فقال نعم إذا كثر الخبث » ولقد

اتسع ذلك الفتح من ذلك التاريخ إلى القرن السابع من الهجرة حتى فتح عن آخره وخرج هؤلاء القوم كما أوضحنا ولقد عثر على آثاره كما قدمنا . ولا ريب أن هؤلاء الأقوام كانوا غوغاء ولا رؤساء لهم ولما صار لهم زعيم خرجوا بعد فتح السد فى المدة المذكورة المجهولة فيها البلاد التى لم تعلم إلا بافتتاح المسلمين ماجاورها من بلاد خوارزم وهذه من أجلّ المعجزات ثم إنه كان بين بلاد (جنكيزخان) ومملكة خوارزم مملكة تسمى (اتدار) كأنها حدّ فاصل بين الدولتين أو سد بين الأمتين فزاحم الملك السلجوقى واستعبد أجنادهم فارتفع الحاجز بين الأمتين فسرت السرائر وابتهجت القلوب بهذا الفتح وكان إذ ذاك فى (نيسابور) عالمان فاضلان فأقاما العزاء على الإسلام وبكيا حتى أرويا الأرض بدموعهما فسئلا عن موجب هذا البكاء والناس فرحون بنصر الله فقالا وأنتم تعدون هذا الثلم فتحا وتتصورون هذا الفساد صلحا وإنما هو مبدأ الخروج وتسليط العلوج وفتح سد يأجوج ومأجوج ونحن نقيم العزاء على الإسلام والمسلمين وما يحدث من هذا الفتح من الحيف على قواعد الدين « ولتعلمن نبأه بعد حين » فهذا تصريح من هذين العالمين بما أردناه ونص فى فحواه ولا ضرورة لخروج كلامهما عن ظاهره وانظر كيف ظهر صدق كلامهما فى حينه كما قدمناه وظهر التتر وأفنوا المسلمين وماج الناس بعضهم فى بعض ، فلقد اضطرب أهل آسيا وأخذوا يرتحلون من منازلهم فرارا وكذلك أهل أوربا .

المبحث الرابع

قال تعالى « من كل حدب ينسلون » الحدب ما ارتفع من الأرض وينسلون أى يسرعون فى النزول من الآكام والتلال المرتفعة وهذه الحالة منطبقة تماما على قوم (جنكيزخان) المتقدمين فانهم باجماع مؤرخى العرب والإفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدبها كما ذكرنا .

المبحث الخامس

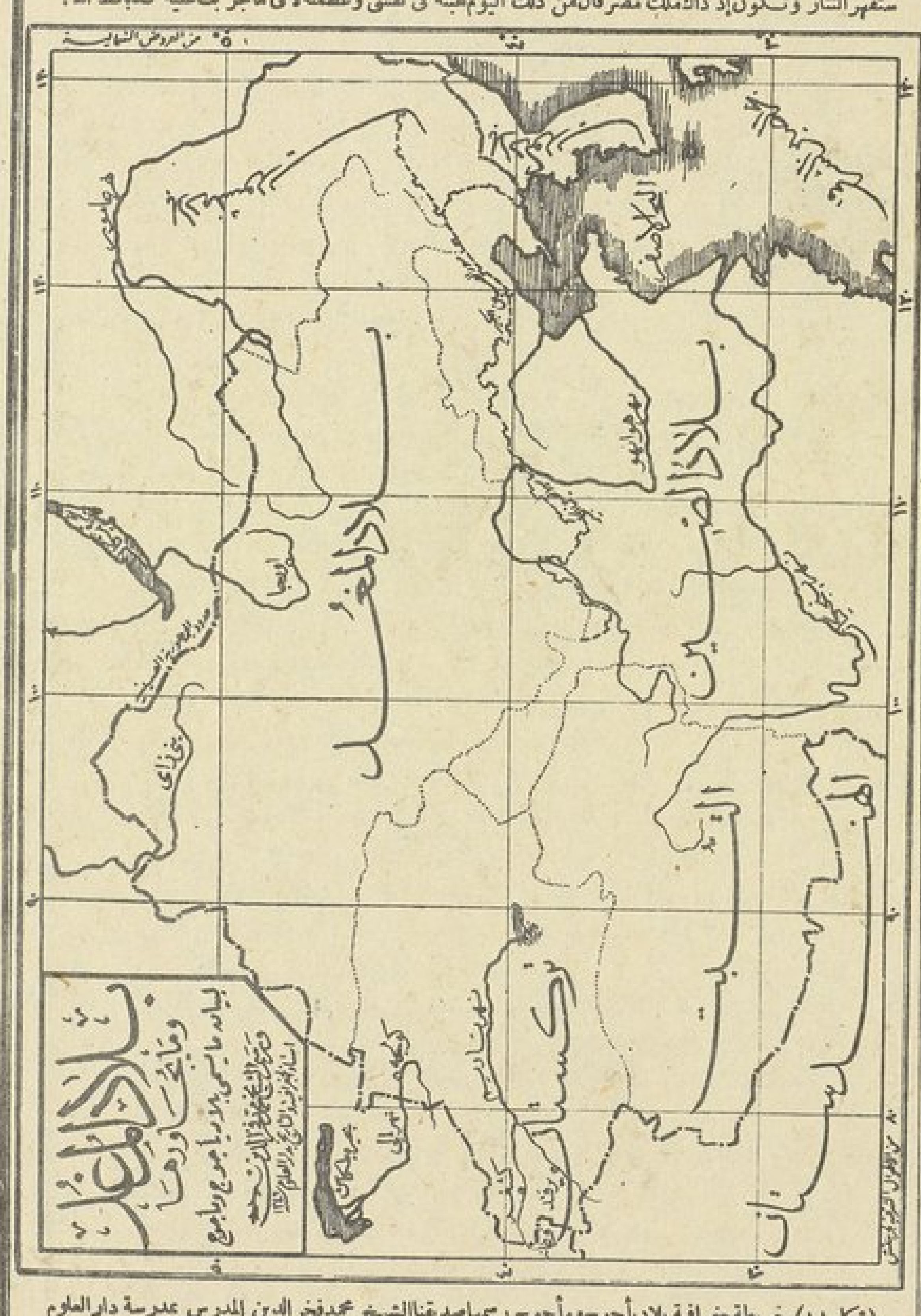
قال تعالى « واقترب الوعد الحق » أى القيامة ويؤخذ منه ومن سورة الكهف قوله تعالى « ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا » فى مساق قصة يأجوج ومأجوج أن خروجهم قرب الساعة ولكن هذا لايدلنا على أنه لا فاصل بينه وبين الساعة . ألا ترى إلى قوله تعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر » وقوله صلى الله عليه وسلم « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى ومع ذلك فقد مضى نيف وثلثمائة وألف سنة فهكذا قال فى آية يأجوج ومأجوج « واقترب الوعد الحق » فكلاهما اقتراب . ورب قائل يقول أن الاقتراب فى الوضعين قلنا معلوم أن مامضى من الزمان لايتناوله الإحصاء وما بقى من عمر الأرض الطبيعى قدره يسير جدا بالنسبة لذلك ونحن لقصر حياتنا نعد ذلك بعدا وعند الله الباقى الدائم قربا قال تعالى « إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » فالآف السنين لاتنافى القرب مهما امتدت وطالت بنسبتها الى الزمن كله ، إذ من البديهى أن الآلاف لا تذكر فى جانب الملايين ولذلك ورد فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ليحجنّ البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج » وهذا دليل على أن الناس يستبدلون من بعد خوفهم أمنا ويعبدون الله عزوجل . وأما صفاتهم المشهورة فى القصص وبعض الآثار فجميعها لا أصل لها.

هذا ماعنّ لى وهذا ما كنت أجبت به عن سؤال الأديب الهندى فى حينه من أمد غير بعيد فى (مجلة الهلال) فى آخر القرن التاسع عشر . ثم وازنت بين حديث البخارى المار وهو قوله عليه الصلاة والسلام «ويل للعرب من شر قداقترب قدفتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج الخ » فيما ذكرناه مع اضطرابه وخوفه الشديد وبين كلام علماء الجغرافيا فى نحو القرن الثالث والرابع فزاد يقينى بما كتبت ورأيت هذه البلاد كانت معروفة عندهم باسم يأجوج ومأجوج وزاد استغرابى جدّا لمعجزة ظاهرة واضحة قد خفى رسمها عنا وكيف تحقق هذا القول فى الخارج وجاء مصداقا للقرآن والحديث . فالحقّ والحق أقول إن هذا النبى والكتاب المنزّل عليه لمما يدهش العقول ، وكيف رأينا تلك الجهة تسمى باسم يأجوج ومأجوج فى كتاب

[تهذيب الأخلاق] لابن مسكويه ولكنه إجمال لايشفى غليلا ولا يؤخذ حجة لاجماله ، ولقد فصل فى رسائل قديمة ألفت فى نحو القرن الثالث والرابع وذكر فيها أن أمة يأجوج ومأجوج هم سكان تلك الجهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بأنها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالى إلى نحو خمسين درجة منه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها (بكين) عاصمتها الآن ، ولقد كانوا أغاروا على الأمم جميعا وكانوا كفاتحين للعالم كله فكانوا أشبه بأهل أوروبا الآن فكأنهم أخلفوهم فى عملهم وفتوحاتهم وسيطرتهم على العالم ومن المقرر أن بينهم نسبا ورحما . فانظر كيف أصبحت دولتهم الآن فى قبضة الصين بل هم الجزء العظيم وها هى (منشوريا) تتجاذبها الروسيا والصين وبلادهم تبلغ فى العرض نحو ثلاث وعشرين درجة كما رأيت وتلك البلاد فى الإقليم الرابع والخامس والسادس والسابع من الأقاليم التى اعتبرها الأقدمون هى الحدود المعروفة لأقسام الأرض وهى مبنية على مقادير العرض الذى لا يتغير بتغير الأيام والأمم وتداول السنين مما اختطه الملوك الأقدمون والحكماء الغابرون والأنبياء السابقون الذين طافوا الربع المسكون من الأرض وغابت عنهم أمريكا والأوقيانوسية لبعد المواصلة وشقة السفر وحيلولة الجبال والبحار وذلك مثل الاسكندر الرومى اليونانى وتبع الحميرى وأفريدون النبطى وأزدشير بن بابكان الفارسى وسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام الإسرائيلى وغيرهم ، ولما عثرت على هذا علمت علما يقينا أننا معاشر المسلمين الآن والدولة الإسلامية إما فى حال الهرم وهى وقت نسيان كل معقول ومنقول وأما أطفال والدهم شيخ كبير فهم يبحثون على آثاره . فيا عجبا كيف كانت هذه البلاد معروفة باسمها وصفتها ودرجاتها عرضا وطولا ونحن لانعلم منها شيئا وكيف يخبر نبينا الصادق بهذا الأمر ويحصل فى الوجود ونجهله نحن . ولعمرى إنها لمعجزة ظاهرة واضحة ، ولقد كان الأقدمون يجعلون علم الجغرافيا مما يجب النظر إليه فى الكون مثل قوله تعالى « وفى الأرض آيات للموقنين ـ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ـ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء » بل لو لم يكن للنبى معجزة سوى هذه التى ظهرت بالتاريخ والجغرافيا لوفت بالمراد ، وإنى لأعجب من أن النبى صلى الله عليه وسلم يقول « ويل للعرب من شر قد اقترب الخ » ثم إن هؤلاء أزالوا دولة العرب وانتهت الدولة العباسية بقتل (المستعصم) آخر ملوكها وبقى خليفة رسمى فى مصر وعند قرب الألف من السنين زال حكمهم مرة واحدة وتفرق الاسلام شذر مذر وما حفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب . وأما أولئك التتار فهم كونوا أغلب المسلمين فى الهند والصين وأغلب آسيا فكانوا ورثوا أرضهم ورثوا دينهم ، وهذه المسألة وإن كانت بسيطة فعلاقتها بعلم العمران أمر عظيم جدا ، والحق أن علم الحديث أوضح كيف تخرب الدول وعبر عنها بأشراط الساعة وسماها العلماء الأشراط الصغرى إذ الكبرى بخراب الأرض كلها والصغرى بإبادة أمة أو أمم فاذا جاءت الطامة الكبرى زالت الأمم من الوجود ، ولقد أوضح الرسول الصادق أمورا كثيرة لا يسع المقام ذكرها الآن ، ولنقصر عنان القلم فنى ما ذكرناه عبرة وتذكرة .

وجاء فى كتاب (فاكهة الخلفاء) المتقدم أن المصريين هم الذين صدوا إغارة هؤلاء التتار عن بيت المقدس وفلسطين ومصر . ذلك أن الملك المظفر المسمى (قطز) من دولة المماليك بمصر صدهم بمائتى ألف من المصريين عند حلب ، وكان من ضباط الجيش (الأمير بيبرس) المشهور ولما شتتوا شمل التتار قتل (بيبرس) الملك (المظفر) غيلة ، وذلك أن الملك أنعم عليه بجارية تتارية من السبى فتقدم ليقبل يده شكرا له فقتله وتولى الملك بدله وقد حزن المصريون حزنا شديدا على الملك (المظفر) لأنه هزم التتار . ولكن (بيبرس) أكثر الاحسان وقرب العلماء إليه ليزيل ذلك الأثر السيء . ومن لطائف التاريخ أن الملك (المظفر) المذكور كان له صديق من المماليك فى صغره وهما يتعلمان مع الأطفال فى كتاتيب مصر وقد تعاهد أن كل من وجد فى ثوب أخيه ما يستقذر فليضربه بيده فاتفق أن صاحب الملك (المظهر) يوما ضربه مرارا فقال له لماذا أكثرت الضرب اليوم فقال لكثرة القذر فى ثوبك ولأنى أحب الإمارة فضحك وقال له أتحب أن تتولى على

مائة فقال نعم فقال أنا أولئك ذلك فقال له وكيف ذلك؟ فقال رأيت فى المنام النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى إنك ستقهر التتار وتكون إذ ذاك ملك مصر قال فمن ذلك اليوم هبته فى نفسى وعظمته لأنى ما جربت عليه كذبا قط اه .



(شكل ١١) خريطة جغرافية بلاد يأجوج ومأجوج رسمها صديقنا الشيخ محمد فخر الدين المدرس بمدرسة دار العلوم

إيضاح الخريطة

اعلم أن السد المرسوم هنا الفاصل بين بلاد الصين قديما وبين بلاد يأجوج ومأجوج ذكر صاحب إخوان الصفاء أنه عند ٢٧ درجة شمالا والمرسوم فى الخريطة أبعد منه بنحو ١٠ درجات وهذا السد الجنوبى غير السد الآخر المذكور فى القرآن المتقدم فى هذا المقام . فاذن يأجوج ومأجوج كانوا محصورين بين سدين خيفة بطشهم بجيرانهم والآن أصبح هم وأهل الصين أمة واحدة فافهم .

واعلم أن بلاد (التركستان) أو (بلاد الترك) تنقسم الآن إلى (قسمين) قسم تابع للروسيا وقسم تابع للصين فالمرسومة هنا هى التابعة للصين . وأما الروسية فهى إلى الغرب من هذه وفيها بلاد فرغانة وجنوة وبخارى وطاشقند ونهرا سيحون وجيحون اللذان يصبان فى بحيرة خوارزم . ففرغانة التى فى الخريطة هنا اكتفى بها عن رسم بقية تركستان الروسية التى هذه منها وتنتهى غربا إلى بحر (الخزر) أو بحر (قزوين) الذى هو غربى بحيرة (خوارزم) المتقدمة .

﴿ فائدة ﴾

ومن العجيب أن الأخبار التى ترد الآن من الشرق الأقصى تبين أن بلاد الصين منقسمة (قسمين) قسم الجنوب وقسم الشمال . فقسم الجنوب اشتهروا بأنهم يحافظون على البلاد وقسم الشمال متهمون فى وطنيتهم وصدقها . وجاء فى الأخبار الآن أن عسكر التتار يحاربون مع أحد الفريقين المتحاربين وأن فرقة من فرق جيوشهم تسمى (الجنكيزخانية) فلما قرأت هذا الاسم فى أخبار البرق العامة عجبت كل العجب وأيقنت أن التتار الذين مزقوا العالم تمزيقا لا يزالون يحافظون على تاريخهم ومجدهم وذكر أسلافهم وعظمائهم بدليل أنهم سموا فرقة باسم (جنكيزخان) الذى شتت شمل المسلمين قديما وشمل أكثر الأمم هو وذريته . وقد جاء فى الأخبار اليوم أى ٧ يونيه سنة ١٩٢٨ أن الوطنيين فى الصين دخلوا (بكين) العاصمة . أفلا ترى أن العالم الذى نعيش فيه سينقلب انقلابا تاما . الصين ثلث العالم وهى أمة واحدة وقد ارتقت أفلا يقال إنهم يعيدون الكرة مرة أخرى ويقلبون وجه الأرض . أفلا يكون هناك خروج لهم مرة أخرى ويحصل فى الأرض اضطراب آخر وهلاك لاندريه مصداقا للآية . أليس ذلك هو الذى أخبر به (غليوم) ملك الألمان سابقا إذ قال [ويل لأوروبا من الصين وسماه الخطر الأصفر] . أفلا يكون مبدأ الخطر قد ابتدأ هذا اليوم إذ أصبحت الصين مملكة واحدة راقية . الله أعلم بالمستقبل . فاذا صح هذا كان هناك خروج آخر من موضع السد المتقدم ذكره . إذا صح هذا كان الخروج الأول خروجا جزئيا لتأديب المسلمين على كسلهم ونومهم العميق وجهلهم لأن قطب أرسلان كان يجهل هو والعلماء قوة القوم وعظمتهم ولذلك قتل رسلهم التى أرسلوها فلو كان يعلم قوتهم لأكرم رسلهم ويكون قوله صلى الله عليه وسلم « ويل للعرب من شر قد اقترب الخ » راجعا للخروج الأول . أما خروجهم الثانى فهو الذى يقلب الأرض قلبا ، كيف لا والحرب اليوم بالغازات الخانقة والمعمية والمهلكة فإذا خرجوا هلكوا الحرث والنسل كما خرجوا قديما قبل التاريخ وكونوا أمما فى أوروبا ثم خرجوا ثانيا لإبادة ملك العرب والآن يخرجون لقلب وجه الأرض ويكون قوله صلى الله عليه وسلم « إن الناس يحجون ويعتمرون بعد خروجهم » راجع للخروج السابق . أما الثالث فلا ندرى ما الله فاعل بالناس « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

جدير بالأمم الاسلامية اليوم أن يفكروا فى مستقبلهم فانهم اليوم بين أوروبا الظالمة والشرق الأقصى وقد بينت هذا المقام فى كتاب (نهضة الأمم وحياتها) .

﴿ قدوم عالم من علماء أمة يأجوج ومأجوج إلى مصر وزيارته لمنزلى
بشارع طولون منذ نحو عشرين سنة ﴾

اعلم أيها الذكى أنى أول ما ألفت كتابا من كتبى كان انتشاره وترجمته أسرع فى بلاد (الروسيا) بناحية

(قازان) وما والاها من غيرها، فقد نشرت تلك الكتب هناك وترجم بعضها ووصلت إلى الترجمة باللغة القازانية أما مقالة يأجوج ومأجوج فانى بعد أن نشرتها فى أواخر القرن التاسع عشر بمجلة الهلال تحقق لى صدقها بالاطلاع على كتب القدماء، فكتبتها فى (جريدة المؤيد) المنتشرة إذ ذاك فى أقطار الاسلام وذلك فى نحو العشر سنين الأولى من القرن العشرين وهذا مقدمة لما نستمعه .

بينما أنا بالمدرسة الخديوية أدرس للتلاميذ اللغة العربية إذ قابلنى تلميذ فقال قد قابلنى الأستاذ عبد الله بوبى من مدينة (أوفا) ببلاد الروسيا ويريد موعدا للمقابلة بالمنزل فعينت له موعدا ليلا ، فلما حضر خاطبنى باللغة العربية الفصحى وأول مابادرنى به أن قال عرفتك من مؤلفاتك وقرأت فى (المؤيد) أنك تقول إننا من يأجوج ومأجوج وهذه المقالة ترجمناها بلغتنا ولم أطلع عليه الشيوخ الكبار لظنهم أن هذا كفر وقد جهلوا أصلنا وأننا نحن المقول (يأجوج ومأجوج) والتتر فريق من تلك الأمم . فأنا والشبان جميعا فهمنا ،فقالك والمسلمون لاسعادة لهم إلا بقراءة التاريخ والجغرافيا وجميع العلوم وأخذ يتكلم فى السياسة العامة وفى قيصر الروس . ومعلوم أن ذلك قبل ذبح البلشفية لذلك القيصر فوصفه بأنه جاهل واستدل على ذلك بأنه لم يستعمل تخدير أعصاب الشبان المسلمين كما خدرت الانجليز أعصاب الشبان بمصر واستدل على ذلك بحوادث جرت فى مصر وأنه رأى المتعلمين فى المدارس يحبون الانجليز ولغتهم ويكرهون اللغة العربية وماشا كلها . ومعلوم أن ذلك كان قبل النهضة الحالية التى غيرت أفكار المصريين جميعا . ثم قال إنى لم أجد فتى متحمسا عندكم مثل (مصطفى كامل) وكل الشبان عندنا مثل مصطفى كامل عندكم فنحن نريد أن نأخذ بلاد (الروسيا) كلها ونحكمها كما كنا حكامها قديما كما تشير إليه مقالتكم فى يأجوج ومأجوج . أقول وشبان مصر عند كتابة هذا الموضوع متحمسون كمصطفى كامل ونحوه فان الحال تغيرت كما قدمت ذلك قريبا . ثم أخذ يحدثنى عن أخلاقهم فقال إن أمى وزوجتى تخرجان من منزلنا كل صباح لتعليم بنات الفقراء والأغنياء الكتابة والقراءة والأعمال المنزلية فهل عندكم مثل هذا ؟ فقلت كلا ، فقال حركة العلم عندنا عظيمة وقوية ووطنية وعرفت من قوله أن عنده ثروة عظيمة وهو يستخدمها فى الكيد واستعمال الحيل فى إحراج مركز ذلك القيصر .

حادثتان : الأولى

إنه كان لايترك مجتمعا إلا جلس فيه فجاءنى يوما وقال فى هذه الليلة رأيت عالما مغربيا مع العلماء وهو يعلمهم حديث المصافحة وبقى يذكر أسماء الرواة من عصر النبوة إلى الآن . قال وعجبت أن يضيع المسلمون حياتهم فى المصافحة المذكورة . ورأى أن يغير التعليم فى الأزهر وأن يدخل فيه الاصلاح .

الحادثة الثانية

جلست معه فى المقعد الذى أمام (دار التمثيل) فى مشرب القهوة الافرنجية فجاء لنا صاحب القهوة بالشاى فلما رآه قال هذا فيه مكسب للفرنجة عظيم وأنتم فى مصر تغرمون وهم يكسبون وهذا باب الاستعباد أما نحن فان الشبان المسلمين هم الذين يتولون أمثال هذه الأعمال وهم الذين يقومون بأمر الطعام والشراب فى كل مكان وفى القطرات بالطرق الحديدية وهم يأخذون أموال الروس بطريق التجارة فقلت له إذن أنتم نصاراهم وهم نصارانا فضحك أى أن النصارى فى بلادنا لهم الفوز فى التجارة فهم فى بلادهم أخذوا هذه الوظيفة منهم وحدثنى مرة يقول إنه ألف كتابا يحث فيه المسلمين على الجد والعمل وأن هذا الكتاب لما انتشر فى المسلمين هناك هبوا للعمل وارتقوا ولأختم هذا الموضوع بحادثة . ذلك أنى فى صباح يوم ورد لى خبر أن والدى سقط تحت القطار بجهة (بردين) فأسرعت للسفر ولكن أحببت أن أقابل صديقى اليأجوجى المأجوجى قبل السفر فخرجت من المدرسة بدرب الجماميز متوجها إلى المحطة مريدا أن أمر عليه فى مأواه الذى هو أقرب إليها ففى تلك اللحظة كان هو قد جاء إلىّ يريد مقابلتى بالمدرسة وهناك حصل لى أمر عجيب ذلك أنى قبل أن

أخرج من سراى درب الجماميز اضطررت أن أدخل لأحد أصحابى لمصلحة فجلست دقيقة واحدة معه ، فلما خرجت وجدت الصاحب اليأجوجى بالباب قبل خروجى من السراى فدهشت وعلمت أنى لولم تشغلنى هذه المصلحة تلك الدقيقة لخرجت ولم أقابله فأخبرته الخبر وعجبت من حسن المصادفة . فقال لى لا تعجب إن الله عز وجل مع كل مصلح ونحن لا نعمل إلا ماهو مصلحة للمسلمين فكيف لا يكون الله معنا ثم أخبرته خبر والدى وتوجهت إليه فوجدته قد أصيب بما يوجب الموت من جرح وكسر وهو لا يحسن النطق ولكن الله قبل (٢٤) ساعة حسن حاله وقال الطبيب إن هناك لطفا من الله به ولو كان هذا الحادث لشاب من الشبان لمات وذلك لقوة والدك ، ثم قال إنه يحتاج لعلاج أربعين يوما . فلما اطمأننت على والدى رجعت إلى المدرسة وأخبرت صاحبى تفصيلا بتلك الألطاف فى والدى . فقال لى ألم أقل لك إن الله مع المخلصين المسلمين ثم بعد ذلك شفى والدى تماما وسافر صاحبى إلى بلاده وعين فى مجلس (الدوما) بالروسيا وقد علمت أخيرا أن القيصر كان نفاه لما علم بعناوأته لحكومته . ويقال إنه توجه لبلاد الصين يعلم المسلمين هناك ولم أعلم بعد ذلك بما تم فى أمره . أما المسلمون فى تلك البلاد أيام البلشفية فقد بلغنى أنهم مرتقون فى هذه العلوم والله أعلم وبهذا تعلم أن السد موجود فعلا وأن هذا معجزة للقرآن حقا وهذا أمر عجيب .

اللطيفة الثانية تحقيق المقام فى ذى القرنين ويأجوج ومأجوج

اعلم أن الله عز وجل ما أنزل القرآن ولا الكتب السماوية قبله إلا لهداية الناس وإرشادهم والإرشاد إنما يكون على مقتضى الحال وبوجه القول للأمم توجها يرشدها ويعلمها ، فمن الإرشاد أن يجمع بين اللين والشدة بالجنة والنار والنعيم والجحيم والقرب والبعد . ولا جرم أن طبع أهل هذه الأرض مبنى على هذا النظام . انظر ماذا فعل الله فى هذا الوجود . خلقنا وأراد ترقيتنا بهذا الخلق وليس هناك من سبيل لأخذ العلم أخذا حقيقيا عن الله فاحتجنا إلى وسائط ومن تلك الوسائط أنه أجاعنا وأعرانا وخلق العداوة والحسد وما أشبه ذلك مع اختلاف الأخلاق والأحوال والعادات ثم إنه مهد الأرض للزرع والبحر للسفر وغيره وقال لنا هاهوذا ملكى وهاهوذا نقصكم وضعفكم ، فاما أن تعملوا مدة الحياة بنصب وتعب وإلا فلا أغذية لكم عندى ولا راحة وفى المثل (أثر حثوا فى ارتقاء) فظاهر الأمر أننا نعيش بالعمل وباطنه إرادة رقينا علما وأخلاقا . أنا خلقتكم فى نصب وتعب «لقد خلقنا الإنسان فى كبد» فاستخرجوا من الأرض أغذيتكم وملابسكم الخ وهذا هو مبدأ العلوم ، فجميع العلوم فى هذه الأرض ترجع إلى استخراج مانحتاج إليه من أغذية وأدوية وأعمال أخرى ونتيجة هذا هو رقى عقولنا وأحوالنا وأخلاقنا . لهذا خلقت الدنيا ولهذا خلق الله الناس فما أصابنا من خير أو شر فهو راجع لهذه القاعدة وإلا فالله قادر أن يخلق الانسان فى راحة تامة بأن يجعله كالدود يأكل مما حوله بلا تعب وكالنباتات فى البر والبحر لا يحتاج إلى شىء وكالمرجان يتغذى مما يحيط به من المواد الجيرية فى ماء البحر الملح ولكن الله يريد بهذا الخلق ارتقاء المخلوقات الانسانية . إذا فهمت هذا فلتعلم أن القرآن نزل على هذا النمط فهو يدعو للعمل والفكر والبحث ولو أن آيات القرآن كانت واضحة كل الوضوح بحيث لايعوزنا عمل فى فهمها لكان نفس القرآن من أهم أسباب سقوط الأمم التى تعتنقه إذ لا حاجة لهم إلى بحث ولا تنقيب . فانظر إلى قصة ذى القرنين وإلى قصة يأجوج ومأجوج : ذو القرنين وصفه الله بأوصاف تنطبق على رجل عظيم مصلح .

(١) فقد خيره الله لما بلغ مغرب الشمس بين اللين والشدة فاختار وضع كل منهما فى مقامه .

(٢) وعرض عليه القوم مالا لأجل أن يجعل لهم سدا فأبى وقال مامعناه : كلا الله أعطانى نعمة وسأصرفها فى منفعة عباده ولكن أعينونى بقوة .

(٣) ثم قال إن هذا رحمة من ربى وذكر أن كل أعمال الخلق لابد لها يوما من الزوال .

فهذه الأقوال والأعمال لا يتصف بها إلا المصلحون بل هى نموذج للمصلحين من الأمم الاسلامية وليس بهم فى الدين ولا القرآن شىء فوق هذا فان كل قصة فى القرآن إنما يؤتى بها لنتائجها أصالة . فالنتائج فى فتية الكهف أنهم فروا من الظلم كما فر الصحابة حين كانوا بمكة فهاجر بعضهم إلى الحبشة وهاجر بعضهم إلى المدينة ثم نصرهم الله فى آخر الأمر . ففتية الكهف فروا من ظالم وهم مؤمنون بربهم . هكذا الصحابة فروا بدينهم وحافظوا عليه تأسيا بقصص القرآن . وهكذا قصة موسى والخضر عليهما السلام وخرق السفينة وقتل الغلام لايقصد من هذا كله إلا تعريف الناس أن هناك قضايا عجيبة فى الوجود وأن الانسانية أشبه بجسم وهذا الجسم إذا أمكن بقاؤه بقطع سلعة منه أو أصبع معتلة إذا بقيت أضرت بالجسم كله فان الحكمة تقتضى بقاؤه وإزالة مابه فساده وهذه هى حال الناس أيام النبوة . فاذا قيل لماذا استعمل السيف أيام النبوة وحصل الحرب حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا . قلنا اقرأ قصة موسى والخضر فان الشر القليل يحتمل للخير الكثير وقد تم هذا فعلا فقتل صناديد قريش وغيرهم أثمر ظهور أمة عظيمة ملأت الكرة الأرضية فما ذلك إلا كأمر الطب سواء بسواء . هذا من أحسن مايؤخذ من هذه القصة . وهكذا إذا سمع الانسان قوله صلى الله عليه وسلم : « الحرب خدعة » فهو من هذا الباب . فهذا هو المقصود العملى الدينى من هذه القصص فى القرآن وأنا أحمد الله عز وجل إذ وفق وعلم وشرح الصدر لكتابة هذا .

هذا ماينبغى أن يفهم فى هذا الزمان وفى كل زمان .

فوائد هذه الأخبار فى هذا الزمان

أما فوائد هذه الأخبار فى هذا الزمان فانها تزيد على ذلك بالعلوم والحكمة ومعرفة تواريخ الأمم وتخطيط بلدانها . ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبى العالم الذى اعتاد أن يخاطبنى فى المسائل الموهمة . فقال لقد أتيت بمقدمة تقول فيها إن نظام هذا العالم يرجع إلى الحث على طلب العلم فكما يقول فى القرآن « وقل رب زدنى علما » يخلق فى الجسم ألم الجوع والعرى ومرارة العداوة فيكون ذلك كله من أسباب ارتقاء الناس هذا مفهوم ولكن مسألة ذى القرنين ومسألة يأجوج ومأجوج توقع فى القلوب شبها وتقتضى عند بعضها كفرا فان الناس إذا قرءوا التاريخ وعلم الجغرافية يرون أن ظهور رجل بلغ مشارق الأرض ومغاربها وبنى سدا كما فى القرآن لم يقم عليه دليل . فمن أين ذو القرنين هذا . ومن أى الممالك هو . أهو اسكندر المقدونى أم هو رجل آخر من اليمن . إن التاريخ الذى نقرؤه لا يهدينا إلى معرفة هذا الرجل ولذلك نجد كثيرا من المتعلمين فى الديانات يكونون ملحدين وذلك لأجل شكهم فى الديانات فيقولون إن هذه القصص جاءت على مقتضى ذوق أهل عصورهم لاعلى مقتضى التاريخ وأنا أسألك الآن أكان الله يعلم أن الناس سيصبحون فى شك وكفر بسبب هذه القصص . أم هو لايعلم ذلك . فان كان لا يعلم فقد انهدم كل دين فى الأرض وطاحت أصول الفلسفة ، وإن كان يعلم تلك النتيجة فإذن هو أنزل القرآن لأجل الإضلال لا للهداية . فاذن المسألة دائرة بين جهل الصانع سبحانه وبين إرادته الضلال وكلاهما نتيجة سيئة . فقلت أنا أختار أنه عالم أن مثل هذه المسائل يكون بها الضلال وهو الذى أراد ذلك . قال ياعجبا كيف هذا ؟ فقلت قال الله تعالى « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » وما نتيجة هذه الأخبار فى بعض النفوس إلا كنتيجة شرب العسل لمن به حمى فهو نافع للناس ضار لبعضهم . هكذا هذه القصة أعطت نموذجا للمصلحين فى الأمم ومن ضل به هم الأقلون والضرر القليل مغتفر فى جانب النفع الكثير . قال ولكن الأمم الاسلامية الآن قد أقبلت على زمان يكثر فيه علم التاريخ وعلم الجغرافيا وهذه القصص خارجة عن هذه العلوم . فاذا تعلم المسلمون جميعا رجالا ونساء كما تعلم أهل أوروبا وأمريكا واليابان فانهم يفعلون بالقرآن مافعله النصارى بقصص التوراة أى يجعلون

هذه قصصا تقرأ بلا تفكر ويضربون الذكر عنها صفحا ويقولون الطرشي والدين شيء وتبقى الطبقة المتنورة غير مكترثة بالكتب السماوية . فما تقول في هذا ؟ قلت إن نزول هذه الأخبار في القرآن كما تقدم سيكون في هذا الزمان سببا لارتقاء الطبقة المتعلمة في علومها . قال وكيف ذلك ؟ أتقول هذا لأجل أنك في تفسير القرآن . قلت كلا إنما أنا أقول هذا عن علم . ألم تر أن قصة ذي القرنين قد جاء كلام المفسرين فيها غير متفق فهذه ستدعونا أن نبحث في هذا المقام أي الأسماء أقرب إلى ذي القرنين أأسماء ملوك اليونان أم أسماء ملوك اليمن .

إذن وجب علينا أن نعرض أسماء ملوك الأمتين بوجه واضح ونبين ماجاء في التاريخ الحديث من أسمائهم ثم نبين إلى أيهما هو أقرب . ولماذا أبهم هذا الاسم . وما فائدة هذا الابهام لأمم الاسلام المقبلة والحالية كما ذكرنا سابقا الحقيقة الناصعة وهي أن أمة يأجوج ومأجوج أمة موجودة قديما وحديثا وبينا تخطيط بلدانها وجغرافيتهم ونقلنا من الكتب المؤلفة منذ ألف سنة أيام الدولة العباسية أن اسم تلك البلاد كان معروفا في الخرائط الجغرافية باسم (يأجوج ومأجوج) وحددنا تلك البلاد وأهلها وكيف خرجوا وكيف أهلكوا أمم الاسلام وشتتوا الدولة العربية وأذاقوها سوء النكال . وكيف كانت هذه القصة نزلت في القرآن وقد علم الله أن هؤلاء هم الذين سيكونون شرا على أمة العرب التي نفعت الأمم والآن نبين أن فائدتها في هذه القرون أن يرجع أبناء الاسلام لدراسة التاريخ والجغرافيا ويدرسوا ماحاق بآبائهم من ضعف وما أصابهم من ضر ويعرفوا مواطن الأمم وأن دراسة ذلك كله من أسباب بقاء أممنا الحاضرة وجهله يضيعها فتكون في خبر كان لأن الأمم لاحياة لها إلا بدراسة تاريخها ونحوه وإلا طاحت وهوت في أسفل سافلين : فهذا هو الذي سنذكره الآن

(١) ملوك اليونان (٢) ملوك اليمن (٣) بلاد يأجوج ومأجوج (٤) صلتهم بالأمة العربية في قوله صلى الله عليه وسلم «ويل للعرب من شر قد اقترب لقد فتح الليلة من سد يأجوج ومأجوج الخ» وكيف كان ذلك سرا للنبوة ظهر أثره بعد سبعمائة سنة ، فهذه المسائل التي نبحثها هنا ، أما كون هذه العلوم من أسباب رقي الأمة وأن تركها مضيع للأمم فاقرأه فيما تقدم في سورة النحل عند قوله تعالى «فاسألوا أهل الذكر» فقد نقلت لك هناك أن قراءة أصول العلوم لابد منها لبقاء الأمة والإطاحت وتشتتت ناقلا ذلك عن الأستاذ (ستلانه الطلياني) فلنبدأ أولا بذكر ملوك اليونان .

المقام الأول في ذكر أسماء من اشتهروا في أمة اليونان

فهل نجد فيهم من جاء في اسمه لفظة (ذو) التي هي من الأسماء الخمسة في اللغة العربية ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء أو مايفيد معناها، فلننظر نجد أن تاريخ (أثينه) القديم يبتدئ بالمدة الملوكية من نحو ١٣٠٠ سنة إلى ١٠٥٠ (ق . م) وآخر ملك من ملوكهم يسمى (١) (كودروس) وكل ما يروى عن اليونان في القرن الحادي عشر (ق . م) غير موثوق به (٢) وفي سنة ٨٥٠ (ق . م) نبذ القوم حكم الملوك المستبدين وساعدهم (ليكورغس) فسن لهم قانونا ليكون شرعا لهم وكان من أعضاء الأسرة الحاكمة وهذه القوانين سنها (لاسبرطة) يبلاد اليونان تعلم الشجاعة والصبر والقوة الجندية ويكون للأمة ملكان ومجلس أعيان مؤلف من ٣٠ عضوا كل واحد سنه ٦٠ سنة وللملكان منهم بالانتخاب والمجلس يسمى مجلس الشيوخ والأعيان والانتخاب لمدة الحياة وهناك مجلس الأمة يقدم لهم الأعمال ليحثوها والمولود ضعيفا أو مشوه الخلقة يقتل على جبل (طايختوس) ويربى الولد بعد سبع سنين بتمرينات رياضية وبالصيد وتحمل الأخطار وبالضرب مع ثباته وعدم ضجره ولو مات وهكذا يتحمل الجوع والعطش والحر والبرد ليتعلم الصبر ويتعلم الموسيقى بأشعار كلها تحث على الشجاعة ثم يعلمون قلة الكلام لتقوى بصائرهم (٣) وممن اشتهروا فيهم (هوميروس) الشاعر وأصح التواريخ عنه أنه كان نحو سنة ٨٥٠ (ق . م) وشعره وحد أمة اليونان فهم كانوا يقرءونه في خلواتهم ومجتمعاتهم الخاصة والعامة وعسى أن يوحد القرآن الأمم الاسلامية بعد ظهور حقائق القرآن في زماننا الحاضر

(٤) ومن ملوكهم (فيدون) سنة ٨٧٠ (ق.م) والحكومة هناك جمهورية وبعد موته استمرّت (اسبرطة) على تعاليم (ليكورغس) (٥) الملك (رافيطوس) سنة ٧٧٦ ق م على الأصح هو الذى أحيا الألعاب الأولومبية وصارت بعد ذلك تقام كل أربع سنين مرة والمسافة بين كل دورين تسمى (لمباد) وبقيت إلى سنة ٣٩٤ ق م إذ حوّل مجراها الأمبراطور (طيودوسيوس) (٦) ومن ملوكهم (أريسطوقراطيس) ملك (أرخومينوس) وهذا الملك خان بلاده فى موقعة حربية فرجموه لافشائه السرّ للأعداء (٧) ومن عظمائهم (أريسطومينس) سنة ٦٥٨ ق م الذى أسره أعداء بلاده ووضعوه فى جب ونجا بعد ذلك (٨) ومن عظمائهم (سولون) الذى لما رأى الطغيان عم البلاد فى نحو سنة ٦٠٠ ق م سن قوانين لهم وهو معدود من الحكماء السبعة وهو من أهل (أثينه) وجعل الأمة فى القانون أربع طبقات وجعل الانتخاب عاما وغاب عن بلاده عشر سنين من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٥٦٠ ق م (٩) ومنهم (بيزيسطراطوس) ابن عم (سولون) مات سنة ٥٢٧ ق م (١٠) ابنه (هيباس) وابنه الآخر (هيبارخوس) (١١) (كليومنس) من ملوك (اسبرطة) (١٢) (ملتياد) نصر اليونان على الفرس بسياسته وبالجيوش (١٣) (أريسطيدس) (١٤) (تمستقل) من (أثينه) بسياسته وجيشه هزم الفرس (١٥) ومنهم (سيمون) بأثينه قائد حزب الأشراف (١٦) وأخيرا كان (فيليب الثانى) ابن (أمنطاس الثانى) وأخو (بردكياس) وتولى الحكم وعمره ١٣ سنة وجعل تساليا تحت حكمه سنة ٣٥٢ ق م (١٧) وبعده ابنه (اسكندر الثالث) الملقب بالأكبر ولد سنة ٣٥٦ ق م وكان عمره إذ تولى الملك بعد أبيه ٢٠ سنة وقد تعود فى صغره على العوائد الاسبرطية من تحمل الآلام والأقدام والتجلد ثم علمه (أرسطوطاليس) علم الحكمة . فهذه الأسماء هى من أهم الأسماء المشهورة فى أمة اليونان . وقد بحثنا فيها فلم نجد للفظ (ذى القرنين) وجودا . فياليت شعرى كيف ساغ لبعض المفسرين بل لكثير منهم أن يجعلوا هذا هذا الاسم علما على (الاسكندر) وغاية ما لقبوه أنهم قالوا (اسكندر الأكبر) أما (ذو القرنين) فلم يرد لها ذكر فى أسماء ملوكهم ولا شعرائهم ولا قوادهم . فبطل إذن أن يكون (ذو القرنين) من اليونان . إذن فلنبحث عن هذا الاسم فى أمم العرب الذين كان لهم ملك وسلطان وعظمة وهم عرب اليمن .

الكلام على بلاد اليمن وملوكها

اعلم أن أعظم المدن القديمة التى كانت فى اليمن قبل الاسلام خربت الآن وسفت عليها السوافى وغطتها الرمال . وقد ذكر اليعقوبى أن تلك البلاد تنقسم أولا إلى (مخاليف) جمع مخلاف وجعلها (٨٤) مخلافا والمخلاف تحته مدن ومحافل وقرى ومن الأشهر فيها مخلاف (مأرب وذمار والهان وحراز وحوزن وحضورالخ) ووصفه لها كان فى القرن القرن الثالث الهجرى . وقد حدد هذه المخاليف الهمدانى فى كتابه المسمى (صفة جزيرة العرب) بأوائل القرن الرابع الهجرى واعتمد العلماء على كتابه ووثقوا به .

كيفية نظام بلاد اليمن فى الأزمان القديمة

لاجرم أن النوع الانسانى فى الأعصر البائدة كان يعيش مع الحيوانات فى الفلوات ويأكل الثمار ويعيش فى الكهوف والمغارات ثم ارتقى شيئا فشيئا وكان العصر الحجرى والعصر البرنزى ثم العصر الحديدى فالمدنية الحاضرة . وأما الانسانية العامة ولابعضها إلا كما يولد الطفل صغيرا ثم يقوى شيئا فشيئا . هكذا ما نحن بصدده وهى بلاد اليمن فبنوا البيت ثم ارتقى البيت على طول الزمان فصار قصرا والقصر عندهم جعلوه حصنا أو قلعة وهذه القلعة حولها سور. ومعنى هذا أن الأسرة الواحدة تجتمع فى مكان واحد وتتخذ لها رئيسا منها وتجلسه فى قصره وتبنى بيوتا حوله وتجعل ذلك القصر منيعا خيفة مفاجأة الأعداء. وكل عدة قصور تخضع إلى رئيس واحد يحكم شيوخ هذه القصور وهذا المجموع يسمى (المخلاف) والجمع مخاليف فالمخاليف كالمديريات فى القطر المصرى والقصور أشبه بالمراكز فى المديرية . ومعنى هذا أن القطر المصرى (١٤) قسما كل قسم مقسم إلى

مراكز والمركز يشتمل على جملة بلاد . هكذا بلاد اليمن عبارة عن (٨٤) مخلافا كل مخلاف يشتمل على محافد وعلى القصور المتقدّمة والمخلاف يتولاه أمير يقال له (قيل) والجمع أقيال أو ملك صغير والمخلاف يقابل (الكورة) أو (الرستاق) فى اللغة العربية كالمديرية فى الاصطلاح المصرى حديثا ويقال لذلك (القضاء) أيضا وينسب المخلاف كله إلى أكبر محافده أو إلى المحفل الذى يقيم فيه (القيل) وهذه المحافد قد تنمو فتصير مدينة وتسمى جديد كما اتفق أن قصر أو محفل (ريدان) تحول إلى مدينة ظفار وقصر سلحين تحول إلى مأرب ، وهناك قاعدة وهى أن صاحب المحفد (القصر) يلقب بلفظ (ذو) أى صاحب يضاف إلى اسم المحفد فيقال ذو غمدان أى صاحب غمدان وذويمين وتعرف هذه الطبقة باسم (الأذواء) أو (الذوين) وهذه الألقاب أشبه بالألقاب فى بلادنا المصرية الآن مثل قولهم فلان بك وفلان باشا وهذه بعض الأسماء (ذو غمدان . ذو تلقم . ذو ناعط ذو صرواح . ذو سلحين . ذو ظفار . ذو شبام . ذو بينون . ذو ريام . ذو براقش . ذو روثان . ذو أرياب . ذو عمران) فالأقيال ملوك صغار والأذواء أمراء والأذواء يقابلون فى بلادنا المصرية (الذوات) وهذه كلة معناها الأغنياء المتازون فى بلادنا وهذا عجب أن يكون ذواتنا يقابلون أذواءهم وكلاهما راجع إلى (ذو وذات) والمعنى واحد . ونظير هذا عند الإنجليز قولهم مثلا (اللورد أفبرى) ومعنى اللورد (الرب) أو (السيد) ومعنى (أف) صاحب وبعد هذا اسم البلد التى جعل هذا صاحبها إذ هذا كأمير اليمن سواء بسواء والمعنى واحد . أفليس من العجب أن يكون (ذو) الوارد فى القرآن كان موجودا فى اليمن وله نظير فى أوروبا ولكن هذا لا نظير له فى اليونان إذن لم يكن (ذو القرنين) فى اليونان وغلب أن يكون فى اليمن فإن الأذواء فى تلك البلاد هم الذين يحكمونها ومن بين هؤلاء الحكام يكون الأقيال والتبابعة كما تقدّم وقد عجز المؤرخون جميعا عن معرفة تاريخ الإمارات الصغرى وعن تاريخ الممالك الكبرى هناك ولكن المهم فى هذا المقام هم الأذواء قد حفظت أسماؤهم ليكونوا دليلا لهذه القصة فى القرآن . والذى عرف الآن طبقتان طبقة تسمى الملوك الثامنة وهم ثمانية أذواء وهم ناهضوا حمير أيام دولتهم . والطبقة الثانية أذواء مستقلون وهؤلاء هم الثامنة . قال الشاعر :

أين الثامنة الملوك وملكهم ... ذلوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو ثعلبان وذو خليـــل ثم ذو ... شجر وذو جدن وذو صرواح
أو ذو مغار بعد أو ذو جوفز ... ولقـــد محا ذا عثكلان ماحى

وسائر الأذواء أكبرهم مرثد وهو جدّ الناظم قال فيه :

أوذو مراثد جدّنا القيل ابن ذى ... شجر أبو الأذواء رحب الساح
وبنوهم ذو فين ذو سفر وذو ... عمران أهـــل مكارم وسماح
والقيـــل ذو ذيان من أبنائه ... راح الحمام إليـــه بالرداح
أم أين ذو الرمحين أو ذو يرحم ... سقيا بكأس المنون ذباح
أم أين ذو بهر وذو يزن وذو ... نوش وذو نوح وذو الأنواح
أم أين ذو نيقان أو ذو أصبح ... لم ينج بالإمساء والإصباح
أم أين ذوالشمين أصبح صدعه ... لم يلتئم لتقف الأقـــداح
أو ذوحوال حيل دون مرامه ... أو ذو مناخ لم يبح بمراح
أم أين ذو غمدان أو ذو فائش ... أو ذو رعين لم يفز بفلاح

والقصيدة ١٩ بيتا بعد الثامنة اكتفينا بما ذكرناه الآن والأذواء فى هذه القصيدة ٥٥ والذى علم قليل . إذن ثبت أن (ذا القرنين) يمنى وإن كان فى زمن متوغل فى الجهالة والإبهام ليكون نموذجا للكمال

والشرف

والشرف فى الأمم الاسلامية فى مستقبل الزمان . انتهى .

إذا عرفت هذا فانظر إلى دول اليمن فمنها دولة (معين) وعاصمتهم (قرنا) ودولة (سبأ) وعاصمتهم مأرب والقتابيون وعاصمتهم (شبوة) والذى كشف (معين) هو (هاليفى) إذ رآها فى شرق (صنعاء) ببلاد الجوف وقرأ اسمها عليها وبجانبها مدينة (براقش) فوجد هناك (٣٠٣) نقشا ٧٩ منها فى (معين) و ١٥٤ نقشا فى (براقش) و ٧٠ فى السوداء، وقد عثروا على بعض ملوك هذه الدولة وهم ٢٦ ملكا مثل أب يدع ومثل أب يدع يثيع أى المنقذ وهكذا . وقد عرف الناس أمة بهذا الاسم بالكشف الحديث سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد مكتوبا على نصب عليه نقوش مسمارية ذكرت فى أقدم آثار بابل وأن ملك بابل حمل على (معان) فى جزيرة (سينا) وقهر ملكها وأنه اقتلع حجرا منها ونصبه تذكارا فى بلاد (بابل) ويقدر العلماء أن آثار دولة معين تبتدئ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن السابع أو الثامن قبله ويقولون إن أصلهم من بابل .

دولة سبأ

هم من القحطانيين كانوا أولا أذواء فأقيالا فكانت لهم المحافد والمخاليف، والذى نبغ منهم (سبأ) صاحب قصر صرواح شرقى (صنعاء) فاستولى على الجميع ومبدأ ملكهم من سنة ٨٥٠ قم إلى سنة ١١٥ قم والمعروف من ملوكهم ٢٧ ملكا ١٥ يسمى مكربا و١٢ منهم يسمى ملكا مثال الأول (يثمر) و (ذمر على) فكل منهما اسمه (مكرب) ومثال الثانى (ذرح) و (يريم أيمن) فهذان ملكان .

الدولة الحميرية من سنة ١١٥ قم إلى سنة ٥٢٥ بم

وحمير بن سبأ وهم طبقتان . [الطبقة الأولى] ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ قم إلى سنة ٢٧٥ بم ومن ملوكهم (علهان نهفان) و (وتار) وهكذا [والطبقة الثانية] ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها من سنة ٢٧٥ ب م إلى سنة ٥٢٥ ب م أولهم (شمر يرعش) ثانيهم (ذو القرنين) أو (افريقس الصعب) ثالثهم (عمرو) زوج بلقيس وهكذا إلى ١٤ ملكا آخرهم ذوجدن وقبله ذنواس وهذه الطبقة هم التبابعة ومن قبلهم ملوك فقط . والتبع (بتشديد التاء والباء) هو من ملك حضرموت والشحر مع ملكهم . فأكثر ملوك الطبقة الثانية الحميرية تبابعة أضافوا إلى ملك اليمن ملك حضرموت والشحر وهذا ماقصدت ذكره فى هذا المقام فى أمر ملوك اليمن .

تحقيق هذا المقام

لقد اطلعت أيها الذكى على أسماء ملوك اليونان وأسماء ملوك اليمن فظهر أن ذا القرنين لا صلة بينه وبين اليونان وأن الاتصاف (بذو) لم نجده إلا فى اليمن وأن الملوك والتبابعة إنما ينبغون من هؤلاء الأذواء . إذن لاشك أن هذا اللقب لا مناسبة بينه وبين اليونان وإنما صلته التامة ببلاد اليمن بل تقدم فى أسماء الملوك قريبا اسم ذى القرنين فظهر الأمر واتضح ولكن هل هذا هو ذو القرنين المذكور فى القرآن ؟ نحن نقول كلا لأن هذا مذكور فى ملوك قريبى العهد منا جدا ولم ينقل ذلك عنهم اللهم إلا فى روايات ذكرها القصاصون فى التاريخ مثل إن (شمر يرعش) وصل فى حربه إلى بلاد العراق وفارس وخراسان والصغد ، وقال العجم (شمركند) أى شمر خرب وبنى مدينة فسميت (سمرقند) أى شمر خرب وملك بلاد الروم ويقولون إن أسعد أبو كرب غزا [أذربيجان] وبعث حسانا ابنه إلى (الصغد) وابنه يعفر إلى الروم وابن أخيه إلى الفرس وأن من الحميريين من بقوا فى الصين لهذا العهد بعد غزو ذلك الملك لها . وكذب ابن خلدون وغيره هذه الأخبار ووصموها بأنها مبالغ فيها ونقضوها بأدلة جغرافية وأخرى تاريخية لامحل لذكرها هنا . إذن يكون ذوالقرنين من أمة العرب ولكنه فى تاريخ قديم قبل التاريخ المعروف . ألا ترى أن من الأمة العربية من غزوا مصر قبل الميلاد وبقوا فيها ٥٠٠ سنة ثم طردوا من مصر فى الأسرة الثامنة عشرة ، ولقد أخبرنا المرحوم

أحمد بك كمال أن المصريين كثروا جدا فخرجت منهم أمتان : إحداهما إلى بلاد العرب والأخرى إلى شمال أفريقيا ، وقال رحمه الله لنا إن الذين خرجوا إلى بلاد العرب هم عاد وثمود .

حكمة نزول هذه الأخبار فى القرآن

علم الله قبل أن ينزل القرآن أن أمة العرب خصوصا وأمة الاسلام عموما سينسون التاريخ وتخطيط البلدان ويجهلون ماحل بالأمة العربية من أمة يأجوج ومأجوج ولا يعرفون أن فتح البلدان بالجهاد الاسلامى كان هو السبب الذى جعل أمة الإسلام مجاورة لأمة يأجوج ومأجوج وهذه المجاورة كانت سببا فى انقضاض القوم على أمم الإسلام فمزقت شملهم . علم الله أنهم يجهلون ذلك الأزمان المتأخرة وأن الحروب الصليبية وحروب يأجوج ومأجوج ستقضى عليهم ويخرج أبناؤهم أى أهل مصر وشمال أفريقيا والعراق والحجاز وسوريا والفرس وغيرها وهم يجهلون ماحل بآبائهم الأولين ولايعلمون أن أمة يأجوج ومأجوج احتلت البلاد لما آنست من العرب ضعفا وتخاذلا ومن المسلمين تفرقا وانحلالا فكانوا منقسمين إلى الشيعة والسنية وكل منهم يكيد للآخر وكان الوزير العلقمى رجلا شيعيا والملك المستعصم رجلا سنيا وكان هذا الوزير هو السبب فى دخول التتار واحتلالها وذبح ألف ألف منها إلى آخر ما تقدم .

علم الله ذلك فأنزل فى القرآن قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج وهما قصتان متلازمتان . فقصة (ذى القرنين) تفيد أن رجلا عربيا أقامه الله مصلحا عظيما . فماذا فعل . فعل مافعله الخضر عليه السلام أقام الخضر جدارا يريد أن ينقضّ وأقام ذو القرنين سدا بين أمة وأمة والخضر لم يطلب أجرا من أهل البلد وذو القرنين لم يطلب أجرا من تلك الأمة . الله أكبر . هذا هو الشرف أن يصرف الإنسان نعمة الله فيما خلقت لأجله سواء أكان ذلك لمنفعة فردية أم منفعة عامة . فاقامة الجدار لمنفعة اليتامى وإقامة السد لمنفعة الأمة .

الله أكبر . نزل القرآن لارتقاء الأمم . نزل القرآن للاقتداء . ألم تر أن أول السورة يفيد أن قوما هربوا من الظلم فاختفوا وقد قدمت أن هذا تم فى زمن النبوة بالهجرة وأن آخر السورة يفيد أن الانسان يعمل للمصلحة العامة إما لأفراد وإما لأمم . هذه السورة أشبه بتاريخ الإسلام فأوله ضعف والمسلمون فى مكة وبعد الضعف القوة وبالقوة تنفع الأفراد وتنفع الأمم . هذا هو دين الإسلام والأمم الإسلامية التى ضلت هذه الطريقة يخذلها الله كأمم الإسلام أيام الدولة العباسية أى فى آخرها إذ جعل الناس الملك مغنما والزكاة مغرما وأصبح الملك قليل العمل كثير الأمل والشهوات واللذات والخلاعة .

عاشت أمة الإسلام وهى تتقلب على نار الغضا ويكيد العلماء بعضهم لبعض ، فالخوارج والشيعة وأهل السنة بعضهم لبعض عدو حتى إن الشافعية والحنفية من أهل السنة لما دخل التتار أى يأجوج ومأجوج وجدوهم أشبه بأهل دينين كل يكاد يكفر الآخر . علم الله أننا نحن فى عصرنا الحاضر سنجهل كل ذلك . الله أكبر إن الأمة الإسلامية لما فتحت البلاد لحفظها حفظهم الله ولكن لما فتحت البلاد للذاتها انحطت مداركهم فاستخلص الله منهم بلاده كما تقدم وجهل القوم علوم الجغرافيا فجهلوا جيرانهم من الأمم فانقضوا عليهم . أقول ومتى عرف المسلمون بعدنا السبب فى تشتيت الأمم الاسلامية يرجعون مجدهم بجمع شملهم وذلك يستحيل إلا إذا قرءوا جميع العلوم وعلموا ما جهله آباؤهم فى تلك القرون ومن أهمها علم الجغرافيا والتاريخ ثم بقية العلوم وحينئذ يعرف أبناء العرب والفرس والترك وغيرهم من أمم الإسلام أن الذى أضاع مجدهم هو الجهل وأن المسلمين ظنوا أن القصد من الملك التمتع مع أن ملك البلاد والتسلط عليها لا يقصد منه إلا رقيها وخدمتها وإسعادها .

أقول علم الله ذلك وأننا فى هذا الزمان سنقرأ هذا ويقرؤه أبناؤنا بعدنا ويعرفون خطأ الآباء ويقولون فى (ذى القرنين) إنه وإن لم يكن معروفا بشخصه فهو المعروف قدره وأن الله أبهمه علينا كما أبهم ليلة القدر

ويوم

ويوم القيامة ولو أن الله عرّفنا به ضلا لكانت الفائدة منفية . أما الفائدة العظيمة فهى كثرة البحث والتنقيب في الكتب فهانحن أولاء بحثنا عن ذى القرنين فى أمة اليونان ، ولما بحثنا عنه وجدنا هناك فى القرن الثامن قبل الميلاد قوانين مشترع عظيم تقدمت الإشارة إليها عرفتنا مجلس الشيوخ ومجلس الأمة التى نسج على منوالها أهل أوروبا الآن وهكذا حوالى القرن السادس (ق م) ظهر (سولون) الحكيم ، ولهؤلاء قوانين تذكرنا بما يحاوله أهل الشرق الآن من الانتخاب وتشكيل المجالس النيابية . ولا جرم أن هذه الطريقة بالحال التى هى عليها لم تكن معروفة عند أسلافنا فلم يكن لهم سبيل إلا الحرب والقتل ، وإذا كانت أوروبا هى التى تعلمنا تلك القوانين كما علمت اليابان وأمريكا ، فعلينا نحن أن نقرأ كل ما حصل من شرائع الأمم الانتخابية فى اليونان والرومان وفرنسا وما الذى فعله (روسو) الكاتب الشهير الذى أحدث ذلك فى فرنسا وما الذى فعلته انكلترا قبل فرنسا بنحو مائة سنة وماذا فعلوه مع ملوكهم . كل ذلك تذكرناه فى أثناء البحث عن اسم ذى القرنين فاذا لم يكن فى ذكر ذى القرنين نعمة سوى هذه لكفت وهذه المباحث واجبة وجوبا كفائيا لأنها أولا لفهم القرآن وثانيا لأنها علوم والعلوم لابد فيها من قوم مختصين بها . وكم من فوائد غير هذه فى هذه المباحث . إن الأمم الاسلامية التى بعدنا ستقرأ هذا وأمثاله وسيعلمون أن العلوم التى تلقاها عن أوروبا والأعمال السياسية لن يتم لهم الانتفاع بها إلا إذا درسوا أصولها فهؤلاء أهل مصر وأهل العراق والشام وغيرهم قد أخذوا يقلدون الغرب فى المجالس النيابية ولكن لا يتم مقصدهم إلا بدراسة تاريخ تلك المجالس أيام سولون وأيام ليكورغس ليقفوا على تنوع تلك المجالس وينظموا بلادهم على أحسن طراز وسيعلمون حق العلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زخرف الدنيا وزينتها » قد تم ذلك لأن فتوح البلدان قد انتهى بتشتيت شمل الأمة العربية لأنهم لم يحفظوا النعمة فى آخر أمرهم ولم يقوموا على أممهم خلفاء الله فحسب وأن قوله « لقد فتح الليلة من سد يأجوج ومأجوج الخ » فيه تلميح إلى فتح البلدان كما تقدم وسيعلمون أنهم لانجاة لهم إلا بنظام أممهم وبلادهم بأحسن الطرق وهكذا أن يدرسوا كل علم ويحققوه وسيعلم أبناء اليمن خاصة وأبناء العرب عامة أن الله ماذكر ذا القرنين فى القرآن إلا ليبعث فيهم النشاط والهمة والقوة فهو يقول يا أبناء العرب ماذا أفعل لكم خلقت رجلا مصلحا فى زمان مجهول لكم بلغ مغرب الشمس ومطالعها ولم أشأ أن أبين لكم البلاد التى دخلهـا لأن كل مكان فى الأرض يصلح لطلوع الشمس وغروبها وإنما بينت السد لأجل أن تبحثوا عن التاريخ الذى حصل لآبائكم فبينما أنتم تبحثون عن السد إذا بكم اهتديتم إلى سبب انقراض دول آبائكم فترجعون إلى أنفسكم وتقولون كيف يكون منا من بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأصلح الأمم ونكون نحن بعد نزول القرآن أضعف من آبائنا قبل نزوله وسيخجل أبناء اليوم حينما يدرون أنّ آباءهم كانوا أرقى منهم علما وصناعة وسيقولون كيف يكون ذوالقرنين منا وكيف ينزل الله فى آبائنا سورة (سبأ) ويذكر سيل العرم ونصبح نحن أضعف من آبائنا . إننا لمقصرون . فلنقرأ كل علم ولندرس كل فن وإنا إن شاء الله لموفقون انتهى .

جوهرة فى قوله تعالى « قل لوكان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر » الخ

إن المطلع على ماتقدم من التفسير يجد نعم الله لاحدّ لها فى كل عالم من العوالم الأرضية والسماوية ولكن الآن أذكر لإيضاح هذه الآية آخر الآراء التى وصل إليها العلماء فى عصرنا الحاضر ولم أجد أجمل ولا أجمع ولا أحدث من الخطبة التى خطبها الأستاذ (جينس) الانجليزى العالم الفلكى الذى كان مدرسا لعلم الرياضيات التطبيقية فى جامعة (بنسلفانيا) التى هى أشهر جامعات أمريكا وقد عاد أخيرا إلى انكلترا وصار سكرتيرا لجمعية العلوم والفنون الملكية . الخطبة المشار إليها هى التى ألقاها يوم ٧ مارس سنة ٢٨ أى قبل كتابة هذه الأسطر بشهر واحد وهى كما قلنا أحدث الآراء فى منشأ الكائنات والكلام على النهاية وعلى عدم النهاية

فى الزمان والمكان وهل يمكن حصر الأجرام العلوية ومقادير أعمارها . وهـذه الخطبة ألقاها فى تلك الجمعية فى التاريخ المتقدم وملخصها مايأتى :

(١) الاهتمام بعلم الكائنات ونشوئها قريب العهد جداً وهذا العلم لايزال طفلا .

(٢) يقول علماء (الجيولوجيا) إن الإنسان لم يعش على الأرض إلا منذ ثلثمائة ألف سنة فقط ، إذن الأرض عاش عليها عشرة آلاف جيل كلهم يرون الأرض مركز العالم والعالم خلق لأجلها إلاجيلا واحدا عرف أن الأرض ليست شيئا مذكورا فى العوالم .

(٣) عمر الأرض نحو ألفى مليون سنة .

(٤) الشمس ستظل بعد ألف ألف مليون سنة كما هى الآن تقريبا وتدور الأرض حولها كالوقت الحاضر

(٥) الإنسان فى المستقبل يكون أحكم من الإنسان الحاضر ثلاثة ملايين مرة على الأقل فينظم المعيشة على مقتضى حال الكرة الأرضية فى المستقبل .

(٦) يؤخذ مما تقدم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض فهو طفل وهكذا هو طفل فى علومه ومعارفه وكل هم هذا الطفل كان موجها إلى غذائه ومسكنه وهو يجهل العوالم ولكنه الآن عرف أن هناك عوالم لاحد لها وعرف أنه يجهلها وكأنه فى حلم ومعرفته تافهة جدا بالعوالم حوله ويعيش بعد الآن ألفى مليون سنة على الأرض أى أنها مدة تعادل عمر الأرض الماضى .

(٧) الأجرام التى حولنا لها نهاية . أما الفضاء الذى بعدها فلا نهاية له أى أن الشمس والكواكب والمجرات ليست بلا نهاية ولكن وراءها فضاء لانهاية له .

(٨) الأجرام العلوية التى نراها والتى لا نراها شكلها كروى: أى أنها كلها كرة واحدة كقطرة الماء وككرة الأرض والشمس الخ والكرة تعرف كلها متى عرفنا نصف قطرها ونصف القطر يعرف متى عرفنا درجة تقوّس محيط الشكل الكروى بين أية نقطتين مفروضتين على محيط الشكل .

(٩) الأستاذ (هوبل) يقول على سبيل التقريب إن الفضاء المشغول بالأجرام الفلكية لا يمتد على الأرجح إلى أكثر من ألف ضعف المسافة التى تفصل بيننا وبين أبعد السدم التى يمكن رؤيتها بأكبر (التلسكوبات) إننا إن وصلنا تلك السدم فرضا وجاوزناها فإننا نعود إلى النقطة التى بدأنا منها لأن ذلك الفضاء كما قلنا كروى الشكل .

(١٠) الإشارات اللاسلكية التى تنبثق من جهاز لاسلكى شديد الإحساس تدور حول الكرة الأرضية فى أقل من سبع ثانية وتعود إلى النقطة التى بدأت منها فهكذا نحن لو اخترقنا هذه العوالم رجعنا إلى مبدأ سفرنا

(١١) لو أننا صنعنا (تلسكوبا) قويا جدا ورأينا جميع الكرات السماوية لرأينا النجوم بهيئتها الأصلية حينما أرسلت النور إلينا قبل الملايين من السنين وأن النجوم ليست أعدادها بغير نهاية ولو كانت فى فضاء لا نهاية له لزم أن تكون هناك نجوم لايصل لنا نورها إلى أبد الدهر ويقول إن هذا بعيد ويرجح فيقول إن الإنسان اليوم طفل لايدرى فى العلوم شيئا فربما جاءه المستقبل بما لايتخيله الآن .

(١٢) النور يسير فى الثانية الواحدة (١٨٦) ألف ميل ومثله فى ذلك الكهربائية اللاسلكية لأنهما فى جوهرهما شىء واحد ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروى مائة ألف مليون سنة أى أن النور يدور فى هذا العالم المملوء بالأجرام العلوية الذى مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يدور حول الأرض فى سبع ثانية واحدة فأين النسبة بين سبع ثانية وبين مائة ألف مليون سنة . ويقول إن الأرقام لا تقدر أن تحصى المسافة المحصورة بين نقطتين أى أياكانتا على محيط الفضاء الكروى .

(١٣) الشمس أكبر من الأرض حجما مليون وثلثمائة ألف مرة وماهى إلا حبة رمل على شاطئ هذا

الفضاء الكروى وهى فرد من أسرة من أسر الكائنات وفى الفضاء الكروى المذكور ألوف الملايين من تلك الأسر والجماعات . وقد قدر العلامة (سيرز) عددها (ثلاثين ألف مليون مجموعة) وتكون شمسنا وتوابعها حبة رمل فى مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة .

(١٤) هناك سدم (لولبية) خارج المجرة وهى مجموعة من النجوم تم نشؤها أو لا تزال فى دور التكوين وفى بعض تلك السدم من المادة ما يكفى لخلق ألف مليون شمس كشمسنا مع العلم بأن مادتها فى غاية اللطف حتى إن جزءا من اثنى عشر مليون جزء من الرطل يعادل فى حجمه جبل (ماترهورن) الذى هو من أكبر جبال أوروبا فإذا كان السدم الواحد الذى هذه حال خفته فى حجمه يشتمل على مايكون ألف مليون شمس فكيف يكون حجمه [وبعبارة أخرى] إذا وضعت ألف مليون شمس فى كفة ميزان ـ مع العلم بأن الشمس أكبر من مليون حجم الأرض وثلثمائة ألف مرة ـ وفى الكفة الأخرى جزء من مليون جزء من الأوقية كانت النسبة بينهما كنسبة أحد تلك السدم إلى جبل (ماترهورن) المشار إليه وذلك كله حجم سديم واحد فما بالك بمئات الملايين منها وهى سابحة فى الفضاء الكروى .

(١٥) يقول (هوبل) المتقدم ذكره إن مرقب (تلسكوب) مونت ويلسون بأمريكا يريك نحو مليونين من تلك السدم وإذا تمكن الإنسان من صنع مرقب أكبر فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها فى كل منها من المادة ما يكفى لخلق الملايين من الشموس والأجرام الفلكية . ويقول إن العلماء يقولون إن الفضاء الذى تشغله المادة يجب أن يكون ألف مليون ضعف الفضاء الذى يستطيع أن يرصده (تلسكوب) مونت ويلسون المشار إليه الذى هو أعظم تلسكوب فى العالم كله . ويقول إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التى تسبح فى الفضاء تقريبا فإنها عدد (٢) وعلى يمينه (٢٤) صفرا وهو عدد النجوم السابحة فى الفضاء وعددها من الرمل يغطى سطح الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمتار ، ومعلوم أن عالمنا الأرضى ليس إلا حبة من حبات ذلك الرمل .

(١٦) أضعف النجوم المعروفة نجمة (وولف) نورها جزء من عشرين من نور الشمس ونور النجم (دور ادوس) يوازى ثلثمائة ألف ضعف النور المنبثق من الشمس وأصغر النجوم هو نجم (فان مانن) وحجمه كحجم الأرض وأكبر النجوم هى الجوزاء وهى أكبر من الشمس خمسا وعشرين مليون مرة ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة الحباحب .

(١٧) إن الشمس تخرج شعاعا يعادل قوة خمسين حصانا من كل بوصة مربعة وبعض النجوم التى هى أعظم من الشمس تشع نورا من البوصة المربعة يعادل قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة .

(١٨) الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ٢٥٠ مليون طن فى الدقيقة ففى كل يوم تفقد ٣٦٠ ألف مليون طن .

(١٩) إن أعمار الأجرام الفلكية تختلف من خمسة آلاف ألف مليون سنة إلى عشرة آلاف ألف مليون سنة .

(٢٠) يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف ألف مليون سنة ويمكن أن تعيش ملايين الملايين من السنين فلا تنطفىء ، انتهى .

هذه هى الآراء التى يستنتجها العلماء اليوم بحسابهم تارة وبتخيلهم تارة أخرى . ذلك كله يفهمنا قوله تعالى « قل لو كان البحر مدادا » الخ فهذه هى الكلمات الإلهية التى حيرت العقول وشغلت الأفكار وأضاعت الأعمار ولم يصل الناس لأقل جزء من العلم «والله يعلم وأنتم لاتعلمون ـ والحمد لله رب العالمين» . كتبت هذه المقالة يوم الجمعة ٢٧ إبريل سنة ١٩٢٨ .

جوهرة فى قوله تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

اعلم أن هذا الوحى الذى أنزله الله على أنبيائه بأنه واحد قد أظهره فى كلماته المذكورة قبل هذا فى قوله « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » فالآية الثانية كالمتممة للأولى وإيضاح هذا المقام أن الآية الأولى أفادت كثرة المخلوقات ولكن الكثرة كيف تكون عن الوحدة فالكثرة ظهرت فى الأولى والوحدة فى الثانية . هناك حارت الأمم قديما وحديثا . رأوا كثرة لا تتناهى وهذه الكثرة العظيمة لا تتم إلا بالوحدة وإلا فكيف يضبط هذا الكثير . فانظر ماذا حصل . جاء قدماء الفلاسفة ونظروا فى هذا الوجود فرأوه جواهر وأعراضا أى المادة والصفات القائمة بها فدرسوا أولا العلوم الجزئية من الرياضيات والطبيعيات وبعد ذلك درسوا علما عاما يعلمهم الوحدة فقالوا إن كل موجود يمكن أن يطلق عليه اسم الواحد سواء أكان كثيرا أم قليلا فإننا نقول زيد واحد وعمرو واحد والإنسان جميعه واحد، فالأولان بشخصهما والثالث بنوعه ونقول الانسان والحيوان والنبات والجماد واحد أى من حيث اشتراكها فى الجسمية إذن الكثرة تلازمها الوحدة فليست الوحدة خاصة بالشخص . كلا . بل هذا العالم كله نسميه واحدا . هذا ما كان يقوله القدماء فاقرأه فى كتاب (الشفا) لابن سينا . وتارة يقولون إن الواحد أصل العدد فليس هو بعدد والعدد يشمز بالعدد والواحد بتكراره مرة فأكثر أحدث الأعداد كلها ألوفا وألوف ألوف والواحد إذا حذف من الوجود لم يكن عدد والعدد إذا ذهب من الوجود لم يذهب الواحد . إذن العالم كله واحد . وهذا كلام علماء (الارتماطيق) أى علم خواص الأعداد . فعلماء الفلسفة القدماء يرون نفس العالم واحدا وعلماء الرياضة يوحدون العدد فانظر إلى علماء العصر الحاضر . ماذا فعلوا . نظروا بطريق العلوم الطبيعية فماذا قالوا . قالوا إن العالم كله واحد من حيث إن الكواكب كلها مركبات من عناصر كعناصر الأرض وقد تقدم شرح هذا فى هذا التفسير فلا تفاوت فى هذه المادة . العناصر التى تبلغ نحو ثمانين الآن ركبت الأرض منها ومن غيرها والشمس مثلها وكذلك سائر الكواكب والذى عرفنا ذلك هو الضوء فباختلاف الخطوط السود القاطعة للألوان السبعة تختلف العناصر فى الجميع، وأيضا يقولون كما تقدم أيضا إن السيارات تدور حول الشمس والعالم كله سيارات تدور حول شموس وهذه المسألة عينها هى الحاصلة فى الحجر والشجر والمدر والجبل . فهذه كلها مركبات من عناصر والعناصر من جواهر فردة والجواهر الفردة تحلل إلى كهارب وتلك الكهارب ماهى إلا نقط ضوئية يدور بعضها على بعض، فنقطة من نوع الكهرباء السالبة وأخرى من نوع الموجبة والدوران سريع جدا بحيث يكون ملايين فى الثانية الواحدة والمسافات بين الذرات التى يتركب منها الجسم كالمسافات بين الشموس والسيارات وباطن المادة خلاء يتخلله ذرات. كهذا العالم الذى نراه وهذا المقام قد مر قريبا فى هذا المجلد وفى غيره . ويقولون أيضا إن قطرة الماء تحوى ذرات عددها (٥) يتبعها عشرون صفرا كما نقلته سابقا عن علماء أمريكا فى عصرنا وانظر إلى عدد نجوم السماء فيما تقدم آنفا وأنها عدد ٢ على يمينه ٢٤ صفرا انتهى .

خلاصة ماتقدم

(١) وحدة فى آراء قدماء الفلاسفة من حيث إن العالم كله تلحقه الوحدة كثيرا أو قليلا كليا أو جزئيا .

(٢) وحدة عند علماء خواص الأعداد إذ يقولون إن الأعداد كلها ترجع للواحد بل هى واحد مكرر

(٣) وحدة عند علماء العصر الحاضر مثل أن النجوم والشموس مركبات من عناصر كما نرى فى أرضنا فهنا اتحاد فى التركيب وفى العناصر إجمالا .

(٤) اتحاد الكواكب المحيطة بنا فى الحركات مع الجواهر الفردة . فالسيارات تدور حول الشموس

والجواهر

والجواهر الكهربائية تدور بعضها على بعض فى الجوهر الفرد فالاتحاد هنا فى الحركات .

(٥) الكواكب كلها مشرقات وجميع الذرات مكونات من كهرباء أى نقطة ضوئية ، إذن العوالم اتحدت فى الأنوار سواء أكانت مظلمة أم مضيئة أى أن نحو الحديد والنحاس والأحجار عند البحث فى ذراتها نجدها مركبات من أنوار لاغير كأنوار الكواكب وهذا تقدم شرحه كثيرا فى هذا التفسير .

(٦) الأضواء التى فى هذه الجواهر الفردة التى يجرى بعضها على بعض يتخللها خطوط سود سواء أكان ذلك فى أضواء النجوم أو أضواء العناصر الأرضية .

(٧) بين كل ذرة وأخرى خلاء فسحته بالنسبة للذرتين كالسعة بين شمسنا مثلا وأرضنا بالنسبة لحجمهما .

(٨) القدر الصغير من المادة التى أمامنا كالقطرة المائية أعداد ذراته تفوق أعداد نجوم السماء بحسب ما يظن فى الكشف الحديث . وهناك وحدة لم تذكرها وهى :

(٩) الوحدة فى الأخلاق ؛ ذلك أن هذا العالم كله فيه الحر والبرد والموت والحياة والعز والذل ونجد الشرع السماوى يقول لنا جاهدوا وتقدموا القتال وسلموا أنفسكم للموت ولكل ما يحورِكم فى الحياة وأنتم راضون إذن الشريعة تقول بوحدة الأخلاق مع حوادث هذا العالم فنكون مع هذا الوجود متحدين فى أعمالنا نقدم أنفسنا للموت فى الفضيلة ونرضى بكل حوادثه بل إن ذلك قد جرى عليه الحكماء قبل دين الإسلام فهناك دين (اودين) كان فى أوروبا قديما جدا وهذا الدين يأمر أتباعه بأن لايموتوا إلا مقتولين ويحرم على المرء أن يموت على فراشه . وقد ذكر هذا الدين (كار ليل) الانجليزى فى كتابه (البطولة والأبطال) وأيضا نذكر ما ذكرته آنفا مذهب الفيلسوف (ليكورغس) فى نحو القرن الثامن قبل الميلاد فإنه علم اليونان بأسبرطة وغيرها أن رقى الناس لا يتم إلا بأن يحتملوا مرارة العالم ويذوقوا كل ألم من حر وبرد وضرب موجع ولا يتذمروا من ذلك كله ولا يتم رقيهم إلا بذلك ودرجوا على هذا النظام حينا من الدهر وهذا يجب أن تكون الوحدة سارية فى العالم وفى أفعال الناس .

(١٠) ووحدة فى العدل فانظرها فى سورة النحل عند قوله تعالى . « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » فهناك تجد نظام الجسم الإنسانى ونظام أخلاق الإنسان ونظام الأمة كلها جاريات على قانون واحد يشمل العالم كله . اللهم إنا نحمدك أن علمتنا أن قولك لنبينا صلى الله عليه وسلم « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » الخ هو القانون المتفق عليه فى طبقة هذا الوجود . اللهم إنك أنت الذى علمتنا مالم نعلم ونشكرك على الحكمة ونسألك المزيد وأن ترفع هذه الأمم الإسلامية إلى مقام الحكمة والعلم إنك على ما تشاء قدير .

أنا لست أقول لك إن ذرات قطرة الماء ونجوم السماء هذا المذكور هو عددها وإنما أقول لك هذا هو اتجاه عقول هذا النوع الإنسانى ، ففى الزمان الأول جعلوا هذا العالم واحدا من حيث إن كل موجود يطلق عليه اسم الواحد كثيرا كان أو قليلا حتى إن المقولات العشر التى ترجع إلى الجوهر والعرض قد شملت أقسام الوجود الحادث كله فى كتابى [الفلسفة العربية] فهى هناك واضحة كل الوضوح .

وفى هذا الزمان وجدوا أن عدد ذرات قطرة الماء أشبه بعدد نجوم السماء من حيث الكثرة وأن العوالم ترجع إلى كهرباء ، فالوحدة هى التى خطرت بعقول الفلاسفة قديما وحديثا فهذا العالم يدل على وحدة الصانع التى أنزلها الله فى القرآن وأوحى بها إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقال « قل إنما أنا بشر مثلكم » ولست أدعوكم إلى الفلسفة القديمة ولا الحديثة الدالتين على وحدة هذا الوجود على حسب عقولكم الدالة على وحدة صانعه بل أنا يوحى إلى بوحدة الخالق التى بها كانت وحدة العالم وأنتم ابحثوا عنها بعقولكم بالطرق التى توافق عقولكم فإن الوحدة مخبوءة فى هذا العالم ومخبوءة فى عقولكم « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »

وأهل الذكر فى هذا المقام هم الفلاسفة والحكماء فى العالم قديما وحديثا . انتهى والحمد لله رب العالمين .

الوحدة فى نظام الأمم

وبيانه أن الوحدة كلما كانت أعظم وأتم كان المتحدون بها أقوى وأكمل وهكذا . والدليل على ذلك أن الجبال تقوى على احتمال مالا تقوى عليه البلاد من حوادث الجو والرياح والصواعق والزلازل . وهكذا نرى الفيلة والآساد والانسان أقوى تركيبا واندماج عناصر كثيرة فى أجسامها تقوى على مالا يقوى عليه الجراد وأنواع الحشرات . فهكذا الأمم فإننا نجدها كلما كانت أشد ارتباطا وأكثر عددا كانت أقوى من غيرها . ألا ترى أن الأمم الكبيرة القوية المتحدة اليوم تهجم على الجاهلة . أتدرى لماذا ذلك ؟ لأن الأمم العظيمة قد سرت فيها أسرار الوحدة والوحدة سر الوجود . فالأمم التى غلبت غيرها بسر الوحدة فيها أتم إما لارتقاء صفاتها وإما لكثرة عددها وإما لهما معا . أما الأمم التى تمزقت وحدتها لجهلها وقلة المفكرين فيها فإن الله يعاقبها على ذلك الجهل بأن يسلط عليها الأمم التى سرت فيها الوحدة ليذلوهم . لماذا هذا . لأنهم نسوا الله فنسيهم ومن صفات الله الوحدة وهؤلاء جهلوها عملا فذلوا لمن اتصفوا بها . واعلم أن الأمم الاسلامية بعد القرون الأولى كانت كل همم رؤسائهم منصرفة إلى أن يتولوا أحكام المسلمين فتفرقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض وتركوا أكثر الشورى والشورى فى الأمم هى سر الوحدة ومتى انتخب الناس رؤساء منهم وهؤلاء تشاوروا فى أمورهم كانت هناك الوحدة التى ظهرت آثارها فى العالم الإنسانى فى أمريكا واليابان وأوروبا .

تلك الشورى التى أمر بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما حضرته الوفاة ، فبالشورى تكون الوحدة وبالغلبة يكون التفرق . فالحكم يكون لأهل الحل والعقد ويكون الملك أو رئيس الجمهورية عليه التنفيذ ولا يتولى هو إلا بمشورتهم ويقيد الملوك وميراث العرش بأوامر ذلك المجلس . هذا هو الذى جهله المتأخرون فى الإسلام فأضاع مجدهم . ألا فليغير هذا النظام الآن . ومن عجبى أن يكون اليابان والطليان والألمان والفرنسيون وهكذا أمم أخرى جميع هؤلاء اتحدت طوائفهم التى هى من جنس واحد . أما أبناء العرب الذين هم إخواننا فى النسب فقد تفرقوا قديما وحديثا وميلهم للعلم غالبا منصب على الشعر والأدب . فهل يكون اتحادهم بعد نشر أمثال هذا التفسير . وهل يعرف أبناء مصر وشمال أفريقيا وأهل الشام والعراق والحجاز ونجد واليمن أنهم من حيث التجانس لافرق بين تجانسهم وتجانس الألمان والطليان الخ وأن دينهم واحد ثم هم متجاورون فى البلاد متحدون فى اللغة . أفليس من المخزى المحزن أنهم يتفرقون وحدهم دون سائر الأمم . يظهر لى أن هذا التفرق الجهل المطبق . تعلمت تلك الأمم فاتحدت ، وجهل أبناء العرب فتفرقوا . نعم نشروا الدين وانتشروا فى الأرض وليس يجمعهم بعد هذا التشتت إلا دراسة جميع العلوم . وبعبارة أخرى السير على ناموس هذا التفسير والعمل بما فيه فبذلك يظهر فيهم النابغون وينشر التاريخ ملخصا والواقع والأحوال الماضية فتزول الجهالة وينشر النور ويعم . ومن الوحدة فى نظام الأمة استخراج ما كمن فى الأفراد من القوى والملكات وما فى الأرض من الخيرات . معادن وزراعة وغيرها . ومن ذلك حفظ أرباب الصناعات فى البلاد بالمحافظة على ما يصنعون بحيث يروج فى بلادهم . وهذه قاعدة مطردة فى الأمم جميعها ولكن البلاد لم تستقل استقلالا تاما كمصر وشمال أفريقيا وأمثالها . فكل هذه أبوابها مفتحات بلا حجاب فبضاعة الأجانب هى التى تروج عندهم فيضعف صناعهم وتجارهم فتقل الوحدة ويضعف الشعب وتذهب ريحهم . ولقد أخذ قواد الشعوب المهضومة يدعون إلى ذلك كما تقدم فى آخر (آل عمران) من النداء الذى نشره (غاندى) بالهند لقومه فلبوه وقللوا من شراء بضاعة الأجانب . فى كل ذلك تكميل للوحدة .

ومن هذا القبيل ما كتبته فى هذه الأيام فى مجلة (النهضة النسائية) بمصر وذلك لتقوية الوحدة فى الأمة وهذا نصه فى عدد مايو سنة ١٩٢٨ .

خطاب

خطاب مفتوح

إلى جماعة نهضة السيدات

أيتها السيدات الفضليات . اطلعت اليوم على المجلة التى تصدر باسمكن بتحرير مديرتها فأعجبت بها وايم الله أيما إعجاب وراقنى أسلوبها وأدهشنى للصطفيات من حكمها وغوالى دررها وجواهرها فى حلاها وحللها وتعجبت كل العجب من رق على ومبحث فنى ومطلب جدى وحكمة بالغة وآية ساحرة فحركت تلك المناظر ما كمن فى النفس من حب الأوطان وما خامرها من غرام برقيها وغرام ثابت فى الوجدان .

وحرك وجدى بعد ما كان نائما ... برأد الضحى مشغوفة بالترنم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدم

أيتها السيدات الفضليات . إن الله خلق الانسان صنفين : ذكرا وأنثى وليس يقوم شأن أحدهما إلا بمساعدة الآخر كما وضح، إن الله خلق للانسان يدين تساعد إحداهما الأخرى وهكذا العينان والأذنان هكذا أبرز هذين الصنفين فى نوع الإنسان ليشتركا فى نظام الأسرات وحفظ الأبناء والبنات فلم لا يشتركان فى رقى البلاد وإنهاضها .

أيتها السيدات الفضليات . لقد علمتن نبأ الحوادث العرابية فالنهضة المصطفوية الوطنية فالسعدية الوفدية فما بالكن لم تقاسمن الرجال فى حفظ البلاد . نحن لا نطلب منكن واحدة تمثل (جان دارك) فى فرنسا فتتقدم صفوف الرجال للقتال وجهاد الأعداء فنحن لسنا فى حرب الميدان ولا نطلب منكن أن تفعلن ما فعلته السيدات الهنديات اللاتى قفون أثر الزعيم الهندى الكبير الأستاذ (غاندى) من مقاطعة للنسوجات الأجنبية إذ قال كما جاء فى مجلة [الجامعة الهندية] ما يأتى:

(إن مقاطعة المنسوجات الأجنبية من الانتقام ولكنه لا مفر منه لأنه لازم للوطنية لزوم النفس للحياة إذ بدونه لا يكون استقلال وإن جاء لا يؤمن عليه . إن أنواع المنسوجات الأجنبية تجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وما هو أقبح من هذا وهو العار على كثير من الأسرات ولا شىء يستطيع صد الوطنى عن القيام بوظيفته ولو كان قوة الحكومة)

هذا بعض كلامه الذى اتبعه الرجال والنساء فى الهند . وإنما لم أطلب ذلك منكن لأن مصر فيها جاليات كثيرة لهن بها صلاة حسنة بخلاف الهند فهيا واحدة . إنما أطلب منكن ما فعله فضليات النساء فى تركيا فقد جاء فى الأهرام بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٩٢٨ م مانصه :

الأستانة فى ٣٠ مارس سنة ١٩٢٨ (تألفت جمعية من السيدات المسلمات من الأسر الوجيهة لمقاومة التبرج (التواليت) بين النساء المسلمات لأن ذلك لا مبرر له وهو من بواعث الفقر فى الأمة)

هذه هى الجمعية التى ألفت من الأسر الوجيهة . أيتها السيدات المصريات أنتن أحق بذلك من السيدات التركيات . إن تركيا مستقلة استقلالا تاما ولكن الرجال هناك لما علموا أن انكباب النساء على المنسوجات الأجنبية يورث الفقر والفقر يتبعه ضياع البلاد . استعانوا بالنساء لحفظ المال والأخلاق وخص النساء بالطبقة الراقية لأن غيرهن يسخر الشعب منهن إذا وعظن بالاقتصاد وعدم الإسراف فينسب ذلك لفقرهن وقلة ذات يدهن . فيا كن الله أيتها السيدات الفضليات المصريات . فإذا كانت تركيا التام استقلالها قد أعوزها مساعدة السيدات فما بالكن بمصر الأسيفة الباكية التى لانصير لها ولا معين . فياليت شعرى من من عريقات المجد ونبيلات الشرف منكن تلبى هذا النداء . أقسم الجوهرى قسما حقا لاحانثا فيه ولا آثما أن التى تتقدم

سيدات مصر فى هذا لا يوازيها كثير من الرجال ولا يكون إشراق شمسها ومجد عملها وحسن صنيعها قاصرا على مصر بل يتعداها إلى كثير من بلدان الشرق ويقترن اسمها بأعظم الأسماء بعد الأنبياء وينالها من الثواب فى الآخرة ماجاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة »

ناشدتكن الله أيتها السيدات إلا ماحركتن وجدان النفوس وأثرتن ثائرة الشعور وقصدتن سيدة ترفع رأس المصريين فإلام أيتها السيدات النكوص وحتام الجلوس . أفترضين أن تكون مصر معطلة أحد الشقين أو فاقدة إحدى العينين فيقل العدد وتضيع البلد ويذهب المال والولد ، فياليت شعرى من هذه السيدة التى ستطلع بدراً فى سماء مصر فتحفظ أموالنا وتصون أعراضنا وتحل مشاكل الزواج عندنا ويكثر باتباعها نسلنا ويكون اسمها عطر المجالس وهى قدوة الأوانس ومن أشياعها تصطفى العرائس ومن خالفها منهن حقرها الأهل والجيران ونبذها الشبان وأصبحت فى خبر كان . إن هذه السيدة عين الله ترعاها وهى شمس مصر والبلاد ضحاها « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » انتهى .

هذا ما كتبته ونشر فى التاريخ المذكور . وما هذا وأمثاله إلا السعى فى وحدة الأمة ونشرها فى هذا التفسير أتم ليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن وحدة الشعب فى تجارته وجميع أعماله عما يرقيه ويجعله أهلا للاستقلال وإلا فماذا يقول الله عز وجل فى آية أخرى « وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب » نحن كلنا نعلم أن الله إله واحد . إذن ما هو التذكر الذى يتذكره أولو الألباب . ومعلوم أن أولى الألباب هم أرباب العقول الصافية الراقية لأنهم أشبه باللب وغيرهم كالقشر . فما هى الذكرى . الذكرى أشبه بما قلناه هنا . إن أبناء العرب نشروا الإسلام ولكن هم الآن لم يتذكروا به علم الوحدة فى النظام الذى ذكرهم الله به وذلك لقلة المفكرين فى أبناء العرب وقلة المفكرين لعدم انتشار التعليم . ومتى انتشر التعليم أدركوا أن كل أمة من الأمم كالصين واليابان والفرنسيين قد اتخذوا لهم وحدة جمعتهم . أما أمة العرب وأمة الترك فلم يجتمعوا اجتماعا تاما . فالترك فى الأناضول لم يتحدوا مع الترك فى الصين ولا مع الترك فى الروسيا فهذا معنى قوله « وليذكر أولوا الألباب » المذكورة فى سورة إبراهيم فإنه قال تعالى « ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب » فهذا من ذكرى أولى الألباب . ألا فليذكر المسلمون ولينشروا التعليم فى الرجال والنساء والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء التاسع من كتاب (الجواهر فى تفسير القرآن الكريم)
ويليه الجزء العاشر ، وأوله : تفسير سورة مريم

فهرس
الجزء التاسع من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة

صحيفة

نطاقها ضيق وليس حبس الإنسان فى المادة إلا كحبس المسجون فى السجن فليس بقاء المسجون فى سجنه دليلا على توقف حياته عليه .

١٠٦ هنا (ثلاثة براهين) على أن الفكر أصل وهما (١) رجوع الغذاء فينا إلى فكر (٢) ولا عمل لنا إلا بعد الفكر (٣) الانسان يسقط عن الحائط بالوهم . اللطائف تحكم الكثائف كالكهرباء والبخار فالروح ألطف وأقوى . فى جسم العنكبوت مصنع وكل نفس تعطى من العلم على مقدار حاجتها . فإذن كل حى فيه غريزة صادقة تطلب ما يحتاجه فهناك غريزة عامة لحب البقاء فهى إذن تدل على البقاء طبعا بهذا البرهان . ذكر عالم سويسرى سقط من أعلى جبل فأخذ يدرس ماحصل للناس مثلها وألقاها محاضرة ، يقول إنه لما سقط ظهرت له أعماله الماضية كلها أسرع من البرق (جون لامنت) غرق فى البحر فظهرت له جميع الحوادث الماضية .

١٠٧ طبيبة جرحت فرأت جميع حوادثها ثم استيقظت . ياقوتة فى الحياة بعد الموت وفيها ستة وجوه وهى : (١) الفطرة الإنسانية شاهدة بالبقاء كما تقدم (٢) حب الناس الأخذ بيد الضعيف دال على أن العدل لا بد أن يأخذ مجراه (٣) لايقنع الانسان بكمال فى الدنيا . إذن الكمال فى عالم آخر (٤) أين غاية اللذات وغاية الآلام (٥) أظهر الكشف الحديث أن جميع سكان الأرض يؤمنون باليوم الآخر (٦) النوم ثم اليقظة يشبهان الموت والحياة . الرواقيون يحرصون على الأخلاق اتباعا (لسقراط) ويسمون الروح (الجزء الإلهى) وعلماء الهند يحكون النفس فتقوى أرواحهم .

١١٣ هنا (ثلاث حوادث . الحادثة الأولى) حادثة الفقير الألمانى (ديلر) لما قطع وريده بيده ليموت ثم أحب الحياة فصمم بهمته على إيقاف الدم ثم غاب عن الحس ثم رأى أنه على حافة قبر صنع له ورأى أن فيه قوة خارقة للعادة وسمع أن الفتاة (تريزنيومان) البافارية تعتريها أوقات تظهر على جسمها آثار الدم التى تتوهم أنه ظهر على جسم المسيح بالتأثير الدينى فأعلن أنه يفعل ذلك بإرادته فنجح وبهذا ظهر أن الأمر كله يرجع لقوة النفس سواء أكان بآثار الدين أم بهمة النفس وقوتها . وبهذا تمت الحادثتان .

١١٤ (الحادثة الثالثة) حوادث روحية بمصر على يد (طهرا بك) إذ ظهر على المسرح ووضعوه فى صندوق مدة ثم أخرجوه حيا ووضعوا مسامير قوية تحته وقد كسروا حجرا عظيما فوق جسمه وهو لم يتأثر وكل ذلك بحضور العلماء والأطباء . ويقول إن هذه قوة الروح وكل امرئ يقدر أن يفعل ذلك .

١١٧ الكلام على عجب الذنب وبقاؤه فى الاسلام وقول علماء الهند إنه محل العلم والتعجب من اتفاق الاسلام وعلوم الهند فى هذه النقطة . وبيان أن هذا المقام حل لمشكلة آثارها فى نفس شاب مراكشى رأى جماعة لاصلاح عندهم يصنعون العجائب فبهذا ظهر السر وأن هذا لايدل على الكمال ، فهذه القوى كامنة فى النفس والأنبياء وجهوها للكمال والكهان أخذوا يعثرونها هنا وهناك . وذكر رأى ابن سينا فى ذلك وكذلك ذكر العاجين فى ابن خلدون ويلحق بذلك التنويم المغناطيسى وأن للنوم (بالفتح) يؤمر بالقتل فيقتل .

١٢٠ الحجاب (خمسة أنواع) حجاب جسمى وحجاب خلق وحجاب عقل وحجاب علمى وحجاب دينى .

١٢١ سورة الكهف وهى (قسمان : الأول) فى قصة أهل الكهف (الثانى) فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام (القسم الأول) من أول السورة إلى قوله « وجعلنا لمهلكهم موعدا » مشكلا .

١٢٤ تفسير بعض الألفاظ .

صحيفة

كما قاله (وليم اكرويد) الذى ابتدأ مقاله بذكر الأضواء السبعة الشمس ، وأن الألوان ماهى إلا ضوء الشمس لا غير كما أن علماء الطبيعة يقولون إن المادة ما هى إلا نور متجمد ، فالمادة نور واللون نور فرجع الأمر كله لقوة لا غير ، ويقول ليست دراسة الألوان فى الحيوان سهلة فلندرس البسائط فالمركبات فاللون أسود فأسمر فأحمر فبرتقالى فأصفر وهكذا إلى الأبيض فالأسود أكثر حرارة وتقل بالتدريج إلى الأبيض وظهر السنجاب أبيض وصدره وبطنه أحمران على القاعدة المذكورة من شدة التعرض للشمس وعدمه . ومما يدل على أن هذا العلم لايزال فى المهد طفلا أن (نمر البنغال) بالهند متناسب الأجزاء من الجانبين تناسبا هندسيا ومثله حمار الحبشة .

١٤٨ (شكل ٣) فهذا الجمال لايعرف سببه من حيث شدة التعرض للشمس وقلته إذ الألوان المختلفة معا فى مكان واحد .

٩٤ من الخيل السمر تكون ذيولها سوداء .

١٤٩ النماذج الهندسية الجلية فى حشرة أبى دقيق الطاووسية (شكل ٤) ثم ذكر أن ظهر الطيور وبطنها كالذى تقدم فى ذوات الأربع ويظهر فى الطيور المائية أتم . فشكل هذا على قاعدة واحدة تبع الشمس قربا وبعدا . فأما الزينة المذكورة فهى على غير هذا القانون مجهولة وهذا معنى التأكيد فى قوله « إنا جعلنا » بإن وبالجملة الاسمية ، ومن بديع الجمال الذى يدهش اللب فى تفسير الآية وتأكيد الجملة .

١٥٠ (شكل ٥) وفيه الفراشة السفلى فى نقوشها هواء يعكس النور والفراشة العليا فيها مادة ملونة ، فالتأكيد هنا فى الجملة نظير ما فى قول الشاعر « إن بنى عمك فيهم رماح »

١٥١ (الفصل الثانى) فى قوله تعالى « وجعلناها رجوما للشياطين » إن الجمال لذوى العقول ليتذكروا به فأما غيرهم فهو لهم فتنة يصدهم عن العلوم ، فالجمال عند الجهال داع للشهوات وعند العلماء داع للرقى العلمى والجهال كلما أرادوا الصعود أقعدهم الجمال الذى رفع الحكماء : «إن الدنيا خضرة حلوة» الحديث . بيان «قل من حرم زينة الله» وأن من تلك الزينة ماعثر عليه فى مقابر قدماء المصريين مثل (توت عنخ أمون) ومثل ما عثر عليه فى آثار الأشوريين والكلدانيين والعيلاميين قبل (توت عنخ أمون) بنحو ١٧ قرنا من القلائد الذهبية قبل خمسة آلاف سنة مسننة على هيئة أوراق الذهب ومن تماثيل كانت مباحة لهم كتمثال قرد ذهبى نحو ثلث قيراط دقيق الصنع جدا .

١٥٣ بيان أن هذه الحلى مباحات للابسين واجب صنعها على الصانعين متى كانت مباحة لنفهم معنى قوله « لنبلوهم أيهم أحسن عملا » وقول الله « وزيناها للناظرين » يدل على أن هذه الزينة فى العالم لم تخلق إلا لهم لا للابسين الذين لايعقلون إلا زينة أنفسهم الخاصة .

١٥٤ (الفصل السادس) « أم حسبت أن أصحاب الكهف » الخ يدل على أن هذه الزينة ليست مقصودة لذاتها فهى أشبه بما يكتبه الكاتبون فى الألواح ليقرأ ثم يزال . شمس عقد الزينة فى بهجة الجمال ليس الجمال مايفهمه ذكران الحيوان من الإناث وبالعكس . كلا . أبصار الجهلاء كأبصار الخفافيش ترى فى الظلام وبصائر الحكماء كأبصار سائر الحيوان نهارا . عقول الناس بالنسبة للجمال كالأرض والعلم كالماء فالعلم يحيي العقول فتعرف الجمال .

١٥٥ حصر أهم الطرق التى بها تثار العقول لادراك الجمال وفهم الزينة (١) خوارق العادات (٢) ظهور الغرائب على ألسنة الصالحين (٣) الخيال (٤) الجد والنصب بالدراسة وبالسير فى الأرض .

كتاب [الإبريز] ونصائح الشيخ الدباغ ، وكتاب [درر الغواص ونصائح الشيخ الخواص] فيه .

صحيفة

فى الأول أن حلف الناس بالصالحين والتوسل بهم بسبب الانقطاع عن الله بمخالفات كالتقرب للظالمين والخوف منهم وعدم النصيحة الخ ، كل هذا أوجب بعد القلوب عن ربها . وفى الثانى أن عباد الأوثان أحسن حالا ممن يقرءون الأوراد لأجل النصب والجاه والرزق وهكذا وأن الشيخ يلقن ألف تلميذ ذكرا فلا ينتج له مريد واحد ، وهذه الكتب ظهرت ولم تؤثر فى الأمم الإسلامية .

١٥٧ (الطريق الثالث) غرائب العلم من الخيال مثل الاستعارات التمثيلية وجميع الكنايات وما أنتجه علم البيان وفوق ذلك أمثال كتاب [كليلة ودمنة] و [ألف ليلة وليلة] والخرافات التى فيهما . فمن الثانى قصة مدينة النحاس ، وهى خرافة تزهد فى الدنيا ، وذلك أن موسى بن نصير ومعه الشيخ عبدالصمد قد ظهر لهما جنى أخبرهما أنه محبوس من أيام نبى الله سليمان إلى أيام عبد الملك بن مروان وأنهما دخلا مدينة النحاس ورأيا حليا وعجائب وتماثيل وفتاة كأنها حية وعليها حلل لانظير لها فقرب منها رجل منهم فقتله سيافان مصنوعان بالحكمة يقتلان من يقترب منها وقد رأيا قصة على لوح أن (ترمز) من ذرية العمالقة قد حبس المطر عن مملكته سبع سنين فمات القوم جميعا . كل ذلك خرافة يراد بها الزهد فى الدنيا .

١٥٨ (القصة الثانية) قصة أبى قير وأبى صير وهما صباغ وحلاق والأول مخادع والثانى صادق وقد أحسن الثانى إلى الأول ولكن الأول ضربه وآذاه ثم وشى به عند الملك وظهر الحق بعد ذلك فقتل الصباغ وأحسن للحلاق . وملخص هذه الخرافة أن الأمين مقبول والخائن عاقبته الخسران .

١٥٩ (الطريق الخامس) السير فى الأرض وبذلك السير يرى الانسان الضوء الشمالى .

١٦٠ (شكل ٦) وهو فى حقيقته ملون بالحمرة والخضرة والصفرة الخ .

١٦١ وهناك عجائب ترى عند عرض ٨٢ درجة شمالا وهناك ترى قباب لامعة مشرقة محلاة بلون الحمرة والصفرة الشرقين وهناك شفق جنوبى أيضا . وترى فى الشمال مناظر سحرية فى جبال الثلج العائمة على الماء فى الظلام وهى مهلكة وساحرة كأنها قصور مزخرفة محلاة بأنواع الحلى .

(شكل ٧) و (شكل ٨) وهما صورة الشفق الذى شوهد عند (أورلين) سنة ١٨٧٤ .

١٦٢ صورتان (٩) و (١٠) للشفق الشمالى الذى شوهد عند (ألاسكا) وعند (بريفليونت) .

١٦٣ الكلام على الفصل الأول فى قصة أصحاب الكهف وأن هذه جاءت فى القرآن لغرابتها وإن كان النوم معروفا . ولقد كان قدماء المصريين عند ظهور عجل لهم جديد يتخذونه إلها يضربون ألف آلة موسيقية ذلك لأن الغرابة عند الانسان مناط انقياده وقصة أهل الكهف نظيرها الحشرات والحيات تنام شتاء وتستيقظ فى الربيع ولكن الغرابة هنا لها الأثر الكافى الإقناعى .

١٦٤ أصحاب الكهف ومقترحات أهل مكة .

الكلام فى خوارق العادات وفى الكرامات والأولياء . وقد يظهر من الذاكرين أتباع الشيوخ علوم صادقة عالية كما يظهر فى التنويم المغناطيسى .

١٦٥ آثار ذلك فى الاسلام وما يجب أن يكون ، فإذا ظهرت كرامة على يد رجل مستغرق فى الله فانه يجب عليه أن يزيد تواضعا لأن هذا ليس مقصود الاسلام بل مقصوده ارتقاء العقول ولا فرق بين هذا الذى ظن نفسه وليا وهو مغتر وبين صاحب الجنتين المذكورتين فى سورة الكهف .

الصوفية ودول أوروبا الذين اتخذوهم آلة يحاربون بها المسلمين .

١٦٦ واجب المسلمين فى المستقبل أن يدرسوا العجائب الجمالية الصغار والعلوم الحقة الكبار .

صحيفة

حساب السنين الكبيسة والبسيطة وأن كل مائة سنة شمسية تكون ٣٠٩ قمرية وأن ذلك من أعجب أسرار الآية بل هو معجزة وفرق بين قصة أهل الكهف التي هي خوارق وبين الحساب المنظم الذي قال الله فيه «عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا» فالأول لتعليم الناشئين والثاني لتعليم الكبار، وهذا عجب عجاب أن تكون الخوارق مبدأ والحساب والعلوم الأخرى نهاية وهذا هو النظام في جميع العالم الآن .

١٦٧ (الفصل الثالث) في قوله تعالى «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» .

١٦٨ (الفصل الرابع) في مسألة الجنتين وأن أحد الأخوين اغترّ بهما . وأن الناس ما ضرّهم إلا دليلان يرجحان السفسطة (١) أني أعطيت هذا المال أو العلم للاستحقاق (٢) وأني إذا أنعم الله عليّ في الدنيا فهكذا ينعم عليّ في الدار الأخرى .

١٦٨ (الفصل الخامس) «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا» .

الكلام على قوله تعالى «ويلبسون ثيابا خضرا» الخ وبيان أن ألذ المطعوم وهو العسل من حشرة، وأنعم الملبوس من دودة وأغلى الحلي ما كان جوهرا من الصدف ، وأن ذلك كله ورد أنه في الجنة .

وبيان أن ظاهره للعامة . فأما الخاصة فإنهم يقولون في الجنة «مالا عين رأت الخ» وهذه رآها الناس إذن يلجئون الكناية والرمز ويستشهدون بالحديث وبالآيات الأخرى ويقولون إن الخواص يتنعمون حسا ومعنى بالعلوم وإدراك الحقائق وبهذا وحده يرون ربهم وأيضا أهل جهنم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها الخ نظير ما نراه في الدنيا فإن الناس كلما حصلوا لذة ازداد طلبهم لغيرها وهذا كقوله تعالى في سورة الكهف «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء» الخ .

١٧٠ جوهرة في قوله تعالى «واضرب لهم مثلا رجلين» الخ وذكر مثل يوضح ذلك من التاريخ إذ فتح المسلمون فارس والروم وأتوا إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص واستولوا على (بلبيس) ثم على حصن (بابليون) وهناك حصلت مكاتبات بينهم وبين (المقوقس) بعنف . وههنا يجدر الاتعاظ بكلام عبادة بن الصامت أمام المقوقس وقوله نحن يكفينا أقلّ الطعام والشراب وما زاد نصرفه في سبيل الله والموت خير لنا لأنا نكون في الجنة وهذا هو مقصود الآية إذا ملكنا لا نتعلق بالملك ونكون عباد الله مخلصين ويقول إنا استودع كل منا ربه أهله وولده وأن المسلمين المتأخرين جعلوا الفتح مقصودا لذاته فهلكوا مصداقا لحديث «إن أخوف ما أخاف عليكم» وفي آخر الفتح تشبيهان : تشبيه المسلمين في التوراة وتشبيههم في الإنجيل . فليكن الفتح الآن فتحا علميا .

١٧٤ (الجوهرة الثالثة) في قوله تعالى «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» إلى قوله «وما كنت متخذ المضلين عضدا» وذكر مذهب الباطنية ونظام الملك الوزير وعمر الخيام .

١٧٥ من هم الباطنية والكلام عليهم نقلا عن المواقف . وأن (الغبارية) وهم طائفة من الفرس أرادوا كسر شوكة العرب فلم يجدوا إلا إدخال الشك في الدين ورئيسهم في ذلك حمدان قرمط وقيل عبد الله بن ميمون القداح . ولهم في الاستدراج سبع مراتب : الرزق والتأنيس والتشكيك والربط والتدليس والتأسيس والخلع والسلخ ويسمون الاسماعيلية والباطنية والقرامطة والحرمية والمحمرة والمزدكية والتعليمية والملحدة . والنقباء عندهم سبع وهم إمام وحجة وذو مصة وأكبر وداع مأذون وكلب رفيع الدرجات ومؤمن يتبع الداعي . غرام الإسماعيلية بالأعداد .

١٧٧ بيان أن أوروبا الآن تفعل مع المسلمين مافعله ابن الصباح قديما كلاهما يحرم العلم على المسلمين فأكثر

فأكثروا

صحيفة

فأكثروا الصوفية شاركوا أوروبا فى تقليل العلم ومنعه عن المسلمين الذين هم السبب فى رقى الإنسانية .

١٧٧ (المسألة الثانية) فى الكلام على نظام الملك الوزير وعمر الخيام وحسن بن الصباح وأنهم تعاهدوا أن من ارتقى ينفع أخويه فارتقى نظام الملك للوزارة ونفع عمر الخيام فأعطاه مالا يستعين به على العلم وأكرم ابن الصباح الذى خان رفيقه بعد ذلك ، فاحتال نظام الملك فرد كيده فى نحره فذهب ابن الصباح إلى مصر وصار من الداعين للباطنية . وبيان أمر الباطنيــة وأنه كان أولا ببلاد المغرب ثم أتوا إلى مصر ثم انقرضوا منها أيام صلاح الدين الأيوبى . وهذا يوضح طريقة (أغا خان) بالهند .

١٧٩ (المسألة الثالثة) زهد أكثر الأمم الإسلامية اليوم فى فهم القرآن . وبيان أن السلطان عبد العزيز عرا كش كان رجلا صالحا ولكن الفرنسيين أرسلوا فأخذوا راقصات من مصر ليوهموا المسلمين أنها للسلطان وهو لاعلم له به لأن المسلمين زهـدوا فى العلوم وفى السياسة وفى الصناعات للجهل الذى بثه شيوخهم الجاهلون .

١٨٠ جوهرة فى إيضاح الكلام على حسن بن الصباح وإجمال تاريخ الإمامية والزيدية والكيسانية وفهم معنى الشيعة وأن الإمامة ركن من أركان الدين عندهم والإمام المعين معصوم ، وهؤلاء إمامية وزيدية والأولون يتبرءون من الشيخين والآخرون لايتبرءون والإمامية تنتقل الإمامة عندهم فى ولد فاطمة بالنص والزيدية يقولون إنها فى ولد فاطمة باختيار الشيوخ ولا بد أن يخرج الإمام ، والإمامية تبرءوا من زيد لأنه لم يتبرأ من الشيخين فرفضوه فسموا رافضة . وطائفة ساقت الخلافة فى محمد ابن الحنفية ثم إلى ولده فهذه هى الأحوال الثلاثة ولها فروع تطول ، ومنهم الغلاة الذين يقولون بألوهية الأئمة فهم بشر إلهيون أو الإله نفسه حل فيهم كما تقول النصارى فى عيسى ، ومنهم أيضا الواقفية يقفون على واحد منهم مثل محمد ابن الحسن العسكرى الذى دخل السرداب وهم ينتظرونه الآن .

الكلام على الكيسانية . قد ساقوها من محمد ابن الحنفية إلى ابنه هاشم وهو أوصى لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس وبعده إلى ابنه إبراهيم الإمام ثم إلى أخيه عبد الله السفاح ثم إلى أخيه أبى جعفر المنصور . وهـذه دولة بنى العباس . الزيدية أتباع زيد بن على رضى الله عنهما وقد خرج بالكوفة وقتل وصلب . وظهر بعده (يحيى) بخراسان . وبعده (النفس الزكية) الذى خرج بالحجاز فقتل ، ومنهم من ساقوا الإمامة من محمد بن عبد الله إلى أخيه إدريس الذى فر إلى المغرب وقام بعده ابنه إدريس واختط مدينة فاس .

١٨١ الإمامية . هم الذين ساقوا الإمامة إلى جعفر الصادق وبعده إما إلى ابنه إسماعيل وإما إلى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية والإسماعيلية نقلوها إلى ابنه محمد المكتوم ثم ابنه جعفر ثم ابنه محمد ثم ابنه عبد الله المهدى الذى ظهرت دعوته فى كتامة بالمغرب وملك القيروان والمغرب ثم مصر ، وقد خلط هؤلاء كلامهم بكلام الفلاسفة وحسبوا بالجمل وشغلوا الناس بالأوفاق ولكن حسن بن الصباح فتح طريقا آخر كما فى كتاب الشهرستانى أبى الفتح محمد إذ ذكر حجج ابن الصباح الأربع للاستدلال على أنه هو وإمامه على الحق والفرق الباقية فى الإسلام على الباطل .

١٨٣ « وإذ قال موسى لفتاه » ذكر هذه الآية مشكلة إلى آخر السورة .

١٨٥ تفسير الكلمات .

١٨٧ مغزى هذه القصة .

١٨٧ إيضاح هذا المقام أى أسرار هذه القصة . وأن المؤلف تخيل فلاحا يسأل شيخا يقول له أنا حائر فى أمر

صحيفة

مسلمى الروس ومقابلتى له بالمصادفة العجيبة قبل سفرى لوالدى إذ أصيب وأخبارى له بألطاف الله فى والدى وقوله إن الله مع المصلحين .

٢١٠ الكلام على ذى (ذى القرنين) والتدقيق فى أمره وأن فتية الكهف فى أول السورة فروا وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فروا من الظلم مثلهم إلى الحبشة وإلى المدينة وأن الجدار أقامه الخضر والسد بناه (ذو القرنين) والسفينة خرقت والغلام قتل فى آخر السورة إشارة إلى أن أمة الاسلام عند قوتها تمنع الضرر قبل استفحاله وتنفع الأفراد والأمم . وذكر جواب سؤال (أيعلم الله شك الناس فى هذه القصة أو لا يعلم) والجواب عليه .

٢١٢ ذكر أسماء من اشتهروا من أمة اليونان بأثينة وأسبارطة مثل (كودروس) و (ليكورغس) وهكذا إلى اسكندر . فهل فيهم من فى اسمه (ذو) أو ما فى معناه ؟ كلا .

بيان ملوك اليونان والنابغين فيهم مثل (فيدون) و (ليكورغس) و (رافيطوس) و (سولون) و (فيليب الثانى) و (اسكندر الثالث) الملقب بالأكبر ، فهؤلاء وغيرهم فى أسمائهم معنى (ذى القرنين) الكلام على بلاد اليمن وملوكها ، وأنها تنقسم إلى مخاليف والمخاليف وهى (٨٠) تحتها محافد والمخلاف يتولاه ، قيل والمحفد أو القصر قد يتحول إلى مدينة وصاحب المحفد يلقب بلفظ (ذو) مثل (ذو غمدان) والجمع أذواء والأذواء يرتقون إلى أقيال والأقيال يرتقون إلى ملوك ثم إلى تبابعة جمع تبع ، وقد جاء فى قصيدة لشاعر حميرى نحو (٦٠) من الأذواء منها الثامنة أولا والباقى بعد ذلك مثل ذى ثعلبان وذى خليل وذى نيقان الخ . إذن ثبت أن (ذا القرنين) أقرب إلى أهل اليمن لأنه لم يخرج عن كونه من الأذواء وارتقى بل ذكر فيهم (ذو القرنين) أو (افريقش) الصعب ولكنه ليس هو المذكور فى القرآن وإن بالغ فى أمره القصاصون ، وبيان أن دولة (سبأ) وقبلها دولة (معين) و (القتابيون) وبعد سبأ الدولة الحميرية ومنها التبابعة وبيان ملوكهم .

حكمة نزول هذه الأخبار فى القرآن وذلك ليذكر المسلمين الحاليين ماحل بآبائهم من أمة يأجوج ومأجوج وليكون المصلحون فيهم نافعين للأفراد والأمم كمسألة إقامة الجدار وبناء السد بلا أجر وأن الأمم الاسلامية قد هجروا أوطانهم لضعفهم أولا كأهل الكهف وفى آخر الأمر ينفعون الأفراد والأمم كما تقدم .

وأيضا ان المسلمين بعدنا يبحثون فى هاتين الأمتين فيتبين لهم أولئك المصلحون الذين سنوا للأمم مجالس النواب والشيوخ التى أخذت تسرى الآن فى بلاد الاسلام وعلى علمائهم دراسة تاريخ هذه المجالس ليكونوا على بينة .

٢١٧ جوهرة فى قوله تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى » . وبيان خطبة (جينى) العالم الانجليزى فى جامعة أمريكا إذ شرح عمر الأرض والشمس والانسان الحالى والمستقبل وبيان الأجرام الفلكية وأن لها نهاية ، أما الفضاء فلا نهاية له ، والأجرام الفلكية تمتد إلى أكثر من ألف ضعف المسافة التى التى بيننا وبين السدم وأن الكهرباء تنطلق على الأرض وترجع إلى محلها ، فالنور يجرى على محيط دائرة والنور يجرى حول الفضاء الكروى مائة ألف مليون سنة ، وبيان حجم الأرض والشمس

٢١٩ عدد المجموعات ثلاثين ألف مليون مجموعة وشمسنا حبة رمل من مجموعة منها وعدد النجوم (٢) على يمينها (٢٤) صفرا ، وذكر أضعف النجوم نورا وأشدها الذى هو أقوى من ثلثمائة ألف ضعف نور الشمس والجوزاء أكبر من الشمس (٢٥) مليون مرة وقوة شعاع الشمس ونور الشمس بالنسبة إلى

نورها كنور الحباحب بالنسبة إلى نور الشمس ، وقوة الشعاع فى البوصة المربعة من الشمس تعادل خمسين حصانا وهى فى بعض النجوم تساوى ثلاثين ألف حصان . وبيان أعمار الأجرام الفلكية التى تبلغ إلى عشرة آلاف ألف مليون سنة . وعمر الشمس الآن عشرة آلاف ألف مليون سنة وربما تعيش ملايين الملايين أيضا هذا بمعنى « قل لو كان البحر مدادا » الخ .

٢٢٠ جوهرة فى قوله تعالى « قل إنما أنا بشر مثلكم » الخ وهى لبيان أن الكثرة المتقدمة تشملها وحدة وبيان الوحدة عند قدماء الفلاسفة وأنها ملازمة للوجود فكل موجود كثر أو قل يطلق عليه اسم الواحد ، ويقول علماء (الارتماطيق) العالم كله واحد مكرر وعلماء العصر الحاضر وجدوا الوحدة فى التركيب . فكل شمس وكل كوكب وكل قمر مركبات من عناصر تماثل العناصر المعروفة وهى كلها ذرات فكل ذرة لها دورات كدورات الكواكب حول الشمس . وقد وجدوا فى قطرة الماء من الذرات أعدادا عظيمة تقرب فى كثرتها من عدد نجوم السماء .

خلاصة ماتقدم مثل الوحدة فى آراء الفلاسفة ووحدة الأعداد ووحدة علماء العصر الحاضر واتحاد الكواكب ووحدة فى الإشراق لأن العوالم كلها سواء أكانت مظلمة أم مضيئة كالشمس والحديد والنحاس ترجع إلى ذرات ضوئية ركبت منها تلك العناصر . ووحدة فى جرى أجزاء الذرات بعضها على بعض ، ووحدة فى أن بين الذرات متسعات كالتى بين الأرض والشمس ، ووحدة فى أن الصغير مما نراه يحوى عددا من الذرات يقرب من احتواء العالم على كواكب ، ووحدة فى الأحوال من حر وبرد وموت وحياة . وفى الأخلاق كالجهاد الذى أمرت به جميع الديانات . ووحدة فى العدل كما فى قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل » المشروح فى سورة النحل . ووحدة فى نظام الأمم ، فكلما كانت الأمة أقوى ترتيبا كانت أقدر على أن تغلب غيرها وتعد التى ليست فيها وحدة أنها مخالفة لنظام ربها فلذلك تعاقب بالخزى فى الدنيا كبعض الأمم الشرقية فى القرون المتأخرة ، وبالشورى التى أمر بها سيدنا عمر رضى الله عنه تكون الوحدة ، والعجب أن يتحد الطليان والألمان والممالك المتحدة وكثير من المسلمين لم يتحدوا قبيل زمننا الحاضر . ومن الوحدة فى الأمة الاحتفاظ بالصناعة وتقوية القائمين بها ومساعدة الأيدى العاملة فيها . والأمة إذا فرطت فى الصناعات تمزقت وحدتها وأصبحت ذليلة مستعبدة لغيرها كل هذا سر قوله تعالى فى سورة إبراهيم « وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب » فهذا من نوع التذكر الذى يبتغيه أولوا الألباب .

٢٢٣ خطاب مفتوح كتب فى مجلة [النهضة النسائية] يقصد به الوحدة فى الصناعة وأن للمصريات لم يفعلن مافعلته (جان دارك) من إحراق جسمها لأجل بلادها ولم يقاطعن المنسوجات الأجنبية كأهل الهند فهلا قامت منهن طائفة تمنع التبرج كما فعلت النساء التركيات ؛ وملخص هذه المقالة أن ارتقاء الأمة فى الصناعة والاقتصاد يجب أن يشارك النساء فيه الرجال .

[تمت]

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء العاشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

محمد أمين عمران	مباشرة

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ
(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة مريم مكية وهي ثمان وتسعون آية

وهي قسمان

(القسم الأول) في قصص زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس عليهم الصلاة والسلام وما يتبع ذلك من فضائلهم وجهالات بعض تابعيهم من أول السورة إلى قوله « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » .

(القسم الثاني) نتيجة إجابة دعواتهم من الجنة والنار من قوله تعالى « تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا » إلى آخر السورة .

(القِسْمُ الأَوَّلُ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا *

وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا • وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا • وَسَلَامٌ عَلَيْهِ
يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا • وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ
أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا • فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا
سَوِيًّا • قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا • قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ
لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا • قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا • قَالَ كَذٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا • فَحَمَلَتْهُ
فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا • فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هٰذَا
وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا • فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا • وَهُزِّى
إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا • فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ
مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا • فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا
تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا • يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا
كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا • فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا • قَالَ إِنِّى
عَبْدُ اللّٰهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا • وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا • وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا • وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ
وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا • ذٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ •
مَا كَانَ لِلّٰهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ • وَإِنَّ اللّٰهَ
رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ • فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ • أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لٰكِنِ الظَّالِمُونَ
الْيَوْمَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ • وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ •
إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ • وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ
كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا • إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ
شَيْئًا • يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا • يَا أَبَتِ

لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا • يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا • قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا • قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا • وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا • فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا • وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا • وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا • وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا • وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا • وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا • وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا • وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا • وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا • أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا • فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا • إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا • جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا • لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا •

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(كهيعص) تقدم الكلام على مثل هذا بإيضاح فى أول (آل عمران) فارجع إليه إن شئت . هذا الذى أتلوه عليك (ذكر رحمة ربك عبده زكريا) بدل من عبده الذى هو مفعول رحمة (إذ نادى ربه نداء خفيا) دعاء دعاء سرا فإن الله يعلم السر والنجوى وحينئذ يقال ماذا قال؟ فأجاب الله (قال رب إنى وهن العظم منى) أى رقّ وضعف من البر وسقطت الأسنان وقد بلغ خمسا وسبعين أو ثمانين سنة (واشتعل الرأس شيبا) كأن الشيب نار اشتعل بها الشعر الذى كأنه الحطب ولشدتها وقوتها جعلت كأنها أحرقت نفس الرأس وقوله « رأسا » تمييز محول عن الفاعل (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أى دعائى إياك . يقول زكريا يا ربى إنك عودتنى إجابة الدعاء فيا مضى والكريم إذا عوّد عادة لم يقطع رجاء من اعتادها .

(كما يحكى) أن أعرابيا قال لعظيم من عظماء العرب أنا فى ذمامك ولى عهد فى رقبتك عما بق قال له لا أذكر ذلك ، فقال له إنى يوما طلبت الماء فأدليت دلوى فى البئر فكان الحبل الذى فيه الدلو قصيرا فأطلته وأكملته من عندك قال ذلك الرئيس نعم حقك واجب على (وإنى خفت الموالى من ورائى) أى خفت فعل بنى عمى وكانوا أشرار بنى إسرائيل من بعد موتى أن لا يحسنوا خلافتى على أمتى ويحصل الخلاف والشقاق والجهالة والكفر فى بنى إسرائيل (وكانت امرأتى عاقرا) لا تلد (فهب لى من لدنك) من عندك (وليا) يلى أمر قومى بعدى فإن هذا الولى لا يطلب إلا من عندك فإن العادة تمنعه من شيخ مثلى امرأته عاقر فكيف يرجى إلا منك . ثم وصف الولى بصفتين فقال (يرثنى ويرث من آل يعقوب) فتجمع يا ألله له بين كونه حبرا مثلى وبين ملك آل يعقوب (واجعله رب رضيا) مرتضيا . فأجابه الله قائلا (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) أجاب دعاءه وتولى تسمية الولد بنفسه (لم نجعل له من قبل سميا) أى لم يسم أحد بهذا الاسم قبله أو لم يشبهه أحد . قيل ذلك لأنه لم يعص الله ولم يهم بمعصية قط وكان حصورا لا يأتى النساء وقد ولد بين شيخ وعجوز فهذه الصفات لم تكن لأحد قبله .

فلما أجاب الله دعاءه وعلم ذلك من الملائكة (قال رب أنى) كيف (يكون لى غلام) يريد بذلك استكشاف الطريق التى بها يلدان . أيحولان شابين ، أم كيف الحال ؟ (وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) قحولا فى المفاصل ويبسا فى العظام كالعود اليابس من أجل الكبر وأصل عتى عتو فثقل فقلبت الضمة كسرة والواو المشددة ياء (قال) الملك المبشر له الأمر (كذلك قال ربك هو على هين) يسير (وقد خلقتك من قبل) من قبل يحيى (ولم تك شيئا) ولما كان هذا القول من باب الإيمان والنفس الإنسانية لا تطمئن ولا يكون عندها يقين إلا ببراهين تقنع العقل وتقوى الإيمان كما كان من إبراهيم عليه السلام إذ قال « بلى ولكن ليطمئن قلبى » (قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) آية وقوع ذلك أنك لا تطيق التكلم ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سوى الخلق مابك من خرس ولا بكم وإنما قلنا ثلاثة أيام للتصريح بها فى سورة آل عمران ففى هذه الأيام الثلاثة ولياليها الخير والذكر والشكر ولم يستطع أن يكلم الناس فكان ذلك لأمرين الأول أن يكون علامة له والثانى أن تتجه نفسه لله بالعبادة (فخرج على قومه من المحراب) أى من الموضع الذى كان يصلى فيه وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه حتى يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون إذ خرج إليهم زكريا متغير اللون وأنكروا ذلك عليه وقالوا له مالك (فأوحى) فأومأ (إليهم) أو كتب لهم على الأرض (أن سبحوا) صلوا (بكرة وعشيا) طرفى النهار : أى بأن سبحوا أى بالتسبيح الخ . فلما ولد يحيى وصار ابن ثلاث سنين أعطاه الله فطنة وعقلا به يقدر على فهم التوراة فقال الله له (يا يحيى خذ الكتاب) التوراة (بقوة) بجد واجتهاد (وآتيناه الحكم صبيا) أى آتيناه النبوة وهو ابن ثلاث سنين (وحنانا من لدنا) أى رحمة وتعطفا فى قلبه على أبويه وغيرهما (وزكاة) وطهارة من الذنوب (وكان تقيا) يفعل الطاعات ويتجنب المعاصى (وبرا بوالديه) وبارا بهما (ولم يكن جبارا عصيا) متكبرا عاصيا (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) أى له الأمان من الله يوم ولد فلا يناله الشيطان كما ينال سائر بنى آدم وأمان له يوم يموت من عذاب القبر ويوم يبعث حيا من عذاب جهنم والخزى وأشد المواطن على الناس هذه الثلاثة ، يخرج الطفل فيرى حالا لم يعهدها ويموت فيرى عالما غريبا فيبعث فيرى مشهدا غريبا . فهذه هى الوحشة العظيمة فالله أمن يحيى عليه السلام فى هذه المواطن الثلاثة .

وههنا لطائف (١) فى قوله « إذ نادى ربه نداء خفيا » إلى « ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإنى خفت الموالى من ورائى » إلى آخره (٢) وفى قوله « قال آيتك ألا تكلم الناس » الخ (٣) وفى قوله «وسلام على يوم ولدت » الخ (٤) وفى الملائكة .

اللطيفة الأولى « إذ نادى ربه نداء خفيا » الخ

هذا الدعاء فيه ذكر أنه قد كان مجاب الدعوة وعادة الله ألا يخيب من عوده الكرم وفيه أنه دعاء للأمور العامة أى أنه يدعو الله أن يرزقه بولد يكون نافعا لبنى إسرائيل ، فيه أمران : نشر العلم وحب الانسانية ولقد أذن الله أن يجيب دعاء من حبب إليه خدمة الانسانية والله حقيق أن يجيبه ، وفحوى هذه الآية أن العبد إذا كانت وجهته النفع العام كان الله له . فهكذا يكون من ألهمهم الله الخير من علماء هذه الأمة وتضرعوا إلى الله أن يكون هدى الأمة على يديهم وأن يجمعوا شملهم وهو يلهمهم الخير ويساعدهم وذلك مجرب وقد قال تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » فأكد أنه مع المحسنين ، فحقيق بمن قرأ هذا التفسير أن يجرب ماجربت أنا بنفسى أن من وجد فى قلبه شوقا إلى خدمة هذه الأمة ورقيها ولم شعثها وكان عنده استعداد فإن الله يساعده وقد خلق خلقا لذلك وهو يساعدهم فإن وجدت فى نفسك ميلا فالمساعدة محققة وإنما قلت وفيه استعداد لذلك أخذا من قوله « ولم أكن بدعائك رب شقيا » فالرجل الموفق الذى استعد لإسعاف الناس يحس من نفسه بمعاونة الله فى كل ضيق وذلك هو الذى كثيرا مايستجاب دعاؤه .

جوهرة

جاء فى علم الأرواح كما هو فى كتاب (الأرواح) الذى ألفته ماملخصه (أن روحا سئلت : أى الناس أحظى عندكم بعد الموت؟ فقالت : إن الله وملائكته يعاونون الرجل المتصف بصفتين : الأولى حب العلم بحيث يرى فى نفسه شوقا إليه ويجد فى طلبه . الثانية أن يكون محبا للانسانية مغرما بمساعدة الناس جميعا فمتى وجد امرؤ بهذه الصفة توجه الله إليه بالعناية وكلأه بالحماية وجعله من خواصه وترادفت عليه العلوم فدخل أو دنياها وشاهد محاسنها وليس لها آخر ولا تنفد) انتهى .

اللطيفة الثانية « قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا »

اعلم أن أصعب عضو يمكن المرء حفظه هو اللسان . ولقد اطلعت على كتاب قد ترجم من اللغة الافرنجية إلى العربية فى علم النفس يبين كيف يكون الكلام سببا فى قلة الرزق وضعف الحال وأن إمساك الأفكار فى القلب تكون أشبه بإمساك الماء فى البحر والطعام فى المخزن وأن القوة الكهربائية فينا تحفظ بالسكوت وتذهب بالكلام . ومما جاء فى هذا الكتاب أيضا ما يأتى :

(انظر فى حياتك الماضية تجد أنك و (٩٩) من الناس ينتهزون الفرص لإخبار إخوانهم عما فعلوا لتظهر نباهتهم وهذا تيار من المغناطيسية النفسية تضيع بلا فائدة وبتكرارها تضعف كهربائية نفوسنا فلا تجذب من حولنا لأن نفوسنا فارغة فالسكوت يحفظ تلك القوى فلا تحقق رغبة الإطراء وسترى نتيجة ظاهرة فى زمن قريب أمرين اثنين : الأمر الأول أنك بالسكوت عن الكلام إلا للضرورة ودوامك على ذلك تشعر فى نفسك باحترام لنفسك وثقة بها وتعلو هيبتك ووقارك . الثانى أنك ترى إخوانك قد تغيروا تغيرا كليا فازدادوا رغبة فيك لأن قوتك الباطنة جذبتهم لك وهم لايشعرون) .

ثم أخذ يكرر القول أنه إذا طرأ على قلبك طارئ أزعجك الكلام فكن أنت خيرا منه فاحبسه فى نفسك وهكذا من النصائح إلى أن قال (وثمرة هذا السكوت والصبر عن الكلام تظهر فى ٥ أيام أو ٦ ولكن فوائدها الكبرى تظهر بالتدريج فتجد القلوب أحبتك وحوائجك تقضى) .

وبالجملة هذه الجملة ألف عليها وحدها هذا الكتاب كله ، فاعجب كيف ظهر علم فى العالم هذه الآية وجدها مع أنهم فى بلادهم (أمريكا) لايعرفون الآية كما أن المسلمين لايعلمون هذا العلم . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة «والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت» الخ

إن المسلم يقول «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فاذا كان يحيى قال السلام على يوم أموت ، السلام علىّ يوم أبعث حيا . فالمسلم يسلم على نفسه وعلى نبيه وعلى جميع الصالحين . المسلم يقول فى الصلاة إنى سعيد ولا سعادة لى إلا بسعادة المجموع فنبى فى أمان والمؤمنون فى أمان وأنا فى أمان . المسلم يذكر ذلك كله فى كل صلاة وهذا يورث اطمئنان النفس بالتكرار ، فاذا كان الناس كلهم فى أمان وهو فى أمان وقد ثبت فى نفسه هذا واطمأنت وثبتت على ذلك فان الله يوم القيامة يسلم عليه وهذا قوله تعالى فى سورة أخرى «سلام قولا من رب رحيم» .

المسلم يقول (التحيات لله والمباركات الخ) ثم يسلم على نفسه وعلى نبيه وعلى الأمم كلها إذا كانوا صالحين فسلام يحيى وسلام المؤمن سيان . وليس يتم هذا المعنى حق التمام إلا بمعرفة « الحمد لله رب العالمين » ولا معرفة لله إلا بمعرفة تربية العالمين تربية روحية وجسمية وهذا يستدعى جميع العلوم ومتى درس نظام هذه الدنيا أدرك حقيقة رحمة الله وأيقن أنه به رحيم لما يشاهد من رحمات فى أقل الحشرات وما فوقها إلى الانسان . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

لعلك تقول أيها الذكى إن العلوم اليوم ملأت الكرة الأرضية والكتب السماوية تذكر لنا ملائكة فماذا قال العلم الحديث فى ذلك ؟ إن الناس فى الأرض طبيعيون والطبيعة لا ملائكة فيها ، فأين هؤلاء الملائكة ونحن لم نرهم وكيف جاءوا لزكريا وكيف بشروه . أقول اقرأ كلام الامام الغزالى يخبرك أن الأرواح العالية وغير العالية تحيط بنا من كل جانب كما يحيط بنا الهواء ولكن أجسامنا هذه تحجبهم عنا فاذا متنا أصبحنا معهم ورأيناهم وحشرنا فى درجاتنا التى تناسبنا فإما مع الشياطين وإما مع الملائكة . وإن أبيت إلا سماع علماء الطبيعة فهاك ما كتبته فى كتاب [الأرواح] وهو خطبة لسر (أو ليفرلودج) أكبر علماء الطبيعة ذكرت فى مجلة المجلات الانجليزية وبمطالعتك لها تعرف أنها معجزة للقرآن إذ قال الله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» وعالم الملائكة أصبح اليوم هو وعالم الأرواح معروفا كما عرفت الطبيعة وهذه الخطبة سبقت فى سورة (آل عمران) وملخصها أن الانسان ليس أرفع الكائنات وله أعوان يساعدونه حوله وهو لا يراهم ، وهناك أراض غير أرضنا وهناك عوالم لا نراها والأجرام الفلكية لا يعرف أكثرها وهذا العالم وراءه عالم وهكذا عالم وراء عالم لا ندرى منتهاها وعمر الأرض قليل فيما مضى بالنسبة للكون والجوهر الفرد له نظام كالنظام الشمسى ونسبتنا إلى العوالم التى هى أعلى منا كنسبة النمل إلينا ونحن لسنا أجساما فقط ورجال الدين والقديسون صادقون فى أنهم ناجوا أرواحا عالية وأنا كذلك ناجيتها . ومن الجهل أن نقول إننا نضمحل إذا اضمحل الجسد . أنا لا أشك فى أن الموتى يناجوننا وإن أردت استيعابها فاقرأها فى سورة (آل عمران) وهى هناك قد كتبت مجزأة جزأين فى محلين مختلفين ، انتهت اللطيفة الرابعة وبها انتهى القول فى قصص زكريا عليه السلام .

﴿ قصص مريم وعيسى عليهما السلام ﴾

قال تعالى (واذكر فى الكتاب) فى القرآن (مريم) قصتها (إذ انتبذت) اعتزلت وهو بدل اشتمال من مريم (من أهلها) من قومها لتغتسل من الحيض (مكانا شرقيا) مكانا فى الدار مما يلى الشرق ، ولهذا المعنى اتخذ النصارى المشرق قبلة (فاتخذت) فضربت (من دونهم حجابا) سترا وبينما هى تغتسل وقد تجردت إذ عرض لها جبريل فى صورة شاب أمرد وضىء الوجه سوىّ الخلقة وهذا قوله تعالى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل

لها بشرا سويا) فلما رأته (قالت إنى أعوذ بالرحمن منك) وذلك لشدة عفافها (إن كنت تقيا) تتق الله وتحتفل بالاستعاذة فانك تتعظ بتعويذى فلا تتعرض لى (قال إنما أنا رسول ربك) الذى استعذت به (لأهب لك غلاما) أى لأكون سببا فى هبته بالنفخ فى قميصك (زكيا) طاهرا من الذنوب كما أنك أنت طاهرة أو ناميا فى الطهارة كلما زادت سنة (قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر) ولم يقربنى زوج (ولم أك بغيا) فاجرة فالولد إما أن يكون من سفاح أو نكاح وأنا بعيدة عنهما (قال) جبريل هكذا قال ربك (كذلك قال ربك هو علىّ هين) أى خلق ولدك بلا أب (و) نفعل ذلك (لنجعله آية للناس) أى علامة لهم ودلالة على قدرتنا (ورحمة منا) ونعمة لمن تبعه على دينه حتى ينسخ (وكان أمرا مقضيا) محكوما مفروغا منه لا يرد ولا يبدل (فحملته) فلما حملته (انتبذت به مكانا قصيا) بعيدا عن أهلها أى أقصى الوادى وهو بيت لحم لتفرّ من أهلها وقومها (فأجاءها المخاض) فألجأها المخاض وهو وجع الولادة (إلى جذع النخلة) لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، والجذع ما بين العرق والغصن وكانت نخلة لا رأس لها يابسة (قالت ياليتنى مت قبل هذا) فتمنت الموت استحياء من الناس وخوفا من الفضيحة (وكنت نسيا منسيا) أى شيئا حقيرا متروكا لم يذكر أو تمنت أنها لم تخلق (فناداها من تحتها) عيسى (أن لا تحزنى) أى لا تحزنى (قد جعل ربك تحتك سريا) سيدا وهو ابنك عيسى أو جدولا يجرى فيه الماء (وهزى إليك بجذع النخلة) أى وأميليه إليك (تساقط عليك رطبا جنيا) وهو ما بلغ الغاية وجاء أوان اجتنائه (فكلى) من الرطب (واشربى) من النهر (وقرى عينا) بولدك عيسى، يقال أقر الله عينك أى صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينك عن النظر إلى غيره أى فتسكن (فاما ترين من البشر أحدا) أى فان ترى آدميا يسألك عن ولدك (فقولى إنى نذرت للرحمن صوما) صمتا كما صمت يحيى فى الأيام الثلاثة (فلن أكلم اليوم إنسيا) بعد أن أخبرتكم بنذرى ولست أكلم إلا الملائكة ولا أناجى إلا ربى (فأتت به قومها تحمله) أى أقبلت بعيسى بعد ما طهرت من النفاس حاملة إياه، فلما رأوه معها (قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا) بديعا عجيبا مأخوذ من الفرى وهو القطع لأنه قطع العادة أو عظيما منكرا (يا أخت هرون) ياشبيهة هارون وكان رجلا صالحا فى بنى إسرائيل شبهت به فى صلاحها وعفافها كما جاء فى مسلم عن المغيرة ابن شعبة، قال لما قدمت من خراسان سألونى فقالوا لى إنكم تقرءون «ياأخت هرون» وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين فيهم. انتهى الحديث.

ويقال إن هرون المذكور الذى شبهوها به فى زمانها لما مات شيع جنازته أربعون ألفا من بنى إسرائيل كلهم يسمى هرون سوى سائر الناس؛ وهذا وإن كان مبالغة دال على شبه الحقيقة (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) أى ما كان أبوك زانيا ولا أمك زانية. فمن أين لك هذه الخصلة الفاحشة ومن أين لك هذه الفاحشة وهى ليست فى أبويك حتى أتيت بهذا الولد (فأشارت إليه) أى إلى عيسى أن كلموه ليجيبكم (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) ولم نعهد صبيا فى المهد يكلمه الناس فلما سمع عيسى كلامهم أقبل عليهم وترك الرضاع واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه (قال إنى عبد الله) والابتداء بهذه الجملة لقطع ألسنة الذين قالوا بربوبيته (آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت) أى سيؤتينى الإنجيل ويجعلنى نبيا ويجعلنى معلما للخير نفاعا للناس حيثما كنت؛ ولما كان هذا محققا عبر عنه بالماضى الذى هو أمر تمّ وانقضى وانتفاع الناس به فى كل مكان حل فيه أشبه بالشمس أينما أشرقت عم نورها وهذا شأن العلم والعلماء يفيضون على الناس بقدر ما أعطاهم الله من العلم (وأوصانى بالصلوة والزكوة) زكاة المال إن ملكته أو تطهير النفس من الرذائل (مادمت حيا وبرا بوالدتى) وبارا بها وهذا عطف على مباركا (ولم يجعلنى جبارا شقيا) عاصيا لربى متكبرا على الخلق فأنا خاضع متواضع، ويقال الشقى هو

الذى

الذى يذنب ولا يتوب (والسلام علىّ يوم ولدت) أى السلامة علىّ عند ولادتى من طعن الشيطان (ويوم أموت) أى عند الموت من عذاب القبر (ويوم أبعث حيا) من أهوال يوم القيامة فلما كلمهم عيسى بذلك علموا براءة مريم ثم سكت عيسى ولم يتكلم حتى بلغ المدة التى يتكلم فيها الأطفال (ذلك عيسى ابن مريم) أى الذى تقدم وصفه هو عيسى ابن مريم لا ماتصفه النصارى الذين وصفوه بأوصاف لاتتفق مع الحق هو (قول الحق) الذى لاشك فيه (الذى فيه يمترون) أى يشكون فيه ويختلفون . فمن قائل هو ابن الله ومن قائل هو الله ومن قائل هو ثالث ثلاثة، ثم نزه الله نفسه عن الولد الذى أفادته هذه القصة فقال (ماكان لله أن يتخذ من ولد) أى ماكان من صفاته ولا مما ينبغى له اتخاذ الولد (سبحانه إذا قضى أمرا) أى إذا أراد أن يحدث أمرا (فإنما يقول له كن فيكون) هذا تبكيت لهم [لأمرين : الأول] أنه لو أراد الولد فملا خلقه بقول «كن» فلا حمل ولا ولادة [وثانيا] أن الولد ليكون حافظا لأبيه بعوله وهو حى وليكون ذكرا له بعد موته .

ومعلوم أن الله لا يحتاج لشىء من ذلك فإن العالم خاضع له لايحتاج إلى ولد ينفعه وهو حى لا يموت أبدا (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه) هذا من كلام عيسى . ولقد مر الكلام عليها فى سورة (آل عمران) فارجع إليه هناك . ولقد تبين فيها أن هذه نفسها معجزة علمية لأنها جمعت ماجاء به المرسلون وبينا هناك ديانات مختلفة عجيبة تسر الناظرين مصداقا لهذه الجملة فتقرأ شذرات من دين (البوذيين) ودين قدماء المصريين وغيرهم ، فهذه الجملة رمز لجميع الديانات (هذا صراط مستقيم) الذى أخبرتكم به أن الله أمرنى به هو الصراط المستقيم الذى يوصل إلى النعيم المقيم ولقاء الله تعالى (فاختلف الأحزاب من بينهم) أى اختلفت أحزاب النصارى فيه حين رفع إلى السماء إلى ثلاثة فرق : يعقوبية يتبعون عالما نصرانيا يسمى يعقوب قال لهم هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء . ونسطورية اتبعوا رجلا يسمى نسطورا عالما منهم قال لهم كان ابن الله أظهره ماشاء أن يظهره ثم رفعه إليه . والحزب الثالث قال إنه كان عبد الله مخلوقا وهؤلاء هم الملكانية (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أى من شهود يوم عظيم لشدة هوله وحسابه وعقابه وهو يوم القيامة فإن الأيدى والأرجل والألسنة تشهد على أصحابها (أسمع بهم وأبصر) تعجب أى ماأسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لاينفعهم سمع ولا بصر (يوم يأتوننا) يوم القيامة (لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) أى لكن هؤلاء الظالمون فى هذه الدنيا فى خطأ بين استدراك على أنهم يسمعون ويبصرون يوم القيامة ويقفون على الحقيقة وهى لا تنفعهم فربما يتوهم أنهم عارفون فى الدنيا فاستدرك (وأنذرهم) أى خوّف يامحمد الناس ومنهم أهل مكة (يوم الحسرة) يوم يتحسر الناس، فالمسىء على إساءته والمحسن على أنه لماذا لم يزد فى إحسانه؟ وهو يوم القيامة (إذ قضى الأمر) إذ فرغ من الحساب وقوله «إذ» هو بدل من اليوم وقوله (وهم فى غفلة وهم لايؤمنون) جملتان حاليتان من فاعل أنذرهم أى أنذرهم حال كونهم غافلين غيرمؤمنين (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها) أى نميت سكان الأرض فى الشرق والغرب جميعا ولا يبقى إلا نحن (وإلينا يرجعون) فنجزيهم بأعمالهم .

أسئلة وردت على المؤلف وأجوبتها فيها أمور جميلة وأسرار تسر المفكرين
وأزهار وثمار تشرح صدور الناظرين

لما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد المتعلمين تعلما عاليا وأتم علومه فى أوروبا فلما قرأ هذا قال : الأمم اليوم كلها قد ارتقت وكيف يبقى المسلمون فى هذه الأحاديث التى تنافى الطبيعة ولاتستقر معها بحال، وفى ظنى أن مثلك حين يكتب هذا يحصل له شك فيه وكيف تعاد وتكرر تلك الأحوال القديمة على مدى الزمان وما فائدتها والناس اليوم اخترعوا المدافع والطيارات وأظهروا أعاجيب ونحن نرجع إلى الوراء ، فإن كان عندك علم فقله وإلا فالأمر مبهم ملتبس والمتعلمون جميعا فى حيرة من أمرهم لا مرشد لهم ولا أمين . فقلت له ماذا الذى انبهم عليك . لعلك شككت فى ظهور جبريل لمريم وأنه كلمها وشككت فى أن عيسى ولد من غير

أب ولم تر لذكر هذه فائدة تذكر فى الديانات ورابك ذكر هذه الأمور الخارقة للعادة وأنه لا فائدة منها للناس بل إنها ضارة لما تعود الناس أن يصدقوا كل ماخالف العقل وعليه تصبح العقول مملوءة عما لا حقيقة له وتصدق كل مايخالف المعقول . قال حقا كل ذلك فى نفسى . فقلت أما ظهور الملائكة فأمر أصبح سهلا لأنه إذا ثبت ظهور الأرواح الشريرة والفاضلة لقوم ليسوا أنبياء فظهور الملائكة من باب أولى فلأنقل لك بعض ما كتبته فى كتاب [الأرواح] وها هو ذا :

(المجلس السابع فى مناجاة الأرواح وانتقامها بالوسوسة وعطفها على الباكين عليها وما شابه ذلك من الحكم والعجائب)

قال شير محمد حدثنى من هذا ؟ قلت قال فى الكتاب المذكور صفحة ٨٣ مايأتى :

قد يحسن بنا أن نذكر ههنا شرح الأرواح للوساطة البصرية تعريبا عن كتاب [الوسطاء ، للعلم ألان كاردك] .

(س) أمن الممكن أن تتراءى الأرواح لأحد ؟

(ج) نعم وخاصة وقت النوم ، والبعض يرونها وقت اليقظة وهذا نادر .

(س) هل الأرواح التى تتراءى تختص بطبقة واحدة ؟

(ج) كلا . بل يمكن للروح من أية طبقة كان أن يتراءى للعيان بشرط أن يشاء ذلك ويؤذن له فيه .

(س) س ماغاية الروح من ظهوره ؟

(ج) تكون هذه الغاية حميدة أو رديئة وفقا لطبيعة الروح المتجلى .

(س) ماذا يقصد الروح الشرير بظهوره لأحد؟

(ج) يقصد إزعاجه أو الانتقام منه .

(س) وماذا يقصد الروح الصالح بتجليه ؟

(ج) يقصد تعزية من يبكى على فقده وإثبات وجوده وبذل النصيحة لمن يحبه أو طلب الإسعاف لنفسه .

(س) لم لا تكون رؤية الأرواح عامة مستمرة ؟ ألا تكون هذه أقوى وسيلة لاقناع المنكرين

(ج) إذا كانت الأرواح تحيط بالانسان من كل جهة فرؤيتها تكون باعثا لتشويش أفكاره وعرقلته فى أعماله وعائقا لحريته . وأما المنكرون فلديهم دلائل أخرى واضحة تقنعهم إذا أرادوا ونزعوا عنهم الكبرياء لستم تجهلون أن كثيرا من هؤلاء رأوا بأعينهم ولم يصدقوا بل نسبوا كل ذلك إلى الوهم فلا تقلقوا لهم سوف يذعنون للحقيقة آجلا أوعاجلا .

(س) هل رؤية الأرواح فى العالم العلوى أكثر وقوعا منها هنا ؟

(ج) كلما ارتقى الانسان فى الحياة الروحية ازداد سهولة فى مناجاة الأرواح . وأما فى عالمكم السفلى فكثافة الجسد هى العائق الأكبر الذى يحول دون معاينة سكان عالم الغيب .

(س) هل من الصواب أن يرتاع الإنسان من ظهور الروح له ؟

(ج) على العاقل أن يلاحظ أن الروح أياكان أقل خطرا من الحى . وأنه إذا قصد أذية أحد لا يحتاج إلى الظهور له بل يكتفى بما يلقى إلى فكره من الإلهامات الرديئة ليجعله يحيد عن الخير ويتبع الشر .

(س) هل يمكن لمن تراءى له روح أن يطارحه الحديث ؟

(ج) نعم بل هذا يجب عمله أى أنه يسأله من هو . وماذا يريد . وكيف تمكن مساعدته . فان كان الروح تعبا متألما يرتاح بيوادى هذه المحبة وإن كان صالحا يأتى بنصائح مفيدة .

(س) كيف يمكن للروح أن يجيب ؟

(ج) يجيب سائله إما بالطريقة اللفظية كالحي وإما بطريقة الانتقال الفكرى .

(س) هل للأرواح التي تتراءى بالأجنحة أجنحة حقيقية أم هذه صورة رمزية ؟

(ج) ليس للأرواح أجنحة تفتقر إليها لأنها تستطيع الانتقال أينما أرادت . فقط تظهر بالزى الذى يؤثر بالأكثر فى الشخص المتجلية هى له فيظهر بعضها بزيها الاعتيادى وغيرها بالحلل البيضاء والأخرى بالأجنحة كرمز عن الطبقة الروحية المنتمين هم إليها .

(س) هل الأرواح التي تتراءى لنا فى الحلم هى أرواح الأشخاص أنفسهم المتجلية هى بهيئتهم ؟

(ج) كثيرا ما يكونون هم أنفسهم .

(س) إن الفكر نوع من الاستحضار به تجتذب الأرواح إلينا فكيف أن من نفكر فيهم بالأكثر ونتلهف إلى لقياهم لايتراءون لنا فى الحلم فى حين أن أناسا لانفكر فيهم يتراءون لنا كثيرا ؟

(ج) ليس للأرواح إمكان مطلق الظهور لمن تشاء حتى ولا فى الحلم فان موانع عديدة غير منوطة بإرادتها تحول دون ذلك . وأما الأرواح التي تتراءى فى الحلم وأنتم غير مفكرين فيها فلا يبعد أن يكون لها بعض التعلق بكم فضلا عن أنه ليس لكم أقل إلمام بعلاقات عالم الغيب ولا بكل الأحياء والمعارف الذين لاتفكر لكم فيهم وقت اليقظة .

(س) لماذا تحدث الرؤيا غالبا وقت المرض ؟

(ج) لأن العقد المادية الرابطة النفس بالجسد تتراخى وقت المرض فتزداد حرية الروح بضعف الجسد ويسهل عليها إذ ذاك مناجاة الأرواح .

(س) لماذا تحدث الرؤيا غالبا وقت الليل ؟

(ج) للسبب ذاته الذى من أجله ترون وقت الليل من النجوم مالا ترونه وقت النهار أى أن قوة النور تمحو الظهور الخفيف ولكن لا تتوهموا أن الليل تأثيرا فى الرؤى ، اسألوا الوسطاء الناظرين يخبروكم عما رأوا وقت النهار .

(س) أيرى الوسيط الروح وهو فى حالته الطبيعية أم فى حال الانخطاف ؟

(ج) كثيرا مايراه وهو على حالته الطبيعية إلا أنه يراه غالبا وهو فى حالة قريبة من الانخطاف تدعى بالنظر الروحى .

(س) كيف يجعل الروح نفسه منظورا ؟

(ج) بما يأتيه من التغيرات فى جسمه الروحانى فيظهر على أثرها بالهيئة البشرية فى الحلم أو فى اليقظة فى النور أو فى الظلمة .

(س) هل يصح القول بأن الروح يجعل نفسه منظورا بتكثيفه جسمه الروحانى ؟

(ج) ليس للتكثيف دخل ههنا بل يقال ذلك بوجه التشبيه فان الروح بقوة السائل الحيوى الذى من الوسيط يجعل جسمه الروحانى على حالة تمكن الناظر من رؤيته .

(س) هل لكل الناس قدرة على رؤية الأرواح ؟

(ج) فى الحلم نعم ولكن ليس فى اليقظة

(س) عاذا تقوم خاصية الوساطة البصرية ؟

(ج) تقوم بما للوسيط من السهولة لمزج سوائله بسوائل الروح فلا يكفى للروح أن يرغب فى الظهور حتى يظهر بل يفتقر إلى أن يجد فى الشخص المتجلى هو له القابلية لذلك . أما الوساطة البصرية المستمرة فهى

حالة استثنائية لا يملكها إلا من ندر .

(س) هل يمكن للروح أن تتجلى بهيئة مخالفة للهيئة البشرية ؟

(ج) الهيئة البشرية هى الهيئة الأصلية فيستطيع أن يغير ظواهرها ، ولكن القالب لا يتغير .

(س) ألا تظهر الأرواح أحيانا بهيئة شهب ؟

(ج) إنها تشىء شهبا وأنوار الاثبات وجودها ولكن ليست الأنوار والشهب هى الأرواح بل لمع أو صدور من الجسم الروحانى الذى لايظهر بكماله إلا فى الرؤى البصرية .

(س) ماقولك فى النيران الغازية المتصاعدة من المقابر والأماكن المنتنة . هل هى دليل على حضور أنفس الأموات ؟

(ج) إعزاؤها إلى أنفس الأموات ضرب من الجهل والغباوة ، وعلتها الطبيعية أصبحت اليوم أشهر من نار على علم .

(س) هل يمكن للأرواح أن تتراءى بهيئة حيوانية ؟

(ج) قد يمكن حدوث ذلك ولا يأتى هذا العمل إلا الأرواح السفلية فيكون ظهورها بهذه الهيئة مؤقتا لأنه ليس من المعقول أن الروح تريد أن تحبس فى جسم حيوانى .

ولما أتممت هذا المقال . قال شير محمد . ماأوفق هذا لما نص عليه أكابر علماء أمتنا فانهم يقولون إنها لا ترى إلا إذا تشكلت فأما هى على حالها فلا تظهر . والحق أن هذا العلم الحديث شرح للدين الإسلامى ، ثم قلت :

الحديث السابع من كتاب المذهب الروحانى

روت الجمعية العلمية الإنكليزية الملقبة بـ(شركة المباحث الروحية) فى [كتابها أشباح الأحياء] الحادثة الآتية وهاهى ذه :

إن كاهنا حدث السن له من العمر تسع عشرة سنة إذ كان مقيما (بأنغركاكسد) من جزائر زيلندة الجديدة اتفق يوما مع أصحاب له على الذهاب إلى جزيرة (روابوك) والمكث بها يوما أو يومين قصدا للصيد والقنص . وأجمعوا رأيهم على أن ينهضوا الساعة الرابعة صباحا ليغتنموا فرصة مد البحر ويقطعوا الصخرة ووعدوا الكاهن أن يأتوا لإيقاظه فى الساعة المعينة فذهب هذا إلى الرقاد وهو مصمم النية على مرافقتهم . وبينما هو يصعد فى سلم غرفته سمع صوتا يقول له (لاتذهبن غدا مع هؤلاء) فبهت الكاهن من هذا التنبيه إذ لم يكن حوله أحد . وسأل المتكلم السرى . لماذا ؟ أجابه الصوت وكان كأنه صادر من داخل غرفته (لاينبغى أن تذهب معهم) وإذ كرر عليه السؤال مرة ثانية أتاه الجواب ذاته . فقال الكاهن كيف أتخلص من لجاجتهم وقتما يأتون لإيقاظى . أجابه الصوت السرى بصراحة (اقفل بابك بالمفتاح قفلا محكما) فتردد الكاهن برهة ثم أخذت تحدثه النفس بحلول خطر مبين فتزعزع عزمه ورضخ لصوت التنبيه السرى فأقفل الباب محكما ورقد فى سريره وحضر رفقاؤه الساعة الثالثة من الصباح وقرعوا باب غرفته بعنف وإذا لم يحر الكاهن جوابا انصرفوا عنه وهم يقرعونه بلواذع اللسان ، وفى الساعة التاسعة إذ قام الكاهن ليتناول الطعام صباحا أخبره صاحب الفندق أن المركب القاصدة جزيرة (روابوك) التطم بالصخر فانكسر وغرق كل من فيه ، وأن بعضا من جثث الغرقى قذفها البحر على الشاطىء . قال صاحب الرواية لوأنى خالفت صوت التنبيه ورافقت أصحابى إلى جزيرة الصيد والقنص لماكنت اليوم من عداد الأحياء .

وروى العلامة (مايرس) الحادث الآتى تعريبه :

[دخلت السيدة (كابدلى) غرفة الاستحمام وبعد أن خلعت ثيابها سمعت صوتاً يقول لها جهاراً (انزعى زلاج الباب) فبهتت وفتشت فى كل ناحية فلم تجد مصدراً للصوت فظنت أن ماسمعته وهم وعادت إلى المغطس فما كادت تستقر فيه حتى عاودها الصوت يصيح ثلاثاً وبلهجة الحدّة (انزعى زلاج الباب) فارتاعت السيدة ونهضت من مغطسها ولبت أمر الصوت . ولما عادت إلى المغتسل أغمى عليها وسقطت تحت الماء . وإنما لحسن حظها كانت قد قبضت على حبل جرس قبل الإغماء فسمعته الخادمة وهرعت إلى إنقاذها من تحت الماء . فلو كان الباب مزلجاً لماتت قبل أن تتمكن الخادمة من نجاتها) انتهى ما نقلته من كتاب (الأرواح)]

فلما سمع صاحبى ذلك . قال أما الآن فانى لا أنكر ظهور للملائكة ولكنى أقول ما فائدة قصص عيسى وكيف يشاع بين الناس ما خالف العلوم المعهودة وفيه ما فيه من الضرر . فقلت اعلم أن هذه القصة العيسوية منتشرة بين أمم النصارى والمسلمين وهؤلاء يبلغون ٧٠٠ مليون فهم أكثر من نصف الكرة الأرضية وهم بها جميعاً مؤمنون . وإنى أيها الذكى أسألك . هل تبيح للمسيحيين مالا تبيحه لنا . وهل ترى أننا مخرّفون وأنت كنت بين قوم فى أوروبا لايقولون إنه تخريف . قال إن الطبقة الراقية تقول ذلك ولكن لايعلنون آراءهم وبعضهم أعلنها . قلت ليكن ذلك ولكن هل ترى أن الله يدع أمراً ضاراً بالناس عائشاً آلاف السنين بينهم ولا يزيله فسكت . قلت إنك لم تكتف بهذا القول . قال لا . قلت إذن أشرح الموضوع شرحا بقدر الإمكان فأقول :

اعلم أنّ النوع الانسانى يخلق مغرماً فى أوّل حياته بالأمور التى توسع الخيال فاضطر البشر جميعاً فى الشرق والغرب أن يؤلفوا كتباً خيالية مقصدها الخيال وتوسعته حتى إنهم جعلوا للعفاريت صوراً ومثلوها للناس وذكروا لهم الأمور المستحيلة وواجهوهم بها . وكلما وجدوا أمراً غريباً أظهروه للناس ؛ فالأمور المستحيلة والأمور الواقعة الغريبة هى التى تفتح خيال الناس وتجعلهم يسعون بما يلقى إليهم فينتج لهما أمران : خرافات وحوادث غريبة

الكهرباء والقصص

وما مثل الناس وعقولهم فى أوّل حياتهم إلا كمثل الأجسام الطبيعية فانها قسمان : قسم تهيجه الكهربائية بسرعة ويقال لها أجسام موصلة جيدة للكهربائية كالمعادن من الحديد والنحاس والرصاص وأجسام لا تهيج بسرعة ولا توصل الكهربائية كالخشب ويقال لها أجسام موصلة رديئة الكهربائية . فهكذا عقولنا . فمنها سريعة لقبول العلم والحبّ له . ومنها بطيئة القبول لاتحبّ إلا الأمور المادّية فهى كالخشب والأولى كالذهب ؛ فما مثل هذه القصص إلا كمثل الكهرباء يؤلفها العلماء بصورة تبهر النشء وتفتح الخيال وتجعل الطفل والجاهل متأثرين بما فيها لغرابتها وعجبها كحوادث الزلازل وحوادث الحروب الكبرى وأحاديث العظماء النابغين الذين يندر وجودهم وهكذا أحاديث الخرافات وهذا أمر لم تتركه أمة من الأمم . فالمتوحشون والمتمدينون جميعاً على هذا المنوال . وترى دور التمثيل جميعها فيها الحكايات التى تجمع الفكاهات والأخبار العجيبة التى فيها المفاجآت الغريبة .

القصص وصدقها وكذبها والأحلام

وما مثل الحكايات الغريبة فى هذا العالم شرقاً وغرباً إلا كمثل الأحلام يكذب الآلاف منها ويصدق عشرات وآحاد . هكذا التآليف التى ألفها الناس فى الخرافات معلوم للخاص والعام أنها خرافات ولكن فائدتها توسعة الخيال للأطفال وقد دخلها أوهام وأكاذيب ستمحقها العلوم الطبيعية والبراهين المنطقية . وأما القليل الذى هو صدق فهو ما جاء فى قصص مريم وعيسى وزكريا . فهذه وأمثالها كما فى قصة أهل الكهف والخضر

وأضرابها فهذه من القليل الذي هو صادق والصدق والكذب في هذا المقام في غير الكتب السماوية لا قيمة له لأن كل رواية أو قصة خيالية هي في الحقيقة صادقة من حيث نتائجها إذا وضعت لتقرير خلق أو إظهار معنى شريف، وقد وضح أيما وضوح في كتاب [أميل القرن التاسع عشر] كما تقدم في مواضع أخرى من هذا التفسير وجهله الشرقيون مع أنه مترجم باللغة العربية فالشاب منكم يذهب إلى أوروبا ويرجع لا يحمل في قلبه إلا الضغينة على قومه وعلى دينه وهو جاهل بأطوار أوروبا وبعلومها، ولو أنك قرأت هذا الكتاب وأمثاله لعرفت الحقيقة ولعرفت أن كتب الخرافات نفسها جعلت لفتح الأذهان فما بالك بالحكايات الغريبة التي وقعت فعلا كمسألة (نابليون) وكالزلازل وكالحرب الكبرى وكالغازات الخانقة وأمثالها . فهذه غرائب لم تكن معروفة من قبل فتجعل الطالب مشتاقا لسماعها كما يشتاق للخرافات .

(مفاتيح العلم)

إن النفوس الإنسانية كما قلنا منقسمة إلى (قسمين) قسم ذكيّ وقسم بليد والقسمان معاً يحبون الحكايات الخرافية والحكايات الصادقة إذا كانت غريبة وقلنا إن قصص مريم وعيسى وأمثالها من القسم الثاني ولذلك عمّ نفع الكونة . فأمثال هذا في القرآن وفي غيره يتعجب منه الأطفال والعجب أول حب العلم وهذا العجب هو الامتحان . فكل طالب تحرك العجب فيه أكثر عند سماع الغرائب فهو إلى العلم أقبل وكل طالب ظهرت عليه علامات الكسل أوعدم المبالاة عندسماع المستغربات فهو عن العلم بمعزل، ومثل الأولين كالمعادن فإنها موصلة جيدة للحرارة والكهرباء، ومثال الآخرين كالخشب الذي هو موصل رديء كما تقدم .

وكأنما هذه الحكايات عند الأمم مفاتيح العلوم تقرأ لتفتح أذهان الجهال والصبيان حتى إذا بلغوا أشدهم قرءوا علوم الطبيعة فصقلت عقولهم وأيقظتهم وعرّفتهم الحقائق . فالأول يقوي الخيال ، والثاني يقوي العقل . فأما تقوية العقل والخيال معاً فإنه يكون أشبه بالغازي بلا فرس . فقال صاحبي لقد أجدت في التعبير ولكني لا أوافقك على ما تقول . هذه قصة مريم وعيسى وزكريا والخضر مع موسى وأهل الكهف فهؤلاء كلهم قد ذكروا متتابعين ولم تر علوما طبيعية، وأما أنت فيظهر أنك تريد أن تلصق علم الطبيعة بكل شيء حتى قصص الأنبياء . وياليت شعري أيّ مناسبة بين مسألة عيسى وأنه ولد من بكر بعلوم الطبيعة أي أن الطالب يقرؤها بعدها ولو كان الله أراد ذلك لقال إذا قرأتم هذه القصص فاقرءوا علوم الطبيعيات. نحن سلمنا لك أن القصص الغريبة التي وقعت فعلا والقصص الخرافية المستغربة تفتح العقول وسلمنا أن قصص القرآن والكتب السماوية في مثل هذا من الغرائب الواقعة فعلا ولكن لا نسلم أن القرآن يقول اقرءوا الطبيعة إذا كبرتم أو إذا عقلتم أو إذا تعلمتم . فمن أين تأخذ هذا المقال . فقلت ياأرعاك الله اسمع لما أقول . تأمل في السور السابقة من الحجر إلى مريم . ألم تر إلى سورة الحجر كيف ذكر فيها ما خلقه على الأرض مبتدئاً من أدنى إلى أعلى كما قاله علماء مذهب النشوء والارتقاء شرقا وغرباً وهي سلسلة المواليد ثم ذكرت في سورة النحل بعكس ما ذكرت في الحجر ثم ذكرها مرة ثالثة في النحل أيضاً بحيث جعل الانسان مذكوراً في وسط السلسلة . وفي المرتين الأوليين مرة في أولها ومرة في آخرها . قال بلى قد عرفت هذا كله في هذا الكتاب . قلت سر بعد ذلك معي واقرأ سورة الاسراء فيها تجلت الروح تارة بالاسراء والارتقاء كأنه يقولها أنا ذا شرحت لكم ارتقاء المواليد فادرسوها . فهكذا العالم الروحي يرتقي درجة بعد درجة وأضرب لكم مثلا بارتقاء عبدي محمد ﷺ إلى السموات طبقة بعد طبقة حتى وصل إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام . أي أنه وقف على الحقائق ، فالأرواح ترتقي في العلوم والمدارج كما ارتقت الأجسام في المواليد الثلاثة طبقاً عن طبق . أليس كذلك فقال بلى . ولما قرر ذلك جاء في نفس السورة وذكر الروح وقال إنكم لاتقدرون على معرفة حقيقتها . قال نعم كان ذلك . قلت ألم تر أنه لما جاء إلى سورة الكهف أخذ يقص علينا قصصهم وقصص الخضر وقصص

ذى القرنين ثم فى مريم قصصها وقصص زكريا ويحيى وعيسى وكلها من الغرائب . ولما أخذ يقصها أعطانا قبلها درسا يفهمنا المقصود.منها فقال «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» فهو يقول إن ما على الأرض من زينتها وهو ماشرحناه لك من السلسلة الحيوانية طرداً وعكساً فيه عجائب وغرائب أكثر من قصص أهل الكهف التى ذكرت فى القرآن إجابة للسائلين عنها كما ذكرت قصة يوسف إجابة للسائلين عنها وقال فى قصة يوسف ماقاله فى قصة أصحاب الكهف إذ أبان هناك أنهم معرضون عما لايتناهى من الآيات فى السموات والأرض لاعن قصة يوسف وحدها التى هى قليلة بالنسبة لآيات الله وهكذا قصة أهل الكهف ليست شيئاً بالنسبة لعجائب الله . قال أما هذا فأنا فهمته مما كتبته فى هـذا التفسير فى نفس تلك السور . قلت ولكنى أعدته مجملا لتكون صورته حاضرة فى ذهنك . قال حسن قلت فهل بعد هذا بيان . يقول الله إن هذا القصص فى جانب غرائب السموات والأرض قليلة ثم يقول فى آخر سورة الكهف « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر» الخ ويقول الخضر فى حديث البخارى ومسلم إن علمى وعلمك ياموسى بالنسبة لعلم الله كما أخذه العصفور من هذا البحر . فهل كان صلى الله عليه وسلم يقول هذا الكلام ناقلا عن الخضر بلا فائدة ولم ذكرها فى مقام الخضر . ولماذا ذكر الله أن البحر لو كان مدادا لمعلومات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى. وكيف يقول فى سورة «طه» بعد هذه «وقل رب زدنى علما» يذكر فى سورة الكهف فى الحديث الصحيح وفى الآية أن العلم لاحد له ثم يأمرنا الله فى «طه» أن نطلب من الله أن يزيدنا علما أليس الأمر أصبح جليا واضحا . إن الأمر عظيم وإن الأمور يجب أن تدرس وأن قصص مريم وعيسى مثلا إنما هى المبادئ التى تدرس فى أول التعليم للتشويق ثم من عنده استعداد سيرقى فى معلومات الله التى قال فيها إنها لا نهاية لها . ثم لماذا يصرح القرآن بهذا القول وحديث الشيخين بين قصة الخضر وقصة زكريا ويحيى ومريم وعيسى . إن ذلك لم يكن مجرد مصادفات فان الكتب السماوية لها أسرار فى الترتيب وهذا أعجب مايفهم من القرآن وغرائب التربية ونظامها . ألا وإن هذا من أعجب مايستخرج من ترتيب السور والآيات ظهر الحق واستبان السبيل وانبلج إشراق الصبح لذى عينين . فبالعلم فلنفرح « هو خير مما يجمعون » قال الشاعر :

ففز بعلم تعش حيا به أبدا   الناس موتى وأهل العلم أحياء
وقيمة المرء ماقد كان يحسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداء

فهل أقنعك ماأسمعناك ؟ قال لقد شرحت صدرى وأريتنى فى القرآن عجبا ماكنت أتوهم أن أسمعه أو أصدق أنه فى القرآن . ثم إن هذا البيان يحث الناس على قراءة جميع العلوم . قلت هو مقصود القرآن ولهذا أنزل . فقال ولكن لماذا لم نسمع هذا من العلماء السابقين ؟ قلت أما وجود هذه المعانى بهذا الترتيب فلم أرها ولكن المتقدمون رحمهم الله أيقظوا الأمة لمثل هذا ولكن القوم كانوا غافلين وهذا أوان الاستيقاظ . وزمان الرفعة والمقام الأعلى لأمة الإسلام . سيقوم فيهم عظماء مرشدون وعلماء نابهون مجدون وسيكونون فى عصر جديد لم يحلم به أهل الأرض وكل آت قريب والله قد أذن بظهور هذه الأمم الاسلامية فى وقت قريب قال ولكنى لا أزال أطلب فوائد أوسع فى ذكر عيسى وولادته بلا أب . قلت قدمت لك قولا عاما لجميع القصص فأما قصة عيسى عليه السلام فان غرابتها لها مزية شريفة وعجيبة بديعة وهى درة يتيمة وفتح صمدانى للعقول الكاملة . قال وماهو ؟ قلت إن الناس فى أول أمرهم يتعجبون من صنعة ربهم إذ يخرق لهم القانون المسنون فى أندر من النادر إذ جعل عيسى من غير أب فيحصل الايمان بالله بهذه الحادثة الغريبة . فاذا عجب الشاب وأخذت منه الغرابة كل مأخذ يقال له هل سرتك هذه فيقول نعم فيأخذ بيده المربون ويقولون تعال وانظر وتعجب مما هو أكثر غرابة وعجبا فى الطبيعة ، فهناك غرابة للعموم وهنا غرابة للخصوص . فيقولون

له انظر الزهر كيف يلقح بصفات شتى وأحوال متباينة والأصل لم يتغير . فهـذا من المقام الذى نحن فيه أى مقام الولادة العجيبة والتأمل للدهش :

(١) فيقولون انظر السنط والقار والصفصاف وأصنافا أخرى . انظر كيف ألقحتها الرياح الهابات فحملت اللقاح من الأزهار المذكرة إلى الأزهار المؤنثة فحملت وأخرجت ثمرا . فهنا لم يقصد الذكر الأنثى وليس لأحدهما شهوة ولا حياة معروفة ولا زواج ولا عشق ولا غرام . بل هناك رياح هبت فأخذت من هذا وأعطت ذلك والرياح لا عقل لها ولا علم .

(٢) انظر النحل والحشرات المغنيات الطائفات التى شرحناها فى هذا الكتاب مرارا كيف زين لها الزهر وكيف طابت رائحته وكيف حملت طلع الذكور ووضعته على الإناث من غير علم الأب ولا علم الأم فهذا أغرب ألف مرة من أمر عيسى لأن عيسى له أمّ تعقل وحملت وهى تفهم وولدت وأرضعت وظهر لها عند الحمل شاب هيج الشهوة فيها . فأما هنا فلم يكن شهوة ولا عرف الذكر الأنثى بل لا حياة ظاهرة واضحة لهما ومع ذلك ترى الحمل والولادة .

(٣) أذكرك بما مضى فى سورة الحجر كيف تدخل الذبابة تلك الزهرة التى ضاق بابها لتستدفئ من برد الجو ثم تريد أن تخرج فتمنعها الشعرات الواقفات على ذلك الباب الضيق حتى إذا وقع الطلع خرجت الذبابة فلم تقف فى طريقها تلك الشعرات فتطلع فى الجو فيلسعها البرد فتستدفئ فى زهرة أخرى من نفس النوع فيحصل مثل ذلك ويقع الطلع الذى عليها هناك وهكذا . أليس هـــذا أعجب ألف مرة من مسألة عيسى فكيف جاءت الذبابة . وكيف آلمها البرد ، وكيف أقفلت عليها الشعرات عند الحاجة . وكيف فتحت لها عند تمام العمل وكيف يؤلمها البرد ويحركها إلى الدخول فى زهرة أخرى . وكيف لا تجد لها مأوى إلا هذا النوع من الزهر بعينه بحيث لا تخطئ ، ولا يضيع ذلك اللقاح . وكيف تدخل فيه ويحصل العمل مرة أخرى فيا ليت شعرى أفلا تكون هذه كلها من أغرب الغرائب وأبدع العجائب وأبهر الحكم وأعظم النعم فارجع إليه فى سورة الحجر .

أفليس ذلك أعجب وأعجب من أمر عيسى وأمه وهو من قوله تعالى « وكأين من آية فى السموات والأرض » الخ وقوله «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم» الخ وقوله «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى» وقوله «وقل رب زدنى علما» وقول الخضر (ما علمى وعلمك فى جانب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر من هذا البحر) .

(٤) ارجع إلى سورة (الحجر) فانظر ما ذكرناه هناك من نوم الزهر واستيقاظه صباحا تارة ومساء أخرى وكيف كان النحل والحشرات الخاصة بذلك الزهر تأتى إليه فى تلك المواعيد المقررة المحددة . انظر هناك وتفكر فى قصة أهل الكهف الذين ناموا زمانا طويلا ثم استيقظوا وقل لى ألست ترى الغرابة فى نوم النبات واستيقاظه أشد والعجائب فيه أكثر قل لى . ألست ترى معى أن النبات ما كان أحد فى الناس يعلم أن له حالا كهذه فظهر له إحساسا وشعورا فهو يشعر بالنور فيمتد إليه إذا كان فى ظلمة ويحس بالبرد والرطوبة فيمد عروقه إليها ويتجافى عن المواضع الجافة اليابسة فلا يمد عروقه إليها ويرى الحبل الممدود بين حائطين فلا يحيد عنه . وهكذى يرى فيه نوع من الحياة . فترى بعضه ينقبض إذا لمسته كالسنط الحساس ، وقد وجدوا من أنواع النبات الذى له إحساس ظاهر أكثر من مائة نوع وهو مفترس كما تقدم فى سورة (الرعد) فهناك ترى صور ذلك النبات وشرحه . فانظر إلى تفنن واسع مع الحكمة .

فاذا رأيت قدرة الله واضحة فى ولادة عيسى من غير أب تراها هنا قد أبدت أشكالا من الإنتاج تدل على حكمة باهرة فهى أشكال مختلفة تدل على القدرة والأحكام فيها جميعها دلالة على الحكمة . فلئن رأى

الناس فى خرق النواميس الطبيعية قدرة الله ظاهرة فهاهم أولاء شاهدوا فى تناسل النبات ضروبا من الأشكال والإبداع أجل وأعلى من خرق النواميس المجرد فهنا تنوعت النواميس تنوعاً مقروناً بالأحكام . فاذا قال أهل مكة أزل يا محمد جبال مكة فليس فيه إلا القدرة على الهدم ولكن أين الإبداع . أما هنا فقد نوعت النواميس تنويعا دلالة على الإطلاق، ومع هذا الإطلاق نجد الأحكام والنظام .

﴿ كيف تقرأ سورة مريم والكهف فى الزهر . وكيف ذكر الله النخلة رمزاً لذلك ﴾

فانظر فى الزهرات تجد عجائب الإنتاج وغرائب العلم الذى ليس بمحدود . فههنا تبدى عجائب أصحاب الكهف وغرائب عيسى ومريم والعلوم الغزيرة التى أشار لها الخضر أن علوم ربك لا نهاية لها وإبداعه لا حد له « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً »

ويشير إلى ما بينته هنا من قوله تعالى «وهزى إليك بجذع النخلة» الخ ان النخلة امتاز ذكرها عن أنثاها بجاء اللقاح بواسطة الهواء من الذكران للاناث وهذه الخاصية امتاز بها النخل . فأما بقية النباتات فانك تجد منها ما ذكره وأنثاه فى زهرة واحدة كالقطن وما هما فى زهرتين فى نبات واحد كالقرع والذكر إما أن يكون فى أعلى والأنثى أسفل كالذرة المعروفة فى بلادنا المصرية وقد شرحناه فى سورة الفاتحة وإما أن يكون الأمر بالعكس فالذكر أسفل من الأنثى ولكن الحكمة الإلهية حكمت على الأنثى أنها فى زمن الالقاح يتدلى غصنها تحت الآخر فيحصل الإلقاح وذلك فى الخروع . فانظر كيف امتاز النخل عن بقية النبات بتباعد الذكر عن أنثاه وجاء اللقح بالرياح كما امتازت مريم بالولادة من غير زوج وهذه حكمة رمزية . وهنا (ثلاث جواهر)

الجوهرة الأولى فى قوله تعالى « ذلك عيسى ابن مريم » الخ

عيسى ابن مريم ليس له أب وهذه قضية العالم أجمعه . يؤمن بها المسلم والنصرانى وقد كانت قبل ذلك لأمم قد خلت كلها كانت مؤمنة بعظيم ولد من عذراء كما علمت فيما تقدم فى آخر سورة المائدة . فياليت شعرى لم عمت هذه الفكرة . ولم أمر الناس أن يصدقوا بما لا نظير له فى هذه الدنيا ؟ قد أصبح من البديهى أن لا ولد إلا بأبوين . تساوى فى ذلك الطير فى جوه والسمك فى بحره والضب فى جحره والأسد فى عرينه . كلها تساوت فى هذه القضية . فلم يفاجأ هذا الانسان المسكين ويمتحن عقله ويقال له اعتقد شيئاً لا يقبله طبعك وينبو عنه سمعك ولا يألفه فهمك وما فائدة هذا التكليف وفى الناس من لا يكاد يخطر لهم ما لا تقبله العادات ولا تجيزه المألوفات . لقد حار هذا الإنسان فى العلم وفى الدين . فما العمل إذن فى هذه العقيدة .

أقول : اعلم أن الله عز وجل قبل أن يخلق هذا العالم علم أن هذا الإنسان تسيطر عليه عاداته ويختم على سمعه وقلبه وتجعل المألوفات على بصره غشاوة . هذا الإنسان يحيط به الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان والبحار فهو بهذا كله مأخوذ لا يدرى ما الحياة إلا ما اعتاده ولا اللذة إلا ما ألفه يرى كل طير وكل دابة وكل شجر لابد فيه من ذكر وأنثى . ويرى أن لا حياة إلا الحياة الدنيا وحياة الأجسام وهذا معناه الحبس والنوم العميق فقال له الله كلا ، إن هناك حياة فى عالم لا تراه . وإذا ظننت أن المألوفات لك واجبة محتمة فهاك هدم هذه القواعد . أنت ترى أن الحيوان لابد فيه من ذكر وأنثى منفصلين وأنت لو تأملت لوجدت من النبات من يكون الذكر والأنثى فى زهرة واحدة بل فى الحيوان ماهو كذلك بل نفس الإنسان . هذا عيسى ابن مريم ولد من أنثى وقد أنزلت عليها نوعاً من الذكورة وهو الذى تمثل لها بشراً سويا . فهذه أنثى تمثل لها ذكر فحملت فولدت . فهنا أنثى وهنا ذكر لا يرى . إذن القاعدة مطردة قال تعالى « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » فها نحن تذكرنا فوجدنا القاعدة مطردة حتى إن مريم صاحبها ذكر من عالم المثال ولولا هذا لم تلد ولم تحمل وهذه المسألة فتح باب لعلم عظيم وحكمة كبرى ذلك أن هناك نوعاً من الحيوان أكثر المملكة الحيوانية عدداً تقوم الأنثى فيه بالعملين معاً عمل الذكور وعمل الإناث ولا يدرى إلا الله كيف حملت بلا ذكر . هل تمثلت ذكراً كريم . أم فيها قوة الإناث وقوة الذكور

وهل كل فهذه المسألة من أعجب العلم وأبدع الحكمة وإلا فكيف نرى أنى تلك أمثالها بلا ذكر . أليس ذكر مسألة مريم وعيسى فتحاً لباب العلم على مصراعيه بل باب الرحمة وباب الحكمة وباب الرقى العلمى . حيوان بحرى أرسله الله لأهل الأرض فأكل منه سكان شواطىء البحار كأهل الإسكندرية وسكان شواطىء البحار فى العالم كله كلهم يأكلون هذا الحيوان ولا يعلمون أن مسألة مريم وابنها نزلت لتذكر الناس بالحكمة والعلم وكأن الله يقول : أيها الناس ليس كل ما تألفونه هو العلم ، كلا . فالعلم والرحمة لا حدّ لها . فأنا كما أخلق من أبوين أخلق من والد واحد يقوم مقام الوالدين ، ولما وجدتكم غافلين أنزلت عليكم فى الكتاب أن عيسى من مريم وليس له أب ، ذلك كله لتدرسوا نظامى .

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق العالم وأخذ يحاورنى فقال : ما هذا الحيوان الذى أخذت تطنب فى وصفه وتقول إن عيسى ابن مريم وأمه يذكراننا به . فقلت هذا الحيوان مخلوق فى كل بحر وكل نهر ولقد كنت وأنا فى قريتنا بمديرية الشرقية أعثر على هذا الحيوان وأنا أستحمّ فى نهر أبى الأخضر ولا أعقل له معنى .

ومن عجب أن جثمان هذا الحيوان وغطاءه كان الناس يتخذونه سراجا لمنازلهم بحيث يضعون الزيت فى أحد غطاءى ذلك الحيوان ويضعون فى ذلك الزيت فتيلا ويوقدونه سراجا . فإذا رأيت ثم رأيت مسارج فات زيت موقدات وذلك بفضل هذا الحيوان . ومنه أيضاً يكون (الودع) الذى يتخذه الرقاصون من السودانيين على أوساطهم ليكون له صوت يعجب بعض الناس . وهكذا من ذلك الحيوان يكون الدّر الذى هو أغلى الجواهر وأعلاها قيمة وأنفسها وأبدعها جمالا وأبهجها حلية « فتبارك الله أحسن الخالقين » فقال صاحبى إذن هذا الحيوان هو :

المحـــار

قلت نعم . فقال صفه لى . فقلت هذا (المحار) مما يشبه نوع يسميه أهل الإسكندرية (أم الخلول) فهم يصنعونه بالتوابل والأفاويه والبهارات ويأكلونه ، وأيضاً يأكلون شيئاً يقال له (بلح البحر) يطبخونه مع الأرز والناس يصطادونه بشباك خاصة وبعض أهل أوروبا يربونه فى أماكن مخصوصة من البحر كما يربى المصريون (الفراريج) المستخرجة من الدجاج .

وصف هذا الحيوان ملخصا من كتاب أستاذنا العلامة المرحوم على مبارك باشا فى كتابه علم الدين

وصفه بأنه حيوان لحمه بارد رطب مخاطى ليس له عظام من الداخل وقد جعل الله له وقاية من الخارج وهى (المحارة) أو (الصدفة) وتكون تارة على هيئة شكل مخروط كهيئة البرج وتارة تكون شكلا مستديراً كالمرقة وتارة كدرع الحرب وتارة تكون قطعة واحدة كالحلزون وتارة تكون قطعتين فأكثر وتسمى (الليديا) وقد انقسمت إلى (ثلاث رتب أصلية) ذات الصدفة وذات الصدفتين وكثيرة الصدف .

والليديا المذكورة تسكن فى قاع البحار فتكون فى مواضع على صورة الجزائر والتلال وترى الواحدة منها فلقتين إحداها كبيرة وهى التى يلتصق بها الباطن وهى محدّبة ذات سمك وهى السفلى والثانية هى العليا وهى أصغر وأرق سمكا وأقل تحدبا والحيوان فى داخلها وهذا الحيوان فيه ثمرة بيضاء فيها عصب أبيض اللون متصل بالحيوان وبه يكون تحريكه وفى دائر كل فلقة من الفلقتين زوائد فيها شعور بمدها الحيوان ويقبضها باختياره يقتنص بها المواد الجبرية فتكون قوته وللحيوان فم ظاهر من جهة انفتاح المحارة له أربع زوائد بها يتناول الطعام وله معدة أشبه بشكل الكمثرى وأمعاء وكبد وقلب له أذين وبطين مثل سائر الحيوان ومن البطين يخرج عرق يتفرع (ثلاثة فروع) فرع يوصل الدم إلى أعلى وفرع يوصله إلى الكبد وفرع يوجه السائل إلى سائر الجسد ودم هذا الحيوان ليس أحمر بل هو شفاف عديم اللون . إذن هذا الحيوان له دورة دموية وله خياشيم كالسمك يستخرج بها الهواء الذائب فى الماء .

ومن غريب خواص هذا الحيوان أنه يجتمع فى الواحد منه أعضاء التناسل الذكورية والأنوثية فيكون الواحد لنسله أبا وأما معا ونسله فى أول أطواره بيض مصفر اللون كثير العدد إلى الغاية حتى إن أهل الفن توصلوا بكثرة البحث ودقة التحقيق إلى أن قدروا الحيوان الواحد منه نحو ألفى ألفى بيضة ومدة تربية هذا الحيوان فى البيضة كتربية الدجاج فى البيض إلى أن يتم تخلق الحيوان ويستقل بنفسه ثلاثة أشهر من بئونة إلى آخر مسرى وفى هذه المدة يكون البيض فى طيات الغشاء المتقدم ذكره مغمورا بمادة لزجة تفرزها الأم فيتغذى منها ويكون فى طيات هذا الغشاء بمنزلة البيض تحت الدجاجة ترقد عليه وتحضنه وحينئذ يكون كل من البيض وهذه المادة فى قوام القشطة ولا ترى أفراده إذ ذاك بالعين لفرط صغره ودقته وكثرة تراكمه على بعضه ويكون فى أول أطواره مصفرا كما مر ثم يتغير بعد ذلك فيسمر ثم يكون آخر الأمر بنفسجى اللون وعند ذلك يتخلق فيه الحيوان ويخرج منه وهو فى طيات الغشاء المذكور كما ذكر وعند ذلك تقذفه الأم فى الماء متتابعا متعاقبا على صورة خيط أبيض يشاهد بالبصر فيخرج من كل محارة خيط ويتكون من المجموع طبقة عظيمة الاتساع بالنسبة لاتساع الصخور الموجود عليها المحار يتميز لونها عن لون الماء وحينئذ يكون لها منظر عجيب ولكن لا يلتفت إليها إلا المشتغلون بأمرها المعانون لتربيتها . ومن الغريب أن هذا الحيوان الذى تنقضى مدة حياته فى حالة السكون وعدم الحركة يكون عند ولادته وانفصاله عن أصله عاطلا عادة تتكوّن منها محارته التى جعلها الله سبحانه وقاية له ويكون إذ ذاك فى غاية الصغر والدقة بحيث لا يتميز أفراده إلا بالنظارة المعظمة ويكون له حينئذ شعور بها يسبح فى الماء ويسرح حول أصله ويفزع اليه متى دهمته أى حادثة تهوله فاذا كبر الحيوان زالت عنه هذه الشعور التى هى له كالأرجل فيتعلق ببعض الصخور والأحجار فيستقر بمكانه ويثبت فيه ولا يتحول عنه وحجمه إذ ذاك لا يكون إلا قدر خمس ملليمتر واحد أى بقدر جزء واحد من خمسة آلاف جزء من المتر وبعد ثمانية أشهر يصل طوله إلى نحو ثمانية ملليمترات أو عشرة ملليمترات وبعد سنة يكون قدر خمسة سنتيمترات ولا يتم صلاحه ويكمل الانتفاع به ويباع فى الأسواق إلا إذا بلغ ثلاث سنين وهذا هو المعتبر بين أرباب المعامل فانهم لا يخرجونه منها إلا إذا بلغ هذا العمر .

وعالم (المحار) عالم كبير وعدده كثير حتى قيل إنه أكثر المملكة الحيوانية عددا . ومن هذا المحار نوع يسمى (الودع) ثم إن اللؤلؤ يتكون فى داخل بعض المحار ولقد تقدم الكلام عليه فى سورة الفاتحة .

فاعجب للعلم والحكمة وتأمل كيف كانت مسألة انفصال الذكور من الإناث ليست واجبة فى التناسل وكيف كان ذكر عيسى ابن مريم وأنه لا أب له أصبحت تملأ البحار كلها وأن التناسل الذى ليس له أب معروف أكثر وأغزر وأوفى عددا من التناسل المتوقف على أبوين ، وإذا كنا نرى (المحارة) تلد ألفى ألف فى مدة حياتها وأكثر الوالدات تعدّ ذريتها بالآحاد أو العشرات . فاذن مسألة عيسى ابن مريم توجب البحث فى عالم الحيوان وتفتح للناس باب العلم والمعرفة ويقولون إن الله لا حد لعلمه ولا حصر لقدرته ولا نهاية لإبداعه ذلك مايفهم من أمر عيسى ابن مريم ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية فى عجائب العلم الحديث

عجيبة إن صحت دلت على مانحن فيه من هذه السورة وكشفت اللثام عما تقدم فى أول سورة النساء من أن آدم وحواء وسائر الحيوان خلقت أول أمرها فى خط الاستواء إذ كانت الأحوال هناك مناسبة لها ثم تناسلت تلك الحيوانات وانتشرت . فهذه العجيبة التى سأذكرها لك إن صحت لم تزد عن ذلك التأييد وتبين لنا عجائب الخلق ، ذلك أنه فى يوم السبت ٣٠ أكتوبر ذكرت خبر انتشر فى جرائد الشرق والغرب وهذا ملخصه :

توليد الحياة بطريقة كيماوية

ذكرت الصحف أن شابا يدعى المستر (مازور) وفق بعد جهاد خمس سنوات إلى توليد الحياة بطريقة صناعية فى معمله الكيميائى . ولا حاجة إلى القول بأن عملا كهذا إذا صح سيحدث أكبر انقلاب فى تاريخ البشر .

قضى المستر (مازور) سنوات عدة فى معمله يجد ويشتغل ويقوم باجراء التجارب العلمية حتى وفق أخيرا إلى جعل (القوقعة) بطريقة كيميائية غريبة وكان قد وفق فى سنة ١٩٢١ إلى حصول أول خلية من خلايا الحياة الصناعية وذلك باتجاهه طرقا غير الطرق العلمية التى تعتمد فيها العلماء ولعل تمسكه عن الطرق العلمية هو الذى أفضى به إلى تلك النتيجة الباهرة . وخلاصة ما فعله أنه أخذ مجموعة من بيض (القوقعة) الطبيعية ومزجها ببلورات الكلسيوم حتى تكوّن منها مزيج ثخين سائل . وبعد ثلاثة أسابيع وجد فى المزيج عدة قوقعات طبيعية حية . وقد حاول تفريغ البلورات عدة أسابيع ، فلما كملت عملية التفريغ مزج الشكل بالزلال ثم حقن تربة أصيص من أصص الأزهار بذلك المزيج وبعد ثلاثة أشهر امتلأ الأصيص بالقوقعات وأعاد هذه التجربة مرارا فأسفرت كل مرة عن النجاح التام . وجاء مرة بثمانية أصص فى جميعها تربة متماثلة وأزهار متماثلة فحقن أربعة من تلك الأصص من المزيج المذكور وأهمل الأربعة الباقية ثم عرّض الثمانية الأصص لنور الشمس وعاملها كلها معاملة واحدة . وبعد ثلاثة أشهر ظهرت قوقعات كثيرة فى الأصص المحقونة بالمزيج أما الاصص الأخرى فلم يظهر فيها شىء على الإطلاق .

ويعتقد المستر (مازور) أن هذه التجارب قد أثبتت بوجه قاطع صحة نظرية التولد الذاتى وهى النظرية التى تذهب إلى أن الحياة يمكن أن تنشأ من الأرض نشوءا ذاتيا أى من تلقاء نفسها وذلك باتحاد الخلايا وانضمامها معا فى أحوال معينة من دون أن يكون ثمة ضرورة لاجتماع الأبوين . وهذه النظرية فى عرف المستر (مازور) تؤيد ما جاء فى الكتب المنزلة بشأن عملية الخلق وتناقض نظرية النشوء والارتقاء التى جاء بها (داروين) .

وفى اعتقاده أيضا أن رواية الكتب المنزلة عن الخلق أكثر انطباقا على المبادىء العلمية وأكثر تأييدا لها من نظرية النشوء والارتقاء بشرط تفسير تلك الرواية بأنها تعنى التولد الذاتى لأن البراهين قوية جدا على أن الحياة فى جميع مظاهرها الحيوانية والنباتات نشأت بطريقة ذلك التولد . ولو أمكننا أن نوجد البيئة أو الأحوال التى ظهرت فيها الأنواع منذ القدم لأمكننا اليوم أن نوجد تلك الأنواع عينها بطريقة صناعية .

هذا ما يدعيه المستر (مازور) على أنه يقول (إنه وإن يكن قد تمكن من إيجاد نوع من الأنواع فهو ليس بمبدع أو خالق وإنما هو آلة لإتمام الخلق أى إن عملية الخلق من وظائف الطبيعة وهو لم يفعل شيئا سوى مزج العناصر اللازمة لتولد الحياة . على أنه وإن يكن الانسان قد تمكن من حصول الحياة فانه عاجز كل العجز عن خلق الروح أو العقل وهما يختلفان عن الحياة كل الاختلاف وليس ذلك فقط بل إن الانسان يجهل كنه الروح أو النفس ولا يعلم العلاقة بين الروح والمادة) .

ومما يجدر بالذكر أن المستر (مازور) لا يعمل فى الخفاء بل هو يشرح تجاربه لكل من يقصده ويقول إنه قد وفق إلى وجود خلايا صناعية تشبه الخميرة بالطريقة الآتية :

ذلك أنه أذاب جراما واحدا من الغراء الاعتيادى فى أربعة (أونسات) من الماء المقطر وغلى المزيج ثم أضاف إليه قليلا من حمض التنيك وغلى الجميع مدة عشر دقائق ثم رفعه عن النار لكى يبرد فنشأت منه خلايا صناعية غير متحركة فلكى يجعلها تتحرك أخذ نقطة من المزيج الذى فيه الخلايا ووضعها على قطعة من الزجاج وأضاف اليها نقطة من المادة المعروفة (بمرارة الثور) أو (صفراء الثور) وهى مادة تستعمل

فى تحضير

فى تحضير مستولدات بكتيرية ومزجها بالسائل الذى على الزجاجة فلم تمض على ذلك ثلاث دقائق حتى تغير لون الخلايا من أحمر قاتم إلى أحمر فاقع وأصبحت شفافة وكونت نواة ، ولا شك أن العلماء سيهتمون بمباحث المستر (مازور) المدهشة وبما وصل إليه من طرق ابتكار الحياة . فإذا صحت التفاصيل التى أوردتها الصحف فسيخلد اسم هذا الشاب الكيميائى الذى وفق إلى أعظم عمل يخلد الذكر ألا وهو خلق الحياة . ولكن لابد هنا من إعادة التنبيه بأن بين خلق الحياة وخلق الروح أو النفس بونا شاسعاً فى نظر العلم وأن التمكن من خلق الأول لايعنى التمكن من خلق الثانى . وعلى كل فإن عمل المستر (مازور) إذا صح ماقيل عنه هو أعظم عمل علمى قام به الانسان منذ بدء العالم وسيحدث أكبر انقلاب عرفه التاريخ . ولا يستطيع أحد أن ينبئ بما قد يفضى إليه من النتائج المدهشة اهـ .

هذا ملخص ما جاء فى الجرائد والمجلات فى العالم ونقلته جريدة (السياسة) الأسبوعية . وأقول لك إن هذا إن صح وثبت فرضاً لم يصنع شيئاً إلا ما قلته لك وهو ما جاء فى أول سورة « النساء » من أن بعض علماء أوروبا يقولون إن الحيوان اشتق أعلاه من أسفله كالبرى من البحرى وبعضهم كذّب هذا وهم فى حيرة ؟ فاما علماؤنا السابقون فقد قالوا إن كل حيوان قد خلق أولا فى خط الاستواء إذ كانت الأحوال موافقة فانظره هناك . فهذا الانجليزى إن صح قوله لم يأت بشىء إلا تأييد نظرية قدمائنا فى أن الحيوانات خلقت فى أحوال ملائمة وهذه الأحوال قد فاتت وقتها . فهذا الكيمائى قد ركب تركيباً يناسب حالا من تلك الأحوال وليس له من الأمر شىء كأنه ليس للفلاح فى نمو قمحه شىء فما هو إلا أن وضع البذور وسوى الأرض والله تولى الإنبات.

علم الله أن أمة الاسلام سيمر عليها زمان ترى فيه نتائج هذه القصة وبعبارة أخرى ترى الولد بلا أب كمسألة عيسى فأنزلها فى القرآن وهذا أعظم توبيخ للمسلمين أن يظهر سر ظهور المسيح على يد المسيحيين مع أننا « خير أمة أخرجت للناس » فكان علينا العلم وكشفه . فماذا حصل ؟ ذلك أن الله قيض الأستاذ (لوب) أكبر عالم فى علم الحياة وقد ولد فى (الالزاس) سنة ١٨٥٩ وتعلم فى جامعة (ستراسبرج) ونال الدبلوم فى الطب سنة ١٨٤٨ وصار مدرساً لعلم (البيولوجيا) فى كلية (برين مور) بأمريكا ثم جعل بجامعة (شيكاغو) أستاذاً للفسيولوجيا والبيولوجيا ثم فى جامعة (كلفورنيا) سنة ١٩٠٣ .

هذا الأستاذ هو الذى بحث هذا المبحث العجيب ، فبحث حيواناً بحريا نسميه فى مصر (ترسا) تراه فى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وقد ربته (مصلحة الأسماك) بالإسكندرية فى البحر وهو كروى له شوك صلب على جميع محيطه . ولهذا الحيوان بيض ومتى وقع هذا البيض واتفق أن أصابه لقاح ممزوج بماء البحر فإنه يفقس وذلك على مقتضى الناموس المعروف ولكنه هو أقام بضع سنين يبحث حتى تمكن من جعل بيض حيوان يسمى (التوتيا) ينمو بغير تلقيح ولا زال يرتقى حتى جعل ذلك أيضاً فى نفس الضفادع وهذه التجارب كانت فى خيمته فى ساحل (كليفورنيا) فعرف مقدار الملح فى الماء وكم بيضة تنمو من عدد من البيض وما هى العوامل الطبيعية والكيماوية . فهذا الأستاذ أثبت أن الحيوان أمكن أن يكون له أم ولا أب له بفضل أملاح وبعض أعمال طبيعية وكيائية . هذا هو الكشف فى القرن العشرين فتبين أن قول الله تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » الخ قد ظهر سره الآن . فآدم ظهر سره فى الفصل السابق وعيسى ظهر سره فى هذا الفصل . إن هذا من عجائب القرآن .

سر الوجود . الكهرباء والأرواح

إن السر فى هذا الوجود يستبين لنا شيئاً فشيئاً . أتدرى ماذا أقول لك الآن . أقول إن الكهرباء لايخلو منها مكان فهى فى الأرض والهواء والحيوان والنبات ولكنها لن تظهر لأحد إلا بالتفاعل المذكور فى سورة (الأنعام) وغيرها فمتى وضعنا النحاس مع التوتيا مثلا وسائل ملحى ظهرت الكهرباء قليلة أو كثيرة على

حسب التفاعل . وهذه الكهرباء تكون نوراً فى منازلنا وناراً طابخة لطعامنا وحركة مديرة لآلاتنا فى الصناعات المختلفة فتنوعت الكهرباء بتنوع الآلات المعدة لمنافع مختلفة . فهى مضيئة فى حجراتنا محركة فى آلاتنا طابخة لطعامنا بالحرارة . فهى كهرباء وهى ضوء وهى نار وهى حركات . تعددت الأفعال وأسماؤها والعنصر واحد . أليس هذا عجيباً . هذه هى الكهرباء .

أما عالم الروح فبالقياس عليها نقول هى المعبر عنه فى الفلسفة القديمة بالنفس الكلية فهى تحيط بالعوالم أشد من إحاطة الكهرباء ولا تظهر إلا فى أجسام تقبلها بالتفاعل مثل ما حصل فى الكهرباء سواء بسواء الروح الكلى محيط بنا وبكرتنا ولكن لا يظهر أثره إلا إذا حصل التفاعل فى أجسام تستعد لقبوله كما فى الكهرباء ، والاستعداد بالقبول إما قليل كما فى النبات وإما كثير كما فى الحيوان . الكهرباء أنتجت سالباً وموجباً ، النبات والحيوان أنتجا ذكراً وأنثى كالموجب والسالب ففى كل منها زوجان . ومتى استعد النبات والحيوان لقبول الفيض من تلك النفس الكلية أخذت أعضاء الحيوان كلها ما يناسبها منه . فكما قلنا فى الكهرباء نور وحرارة وحركة باستعداد القوابل لها . هكذا نقول هنا فى فيض النفس الكلية على كل حى . إن ذلك الفيض إن ألقى إلى نبات أعطاه النماء والتكاثر أو إلى حيوان أعطاه فوق ذلك الحس والحركة والادراك فهو فى كل حال يعطى ما يناسبه وهكذا نقول الفيض فى النبات به امتد العرق فى الأرض وتعرض الورق للنور وأزهر الشجر وأثمر الخ وكل ذلك بحسب القوابل وهو فى الحيوان يعطى القلب نبضاً والكبد طبخاً للدم والمعدة هضماً والدماغ فكراً والعين نظراً والأذن سمعاً واللسان ذوقاً وذلك بحسب القوابل كما قلنا فى الكهرباء نوراً فى حجراتنا وناراً لطهى طعامنا وحركة لآلاتنا . فكما اختصت الحركات بالآلات والنور بالحجرات باستعداد خاص هكذا اختصت الأذن بالسمع والعين بالبصر والمعدة بالهضم وهكذا . فتنتج من ذلك أن الكهرباء تظهر عند التفاعل المناسب لها وقوة الحياة تظهر عند التفاعل المناسب لها . وكما تختلف الكهرباء قوة وضعفاً على حسب منبعها . هكذا تختلف الحياة قوة وضعفاً الخ فمتى حصل القابل للشئ فليس الله بمانع عنه ما يناسبه ، وبهذا وصلنا إلى المقصود .

تفاعلت النطفتان فى الرحم فألقيت إليهما الروح ومتى حصل التفاعل بأى وسيلة كانت فلابد من حصول الروح لأن الروح سارية فى العوالم سريان الكهرباء فمتى ظهرت القوابل لم تمنع عما يناسبها فإذا وضع بيض الضفدعة فى وسط يناسب الإلقاح بحيث يقوم التركيب فيه مقام إلقاح الذكر فلابد من حصول الحياة لأن الله ليس عليه حاكم يحكمه وما إلقاح الذكور للاناث إلا طريقة من الطرق التى لسنا نعرفها ، ومتى قام مقامها سبب آخر فلابد من الحياة كما أننا كنا نركب الدواب وقد علمنا اليوم البخار والكهرباء فاستعملناهما وحملانا بدل الدواب . هكذا طريق التناسل ليس قاصراً على ما نعلم فقد خرق الله العادة فى عيسى ليقول : أيها الناس إن نواميس أرضكم جزء من كل وإلا فملكى أوسع مما تعلمون فادرسوا هذا الوجود حتى تخرقوا الحجب العقلية « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » انتهت الجوهرة الثانية .

الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب » إلى قوله :
« فاختلف الأحزاب من بينهم » الخ

اللهم إنى أحمدك على التوفيق وعلى نعمة العلم . اللهم إن هذا النوع الانسانى كله إلا النادر منهم نوع مقلد يتبع آخرهم أولهم . اللهم إنك أنت قد أنزلت ديانات فى أرضك لتهدى الأمم الإنسانية كما أنزلت فى أصناف الحشرات وذوات الأربع والطيور قوى وغرائز بها انتظمت ممالكها وعاشت أزواجها وحفظت أنواعها وربت ذريتها . فهذه الغرائز الحيوانية قد قامت بأمرك ووحيك فتم بها النظام . أما هذه الديانات التى أنزلتها فى أرضك وفرقتها فى شعوبها وقبائلها فى أزمانها المختلفات فإنها قد اعتراها ما يعترى المواد الأرضية والمركبات العنصرية من التغير والتبدل والمسخ والنسخ والبلى . حكمت على دياناتنا حكمك على أجسامنا ولم تحكم

على غرائز الحيوان ماحكته على دياناتنا . أبقيت غرائزها فحفظت كيانها على مقدار طاقتها . ولم تكل هذه الغرائز إلى تدبيرها . أما نحن بنى آدم فانك وإن أنزلت لنا مختلف الديانات لم نطبعها فى عقولنا بطبعها كما لم نحسن نحن فيها صنعا . مانزل دين من السماء إلا أدخلنا عليه بدعا وألبسناه من لدنا خلعا وغشيناه بما لدينا من خرافات ومفاسد فلا نزال نزيده تلبيسا ولا يزال هو يبتعد عن أصله حتى لايصلح لنظامنا فترسل رسولا آخر وهكذا . أنت خلقت أمم الآشوريين والبابليين (سيأتى الكلام عليهم فى سورة الأنبياء عند قوله تعالى : «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه » الخ) وخلقت أمم الفرس وجعلت هناك ديانات كديانة الآشوريين وديانة البابليين وديانة المجوس وديانة (زردشت) ولادين من هذه الأديان إلا دخله البدع والضلالات هكذا دين (خريستا) بالهند وقبله دين (البراهمة) وقبله كتاب (الفيدا) وبعد (خريستا) دين (بوذا) وكل هذه الأربعة يتبع بعضها بعضا فيكون كل منها أولا توحيدا ثم يكون التثليث .

هذه صورة مصغرة من صور الديانات فى أرضنا . فالدين يأتى بالتوحيد وتابعوه على طول الزمان يثلثون ويكثرون الأصنام والآلهة إلى ألف أو آلاف بل إلى مالاحصر له كما فى أمة اليابان الآن . لذلك أرسلت محمدا صلى الله عليه وسلم ، وقلت له «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فنشر العقيدة الخالصة بالتوحيد التى جعلها قدماء المصريين وأهل الهند وغيرهم عقيدة سرية فما وسع الإسلام إلا إظهارها وختم الله الديانات بها لعلمه أن كل دين بعد أزمان يرجع إلى الوثنية . ولما انتشر الاسلام أثر فى أمم العالم قاطبة وبه وحده كما تقدم عن (سديو الفرنسى) نقله فى سورة (التوبة) وسورة (إبراهيم) فقد أثبت بصريح العبارة هو وغيره من أهل أوروبا الحاليين أن ظلم رجال الدين فى أوروبا وتحكمهم فى الشعب الذى امتد نحو أحد عشر قرنا لم يمنعه إلا تعالم الدين الإسلامى وذمه الأحبار والرهبان وقام بهذه الدعوة أمثال (روسو) و (فولتير) فحرروا أوروبا وارتقت وارتقى الناس معهم وبهذا الارتقاء بحثوا فى الآثار القديمة فى مصر والهند وبابل وأشور ، فماذا وجدوا . وجدوا أن التثليث ليس دين المسيح فقد وجدوه منقولا عن أهل الهند فى الخرافات التى كتبوها فى (خريستا) قبل الميلاد بنحو ٤٨٠٠ سنة وفى (بوذا) قبل الميلاد بنحو ستمائة سنة . وقد تقدم هذا موضحا فى آخر سورة المائدة فارجع إليه ، ولكن الذى سقت له هذا الكلام الآن هو أمر عجب . ذلك أن صديقنا اللورد (هيدلى) العالم الانجليزى الذى أسلم بعقله وأسس طائفة مسلمة فى انكلترا ودعا إلى الاسلام ذكر فى كتابه المعنون (إيقاظ العرب للاسلام) تأليف سيف الرحمن رحمة الله فاروق (اللورد هيدلى) رئيس الجمعية البريطانية الاسلامية منقولا إلى العربية . فهذه الترجمة جاء فيها فى صفحة ٤٨ وما بعدها مايأتى :

إذا كان إيمانى الأجوف فى الولادة العذرية وصلب المسيح وقيامته ثانيا تجلب إلىّ الخلاص المطلوب ، فلماذا لاينبغى لى إذن أن أؤمن بسر (بابيلونيا) وأؤمل خلاصى . إن رواية آلام (بابيلونيا) كانت فى الوجود من مدة طويلة جدا قبل ميلاد المسيح بل كانت شرعية ومقررة فى تلك الأيام كمأساة مألوفة .

هناك لوحان بابليان تابعان إلى مجموعة السجلات المكتوبة بالخط الأشورى التى كشفت بواسطة الحفارين الألمانيين فى سنة ١٩٠٣ و ١٩٠٤ م فى (كاله سرجات) .

قاعدة الآشوريين الأقدمين وهما يتممان مكتبة هؤلاء الآشوريين التى أنشئت فى القرن التاسع

• قبل الميلاد أو قبل ذلك وهما مع ذلك صورتان طبق الأصل من ألواح بابلية أقدم من ذلك

من هذين اللوحين يمكننا أن نعرف أن حكاية آلام المسيح ليست أول حكاية عرفها الانسان من هذا الصنف منذ الخليقة ، وتسهيلا للقارئ ننقل الآتى من عدد يناير سنة ١٩٢٨ من مجلة (الكونست) التى هى مجلة مسيحية بحتة .

(١) رواية الآلام البابلية	(١) حكاية الآلام المسيحية
(٢) يساق بيل أسيرا	(٢) يساق عيسى أسيرا
(٣) يحاكم بيل فى المنزل على الرابية (غرفة المحاكمة)	(٣) يحاكم عيسى فى منزل رئيس الكهنة
(٤) يضرب بيل	(٤) يجلد عيسى
(٥) يساق بيل إلى الرابية	(٥) يساق عيسى إلى الصلب فى جلجثه
(٦) يساق مع بيل شرّيران أحدهما يقتل والآخر يطلق سراحه	(٦) يساق مع عيسى شرّيران يعدمان وآخر يدعى (باراباس) يطلق سراحه
(٧) عندما يصعد (بيل) على الرابية تتزلزل المدينة وتحدث فيها مواقع	(٧) عند موت عيسى يمزق حجاب الهيكل وتتزلزل الأرض وتتشقق الصخور وتفتح القبور ويخرج الأموات إلى المدينة المقدسة
(٨) تؤخذ ملابس (بيل)	(٨) تقتسم العساكر ملابس عيسى
(٩) تمسح امرأة الدم النابع من قلب بيل أثر خروج السلاح (حربه)	(٩) يطعن عيسى بحربة فى جنبه ويخرج دم وماء وتأتى مريم المجدلية وامرأتان أخريان لغسل وتحنيط الجثة
(١٠) ينزل (بيل) تحت الرابية بعيدا عن الشمس والنور وتذهب عنه الحياة	(١٠) يدخل عيسى القبر داخل الصخرة ويذهب تحت إلى قسم الأموات ويزور جهنم
(١١) يلاحظ الحراس (بيل) وهو سجين فى معقل الرابية	(١١) يوضع الحراس على قبر عيسى
(١٢) تجلس آلهة مع (بيل) قد أتت لتعتنى به	(١٢) مريم المجدلية ومريم الأخرى تجلسان أمام القبر
(١٣) يبحثون عن (بيل) فى أى مكان هو مقيم خصوصا امرأة باكية تبحث عنه فى المقبرة وعندما يؤخذ تصيح مولولة (آه يا أخى . آه يا أخى)	(١٣) تأتى النساء خصوصا مريم المجدلية إلى القبر ليبحثن عن عيسى خلف باب القبر فتقف مريم باكية أمام القبر الخالى لأنهم أخذوا سيدها بعيدا
(١٤) رجع (بيل) ثانيا إلى الحياة (كشمس الربيع) ثم يخرج من الرابية	(١٤) رجوع عيسى إلى الحياة وخروجه من القبر فى صباح (الأحد)
(١٥) والعيد الأكبر عند البابليين وهو رأس السنة يكون فى مارس فى زمن الاعتدال الربيعى ويحتفل به لأن فيه كان انتصاره على قوات الظلام	(١٥) عيده الذى يكون فى الاعتدال الربيعى تقريبا يحيا ويعظم أيضا كانتصار له على قوات الظلام

إلى هنا انتهى ما نقله اللورد (هيدلى) الانجليزى الذى أسلم عن اللوحين المكتوبين بالخط الأشورى ثم أتبع ذلك بالتعليق عليه مثل قوله (من أين إذن أتت عظمة المسيحية التى يعلن عنها دائما من أعلى المنابر بأنها هى الديانة الوحيدة لخلاصنا) ومثل قوله (يتضح من ذلك أنه منذ ألف سنة أو أكثر قبل ظهور المسيح كانت هناك حكاية فى العالم تشابه حكاية هذا النبى وكان لها اعتقاد عظيم فى أفئدة هؤلاء الناس) ومثل قوله : إن الاعتقاد الأجوف فى هذه الحكاية وتلك الرواية لا تجلب إليكم (الباسبورت) الجواز اللازم لدخول الحياة الأبدية.

كل هذا ما هو إلا حكاية من حكايات ملاجىء الأطفال) إلى أن قال (وقد نصت الشريعة الاسلامية على أن السمو الروحى متناسب مع ارتقاء العمل الانسانى فى هذه الحياة ولهذا السبب لا يمكن الانسان أن يحصل على خلاصة إلا إلى الدرجة التى أظهرها بعمله الشخصى فى الدنيا) . ثم خاطب أوروبا كلها قائلا (قد أطلب منكم جميعا أن تعملوا الأعمال الروحية الطيبة فهى خير لكم من التفكير الكهنوتى الذى يقال إنه يسهل الوصول إليه بشبك عقيدتكم الحاوية فقط (بديوس) ، مع حكاية آلام بشر (عيسى نبى الناصرة) انتهى كلامه .

وأقول أنا: قد اجتمعت بمؤلف هذا الكتاب فى مصر وخطب خطبة فى الجامع الأزهر وترجمها بعض الإخوان الحاضرين . وملخصها: أنه عرف سخافة النصرانية من صغره وأيقن بالاسلام بعد البحث ولكن خاف من إظهار إسلامه على شعور أبيه وأمه والكبار من أسرته . ولما ماتوا أظهر الاسلام ثم قال (إن ثلاثة أرباع الانجليز موقنون بمثل إيقانى ولكنهم يخافون من كدر أقاربهم وأهليهم وقد كاشفونى بذلك) .

ثم بعد ذلك تغديت معه على مائدة كنا دعينا إليها تخاطبنى هو وصديقه (خواجه كمال الدين) والشيخ عبد المحى. قائلين: إن الاسلام يمكن انتشاره فى أوروبا بسرعة إذا جاء من المصريين وفد دينى وعضدنا فى هذه الدعوة ، انتهى .

أقول: أفلا تعجب أيها الصديق الذكى لنعمة الله الواسعة وفضله العميم الذى أنعم به فى هذا التفسير . ألست ترى أن هذا زمان ظهور الحقائق وأى حقائق بعد هذا البيان . اللهم إنا نحمدك على نعمة العلم وظهور الحقائق . لقد ظهر الحق واستبان أن هـذا الانسان كله قديما اتبع المتأخر المتقدم فى تعدد الآلهة . ثلث البابليون والآشوريون والمصريون وأهل الهند وأظهر الله عز وجل آثارهم على أحجارهم فى زماننا وحده ولم يعرف هذا على هذا النمط إلا فى زماننا وقد نشر هذا فى هـذا الكتاب . فأى يقين بعد هذا . أو ليس هذا بعينه هو معنى قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وقوله «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» وقوله «ثم إن علينا بيانه» وهكذا من الآيات أصبح أمرا مشاهدا يرى بالبصر مع البصيرة ، فالحمد لله على نعمة العرفان ، انتهى .

ثم أقول بعد ذلك : أى ثقة بقيت بهذا الانسان وبأقاصيصه . هاهى ذه العلوم الإلهية (مابعد الطبيعة) ليس لأحد من أوروبا التى قلبت الكرة الأرضية فيها فضل . ألا ترى إلى ماذكرته لك فى سورة النحل عند قوله تعالى «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر» فقد نقلت لك هناك ماخطه يراع معاصرنا الذى لم نره وهو الأستاذ (سنتلانة الطليانى) إذ أبان هناك بالخط العريض أن فلاسفة أوروبا الحاليين والسابقين لم يصلوا لعشر معشار ماوصل اليه أمثال (سقراط) و (أفلاطون) فيما هو المقصود الحقيق من الفلسفة وهى معرفة النفس والإله وما أشبه ذلك ولم ينبغوا إلا فى العلوم الجزئية المشهورة . أما الأمـور العامة العالية فقد قال إن نسبتهم إلى فلاسفة اليونان فيها كنسبة (البقة) إلى (الفيل) . ونقل عن (اسبنسر) ما يفيد بعض ذلك فاذن أقول أنا يا أمة الاسلام . هذه هى مقدرة النوع الانسانى . دياناتهم خرافات وهم أنفسهم أعلمونا بها وعلومهم التى رقتهم علينا فى الماديات لم تنلهم حظا وافرا فى العقائد وعليه يجب علينا نحن أن ندرس علومهم جميعا لمنفعتها وشرفها ونستأنف المباحث الإلهية بأنفسنا لأن الشرق أقدر على ذلك من أوروبا فاننا أصحاب الديانات وأوروبا لم يكن فيها دين البتة . بل أهل الشرق هم الذين حملوا هذه الخرافات التى تصيدها أهل الأرض المقدسة من خرافات الهنود ومن خرافات البابليين وضحكوا على عقول أوروبا واعتنقوا دين نبى شرقى لم يصلب ولم يضرب ولم يجلد . ألا فليقم المسلمون بما يجب عليهم وليكونوا للعلم حاملين وللحقائق مجددين ولأهل الشرق والغرب معلمين ، والحمد لله رب العالمين .

جوهرة فى قوله تعالى «ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم»

اعلم أن هذه الآية بيت القصيد فى هذه السور المتلاحقة . وأذكرك بما مر فى سورة (آل عمران) عند ذكر عيسى ابن مريم وأن هذه الجملة تضمنت العلم والعمل ، والعلم والعمل هما ملخص الديانات كلها وأن هذه هناك عدت آية من الله لعيسى الخ فهذا المقام مشروح هناك مفصل بجميع حذافيره مع نموذج من الديانات المشهورة فى الأمم حولنا الآن ، وسترى فى هذا المقام بيانا أجمل وعلما أكمل وحكمة أشمل وبهجة وبهاء ونورا وسناء . سترى عجائب الحكمة وبدائع العلم وغرائب القرآن تجلت الناظرين وازينت للمفكرين وأشرقت العالمين وأشرقت الأرض بنور ربها واستبانت حقائق لم تكن لتخطر لولا هداية الله ولا لتظهر لولا أنه أراد رقى الأمم فى هذه الكرة بقدر معلوم .

اعلم أن الله قد مهد لهم هذه الآية بآخر سورة الإسراء وأول سورة الكهف وآخرها وبما مضى من سورة مريم ، فهذه السور الثلاث المكيات المتلاحقات تعاونت أوائلها وأواخرها على أن تكون مقدمات لآيتنا التى نحن بصددها . ألم تر أنه فى آخر سورة الاسراء يقول « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك » الخ ثم أعقبها فى أول سورة الكهف بقوله «لينذر بأساشديدا من لدنه ويبشر المؤمنين» الخ. فهو يبشر المؤمن الصالح وينذر من قالوا إن لله ولدا ، فهذه راجعة لاتخاذ الولد فى آخر السورة قبلها فالآيتان متصلتان وبعبارة أخرى اتصل أول الكهف بآخر الإسراء حتى كأنهما سورة واحدة . فهناك حمد على عدم اتخاذ الولد مختوما بذكر أن الله كبير وهنا أى فى أول سورة الكهف حمد الله على إنزال الكتاب ثم ذكر البشارة للمؤمن الصالح والانذار لمن قال إن الله اتخذ ولدا ثم ختم سورة الكهف بطلب العمل الصالح وعدم الشرك فى العبادة ومن الشرك فى العبادة اتخاذ الولد . فالعمل الصالح المسبوق بالايمان هو الذى فى أول السورة والشرك فى آخرها راجع لاتخاذ الولد فى أولها . كل ذلك مقدمة لأول هذه السورة إذ ذكر فيها مريم وابنها وختم ذلك بما هنا وهو أن الله إذا أراد شيئا ما لاعيسى وحده قال له كن فيكون . ولا جرم أن القول هنا هو المذكور فى سورة النساء « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » فالقول هنا ليس خاصا بعيسى ابن مريم . يقول الله أنا قلت فيما تقدم إن عيسى كلمتى ولكنى أقول هنا ليس عيسى وحده كلمتى بل كل مافى هذه الدنيا كلماتى . ألم أقدم لكم أيها الناس فى آخر سورة الكهف إن كلماتى لايحصرها العدّ وليس لها حد فلو كان البحر مدادا لكلماتى لنفد البحر والبحران والأبحر السبعة وأكثر من ذلك كل هذا كلماتى . أيها الناس إنى أنزلت هذا القرآن للأمم مريدا فطنتهم . فأنا قدّمت فى سورة النساء أن عيسى كلمتى وختمت سورة الكهف بأن كلماتى لاحد لها وذلك بعد أن أبنت فى قصة الخضر وموسى على لسان رسولى أن علمى لاحد له ورمزت قبل ذلك إلى ماأريد من بيان جهلكم بقولى فى سورة الإسراء « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فيكون ملخص هذا أن الانسان جهول لا طاقة له أن يعلم علومى التى لانهاية لها ومعلوماتى كلها كلماتى وعيسى كلمة منها ، هذه هى المقدمة التى أنزلها الله لنفهم آية «ماكان لله أن يتخذ من ولد» .

عظمة الله

لقد تجلت عظمة الله المشار لها بقوله تعالى « وكبره تكبيرا » فى آخر الإسراء وبقوله فى آخر الكهف «قل لو كان البحر» الخ فى هذا العصر . ألا ترى إلى ماتقدم فى آخر سورة الكهف أن شمسنا التى هى أعظم من أرضنا ألف ألف وثلثمائة ألف مرة أقلّ من كوكب الجوزاء ٢٥ ألف ألف مرة . فاذا كانت شمسنا العظيمة أصبح الكشف الذى لم يظهر إلا هذه السنة يبين لنا أن نورها بالنسبة لنور الجوزاء كنور حشرة الحباحب بالنسبة لنور الشمس وأن مقدارها شىء صغير بالنسبة لمقدار الجوزاء كما تقدم فى الخطبة الفلكية فذلك دالّ على أن عظمة الله وكبرياءه أخذت تظهر الآن وأن كون البحر وأمثال البحر لوكانت مدادا لكلمات

ربى لنفد البحر ، هذا زمان انكشاف قدر يسير منه ، وبهذا استبان جهل الانسان المذكور فى قوله تعالى «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ذلك لأنه كلما بدا لنا نجم وظهر لنا سديم علمنا علما ليس بالظن أننا لم نعرف منه إلا بعده وقدره ونوره بطريق الحساب ولكن جهلنا به عظيم فلا نعرف سكانه ولا سياراته ولا حيواناتها ولا نباتها ولا شيئا من مخلوقاتها .

بيان ما ترتب على جهل الإنسان قديما وحديثا

لقد تقدم فى الخطبة الفلكية أن عمر الانسان على الأرض نحو (٣٠٠) ألف سنة على سبيل الحدس والتقدير، ويقول قوم آخرون إن مدته أقل؛ وأقل الأقوال أنها (٥٠) ألف سنة ولكن هذا الانسان فى تلك المدة ظهر جهله العظيم لماذا ؟ لأنه أراد أن يعرف خالق الكون فبحث عنه فى الشمس والقمر والكواكب والحيوان والنبات والانسان . بحث فى هذه العوالم أى فى هذه الكلمات وتلك الكلمات منتظمات فهى فى هيئتها أشبه بنظام الموسيقى ونظام للموسيقى مطرب مفرح سارّ مبهج للسامعين .

إن كلمات الله المذكورة فى الآية التى نحن بصددها التى لم تخصّ عيسى بل شملت السموات والأرض وغيرهما وعلت إلى الجوزاء، وما هو أكبر منها ، وهكذا شملت كل حشرة صغيرة وكل حيوان كبير وما هو أقل وأصغر . كل ذلك كلمات مطربات منعشات مفرحات سارات مبهجات ولكن الموسيقى فى كلمات الله يدركها البصر، والموسيقى فى كلمات الانسان يدركها السمع . ولاجرم أن من يسمع صوتا موسيقيا من مغنّ قد أطربه غناؤه وأسكره نغمه يودّ لو يرى ذلك المغنى ويود لو يتصل به اتصالا . وبعبارة أخرى إن الرجل إذا سمع الصوتَ الجميل من امرأة جميلة وبالعكس يعشق كل من الصنفين الآخر المغنى ويود لقاءه والاجتماع به .

إن الله ضرب الصوت الجميل والموسيقى فى الأرض مثلا لنا لنحبه . فالعالم كلماته وكلماته حينما تتدبرها تراها موزونة كما اتزنت الموسيقى . وبعبارة أخرى إن العوالم العلوية والسفلية جميعها كما هو واضح فى هذا التفسير منتظمة: أى مقدرة بمقادير هى عينها المقادير التى فى الموسيقى . والاستلذاذ بنظام هذه العوالم من مقادير الحركات الفلكية فى سير الكواكب ونظامه الموسيقى المشروح شرحا تاما فى مواضع من هذا التفسير وفى النبات والحيوان وغيرها المعروف كذلك فيما تقدم بسبب أنه موسيقى المفكرين ، كما أن الصوت الجميل موسيقى الناس أجمعين . إذن كلمات الله كلها موسيقى أى مستلذة يستلذها العقل بعد التعلم كما يستلذ الجاهل بأصوات الموسيقى بلا علم ولا تعليم .

وضوح جهل الانسان فى العصور السابقة

أقول إن الانسان فى هذه الآلاف من السنين بحث عن ربه ليعرفه فكان أشبه بالخفاش لاينظر إلا فى الظلام ، ذلك لأن هذا العالم الأرضى الذى نسكنه عالم صغير متأخر وأى شئ الأرض ومن عليها؟ «قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا» فالأرض لاوزن لها وأهل الأرض مغرورون بنفوسهم . وإذا كانت أرضنا بالنسبة لشمسنا صغيرة وشمسنا بالنسبة للجوزاء كالمعدوم فإذن ظهر قوله «قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه» الخ .

وإنما خصّ المسيح بالذكر مع أمه لأن المسيح ابن مريم اتخذه الناس ابنا لله مع أنه من الكلمات الإلهية؟ فعقول هؤلاء الناس فى آلاف ومئات الآلاف من السنين الماضية ليس لها قدرة على أن تدرك قائل الكلمات أى خالق العالم وإنما الناس أشبه بمن سمع مغنيا يغنى بصوت جميل فتلقف كلماته ولم يفكر فى قائله لأن عقله وقف عند القول ونسى القائل .

إن الأمم قبلنا كما اتضح فى سورة (آل عمران) وغيرها وكما جاء فيما نقله صاحبنا (الورد هيدلى) الانجليزى وكما جاء فى آخر سورة المائدة نحوا هذا المنحى : أى أنهم لم يتعدوا المخلوق إلى الخالق ، فبدل أن يقولوا

فهذه الله رأسا نظروا إلى كلمة من كلماته الموسيقية فتنوا بها فيرون الرجل العظيم قد ولد بينهم بهيئة عجيبة لم يسمعوها وتظهر على يديه خوارق ويسمعون منه علما غريبا فيقولون إن هذا ابن الله . ولم هذا ؟ لأنهم أدركوا هنا جمالا بهرهم وسحرهم كما يسحر صوت الموسيقى سامعه فيقفون عندهذا ولا يتعدونه ويقولون لاعلم إلا ماقاله ولا نور إلا نوره ، فترى النصارى فتنوا بعيسى لأنه كلمة موسيقية من كلمات الله وهذه الفتنة والغرام ظاهرة فيا تقدم فى سورة الإسراء من الفتاة التى فكرت فى آلام المسيح فظهرت أعراضها عليها يوما فى الأسبوع وهذه الحادثة تكررت . فهذه وأمثالها قد حصروا أفكارهم فى كلمة من كلمات الله التى كلها جميلة واليهود فتنوا ببعض المصطفين منهم كالعزير فقالوا ابن الله . وأهل الهند قديما فتنوا (بوذا) و (خريشنا) فقالوا لكل منهما إنه ابن الله، وأهل (بابل) و (أشور) فتنوا بمن قالوا إنه ابن الله، وأهل المكسيك لمافتحها أهل أوروبا وجدوا عندهم عقيدة ابن الله ، وأهل التبت كذلك عندهم ابن الله . وكل هذا تقدم فى هذا التفسير ، ولذلك يقول الله « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » الخ . ويقول أيضا « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم » وهذا التشابه لم يكشف إلا فى زماننا ولم يعرف الناس أن هناك أبناء لله غير المسيح من قبلنا فالقرآن ذكره والكشف الحديث هو الذى أظهر ذلك معجزة كبرى للقرآن وكل هذا تقدم فى مواضعه .

ومن العجب أن تشابه قلوب الأمم عام، فتجدهم جميعا يقولون بالتثليث وبالبنوة وبأنه كلمة الله وبالصلب ، فالصلب عام والتثليث عام والبنوة عامة . هذه جهالة هذا الانسان فى ٥٠ ألف سنة أو فى ٣٠٠ ألف سنة .

الإسلام أخرج الانسانية من الظلمات إلى النور

إن الله قد مهد للاسلام بدين إبراهيم كما تقدم فى سورة الأنعام . إن الله علم أن هذا الانسان يقف عند كلمة من كلماته فيغرم بها وينسى المتكلم . فأهل (بابل) فتنوا بالكواكب فأرسل الله إبراهيم فقال لهم كلا . فالشمس والقمر والنجوم مخلوقات لله وأنا وجهت وجهى إليه . فأما الأصنام التى جعلتموها قائمة مقام الكواكب فهاهى ذه أنا أكسرها لكم . ولما جاء الاسلام أتم مافعله إبراهيم من تكسير الأصنام وقال أيها الناس توجهوا لربكم ولا تعبدوا شمسا ولا قمرا ولا صنما الخ . وعمد إلى البنوة والكلمة فقال أيها الناس تعالوا انظروا أى فرق بين القمر والشمس والانسان . كل هؤلاء كلمات الله ، فكما لاتقفون عند أنوار الكواكب فتعبدوها هكذا لاتقفون عند الأنوار العلية فى عيسى وغيره فتعبدوه ، فالأنوار المعنوية فى عيسى مثلا وهو كلمتى كالأنوار الحسية فى الشمس وهى كلمتى لجميع كلماتى موسيقية .

هنا فتح الله للانسانية بالقرآن فتحا جديدا مريدا ازدياد العلم ونشر الأنوار فى الأرض ، إن نفى الولد وتعميم الكلمات معناه أن تنظر لكل حجر ولكل شجر ولكل حشرة وتقرأ الجمال الذى فيها ولكنا نقول إن جمال هذه الكلمات جمال خالقها ولا تقف عندها وإلا وقعنا فيا وقع فيه السابقون ، فمن الناس من يعبد البقر أو القرد أو الحية أو الثعبان أو الفيل أو النمر وهكذا توجهت عبادة هذا الانسان كلها لكلمات الله وذلك لضعف هذا الانسان فانه لايقدر أن يفتح بصيرته للمتكلم بل لبعض الكلمات ، إن الانسانية السابقة أغلبها كانت محصورة الفكر فقال الله « إنه كان ظلوما جهولا » يريد الله بالقرآن أن يفتح باب العلم وقد فتح على مصراعيه وأخذ الناس يقرءون علم الفلك فحدّدوا حدود ذلك الإله عند القدماء وهى الشمس وقالوا كلا ، ثم كلا ، الشمس ليست بإله بل هى صغيرة جدا ولو أن الشمس ظلت معبودة كما كان الصابئون يقولون لم يجترئ نوع الانسان أن يتعدى على إلهه ويقول إن هناك ماهو أعظم منه ، وهكذا علم الناس أن المسيح وأمثال المسيح لم يكونوا آلهة ولذلك أخذوا يبحثون فى الآثار فظهر لهم أن الديانات كلها متشابهة وأن هذه البنوة خدعة من خدع العقل كما يخدع البصر فيرى الضوء الصغير فى ظلام الليل كبيرا . فهنا عرف الناس اليوم حقا أن هذا العالم كله قول الله وكلماته كنص القرآن ولو أن عيسى هو الكلمة وحده أو (بوذا) أو غيرهما لوجب

علينا أن لا نقرأ إلا علمهم وأن لانتعداه وأن نحارب عن هذه العقائد من خالفها . لقد انطلقت عقول الناس اليوم وأخذ الفكر الانسانى لايلوى على أحد . واعلم أن هذا القول لاينطبق إلا على المفكرين فى نوع الانسان اليوم أما بقية الشعوب النصرانية والاسلامية وغيرهم فهم أشبه بالأمم الذين من قبلهم بعض الشبه . فالجهال من المسيحيين لايزالون كآبائهم وعامة المسلمين مع إيمانهم بالله ورسوله لا يزالون عاكفين وموقوفة عقولهم على بعض شيوخ الصوفية الجاهلين أو على بعض الآراء لا يبرحونها . وترى الفقيه يرى أن الفقه هو كل شىء فى الاسلام وعالم البلاغة أو عالم القراءات يرى أن هذا أهم مافى الاسلام وذلك لضعف هذا الانسان . وليس معنى هذا القول أننا مشركون . كلا . وإنما معناه هو نفس ما تقدم فى (آل عمران) عند قوله تعالى « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » فقد ذكرت لك هناك أنواع المغرورين حتى عم الغرور أكثر طوائف الإسلام والغرور شىء والإشراك شىء آخر . فترى السنى والشيعى والزيدى والإمامى لايتعدى بصر كل منهم ما سمعه من شيوخه ، فالحنفى والحنبلى والمالكى والشافعى وغيرهم كل لايتعدى الدائرة التى حددها شيوخه ولكن الله يقول إن كلماتى لا حد لها . فليرفع هؤلاء أبصارهم إلى نفس القرآن وليفهموه والقرآن يرفع الأبصار إلى كلمات الله العامة وهى هذا العالم الذى كله كلمات الله المنظورة الجلية بخلاف كلمات الانسان فهى ليست مجسمة فلا نعرفها إلا بأسماعنا وحدها وكلمات الله جمالها يؤدى إلى أمرين : أولا : أن نعيش بها . ثانيا : أن نعقلها . ومن وقف على مذهب ولم يرفع بصره إلى الدوائر النبوية ثم الدوائر الإلهية وهو هذا العالم فهو مغرور جاهل طمس الله على بصيرته . فما كانت قصة عيسى ابن مريم عليه السلام وكلمات الله وأمثالها لتنزل فى القرآن لمجرد الإيمان بأن الله لا ولد له فحسب فنحن بذلك مؤمنون فلا نحتاج إلى مزيد بل هذا أرضعناه مع لبن الأم من الإيمان الموروث ولكن الأمر أعظم . يريد الله أن يحقق القول حتى لا يحجر عليها ولا يقف الملوك والأمراء مكتوفين خائفين وجلين فى الأحكام الشرعية مثلا ولا ينظرون فى الزمان والمكان والأحوال ويحكمون أحكاما ضارة بالأمة ضررا محققا جهلا بأحوال الشريعة وعكوفا على آراء الشيوخ . فليعلم المسلم أنه كما أن له أبوين يعظمهما فلم يمنعه احترامهما من أن يعلم أن له قرية وأمة يدرسها كلها ليشارك فى نظامها هكذا له مذهب وهذا المذهب لا ينبغى أن يحجبه عن القرآن ودراسة أحوال النبوة العامة . وقد تقدم شرح الأحكام الشرعية فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام فى سورة الكهف ولا عن نظام الله فى السموات والأرض . فلتدرس أيها الذكى ذلك كله فى غدوك ورواحك فكل ما تراه دروس لك . هنالك تعلم علما ليس بالظن أن لك إخوانا فى دينك وهم المسلمون كما أن لك إخوانا فى وطنك وهم معك قاطنون كما أن لك إخوانا فى الإنسانية عامة فى هذه الأرض بينك وبينهم رابطة والله ربك وربهم وكلهم كلمات الله وهكذا ترتقى طبقا عن طبق كما قال تعالى « لتركبن طبقا عن طبق » وهذا الركوب الطبق ركوب بالعلم فتتخطى هذه الحدود وتعلم أن الحيوان والنبات وكل ذى نفس أيا كان بينك وبينه نسبة ما وكل هذه النفوس الأرضية لها نسبة إلى نفوس كلية عالية رمز الله لها بالملائكة الذين يدبرون الأمور فإلهام بنى آدم وإلهام الحشرات والبهائم يرجع كل ذلك إلى عالم يسمى بلسان الشرع (ملائكة) ويرتقى ذلك العالم طبقا عن طبق « وأن إلى ربك المنتهى » فهو المبدأ الأول وإليه ترجع النفوس التى استمدت نفسك منها كما قال تعالى « وإليه يرجع الأمر كله » وقال « وأن إلى ربك المنتهى » .

ونظير هذا فى المادة أن القمر منسوب للأرض والأرض منسوبة للشمس كذلك ولعلها أيضا منسوبة إلى شمس أكبر منها وهذا واضح فى سورة الفاتحة فاقرأه هناك . ولا تنس أنك تدرس الكواكب فى هذه الدنيا لتمرن من الآن على الشوق إلى عوالم أعلى منا تكون بيننا وبينهم رابطة كالرابطة التى بينك وبين بنى الانسان وأهل دينك فإذا وقف عقل المسلم عند مذهبه حرم من الصعود إلى الجمال الأعلى .

هذا ما فتح الله به ليلة الخميس ٢١ يونيه سنة ١٩٢٨ ، والحمد لله رب العالمين .

تفصيل لبعض الإجمال

لما ذكرت ما تقدم حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى المسائل العامة فقال : هل قوله تعالى « سبحانه إذا قضى أمرا » الخ يحتاج معناه إلى الدخول فى علم الموسيقى ؛ وما لكلمات الله والموسيقى ، فالموسيقى علم يرجع إلى نظام الأصوات وهذا العالم ليس صوتا بل هو مادة وحس . فقلت لو أنك أيها الفاضل تذكرت ما مضى فى مواضع من هذا التفسير أو قرأت كتابى [بهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية] لأيقنت أن الموسيقى عند الحكماء ترجع فى حقيقتها إلى نظام هذا العالم وما الموسيقى التى مرجعها الصوت إلا فصل من فصولها لتكون سلوى للعامة كما كانت الموسيقى العامة بهجة للحكماء . قال إذن أريد أن تضرب هنا مثلا يعرفنا الفرق بين موسيقى الأصوات والموسيقى العامة . فقلت :

الموسيقى فى الأصوات

أذكرك بما مضى فى سورة يوسف إذ ذكرت لك هناك أن بحر الطويل مركب من فعولن مفاعيلن أربع مرات وجملتها ٤٨ حرفا منها ٢٨ متحركة وعشرون ساكنة وهناك ترى النسبة واضحة فنجد ٧ منسوبة إلى ٥ كنسبة ١٤ إلى ١٠ وهكذا وحاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين ، وهذا المقام لا تصح إعادته هنا فقد تكرر فى مواضع أخرى غير سورة يوسف فلأعدل عنه إلى علم الموسيقى فى العصر الحاضر ولأترك النسبة عند المحدثين من علماء أوروبا الذين جعلوا هذا العلم من العلوم الطبيعية وخالفوا المتقدمين الذين جعلوها من العلوم الرياضية « ولكل وجهة هو موليها » فعلماء العصر الحاضر رجعوا إلى طبيعة الصوت وهو أمر طبيعى والمتقدمون نظروا إلى حساب حركاته فعدوه رياضيا ، ولقد ذكرت إجمال تاريخ هذا العلم فى كتاب (الفلسفة العربية) المذكور فقلت ما ملخصه :

(هذا العلم كان قديما اختياريا مأخوذا قياسا على نطق الحيوان . ولقد كان ألطفه عندهم فى الصور السائرة ما يحاكى به الطير البرى عند الصياح فى الرياض المشتبكة والحدائق البهجة ذوات المياه الجاريات ولا سيما العندليب والهزار المطوقة وكانت طائفة من الناس يستلذون النغمات التى يسمعونها من خرير المياه فيقيسون نغماتهم على نغمات الحركات المسموعة منها فى القصاب المختلفة والنواعير والدوالى . ومنهم من كانوا يحاكون الهواء عند دخوله فى المنافذ يصنعونها وكان الصين على هذه الطريقة والهند كانوا يلحنون على طرق الأوانى المجوفة وقدماء الروم كانوا يجعلون ألحانهم فى النحاس والخشب وبذلك لحنت الأناجيل فى الكنائس) .

هذا بعض ما ذكرته هناك ويقول علماء الموسيقى فى العصر الحاضر إن الآلات الموسيقية على قسمين : آلات يحدث الصوت منها بالنقر على أوتارها وتسمى (ذوات الأوتار) وآلات يحدث منها الصوت بالنفخ على صفائح رقيقة فيها وتسمى (آلات النفخ) فالأولى مثل (القانون والعود والطنبور) والثانية مثل (الأرغن والصور) وآلة أخرى تسمى (المسحورة) .

أقول ويجمع هذين (الطبل والزمار) فى بلادنا المصرية . فالطبل من النوع الأول والزمار من النوع الثانى . ومن ذوات الأوتار (البيانو) وهى آلة لها أصوات معينة تصوتها أوتار نحاسية خاصة وهذه الأوتار تهتز بمطرقة تحركها عدة (أخشاب) منحنية متصلة بمفاتيح البيانو . وحدوث الصوت فى آلات النفخ كالمزمار بسبب اهتزاز عمود الهواء الذى داخلها وتموجه فيكون الهواء هو الجسم الصائت فيها بخلاف ذوات الأوتار التى لا يكون الهواء فيها إلا موصلا للصوت فمتى نفخ عليه من ثقب فيها ماجت أمواج الصوت إلى الأمام والخلف داخل آلة النفخ وهزت الهواء حولها كما يهتز الوتر المضروب فى ذوات الأوتار فتكون منزلة عمود الهواء فى آلات النفخ منزلة الوتر فى ذوات الأوتار ومنزلة النفخ عليه منزلة الضرب على الوتر .

قال

فقال صاحبي قد تركنا التفسير وغصنا في علم خارج عنه . فقلت له : كلا ، لا تعجل عليّ فسترى أن هذا نفس التفسير فما هذا إلا مقدمة لابد منها لشرح صوت الانسان فلقد ذكرت كثيرا نقلا عن علماء العصر الحاضر أن الانسان لايدرس نفسه إلا بدراسة ما حوله فنحن لا نقدر أن نعلم صوت الانسان ونغماته للطربة إلا بدراسة الآلات المحيطة به وهذا الذى ذكرته سترى جماله الآن ، ومتى درسنا صوت الانسان ونظام غنائه عرفنا حساب الموسيقى فى العلم الحديث ثم نوازنه بنفس خلق الانسان ، وهل نغمات الانسان فى حسابها كهيئة خلق جسمه فى الرحم وحسابهما واحد ثم نذكر مسألة داهر بن صصة الحكيم الهندى وما اقترحه على ملك الهند وهيئة الحساب الذى اختاره فى أمر البر الذى جعله محسوبا بالمتوالية الهندسية على مقتضى بيوت الشطرنج من (١) إلى (٦٤) فقال صاحبي هذه كلها أمور غريبة فأرجو إيضاحها . فقلت إذن أدركت وصدقت أننا لم نخرج عن التفسير وأننا نريد أن نقف على نظام التكوين الانسانى مثلا حتى ندرك كيف كان أمره فى أعماله عجبا فيبدعه الناس لما ظهر على يديه كما كان أمر خلقه عجبا ، فقال نعم . فقلت فلا بد إذن بالكلام على:

آلات الصوت فى الانسان

اعلم أن كل ذوات الفقرات من الحيوان ومنها الانسان لها آلات صوت تصوّت بها مودعة فى قسم من جهاز التنفس وكثير منها قادر على تغيير صوته وتكييفه والانسان خاصة يغير صوته بصور شتى ويحصل التكلم بعضها . وآلات الصوت فى الانسان (١) تجويف الصدر (٢) والقصبة (٣) والحنجرة (٤) والبلعوم (٥) والفم (٦) والأنف (٧) وما يتعلق بها . فأما تجويف الصدر فانه يضيق ويتسع بالتنفس فيضغط الرئة تارة ويتركها تتمدد أخرى فيخرج الهواء منها متى ضغطت ويدخل إليها متى تمددت فيكون هو والرئة بمنزلة المنفاخ فى (الأرغن) وعند خروج الهواء من الرئة يدفع إلى القصبة ومنها يضرب وترى الصوت فى الحنجرة فيصوّتان فتكون القصبة بمنزلة طرف أنبوبة (الأرغن) ووترا الحنجرة بمنزلة فمها . فأما البلعوم والفم والمنخران فانها تغير الصوت وتكيفه تارة باتساعها وأخرى بتضييقها ونحو ذلك فتكون بمنزلة رأس الأنبوبة الذى تتصل منه اهتزازات عمود الهواء بالهواء الخارجى . هذا كلام علماء العصر الحاضر وهو عجيب فقد جمع الانسان نوعى الآلات المطربة فله آلات نفخ وآلات وتر معا . وقد يعيش الانسان ويموت وهو يغنى أو يسمع آلات الطرب وهو لايعلم تركيب جسمه فلننظر الآن إلى صوت هذا الانسان فنقول :

تقدم ما أشرنا اليه من حساب المتقدمين وأنه على مقتضى النسبة الهندسية . أما حساب المتأخرين فانهم يعتبرون المتوالية الهندسية فى صوت الانسان فقد قالوا (أولا) إن حدوث الصوت الانسانى ناجم من اهتزازات الوترين الصحيحين فى الحنجرة عندما يضرب عليهما الهواء مدفوعا من الرئة وهذان الوتران قابلان الشدّ والرخى كالأوتار فى ذوات الأوتار فاذا كان الانسان صامتا كانا مرتخيين ومنثنيين وفتحة المزمار بينهما واسعة فلا يصوّتان بوقوع الهواء عليهما . وإذا أراد أن يصوّت شدهما بقدر مايريد أن يرفع الصوت فتضيق فتحة المزمار بينهما . ومدى الصوت الانسانى القوى (٧٠٠) قدم فى الفضاء على درجة الهواء الاعتيادية .

مجال السمع

قال العلامة (هلمهلتز) أخفض الأصوات الموسيقية ما اهتز ١٦ اهتزازة فى الثانية وأعلاها ما اهتز ٣٨٠٠٠ اهتزازة فى الثانية . فاذا نقص عددها عما ذكر سمعت طقطقة كل اهتزازة ولم يحدث منها صوت موسيقى . ويقول إن مجال السمع الانسانى يمتد إلى ١١ ديوان ولكن مجال الموسيقى الاعتيادى لايزيد عن سبعة دواوين ، فلما سمع صاحبى ذلك قال كلام هذا العالم غير واضح . قلت له نعم ولكن سأنقل لك ماهو واضح وهو آخر الآراء ولأجله جاء هذا المقال .

إدراك الانسان للأصوات

ينحصر فى عشرة دواوين أى أبعاد كليـة موسيقية أى فى أصوات تموجاتها بين ١٦ موجة فى الثانية و (١٦٣٨٤) فى الثانية فهى هكذا ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤ ـ ١٢٨ ـ ٢٥٦ ـ ٥١٢ ـ ١٫٠٢٤ ـ ٢٫٠٤٨ ـ ٤٠٩٦ ـ ٨٫١٩٢ ـ ١٦٫٣٨٤

فهذه عشرة دواوين أو أبعاد . ومعنى هذا أن القوم عندهم آلة لقياس تموجات الصوت فان بلغت ١٦ موجة فى الثانية بهيئة منتظمة كان ذلك صوتا موسيقيا و بالتضعيف لهذا العدد فى الثانية يكون قد تم أول ديوان ٣٢ وضعفه ٦٤ فى الثانية يكون ديوانا ثانيا وهكذا إلى نهاية العشرة . وبالتأمل فى هذه الدواوين نجد أن القاعدة المتقدمة مطردة أى حاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين فضرب ١٦ فى ١٢٨ يساوى حاصل ضرب ٣٢ فى ٦٤ وهكذا مثل ماتقدم عند القدماء وإن كان ذلك بطريق آخر . فبهذا عرفت عشرة الدواوين ، ولـكن النغمات المستعملة عادة فى الموسيقى تنحصر فى سبعة دواوين أو أبعاد كلية من (٣٢) إلى (٤٠٩٦) فهذا تحقيق المقام فى صوت الانسان .

واعلم أن الله عز وجل أحكم صوت الانسان على هذا الوضع وجعله ليكون قوله منتظما وجميلا لأمرين : الأمر الأول الإفهام . الأمر الثانى إحداث الأثر فى قلوب السامعين بحسن الإلقاء وجمال الأسلوب فلم يخلق الله لنا ذلك للنفاخ وذينك الوترين إلا لنستعملهما فى حسن الالقاء فنفهم الناس ونؤثر فى أذهانهم بحلاوة منطقنا . هذه هى الحكمة الإلهية التى أبرزها الله فى خلقنا وأكلنا به وجهلنا « ولـكن أكثر الناس لايعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » كالعلم بالموسيقى وسماع النغمات وهم عن بواطن الخلق ومحاسنه وعن أنفسهم غافلون .

هذا ما أردت ذكره فى نظام موسيقى الصوت الانسانى وحسابه الجميل وموازنة هذا الحساب بحساب انقسام الخلايا فى خلق الجنين وحساب بيوت الشطرنج . وقبل أن أنتقل إلى هذين المقامين أذكر فوائد فى الموسيقى جميلة تناسب ماقدمناه . يقول علماء الموسيقى فى عصرنا إذا أدخلت أصبعك فى أذنك وقبضت عضلات يدك قبضا شديدا سمعت صوتا عميقا كصوت الجرس الـكبير يهتز (٣٢) اهتزازة فى الثانية .

ويقولون إن البعوضة تصفق جناحها وهى طائرة ١٥٠٠٠ خمسة عشر ألف صفقة فى الثانية وأن طول الأمواج فى صوت المتكلم من ثمانية أقدام إلى اثنى عشرة قدما ، وطول الأمواج فى صوت المتكلمة من قدمين إلى أربع فى الثانية . ويقولون إذا أسرعت دقات الساعة مثلا حتى صار عددها خمسين أو ستين فى الثانية صارت صوتا موسيقيا وأحدث وقوعها على الأذن شعورا متصلا فى النفس . وإذا جرى دولاب على (٣٥) حصاة فى الثانية يتصل صوت طقطقته عند قرعه على الأذن فتسمع النفس صوتا موسيقيا نحيبا للدولاب وقد شبهوا وقوع الصوت غير الموسيقى على الأذن بوقوع الضوء المرتجف على العين لأن عصب السمع يتألم منه فتمجه النفس كما تتألم العين من تعاقب الضوء والظلمة على عصب البصر . ويقولون إن الطبيعة مستعدة لإحداث الطرب ، قال العلامة (تندل) إن الاحتكاك يغنى كما يغنى المغنى فاذا أطلقت رصاصة فى الهواء غردت كتغريد الطير . وإذا هزت الريح الأغصان مالت ولها حنين . هذا ماأردت ذكره ملحقا بصوت الانسان فى الموسيقى .

خلق الجنين فى بطن أمه جار على ناموس أبعاد الموسيقى المتقدمة

هذا المقام سيتضح بمشاهدة الصورة الشمسية لنظام خلق الجنين قريبا فى سورة (طه) فانك سيتضح لك هناك أن البيضة تقسم نصفين وكل نصف ينقسم نصفين وهكذا (١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤ ـ ١٢٨) وهكذا إلى (١٦٣٨٤) وهكذا بالغا مابلغ ، وفى أثناء تلك المضاعفة يحصل نظام جميـل أو هيئات محكمة

من خلق الأعضاء والأحشاء والعضلات والأوتار والأعصاب والحواس الظاهرة والحواس الباطنة وهكذا فالعجب لنظام محكم موسيقى أرانا الله صورته فى نظام أصواتنا فسحرنا جماله عند سماعه من ذوى الأصوات الجميلة وأرانا أن أصواتنا ليست كلها موسيقية ولكن جميع أعماله موسيقية منظمة. ولقد برع بعض بنى آدم فى العلم والحكمة وتشبهوا بالله فى حكمتهم فظن الناس أنهم أبناء الله أو وقفت عقولهم عندهم ورأوا العلم خاصا بهم فرجعوا بخفى حنين ولكن الله يقول «سبحانه إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون» فجميع مخلوقاتى كلماتى فلا يجد الناس أحدا من خلق وكلهم كلماتى وكلماتى لا تحصون عدّها .

أما مسألة الشطرنج وحساب بيوته فستأتى أيضا مع حساب نظام الجنين فى سورة (طه) إذ يحسب البر بحيث يكون للبيت الأول حبة وللبيت الثانى (٢) وللثالث (٤) وللرابع (٨) وللخامس (١٦) وهكذا إلى (٦٤) بيتا وهى عدد بيوت الشطرنج فظاهر الأمر أنه يكفى فيها قمح معلوم مثل (كيلة) أو (أردب) وسترى أن ذلك الحساب لا يكفيه القمح الذى فوق الكرة الأرضية كلها قرونا كثيرة وسيتضح هناك فاقرأه.

ههنا يتبين أن نظام الغناء أنتج السرور . ونظام الجنين أنتج عجائب الانسان . ونظام الحساب فى بيوت الشطرنج أنتج مقادير عجيبة لا تخطر بالبال والحساب واحد فى الأحوال الثلاث فهى متوالية هندسية حاصل ضرب كل طرفين فيها يساوى حاصل ضرب الوسطين . ومن نتائج هذا الجمال فى الحساب ظهور أنبياء وعظماء تظهر على أيديهم العجائب والعلوم فيظن الناس أنهم أبناء الله أو تقف عقولهم عند آرائهم كالمسيحيين فى الأول وكالجهال من أمم الاسلام فى الثانى والله يقول هؤلاء كلهم كلماتى فلا يحجبكم كلامى عنى ولا تصدنكم كلة عن الأخرى فاقرءوا كل علم وكل فن وخذوا الحكمة أينما وجدتموها وهذا من أنوار قوله تعالى «سبحانه إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون» .

ذكر الكلمة فى الديانات القديمة

لقد ذكرت فى هذا التفسير أنى نقلت من كتاب [العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية] فى آخر سورة (المائدة) موازنة بين الآيات المذكورة فى دين (خريشنا) فى الهند (وبوذا) أيضا وبين ما جاء فى الأناجيل ونقلت أيضا من ذلك الكتاب جملا فى أوائل سورة (البقرة) شارحا مسألة التثليث . وأريد هنا أن أنقل من الكتاب ما يناسب (الكلمة) حتى تعلم لماذا ذكر الله الكلمة والكلمات فى القرآن . وقد قلنا فيما تقدم فى (المائدة) أيضا إن هذا الكتاب منقول من نيف وأربعين كتابا باللغات الافرنجية :

(١) مثل (وليام) الحكمة الهندية .

(٢) ومثل (وليام الهندية) .

(٣) ومثل (فشنو بورانا) ترجمه للغة الإنجليزية عن السنسكريتية (ويلسون) .

(٤) ومثل (موريس) الآثار الهندية القديمة .

(٥) و (موريس) تاريخ الهند .

(٦) و (مولر) تاريخ آداب اللغة السنسكريتية القديمة .

(٧) و (مورى) الخرافات .

(٨) الديانات الشرقية .

(٩) (بركوت) تاريخ فتح المكسيك .

(١٠) (برتشر) حل الآثار المصرية التاريخية .

(١١) (سكوير) رمز الأفعى .

وهكذا بقية الكتب التى لا مقتضى لذكرها جميعا هنا فلنذكر شذرات فى مسألة الكلمة مما نقله المؤلف منها فنقول : جاء فى هذا الكتاب صفحة (١٨) نقلا عن (برتشرد) من كتابه [خرافات المصريين الوثنيين] صفحة (٢٨٥) ما نصه :

لا تخلو كافة الأبحاث الدينية المأخوذة من مصادر شرقية من ذكر أحد أنواع التثليث أو التولد الثلاثى (الأب والابن والروح القدس) .

ونقل عن (موريس) فى كتابه [الآثار الهندية القديمة] فى المجلد السادس صفحة ٣٥ مانصه :

كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثالوثى أى إن الإله ذو ثلاثة أقانيم ورسم تحته صورة الثالوث المقدس عند الهنود وهذا التمثال موجود فى معرض الهند . أقول أنا إن صورته أمامى وأنا أكتب هذا الموضوع رأس واحدة لها وجوه ثلاثة .

ونقل عن كتاب [سكان أوروبا الأول] صفحة ١٩٧ مانصه : (كان الوثنيون القدماء يعتقدون بأن الإله واحد ولكنه ذو ثلاثة أقانيم) .

ونقل عن (إلن) فى كتابه [الهند] صفحة ٣٨٣ أن البرهميين يقولون فى كتبهم الدينية إن أحد الأتقياء واسمه (اتنيس) رأى أنه من الواجب أن تكون العبادة لإله واحد فتوسل برهمة وفشنا وسيفو أن يعرفوه أيهم الإله الحق فظهروا له وقالوا لا فرق بيننا . وأما ماتراه من ثلاثة فما هو إلا بالشبه أو الشكل والكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات . وهنا صورة أخرى للثالوث المقدس عند الهنود أراها أمامى الآن . ونقل هنا عن العلامة موريس فى كتابه [آثار الهند القديمة] المجلد الرابع صفحة ٣٧٢ ما نصه : (لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم دكته مرور القرون صنما له ثلاثة رءوس على جسد واحد) والمقصود التعبير عن الثالوث . ومن العجيب أنك ترى فى هذا الكتاب فى صفحة (٢٥) صورة تمثل (بوذا) وهو بحالة الذكورة والأنوثة معا وعلى الفرج هيئة الصليب وهى منقولة عن العلامة (توما أعن) فى كتابه المسمى [الوثنيون القدماء] وهذه الصورة فوق مرتفع . وهنا نقل عنه أن كافة الرموز والإشارات المستعملة عند النصارى كانت للدلالة على عبادة ماهو من هذا القبيل . هذه العبارة لم يصرح فيها بلفظ (الكلمة) التى عقدنا هذا الفصل لها . فانظر مايقوله العلامة (دوان) فى كتابه صفحة ٤٧٣ [إن القسيسين فى هيكل ممفيس بمصر كانوا يقولون للتلاميذ إن الأول خلق الثانى والثانى مع الأول خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس . وهنا ذكر قول الكاهن المصرى للملك الأعظم أولا هو الله ثم الكلمة ومعها روح القدس وهؤلاء لهم طبيعة واحدة وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية . إذن كون الاقنوم الثانى هو الكلمة أصل وثنى مصرى دخل فى غيره من الديانات كالديانة المسيحية . ثم قال (وابولو) المدفون بدلفى من بلاد الهند يدعى (الكلمة) وفى علم اللاهوت الإسكندرى الذى كان يعلمه (بلاتو) قبل المسيح بسنين عديدة (الكلمة) هى الإله الثانى ويدعى أيضا ابن الله البكر] انتهى وهذا منقول من كتاب [الآثار الهندية] .

وقال العلامة (هيجس) فى كتابه [الانكاوسكن] المجلد الثانى صفحة ١٦٢ كان الفرس يدعون متروسا (الكلمة) و (الوسيط) و (مخلص الفرس) .

انظر كتاب المسيو (دونلاب) فى كتاب [أبن الانسان] صفحة ٢٠ وكتاب العلامة (بنصون) فى كتابه [المسيح الملاك] صفحة ٥٧ .

وقال

وقال العلامة (بوفريك) فى كتابه [اعتقاد المصريين] ما نصه :

. وأغرب عقيدة عمّ انتشارها فى ديانة المصريين القدماء هى قولهم بلاهوت الكلمة وأن كل شىء صار بواسطتها وأنها أى الكلمة منبثة من الله وأنها الله ، وكان (بلاتو) عارفاً بهذه العقيدة الوثنية وكذلك (ارستو) وغيرهما ، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحى . قال : ولم نكن نعلم أن الكلدانيين والمصريين يقولون هذا القول ويعتقدون هذا الاعتقاد إلا فى هذه الأيام ، ثم نقل عنه من صفحة ٤٠٤ ما نصه :

وكما أن للكلمة مقاماً سامياً عند المصريين القدماء هكذا يوجد فى كتبهم الدينية هذه الجملة (إنى أعلم بسر لاهوت الكلمة وهى كلة رب كل شىء وهو الصانع لها ، فالكلمة هى الأقنوم الأول بعد الإله وهى غير مخلوقة) وهى الحاكم المطلق على كافة المخلوقات .

وقال (دوان) فى كتابه : كان الأشوريون يدعون (مردوخ) الكلمة ويدعونه أيضاً ابن الله البكر . وقال أيضاً فى الكتاب نفسه صفحة ٣٧٤ ما نصه :

كان الكلدانيون يقولون للكلمة (ممرار) كما يقول اليونانيون بأنه الصانع للعالم والحاكم عليه وأن لا شىء أعظم منه إلا الله .

وقال العلامة (فروثنغام) فى كتابه مهد المسيح ما نصه : [كان (فولو) يدعى الكلمة وكانوا يعظمونه جداً ويصفونه بأنه الكائن قبل كل شىء . ابن الله البكر . الحبز السماوى الأبدى . ينبوع الحكمة الدال على الله . النائب عن الله . صورة الله الكاهن خالق العوالم . الإله الثانى المترجم عن الله الخ] .

قال (ولما عين (برتولوميو) مطراناً سنة ١٤٤٥ أرسل القس (فرنسيس هرمنديز) إلى المكسيك ليبشر سكانه بالديانة المسيحية ، وكان هذا القس عارفاً بلغة الهندوس أرسل بعد مضى عام على ذهابه كتاباً إلى المطران المذكور يقول فيه إن هؤلاء يؤمنون بإله كائن فى السماء وإن هذا مثلث الأقانيم وهو الإله الأب والإله الابن والإله روح القدس ، وهؤلاء الثلاثة إله واحد واسم الأب (بردنا) واسم الابن (باكاب) مولود من عذراء واسم روح القدس (إيكيها) ويعبدون صنماً اسمه (تنكاتنكا) يقولون عنه إنه واحد ذو ثلاثة أقانيم وإنه ثلاثة أقانيم إله واحد ، ويقولون إنه ذو ثلاثة أشخاص بقلب واحد وإرادة واحدة) انتهى ما أردت نقله من ذلك الكتاب ، ليعجب المسلمون كيف ذكرت الكلمة فى الديانات القديمة فى أمم مختلفة لا يعرف بعضها بعضاً كما قال تعالى « تشابهت قلوبهم » فقال الله فى القرآن أيها الناس . كل شىء كلمات الله لا المختارون من عبادى الصالحين وحدهم فكل العالم كلماتى « إنما أمره الخ » .

هذا ما فتح الله به يوم الخميس ٢١ يونيه سنة ١٩٣٨ وبه انتهى الكلام على قصة مريم وعيسى

قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً) كثير الصدق والتصديق فهو ملازم الصدق وكثير العلم بالله الذى هو صدق وهو به مصدّق ، ثم أبدل من إبراهيم قوله (إذ قال) وما بينهما اعتراض (لأبيه آزر) وهو يعبد الأصنام (يا أبت) التاء عوض عن الياء (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) وصف الأصنام بعدم سماع الأصوات ونظر الأشياء والعجز عن جلب منفعة أو دفع مضرة . يقول الله على لسان إبراهيم كيف تعبد ما فقد الحواس التى هى من خواص الحيوان بله الإنسان . وإذا كان الانسان العاقل السميع البصير يأنف أن يعبد نظيره بل إنما يعبد ما فوقه إذا عقل فكيف تنزل أن تعبد ما خرج من الألوهية بفقره وضعفه وحاجته إلى من يصنعه وعن الإنسانية بفقد العقل ومن الحيوانية بفقد الحواس فقد نزل عن الألوهية

« بثلاث درجات » إنسانية . حيوانية . جمادية . أما كان لك عبرة فى حاجته وفقد السمع والبصر (يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا) مستقيما . فانظر كيف ذكر أباه بلطف فقال جاءنى علم لم يأتك مع أن معنى هذا أنه جاهل ولكن التعبير بغاية اللطف والأدب، ثم أخذ يستهجن ذلك فقال (يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا) ومن أطاع العاصى كان مثله فنال جزاء عصيانه ولذلك أعقبه بقوله (يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) قرينا تقرن معه فى العذاب والآراء والأخلاق والعادات . فانظر كيف تجنب مفاجأته بذكر العذاب فلم يقل إن الله يعذبك بل ذكر أنه يخاف وقلل العذاب بالتنكير وجعل نتيجة العذاب أن يكون من أولياء الشيطان كما أن رضوان الله أعظم من العقاب وجعل العذاب صادرا من الرحمة كلها من جهته المعبر عنه بالرحمن . وإذا كان مصدر الرحمات يعذبك فان الجرم يكون عظيما وذلك هو البعد عنه والاقتران بالشيطان (قال) آزر توبيخا له (أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم؟) أى أترغب عن عبادتها فناداه يا إبراهيم ولم يقل يابنى فى مقابل يا أبت (لئن لم تنته) ترجع وتسكت عن عيب آلهتنا وذمها (لأرجمنك) بلسانى شتما أو بالأحجار حتى تبعد عنى أو تموت فاحذرنى (واهجرنى مليا) زماناً طويلا (قال سلام عليك) وهذا جواب الحليم السفيه وتوديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة فكأنه يقول: أنا لا أوذيك ولكن (سأستغفر لك ربى) سائلا لك أن يوفقك للتوبة (إنه كان بى حفيا) مكرما ، والحفاوة الرأفة والرحمة والإكرام (وأدعو ربى) وأعبده وحده (عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) أى أرجو أن لا أشقى بضياع دعاء ربى وعبادته كما تشقون أنتم بدعاء الأصنام وعبادتها من غير طائل ففى الآية تعريض بذلك (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) فلما اعتزل الكفار ومعبودهم وهاجر (وهبنا له إسحق) ولدا (ويعقوب) نافلة فأنس وحشته بهما ، وهذان أكرم على الله من أبيه (وكلا جعلنا نبيا) أى أنعمنا عليهما بالنبوّة (ووهبنا لهم من رحمتنا) مالا وولداً وسعة فى الرزق مع نعمة النبوّة (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) أى ثناء حسنا فان الناس يفتخرون بهم ويثنون عليهم إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » والمراد باللسان ما يوجد به يقال لسان العرب أى لغتهم وترى أن الصلاة على إبراهيم وآل إبراهيم فى الصلوات أحسن من اللسان العلى المذكور . وهنا (لطيفتان) .

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا »)

إن فى هذه الآية وحدها من العلم ما لا يحتمله هذا الكتاب . ولكن نذكر بعضه ذكرى وعبرة لذوى العقول السليمة وندع الباقى لذوى الفطن ومن ألهمهم الله العلم والحكمة ليشرحوه للمسلمين بعدنا إذا استعدوا للالتقاء . اعلم أن جعل العذاب من الرحمن يبين لنا ما يأتى :

(١) أن الجوع الذى نحس به فى أجسامنا لم يرسله الله لتعذيبنا بل أرسله ليكون آلاما تدفعنا إلى الغذاء وذلك لأن هذا العالم الذى نحن فيه ناقص فكمله الله بهذه الآلام ولولا ألم الجوع ما أكل عاقل ولا عالم ولاني ، ولو لم يأكلوا لماتوا فالألم لم يقصد به سوى المنفعة لنا ، وليس فى هذا العالم سبيل لأكلنا سوى هذا الباعث المؤلم .

(٢) وأن ألم الشبق والشهوة فى الأصلاب وفى النساء لم تكن إلا لبقائنا ولولاها ولولا آلامها ماتزوّجنا ولا ولدنا ولا عمرت الدنيا .

(٣) وإن الأمراض الحالة بنا لولاها لم تفتح مدارس الطب والتشريح وقراءة العقاقير ، وتفصيل هذه العوالم التى تحيط بنا .

(٤) وأن الأمم كلما ازدادت مدنيتها ازدادت أمراضها وشهواتها وتمزق الأمراض لأجسامها وفتكها لرضاها ولأولادها الصغار فيكون ذلك أدعى لارتقاء الطب والعلم عندهم فأصبح المرض نعمة .

وبيانه أن الله لم يخلق الناس فى الأرض إلا لارتقاء نفوسهم . فلما كان أهل البادية جهالا لم يعطهم من الأمراض إلا على مقدار ما يداوون بحسب مبلغ علمهم . فلما نظر إلى المدن أكثر الأمراض فيها وألهمها العلوم وجمع لها مدارسها على مقدار حاجتها . فاذا أهملت ضعفت الأجسام فكان عقابا على التقصير فأصبح انتشار المرض مهمازا تساق به الأمم إلى أعلى الدرجات ونهاية الأمر ارتقاء العلوم والصناعات ونهاية النهاية كمال الروح لتخرج من الأرض بأجنحة أقوى وهمة أعلى .

(٥) وأن الله جعل الصدق فى البادية بحيث إنهم عند أداء الشهادات لا يكذبون وعند الحادثة لايخشون وفى أوقات سمرهم يصدقون . أما المدن فانها ملئت مكرا وخبثا كما ملئت جبنا ولؤما ومرضا مزمنا . ذلك لأن أهل البادية إذا تولاهم داء الكذب أفناهم وشتت شملهم وأوقعهم فى هاوية الخسار والهلاك لأنهم لا قدرة لقضاتهم على إحقاق الحق إلا إذا كان القول صريحا واضحا . أما المدن فان القضاة فيها كلما رأوا الفساد منتشرا والكذب منتثرا والشهود كاذبين والمدعين مزورين والمدعى عليهم منكرين زادوا فى العلم بحثا وفى الطبيعة فهما وفى الأمور وزناً وللأعمال تدقيقاً وللأقوال تحقيقا فازدادت العقول ارتقاء والنفوس بهاء وإشراقاً وفتحا لعويص المشكلات وصدعا بالحق وحكماً بالصدق بالقوانين الصادقة والأقوال الشارحة والعلوم الواضحة .

(٦) وأن ذوى العقول التى هى مستعدة لقبول العلم يألمون أكثر من غيرهم إذا أحسوا بجهلهم ويتطلعون بشوق عظيم إلى معرفة ماغاب عن غيرهم من عويص المشكلات فيألمون وينصبون أجسامهم ويتعبون أرواحهم ويهيمون فى أودية الأرض لطلب العلم كما يألم الجائع والشبق للطعام وللوقاع فتكون حياتهم كلها جهادا ليس لجهادهم نهاية ولا لنصبهم غاية ، وهؤلاء هم الذين عبرنا عنهم فيما تقدم فى هذه السورة بأنهم أصحاب النفوس العصبية الذين يشبهون الأجسام الموصلة للكهرباء . فهؤلاء سريعو التأثر عصبيون فيقبلون العلم أسرع من غيرهم وهم درجات بعضها فوق بعض كدرجات الأجسام الموصلة للكهرباء فى التوصيل وكدرجات الأجسام الموصلة للحرارة فى إيصالها إلى ماجاورها . وهم أشبه أيضا بالنبات السريع الإنبات السريع الإثمار كأنواع البطيخ والقثاء ينبت سريعا وينمو سريعا ويثمر سريعا . فهكذا هؤلاء يتأثرون بالعلم سريعا ويعلمونه لغيرهم متى امتلأت نفوسهم ويكون تأثيرهم فى غيرهم على مقتضى الآثار الواصلة إليهم . فعلى مقدار مايقبلون ويتأثرون يكون قبول تلاميذهم ومن قرأ كتبهم . وهناك صلة بين الأساتذة والتلاميذ وبين الأنبياء والأمم والمؤلفين وقارئى كتبهم . فكلما كان الأستاذ والنبى والمؤلف أكثر عشقا لعلمه كان قراء العلم والدين والتآليف تابعين له لأن القلوب النقية تؤثر فيمن يقرأ تآليفها أو يسمع كلامها . تلك قاعدة مطردة لاعوج فيها ولا أمتا .

فههنا عذاب من الرحمن وصل إلى الأنبياء بالآلام التى يتحملونها من أممهم وفى الصلة بالوحى الذى يوحى إليهم به وفى شوقهم الحثيث إلى الرقى والعلوم . كل تلك آلام ولكنها هى عين الرحمة لهم ولغيرهم ، فافهم هذا وافهم ماقبله وتأمل كيف كانت القصص القرآنية قد جعلت مفتاحا لعقول هذه الطائفة فى مبدأ أمرها حتى إذا فتحت تلك المغاليق وأزيلت تلك السدود وألهمت تلك النفوس أخذت تطلع على مايجهله الناس حولهم . فالعلماء فى جميع الأمم يرون فى النحلة وفى النملة وفى الزهرة وفى الشجرة وفى النهر وفى البحر وفى الرياح وفى الأمواج وفى هبوب النسمات وفى حفيف الأشجار وفى طنين الحشرات وأصوات الطيور فى الغابات وفى كل حركة وسكون مايطربون لها طربا ولا يريدون عنها حولا ويرون العالم حولهم موسيقى وهم السامعون والناس من حولهم نائمون تائهون لا يفقهون . وهؤلاء هم الذين عرفوا وفهموا قوله تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » .

فهؤلاء هم الذين يفقهون التسبيح ، وغيرهم لا يفقهون ولاهم يذكرون . فهذه الطائفة كان ألمها رحمة وأذاها نعمة وذلها عزا وأمرها نجيا .

أفلا تتعجب معى كيف كان قوله تعالى « عذاب من الرحمن » شاملا لهذه للمعانى ولغيرها مما وكلته إلى فطنتك لتقرأه فى لوح الطبيعة المنشور الذى كتبه الله بيده إلى بريته وتركه لنا ، وقال خذوه وافهموه وسلط علينا ماسلط ليوقظنا وليرشدنا . أو ليس عذاب المسلمين الآن بالمفاسد والمخازى والجهل الفاشى فيهم وإحاطة الأمم بهم من كل جانب ، عذابا من الرحمن ، لأنه برحمته عذبنا لأن هذه الرحمة التى ظهرت لنا بصفة عذاب فتحت لنا الباب على مصراعيه فأرتنا أهل (سويسرا) مثلا قد علمهم أساتذتهم فى المدارس تعلما دينيا وأدبيا واجتماعيا حتى وصلوا إلى درجة أنهم لايفهمون معنى السرقة ولا يعقلون كيف يكذبون .

حكاية

سافر أحد عظماء المصريين من أبناء بلادنا إلى (سويسرا) فنزل فى قطار السكة الحديد فلم ير القوم يأخذون تذكرة فى أيديهم بل كل واحد منهم يحاسب نفسه بنفسه فيضع النقود بيده فى الصندوق وليس عليه رقيب ، بخلاف عاداتنا نحن المصريين . ولما دخل المدينة سأل عن القاضى أين هو ليحادثه لأنه هو أيضا من رجال القانون ، فقالوا له إن القاضى فى الدكان يصنع الأحذية فتوجه إليه وعجب كيف يكون القاضى صانع أحذية ، فقال له القاضى إن بلادنا تقل القضايا فيها والأمة تعرف واجبها وأنا لا أعمل إلا ثلاثة أيام أول الشهر فيأتى المتقاضون يسألونى فيما أشكل عليهم من الأمور فأفتيهم فيقنعون وليس لى الحق أن آخذ مرتبا فى أيام لاعمل لى فيها . فها أنا ذا آخذ مرتب ثلاثة أيام وفى بقية الشهر أصنع وآكل من كسب يدى .

ثم توجه إلى فتاة قروية قد نامت فى وسط الأعشاب فى البرية وحولها عشرات من البقر يتبعنها أينما سارت ويقمن حولها إذا نامت ويسرن وراءها إذا رجعت إلى منزلها ، قال فسألتها ألا تخافين من اللصوص قال فقالت لا أفهم معنى لصوص ، فقال سارقون ، فقالت هذه أول مرة سمعت أن الانسان يأخذ مالا حق له وليس لنا علم بهذا . فتعجب مما سمعه ومما رآه . والذى قال هذا هو المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى المصرى .

هذه الحكاية وأمثالها كثير تدهشنا نحن المسلمين وتدعو لأسفنا الشديد : إننا خير أمة أخرجت الناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ثم تكون عاقبتنا أننا قوم لا نعرف إلا القضاء والمحاماة . فأما تربية الوجدان وتهذيب النفوس فنحن عنها بمعزل ساكتون صامتون نائمون كما نام أهل الكهف «سنين عددا» ولم نجد مايوقظنا . أليس ما أذكره الآن آلاما . أو ليس الله هو الذى خلق هذه الآلام . أو ليس الله هو الذى أودع هذا فى القلوب لتشعر ومتى شعرت تحركت للعلم ومتى علمت عملت . أو ليست هذه أمراضا اجتماعية بل هى أمراض اجتماعية ودواؤها أن يقلع المسلمون عن طرق التعليم الحالية والا فعذاب الإذلال الواقع من الأمم الغربية «لامرد له ومالهم من دونه من واق» وهذا الإذلال من دول أوروبا للمسلمين عذاب لا يزول إلا بزوال سببه ، وهو الجهل بالعلم وبطرق دراسته .

طرق التعليم لرقى الاسلام فى مستقبل الزمان حتى نستحق أن نكون «خير امة أخرجت للناس»

هى أن يبتدئ المسلمون بتعليم الصغار فى المدارس والمساجد والزوايا والتكايا أمرين : الأمر الأول أمثال هذه القصص القرآنية مع شرح عجائبها وذكر موسى عليه السلام وأنه كان مخلصا وأن الله ناداه من جانب الطور الأيمن وقربه نجيا ووهب له أخاه هرون نبيا لعلم الله أنه يستحق لإخلاصه وقبوله وهكذا كل مخلص فان الله يحفظه ويعينه . وذكر إسماعيل وكيف كان صادق الوعد وصدقه الوعد ذكر قبل ذكر النبوة

لأنه لايستعد للرق إلا الكاملون ويشرح صدق الوعد شرحا وافيا بحكايات وضرب أمثال شارحة الصدور بحيث يقتنع التلميذ ولا يكتفى بأنه يعذب فى النار بل يفهم عقله أيضا . ويذكر له إدريس عليه السلام وأنه كان صدّيقا أى كثير الصدق فى قوله والتصديق فهو عالم بكل علم مؤمن لذلك رفعه الله وحينئذ يشرح التلميذ فوائد الصدق ويحبب فى وطنه وفى المحافظة على أموال الحكومة ونظامها وسعادتها وأنه يجب أن يصدق الانسان فى خدمتها ويكون صدقه بالاقتناع أنه مفيد له ولغيره . ويفهم التلميذ أيضا عجائب الحيوان من النحل والنمل والعنكبوت والأنعام وعجائب النجوم وهذا هو العلم المسمى بعلم الأنبياء بحيث يكون جيلا بهجا حسنا مطبوعا فى كتب مشوقة سارة للناظرين فتكون العجائب الطبيعية مشوقة كما تشوق الحكايات المنقولة عن الأنبياء وهذا الفن للمبتدئين مقدمة لعلم الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات للكبار فى المدارس العالية فاذا وصلها التلميذ فيها وإلا فقد نال من كل فنّ كلمات تقنعه وأصبح رجلا نافعا لأمته .

علم التوحيد

واعلم أن علم التوحيد هو نفس ماذكرت فعلم الأشياء ونظام الوجودات وبهجة القمر والنجوم والكواكب لصغار الأطفال مع ذكر قصص الأنبياء ومع ذكر الآيات المهذبة للأخلاق وشرحها شرحا لاينغصه الاعراب ولا الصرف ولا كثرة الكلام فى علم المعانى ولا البيان ولا البديع لأن هذه العلوم كثيرا ماعاقت الأطفال عن معرفة الله تعالى بل هذه لها قوم مختصون بها يحافظون عليها كبقية الصناعات والعلوم . أما نحن الآن فانما نتكلم فى العلم الذى هو فرض عين على كل مكلف . ثم ليكن المدرس لهم مقتنعا بما يقول متأثراً به فيلقى إليهم عجائب الطبيعة ويصف لهم بدائعها ثم يعرج على خالقها فيصفه بأوصاف الجلال أى الصفات السلبية وأوصاف الجمال وهى أوصاف المعانى فيقول إنه عالم وقادر ومتكلم وسميع وبصير مثل ما جاء فى القرآن ويترك تلك الفلسفة الباردة التى حدثت فى الأمة الاسلامية فشوّشت الأذهان وأبعدت الناس عن الأخلاق وعن معرفة ربهم فتأخرت الأمم الاسلامية عن سائر الأمم بهذه الطريقة العقيمة . أقول وإن هذا الذى أكتبه الآن سيقرؤه علماء وفضلاء وأمراء فى أمة الاسلام وسيعملون به وسترتقى أمم إسلامية على أيديهم تكون أرقى من الأمم الإسلامية المتأخرة بعد أعصر النبوة الثلاثة التى كانت أنوار النبوّة مشرقة عليهم وسيكون للمسلمين نهضة لم يعرفها الشرق من قبل . سيقرأ الناس هذا الكتاب وسينظمون التعليم كما ذكرت وسيقوم فيهم المصلحون يزيدون بعقولهم وآرائهم على مابينت ويعطون الدواء على مقدار الداء ، وسيكون قوم أرقى شأنا ممن حولهم من الأمم ولا ينبغى أن يبتدئ المسلمون بحفظ القرآن . كلا . بل يبتدئون بهذه العبارات الجميلة ويأتون بالآيات تطبيقا عليها ثم يحفظها التلميذ حفظا مشوبا بالمعنى وهومسرور بحفظه قانع بمطابقته للعوالم الخارجية والأخلاق النفسية . فأما الحفظ العام للقرآن فذلك له قوم مختصون به فهو أيضاً فرض كفاية لا فرض عام على سائر الأمم فأما العموم فالأحسن عندى أن يكون حفظهم للآيات على مقدار ما يحتاجون إليه فى الأخلاق أوّلا وجمال الطبيعة ثانيا مع معرفة الله تعالى وما يجب عليهم من العبادات ثالثاً كآيات الصلاة والزكاة وما أشبه ذلك .

وهذه الطريقة الجميلة أقرب إلى عصر الصحابة ، إذكان الأمر سهلا والعلم محفوظا بطريق مألوف .

(اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « سأستغفر لك ربى »)

فيه طلب المغفرة له وقد مرّ تقريرهذا المقام فى قوله تعالى « وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » إلخ ، وإلى هنا انتهى الكلام على قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

قصة سيدنا موسى عليه السلام

قال تعالى (واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا) بكسر اللام موحدا ، أخلص عبادته من الشرك والرياء ، وبفتح اللام أى مختارا اختاره الله تعالى واستخلصه واصطفاه (وكان رسولا نبيا) أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه ، والرسول هو الذى معه كتاب والنبى هو الذى ينبىء عن الله وليس معه كتاب. فمثال الأول موسى ومثال الثانى يوشع فيوشع نبى ولا يسمى رسولا وإنما هو ينبىء قومه، وموسى ينبىء قومه بكتاب معه أرسل به من الله . فأحدهما معه رسالة أوصلها إلى الناس . والثانى ليس معه رسالة يقدمها لهم وهو الكتاب ولكنه ينبئهم كما فى قوله تعالى « ولاينبئك مثل خبير » وكقوله « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم» الخ ، فهذا القول فيه الإنباء ولا رسالة هناك وهذا المعنى الذى شرحته لك الآن يخالف المعنى المشهور للنبى والرسول من جهة ويوافقه من جهة ولكن هذا المعنى هو المناسب فى هذه الآية قال تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن) من ناحية اليمين وهى التى تلى يمين موسى إشارة إلى أنه ميمون الغدوات والروحات ولاشؤم يلحقه والله معه فلذلك تمثل له الكلام من تلك الجهة فعرفه (وقربناه نجيا) تقريب تشريف وعلم وإخلاص فذلك أشبه بمن قربه ملك لمناجاته أى وقربناه حال كونه مناجيا أو مرتفعا . والنجو فى اللغة الارتفاع ولاجرم أن الارتفاع فى المقام يلزمه المناجاة والقرب فهما متلازمان وأحدهما يفيد الآخر باللازم ولقد روى أنه رفع فوق السموات حتى سمع صرير الأقلام . ومعنى هذا تجاوز العالم المادّى وانغمس فى المعنوى والروحى فقرب من الله وعرف الأمور العالية عن أذواق البشر فليس المقام مقام أمكنة وإنما هى نفوس ترتقى حتى تبلغ أقصى مناها وتستعد للاطلاع على عالم أرقى ثم قال الله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا) أى من بعض رحمتنا (أخاه هارون نبيا) أى معاضدة أخيه وموازرته إجابة لدعوته وذلك أن موسى عليه السلام دعا ربه فقال « واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى » فأجاب الله دعاءه وهذا هو سبب جعله هبة ، وقوله « هارون » عطف بيان لأخاه ونبيا حال منه .

قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام

قال تعالى (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد) فكان لايعد ربه وعدا يفعله إلا وفى به فصار الصدق صفة لازمة له حتى وعد بالصبر على الذبح فوفى وصبر وامتثل حتى جاءه الفداء ولم يكن لينتظره وهذه الصفة لم تسمع من غيره بهذه الحال (وكان رسولا نبيا) أى كان رسولا إلى جرهم الذين حلوا بمكة معه ومع أمه ومعنى رسول هنا غير ماتقدم فان الرسالة هنا بمعنى النبوة إذ لا كتاب معه إلا كتاب إبراهيم وشريعته فيكون معنى النبوة إذن الإنذار والإخبار ، أى كان مرسلا من الله بتبليغ شريعة إبراهيم فنبأ بها قومه وأنذرهم وخوفهم (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) أى إنه بعد أن كمل فى نفسه بصدق الوعد أخذ يكمل عشيرته الأقربين وكذا بقية الأمة لأنهم كلهم أهله فيأمرهم بالصلاة والزكاة ليقيهم النار . ولما كان الكمال فى النفس وتكميل الغير تخلقا بأخلاق الله تعالى ، والله يرضى عمن تخلق بأخلاقه قال « وكان عند ربه مرضيا » .

(لطيفة)

إن صدق الوعد هو الصفة التى فقدت من تجار المسلمين اليوم ومن أكثر المتعلمين فيهم وهذا لقلة اكتراث

الناس بهذه الصفة . فعلى قادة المسلمين وعلى العلماء أن تكون مواعدهم حقة وكلامهم صرحا فيقدم الشعب . إن الإسلام اليوم لم يكمل نامره لأنه بعيد عن تعاليمهم وعجبت لأمة هذا شأنها كيف عاشت إلى الآن ، حرام أن يترك هذا العلم . يجب أن يجعل له الأهمية التى للصلاة والزكاة . لماذا أيها المسلمون وهل ذكر إسماعيل فى القرآن إلا لهذا الغرض ويقول هذا نبى صادق الوعد . هذا هو الذى اتخذ الصدق له شعارا حتى جعل نفسه ذبيحة لأبيه وختم الكلام عليه بأنه رضى عنه . أما الأمم التى لا صدق عندها فلا يرضى عنها الله بل يصبح رجالها يحقر بعضهم بعضاً كبعض أمم الشرق الآن إذ ترى بعض التجار المصريين والسوريين والعراقيين وغيرهم يتخذون الحلف ذريعة والمساومة مغنما والكذب متجرا وتكون نتيجة ذلك عدم رضا الله تعالى وثمرة ذلك كراهة الناس ونفورهم منهم وترك تجارتهم فينحاز الناس إلى تجار الافرنج لأن لهم صدقا بحسب الظاهر . هذا من أسباب عدم الرضا الذى أشارت له الآية بطريق المفهوم لا المنطوق .

قصة سيدنا إدريس عليه السلام

قال تعالى (واذكر فى الكتاب إدريس) وهو المسمى أخنوخ وهو أيضاً أزريس أو أسوريس وكان إدريس تعريبا له وهذا الاسم فى الآثار المصرية وهو الذى ألف له المصريون القدماء رواية خلدت فى بطون تواريخهم وقد حصل بينه وبين أخيه ما يحصل بين المتحاسدين فقطعه أخوه قطعا كثيرة جمعتها امرأته بعد ذلك إلا قطعة وحنطتها وحفظتها وصار إلها بعد أن كان مصلحا عظيما وهذه الحكاية الخرافية جعلت المصريين يعتنون بتحنيط الميت وهذا العمل قد أفاد الصناعة ورقاها وصارت مثلا وعبرة للآخرين . ولقد كان الملك والدين فى عهد هذه الدولة أمراً واحداً والملك يجمع بين أمر الدين والدنيا فمن عصى أمر الملك فقد عصى الله وأزوريس هذا صعد إلى السماء وصار فى الحياة العالية وله عرش عظيم فى السماء يتمتع بأجمل الخيرات وكل من حنط جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة وهم ٤٢ بأن حسناته غلبت سيئاته فانه يلحق بأزوريس فى تلك السماء العالية .

إن هذا النبى الذى جعلوه إلها بعد ذلك هو الذى علم المصريين العلوم والمعارف ويقول علماؤنا إنه أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وأول من اتخذ السلاح وأول من نظر فى علم الحساب .

هذا كلام علمائنا فى التفسير وهذا كلام يتصل بأقوال قدماء المصريين فالأمة المصرية تنسب علومها اليه ، وبالجملة فالأمة المصرية التى برعت فى جميع الفنون تنسب اليه مبدأ تلك البراعة وجميع الأمم دهشت من علوم قدمائنا المصريين ومن اطلع على مؤلفات المرحوم العلامة الأثرى الكبير أحمد بك كمال أمين متحف القاهرة كمحاضراته بالجامعة المصرية رأى عجبا عجابا . رأى أنهم صوروا السماء من قديم الزمان وبينوا البروج والليل والنهار وساعاتهما والكواكب . وفى الأعصر المتأخرة رسموها بهيئة امرأة رافعة يديها وبسترها ثوب طويل وفى رجليها نعلان وعلى رأسها عصابة . وهناك إشارة بلغتهم تشير إلى الشمس ذات الأشعة وعلى جانبى المرأة البروج ستة منها جهة اليمين وستة منها جهة الشمال . وهاهى مرسومة أمامى وأنا أكتب الآن بشكل رائق بديع بالهيئة التى وجدت على صندوق (حتر) بطيبة . وهناك إشارات ورسوم تدل على أكثر مايراد من علم الهيئة قد أوضحها العلامة المذكور حول الشكل وهذا من أعجب مايراه الانسان . وترى فى الصفحة الثالثة عشرة فى المحاضرات المذكورة صورة المنطقة التى وجدت فى هيكل دندرة وهى عجيبة فيها أربع صور من صور النساء واقفات للدلالة على الجهات الأربع والسماء فوقهن محمولة وبساعدهن فى ذلك ثمان صور من

صور (حوريس) جانيات رءوسها كرأس الباشق وجسمها كجسم الإنسان وهذه المنطقة المحمولة على المعبودات الاثنى عشر تنقسم إلى (٣٦) قسما وكل قسم عشرة أقسام فهى (٣٦٠) وكل قسم يوم ، وهناك علوم أخرى فى الصورتين لايسعها المقام تقدمت فى سورة يونس فارجع اليها إن شئت . وأن ماذكرته لك الآن كاف لتعلم مقدار علوم القوم وأنهم تفننوا فى كل شىء . وأذكرك بما مضى فى سور متفرقة فى هذا التفسير عن علوم القوم وبما مرّ فى قبر (توت عنخ أمون) الذى ذكرناه فى سورة البقرة وكشف حديثا وأدهش العالم كله وأعجبه إعجابا شديدا . لعلك عرفت من هذا ماجاء فى القرآن هنا فان وصف إدريس بقوله تعالى (إنه كان صديقا نبيا) فجعل وصفه بالصدق هو أهم أوصافه والصديق كثير الصدق والتصديق وذلك هو العلوم كلها لأن التصديق يرجع إلى القضايا الكلية العلمية فهو صادق أولا وعالم بها ثانيا ثم قال (ورفعناه مكانا عليا) قد تقدمت الإشارة إلى تاريخه وإلى الخرافة الخاصة به ولما كان القرآن لا يذكر من الكلام إلا مايجرّ نفعا ويدع ماليس له فائدة من تلك الخرافات التى لاتفيد معنى ولا لها موجب ذكر أنه رفع مكانا عليا فى السماء كما قاله قدماء المصريين فكأن القرآن قد جعل هذا حقا . وفائدتنا من قصة إدريس مايأتى :

إن أمته المصرية ارتقت ونفعت الأمم وهذبت الأجيال وقامت بما عليها للنوع البشرى . ولاشك أن رفعة الأنبياء تابعة لآثارهم فى الأرض فلا يرفع الله نبيا ولا يخفض جاهلا إلا على مقدار الأعمال ورفع إدريس إلى السماء يرجع إلى ارتقاء أمته بتعاليمه فالنبىّ بأمته والعالم بالانتفاع بعلمه . وإذا أردت المفاضلة بين عالم وملك من الملوك فلتنظر لآثارهما فى الأمة فمن كان أهدى سبيلا وأقدر على الإصلاح باعتبار آثاره حكمنا له بأنه أقوم قيلا وأهدى سبيلا وأرفع شأنا وهكذا الأنبياء بعضهم مع بعض . فلذلك رفع الله إدريس مكانا عليا ولذلك نجد آثار أمته بادية للعيان بعد أن كانت خافية عن الأذهان .

انظر إلى شرائعهم التى قصوها وأقوالهم التى قالوها مع تخليطهم فى الألوهية من تسبيع إلى تثليث ثم إلى توحيد آخرا فانهم لم يخلطوا فى الشرائع كما خلطوا فى الألوهية أجيالا واهتدوا أجيالا وكانوا إذا مات الملك عددوا مناقبه ومثالبه فان كان ضارا بالأمة حرموا دفنه فى قبره وهذا عجيب جدا ، كانوا يأمرون الملك بأن يعمل فى كل ساعة عملا خاصا . كانوا يأمرون باجتناب الظلم ويعلمون الصبيان والرجال الصيغة التى يقولونها بعد الموت أمام القضاة (يارب لم أظلم أجيرا ولم أحرم العجل من لبن أمه طمعا فيه ولم أقتل ولم أسرق ولم أزن ولم أكذب الخ) وكانوا يمنعون أخذ أموال الناس بالباطل . هذا هو الذى يعرفنا معنى كونه صدّيقا ومعنى كونه رفع مكانا عليا . ولذلك بقيت هذه الأمة آلافا وآلافا ولما تحجرت العقول وضلت الأفكار نسى الأبناء المقصود من الدين فهلكوا وضلوا وخرفوا فذهبت ريحهم . أما أمة الاسلام فلم يمض لها غير زمن قليل فأمامها أجيال وأجيال وآلاف من السنين فيها تظهر مواهبها فهى إلى الآن لم تقم بكل ما عليها للانسانية والله أنزلها ليظهر دينها على الدين كله فتعمل أكثر من كل دين سماوى . وإذا كان إدريس عليه السلام رفع إلى السماء الرابعة ومدحه الله بذلك ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم رفع إلى مافوق السموات كلها وارتقى فوق ذلك إلى سدرة المنتهى وإلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام . فهذا يراد به أن أمته ترتقى إلى أعلى الدرجات وتنفع الناس أكثر من كل دين . وأنت علمت أن ديانة قدماء المصريين ارتقت جدا ولكنها لم تعم . أما دين الاسلام فانه قد انتشر انتشارا عجيبا ولم يبق إلا تقويته فى العلوم والمعارف على الطريقة التى فى هذا التفسير وإذ ذاك تكون الأمة الاسلامية قد عملت ماعليها انتشارا واتحادا أى أنها تجمع أمما كثيرة وتؤلف بينهم وتجعلهم اخوانا وشعارهم الأخوّة العامة لأن الاسلام معناه الأخوة العامة والاخلاص التام فى قوم اتصفوا بهذا الوصف . ولما ذكر الله المرسلين أخذ ينعتهم فقال (أولئك الذين أنعم الله عليهم) أى أولئك الأنبياء فى هذه السورة من زكريا إلى إدريس الذين أنعم الله عليهم بنعم دنيوية وأخروية (من النبيين) بيان للذين (من ذرية

آدم) أى إدريس ونوحا (من) للتبعيض لأنهم بعض ذريته (وممن حملنا مع نوح) أى ومن ذرية من حملنا مع نوح خصوصا وهم الأنبياء ماعدا إدريس فانه كان قبله وإبراهيم من ذرية سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) وهم إسماعيل وإسحق ويعقوب (وإسرائيل) أى ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب كموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى (وممن هدينا) ومن جملة من هديناه إلى سبيل الحق (واجتبينا) للنبوة والكرامة (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) جملة مستأنفة لبيان خشيتهم من الله بعد أن أبان علوهم فى الدين وفى النسب والقرب من الله والبكى جمع باك كالسجود جمع ساجد.

ذكر الضالين المضلين بعد الصالحين المصلحين

قال تعالى (فخلف من بعدهم) أى من بعد النبيين المذكورين (خلف) قوم سوء وهم اليهود وكل من كان على شاكلتهم فى الضلالة من هذه الأمة (أضاعوا الصلاة) تركوا الصلاة المفروضة عليهم أوأخروها عن وقتها (واتبعوا الشهوات) فآثروا شهواتهم على طاعة الله تعالى وشربوا الخمور ومنهم قوم يظهرون فى آخر الزمان تكثر الفاحشة العلنية بينهم حتى فى الأسواق (فسوف يلقون غيا) أى شرا أو جزاء غى، ويقال إنه واد فى جهنم تستعيذ منه أوديتها يلقى فيه العاق وشارب الخمر الخ، وقوله (إلا من تاب) من التقصير فى الصلوات مثلا (وآمن) ترك الكفر إذا كان كافرا (وعمل صالحا) بطاعة الله (فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) ولا ينقصون شيئا من جزاء أعمالهم، وقوله (جنات عدن) منصوب على المدح (التى وعد الرحمن عباده بالغيب) أى التى وعدها إياهم وهى غائبة عنهم أو هم غائبون عنها (إنه كان وعده) الذى هو الجنة (مأتيا) يأتيها أهلها الموعودلهم (لا يسمعون فيها لغوا) فضول كلام (إلاسلاما) إلاتسليم الملائكة عليهم وأن يسلم بعضهم على بعض فهو استثناء منقطع. واعلم أن مبدأ السعادة السلام والأمان والطمأنينة وهذه الدنيا لاطمأنينة فيها فلا سعادة لأن الناس جميعا لايأمنون عاقبة قط فهم دائما لا سعادة عندهم فيكون مبدأ النعيم فى الآخرة أن تكون الاشارات والعبارات والإلهامات هى الطمأنينة فى القلوب وهى المشار اليها بقوله تعالى «رضى الله عنهم ورضوا عنه» وهى هى التى نقولها نحن المسلمين فى صلواتنا صباحا ومساء «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» فتكرار هذه الجملة على اللسان يحدث أثرا فى النفس يتزايد على مدى الزمان فيشعر الانسان إذا أدرك المنى فيما بعد أن الله لم يخلق العالم إلا للغاية وغاية الأرواح الطمأنينة وستكون تلك الطمأنينة حين تأمن الفقر والمرض والموت والشيخوخة وهذه الحالة هى التى يقولها الناس وهم لا يشعرون فيقولون السلام عليكم أى أن الأمان سيكون لكم فى الدنيا بأن يكون بعضنا آمنا من بعض وفى الآخرة بالخروج من جميع المآزق وهى هى التى يقولها الرجل لآخر فى الإسلام عند التعزية (لا أراك الله سوءا) مع أن الذى لا يرى سوءا إنما هو الذى مات أما الحى فان السوء يحيط به كل حين ولكن هذا الدعاء أمنية من أمانى النفوس وهذه الأمنية ستحصل يوم لا يكون عذاب ولا عقاب وينتهى الحساب فيرتفع السوء كالمرض والموت والفقر والذل وما أشبه ذلك. ولما كان السلام مبدأ النعمة فهو كالتخلية والنعمة بعده كالتحلية أردفه بقوله (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) لا بكرة فى الجنة ولا عشى إذ لا ليل ولا نهار وإنما يؤتون بأرزاقهم فى مقدار طرفى النهار كما كانوا فى الدنيا (وبعبارة أخرى) يؤتون برزقهم وعدا لا مقطوعا ولا ممنوعا. انتهى تفسير القسم الأول من سورة مريم.

(القِسمُ الثَّانِي)

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا • وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا
بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا • رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا • وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ
أُخْرَجُ حَيًّا • أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا • فَوَرَبِّكَ
لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا • ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ
أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا • ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا • وَإِنْ مِنْكُمْ
إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا • ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا •
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا
وَأَحْسَنُ نَدِيًّا • وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا • قُلْ مَنْ كَانَ
فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا • وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ
الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا • أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ
مَالًا وَوَلَدًا • أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا • كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ
مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا • وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا • وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا
لَهُمْ عِزًّا • كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا • أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا
الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا • فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا • يَوْمَ نَحْشُرُ
الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا • وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا • لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا
مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا • وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا • لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا • تَكَادُ
السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا • أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا •
وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا • إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ

عَبْدًا • لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا • وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا • فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا • وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا .

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) أى نجعلها ملكا لهم كملك الميراث الذى هو أقوى تمليك . وقال كما ورد فى غير الصحيحين ونقله المفسرون إن النبى صلى الله عليه وسلم لما احتبس حين سأله اليهود كما تقدم عن أمر الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين وقال أخبركم غدا ولم يقل إن شاء الله ودام ذلك الاحتباس ١٥ يوما ونزل جبريل قال له صلى الله عليه وسلم أبطأت على حتى ساء ظنى واشتقت إليك فقال له جبريل وإنى كنت أشوق إليك ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست فأنزل الله تعالى (وما نتنزل إلا بأمر ربك) وهذا حكاية قول جبريل والتنزل النزول على مهل لأنه مطاوع نزّل أى وما ننزل وقتا بعد وقت إلا بأمر ربنا « والضحى والليل إذا سجى » الخ ورواية البخارى «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ياجبريل مامنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» فنزلت ثم أكد اختصاص الله بالأمر بقوله (له مابين أيدينا) من الأماكن (وما خلفنا وما بين ذلك) فالأمكنة بأقسامها الثلاثة الحاضرة ملكه فكيف ننتقل من مكان إلى مكان إلا بإذن مالكه وكذلك الزمان فلا نتقدم ولا نتأخر فيه لأنه له إلا بإذنه (وما كان ربك نسيا) أى ما نسيك ربك وما تركك كقوله « ما ودعك ربك وما قلى » وصح أن يجعل الكلام متصلا بأهل الجنة وهو الأقرب للنظم يقول أهل الجنة « وما نتنزل إلا بأمر ربك » أى وما ننزل الجنة إلا بأمره إلى قوله «وما كان ربك نسيا» أى ناسيا أعمالنا فإنها تذكر ويعطى الثواب عليها . ثم أشار سبحانه إلى أهم ما يوصل إلى الجنة فذكر العلم بربوبيته للسموات والأرض وما بينهما وأعقبه بالعبادة . فهنا صرح القرآن بالحقيقة فالعلم بهذا العالم والعبادة المصفية للقلب بهما تتجلى طلعة الأنوار المشرقات والبهجات الساطعة المضيئة فى هذه العوالم ويعتلى المؤمن إشراقا وإذ ذاك يجتهد لينال العلم بهذا الوجود على ما هو عليه فالعلم المذكور هو باب الجنة بل هو الجنة عند العارفين بل هو أعلى الجنة والعبادة ، صقال يصقل القلوب فكان الترتيب عجبا فهو جنة ثم سببها وهو العلم فسبب السبب وهى العبادة ولكن العبادة ليس لها نصيب إلا فى العقل والقلب ولكن العلم بالتعلم (فاعبده واصطبر لعبادته) وإياك أن يصدك عنها ما يشوش عليك من إبطاء الوحى أو من شدائد الأيام ومكر الناس (هل تعلم له سميا) شبيها ومثلا أو هل تعلم أحدا يسمى الله غير الله (ويقول الإنسان) أى بعضه (أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) من الأرض وهذا القول على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالبعث قال تعالى (أولا يذكر الانسان) أى أو لا يتذكر منكر البعث (أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) فإن من قدر على خلقه من عناصر متفرقة بنظام تام وحكمة بالغة أقدر على الاعادة لا سيما أنه قد تبين أنه قادر على نظم فى الخلق لا عداد لها (فوربك لنحشرنهم) أقسم بالرب مضافا للرسول صلى الله عليه وسلم تشريفا له ليحشرن المنكرين فى المعاد (والشياطين) معهم بحيث يكون كل كافر مع شيطانه فى سلسلة كما هو ظاهر فى العالم المشاهد أن ذرات الهواء لا تستقر إلا فى الجو وذرات الماء لا تستقر فى الهواء وعناصر الأرض لن تعلو غالبا فى الماء ولا فى الهواء وقطعان النعم

والوحش والبهائم يميل إلى الاجتماع والائتناس والمجرمون والسراق يميل بعضهم إلى بعض . فما الآخرة إلا جزء من النظام العام فيحشر الظالمون بعضهم مع بعض ويكون ذلك زيادة أذى لهم كما ترى المرء فى الدنيا لا يقدر أن يفارق أهله أو أقاربه أو أبناءه وهو عالم بأنهم معصية عظمى عليه . فالعالم واحد فى نظامه لأن ربه واحد ولذلك سرت الوحدة فى الوجود ، فالشيطان مع الكافر والأنبياء مع الشهداء والصالحين ومن أحبهم معهم وهذا عين ماقاله الأرواح . إن المدار على الجاذبية . وفى الحديث « كل أمرئ بعجها ولدها » فما أجل العلم وما أبدع الحكمة وما أقرب الناس إلى فهم القرآن الآن عن كل آن . هـذا ومتى حشر الشياطين أحضروا حول جهنم جثيا أى جاثين على ركبهم لأنهم لما دهمهم من شدة الأمور لا يطيقون القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا وهـذا قوله تعالى (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا . ثم لننزعن من كل شيعة) من كل طائفة شاعت أى تبعت غاويا من الغواة (أيهم أشد على الرحمن عتياً) أى الذين يقال فيهم أيهم هو أشد على الرحمن عتيا أى تمردا وجراءة وفجورا أى يقدم إلى النار من هو أعتى فأعتى ممن هو أكبر جرما وأشد كفرا فنطرحهم فيها (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) جمع بينهم فى استحقاق دخول النار بعد ما أثبت انتزاع الأعتى فالأعتى وذلك أنه لا يقال أولى إلا مع الاشتراك وأولى صليا أى أحق بالنار دخولا وبها متعلق بأولى (وإن منكم إلا واردها) أى وما منكم أحد إلا داخل النار والمؤمن يدخلها وهى خامدة إذا لم يكن عليه ذنب (ثم ننجى الذين اتقوا) الشرك الأفضل فالأفضل (ونذر الظالمين فيها جثيا) جاثين على الركب وهذا آخر الكلام على جهنم .

(لطيفة)

اعلم أن بنى آدم كلهم معذبون فى هذه الحياة الدنيا بالمال والولد والغنى والفقر : فكل الحياة آلام ولذات وقد جاء الدين والعلم ليعرفهم قيمة الدنيا وأحوالها حتى إذا ماتوا ارتقوا عن درجات الطبقة المنحطة فمن الناس من تصقل نفسه فى الدنيا فيعرف الحقائق فيخف وقع العذاب الدنيوى عليه حتى كأنه لم يعذب ومنهم من يعذب فى قبره إلى أجل محدود من أصحاب العقائد الحقة . ومنهم من تبقى نفوسهم مغلولة معذبة لتصلب الآراء الجاهلية فيهم وثقل أعمالهم عليهم فهؤلاء لا يخرجون من العذاب . ولقـد اضطربت أقوال المفسرين فى تفسير هـذه الآية والخروج من النار ونحو ذلك . ولقد شرحنا هذا المقام فى سورة هود وفى سور أخرى ولكنا فى هذا المقام نرى أحوالا يجب البحث فيها فنقول :

(١) فإذا سمعت قول مجاهد [ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده فى الدنيا] مستدلا بقوله عليه الصلاة والسلام (الحمى حظ كل مؤمن من النار) .

(٢) وإذا سمعت قول بعض الصحابة لآخر [أيقنت بالورود؟ قال نعم قال وأيقنت بالصدر قال لا قال ففيم الضحك وفيم التثاقل] .

(٣) وإذا سمعت قول خالد بن معدان [يقول أهل الجنة ألم يعدنا ربنا أن نرد النار فيقال بلى ولكنكم مررتم بها وهى خامدة) .

(٤) وإذا سمعت ما ورد فى حديث « تقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى » .

(٥) وإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم كما فى البخارى ومسلم « الحمى من فيح جهنم الخ » ومعنى فيحها وهجها وشدة حرها .

فاعلم أن النار فى هـذا المقام والعذاب قد تحمل عذاب الدنيا والآخرة والقرآن مصرح بهـذا فى مواضع كثيرة ويرجع الأمر إلى الحقائق النفسية فمن مات ولا ذنب عليه البتة وهؤلاء قليل فالنار الحق أن تقول له «جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى » وربما أصاب هذا بعض الأمراض والمصائب فى الدنيا كالحمى وفقد الولد

والأهل

والأهل والفقر وما أشبه ذلك خففت جشع النفس وخرجت من الدنيا لطيفة نيرة غير متعلقة بالدنيا . فالصلاح والتقوى انجذبت إلى عالم أعلى وبالمصائب تخلصت من حب الدنيا ، فهاهي قد قدمت على العذاب وجهنم خامدة لأن النفس بالصبر وبالتسليم وبالحساب والدقة فى تجنب الأخطار والتباعد عن الزلات وما أشبه ذلك مع حفظ المروءة وقيام المرء بالأسباب حق القيام كأنها أخمدت نارها قبل التأذى بالصبر والثبات ورجاء الثواب والفرح بقرب لقاء الأحباب والخلاص من هذه الدار . فهذا يجمع الأحوال المتقدمة إلا البند الخامس .

ومن مات وهو مسلم مؤمن عنده تقصير ولم تقم بتهذيبه مصائب الحياة ولا الدين . فهذا هو الذى قيل فيه [أيقنت بالورود ولم توقن بالخروج] وهى الحال الثانية المروية .

نصيحة

إياك أيها المسلم أن يصدك بعض الأحاديث الواردة عن الحقيقة فى ذاتها فإن الأحاديث ترد سواء أكانت ضعيفة أم صحيحة أوحسنة مرفوعة أو مقطوعة ولكل واحد منها محل مخصوص . فإياك أيها المسلم أن تتكل على بعض الرواايات فتضيع دينك ويكون ذلك أشبه بكفر بالكتاب وإلا لحديث واحد مهما كانت درجته كاف فى هدم القرآن كله فالقرآن مملوء إنذارا فتهدمه بحديث إن صح فهو محمول على حال خاصة . وليس من المعقول فى دين من أديان أهل الأرض أن أمة تصبح وقد رفع عنها العذاب كلها صالحها وطالحها وإلا لم يكن لقراءة القرآن معنى ولا لدراسة الدين. وأمة هذا شأنها تصبح أقل الأمم أدبا وإخلاصا وأخلاقا وأكثرهم نفاقا فو الله لم يرسل الله الأنبياء ليغروا الناس على الشرور بل ليزيدوهم علما وأخلاقا وآدابا .

طرق التهذيب

وطرق التهذيب (اثنتان) طريق الإرهاب كما رأيت وطريق الترغيب وذلك بحب الله تعالى ومن أحب أحدا أحب لقاءه ومن أحب لقاء الله تحاشى كل ما يضر باللقاء من الذنوب .

بعض إيضاح لهذا المقام

ولقد فصلنا هذا المقام فى هذا التفسير فى غير ما موضع وحديث البخارى ومسلم شارح له إذ جاء فيه « إنا نرى ربنا يوم القيامة كما نرى البدر والشمس ليس دونهما سحاب ثم يتبع الناس ما يعبدون كمن يعبد الشمس ومن يعبد القمر وهكذا وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فى غير الصورة التى يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فى الصورة التى يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيدعوهم فيتبعونه فيضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأول من يجوز نبينا بأمته صلى الله عليه وسلم وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم مقدار عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو ثم ذكر أن الله يأمر الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم وقد امتحشوا أى أحرقوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ويكون آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيتمنى انصراف وجهه عنها فقط ويعطى عهودا ومواثيق أن لا يسأل غير هذا فإذا أقبل بوجهه على الجنة يطلب أن يقدم إلى باب الجنة ويعتذر عن نقض العهد ويعطى مواثيق كالأولى أن لا يسأل فيقرب منها ثم بعد أمد يطلب دخول الجنة ويفعل مثل ما فعل فى المرتين السابقتين ثم يدخل الجنة بعد أن يضحك الله منه فيدخلها فيقول تمنّ فيتمنى حتى تنقطع الأمانى فحينئذ يعطيه الله ذلك ومثله أو عشرة أمثاله » على اختلاف الرواة . فهذا الحديث هو الموافق للدين والعلم وهو رواية الشيخين ، فالناس على حسب أعمالهم ويؤخر فى جهنم منهم من كان أكثر ذنوبا اه .

آثار هذا الحديث فى الدنيا وسر من أسراره

اعلم أن هذا الحديث الشريف ضرب مثلا لحال الناس يوم القيامة توضيحا وبيانا . وهناك آثاره فى الدنيا ، إذ كل ما يحصل فى الآخرة لا يخرج عن كونه نتيجة لما يحصل فى هذه الحياة فيستحيل أن يكون هناك غير ماهو نتائج ماهنا والناس فى الدنيا قطعا يمشون على صراط الأخلاق الممتد على نيران الشهوات تتخطفهم كلاليبها فيقع من يقع منهم فى نارها ويصبح فى النار ولا يعلم أنه فى نار الذل تتخطفه الكلاليب من كل ناحية من أهل وولد وحكام وأعداء وأزواج وعشاق وهموم وأحزان وفراق إخوان وهجر وصد وغير ذلك فان عرف الحكمة وكان عابدا واستغرق فى جمال الله كانت هذه النيران بردا وسلاما ولم تمسه فلم يحزن لما فاته ولم يفرح بما آتاه ولم ينهمك فى طلب المال فصارت النار بردا وسلاما عليه كما كانت على إبراهيم ، وإن انغمس فيها انغماسا ولم يستطع خلاصا مات غير مأسوف عليه لا دنيا أصابها ولا آخرة نالها وهو هناك أعمى كما كان فى الدنيا أعمى .

إن الصراط المستقيم فى الدنيا هو ذلك الجسر فى الآخرة والصراط المستقيم هو التوسط فى الأخلاق بين الإسراف والتقتير وبين الجبن والتهوّر وبين الجهل والطغيان بالعلم فيكون المرء كريما شجاعا حكيما عـدلا . فمتى تمت هذه الأخلاق فهو على صراط مستقيم وإلا وقع فى عذاب الإفراط والتفريط هنا ووقع فى جهنم هناك ومتى وقع فى هذا احترق بلذع الآلام فى الدنيا كما يألم هناك بجهنم التى هى أثر من آثار ماهنا .

(بعض أسرار ماجاء فى الحديث أن المسلم يقول لست ربنا وغيره يتبع وثنا أو قمرا أو شمسا)

سبب ذلك أن جميع من على الأرض ينظرون فى هذه الدنيا فمن اطلع على شىء أعجبه عظمه ومتى عظمه وتوالت القرون صار معبودا . فلذلك ترى (الفيل) و (البقر) معبودين فى الهنـد وبعض الحيات فى أفريقيا والنار عند المجوس والشمس والقمر عند بعض الهنود والقرود عند قوم وهكذا مامن شىء ذى شأن إلا وكان له شبه حظ من الإعظام والاجلال . ومن ذلك التماثيل والآلهة التسعة عند قدماء المصريين ثم صاروا ثلاثة ثم جعلوهم واحدا ، فهؤلاء جميعا عبدوا ماتوهموا أن النور الإلهى قد انحصر فيه . أما المسلم فانه غير ذلك يتوقف فى ذلك كله ويقول أعبد الأحد الصمد فيتعالى على جميع مافى العالم ويعبد إلها غير منظور .

العباد والصوفية

وهناك طوائف عبدت الله وصفت النفوس فتشرق نفوسهم وهؤلاء أيضا يحصل لهم فى أنفسهم ما يحصل لأهل المادة . فكلما سنحت لبعضهم سانحة من جانب القدس ربما انخدع وظن أنه قد وصل وذلك خطأ كخطأ عباد الصنم بل مامن كمال إلا وراءه كمال فاذا وقف العابد عند درجة من درجات الكمال وظن أنه قد انتهى فذلك هو الوبال حتى يصل إلى الحقيقة العالية . هـذا هو المأخوذ من قوله «حتى يأتيهم الله بالصفة التى هو عليها» فالمسلمون سواء أكانوا من أرباب المحسوسات أو من أرباب الخيال لايقفون لا عند مادة ولا عند خيال بل هم يرمون إلى العلىّ الأعلى .

حياة الخارجين من النار

وأما أنهم ينبتون فى نهر الحياة كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، فذلك أنه كما أن البذور الدقيقة يحملها الزبد الذى يكون على السيل تنبت بعد أن لم تكن . كذلك هؤلاء المذنبون فى الدنيا إذا وقعوا فى الذنوب فأكلهم الذل ثم تابوا واستغفروا وأشرقت قلوبهم ظهر الصلاح على وجوههم وخرجوا من ذنوبهم بالتوبة وصارت لهم حياة عالية . هذا فى الدنيا فان لم يفعلوا ذلك فعل بهم فى الآخرة ما ذكره الحديث فى نار جهنم فى حال أخرى عبر عنها بهذا التعبير .

إن هذه الحال المذكورة فى الحديث هى أخلاق الإنسان وأحواله فى الآخرة ونعم الله عليه فيها وهى تشير إلى حاله فى الدنيا .

اعلم أن أحوال الانسان فى الحالين لهما نظام متصل . ذلك أن الفقير والمريض والجاهل كل هؤلاء قد يطلبون الصحة والمال والعلم إلى حد محدود ظنا أن ماحددوه يروى ظمأهم ومتى نالوه زادوا طمعا فى العلم والمال والقوة وفى كل مرة يقول الانسان «لا أطلب غير هذا» ثم قد ينتهى الأمر بأن ينال العالم علوما لم تكن له فى الحسبان وهكذا الغنى ينال مالا لم يكن ليخطر بباله . ومثلهما فى ذلك من صحّ بعد المرض . فهكذا من خرج من النار وقد أقبل عليها يتمنى أن يرى الجنة ولا يزال حتى يدخلها ثم تغدق عليه النعم وهذه الحال لاتفارق الإنسان فى الدنيا ولا فى الآخرة . وفى الآية «لتركبنّ طبقا عن طبق» أى فى الآخرة كما ترونه فى الدنيا .

فصل : فى أحوال أهل النار وأهل الجنة وأخلاقهما

قال تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) واضحات الإعجاز (قال الذين كفروا للذين آمنوا) أى لأجلهم أو معهم (أىّ الفريقين) منا ومنكم (خير مقاما) منزلا ومسكنا وهو موضع الإقامة (وأحسن نديا) مجلسا ومجتمعا فروا من اتباع الدين بعد ماظهر من المعجزات إلى الفخر بالمعالى والزينة ونحوهما وهذا قول كفار قريش لفقراء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وكان فى عيشهم خشونة وفى ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسون أفخر ثيابهم فأجابهم الله بالتهديد فقال (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا) متاعا وأموالا وثيابا ولباسا (ورئيا) منظرا من الرؤية أو ريا بقلب الهمزة وإدغامها (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) الأمر هنا بمعنى الخبر: أى يمده ويمهله بطول العمر والتمتع به (حتى إذا رأوا مايوعدون) هذا القول متصل بقوله «خير مقاما وأحسن نديا» أى لايزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعود رأى عين (إما العذاب) فى الدنيا كما حصل يوم بدر (وإما الساعة) أى يوم القيامة وأما قوله «قل من كان فى الضلالة» الخ فهى جملة معترضة، وقوله (فسيعلمون من هو شرّ مكانا) منزلا فهو جواب إذا (وأضعف جندا) أى فئة وأنصارا وهو مقابل لقوله «وأحسن نديا» (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) إيمانا وإيقانا على ماعندهم من اليقين وهو عطف لقوله «فليمدد له الرحمن» لأنه بمعنى الخبر (والباقيات الصالحات) الطاعات التى تبقى عائدتها أبد الآباد مثل «سبحان الله والحمد لله الخ» ومثل الصلوات (خير عند ربك ثوابا) عاقبة ومرجعا . روى البخارى ومسلم «أن خباب بن الأرتّ قال كنت رجلا قينا فى الجاهلية أى حدّادا وكان لى على العاص بن وائل السهمى دين فأتيته أتقاضاه ، وفى رواية: فعملت للعاص بن وائل السهمى سيفا فجئته أتقاضاه فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر حتى يميتك الله ثم تبعث قال وإنى لميت ثم مبعوث قلت بلى قال دعنى حتى أموت وأبعث فسأوتى مالا وولدا فأقضيك فنزلت»(أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولدا) فرد الله عليه بقوله (أطلع الغيب) أى النظر فى اللوح المحفوظ أو علم الله حتى يعلم أنه فى الآخرة يؤتى مالا وولدا (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) مثل أن يقول لا إله إلا الله الخ ويعمل عملا صالحا (كلا) لا يكون له مايقول (سنكتب مايقول) سنظهر له أنا كتبنا قوله (ونمدّ له من العذاب مدّا) مدّه بمدّه زاده (ونرثه مايقول) من المال والولد بموته (ويأتينا) يوم القيامة (فردا) لا مال معه ولا ولد (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا) ليعزّزوا بهم لأنهم شفعاؤهم عند الله (كلا) ردع وإنكار لتعززهم بها (سيكفرون بعبادتهم) سيجحد الآلهة عبادتهم (ويكونون) أى المعبودين (عليهم) على المشركين (ضدا) خصما والضد للواحد والجمع وهؤلاء المعبودون ينكرون عبادتهم ويطلبون عذابهم

حين يتطلبهم الله (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) أي سلطناهم عليهم (تؤزهم أزًا) أي تزعجهم إزعاجا فيفرون من الطاعة إلى المعصية فهي تحثهم وتحرضهم (فلا تعجل عليهم) لا تعجل بطلب عقوبتهم (إنما نعد لهم عدًا) نعد أنفاسهم وأيامهم وجميع أزمانهم . اذكر لهم (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) أي ركبانا على نوق رحالها من الذهب ونجائب سروجها يواقيت إن هموا بها سارت وإن هموا بها طارت وهذا كلام سيدنا على كرم الله وجهه تمثيل لحالهم في عزة وعظمة وإكرام (ونسوق المجرمين) الكافرين (إلى جهنم وردا) أي مشاة عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش فهم كالدواب التي ترد الماء (لا يملكون الشفاعة) أي لا يملك العباد الشفاعة (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) بأن تحلى بما يستعد ويتأهل لها في الدنيا بأن يكون هاديا للناس مصلحا لهم ولا جرم ينال الشفاعة في الآخرة على مقدار هدايته كما تقدم تقريره في سورة البقرة . فالشفاعة هناك للأنبياء والعلماء والشهداء على مقدار أتباعهم « ولا يظلم ربك أحدا »(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) أي قال اليهود والنصارى وبعض العرب اتخذ الرحمن ولدا واتخاذ الولد يقدح في الربوبية بل من اتخذ الولد تكون عنده رقة القلب والجبن والضعف والجهل لأن الولد مجبنة مبخلة مجهلة كما في الحديث الشريف . ومتى اتصف بهذه الصفات لا يكون إلها لنقصه . ومتى انتفت الألوهية تنفطر السموات وتنشق الأرض وتهدّ الجبال ويشير لهذا قوله (لقد جئتم شيئا إدًا) منكرا (تكاد السموات يتفطرن منه) يتشققن مرة بعد أخرى (وتنشق الأرض) أي تخسف بهم (وتخر الجبال هدًا) أي تسقط وتنطبق عليهم (أن دعوا للرحمن ولدا) أي من أجل « أن دعوا » الخ ثم نزه نفسه فقال (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) وما يليق به اتخاذ الولد لأن ذلك شأن المخلوق . واعلم أن هذا القول في هذا المقام يناسبه ماذكر من العذاب لأنه راجع لأصل الربوبية وفي ذلك فساد العالم فليسقط عليهم غضبا كما قالوا قولا لو صح لأورث خللا في النظام وزللا وعدما بخلاف مافي سورة النحل كما تقدم إذ قال هناك « ما ترك على ظهرها من دابة » فقد بينا هناك أن المقام كان في الذكورة والأنوثة . فأما هنا فالقوم في وصف الله بالولادة بقطع النظر عن الذكورة والأنوثة وهذا الوصف فيه خراب العالم وذلك الوصف ضياع لكل حيوان لو أن العالم كان نظامه حسب أهوائهم وكيف يتخذ الله ولدا فذلك لا يليق له (إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا) أي إلا آتيه يوم القيامة عبداً ذليلا خاضعا (لقد أحصاهم وعدّهم عدًا) عدّ أنفاسهم وآثارهم وأعمالهم (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) وحيدا لا شيء معه مما في الدنيا (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًا)أي محبة فيحبهم الله ويجعل الناس يحبونهم . روى البخاري ومسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا أحب الله سبحانه عبدا دعا جبريل عليه السلام إن الله تعالى يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض » وفي حديث مسلم تكملته في البغض على هذا النحط «فيبغض الله إنسانافيبغضه جبريل ثم أهل السماء ثم أهل الأرض»(فإنما يسرناه بلسانك) أي سهلنا القرآن بلسانك (لتبشر به المتقين) أي المؤمنين (وتنذر به قوما لدا) أي أعداء أشداء الخصومة .
ثم ختم السورة بالإنذار بالهلاك لهم قياسا على مايذكر من هلاك المكذبين من الأمم السابقة فقال (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) تخويف للكفرة وتجسير للرسول على إنذارهم (هل تحس منهم من أحد) أي هل تجد من القرون من أحد (أو تسمع لهم ركزا) صوتا خفيا ، قال الحسن رضي الله بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر ، انتهى التفسير اللفظي .

لطيفة في قوله تعالى « إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا»

اعلم أن هذا القول إذا سمعه من قرءوا بعض العلوم ولكنهم يجهلون بقيتها أسرعوا بالتكذيب بل الكفر ولكن ألم بأنهم نبأ علم الأرواح وقد تجلى فيه هذا المقام كما أوضحناه في هذا التفسير . ولما كان نقل مثل

هذا القول وأمثاله عن جمعيات أوروبا يحدث فى قلوب الطبقة الراقية سرورا ويدهشون إذ يرون ما أنكره المتعلمون فى الشرق أثبته الحكماء والعلماء فى جميع بلاد الغرب أى العلماء الذين جدوا فى علم الأرواح فسترى فى هذا الحديث الذى سأنقله لك من كتاب الأرواح الذى نقلت عنه فى هذا التفسير كثيرا . أقول سترى فيه عجبا عجابا . وترى أن النبوة المحمدية قد ظهر سرها عيانا فى أوروبا ، فقد جاء فى هذا الكتاب صفحة ١٢٤ ما يأتى وها هو ذا :

الحديث الثالث عشر من كتاب المذهب الروحانى

إليك أيها الذكى خلاصة تعليم الأرواح فى هذا الموضوع نقلا عن كتاب (الوسطاء) للمعلم (آلآن كردك) .

(س) كيف تميز الروح الصالح من الشرير ؟

(ج) من حديثه فان الأرواح العلوية تحبّ الخير ولا تأمر إلا به . أما الناقصة فلا يزال الجهل متسلطا عليها وحديثها يشفّ عن نقصها فى العلم والفضيلة .

(س) هل العلم فى الروح دليل ارتفاعه ؟

(ج) كلا . قد يمكن مع علمه أن يكون بعد تحت سلطة الرذيلة والأوهام . إن فى عالمكم الأرضى من هم فى منتهى الكبرياء والحسد والتعصب فهل يتجرّدون من هذه النقائص حال مبارحتهم الحياة . كلا . إن الرذائل على اختلاف أنواعها تحيط بالروح بعد موته ملتصقة به كالهواء وهؤلاء أشدّ خطرا من الأرواح الشريرة إذ فيهم اجتمعت الكبرياء مع النباهة والمكر مع الذكاء فيطغون بعلمهم الأنام السذج ويشربونهم مبادئهم السخيفة الكاذبة وهذا مايعرقل قليلا وثبة الروحانية . فعلى الروحانيين الخبيرين أن لا يألوا جهدا فى كشف خداعهم وتمييز الحقّ من الباطل .

(س) عندما تحضر روحا علويا عرف على الأرض هل يحضر بنفسه أو يرسل من ينوب عنه ؟

(ج) يحضر بنفسه إن أمكن وإلا فيرسل من ينوب عنه .

(س) هل يكون للنائب كفاءة ليسدّ مسدّ الروح العلوى ؟

(ج) إن الروح عارف بمن يسلم إليه أمر نيابته . ثم اعلم أن الأرواح العلوية كلما ازدادت ارتقاء انضمت إلى بعضها فى وحدة الفكر حتى لا يعود لمسألة الشخصية حيز عندهم ولا من يلتفت إليها وهذا ما يجب أن تسعوا فى البلوغ إليه فى عالمكم الأرضى ثم هل تظنون أنه ليس من الأرواح العلوية القادرة على تعليمكم إلا من عرفتم منها على الأرض . ما بالكم تعدون دائما أنفسكم مثال الخليقة وأن لاشئ فى الدنيا خارج عن عالمكم الحقير . إنكم فى هذا تشابهون المتوحشين الذين لم يخرجوا قط من جزرهم فظنوا المسكونة لا تمتد خارجا عنها .

(س) هذا صحيح ولكن كيف تسمح الأرواح العلوية لبعض الأرواح الكاذبة بأن تنتحل أسماءها لنشر الضلال والفساد ؟

(ج) ليس بإرادة الأرواح العلوية تفعل ذلك وسوف ينوبها العقاب على عملها ثم لو تكونون أنتم ناقصين لما وافاكم إلا أرواح صالحة فاذا مكر أحد بكم فلا تلوموا إلا ذواتكم . إن الله يسمح بذلك حتى تتروضوا على الصبر والثبات وتتعلموا أن تميزوا الحق من الباطل فان لم تفعلوا ذلك يكون هذا دليلا على نقصكم واحتياجكم بعد إلى أمثولات الخبرة .

(س) هل الأرواح التى تنشر الضلال تفعل ذلك دائما عن عمد ؟

(ج) كلا . قد يمكن لبعض الأرواح الصالحة أن تكون بعد جاهلة ناقصة العلم ، فهذه تقر بعجزها وتتكلم على مقتضى درجة علمها .

(س) هل تستطيع الأرواح الشريرة بواسطة الرسائل الروحانية أن تلقى الشقاق وتزرع الفتن بين الأصحاب؟

(ج) نعم فلهذا يقتضى التحرز التام من مقالات موجهة كهذه يكون أكثرها إفكا وخداعا . فاياكم والانقياد لرسائل كهذه لايسطرها إلا روح كل كاذب شرير .

(س) إذا كان للأرواح الشريرة سهولة كهذه للتداخل فى المخابرات الروحانية فاستطلاع الحقيقة أصبح من أعسر الأمور ؟

(ج) كلا . ليس هذا يعسر مادام فيكم قوة التمييز . إذا قرأتم كتابا تستدلون على صفات كاتبه إن كان عالما أو جاهلا أديبا أو جلفا . فعلى هذه الصورة استوضحوا صدق الروح من رسائله .

(س) هل تستطيع الأرواح العلوية أن تنهى شريرة عن الخداع ؟

(ج) لاريب فى ذلك . ومن الوسطاء من تميل إليهم الأرواح العلوية بنوع خاص فتقيهم شر الخداع ولاتدع الأرواح السفلية تسطو عليهم .

(س) ما الداعى لهذا الاختصاص ؟

(ج) لا يدعى هذا اختصاصا بل عدلا لأن الأرواح العلوية لاتميل إلا إلى من ينقاد لنصحها ويبذل جهده فى إصلاح نفسه وترقية الروح . فوسيط صالح كهذا يكون محببا إليها فتتخذه تحت كلاءتها وتسعفه فى كل ظرف وحاجة .

(س) لم يسمح الله بنفاق الأرواح الشريرة عند انتحالها أسماء مبجلة ؟

(ج) سؤالكم أشبه بقول من يسأل . لم يسمح الله بأن يكذب الانسان فللأرواح كما للبشر الاختيار المطلق فى عمل الخير أو الشر ولكن لا يفوت أحدا منهم عدل الله بل كل امرىء يلقى جزاء أعماله .

(س) ألا تستطيع الأرواح الماكرة أن تقلد الفكر ؟

(ج) تقلد الفكر كما أن زخارف المرسح تقلد الطبيعة .

(س) من الناس من هم قاصرو الفهم تغويهم زخارف الحديث ولا يفقهون قوة المعانى فكيف يتمكن هؤلاء من الحكم بمقالات الأرواح ؟

(ج) إن كانوا متواضعين يقروا بعجزهم وركنوا إلى من هم أوفر ذكاء وفطنة منهم . وإن أعمتهم الكبرياء، وظنوا بأنفسهم أنهم أشد كفاءة مما هم فليتحملوا تبعة كبريائهم .

(س) كثير من الوسطاء يميزون الأرواح الصالحة من الشريرة بالتأثير اللطيف أو المزعج الذى يصيبهم من مخالطتها . فهل هذا صحيح ؟

(ج) إن الوسيط يشعر بتأثيرات الروح المتجلى له على أية حالة كان ، فالروح السعيد يكون هادئا رزينا والتعس يكون مضطربا متقلقلا وتأثيرات هذه الحالة تصيب جهاز الوسيط العصبى .

(س) هل يمكن للانسان أن يحضر الأرواح من دون أن يكون وسيطا ؟

(ج) نعم وهذا يدعى الإحضار الفكرى فتيه يناجى الروح باطنا محضره ولئن لم يكن هذا وسيطا ماديا .

(س) هل يلبى الروح دائما دعوة محضره ؟

(ج) هذا منوط بالظروف التى يكون الروح عليها .

(س) أية موانع تصد الروح عن تلبية دعوتنا ؟

(ج) أولها إرادته الحرة ثم أحوال أخرى بعد الموت أو الأعمال التى يكون موكلا بها أو أخيرا عدم إذنه فى تلبية محضره إذ كان من الأرواح من لاتستطيع مناجاتكم بتاتا وهى التى فى عوالم أقل من عالمكم الأرضى لأن الروح لايستطيع أن يخابر سكان عالم مالم يكن درجة تقدمه موازيا للعالم المدعو إليه وإلا فيكون غريبا

عن

عن أفكاره ومبادئه وإن كان هو روحا متقدما أرسل إلى العالم السفلى تكفيرا عن ذنوبه أو لرسالة يقدم بها فلا يعجز حينئذ عن الحضور لمناجاتكم إن أذن له فى ذلك .

(س) لماذا ينكر عليه أحيانا الإذن ؟

(ج) قصاصا له أو لمن يحضره .

(س) كيف يمكن للأرواح المتشعبة فى الفلا والعوالم القاصية أن تسمع صراخ مستدعيها وتلبى دعوته؟

(ج) شرح ذلك عسر طالما أنكم تجهلون كيفية تجاذب الأفكار بين الأرواح ولكن أقول إن الروح المحضر على أى بعد كان تصيبه صدمة الفكر كحركة كهربائية تجذب انتباهه إلى نقطة مصدرها بنوع أنه يسمع الفكر على نوع القول كما تسمعون الصوت على وجه الأرض .

(س) هل السيال العام يحمل الفكر كما أن الهواء ينقل الصوت ؟

(ج) نعم إنما الفرق أن الصوت لا يسمع إلا بدائرة محدودة فى حين أن الفكر ينتقل إلى بعد غير محدود

(س) أيلبى الروح الدعوة باختياره أم قسرا عنه ؟

(ج) له الحرية المطلقة فى تلبية الدعوة أو إبائها إلا أن الروح العلوى يستطيع فى بعض الظروف أن يجبر روحا سفليا على الحضور إن كان حضوره مفيدا .

(س) هل من ضرر فى إحضار الأرواح السفلية وهل يخشى على الوسيط شرها ؟

(ج) لا تجسر الأرواح الشريرة على إلحاق الأذى بمن يكون تحت حماية علوية لا بل تهاب الوسيط الفاضل لما له عليها من السلطة الأدبية إنما خير للوسيط أن يتجنب استحضارها فى العزلة .

(س) ماهى أخص الشروط لإحضار الأرواح الصالحة ؟

(ج) التهيب واختلاء الباطن وصفاء النية والصلاة الحارة .

(س) هل اجتماع الأشخاص فى وحدة الفكر والنية تزيد الاحضار قوة ؟

(ج) نعم ولا شىء يضر بالاستحضار مثل تباين الأفكار وتضاد النوايا .

(س) هل تحسن اقامة الجلسات الروحانية فى أيام وساعات معينة ؟

(ج) نعم لأن للأرواح أشغالا لا تمكنها من الحضور إليكم متى وكيفما شئتم .

(س) هل للأيقونات والطلاسم تأثير فى جذب الأرواح أو طردها ؟

(ج) ألا تعلمون أن المادة لا تأثير لها على الروح وأن الطلاسم لا وجود لقوة بها إلا فى مخيلة الأنام السذج

(س) أتسر الأرواح بالاستحضار أم لا ؟

(ج) هذا منوط بطباعها وبدواعى استحضارها فان كانت الغاية حميدة والحضور من أحبائها تتقاطر إليهم بسرور وإلا أبت الحضور أو تحضر كرها عنها وتدل أجوبتها على كدرها وغيظها .

(س) هل يمكن استحضار أرواح جمة معا ؟

(ج) نعم بشرط أن يكون لديكم جملة وسطاء وإلا فروح واحد يجيب عن الجميع على يد الوسيط الحاضر

(س) هل يستطيع الروح أن يحضر عدة مجالس يستدعى إليها فى آن واحد ؟

(ج) نعم بشرط أن يكون روحا علويا .

(س) كيف يتم ذلك . وهل يتجزأ الروح ؟

(ج) إن الشمس واحدة وتنير مع هذا أماكن عديدة معا . فكلما تعالى الروح وتنقى ازدادت أشعة فكره قوة وامتدادا . أما الروح السفلى فلا يستطيع لتغلب المادة عليه أن يحضر إلا مكانا واحدا ولا أن يكاتب إلا وسيطا واحدا .

(س) هل يمكن استحضار الأرواح النقية أى التى بلغت الغاية القصوى ؟

(ج) قد يمكن ذلك وهذا نادر جدا فان أرواحا كهذه لاتناجى إلا قلوبا نقية مخلصة لا تشوبها الكبرياء وحب الذات .

(س) ما مقدار الزمن الذى يكفى لاستحضار الروح بعد موته ؟

(ج) قد يمكن استحضاره حتى وقت الموت ولكن أجوبته تكون ناقصة لاستيلاء الاضطراب بعد عليه

(س) هل استحضار الروح المتجسد يمتنع على الاطلاق ؟

(ج) كلا . فقد يمكن استحضاره بشرط أن حاله الجسدية تسمح له بذلك . وكلما كان العالم أرقى قلت المادة من الجسد وازداد الروح سهولة فى مزايلته .

(س) هل يمكن استحضار روح الحى ؟

(ج) نعم بشرط أن يكون نائما أو تكون روحه وقتئذ منطلقة قليلا من قيود جسدها ومرتبطة به برابط سيال به يميز الوسيط الناظر روح الحى من روح الميت .

(س) هل روح الحى المستحضر وقت الرقاد يجيب سائله بسهولة كروح الميت ؟

(ج) كلا . لأن المادة المقيد بها تفعل دائما فيه وتعيق حريته .

(س) هل يتذكر الانسان عند اليقظة استحضاره وقت الرقاد ؟

(ج) كلا فان حالته أشبه بالنائم المغناطيسى الذى ينسى عند اليقظة كل ماقاله وعمله وقت التنويم .

(س) هل يمكن تغير أفكار الحى عند اليقظة باستحضار روحه وإقناعه عند الرقاد ؟

(ج) قلما يصح ذلك لأن الإنسان ينسى وقت اليقظة التأثيرات الأدبية التى أصابت روحه والمقاصد الصالحة التى اتخذها وقت الرقاد .

(س) هل لروح الحى حرية فى قول وإخفاء مايشاء ؟

(ج) لاريب فى ذلك . لا بل يكون أشد تحفظا منه وقت اليقظة وإذا ألحوا عليه فى السؤال ينصرف .

(س) ألا يمكن لروح آخر أن يضطر روح الحى إلى الحضور والتكلم بما لايريد ؟

(ج) ليس من سلطة بين الأرواح أحياء كانوا أم أمواتا إلا السلطة الأدبية فمن له سلطة كهذه فليس ينبغى أن يستخدمها فى سبيل أغراض ساقطة تنزه عنها .

(س) هل يمكن استحضار روح الجنين وهو بعد فى أحشاء أمه ؟

(ج) كلا . لأنه يكون وقتئذ فى حالة اضطراب تام .

(س) هل يتأتى ضرر من استحضار روح الحى ؟

(ج) لا يخلو ذلك من بعض الضرر خصوصا إذا كان الحى مريضا فان إحضاره يزيد فى أوجاعه . وعليه لاينبغى إحضار روح الولد الصغير ولا الشيخ الضعيف ولا الانسان العليل فان الاستحضار مضر بهم .

(س) ان كان استحضار روح الحى لا يخلو من بعض الضرر فمن أين نعلم أن الروح الذى نظنه ميتا ونستحضره لا يكون قد صار بعد الموت فى حال حياة يضره فيها الاستحضار ؟

(ج) ان روحا كهذا لا يلبى الاستحضار فلهذا قلت لكم إنه لا يستحضر الوسيط روحا مالم يسأل قبلا الروح مرشده أكان استحضاره ممكنا أم لا .

(س) أليس محتملا فى الوساطة الخطية أو الاستيلائية أن تكون المقالات صادرة من روح الوسيط ذاته ؟

(ج) قد يمكن لروح الوسيط إن كانت منطلقة بعض الانطلاق أن تستخدم كالروح الأجنبى جسدها ذاته للكتابة وليس هذا بعجب طالما روح الحى يستطيع رغما من تجسده أن يستخدم جسد وسيط للكتابة أو التكلم

(س) ألا يثبت مبدأ كهذا رأى القائلين بأن المقالات الروحانية انها من شخصية الوسيط التى لم تنتبه وليس للأرواح دخل فيها ؟

(ج) قد يصح هذا الرأى فى بعض الظروف ولكنه لا يشمل المقالات الروحانية كلها . إذا كان فى استطاعة الوسيط أن يستخدم جسده للكتابة أو التكلم لايدل هـذا على امتناع استخدام الروح الأجنبى له فى سبيل ذلك .

(س) فمن أين نعلم أكان المتكلم أو الكاتب روح الوسيط أم روحا آخر أجنبيا ؟

(ج) تستطيعون تمييز ذلك من فحوى المقالة ولهجة الحديث وظروف أخـرى لاتخفى على الناقد البصير، فان من الأجوبة مايتعذر إعزاؤها إلى روح الوسيط فعلى الخبير أن يتبصر ويدرس .

ولما أتممت هذا المقال من كتاب « المذهب الروحانى » قلت ياشير محمد اعلم أن فى هذا الحديث من المعانى العجيبة الدينية مافيه عبرة لمن اعتبر وذكرى لمن ادكر . ألم تر إلى قول الروح (إن الرذائل على اختلاف أنواعها تحيط بالروح بعد موته فتلتصق به) ثم قالت (هؤلاء العلماء الفاسقون أشد خطرا من الأرواح الشريرة لأن الكبرياء والنباهة اجتمعت فيهم) أما إحاطة الأخلاق بالأرواح أو التصاقها بها فقد تقدم الكلام عليها . وأما اجتماع الكبرياء مع النباهة فى العلماء الفسقة وأنهم شر من الأرواح الشريرة فذلك ورد فى قوله تعالى «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث» . ذلك أن عالما من بنى إسرائيل كان مجاب الدعوة يسمى (بلعام بن باعوراء) تقدم إليه قومه واستمانوا بزوجته الجميلة وأهدوا لها حليا ومالا وسألوه أن يدعو الله على سيدنا موسى فاندلع لسانه وانقلب الدعاء على قومه وطرد من رحمة الله فأخذ يحتال بحيل دنيوية وبوقع الفتن فى جيش النبى موسى صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم .

فلهذا قال تعالى واتل يامحمد على قومك نبأ هذا الرجل الذى آتيناه آياتنا الخ ، ثم قال فاقصص القصص يامحمد على قومك لعلهم يتفكرون فيما صار إليه ذلك الرجل الذى أضله الله على علم . وقومك ضلوا بعد إذ أرسلتك إليهم . فكذا ههنا فى عالم الأرواح يكون العالم منها داعيا لسبيله مضلا لمن أطاعه موسوسا بما عنده من العلم فصار من الشياطين بما أوتى من العلم الذى صرفه فى سبيل الشر ولذلك قال الله تعالى « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » ، وفى مقال العلماء .

وعالم بعلمه لن يعملا   معذب من قبل عباد الوثن

أما قول الروح (ثم هل تظنون أنه ليس من الأرواح العلوية القادرة على تعليمكم إلا من عرفتم منها على الأرض الخ) فهذا هو المنطبق تمام الانطباق على ديننا القويم فان كل ماورد فى القرآن من الملائكة والشياطين يشير إلى عالم ليس فى الأرض فان جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأمين وروح القدس والملائكة الكروبيين وملك الجبين وملك الشمال والكرام الكاتبين وأمثالها مما جاءت به السنة ونطق به القرآن لم يقل أحد إنهم كانوا أرواحا أرضية بل قالوا إنهم خلق من خلق الله تعالى خلقهم بلا أجسام .

فهكذا يقول الروح هنا (إنكم إذا لم تؤمنوا بعوالم روحية غير الأرواح التى خرجت من الأرض فأنتم كالمتوحشين الذين لم يخرجوا قط من جزرهم فظنوا المسكونة لا تحد خارجا عنها) قال تعالى «وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر» وقال تعالى «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» .

وأما قول الروح إن الأرواح السفلية تكذب وتغش وتنشر الضلال وستعاقب على ذلك جزاء كذبها على الأرواح العلوية وتكلمها بلسانها وقد جعلها الله محنة لكم لتميزوا الخبيث من الطيب . فهذا القول جميل وبديع مصداقا لقوله تعالى «لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور» وقوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون» وقال تعالى «تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » .

قد تبين لى بالاختبار أن الحياة على هذه الأرض وغيرها إن هى إلا فتنة ونظر واختبار وكأنها مسألة حسابية وعلوم رياضية . نعيش وننظر فى العلوم ونعاشر الناس ونرى أى الأمور أليق مثلا المال والصحة والعلم والحكم بين الناس . فكل من جعل المال للذاته وشهواته جحد الناس فضله وذم الله سعيه . ومن حرم نفسه وقتر عليها ثم تجاوز عن ماله وفرقه على الناس لامه العلماء وذمه الفضلاء إذا أصبح فقيرا معدما يسأل الناس فعليه أن ينظر بعقله فيما يجب له وللناس . وهكذا أمر الصحة والعلم والعقل وسائر المواهب إن عطلها عاقبه الله وغضب عليه الناس . وإن أسرف حتى أضر بها كان كذلك . وإن حفظها ونفع بها الناس كان مشكورا من الله والناس . وهكذا ما يبتلى به الانسان من البلايا وما يصاب به من المحن والرزايا وما يحيط به من الأهوال ونوائب الحدثان فحكمها حكم ما ذكر من النعم ، فان عرف ما يراد به وعقل نتائج تلك المصائب ازداد بصيرة وعلما وإلا كان جهولا . ألا وإن المصائب لأهل الأرض تبصرة وذكرى بل كل ما احتجنا إليه وكلفنا أعمالا فانه لامحالة مرق لعقولنا . ألا ترى إلى الصنائع وبناء السفن وتربية الرجال المدربين على الحرب والضرب ثم هم يرمون جميعا فى البحر أيام الحروب . وترى مثلا قدماء المصريين قد أفرغوا وطابهم ونثروا آخر سهم من كنائنهم فبنوا مصانع ظاهرة وهكذا سائر الناس جدوا فى التزويق والتزيين والبناء : منها ماقدمنا مما يصنع ويرمى فى البحر فيغرق . ومنها مايدفن تحت الأرض ولابد لهذا كله من مقصد ونتيجة . وما النتيجة والفائدة إلا ارتقاء عزائم هذا النوع الانسانى ورقيه وإكمال القوى والعزائم والبصائر لتلك الأنفس الراحلة لترجع إلى العالم الذى ترسل إليه قوية ذات بصيرة . وقس على ذلك سائر مصائبها ونوائبها فانها جاءت تبصرة وذكرى حتى تقوى قلوبها وتشتد عزائمها وتزداد تجاربها ، انتهى .

جوهرة فى قوله تعالى «فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم»
قد أخرت لطول الكلام عليها

اعلم أن مسألة أحزاب النصارى ومسألة التثليث وما أشبه ذلك قد تقدمت بإيضاح فى كل مقام بحسبه فى سورة (البقرة) عند قوله تعالى «فلا تجعلوا لله أندادا» وفى سورة (آل عمران) فى أوائلها وفى سورة (النساء) فى أواخرها وفى سورة (المائدة) فى آخرها أيضا وفى سورة (التوبة) عند قوله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم» الخ وفى هذه السورة . فاذا قرأت ذلك كله وجدته محيطا بالموضوع ولكن لابد لنا هنا من ذكر نبذة صالحة ربما تقدم بعضها مفرقا فنقول :

جاء فى كتاب [المذهب الروحانى] : أن المستشرقين كشفوا قسما كبيرا من تاريخ مصر القديمة بواسطة الرسوم (الهيروغليفية) المنقوشة على الأحجار وأوراق البردى التى وجدت فى داخل اللحود واطلعوا على التعليم الذى فيه أن هناك (ثلاثة) وهم (آمون) أى الأب و (كوتس) أى الابن أو الكلمة ثم (موت) أى الأم . قال وذلك رمز إلى الروح والقوة والمادة . وهذا التثليث منقول عن أهل الهند أى البراهمة وكانوا يمثلون المادة بهيئة شيخ هرم والقوة أو الحياة بشاب ماسك صليبا والروح بهيئة (عنخ) أى صقر . ثم قال

ومن

ومن ذا بعد هذا يقول إن إخواننا النصارى لم يأخذوا ثالوثهم وصورة ثالوثهم عن الأقدمين . ثم إنى أحيلك هنا على ماتقدم فى سورة (إبراهيم) تحت عنوان [جوهرة فى أديان القدماء] وعنوان [التنبيه الثالث : كيف يدخل الضلال على أرباب الديانات] فلا نعيده هنا فانك تجد تثليثا جهرا وتوحيدا سرا وإيضاحا تاما لذلك وذلك عند المصريين وأمم الهند القدماء . فلنوضح فى هذا المقام شرح اختلاف الأحزاب من بينهم .

لقد كانت كنائس النصارى فى القرن الرابع مقسمة إلى حزبين : أحدهما يقول المسيح إله والآخر ينكر ذلك . وفى سنة ٣١٢ م قال (اريوس) إن للأب وللابن جوهرين متميزين والثانى خليفة الأول، ومعنى هذا أنه ليس بإله . ويقول علماء عصره إنه أى (اريوس) ذو علم واسع وفضيلة وكمال خلق وفصاحة جهذابة فاتبعه كثير من علماء النصارى . هنالك اتقدت نار الحقد فى قلب اسكندر أسقف الاسكندرية فجمع حوله بعض العلماء وألف منهم مجمعا كفروا فيه (اريوس) بسبب تعاليمه فقام عالم اسمه (أوسابيوس) أسقف (نيقوميديا) وألف مجمعا انتصر فيه إلى (اريوس) وكفروا غيره . هنالك انصرم حبل الأمن واختلّ نظام الأمة وأصبحت فى قلق واضطراب شديد وذلك على مسألة ليست من دينهم وإنما هى مقتبسة من المصريين ومن الهنود فلم يسع الملك قسطنطين إلا أن يكتب إلى اسكندر وإلى (اريوس) بما يأتى :

[إنما تتخاصمون فى أمور لاتدركونها ولا يمكن أن تدركوها وتجعلون الحرب بين الإخوة لكلمات ملغاة لاعمل لها ، فان كنتم لاتتفق آراؤكم فى المسألة الباطلة الجنونية السببية للخصام بينكم فعلى الأقل احفظوا هذه الأمور الضئيلة لكم ولاتقلقوا بها الشعب] وأرسلها لهما على يد (أوزيوس) وهو أسقف وقد أضاف ما يأتى :

[ماكادت النصرانية تتمتع بالسلام حتى أخذتم تقلقونها بنزاع دائم ليس منكم من يستطيع أن يتحقق أكان المسيح مخلوقا أم مولودا ، فلو كان لهذه المسألة أهمية ماأغفل المسيح التكلم عنها] انتهى .

فلم يفد ذلك كله وبقى القوم فى صراعهم وجدالهم ، واتهم قوم الملك بأنه ينصر الأريوسيين فأمر الملك بمجمع فيه أساقفة العالم وذلك فى (نيقية) سنة ٣٢٥ م .

وقال الأسقف (سابينوس) الذى كتب أعمال المجمع النيقادى (إن أكثر آباء هذا المجمع كانوا على غاية من السذاجة والخشونة والجهل) .

وقال المؤرخان (سقراط) و (موزوميتوس) [إن كثيرا من الآباء تمادوا غاية تماديهم للمجمع وأخذوا يتشاجرون ويتشاتمون لمسائل شخصية بحدة ووقاحة وكل يذكر للملك مساوىء أخيه فقال (الأريوسيون) إن يسوع أبدع من العدم ومضى له زمان لم يوجد فيه والآخرون يقولون كلا إنه هو الابن الوحيد فى طبيعته وهو عقل الأب وقدرته وحكمته وضياء مجده] فسلم الأريسيون بهذا التحديد فلما سمعوا ذلك قالوا للأريسيين (إنه مساو للأب) بالجوهر فلم يرضوا به فنفاهم (قسطنطين) ولكن بعد ذلك بقليل عاد (اريوس) وأساقفته من النفى ودخلوا الاسكندرية فحينئذ انتصر الفريق المنكر لمساواة المسيح لأبيه بل تعدّى الأمر هؤلاء إلى الذين يقولون بألوهية المسيح ومساواته للأب فى المجمع النيقاوى والذين وافقوا فى ألوهية المسيح فى المجمع النيقاوى كرها رجعوا ونادوا ببطلان المساواة فى الجوهر فأقام لهم قسطنطين مجمعا فى (أنطاكيا) وهذا المجمع نصر مذهب (اريوس) وأبطل رأى خصومه الذين يسمون (مستقيمى الرأى . ارثوذكس) . فهؤلاء الارثوذكس لعنوا المجمع الانطاكى كما لعن الاريسيون المجمع النيقاوى واشتعلت نار العداوات والبغضاء بين الفريقين ومات (اريوس) فجأة ففرح الأرثوذكس لزعمهم أن ذلك بسبب دعاء (مكاريوس) وهو منهم ثم توفى قسطنطين سنة ٣٣٧ م بعد أن قسم الملك بين بنيه وكان (ماراتناسيوس) عدو الأريسيين المؤمن بألوهية المسيح مقيما فى النفى فطلب من الملكين (قسطنس) و (قسطنت) أن يؤلفا مجمعا آخر يحكم بين المجمعين النيقاوى والأنطاكى، فالأساقفة الشرقيون حذفوا لفظ (مساو للجوهر) والغربيون أثبتوا قانون المجمع النيقاوى

وحرموا الأريوسيين . ولما لم يتم شيء رأى البابا (ليباريوس) باذن الملك أن يجمع مجمعا رابعا في مدينة (ميلان) فأظهر العناد الأساقفة الغربيون ومن جملتهم البابا فنفاهم الملك ثم عقد مجمع خامس وحصل جدال حاد أربعة أشهر فأمر الملك (قسطنس) العسكر أن لايدعو أسقفا يبارح المدينة حتى يعلن إلغاء المساواة بالجوهر هنالك صارت النصرانية كلها على مذهب (اريوس) طوعا أو كرها لاعلى مذهب الأرثوذكس .

ولما مات هذا الملك نشطت ألوهية المسيح ثانيا ومساواته لله بالجوهر فأمر الملك (تيودوسيوس) حسما للنزاع أن يتبع النصارى عموما مذهب البابا (داماسيوس) وهو يقول بألوهية المسيح لأنه يريد محاربة البرابرة ومقتضى هذا حرمان الأريوسيين ولكن لكثرتهم تركهم أحرارا في مناصبهم فاحتال القديس (امفيلوك) إذ دخل يوما على الملك وعنده ولي العهد (أركاديوس) بن (تيودوسيوس) الملك فلم يؤد واجب الاحترام لولي العهد كالملك فنبهه الملك فلاطفه ولكن لم يحترمه كالملك وقال للملك كفي هذه الملاطفة وأما الاحترام الكلي فهو للملك فغضب عليه وطرده ، فقال وهو منطلق [مولاي أنت لا تطيق إهانة لاحقة بابنك وتغضب على من لايؤدى له الاحترام فكيف لا يمقت إله السموات والأرض من يكذب على ابنه الوحيد ولايؤدى له السجود ذاته الواجب للعزة الإلهية] فاتعظ الملك وشتت شمل (الأريوسيين) ونزع الحقوق المدنية من كل من لم يسلم بالقانون النيقاوي . فهذه حيلة (امفيلوك) أثبتت ماعجزت عنه تلك المجامع فبفضله تأسست عقيدة ألوهية المسيح وأيدتها السلطات كرها .

هذه هي عقيدة التثليث عند النصارى التي أخذوها عن قدماء المصريين وعن الهنود . فتثليث الهنود (براهما ، وفيشنو ، وسيفا) وتثليث الفرس (ارمزد ، واهرمان ، وميطرا) وتثليث المصريين (ازريس ، وايزيس ، وهوروس) ومثل هؤلاء الكلدانيون والصينيون والفيثاغوريون . فهؤلاء كلهم عندهم تثليث ولكن تثليثهم يرمي لغرض علمي . أما تثليث النصارى فهو تقليد أعمى بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

يقول النصارى إن الابن موجود من الأب والروح القدس منبثق من كليهما والأب عندهم بصورة شيخ هرم حاف لفه الشيب عابس الوجه غضوب والابن كشاب وديع يقدم نفسه ضحية لأبيه والروح القدس حمامة بيضاء مستقرة على كل منهما والروم الأرثوذكس يخالفون في قضية الانبثاق ويقولون لابد من التسليم الأعمى فهو ابن لكنه غير منبثق بل هو كالأب تماما . فههنا عزلوا العقل ، وقد يشبهون الثالوث بالشمس ونورها وحرارتها ، ومن العجب أن النار والحرارة طبعهما غير طبع الشمس . ويشبهونه أيضا بالمثلث وأضلاعه مع أن الأضلاع كل منها مستقل بنفسه . وقد يقولون هذه كالنفس البشرية وقوة فكرها وقوة حبها فالنفس تلد الفكر وتحبه . هكذا يلد الأب الابن ويحبه ، فالنفس صورة الأب والفكر صورة الابن والحب المتبادل بينهما صورة روح القدس وينقض هذا أن الحب أو الفكر ليس اقنوما متميزا في النفس بل يقال النفس وقواها متعددة وهي كثيرة (فكر وحب وخيال وتصور وإرادة وإحساس) أي أوصاف كثيرة . هذا كله من كتاب [المذهب الروحاني] الذي ختم المقام بقوله (لاجرم أنه لوتصور المسيحي قليلا بخلو الغرض في سر التثليث لخجل من تسليمه بضلال مبين كهذا) .

كيف ضل هذا الانسان وغوى وهل للتثليث أصل

هل لك أيها الذكي أن تقف على سر التثليث الآن لئلا تخرج في هذا المقام بلا علم . فهل كان هذا الانسان كله غبيا جاهلا وهل كانت هذه الأمم التي قامت بالعلم والحكمة أغبياء . اللهم لا ثم لا . إن الله هو الذي خلقهم وإن الله هو الذي علم الطيور والأنعام والحشرات . فهل يفعل هذا كله ثم يحكم على الإنسان وحده بالضلال التام . فلتعلم أن الحقائق حاصلة عند كل أمة غاية الأمر أنها تخلط بأوهام كما أن الأغذية التي يأكلها الحيوان مشوبة بأشياء غير مغذية فليس كل الحشيش غذاء . فليس الحشيش والكلأ فيهما من المادة

الغذائية ما فى الفول والقمح . كلا . فكما اختلطت مواد بالأغذية اختلطت أوهام بالحقائق لأن ذلك طبيعة أرضنا . أصل هذه المسألة أن الأمم القديمة نظروا فى هذا الوجود كله نظرة فقالوا هناك كائن أسمى يدبر هذا العالم فهو كأرواحنا وهذا المدبر الأسمى هو الذى اتصف بالقدرة والعلم فخلق ماهو أقرب إليه وهى القوة التى تسمى بلسان الشرع ملائكة فالقوة فى الانسان تشمل الحس والحركة . هكذا القوة فى العالم هى العقول والنفوس وبهما يكون نظام هذا العالم وتدبيره باحكام ولما وجدت هذه القوة بقسميها القوة العاقلة والقوة العاملة نتج منها أمر ثالث وهى المادة . فهنا إله وقوة ومادة . وههنا يصح الخلق. فجميع المخلوقات لاتتم إلا بإله وقوّة ومادة، والقوة المدبرة لهذا العالم قوة الله والعالم حاصل منه تعالى

فانظر فى مثال المصريين . جعل الأب صقرا وهو (عنخ) ولاجرم أن الروح كالطائر فهى حرة وجعل الابن شابا قويا . ولا جرم أن حركة هذا العالم لاتكون إلا بقوة وجعل المادة شيخا هرما وهذا حق . ولا جرم أن الانسان أيضا من روح وجسم مادى وقوة فى الجسم ، فتارة تقول هذا إنسان أى لهذه الثلاثة وتارة تنظر للحقيقة فتقول الانسان هو الروح والبقية تبعها . فالأمم السابقة جميعا يقولون بانبثاق الثانى من الأول وانبثاق الثالث منهما . إذن الإله الأول لاغير وكون كل من الثلاثة إلها هذا أمر مجازى جرى على ألسنتهم باعتبار أن الخلق لايتم فى هذا العالم المحسوس إلا باجتماع الثلاثة التى ترجع لواحد فى الحقيقة .

هذا هو كلام هذه الأمم كلها . ولقد رأيت فى الفتوحات المكية لابن عربى فى مواضع كثيرة مايفيد أن الإله له (إطلاقان) إطلاق يشمل ما هو أعم وإطلاق للواحد الأحد ، فهذا مجمل كلامه ، ولعله رحمه الله أراد أن الإطلاق العام إطلاق الأمم القديمة وبهذا اتضح المقام . فهذا التثليث هو المراد عند تلك الأمم فهو تثليث يراد به معرفة أصل العالم وأصل الخلق مع الاقرار لله بالوحدانية ولكن الأمم غيروا ونقلوه من المعنى الفلسفى إلى مايعرفه العامة فيعبدون (بوذا) و (عيسى) وأمثالهما فأين الثريا وأين الثرى .

فانظر لمسألة علمية اعتراها التبديل والتغيير وانتقلت من الفلسفة إلى آراء العامة الذين لايعرفون إلا من يعظمون من الناس فجاء الاسلام وقضى على هذه العقيدة ونظر إلى نفس موجد الخلق فأزال هذه الخرافات .

ثم إن القوة المذكورة فى اصطلاح علماء زماننا تسمى الأثير فالأثير عالم لانعرفه إلا بآثاره أو يقال هى قائمة بالأثير ، فترى الأثير فيه النور والكهرباء والحرارة والمغناطيس والمادة . كل هذه منبعها عالم الأثير والمادة ما هى إلا حركات فى الأثير ظهرت لحواسنا بهيئة خاصة فسميناها مادة ، وقد قال علماء الفلسفة القديمة قولا يشبه هذا فقالوا إن وجودها ضعيف أى دليله ضعيف ، انتهى تحقيق المقام ليلة الثلاثاء الثالث من شهر يوليو سنة ١٩٢٨ م وبه تم تفسير سورة مريم .

سورة طه مكية وهى مائة وأربع وثلاثون آية

وسيأتى فى الفصل الثالث من المقصد الثانى مناسبتها لما قبلها من السور وهى (ثلاثة مقاصد) .

[المقصد الأول والثانى] فى مقدمة السورة وقصة موسى عليه السلام إلى قوله تعالى « إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما » .

[المقصد الثالث] من قوله « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق » إلى آخر السورة . وفيه الحض على الدين الاسلامى وذكر خراب العالم وغير ذلك .

[المقصد الأول] من أول السورة إلى قوله «الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى» .

[المقصد الثانى] من قوله تعالى «وهل أتاك حديث موسى» وهو فصول :

[الفصل الأول] فى كلام الله لموسى لما رأى النار وما تبع ذلك من ظهور المعجزات إلى قوله تعالى «اذهب إلى فرعون إنه طغى» .

[الفصل الثانى] فى تعداد الله نعمه على موسى عليه السلام ، وفيه ملخص ما كان من تاريخه قبل ذلك وأمره هو وهرون أن يدعوا فرعون إلى قوله «والسلام على من اتبع الهدى» .

[الفصل الثالث] فى دعوة فرعون إلى قوله « وذلك جزاء من تزكى » وفى هذا الفصل محاورة موسى لفرعون بالقول أولا ثم العمل ثانيا باحضار السحرة له وسحرهم كما سيأتى .

[الفصل الرابع] فى ارتحال بنى إسرائيل من مصر وغرق فرعون وإضلال السامرى لقوم موسى بالعجل الذهبى إلى آخر هذا القسم .

المَقْصِدُ الأَوَّلُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طٰهٰ ۝ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۝ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

التفسير اللفظى

روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أعطيت السورة التى فيها البقرة من الذكر الأول وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة » ومعنى النافلة الزيادة .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طه) تقدم الكلام على هذه الحروف فى سورة (آل عمران) مطولا جامعا لعجائب وأسرار من العلوم ويقال إن «طه» معناه يا إنسان بلغة عك وهى قبيلة من قبائل العرب يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه الوحى بمكة كان يجتهد فى العبادة ويتهجد طول الليل فأنزل الله هذه الآية ليخفف عن نفسه ، فقال (ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى) بتأسفك على عدم إيمان قريش وكثرة اجتهادك فى قيام الليل . كلا . فلم ننزّله لذلك بل قم ونم وصم وأفطر وليس عليك هداهم وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، فلماذا هذا التأسف والشقاء بمعنى التعب ، وفى المثل العربى «أشقى من رائض المهر» ويقال «سيد القوم أشقاهم» أى أتعبهم وأنصبهم ثم قال (إلا تذكرة لمن يخشى) أى لكن أنزلناه عظة لمن فى قلبه رقة فينفعه الإنذار . نزل (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) جمع عليا تأنيث الأعلى (الرحمن على العرش استوى) تقدم الكلام على العرش فى سورة يونس وفى سورة هود مفصلا فان الله يدبر الأمر فى السموات والأرض وهذا التدبير مبنى على الحقائق الثابتة التى لامناص منها لحفظ هذا الوجود (له مافى السموات ومافى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) أى الطبقة الترابية وهذا دال على عظيم قدرته ، ثم أتبعه باحاطة العلم الذى لاتنفصل الارادة عنه والارادة تتبعها القدرة المذكورة فيما تقدم فقال (وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) أى وإن تجهر بدعاء الله وذكره فاعلم أنه غنىّ عن جهرك لأنه يعلم ماتسره فى نفسك وأخفى منه وهو ماتستتره فيها . إن الدعاء والذكر باللسان إنما شرعناهما ليتصور الداعى والذاكر المعنى فى نفسه لاليسمعنا صوته ولا فضل للنطق أو الجهر به إلا لمنع الشواغل الشاغلة لكم فى دعائكم عن حضور المعانى فى عقولكم ؛ «أسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم ب» المعانى «ذات» أى صاحبة «الصدور» (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) الحسنى تأنيث الأحسن ، حسنت أسماء الله لدلالتها على معان هى أشرف المعانى وأفضلها . انتهى التفسير اللفظى لمقدمة السور أو أسها وأصلها وهو القسم الأول من الأقسام الثلاثة فيها .

انظر أيها الذكى فى هذا القول وتأمل وتعجب فى الترتيب الجميل البديع :

(١) ابتدأ الله السورة بحرفين من الحروف التى تذكر فى أول السور وعددها (١٤) من ثمانية وعشرين حرفا . ولقد أبنا لك فى سورة (آل عمران) أن هذه الحروف من أسرار القرآن العجيبة وبدائعه الغريبة وأن عدد (٢٨) المقسم إلى قسمين هو عدد منازل القمر وفقرات الظهر للانسان وبعض الحيوان ومفاصل الكفين إلى غير ذلك . وهل أخبرك الآن بما جاء فى الأخبار الواردة من جمعية الأمم وأن هناك اقتراحا يقضى أن تجعل الشهور ١٣ بعد ١٢ لأجل صحة الحساب وما صحة الحساب ، فأجاب المهندس المخترع لذلك أن صحة الحساب أن يجعل كل شهر ٢٨ يوما ، لماذا ؟ ليسهل الأمر على الناس فيكون أول الشهر يوم السبت وينتهى بالجمعة وبتكرار ذلك ٤ مرات تصير ٢٨ وهذه صورته :

سبت	أحد	اثنين	ثلاثاء	أربعاء	خميس	جمعة
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨

ويكون هذا الجدول ثابتا كل شهر إلى الأبد لاتتغير أيامه ولا أعداده ، فأوله سبت وآخره جمعة لاتتغير إلى الأبد ، وضربنا ١٣ فى ٢٨ يكون العدد ٣٦٤ وذلك ينقص يوما عن السنة فيجعل فى كل سنة يوم واحد

لايسمى باسم من هذه الأسماء المعروفة ، وفى رأس كل أربع سنين يترك يوم آخر لأجل السنة الكبيسة لأن السنة (٣٦٥) يوما وربع يوم .

هذا هو الحل الذى قدمه المهندس لعصبة الأمم ، وقد أطنبت الأمم فى استحسانه لسهولة حسابه ولم يصل لمصر هذا الاقتراح إلا عند كتابة تفسير هذه السورة . ياعجبا كيف اتفق أن منازل القمر وفقرات الإنسان ومفاصل الأصابع فى اليدين وأمورا أخرى توافق فى أعدادها الحروف العربية والحروف العربية تجعل قسمين فى أول السور (١٤) ظاهرة و (١٤) خافية ، ثم كيف يقترح مقترح — سواء أعمل به أم لم يعمل — قائلا على رءوس الأشهاد فى أمم الشرق والغرب (أيها الناس ، إن عدد (٢٨) هو الذى يسهل فى حساب السنين) .

ثم انظر كيف كان الأسبوع أربع مرات هو عين عدد الحروف العربية ؛ وإذا كان مرتين فهو حروف أول السور وعدد الأسبوع عدد أولى لايقبل القسمة وعدد (٢٨) يقال له العدد التام وقد أوضحنا هذا تمام الإيضاح فى سورة (آل عمران) والعدد التام نادر جدا فى الأعداد وليس فى أعداد العشرات عدد تام إلا هو وما مثل العدد التام فى علم الأعداد إلا كمثل الأنبياء والحكماء فى الناس ، فانظر كيف ترى عدد ٢٨ نال التمام فى نفسه وحسن النظام فى نتائجه . ثم انظر كيف كان هذا الاقتراح قد جعل السنة ١٣ شهرا وهذا العدد عينه هو الذى حدده القمر لأن القمر فى السنة كلها يدور (١٣) دورة لأنه فى كل شهر يقطع الفلك دورة وجزء من دورة وفى تمام الأشهر يكون تم ١٣ دورة . ثم انظر كيف كان هذا الاقتراح قد جعل فى كل أربع سنين يوما لأجل السنة الكبيسة وعدد ٤ المذكور هو عينه الذى يضرب فى ٧ كما تقدم وهو واضح فى أوائل السور إذ هى من ٢٨ حرفا مجزأة ١٤ و ١٤ من قسمة ٢٨ على اثنين . فهذه القسمة تذكرنا بعدد ٤ المضروب فى ٧ وعدد ٤ فى السنة الكبيسة .

وإنما ذكرت لك هذا فى هذا المقام لترجع إلى ماذكر فى أول (آل عمران) وتدرسه . ومن عجب أن تكون أدوار القمر موافقا عددها لعدد الأشهر المذكورة « إن ربى على صراط مستقيم » .

نقول : ابتدأ الله السورة بهذين الحرفين تذكرة بتلك العلوم الجمة الجليلة الفلكية والطبيعية والانسانية يقول الله « طه » أى أذكركم بهذين الحرفين جميع حروف أول السور التى جعلناها رمزا لعلوم هذه العوالم كلها من تشريح وفلك وحساب الشهور والسنين وغير ذلك ، أذكركم بذلك لتكونوا « خير أمة أخرجت للناس » وليس يمكن أن تكونوا «خير أمة أخرجت للناس» إلا أن تكونوا أعلم منهم لأنكم « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» أى إنكم تجمعون إلى قوة الأدب والأخلاق الفاضلة قوة العلم والعلم هو ماأبرزته فى هذه العوالم العلوية والسفلية وقد رمزت لها بهذه الحروف ، وإن أردتم إلا التصريح فاسمعوا ما أتلوه عليكم بعد ذلك .

(٢) ذكر خلق السموات والأرض وهما عبارة عن أصول العوالم التى نحن فيها ومبادئها .

(٣) وأتبعه بذكر أنه استوى على عرش ملكه بالتدبير والنظام الحسن فى أربعة أشياء التى هى :

(ا) مافى السموات .

(ب) وما فى الأرض كالدواب والنبات والحشرات والأنهار .

(ج) وما بينهما كالهواء والطير والسحاب .

(د) وما تحت الثرى وهى الطبقات الأرضية المذكورة فى سورة (الأنعام) وفى غيرها .

(٤) ثم قال إياكم أن تظنوا أن هذه جاءت مصادفة ؛ كلا فانى لا أعمل إلا إذا أردت ولا أريد إلا على مقتضى العلم ، فالعلم تتبعه الإرادة والارادة يتبعها العمل بالقدرة .

إن على محيط بالعوالم العلوية والسفلية كما هو محيط بسركم وجهركم . فأنا أعلم السموات والأرض ، أعلم الأمور الأربعة التى فيهما وأعلم جهركم وسركم وما هو أخفى من سركم ، وإذا كان الأمر كذلك فأنا لا أدع صغيرة ولا كبيرة إلا حسبتها ودققت فيها فلم أذر من صغيرة ولا كبيرة ، وها كم ماذكرته فى أول سورة (طه) فانها تدعو لتفكركم فى الحروف وسرها وهذه تدعوكم للنظر فى علم الحساب والفلك وفى التشريح وغيرها فها أنا ذا لم أذر شيئا إلا نظمته . وإذا كانت الحروف التى تجرى على ألسنتكم قد اتصل حسابها بحساب الأفلاك والطبيعة والتشريح (وبعبارة أخرى) إن العالم كله كنفس واحدة ونظام واحد فانى أدل بالأعلى على الأسفل وبالأسفل على الأعلى .

أيها الذكى . انظر كيف يذكر الجهر بالقول والاسرار به فى مقام تعداد مافى السموات وما فى الأرض يذكره مشيرا إلى أن القول فيه مناسبة للعوالم كلها . فنظام حروفه كنظام العوالم ومعانى الكلام تنطبق على العوالم . إن هذا الانسان أمره عجيب . مخلوق صغير ولكن عقله كبير ، يختصر العوالم كلها فيضمها فى عقله كأنه عالم كبير والحروف التى ينطق بها تكاد تظهر سر السنين والحساب «إن ربى لطيف لما يشاء» .

لقد علمت أيها الفطن أن العوالم التى بين السموات والأرض المذكورة وأهمها هذه السلسلة الإنسانية والحيوانية والنباتية والمعدنية وهى مذكورة فى سور كثيرة فى القرآن ، وقد ذكرت فى سورة الحجر وكذا فى سورة النحل مرتين كما أوضحناه هناك . وهاهى ذه تذكر الآن بطريقة مختصرة فذكرها هنا إجمالا بقوله «وما بينهما» وسيأتى قريبا فى هذه السورة فى قول فرعون «فما بال القرون الأولى قال» موسى «علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى» ثم أخذ يشرح الأرض وأنها مهدت وأن فيها سبلا وذكر إنزال الماء من السماء وخروج النبات من الأرض وذكر الأنعام ثم أتبعها بذكر أولى العقول وأنهم يحيون ويموتون ثم يخرجون وهذه القصة هى قصة العالم والتاريخ الطبيعى الذى يدرسه أهل الشرق والغرب الآن فى المدارس كلها ، اللهم إلا فى كثير من بلاد الشرق فان الفرنجة يخافون من رقى المسلمين بهذه العلوم فحذفوها من نظام المدارس إلا قليلا فى بلادنا المصرية بحيث ترى أن هذه العلوم قد حذفت ولم يبق منها إلا النزر اليسير بعد دخول الإنجليز بلادنا ، وسيكون إن شاء الله للأمة الاسلامية مستقبل زاهر بهذه العلوم وسنزيد هذا المقام بيانا قريبا فانتظره فسينشرح صدرك بما تقرأ من نظم به تقرأ نظام هذه الدنيا مختصرا .

جوهرة فى قوله تعالى «طه ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى» إلى قوله «وما تحت الثرى»

وفيها [بهجتان : البهجة الأولى] فى رمز هذين الحرفين (طاء . هاء) .

[البهجة الثانية] فى قوله تعالى «تنزيلا ممن خلق الأرض» الخ .

البهجة الأولى فى «طه»

تقدم الكلام على هذه الحروف إجمالا فى أول سورة [آل عمران] فأما الكلام على الطاء والهاء هنا فهاك مافتح الله به على يوم الخميس ٨ ديسمبر سنة ١٩٢٧ ضحى وأنا أقرأ فى سورة [طه] . ذلك أن هذه السورة جاء أكثرها فى قصص موسى عليه السلام وصدرت بمقدمة محصلها يرجع إلى أن هذا القرآن نزل تذكرة لمن يخشى وأن الذى أنزله هو الذى خلق الأرض والسموات العلى وله جميع السموات ومابينها وبين الأرض والأرض وماتحت الأرض وأنه يعلم السر وأخفى من السر . هذه هى المقدمة ، فالمقدمة ترمى إلى قراءة دروس هذه العوالم وأن القرآن إنما أنزل لذلك فهو منزل لدراسة العوالم التى نراها والتى نعرفها بعقولنا حتى نعرف بعض السر المذكور . إذا علمت هذا فهمت بيت القصيد من قصة موسى المذكورة بعد ذلك . إن القصص إنما يذكر لإيضاح المقدمات قبله وللاستشهاد عليها ؛ فانظر الآن إلى تلك القصة فانك تجدها قدحوت

مسألة السحرة وأنهم آمنوا بموسى لما عرفوا أنه أتى بما لم يأت به السحرة فعرفوا أنه من عالم فوق عالم السحرة لذلك آمنوا ، أما بنو إسرائيل فهم قوم جهلاء فكيف يعقلون أمثال هذا فكان إيمانهم ظاهريا وقتيا كاسيأتى إيضاحه . ثم إن الحديث مع فرعون يرجع إلى معرفة الله بما يشبه ما ذكر فى المقدمة المذكورة من كونه جعل الأرض مهدا وأنزل الماء من السماء وأخرج به النبات يأكل منه الانسان والحيوان . وهذه هى العلوم العامة فى السموات والأرض أى العلوم الرياضية ومنها علم الفلك والعلوم الطبيعية ، وبهذه العلوم ونحوها عرف السحرة مقام موسى عليه السلام إن المقصود هو هذه العلوم فبها عرف السحرة فآمنوا وأيقنوا وهى التى لأجلها أنزل القرآن . ويقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كله « وقل رب زدنى علما » .

انظر بعد ماقدمته لك فانك تجد هذا كله يرجع إلى أمرين اثنين لا ثالث لهما الأول أن الله خصص لكل مخلوق أوصافا خاصة وأحوالا ومنافع والثانى أنه هدى الحيوان منه إلى ماخلق له وما فيه نفعه وهذا قوله تعالى « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » وكقوله تعالى « الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى » وهذه فيها الطاء أولا والهاء ثانيا فى أعطى وهدى فكأنه يقال إن القرآن يراد منه دراسة سائر العلوم وسائر العلوم هى التى جاءت فى محاورة فرعون وموسى كما جاءت فى مقدمة السورة ويجمعها كلها أعطى وهدى وهذان يجمعها [طه] . فاذن الطاء والهاء يرمز بهما إلى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وهكذا كل علم فى الدنيا لأنها كلها ترجع إلى هذه الجملة .

لماذا نزل هذان الحرفان أى « طه » فى أول هذه السورة

اعلم أن الله علم أن المسلمين سينامون نوما عميقا فيكتفون من الدين بقشوره ويظنون أن الصلاة والزكاة وما بعدها كافيات فتأخذهم الأمم وتذلهم وتسومهم سوء العذاب فأنزل الله هذين الحرفين ليجد المسلمون فى البحث عن السر فيجدون أنهما رمز لأن يقرءوا جميع العلوم . وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقال له إن القرآن لم يقتصر على أنك تكثر الصلاة وتشق بالتعب والنصب فى العبادة بل هو جاء أيضا ليخرج أمما من جهلها ويعلمها فتصلى بما لك وتقرأ العلوم . كل هذه المعانى تؤخذ من « طه » وهناك أيضا (ها) فى قوله تعالى « منها خلقناكم » الخ مكررة ثلاث مرات وفى قوله « كلها » كل ذلك جاء بعد قوله « أعطى » .

ومن عجب أن يجىء فى أسباب النزول أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعب ويشق بكثرة الرياضة والتهجد والقيام على ساقه فقيل له ماذكر كأنه يقال ليست العبادة وحدها هى المقصودة بل هناك التذكرة وقد فهمتها فيما قدمناه أن المسلمين اليوم اكتفوا بالعبادة اللفظية فعليهم أن يتذكروا بدراسة العلوم كلها . انتهى .

تذكرة

(نور على نور فى نظام القرآن)

سيقول قائل كيف يجعل بيت القصيد هنا قوله تعالى « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » أقول إن الذى ظهر لى من القرآن أنه يفعل فى العقول فعلا خفيا أشبه بما يقصده [كتاب الأدب] من جعل النصائح مندمجة فى قصصهم اندماجا حتى يسحر السامع سحرا لأن المعنى دخل فى غضون القصص والحكايات كأنه غير مقصود ليثبت فى العقول ثبوتا لاتزعزعه السنون ، وأضرب لك مثلا سورة « إذا الشمس كورت » فيها ١٤ فاصلة جاء فى وسطها هاتان الفاصلتان « وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » فلما نزل القرآن وسمعه العرب سمعوا جملا متناسقة يذكر فيها تكوير الشمس وانطفاء نور النجوم وتفتت الجبال وهكذا ولكنه فاجأهم فيها بحكمة وهى مسألة الموءودة فارتاع العرب لذلك وحرم وأد البنات إلى الآن . فانظر لهذا السحر الحلال

لأجل

لأجل جملة أدخلت بحكمة فى وصف انقضاء العالم حفظ نصف الإنسان من الوأد وذلك لا يكفى فيه دول وأمم وجنود . فبمثل هذا تساس الأمم ، وبمثل هـــذا يكون التأثير . أسأل الله أن يرزقنا السير على هذا المنوال فى الإرشاد .

يا أمة الإسلام هذا ماحصل من إصلاح الأخلاق ونظام المجتمع بحسن الإلقاء وسحره ونظام الترتيب ونحن الآن لانئد البنات ولكننا أحيينا البنات ووأدنا عقولهن وعقول الرجال فضل الله لنا مافضله لآبائنا سواء بسواء ، إذ جاء بسورة (طه) وذكر قصة موسى ومحاورته لفرعون . وفى أثناء ذلك كله بينما المسلم سائر مع القصة إذا به يفاجأ بجملة تحث على العلوم كلها وجعلها من موسى لفرعون لامن محمد صلى الله عليه وسلم لأمته . فلم يقل الله لنا تعلموا العلوم التى تدل على هذه المعانى . كلا بل ألقاها بهيئة بعيدة عن الأمر وعن قصد مخاطبة الأمم الحاضرة ، فهل أيها المسلمون تفعل فى عقولنا أمثال هذه مافعلته آية الموءودة . أنا أظن ذلك وأنا به من المؤمنين . انتهت البهجة الأولى .

البهجة الثانية فى قوله تعالى « تنزيلا ممن خلق الأرض » الخ

ههنا ذكر الأرض مرتين : مرة أولا قبل السماء ومرة آخرا بعد السماء . واعلم أن الكتب السماوية لاتقدم كلة ولا تؤخر كلة إلا لحكمة وللمدار على الفهم والفهم فى كل زمان بحسبه وهذا زمان انكشاف بعض الحقائق ، فقوله «تنزيلا» يفيد أن هذه العلوم والمعارف قد كانت فى منزلة شريفة وأراد الله أن ينزلها لمنفعة أناس فى منزلة أسفل فلذلك ذكر الأرض . فالتنزيل يناسبه المحل الأسفل وهذه الأرض أول سلم لنا تخرج منها إلى عالم السموات ولذلك قال «والسموات العلى» جمع عليا والعليا مؤنث الأعلى كما يقال دنيا ودنا وقربى وقرب ، فالعلى جمع لمؤنث أفعل التفضيل . ففى العلى معنى التفضيل أى الأعلى من غيرها . فالله نزل العلم من عالم الجمال والكمال على نبيه لهذه الأرض التى وصف الله لأهلها السموات بأنها ذات علو عظيم ليشوقهم إلى الصعود إليها فما أنزل إليها العلوم إلا ليرفعهم من محل سقوطهم إلى أعلى العلا يوما ما فقوله «العلى» كالمقابل لوصف ملحوظ فى الأرض يضاده وهو الانحطاط ولم يبق بعد هذا إلا أن يعبر عن تلك العظمة فأبان أنه ذو رحمة واسعة فهو وإن جمع بين الضدين علو وسفل وسماء وأرض فليس معنى هذا أنه حرم أهل الأرض من الرقى كلا فلذلك قال إنه رحمن أى كثير الرحمة وإذا استوى كثير الرحمة على عرش الملك كانت أعماله كلها موجهة لسعادة أهل مملكته . وكيف يدوم الملك إلا لمن رحمته واسعة . وكل ملك فى الأرض ليس قائما على الرحمة سريع الزوال، ولذلك وصف الله المؤمنين بقوله «رحماء بينهم» أى ليدوم ملكهم فالرحمة موجهة من بعضهم لبعض ورحمة الله موجهة للملك كله . ولذلك لما طغى المسلمون وعكفوا على الشهوات والمال وجعلوا فتح البلدان لشهوات أنفسهم أخذ الله منهم ملكهم وشرد أكثر ممالكهم ولم يبق منها إلا الممالك التى اتصف أهلها بعطف بعضهم على بعض . والدليل على ذلك ماحصل فى أيام حرب المسلمين بالأندلس فى فرنسا فان القوم لما شغلوا باقتسام الغنائم فى إحدى الوقائع تألب عليهم القوم فأجلوهم عن البلاد ولهذا نظائر كثيرة تقدمت فى هـذا التفسير وسيأتى إيضاح كثير من ذلك فى مواضع إن شاء الله تعالى . فالتعبير بلفظ الرحمة فى أمر الاستواء على العرش يفيد معنى بقاء الملك ولذلك نجد ممالك الحيوان والنبات والإنسان لاتزال باقية بسبب الرحمة التى بثها الله فى الذكور والإناث فيتحاب الصنفان كما قال تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فالمودة والرحمة هنا جزئية منزلة من الرحمة العامة المذكورة فى قوله تعالى هنا «الرحمن على العرش استوى» فانه لولا الرحمة المنبثة فى قلوب الذكران والإناث من الحيوان تلك الرحمة التى تبعث الفريقين على الاقتراب ثم الحمل وهكذا الرحمة التى تحصل فى قلوب

الأمهات تحريتها من بيض يحضنه الطير وفرخ يقدم له مايناسبه وفلو أو عجل أو جرو أو طفل يرضع كل من أمه بما بينهما من المودة والرحمة كما فى الحديث (إن ٩٩ من الرحمة باقية للآخرة وفى الأرض رحمة واحدة عمت الناس والبهائم بحيث ترفع الفرس حافرها عن ولدها خيفة أن تصيبه) والحديث تقدم بلفظه فى موضع آخر .

أقول لولاهذه الرحمة لم يبق على الأرض حيوان ، فبقاء هذه الممالك ببقاء الرحمة ومن مقتضيات الرحمة بين الزوجين دوام المعاشرة وعلى مقدار قصر المودة بينهما يكون النقص فى أمر النظام المنزلى كما ينقص ملك الدولة أو يذهب من الوجود بذهاب المودة العامة فى الشعب . هـذا مايشير له قوله تعالى هنا «الرحمن على العرش استوى » ومن هذه القاعدة أنه صلى الله عليه وسلم «بالمؤمنين رءوف رحيم» ولذلك دام ملك المسلمين حين داموا على شريعته ، فلما انحرفوا ضاع مجدهم لزوال الرحمة من قلوب الأمراء وحلول الشهوات محلها كما قال تعالى «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا» .

ولما ذكر العرش والاستواء عليه أخذ يشرح العوالم التى استولى عليها فبدأ بأهمها وهى السموات بخلاف إنزال القرآن فانه من عالم أعلى إلى عالم أدنى كما تقدم، ثم ثنى بالأرض لأنها أدنى منزلة لمقام تعداد الممالك غير بيان المكان الذى أنزل القرآن لأهله وقوله «وما بينهما» دخل فى ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العلم المسمى (الآثار العلوية) وهو من علوم الطبيعة قديما وحديثا وقوله (وما تحت الثرى) يشير لعلمين لم يعرفا إلا فى زماننا وهما علم طبقات الأرض المتقدم مرارا فى هذا التفسير وعلم الآثار المتقدم بعضه فى سورة يونس والآتى بعضه فى سورة سبأ وأن قوله هناك «يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها» يشير إلى ما ظهر فى بلاد اليمن التى تشتمل على (سبأ) فلقد ظهرت هناك نقوش ومدائن لم تكن معروفة من قبل ، وظهر (سد العرم) وسيأتى رسمه . كل ذلك والمسلمون لاعلم لهم بذلك مع أنه فى بلادهم وعلى مقربة منهم . فالله هنا يقول (وما تحت الثرى) ليحرض المسلمين على دراسة علوم المصريين التى تظهر الآن تحت الثرى المذكورين فى هذه السورة وأن سحرتهم شهدوا بصدق النبوة الموسوية لأنهم وجدوا علما فوق علمهم وهو علم النبوة . فجدير بعلوم هؤلاء أن تدرس وتعلم . لهذا كله قال (وما تحت الثرى) .

واعلم أن الأمم الأوروبية اليوم يقرءون علما يسمى [علم الآثار المصرية] فهو فن خاص وقد انتشرت الآثار هناك فى زماننا ويسمى (علم الاجيتولوجى) .

لمحة نورية علوية فى ليلة الجمعة ٢٩ يونيو سنة ١٩٢٨

استيقظت قبل الفجر فنظرت النجوم فى الظلماء تتلألأ وحضر فى خيالى مامر بك فى هذا التفسير من الجمال الرائع والمجد الشامخ والعلم الواسع والشموس التى لاحد لوصفها ولا غاية لعدها وليس نظر الانسان يحيط إلا بثلاثة آلاف منها . ومن هذه النجوم شمسنا وهى بالنسبة للجوزاء كجزء من ٢٥ ألف ألف جزء كما تقدم فى آخر سورة (الكهف) ثم وازنت بين المجد العالى وبين هـذه الأرض التى تعد بالنسبة لتلك العوالم كالعدم المحض فهالنى الأمر وخطر لى أن نقصان بنى آدم وعداواتهم وأنواع المصائب والشقاء المحيطة بهم تبلغ فى كثرتها مبلغ عظمة النجوم وسعتها وبعبارة أخرى أن الكوكب كلما كان أصغر كان عن الكمال أبعد وكلما كان أكبر كان أهله إلى الكمال أقرب وعلى ذلك يقاس نقصنا نحن بعظمة هذه العوالم . نحن الآن لسنا أهلا لاستيعاب إدراكها فيكون نقصنا على مقدار كمالها . وبعبارة أخرى يكون الشقاء فى الأرض والحرب والضرب بينهم على مقدار قصور قرائحهم الناسب لحقارة كوكبهم عن فهم هذه العوالم ، ثم فكرت فى هذه المعانى فوجدتها خيالا فى خيال لاتستند لهاولا دليل عليها ثم تذكرت أن ذلك قد تقدم فى سورة (آل عمران)

فى كلام

فى كلام روح الفيلسوف (غاليلى) حين استحضروها فانها أفادت أن العوالم العلوية فيها سكان عندهم نظام وحياة لايعقلها أهل الأرض وأن النفوس الانسانية ستنتقى هذه الأرض حين تخترق السموات العلى وتركب طبقا عن طبق ، وأبان أن تلك العوالم فيها من النظام مايبهر العقول . وأشار إلى حقارة الأرض وأنها ليست شيئا مذكورا . كل ذلك فى سورة (آل عمران) وهى طويلة فارجع إليها إن شئت . فمن هنا تبين لنا أن ذلك الخيال صادق من حيث سعادة أهل تلك الكواكب ولكن هذا البيان لم يكن إلامن علم الأرواح وهو وإن احتاج إلى مايقويه كاف فى مثل هذا المقام ويشير لهذه السعادة لسكان السماء قوله هنا «السموات العلى» وسيأتى فى هذه السورة «ومن يأت ربه مؤمنا قدعمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى» فذكر العلى فى السموات والدرجات العلى فى الجنات إشارة إلى ما ذكرناه من أن الجنة فى السماء وأنها محل السعادة وقد تقدم تحقيق هذا المقام فى سورة (آل عمران) وبيان أنه هل هذه هى الجنة الحسية أو مايشبه الجنة الحسية وأن الجنة الروحية أرقى من هذه ومما يناسب هذا المقام ماتقدم عن اللورد (أوليفرلودج) فى خطبته المذكورة فى سورة (آل عمران) إذ يقول فيها إنه موقن أن حولنا عوالم من الأرواح نسبتهم إلينا كنسبتنا إلى النمل وهم يهتمون بأمرنا فهذه الأقوال كلها تفيد معنى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وأن شقاء أهل الأرض محقق بسبب جهلهم وغرورهم . لذلك كله ترى الله أبان الطريق لنا هنا بأمرين : أولا أن ندرس العوالم الأرضية من نبات وحيوان الخ ثم العوالم العلوية من فلك ونفس وعقل ثم ندرس علم معرفة الله ثم نعلم الناس ما تعلمناه فأشار للأول بقوله «تنزيلا ممن خلق الأرض» وإلى الثانى بذكر السموات وإلى الثالث بالاستواء على العرش وإلى الرابع بذكر الأرض وما بعدها وهذا الترتيب هو كترتيب (الأسفار) للشيرازى فانظره .

تبين بهذا كله حقارة الأرض ومعظم أهلها وعظمة السموات وسكانها وسعادتهم . لذلك قال الله فى آخر السورة «وقل رب زدنى علما» يأمرنا أن نزيد فى العلم بالسموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

وإذ ذكرت سعادة أهل السموات والجنات وشقاء أهل الأرض وكان هذا القول إجمالا حسن أن أفصله بعض التفصيل بأمثلة حتى يستبين مافكرت فيه وهو أن كثرة الشقاوة لأهل الأرض على مقدار اتساع نطاق الجمال والسعادة والعظمة للسماء وسكانها فأقول :

أهل الأرض قسمان : متمدينون ومتوحشون ولكل شقاوة تخصه . أما المتمدينون فأمرهم معلوم لأن قارئ هذا التفسير مطلع عليهم ، فلنذكر إذن بعض المتوحشين منهم لنعرف سكان الكرة التى نحن عليها هل هم مستعدون كلهم أن يكونوا أمة واحدة سعيدة أم هناك عقبات طبيعية تمنع ذلك . جاء فى كتاب [علم الدين] لأستاذنا المرحوم على باشا مبارك فى الجزء الثانى منه ما ملخصه :

إن أهل السودان بأفريقيا يقولون إن الشياطين والملائكة يظهرون بين الناس فى صورة الآدميين والبهائم وغير ذلك ولهذا تراهم على جهلهم يعظمون بعض البرق والأنهار والجبال والصخور والغابات والأشجار وبيوت النمل وبعض الأحجار المنفردة عن غيرها وما أشبه ذلك ويحترمونها احتراما عظيما كاحترام غيرهم من الأمم لمقامات الأولياء والصالحين . ثم إن مشايخهم يعملون لهم تمائم وتعويذات على أشكال هذه الصور بقصد الحفظ من الأمراض والعاهات ويأخذون منهم فى مقابلتها جعلا عظيما . وفى تلك النواحى بلاد لايظهر أهلها للشمس مطلقا ولا يمشون إلا بالليل ، ومنهم من يعيش طول عمره فى البلدة التى ولد بها ولا يفارقها . وأهل تلك الأرض لايفرقون بين دين وآخر وكل الأديان عندهم على حد سواء وللشيوخ عندهم احترام عظيم ومحلات معتقديهم معظمة فيما بينهم لايدخلها غيرهم ولهم طرق لايسلكها إلا أولياؤهم يميزونها بأوتاد يدقونها وبعض آنية يضعونها على جانبى الطريق فاذا رأوا ذلك تحاموا المرور منه وسلكوا طريقا بعيدا عنه .

ومن الغريب أنهم إذا ماتت المرأة وهي حامل لاتدفن بل يرمى بها للطير والوحوش بخلاف التي تموت حين الولادة أو بعدها فإنها تدفن .

ومن عاداتهم أنهم إذا مات الزوج دفنوا معه زوجته كما أخبر بذلك أحد السائحين قال في أثناء عبارة له إن تعدد الزوجات بهذه الجهة غير ممتنع بل المدار عندهم على اتفاقهم على المهر إن كانت المخطوبة حرة أو القيمة إن كانت أمة، فمتى اتفقوا على ذلك أخذ الزوج زوجته وذهب بها إلى نسائه فتختلط بهن وتشرب الخمر معهن ويقمن جميعا بهيئة الوليمة وبعد الدخول بها أول ليلة تكون مع سائر نسائه في خدمة المنزل .

ومن عاداتهم أن من تلد من الزوجات أولا تكون هي المحترمة والمقدمة عليهن والمتكلمة في المنزل إلا أن هذا التقدم لايثمر لها إلا التندم لأنها هي التي تدفن مع زوجها لو مات في حياتها . قال بعض السائحين الذي شاهد موت أحد هؤلاء المتوحشين : لما ارتفع الصوت بالنحيب والبكاء من جميع النساء بين فقيههم موضع التربة فاحتفروها واسعة على قدر اثنين ثم أتى بمعز فذبحها وسلخها وقطعها بيده ثم أعطاهم أمعاءها وأطرافها فطبخوها وأكل منها مع بعض من حضروا وأعطى الحظية شيئا منها ، وأما مابقي من اللحم فقطعه قطعا صغيرة وفرق منه بيده على جميع الحاضرين وأبقى منه بقية والصياح في كل ذلك مرتفع والبكاء لاينقطع فلما أكلوا قام ذلك الفقيه إلى تلك الحظية وقبض على يدها وسلمها إلى اثنين من العبيد فأوثقوا يديها وجعلوها خلفها وطرحوها على الأرض على ظهرها ووضعوا على قلبها خشبة وقعدوا فوقها وصار كل منهم يشكىء على الآخر حتى تهشمت عظامها ثم رموا بها في القبر ووضعوا زوجها فوقها ثم أتوا له بما بقي من اللحم فوضعوه بجانبهما ثم أهالوا التراب عليهما وعند ذلك انقطع البكاء والنحيب وتوجه كل منهم إلى منزله على العادة كأن لم يحصل شيء .

وإذا مات ميت يقومون ويأخذون من عبيده بقدر مايناسب مقامه فيطعمونهم من أحسن ماعندهم ويوصونهم بالقيام بخدمة سيدهم ثم يذبحونهم ويدفنونهم معه في قبر واحد ويدفنون معهم ماكان لهم في الدنيا من الفرش والأواني والثياب وجميع ماكانوا يستعملونه في حياتهم ثم يضعون عليهم حصير ويردون التراب عليها وبعد ذلك يصنعون على القبر عشة يدفنون في إحدى زواياها قطعة من الحديد يعلقون بها بعض سلاح الميت إن كان ذكرا ، فإن كان أنثى وضعوا معها ثيابها وماكانت تحبه في حياتها ، وبعد دفن الميت يأتون بطعام وشراب فيضعونه على قبره ظنا منهم أن ذلك تتغذى به روح الميت ويكررون ذلك حينا بعد حين إلى تمام ستة أشهر من دفنه .

وجاء في هذا الكتاب أيضا أن مملكة أشانتي الواقعة في سواحل بلاد الذهب لها أراض واسعة وهي قبيلة مقيمة في أرض واسعة بعيدة الحدود بحدها طولا من الغرب إلى الشرق أربع درجات وهو من (عامان) إلى (ولتا) وعرضها نحو ذلك وهو من حصن رأس (كورس) إلى ولاية (غرفان) وملك(اشانتي) هو الحاكم على جميع هذه الأرض ومن فيها من غير معارض لأمره ولا منازع له في حكمه . وعندهم طوائف ملحقة بالقديسين فلا يدخلون في أمور الدنيا ولا يختلطون بالناس بل يعتزلونهم ويقيمون في محال بعيدة عن البلد والعمران ويقولون إنهم يخاطبون القديسين ويسألونهم عن كل شيء أرادوا علمه فإذا أراد أحد أن يعلم حال من مات من أقاربه ذهب إلى أحدهم فيحضر له روح قريبه فيتكلم معها ويسألها عما يريده . وطوائف أخرى أقل منهم يعيشون معهم ويسألونهم عن كل ماسنح لهم كالذين يفتحون الكتاب أو يضربون الودع أو يقيسون الأثر ولهم براعة في التقاط أخبار الناس وتتبع أحوالهم ويعرفون حيلا كثيرة يعلمون بها كيف أخذت السرقة ومن سرقها

وفى أى موضع هى ويعملون لبعض النساء تمائم لحب أزواجهن وعدم اطلاعهم على أحوالهن وأفعالهن ونحو ذلك ووظائف الطائفة الأولى وراثية يدخلون فيها بطريق الإرث عن أسلافهم كما كان عليه كهنة المصريين فى الأزمان القديمة .

ولهم عيد يسمى (ايتام) تكون فيه أمور غريبة منها أن للملك يأمر بالخمور فتملأ بها حياض متفرقة فى البلد ويباح الشرب منها لكل أحد فلا يبقى فى البلد أحد من كبير أو صغير ذكر أو أنثى حر أو عبد غنى أو فقير إلا شرب منها حتى سكر ، وقد تحصل عليها مزاحمات عظيمة ومشاجرات كثيرة ترتفع فيها الأصوات فتختلط بدوى الطبول والبنادق فيكون مجموع ذلك أمرا هائلا وخطبا مزعجا لاتكاد تبلغه العبارة ولا ترى فى أزقة البلدة وشوارعها فى هذا اليوم غير سكران على الأرض مطروح ومزمل بقاذورات يتمرغ فيها كالحيوان المذبوح ومن عف عليه الذباب ومن تتشممه أو تلحسه الكلاب ومن يمشى فيقع على الأرض أو على غيره من أمثاله وهو معجب بأمره راض بحاله ويستمرون على ذلك إلى آخر النهار .

وفى هذا اليوم يذبح كل من الأمراء والأعيان بعض عبيده على أول خط من خطوط حرث زراعة النبات الموسوم باسمه هذا الموسم وهو الذى يقال له بلغتهم (ايتام) كما تقدم ، ومن كان فقيرا يأخذ رأسا من رءوس المذبوحين ويضعها فى أول خط من حرث أرضه .

ولهم أربعة أعياد فى السنة وعاداتهم فى كل عيد من تلك الأعياد الأربعة أن يعلموا به قبله يوم فيأخذون المزامير ويعلقون جماجم القتلى وعظامها على طبل عندهم كبير ثم يأتون بذلك إلى باب سراية الملك ويضربون بها أعلاما بذلك اليوم فكل من سمعه سواء كان من عائلة الملك أو غيرها صاح بأعلى صوته فتقوم البلدة على ساقها وتهرع السوقة من أسواقها فيضربون الدفوف والبارود ولا يزالون كذلك إلى الصباح يوم العيد فيركب الملك ويذهب إلى المعبد .

وقد وصف (هوتشيزون) السائح فى رحلته كيفية تقريب القرابين من الآدميين فى موسم اداى المذكور عند أهل الجهة المذكورة قال كنت بتلك الجهة فحضرت عيدا هناك يسمى (اداى) وكان فى شهر يناير الإفرنجى فتوجهت إلى الملك فرأيت بعض الضباط الملازمين له يدخلون عليه ويخرجون من عنده وبأيديهم سكاكين وأسلحة فأرسل أحدهم إلى أحد الأمراء ليخبره أن يحضر عند قبر أمه ثم ركب الملك وتوجه إلى القبر بعد أن أمرنى بالخروج من باب غير الذى دخلت منه ولم أعلم سر ذلك ، فلما وصل إلى القبر أمر بإخراج عظم أمه وإخوته من قبورهم فأخرجوها وغسلوها بالماء ثم نشفوها بمناشف من حرير وغمسوها فى (الروم) وهونوع من المسكر ثم نشفوها ثانيا كل ذلك بغاية الاحترام والتوقير، ثم قلبوها فوق تراب من ذهب وأحاطوا بها سبائك منه وقلائد من الحجارة والمعادن الثمينة ووضعوها على حافة القبر . وبعد ذلك أتوا بجميع المذنبين والمتهمين بعدم الرضى عن الملك فكان كل من أتى منهم ذبحوه على تلك العظام حتى سالت الدماء إلى القبر وفى هذه الليلة دارت سيافة الملك حول المدينة فكل من وقع بصرهم عليه أحضروه إلى الملك فيذبح وكان السبب فى هذا القتل والقربان على زعمهم هو أن الملك وقتئذ كان مستعدا لقتال بعض القبائل المحاربة له وكان الملك على حسب عادتهم فى ذلك يرى من الواجب قبل الخروج إلى القتال أن يخرج عظام أمه وبعض أقاربه من قبورهم ويفعل بها ما ذكر لاعتقاده أنه إذا فعل ذلك بهم كانوا راضين عنه وكانت أرواح مقدسيهم مساعدة له على أعدائه لكن لشهرة هذا اليوم وهذا الأمر قد يتخلص منه أناس كثيرون ممن رغب الملك فى قتله ، وكان من عادتهم فى ذلك العيد كباقى الأعياد أن يحضر فيه إلى تلك المدينة خلق كثير ولكنهم لعلمهم بهذه الحادثة لم يحضر أحد فكانت المدينة يومئذ خالية ليس بها إلا الملك وعائلته وأصحاب سره . فلما مضى جزء من الليل أمر الملك فوضع عظام والدته وأهله فى مقابرهم ورجع فى موكبه ومعه رؤساؤه وأمراؤه وأتباعهم

وعليهم ملابس الحرب وآلاته وأمام كل واحد منهم شعلة من نار فكانت البنادق وجميع آلات الزينة والرسوم الموكبية منشورة الأعلام وقد تقدمهم جماعة قد غلت أيديهم وعليهم الحرس وحولهم رجال تغنى بأنغام حماسية وفى عصر ثانى يوم أعادوا ذلك الموكب بعينه فوقف الملك فى الميدان الكبير وحوله الطبول وأرباب الموسيق فأمر بقتل أولئك المغلولين فصاروا يقتلونهم واحدا بعد واحد والآلات تضرب بأنغام عجيبة كأنها تقول القتل القتل . وكان أمامه إناء من خشب مملوءا نبيذا وكلما قطع رأس رقص له ثم فى آخر هذا اليوم دخل الملك سرايته اهـ .

إن أهل هذه المملكة يعيشون وحولهم الإنجليز والفرنسيون وسائر الافرنج وهم لايتعرضون لاعتقاداتهم ولا يمانعونهم فى إجراء رسومهم وعاداتهم فان ذلك يجر عليهم من عداوة الأهلين وغيظهم مالا يكون لهم معه راحة فلذلك ترى المقيمين فى تلك الجهات من الأمم الأوروبية لايعنيهم تغيير شيء من ذلك إذ المقصود لهم من الإقامة فى تلك الجهات إنما هو التكسب بالتجارة فيما يستخرج من أرضها من المعادن وسائر مواد التجارة وإرسال ذلك إلى الممالك الأوروبية واستبداله بما يرد منها إلى البلاد ، فلا يشتغلون إلا بتوسيع دائرة هذه التجارة لابتغيير العادات والمعتقدات إذ هذا مما لايتيسر لهم هناك فان هذه البلاد بسبب اتساعها وبعدها وصعوبة المرور والعبور بها لما فيها من الموانع كالغابات والخلجان ثم كثرة حرها وتغير هوائها وكثرة ما يعرض للأغراب من الإفرنج فيها بسبب ذلك من العلل الخطرة والأمراض المهلكة لايتأتى للدول الأوروبية أن تبعث لهذه البلاد بكثير من الناس والأجناد لمنع ذلك بالقوة القهرية والسطوة العسكرية لما اعتراهم فيها من الأمراض الكثيرة فكان فى كل سنة يموت قدر النصف ممن يرسل إليها من العسكر وغيرهم واتخذ الإنكليز بها طرقا كثيرة وتدابير متنوعة لانتشار الزراعة بها وتحسين أحوالها فلم ينجح إلا القليل منها فى بعض الجهات دون بعض وكذلك جددوا بها مدارس ومكاتب للذكور والإناث جمعوا فيها كثيرا من أهل البلاد فلم يترتب على ذلك للبلاد كبير فائدة لأن من تربى منهم ولم يمت فى عهد قريب آثر الإقامة بين من تربى عندهم على الاقامة بين أهله فى بلده لكراهتهم له وتبرمهم منه ولعلمه أنه إذا أتى إليهم مقتوه واحتقروه وإن تكلم بما يخالف عقيدتهم قتلوه . وكما فعلت دولة الإنجليز معهم كذلك فعل الفرنسيس والفلنك وغيرهم وقد غيرت كل من هذه الأمم مواضعها وانتقلوا من موضع رأوا فيه كثرة الأمراض إلى موضع ظنوا فيه جودة الهواء فخاب أمل الجميع وتحققوا عدم النجاح اهـ .

هذا ما لخصته من كتاب [علم الدين] من عادات هؤلاء السودانيين وهذه أخلاق طائفة من بنى آدم الذين هم أشرف سكان أرضنا التى ذكرت مع السموات العلى وأن الله نزل القرآن لأهلها .

يقول الله «والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا» الخ، ويقول «اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو» ويقول «لقد خلقنا الانسان فى كبد» ويقول «إنه كان ظلوما جهولا» .

فانظر جهالة هذا الانسان وسخافة أهل هذه الأرض كيف عظموا الأحجار والأنهار والقديسين فى نظرهم ثم تقربوا إلى الله بذبح الانسان حتى إن أم الملك إذا دفنت يترقب أحد عبيده شريفا يدخل معهم فيقتله ليكون دمه مطهرا لها . وكيف يجعل الملك يوما من أيام العيد خاصا بإهلاك كل من ظهر حتى من الأمراء والوزراء .

إن الله أودع هذه البلاوة فى صدورهم ليفنى بعضهم بعضا بطريق دينى أو غير دينى ليساعدوا الطاعون على تقليل عددهم لأنهم قوم إذا كثروا لا يقدرون على استثمار أرضهم لقلة الصناعات والعلوم فألهمهم الله أن يتقربوا أو يفتخروا بالاهلاك كما سلط الله البرد على الحشرات كل سنة فتبيد لئلا تهلك الحرث والنسل .

ولما

ولما كانت الأمم قديما لاعلم عندها كان الله يرسل لها الطاعون فيبيد جموعا كثيرة ولو بقيت لم يكفها القوت الذى عندها ولكن لما تعلمت الأمم كأهل بلادنا المصرية وأمكنهم الانتفاع بموارد الأرض أكثر لهم من الأطباء ليقللوا من انتشار الأمراض فكثر النسل فوجدوا قوتا حصل لهم بالعلوم والصناعات وهذا من انتشار العلم الذى تلقوه عن أوروبا التى عرفت ذلك قبلنا فكثر نسلها مع زيادة خصبها ونشاط أطبائها .

وهنا سؤال ، وهو هل هؤلاء القوم وأمثالهم فى أرضنا يقبلون الرقى حتى يكون الناس فى الأرض أمة واحدة فى المستقبل كما شرحته فى كتابى [أين الانسان] . أقول لما عثرت على هذا استبعدت ذلك لأن المانع الطبيعى منع الأمم المتعلمة من تعليم هؤلاء لأنهم يموتون فى بلادهم كما تقدم . ويظهر أنه لاسبيل إلى رقى أمثال هؤلاء إلا بارتقاء جيرانهم بطريق دين الاسلام مثلا وجيرانهم يعلمونهم بالتدريج .

هذه صفحة من أخلاق أهل هذه الأرض ذكرتها لما نظرت السموات وجمالها ووازنت بين جمالها وسعادتها وأنوارها الظاهرة لأعيننا وبين تعاسة أهل الأرض وشقاوتهم تبيانا لوصف السموات بالعلى ووصف القرآن بأنه منزل . كل ذلك للدلالة على شقوة أهل الأرض ولا مخلص لهم إلا بالعلم ، ويظهر لى أن الله أعدّ فى كل عالم من العوالم المنحطة شقاء لأهله على مقدار نقص كوكبهم فيكون ذلك الشقاء والمذلة باعثا على أنهم يودون أن يتخلصوا من ذلك الكوكب ويتشوّقون إلى عوالم أرقى كما نتشوّق نحن الآن والله هو الولى الحميد .

المقصد الثانى من السورة

والكلام على الفصل الأول والثانى من فصوله الأربعة

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى • إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى • فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى • إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى • وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى • إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى • إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى • فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى • وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى • قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى • قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى • فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى • قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى • وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى • لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى • اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى • قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى • وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى • وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى يَفْقَهُوا قَوْلِى • وَاجْعَلْ لِى وَزِيرًا مِنْ أَهْلِى • هَارُونَ أَخِى • اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى • وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى • كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا • وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا • إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا • قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى •

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى • إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى • أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ
فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِى وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى
وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى • إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ
كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ
فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى • وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى • اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ
بِآيَاتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى • اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى • فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى • قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى • قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِى
مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى • فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ
قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى • إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ
عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى • قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى • قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ
ثُمَّ هَدَى • قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى • قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا
يَنْسَى • الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى • كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى
النُّهَى • مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى • وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا
كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى • قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى • فَلَنَأْتِيَنَّكَ
بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى • قَالَ
مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى • فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى •
قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ
افْتَرَى • فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى • قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ
أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى • فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ
ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى • قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِىَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ
أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى • قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى •

فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ
سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ
وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى
مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *
إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى *
إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا
قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى * وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى
فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا * لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى * يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ
قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ
وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَنْ
يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى *
وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى *
قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ
أَسِفًا * قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ
يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا
وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِىُّ * فَأَخْرَجَ
لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا
يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ

إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري • قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى • قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا • ألا تتبعن أفعصيت أمري • قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي • قال فما خطبك يا سامري • قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي • قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا • إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما •

﴿ التفسير اللفظى ﴾

اعلم أن هذه السورة من أوائل السور التى نزلت ولذلك أنزل عليه قصة موسى ليأتم به فى تحمل أعباء الرسالة ومشاقها فقال تعالى (وهل أتاك حديث موسى إذ) ظرف لحديث (رأى نارا) ذلك أنه استأذن شعيبا عليهما الصلاة والسلام فى الخروج إلى أمه وخرج بأهله من مدين إلى مصر فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت أيام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل فى شهرها لايدرى أليلا تضع أم نهارا فسار فى البرية غير عارف لطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربى الأيمن وذلك فى ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد فأخذت امرأته فى الطلق فأخذ زنده فجعل يقدحه فلا يورى فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لأهله امكثوا) أقيموا (إنى آنست نارا) أى أبصرت نارا (لعلى آتيكم منها بقبس) أى شعلة من النار أو جمرة (أو أجد على النار هدى) هاديا يدلنى على الطريق أو يدلنى على الله تعالى. وتوجيه المعنى الثانى أن الأبرار مفطورون على التوجه لمعرفة الله تعالى فهم ينشدونها فى كل زمان ومكان لأدنى مناسبة وقلوبهم أقرب لذكر الله إذا رأوا نورا مشرقا فهم يذكرونه عند الغروب والشروق فكان طلب موسى لمن يهديه لربه حين نظر النور أمرا أوجبته فطرته فقال «أو أجد» فوق المكان القريب من النار هاديا فالمستعلى هو الهادى المترقب والمستعلى عليه المكان القريب من النار (فلما أتاها) أى النار وجد نارا بيضاء تتقد كأضوء ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار وكانت شجرة عليق.

قيل إن موسى عليه الصلاة والسلام كان كلما دنا نأت عنه الشجرة وإذا نأى دنت منه فوقف متحيرا وسمع تسبيح الملائكة وألقيت عليه السكينة، فهنالك (نودى ياموسى) قال من المتكلم؟ قال (إنى أنا ربك) فوسوس إليه الشيطان لعلك تسمع كلام الشيطان ، فقال أنا عرفت أنه كلام الله بأنى أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء ، وهذا معناه أن المعانى ألقيت على روحه ثم أشرب بها قلبه إشرابا حتى فاضت على الحس المشترك والحس المشترك هو القوة المودعة فى الدماغ التى هى قابلة لما يرد من الحواس من العلوم فتوصله للعقل وهنا عكس الأمر فجاء العلم من داخل النفس وانتقش فيها ، فلهذا رمز بأنه من جميع الجهات أى أنه ليس من جهة خاصة بل من النفس والنفس لاجهة لها بل هى أمر فوق الجهات كلها كما أن الله ليس فى مكان بل كل

مكان تحت أمره . ثم أمره أن يخلع نعليه احتراما للبقعة المقدسة فقال (فاخلع نعليك) وعلل ذلك بقوله (إنك بالواد المقدس) المطهر (طوى) عطف بيان للوادى وفيه تنبيه أن قابلية العلم لاتكون إلا مع أمرين : طهارة النفس من الخبائث كما خلع موسى نعليه اللذين هما من جلد حمار ميت غير مدبوغ كما روى مرفوعا ، وخلع النفس من التعلق بمتاع الدنيا الذى هو العائق عن تحصيل العلم ولذلك أردفه بقوله (وأنا اخترتك) اصطفيتك للنبوة (فاستمع لما يوحى) للذى يوحى إليك (إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى) ولا تعبد غيرى (وأقم الصلاة لذكرى) أى لتشغل قلبك ولسانك بذكرى بعد مافرغتهما من علائق الدنيا.وأنت فى مكان طاهر كما يشير إليه خلع النعلين فى الوادى المقدس (إن الساعة آتية) كائنة لا محالة (أكاد أخفيها) أقرب أن أخفيها فلاأقول إنها آتية وإنما أخبرت بها لأقطع الأعذار. وفى قراءة أخرى بفتح الهمزة أى أظهرها ومآل المعنى واحد لأنه إذا قرب من إخفائها أو قرب من إظهارها كان المعنى أنها لم تظهر ولم تخف أى هى مبهمة على الناس حتى يكونوا على حذر . يقال خفاه أظهره وأخفاه ضده ، ثم قال (لتجزى كل نفس بما تسعى) متعلق بآتية (فلا يصدنك عنها) فلا يصرفنك عن التصديق بمجيئها (من لا يؤمن بها واتبع هواه) ميل نفسه إلى لذاته المحسوسة فقصر نظره عليه ولم يطلع على دخيلة النفوس والعقول والأمور العجيبة (فتردى) فتهلك (وما تلك بيمينك ياموسى) تلك خبر ما: أى أىّ شىء، هذه حال كونها كائنة بيمينك ياموسى وذلك للإيناس ورفع الهيبة للمكالمة وللتنبيه أن المعجزة تقع بعد التثبت (قال هى عصاى أتوكأ عليها) أعتمد عليها إذا عييت أو وقفت على رأس القطيع (وأهشّ بها على غنمى) وأخبط الورق بها على رءوس غنمى، وقرىء «وأهسّ» من الهس وهو زجر الغنم أى أنحى عليها زاجرا لها (ولى فيها مآرب أخرى) حاجات أخر فاذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته وإذا قصر الرشاء وصله بها وكان يقتل بها الحيات ويحارب بها السباع ويستظل بها ، وقد ذكر المفسرون عن قصص بنى إسرائيل أن شعبتها بالليل كانا تستعملان كشمعة وتصيران عند الاستقاء كالدلو وإذا ركزها نبع الماء بركزها ونضب بنزعها وهى تورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة . وكل تلك الروايات لا تفيد فى الآية ولا العلم ولكنها تمثل سواء أصحت أم لم تصح عجائب الطبيعة لأنها هكذا خلقت فهى تكون غصنا ثم شحما يصير شمعا ثم دلوا إذا كانت جلد حيوان . فهذه العجائب حاصلة فى الدنيا سواء أجاءت على يد موسى أم لا .

إن الناس يعجبون لعصا تنقلب حية تارة وشجرة أخرى وشمعا آونة وهكذا وهم فى الحقيقة يشاهدون هذا وهم لايفقهون ، وينظرون ولكن لايعقلون . إن المادة تكون ترابا وماء ثم تصير شجرا وزهرا كما قيل فى عصا موسى ثم تصير حيوانا ذا شحم ولحم وجلد فيصير الدلو من جلده والشمع من شحمه .

هذه أمور معروفة ولكن الناس لا يعجبهم إلا ماليس له قانون ولا نظام ولكن الله أبدع الطبيعة إبداعا أجمل وأبهى من إبداع عصا موسى لأنه يخلق الحيات من الواد القذرة والشجر من الأرض وهكذا . ولكن ليس من الحكمة أن يكون العالم سبهللا بلا نظام ولا ترتيب ولو أن الحق اتبع أهواء الناس فأصبح الشجر ينقلب حيات والحيات تنقلب عصيا والعصى تنقلب شجرا لارتاع العالم الذى نسكنه ولضلّ الناس سواء السبيل ولجفل الحيوان وخاف ولضاعت الثقة بنظام هذا العالم ، فهذه هى المعجزة . ولعمرى إن معجزة الله هى هذا العالم ومعجزة الأنبياء أقل من معجزته بما لا يحصى ، فلما أجاب موسى بذلك (قال) الله له (ألقها ياموسى) انبذها واطرحها (فألقاها) فطرحها (فاذا هى حية) صفراء من أعظم مايكون من الحيات (تسعى) تمشى بسرعة على بطنها ، وفى آية أخرى «كأنها جانّ» أى حية صغيرة الجسم خفيفة الحركة ، وفى آية أخرى أيضا أنها «ثعبان» وهو أكبر ما يكون من الحيات ، فإذن هى فى الضخامة كالثعبان وفى الحركة والخفة كالجان .

فلما رآها حية كبيرة وشعبتاها شدقاها ومحجنها عنقها وعيناها تتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة كما قيل . فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهو شديد الخوف (قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) أى إلى هيئتها فردها عصا كما كانت فاطمأنت نفسه فأدخل يده فى فمها فوجد أنها فى شعبتها فى الموضع الذى كان يضعها إذا توكأ وإنما أظهر الله له ذلك لئلا يفزع إذا ألقاها عند فرعون (واضمم يدك إلى جناحك) إلى جنبك تحت العضد . يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر وذلك استعارة من جناحى الطائر (تخرج بيضاء) مشرقة نيرة (من غير سوء) من غير قبح كنى به عن البرص كما يكنى بالسوءة عن العورة (آية أخرى) أى معجزة ثانية حال من فاعل «تخرج» وإنما فعلنا ذلك (لنريك من آياتنا الكبرى) وكانت يد موسى أكبر آية كما قاله ابن عباس (اذهب إلى فرعون إنه طغى) جاوز الحد فى العصيان والتمرد (قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى) أى وسع صدرى ليتحمل الوحى والمشاق وردىء الأخلاق من فرعون وجنده ويسر الأمر برفع الموانع وإحداث الأسباب (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) وكان فى لسانه رتة من جمرة أدخلها فاه . وذلك أن فرعون حمله يوما فأمسك لحيته ونتفها فغضب وأمر بقتله فقالت آسية إنه صبى لا يفرق بين الجمرة والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها فى فيه ، ثم لما دعاه قال إلى أى رب تدعونى؟ قال إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزت عنه ، ثم قال (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى) يعيننى على ما كلفتنى به من المشاق ، وهو من الموازرة أى المعاونة : أى واجعل معينا كائنا لى وهارون عطف بيان وأخى بدل أو عطف بيان آخر ومن أهلى متعلق بوزيرا (أشدد به أزرى) أى قو به ظهرى ، وقيل الأزر القوة (وأشركه فى أمرى) اجعله شريكى فى النبوة والرسالة (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) لأن التعاون يهيج الرغبات (إنك كنت بنا بصيرا) عالما بأحوالنا وأن التعاون يصلحنا وهارون نعم المعين (قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) أى مسئولك وهو كأكل بمعنى مأكول ، ويقال إن عقدة لسانه لم تحل وإن موسى لم يسأل حلها لأن هذا لا يهم إنما الذى يهم هو منع عقدة الإفهام والإعلام فيكون لكلامه صبغة الفهم . فأما تلك الرتة فهى غير هامة ولذلك قال فى آية أخرى «ولا يكاد يبين» ثم قال تعالى مذكرا له بنعمه (ولقد مننا عليك مرة أخرى) أى أنعمنا عليك فى وقت آخر (إذ أوحينا إلى أمك) بالإلهام أو بالمنام (ما يوحى) ما يلهم (أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم) أى بأن اقذفيه الخ واليم البحر (فليلقه اليم بالساحل) بالجانب والمعنى على الإخبار بأن اليم سيلقيه بالساحل (يأخذه عدو لى وعدو له) أى فرعون والضمائر كلها راجعة لموسى ، يقال إنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا فوضعته فيه ثم ألقته فى اليم وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت فأمر به فأخرج ففتح فإذا بصبى أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديدا فلذلك قال (وألقيت عليك محبة منى) ومنى متعلق بألقيت ومن أحبه الله أحبته القلوب فما رآه أحد إلا أحبه . فهذه المحبة ألقيتها ليتعطف عليك (ولتصنع على عينى) أى ولتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشىء بعينه إذا اعتنى به ونظر إليه . وقرىء «ولتصنع» بفتح التاء أى وليكون عملك على مرأى منى لئلا تخالف به أمرى (إذ تمشى أختك) إذ ظرف لألقيت (فتقول هل أدلكم على من يكفله)، روى أن أخته مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثدى امرأة فقالت هل أدلكم على من يضمه إلى نفسه فيربيه وأرادت بذلك أمه فقالوا نعم فجاءت بالأم فقبل ثديها وذلك قوله (فرجعناك) فرددناك (إلى أمك) كما وعدناها بقولنا «إنا رادوه إليك» (كى تقر عينها) بلقائك (ولا تحزن) هى بفراقك أو أنت بفراقها وفقد إشفاقها (وقتلت نفسا) نفس القبطى الذى استغاثك عليه الإسرائيلى (فنجيناك من الغم) غم قتله خوفا من عقاب الله واقتصاص فرعون بأن غفرنا لك وأمناك بالهجرة إلى مدين (وفتناك فتونا) اختبرناك اختبارا أى ابتليناك ابتلاء والفتون مصدر كالقعود أو جمع فتنة أى فتناك

ضروبا من الفتن، والفتنة المحنة وكل مايبتلى الله به عباده فتنة . يقول الله خلصناك مرة بعد أخرى . يذكره بإجمال مانأله فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألاف والمشى راجلا على حذر وفقد الزاد وأنه جعل نفسه أجيرا وغير ذلك مما سبق ومما يأتى من قوله (فلبثت سنين فى أهل مدين) لبثت فيهم عشر سنين قضاء لأوفى الأجلين . ومدين على ثمان مراحل من مصر وهى شرق البحر الأحمر (ثم جئت على قدر ياموسى) قدرته لأن أكلك فيه وأستنبئك أو مقدار للرسالة وهو أربعون سنة (واصطنعتك لنفسى) أى اخترتك لأمرى وجعلتك القائم بحجتى والمخاطب بينى وبين خلقى كأنى أقمت الحجة عليهم وخاطبتهم (اذهب أنت وأخوك بآياتى) بدلائلى (ولا تنيا) تفترا، من الونى وهوالفتور والتقصير (فى ذكرى) أى لاتنسيانى حيثما تقلبتما واتخذا ذكرى جناحا تطيران به . ومن ذكره تعالى تبليغ الرسالة فالذكر يشمل سائر العبادات وهو أعظمها مقاما (اذهبا إلى فرعون إنه طغى) أمر موسى أولا ثم أمره هو وأخاه هنا ، وطغيان فرعون ادعاؤه الربوبية (فقولا له قولا لينا) ألطفا له فى القول لما له من حق تربية موسى مثل أن تقولا له «هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى» (لعله يتذكر أو يخشى) راجع لقوله « فقولا له » أى باشرا الأمر وأنتما طامعان أن عملكما سيثمر وأنكما ستهديانه لأن من ارتجى شيئا طلبه ومن أيس انقطع عمله . والقصد من ذلك إلزامه الحجة وقطع المعذرة وإن لم يفد هدايته (قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا) أى أن يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى أن تتم دعوتنا . يقال فرط إذا تقدم، ومنه الفارط وفرس فرط يسبق الخيل (أو أن يطغى) أى يزداد طغيانا فيقول فيك مالا ينبغى (قال لا تخافا إننى معكما) بالحفظ والنصر (أسمع وأرى) مايجرى بينكما وبينه من قول وفعل فأحدث فى كل حال مايصرف شره عنكما (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل) أطلقهم (ولا تعذبهم) بالتكاليف والأعمال الشاقة (قد جئناك بآية من ربك) بحجة على صدق ما ادعيناه وهذه الجملة كالبيان لجملة «إنا رسولا ربك» قال فرعون وما هى؟ فأخرج يده لها شعاع كالشمس (والسلام على من اتبع الهدى) وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين أو الأمان فى الدارين لهم من العذاب انتهى.

وههنا [ثلاث لطائف].

[اللطيفة الأولى] فى قوله تعالى «وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا» .

[اللطيفة الثانية] فى قوله تعالى «فألقاها فإذا هى حية تسعى» .

[اللطيفة الثالثة] فى قوله تعالى «والسلام على من اتبع الهدى» .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى «وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا»

اعلم أن بعض العقلاء المتبصرين يقولون مالنا ولقصص موسى وأى فائدة لنا فى النار المشتعلة فى العوسج أو فى العليق أو فى غيرهما . وهل هى إلا معجزة جاءت لموسى وموسى أرسل لليهود واليهود الآن أمة تفرقت فى أقطار الأرض وتوراتها معها وهم جند السلم وجند الحرب وجند المال بل هم الذين أقاموا أوروبا وبسبب فلاسفتهم ، قامت الحرب الكبرى التى استعرت بين الشرق والغرب بل هم أصحاب البلشفية فهم اليوم أصحاب الحول والطول فى اصطدام الأمم كلها بمالهم تارة وبفلسفتهم أخرى . وهم الذين حركوا ألمانيا للحرب بقوة فلسفتهم ، ومنهم (شوبنهور) الذى أثار ثائرة القوة الحربية وقال لاحياة للضعيف والضعيف يجب أن يموت وليس يبقى فى الأرض إلا الأقوياء الذين لهم الحق فى البقاء ومن عداهم يجب أن يذبحوا إكراما للأقوياء والأقوياء هم الباقون والضعفاء هم الميتون . هؤلاء هم اليهود الذين أرسل لهم موسى. وهذه القصة حديثه فهل تعاليمهم هى التى ذكرها القرآن هنا أم هذه تعاليمنا . وإذا كانت تعاليمنا وأنا ورثناها عن موسى عليه السلام لأن الله أمر نبينا أن يقتدى به وبالأنبياء، وجب أن نعرف المقصود منها وماذا ينفعنا ؟ . أقول : اعلم أن هذه

القصص نزلت فى القرآن لتعليمنا نحن . فأما اليهود فانهم أخذوا مابهمهم من التوراة واستعملوا عقولهم حرة فى أحوال المدنية والعمران . فها أنا ذا أقول ماذا يراد بهذا هنا .

اعلم أن النار التى رآها موسى تتقد فى الشجرة وهكذا العصا التى قلبت حية ماهى إلا بذور ألقاها الله فى الأرض لتثمر فى العقول. والناس فى استعمال الحبّ والبذر على قسمين : قسم فقير يأخذها للغذاء . وقسم آخر يأخذها لغرض الزرع . فأما الذى يأخذ الحبّ لأكله فهو من لازرع له . وأما من يأخذها للزرع فانه يريد نموّ ماله سنة فسنة إلى ماشاء الله ، فأىّ الرجلين أغزر ثروة ؟ لاشك أنه هو الثانى . هكذا فى هذه القصص فالعامة يتخذونها غرضا لعلومهم ومقصدا وهى تكفيهم . ويرى العامى أن اتقاد النار فى الشجر الأخضر وانقلاب العصا حية على يد موسى فيهما كل الحكمة وكل القدرة والعلم والحكم الإلهية . وأما الخاصة فانهم يقولون إن نارا تتقد فى شجرة لم يرها إلا هو وأخبرنا بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم تزدنا إيمانا لأن إيماننا أصله نبينا صلى الله عليه وسلم فإيماننا بها تبع لإيماننا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلا تزيد إيماننا بهذا المعنى وإنما تزيد إيماننا بالمباحث العلمية ، وكلما كانت الحجة مشاهدة ومعلومة أكثر كانت أمكن وأمتن وهذه الحجة لم نشاهدها ولم نرها . لهذا وجب أن نعرف الحكمة فيها . وجواب هؤلاء أن يقال إن المقصود من أمثال هذه أمور وراءها وهذه أشبه بضرب أمثال لأحوال النفوس البشرية . إنها من باب الكناية وهى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى . فهنا المعنى الأصلى لا غبار عليه ولكن المهمّ مايرمز إليه فلنذكر المرموز إليه فنقول :

أنوار القلوب

إن موسى عليه السلام لما أشرقت النار فى الشجرة كان ذلك مقياسا لما سيراه فى قلبه إذ عمل بقوله تعالى «ولا تنيا فى ذكرى» وبقوله «وأقم الصلاة لذكرى» فهاتان آيتان هما سر هذه النار . سر هذه النار فى الصلاة ، وفى الذكر، الله طلب من موسى وهارون أن يذكرا ربهما ويصليا لتتقد نار المحبة فى قلوبهما أى لتزيد المحبة . فالله أحبّ موسى وموسى أحب الله والحب يوجب اتقاد النار فى القلوب والصلاة والذكر يوجبان ازدياد الحب والحب تصحبه نار الأشواق لاكتناه صفات المحبوب . فنار الشجرة المشرقة مثال لتلك النار القلبية العشقية الغرامية الشوقية التى تتقد فى قلب موسى عليه السلام .

هذا موسى عليه السلام فما شأننا نحن ؟

أقول : إذا قلت هذا أجيبك أنك إذا أردت أن تقتدى بموسى فاعلم أن الباب مفتوح على مصراعيه . أقول لك ذلك عن علم وفهم وإيقان بما أقول ولكن لا أود أن أشرح لك ما أعرفه ولا ماجرّبته ولكنى أقول لك اجلس كل يوم ساعة واذكر ربك حاضر القلب غير مفكر إلا فى المذكور ثم لتكن فى صلواتك الخمس حاضر القلب فعلا بمعنى أنك تخاطب ربك فى الصلاة كأنه حاضر لديك وكأنه أمامك . هذان هما الشرطان اللذان أطلبهما منك ، وأنا أقول لك إن أنوار شجرة موسى تنتقل فعلا فى قلبك وتلحظ فيها نورا فعليا يسرك استحضاره وإشراقه فى قلبك وهذا النور والإشراق بديع وجميل، وليس هذا إلا مبدأ للفتوح وتلك الأنوار تتموج بألوان وصور بديعة جميلة غريبة . وأما ماوراء ذلك فالناس درجات ويختم على كل بما يناسبه .

واعلم أن الأمم الاسلامية لما أشرقت الأنوار على بعض الذاكرين والصالحين منهم لم يرفعوا رءوسهم إلى أعلى إلا قليلا منهم فأخذتهم الفرنجة ، فأنا أقول لك إنه لافتوح حقيقيا فى الأمة الإسلامية إلا لمن توجهوا بهممهم إلى رقى الأمة الاسلامية متى كان فيهم استعدادا، فأحب أمة الاسلام كلها وجدّ فى ارتقائها أو فى ارتقاء من حولك من إخوانك فان هذه الهمة متى علمها الله منك بالإخلاص ساعدك لأنه يحب من يساعد عباده

«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» هذا هو المقصود من نور الشجرة الموسوية . وكما نادى الله موسى لما رأى نار الشجرة كذلك هنا تشرق أنوار العلم عليك بعد إشراق بصيرتك بتلك الأنوار التي هي أبهج من النار والأنوار الظاهرية . هذا هو تفسير نور الشجرة .

النار والنور

اعلم أن ابن عباس قال «إن هذه النار لم تكن نارا بل كانت نورا» ذكر بلفظ النار لأن موسى عليه السلام حسبه نارا ، وقيل هي النار بعينها وهي إحدى حجب الرب تبارك وتعالى ، يدل عليه ما روى عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « النار لو كشفها لأهلكت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » أخرجه مسلم . ولما كان هذا الحديث واردا في صحيح مسلم وجب أن نبحث في أمره ونقول :

هذا الحديث معجزة في هذا الزمان أظهرها العلم الحديث

اعلم أن الكواكب أجمعها كرة نارية وأرضنا نار وأصل الشموس وسياراتها وتوابعها كلها نيران طائرة دائرة فعالمنا الذي نعيش فيه ماهو إلا نيران . وإنما الجزء الذي نعيش فيه من الأرض هو الذي برد وباقيها متقد والعالم كله نيران مشتعلة وعالم الأثير هو الذي تعوم فيه عوالم الضوء والحرارة والكهرباء وفيه تتولد المادة التي تكون في أول أمرها نارا طائرة في الجو كما هو معلوم . هذا هو عالم الخلق الذي هو إما نار أو مادة مشتقة من نار أو عالم اشتقت منه النار وهو عالم الأثير لأن النور والنار والكهرباء متكونة فيه فهو إذن أصل النار وعلى ذلك أصبح عالم الخلق كله ناريا حقيقة أو حكما . ألا ترى إلى أقرب شيء إلينا وهي حرارة الشمس فإنه لولاها لم يكن حيوان في الأرض ولا نبات فالحرارة هي أصل كل حياة على الأرض . وإذا كان هذا شأن النار فهي حجاب يحجب الله عنا لأنه إذا ظهر المخلوق بطن الخالق عند أكثر النفوس وإذا اختفى المخلوق تجلى الخالق . فهذه المخلوقات إذن حجاب الله تعالى وثبت أن النار حجابه وأنه إذا زال هذا الحجاب تجلى الله لأنه لا يبقى إلا عالم الأرواح وهناك يتجلى لهم لا يحجبون عنه إلا بما فيهم من الكثافة المادية فتى زالت المادة ورجعت العقول لصفائها فهناك يتجلى الله تجليا تاما لتلك النفوس العالية .

إن هذا الحديث معجزة لأن العلم أثبت هذا اليوم . ويقول في الحديث «لو كشف النار» أي لو كشف هذه المادة ولم يبق لها وجود «لأهلكت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه» يقول لو أزيلت المادة وتوابعها وأصولها لم يبق إلا عالم الأرواح فأما عالم الأشباح فانه يختفي وينعدم إذ لا وجود له إلا بالمادة فاذا عدمت المادة فأين عالم الخلق وإنما الذي يبقى إنما هو عالم الأمر . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى «فألقاها فإذا هي حية تسعى»

اعلم أن هذه الآية متممة للمتقدمة فهناك يقول صفوا قلوبكم ونقوها بالإخلاص والأخلاق والصفاء والذكر والصلاة ، وهنا يقول سبحانه : تأملوا في عصى موسى وأنها قلبت حية تارة وشجرة مثمرة أخرى وشمعة مشرقة آونة وهكذا .

وقد علمتم أيها الأذكياء أن هذا ليس مطمح نظر العقلاء ولا مرمى غرض الكبراء ، وكيف يكون ذلك مرمى الأنظار ومقصد الأخيار ولو أن هذا كان من سيرتنا فيكم لفنيتم أجمعين لأنكم لا تثقون بنبات أو حيوان أمامكم فربما انقلب النبات حيات أو الحيات حيتانا وهكذا من التقلبات التي لا تعطيكم أمانا في حياتكم غاية الأمر أن هذه التقلبات السريعة يفرح بها العامة الذين يدهشهم مثل هذا . ولماذا هذا ؟ لأنهم لا يعجبهم من الله إلا القدرة والعجائب ، وأما الحكمة فهم عنها غافلون . أما عقلاؤكم فانهم يعلمون أن انقلاب العصا حية وشجرة

وشمعة وغير ذلك حاصلة ضلا وهم فرحون بذلك مغتبطون مسرورون لهجون بالثناء على الله إذ أراهم تلك العجائب واسعة فائضة . ففى المادة من أنواع التقلب ما يبهرهم مما لا يحصره العدد لكن مع الحكمة والنظام والترتيب . فالتراب العفن يصير غذاء الحشرات وهى غذاء الحيات وهكذا مما لا محل لذكره هنا وإنما تقدم فى سورة (آل عمران) . فاذا ذكرت النار فيما تقدم فهى للحث على صفاء القلوب وطهارتها ، واذا ذكرت العصا هنا فللحث على مقصودها وهو الرجوع للحقائق العلمية ليعرف الناس العلوم الطبيعية والفلكية ، وهذا بيت القصيد .

إن الانقلاب الحاصل فى الكرة الآن مرجعه هذه الأعاجيب والدلائل . نوّه الله بقلب العصا حية على مالا نهاية له من العلوم ولا حدّ له من الحكمة فقد برع أهل الغرب فى تقليب المادة وإظهار ما خبأه الله فيها من آثار صنعته وبديع حكمته فقلبوا الأفئدة والأبصار بنفائس العلوم وغرائب الحكم وأبدعوا ماشاءوا أن يبدعوا . وأحدثوا من الكهرباء ومن الفحم ومن البترول ومن الحديد منافع لا يمكن عدها الآن واستخرجوا من الموادّ أبخرة هوائية طيارة يقذفونها على الأعداء فتعميهم وتصمهم تارة وتحرقهم تارة أخرى .

يرشدنا الله بهذه القصة إلى عجائب المادة ويتلهى العامة بعصا موسى، وعصا موسى رمز لما ذكرناه فاذا صفت قلوب الصالحين بالذكر والعبادة فليوجهوا الأفئدة النقية إلى هذه المادة فليقرءوا جميع العلوم وليبرعوا فيها كما برع الفرنجة إن كنا حقا نحب الله .

نداء للأذكياء

فيا أيها الذكى الذى اطلع على هذا التفسير أنت مسئول بين يدى الله عما أكتبه وعما وصلك من العلم ، انشر هذا بين المسلمين على قدر ماتصل إليه استطاعتك وأرهم أن فى الشجر وفى الحجر وفى النجم وفى البحر عجائب الله وأنواره وأرهم أن القرآن يعلمنا أن نخلع رداء الكسل ونتجلب بجلابيب العمل وأن نكد فى طلب المعالى وقراءة الطبيعة وعلومها . فمن أولع بالعصا وحيتها ووقف عند حدها فذلك من الجهلاء ولكن المسئول هو المفكر . فليدرس المسلمون علوم المعادن والنبات والحيوان والانسان وعلم الفلك . هذه هى العلوم التى تشير لها عصى موسى . كيف لا والغصن لايزهر إلا بإشراق الشمس عليه ، فتقلب المادة وتنوعها يلزمه حرارة الكواكب ، فإذن لابد من دراسة هذه المادة . فويل للمسلمين إذا قصروا وويل ثم ويل لهم إذا هم ناموا عن العمل وصموا آذانهم عن سماع هذا القول أو قال قارىء هذا الكلام وأمثاله مالى وللمسلمين ؟ .

إن إعلان هذا العلم واجب على كل من قرأ هذا التفسير وأمثاله وإنما خصصت هذا التفسير لأنى أوضحت بعض هذه الحقائق فيه إيضاحا يوجب إماطة اللثام والمسلمون قد ناموا نوما عميقا وتركوا القرآن وفهمه تركا حقيقيا « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » هجروه وظنوا أن علم الفقه خلاصته والباقى لا عمل له إلا التبرك به فتركت قصصه ومواعظه وآدابه وأخلاقه ونام المسلمون نوما حقيقيا وسيستيقظون من رقدتهم ويقومون من نومتهم ويعلمون ويعملون . أقول هذا وأنا واثق من الله ولولا وثوقى ما كتبت هذا التفسير . فليعلم قارىء هذا التفسير ماعرفه لمن حوله من الناس بالقول وبالكتابة وبالتأليف وبالنشر بل لتكن أنت الداعى لهذا العمل فى أمتك أو قريتك فرق من المسلمين من تشاء . واعلم أن هذا التفسير سيتلوه قوم كثيرون وسيكون كل منهم كأنه علم يهتدى به ويقوم هو بالدعوة منفردا وسيتضافر الدعاة فى كل مكان . واعلم أن الله لم ينزل ولم يخلق دينا فى الأرض قد اتفق له مااتفق لدين الاسلام وأنه موافق للعلوم

الحديثة وهذه الدعوة التي ادعوك إليها إذا توجهت بها إلى أصحابك قبلت ونصرت ووجدت لك أنصارا يحبونك لأني أقول لك إن هذا الدين فيه خاصية العلوم الطبيعية وهذه العلوم سيقوم بها المسلمون باعتبار أنها دينهم وأنها علم التوحيد وأنها معرفة الله وأنها تزيد في حب الله فيترعرع هذا العمل ويثمر في أقرب زمن ويكون المسلمون «خير أمة أخرجت للناس» .

إن هذه العقيدة سهلة الزرع في قلوب المسلمين ونتائجها عظيمة جدا . نتائجها الغنى والثروة في الدنيا للمسلمين وظهور ممالك كانت خافية ميتة وابتهاج الأرض بزينة العلماء وعلومهم وانتعاش المدنية انتعاشا لم تحلم به من قبل والله ولي المتقين محب المحسنين . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى «والسلام على من اتبع الهدى»

اعلم أن هذا السلام المذكور هنا جاء ذكره في يحيى وفي عيسى . وهكذا جاء في صلاتنا نحن المسلمين (السلام عليك أيها النبي) ويسلم المصلي على نفسه أيضا وعلى الصالحين ، فهنا يقول «والسلام على من اتبع الهدى» .

اعلم أن هذه الحياة لا سلام ولا أمان فيها فهي متقلبة ملتبسة فالأمان فيها معدوم ، ولكن الله يقول إني أنزل الأمان والاطمئنان على المهتدين والهداية هنا ترجع إلى الحكمة والعلم . فكلما زاد الإنسان بحثا في العوالم زاد اطمئنانه فإن الاطمئنان والأمان على قسمين : [القسم الأول] أن يكون الانسان جاهلا ولكنه قد سلم أمره لله فلا يبالي بما يحصل له ، وهذا يصبح أشبه بالمنوّم تنويما مغناطيسيا يقبل ما يأتيه من الله وهذا في الحقيقة قد أمن وسلم لأن المرض والفقر والموت عنده وإن كانت مكروهات مؤلمات فان ما في نفسه من الراحة والاطمئنان تسلية وتعزية وراحة من ذلك لاسيما أوقات الاستغراق وهي قليلة . أما [القسم الثاني] : فإن بحثه في الحقائق المودعة في هذه السورة والعمل بها يعطيه صورة هذا الوجود وليس يمكن ذلك إلا بدراسة جميع العلوم ومتى درس العلوم أدرك أن هذا الوجود مبني على النظام والترتيب وأن ترتيبه يقضي أن يكون هناك حياة وموت وأن الأحياء لو داموا لتعطل الوجود ولماتوا أشنع موتة وهلكوا عن آخرهم وأن هناك حياة روحية وأنها أرقى من الحياة الجسمية وألطف منها وأن حياتنا سلم لها . فهذا مبدأ الأمان والسلامة ويزيد هذا الأمان بالموت إذ تزيد الحقائق له انكشافا وكلما ازداد كشفا ازداد بالحقائق اعترافا فرح بها وبكل ما يأتيه من ربه علما منه أنه لا يفعل إلا لمصلحته . فاذا قال المصلي (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فمن هذا الباب دخل .

إذن الصلاة في دين الاسلام شرعت لأجل ازدياد العلم لأن الأمان وازدياده بالعلم والعلم بالبحث .

أين الأمان في قصة موسى عليه السلام

اعلم أن السلام المذكور يجب أن يكون لموسى أوّلا حق يناله غيره . وإذا لم يكن للأنبياء سلام وأمان فكيف يكون للأمم أمان . فاعلم أن قصة موسى تعطيك نموذجا لنفسك ولأمانك وهذه فائدتها لنا .

انظر كيف ذكره بما كان ·

(١) من إلقاء الحب عليه فلا يراه أحد إلا أحبه .

(٢) وأنه صنع على عينه .

(٣) تلطف أخته في أن أمه ترضعه .

(٤) رجوعه لأمه .

(٥) إقرار عينها .

(٦) نجاته من الغم بقتل القبطى .

(٧) تخليصه من الفتن .

(٨) رجوعه من مدين .

(٩) اختيار الله له .

(١٠) قوله «إننى معكما أسمع وأرى» .

إذا سمعت هذا فى موسى فاعلم أن الله لم يذكرها إلا لأجلنا ، يقول سبحانه : أنا أعلم أنه ليس أحد فى الأرض إلا وقد غمرته بنعم عامة ونعم خاصة . أما النعم العامة فالناس عادة لايبالون بها فاذا جعلت الهواء والماء والشمس والقمر والنجوم والأرض والأنهار كلها عامة للناس فلم يشكر منهم على النعم العامة إلا المخلصون ولكن شكر أكثر الناس إنما يتوجه إلى ما اختصصتهم به ، وإذا كان موسى من المخلصين لى فانه يشكرنى على النعم العامة والخاصة ولكنى ذكرته بالنعم الخاصة به تذكرة للأمم وللأمم الاسلامية خاصة قائلا لهم ياأمة الاسلام ما من امرىء منكم إلا وله نعم خاصة به فلقد شاهد من صنعى فى أدوار حياته مايشرح صدره ويرى من ذلك أنى لم أتركه فى كثير من أوقاته ففعلت معه مثل مافعلت مع موسى مع مراعاة أحواله الخاصة لأن مايصلح لموسى لايصلح لك بل لك أمور تفرحك قد فعلتها لك ، ولكل أحد من الأشرار والأبرار أسرار لا يطلع عليها سواه فيفرحون بربهم بما اختصهم من النعم . فاذا كان هذا عملى معك أيها المسلم فى سابق أيامك فلتعلم أنى معك فى لاحقها ومرضك وفقرك وموتك . كل هذا لصالحك كما رأيت المحافظة عليك فى الأحوال السرية الخاصة بك المتقدمة . فعلى كل مسلم أن يتذكر نعم ربه الخاصة التى لا يعرفها سواه ولا تناسب إلا نفسه وليذكرها وليشكر الله عليها وليقم بخدمة إخوانه وحب الناس حتى يكون آمنا مهتديا. وهنا [جوهرتان]:

الجوهرة الأولى فى قوله تعالى «لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى»

(إن فى النار وفى النور هدى)

(١) لقد مضى فى هذا التفسير فى سورة الرعد أن الحرارة والضوء والجاذبية والصوت كلها على نسق واحد تقل كلما تباعدت أقطارها على عكس مربع المسافة وانظر ضرب المثل هناك إذ تكون القنابل الأربعة التى بيننا وبينها ثمانية أذرع مساوية كلها فى الضوء للقنديل الذى بيننا وبينه أربعة أذرع فقط والواحد منها مساو لربع ضوء هذا القنديل القريب فالنار والنور قد عرفنا منهما أن هذا العالم له نواميس منتظمة متوافقة .

(٢) رأينا فى أضواء العناصر الأرضية خطوطا سوداء تقاطع الأشعة السبعة التى أضعفها الأحمر وأقواها البنفسجى ، وهذه الخطوط تكون فى كل عنصر بحسبه فهى مختلفات فى العناصر اختلاف أصناف البياض فى أشخاص الناس . فكما أن لكل أبيض بياضا يخصه مع اتفاقه مع الجنس الأبيض هكذا لكل عنصر فى ضوئه نوعا من الخطوط السود يخالف نظيره فى غيره . وبهذه الكيفية أمكن العلماء فى عصرنا أن يعلموا مافى الشمس والكواكب الثابتة من العناصر وأن يحكموا بما فى الأرض على مافى تلك العوالم من العناصر لما يرون فى أضوائها من تلك الخطوط فيعرفون العناصر عنصرا عنصرا هناك ، وبهذا عرف المسلم قوله تعالى : «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور» الخ فهنا وافق العالم السفلى العالم العلوى وعرفنا الثانى بالأول وأدركنا أن البانى لهما واحد لأن العمل واحد والنظام متحد وأن الأضواء كلها مركبات من الألوان السبعة . هذه هى الهداية لنظام الطبيعة ، وسيأتى ذلك موضحا فى سورة (تبارك) بالتصوير الشمسى عند قوله تعالى «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت» .

(٣) ويتلو هذا أنك ترى النار فى الأحجار وفى الأشجار وتعجب من أن الحياة لا تتمّ إلا بالحرارة وأن البرودة تخمد فيها الحياة ولا توجد .

إن الحرارة يكون فيها التحليل والتركيب والبرودة تبقى فيها الأجسام ثابتة . ناهيك أن الجسم المطمور فى الثلج لا يقرّ به البلى بل هو باق على حاله . ذلك لأن طبع الحرارة التحليل يتلوه التركيب، والبرودة طبعها إيقاف الأعمال وإعدام الحياة .

(٤) رأى موسى عليه السلام النار فى شجرة العليق ويقول الله فى سورة (يس) « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون » استدل بها على البعث هناك . ففى النار هدى لمعرفة الحكمة والقدرة الإلهية . وتبيان أن هذه الأجسام التى نسكنها الآن ستنهدم وتكون الروح أشبه بالنار والأجسام أشبه بالأشجار ، والنار ترتفع إلى العلى «وأنّ إلى ربك المنتهى» .

(٥) وهذه هى مغزى قصة (حى بن يقظان) التى ألفها (ابن الطفيل) ذلك أنه ذكر أن فتاة خافت من أهلها فألقت طفلها المسمى بهذا الاسم فأرضعته غزالة ، فلما ماتت الغزالة هاله الأمر وعظم عليه الكرب ونظر فى حاله وهو وحيد بين الوحوش الضارية والفلوات القاصية فأخذ يبحث عن حبيبته الغزالة أين هى فإن كانت هذا الجسم فها هو ذا يعتريه البلى وأصبح جيفة وإن كانت فى جزء من أجزائه فما هو ؟ أفى العين أم فى الأذن أم فى الكبد أم فى الطحال أم فى المعدة ؟ ثم اهتدى أخيرا إلى أن الحبيب كان يسكن فى هذا القلب والقلب كانت فيه حرارة الدم والحرارة بها بخار والبخار كان يحمل الروح والروح لا تعيش إلا فى وسط مثل هذا وهو يشبه نظام الأفلاك وحرارته كحرارتها .

إذن هناك فى السموات عوالم تشبه تلك الروح أى روح الغزالة وإذن هناك واحد فوق الجميع ذهبت اليه تلك الأم التى كانت تحبنى لأنها لطيفة وكان محلها فى الجسم ذلك البخار اللطيف وهى تتصرف فيه وتغدو وتروح . هنالك أخذ يفكر فى الكواكب وللملائكة ومعرفة الله تعالى إلى آخر الرواية وقد تقدّم فى سورة (البقرة) نحو هذا .

هذه قصة (حى بن يقظان) التى ألفها (ابن الطفيل) ورجع السرّ الذى فيها إلى الحرارة التى لازمت الروح ومنها فكر فى حرارة الشمس والكواكب وأن هناك أرواحا عالية وفوقها مدبر الأرواح . إذن قوله تعالى «أو أجد على النار هدى» يشير إلى أن النار مذكرة بالروح وبالملك وبالله كما خطر لابن الطفيل .

إذن النار فى كلام موسى هى من أهم أسرار الوجود . فبالحرارة الحياة وكل ما لاحرارة فيه لا حياة فيه والحياة تقلّ ماقلت الحرارة وتمتنع بتاتا إذا لم يكن للحرارة من أثر ، وضوء النار يعطينا القوانين الهندسية ويفتح لنا أبواب الحياة الأخروية ويشير إلى عالم الأرواح ويهدينا إلى النظر فى العالم الأعلى .

هذا بعض مايشير له قول موسى عليه السلام « أو أجد على النار هدى » . إن هذا القرآن ليس يقرؤه موسى الآن ولا أحد من السابقين فهو إنما يتلى لنا، وأما نحن فلندرس الوجود كما يشير اليه القرآن ، والحمد لله رب العالمين .

(٦) جاء فى تفسير قوله تعالى « أو أجد على النار هدى » (هاديا يدلنى على الطريق أو يهدينى أبواب الدين) والأول دنيوى والثانى أخروى والأخروى أخذه العلماء من أن أفكار الأبرار مائلة إليه والذى جاء فى كلام (ابن الطفيل) فى البند الخامس منه . إذن موسى عليه السلام يطلب الدنيا ويطلب الدين معا فلنفهم نحن فى القرآن على قدر عقولنا فلسنا نحن أنبياء والأنبياء لهم مرام فوق متناول عقولنا والقرآن الآن يقرأ لنا فهم عند ربهم ونحن هنا فى الأرض والأنبياء تذكروا بالنار الدين والدنيا والمفسرون قدموا مسألة الطريق على أبواب الدين فى هذه الآية . إذن لنسر فى طريقنا ونفسر لقومنا بحسب ماوصل اليه العلم فى أيامنا ونذكر

قوله تعالى « وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » وقوله فى سورة الزمر «قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنةوأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغيرحساب» وأ كثر العذاب فى القرآن انما هو عذاب الدنيا . فتجد عادا وثمود وأصحاب الرس ّ ومدين وقوم لوط وقوم فرعون ، كل هؤلاء عذبوا فى الدنيا . إذن القرآن متجه إلى نظام هذه الدنيا مع معرفة الله . الله أكبر ، لقد اجتمع كل هذا فى نار موسى التى رجا أن يجد عندها هاديا يهديه إلى الطريق أو يهديه إلى أبواب الدين ولكنه وجد الهدى بنداء ربه الذى تلقاه تلقيا روحيا ثم تمثل لبدنه فانتقل إلى الحس المشترك فانتعش به من غير اختصاص بعضو وجهة . وسبب هذا كله ضوء النار .

إن النار والنور والكهرباء والحركة يرجع بعضها إلى بعض فاذا درسناها فإننا ندرس مايدل على الله وما يدل على أبواب الرزق فى الدنيا .

إن النار والنور وما تبعهما بهما نظام الحياة وبهما معرفة الله الذى أنزل فى القرآن هذه الآية ليقف المسلم عندها لدرسها ، الله أكبر . لولم يكن فى القرآن سواها لكفت . ولو أن أقواما نزلت عليهم هذه الآية وعرفوها وحدها لكفتهم أمور الدين والدنيا ، جل ّ الله وجل ّ العلم اهـ .

(١) الحرارة إما منيرة كحرارة حديدة أحميت حتى ابيضت . وإما مظلمة كحديدة أحميت قليلا .

(٢) البرد لفظة إضافية ترجع إلى قلة الحرارة .

(٣) البخار يتحول إلى غيم بانحطاط حرارته قليلا وغاز الهواء لايتحول إلا بانحطاط عظيم جدا فى الحرارة جل ّ الله الذى جعل الهواء لا يتأثر بالبرودة وقلة الحرارة والا لأصبحنا غرقى فى سائله ولم نعش يوما واحدا . فالهواء مركب السحاب فلو صار سائلا لم تكن حياة لنا على الأرض ،

(٤) ماهى الحرارة ؟ أجمع العلماء على أن هناك مادة لطيفة جدا تتخلل كل جسم جامد وغيره وهى (الأثير) والأجسام كلها متحركة ذراتها دائما فيه كما تتحرك السيارات حول الشمس . إذن ذرات الأجسام والأثير كلها متحركة . وأكثرهم يقولون إن الحرارة تحرك هذا الأثير وهذه الذرات كما يتحرك الهواء فتتحرك الأغصان بحركته . فذر ّات الجسم كالأغصان وذر ّات الأثير كالهواء، والحرارة كالرياح . وأقلهم يقولون : كلا، بل الحرارة سائل لطيف يتخلل دقائق الأجسام كما يتخلل الماء الحصى . فاذا طرق الجسم خرجت الحرارة منه كما يخرج الماء من الخرقة إذا عصرت . إذن أجمعوا أن هناك مادة سواء أكانت هى الأثير اللاتى لهذه الدنيا أو هى شيء آخر فالقولان بينهما تقارب ما ، وقد تقدم الكلام فى سورة (الرعد) على مصادر الحرارة الثلاثة إجمالا .

(٥) ثم أقول هنا : انظر إلى عجب عجاب ، قد وجد (جول) الانكليزى بتجارب متعددة أنه إذا وقع جسم ثقله قنطار مثلا من علو (٧٧٢) تولدت من حركة وقوعه حرارة ترفع حرارة قنطار واحد من الماء درجة واحدة وبالعكس أى إن الحرارة الواجبة لرفع حرارة قنطار واحد من الماء درجة واحدة ترفع جسما ثقله قنطار واحد علو (٧٧٢) قدما وهذا يسمى (ناموس عديل الحرارة الميكانيكى) ومعنى هذا أن الحد ّاد الذى يطرق على السندال طرقة لا تذهب قوته سدى بل تحولت إلى حرارة والحرارة تتحول إلى حركة ومعنى هذا كله أن الله عدل «ولا يظلم ربك أحدا» فما مثل أعمالنا إلا كمثل الطرق على السندال ، وما مثل الحرارة الناتجة إلا كمثل الثواب ، والله يقول «فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى» الخ ويقول «ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» فالحركة هى نفس الحرارة إذ حولت إليها كما حول الماء إلى البخار أو الثلج إلى ماء، والثلج هو نفس الماء والبخار هو نفس الماء، وهذا هو الحديث الشريف «إنما هى أعمالكم ترد عليكم الخ» إذن أعمالنا هى نفسها التى تكون لنا بعد الموت تكمن فينا وتظهر بصور أخرى وهذا

حق وصدق . وإذا كان الله لم يضع حركاتنا فى الأرض بـل جعلها حرارة ونحن نجهلها ولا نراها ، فكيف يضيع أعمالنا . اللهم إن هـذه النفوس الانسانية تزرع فى أنفسنا أعمالا وثمراتها تظهر فى نفس الدنيا وفى الآخـرة .

(٦) ضع ماء على كفك فانه حالا يسخن بحرارته ويتحوّل إلى بخار فيشعر الانسان ببرودة الماء لأن حرارة كفه انتقلت اليه واختفت فى بخاره . وإذا تكاثف البخار على كف إنسان شعر بسخونته . لماذا ؟ لأن البخار المتكاثف كانت الحرارة قد اختفت فيه أى إن البخار لا تزيد حرارته ألبتة وإنما هو يحفظها عنده فإذا رجع ماء سلم الأمانة إلى أهلها فيحسّ الانسان بالحرارة التى سلبها أولا إلى البخار . ويقال مثل ذلك فى تحوّل الثلج إلى سائل . وعلى هذه القاعدة قالوا إن جمود المـاء تسخين وذوبان الثلج تبريد . الله حفظ الحرارة فى البخار والبخار سلمها إلى الكف لانقص فيها وهذا معنى قوله تعالى «إن الله لايظلم مثقال ذرة» أصبح القرآن يؤيده العلم المحسوس «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» .

(٧) وللحرارة جعل الناس ميزانا سموه (الترمومتر) وهو يكون بالزئبق .

(٨) وبالحرارة كانت الآلات البخارية التى حدثت بسبب آثارها فى الماء فيتمدد فيحصل الضغط فيكون العمل العجيب فنسقى زرعنا ونطحن حبنا ونسافر إلى أعمالنا فى أرض الله ونصنع كل شىء . كل ذلك بسبب الحرارة .

(٩) وبالحرارة كان السحاب والمطر والبخار الناشئ من البحار ونحوها والرياح .

(١٠) والكهربائية والضوء ونحوها لها أعمال مشهورة عجيبة من حرم منها حرم السعادة وذلّ فى هذه الدنيا . هذا بعض تفسير قوله تعالى « أو أجد على النار هدى » أى من يهدينى لدينى أو طريق ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية فى الآيتين الكبريين فى سورة طه وفى سورة النجم ، وفى قوله تعالى :
«تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى»

هاتان آيتان كبريان (إحداهما) رآها موسى (والثانية) رآها نبينا صلى الله عليه وسلم ، فالتى رآها موسى هى اليد التى أدخلها فى جيبه فخرجت بيضاء ، وكذا العصا التى قلبت حية والآية التى رآها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هى ما ورد فى الأحاديث مثل قوله «ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة قال هذه سدرة المنتهى» وفى رواية «ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى» إلى أن قال «فلما غشيها من أمر الله ماغشى تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها» ثم ذكر بعد ذلك أنه فرض عليه الصلوات وعلى أمته .

هذه هى الآيات الكبرى ففى عند موسى أمثال عصاه المنقلبة حية ، وعند نبينا صلى الله عليه وسلم مثل سدرة المنتهى العظيمة الثمرة الكبيرة الأوراق ومثل أنها غشيها من أمر الله ما غشيها فتغيرت فأصبحت ذات حسن لا يستطيع أحد وصفه . آية موسى فى العجائب الأرضية ، وآية محمد صلى الله عليه وسلم فى العجائب السماوية . آية موسى تغيرت فى العصا التى انقلبت حية ، وفى يده إذ صارت بيضاء بعد أن لم تكن كذلك . هذه هى آيات الله الكبرى .

هاتان الآيتان المحمدية والموسوية نزلتا فى ديننا لفتح باب العلوم ، والعلوم التى تضمنتها الآيتان الكبريان علوم سماوية وعلوم أرضية ، كبر الآية لأحد أمرين : إما لأنها عظيمة الحجم هائلة وأنها فيها جمال يفوق الوصف ، وإما لأن فيها حسنا بديعا غريبا وليس لها أسباب معروفة ، فالأول فى وصف آيات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

والثانى فى وصف آية موسى ، ومن جهة أخرى لاتعدو الآيات الكبرى أحد أمرين : إما عظم الحجم والمقدار ، وإما الابداع فى تغير الأوصاف بحال غريبة ، ومن الأول كون الورق كآذان الفيلة ، ومن الثانى انقلاب العصا حية وبياض اليد .

هذه أمور وقعت للأنبياء والأنبياء قدوة لأممهم ولم تنقطع آيات الله بعد الأنبياء ، وكيف تنقطع وقد علمنا أن الله كما كان يرى الناس على يد موسى العصا ويقول إنه آية هكذا هو يرينا نحن آيات كثيرة فهو يقول : «سيريكم آياته فأى آيات الله تنكرون » ويقول «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» ويقول «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر» وهكذا فى سورة (الروم) أن من آياته خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان والنوم بالليل والنهار وطلب الرزق والبرق وإنزال الماء وإخراج النبات وكون العالم كله قائما بأمره ، تبين من هذا أن الآيات كما أراها لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولموسى وقومه هو الآن يريها لنا لم تنقطع ولكنه وصف ماحصل للأنبياء بأنها آيات كبرى فياليت شعرى ما هذا السر ؟ هانحن أولاء نرى الآيات فى كل شىء فالكواكب آيات « وفى الأرض آيات للموقنين » الخ ، الآيات عن أيماننا وعن شمائلنا وفوقنا وتحتنا بنص القرآن . الله وعدنا أنه سيريها لنا وليست خاصة بسدرة المنتهى ولا بعصا موسى مثلا .

أقول: إن الآيات كبرها وصغرها على مقدار تأثيرها فى نفس من يراها ، فسدرة المنتهى لما غشيها ماغشيها امتازت بتأثيرها الشديد وفعلها القوى على مقتضى استعداده صلى الله عليه وسلم ، وهكذا عصا موسى ويده . فالآية فى الأولى والآية فى الأخرى فتحتا لنا أبواب العلم فى الآيات التى عندنا. الله أكبر قد انفتح باب الجواب وظهر السر المكنون فى هذه الآيات . نزل القرآن لرقينا نحن ، وليس للجاهل من سماع آية سدرة المنتهى ولا من سماع عصا موسى أثر لرقيه . تتكرر هاتان الآيتان الكبريان على أسماع الناس فى الأمم الاسلامية فيمر أكثرهم عليها وهم عنها معرضون ، وما علموا أنهما فتح لباب العلم بما فى الأرض والسماء .

غشى سدرة المنتهى من أمر الله ماغشيها فكانت آية كبرى لحسن المنظر وعظم الهيئة والإبداع السريع .

قلنا: إن كبر الآية على مقدار تأثيرها . فتأثير هاتين الآيتين كبير فلذلك كانتا كبيرتين . إذن لا تكون آيات السموات والأرض التى وعد الله أنه سيريها لنا فنعرفها نافعة إلا إذا تركت فى نفوسنا أثرا كما أثرت تانك الآيتان الكبريان ، ولن يكون الأثر فى نفوس الأتباع كالأثر فى نفوس المتبوعين ، بل الأثر هناك أعظم . وبالاختصار لا تفيدنا آيات السموات والأرض إلا بالبحث والعلم بحيث تصل إلى درجة يحدث عندها فى نفوسنا آثار تلك الآيات . وما مثل الآيات عند الغافل إلا كمثل الجمال عند العميان وحسن الصوت عند صم الآذان . وليس النائم من علم بما يجرى فى العالم من حزن وفرح وعز وذل ، فهو والميت فى هذا سواء .

لا علم لنا بآيات الله إلا بدراسة العلوم التى أحاطت بالأمم الاسلامية . ولقد جاء التصريح بذلك فى قوله تعالى «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» ، حقا إن هذا زمانه ، أرانا الله الآيات العلمية فى أوروبا وبلاد اليابان وتبعتها الصين فعلينا معرفتها . فها هو ذا أرانا الآيات فقرأناها فى كتبهم فهذا ليس يكفينا بل لابد من أن تعرفها . فهنا [أمران] إراءة من الله وقد حصلت فعلا بأمثال هذا التفسير وبالمدافع والطيارات فهذا التفسير إراءة من الله للمسلمين هو وأمثاله قولية وللمدافع والطيارات والغازات الخانقة التى يرسلها أهل الغرب على بعض بلاد الاسلام آيات فعلية (وبعبارة أخرى) آيات السيف وآيات القلم .

فعل الله الآن مع المسلمين مافعله للمعز لدين الله الفاطمى إذ فرق الذهب على عظماء الأمة المصرية فى المجلس وقال هذا حسبى ثم جرد سيفه وقال هذا نسبى . وهذا هو نظام الله كله . جنة ونار وقلم وسيف وهو غفور رحيم وهو شديد العقاب وهو عزيز جبار متكبر كما أنه ودود رحيم لطيف وهاب رزاق فتاح الخ .

فهذان الوصفان اليوم قد ظهرا لأمة الإسلام . أحاطت بهم الأمم من كل جانب وهم جاهلون نائمون فرفع السيف عليهم والطيارات والغازات الخانقة وألهم رجال العلم فى الإسلام فأروهم اليوم أن العلوم لابد منها حتى يمكن أن نعيش مع الناس . وما العلوم إلا آيات الله وآيات الله هى كل ما حولنا نراه أو نلمسه وهذه لاتؤثر فى نفوسنا وتكون جميلة المحيا بهجة إلا بالدرس، والدرس هو الذى يجلى هذه العوالم لنا باسمة الثغر جميلة المحيا حسنة الشكل بهجة تسر الناظرين كما كانت سدرة المنتهى وكما كانت عصا موسى . فسدرة المنتهى تشير لعلم الفلك وعصا موسى ويده تشيران لعلم الطبيعة والكيمياء . نحن لا نعقل جمال السماء فتكون عندنا آية من آيات الله إلا بعلم الفلك ولا نعقل عجائب الأرض إلا بدراسة علم الطبيعة والكيمياء . الكيمياء سحر حلال هى إبداع الله فى الأرض . هى بهجة الدنيا ، بها تنقلب الأجسام من حال إلى حال وتبهج العقول وتحير الأفكار وإذن تكون هذه من آيات الله التى رآها لنا فعرفناها ، فأما إذا لم نقرأ هذه العلوم فانه يكون أراها لنا ولم نعرفها، وهذا هو الخزى العظيم ، الله يرينا ونحن لا نريد أن نرى ولا نقتدى بأنبيائه إذ أراهم الله فرأوا . نعم هم رأوا بالهداية الإلهية والوحى، ولكن نحن مأمورون بالعمل والفكر حتى نفهم الآيات فلسنا أنبياء بل نحن مكلفون بالاقتداء . إن المسلمين إذا لم يفكروا فى مثل هذا فقد أساءوا الظن بكتاب الله .

إن هذه الآيات انما نزلت لمثل هذا المقام . بل أقول : نزلت لترينا فى هذا الزمان مايجب علينا من قراءة العلوم .

هذا التفسير وأمثال هذا التفسير من نوع إراءة الله للمسلمين . فعلى المسلمين بعد اليوم أن يعرفوا كل علم على حسب ماقررناه فى أواخر سورة (البقرة) عند قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وفى مواضع أخرى .

هذه العلوم هى التى ترينا الجمال فى هذه الدنيا والبهجة ، وكنت أودّ أن أورد مسائل من علوم السموات والأرض ولكن قد مر فى هذا التفسير والحمد لله ، عجائب وعجائب تشرح صدر اللبيب وهى كثيرة فى كل سورة تقدمت مثل إن مادة الفحم هى بعينها الألماس . فهذا العنصر نفسه هو نفس الفحم وهكذا الفحم يستخرج منه العلماء مئات الألوان للصباغة وغير ذلك ، وقد تقدم الكلام عليه بإسهاب فى أول سورة (الأنعام) وهكذا أعظم الكواكب تراه فى كل السور السابقة تقريبا مثل مامرّ فى أول سورة (يونس) وغيرها . كل ذلك عجب بل من أعجب العجب ولكن الذى منع التعجب إنما هو العادة فالناس لاعتيادهم النظر إلى ما حولهم غشى على عقولهم . وليس يحصل التعجب إلا إذا حصل أحد [أمرين] إما أن يكون الأمر خارقا للعادة كما إذا رأى الإنسان نباتا غريبا أو حيوانا غريبا فانه يدهش ويعجب ويسبح ربه مع أن هذا الحيوان عند القوم الذين يعيش بين ظهرانيهم لايلتفتون إليه . وإما أن يتعلم الإنسان سر الأشياء بالعلوم المشهورة فكل ما كان غريبا على النفس يثير فيها الإعجاب، وكل ما كان معتادا لا يحرّك منها ساكنا . بل إن العصا تقلب حية على طول الزمان ، فالعصا قد تتفتت ويعتريها البلى وتصبح من مواد الأرض بالتركيب ثم تصير طعاما لبعض الحشرات وتلك الحشرات تأكلها الحيات فتنقلب إليها .

إن العالم الذى نعيش فيه فى تقلب مستمر فكل ينقلب إلى كل على طول الزمان ولكن هذا لاعتياد الناس عليه لا يؤثر فيهم . فعلى قادة الأمم الإسلامية أن يثيروا الإعجاب فى نفوس الطلاب بما ينشرون فى مؤلفاتهم للأطفال وغيرهم صور العجائب التى تبهجهم ليبرز ما كمن فى نفوسهم من الوجدان وحب العلم كما فعلت الفرنجة إذ يرسمون لأبنائهم فى كتبهم صور العجائب البديعة .

الورق والحرير من الخشب

(١) وأذكرك اليوم ما قرأته عن أمم الألمان إذ جاء من أخبارهم الزراعية أن لديهم ثلاثين ألف ألف فدان من مائة ألف ألف فدان صالحة للزرع لا تأتى لهم بغذاء الإنسان والحيوان وإنما هى غابات تعطيهم موادّ البناء والأدوات والرياش . وهكذا فيها المواد الأولية لصناعة الورق والحرير الاصطناعى لأنهم يستخرجون منها (رب الورق) و (السليلوس) وهو المادة الأولية لصنع الحرير الصناعى الذى انتشرت صناعته وأخذت فى الازدياد بالنسبة إلى ذيوع استعماله لاسيما بعد إتقان صنعه وجعله متينا وذلك فضلا عن اتخاذ خشب هذه الأشجار ومتخلفات أشجارها للتدفئة .

هذا هو الذى قرأته اليوم (١١ نوفمبر سنة ١٩٢٧) عن أمم الألمان أثناء كتابة هذا الموضوع فتأمل أن الحرير يتخذ من الخشب وكذلك الورق أمرهما عجب عندنا لغرابته فكيف تكون الأشجار التى نوقد منها ونصنع أدواتنا نلبس منها أغلى الملابس وأجملها وأبهجها ؟ فنشر أمثال هذا فى بلادنا يثير الإعجاب أوّلا وحب العلم [وثانيا] يبعث فى النفوس حب استخراج المنافع من الأرض وما عليها [وثالثا] يبعث فريقا من الناس على حب صانع هذا العالم الجميل .

(٢) الحرير ينبت فى الصخر وهو يسمى (الحرير الصخرى) وهل أتاك نبأ (الحرير الصخرى) ذلك الذى يكون على بعض الصخور وقد يلبسه رجال المطافئ لأن من خواصه أنه إذا وضع على النار لا يحترق . ولقد وضعته أنا بنفسى على النار لطلبة (دار العلوم) إذ كان مدرس هذا العلم غائبا وأنابنى عنه فصار الطلبة يتعجبون ولما وضعته على النار مدة وطلبوا بقاءه مدة أخرى لم يتأثر وإنما النار تحرق الجراثيم المتعلقة به فتنظفه فهى بالنسبة له تقوم مقام الماء .

(٣) وهل أتاك نبأ (شجرة الخبز) التى تنبت فى بعض بلاد (آسيا) وقد ذكرتها فى كتاب [جمال العالم] أو [جواهر العلوم] وكيف يأكل القوم هناك منها خبزا كالخبز الذى نتعاطاه نحن فى بلادنا ،

(٤) وهكذا شجرة (القشدة) التى يتخذ منها القوم لبنا خالصا سائغا للشاربين وهى مذكورة هناك .

بهجة العلم

فتصور أيها الذكى بيتا تسكنه من الخشب وكراسيه وأدواته منه والملابس التى تلبسها أنت وأهلك إما من حرير الخشب الذى يتخذه الألمان وإما من الحرير الصخرى وكلاهما حلال فى ديننا لأنه ليس حرير الدودة ثم جميع الفرش والمساند من ذلك الحرير ، ثم إنك اتخذت أنت وأهل بيتك مواقد وأدوات النار كلها من الخشب وقد غلفت وغطيت بأغطية من الحرير الصخرى للذكور وأخذتم تأكلون الخبز واللبن والزبدة من الشجر ، فماذا بقى بعد الآن ؟ أنبت الله لنا منازل وملابس ومآكل ومشارب كلها من الأرض بلا فضل حيوان ولا إنسان . هذه من آيات الله عند الحكماء ولا عبرة بها عند الجهلاء ، تذكرنا بهذا آية «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» وآية اليد والعصا . اللهم إنى أنذرت وحذرت ونصحت على مقدار جهدى ، وأنت يا الله مدبر الخلق محكم التدبير مبدع المعجزات والغرائب . فكما أبدعت من الشجر لبنا وخبزا ومن الصخر حريرا فاجعل اللهم بعد جهل المسلمين علما واشتق من نومهم يقظة ومن ضعفهم قوة ومن ذلهم عزة إنك على ماتشاء قدير . انتهى صباح يوم السبت ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٧ .

القصل الثالث من قوله «إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى» إلى قوله «وذلك جزاء من تزكى»

قال تعالى (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى» أى إنما يعذب الله من كذب بما جئنا به (قال) فرعون (فمن ربكما ياموسى) أى فمن إلهكما (قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى)

أى أعطى كل شىء من الأنواع صورته وشكله الذى يطابق كماله الممكن له ثم عرّفه كيف يرتفق بما أعطى له وكيف يتوصل إلى بقائه . فالإنسان والحيوان والنبات فى ذلك سواء كل أعطى صورته الخاصة به وألهم وتعلم كيف ينتفع به وذلك ظاهر فى الأولين . وأما النبات ففيه نوع حركة وحسّ ضعيف كما تقدم (قال فما بال القرون الأولى) أى فما حال القرون الماضية والأمم الخالية (قال علمها عند ربى) أى إنه غيب لا يعلمه إلا الله فأنا عبد مثلك لا أعلم إلا ما علمنى ربى (فى كتاب) أى كأنه فى كتاب وهذا تمثيل لرسوخ العلم عند الله لايضيع كما قال (لا يضل ربى ولا ينسى) ضل الرجل أخطأ الشىء ولم يهتد إليه ونسى إذا ذهب عنه الشىء بحيث لايخطر بباله وهذان محالان على الله تعالى . ثم وصف الرب بأنه (الذى جعل لكم الأرض مهدا) وقرىء «مهادا» فالمهد مصدر سمى به أى جعلها لكم كالمهد تتمهدونها والمهاد اسم لما يفرش أو جمع مهد ، فمحصل المعنى أن الأرض تتقلب فيها كما يتقلب الصبى فى مهده الذى مهد له وارتاح فيه واطمأنّ إليه وسكن له (وسلك لكم فيها سبلا) وجعل لكم فيها سبلا بين الجبال والأودية والبرارى تسلكونها من قطر إلى قطر ومن أمة إلى أمة (وأنزل من السماء ماء) مطرا (فأخرجنا به) بذلك الماء (أزواجا) أصنافا ، ثم وصفها وبينها فقال (من نبات شتى) وشتى صفة نبات وهو جمع شتيت كمريض ومرضى: أى متفرقات فى الصور والأعراض والألوان والطعوم والمنافع الخ . يقول الله فأخرجنا بذلك الماء أزواجا الخ حال كوننا قائلين (كلوا وارعوا أنعامكم) أى آذنين فيه (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) أى لذوى العقول جمع نهية (منها خلقناكم) فالمادة الأرضية منها خلق آدم وخلقنا لأنها تكون نباتا وحيوانا وهما يصبحان أغذية لنا تصير دما فلحما فعظاما . فنحن من التراب لا آدم وحده (وفيها نعيدكم) للدفن فنفكك ما ركبناه من أجزاء أبدانكم (ومنها نخرجكم تارة أخرى) يوم القيامة للبعث والحساب فنؤلف أجزاءكم ونردّ إليها أرواحكم (ولقد أريناه آياتنا كلها) بصرناه وعرّفناه صحتها سواء أكانت خارقة للعادة أو كانت تبصرة وذكرى فى الكائنات المذكورة (فكذّب وأبى) الإيمان والطاعة لعتوّه وقوله (من أرضنا) أرض مصر (بسحرك ياموسى) هذه حيرة منه فان الساحر لا يطرد ملكا من ملكه وإنما يطرده النبى فكأنه شعر بصدقه (بسحر مثله) مثل سحرك (فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه) أى مكان موعد : أى وعد لانخلف الموعد (نحن ولا أنت) ثم أبدل من المكان المقدر قوله (مكانا) ووصفه بأنه (سوى) بضم السين وكسرها وهو من الاستواء أى منصفا بيننا وبينك : أى يستوى مسافته إلينا وإليك بحيث لايجاوز أحدنا ما حدد له من المكان . فهذا أفاد أن الوعد لايخلف وأن المكان يكون مناصفة بينهما وحينئذ أجاب و (قال موعدكم يوم الزينة) قد كان الطلب للمكان وهذا الجواب للزمان فيقال إن يوم الزينة الذى هو يوم [النيروز] عند الأمة المصرية كان له مكان معين فبهذا عرف الزمان والمكان (وأن يحشر الناس ضحى) أى يجمع الناس وقت الضحوة نهاراً جهارا ليكون أبعد من الريبة (فتولى فرعون) أدبر عن موسى معرضا (فجمع كيده) مكره وسحرته ولا معنى لعدّهم (ثم أتى) للموعد (قال لهم موسى) أى للسحرة (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا) لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا (فيسحتكم) فيستأصلكم ويهلككم (بعذاب) عظيم (وقد خاب من افترى) من كذب على الله (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) أى المناجاة: أى اختلفوا فيما يعارضون به موسى وتشاوروا فى السرّ وأدلى كل فريق بحجته وأسروا فيما بينهم وهم يتناجون : إنه إن غلبنا اتبعناه لأنه إذن يكون نبيا ، ثم أعلنوا ما يأتى (قالوا) بالعلانية (إن هذان لساحران) أى إنه أى الحال والشان هذان لساحران فالمبتدأ والخبر جملة خبر إن المخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) مصر (بسحرهما ويذهبا بطريقتكم) بدينكم وشرعتكم (المثلى) الفضلى تأنيث الأمثل وهو الأفضل (فأجمعوا) فأحكموا: أى اجعلوه مجمعا عليه (كيدكم) هو ما يكاد به (ثم ائتوا صفا) أى حال كونكم مصطفين لأنه أهيب فى صدور الرائين (وقد أفلح اليوم من

استعلى) وقد فاز من غلب والجملة اعتراضية (قالوا) أى السحرة (ياموسى إما أن تلقى) عصاك أولا (وإما أن نكون أول من ألقى) أى اختر أحد الأمرين وإن وما بعدها فى الموضعين مصدر منصوب بالفعل المضمر الذى ذكرناه وذلك للأدب (قال بل ألقوا) مقابلة أدب بأدب وإشارة إلى أنه لايبالى بسحرهم فألقوا حبالهم وعصيهم التى لطخوها بالزئبق الذى من عادته أن يتأثر سريعا بحرارة الشمس فما أسرع أن تحركت تلك الحبال والعصى (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) أى فألقوا ففاجأ موسى وقت خييل سعى حبالهم وعصيهم من سحرهم فإذا هى للمفاجأة (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) فأضمر فيها خوفا من مفاجأته بذلك على مقتضى الطباع البشرية (قلنا لا تخف) ما توهمت وعلل ذلك بقوله (إنك أنت الأعلى ، وألق مافى يمينك) يا موسى (تلقف ما صنعوا) أى تلتقم وتبتلع (إنما صنعوا كيد ساحر) أى حيلة ساحر (ولا يفلح الساحر) أى جنسه (حيث أتى) حيث كان وأين أقبل (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى) فهم أولا ألقوا حبالهم وثانيا ألقوا رءوسهم للسجود (قال) فرعون (آمنتم له قبل أن آذن لكم) فى الإيمان له (إنه لكبيركم) لعظيمكم فى فنكم (الذى علمكم السحر) وأنتم تواطأتم على ما فعلتم (فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) اليد اليمنى والرجل اليسرى أى لأقطعنها مختلفات (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) لما تمكن المصلوب من المصلوب عليه جعل كأنه فيه وقد أطال فى ذلك علماء البيان فلا نضيع وقتنا فى العلوم الصناعية (ولتعلمن أينا) أنا أو رب موسى (أشد عذابا وأبقى) أدوم (قالوا لن نؤثرك) لن نختارك (على ما جاءنا من البينات) القاطعة الدالة على صدق موسى (والذى فطرنا) عطف على «ماجاءنا» (فاقض ما أنت قاض) أى ما أنت قاضيه أى صانعه أو حاكم به (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إنما تحكم علينا فى الدنيا.وليس لك علينا سلطان فى الآخرة . فقوله « هذه الحياة الدنيا » منصوب على الظرف (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) ما أكرهتنا معطوف على خطايانا ، يقال إن السحرة عرفوا بعلامات عندهم أن موسى عليه السلام ليس ساحرا فأبى فرعون عليهم وأكرههم على معارضته (والله خير) منك ثوابا (وأبقى) عقابا (إنه) أى الحال والشان (من يأت ربه مجرما) كافرا (فإن له) للمجرم (جهنم لا يموت فيها) فيستريح (ولا يحيا) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) مات على الإيمان (قد عمل الصالحات) بعد الإيمان (فأولئك لهم الدرجات العلى) جمع العليا ثم أبدل منها (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) دائمين فيها (وذلك جزاء من تزكى) تطهر من الشرك بقوله : لا إله إلا الله وهذه الآيات الثلاث من كلام الله . انتهى التفسير اللفظى للفصل الثالث . وهنا [أربع لطائف]:

(١) فى قوله « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» .
(٢) وفى قوله « قال فما بال القرون الأولى » الخ .
(٣) وفى قوله « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » .
(٤) وفى قوله « فألقى السحرة سجدا » .

اللطيفة الأولى « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »
وفى اتصال هذه السورة بالسور قبلها

هنا بيت القصيد من رسالة الأنبياء . فإنه لما سئل عن ربه لم يجب إلا بأنه هو الذى صور الصور وهدى كل نوع من الأنواع مستقره ومستودعه وأحواله الخاصة به . ثم اعلم أن هذه السورة متصلة بالسور قبلها كأنها هى سلسلة واحدة ، ألاترى أن سورة الحجر قد جاء فيها ذكر أنواع المواليد الثلاثة مرتبة من أدناها إلى أعلاها ثم فى سورة النحل من أعلاها إلى أدناها ثم ذكر بينها الإنسان تارة أخرى هناك ثم جاءت سورة الإسراء وهنا ظهر عالم الأرواح فى الإسراء ، وفى مسألة الروح وتجلى موسى فى السماء السادسة وقابل نبينا محمدا ﷺ وراجع ﷺ ربه بإشاراته فى الصلوات الخمس وما زاد عليها فهذه المحاورة بينهما والمجاورة فى العمل أشارت إلى مابين

الأمتين من علاقات العلم ، لهذا جاء فى سورة الإسراء تقلب أمة اليهود فى النعيم والشقاء التابعين علمها فى الملك . ثم تبع ذلك قصص الخضر فى سورة الكهف وكيف كان أمره مع موسى وتلاه الإشارة إلى مناجاة موسى فى سورة مريم وإتمام ذلك كله هنا فى سورة طه . فالإسراء والمحادثة فيها يناسبها أن تكون دروس الأمة الإسلامية مشتقة من قصص موسى . فتارة يذكر نظام دولهم وتارة يبين طريق تعليمهم وأن علم الله فوق علم العالم وتارة يصف الدعوة وكيف كان موسى يدعو فرعون . فهذه السورة متصلة بما قبلها أى أن هذه القصة هنا إتمام لما جاء فى سورة مريم من النبذة الخاصة بموسى وتكميلا للتعلم . فإذا ظهر فى سورة (الإسراء) نظام الدول وفى الكهف إشراق العلم . ففى مريم وفى طه تبين الجمال الأصلى وازدهر العلم فيها ازدهارا . ألا ترى كيف جعل العصا رمزا لنظام الطبيعة وباعثا قويا على فهم تقلباتها كما قررناه كأنه يقول أيها الناس من هنا فليكن البحث . فاذا رأيتم العصا وانقلابها حية فاعلموا أنكم فى مادة كلها صور منقلبة منتظمة فادرسوها .

تمثيل القصص القرآنى بالنظام الطبيعى

واعلم أن قول الله وعمله متناسبان . ألا ترى أنه يقول « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فقوله وفعله متناسبان تناسبا حقيقيا. أفلا تنظر معى إلى الذكور والإناث من نوع الانسان. أفلا ترى أن الله سلط على كل من الذكر والأنثى الشبق والشهوة بحيث لا يخطر ببال الشاب ولا الشابة وقت الخطبة إلا الاقتراب لقضاء الشهوات . فأما ذكر الولد ونظام الأسرة وما أشبه ذلك فإنما هو أمر ثانوى . فترى الشاب والشابة كل منهما يرى أن كل آماله أن يحظى بهذه الشهوة التى استوى فيها هو وسائر الحيوان والنبات حتى إذا ما اقترنا واقتربا واختلطا وحملت وولدت . فماذا ترى . ترى أن بعض الحب والغرام والعطف انتقل إلى هذا المولود . ترى هذا الشاب الذى كان مملوءا شبقا وغراما وعشقا وشوقا لزوجه قد اقتطع من هذا كله جزء وجعل بصفة أخرى وهى صفة الرحمة فانقلب بعض الشهوة رحمة ثم لا تزال الشهوة تتضاءل والرحمة تتكامل ويعقب ذلك كله حب للزوجة ينمو على وجه أعلى وهو حب المنفعة ونظام الأسرة فينتقل الحب من الشهوة إلى حب المنفعة ونظام الأسرة وحب الأخلاق والشمائل لا لمجرد الشهوات حتى إذا كبرا انقلبت جميع تلك الطباع فأصبحت رحمة وتربية وعطفا وإخلاصا قلبيا لا شهوة معه وبالاختصار انقلبت الشهوة رحمة وكانت النتيجة الولد . فأوله شهوة وآخره نسل فالشهوات إذن مبدأ العمران ونظام المدن ، هذا ما جرى فى الطبيعة .

انظر فى هذه القصص . يذكر فى القرآن عصا موسى ونار الطيق المتقدة ثم ننظر فنرى أن العامة يفرحون بها وتنشرح صدورهم بل الله سبحانه ألهم العقلاء فى كل أمة فألفوا قصصا سارا جامعا لنوع اللذة الحاصلة من الغرابة والفكاهة مع الإشارة إلى بعض الفضائل . فمثل ما فى القرآن أشبه بالجمال الطبيعى ومثل ما فى [كليلة ودمنة] من حكاية الثور والأسد والذئب وابن آوى والنمر والثعلب والحمامة المطوقة وما أشبه ذلك كمثل الحلى المصنوع بأيدى البشر . وكما أن الجمال الحقيق فى الغوانى والتكلف المصنوع بأيدى البشر من الحلى قد أنتجا البنين والبنات بالاقتران هكذا الجمال الحقيق فى قصص القرآن من العصا والحية وحكاية موسى وهرون والجمال الصناعى الذى صاغته أيدى البشر فى الروايات التى تخيلوها قد أنتجت أدبا جما وعلما وحكمة . ناهيك ما ترى فى هذه السورة . لم يكتف الله سبحانه بما ذكره فى أول السورة من السموات والأرض بل رجع إلى ذلك ثانيا فذكر أنه « أعطى كل شىء خلقه » الخ ثم أبان أنه أنزل من السماء ماء وذكر النبات وأنواعه والبهائم ونوع الإنسان إذ يولد ويموت ويبعث . هذه هى دائرة الوجود وسلسلة المواليد الثلاثة بعد ذكر السموات والأرض . فها هو ذا أعادها هنا كما ذكرها فى النحل والحجرات . هذه العجائب قد أشار لها بعصا موسى وتقلبها ثم أوضحها فى خطاب فرعون وصرح بالمطلوب من ذلك فقال « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى »

كأنه يقول إن عجائب هذه الدنيا هي الآيات التي يفهمها أصحاب العقول التي تنهى عن الشر والجهل . فكما ترى الشاب والشابة قد تدرجا في حياتهما من الشهوات الجاذبات للاقتران إلى تربية الذرية وإصلاح الحياة . هكذا تدرج الجهال والأطفال عند سماع القصص الشريف والمعنى اللطيف والأدب الجم في القرآن والأدب الصناعي في غيره إلى الحكمة والعلم وفهم الحقائق الكونيـة . وكما ترى أن الشاب والشـابة يصيران في آخر أمرهما مشتركين في التربية وقد صارا شيخين كبيرين لا هم لهما إلا نظام الأبناء وتربيتهم وزواجهم وزواجهن . هكذا حكماء هذه الأمة وعقلاؤها ينظرون في أمثال قصص موسى وهارون شيئا فشيئا مستلذين به فرحين ويتدرجون منه إلى العلوم الطبيعية المحيطة بنا مستأنسين أولا بالنار والعليق وبالعصا والحية وتقلبها ثم بعد ذلك يتعلقون بنفس الحقائق مباشرة كما ترى في قوله تعالى « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » وفي قوله « الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا » إلى آخر هذه السلسلة النباتية والحيوانية والإنسانية إلى نهاية البحث .

فياعجبا لأمة الإسلام . يكون هذا الدين على هذا المنوال يتدرج بهم من العلم الأدبي في القصص إلى العلم الطبيعي ويتخذ لذلك الأساليب والطرق العجيبة تارة بذكر الأعاجيب والمعجزات وتلون الطبيعة وتشكلها على أيدي الأنبياء وتارة بالإضاءة والاشراق النارى في الأشجار الخضراء مع خطاب الله لهم وتارة يصرح بأن الله هو الذي نوع الأنواع وشكل الأشكال وألهم كل نوع ما أصلح حياته وأسعده ثم هم مع ذلك نائمون في أخريات الأمم وقد سبقتهم أوروبا وهم لايعلمون وشيوخهم لايريدون إيقاظهم بل كثير منهم نائمون عن هذه العلوم بل بعضهم لجهله يكفر من بها يؤمنون وما الكفر إلا بترك العلوم القرآنية «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»

اللطيفة الثانية في قوله تعالى « قال فما بال القرون الأولى » وقوله « ولقد أريناه آياتنا كلها »
وقوله « فألقى السحرة سجدا » الخ

تبين لك في اللطيفة السابقة كيف تلطف القرآن بالخروج من قصص الأنبياء إلى العلوم الطبيعية . أفلا تنظر إلى محاورة فرعون لما سمع موسى يقول « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ماذا عمل وقصد أن يرجع إلى سنة المعاندين وطريق المنكرين ويعمد إلى التعجيز والتهويل والتهويش والخروج عن الحقائق إلى الخيالات كما هي سنة المعارضة والمجادلة وفعل مافعله القوم إذ طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يوسع عليهم أرض مكة بأن يزيل جبالها ونحو ذلك ، أو بأن يقص عليهم قصص فتية الكهف ، أو علم الروح ، أو تاريخ ذي القرنين مما ذكر فيما تقدم إذ طلبوه تعنتا لا طلبا للحقائق وقد أجيبوا للبعض مما فيه فائدة ولم يجابوا لما ليس فيه فائدة وقد حذر الله من هذا فيما تقدم وأفهم الناس أن الأنبياء جاءوا للارشاد وإنما هم بشر فلا يقولون من العلم إلا ماعلمهم الله وماعدا ذلك لافائدة منه . فالأنبياء لايعطون من العلم إلا ماينفع في رسالاتهم وماعداه ضياع لأوقاتهم ولأوقات أممهم . هذا كله يؤخذ مما تقدم في السور السابقة .

هكذا هنا يقول فرعون حين سمع الحجة العقلية المبنية على النظر في الطبيعة قال لموسى هل تقص لي قصص الأولين من المصريين مثلا والآشوريين والبابليين . ولعله ذكر أمة من تلك الأمم أو حادثة يرجع تاريخها إلى قدماء المصريين مثلا ، فقال موسى ومالنا ولهذا هذا علمه عند ربي فارجع إلى مانحن بصدده أنا رسول من عند ربك هو أرسلني . أرسلك بماذا ؟ أرسلني بالحجج وقد أريتك العصا واليد وها أنا ذا نقلتك إلى ماهو صنعه تعالى وفعله وقلت لك انظر صور هذه المخلوقات وإلهاماتها وغرائزها واقرأ علوم الطبيعة فأنت يافرعون تحاورني لتخرجني عما رسم لي من العلم . تدرّجت إليـك من خوارق الطبيعة إلى نفس علم الطبيعة وأنت تخرجني إلى علوم التاريخ والأدب لا لا ، إن علمها عند ربي في كتاب ارجع إلى ما كنا فيه واقرأ العلم في طرق

الأرض ومسالكها وإنزال الماء من السماء وخروج النبات واختلافه والأنعام ورعيها له وأن الناس خلقوا على الأرض وانتفعوا بهذا كله ثم يموتون ويحشرون ويحاسبون . هنالك آن أن يقول الله «ولقد أريناه آياتنا كلها» أى الآيات التى هى خوارق للعادات تنفع العامة والآيات الطبيعية التى هى للخاصة . فالآيات بقسميها خارقة وغير خارقة قد أريناها لفرعون وهذا تقرير قوله «ولقد أريناه آياتنا كلها» فالتعبير بالكل لأجل ما قررناه .

(موازنة إيمان السحرة بكفر بنى إسرائيل إذ عبدوا العجل وكل منهما قد شاهد العصا واليد)

لما استبان أن هذه الآيات المنقسمة إلى قسمين قد اتضحت لفرعون قص الله علينا أمرين اثنين : أمر السحرة وإيمانهم كما رأيت وسيأتى لك قصص بنى إسرائيل وكفرهم لما آمنوا بعجل السامرى إذ صنع لهم عجلا جسدا لا روح فيه ، فلما سمعوا خواره آمنوا به . فههنا كفر من الجهلاء وهم بنو إسرائيل وإيمان من العلماء وهم السحرة .

إن السحرة شاهدوا العصا وشاهدوا اليد وشاهدوا أن العصا قد ابتلعت حبالهم وعصيهم وبنو إسرائيل شاهدوا ذلك ولكن فرق بين الأمرين ، فالجهلاء لا يفقهون هذا ولكن هؤلاء السحرة العلماء أدركوا أن الطبيعة التى قرءوها والعلوم التى زاولوها لا تقوى على أن عصا تبتلع هذا كله فأما بنو إسرائيل فهم جاهلون لا يفرقون بين هذا وذاك إنما هم يتبعون كل ما أمامهم فما هم إلا كأطفال تعطيهم الحلواء فيأكلونها وتأتى لهم بحلواء أخرى فيأكلونها فهم تبع حواسهم لا دراسة عندهم . جاء لهم موسى بالعصا فآمنوا ، ثم جاء السامرى بالعجل فقالوا إن العجل الذى نطق وصار ثورا عظيما أحق بالعبادة من رب موسى وأى شأن للعصا فى جانب هذا العجل الذهبى . هذا برهان من الله أن الإيمان المبنى على مثل قلب العصا حية لا ثبات له وأنه إن لم يتبع بالبراهين العقلية فإنه ذاهب أدراج الرياح وعرضة للتقلب والضياع وأن المدار إنما هو على العلوم ونظام الطبيعة ودراسة ما خطه الله على قرطاس الكون من بهجة العلوم ورونق المعارف وما عدا ذلك فهو مقدمات اهـ .

(القرآن الكريم والفيلسوف اسبنسر)

لعلك تقول مالنا وللفيلسوف (اسبنسر) وأى فائدة من ذكره ومالنا وله ؟. أقول لك أذكره لأقرر لك حقيقة عجيبة . أنا هنا بينت لك أن القرآن فى هذه السورة أفادنا أن علوم الطبيعة أفضل وأرقى من علوم الأوائل . وبعبارة أخرى أفضل من علم التاريخ فان موسى لما سمع فرعون يعرّج على علوم الأوائل ، قال ارجع إلى الأرض وعجائبها : أى فكر بعقلك وانظر حولنا فى أرضنا وسمواتنا .

هذا هو الذى قدمنا فهل لك أن تسمع ما قرره العلامة (اسبنسر) حتى تعلم أن آخر ما وصل إليه العلماء اليوم فى أوروبا وقرروه هو الذى جاء فى سورة (طه) بعينه والمسلمون لا يريدون أن ينظروا فيه فلنذكر ما قاله الفرنجة حتى تعلم أن الأمة الإسلامية ستنال حظها من العلم بعد أن تنشر هذه الآراء بينها وتعلم أن الرقى الذى فى أوروبا الآن هو الذى قرره القرآن وآباؤنا المتأخرون عنه نائمون ، وسترى فى سورة (الشعراء) عند قوله تعالى «والشعراء يتبعهم الغاوون» كيف كان خراب الأندلس آتيا من غفلة المسلمين عن الحكمة والعلم وانهماكهم فى الشعر مع استيقاظ أعدائهم الأسبان للحكمة وأن هذا من مصدقات آية « والشعراء يتبعهم الغاوون» .

قال العلامة (اسبنسر) فى كتاب [التربية] ما يأتى :

(١) إن الله قد وضع فى الطبيعة نظاما يجمع بين تقدمنا فى الحياة وتدريبنا معا بعكس ما يجمله الناس

فى المدارس ، فالمعلمون فى المدارس يعطون التلميذ نماذج وضعوها بأنفسهم لمجرد كونها تمرينا فى الحساب أو الهندسة أو غيرهما لتكون طريقا إلى أعماله فى الحياة . أما الطبيعة فان الله لكونه كاملا كلها ، فبينا ترى الهندى الأحمر المتوحش يطارد الفريسة ليستفيد منها الغذاء يكون هو نفسه أثناء العدو قد تمرن على سرعة الحركات والخفة والقوة الجسمية وذلك أفضل من التمرينات العضلية الصناعية التى يستعملها ضباط المدارس للتلاميذ . فههنا أمران جاآ معا الغذاء وتمرين العضلات وذلك من الاقتصاد الموضوع فى نظام الطبيعة .

(٢) العلوم الطبيعية واللغات . وقد وازن بين العلوم الطبيعية واللغات ، فقال ماملخصه إن اللغات تكسب الانسان قوة الذاكرة ، والحق أن العلوم الطبيعية أجدر بهذه المنقبة وأحق بهذه الفضيلة . كيف لا وهناك فى الطبقات الصخرية الأرضية من الأنواع والعجائب مايفوت الحصر . وترى الناس يشتغلون بالأمور التافهة كالمناقشة فى قصيدة يونانية أو بدسيسة سابقة فى مملكة كدسائس (مارى) ملكة الاسكوت ثم هم يعرضون عن هذه القصيدة الجليلة التى نظمها الله .

أقول : ياسبحان الله ليسمع المسلمون لينظروا كيف يفطن رجل افرنجى ويقول هذا القول . كيف يفطن ويقول هذا القول الذى شرحه القرآن ألف مرة وهو فى هذه السورة أكثر شرحا . كيف يفطن أن نظم الله لقصائده الطبيعية أحسن من نظم الشعر وأولى وأهم من توافه التاريخ والدسائس الملكية وكيف يحقر الشعر والنظم وحوادث التاريخ ويبين أن جمال الطبيعة فوق كل جمال وماهى إلا من جماله . وكيف يقول ذلك والمسلمون نائمون ، وكيف يقول ذلك والمسلمون يضيعون أوقاتهم فى الخلاف بين سيبويه والكسائى ويصرفون أعمارهم فى علوم لفظية وأفضل من عرفناه من المتأزين يعيشون ويموتون وهم بالشعر مغرمون ولا يفتئون يحلون قصائد امرىء القيس وطرفة بن العبد ويرون ذلك أكبر مفخرة وأعظم معجزة ويتضلعون من التاريخ وسرد الحوادث ويملئون رءوسهم بأحاديث وسير أبى تمام والمتنبى والبحترى وأبى العلاء المعرى ويرون ذلك غاية المنى وهم عن العلوم معرضون ، أنا لا أقول نترك ذلك . كلا بل إنما يكون هذا العلم مقصودا لغيره أى أن الطالب يحذق فى علوم الأدب والتاريخ ثم يتضلع من الطبيعة . هذا الذى قلته أنا راجع إلى رجال المدارس فى عصرنا من مدرسى اللغة العربية . أما علماء الدين فى بلاد الاسلام فانهم غرقوا فى بحر لجى من الجدل والخلاف فى فروع الفقه وأصوله ، وأفضلهم من حذق فى أصول الفقه من مباحث الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ومتى برع فى هذا وقف عنده وأفهمه الأساتذة أنه قد انتهى إلى الغاية وهؤلاء وهؤلاء معرضون جميعا عما طلبه القرآن من عرفان نظام هذه الدنيا وبهجتها وماسنه الله فى خلقته وما أبدعه فى الطبيعة وما أبرز من الجمال المكنون والعلم البديع الذى برع فيه الفرنجة وفاقونا وأخذوا بلادنا وقهرونا على ملك آبائنا وأجدادنا فسألتك بالله يامن تقرأ هذا أن تكون عونا لهذه الأمة المسكينة البائسة الإسلامية وأن تمدها بعلمك وأن تأخذ بيدها فانا ذاهبون إلى الله قبلكم وتركنا هذا القول وديعة عندكم فأسألك بالله أن لا تضيع الأمانة وأسألك بالله أن ترشد الأمة أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن تهديهم وأن تقوم خطيبا فى كل مجمع وناد ومجلس وأن تدرس لهم ماقصه الله وتشرحه وتبين لهم ماشرحناه وتفكر فى الطرق التى تجذب هذه الأمة إلى معرفة ماذرأه الله فى الأرض والسموات وأن تحمل الأغنياء على بذل المال فى تعلم هذه العلوم الطبيعية وإذاعتها بين المسلمين فليس يعلم أكثر المسلمين الآن أن أمثال (اسبنسر) الإنجليزى يحرض على ازدياد العلوم التى رسمها القرآن وليس يعلم المسلمون أن ديننا يطلب العلوم التى يجهر بها هذا الفيلسوف وآلاف مثله وأن الطبيعة فوق شعر الشعراء ، وجمالها فوق كل جمال . إن جمالها من الله وجمال الشعر والتاريخ من صنع البشر وأى نسبة بين الجمالين ، ثم قال (اسبنسر) وما أكثر صور الطبيعة وما أقرب تمرينها للذاكرة

فاذا كانت اللغات كثيرة المناحي واسعة الكلمات والمقاصد فالطبيعة أوسع وأغزر . ناهيك ما ترى من عدد النجوم في المجرّة التي في السماء وهي البياض الذي يراه الناس في الليالي الصافية يظنونه سحابا وما هو بسحاب وإنما هو نجوم تباعدت عن الأنظار حتى اختلطت على الأبصار تعدّ بآلاف آلاف الآلاف وهكذا المواد التي تركبت منها تلك النجوم وقد أظهر تلك المواد علماء الكيمياء بنظرهم في طيف تلك الكواكب بشرح يطول وهكذا إذا نظر الناس لعلوم الضوء والحرارة والكهربائية والتشريح البشري والبيطري . وقد أحصى علماء النبات ما ميزوه من أجناس النبات فكان (٣٢٠) ألف جنس وعلماء الحيوان وجدوا أن عدد أجناسه (مليونان) أي (٢٫٠٠٠٫٠٠٠) جنس من الحيوان فلا ترى عالما واحدا قد أتقنها كلها وإنما يتقن فرعا واحدا .

(٣) يقول (اسبنسر) إن التضلع من العلوم الطبيعية كما أنه أفضل للذاكرة من حيث كثرة علومه . هكذا هو أفضل لها للصلة القائمة بين أجزاء الطبيعة بحيث لا يوجد مثلها في الكلمات . إن العلاقة بين الكلمات وبين المعاني علاقة غير طبيعية . إنها علاقة عرضية وأين العرض من الجوهر . ألا ترى أنك إذا تتبعت اشتقاق الكلمة ودققت تدقيقا فانك وإن سرت سيرا طبيعيا في الاهتداء إلى أصولها كارجاع ضارب إلى ضرب وكذا مضروب وضراب لا يمكنك الوصول في آخر الأمر إلى السبب في اختصاص الضاد والراء والباء بالعمل المخصوص ولا القاف والميم والراء لهذا الجرم المنير بالليل . ولماذا أوجب أن يكون قمر لهذا الجرم . ولماذا لم يكن (ح ب ر) كل ذلك مجهول عند الناس أي أن العلاقة ليست طبيعية بين الألفاظ وبين المعاني وإن كان الاشتقاق فيه العلاقة طبيعية . أما في الطبيعة فان العلاقة معقولة مقبولة يترسمها الطالب ويتتبعها .

(٤) وأيضا أن العلم الطبيعي يقوى ملكة الحكم . قال وقد أحسن الأستاذ (فارادای) في خطبة له عن التربية العقلية إذ يقول (إن أشيع العيوب العقلية هو ضعف ملكة الحكم) وقال ذاك الأستاذ أيضا (لم يقتصر المجتمع الانساني على جهله من حيث تربية ملكة الحكم حتى أضاف إلى ذلك الجهل بأنه جاهل بذلك) قال (اسبنسر) والأستاذ المذكور ينسب هذا النقص إلى فقد التربية العلمية . قال وقد أصاب فاننا مهما كان مبلغنا من اللغات ومعرفتها لا نصل إلى صحة الاستنتاج . وإنما يكون لنا ذلك بصحة الاستنتاج فيما يتعلق بالأسباب والنتائج ولا تستفاد ملكة الحكم الصحيح إلا من التعود على استنتاج النتائج من المقدمات ثم تحقيق هذه النتائج بالملاحظة والتجربة .

(٥) ويقول أيضا (إنه يهذب أخلاقنا فاننا بدل أن نخضع لآراء من سبقونا وحفظناها عن ظهر قلب وتقبلها قضية مسلمة ترى العلم الطبيعي يعوّدنا أن نعرف بأنفسنا وترى الضارّ والنافع بأنفسنا فيكون ذلك أمتن في اتباعنا واقتناعنا بصحته ، ولاريب أن العلم الطبيعي يعلم الاستقلال لأنه مبنى على ملاحظات يقينية والاستقلال في الرأى أهم وأنفس عناصر الأخلاق) .

(٦) وهو يعلمنا خلق المثابرة فان الجدّ في الأعمال الطبيعية العلمية يكسب قوة المثابرة على العمل وهي أضمن طريق للنجاح .

(٧) ثم إن دراسة هذا العلم تعلمنا كيف نطلب الأشياء بإخلاص فان جمال الطبيعة يبهج الطالب بهاؤه هذا الجمال واللذة يجعلانه مخلصا في الطلب فدراستها تعلمنا الإخلاص .

(٨) ومن أفضل الخصال التي ينالها المغرم بالعلوم الطبيعية نبذ الآراء المدخولة الفانية التي لا تعتصم بالحق وإن قبلها الجمهور ، فدارس علم الطبيعة ينبذ ماليس معقولا وإن صدق به الجمهور ولايبالى بما يقال مما ليس له قبول ، فهذه ثمانية خصال ينالها دارس علم الطبيعة نقلتها لك عن (اسبنسر) ولكن مثلت أمثلة تنطبق على عوائدنا وعلومنا ولكن المعاني كلها من كلامه ، نقلتها لك لتطلع على أمم الغرب وتوازن بينها وبين أمة الاسلام التي غفلت عن آيات هذه السورة وكيف كانت هذه الأمور الثمانية قد تضمنها قوله تعالى «قال فما بال القرون

الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضلّ ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدا» الخ . ألست ترى أن هذه الآية هى عين ماقاله (اسبنسر) الفيلسوف وأن فرعون يقول لموسى أسمعنى علم التاريخ فيقول موسى كنى كنى هلم بنا نقرأ تاريخ الطبيعة . هلم بنا نقرأ ما كتبه الله فى الطبيعة وماخطه فى قراطيس السماء وألواح الأرض وهى العلوم الحقة التى تعطى قوة الاستبصار والاستنتاج والذاكرة والجمال والإخلاص والحب وهكذا . هذا هو كلام الله وهذا هو مقصود القرآن ولهذا أنزله الله فان لم يعرفه من قبلنا من الأجيال المتأخرة بعد عصر الصحابة فسيعرفه الأجيال القابرون والأمم المتأخرون . وكم ترك الأول للآخر . وكم لله على خلقه من فضل وجود، والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلوم الطبيعية

فاذا كان هذا شأن العلوم الطبيعية ونحن الآن فى دراسة القرآن ، فهل لك أن أسمعك مانظمته سابقا لتلاميذ المدرسة الخديوية وإن كانت مدارسنا لتسلط الأجانب عليها غير مغرمة بتلك العلوم . فهناك أسمعكها لتكون ذكرى لكل ذى عقل مستبصر وقلب مفكر و«لكل نبأ مستقر» وستنشر هذه العلوم «ولتعلمنّ نبأه بعد حين» .

هذا النظم من كتاب جمعه التلاميذ من نظم ونثر ألقيته عليهم بالمدرسة الخديوية اسمه [جوهرة الشعر والتعريب] وها هو ذا النظم . فى ليلة الثلاثاء ٥ شوّال سنة ١٣٣٥ الساعة الرابعة بعد نصف الليل كتبت ما يأتى :

نظمت هذا فى جمال الطبيعة

قال تعالى «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» .

قرأت كتاب الله فى كل سورة ... وآنست نور الفهم فى كل صورة
خذوا عنى العلم الذى قد درسته ... وهذّبته حتى أضاء ببهجة
فيا قومنا هذى العجائب صوّرت ... وأبدعها الرحمن فى كل ذرة
وأتقنها حتى تجلت بديعة ... مزينة فى رقشها خير زينة
فأنشأ أفلاكا وأبدى غرائبا ... وشيدها حتى استقامت بحكمة
ورصع فيها المشرقات ثواقبا ... نجوما تراها فى ليالى الدجنة
تحلى بها جيد الزمان فيالها ... عقود جمان زانها حسن صنعة

﴿ فصل : فى عدد النجوم (١) ﴾

وقد عدها الأقوام رأى عيونهم ... بستة آلاف لتقريب حسبة
ولكنهم لما رأوها بمنظر ... وتصوير آلات برسم الأشعة

(١) إن النجوم المنظورة بالعين ستة آلاف فيكون فوق الأفق دائما ثلاثة آلاف وتحته ثلاثة آلاف والنجوم التى ترى بالمنظار المعظم وبالمصور الشمسى أكثر من مائة ألف ألف وهناك مايشبه السحاب فى الليالى الصافية فى وسط السماء وهى المجرة وأكثر نجومها لم يمكن رصده لبعده جدا وهو شموس لا نهاية لعددها قد تباعدت حتى صغرت فى العين وتضامت كأنها لبن فى النظر ، وهذه المجرة تسمى فى الشرع (أبواب السماء) وعند الإنجليز (الطريق اللبنى) وعند الفلاحين المصريين (طريق التبانة) .

بدت لهم آلاف ألف تعدّها ... مئات بلا حصر لصادق فطرة
ألم تر أبواب السماء التى ترى ... بأعيننا موسومة بالمجرة
عدت كل طور فى الحساب لأنها ... إلى اليوم لم يكشف لها ستر حرة
فلما تناءت صوّرت لعيوننا ... كذوب جمان أو كسائل فضة
بدائع آيات مجالى مناظر ... لطائف عرفان تجلى لفطنة

أشكال النجوم المجتمعة

فمنها نجوم رصعت فى نظامها ... كسنبلة صفت بحبات حنطة
وآونة تلقى دوائر نظمت ... لتعقلها نفس الحكيم بنظرة
ومنها التى قد صوّرت فى جمالها ... مثلثة الأشكال فى حسن بهجة
فهذا جمال ليس يعقله الذى ... ينام عن التبيان فى كل ليلة
حياتكم لا تتركوها سبهللا ... أسركمو حتى كبت بحفرة
ومالى إذا ماقلت ثوبوا لرشدكم ... نأيتم وقلتم نحتسى كأس خمرة
وبعضهم فى الجهل مثل نعامة ... تصاد فأخفت رأسها تحت صخرة
ففاجأها الصياد مقتنصا لها ... كذلكم الجهال ماتوا بحيرة
حياتى حياة العلم فاعجب لحسنها ... سكرت بلا خمر فياحسن سكرتى

عجائب الأرض

وفى الأرض آيات وفيها عجائب ... من الماس والياقوت فى نحر دمية
وفيها نحاس للمتاع وعسجد ... لتقويم ما نبتاعه وازينة
وفيها حديد لم يذر من صناعة ... على الأرض إلا قام فيها بآلة
به قطر تجرى على الأرض دائما ... وآلة محراث وصنعة إبرة
وفيها نبات قائم فوق ساقه ... بقيه دلالا فى جمال ونضرة
وآخر لا ساق له كحشائش ... فهذا لإنسان وذا لبهيمة
تحار عقول العالمين لما ترى ... عجائب ألوان وإحكام صنعة

فصل فى الجبال والسحاب (١)

ألا يارجال العلم دونكم اسمعوا ... مقالى ولا تأتوا بجنب لغفلة
ألا فانظروا هذى الجبال شوامخا ... عظائم كانت مذ قرون قديمة
ملونة حمرا وبيضا لوامعا ... وصفرا وسودا كالسحاب الرفيعة
مخازن ماء للبرايا تسوقه ... لها السحب أمطارا على كل بقعة
فمن ذلك النيل السعيد وصنوه ... فرات جرى حتى تلاقى بدجلة
وكنغو وزنبيزا وليس يعدها ... سوى علم تخطيط ورسم خريطة

(١) السحاب وألوانها وألوان الجبال وأنها مخازن للماء يجرى من أعلاها أيام للمطر ومن ذائب الثلج إذ يتنزل بحرارة الشمس بالتدريج ومن العيون التى تجرى من باطنها وتمدّ الأنهار .

فصل فى عجائب الماء فى الجبال (١)

ومن عجب ماسوف أذكره لكم | ألا فانظروا هذا النظام بفطنة
تحصل ماء فى الجبال فما الذى | يزجيه لما أن جرى الخليقة
فهذا سؤال ليس يدرى جوابه | سوى عالم حبر بعلم الطبيعة
فيعلم أن الماء من طبعه الذى | به اختص مابين الطباع العجيبة
إذا صار ثلجا زاد حجما مكبرا | عن الماء فى تلك الجبال الصلبة
فيضغطها ضغطا فينفذ صاعدا | وتجرى ينابيع بسلسال فضة
عجيب نظام لم يكن عن جهالة | ولا رمية من غير رام بغفلة

نظام السحاب (٢)

فهاكم نظام السحب فاستمعوا له | خذوه بعقل وافهموه بفطنة
خذوا مثلا بالقدر والماء غاليا | عليها بإيقاد اللظى فوق فحمة
وقد صعد التبخير والماء مسخن | فيرجع ماء ثانيا عند قبة
فإن يكن صنبور لذلك حاصلا | ترى الماء يجرى قطرة بعد قطرة
ترى الشمس فى التخييل نارا وإنما الـ | جبال وأرض كالقدور الرسية
فأما غطاء القدر فهو ممثل | لما فوق هذا الجو وصف برودة
ومثل ماء القدر بحرا مبخرا | بشمس الضحى فى لمحة بعد لمحة
وذلك كالحمام أيضا ومثله | ترى مثل الانبيق أيسر لفتة
فهذى علوم السحب والقطر والندى | عروس تبدت فى ثياب رقيقة
تزف إليكم والجمال يشوقكم | إليها وما مهر سوى صدق نظرة

علم المعادن والفلزات

ألا فخذوا علم الفلزات إنهم | قد استخرجوها فى الجبال الصمية
ففى جبل تلقى الرصاص بجوفه | وآخر تلقاه مشوبا بفضة
وفيها نحاس والرصاص وعسجد | كذلك بلاتين الجبال البعيدة
فذلكم للناس أشرف نعمة | بها أصبحوا والله فى حال غبطة
فإن ركبوا كانت لهم خير مركب | وإن يتباهوا فهى أفخر زينة
وإن خاطبوا بعضا فتلك مسرة (٣) | وبرق جرى وسط السلوك الدقيقة
وإن حرثوا أو بطحنوا فهى عونهم | وإن شيدوا قصرا أغاثت بسرعة

(١) الماء فى الجبال يبرد حتى يصير ثلجا . ومن خواصه أنه يكبر حجمه فيشق الصخر فتنفجر العيون وهذه الخاصية ليست لسائل سوى الماء إذا جمد .

(٢) نظام السحاب وتشبيه بالقدر تحتها النار فغلت وصار لها بخار فاجتمع عند الغطاء ، وكالحمام وكالانبيق ، فالشمس كالنار وماء البحر كماء القدر وبخار السحب كبخار القدر والحمام والانبيق وأن نزول المطر كتقطير الإنبيق وقطرات الحمام ونحو ذلك .

(٣) تليفون .

وإن هم شروا يوما تكن خيرحاكم ... ليعرف منها قدر تقويم سلعة
وإن حاربوا كانت حرابا وأدرعا ... مدافعها اغتالت نفوس البرية
ليهلك من عاشوا بغير روية ... ويحيا أولو التوفيق أهل الروية
ومن لم يشم حسن العوالم عقله ... فذلك والله حقيق بخيبة
من الناس من عاشوا ولا علم عندهم ... كأنهم فيها سراب بقيعة

(الماس من فحم والعسل من نحل والحرير من دود والجوهر من صدف)

ومن فحمة سوداء جاءوا بجوهر ... بهيج فذاك الماس فى صدر فتية
وخير لباس الناس من نسج دودة ... وخير طعام الناس من فم نحلة
وأعجب آيات الجمال جواهر ... من الصدف المخلوق فى قاع لجة
فهذا على أرض وذلك فى هوا ... وآخر فى لج البحار العميقة

أعمار المعادن (١)

وفى المعدن المخلوق فى الأرض حكمة ... تدق على أهل العقول السليمة
ترى الشب والزاجات والملح أنضجت ... كما نضج الكبريت قبل سنية(٢)
لقد خلقت فى التراب والطين كلها ... ومنها الذى يبدو بأرض خبيثة
ومنها التى فى الماء أنشئ خلقها ... كدر ومرجان بديع بحلية
على سنة زادا أو اكتملا بها ... بتدبير رب العالمين وحكمة
ومنها الذى يبقى سنين طويلة ... ببطن جبال أو رمال دقيقة
كمثل حديد والرصاص وفضة ... كذلكم باقى معادن سبعة
وأطول من هذا العقيق ومثله ... الزبرجد والياقوت فى طول مدة

عجائب النبات (٣)

ومن عجب أمر النبات كمعدن ... من الدمن الخضر الضعاف الضئيلة
يجىء بها طل الندى فاذا بدت ... لها الشمس زالت عند آخر ضحوة
فهذا نبات معدنى مخلق ... بفصل ربيع مثل إنبات كمأة

---

(١) تختلف المعادن أعمارا فى بطن الأرض، فالملح والشب والكبريت المتكونات فى الطين والأرض السبخة تتم قبل سنة، والدر والمرجان يتكونان فى سنة أو فوقها، والحديد والنحاس والذهب وأمثالها فى مئات السنين، والياقوت والعقيق والزبرجد فى دهور طويلة ، والعلم الحديث اعتبر المعادن كالذهب والحديد عناصر بسيطة وجعل المرجان حيوانا .

(٢) تصغير سنة .

(٣) أقرب النبات إلى المعدن خضراء الدمن والكمء . فالأول ينبت بطل الندى ثم يزول ضحوة لحرارة الشمس والثانى جمع كمأة ، فالأول نبات معدنى والثانى معدن نباتى لأن الأول أقرب إلى النبات والثانى أقرب إلى المعدن وأقرب النبات إلى الحيوان النخل والكشوثى والأخير يعيش على غيره كالدود فهو فى ظاهره أقرب إلى النبات ولكن فعله فعل الحيوان ، وهكذا كل نبات يتغذى بالمولدات النامية مما كشفه العلماء حديثا مثل الشجر الذى يمتص الحشرات التى تحوم حوله ومثل شجرة فى (مداغشقر) ذكرت المجلات الأوروبية أنها متى شرب منها إنسان ماءها الحاصل فوقها سكر ثم ضمت عليه أوراقها وشوكها فامتصته وصار غذاء لها والنخل تميز ذكره من أنثاه وإن قطع رأسه مات فأشبه الحيوان بعض الشبه .

ترى الكمء مثل النبت وهى معادن | على الضد مما قبلها عند نسبة
وأعلى مقامات النبات الذى له | صفات يضاهى مبدأ الحيوية
كنبت الكشوثى إنه غير ثابت | على الأرض بل يحيا على ذات شوكة
وفوق غصون أو زروع وإنه | ليشبه نفس الدود فى بدء فطرة
كذاك حياة النخل تبدى عجائبا | فذكرانها عن كل أنثى استقلت
وإن يشا الرحمن أهد إليكم | عجائب فى أجسامنا والقريزة
فأعجب هذا الخلق أمر ابن آدم | جسوما وعقلا باحثا عن حقيقة

ثلاث جواهر

الجوهرة الأولى فى قوله تعالى : « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »

إنى لما كتبت هذا العنوان حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يحاورنى فى مسائل من هذا التفسير ، فقال ماذا تريد بعد ما كتبت فى هذا الموضوع ؟ فقلت لقد رأيت اليوم عجبا هو أنسب لهذه الآية . لقد أصبح العلم اليوم يكشف لنا الغطاء عن آيات القرآن .

إن فى القرآن قصصا ومن هذا القصص ما قصه الله عن موسى فى سورة (طه) هنا . ولقد جعل الله القصص فى النباتات والأشجار والزروع فى الأرض . إن الكلام مشابه للغذاء ، فكما أن من الغذاء مالا يناله الناس والحيوان إلا مندمجا فى أوراق النبات وحشائشه حتى يدخل الجسم بلطف فلا يهيج أجزاءه التى يدخل إليها ولا يمزقها بقوته واندفاعه إليها فيكون الانسان والحيوان مشتركين فى حياتهما ويقل مرضهما ويطول عمرهما على مقدار حالهما بخلاف ما إذا كان الغذاء لحما أو بيضا أو لبنا من كل مادة غزر غذاؤها فإنها تعطى قوة هائلة ويعقبها رد فعل فيكون مرض فموت بغتة كبعض الناس بعد حين وعلى حسب ضعف الاستعداد الذى لا يعلمه إلا مبدعه . كل هذا فى الطب الحديث الذى يفضل أغذية النبات . هكذا جعل الله فى كل دين وفى علوم الأمم التى يكتبها جهابذة المؤلفين أن يلقى العلم بطريق القصص والحكايات والكلام الجميل البديع المؤثر فى النفوس فلا جرم يحدث له أثر فى النفس لأنه يدخل إليها بلا استئذان . هذه قصة موسى تراها كأشجار وأزهار وأوراق . وهذه يفهمها العامة كما يفهمها الخاصة ولكن الحكيم يعرف أين الثمرة فيلتقطها . ومن ثمرات هذه القصة هنا قوله تعالى : «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» فقوله «أعطى كل شىء خلقه» أصبح اليوم يرى بالمنظار المعظم وأصبحت علوم الطبيعة كلها تطبيقا عليه . فبينما القارىء يسمع قصصا ومحاورات بين موسى وفرعون إذ يراه فجأة أصبح لعلوم الطبيعة دارسا . فقال صاحبى أين علوم الطبيعة هنا ؟ فقلت ألم تسمع الله سبحانه يقول «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» فإعطاء الخلق يرجع للتصوير والإحياء والإنماء على وجه مخصوص وذلك فى النبات والحيوان والإنسان والمعادن وكل شىء والهداية خاصة بالحيوان والإنسان ، فقال إن هذا التفسير مملوء من هذه العجائب ، فما الذى زاد هنا ؟ قلت ستعلم فى هذا المقام علم اليقين معنى قوله تعالى «وما كنا عن الخلق غافلين» ومعنى «أعطى كل شىء خلقه» أى بلا زيادة ولا نقص . وترى الحساب البديع فى خلق الأجنة فى الأرحام وتعلم أن حكاية صصة بن داهر الحكيم الهندى (الذى اخترع الشطرنج وجعل حب القمح الذى فى العالم كله بالحساب لا يكفى ليوفى بيوت الشطرنج) قد ظهر اليوم نظير مغزاها فى خلق الجنين فى بطن أمه فانك سترى أنه يجرى على مقتضى المتوالية الهندسية . فقال قد تقدم هذا فى سورة الفاتحة عند تفسير رب العالمين ، فقلت إن ماهناك قد جاء قولا بلا رسم . وأما ماهنا فانك ستراه مرسوما موضحا أمامك . ألم تسمع قول الله تعالى «وقل رب زدنى علما» وقوله تعالى «وقل

الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » الله وعدنا أنه يرينا آياته وها هو ذا يفي بجهده لنا شيئا فشيئا . ألم تسمع قوله «ومن أوفى بعهده من الله» الله وعـدنا أنه يرينا الآيات وها هو ذا يعرضها علينا فوجب علينا أن نسارع لأخذها . إن الأمم حولنا درست نظام حياة الأجنة فى النبات والحيوان ووازنوا بين الأجنة فى الإنسان وبين أجنة الحيوان وأجنة النبات فوجدوا اتحادا واختلافا . اللهم إن العلم اليوم قد فسر القرآن تفسيرا واضحا والقرآن قد نزل ليعرف حقّ المعرفة فى زماننا وبعد زماننا . جلّ الله وجلّ العلم ، سترى أيها العزيز أن الله لايعطى إلا قدر الحاجة ولا معنى العدل غير هذا ، العدل وضع الأمور مواضعها فاذا رأيت العـدل فى نظام الأمم والدول (كما تقدم فى سورة النحل عند آية «إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى») يرجع إلى تكافؤ القوى فى الدولة بحيث يأتمر الجند لحراس الدولة من الحكام ويخضع العامة من الصناع والزراع للطائفتين فوقهما ولا عبرة بالآراء الخاصة ولا الشهوات . هكذا العدل فى نظام الأجنة فى بطون أمهاتها ، سترى بعينك أيها الذكى فى صور أجنة السمك وأجنة الإنسان وأجنة الدجاج أن صغار السمك ما دامت ضعيفة قد أعطيت كيسا فيه قوتها ومتى قويت على الكسب فرغ هذا الكيس فهذا ستشاهده بعينك فى الرسم الآتى قريبا ، أفليس هذا هو نفس الآية إذ يقول « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » .

يخلق لصغار السمك كيسا تعيش منه مادامت ضعيفة ثم يفرغ هذا الكيس وقد قويت . هذا يفسر قوله تعالى «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

وتراه فى جنين الانسان فعل غير ذلك فانه ألزم الأم بأن تغذّيه فى بطنها بدمها يجرى فى دورته الدموية وفى خارج بطنها بلبنها حتى يقدر على تعاطى الطعام . فهنا لما جعل له أما وأبا جعل قوته من أمه وهناك لما لم يكن للسمك أمّ ولا أب أعطاه كيسا يعيش منه لأن السمك يبيض بيضا كثيرا . وهذا البيض هو الذى نسميه [بطارخ السمك] ونأكله لذيذا وما هو إلا بيض كبيض الدجاج تبيضه السمكة فى مكان ملائم قرب الشاطىء فيجىء الذكر فيلق حيوانات صغيرة جدا على بيض الأنثى فيحصل الإلقاح إذ تدخل الذرات الصغيرة الحاصلة من الذكر فى بيض الأنثى كما ستراه ، ويربى هذا البيض الملقح فى نفس الماء فلا أم ولا أب يعرفان أولادهما . لهذا كله أعطى السمك الصغير ذلك الكيس المقدّر تقديرا محكما ولم يعط ذلك طفل الإنسان .

والدجاج يشبه بعض الشبه السمك وبعضه الآخر لذوات الأربع ، فهو وإن حصل إلقاح بيضه داخل جسمه كما يفعل الإنسان والحيوان قد جعل بيضه خارجا والجوّ لايلائمه فألهمت الدّجاجة أن ترقد على بيضها لتعطيه الحرارة اللازمة لنموّ الجنين داخل البيضة حتى ينمو ويخرج من البيضة والفرخ حين يخرج من البيضة لايحتاج إلى كيس كما احتاجت صغار السمك إليه لأن فراخ الدجاج تخرج قوية على الكسب مزودة بالريش مهيأة لملاقاة خطوب الدهر وكوارث الجو وتحمل أعباء الحياة فتأكل الحبّ وبساعدها أمهاتها التى رقدت على بيضها أو القوم الذين يرقدون على البيض ويستفرخونه كما يفعله أهل هذه الصناعة فى بلادنا المصرية إذ يقومون بتدفئة البيض بدل الدجاجة وحضنها . فاذا خرج الفراخ استقبلوها بالغذاء وبالإيواء وبالمحافظة عليها فى مساكن خاصة فذكران السمك وإناثه لا يحصل بينهما اجتماع كاجتماع الإنسان والحيوان بل التناسل بتقابل بيض الأنثى مع المواد المفرزة من الذكر خارج جسم الأنثى ولا احتياج لمغازلة ولامهر ولا منزل يسكنانه والماء قام بتربية الأجنة بتدبير العناية الإلهية «فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فلما سمع صاحبى ذلك ، قال لقد شوقتنى إلى هذه العجائب التى بها تفهم قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » فقلت ماذا تطلب أولا ، قال إن العلم يجب أن يكون متدرجا من الأدنى إلى الأعلى فأريد

أولا أن أعرف نظام الزهرة وكيفية إلقاحها ثم السمك ثم الضفادع ثم الدجاج ثم الانسان . فصل . أما النبات قد تقدم الكلام عليه فى سورة الأنعام عند قوله تعالى «انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه» وهناك ترى رسم الزهرة وكأسها وتويجها وأسديتها ومدقاتها والمبيض والسمة ومايسمى بالقلم فارجع اليه إن شئت وإنما أزيدك الآن بيانا ذلك أن المبيض الذى هو عادة يكون فى أسفل الزهرة الموضح هناك قد يكون هو واحدا وقد يكون متعددا . فاذا كان واحدا فقد يكون متصلا به عدة أقلام متصلة والمراد بالأقلام الأعمدة التى سميت فى الرسم الآتى (قربلات) وقد يكون متصلا به أقلام منفصلة . وإذا كان المبيض متعددا كان لكل واحد قلم واحد (انظر الرسم الآتى . شكل ١) .



(شكل ١ رسم ثلاث زهرات مختلفة الأعضاء التناسلية الأنثى)

فهذا الرسم فى أعلاه السمة التى تقبل الطلع من الذكر وهذا الطلع ينزل فى القلم إلى المبيض أسفل كما رأيته فى ضمن هذا الشكل وفيه تتربى البزرة .

فافهم هذا وافهم مافى سورة الأنعام .

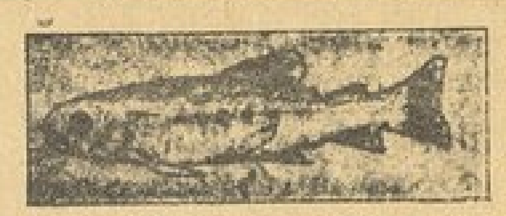
وأما أمر السمك فلأقدّم لك مقدّمة فأقول :

اعلم أن أصغر الحيوان يسمونه (الاميبا) نمرة (١) فى الشكل الآتى شكل نمرة (٢) وماهى الاميبا إن هى إلا خلية واحدة مركبة من محيط خارجى ونواة داخلية ، فأما المحيط فهو غير منتظم الشكل له فجوات ونتوءات كثيرة ، وأما الداخل فانك تراه فى الرسم نقطة سوداء ، وهو منبع الحياة ومركز النمو (انظر الشكل الآتى . شكل ٢)

وطريقة تناسله أن يكبر مركز النمو أوّلا كما فى نمرة (٢) من هذا الشكل ثم يعظم الجزء الخارجى نمرة (٣) من هذا الشكل ثم يصير مركز النمو أشبه بشكل (نمرة ٤) لهذا الشكل ثم ترى الحيوان الأصل انقسم إلى قسمين وهما متصلان (نمرة ٥) ثم ينفصلان (نمرة ٦) إذن الحيوان الأصل قد ذهب وخلف حيوانين وكل واحد يفعل فعل الأول وهكذا بالانقسام ها أنت ذا عرفت تناسل أدنى حيوان فقد تكاثر بالانقسام ،

(شكل ٢ رسم التناسل فى الاميبا)

وهنا حار العلماء فى أمر هذا المخلوق الصغير . هل الأول الذى انقسم إلى اثنين قد مات وهذان الاثنان ابناه؟ وهذا الرأى خطأ لأننا لم نر هنا إلا حياة ، فهنا واحد حى ثم رأينا نصفيه كل نصف منهما صار واحدا ، فهل الواحد هما الاثنان وهذا لا يعقل أم هما ابناه ؟ وإذا كانا ابنيه فأين هو وأين جثته . إن جثته هى جثتهما ، وكيف يكون الأب عين الابن ، وكيف كان الواحد اثنين ؟ هذه المشكلة أشبع الكلام عليها اللورد (افبرى) وقال إن هذا الحيوان خالد إذ لا موت فهى حياة متكاثرة لا موت فيها فربما عاش هذا الحيوان آلاف الآلاف ، وإذا انتهت المقدمة فلأبدأ بالكلام على السمك فأقول (شكل ٣) .



(شكل ٣ ـ رسم للبيض فى السمك)

انظر إلى حرف (م) فى (شكل ٣) فهو نفس البيض المسمى بالبطارخ وانظر إلى (شكل ٤)



(شكل ٤ ـ الحياة التناسلية فى السمك)

وفى هذا الشكل (نمرة ١) صورة بيضة السمك ملقحة ، وفى (نمرة ٢) صورة البيضة بعد يومين ، وفى (نمرة ٣) شكلها بعد أسبوعين ، وفى (شكل ٤) صورتها بعد ٢٧ يوما وفى (شكل ٥) يبدأ فقس البيضة وفى (شكل ٦) يكون عمر الجنين ١٢ يوما وترى الكيس الذى ذكرته لك آنفا معلقا بهذه السمكة الصغيرة التى لا أم لها ولا أبٌ إلا رحمة الله التى وسعت كل شىء ، والكيس حرف (ك) (وشكل ٧) هو هذا المخلوق بعد ٢٤ يوما من الفقس (وشكل ٨) فيه السمكة أصبحت قادرة مستقلة انتهى أمر الكيس .

الكلام على الضفادع



(شكل ٥ ـ الحياة التناسلية فى الضفادع)

نمرة (١) بويضات الضفدع نمرة (٢) و (٣) و (٤) التطورات لهذا البيض قبل الفقس نمرة (٥) و (٦) بعد الفقس (نمرة ٧) ظهرت فيه زوائد خارجة تسمى (الخيشوم) وهو بالإنجليزية (جل) (نمرة ٨) ظهر فيها الفم (نمرة ٩) المنظر الجانبى (نمرة ١٠) ظهرت فيه الأعضاء الخلفية (نمرة ١١) حاله قبل تغير شكله (نمرة ١٢) طوره الثانى قبل التغير ثم يتم شكل الضفدع انتهى .

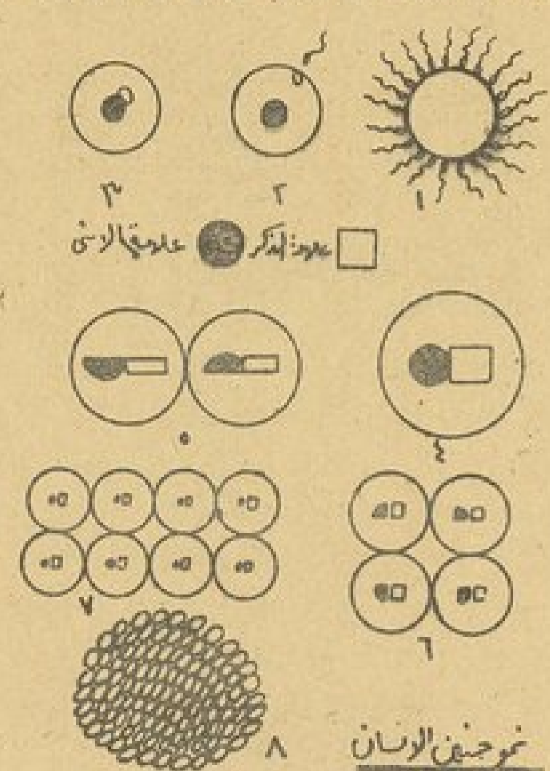
(الدجاج)

قد تقدم شرحه إجمالا .

(الإنسان)

وهنا بيت القصيد :

اعلم أن الانسان فى تناسله أمره عجيب . وهاك رسم صورة النمو فى الرحم (شكل ٦) .



(شكل ٦ – رسم صورة نمو الجنين فى الرحم منقول من كتاب [التناسل فى النبات والحيوان والإنسان] وهكذا الشكلان قبله فى هذا المقام)

إذا تأملت الزهرة الموسومة فى سورة (الأنعام) وجدت هناك الاسديات التى فى الزهرة منتهية بكرة صغيرة تسمى (الاثير) والاثير هناك هو الحامل للطلع ليفيض على عضو التأنيث الخ ما تقدم . فهكذا هنا هذا الاثير يقوم مقامه (الخصية) فى الإنسان والمبيض فى عضو التأنيث الذى فى أسفل الزهر يقوم مقامه فى الانسان مبيضان للمرأة والرحم . فكل مبيض من المبيضين فى المرأة يفرز البويضة كما تقدم فى السمك والطير والنبات وهذه البيضة تمر فى قناة وتصل إلى الرحم فتبقى فيه فاذا وصلت الحيوانات التى فى منى الرجل إلى ذلك الرحم فانها تقابل البيضة هناك وهذه الحيوانات تجتهد جميعها أن تصل إلى تلك البيضة وأخيرا يهجم عليها واحد منها ويدخل فيها ، وهذا هو الإلقاح . وهذه البيضة هى مبدأ الجنين الانسانى كما فى بذرة النبات وجنين السمك وبيضة الدجاجة ، وترى فى (نمرة ٢) صورة حيوان من تلك الحيوانات المنوية اخترق البيضة وصورة (نمرة ٣)

تمثل

تمثل تمام الإلقاح وصورة (نمرة ٤) تمثل البويضة بعد التلقيح قد كبرت وابتدأت البويضة فى الانقسام وصورة (٥) تمثلها ذات علامتين : إحداهما مربعة للعناصر المذكرة التى تدخل فى تكوين الجنين .

والثانية مستديرة وهى عناصر الأنثى والجنين يكون منهما معا (٦) انقسمت فيه البيضة أربعة أقسام (٧) انقسمت فيه ثمانية أقسام ولا يزال الانقسام والتكاثر الذى يصحبه ظهور الأطراف والأعضاء الخارجية والداخلية حتى يتمّ الخلق ، فلما سمع صاحبى ذلك قال هـذه مناظر يظهر أنها من أصول الحكمة .

إن هذا الوضع واختلاف أساليب التناسل يعطى علما جما . فهل تفيض فى ذلك بعض الإفاضة ، فقلت نعم سأبحث ههنا .

(١) فى هذه العجائب ولمن خلقت أولا وبالذات ولمن خلقت بالتبع . أى من الذى يراد أن يفهمها ومن هم الذين دون الفاهمين .

(٢) وفى أن كتاب هذه العجائب كتاب كتبه الله بيده صريح لا يحتاج إلى تأويل .

(٣) وفى الموازنة بين جنين المرأة والدجاجة من جهة وبين جنين السمك والضفادع من جهة أخرى ، ثم بين جنين المرأة وجنين الدجاجة ولم كبرت بيضة الثانية وصغرت بيضة الأولى .

(٤) وفى تصارع الحيوانية المنوية من الرجل إلى اقتحام بيضة الأنثى وسبق واحد منها إليها وأن أشراف نوع الإنسان بالحكمة هم الأقلون .

(٥) وفى عملية الانقسام فى جنين المرأة والإبداع فى نظامها والكلام على ما ابتدعه الحكيم الهندى صصة بن داهر .

(٦) وفى الوحدة العامة فى التناسل .

(٧) وفى المقصود من هذا الوجود أهو الشهوة أم هو الأعلى منها ؟ .

(٨) وفى أن مرتبة علماء الطب والتشريح والنبات فى هذا المقام كرتبة علماء النحو والصرف بالنسبة لعلماء البلاغة .

(٩) وأن الأقوى الأكمل وإن كان قليلا أشرف من الأكثر إذا كان ضعيفا .

(١٠) وأن الانسان فى هذه الأرض أشبه بالمسجونين المعذبين .

(١١) وذكر آيات من القرآن على هذه العجائب .

فهذه إحدى عشرة مسألة أفصلها لك تفصيلا إن شاء الله فأقول :

(١) ﴿الفصل الأول : لمن خلق الله هذه العجائب ؟﴾

إن الناس والحيوان والنبات قد فصلت أجسامهم ونظمت أعضاؤهم وهم جميعا يتمتعون بثمرات هذا النظام إن أكثر الناس لا يمتازون عن الحيوان فى فهم هذا الوجود فليس يهمّ أكثر أهل الأرض من الذرّية إلا أن يتشرف بهم ويكونوا عونا له فى حياته وذكرا له بعد مماته ، هذا مايدور بخلد جماهير نوع الانسان ، أما أن نظام الأجنة عند السمك يغاير نظامها عند المرأة والدجاجة وأن هنا عجائب وعجائب ، فهذا مما لا يحصل له ولا فائدة له عندهم بل الفكر فى هذا لا يحتاج إلى ولد له خاصة وزوجة بل ذلك علم عام فى تشريح الأجسام عامة ونظامها ، وإذا كنا نسمع (طيماوس) فى كلامه مع (سقراط) فى المحاورة المساة (طيماوس) التى ألفها (أفلاطون) فى الطبيعيات على هيئة محاورة بين (سقراط) و (طيماوس) الذى هو من حكماء (الفيثاغورسيين)

أقول إذا رأينا (طيماوس) يقول فى خلق البصر (إن البصر نار جعله الله فى داخل العين ثمن تلاقيه بالنار التى فى الخارج يتولد الإبصار) وبسط القول فى مدح البصر وبيان منافعه ، فقال (إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على إدراك الشمس والكواكب لم نتمكن من الكلام عن السماء والعالم إذ من مراقبة اليوم والليلة وتحوّل الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان وحدث فينا الشوق إلى معرفة الطبيعة والعالم فنه نشأت الفلسفة وهى أنفس ما أنعم الله به على الناس .

أقول . إذا كان هذا رأى (طيماوس) الذى ألقاه إلى (سقراط) فى خلق العين وحكمته . أفلا يحق لنا أن نقول فى حكمة خلق الأجنة فى الأرحام وفى البيض وفى الماء مختلفات أن ذلك الاختلاف يقصد به تعويدنا على النظر والفكر لنجتهد فى استخلاص الحكمة من هذه المناظر الحسية الجنينية التى هى أشبه بالحدائق الناضرة كما سأوضحه هنا فانك ترى أن (طيماوس) لم يبال بالمنافع المادية الشخصية فى العين ولم يهتم إلا بجمال الحكمة والعلم فى سير الشمس والقمر والنجوم ، فالمقصود بهذه العجائب التى سأبينها لك انما هم طائفة المفكرين فى نوع الإنسان وهم قليل جدا ومن عداهم فليس لهم وزن ولم يقصدوا بل هم متممون لنظام الوجود وليس يعطى الله هذه الدروس ويبدع هذا النظام إلا لأفئدة تهتز طربا لما ستسمعه الآن ، فمن فرح بما سأقول فى ذلك فهو من المقصودين بهذا الجمال ومن لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج يحتاج إلى العلاج انتهى .

(٢) ﴿ الفصل الثانى ﴾

أما أن هذه العجائب كتاب كتبه الله بيده فهذا يفهم بما سأذكره فى الفصل الثالث وما بعده .

(٣) ﴿ الفصل الثالث فى الموازنة بين جنين المرأة والدجاجة من وجه وبين جنين السمك والضفادع من جهة أخرى ثم بين جنين الدجاجة والمرأة ﴾

علم الله ضعف الانسانية وعلم أن زماننا ستكون المادة غالبة عليه فأبرز هذه الأعاجيب فى زماننا لندرسها ونشرحها فنستفيد جمالا فى عقولنا كما استفدنا قوى فى أجسامنا وحياة فى مدننا . أبدع الله أمر الأجنة ونوّعها وقال لنا هذا كتابى فاقرءوه وتبنوا أمره .

هذا بيض السمك والضفادع قد جعلت رحمه الماء فما على السمك إلا أن يبيض وهكذا الضفادع وعلىّ أنا أن أحفظ الأجنة فى ذلك الماء البارد ، فأنا لا يثنينى عن عملى حرّ ولا برد لأنى مقتدر . فاذا ظن الناس أن الحرارة شرط لازم لنمو الأجنة كما فى حمل النساء وبيض الدجاج . فها أنا ذا جعلت الماء البارد رحما يحمى للسمك والضفادع . ولئن ظن الناس أن التقاء الأنثى والذكر أمر حتم لتربية الأجنة ، فها أنا ذا قد علمت السمك طريقا آخر فالتقى البيضان ولم يلتق الزوجان . ولئن ظنّ ظانّ أن تربية الجنين الذى يحتاج إلى الحرارة لابد له من البقاء فى الرحم . فها أنا ذا أمرت الدجاجة والحمامة وسائر الطيور فألقت بيضها وحضنته « إن ربى لطيف لما يشاء » وكأن الله يقول أنا إنما أريد النسل ولست أسلك له سبيلا واحدا بل أسلك طرقا مختلفة هكذا فلتفعلوا فلتكن لعقولكم مذاهب فى أعمالكم وإياكم والتقليد فاذا قلدتم فى العمل ربطتم أنفسكم بطريق خاص فأنتم كعباد الأصنام، أنا إنما أبنت لكم ذلك لتعلموا أن فوق كل ذى علم عليم. فمن لم ير إلا السمك والضفادع فرضا ظن أن طريقهما لاسبيل إلى تغييره . ومن لم ير إلا الدجاج فرضا أو النساء وقف عقله عندهما، فقال صاحبى لماذا رأينا بيضة الدجاجة كبيرة وبيضة المرأة لاتكاد ترى والقياس يقتضى العكس وكان مقتضى القياس أن تكبر بيضة جنين المرأة فتكون كالبطيخة أو تصغر بيضة الدجاجة حتى تكون كذرة لا ترى ولا تحس ، فقلت إن المرأة قد تكفلت بتغذية ولدها ، فالجنين حين يبدأ فى نموه يتصل بسطح الرحم الداخلى فيصله الغذاء بواسطة الشرايين الرحمية وهى تحمل له الدم ؛ وبالجملة إن للجنين دورة دموية تبدأ من شرايين الحائط الرحمى وتتصل بشرايين الجنين وتنتهى بأوردة الجنين التى تصبّ فى أوردة حائط الرحم ، ومتى تم نموّ الجنين وولد الطفل صار غنيا عن التغذى بدم أمه فيجب إذن قطع العلاقة الدموية بينهما والعلاقة بينهما هو حبل طويل (الحبل السرى) وهو حبل يبدأ من سرة الجنين وينتهى بقرص متصل بحائط الرحم الداخلى وهو (المشيمة) فبعد الولادة يربط ذلك

الحبل بجوار سرة الطفل . فهذه التغذية هي التي منعت أن تكبر بيضة الجنين الإنساني . أما الدجاجة فليس من شأنها أن يتصل دمها بجنينها بل هو منفصل عنها في البيضة فاقتضت حكمة الحكيم أن يجعل ما في البيضة من الغذاء كافيا للفرخ في البيضة بحيث يكون مقدرا بمقدار قوته ونموه حتى يقدر على نقر قشرة البيضة فيخرج بنفسه ؛ كما أن الأمم المقهورة لا تعطى الاستقلال إلا إذا قدرت على طرد أعدائها من بلادها بقوتها وكسر السور الحديدى المضروب عليها من أعدائها . ذلك قوله تعالى «وكل شيء عنده بمقدار» وقوله «وما كنا عن الخلق غافلين» وقوله «وأحصى كل شيء عددا» وآيات الوزن والميزان وهكذا مما نذكره من الآيات في أمثال هذا .

ونظير هذا شجر الجميز وشجر البطيخ؛ فثمر الجميز صغير مع ضخامة الشجر وثمر البطيخ كبير مع ضعف الشجرة فانظر للعجب ، صغرت ثمرة الجميز لأنها مرتفعة ولو كانت كبيرة فسقطت لأضرت بأجسام الناس ولذلك هي لذلك خلقت صغيرة ، وشجرة البطيخ ضعيفة وساقها مملوء ماء فهو لا يقدر على حمل البطيخة فحملتها الأرض بدل الشجرة فلم تضر كبرها ، الله أكبر ، جل الله وجل العلم ، هاهوذا كتاب الله الذي كتبه يده قبل أن ينزل الكتب السماوية ، خلقنا الله وقال لنا ادرسوه ، فها أناذا أدرس مع الدارسين ، فيا أيها أنت أفهمتنا هذا الصنع وعرفنا لماذا كبرت بيضة الدجاجة وصغرت فلم تر بيضة جنين المرأة وفهمنا اختلاف الثمار كبرا وصغرا مع أن القياس كان يقتضى غير ذلك ، فلما فهمنا الحكمة ثلجت صدورنا . ولكن الذي علمناه قليل جدا . فأما ما لا نعلمه فهو جميع أحوال هذه الدنيا . هذا غني وهذا فقير وقصير وطويل وجميل وقبيح وعالم وجاهل وذكي وبليد وهكذا من التناقضات التي لم ندرك حلها . ولكنك لما أفهمتنا هذا القليل أدركنا حسن نظامك وابتهجنا به وعرفنا أنك أنت خبأت الحكمة عنا في هذه الأمور الجزئية وبالذي فهمناه نعرف معنى الرضى ونقرأ «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية» والنفس لا ترضى إلا إذا أدركت أمثال هذه المعاني التي يرمز لها قصة الخضر وموسى عليهما السلام وخرق الخضر السفينة وقتل الغلام وإقامة الحائط .

إن الذين يفرحون بهذا النظام الذي ذكرناه هم أكابر الأمم والحكماء . وهم هم الذين لهم زينت هذه البدائع والمحاسن وأحبوا مبدعها واشتاقوا إليه وفهموا الحديث «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» وكيف يحب لقاءه إلا إذا عرف أنه حكيم حكمته تامة . وكيف تعرف الحكمة إلا بأمثال هذا والعامة تكفيهم قصة الخضر وموسى المتقدمة . ولا يكون المرء سعيدا عند موته مشتاقا للقاء ربه إلا إذا أفعم قلبه بهذه الحكمة ، وأذكر مثلا نبيا عظيما وفيلسوفا قديما لتدرك أيها الأخ أن الخواص من هذا النوع الإنساني هم الذين يحبون لقاء ربهم ، فهاك (سقراط) كان يبتسم وهو يشرب السم ومات وهو مستبشر ، وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال عند النزع «اللهم الرفيق الأعلى» وقال «إن للموت لسكرات» وسكرات الأنبياء والأولياء والتابعين لهم سكرات الفرح والطرب بلقاء ذلك الحكيم الذي ألقى الحكمة والعلم على قلوبهم أما الفلاسفة الإلهيون فذلك شيء جاء عندهم بالعقل لا بالوحي والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع (في مسارعة الحيوانات المنوية المفرزة من الرجل إلى اقتحام بيضة الأنثى وسبق واحد منها إليها وأن أشرف نوع الإنسان هم الأقلون)

سارعت الحيوانات المفرزة من عضو الرجل وكلها تريد اقتحام البيضة فلم يفز إلا واحد كما شاهدته في الشكل المتقدم . يظهر لى أن هذا الوجود على هذا المنوال كله حيوانات عددها كثير طلبت الغاية وهي أن تلقح البيضة لتصير إنسانا فأفلح واحد ورجع الباقي هذا رمز لما في عالمنا ، فكما أن رئيس الجمهورية

أو الملك فى الأمة واحد . وكما أن أنبغ الهامين والصناع آحاد يعدون على الأصابع . هكذا أولئك الأفراد الذين زين لهم نظام هذا الوجود هم قليل تمر الأجيال تلو الأجيال والناس يغدون ويروحون وهم جميعا أشبه بالحيوان لا يدرون من هذا الوجود إلا أنهم يشبهون الحيوان فى حياته وهم لا يذكرون ، ولا يعقل أمثال ما نذكره الآن إلا أفراد نسبتهم إلى هذا المجموع الجاهل كنسبة ذلك الحيوان المنوى الذى لقح البويضة فى رحم الأنثى إلى جموع المتسابقين معه إلى دخولها فى الرحم كما رأيت ، وهذه الطائفة هى التى قال الله فيها « إلا من رحم ربك » وهم خلاصة خلقه وسواهم همج .

ما الناس سوى قوم عرفوا وسواهم همج الهمج

الفصل الخامس (فى عملية الانقسام فى الجنين فى الرحم والإبداع فى نظامه والكلام على ما ابتدعه الحكيم الهندى صصة بن داهر)

فقال صاحبى وما للجنين فى بطن أمه ولقضية صصة بن داهر وما المناسبة بينهما ؟ فقلت المناسبة تامة فاسمع القصص ثم انظر المشابهة فتجد نظام الحساب البديع فى حساب بيوت الشطرنج هو نفس الحساب الذى روعى فى خلق الجنين وفى خلق الحيوانات الدنيئة التى تتكاثر بطريق الانقسام . قال فما قصة هذا الحكيم ؟ فقلت : يحكى أن صصة بن داهر الحكيم الهندى لما اخترع الشطرنج وأعجب الملك باختراعه قال له تمن ما تريد فقال أتمنى أن تضع حبة قمح فى البيت الأول و٢ فى الثانى و٤ فى الثالث و٨ فى الرابع و١٦ فى الخامس وهكذا إلى ٦٤ فسخر الملك من هذا التمنى وظن أنه يكفيه قدح من القمح فلامه على ذلك وقال أتسخر منى ؟ فقال الحكيم إنى تفكرت فلم أجد فى منزلى برا فتمنيت هذا ولكنى أتمنى على الملك أن يأمر بضبط الحساب فأمر الملك بذلك فأخبر أن ما بخزائنه وما على الأرض من القمح لا يكفى ذلك ، فقال الملك تمنيك أعجب من اختراعك .

ثم إن هذه المسألة تحل بطرق أسهلها (اللوغارتمات) من علم الحساب ولها جداول خاصة يعرف بها الحساب من طريق قوى العدد المضاعفة ، ويليها أن يحسب الحب إلى أن يصل إلى جزء من قدح مثلا ثم يضاعف إلى تمامه . فهذه البيوت التى فى الشطرنج التى هى (٦٤) قد استنفدت قمح الدنيا وأضعافه كما هو موضح فى كتابى [نظام العالم والأمم] وهذا نص ما فيه :

تأمل فيما هو أرق من ذلك وهى مسألة الشطرنج والأخذ فيها بطريق التضعيف إلى ٦٤ عينا . فكيف كانت حبة القمح بالتضعيف تصل إلى مقدار ما لا يمكن تحصيله من مخازن الدنيا وذلك أن القمح بالضعيف فى بيوت الشطرنج يصل إلى ١٨٤٤٦٧٤٤٠٧٣٧٠٩٥٥١٦١٦ إلى أن قلت فيه إن مسألة التضعيف لها قاعدة غريبة وهى أن كل عدد مضاعف فيها يكون جميع المضاعفات قبله إذا جمعت تساوى ما فوقه إلا واحدا وتوضيحه أن ثمانية ضعف أربعة وإذا جمعت ٢ و٤ و١ كانت ٧ وتضعيف ٨ هو ١٦ فاذا جمعت ٨ على ما قبلها بلغ ١٥ وهو أقل من ١٦ بواحد . وكيفية حسابه أن يكون البيت الأول (١) والثانى (٢) والثالث (٤) والرابع (٨) فاذا بلغ ١٦ بيتا كان البيت قدحا وهو (٣٢٧٦٨) حبة وإذا بلغ (٢٠) بيتا صار ١٦ قدحا وهو (الويبة) والأردب ستويبات وإذا وصل التضعيف ٤٠ صار مخزنا كبيرا وهو شونة وهى ١٧٤٧٦٢ أردبا . فاذا بلغ (٥٠) بيتا صار مدينة وهى (١٠٢٤) مخزنا (شونة) فاذا بلغ (٦٤) صار (١٦٨٤٣) مدينة وهذا النظم يجمع هذا كله .

إن رمت تضعيف شطرنج بجملته

وَاوَا	هَهْ	طَمْجَزْ	تَمْ	زَسْ	دَدَحا
١٦١٦	٥٥	٧٣٧٠٩	٤٤٠	٦٧	١٨٤٤

وهنا

وهنا جاء فى الكتاب أن هذه المسألة يسهلها عمل (اللوغارتم) المشهور فى علم الحساب ولكن ذكرها فى التفسير يصعب فهمه فلذلك تركناه . هذا وقد نقلت فى كتاب [بهجة العلوم] فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة عن أستاذنا المرحوم على باشا مبارك فى كتابه [خواص الأعداد] وهو الأرتماطيقى ملخصا منه مانصه (إنه بعمل الحساب فى هذه المسألة نرى أن الحد الرابع والستين من المتوالية الهندسية التى أساسها (٢) وحدها الأول الواحد هو (٩٢٠٢٣٣٠٧٢٠٠٣٦٨٠٥٤٧٠٧٥٨٠٨٠٨) ومن هذه المتوالية التى أساسها (٢) وحدها الأول (١) يكون مجموع الحدود محصورا فى ضعف الحد الأخير مطروحا منه واحد وحينئذ عدد الحب من صنف القمح الذى يفى حق المخترع كان هذا العدد وهو نفس العدد الذى قدمته . ولما كان الرطل الواحد من القمح المتوسط الحبة والتنشيف يحتوى على (١٢٨٠٠) حبة تقريبا وضرب هذا العدد فى متوسط محصول الفدان وهو (١٢٠٠) رطل من القمح يحصل (١٥٠٣٦٠٠٠٠٠) وهو مقدار ما فى الفدان من حب القمح وبقسمة عدد الحب على هذا المقدار ينتج (١٠١٩٠٠١١٢٠٤٠٨٠٨٨٤) وهو عدد الفدادين المطلوبة لتحصيل القمح المذكور فى سنة وهو قريب من ثمانية أمثال سطح الكرة الأرضية بتمامه لأن سطح الأرض : (١٤٨٠٨٨٢٩١٧٦٠٠٠٠) فدانا .

وأما ماعتبره (والين) فهو خلاف ذلك الاعتبار فانه على مقتضى حسابه رأى كمية القمح الذى يلزم للوفاء بقدر صبرة مساحتها تسعة أميال انكليزية طولا وعرضا وارتفاعا (وقال غيرهما) إن هذا القمح لاينتجه إلا زرع أرض مساحتها (٣٦٨٠٩٣٤٠٨٨١٠٤٧٤) هكتارا . وليست مساحة يابس الكرة الأرضية إلا جزءا من ثمانية وعشرين من هذا القدر المذكور أى (١٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) هكتارا (الهكتار من مقاييس المساحة قدر عشرة آلاف متر مربع) وعليه يلزم للوفاء بمطلوب الحكيم أن نزرع هذا المقدار ثمانية وعشرين عاما . هذا إذا فرضنا أن جميع اليابس صالح للزرع . أما إن اعتبرنا الحقيقة وهى أن أكثره غير صالح (ومعلوم أن البحار ٧ من ١٠ من سطح الأرض وهى لاتزرع قمحا فضلا عن أودية وجبال ورمال كثيرة) ثبت لدينا أنا محتاجون إلى قرون كثيرة لوفائه) اهـ .

هذا مانقلته ملخصا فى كتاب [بهجة العلوم] المذكور محررا . فأعجب أيها الذكى كل العجب من مسألة المتوالية الهندسية التى دخلت فى نظام الوسيق كما تقدم فى سورة (مريم) بحيث كانت دواوين الغناء ١٦ — ٣٢ وهكذا إلى تمام العشرة وكانت نتائجها سرور الناس والتئامهم وتعليمهم بقبول وانشرح وكيف كانت خلقة الجنين على هذه القاعدة بل خلق كل نبات وحيوان وكيف كان أمر القمح مع بيوت الشطرنج انتهى إلى مقادير تعجز أرضنا عن إنتاجها فى قرون كثيرة . إذن هذا العدد سر الوجود وإذن نفهم غرام (سقراط) بعلوم الرياضة وقوله (إن التوغل فيها يمرون النفس على الحقائق ويقربها من عالم الملائكة ومن الله وقد أمر بها الحكام وضباط الجيوش وحض حكام المدينة على الازدياد من علوم الرياضة أكثر مما حض الجنود) وهكذا نفهم قول فيثاغورس (إن أصل هذا العدد) وهذا هو بعض السر فى أن الله أقسم بالشفع والوتر إذ قال : (والفجر وليال عشر والشفع والوتر) فالفجر وتر والليالى العشر شفع وهما مثالان للشفع والوتر العام ، ومسألة المتوالية الهندسية التى نحن بصددها كلها شفع ولكن مبدؤها الوتر فكل شفع رجع إلى الوتر كما أن العالم راجع لله . ولا جرم أن فى ذكر الفجر رمزا للواحد وفى ذكر العدد الزوجى بعده وهى الليالى العشر رمزا لكل عدد زوجى وهو هنا (٢) وما تضاعف منها . انتهى .

حكاية مسامرة

يحكى أن عبد الملك بن مروان أرسل إلى ملك الروم وفدا فيهم الشعبى فلما دخل عليه قال له ملك الروم (لماذا أيها الأستاذ يقول علماء الدين إن الله واحد ليس قبله شئ ومنه جميع هذا الوجود فهل تضرب لنا مثلا

فالك مما نعرفه في الدنيا ؟ فقال نعم الله كالواحد في الأعداد ومنه كان هذا العالم كله وليس قبل الواحد شيء فقال أحسنت) ثم قال الملك (يقول علماء الدين إن نعيم الجنة لاينقص مهما أخذ منه الناس فهل لذلك نظير؟ قال نعم السراج توقد منها آلاف السرج ولا ينقص نوره) ثم قال له أيضا (كيف تقولون إن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون فهل لهذا نظير ؟ فقال نعم الجنين في بطن أمه لو بال أو تغوط في رحمها لماتت . فقال له عجبت للمسلمين كيف جهلوا أمرك فلم يجعلوك ملكا عليهم) .

فلما رجع الوفد إلى عبد الملك ودخل عليه الشعبي قال له عبد الملك أيها الأستاذ يقول لك ملك الروم عجبت كيف جهل قدرك المسلمون فلم يجعلوك ملكا عليهم ، فقال نعم قال لي ذلك لأنه لم يرك ولكن لو رآك لحقرني فقال له أتدري ياشعبي لم قالها ، فقال الملك أعلم فقال إنه حسدني عليك فأراد أن أقتلك؟ فلما بلغ هذا القول ملك الروم قال والله ماعدا قوله مافي نفسي ، لقد تفطن لها وعجب من ذلك العجب . انتهى والحمد لله رب العالمين .

ولنرجع إلى موضوعنا ونقول . انظر الآن في نظام الجنين واعجب لجمال وحساب بيضة قسمت ٢ ثم ٤ ثم ٨ ثم ١٦ وهكذا . فكيف بها إذا وصلت ٦٤ كقمح ذلك الحكيم . هذا انقسام مستمر فيظن من يراه أنه ليس وراء الانقسام وحسابه شيء إذا هناك عظام مفصلات ورأس ومخ وقلب وكبد وأحشاء مختلفة كما ترى رسمه قريبا أي رسم المعدة والأمعاء وبعض الأعضاء الأخرى . فانظر إلى أعضاء تبلغ ٢٤٨ عضوا مفصلات بمقاييس لو اختلت قليلا لم تكن الحياة.ولو لم يراع في الرجلين مفاصل الركبتين ولا في الأصابع مفاصلها ولا في الأيدي مرافقها لم يتم نظام الحياة ، كل ذلك تم وفصل مع مراعاة ذلك الحساب الذي يرجع إلى المتوالية الهندسية التي فيها حاصل ضرب الطرفين يساوي حاصل ضرب الوسطين مثل (١و٢و٤) ومثل (٢و٤و٨) ومثل (٤و٨و١٦) ومثل (٨و١٦و٣٢) وهكذا إلى مالا نهاية له ، وأيضا إذا جمعنا حدود هذه المتوالية فان كل مجموع منها يساوي العدد الذي بعده ناقصا واحدا مثل أن تقول (١و٢) يساوي (٤) إلا واحدا و(١و٢و٤) يساوي (٨) إلا واحدا ومثل (١و٢و٤و٨و١٦) يساوي (٣٢) إلا واحدا وهكذا إلى ما لا يتناهى ثم إن الجموع تكون هكذا بالفرد وهذا علم واسع أفرد بالتآليف .

إن الله تعالى أبدعنا وخلقنا بهذا الحساب ليفهمنا قوله «إن الله سريع الحساب) وبقية الآيات مثل «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي» الخ وكأنه يقول لنا إذا كنتم دهشتم لأمر الحكيم الهندي وعجبتم من أمر حسابه في هذه المتوالية فكيف إذا رأيتم هذا الحساب مصحوبا بخلق العين وطبقاتها السبع ورطوباتها الثلاث المشروحة في سورة (آل عمران) مصورة موضحة ومصحوبا بخلق الأذن وخلق المخ وخلق الإدراك وخلق الحواس الباطنة والظاهرة . إن حساب المتوالية الهندسية التي احتاجت إلى علم (اللوغارتم) عندكم لم تصدني عن إحكام أجسامكم ونظام أعضائكم الباطنة والظاهرة « إن الله سريع الحساب» انتهى .

(الفصل السادس : في الوحدة العامة في التناسل)

إن من تأمل هذا العالم يجد أسلوبه ونظامه واحدا . وهذا دليل الوحدانية لأننا نجد الأسلوب لايتغير من حيث أصله وإنما يتغير بشكله فلقد رأينا تناسل النبات وبيضه لايختلف عن تناسل الحيوان والانسان فكلها ذات بيض وكلها ذات ذكور وإناث وهذا معنى قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ، ففروا إلى الله » وإنما نفر إلى الله لأننا عرفنا الوحدة وأدركنا ماالسبب في حسن هذا النظام فترى وحدة وترى الوحدة مصحوبة بالكثرة الجميلة الموزونة التي يصح أن يقال بجمعها نظام حسن ، فهذا

الجمال وهذا الإبداع المفرح الذى رأيته يجعل النفس فى شوق إلى المبدع فتحبه فتودّ لقاءه بالموت بعد أن تعلم أنها أدت ما عليها فى هذه الأرض لأبناء نوعها .

ذكر (طيماوس) الحكيم ورأيه فى هذه الدنيا

قد ذكرت لك سابقا (طيماوس) الحكيم الذى جعل (أفلاطون) المحاورة على لسانه وعلى لسان (سقراط) قال طيماوس (اتخذ الله صورة الحيوان المطلق المشتمل على صورة سائر الحيوان وعلى هذا فان العالم حيوان عاقل مرئى يتناول سائر الحيوانات) ثم ذكر تكوين جسد هذا الحيوان من العناصر المعروفة عندهم وهى الأربعة المعلومة وأن العالم صار كرة ، ثم ذكر تكوين نفس العالم من العقل والمادة وشىء مشترك بينهما ، ثم ذكر أن الله لا يصح أن نقول فيه إنه فى زمان لأن الأيام والليالى لم تكن قبل خلق الليل والنهار فالله أوجدها عند تركيب السماء، وما هى إلا أجزاء الزمان للماضى والمستقبل والحال . فاذن نقول الله موجود لا غير . وأما الزمان فهو بالنسبة لنا نحن وسيأتى لهذا القول بقية فى هذا المقام عند المناسبة الآتية ، وليس قصدى من ذكر هذه المسألة من كلام (طيماوس) إلا أن ترى أن مابدى لنا نحن فى زماننا هذا من أن الوحدة فى التناسل دلت على وحدة النظام قد لحظها قبلنا حكماء ، وقالوا إن العالم كله حيوان واحد كأنه جسم إنسان أو حيوان ويشير لذلك قوله تعالى « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » وهذه الآية مجرد إشارة .

﴿الفصل السابع : فى المقصود من هذا الوجود أهى الشهوة أم العقل ؟﴾

لقد استبان لنا فى هذا المقام أن السمك لايتصل ذكره بأنثاه فلا لقاء بينهما وإنما اللقاح يحصل ولاتعارف بين الذكر والأنثى ، وإنما أرانا الله هذه الصورة فى الوجود ليضرب نظامنا الحالى كلها ضربة فاصلة ، يقول لنا أيها الناس أنتم تعلمون أن الزواج والولادة على هذا النسق قد شغلكم عن النظام العام والحكمة . ولقد أنزلت لكم شرائع تعلمكم عقد الزواج والمعاشرة والنفقة والمحبة بين الزوجين وأمرتكم بالمودّة وألقيت المحبة فى قلوبكم فربيتم البنين والبنات وحكوماتكم تساعدكم على هذا ونظام أسراتكم كله مبنى على هذه القاعدة فلا أسرة إلا على هذه الروابط ولا دولة ولا حكومة إلا على هذا البناء ، فلولا هذا البناء لاختلّ نظام حياتكم كلها . هذا ماعلمتموه فى نظامى الذى وضعته لكم ، ولكنى أقول لكم هذا النظام ليس كل شىء بل هو نظام اقتضاه مزاجكم فى أجسامكم ولكن الحياة فى غير بنى آدم لاتتوقف على هذا ، فهاهو ذا السمك تناسل وألقح بيضه وملأ البحر بالسمك ولا علم للزوجين بما تناسل منهما . إذن هذه التى عندكم صورة من صور الحياة ودور من أدوارها والحياة مداها واسع وطرقها لا نهاية لها كما أنى لا نهاية لى فأنا المبدع الحكيم والدليل على ذلك أنى يوم القيامة أحلّ هذه الروابط وأضع نسبكم وأرفع نسبى «لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم» وإنما أفصل بينكم لأجعل الأشكال منضمة إلى أشكالها فقد يكون الابن والزوجة على خلاف أخلاق الزوج فيبعدان عنه . وها هو ذا السمك يشهد بذلك . فإياكم أن تظنوا أن الأمر قاصر على ماترون واذكروا امرأة نوح وامرأة لوط فى القرآن فى سورة (التحريم) . إذن ليس المقصود من هذا الوجود هو الشهوات وما الشهوات ، إلا وسائل جىء بها للتوصل بها إلى التناسل والحياة ومتى جاء الغرض منها لم يبق لها فائدة ومالا فائدة فيه نزعناه من ملكنا كما ننزع الشهوة من الرجل الكبير والمرأة العجوز لأنه لا يقدر أن يربى الطفل وهى كذلك فنزعنا منهما مايضرهما وأبقيناهما إلى حين . واعتبروا أيها الناس بأمر الأبوين فهما يجتمعان للشهوة أولا حتى إذا جاء الولد اجتمعا عليه ، ولا يزال حنوّهما يبتعد عن جسميهما إلى عاطفتهما نحو الولد حتى تنمحى الشهوة البهيمية وتحل محلها الشفقة والرحمة والمشاركة فى تربية الذرية .

هناك تجلت العواطف الشريفة والأنوار المنيفة وأدرك العقلاء أن تلك الشهوة إنما كانت وسيلة وأخذت تضعف وحلّ محلها حب أرق وأشرف وهو حب جميل يرجع إلى المشاركة المنزلية والعواطف الأبوية وهذا هو الذى خلق له الناس ، خلقوا للعطف والمشاركة والمحبة العامة التى تظهر جلية فى الذرية وتتعداها إلى جميع نوع الإنسان ويكونون بعد أمة كأنهم جسم واحد أو روح واحدة بالاتفاق فى الصفات والأخلاق . ولا يتم ذلك إلا بأن ينزع مافى صدورهم من غلّ . كل هذا نفهمه من مسألة التناسل التى نحن بصدد الكلام عليها .

﴿ الفصل الثامن : فى أن مرتبة علماء الطب والتشريح والنبات فى هذا المقام كرتبة علماء النحو والصرف بالنسبة لعلماء البلاغة ﴾

اعلم أن هذه الجملة تقدم نظيرها فى أوائل سورة (آل عمران) ذلك أن عالم التشريح وعالم الطب ينظران إلى هذه الأعضاء نظرا ماديا فهما لا يعنيهما مانقول فى أمثال هذا المقام لأن هذا ليس محط نظرهما ولو أن الطبيب ذكر ما أقوله الآن لم يكن ذلك بصفته طبيبا ، كلا ، وإنما بصفته أنه من علماء الفلسفة العامة والفلسفة علم والطب علم آخر وإن كان بينهما علاقة ، ولكن علاقة الطب بالفلسفة علاقة الفرع بالأصل بل علاقة الفرع الصغير بفرع كبير من الشجرة فان الطب يتعلق بجسم الانسان من حيث يصح ويمرض والفلسفة تبحث عن كل موجود من إنسان وغير إنسان فالأطباء والمشرحون وعلماء النبات يقرءون هذه العلوم لما هم بصدده كما يقرأ علماء النحو قواعده ولكن نظام العالم كله هو الذى يظهر فيه الجمال مثل ما ذكرنا فى نظام التناسل كما يظهر ذلك فى الشعر والنظم فى اللغات ، فالعالم شعر جميل والقول مقال جميل والبحث فى النحو وفى التشريح والنبات غير الإنشاء وغير النظام العام فى العالم .

إذا علمت ذلك فهمت كيف رأينا فى زماننا كثيرا من دارسى هذه العلوم ملحدين فهذا سرّه فليس ذلك لنقص علمهم بالطب والزراعة بل ذلك لجهلهم الفلسفة وعلم الحكمة ، فإما أنهم ليسوا أهلا لها وإما أنهم لم يجدوا من يعلمهم وإما لأن الشهوات أحاطت بهم فأصبحوا جاهلين وهؤلاء لابد منهم لنظام الأمة وهكذا سائر الصناع والزراع ورجال الحكومات والملوك وهؤلاء جميعا ليسوا هم المقصودين من هذا النظام وإنما المقصود هم الحكماء الذين يفرحون بهذا النظام ويعقلونه والذين يكونون «عند مليك مقتدر» .

﴿ الفصل التاسع: فى أن الأقوى الأكمل وإن كان قليلا أشرف من الأكثر إذا كان ضعيفا ﴾

ذلك ماشاهدناه فى السمك والضفادع والناموس والذباب والحشرات تلد مالاحصر له وكلما ارتقى الحيوان قلّ نسله والإنسان والآساد أقل نسلا من بقية ذوات الأربع ، وهى أقل من سائر الحشرات إذن هنا قاعدة وهى أن كثرة النسل لاتدل على الكمال ، وأيضا نسل الإنسان وإن كان قليلا أفضل من الآلاف المؤلفة من نسل غيره والجيش القليل المنظم أفضل من الكثير الذى لانظام له ، قال تعالى «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله» الخ .

﴿ الفصل العاشر ﴾

إن الحشرات والحيوانات الذرّية الفاتكة بالإنسان ملأت السهل والجبل والعلوم التى ارتقت بها الأمم عجزت عن إبادة هذه الذرية الفاتكة بنا المحدثة لأمراضنا ، فما مثل هذا الإنسان إلا كمثل المسجونين المحكوم عليهم بالإعدام فى بلاد إيطاليا ، فالفاتكون فى إيطاليا لايحكم عليهم بالإعدام ، كلا بل يوضعون فى سجون مقفلة يصب فيها ماء ومع المجرم دلو يملؤها منه ليزيح الماء حتى لايغرقه ، ولا يزال هكذا ساعات فى النهار متوالية

محافظة على حياته فاذا طغى الماء عليه وأغرقه هلك . وإنما عمدوا إلى هذا لأنهم رأوا أن للموت راحة فأرادوا أن يموت معذبا . هذا عمل أهل إيطاليا بالمجرمين .

أقول : إن هذا الإنسان لما خلقه الله فى الأرض رأى بعدله وحكمته أن يعامله هذه المعاملة فاننا رأينا تناسل الحيوان الضارّ والحيوانات الذرّية قد غلب على الإنسان وعلومه وأضرّت الحشرات بقطننا فى مصر وبقطن أمريكا والعلوم لم تساعدنا على إبادتها . وهناك أمراض تحدث كل يوم بالحيوانات الذرية ونحن نجدّ فى قطع دابرها وهى تتكاثر علينا كذلك المجرم الطليانى . فانظر لجمال يحيط بنا من كل جانب فى السموات والأرض وعذاب واصب دائم وأجسام تذوب منا كل سبع سنين مرة وتتجدد للعذاب بعد أن نضجت فحال جسم الإنسان فى الأرض أشبه بمن نضجت جلودهم فى جهنم فيبدلون جلودا غيرها وكأن الأرض جهنم الصغرى ولذلك تسمع الإمام الغزالى يقول (إن جسم الإنسان مثل جهنم وله أبواب سبعة كأبوابها) ويقول الله تعالى « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا » .

إذن نحن الآن فى حال تشبه حال جهنم من بعض الوجوه . فياليت شعرى لم هذا العذاب . فهل كنا فى عالم غير هذا وأذنبنا هكذا يزعم فريق من القدماء من المبتدعة . أما ابن سينا فقد نفى هذا فى الإشارات وقال هذا تناسخ ومنع التناسخ عقلا كما منعه الدين نقلا فاذا كان ديننا وفيلسوفنا لايقولان بالتناسخ فلنرفضه ولنرجع إلى ما كان الحكماء قديما يلمسونه لنظامنا الحالى من الحكم وليس ذلك لنعتقد كلامهم . كلا فنحن كما قدمنا أيقنا بأن الله حكيم ونرى أن هذا إسعاد لنا كما أن صغر البيضة المنوية فى الأنثى من بنى آدم وكبرها فى الدجاجة لم يدلا على حقارة الإنسان وعظمة الدجاجة . فالنظام العدل هو القائم فى هذا العالم وقد علمنا منه الكليات وجهلنا الجزئيات فقسناها عليها فهاك ماذكره (أفلاطون) فى رسالة (طيماوس) المتقدمة من تركيب السموات ، وقد تخيل أن الله خاطبها هى والكواكب والملائكة الموكلة بها قائلا إنكم لإفساد يلحقكم وسأخلق مخلوقات فيها شعاع من نورى فاجعلوا الجزء الميت مع الجزء الذى هو من نورى أى المادى مع الجزء الإلهى وهى الروح ثم ركبت الأجسام البشرية على هذا النحو ثم قال بعد ذلك (خلق الله الأرواح البشرية من العناصر التى ركب منها نفس العالم الكلية إلا أنها دونها فى الصفاء والكمال ثم جعل الأرواح فى الكواكب فمنها ماجعله فى الأرض ومنها ماجعله فى القمر ومنها ماجعله فى الكواكب الأخرى فأوقفها على نظام العالم وعلى الترتيب الذى اقتضته حكمته وبين لها أن لجميعها أصلا واحدا لافرق بين روح وروح لكى لاتتظلم من عدم المساواة بينها ثم شرح لها أنها عند اقترانها بالأبدان إنما يلحقها التأثير من الحواس ومايتبعه من الشهوة والغضب والخوف فمن قهرها يعيش مستقيما ومن يذعن لها يكون مفقود العدالة ومن انتفع بحياته لإصلاح ضميره إنما يرجع كوكبه المختص به فيبقى فيه سعيدا ومن قصر فى ذلك فقد يصير أنثى فى حياة ثانية فاذا دام على الشر فيصير حيوانا على شكل مااعتاده فى حياته من أنواع الخطأ فلا يزال يموت وينتقل من بدن إلى بدن إلى أن يرجع إلى الصلاح ويسخر مافيه من العناصر ويجعلها منقادة لرياسة عقله) .

هذا كلام طيماوس لسقراط الذى ألفه (أفلاطون) وإياك أن تظن أن هذا الرأى كان مبرهنا عليه عندهم كلا . فكما نقول نحن فى ديننا إنه لاتناسخ وهم يقولون أيضا إن هذا فرض فرضوه لاغير ، والدليل على ذلك ماقاله فى نفس هذه الرسالة قبل ذلك . قال طيماوس إنى ياسقراط غير قادر أن أشرح لك فعل الملائكة باذن الله ومنشأ الوجود شرحا شافيا متصلا فى جميع أجزائه والأولى أن تقنع بكلامى إذا كان مشبها وأن لا تنسى أن كلاّ منا المتكلم والسامع من أبناء البشر فلابد لنا أن نقنع فى هذا الموضوع بما هو أشبه ولا نطلب مافوق ذلك انتهى ،

فعلى هذا يكون هذا القول الذى ذكره وما يضاهيه من أقوال البراهمة فى الهند كله أمر فرضى . فأما ديننا الإسلامى فتعجب من أمره . فهذا المقال فيه أمران : الأول أنهم فرضوا أن الله خاطب أرواحنا قبل حلولها فى أبداننا وهذا أمر عجيب فان هذا الفرض هو الذى جاء بتحقيقه الوحى فكأنّ العقول البشرية استشفت من وراء حجاب علوما محجوبة عنها وهذه معجزة عظيمة تفسر قوله تعالى « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » فهذه آيات فى صدور علماء الأمم قبل مجىء الاسلام ويكون ذلك حقيقة حاصلة لامجازا وهذا جاء به الوحى . إذن ظواهر الآية من خطاب الله لأرواحنا الذى جاء به الوحى قد جاءت به الفلسفة هذا هو الأمر الأول . الأمر الثانى وهو التناسخ ماهو إلا فرض افترضوه كما عرفته من كلامهم وانما أوردت لك هذا القول لأريك أن الأمم قديما بحثوا هذا الموضوع وفكروا فى أصل خلقنا ولماذا خلقنا «ولكل درجات مما عملوا» وأصل المقام فى أن الإنسان فى الدنيا كالمعاقبين على ذنوب والله يقول لنا « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا» وهذا كاف واف .

وأما مسألة الكواكب وسكناها فأمرها مجهول وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة (آل عمران) فى مسألة الجنة والنار وأن الجنة فى السموات والنار ليست فى السموات فارجع إليه إن شئت وهل هى مسكونة؟ إن العقل لا يمنع سكنى الكواكب بل هو يؤيدها ولكن لادليل عليه، وإذا نظرنا إلى بيض السمك وبيض الدجاج والمرأة فى التناسل نستنتج أن الحياة لا تتوقف على حال خاصة . فكما أن بيض السمك يفرخ فى الماء وهو بارد وبيض الأنثى والدجاجة لايفرخ إلا وهو مستدفئ أى أن الحياة تحصل فى الضدين . هكذا القول إن الكواكب التى تخالف جوها وأحوالها جو أرضنا وأحوالها لامانع يمنع من وجود حياة فيها مخالفة لحياتنا هنا لاختلاف البيئة والوسط وتعطيل الكواكب يخالف الحكمة فهذا يرجح سكنى الكواكب ولكن من يسكنها وكيف يسكنونها . كل هذا مجهول قديما وحديثا .

فلما سمع صاحبى ذلك قال إن محصل ما ذكرت فى هذا الفصل يرجع إلى التماس معرفة الحقائق فى مسألة الخير والشر للانسان وأن فريقا يقول إن ذلك لذنوب سبقت من أرواحنا فى عالم قبل هذا وقد منعه ديننا وفلاسفتنا وأن (طيماوس) يقول إننا خالفنا أوامر الله التى أمر أرواحنا بها واتبعنا إضلال الحواس والشهوات وان كنا فى أصل فطر أرواحنا متحدين منسوبين للنور الإلهى وإن كنا أقل من أرواح العوالم العلوية . ويقول (طيماوس) إن عذابنا على ضلالنا يكون بالرجوع إلى أجسام منحطة وإنك تسلم بمخاطبة الله لأرواحنا لوروده فى الدين ولا تسلم بهذا التناسخ الذى جعلوه ثم فرضا لا دليل عليه . هذا محصل ماقلته فهل تذكر قولا للقدماء غير هذا ، فقلت نعم سيأتى فى سورة (الأنبياء) عند قوله تعالى «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون» إن دين قدماء الفرس تضمنه [كتاب الاوستاوزند] ومعنى هذا (المتن والشرح) ويسميه الإفرنج (الزندافستا) وهو كتاب منظوم يقال إنه كان فيه ألف ألف بيت من نظم (زردشت) وفقد أكثره فى أيام الإسكندر ثم جمع ذلك الأكثر بعد ذلك . هذا الكتاب ألفه (زردشت) المذكور بالرى بالقرب من طهران قبل المسيح بنحو ستمائة سنة وقيل قبل المسيح باثنى عشر قرنا أى قبل أن وصل قدماء الفرس إلى (إيران) وهذا كلام محقق الإفرنج . فهذه الديانة كما ستراه هناك كانت تقول فى أصل الدين كما يقول الاسلام فالإسلام يقول «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» فالشر والخير مقرونان فى الإسلام فان نلنا خيرا شكرنا وإن أصابنا شر صبرنا ، فالخير للاقتدار على فعل الخير والشر لتعليمنا خلق الصبر وقوة النفس . هذا ملخص مافى الإسلام ، هكذا دين قدماء الفرس يقولون إن الله واحد ويمقتون عبادة الأصنام ويقولون إن الله عنده مبدآن : مبدأ الخير ومبدأ الشر وكل واحد منهما ملازم للآخر وهذا معنى الحى الميت كالنور والظلمة وهكذا . فمبدأ الخير اسمه (أهورامزدا) أى الروح الحكيم أو الجواد ثم قيل (هرمزد) والثانى

(انقرومانيوس)

(اقرومايتيوس) أى العقل المظلم ثم صار (اهرمان) فهذه تعاليم (زردشت) قبل أن يرتحلوا إلى بلاد (ايران) وتختلطوا بالمجوس الذين أدخلوا الفساد فى دينهم . فهذان المبدآن بعد أن كانا فعلين من فعل الله الواحد فى دين (زردشت) صارا إلهين مختلفين إله الخير وإله الشر فصار الفرس من الثنوية بعد أن كانوا موحدين وهما إلهان دأبهما الخصام فهذا يعطى المطر والخصب وهذا يرسل القحط والهوام والحشرات والشوك ، ثم قلت إذن مسألة كثرة النسل قد جرت إلى نسل الحشرات والحيوانات الدرية وهذه جرت إلى مسألة الخير والشر ورجع شر (طاوس) إلى حواسنا وشهواتنا ودين قدماء الفرس (قبل انتقالهم إلى إيران) إلى أنه تقدير الله المحى للميت والمحدثون من الفرس المخالطون للمجوس يقولون (إن الخير إلها والشر إلها) انتهى الفصل العاشر .

﴿ الفصل الحادى عشر ﴾

فى ذكر آيات من القرآن تناسب هذا المقال وقد تقدم ذكر آيات كثيرة فى فصول متفرقة فلا نعيدها انتهى يوم الجمعة ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٨ .

﴿ الجوهرة الثانية فى نظام نمو الحشرات ﴾

وقبل أن أغادر هذا المقام اللذيذ والعلم الجميل والحكمة البارعة فى نظام النمو فى أجنة النبات والسمك والإناث من نوع الانسان لايسعنى إلا أن أريك أيها الذكى أجل حكمة وأبهج علم فى نمو الحشرات تلك العوالم التى عدها العلماء بمئات الألوف ولا يزالون يكشفون منها أنواعا جديدة . تلك العوالم البديعة التى جعلها الله محيطة بنا لندرسها ، فمنها ماهو مؤذ لنا كالذباب والناموس والبق وهكذا ومنها ماهو نافع كالنحل ودود القز وهذا صورته (شكل ٧) .



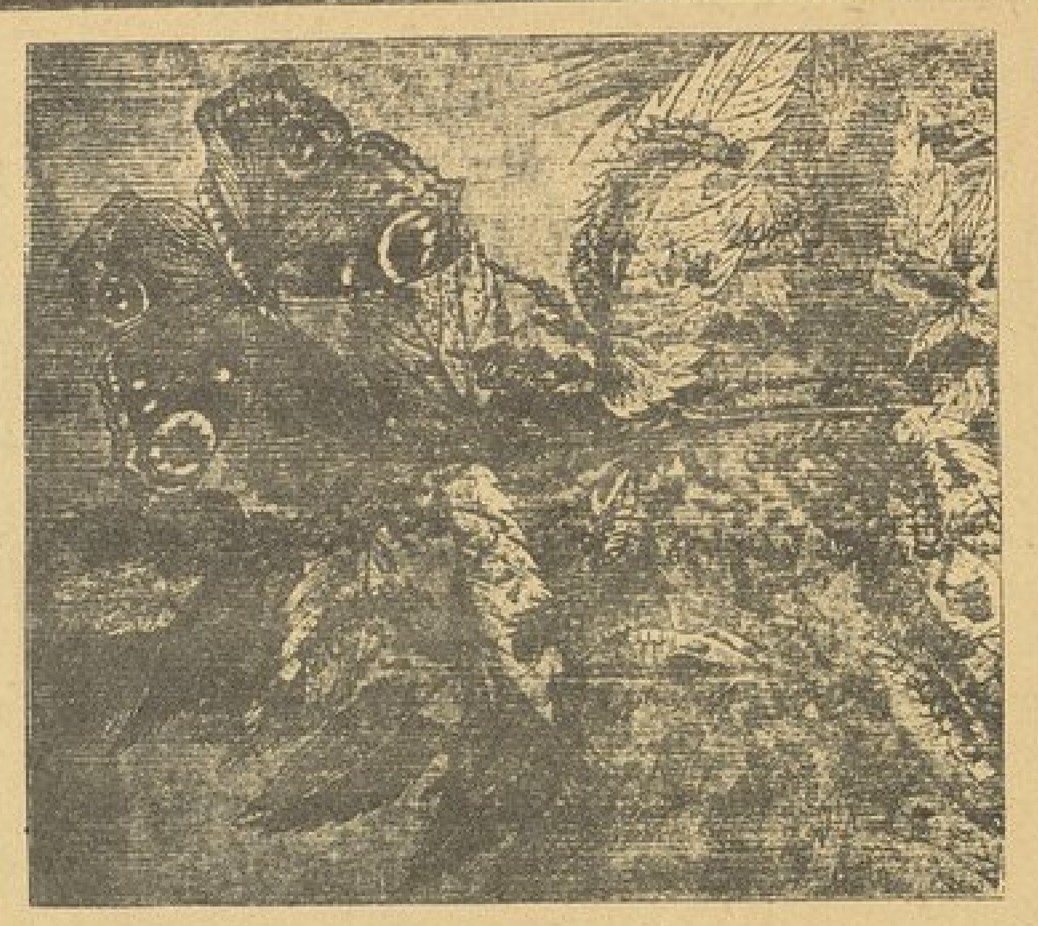
(شكل ٧ ــ صورة دودة الحرير وفيلجتها)
(كرة الحرير) والحشرة التامة التى خرجت من الفيلجة)

أيها الذكى . أنا لست الآن فى مقام دراسة هذه الحشرة كأن أقول مثلا إن هذه الدودة التى أمامك منها فى هذه الصورة اثنتان تأكلان ورق التوت أصلها من بيض صغير جدا مستدير مجوف الوسط وله قشر صلب

وهو سماوىّ اللون كثير العدد فان حشرة الحرير التى ترى أمامك فى الصورة منها اثنتين أيضا تبيض من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ بيضة وتجعلها فى صفوف منتظمة قبل أن تموت . هذا أمر ربما أنت كنت قرأته فى المدارس فلأزيدك به علما وأنت تعرف أن هذا البيض لايفرخ إلا عند اشتداد الحرارة فى آخر شهر مارس أو أول إبريل فبعد أيام قليلة ترى دودة الحرير تحاول الخروج من البيضة فيقدم لها ورق التوت الذى أمامك فترعاه وتنمو ثم إن لونها أولا يكون أسود ثم يصير سماويا ثم يصير كالفضة وتبلغ فى الطول خمسة سنتيمترات وإذ ذاك تصير نهمة على الأكل ومتى تم نموّها يظهر عليها أنها تعبت من الأكل فتأخذ تزحف ببطء ويكون حلق جسمها (١٣) مقطعا وجلدها ناعم وفى جانبيها بقع سود ولها أرجل زوجية كثيرة العدد وأكبر أقسام جلدها قرب الرأس وهو منتفخ وجلدها يسقط أربع مرات ويلتفت ومتى سقط المرة الأخيرة تبتدئ الدودة فى غزلها وحالها إذ ذاك تخالف حالها حين خرجت من البيضة والحرير عبارة عن مادة سائلة تخرج من رأسها ومتى لامست الهواء صلبت وتدوم على هذا النسج من ثلاثة أيام إلى خمسة وهناك يتم الفيلج وشكله البيضى الذى ترى أمامك فى الصورة اثنتين منه وترى فى داخل كل فيلجة مايسمى (العذراء) أو يسمى (الدودة الحمراء) ومتى نامت تلك الدودة فى الفيلجة أسبوعين تخرج فراشة قشدية اللون ذات أربعة أجنحة كما تشاهدها فى الصورة أمامك وقرنين شعريين وجسم غليظ عند الأنثى وهو دقيق عند الذكر وتمكث قليلا حتى تلقح الأنثى ثم تموت .

هذا هو تاريخ حشرة (دود الحرير) فأولا تكون بيضة ثم دودة ثم تنام فى كرة من الحرير وهى الفيلجة ثم تكون حشرة تامة تبيض ثم تموت ثم يعيد البيض مافعله آباؤه مدى الدهر ، أنا أقول لك أيها الذكى إنى لست فى مقام أن أكتب هذا وإن كنت كتبته واضحا لأن كثيرا من الناس قرءوا هذا فى مدارسهم وترى التلاميذ يشاهدون هذا فى صغرهم ويربون تلك الحشرة . هذا معنى قولى إنى لست فى مقام هذا التاريخ وإنما الذى سقت له هذا القول أن أوازن مابين نموّ الحشرات ونموّ الأجنة فى بطون الإناث من بنى آدم ونموّ أجنة السمك الذى تقدم ذكره . هذه بيضة المرأة أمامك قد عرفتها وفهمت شرحها . هكذا اطلعت على نظام أجنة السمك . فانظر للعجب العجاب . بيض السمك أفرخ ولم يتلاق الذكر والأنثى عند اللقاح كما علمت بخلاف بيض المرأة والحشرة . بيض السمك بعد الإفراخ نجده ترك كيسا من الغذاء لهذا الجنين يتغذى منه حتى يستقل وذلك بقدر ولكن بيضة المرأة لا تحتاج لذلك ويقوم دم الأم بالتغذية وبيض الحشرة المتقدمة أعطى ورق التوت الذى يحضره الإنسان طمعا فى الحرير . فأما حشرة أبى دقيق فان الانسان لبغضه لها لايحضر ورقا بل الورق حاضر مما عندها بلا عمل الانسان وفيلجتها ليست ذات قيمة حريرية بل هى ضيقة جدا وهكذا فيالج بقية الحشرات لذلك أغناها الله بالورق من أى شجر ، أما دودة الحرير فجعل لها ورقا خاصا وأكثر لها من الحرير ليحتفى بها الإنسان (شكل ٨) .

(شكل



(شكل ٨ ـ صور التقلبات لحشرة أبى دقيق من خروجها من البيضة إلى أن تكون حشرة تامة)

فلها الحالات الأربع السابقة بيضة فدودة فبلجة فحشرة تامة وهكذا كل الحشرات . وهنا نذكر مايقوله العلامة (أندرو ويلسون) فى كتاب [علوم الجميع] يقول بينما نرى دودة الحرير تأكل الورق بشراهة عظيمة نرى الحشرة التامة قد خرجت مخالفة لتلك المخالفة التامة فإننا نرى لها جناحين مستقلين وهى نشطة تريد أن تذوق لذة الحياة الجديدة ونسيت الأولى نسيانا تاما ، وهكذا إذا نظرنا للصور التى تقلبت فيها حشرة أبى دقيق فاننا نرى أنها وهى دودة قد أكبت على الأكل بشراهة ولما سمنت نامت ثم نسجت فيلجة ثم خرجت ذات جناحين وفم غير الفم الأول ، الفم الأول كان يمزق الورق تمزيقا والفم الثانى خلق مناسبا كل المناسبة لاستخراج ذلك الكنز الثمين والمخزن المكنون فى الزهرات وهو العسل الذى تمتصه فهى تطير من زهرة إلى زهرة لتجتنى العسل الرحيق ولما كانت دودة كانت تزحف على الشجر والورق وكان جسمها مساعدا لذلك مناسبا له اهـ .

هذا مقال العلامة الإفرنجى فى ذلك الكتاب . وها أناذا قد جاء دورى فى القول ولكن بطريق غير ما ذكرته أولا فأقول : ألا حيا الله العلم وأنار ربوعه . هذه حشرة أبى دقيق وحشرة الحرير . فانظر كيف كانت حشرة أبى دقيق مثلا على الأرض دودة . هذه الدودة تزحف على الشجر والورق . ألست تراها كالإنسان الآن . ألست ترى أن الانسان جهول وجهول . انظر ماسبق فى آخر سورة (الكهف) من أن الإنسان الحالى ينتظر ارتقاؤه آلاف الآلاف أضعاف ارتقائه الآن . الإنسان الآن كدودة حشرة أبى دقيق ثم انظر . ألست تراهم على الأرض شرهين يحارب بعضهم بعضا . هذا هو الشره الذى تمثله حشرة أبى دقيق

أو لست ترى أنه ربما يجيء له يوم وربما كان قريبا تسكن شراهته كما سكنت شراهتها وهى نائمة فى الفيلجة ثم يرقى الإنسان ارتقاء عاليا كما خرجت الحشرة من الفيلجة فصارت خلقا آخر . أقول ربما كان ذلك وإن هذا الإنسان تتغير أطواره ويصبح الناس إخوانا فى جو الحرية والجمال فى هذه الدار ، ربما كان ذلك ويكون هذا الزمان المسمى زمان نزول المسيح . وهنا نظرة أخرى الإنسان فى الحياة جماع مناع وذنوبه تبنى عليه حجابا كثيفا كما قال تعالى «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» وهذا الحجاب كالفيلجة ، فمن الناس من يخرجون مما حبست فيه عقولهم ومنهم من لا يخرجون فيزجون فى عوالم جهنم ويمثل لهذا موت الفراشة فى الفيلجة ، وأيضا هذه الدروس ترينا أن الإنسان حرى به ألا يقف على حال إلا طلب أعلى منها وأن الأمم الأرضية ليس مقضيا عليها بحال واحدة فربما يعقب الذل عز والاستعباد حرية كما نرى فى حشرة أبى دقيق وترينا أن تربية الذرية تكون فى كل شيء بحسبه ، ومن العجب أن يدخل الغزل والنسج فى تربية الحشرات ولا يدخل فى نمو الإنسان والسمك وغيرهما .

إن الإنسان عليه الجد كما جدت دودة أبى دقيق « إن الإنسان اليوم فى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . فالعمل بعد العلم الذى مبدؤه مجرد الإيمان هو الذى يخرج الإنسان من دور الطفولة إلى دور الرجال « وتواصوا بالحق » فى عملهم « والصبر » عليه . فالصبر هو الذى يرفع الإنسان إلى أعلى الدرجات كما رفعت الحشرات إلى درجة الطيران فى الهواء .

﴿ فائدة ﴾

يقال إن ماينسجه دود القز على نفسه من الخيط يبلغ (٣٠٠) مترا . وقد ألغز بعض الشعراء فى دودة (القز) فقال مايأتى من الأبيات :

وبيضة تحضن فى يومين ... حتى إذا دبت على رجلين
واستبدلت بلونها لونين ... حاكت لها خيشا بلا نيرين
بلا سداة وبلا بابين ... تثقبه من بعد ليلتين
خرجت مكحولة العينين ... قد صبغت بالنقش حاجبين
قصيرة ضئيلة الجنبين ... كأنها قد قطعت نصفين
لها جناح سابغ البردين ... مانبتا إلا لقرب الحين
إن الردى كحل لكل عين

انتهى من [علم الدين] .

﴿ الجوهرة الثالثة : فى صناعات الحيوان وحكوماته وجمهورياته وتقليد الإنسان له فى ذلك كله ﴾

اعلم أن الحيوان خلق قبل الإنسان والإنسان مقلد له فى سائر ضروب الأعمال الصناعية والسياسية وهاك البيان .

(١) عاشت (الجرذان) تحت الأرض فقلدها الإنسان الأول فعاش فى الكهوف .

(٢) ثم رأى الظباء والمها (١) تعيش فى الأدواح والآجام فقلدها .

(٣) ثم رأى النحل تتخذ البيوت فاتخذها .

(٤) ثم رأى الحيوان المسمى (الكستور) وهو المسمى (الجند باستر) أيضا ، وهو الذى يبنى بيته بالقرب

---

(١) المها : بقر الوحش .

من

من شاطئ نهر أو بركة ويتخذ له من أغصان الأشجار جسرا متينا على هيئة سد يمنع عنه قوة السيل بأن ينضد تلك الأغصان بعضها فوق بعض ويلصق أحدها بالآخر إلصاقا محكما لاينقصه شيء مما يحتاج إليه من هندسة البناء ، فهذا الحيوان رآه الانسان أنه كما يبنى بيوته بهذه الهندسة يبنى جسورا وقناطر تصنع مثله .

(٥) ثم رأى الدب الذى فى المنطقة الشمالية من الكرة الأرضية يسافر فى البحر على قطع من الثلج إلى حيث يقصد :

(ا) وهكذا رأى (السنجاب) قوى العزيمة يركب خشبة بهيئة مركب ويرفع ذنبه للريح قائما مقام قلع المركب ومقام (السكان) الذى يسميه العامة (الدفة) ويقطع بذلك مجارى الماء .

(ب) وهكذا رأى الطواف وهو ضرب من ذوات الأصداف يسافر فى البحار فيركب صدفته ويرفع مرساته وينشر أغشيته للريح شراعا ويسافر من مكان إلى مكان ، ثم إذا فرغ من السفر ألقى مرساته وطوى شراعه واستقر فى مكانه كأنه سمع قول الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

فلما رأى الإنسان ذلك تعلم فن (الملاحة) من تلك الحيوانات . ويعتبر مثل هذا الحيوان سمكة صغيرة تعرف (بالديعورا) فانها تتخذ لها أقوى السمك وأصعبه وأعظمه مركبا لها وتسير به حيث شاءت، ذلك أن لكل نوع من السمك عوامة ممتلئة هواء، وهذه العوامة بها يسير حيث شاء فهو يضغطها وينفخها كما يشاء فيجرى حيث شاء ولكن (الديعورا) لم يعطها الله هذه العوامة ولكنه أعطاها مايقوم مقامها وأكثر ، كما أعطى الإنسان عقلا يقوم مقام جلود البهائم وقرونها الخ فلها فى جانبى رأسها صمامات مستديرات فى صورة شكل البيض فمتى أرادت الانتقال إلى جهة تريدها عمدت إلى حيوان كبير من حيوان البحر أيا كان فتلتصق به بواسطة صماماتها المذكورة فلا يمكنه أن يتخلص منها بحال ولا يقدر أحد على فصلها بالقوة وتسافر به إلى حيث ماتشاء وهى تفضل كلب البحر فتسافر عليه وكلب البحر المذكور طوله عشرة أمتار وفمه عظيم جدا يبلغ طول فتحته نحو الثلث من طوله ، ومحيطه ثلاثة أمتار وقطره متر واحد وجلده غليظ لايؤثر فيه الرصاص ويقطع محيط الكرة الأرضية فى ثلاثين أسبوعا وجميع السمك يخشى بأسه وهو يتبع السفن ليلتقط رمث الموتى . وقد اصطاد أهل (مرسيليا) كلبا منه فرأوا فى جوفه سمكا كثيرا ورجلا بثيابه ، وهنا نقول لماذا اختصت (الديعورا) بأنها تذلل كلب البحر وغيره فيجرى بها . (الديعورا) كالإنسان بالنسبة للحيوان من بعض الوجوه ولقد منعت وأعطيت . منعت العوامة وأعطيت سلطة بها تذلل غيرها ليجرى بها . وهنا نقول يظهر أن هذا العالم مبنى على علم وعدل غير ماتعارفه الناس . الناس تعارفوا أن الإنسان لايعمل لغيره إلا بأجر وأين الأجر لكلب البحر لما ذلله (الديعورا) . وفوق ذلك نرى كلب البحر يأكل غيره .

إن نوع الإنسان إلى الآن لم يقف على جلية الحق . إن الطبيعة المنظمة حولنا فيها قضايا غير التى يعرفها العدل فى الأرض . يظهر أن الحقيقة غير ذلك . ألم تر أن السمك وحيوان البر والبحر تتغذى كلها بالهواء وبالماء وبالحشائش بلا مقابل . إذن هو لا عمل له وجميع حياته وقواه منحة من صانع هذا العالم الحى . فاذا ذلله لغيره كان له ذلك لأن الهواء والماء والحشائش والأرض كلها له . فاذا أمر (الديعورا) أن تركب كلب البحر فهذا حق ويظهر لى أن هذه العوالم تؤلف هيكلا واحدا ونظاما واحدا وحيوانا واحدا . فكل حيوان أو نبات عضو منه فليكن بعضه لبعض فداء، وهذا درس للانسان . يقول الله له بلسان (الديعورا) وكلب البحر (أنت مخلوق للجميع لا لنفسك فان عرفت هذه الحقيقة فبها وإلا فليخضعك الله لغيرك كرها كما أخضع كلب البحر لغيره) «إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا» .

(٦) ورأى الثعلب البرى والبحرى والكلب والذئب وابن آوى وسائر السباع حرفتها الصيد ، ولا تعيش إلا به . وهكذا رأى الدب الأسود والكركى يعيشان من صيد السمك . فمن ذلك تعلم الإنسان حرفة الصيد .

(٧) ورأى (العنكبوت) يصطاد بشبكة كما ستراه فى سورة (العنكبوت) فتعلم الصيد بالشباك .

(٨) ورأى بعض السمك له (منشار) و (بلطة) أى سلاح حاد يشبه الفأس من بعض الوجوه فقلده الإنسان فيهما .

(٩) ورأى للسرطان درعا يقى جسمه العوارض والمهالك فتعلم صناعة الدروع ، وهكذا منه أيضا تعلم صناعة (اللاقيط) و (الكماشات) .

(١٠) وأخذ صناعة (أحقاق النشوق) عن (الاستريديا) وعن (أم الحلول) كما فى كتاب [علم الدين] لأستاذنا المرحوم على باشا مبارك .

(١١) ورأى الخنزير يمد خرطومه فيشق الأرض فتعلم منه الإنسان حراثة الأرض بالمحراث بل ربما كان استخراج الذهب والفضة من الأرض بسبب تقليد الخنزير .

(١٢) ورأى (الهرة) تتوقى الروائح الكريهة المتصاعدة من الفحم فقلدها .

(١٣) ورأى الكلب يتعاطى مسهلا عند انحراف مزاجه فأخذ الطب عنه .

(١٤) ولما رأى النمل تجند الجنود وتجهز الجيوش قلدها .

(١٥) ولما رأى (اللقلق) يعمل بالمشاورة فى الأمور تعلم علم الدواوين وجعل له مجالس للشورى للنواب والشيوخ كما هو مشاهد فى هذا الزمان .

(١٦) ولما رأى الغراب كثير الحذر قلده .

(١٧) ولما رأى النسناس والكلاب تصاحب الناس اتخذ ملوكهم جلساء لهم ، وكذا الأمراء والعظماء .

(١٨) ولما رأى الناس السباع ذات جرأة وظلم جاروا وظلموا .

(١٩) ورأى الخيلاء والكبر فى (النمر) فقلده .

(٢٠) ورأى النحل مهندسا يبنى بيته مسدس الأركان بنظام لا خطأ فيه بحيث يبنى ما كن كثيرة فى فسحة صغيرة بسبب حسن الهندسة والإتقان كما أتقن الله أدمغة الناس وأجسامهم وحسن أشكال أجسامهم فقلد الحيوان فى ذلك .

(٢١) ورأى الخلد أعلم العلماء فى معرفة أحوال الطقس فتعلم منه ذلك كبار فلاسفة الأرض (والميترولوجيون) .

(٢٢) ورأى (السمك الرعاد) قديرا على إظهار مقدار عظيم من الكهرباء فاذا لمسه الإنسان ارتعد جسمه واهتز اهتزازا عنيفا فقلده .

(٢٣) ورأى الأطيار تغنى بغناء مطرب وصوت رخيم عجيب التلحين يشجى القلوب بتغريده ويطرد الأحزان فقلدها .

(٢٤) ورأى (فأر الجبل) يبنى بناء متقنا فيجعل بيته على أقبية ويحفر له أقنية ليجرى الماء فيها فقلده حتى قال فرعون « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » فيقال له لقد سبقك بذلك (فأر الجبل) . وهكذا رأى الضب يبنى بيته فى أجود الأماكن وألطفها هواء فقلدها .

قال

قال الشاعر :

سقى الله أرضا يعلم الضب أنها بعيد عن الآفات طيبة البقل
بنى بيته فيها على رأس كدية وكل امرىء فى حرفة العيش ذو عقل

(٢٥) ورأى كلب الماء ماهرا فى النجارة والبناية كثير القوة عظيم الهمة والإقدام فيقطع الأشجار وينشرها ويجعلها ألواحا ثم يبنى بها مدنه على جوانب الماء ، ويسكنها كأهل مصر وباريس وجميع الأمم المتمدينة الذين تعلموا منه الهمة والنشاط فى ذلك .

(٣٦) ورأى من (الزنابير) صناعا تصنع الورق فقلدها .

(٢٧) ورأى (دود القز) يغزل فتعلم الغزل .

(٢٨) ورأى (دود الربيع) نساجا ينسج خيامه فتعلم منه النسج .

(٢٩) وبعض الطيور دقيق الصنعة فى الحياكة فقلده فى ذلك .

(٣٠) وبعض الطيور خياط يخيط الأغصان والأوراق ويسكن فيها فقلده فى ذلك .

(٣١) ورأى (النمل) تكد وتكدح ليلا ونهارا مع الحكمة فتعلم منها ذلك . ولما كان أمر النمل عجيبا أردت أن أذكر هنا نبذة صالحة عجيبة تاركا ماهو أعجب لما سيأتى فى سورة (النمل) .

النمل فى قريته : هندسة عجيبة

النمل والنحل كلاهما مثل الغريزة الصادقة التى لا تخطىء ، فكل منهما يعمل أعمالا غاية فى الدقة والتعقيد فيجيد عمله كأنه يعقل وإن لم يكن للعقل أثر فى جميع مايعمله وإنما هو مسوق بغريزته يؤدى عمله أداء ميكانيا لايتردد فيه ولا يفكر . وقرية النمل التى يعيش فيها مقسمة طبقات منها ماهو خاص بادخار الأقوات التى يخرجها أحيانا إلى سطح الأرض لكى يجف إذا رآها قد رطبت وأوشكت أن تتعفن . ومنها ماهو خاص بالملكة وليس لهذه الملكة شىء من سمات الملوكية فانها مثل ملكة النحل مقصور عملها وهمها على البيض فهى تبيض مدى عمرها . وتبلغ عناية النمل بقريته أنه يدفن مايموت حتى لاينتن جسمه ويوبىء القرية ، والنمل فى القرية منقسم طبقات فمنه الجنود التى تختص بالقتال والدفاع عن القرية ومنه الإناث العاملات اللواتى يخرجن لجمع الأقوات وينظرن فى مصالح القرية من رعاية الصغار وإخراجهن إلى الخلاء لتنفس الهواء النقى ثم العودة بهن إلى العناية بالقرية والملكة .

ويعتبر النمل من عجائب الطبيعة فانها تخص نوعا من الصراصير باختزان العسل فتجبر هذا البعض على أن يعب العسل عبا حتى يتورم جسمه ولا يستطيع الحركة ويتركه زمن الشتاء فان أراد أن يشرب ذهب إليه وامتص منه قطرة كما يحلب الناس البقر وهو يعنى بقره ويهىء له علفه . ويقول الأستاذ (انفرث) وهو من أساتذة جامعة (ميونيخ) وقد اختص فى درس طبائع النمل (إن النمل أحيانا ينغمس فى تناول هذا الشراب حتى يسكر وليس للنمل أجنحة ماعدا الملكة والذكور فانها مجنحة . ويقال إن فى العالم نحو ألف نوع من النمل تعيش فى كل مكان عدا الأصقاع الباردة) .

ومما يحكى عن غريزة النمل ماجربه بعضهم مع أحد أفراده فانه أخذ نملة من قرية وأبقاها محبوسة عنده عدة أشهر ثم ردها إلى القرية مع نملة أخرى غريبة فقتلت النملة الغريبة فى المكان وأذن للنملة الأصلية أن تدخل وذلك مع عدم وجود أى فرق بين الغريبة والأصلية من حيث النوع . وللنمل ما يشبه الذكاء والتفاهم

فاذا وجدت نملة مقدارا من الغذاء، ووجدت أخرى مقدارا كبيرا ذهبت كل منهما إلى القرية وبعد برهة تعود الأولى بعدد من النمل وتعود الثانية بعدد أكبر من النمل لحمل الغذاء . وللنمل غزوات يقصد منها الاسترقاق فانه يغير على القرى المجاورة ويخطف صغار النمل ويربيه فينشأ رقا فى القرية يخدم أسياده الذين يستعبدونه وقد ذكرنا الصراصير التى يخزن النمل فى أجسامها العسل . وهناك المنّ أيضا الذى يعيش أحيانا على أوراق القطن والذى يسمى الفلاحون إصابة أقطانهم به (الندوة العسلية) فان النمل يخطف بيضه ويذهب به إلى قريته فيتركه حتى يتفقأ البيض فيقدم البعض لصغاره حين يكبر ويشرب ما يفرزه من العسل . ووقت التلاقح تطير ملكات النمل فاذا تم التلاقح عادت إلى القرية وتقع جناحاها فلا تخرج بل تبقى تبيض حتى تموت . (انظر شكل ٩ فى صفحة ١٢٤) .

قرية النمل وطبقاتها

(١) باب القرية .
(٢) نملة تدخل القرية .
(٣) الحرس لمنع دخول الغريب .
(٤) أول طبقة لراحة العمال فى الصيف .
(٥) الطبقة الثانية لراحة العمال فى الصيف أيضا .
(٦) مكان تناول الغذاء .
(٧) مخزن تدخر فيه الأقوات .
(٨) ثكنة لجنود النمل .
(٩) الغرف الملوكية حيث تبيض ملكة النمل .
(١٠) إصطبل لبقر النمل مع علفه .
(١١) إصطبل آخر لحلب البقر .
(١٢) مكان لتفقؤ البيض عن الصغار .
(١٣) صغار النمل وبيضه .
(١٤) صغار النمـل .
(١٥) مشتى للنمل وفى اليمين جبانة لدفن من يموت .
(١٦) مشتى للملكة انتهى .

(٣٢) والنسناس يفعل أفعالا مضحكة وقلده الإنسان بما يسمى (البهلوان) وهو الذى يجرى أو يرقص فوق الحبل وما أشبه ذلك .

(٣٣) ورأى القرد يلعب ويمرح حتى يضحك العبوس ويزيل الحزن فقلده وبنى دورا للألعاب والأمور المضحكة وهى (دور التمثيل) المسماة (التياترات).

(٣٤) ورأى فى النمل الأبيض بنائين وملوكا وجنودا فجمع الانسان ذلك كله وزاد عليه كثيرا .

(٣٥) ورأى كلاب الماء قد عاشت عيشة المساواة والحرية فقلدها الانسان بحكومة (الجمهورية) كفرنسا وألمانيا وتركيا الحديثة وغيرها .

(٣٦) ورأى للنحل وللأرضة كما تقدم فى سورة (النحل) حكومات فقلدها الانسان كما ترى فى مصر والترك والإنجليز والأسبان وما أشبه ذلك .

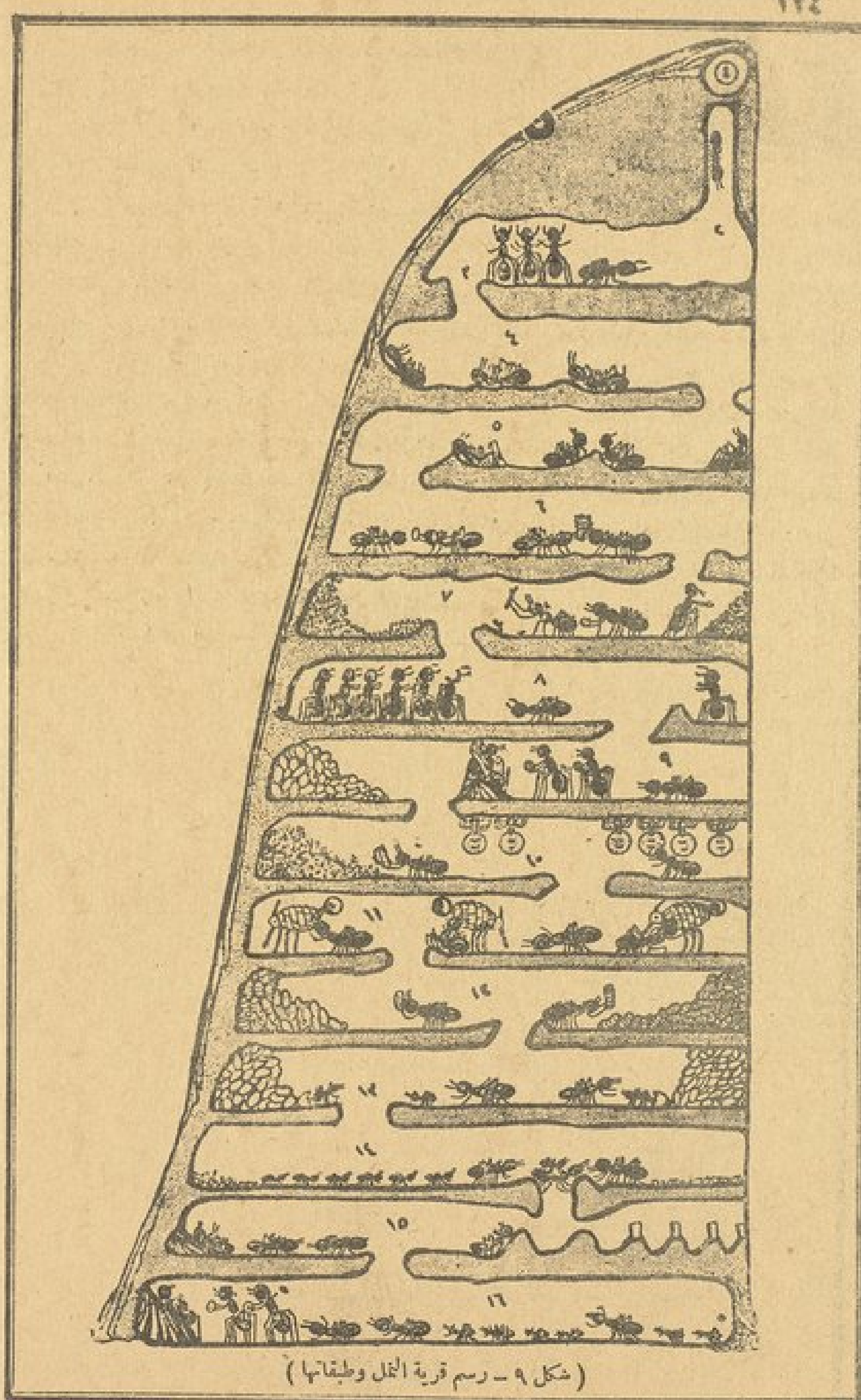
(٣٧) ورأى (الأيائل) الهندسية تعيش بهيئة مجلس من الشيوخ يحكمها كحكومة بنى إسرائيل قبل أيام سيدنا سليمان عليه السلام فقلدها .

(٣٨) ورأى الأفيال تنقاد للأشراف منها فقلدها الإنسان فكانت حكومات الأشراف كما فى جمهورية (أفلاطون) المتقدمة فى سورة (النحل) .

(٣٩) ورأى الخيول البرية تنتخب لنفسها قوادا منها فتسير أمامها وتهديها فى سيرها وتتسلط عليها فعلم انتخاب الأعضاء فى المجالس النيابية .

(٤٠) ورأى الغنم البرية تقيم عليها كبشا منها يقاتل عنها ويسير فى مقدمتها ويحميها فقلدها فى ضباط جيوشه وفى رؤساء العاملين فى سائر الأعمال اهـ .

فانظر لهذا الجمال فى هذا العالم البهيج الجميل «فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم» وانظر كيف وزع الله القوى والقدر والأخلاق والصناعات والعلوم على أنواع الحيوان وجمعها فى هذا الإنسان وإنما جمعها فيه ليدرسها وليفهم قوله تعالى «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هـدى» فهذا هو الخلق وهذه هى الهداية . فياليت شعرى من أين يعرف المسلمون معنى أمثال هذه الآية إلا بدراسة هـذه العلوم . اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم ونعمة الحكمة . اللهم إنك أنت الملهم للعلم وإنى أشكرك على ما أنعمت به علىّ ووفقتنى أن أجمع هذه الأربعين خصلة من صناعات وعلوم وسياسات وحكومات مفرقات فى الحيوان مجتمعات فى الإنسان من كتب قيمة حديثة العهد فى هذا الزمان الذى انتشرت فيـه بعض أنوارك وظهرت فيه بعض علومك وعجائب صنعك وبعض أسرار كتابك وأن ما كتبته الآن قطرة من بحر من بحور العلم المكنونة فى غرائز الحيوان ونبذة من العلوم المخبأة تحت كلماتك المقدسة فى كتابك . وعلى مقدار ارتقاء العقول فى العلوم يزدادون ارتقاء فى فهم كتابك، والحمد لله رب العالمين . انتهى ليلة الأربعاء ٩ مايو سنة ١٩٢٨ .



(شكل ٩ — رسم قرية النمل وطبقاتها)

﴿ تذكرة ﴾

تقدم فى سورة يوسف وفى سورة المائدة ذكر منافع الطيور وأن الحكومة المصرية منعت صيد طائفة منها وتراها مرسومة فى سورة يوسف وذلك داخل فى قوله تعالى « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فقد هداها الله لأكل الحشرات لمنفعة الزرع وهدى الناس لمعرفتها . ولقد أصدرت الحكومة المصرية أمر أثناء طبع هذه الآية بمنع طيور أضعاف ما منعت فى المرة السابقة لأنها اتسعت معلومات رجالها فى ذلك وهاهى ذه :

الطيور النافعة للزراعة

صدر قرار لمعالى وزير الزراعة المصرية بحسبان الطيور المبينة بعد نافعة للزراعة وتحريم صيدها ومنع إتلاف بيضها وأعشاشها وهى ﴿ القنبرة وعصفور التين وأبو فصادة والقلاق والشحوت والجليل والكروان والسنونو والزرزور والدخلة والزريقة والحسينى والدج والكركى والوروار والبلشون وأبو قردان وعصفور الجنة والهدهد والبلبل والصفير والخطاف وأبو بلقية وأبو اليسر والزقزاق مطوق والزقزاق البلدى والغراب الزيتونى وأبو صدر (أبو الحناء) والجيرة والصعو والهزار والقميحة وأم الهوى وزقزاق شامى ﴾ انتهى .

مسامرة فى حديث السحرة مع فرعون إذ قالوا له « إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا » إلى قوله « وذلك جزاء من تزكى »

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى أمثال هذا المقام واطلع على ما تقدم وقال لقد أحسنت صنعا فى الكلام على قوله تعالى « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » إذ أبنت أن القرآن يدخل العلوم والحكم فى غضون القصص وتكون تلك هى المقصودة ولكن كيف أبنت تلك المحاورة الموسوية ولم تبين محاورة السحرة مع فرعون . فالمحاورة الأولى قد استبان بها نظام هذه الدنيا فهل من سبيل إلى أن تستبين الثانية بطريق مشوق جميل حتى نرى نظام الآخرة بهيئة تسر القلب وتشرح الصدر كما انشرحت صدورنا ببيان المحاورة الأولى وجمال نظام العالم الذى نعيش فيه . فقلت له إن ذلك يتم بذكرى أيام الشباب . فقال إن ذكرى أيام شبابك قد تقدمت مرارا فى هذا التفسير وذكرتها فى كتابك [التاج المرصع] وإنك كنت تدرس الشجر والحجر والزرع والشمس والقمر وأنت لا علم عندك وأى علاقة بين هذا وبين أجرام الإنسان وجهنم وعمل الصالحات والدرجات العلى فى الجنات . إنى أخال ذكرى شبابك هنا لا يكون إلا تكراراً . فقلت لا تكرار فيه فإنى سأحدثك حديثاً عسى أن يكون شيقا سارا يلذ لى ذكره ومتى كان القائل مبتهجا بالقول ابتهج به السامع . فأما المتكلفون فى أقوالهم وإن حسن أسلوبهم بلا قلب حاضر ولا شوق باهر فإن القلوب تنفض من حولهم ولا تنتفع الناس بأقوالهم . فأما أنا اليوم فأعرض عليك ما كنت أجده أيام الشباب فى الحقول وأنا لا علم لدى ولا هدى ولا كتاب منير ، إذا كان درسى هذه الدنيا الجميلة وشمسها وقمرها وزرعها وثمرها وكلؤها وأنهارها فلأسمعك ما يروقك سمعه ويلذ لك وقعه ويكون ذكرى للذاكرين . تلك أيام الثمانية . فقال ما معنى أيام الثمانية . فقلت الثمانية اسم لأرض كان يملك أبى فيها بضعة أفدنة (جمع فدان) وكنت أعمل معه فيها قبل سن البلوغ . ولما دخلت الجامع الأزهر كنت أعمل فى تلك الأرض أيام العطلة الصيفية وزرع الذرة والقطن ونحوهما وفى تلك الأيام كنت أرى والدى قد اعتراه نوع من الضعف . فهنالك اهتمت النفس (بأمرين) أمر الأسرة والاشراف عليها لحفظ كيانها وأمر شغل بنفسى وجهلها مع النظر العام فى دين الاسلام مع ضعف محق وملازمتى للصيام فى بعض الأيام والتهجد ليلا . وههنا بيت القصيد . فلأبين الآن مقصدين : المقصد الأول فوائد الجسم

من الأعمال فى الحقول تبيانا لعمل الصالحات فى الآية (المقصد الثانى) كيف ضعف جسمى فى باب البحث فى أمر الروح ودرجاتها وأنها تكون فى طبقات من الأثير بعد مفارقة هذه الأبدان تبيانا لقوله تعالى « فأولئك لهم الدرجات العلى » .

(المقصد الأول)

لقد كنت أعمل فى الحقل وأحسّ بعد الفراغ من العمل براحة ولذّة وسرور وانشراح صدر وكنت إذ ذاك لا علم لى إلا بكتب النحو وكتب الفقه على مذهب الامام الشافعى؛ فقد تعلمت كتاب ابن عقيل على الألفية وكتاب التحرير فى الفقه على مذهب الامام الشافعى وقليلا من علم التوحيد . وهذا كل العلم الذى تعلمته إذ ذاك من الأزهر . فاذا أتممت عمل الحقل وجلست تحت شجرة آخذ كتاب تفسير الجلالين وأقرأ التفسير وأجتهد أن أستحضر كل ما قرأته فكنت أجد لى فهما لم أعهده فى ذلك الهواء الطلق ، وتارة كنت فى أثناء إدارة آلة استخراج الماء من النهر أجد نفسى أخذت تفكر فى تفسير ربع من أرباع القرآن فربما قضيت زمنا ليس بالقليل وأنا أستخرج الماء بتلك الآلة ولا أحسّ بتعب من العمل . وبعد الفراغ من العمل أعرض ما جال بفكرى على ما جاء فى التفسير فأجد المطابقة تامة غالبا فكان ذلك يفرحنى ويشرح صدرى وأذكر أنى كنت أغدو وأروح من الحقل إلى المنزل ونفسى لاتفتأ تذكر هذا العالم وكيف خلق؛ وكنت أقول هما أمران : إما أن يكون هذا العالم لا أوّل له من نفسه . وإما أن يكون الذى لا أوّل له هو الذى خلقه . إذن لا بد من واحد منهما يكون قديما . فالقدم لا بد منه إما للعالم وإما لصانعه . فالقدم إذن من ضروريات هذا الوجود حقا فلا غرابة إذن إذا قلنا إن الله لا أوّل له لأنا إذا لم نصف الله بهذا الوصف وجب أن نصف العالم به إذا قلنا إنه لاخالق له . وهكذا من الخواطر التى كانت ترد على النفس صباحا ومساء وطالما كنت أرى فى نومى أنى حائر فى أمر الشمس وكيف تكون فى القطبين أيامها ستة أشهر وكذا لياليها وأنا لا أعقل لهذا معنى لأنى كنت أسمع ذلك من بعض قراء الفلك بالطريقة القديمة . هذه كانت رياضة جسمى فى الحقول وصحبها الفكر الذى لا أقدر على التخلص منه صباحا ومساء ليلا ونهاراً . والذى أقصده الآن فى المقصد الأول أن أبين صحة جسمى وانشراح صدرى وتوقد قريحتى فى العمل فى الحقل . وما كنت أعمل هذا العمل فى الحقل لأجل الرياضة . كلا إذ لا علم لى بأن هناك رياضة مطلوبة . كلا ، فلا علم عندنا بذلك بل كانت عادة أهل بلادى أنهم يحقرون العمل ويرون أن الإنسان كلما علا مقامه كان أبعد عن العمل فلذلك تجد الأغنياء فى قطرنا يرون العمل حطة قدر فيترفعون عنه ويجلسون، فالأغنياء من الرجال والنساء كثيرا ما يصابون بأمراض مزمنة وتعتريهم الأوصاب غالبا ذلك لما وقر فى نفوسهم من أن الكرامة فى عدم العمل ، وقد كان العامة من أهل بلادى يعجبون كيف أكون أعلم خلق الله فى نظرهم ولا نظير لى فى الاجتهاد فى العلم ثم أتعاطى الفلاحة وأمسك الفأس وأقطع الحشيش وأسوق الزرع . كل ذلك عار ويقولون مثل هذا يجب أن يكون بجانب العمود فى الأزهر وتطلع له جراية ولا يكون فى الحقل . فانظر ماذا جرى ؟ جرى بعد ذلك أنى لما رجعت الأزهر ثانيا ودخلت (دار العلوم) وعلمت فى المدارس وقرأت بعض أخبار الأمم علمت ما يأتى «إن أهل الولايات المتحدة يأمرون تلاميذ المدارس أنهم أيام العطلة يتوجهون إلى القرى فيتعاطون الفلاحة مع الفلاحين .

ولما رجع أولئك التلاميذ إلى المدارس وازنوا بينهم وبين التلاميذ الذين لم يعملوا زمن البطالة فوجدوا أن أولئك العاملين فى زمن البطالة فى الفلاحة أصح أجساما وأحسن أخلاقا وأرقى درجات فى العلوم من أولئك الذين لم يكلفوا بتلك الأعمال» .

ثم رأيت أن كبار العلماء يقولون (إن أعلى الرياضة أن يعمل الإنسان فى الحقول والبساتين وأوسطها أن يمشى كل يوم أميالا وأدناها أن يحرك أعضاءه الحركات التمرينية المسماة الجمباز) هنالك أخذت أقص على تلاميذى هذه الأحوال كلها وأنصحهم آخر السنة أن يفعلوا ما كان اتفق لى وأنا مجاور بالجامع الأزهر إذ كنت أعمل فى الحقل وأحس بقوة عقلية وأخرى جسمية وأذكرهم بأنهم غالبا من أبناء الأغنياء الذين يحبون العمل ، وكنت أقول هكذا إن هذا العمل يعطى :

(١) قوة الجسم .

(٢) قوة العقل .

(٣) انشراح الصدر .

(٤) النظر فى أنواع النبات .

(٥) الذكاء والفطنة بالمحاذرة أثناء العمل على أنواع النبات .

(٦) والبحث عن الضارّ له ثم إتلافه . فذلك كله يجعل للانسان رياضة جسمية وأخرى عقلية .

(٧) التمتع بالهواء الطلق .

(٨) التمتع بضوء الشمس وهما الغذاآن اللذان يجهلهما أكثر الناس وإن أكثر الناس لايعلمون .

هذا مبدأ عمل الصالحات ، فالرجل الضعيف الجسم الجالس فى حجرة فاسدة الذى أغمض عينيه عن جمال هذه الأشجار والحشائش والأنهار الساهى اللاهى كيف يعمل الصالحات . الله أكبر . أول عمل الصالحات العناية بأجسامنا وعقولنا . فاذا قال السحرة لفرعون «ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات» فهذا مبدأ عمل الصالحات ، وإذا سمعت الفقيه الإسلامى يقول لك عمل الصالحات الصلاة والزكاة والصيام والحج فلا صلاة لمن لا صحة له والزكاة والحج لمن عنده مال والصحة تساعد على هذا كله وكثير من المرضى لا صوم عليهم . وأيضا كل هذه الصالحات والعبادات أقلّ ثوابا من النظر فى هذا الوجود واتساع العلم ولا نسبة بين العلم والعمل ولا علم لمن لا صحة له ولا عقل . إذن ماذكرته فى هذا المقام هو المبدأ العام لعمل الصالحات الذى ذكره سحرة فرعون ، وإذن تكون هذه القصة قد جاء فى أولها النظر فى العلوم فى محاورة موسى مع فرعون ، وهنا جاء فيها النظر فى العمل وفى الآخرة فكأنها أدخل فيها كل علم الدين ، فقال صاحبى لم يذكر هنا إلا مبدأ العمل الصالح وهو صحة الجسم والعقل فأين الآخرة إذن ؟ قلت فى المقصد الثانى كما قدمت لك :

﴿ المقصد الثانى : كيف كان ضعف جسمى سببا لفتح باب البحث فى أمر الروح ودرجاتها وأنها تكون فى طبقات من الأثير بعد مفارقة هذه الأبدان تبيانا لقوله تعالى :

« فأولئك لهم الدرجات العلى » ﴾

لقد تقدم فى سورة (الإسراء) تحت عنوان (كيف كان مبدأ تفكرى فى أمر الروح) وذلك فى أوائل تفسير السورة إن قلت إننى اعترانى دوار فغشى علىّ وأنا أعمل فى الحقل وذلك لضعف جسمى فأورثنى هذا الدوار شكا فى حياة الروح بعد الموت وقلت (إذا كان الدوار فى رأسى أو الإغماء قد فقدحسى فكيف بالموت إذن لا حياة بعد الموت) وبعد ذلك بأمد توجهت إلى الأزهر بعد ترك الدروس ورأيت فى المنام قائلا يقول لى انظر فنظرت فاذا شكل أبيض وسط الزرقة الجوية فوق المقابر ، ثم قال هذه هى الروح واتفق أن ذلك ليلة الخميس . ولما طلع النهار وقع فى يدى كتاب (ابن مسكويه) وفى أوّله أدلة الروح فعجبت من علم لم أدرسه مدة حياتى موافقا لما رأيت . كل هذا تقدم هناك فى التفسير والآن أريد أن أبين الحقيقة ناصعة وأذكر ماعرفته فوق ذلك ولكن قبل ذلك أذكر بهجة الحكمة وحسن البشائر التى نلتها فى حياتى وعجائب الأنوار

الإلهية . ذلك أنى أثناء انقطاعى عن العلم وحيرتى وشكى فى أمر الروح وغيرها كنت أجد شوقا عظيما إلى أن ألج دور العلم كرة أخرى وكما هبت النسمات وتمايلت الأغصان تذكرت العلوم والدراسة . فى ذات يوم وقت الفجر صليت الصبح ووقفت بجانب شجرة والنسمات تهب وإشراق الصباح معترض فى أفق الشرق والجو لا يزال حالكا مكفهرا والنجوم لا تزال تتلألأ فى آفاق السماء إذ رفعت طرفى إلى السماء وقلت يا ألله ماهذه الأشواق المنبعثات إلى طلب العلم . اللهم إنى قرأت كتب العشاق فلم أجد عاشقا نال جميع مراده فاذا أسعدتنى بطلب العلم مرة أخرى فأنا أسعد العاشقين . اللهم إن كنت قدرت أنى لا أرجع إلى التعليم فأطفئ النار المتأججة فى صدرى وارحمنى . ولما كان اليوم الثانى فى نفس الوقت وقفت بجانب الشجرة وقلت يا ألله هذه هى الأشواق لا تزال بل ازدادت فأين قضاء حاجتى : إذن أنت تريد إرجاعى إلى الأزهر لطلب العلم فها أناذا منتظر ، ولقد تم ذلك بعد زمن قليل بعد اليأس الشديد .

وإذ فرغت من بهجة العلم بهذه المسامرة أرجع لتبيان حالى بعد تلك الرؤيا وقراءة كتاب [ابن مسكويه] أقول ألفت كتبا كثيرة قبل تأليف هذا التفسير مثل [جواهر العلوم] و [ميزان الجواهر] و [النظام والإسلام] و [نظام العالم والأمم] و [أين الإنسان] و [جمال العالم] و [نهضة الأمة وحياتها] و [جوهر التقوى] .

(رؤيا منامية)

وبينما أنا جالس مرة فى متنزه من متنزهات القاهرة إذ أخذتنى سنة من النوم وقائل يقول اسمع (إن الإنسان ينتقل من عالم إلى عالم وكل عالم ينتقل إليه تكون أعماله السابقة التى تكلفها ونصب فيها أصبحت له غريزة وطبيعة فيتعلم أعمالا أخرى وهذه تصبح له غريزة فيما بعد ذلك وهكذا طبقا عن طبق . أفهمت هل تشك فى كلامى) فاستيقظت وأنا متعجب من علم لم أسمع به ولا أدرى ما السبب فيه وبعد ذلك اطلعت على علم الأرواح الحديث . فماذا رأيت ؟ رأيت أن علماء الأرواح يقولون ما يأتى :

إن روح الإنسان فى هذه الحياة لها فضائل كالحب والقناعة والعلم ، ورذائل كالحسد والطمع والجهل وهذه أشبه بسوائل تنبع من الجسم الأثيرى الذى ينطبق على هذا الجسم المادى حاضرا معه الآن وهذا الجسم الأثيرى لطيف ألطف من الأنوار وهذه الأشعة المنبعثة من هذا الجسم تؤثر فيمن حوله حبا وبغضا وقبضا وبسطا وصحة ومرضا . وما مثل تلك السوائل الأثيرية إلا كمثل الروائح الكريهة والطيبة ، ولا جرم أن آثار الهواء الفاسد تخالف آثار الهواء الصالح . ولذلك يحس الإنسان فى الجمع الملتئم بانشراح وفى الجمع المختلف بانقباض لأن لنفوس الجالسين سوائل معنوية تؤثر فى الجالسين معهم ألما لشدة المنافرة أو سرورا لاتحاد الأفئدة : وبتواتر الشعاع الضار على الأنفس الأخرى يحدث فيها مرضا تارة وآراء ضارة أخرى سواء أكانت الروح الضارة مجسدة أم مطلقة ولا يمنع ضررها عنا إلا أن ننظف أنفسنا بالفضائل . هنالك لا تؤثر فينا تلك الأرواح كما لا يقع الذباب إلا على العين القذرة ، ويتفرع على ذلك مسألة العين وأن الرجل العائن يخرج منه سائل كريه ينفذ فى جسم من يقصد ضرره فيؤثر فيه وهكذا التأثير بالسحر . كل ذلك راجع لتوجه النفس ، هكذا أولئك الذين يشفون من المرض بنظراتهم أو بوضع أيديهم عليه فيحصل الشفاء إما حالا وهو نادر الوقوع ، وإما بعد التكرار وهو كثير . كل ذلك بسبب السوائل الجيدة الناشئة من قلوب طيبة محبة للناس ومنفعتهم .

إن أرضنا التى خلقنا عليها معمورة فى ذلك الأثير الذى هو ألطف من النور المحسوس ولكن هذا بالنسبة لما يحيط بالكواكب الأخرى خشن وهذا كوكب وهواء كوكب ، فكلما كان الكوكب أرق كان الأثير المحيط به ألطف وألطف ، والروح بعد الموت لا تقدر أن تصعد إلى عالم أرق فى هذا الجو الفسيح إلا إذا استعدت له فانها قد ترى أنوارا بهجة لا تقدر على ولوجها وعظماء أعلى فلا يمكنها أن تعيش معهم ، إذن هناك فى البرزخ

درجات

درجات فقلت لعل هذه الحقيقة فيه ، ولقد عجبت كل العجب إذ رأيت هـذه المعانى فى ذلك العلم وأن القوم يقولون إن الانسان جسمه الروحى الأثيرى (الكوكبى) متصف بالصفات التى ذكرتها لك هنا ويقولون :

(١) إن الروح لا يصعد إلى طبقة إلا إذا استحقها بجهده .

(٢) وإن تلك السوائل النابعة منه تكون مانعة له من الاجتماع بمن ليس على شاكلته .

(٣) وإنه يفرح بأمثاله ويغتم بمن ليس على شاكلته .

(٤) وإن هذا الجسم الأثيرى تنطبع فيه كل الآراء والعلوم والمعارف والمعاصى والأميال والشهوات، فهذه كلها ترتسم فيـه وما هو إلا كلوحة للصوَر الشمسى وما أعمالنا وأميالنا وعواطفنا إلا كالصور المرسومة فى اللوحة « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » «ووجدوا ماعملوا حاضرا» .

(٥) إن هناك شموسا أوسع من شمسنا كالجوزاء، وما المجموعة الشمسية كلها إلا مثل كوكب واحد من الكواكب العظيمة ولعلَّ هناك حياة أرقى بل علماء الأرواح نقلوا عن الأرواح أن الحياة هناك لاحدَّ للسعادة فيها وأن النفوس إليها ترتقى كما تقدم فى (آل عمران) عن روح (غاليلى) الفيلسوف ، إذن هذا قوله تعالى : «لتركبنَّ طبقا عن طبق» وقوله تعالى «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض» فها نحن أولاء قد علمنا كواكب عرض الكوكب منها كعرض المجموعة الشمسية التى تشتمل على سمواتنا وعلى أرضنا .
إذن الأمر واضح فلله مخلوقات علمناها لها هذا الوصف وعرضها عرض السموات والأرض فلا وربما كانت طبقة من طبقات الجنات وربما كانت تشبهها فى السعة وعلى كل فعلمنا بها جعلنا نتصور الجنات العلى وأن أمثالها فى القدر موجود فعلا ، ولست الآن فى مقام الادعاء أننا علمنا هذه الحقائق فان الرؤى لا تكون دليلا ولا كلام علماء الأرواح وإنما ذلك يفتح بابا للبحث والتنقيب فى هـذه المسائل وشرحها بالعلم والحكمة ، وإذا كان الصالحون أمثال الخوَّاص والشعرانى والشيخ الدباغ يقولون إن أرواح الأموات فى هـذه الطبقات العلوية فى الجو كما يقول علماء الأرواح وذلك تقدم فى هذا التفسير نقلا عنهم . فهذا كله لا يعطينا اليقين بل يجعل المقام معدًّا للبحث فالوجدان والرؤى وعلم الأرواح كل هذه لاتعد برهانا قاطعا وإنما تعطى دليلا يعطى بعض النفوس بعض الإقناع لتطمئن للبحث والجد عسى أن تصـل إلى المعرفة واليقين . إن هذين النوعين وهما العمل الصالح والدرجات العلى فى هذا المقال كان مبدأ أولهما الرياضة البدنية فى الحقول التى هى أرقى الرياضات ومبدأ ثانيهما فى أمر الأرواح وتركها أثقال الأوزار من العلائق الأرضية باصلاح النفس وتهذيب الخلق وارتقاء المجموع الروحى فى عالمنا الأرضى حتى يستعد للاجتماع بعالم أعلى فى كواكب أخرى مسكونة ، ولا يزال هـذا النوع الإنسانى الأرضى يرقى فى الكمال وبارتقائه يستأهل للاتحاد بطوائف أخرى وهكذا طبقا عن طبق حتى يكون أهل الأرض متحدين بعوالم لاندرى عددها وعلى قدر الارتقاء وازدياد المتحدين تزداد السعادة والارتقاء إلى أن يصل الإنسان إلى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فى عوالم مجهولة لنا كل الجهل ؛ ثم إن ماقلناه فى السعادة والشقاوة فى طبقات الأثير إنما هو عذاب ونعيم البرزخ لاعذاب ونعيم الآخرة فذلك له شأن آخر «وأن إلى ربك المنتهى» .

وفى ارتقاء الإنسان فى هذه الطبقات يشاهد (كما يقول علماء الأرواح) الساحات الواسعة التى لاحد لها وفيها تلك الملايين من الشموس البديعة الزمردية والياقوتية والزبرجدية وسرعة سيرها وتجاذبها ويدهش للعوالم الجديدة التى تبرز فى الوجود ويبقى متمتعا بهذا الجمال البديع وهو ثمل ببهجة تلك المحاسن وعجائبها وهذه هى الحال البرزخية ، ثم تنتقل الروح إلى كوكب أرقى فى أجساد لا كالأجساد الأرضية بـل تكون ذات خفة ولطافة فتموج على سطح الكوكب أو فى أرض الجنة موجا بلا كلفة ولا مشقة وتلتئم أرواح أهل أرضنا الذين ارتقوا مع أرواح أرضين آخرين وينشئون من طبقات الأثير روائع للمصنوعات الفاخرة بمجرد

إرادتهم لا بمشقات كأهل الأرض الآن وهم بما أوتوا من علم وحكمة يرجون الأثير ربما فتحصل فيه تموّجات موسيقية تسبي العقول وتسكر الأرواح ، ثم إنهم يقيمون أفراحا عامة وأعيادا زاهية زاهرة باجتماع الأرواح العامة من الأقطار المتباينة فيفرحون بانتصارهم جميعا على ما قاسوا من شدائد ومصائب فى الأرضين المختلفات اللاتى تعدّ بالملايين كما يجتمع فى أرضنا المسكينة أهل كل دين من الأديان الأرضية فرحين باكمال الغناء فى صومهم أياما معدودات وانتصارهم على شهواتهم اللائمة لهم من الخروج من هذا العالم المادى القاسى العظيم المشقات ، وإذا تفرقوا اجتمع كل جماعة منهم حول روح عظيم يتلقون تعاليمه وبعد ذلك يتوجه كل منهم إلى عمله الجديد الذى يزيده ارتقاء فان لكل روح عملا لا يتعداه على مقدار قوته وكفاءته ولا دخل للاختصاص أو التمييز . كلا ، بل الكفاءة هى الميزان ، فأرقى هذه الأرواح من يوكلون بقيادة الشعوب وحراسة الأفراد وترقى الصناعات.

هذا ملخص ماجاء فى كتاب [المذهب الروحانى] ملخصا له مؤلفه من المؤلفات الحديثة فى العلوم الروحية بأوروبا . فنحن إذن على الأرض ملزمون أن نقلع عن النقائص وأن نحب الله ونحب الخير لعباده ونحاذر كل الحذر من الخطأ ونستعين بالله ونحن سنرتقى طبقا عن طبق وأرواحنا مستعدة يوما ما أن تتقابل مع أرواح أرقى وأرقى بشرط أن تستأهل لهذه المرتبة بالجدّ والاجتهاد . ثم إن أرواحنا قد يوكل إليها إدارة العوالم عالما بعد عالم وتكون أجسامنا روحية لا مادية ولا تزال تلطف طبقا عن طبق حتى تصل إلى الله . ويقولون إن هذه الأرواح كلما ارتقت ازدادت اتحادا فتكون أشبه بأرواح تلاميذ لشيخ صادق قد أصبحوا كأنهم روح واحدة أو كالعاشقين الصادقين اللذين اتحدت نفساهما فصارتا نفسا واحدة بحيث يصبح كل ما فى ذهن أحدهما يخطر لذهن الآخر مع الحب والرضا والبهجة . وهذا الذى قالوه لا يمنعه علماء الإسلام فقد نقلت لك عن العلامة الفخر الرازى أنه يقول (إن أرواحنا مستعدة لإدارة العوالم) آخذا لها من قوله تعالى «فالمدبرات أمرا» فى سورة والنازعات . فهذا القول هو نفس قول علماء الأرواح ويقول الله «لتركبن طبقا عن طبق» وتقدم عن بعض الصالحين فى هذا التفسير أن نفوسنا فى عالم البرزخ تكون فى طبقات هذا الجو فى عوالم السموات المعلومة للناس فأما عالم الآخرة ويوم القيامة فشىء آخر . هذا معنى ماجاء فى :

﴿ الفاتحة والتشهد والقنوت فى الصبح ﴾

أفلا ترى أن قول المسلم «الحمد لله رب العالمين» فسره قول موسى لفرعون «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» كأنه يقال : لم تحمد الله ؟ فيقال لأنه أعطى كل شىء خلقه ثم هدى لأن هذا هو معنى تربية العالمين وقوله «اهدنا الصراط المستقيم» هو عين قول السحرة لفرعون «ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات» وقوله «صراط الذين أنعمت عليهم» لم يخصه بأهل أرضنا المساكين بل جعله عاما يشمل أرواح جميع ملايين الكواكب التى عرفناها والتى لم نعرفها . فقول المسلم الذى سيأتى بعدنا «صراط الذين أنعمت عليهم» يحضر فى نفسه عوالم وعوالم ويتصوّر أرواحا عالية تصوّرا إجماليا فيشتاق إليهم حتى إذا ارتقى بعد الموت فرح بهم . وكيف يفرح بما لم يتشوق اليه فاذا اجتمع بهم صاروا إخوانا على سرر متقابلين ويتصور المسلم بعدنا النعمة المذكورة بأنها درجات بعضها فوق بعض بحيث يرتقى عالما بعد عالم إلى ما لا نهاية له وذلك على مبدأ التصور الاجمالى . هذه آراء من بعدنا فى الفاتحة . ونراها منطبقة فى ترتيبها على ترتيب المحاورتين هنا بين موسى وفرعون ثم بين السحرة وفرعون .

هكذا يرون معنى التشهد ، فأوله (التحيات لله) والتحيات لله إنما تكون على نعم واصلة من الله والنعم هى قوله «الذى أعطى كل شىء خلقه» الخ وبعد ذلك يسلم المسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين أى سواء أكانوا فى أرضنا أم فى غيرها وهذا السلام والأمان والسعادة نتيجة لهدايتهم إلى الصراط المستقيم

صراط المنعم عليهم وهو صراط واحد وهو خلوصهم من أدران هذه العوالم المادية ورجوعهم إلى ربهم واتحاد أرواحهم باتحاد صراطهم ولا سلام إلا بالاتحاد الروحى، بخلاف أهل الأرض الذين نعيش معهم فهم قوم جهلاء ونحن شاركناهم فى جهلهم لأن الإنسان الواحد لا يستقل بالسعادة فلابد من المشاركة لغيره ومن أراد السعادة وحده فهو جاهل مغرور . فأرباب الخلوة والمنقطعون عن الناس الذين يحبون ربهم ويتركون عباده قوم لا يعلمون فلا سلام لهم بل المسلم يطلب السلام لنفسه ولكل صالح ويسير على صراط المنعم عليهم من كل عالم خلقه الله فى أرضنا وغيرها وهذا قول المسلم أيضا « اهدنى فيمن هديت الخ » فى قنوت الصبح ثم إن السلام على عباد الله الصالحين يرجع إلى اجتماعهم فى الدرجات العلى فى الآية هنا . فترتيب الفاتحة هو ترتيب التشهد هو عين ترتيب المحاورتين هنا محاورة موسى مع فرعون ومحاورة السحرة معه أيضا .

(حمد المؤلف ربه)

أفلا يجب علىّ الآن أن أحمد الله الذى وفق وهدى لما أكتبه الآن، فالموضوع كله راجع إلى أمر عادى ذلك هو عملى فى الحقل بالفأس فأغمى علىّ لضعف جسمى ، فالعمل نفسه فى الحقل انتهى الأمر فيه إلى علم الرياضة البدنية فى الولايات المتحدة وأن مااتفق لى من العمل فى حقلنا بلا علم هو نهاية ماقرّره علماء عصرنا فى رقى الأخلاق والعلم . وأما الإغماء فقد فتح لى باب الشك فى بقاء أرواحنا فماذا تمّ بعد ذلك ؟ رأيت فى النوم بياضا فى جو السماء الأزرق فقيل لى هذا روح، ثم قرأت أدلة الروح فى الفلسفة ، ثم قرأت آراء علماء الأرواح المطابقة لآراء علماء الإسلام انتهى، ثم الأمر باجتماع عظيم لأرواح من كواكب لا حصر لها فصارت أمة واحدة تحب ربها وكل له مقام معلوم فعمل جسمى انتهى بالرياضة العامة والإغماء علىّ فى الحقل انتقلت النفس منه إلى عوالم تتحد بلا حصر «وأن إلى ربك المنتهى» .

إن نتائج هذه العلوم الروحية التى ظهرت حديثا لاحدّ لها فى الإسلام . فالقرآن ذكرت فيه الملائكة وأمرنا نحن بالإيمان بها وبهذه العلوم عرفنا أن هذه الملائكة لايحصرها عدد وأنها قائمات بنظام عوالمنا محصيات لأعمالنا وبهذا تنحل كل مشكلة فى الدين والقرآن ، فلا وسوسة ولا إلهام إلا بما استعدت له نفوس المتحدين فى الأرض بقبولها آراء أشكالها من الأرواح الخبيثة والطيبة وهذا قوله تعالى «وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين ، يعلمون ماتفعلون» وقوله «إن كل نفس لما عليها حافظ» وهنا لاحدّ لثمرات هذا العلم فى الإسلام والمسلم بعدنا الذى ستفتح له أبواب وأبواب من العلم يصبح من عالم أرقى من عالمنا الإسلامى الحالى الذى لم تفتح لأكثره العلوم ، فالحمد لله رب العالمين .

(بهجة العلم : نور على نور)

لما اطلع على ماتقدم صديق لى صالح قال : إذا كان عملك فى الحقل وضعف صحتك إذ أغمى عليك قد اتصل أولها بأحسن الرياضات لطلاب الجامعات بأمريكا . وثانيهما بتقابل الأرواح من سائر أنحاء الكرات السماوية ، فهذا معناه أن المصاعب الجسمية والحيرة العقلية تفتق الأذهان لمعرفة الحقائق . فقلت نعم .

الحيرة والشك وحوادث الدهر موقظات للحكمة والرقى فى أعمال الحياة

إن مااعترى هذا النوع الانسانى من حوادث الدهر وتقلب الأيام هو الذى رفعه إلى الرقى . فها هى ذه أمتنا المصرية لما قامت الحوادث العرابية ودخلت الأمة الإنجليزية البلاد حرك ذلك من النفوس وجدانها فاستيقظت للسياسة ولتعلم الشبان بعض العلوم ، فلولا الحوادث العظيمة ماقامت لنا فى هذين قائمة، فلقد كان التعلم قبل ذلك يرجع للحكومة وحدها والشعب نائم . أما الآن فالشعب هو الذى اندفع من نفسه لحوز العلوم وهكذا الأمة الهندية التى كانت تحت حكم ملوك المغول المسلمين ، فلما ورثها الانجليز وحلوا بساحتها ثم

كانت ثورة سنة ١٨٥٧ الشهيرة ، هنالك استيقظ المسلمون وقام السيد أحمد خان وأسس كلية (عليكره) وأصدر صحيفته [تهذيب الأخلاق] باللغة الأردية وظهر فيهم شعراء أمثال الشاعر المشهور (إقبال) الذى ذكر القوم بمجد أسلافهم فى شعره المسمى [مد الإسلام وجزره] ومؤرخون أمثال (السيد شبلى) الذى وضع فى التاريخ كتبا كثيرة منها كتابه [الفاروق] ومنها كتابه [شعر العجم] فى تاريخ الأدب الفارسى .

وهكذا الأمة التركية لما حاربها اليونان والفرنسيون والإنجليز وساعدهم الخليفة قامت على بكرة أبيها ونهضت نهضة الآساد وأجلت هذه الدول عن بلادها وأخذت ترتق سراعا . هكذا أمة الأفغان إذ جاهدت فأبعدت عنها الإنجليز وأخذت ترتق . ومثل هؤلاء الإيرانيون الذين ذاقوا أسوأ الذل من ملوكهم ومن أوروبا هاهم الآن أحرار .

هذه نبذة من حوادث الدهر الموقظات للحكمة والرقى فى الأعمال ، فأما الحيرة والشك فان أثرهما فى رقىّ الأمم لا يقلّ عن آثار حوادث الدهر ومصائب الأيام . ولقد رأيت فيما تقدم أن عقيدة التثليث عند الأمم القديمة كانت رمزا لدراسة العوالم المحيطة بنا لا أنها عقيدة دينية بحسب أصلها حرّفتها الأمم وانتحلت لها الصبغة الدينية وحاولت الجمع بينها وبين الوحدانيـة ، هنالك اضطرمت نار الجدل والخصام بين العلماء فى الأمم فكان من وراء ذلك اتساع نطاق الجدل فارتقت بعض الأمم بالعلم وانحطت أخرى بالخرافات وأزيد هذا المقام تبيانا ثم أتبعه بما جاء فى شريعتنا الغراء من بعض العبادات التى أخذت تلقينا كالسلام الذى نختم به الصلاة . فعلى من يسلم المؤمن ، والعاقل لا يخاطب مالا وجود له .

مسألة التثليث

يظهر أن الشعوب كانوا يسألون علماءهم عن نظام هذه الدنيا وكيف خلق هذا الحيوان وهذا الإنسان وهذا المعدن؟ وكيف جرى هذا النهر وأضاءت هذه الشموس فلا يسع هؤلاء العلماء إلا أن يقولوا لهم أمامكم مادة وفيها ملائكة موكلون بها رأينا آثارهم ولم نر أشخاصهم ومن فوق هؤلاء إله واحد لأننا رأينا نتائج المخلوقات كلها ترمى لأغراض معينة ولا يمكن ذلك إلا باتحاد أصل العوالم وتوحيد الخالق ثم ضربوا لهم الأمثال فقالوا لهم الله أشبه بالأب فى المنزل والمادة أشبه بالأم لأنها محل لتكوين الحيوان والنبات والملائكة أو القوى المنبثة فى هذه المادة نسميها ابنا لأن الابن عادة يكون بين الأم والأب . فالقوة المنبثة فى هذه المادة والملائكة يشبهون الأبناء فى بيوتنا من بعض الوجوه . ذلك لأن الله هو الذى خلقهم وسلطهم على المادة فمن الوجه الأول سموا عوالم القوة ابنا . وكما أن ابن الإنسان يعمل فى أرضه . هكذا هذه القوة تعمل فى المادة التى أشبهت الأم من وجه واحد وهى أنها محل الإنتاج لا غير ، هذا ما كان يقوله العلماء للعامة . يستنتجون من المادة ومن القوة المنبثة فيها معرفة إله واحد . فلما تمادى الزمان أخذت تلك الفكرة تمتد إلى أصلاب الرجال وأرحام الأمهات . هنالك كان الجهل ولكن الله يستخرج من الفحم نورا ومن الحنظل سكرا ومن الشر خيرا . فماذا فعل بعد ذلك . جعل هذه الحيرة فى الهند وفى مصر وفى بابل وآشور وفى أمريكا قبل كشفها سببا فى بحث علماء منهم وصلوا إلى الحقائق فكتموها خوفا على هيبتهم أمام شعوبهم فرقوا علومهم وبحثوا فى الفلك والطبيعة وسائر العلوم ولكن لما علم الله أن الإنسانية لابد لها من نهضة جديدة أنزل الدين الإسلامى فقال بالوحدانية ومنع التثليث الذى قامت به النصرانية وشوهته وخرجت به عن أصل الدين المسيحى بل زاد رجال الكنيسة على ذلك أنهم لم يبالوا بالرحمة العامة التى جاء لأجلها الدين المسيحى فإن أهمّ خواصه الرحمة وأتباعه هم الذين أثاروا الحرب العامة فى أيامنا هذه كما قال ذلك فى هذا الشهر أى شهر يوليو سنة ١٩٢٨ (المستر لويد جورج) من عظماء الساسة فى بلاد الإنجليز ، فقد صرح على رءوس الأشهاد أن رجال الكنيسة لم

يحركوا

يحركوا ساكنا أثناء الحرب العامة التى لم يثرها إلا الأمم المسيحية لا غيرها من الأمم الوثنية قال ولو أنهم رفعوا أصواتهم بمنع الحرب لم يجسر أحد على مخالفتهم ، فهذا القول دل على أن التثليث عند المسيحيين الذى أوجب الحيرة أو الشك لاسيما بعد الاسلام قد دفع القوم إلى جمع المال من الأغنياء والمحافظة على العقيدة الموروثة وانتهى الأمر بذلك إلى الخروج عن أصل الدين وهى الرحمة وحب الانسانية فبدل أن يكونوا رحمة للعالمين صاروا هم المثيرين للفتن والحروب بشهادة أكبر سواسهم من الانجليز : إذن هذه الحيرة فى أمر التثليث قد انتهت إلى ما يخالف أصل الدين من الرحمة . إذن فليكن السلام فى الأرض بأمم الاسلام فى مستقبل الزمان .

حيرة المسلمين فى أمر السلام

ذكرت سابقا أن أمم الاسلام بارتقاء العلوم يزدادون فى الدين وأن الحمد فى أول الفاتحة مرتبط بمحاورة فرعون وموسى أى بإعطاء الله كل شىء خلقه ثم هدايته ، فإذا قال « الحمد لله رب العالمين » استحضر بقلبه سائر الأفلاك وسكان الكواكب أجمعين وهذه الكواكب تعد بمئات الملايين ، وإذا قال « صراط الذين أنعمت عليهم » ذكر النعم عليهم فى مئات الملايين من الكواكب ، ذلك لأن العلم الحديث أشار إلى ذلك ، وإذا قال (التحيات لله) علم أن تلك التحيات ليست خاصة بأهل الأرض بل فى كل كوكب مسكون من تلك الملايين وأضعافها قوم يحبون ربهم . وإذا قال . (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) علم أن هذا القول توطئة للمستقبل ليستعد المسلم لتلك الأيام التى سيقابل فيها الصالحين من تلك الملايين من الكواكب . وإذا انتهى من الصلاة وختمها بالمخاطبة بالسلام لمن حوله إذ يقول (السلام عليكم ورحمة الله) فذلك السلام وخطابه قد أشار له علم الأرواح الحديث إذ يسلم المسلم على الأرواح الذين يحيطون به من كل جانب كما رأينا ذلك فى كلام العلامة (أو ليفرلودج) فى سورة (آل عمران) وفى كلام غيره منقولا فى هذا التفسير إذ يقولون إن هنا أرواحا تحيط بنا وعقولنا بالنسبة لعقولهم كعقول النمل بالنسبة لعقولنا ويقولون إنهم يهتمون بنا اهتماما عظيما فتسليم المسلم من صلاته ليس أمرا خاليا من الحقيقة . كلا ، فالمسلم يسلم على أرواح حاضرة فى كل مكان وعليه أن يقصد ذلك وأن يقصد أن تلك الأرواح لا تختص بعالمنا فكل مئات آلاف الملايين من الكواكب يسلم المسلم على سكانها ويستحضرهم استعدادا للمستقبل إذ تذهب الأرض وشمسها ويجتمع الناس كلهم من سائر أقطار الكواكب ويكونون أشبه بالجراد إذ يسيرون كأنهم أمة واحدة على كثرة عددهم . فعالم الأرواح فى المستقبل أولى بذلك . فتبين بهذا أن حيرة المسلم فى أمر السلام والمخاطبة مع أنه لا مخاطب له كشف سرهما العلم الحديث إذ تتحد الأمم فى الكواكب المتباينة وتصير جماعة واحدة صاعدة فى معارج الكمال . إذن السلام فى آخر الصلاة ظهر سره الآن فعلى المسلمين أن يسعوا لأمرين : أمر السلام فى الأرض بعد أن يرتقوا مثل أهل الأرض وأمر التفكر فى العوالم العظيمة حتى يكون ذلك أسرع لرقى أرواحنا بعد الموت واجتماعها بتلك الأرواح العالية وهذا من أوكد الأسباب فى زهد أرواحنا فى هذه الأرض ومن عليها وتشوقها إلى عوالم أجمل وأجمل والحمد لله رب العالمين .

لطيفة فى قوله تعالى أيضا « قال فمن ربكما ياموسى ؟ قال ربنا » إلى قوله « قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا » إلى قوله « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »

يسأل فرعون موسى وأخاه من ربكما فيقول (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه) ومعنى هذا أنه عظيم الرحمة عام الإحسان والجود لم يفرق بين البقة والفيل ولا بين الحقير والعظيم فى العطاء فهو عام الرحمة والنظام

والجود فقال له فرعون إذا كانت هذه هي صفات الله الجميلة فكيف عمد إلى هذه المخلوقات المشمولة بالعناية والرحمة والعطف فمزقها شر ممزق . ألم تقرأ التاريخ . ألم تر أن كل ماخلقه قد أفناه وأهلكه . إذن أين رحمته وعطاؤه . فهل هذا فعل الحكيم ، يعطى ثم يمنع ويخلق ثم يمزق شمل خلقه تمزيقا ؟ فأين الحكمة والعناية بل ذلك كله هباء منثور ، فأجاب موسى بجوابين ، الاول : أن الله هو الذى يعلم الجواب على هذا السؤال وهو كقوله تعالى « فلله الحجة البالغة » وهذا الجواب الإجمالى لعموم الخلق . الجواب الثانى : للخواص فهو يقول (١) « جعل لكم الأرض مهدا » الخ (٢) « وأنزل من السماء ماء » (٣) وأخرج النبات (٤) وأكلت الأنعام وأكل الانسان . والحق أن هذا الجواب مفصل لبعض قوله « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » . إذن هو مقدمة لنتيجة هى مقصود الجواب (٥) وهو أنهم خلقوا من الأرض ثم أعيدوا لها ثم أخرجوا منها تارة أخرى وهذا هو نهاية الجواب للحكماء فكأنه يقول له يا فرعون إن هذه العوالم التى أهلكها الله إنما فعل بها ذلك ليخرجها من الأرض فتترك هذا العالم الأرضى إلى عالم أرقى منه . فهذا الاهلاك هو عين الرحمة كما يهجر العالم داره وبلده وأهله ويسافر فى الأرض ليحصل العلم . فهذا الترك نعمة لا نقمة .

الصلاة فى الإسلام والتسبيح فيها يشيران لملخص هذه الآيات فحياة الناس على الأرض وصحتهم أشبه بحال المصلى إذ يقرأ الفاتحة فيقول « اهدنا الصراط المستقيم » الخ ولكنه إذا ركع أو سجد لا يقول « اهدنا الصراط المستقيم » بل يرجع إلى الله فيقول (خشع لك سمعى الخ) ويقول (سجد وجهى الخ) ويسبح فى حال الركوع والسجود والتسبيح تنزيه لله عن قصد الإضرار بكل مايوهم ظاهره أنه إذلال وإهانة . فحال المصلى فى الركوع والسجود أقرب إلى الخشوع والخضوع من حال القائم الذى يقرأ الفاتحة فلذلك ترى المصلى يسبح الله أى ينزهه عن قصد إذلالنا وإخضاعنا ، كما أنه منزه عن مذلة الحيوان الذى لم يخلق رافع الرأس بل أشبه بالراكع وهكذا بعضه يشبه الساجد كالدود . فهذه كلها لم توضع بهذه الهيئات إلا لأجل نفس حياتها والمحافظة عليها ولو أنها وهى على حالها وجبلتها خلقت على غير هذا النظام لكان ذلك وبالا عليها كما ترى نظيره مفصلا فى سورة الإسراء عند قوله تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض الخ » فى أمر الألوان واختلافها الذى هو نبذة مما سيأتى فى سورة « قد أفلح المؤمنون » إذن كل وضع لحيوان لحكمة ترجع إلى نفس ذلك الحيوان فهذا النقص فى نظرنا كمال لنفس الحيوان . هكذا مرض الإنسان وموته الذى تضمنه قوله تعالى « قال فما بال القرون الأولى » فى ظاهر أمره هلاك وفى باطنه ارتقاء . إذن قول المصلى (سبحان ربى العظيم) و (سبحان ربى الأعلى) فى الركوع والسجود تذكير بهذه العلوم : أى علوم خلق الحيوان وهلاك الانسان وأن الله عز وجل منزه عن فعل ظاهر الشر الذى لا ينتج خيرا كثيرا . فتسبيح المسلم فى الركوع والسجود ظل لأنوار قوله تعالى « الذى جعل لكم الأرض مهدا » إلى قوله تعالى « ومنها نخرجكم تارة أخرى » انتهى الكلام على الفصل الثالث من القسم الثانى .

﴿ الفصل الرابع : من قوله تعالى « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى » إلى قوله تعالى « إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما » ﴾

قال تعالى (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى) أى من مصر (فاضرب لهم طريقا) أى فاجعل لهم ، من قولهم ضرب له فى ماله سهما ، واضرب مثلا أى اجعل لهم طريقا (فى البحر يبسا) يابسا وهو مصدر وصف به وهو كقتل وسبب (لا تخاف دركا) أى اجعل لهم طريقا حال كونك لا تخاف من الإدراك فلا يدركك فرعون وجنده من ورائك (ولا تخشى) الغرق أمامك فخرج بهم موسى من أول الليل وقد استعاروا حليهم فركب فرعون فى جنده من القبط فقص أثرهم فذلك قوله (فأتبعهم فرعون بجنوده) أى خرج خلفهم

ومعه جنوده (فغشيهم من اليمّ) أصابهم من البحر (ماغشيهم) أى غشيهم ما لايعلم كنهه أحد من الناس فيه تهويل . وقرئ «فغشاهم ماغشاهم» أى غطاهم ماغطاهم (وأضل فرعون قومه) عن سبيل الرشاد (وما هدى) أى أرشدهم إليه وذلك تكذيب لقوله « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » ثم أخذ الله يعدد نعمه على بنى إسرائيل كما عددها على موسى إشارة إلى أنه منعم على البرّ والفاجر فالأول شاكر كموسى والثانى كافر بها كبنى إسرائيل قومه فقال (يابنى إسرائيل) خطاب لمن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم (قد أنجينا كم من عدوكم) فرعون وقومه (وواعدنا كم جانب الطور الأيمن) لمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه لإقامة شعائركم ونظام دولتكم (ونزلنا عليكم المنّ والسلوى) فى التيه وقد تقدم فى سورة البقرة وقلنا لكم (كلوا من طيبات مارزقناكم) من حلالاته (ولا تطغوا فيه) بالإخلال بشكره وتعدى الحدود كالسرف، والبطر والمنع من المستحق (فيحل عليكم غضبى) فيلزمكم عذابى . يقال حل الدين إذا وجب أداؤه (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) فقد تردى ووقع فى الهاوية (وإنى لغفار لمن تاب) عن الشرك (وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) ثم استقام كما أمر .

إن الله عز وجل وعد موسى أن يأتى جانب الطور الأيمن ويختار سبعين رجلا يحضرون معه لنزول التوراة فاختارهم ، ومضى معهم إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقا إلى كلام ربه وأمرهم أن يتبعوه قال الله تعالى (وما أعجلك عن قومك ياموسى) استفهام إنكار أى أىّ شىء أوجب عجلتك فما مبتدأ وأعجلك خبر وهذه العجلة توهم إغفال القوم فهنا عجلة انضم إليها إغفال القوم فأجابه عليه السلام بأنى لم أتقدمهم إلا خطوات فلا إغفال لهم وإنما أنا كأحدهم وهذه الخطوات محتملة عادة على أن هذه الخطوات مع قلتها كانت للمسارعة إلى لقائك شوقا إلى كلامك ، وهذا قوله تعالى (قال هم أولاء على أثرى) أى هم خلفى يلحقون بى (وعجلت إليك ربّ) إلى الموعد (لترضى) لتزداد رضا عنى (قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك) ألقيناهم فى فتنة من بعد خروجك من بينهم (وأضلهم السامرى) إذ دعاهم إلى عبادة العجل فأجابوه وكانوا ستمائة ألف مع هارون وما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر . والسامرى المذكور منسوب لقبيلة من بنى إسرائيل يقال لها السامرة . وقيل إنه كان علجا من كرمان فاتخذ عجلا ، وكان اسم هذا السامرى موسى بن ظفر وكان منافقا (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) شديد الغضب حزينا (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور (أفطال عليكم العهد) أى مدة مفارقتى إياكم، والعهد الزمان . تقول طال عهدى بك : أى طال زمانى بسبب مفارقتك (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أى يجب عليكم غضب منه بعبادة العجل (فأخلفتم موعدى) وعدكم إياى بالثبات على الإيمان بالله (قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا) مثلثة الميم فى قراءات مختلفة أى ماأخلفنا موعدك بأن ملكنا أمرنا فلو ملكنا أمرنا وخلينا وشأننا ماأخلفنا موعدك فنحن كما فى المثل ؟ قال الحائط للوتد: لم تشقنى قال سائل من يدقنى فإن من ورائى لم يتركنى ورائى ، ولكن غلبنا على أمرنا موسى السامرى وذلك أننا حملنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين همننا بالخروج من مصر بعلة أن لنا عيدا غدا فقال السامرى إنما حبس موسى عنكم لشؤم حرمتها لأننا مستأمنون وليس نفسأمر أن نأخذ [illegible] الحرب ولو [illegible] ذلك غنيمة لم يجز لأن الغنائم لاتحلّ لنا . ثم أمرنا أن نحفر حفرة وملأها نارا وقال اقذفوا الحلى فيها فقذفناه فانصاغ عجلا مجوفا فخار . ويقال إنه كان خبأ فى الحفرة قالب عجل وله مجار أشباه العروق فكان له خوار منها كخوار العجل . وقيل نفخ ترابا من موضع قوائم فرس جبريل عليه السلام يوم الغرق وهو فرس حياة فحى فخار ومالت طباعهم إلى الذهب فعبدوه وهذا قوله تعالى (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) القبط (فقذفناها) فطرحناها (فكذلك ألقى السامرى) أى ألقى ما كان معه من الحلى كما ألقينا (فأخرج لهم) السامرى (عجلا جسدا) مجسدا بلا روح (له خوار) صوت إما لأنه صار حيا وإما لأن مجاريه المصنوعة بدقة كان يظهر فيها الصوت بمرور الريح فيها (فقالوا) أى السامرى

وأتباعه (هذا إلهكم وإله موسى) فأجابه كلهم إلا اثنى عشر ألفا (فنسى) موسى ربه هنا وذهب يطلبه على جبل الطور قال تعالى (أفلا يرون) أى أفلا يعلمون (ألا يرجع إليهم قولا) أى أنه لايرجع إليهم كلاما ولايرد عليهم جوابا (ولا يملك لهم ضرّا ولانفعا) فهو عاجز عن الخطاب وعن النفع والضرّ فكيف تتخذونه إلها (ولقد قال لهم) لمن عبدوا العجل (هرون من قبل) أى من قبل رجوع موسى إليهم (ياقوم إنما فتنتم به) ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه (وإن ربكم الرحمن) لا العجل (فاتبعونى) كونوا على دينى (وأطيعوا أمرى) فى ترك عبادة العجل ولقد دعاهم هرون بأحسن القول المنظم إذ أزال شبهته وساق إلى معرفة الله فالنبوّة فاتباع الشريعة وهو ترتيب طبيعى وذلك بالنهى عن العجل، ومعرفة الرحمن واتباعه وهو نبى وإطاعة أمره وهو الشريعة والتعبير بالرحمن دلالة على أنه يقبل التوبة (قالوا لن نبرح عليه) على العجل (عاكفين) مقيمين (حتى يرجع إلينا موسى) لأنا لانقبل إلاقوله فاعتزلهم هرون ومعه المؤمنون بالله فلما رجع موسى سمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه هذا صوت الفتنة فلما رأى هرون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله و (قال) له (ياهرون مامنعك إذ رأيتهم ضلوا) أشركوا بعبادة العجل (ألا تتبعن) أى أن تلحقنى وتأتى عقبى ولازائدة كما فى قوله «مامنعك ألا تسجد» (أفعصيت أمرى) أى خالفت أمرى (قال يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) أى بشعر رأسى وقد أخذ بذؤابتيه (إنى خشيت أن تقول فرّقت بين بنى إسرائيل) أى خشيت إذا أنا أتبعتك وفارقتهم أن يصيروا أحزابا يقاتل بعضهم بعضا فتقول فرّقت بينهم (ولم ترقب قولى) ولم تحفظ وصيتى إذ قلت لك اخلفنى فى قومى وأصلح والإصلاح إنما يكون بحفظ جامعتهم ومداراتهم إلى أن ترجع إليهم فتتدارك الأمر برأيك وها أنت ذا قد رجعت فماذا كنت أفعل ثم أقبل موسى على السامرى منكرا عليه (قال فما خطبك ياسامرى) أى ما أمرك وشأنك الذى حملك على ما صنعت (قال بصرت بما لم يبصروا به) أى علمت بما لم يعلموه، يقال بصر علم وأبصر نظر أى علمت مالم يعلمه بنو إسرائيل وذلك أنى رأيت جبريل على فرس الحياة فألقى فى نفسى أن أقبض من أثره فما ألقيته على شىء إلا صار له روح ولحم ودم (فقبضت قبضة) هى ما يقبض باليد أو قبصة بالصاد ما يؤخذ بأطراف الأصابع (من أثر) حافر فرس (الرسول) جبريل (فنبذتها) فطرحتها فى الحلى الذاب فى الحفرة أو فى جوف العجل (وكذلك سوّلت لى نفسى) زينته وحسنته فأنا فعلته اتباعا لهواى وهذا اعتراف منه بالخطأ (قال) له موسى (اذهب) من بيننا طريدا (فإنّ لك فى الحياة) عقوبة على مافعلت (أن تقول) لمن أراد مخالطتك وهو لايعرف حالك (لا مساس) لا يمسنى أحد ولا أمسه حرّم الله على بنى إسرائيل أن يخالطوه وحرم عليه أن يخالطهم وبلغهم موسى ذلك وإذا اتفق أن ماس أحدا حمّ الماس والممسوس فكان يهيم فى البرية ويصيح قائلا «لامساس» ثم ذكر له عذابه فى الآخرة فقال (وإن لك موعدا) فى الآخرة (لن تخلفه) لن يخلفكه الله بل ينجزه لك فى الآخرة بعد ماعاقبك فى الدنيا (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا) ظللت على عبادته مقيما (لنحرّقنه) بالنار أو بالمبرد يقال حرق إذا برد بالمبرد (ثم لننسفنه) لنذرينه رمادا أو مبرودا (فى اليمّ نسفا) حرقه وذراه فى البحر (إنما إلهكم) المستحق لعبادتكم (الله الذى لا إله إلا هو) إذ لا أحد يماثله (وسع كل شىء علما) وسع علمه كل مايصح أن يعلم لا العجل الذى يصاغ ويحرق.

(١) عجائب القرآن وما معنى قول العلماء لا تنقضى عجائبه ؟

(٢) ولم أتبعت هذه القصة بقوله تعالى «كذلك نقصّ عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا» ثم أنذر من أعرض عنه.

(٣) وقد ختمت القصة بقوله تعالى «وسع كل شىء علما».

(٤) كيف تكون مدارس التعليم الدينية فى مستقبل الزمان من إشارة هذه الآيات .

لما وصلت إلى هذا المقام من التفسير زارنى عالم فاضل من رجال المدارس الذين جاءوا من أوروبا حديثا فقال بعد أن قرأ ماتقدم . ماذا تفيدنا هذه الآيات ولقد أضحت الأمم اليوم يطيرون فى الجو ويسيرون بالبخار على الأرض وتغطس سفنها الحربية فتفتك بالسفن العائمة وتسمى (الغوّاصة) والأمم كلها ارتقت فأى ارتقاء فى تكرار هذه القصص وما فائدة ذكر عجل السامرى وسحرة فرعون وعصا موسى بعد ما ترقت الأمم وأخذت تجد وتنال حظوظها . وهل دراسة هذا إلا ترديد لما كان فى الأزمان الغابرة والأجيال البائدة . ثم إن الناس فى زماننا على قسمين : قسم يرى أن هذه الأمور لم تكن وهؤلاء يكفرون بالديانات ويتركونها للعامة وقسم يرى أنها حق وهم العامة الذين لا هم فى العير ولا فى النفير ، فقلت ياصاح إن هذه كنايات والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى فلا نحن ننكرها ولا نقف على مجرّد لفظها وهذا أبلغ مايكون فان الكناية أبلغ من الحقائق . واعلم أن الباحثين فى أصلها قوم لايعلمون لأن المقام مقام علم وحكمة والعلم والحكمة إنما يكونان من الاعتبار بالقصة والأخذ بحقائقها ، فأما تضييع الوقت فى أنه كيف كانت عصا موسى ويكون المرء بين تصديق وتكذيب فذلك ضلال ووبال قال تعالى «يضلّ به كثيرا ويهدى به كثيرا» فيضلّ به أولئك الباحثين المضيعين لأوقاتهم إذ لايعلمون المقصود من الكلام ويهتدى المفكرون الذين يبحثون عما يراد من هذه الكنايات. قال ماالمقصود من هذه القصص وماشأن عصا موسى وسحرة فرعون وعجل السامرى .

(٢) العلوم العقلية

فقلت اعلم ياصاح أن الله جعل هذه الأمور أمثالا للمسلمين . يريد الله أن ينشىء أمة إسلامية غير الأمم المتأخرة الماضية ، يريد ذلك ، قال وكيف ذلك ؟ قلت انظر ألست ترى أن عصا موسى بها غلب سحرة فرعون أى غلب الحق الباطل ، قال بلى ، قلت ثم جاء الباطل وهو العجل الذهبى فغلب الحق . قال نعم ، قلت وماشاع الباطل إلا عند جهال بنى إسرائيل الذين عبدوا العجل ولو كانوا علماء كالسحرة لبقوا على دينهم قال حقا ، قلت حينئذ تكون النتيجة أن المعجزات الوقتية فائدتها وقتية ؟ قال نعم . قلت والعلوم الحقيقية فائدتها حقيقية ثابتة تبع ثبات العلم فيكون الإيمان ثابتا ، قال نعم ، قلت حينئذ يطلب الله منا نحن لا من الذين ماتوا لأنهم عنده ولا من موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام لأنهما عنده أيضا أن نكون محققين فى كل شىء ، قال نعم .

(٣) الحجر فى الجبل نبع منه الماء

قلت أذكرك بما ذكرتك به فى سورة البقرة إذ قلت إن عصا موسى لما نبع الماء من الحجر بسببها ذكر الله بعدها بآيات أن الحجر تنفجر منه الأنهار وأن هذا إشارة إلى أن الناس يجب عليهم أن ينتبهوا لما فى الطبيعة من عجائب وغرائب إذ أن الحجر تنفجر منه الأنهار بسبب الماء الذى فى باطن الجبل فانه يصير ثلجا فينتفخ بخاصية تخصه فيكسر الحجر . فهذا الثلج والخاصة التى له هى معجزة الله يضرب بها الحجر فى كل حين ويخرج الأنهار فى أمكنة كثيرة ، قال نعم قرأت ذلك هناك ، قلت فحينئذ يريد الله بذكر الحجر وضرب موسى له بالعصا أن يقرع العقول فتدرك السر المصون فى الطبيعة الكامن فى الأحجار وهذا السر هو اختصاص الثلج بأنه يكون أكبر من حجمه إذا جمد وليس سواه من الموائع بهذه الخاصة ، وقد فعل الله ذلك ليجعله وسيلة لتكسير الصخور فتتفتح فتجرى الأنهار كما وضحته هناك ، قال هـذا ظاهر لا غبار عليه ، قلت هكذا هنا ، قال وما هنا ، قلت فانه ذكر العصا وقد أوضحنا الكلام عليها وذكر بعدها أمورا تليق لها ، قال ما معنى

هذا ، قلت معناه أن الحجر هناك لما ضربته العصا وانفجر الماء قلنا إنه إشارة لما سيذكره هناك من الأحجار المتفجرة في الجبال، أما هنا فلم يذكر الحجر ، كلا لأنه هنا ذكر أن العصا قلبت حية وجاء في سياق الكلام أنها كانت تورق وتثمر متى أراد ذلك : أي أنها تتقلب في صور مختلفة فلم يذكر هنا أنها تفجر بسببها نهر بل قال إنها هي قلبت حيوانا تارة ونباتا أخرى من سياق الكلام ، قال نعم وما قصدك بهذا ، قلت قصدى أن الله ذكر هنا أنه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وأنه جعل في الأرض سبلا وأنزل ماء من السماء وأخرج به النبات والحيوان الذى يرعاه والانسان الخ. قال هذا عرفته فيما تقدم . وماذاتقصد به ؟ قلت كما أنه هناك ذكر مايناسب الحجر المتفجر فأتبعه بحجر في الجبل يخرج منه الماء به فهمنا أنه يقصد أننا ندرس الطبيعة . هكذا فعل هنا فذكر الحيوان والنبات اللذين يصوران من المادة كما قلبت العصا إليهما ولم يذكر حجرا هنا ولانهرا خارجا منه مما دلنا على أن الأمر مقصود ولذلك قال تعالى « إن في ذلك لآيات لأولى النهى » فأصبحت النتائج هكذا .

(١) الاتكال على خوارق العادات وحدها لايكفى لدوام الإيمان .

(٢) العقل والفكر والتضلع في العلوم كسحرة فرعون هو الحافظ الوحيد للإيمان .

(٣) والعلوم التي تدرس لذلك هي العلوم الطبيعية المذكورة في قوله « الذى جعل لكم الأرض مهدا » الخ . وبعبارة أخرى العلوم الطبيعية والفلكية لأنها سلسلة واحدة منظمة . قال الآن قد فهمت ، وهل هذه العلوم للدنيا أم للآخرة ؟ قلت هي للدنيا والآخرة معا ، قال وكيف ذلك ؟ قلت هذه العلوم هي أنفسها علوم التوحيد وعلوم حب الله وعلوم شكر الله وهى أفضل وأنفس العلوم ، وعلم الفقه ماهو إلا فرعها والفرع أقل من الأصل ، فعلى المسلمين قاطبة في أقطار الأرض أن يسمعوا هذا ويعملوا به فانه أمر الله والله هو الآمر به بل أقول فوق ذلك إن الله سيتم هذا الأمر وتدرس العلوم كلها في أمم الإسلام وأنا واثق بذلك كل الوثوق . قال ما المنهج الذى تظنه سيكون في التعاليم الإسلامية .

(٤) ﴿ المناهج العلمية المستقبلة في أمة الإسلام في التعليم الديني ﴾

قلت إن الأمم الإسلامية ستقلب التعليم رأسا على عقب وسيصبح التعليم في علم التوحيد هكذا

تؤلف رسائل صغيرة مشوقة جميلة فيها عجائب الحكمة وبدائع الخلقة كالحيوانات الغريبة والجواهر الشريفة والعجائب المدهشة يفرح بها صغار الطلبة في كتب صغيرة مجلدة تجليدا جميلا مرسوما فيها صور من تلك العجائب بهيئة مشوقة وتجعل تلك الرسائل متفاوتة المقدار . في السنة الثانية أكبر منها في الأولى وفى الثالثة أكبر منها في الثانية وهكذا في الرابعة فما تمضى أربع سنين وقد قرأ الطالب فيها أربع كتب متدرجة في الكبر عجيبة العلم إلاوقد أحب الله حبا جما لما يذكره الأساتذة عند كل عجيبة من قدرة الله وعلمه وحكمته ونظامه ثم هو أيضا قد أدرك العالم الذى يعيش فيه فأخذت قواه العقلية تنهض وتنتعش واستعد للحياة وأصبح رجلا غير رجال اليوم . فاذا انتقل إلى القسم الثانوى كما في الجامع الأزهر وأخذ يدرس فيه وقد نال في الابتدائى حظا من العلوم الرياضية فحينئذ استعد لدرس العلوم الطبيعية فعلا فيدرس التلاميذ تلك العلوم وهم أيضا في نفس المدارس أو المساجد يدرسون الفروع الأخرى من الدين ، وهنا يدرسون الفلك وعلم النبات وعلم الحيوان والتشريح وهذه العلوم تدرس درسا إجماليا مشوقا مبنيا على شوقهم ، السابق لها في القسم الابتدائى .

هؤلاء التلاميذ متى تخرجوا من القسم العالى وخصص كل منهم لفن فقهى أوإرشادى أوطبيعى أوفلكى كانوا قدوة الأمة ومرشديها وأصبحوا أمة حية حقيقة فيكون عالم الدين إما قاضيا وإما مهندسا وإما طبيبا

وإما

وإما عالما بطبقات الأرض . فهذه كلها علوم طلبها القرآن بل العلوم الطبيعية هى نفس علم التوحيد وقد ألفت كتبا شتى فى تشويق المسلمين للعلوم كـكتاب (جمال العالم) وكتاب (نظام العالم والأمم) وكتاب (النظام والإسلام) وكتاب (نهضة الأمة وحياتها) وكتاب (القرآن والعلوم العصرية) وفى هذا التفسير عجائب كثيرة مشوقة أيضا وكتاب (جواهر العلوم) وكتاب (ميزان الجواهر) وغيرها . قال وماذا تصنع بما يخالف قولك من التعاليم الموجودة الآن فى الإسلام . قلت هذا القول لايخالف طرق المتقدمين البتة . نعم يخالفها فى الأسلوب وفى عدم ضياع الزمن وفى الانتفاع بالعلم دنيا وأخرى ، وفى توسيع اختصاص العالم الدينى ، فبدل أن يكون قاضيا فقط يكون طبيبا أو عالم فلك ولا حرج فى ذلك كما فهمت فى هذا المقام .

أيها الفاضل الذكى إنك قد فرض عليك أن تلقى عصاك فتلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . فقال لى ذلك العالم . أما قولك فرض على فلم أفهمه وكذلك لم أفهم ماهى العصا التى استعملها ولا ماهو السحر الذى تستأصله العصا وما هذه منك إلا مقالات كمقالات الشيوخ الذين يدعون الولاية وأكثرهم لايفيدون الناس شيئا فأفهمنى ماقلت بطريق واضح فقلت له ماالمقصود من حصول السحر . أليس القصد منه انصراف العقول والأبصار عن الحقائق إلى الضلالات . قال بلى . قلت إذن كل ماصرف عن الحق تجب إزالته سواء أكان سحرا أم كان غيره فإن النتيجة واحدة وهى الضلال . قال وما الضلال والانصراف عن الحق الذى تعنى . قلت اعلم أن المسلمين لما تولى أمرهم ملوك من أمم غريبة النزعة منحطة المدارك تولاهم الخور فى العزائم والقعود عن العلم وإدراك الحقائق . فهؤلاء الملوك حصروا عقول العلماء فى دوائر ناقصة من العلم وأشاعوا كتبا بينهم خاصة وبعضها عديم الجدوى قليل العائدة والفائدة واتسع الجدال بين العلماء فى أمور لاتوصل إلى السعادة فى الحياة الدنيا ولا فى الآخرة وأطالوا الجدل فى العلوم التى هى آلة لغيرها وانصرفوا عن الحقائق إلى المقدمات ، وإلى الوسائل دون النهايات فاستيقظت أوروبا لذلك وأخذتهم على غرة وخسفت بنا وبديارنا الأرض فأخذت كثيرا منها صاعقة العذاب الهون بما كسبنا من الجهالات وما أحاط بنا من الخرافات فهذه الطرق العلمية سدت على الناس طرق العلم الصحيح كأنما سكرت أبصارهم وكأنهم مسحورون وذلك نفر كثيرا من المسلمين من العلم الصحيح فاذا لم نسم هذا سحرا فإن المقصود من السحر قد حصل منه فاذا كانت البصائر قد غطيت عن الحقائق فأى سحر أنجع من هذا وإذا كان سحرة فرعون أخذوا بأبصار آلاف . فهذا العمل قد صرف مئات الملايين عن طرق السعادة حتى اصطادنا الفرنجة فههنا تم مقصود السحر بما هو أعم وأتم . فترى كتب التوحيد لاتفى بالغرض لصعوبتها وعدم تشويقها وكثرة جدلها فى أمور خارجة عن نظام هذه الدنيا التى جعلها الله محل دراستنا لأنها حياتنا وهى لوح دراستنا ونظام مدارسنا حرم منها المسلمون عشور ماأنزل الله بها من سلطان إلا بعض شذرات أو كتب قليلة العدد فأما البقية فهى غير صالحة لارتقاء النفوس ولا معرفة الله ولا حبه ولا الانشراح به . قال صاحبى هاأنا ذا عرفت السحر .

﴿ السؤال ﴾

(٥) فلخص ماتقدم كيف سحر المسلمون ؟ .

الجواب

سحروا بالانصراف عن العلوم النافعة فى التوحيد وفى الحياة الدنيا المرتبطة به لاتنفك عنه . فقال وما العصا وكيف يكون إلقاؤها وكيف تلقف هذا السحر ومن أين تدعى أنه فرض على . قلت إذا عرفت ماهو السحر فقد عرفت ماهى العصا ، إن موسى أمر أن يلقى عصاه . فإلقاء العصا ليس مقصودا بالذات إنما المقصود إزالة السحر ، وبعبارة أخرى إزالة الجهالة . فاذا رجعنا للحقيقة واضحة ناصعة ظاهرة قلت جهل يزال ، فموسى أزاله

بعصاه وأنت أزله بما لديك من القوى فالأمر واضح . وكما أن الغذاء يقصد به حياة المتغذى فليس يهم تعيين الطريق الذى به يتناول فالنبات يتناوله بعروقه وأوراقه والحيوان بفمـه والدود بمتصه بجلده والإنسان بيده ثم فمه وبعض الناس يتعاطاه بملعقة أو بشوكة فلتكن أى طريق فالحياة حاصلة ، مهما تنوعت تلك الطرق ومهما اختلفت . فهكذا هنا يراد إزالة الجهالة . أزالها موسى بعصاه فلنزلها نحن بما عنـدنا . قال أين العصا عندنا ؟ قلت ماذكرته لك الآن من صورة الدراسة والمناهج العلمية والـكتب التى تؤلف فى سنين مختلفة مرتبة منظمة جميلة المنظر حسنة الهيئة مجلدة تجليدا جميلا بهية الشكل تفرح التلاميذ بما حولهم من مزارع وما فوقهم من شموس ونجوم ثم يخصص كل امرئ فى علم خاص كقضاء أو طب وتـكون مدارس الاسلام حافلة بتلك العلوم ويعرف الناس ربهم معرفة أجل وأجمل من هذا العمى وحينئذ يظهر الاسلام على الأديان كلها ويؤدب رجال الشرق رجال الغرب ويطردونهم من بلادهم حتما . وملخص هذا أن تدرس العلوم الطبيعية والرياضية بطرق جميلة وتجعل من علوم الدين وأنها أهمها وهى أفضل وأجمـل وأرقى من علم الفقه لأن هذه أصول التوحيد وتلك فروعها والأصل مقـدم على الفرع وكلاهما لازم للاسلام والمسلمين . قال وكيف تقول إنى مأمور بهذا ولست نبيا . قلت له لم أنزل الله هذه الآيات ولم قال بعـد تمامها « وقد آتيناك من لدنا ذكرا . من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامـة وزرا » فأين الذكر الذى ذكره الله هنا وكيف خصص هذا المقام بقوله « وقد آتيناك من لدنا ذكرا » وأنذر من أعرض عنـه مع أن القرآن كله ذكر فلم قال هذا القول هنا . أليس ذلك التنبيـه على أن هنا نـكتة يجب التنبه لها وفـكرة يجب البحث فيها والفـكرة هى ماذكرته لك من القول المتقدم وهو أن نجد فى إزالة الضلالات العالقة بالأذهان . واعلم أن الله علم أن الاسلام سينتشر فى أنحاء المسكونة وسيقعون فى الجهالات فأنزل الله هذا العلم فى هذه السورة ، وأبان أن معرفة الحقائق ناجعة هى المزيلة لما لحقهم من الجهل والذل وظلم أوروبا فوصف لهم الداء والدواء وأبان لهم طرق إزالة الخرافات من العقول وأفهمنا أن العلوم الطبيعية هى المرقية للأمم . فأما الاتـكال على الظواهر فانه مدعاة للوقوع فى شرك الجهالات . وأما قولك إنك لست نبيا فأقول لك ألست تعلم أن النهى عن المنكر واجب على الأنبياء وعلى غيرهم . قال بلى . قلت وإذا عرفت أن الأمة اليوم واقعة فى جهالة عمياء أفليس يجب عليك أن تبادر إلى إزالتها ، قال بلى ، قلت ألم يقل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم «فبهداهم اقتده» ؟ قال بلى ، قلت هكذا فعل صلى الله عليه وسلم فانه ألقى عصاه كما ألقى موسى عصاه وأزال السحر كما أزال موسى السحر . ذلك أنه علم القوم وأسمعهم القرآن ثم كسر الأصنام التى كانت تسحر عقول القـوم بكثرة المشاهدة والتعظيم والتبرك حتى صارت شبحا سحريا يسحر العقول ويصرفها عن الحق فهـذا تنويم مغناطيسى حقيقة مؤثر تأثير السحر . ألست ترى أنه فعل مافعله موسى . قال بلى ؛ قلت ألست أنت الآن مكلفا بذلك بدليل وجوب النهى عن المنكر وبدليل قوله تعالى «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة» ، قال بـلى ، قلت «وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح السـاحر حيث أتى» فان بعض القـوم سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، قال إذن فهمت ولـكن أريد أن انصراف العقول الإسلامية الذى قام مقام السحر ناشىء من صعوبة الـكتب وحدها ، قلت هناك أسباب كثيرة فليست كل الـكتب صعبة وليست كل الطرق عقيمة ، ولـكن انصراف العقول اليوم طم وعم العباد والبلاد ، فأوروبا أرسلت رسلها فخمست المتنورين منا فى اللذات والشهوات وأفهمتهم ضلالات فبغضتهم فى دينهم ودنياهم وطرق التوحيد عندنا عقيمة فأصبح الناس بين نارين نار الجهالة الشرقية ونار الضلالة الغربية وهذا هو الدجل وهذه أشبه بأفعال (المسيح الدجال) وليس يصرف هذا الدجال أى الذى يشبهه إلا الطريق العيسوى والهدى الإسلامى وقـد أبنته لك « وألق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح السـاحر حيث أتى » كما لايفلح الدجال أمام الهـدى

وعيسى

وعيسى ، فعيسى يقتل الدجال، والحق يغلب الباطل والخير يغلب الشر، وجند الله هم الغالبون، وفضل الله واسع فاعرف الحقائق وابتعد عن المزالق واسق الناس من الموارد ولا تسقهم من ماء آسن بل اسقهم من كوثر ومن رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

قال وهل أنت بما تقول واثق أم هذه أماني ، قلت أعلم أن الله عز وجل أذن للمسلمين اليوم وغدا أن يتبوءوا مكانهم في الأرض ومكانتهم بين الأمم وأنه ناظر إليهم . ناظر نظرا عظيما وهو اليوم يبث في نفوس أفراد منهم هنا وهناك طرائق العلم وأزهار الحكمة وثمارا شهية . وهؤلاء الأفراد أنبتهم في أمكنة مختلفة وقد تجلى عليهم بالنور وهم ينشرون ذلك النور في الأقطار الإسلامية وسيسمع المسلمون أقوالهم وسيكون لهم مجد قد آن أوانه وقرب إبانه فاقرأ إن شئت «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» فقد وعد الله أن يرينا آياته في أنفسنا وذلك بعلم الأرواح وعلم النفس في الآفاق وذلك بالعلوم التي ذكرناها وحرضنا عليها وأعدناها في هذا التفسير تكرارا وقلناها مرارا ، وأقول لك إن ظهور هذه العلوم بهذه الطرق هذا أوانه حتما وهذا هو الوقت الذي وعد الله به وهاهو ذا ينجز وعده وفي زمن قريب سيظهر علماء وفضلاء وحكماء في بلاد الإسلام . ألست ترى أن القرآن الذي كان الجهلة من المسلمين يعتقدون أنه مبعد عن العلوم قد أصبح اليوم كما تراه محرضا عليها شارحا لها مهيئا لها وأصبح أمثال هذا القصص ليس أمرا مضى وانقضى فحسب بل ها أنت ذا تراه يصلح لكل زمن سيأتي فللناس أن يقولوا بعد آلاف السنين «وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا» ويرون أن علم البلاغة يفهمنا أن الأمور الآن إنما هو نحن قد أمرنا أن ننشر العلم ونزيل الضلال والجهالة لا أكثر ولا أقل وهذا قول مقبول بعد مئات الآلاف من السنين . فإذا قال الله «ولكن رسول الله وخاتم النبيين» وإذا قال «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» فها هو ذا قد ظهر المقصود واتضح الحق وأن هذا القرآن صالح لجميع الأزمنة والأمكنة لأنه مسائل عامة في غاياتها وإن كانت خاصة بالنظر إلى ظواهرها ، وسيقوم بهذه الأمور عقلاء وعلماء يملئون الأرض نورا وعلما قريبا وقريبا جدا . وإني أطلب من الله أن تكون أيها الذكي المطلع على هذا التفسير منهم في تذكير الناس بما علمت من هذا التفسير وغيره وأن يكون مطمح نظرك رقي الأمة الإسلامية التي هي جسم أنت أحد أعضائه والله يتولى الصالحين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . انتهى الفصل الرابع وهو آخر فصول المقصد الثاني من هذه السورة .

(المَقصِدُ الثَّالِثُ)

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ۝ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا

مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً • يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً •
وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً • وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً • وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً • فَتَعَالَى اللّٰهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً • وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ
عَزْماً • وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى • فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هٰذَا
عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى • إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى •
وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تَضْحَى • فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ
الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى • فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى • ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى • قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا
جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ
يَشْقَى • وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى • قَالَ
رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً • قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ
تُنْسَى • وَكَذٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى •
أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِأُولِي النُّهَى • وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى • فَاصْبِرْ عَلَى مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ
النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى • وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى • وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً
نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى • وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي
الصُّحُفِ الْأُولَى • وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا

رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءايَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق) أى مثل ماقصصنا عليك قصة موسى وفرعون نقص عليك من أخبار الأمم الماضية تكثيرا لبيناتك وعلومك وتبصرة لك وزيادة فى علمك وعلم المستبصرين من أمتك (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) قرآنا فيه الأخبار والأقاصيص للاعتبار بها والتفكر فيها (من أعرض عنه) عن الذكر وهو القرآن (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) عقوبة ثقيلة والوزر الحمل الثقيل لغة وقوله (خالدين فيه) فى الوزر وهو حال من الضمير فى يحمل وإنما جمع على المعنى (وساء لهم يوم القيامة حملا) ساء كبئس أى ساء الحمل حملا وزرهم فالفاعل ضمير مفسر بحملا ووزرهم مخصوص بالذم محذوف ، وقوله (يوم ينفخ فى الصور) بدل من يوم القيامة : أى يوم تنفخ الأرواح فى صورها فالصور هنا جمع صورة ، وقد قرئ « فى الصور » بضم ففتح وهو ظاهر فى هذا المعنى (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى عميا لأن حدقة من يذهب نور بصره تكون زرقاء وزرقة العين أسوأ ألوانها ، والروم كانوا أعدى أعداء العرب وهم زرق العيون فوصفوا بوصف مبغض من حيث اللون سيء من حيث ذهاب البصر فهو أبلغ من عميا (يتخافتون بينهم) أى يتسارّون يقول بعضهم لبعض سرا من هول اليوم (إن لبثتم إلا عشرا) أى مالبثتم فى الدنيا أو فى القبر إلا عشر ليال استقصارا لمدة لبثهم لما عاينوا من شدة العذاب وهوله معتبرين ماتقدم أيام نعيم لأن أيام النعيم قصيرة (نحن أعلم بمايقولون) وهو مدة لبثهم (إذ يقول أمثلهم طريقة) أعدلهم رأيا (إن لبثتم إلا يوما) قصر فى أعينهم بالنسبة لأهوال القيامة (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) وذلك أن رجلا من ثقيف سأل عنها النبى صلى الله عليه وسلم فأجيب بنزول هذه الآية ، والنسف القلع من أصولها ثم يجعلها هباء منثورا فأوّلا يجعلها كالرمال ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها (فيذرها قاعا صفصفا) أى يدع أماكن الجبال من الأرض أرضا ملساء صفصفا مستوية لا نبات فيها (لاترى فيها عوجا ولا أمتا) أى لا انخفاضا ولا ارتفاعا فلا وادى فيها ولا رابية (يومئذ) أى يوم إذ نسفت وهو بدل ثان من يوم القيامة (يتبعون الداعى) داعى الله إلى المحشر (لاعوج له) لايميلون ولا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا (وخشعت الأصوات) أى خضعت (للرحمن) لمهابته (فلا تسمع إلا همسا) صوتا خفيا كصوت أخفاف الإبل (يومئذ لاتنفع الشفاعة) عنده (إلا من أذن له الرحمن) أى إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع (ورضى له قولا) فلا يشفع إلا للمأذون الذى رضى الله قوله . ثم اعلم أن الشفاعة فى الآخرة تابعة لإذن الله كما هنا وعلامة إذن الله أن يكون المرء مرضى القول ومن رضا القول أن يكون مقبول القول فى الدنيا قد سمع الناس نصائحه لطهارة قلبه وخلوص نيته . وعلى مقدار الآثار الواصلة من الشافع إلى المشفوع تكون درجة الشفاعة . فالأنبياء يشفعون والعلماء يشفعون والأساتذة يشفعون والشهداء يشفعون . ولكل منهم فى الشفاعة درجة خاصة وهى مقدرة بمقدار آثار فى المشفوع لهم وعلامة قبول شفاعتهم فى الآخرة قبول نصائحهم فى الدنيا . فكلما كانوا أبين قولا وأكثر أثرا كانت شفاعتهم على مقدار ماوصلوا إليه من نفوس سامعيهم والله هو العالم بالشافعين والمشفوع لهم (يعلم مابين أيديهم) ماتقدمهم من الأحوال (وما خلفهم) وما يستقبلونه منها فهو عالم بالشافع الذى أنار القلوب بعلمه وبالمشفوع له الذى نال تلك الآثار فيعطى الإذن وقبول الشفاعة فى المشفوع له بقدر (ولا يحيطون به علما)

أى ولا يحيطون بالله علما (وعنت الوجوه) أى ذلت وخضعت (للحى القيوم) أى الذى لا يموت القائم بتدبير خلقه (وقد خاب) أيس من رحمة الله تعالى (من حمل ظلما) أى من حمل إلى موقف القيامة شركا لأن الظلم وضع الشىء فى غير محله ولا ظلم أشد منه (ومن يعمل من الصالحات) الطاعات (وهو مؤمن) مصدق بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم (فلا يخاف) أى فهو لا يخاف (ظلما) أن يزاد فى سيئاته (ولا هضما) أى نقصا من حسناته (وكذلك) عطف على: « كذلك نقص » أى ومثل ذلك الإنزال (أنزلناه قرآناه عربيا) بلسان العرب (وصرفنا) كررنا (فيه من الوعيد لعلهم يتقون) يجتنبون الشرك (أو يحدث لهم) الوعيد أو القرآن (ذكرا) عظة (فتعالى الله الملك الحق) أى ارتفع عن الظنون وأوهام الأفهام ومشابهة المخلوقات للملك الذى يحتاج إليه الملوك وإنما كان ملكا حقا لأن ملكه لا يزول أما ملك الملوك فانه زائل . ثم أخذ يستطرد لذكر القرآن قائلا وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأنّ ريثما يسمعك ويفهمك وهذا قوله (ولا تعجل بالقرآن) أى بقراءته (من قبل أن يقضى إليك وحيه) أى من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ (وقل رب زدنى علما) بالقرآن ومعانيه . ويقال إن الله ما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة فى شىء إلا فى العلم (ولقد عهدنا إلى آدم) أى أوحينا إليه ألا يأكل من الشجرة . يقال فى أوامر الملوك عهد إليه ، وأوحى إليه وعزم عليه وهذه القصة معطوفة على « وصرفنا فيه من الوعيد » (من قبل) أى من قبل وجودهم يخالف ما عهد إليه وهم أيضا مخالفون فالمخالفة راسخة فى الأصول منتقلة إلى الفروع (فنسى) العهد وهو النهى والأنبياء يؤاخذون بالنسيان أو نسى أى ترك ما وصى به من الاحتراز من الشجرة (ولم نجد له عزما) تصميما فى الرأى وثباتا فى العزيمة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) أى اذكر حاله فى ذلك الوقت لتعلم كيف نسى ولم يكن له عزيمة ولا ثبات (فسجدوا إلا إبليس) قد تقدم الكلام على كل ما قاله الناس فى الملائكة فى سورة البقرة وعلى أدلة وجودهم . وقال الحسن الملائكة لباب الخليقة من الأرواح ولا يتناسلون وهذا القول يرجع إلى أحد الأقوال المذكورة فى سورة البقرة التى تشير إلى أن الملائكة والشياطين أرواح من ماتوا من الناس فان كانوا أبرارا فهم الملائكة وإن كانوا أشرارا فهم الشياطين ويكون الأولون إلى النور أنسب والآخرون إلى النار أقرب . وتقدم فى حديث مسلم أن النار حجاب الله فهكذا هى التى حجبت الشياطين هى والمادة التى منها أنشئت وحجبا الناس أيضا عن ربهم ولا مجال للبحث هنا فارجع إليه هناك . وهنا يقال لم لم يسجد إبليس فقال (أبى) أى أظهر الإباء وتوقف (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك) لأنه لم يسجد لك ولم ير لك فضلا فاحترسا منه (فلا يخرجنكما من الجنة) فلا يكونن سببا لإخراجكما منها (فتشقى) فتتعب فى طلب القوت ولم يقل فتشقيا لمراعاة رءوس الآى ولأن الرجل هو المكلف بنفقة المرأة فجعل الشقاء عليه خاصا به (إن لك ألا تجوع فيها) فى الجنة (ولا تعرى) عن الملابس فيها (وأنك لا تظمأ فيها) لا تعطش (ولا تضحى) ولا تبرز للشمس فيؤذيك حرها لأنه ليس فى الجنة شمس ، وهذه الأربعة هى مدار الكفاف فالشبع والرى والكسوة والكن هى التى عليها مدار الحياة (فوسوس إليه الشيطان) أى أسرّ إليه (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى الشجرة التى إن أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لا يبلى) لا يزول ولا يضعف . فالله وإبليس كلاهما رغبا آدم فى النعيم المقيم ، فالله جعله فى الاحتراس من الشجرة وإبليس علقه على الأكل منها فاتحدت الغاية واختلف الطريقان ، فالرحيم سلك بعبده الطريق المؤدى الموصل ، والعدو سلك الطريق الذى لم يوصل (فأكلا منها) أى أكل آدم وحواء من الشجرة (فبدت لهما سوآتهما) أى عريا من الثياب التى كانت عليهما حتى ظهرت عوراتهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى يلزقان بسوآتهما من ورق التين (وعصى آدم ربه فغوى) وغوى أى أخطأ الطريق الموصل إذ طلب الخلد بأكل ما نهى عنه .

جاء فى حديث رواه البخارى ومسلم ، قال صلى الله عليه وسلم «احتج آدم وموسى ، فقال موسى يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة ، فقال له آدم أنت ياموسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومنى على أمر قدّره الله تعالى قبل أن يخلقنى بأربعين عاما فحج آدم موسى» واعلم أن مثل هذا الحديث يتخذه الضعفاء حجة على فعل المعاصى وهو خطأ بل مثله ينفع الإنسان بعد وقوع الذنب ليتسلى به فأما قبل وقوع الذنب فمن الجهالة الاحتجاج به لأنه يكون ذلك وسيلة إلى تبديد القوى الإنسانية وإضاعة الدين والقرآن وهذا هو الضلال المبين (ثم اجتباه ربه) اصطفاه وقربه بأن حمله على التوبة (فتاب عليه) قبل توبته حين تاب (وهدى) هداه لرشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار (قال) الله (اهبطا منها جميعا) الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبليس ومعه ذريته (بعضكم لبعض عدوّ) أى بعض الفريقين لبعض عدو (فإما يأتينكم منى هدى) أى كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) أى الكتاب والرسول (فلا يضلّ) فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى) أى الهدى الداعى إلى عبادتى (فإن له معيشة ضنكا) ضيقا وهذا مصدر وصف به، وقرئ «ضنكى» كسكرى وهذا الضنك يدركه ذوو النفوس الجاهلة فى الدنيا ولو كانوا أغنياء بسلب القناعة عنهم وحرصهم وجشعهم وسوء ظنهم بالله وفرط انشغالهم بأسباب الاكتساب وهؤلاء لم يدخلوا فى السلام العام الذى يقوله المسلم فى الصلاة فإنه لا أمان لهم لسوء ظنهم بالله وبكل شىء فى الوجود ، فإن نزلت المحنة بهم لم يروها إلا تعذيبا ، وإن نزلت بهم النعمة حرصوا عليها، وإن ذهبت منهم كادت نفوسهم تزهق فإذا ماتوا عذّبوا فى القبور على شهواتهم وحزنوا واغتموا على ماظنوه نعيما وإذا بعثوا بعثوا على ماماتوا عليه حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . هذه هى المعيشة الضنكى . واعلم أن بعض الناس يعيشون فى الأرض ويعذبون وهم لايشعرون أنهم يعذبون . يظنون أن العذاب نعيم وأن السعير جنات ، فيرى الأغنياء الذين لاحظ لهم من عالم الجمال أنهم فى خفض وفى دعة وفى سعة وقد فاقهم الفقراء والخدم الذين فى قصورهم والباعة فى الطرق . فهؤلاء فاقوهم فى السعادة والحظوظ الدنيوية وهم لايعلمون ، وقد اكتفوا بالمظاهر التى لاتحسّ بها قلوبهم وقنعوا بما يتملق به الناس إليهم وهم لايعلمون أنهم أشقياء فى هذه الحياة . وهذا هو المعنى الذى ظهر لشاعر إنجليزى ولشاعر آخر اسمه (وليم وتون) وقد ترجمت شعرهما وأنا مدرّس بالمدرسة العباسية باسكندرية لتلاميذها وهذا هو الشعر المذكور ذكرته هنا لتعلم أيها الذكى كيف كانت العقول البشرية وأصحاب النفوس الشريفة قد اصطلحت واتفقت على المعانى التى أنزلها الله فى القرآن الكريم لأنه أنزل للناس كافة «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وإذا كان رحمة للناس كافة فإذن يكون موافقا لجوهر أرواحهم مناسبا للفطر الأصلية مستحوذا على المعانى العالية التى اشتركت فيها الأرواح الصافية الخالية من الأغراض البعيدة عن الأهواء التى تغترف المعانى من بحر الأنوار المشرق من وراء الحجب الذين يأنسون بعالم الجمال وهم بعيدون عن التأثر بالأحوال الإنسانية العارضة الشاغلة لأهل هذه العصور وإن كانوا فى أمم ظالمة ودول جشعة سيقتلها الحرص والطمع ولو بعد حين .

أيذوق الفقراء السعادة أكثر من الأغنياء ؟

(من شعر ترنش الشاعر الإنجليزى)

قوم صفت الدنيا لهم … وسماؤهم صحو عجب
فيها شمس وبها قمر … لم تحجبهم عنها حجب
فإذا ما اغبرّ بأفقهم … مقدار الظفر له غضبوا
وفريق عاش ودهرهم … ليل فيه السود النوب
فإذا لمحوا من بارقة … فرحوا جذلا وبهم طرب

هـذا مثل فيه عظة   لذوى التوفيق إذا ضربوا
فانظر زمرا سكنوا مصرا   وبنوا قصرا ولهم ذهب
ولهم نعم فيها نعم   فاذا راحت فلها لجب
يشكون الدهر وما نصبوا   إن شاكهم وبر صخبوا
فكأن الفضل بما طلبوا   مما من عليهم حرب[1]
وكأن المال جهنمهم   وثراء المال لهم عطب
وترى رهطا سكنوا الأكـ   واخ فقلنا شمر هذا قصب
وحياتهم فى مخمصة   ومعيشتهم أبدا وصب
حمدوا الرحمن على نعم   وبه فرحوا وله انتسبوا
فكأنهم لما سلبوا   ما أعطاهم منه كسبوا
فالحب كساهم من حلل   وبكأس سعادته شربوا

وصف السعداء فى الدنيا

(من شعر وليم وتون الشاعر الإنجليزى)

ألا حبذا من عاش فى الناس ألمعا[2]   ذكى فؤاد لم يكن قط إمعه[3]
يصول بسيف الحق والحق أبلج   إذا اضطرب الأهواء فى كل مجمعه
ولم يك عبدا طائعا كل شهوة   إلى الموت تاقت نفسه وهو فى دعه
فلا أوثقته شهوة بوثاقها   إلى هذه الدنيا ولا المال أطمعه
ولم يغبط القوم الذين سمت بهم   مصادفة أو يستهانوا مع الضعه
ما غره مدح ولا شرع واضع   ولكن صوت العدل فى القلب أقنعه
فيأوى إلى الركن الشديد ضميره   فنزه تاريخ الحياة وأبدعه
وصار كفاف العيش لا الخب[4] طاعم   لديه ولا الطاغى إذا رام ضعضعه
يصلى على حين العشيات والضحى   لوجه جلال الله لا وجه منفعه
ويوم فراغ النفس تلقاه قارئا   كتاب نبى أو مسامر من معه
فهذا هو الحر الذى عاش مسعدا   فلا خوف يخشاه ولا حرص أوقعه
مليك قياد النفس لا ملك الورى   ولم يك ذا مال بل الملك أجمعه

فانظر كيف وصف شعراء أوروبا حال الأغنياء أولا وكيف بينوا أن السعيد إنما يكون سعده بصفات الكمال والقناعة والوقار لا بالشهرة الكاذبة والمدح وكثرة الغنى . هذا بعض مايفهمه علماء الإسلام من قوله تعالى « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » وإياك أن تظن أن المسلم خارج عن دائرة المعيشة الضنك غنيا كان أو فقيراً إذا كان قلبه غافلا عن ذكر الله وعن الصلاة . فكم من المسلمين من يصلون ويصومون ويحجون وهم أجسام خاوية ونفوس خالية وعقولهم ذاهبة . إياك أن تغتر بأنك مسلم أو مؤمن . إياك أن

(١) سلب المال .   (٢) الذكى .
(٣) الذى لا رأى له .   (٤) الخبيث .

يغرك

يغرّك ذلك فليس لك حظ من الإسلام إلا على مقدار تشرب نفسك بهذه المعانى وحب الله وحضور الأمور العالية فى ذهنك ، اذا أردت أن تحظى بالعيشة السعيدة بقدر إمكانك فى هذه الدنيا فاسمع ماسيأتى بعد آيات فى هذه السورة واسمع قوله تعالى « فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » إن أسرار القرآن ستظهر عما قريب للمسلمين . انظر لكتاب الله تعالى كيف يقول إنّ من أعرض عن ذكر الله فان له معيشة ضنكا ثم يأتى بعد آيات فى نفس السورة ويصف الدواء الناجع لهذه المعيشة الضنك فيقول « اصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك » الخ « ومن آناء الليل فسبح » ويقول « ولا تمدن عينيك » ويقول « وأمر أهلك بالصلاة » فها أنا فا أسير فى تفسير الآيات ليتضح المقام فلنشرفى وصف هؤلاء ذوى المعيشة الضنك المذكورين قال الله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى) البصر والقلب كما كان أعمى القلب فى الدنيا (قال ربّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) فأجابه الله قائلا ليس المدار على البصر الظاهر إنما الأمر موقوف على التعقل والتفكر فأنا لم أحشرك إلا على مامت عليه وهذا قوله (قال كذلك) ثم أخذ يفسره فقال (أتتك آياتنا) واضحة نيرة (فنسيتها) عميت عنها وتركتها اتباعا لأبيك آدم وقد نبهتك بقصته فما ارعويت (وكذلك) ومثل تركك إياها (اليوم تنسى) تترك فى العمى والعذاب (وكذلك نجزى من أسرف) بالانهماك فى لذاته والاستغراق فى أسباب الحياة الدنيا وهو معرض عن آياتنا (ولم يؤمن بآيات ربه) فكذبها (ولعذاب الآخرة) وهو الحشر على العمى وعذاب القبر والنار (أشد وأبقى) من ضنك العيش لأن العذاب الفانى أقل من العذاب الباقى ، لقد وعد الله المعرضين عن ذكره تعالى بعذابين فى الدنيا بالضنك والذل وفى الآخرة بعذاب جهنم وبالعمى الحقيق ثم ختم الآية بأن العمى فى الآخرة وعذابها أشد من ضيق العيش فى الدنيا . فما أوضح هذا القول وما أعجبه . ولما كانت حياة الأفراد مقيسة على حياة الأمم كما تنبه لذلك [أفلاطون] فى كتاب جمهوريته الذى وضعه على لسان أستاذه [سقراط] إذ قال فيه إنّ الأمم لاتتم مدنيتها إلا بأربعة أشياء حكام مفكرين بحكمة وعقل وجيوش منظمة مدربة خاضعة لآراء رؤساء المدينة وعامة قائمين بواجباتهم من صناعة وتجارة وعمارة وزراعة وأدب وطاعة تامة فهؤلاء الأقسام الثلاثة إذا قام كل منهم بما أوجبه القانون عليه . فالرؤساء حكماء والجيوش مطيعون والعامة ممتثلون أمر الفريقين كانت هذه الصفة هى العدل وإذن لاسعادة لأمة إلا بهذه الأربعة . حكمة فى الرؤساء وشجاعة فى الجنود وعفة فى العامة وعدل بانتظام هذه الأحوال الثلاثة والتئامها . ثم قال بعد ذلك وهذه إذا كانت أحوال الأمة فأحوال الإنسان الفرد تقاس على حال المجموع . فلتكن قوتنا الشهوية للملبس والمطعم والتزوج أشبه بالعامة فى الأمة . وقوتنا الغضبية طائعة لقوتنا العقلية فلا تتحرك لعمل بطريق الغضب إلا إذا كان العقل يأمر به وقوتنا العقلية قائمة بالحكمة والعلم دراسة مفكرة . وبانتظام هذه الثلاثة ، يكون العدل فالإنسان لاسعادة له إلا بهذه الأربعة ومنها تفرعت جميع الأخلاق (العفة ، الشجاعة ، الحكمة ، العدل) هذا ملخص جمهورية أفلاطون ذكرتها لك هنا لتعجب كيف ذكر الله الآيات الآتية بعد السابقة ذكرها ليقيس حال الأفراد على حال المجموع . فانظر كيف جاء القرآن بما هو ملخص الفلسفة العالية الموضوعة فى كتاب عظيم ضخم . انظر كيف لخصها فى بضع آيات فقد ذكر الأشخاص الذين عاشوا عيشا نكدا فى الدنيا وسيشقون فى الآخرة . وهذا العيش النكد باعراضهم عن ذكر الله وهذا هو علم الحكمة ويتبعه سائر ماتقدم ، ثم أتبعه بذكر أحوال الأمم الجاهلة ، قال (أفلم يهدلهم) أفلم يبين لهم إهلاكنا من قبلهم من القرون وهم يمشون فى مساكنهم ، ففاعل يبين هو المأخوذ من قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم) أى حال كونهم يمشون فى ديارهم ويشاهدون آثار هلاكهم . أفلا يقيسون أحوال الأفراد

على أحوال الأمم . أفلا يفكر كل واحد فى نفسه أن الله الذى أهلك هذه الأمم هو الذى يعامل الأفراد معاملة الأمم والفرد طبعه طبع المجموع مقيس عليه كما يعرفه فلاسفتكم فى الأرض بعقولهم وذكائهم فكيف غفل الناس عن ذلك ، ونحن كما عذبنا الأمم بهلاكها تارة وبتنغيص عيشها بالحرب والضرب والقتال نفعل كل ذلك بالإنسان الواحد فتارة نأخذه بغتة وتارة نبقيه ونجعله فى معيشة ضنك . وإن الإنسان ليسهل عليه أن يدرس الأمم وأحوالها فليقس نفسه عليها . وأنا لم أؤخر العذاب عن هذه الأمم الكافرة من قريش وغيرهم إلا لكلمة سبقت منى فى اللوح المحفوظ وفى علمى القديم أن أؤخر العذاب عن بعض الأمم لأنى أردت أن أبتليهم لعلهم يؤمنون أو تخرج منهم ذرية مؤمنة (ولولا كلمة سبقت من ربك) أى الحكم بتأخير العذاب عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم (لكان) العذاب المماثل لما نزل بعاد وثمود وغيرهما (لزاما) لازما لهؤلاء الكفار (وأجل مسمى) عطف على «كلمة» أى ولولا العدة بتأخير العذاب وأجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة أو بدر لكان العذاب لزاما .

﴿ فصل : فى الكلام على سعادة الإنسان فى الدنيا وكيف لا يعيش معيشة ضنكا ﴾

اعلم أن الله بعد أن ذكر حال الذى يعيش معيشة ضنكا وبين أن العقل المحجوب الذى فى غشاء عن ذكر الله معذب صاحبه فى الدنيا وإن كان غنيا وأن عذابه فى الآخرة تبع لعذابه فى الدنيا وأن حاله مقيس على حال الأمم وأن الفرد كالأمة «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» أتبعه بذكر الدواء لهذا الداء لينبه المسلمين إلى الحياة السعيدة . وأن كلمة الشهادتين والإسلام الظاهرى مع غفلة القلب لا يكفيان لها فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأربعة أمور :

[الأول] الصبر .

[الثانى] العبادة مع حضور القلب .

[الثالث] أن لا يتعلق بأمور الدنيا فيشتهى مثل ما عند الأغنياء .

[الرابع] أن يأمر أهله بالصلاة ويصطبر عليها . هذه هى الشرائط الأربعة لسعادة النفس فى الدنيا وأن الإنسان لا يكون فى عيشة ضنكا .

[الأمر الأول : الصبر]

قال تعالى (فاصبر على ما يقولون) من الشتم والتكذيب ما دمت غير قادر على تأديبهم وتهذيبهم حتى يأتيك الأمر بالجهاد .

[الأمر الثانى : الصلوات]

وهى الصلوات الخمس مع صلاة الليل وهى التهجد (وسبح) أى وصلّ (بحمد ربك) أى وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه معترفا بأنه المولى للنعم كلها بأن تقول فى صلواتك « الحمد لله رب العالمين » الخ ولكن ذلك (قبل طلوع الشمس) وهى صلاة الفجر التى تكون فى أوقات الصفاء والجمال والبهجة وإشراق الجوّ بنور بهيج بديع مشرق مذكر بالنور الإلهى المالئ للكون (وقبل غروبها) وقت الظهر ووقت العصر وقد أزفت ترحل من العالم الأرضى إلى عالم أرضى آخر فتكون الصلاة فى هذين الوقتين للاعتراف بما حباه الله للناس من النور الذى أكسبهم حياة ومعيشة وسبب لهم الخيرات والنعم وحاطهم بأصناف الكرامات من جنات وأعناب وسحاب وضياء به يبصرون طرقهم (ومن آناء الليل فسبح) الآناء جمع إنى بالكسر والقصر أو أناء بالفتح والمد أى الساعات، يقول صلّ فى ساعات الليل المغرب والعشاء وصلاة التهجد فإن هذه الأوقات هى التى تشعر القرب بالله تعالى ويسجد ويقترب منه لأن المشاغل الدنيوية ليس لها سلطان على القلب إذ

ذاك كما قال تعالى فى آية أخرى «إنّ ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا» أى أشد مواطأة وموافقة وأبين قولا فيها يوافق القلب اللسان ويخاطب ربه ويفرح به ويفيض عليه الأنوار والبهجة. وليس يعرف ذلك السلم إلا بالتجربة أما مجرد السماع فلا يكفى، وأما قوله تعالى (وأطراف النهار) فإنه تكرار لصلاتى الصبح وصلاة المغرب وهو معطوف على « قبل » ، يقول الله سبحنى فى هذه الأوقات (لعلك ترضى) أى رجاء أنك ترضى بالبناء للمجهول أى يرضيك الله بالإلهام والمسرات النفسية والأنوار القلبية والهداية والتوفيق وأن تكون هاديا للناس وفى الآخرة بمشاهدة الله الذى كنت تشتاق إليه وأنت حى فى الدنيا أو بالبناء للفاعل أى تنال عند الله مابه ترضى نفسك ويسر قلبك فى الدنيا والآخرة.

[الأمر الثالث]

قال تعالى (ولا تمدّن عينيك) أى نظر عينيك (إلى ما متعنا به) استحسانا له وتمنيا أن يكون لك مثله (أزواجا منهم) أصنافا من الكفرة ثم أبدل منه قوله (زهرة الحياة الدنيا) أى ذوى زهرة الحياة الدنيا . ولا جرم أن الزهرة ذابلة قريبا والثمر هو الباقى (لنفتنهم فيه) أى لنبلوهم ونختبرهم فيه (ورزق ربك) وهو الهدى والتوفيق وثوابهما (خير) مما منحوا من الدنيا (وأبقى) فإنه لاينقطع . ثم اعلم أن الرزق الذى جاء فى هذه الآية ينتهى إلى مشاهدة الله تعالى والاستغناء به عن عالم المادة لأنه هو المصدر الأول لكل نعمة فإذا اقتنع الجهال من سائر الأمم بالمال والمناصب وهى زائلة بل قوامهم نفسها مضمحلة ذاهبة فى هذه الدنيا قبل الآخرة فإن أرباب النفوس العالية لا يقر لهم قرار حتى يشاهدوا مبدأ هذا الجمال البارع . نعم لا يحبون شيئا إلا أن يروا ربهم وهذه الرؤيا لامعنى لها إلا العلوم والمعارف الشريفة التى تنتهى بالمشاهدة اللائقة بذلك المقام لامشاهدة الحواس. ولعلك تقول هذه خطوة كبرى أقول لك إنها من حديث البخارى ومسلم؛ فعن جرير بن عبدالله قال «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون[1] فى رؤيته فان استطعتم ألاتغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ «وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » اه .

إن هذا الحديث خير مفسر لهذه الآيات . يقول الله تعالى صلوا صلواتكم الخمس وصلوا تهجدا بالليل ذلك لأتجلى عليكم إذا وجهتم قلوبكم إلىّ فى نفس الصلوات وإياكم أن يشغلكم المال واللذات الفانية فإنما المال زهرة والعلم ثمرة ولا ثمرة إلا أن تشاهدونى فلا مال الدنيا ولا الجنة فى الآخرة بمقنعين ذوى العقول دون أن يرونى وكيف يرونى إلا باستحضارى فى قلوبهم . وكيف يستحضرونى فى قلوبهم إلا فى خلواتهم ولا خلوة أفضل من خلوة القلب فى الصلاة ولا تتم الصلاة وخلوة القلب فيها إلا باحتقار المال وعدم تمنى ما عند الناس وعدم الاحتفال بهذه المادة فإن كنت غنيا أو فقيرا فليكن المال عندك كزهرة والعلم كثمرة ومتى دمت على ذلك ومت فإنك ترانى وتشاهدنى أيها العبد مشاهدة حقة ولا تظن أن قيامك بأمر أمتك وعملك لهم يمنعك من ذلك فمن أحسن لعبادى فقد تقرب إلىّ بهذا الإحسان.

[الأمر الرابع]

قال تعالى (وأمر أهلك بالصلاة) وأمر أهل بيتك والتابعين لك من أمتك بالصلاة كما أمرت أن تصلى أنت (واصطبر عليها) وداوم عليها (لانسألك رزقا) لانسألك أن ترزق نفسك وأهلك (نحن نرزقك) وإياهم ففرغ قلبك لأمر الآخرة (والعاقبة) المحمودة (للتقوى) لذوى التقوى ، وكان عروة بن الزبير إذا رأى

---

(١) لا تضامون ، من الانضمام : وهو الازدحام فهو بتشديد الميم .

ماعند السلاطين قرأ « ولا تمدن عينيك » الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله . وكان بكر بن عبد الله المزنى إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا بهذا أمر الله ورسوله . وعن مالك بن دينار مثله وفى بعض الأسانيد « أنه كان عليه الصلاة والسلام إذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية » .

وإياك أن تظن أن هذا معناه أن نقعد عن الكسب بل معناه أن نسعى فى الكسب وقلوبنا مع الله كما أن العاشق المحب يسعى فى جمع كلة أهل العروس على حبه ويسعى فى جمع المال وكل ذلك لايمنع من الفرح والغرام بنفس العروس فهو يسهر ويكد ويحصل للاجتماع بها فيجمع المال ويلاطف أهلها ويتوسل بأصحاب أبيها وهى فى نفسه الشغل الشاغل بل كل أعماله موجهة إليها ، ناهيك ماترى أن المسلمين مأمورون أن يصلوا صلاة الخوف وهم متلبسون بالحرب فتكون المدافع والرشاشات منصبة عليهم وهم مجدون فى التكبير وذكر الله ، فاذا سمعت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى إذا أصابه ضر وهكذا ابن دينار وغيره فاعلم أن هؤلاء هم أنفسهم الذين فتحوا البلاد ودوّخوا الممالك وما كان ذلك وهم يصلون بل كانوا يحاربون ويصنعون الأسلحة ويشترونها ويفعلون من المؤامرات السرية والاستحكامات العسكرية ماأعجزوا به أهل زمانهم ، فالمعنى هنا أن يكون القلب بذكر الله معمورا وبالعمل فى الدنيا مجدا . ولو أنا تركنا القول بدون هذا التعليق لظنّ البعض أن ذلك كاف فى الحياة . وأمثال هذا القول والأخذ به وحده هو الذى أضاع على الأمة دينها ودنياها فيظنّ من لاعقول لهم أن الدين ليس فيه إلا هذا مع أن هذا أحد طرفى الدين والطرف الآخر أعمال الحياة من جهاد وصناعة الخ فتأمل . وبهذا تعرف معنى قوله تعالى «يضلّ به كثيرا» أى من أخذوا بأحد شقى الدين من القرآن «ويهدى به كثيرا» أى من أخذوا بجميع أطراف الدين فلا أعمال القلب تلهيهم عن أعمال الجوارح ولا أعمال الجوارح تلهيهم عن أعمال القلب . هذا هو الحق الصراح . فأما الكسالى منهم فهم الدين فهموا فى الدين غير هذا فطاوة وعطلوا أهله فأخذتنا أوروبا وأذاقتنا سوء العذاب الهون ومزّقتنا كل ممزق وسيلتئم الصدع وينضم الجمع ويتم الأمر ويرقى المسلمون وإلى مجدهم يرجعون وذلك فى أقرب الأوقات ، ولما كانت الآيات السابقة التى فيها الشروط الأربعة للسعادة فى الدنيا وتتبعها الأخرى قد جاء فيها الصبر على مايقولون وأنه أوّل الشروط أخذ هنا يبين مايقولون لتتأسى بالنبى صلى الله عليه وسلم ولتصبر كما صبر ولاتبالى بما يقول فان العاقبة للتقوى ، فقال (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) أى هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على صحة نبوّته (أو لم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى) الهمزة للاستفهام الإنكارى للتقرير ، يقول لهم يأيها الكافرون كيف تطلبون آية أو ماعرفتم ماجاء فى القرآن لاسيما ما فى هذه السورة من قصص الأولين ونبأ المرسلين كموسى وذلك ملخص ماجاء فى التوراة فى مواضع مختلفة وصحف متفرقة ، وكيف كانت هذه الزبدة ملخص علوم وآراء لو عمل بما فيها لكونت أمة ولأقامت شعبا كبيرا إذ جاء فيها أن العلم لايبنى إلا على الحقائق وأن معجزة موسى بعصاه ويده لم يؤمن بها إلا العلماء من السحرة . أما إيمان الجهلة من بنى إسرائيل فقد زلزله السامرى بعجله فكيف تطلبون منى آية على صدق نبوّتى تؤمنون بها زمنا ما ثم تنسج عليها عناكب النسيان إذا ظهر فيكم من يدعى نبوة أو ولاية وأتى بما هو من قبيل التخييل السحرى فانكم تتبعون ذلك وتتركونى وتكون كل آرائكم موجهة إلى من فصل ذلك ولو كان على دينى كما اتفق لبعض المسلمين الذين أظهروا غرائب فظنهم الناس أنهم اتصلوا بالعرش فهم مؤمنون بالنبى صلى الله عليه وسلم ولكن قلوبهم معلقة بأولئك الشيوخ لايسمعون إلا لقولهم ولا يريدون سواه وإن كانوا مؤمنين. فيقول الله هنا أما كفاكم ياأهل مكة ماقرأتم فى هذه السورة من أن ماتقترحونه من الآيات كإزاحة جبال مكة أو تفجير الأنهار أو غيرها لاقيمة له فى اتباع الأنبياء وإنما المدار على العلوم العقلية قال تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) أى من قبل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام (لقالوا ربنا لولا) هلا (أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل)

بنزول

بنزول العذاب (ونخزى) فى العقبى (قل كل) أى كل واحد منا ومنكم (متربص) منتظر للعاقبة (فتربصوا) أى فانتظروا أنتم (فستعلمون) يوم بدر أو يوم القيامة (من أصحاب الصراط السوى) المستقيم (ومن اهتدى) من الضلالة نحن أم أنتم . انتهى التفسير اللفظى للمقصد الثالث من سورة طه . وهنا [أربع لطائف] :

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى «وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا» إلى قوله «وقل رب زدنى علما» ﴾

اعلم أن الأحكام التى تشتمل عليها الشرائع ومنها القرآن ستة [الاعتقادات . العبادات . المشتهيات . المعاملات . الزاجرات . الآداب الخلقية] فالاعتقادات خمسة إثبات وجود البارى جل ثناؤه بصفاته . وإثبات الملائكة الذين هم السفراء بين الله وبين خلقه ، والكتاب والرسل والمعاد وقد انطوى على ذلك قوله تعالى «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» ، وأما العبادات فثمانية (الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والاعتكاف والقرابين والكفارات) . وأما المشتهيات فهى أربع (المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات) . وأما المعاملات فهى أربع (المعاوضات كالبيع والإجارة وما يجرى مجراهما والمخاصمات كالدعاوى والبينات ، والأمانات كالودائع والعوارى ، والتركات كالوصايا والمواريث) والمزاجر خمس (مزجرة عن فوات الأرواح حفظا للنفوس كالقصاص والدية ومزجرة لحفظ الأعراض كحدّ القذف والفسق ، ومزجرة لحفظ الأنساب كالجلد والرجم ، ومزجرة لحفظ الأموال كالقطع والصلب ، ومزجرة لحماية البيضة للمرتد وقتال البغاة) .

وأما الآداب الخلقية فثلاثة :

(١) ما يختص به الإنسان فى نفسه وإصلاح أخلاقه كالعلم والحلم والسخاء والعفة والشجاعة والوقار والتواضع

(٢) وما يختصّ به فى معاشرة ذويه ومختصيه كبرّ الوالدين وصلة الأرحام وحفظ الجار ورعاية الحقوق ومواساة أهل الفقر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف .

(٣) وما يختص به أولو الأمر من سياسة الرعية . انتهى من مقدمة التفسير للعلامة الشهير أبى القاسم الراغب الأصفهانى . وقال فى نفس هذه المقدمة أيضا مانصه :

إن الناس لن يتساووا فى معرفة القرآن ، وإنما ينالون منه بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم ، فالبلغاء تعرفه من فصاحته والفقهاء من أحكامه والمتكلمون من براهينه العقلية وأهل الآثار من قصصه مايجهله غير المختص به . وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته فى العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه وعلى ذلك أخبار النبى صلى الله عليه وسلم . فقد قال «نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها كما سمعها حتى يؤديها إلى من لم يسمعها فرب مبلغ أوعى من سامع» اه .

وهذا يوضح لنا معنى قوله تعالى «وقل رب زدنى علما» فالزيادة فى العلم تزيد الإنسان فهما فى القرآن وقراء هذا التفسير يعرفون هذا حق المعرفة لأن العلوم فى هذا الزمان قد برعت وأظهرت ما كان خافيا على الأمم المتقدمة . وهذا سر قوله تعالى « وقل رب زدنى علما » ، فعلى المسلم أن يزداد علما حتى يدرك مقاصد القرآن ومراميه .

وقال أيضا تحت عنوان [فصل فى انطواء القرآن على البراهين والأدلة] مانصه: قال عليه الصلاة والسلام «إن لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حرف حدّا ومطلعا» (لاعلى ماذهب إليه الباطنية) ومن هذا الوجه كل من كان حظه فى العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر ولذلك إذا ذكر الله تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها بإضافتها إلى أولى العقل ومرة إلى أولى العلم ومرة إلى السامعين ومرة إلى المفكرين ومرة إلى المتذكرين تنبيها على أنه بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها وذلك نحو قوله تعالى «إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» وغيرها من الآيات اه .

﴿اللطيفة الثانية: في قوله تعالى «وقل رب زدني علما» أيضا﴾

اعلم أن هذا العالم الذي نعيش فيه يخدم بعضه بعضا «إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا - ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها» ومن السجود لله أن يكون المخلوق نافعا لغيره شاء أم أبى، ويستنتج من صفات هذا العالم أن النفوس الإنسانية لاتنال سعادتها إلا إذا صفت سرائرها وكانت نسبتها إلى العالم كله واحدة بحيث يستوى عندها المحبوب والمكروه وتعمل الخير لأجل الخير لا لأجل منفعته وهذه المقدمة سقتها لأقول: قد خدم السمك الصغير في البحار السمك الكبير فأكله. فهذا قدم جسمه وهو كل مافى مقدرته وقدم السمك كبيره وصغيره أجسامه للانسان وقدمت الغزلان والبقر وغيرها من سائر الحيوانات الوحشية أجسامها قربانا للأسود والنمور وخلفت البقر أظلافها للغراء، وجلودها وهكذا جلود الغنم وغيرها لمنافع الناس، وهكذا الصناع في كل أمة من أمم الأرض إذا اخترعوا صناعة حديثة يخدمون نوع الإنسان كله إذا سار في سبيلهم شاءوا ذلك أم أبوا، فترى من اخترع البخار والكهرباء والبريد الذي له سلك والذي لا سلك له ومن اخترع قطار سكة الحديد ومن اخترع (الراديوم) والآلة الحاكية (الفونوغراف) كل هؤلاء قدّموا عملهم لنوع الإنسان كما قدم الحيوان لحمه وجلده له، ولعمرى إنه لافرق بين صانع أتقن صنعته فقلده سواه وهو لايقصد ذلك وبين (نمر) مات وترك جلده لنوع الإنسان كلاهما لاقصد له. إذن هما سيان. إذن لا خير في عمل يعمله الإنسان للنفع العام إلا إذا قصد ذلك. وهذا معنى الحديث «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى».

إذا عرفت هذا فانظر إلى النبوة. إن النبوة يقصد منها الهداية العامة وليست كصناعات الصناع أو نحوها بل هذه يراد بها قصد هداية الناس، فاذا رأينا الله عز وجل فطر العالم كله على مقتضى صفاته وهى إفاضة الخير فان كل موجود مستعد لافاضة الخير على غيره ولكن أكثر ذلك بلا قصد فالله هو العالم الحكيم وهذه المخلوقات لاتلحقه في ذلك الوصف. أما الأنبياء ومن اقتفوا آثارهم فهم يصنعون الخير قاصدين نفع الناس مقتدين بفعل ربهم في خلقه فهو مفيض للخير وهو عالم وحكيم. والأنبياء درجات فمنهم من أرسل لقومه ومنهم من أرسل للعموم فانك تسمع الله يقول «وإلى عاد أخاهم هودا - وإلى ثمود أخاهم صالحا» ويقول «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور» ويقول في النبي صلى الله عليه وسلم في نفس السورة قبل ذلك «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور». إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الناس والأنبياء كل رسول مرسل إلى قومه، وتسمع الله يقول «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» ههنا وصلنا إلى المقصود. رسول الله ليس كالأنبياء في الاختصاص بأمة والأنبياء ليسوا كأرباب الصناعات بحيث يتعدّاهم النفع لغيرهم وهم لايقصدون. إذن رسول الله أرسل للناس جميعا ليفهموا وهو يقصد ذلك. فماذا حصل. لما ظهر الإسلام ماجت الأرض واضطربت، لماذا اضطربت لأنه قال إنى أرسلت إلى جميع الناس وقال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله». فماذا حصل؟ فتحوا فارس والروم، وماذا حصل امتد الفتح إلى أقصى الشرق. فهناك حصل أمران عظيمان: وهما السيل الجارف الذي جاء من أوروبا بالحروب الصليبية ونظيره من الشرق حرب المغول والتتر وهم يأجوج ومأجوج المتقدم شرحهم شرحا وافيا في سورة (الكهف). هنالك تداخل العالم بعضه في بعض شرقا وغربا. وذلك كله تم في الألف الأول من التاريخ الإسلامى. أما الألف الثاني الذي نحن فيه فانه قد ظهرت فيه ثمرات ذلك التداخل بين الشرق والغرب واستنار الناس شرقا وغربا كل بقدره، تقدم في آخر سورة الكهف أن نوع الإنسان مضى له على الأرض (٣٠٠) ثلثمائة ألف سنة. وهذا وإن كان أمرا تقريبيا يمكن الاقتناص به، وقد جاء أن الرسل فوق ثلثمائة

رسول

رسول . هذه ثلثمائة ألف سنة أو أقل أو أكثر وهؤلاء الرسل الذين أرسلوا لهم لم يأذن الله لرسول منهم فى تلك الأيام أن يعلن صوته للعالم ويقول أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ولكن أعلنه آخر رسول ولما أعلن هذا الإعلان ماجت الأرض وهاجت وقرأ الغربى علوم الشرق وبالعكس ، فحصلت هذه المدنية التى نحن فيها الآن ولم يتم هذا إلا بالرسالة . إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة لأهل أوروبا والصين واليابان وأمريكا لأن هؤلاء جميعا لم تتم لهم هذه المدنية إلا بسبب انتشار الإسلام وتداخل الأمم ولولا هذا التداخل لم يتم شىء من هذه المدنية . والدليل على ذلك أنه لم يتم شىء من هذا فى التاريخ الذى بلغنا وربما كان فى أزمان نحن نجهلها الآن . إذن المدنية الحاضرة ثمرة الإسلام والإسلام جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أمره الله أن يدعو فقال له «وقل رب زدنى علما» وفرق بين قوله «رب زدنى علما» وقوله فيما تقدم «الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» فهناك ذكرت ليعرف الناس حقائق مافى السموات والأرض لأن الله جعل حمده منوطا بمعرفة مافى السموات والأرض والظلمات والنور أى أننا نحمد الله على هذه البدائع والعجائب . أما هنا فهو يأمره أن يقول «رب زدنى علما» فأتى بياء المتكلم : أى أن الزيادة نافعة لى مباشرة فلذلك طلبها وقال «رب زدنى علما» وإذا دعا محمد صلى الله عليه وسلم ربه بأن يزيده علما فأمته مأمورة كما أمرهو أن يزيد علما فاذا أمر بالدعاء بالزيادة فقد أمر بالزيادة تبعا وأمته تبع له ويتبع هذا أن يزيد العلم فى أمة الدعوة كلها لأنه صلى الله عليه وسلم جاء للرحمة العامة فكأنه دعا بزيادة العلم لجميع أهل الأرض لأن أمته مأمورة بازدياد العلم كما أمر هو وازدياد علمه هو سيتبعه الانتشار فى الأمم وقد حصل هذا كله فان الأمم الإسلامية أولا أثارت ثائرة الكتب اليونانية ثم لما نشرت علومها جاءت أوروبا فأخذتها وزادت عليها ، ثم جاءت الصين واليابان. كل هذا سر « زدنى علما » وإذا قال نبى «زدنى» فليس ذلك كقول آحاد الناس . إن الجاهل يقصد نفسه والعالم يقصد العموم والأنبياء أعم فهم كالشموس . فاذا قالت الشمس يارب زدنى نورا فليس لهذا معنى إلا أن تفيض النور على غيرها ولو بواسطة القمر فذلك من مقصودها . فاذا رأينا العلم انتقل إلى الشرق والغرب وازداد ثم ازداد فهذا من آثار « رب زدنى علما » ولأذكر لك فى هذا المقام (ثلاثة أمثلة) من ازدياد العلم فى العالم الذى نعيش فيه :

(١) مثال لما فى قاع البحر من العجائب فى العلم الحديث .

(٢) مثال لما فوق الأرض من بدائع علم الحياة .

(٣) مثال لما فى عالم الجو والسموات من غرائب الإبداع .

المثال الأول فى مسألة المطاط (الكاوتشوك)

إن المطاط أو (الكاوتشوك) تقدم الكلام عليه فى أول سورة يونس مرسوما موضحا منافعه وخواصه العامة . وقد قلت هناك إن الله جعله قليلا فى الأرض لينصب الناس فى تحصيله الخ وما كنت أعلم ماتم بعد ذلك . فانظر ماذا جرى ؟ رأت أمريكا وألمانيا أن البقاع التى فيها الكاوتشوك تحت سيطرة الإنجليز وقد عمت الحاجة إليه . فماذا يصنعون. أخذ أهل أمريكا يجدون عسى أن يظفروا بمادة تقوم مقام (المطاط) كما أمكنهم أن يستعيضوا عن الجلود بمادة أخرى، فوفق أحد علمائهم إلى مادة فى قاع البحيرة المالحة الكبرى فى أمريكا ورأى أنها تصلح بعد مزجها بقليل من المطاط البالى المنبوذ لتكوين مطاط كالمعتاد المستخرج من الشجر . وما هى تلك المادة ؟ هى نوع من (النفط الأسود) وجدت تحت قاع تلك البحيرة بعمق يختلف من ١٢٥ قدما إلى ١٤٠ قدما وهذا النفط أسود يشبه فى كثافته عسل القصب وفيه ٩٩ من المائة من زيت كبريت جامد نشأ من بقايا حيوانات قديمة مندثرة وبقى مخزونا بين طبقات من الطين فى منطقة تبلغ مساحتها ألفى فدان

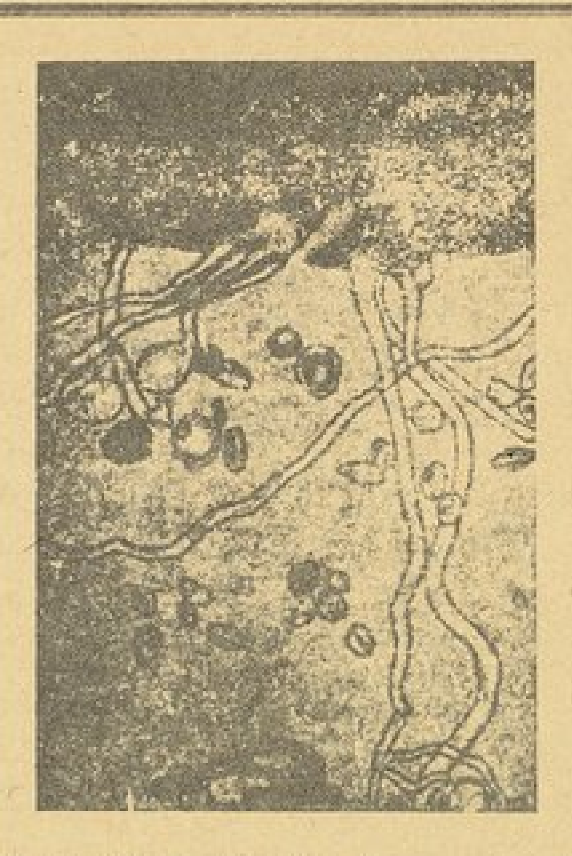
عند شاطىء البحيرة الشمالى . فهذا النفط ينقى ويمزج بالمطاط البالى وهو أفضل اقتصادا من المطاط الشجرى المتقدم وثمنه أقل من ربع ثمن المطاط المعتاد ويكفى لكل ستين جزءا من النفط المذكور أن يضاف ١٤ جزءا من المطاط المستعمل .

أما الألمان فانهم يقومون الآن بتجارب أخرى فى ألمانيا لصنع المطاط كله من مواد كيمائية ليسهل وجودها فى كل مكان ، وتقول الصحف الألمانية إنها مستبشرة بالنجاح اه .

فانظر لهذا الإنسان كيف خلق الله له المطاط وقلله ولكنه فى زماننا أكثر له العجلات والأدوات المتحركات التى تحتاج إلى المطاط فكأنه قال : أيها الناس ها أناذا خلقت لكم نموذجا وهو المطاط وقد قللته فى الأرض فزيدوا علما واختبروا المواد الأرضية «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» .

المثال الثانى مافوق الأرض من بدائع أسرار الحياة

تقدم فى سورة (الأنعام) عند قوله تعالى « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » وصف الذرات الصغيرة وهى طلع الأزهار وقد رسمت هناك أشكاله مكبرة باعتبار أن لكل نبات شكلا خاصا لهذه الحبيبات الصغيرة التى بها يكون إلقاح النبات . فهنا نذكر أمرا عجيبا . ذلك أن الناس فى عصرنا لم يوفقوا إلى معرفة الشىء الذى يبث الحياة فى الأحياء . وبعبارة أخرى لم يصلوا لسر الحياة ولم يقدروا أن يصوّروا نمو الحياة وحركتها فى الأحياء . ولكن الأستاذ (أرثر يلسبورى) يقول إنه وصل إلى تصوير (الجوهر الحيوى فى الزهر) ويقول إنه يشبه تفاعل الحياة فى الحيوان شبها مدهشا ، ومتى تم هذا الكشف واعتمده العلماء بعد التجربة نجعل الطبيب قادرا على معرفة ماتتعرض إليه الحياة الأولية فى كل جسم من العوامل التى تحدث ضررا فى بعض الأعضاء الحيوية وينشأ عنه مرض معين لأن المرض عامل طارىء على الجسم يعطل العمل الحيوى المستمر وتظهر أعراض هذا التعطيل فسمى مرضا معينا ووظيفة الطبيب أن يعرف مكان العلة ويعطى العلاج لإزالته . ومتى وقف الناس على ذلك عرفوا دواء الداء ونشطوا الأعضاء الخاملة ويصبح جسم الإنسان كأنه آلة ميكانيكية فى نظر المهندس . فالمهندس يعرف مواضع خلل الآلة فيصلحها . هكذا الطبيب فى الجسم ويصبح الطب علما يقينيا بعد أن كانت أعماله ظنية . فهذا الأستاذ أمكنه أن يصور ذرات اللقاح وهى متحركة ولم يسبقه أحد إلى تصوير ذرات لقاح نباتية حية . وذلك أنه كان فى جزائر (هاواى) فرأى (زنبقة العنكبوت) فكشف بين ذراتها اللقاحية وحدة حيوية حمراء اللون فأدرك أنه توصل إلى ما كان يريده وأنه رأى الشىء الذى يبث عملية الحياة فى النبات والشجر فجمع تلك الذرات التى لاتظهر للعين المجردة إلا إذا كانت متراكمة ووضع مااصطفاه منها فى نقطة من سائل خاص ووضعها على قطعة من الزجاج ووجه إليها منظاره الخاص فرأى تطور الذرات بعد بضع ساعات وفتق منها غشاؤها الخارجى وظهر من داخلها ماهو كالعرق يتلوى كالدود ، وبعد قليل انسلت منه تلك النطفة (وحدة الحياة) . وملخص هذا أن ذرة اللقاح ظهرت من داخلها مادة الحياة وذرة اللقاح المذكورة لا ترى فبالأولى ماخرج منها وهو سر الحياة ولم يمكنه أن يصور هذه المادة إلا بعد أن جعلها مائة ألف ضعف . وهذه صورة سر الحياة (شكل ١٠) .



(شكل ١٠ ـ رسم جراثيم حية فى نقطة سائل تمثل نطفات لقاحية
تمتزج برأس ورقة أخرى لتكوين الحياة)

﴿ المثال الثالث : السفر إلى القمر ﴾

لعلك سمعت هذا العنوان فاستهجنته كما استهجنته أنا . ولا جرم أن هذا معقول أنه ينبذ . فاذا كان الإنسان ليس عالما بأمر فهو ينكره ولكنى اطلعت فى بعض المجلات على مقال واف معقول فذكرته هنا لذكر المثال الثالث لقوله تعالى «وقل رب زدنى علما» فان علم النفط فى قاع البحر وعلم سر الحياة فى النبات والحيوان ازدياد للعلم مستمد من قوله تعالى « وقل رب زدنى علما » وهذان علمان فى البحر وفوق الأرض فلنذكر زيادة العلم فى الجو فنقول :

أذكرك بما تقدم فى سورة (الحجر) عند قوله تعالى « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » فقد ذكرت هناك المتوسمين من أمة الإسلام حين يرون أن القوم يريدون أن يستخدموا الفحم الذى فى القطب للأعمال الإنسانية وأن يجدوا فى تقريب المسافات وجميع الأعمال فارجع إليه هناك . فهناك يفكر بعضهم أن يستخدم سرعة دوران الأرض فى تقريب المسافات الخ . أما هنا فان القوم وصلوا إلى ما يأتى :

ذلك أن القوم فى (برلين) و (مونيخ) بألمانيا جربوا فى معامل (أوبل) الشهيرة طرازا جديدا من المركبات ، وذلك أنهم لا يديرونها بالمحركات المعروفة . كلا . بل يديرونها بجهاز من الأسهم النارية تقذف الغاز من أنابيب خاصة وتسير بقوة اندفاعه بسرعة عظيمة وقد جربت مركبة من هذا النوع فبلغت سرعتها فى ثمان ثوان مسافة عظيمة وقد تعاقدت معامل (أوبل) مع الطيار الألمانى (راب) المشهور ليركب طيارة صغيرة تجهز بالجهاز السهمى الجديد وترتفع عن الأرض بسرعة (٥٠) كيلو مترا ثم تبلغ سرعتها (٤٠٠) كيلو مترا فى الساعة وستنشأ طيارة أخرى بعد إتمام التجارب الأولى للسير بسرعة عشرة آلاف كيلو مترا فى الساعة وطيارة

كهذه تستطيع أن تقطع المسافة من الأرض إلى القمر فى أربعين ساعة فقط ، ولكن لا شك فى أن المسألة ليست مسألة اجتياز المسافة فقط بل مسألة الصعوبات الفنية العظيمة التى لابد لمحبى السفر إلى القمر من تذليلها قبل أن يجزموا على رؤية عالم غير هذا العالم . ويعود الفضل الأول فى البحث عن هذا الجهاز السهمى إلى الباحث الألمانى (ماكس فاليه) وقد كان أول من أنشأ الجهاز ثم أخرج فكرة ذلك الباحث الكبير إلى حيز العمل المهندس الألمانى (فردريك ستيدر)

على أن الذين يقومون الآن بهذه التجارب لا يفكرون فى السفر إلى القمر مباشرة حالما يصنعون طيارة ذات جهاز سهمى بل يريدون أن يعرفوا ما فى جو الأرض قبل أن يزوروا جو القمر وسيبدءون مباحثهم بالارتفاع إلى علو عظيم يبلغ عشرة آلاف مترحتى يستطيعوا أن يعرفوا مقدار ضغط الهواء عنده وطرق مقاومته . ولما كان ضغط الهواء ضعيفا جدا على ذلك العلو أملوا أن يستطيعوا إنشاء خط جوى بين أوروبا وأمريكا تطير به الطيارات ذهابا وإيابا على ذلك العلو فتجتاز المسافة بين القارتين بسرعة وسهولة عظيمتين بفضل الجهاز السهمى من جهة وضعف مقاومة الهواء من جهة أخرى .

وإذا جاء الجهاز السهمى بالنجاح المنتظر منه فان الاحتمالات التى تفتح أمام العلم وأمام حركة النقل فى العالم ستكون عظيمة جدا لأنه لابد من أن يحل هذا الجهاز فى المستقبل محل المحرك ذى الاحتراق الداخلى الذى تسير به الطيارات والسيارات والسفن الحديثة اليوم كما حل هذا المحرك محل المحرك البخارى الذى تقدمه . وهكذا يسير علم النقل من الجار إلى البخار فالزيت ثم الغاز . ومتى كشف الإنسان أسرار الكرة الهوائية المحيطة بالأرض فلا شك أن سيشرع فى استكشاف ماوراءها ويفكر عندئذ فى رحلة إلى القمر تبدأ أولا بحب الاستطلاع العلمى وتنتهى عند ظهور نتائج حسنة منها بالسعى إلى الحصول على الفوائد المادية . وستظهر النتائج الأولى لتجارب الجهاز السهمى فى هذا الصيف ويتلوها درس طبقات الهواء العليا على الأثر فإذا نجحت كلها فان فكرة السياحة إلى القمر التى حلم بها (جون فرن) لا تبقى حلما بل تصير حقيقة مشهودة ليطمئن علماء الإحصاء. وقالوا إن الأرض لن تضيق بسكانها بل قبل أن تمتلىء بهم وتعجز خيراتها عن إشباعهم سيكشفون أرضا أخرى فى الكواكب السيارة وينتقلون إليها لتخفيف الضغط على هذه الأرض المسكينة. قالوا وفى ذلك الحين تصدر إدارة البريد إعلانات تنبه بها على الناس أن يذكروا اسم الكوكب الذى يقيم فيه الشخص المرسل إليه الخطاب فلا يكتفون بكتابة لفظة (مصر) أو (ألمانيا) أو (انكلترا) للدلالة على المملكة التى يقيم فيها الشخص بل يضيفون إليها الأرض أوالقمر أو المريخ . انتهى .

أقول أنا لم أذكر هذه المسائل على أنها حقائق ولكن ذكرتها لأبين للمسلمين كيف أخذ العلم يزداد عند الأمم وكيف يفكرون فى تلك الزيادة . ذكرتها هنا لقول الله تعالى « وقل رب زدنى علما » فكأن هذه الدعوة ظهر أثرها فى أمة الدعوة . أما أمة الإجابة وهم نحن المسلمين فهم خلو من حب تلك الزيادة . فأما مسألة العروج إلى القمر وقولهم إنهم يسكنون هناك أوفى كواكب أخرى فهذه أمور خارجة عن الطور الإنسانى الحالى وتراهم يقولون إنها حلم (جون فرن) . وأنا أقول وأنا أيضا حلمت هذا الحلم وذلك أنى رأيت فى المنام أنى طلعت أرض القمر وصرت أقول فى نفسى حسن حسن أهل الأرض إذا أرادوا الاستعمار فها هوذا القمر يسعهم وكنت مشغولا بأمر الأشجار وزرعها فى مصر لأجل الطيور للتقدم ذكرها فى سورة يوسف فرأيت فى أرض القمر شجرا فقلت الحمد لله هنا شجر تعيش فيه الطيور النافعة للزراعة « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » وهذه خطرات للنفس . واعلم أن سكنى الكواكب لأهل الأرض غير معقولة لأن لكل كوكب جوا يخالف الآخر كأن لكل حيوان نموا يخالف الآخر كما تقدم فى هذه السورة وقد أشارت لذلك الأرواح فى استحضارها فليس من المعقول أن يعيش أهل الأرض بأجسامهم فى كوكب آخر والحمد لله رب العالمين .

بيان أن آية « وقل رب زدنى علما » ميزان الأمم ارتقاء وانحطاطا

وتبيان ما قاله العلامة ابن خلدون فى ذلك . وبيان مجالس العلم والأدب فى العصر العباسى على يد العباسيين فى بغداد وبنى بويه فى العراق وفارس وبنى سامان فى الدولة السامانية فى تركستان وهكذا الدولة الزيارية فى طبرستان والدولة الغزنوية بأفغانستان والهند والدولة الحمدانية فى حلب والموصل والمروانية بالأندلس والفاطمية بمصر وأن هذه الدول رفعت شأن العلماء فبقيت ولما زال احترام العلم والعلماء انحطت الأمم الإسلامية وبيان انحياز العلم إلى بلاد أوروبا ونصر الملوك هناك العلماء من أى أمة كانوا . وتبيان أن عالما كمثل (باستور) الآتى ذكره بفرنسا يبنى لأمته مجدا وسعة فى الرزق لاحدّ لأمده ، فهكذا يجب أن يكون ذلك فى مستقبل الاسلام امتثالا لقوله تعالى « وقل رب زدنى علما » .

(١) هذا بيان ماقاله العلامة ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان [فصل فى أن علامات الملك التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس] ذكر هنا أن خلال الخير أغلب على الإنسان من خلال الشر ، وأقول إن هذا حق لأن عالم المادة كله غلب خيره على شره ولولا ذلك لم يبق فى الوجود . ثم قال (إن العصبية لها غاية وما غايتها إلا الملك) ثم قال (إن وجود العصبية من غير خلال حميدة نقص فكيف يكون حال الملك إذا كان بلا خلال حميدة . إذن الخلال الحميدة لابد منها للملك وحفظه) ثم قال (فاذا وجدنا أن الذين يتغلبون على كثير من النواحى والأمم يتنافسون فى الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزلات والاحتمال من غير القادر والقرى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الأموال فى صون الأعراض وتعظيم الشريعة وإجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند مايحددونه لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الأكابر وتوقيرهم وإجلالهم والانقياد إلى الحق مع الداعى إليه وإنصاف المستضعفين من أنفسهم والتبذل فى أحوالهم والانقياد للحق والتواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى أسبابها والتجافى عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك . قال فإذا علمنا ذلك فى المتغلبين علمنا أن هذه أخلاق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم ، أو على العموم وإنه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسب لعصبيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثا منهم والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالملك وساقه إليهم وبالعكس من ذلك إذ تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ولا تزال فى انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعيا عليهم فى سلب ما كان الله قد أتاهم من الملك وجعل فى أيديهم من الخير « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . ثم قال (واستقر ذلك وتتبعه فى الأمم السابقة تجد كثيرا مما قلناه ورسمناه) ثم قال (واعلم أن من خلال الكمال التى يتنافس فيها القبائل العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم سواء أكان هؤلاء من أهل العصبيات أم كانوا ضعافا . ولهذا يكون أول مايذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله بسلب ملكهم إكرام هذا الصنف من الخلق . فإذا رأيته قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت فى الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له » والله أعلم) انتهى بالحرف من ابن خلدون مع قليل من الاختصار وإنما ذكرت هذه المقالة مع طولها لأنها هى القاعدة التى سأبنى عليها ما سأذكره من أن حب العلم والعلماء وإكرامهم هو محور الرقى : وبضدها تتميز الأشياء .

فهاك العصر العباسي الذي ابتدأ سنة ١٣٢ هجرية وانتهى سنة ٦٥٦ هجرية أي من سقوط الدولة الأموية إلى سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ وقد جعلها المؤرخون المعاصرون لنا أربعة أدوار : الأول ؛ إلى سنة ٢٣٢ والثاني من ابتداء خلافة المتوكل إلى استقرار الدولة البويهية في بغداد سنة ٣٣٤ . والثالث ينتهي بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ . والرابع إلى سقوطها في يد هولاكو والتتار كما تقدم.

لقد كان الرشيد والمأمون وقبلهما المنصور والهادي والمهدي كل هؤلاء كانوا يكرمون العلماء ويحرصون على نشر العلم وهذا أمر مشتهر . فلنذكر ما كان من أمر العلم وإكرام العلماء بعدهم أيام هارون بن محمد بن هارون الواثق ويكنى بأبي جعفر قد بويع بالخلافة سنة ٢٢٧ قال المسعودي كان الواثق محبا للنظر مكرما لأهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين . وهنا ذكر هيئة المجلس الذي كان يتذاكر فيه الطب مع العلماء مثل (ابن ماسويه) و (ابن بختيشوع) و (حنين ابن إسحاق) إذ أخذوا يتباحثون معا بمشاركة الخليفة لهم في الطريق الذي يدرك به الطب هل هو التجربة فقط كأن يرى الناس الرعاف والإسهال والقيء ونتائجها . وكأن يرى الإنسان في المنام أنه عالج مريضا بدواء ففعل ذلك فشفى . أو يخطر بباله ذلك في اليقظة فيفعله فيشفى . وهكذا ذكروا أن جمهور الأطباء يجرون على القياس والقياس مقدمات أولية مثل معرفة طبائع الأعضاء والأبدان والأهوية والأعمال والصناعات والعادات والأطعمة والأشربة، ثم بحثوا في الأسنان وأقسامها وأنها ٣٢ سنا . وهكذا ذكر (حنين) أن خمسة تغير الهواء وهي أوقات السنة وطلوع الكواكب وغروبها والرياح والبلدان والبحار ، وأن أحوال البلدان أربعة : ارتفاع وانخفاض ومجاورة الجبال والبحار وطبيعة تربة الأرض . ثم قال : إن ارتفاع البلدان يجعلها أبرد وانخفاضها يجعلها أسخن . فأما مجاورة الجبل ، فإن كان الجبل جنوبيه كان البلد أزيد برودة وإن كان الجبل في الشمال كان البلد أسخن . ثم قال وإذا كان البحر من البلد من ناحية الجنوب فإن ذلك يسخن ويرطب وإن كان في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد . ثم قال: وإذا كانت البلدان أرضها حضرية كان ذلك البلد أبرد وأخف ، وإن كانت طينا جعلته أبرد وأرطب . وإذا جاورت البلاد نقائع ماء أو جيفا أو بقولا عفنة وغير ذلك مما يتعفن تغير هواؤها . انتهى ما اخترته منه .

هذه سيرة الواثق وكان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته . فلما توفى الواثق وخلفه أخوه جعفر المتوكل انحرف بعض الانحراف على العلماء؛ فقد قتل ابن السكيت وغضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه إلى البحرين وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من علية الكتاب وأخذ منه مالا وجواهر وأمر أن يصنع به ذلك في كل يوم . ولما قتل المتوكل اضطربت الأحوال واستفحل شأن الأتراك ونفرت قلوب طلبة العلم وأكثرهم من الفرس والعرب فتفرقوا من بغداد رويدا رويدا إلى فروع المملكة العباسية .

أفلا ترى عقاب الله للدولة . أفلا تراه أنزل العقاب صارما على الأمة على ما فعله المتوكل . قتل بعض العلماء ونفى بعضا وصفع بعضا فقتل هو أولا ثم اختلت المملكة وقويت شوكة العامة على الملوك وهاجر العلم من بغداد، فالمتوكل وأمثاله لم يقولوا «رب زدني علما» كما أمروا بل قالوا رب زدني جهلا . وهكذا كقوله تعالى في سورة (سبأ) «قالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم» . إن أهل سبأ لم يطلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم بل كان فعلهم من التخريب والسلب والنهب أوجب ذلك فخربت البلاد وطالت مسافات السفر في القفر بعد اتساع نطاق العمارة . هكذا هنا لم يقل المتوكل رب زدني جهلا ، وإنما جرى على أسلوب لا يوافق ازدياد العلم كما أمر في الآية فتمت كلمة العذاب فهنا مصداق ما قاله ابن خلدون فيما ذكرناه وأن احترام العلماء علامة الرفعة والعكس بالعكس .

الدول التى تفرعت من الدولة العباسية ورغبتها فى العلم			
اسم الدولة	مقرها	مدة حكمها	جنس مؤسسها
الروانية	الأندلس	من سنة ١٣٨ – ٤٢٢	عربى
السامانية	وراء النهر	من سنة ٢٦١ – ٣٨٩	فارسى
الزيارية	جرجان	من سنة ٣١٦ – ٤٣٤	فارسى
الحمدانية	بين النهرين وحلب	من سنة ٣١٧ – ٣٩٤	عربى
البويهية	العراق وفارس وغيرها	من سنة ٣٢٠ – ٤٧٤	فارسى
الغزنوية	أفغانستان والهند	من سنة ٣٥١ – ٥٨٢	تركى
الفاطمية	مصر	من سنة ٣٥٧ – ٥٦٧	عربى

عزّ العلم فى ظل الدولة البويهية

أنصارهذه الدولة الديلم من الجيلان وراء خراسان وآل بويه يرتفعون فى نسبهم إلى ملوك الفرس القدماء وجدّ آل بويه اسمه (بويه) ولقبه أبو شجاع، له ثلاثة أبناء هم علىّ ولقبه عماد الدولة وحسن ولقبه ركن الدولة وأحمد ولقبه معزّ الدولة . كان آل بويه هؤلاء يحبون العلم والأدب وكان وزراؤهم من العلماء والشعراء والكتاب كابن العميد والصاحب بن عباد وسابور بن أزدشير المهلبى بل نفس ملوك آل بويه اشتهر بعضهم فى العلم والأدب مثل عضد الدولة ، وقد قرب إليه العلماء واستحثهم على تأليف الكتب ؛ فألف له أبو إسحاق الصابى كتابا فى أخبار (آل بويه) وألف له أبو على الفارسى كتاب [الإيضاح والتكملة] فى النحو وقصده المتنبى والسلامى وغيرهما . ومن شغفه بالشعر تمنى أن يكون هو الصواب بدل ابن بقية الوزير لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الأنبارى التى مطلعها :

. علوّ فى الحياة وفى الممات لعمرك تلك إحدى المعجزات

وقد كانت عظمة دولتهم كلها ترجع لنصرهم العلم وشدة رغبتهم فيه . فانظر كيف كان ركن الدولة (ابن بويه) فى الرى وهمذان وأصبهان مستوزرا ابن العميد الكاتب المشهور . وهكذا بهاء الدولة بن عضد الدولة فى العراق والأهواز استوزر سابور بن أزدشير فأنشأ هذا الوزير فى كرخ بغداد خزانة كتب وقفها على إفادة الناس ؛ قال ياقوت لم يكن فى الدنيا أحسن كتب منها كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة . وقد كان الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بن ركن الدولة ثم وزر لفخر الدولة أخيه وكان له عشرات من أهل العلم والأدب يقيمون عنده وعشرات يفدون عليه .

الدولة السامانية فى تركستان

رأس هذه الدولة سامان من أشراف بلخ وأعقابه أنشئوا دولة عظيمة فى خراسان وتركستان وزهت فى أيامهم بخارى فكانت مجمع الأدباء والعلماء والشعراء واشتهرت نيسابور وقد أنشئت فيها أقدم المدارس الإسلامية وملوك هذه الدولة عشرة واشتهر كثير منهم بالعلم والأدب ، ومنهم منصور بن نوح الذى استوزر البلعمى العالم الفارسى فترجم له تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية وخلف ابنه نوح وهو الذى اقترح نظم الشاهنامة (البادة الفرس) فى الفارسية اقترح ذلك على شاعره الدقيق فنظم له بعضها . ولما قتل أتمها الفردوسى بعده باشارة السلطان محمود الغزنوى . ولما سمع نوح بشهرة الصاحب بن عباد وزير البويهيين كتب إليه سرا يستدعيه إلى بخارى ليفوض إليه وزارته وتدبير مملكته فاعتذر الصاحب بأن كتبه تحتاج فى نقلها إلى ٤٠٠ جمل

والكتب التي جمعها نوح هي التي ذكرها ابن سينا في تاريخه أنه استفاد منها في صباه وأن منها كتبا نادرة الوجود .

الدولة الزيارية في طبرستان

أول ملوكها مردويج بن زيار ، وأشهرهم بحب العلم ونشره شمس المعالي قابوس بن وشمكير سنة ٣٦٦ - ٤٠٣ هـ كان كاتبا عنده معرفة بالفلسفة والنجوم والنجامة . وقد ألف رسالة في الإسطرلاب وكان يراسل الصاحب بن عباد وهو القائل الأبيات الآتية :

قل للذي بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر
وفي السماء نجوم مالها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

الدولة الغزنوية بأفغانستان والهند

مقرها غزنة وأعظم ملوكها السلطان محمود سنة ٣٨٨ - ٤٢١ صاحب الفتوح العظيمة في الهند وناشر الإسلام فيها وكان يلقب بيمين الدولة . فتح بخارى وخلف الدولة السامانية فيها وغلب على الزياريين وحكم أفغانستان وتركستان وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير وشمال الهند . والذي يهمنا أن مجلسه كان حافلا بالعلماء والشعراء وتلك كانت عادة ملوك عصره . وقد اقترح على الفردوسي إتمام الشاهنامة فأتمها كما تقدم .

مسامرة

كان محمود هذا لايسمع بعالم أو شاعر إلا استقدمه إليه فعلم أن في مجلس مأمون بن مأمون أمير خوارزم جماعة من رجال العلم والفلاسفة ، وفي جملتهم ابن سينا الطبيب والبيروني الرياضي المؤرخ وأبو سهل المسيحي الفيلسوف وأبو الحسن الخمار الطبيب وأبو نصر العراق الرياضي وغيرهم فتاقت نفسه إلى إحرازهم في مجلسه فكتب إلى مأمون كتابا أرسله مع بعض خاصته خلاصته مايأتي : علمت أن في مجلسك جماعة من العلماء المبرزين مثل فلان وفلان فأرسلهم إليّ ليتشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم فلم يكن للأمير مناص من إجابة الطلب لكنه كان حريصا عليهم فتلا عليهم الكتاب وقال لهم إنه لايقوى على رد طلبه فقبل البيروني والخمار (بتشديد الميم) والعرّاق بالذهاب وفر ابن سينا والمسيحي . إن إكرام العلماء كان في نظر أهل ذلك العصر من أسباب الأبهة وأدلة الحضارة ، فهذا وأمثاله من الأمم الفارسية أكرموا العلماء وعظموا العلم وتنافسوا فيه لأن لهم سابقة في ذلك وهم الأكاسرة ملوك الفرس أولئك الذين شادوا للعلم منارا ورفعوا له قدرا . وهؤلاء الملوك على آثارهم يهرعون وبهم يقتدون وعليهم يقومون وبسيرهم يهتدون ، فهل يعلم ذلك أمراء العرب بالجزيرة اليوم ولآبائهم دولة كانت شامخة الذرى رفيعة القدر . فهل يشرّفون آباءهم باحتذائهم حذوهم كما فعل أولئك الفارسيون .

إن هؤلاء الملوك الفارسيين سواء أكانوا من الزياريين أو البويهيين أو السامانيين قد نزعوا في إكرام العلماء إلى مانزع إليه كسرى ، إذ أرسل إليه برزويه الطبيب الفارسي إلى بلاد الهند ليترجم كتاب (كليلة ودمنة) فتوجه الطبيب المذكور خفية إلى الهند وترجم الكتاب ورجع وقرأه على الملك ووجوه القوم فأكرم مثواه وأنزله المنزلة السامية وخلع عليه ، وقال له خذ ماتشاء من المال فقال : كلا ثم كلا ، ولكني أريد أن يكتب وزيرك تاريخ حياتي في مقدمة الكتاب تشريفا لي ففعل وكتب تاريخ حياته وأنه كان من أبوين شريفين وأنه طلب العلم لله والدار الآخرة لا للجاه ولا للمال وأنه كان يأخذ على التطبيب أجرا عظيما من الأغنياء ويصرفه على الفقراء المرضى ويواسيهم من جيبه الخاص وأنه كان يعتقد أن من طلب العلم لأجل العلم وقد ذل الدنيا

مع العلم ومن تعلم العلم للدنيا فقط لم ينل حظ الآخرة . فطالب العلم إما أن يكون عمله كالحنطة أو كالـكلأ ؛ فزرع الحنطة ينفع للانسان والحيوان ، وزرع الـكلأ لايفيد إلا البهائم . فمن طلب الأعلى نال معه الأدنى ومن طلب الأدنى لم ينل الأعلى اهـ .

حب الدولة الحمدانية فى حلب والموصل للعلم

هؤلاء من قبيلة تغلب وهذه الدولة حكم منها أربعة أمراء، فى الموصل وخمسة فى حلب حتى خرجت الموصل منهم إلى البويهيين سنة ٣٨٠ واستولى الفاطميون على حلب سنة ٣٩٤ وكان سيف الدولة أبوالحسن على صاحب حلب ممدوح المتنبى ونفس سيف الدولة كان شاعرا نقادا للشعر محبا للعلم مقربا للعلماء .

الدولة الروانية بالأندلس

إن الناصر وابنه الحكم كانا محبين للعلم وهذا تقدم فى هذا التفسير وأمرهما مشهور وكان الفقهاء والأدباء يحضرون مجالسهما . وكان الناصر مولعا باقتناء الـكتب فجمع منها مالم يجمعه أحد قبله ، وأنشأ فى قرطبة مكتبة جمع إليها الـكتب من أنحاء العالم كان يبث فى شرائها رجالا من التجار ومعهم الأموال ويحرضهم على البذل فى سبيلها لينافس بنى العباس فى اقتناء الـكتب وتقريب الـكتاب . وكان أبو الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى معاصرا له وهو أموى فبذل ألف دينار ذهب على أن يرسل إليه كتاب [الأغانى] قبل إخراجه إلى بنى العباس . وفعل نحو ذلك مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وغيره، وكانت فهارس الدواوين وحدها (٤٤) فهرسا فى كل فهرس عشرون ورقة . قال بعضهم فاذا قدرنا للصفحة (٢٥) اسما فقط كان مجموع عدد الدواوين (٤٤٠٠٠) كتاب فكيف بسائر الـكتب . ويقول ابن خلدون إن مجموع ماحوته تلك المكتبة (٤٠٠ر٠٠٠) ونبغ من ملوك الطوائف بعدهم جماعة مثل إسماعيل بن ذى النون المتوفى سنة ٤٣٥ هـ .

الدولة الفاطمية بمصر

استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٧هـ وقد نبغ فى تنشيط العلم منهم اثنان العزيز بالله سنة ٣٦٥ – ٣٨٦ والحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ – ٤١١ فأنشأ خزائن الـكتب فيها مئات الآلاف من المجلدات فى العلوم فى مكتبته التى كانت تسمى (دار الحكمة) أو(دارالعلم) وقد أباح فيها المناظرة للمترددين إليها وسهل لهم المطالعة والنسخ وهى التى قلدها أستاذنا المرحوم على مبارك باشا فقال لإسماعيل باشا [إن مصر كانت فيها دارالعلم يحضر إليها رجال يتناظرون فى أنواع العلم فأذن لى أن أحضر طلابا من الأزهر نسميهم طلبة (دار العلوم)] فأذن له فدار العلوم هى المكتبة الخديوية بدرب الجماميز إذ ذاك . ثم استأذن فى أن ينشئ مدرسة يسميها (مدرسة دار العلوم) المعروفة الآن بمصر وهى المدرسة التى تعلمنا فيها ولولاها لم نكن نعرف شيئا من العلوم ، والفضل فى ذلك للقدوة الحسنة بالحاكم بأمر الله فجعل أستاذنا المكتبة الخديوية كأنها دار الحكمة وتحيل فى أن يجعل لها مدرسة وقد مضى لها ٥١ سنة الآن وحسن التحيل من وزير المعارف أستاذنا المتقدم . وهكذا صارت هذه المدرسة نبراسا لمصر ولغيرها من البلدان فى هذا القرن العشرين . وهكذا أنشأ الحاكم (المرصد الحاكمى) وبناه على جبل المقطم وبقى عمدة الراصدين حتى بنى نصير الدين الطوسى مرصده فى مراغة بتركستان سنة ٦٥٧ هجرية

تذكرة فى أحمد بن طولون ونصره للعلم

لقد كان أحمد بن طولون يفعل ما فعله أولئك الأمراء، فقد كان له مجلس عام يحضره العلماء من كل حدب وصوب . وأذكر أنى قرأت للمسعودى المؤرخ أنه يوما قال هل بقى من العلماء أحد فى مصر لم أره فقالوا

له هناك فى أقصى الصعيد عالم قبطى تبلغ سنه ١٣٦ سنة يسكن فى منزل على شاطئ النيل فأمر بإحضاره مكرما معظما ، فلما حل بساحة الأمير بمصر ووضعت أمامه المائدة الملكية أخرج ما كل من حقيبته وقال دعونى آكل مما اعتدت عليه فان هذه البنية إذا غيرت طعامها اختلت واعتلت وأسرعت للزوال فبقاؤها خير لكم لتنتفعوا بها ، فلما بلغ الأمير ذلك أذن فيه وأباح له ذلك . ولقد أدهش علماء المسلمين والنصارى واليهود حين تباحثوا معه . وقد سألوه عن الهرم وبنائه وعن الكتابة التى عليه وعن بعض جزائر البحر الأبيض المتوسط وعن بعض البحيرات القريبة من البحر الأبيض المذكور فكان يجيبهم أجوبة ظهر صدقها فى الكشف الحديث وأذهل القوم علمه وحكمته ، فسأله المسلمون كيف اتبعت دين المسيح وأنت حكيم فيلسوف وهذا الدين مضطرب فقال هذا الدين حق لأنه مخالف للعقل . ذلك أنهم يقولون إن الإله رأى ابنه يضرب ويصفع ويحقر ويصلب ويجعل أضحوكة ويذل وهو يستغيث وإكليل الشوك والقتاد فوق رأسه وأبوه القادر على كل شئ لا يرد عليه ولا يغيثه ولا يرحمه. فمن هذه الوجهة عقول بنى آدم لاتصدق هذا الدين . ولكنى وجدت أناسا من القديسين قد اهتدوا بهذا الدين وصاروا صلحاء فاتبعته واهتديت بهديهم . إذن هذا الدين فوق العقل . فلما سمع المسلمون والنصارى ذلك رضى الطرفان بقوله. وخاطبه يهودى فى المجلس كالمعترض عليه فقال له أيهودى أنت؟ فقال نعم قال أيها الأمير إنه مجوسى فغضب اليهودى فقال أيها الأمير سله أليس فى التوراة أن الإنسان يتزوج ابنة أخيه فقال بلى ، قال أوليس الإنسان إذا مات أخوه وجب عليه أن يتزوج زوجته قال بلى ، قال له إذا يتزوج بنته أفليس هذا دين المجوس بعينه ، فدهش الحاضرون من قوله وزاد الرجل احتراما وإعظاما وإجلالا . انتهى .

ولأختم هذا المقام بذكر موفق الدين عبد اللطيف البغدادى الذى ذكر فى تاريخ حياته وكيف قرأ كل علم وكل حكمة من أدب وفلسفة ، وبالجملة لم يدع فنا إلا عرفه . فمثلا يقول حفظت اللمع فى ثمانية أشهر وتقويم اللسان فى ١٤ يوما . وهكذا قال وحفظت كتاب النجاة وكتبت الشفاء وبحثت وهكذا . ولما كان المقام مقام البحث فى تعاون الأمراء على العلم وتنافسهم فيه وحبهم للعلماء ضربت الذكر صفحا عن تاريخ حياته كله فلأحص الكلام بما كان من أمره مع صلاح الدين الأيوبى . قال ثم إنى توجهت إلى زيارة بيت المقدس ثم إلى صلاح الدين بظاهر عكة فاجتمعت ببهاء الدين بن شداد قاضى العسكر يومئذ ثم جمعه على عماد الدين الكاتب . قال وذاكرنى فى مسائل من علم الكلام ثم قاموا إلى القاضى الفاضل قال فرأيته يكتب ويملى على اثنين ، قال وسألنى القاضى الفاضل عن قوله تعالى « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها » الخ أين جواب إذا وأين جواب لو فى قوله تعالى « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال » الخ وعن مسائل كثيرة ومع ذلك لم ينقطع عن الكتابة والإملاء فأرسله إلى مصر وأوصى عليه بها وعاش بها أمدا طويلا ودرس فى الجامع الأزهر ثم توجه إلى القدس ثم إلى دمشق سنة ٦٠٤ وإلى هنا انتهى ما أردت من ذكر تعاون أمراء الإسلام وملوكهم على نشر العلم وحب العلماء وأن ذلك كما قال ابن خلدون هو رأس الأمر وملاكه .

لحب العلم وتعظيم العلماء إذا حل بأمة فتح لها باب الفضائل وسائر أخلاق الكمال وذلك إيذان من الله بأنهم يملكون زمام السياسة . وإذا أدبر عن الأمة هذا الحب أى حب العلم نفرت منهم سائر الفضائل ويتبعها ذهاب الدولة . فهذا القدر من التاريخ يثبت لك بيانا لقوله تعالى هنا « وقل رب زدنى علما » ولم يبين نوع العلم بل جعله عاما كقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » . وإنى لأعجب من هذه الآية وأقول إن الله لو أرسل رسولا وأيده بالمعجزات فصدقه الناس ولم ينزل عليه سوى قوله « وقل رب زدنى علما » لكفت فى إظهار أمم وأجيال وملوك وحكماء وعلماء وإن لم ينزل غير هذه الآية . ولقد عجبت لأمم الإسلام المتأخرة كيف ضلوا وجهلوا « ولله عاقبة الأمور » . هذه هى الصورة الواضحة الظاهرة الباهرة الجلية من تعاون أمراء الإسلام على العلم وعلى احترام العلماء وحبهم ، وكيف رأينا المجد يصاحب العلم . فلما أن نسوا

« وقل رب زدنى علما » انحطت الأمم الإسلامية . وأذكرك بما جاء فى سورة (الأنعام) عند قوله تعالى « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا »

انحطاط التعاليم فى بلاد الإسلام

لقد استبان هذا المقام فى سورة (الأنعام) وذكرت لك ما فعلوه فى القرن السادس إذ أحرق ابن المارستانية كتب الركن عبد السلام الجيلى بموضع يقال له (الرحبة) ببغداد وهذا الإحراق بمشهد من الناس فاقرأه مفصلا فى سورة الأنعام وذلك سنة ٥٨٩ فانظر كيف أحرق المسلمون فى هذا التاريخ ما جمعوه من العلوم فى العصور الأولى واعجب من صنع الله عز وجل كيف رأيت المتوكل العباسى شرد العلماء من بغداد وقتل ابن السكيت فمات هو مقتولا وانتقل الملك من جذع الدولة إلى أطرافها وتولاه أمراء من الفرس والترك والعرب غير العباسيين « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فقد تغيرت عقول المسلمين فى القرن السادس وقالوا ربنا لا تزدنا علما بل قالوا : كلا أنقص علومنا . فماذا فعل الله ؟ لم يمض أقل من قرن حتى دخل هولاكو بغداد . لماذا ؟ لأن المسلم إذا كان غبيا جاهلا يذله الله ولا يرضى للمسلم أن يكون غبيا لأن نبيه صلى الله عليه وسلم أمر أن يقول «رب زدنى علما» . أى وهو يزداد علما ، فإذا أخذ علمه فى النقص أذله الله . ولقد كان على بن على الملقب بالسيف الآمدى مبرزا فى علوم الأوائل . فلما دخل بغداد جفاه الفقهاء ووقعوا فى عقيدته ففر إلى مصر سنة ٥٩٢ وظهر وعلم ثم حسده الفقهاء بها أيضاً ففرّ منها أيضا هاربا .

وهكذا قد أحرق القوم كتب الغزالى بالأندلس وفى المغرب الأقصى . فلما كره المسلمون العلم سلط الله عليهم الحروب الصليبية وهجم المغول والتتار فاكتسحوا ما بالمكاتب من الكتب لاسيما ما كان منها فى بخارى وسمرقند وما كان منها بحلب لما دخلوها سنة ٦٥٨ فقد مزقوا الكتب وأحرقوا ألوفا لا تحصى .

وهكذا تذكر أيها الذكى ما تقدم فى سورة (إبراهيم) من اضطهاد ابن رشد فى الأندلس وكيف كان حاجب هشام بن الحكم يضطهد العلماء ويحرق الكتب . وكيف كانت دولة الموحدين ، فقد نصر العلم أولا عبد المؤمن ولكن يعقوب المنصور نفى ابن رشد وأمر بحرق الكتب فهى كالتى قبلها نصر للعلم أوّلا واضطهاد آخرا . هناك تقرأ المنشور الذى نشر لتنفير الناس من الفلسفة والعلوم والحكمة . انتهى .

التجاء العلم إلى أوروبا ورجوعه إلينا ثانيا

انتقل العلم إلى أوروبا وتنافس ملوكها فى عصرنا على حب العلماء كما كان ذلك فى الدول الإسلامية المفرعة من الدولة العباسية سواء بسواء (وبعبارة أخرى) إن العلم لما حماه المسلمون بقى عندهم وأعز دولهم ولما أهانوه وأهانوا حامليه وحرقوا كتبه التجأ إلى الأمم المسيحية وقرت عينه هناك بهم . وها هو ذا يمد يده إلينا . وها أنا ذا وآلاف مثلى فى المسلمين يمدون أيديهم له ليرجعوه إلى نصابه فى بلاد الإسلام ومقره الأول تلبية لقوله تعالى « وقل رب زدنى علما » .

إذا قلت هرب العلم من بلاد الاسلام وقلت إنه آوى إلى الأمم المسيحية فليس معنى هذا أنهم لم يحاربوه كلا . بل كان حربهم لهم أشد فتكا وأعظم وقعا وأكثر صرعى . اقرأه فيما تقدم فى سورة التوبة عند قوله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم » الخ فأنا لا أعيد ما ذكرته هناك ، فقد قدر المؤرخون عدد الذين قتلوا بأوامر من ديوان التفتيش الذى أسس فى سنة ١١٨٤ فى مجمع فيرونا وصادق عليه البابا (اينوشنسيوس الثالث) سنة ١٢٠٤ وثبته نهائيا البابا (غريغوريوس التاسع) برامة خصوصية . أقول قدرهم المؤرخون بالملايين ولست أعيد ما ذكرته هناك بالتفصيل فارجع إليه . فهذه الملايين المقتولون بأمر البابوات لم يقتل مثلهم ولا جزء من آلاف من عددهم عند المسلمين ولكن العجب أن العلم

هرب من بلاد الإسلام مع قلة ضحاياه ولكنه وطدت أركانه وثبت بنيانه واشتد ساعده ونصر على أعدائه فى أوروبا للمسيحية مع كثرة ضحاياه وقتلاه . وفى المعنى : ❊ ومن طلب الحسناء لم يغلها مهر ❊

وقال المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم

إن السعادة على مقدار التعب . تغلب العلم فى تلك الأصقاع الباردة على أعدائه بعد أن جندل من أصدقائه آلاف الآلاف . أتدرى ماذا حصل . عم أقطار أوروبا ثم حل بساحات أمريكا واليابان والصين وها هو ذا يحاول فتح عقول أمم الإسلام فدخل إيران وبلاد الترك وقد دخل ظاهرا بلاد مصر ويحاول الرجوع إلى بلاد العرب . أتدرى أيها الذكى لماذا صبر العلم هذا الصبر فنجح ذلك بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الكلام على الشمس والأرض والأمم الإسلامية عليها والعلم والنبى صلى الله عليه وسلم

الشمس أشبه برتقالة بالنسبة لعوالم الكواكب التى عظم عددها جدا . فإذا قدرنا شمسنا برتقالة فلنقدر سائر الكواكب مجتمعة كالكرة الأرضية بل أكثر من ذلك وأرضنا بالنسبة للشمس أقل من حبة رمل فاذا قام على هذه الحبة من الرمل أمم وأمم فان صورهم جميعا لا ترى بأقوى المناظر . فإذا تصور أمة من تلك الأمم التى لا ترى على قبة تلك الحبة من الرمل وقال قائل منهم أيها الناس إن ربنا الذى خلق هذه العوالم كلها الذى شمسه عظيمة وأرضنا بالنسبة لها صغيرة جدا قال لى ادعنى أن أزيدك علما . إذا قال ذلك قائل منهم فلا جرم يقولون جميعا بلسان واحد . إذا كان ربنا قال لك هذا فمعناه أن أعداءك وأعداء أمتك وأحبابكم جميعا يتعلمون فيقول لماذا هذا فيقولون لأن حبة الرمل التى نحن عليها بالنسبة للعوالم صغيرة جدا ونحن عليها قليل جدا بالنسبة لغيرنا . فاذا قال الله لنا ذلك واعتنى بنا مع عظمته فان هذا علامة على رقينا جميعا .

إيضاح هذا المقام

لما قال النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون رب زدنى علما أجاب الدعاء فنشر العلم فى أوروبا والصين واليابان ونشر العلم فى تلك الأقطار هو عينه زيادة علم للمسلمين لأن علم الأمم دخل علينا بلادنا وصناعاتهم وكتبهم قد أثرت فينا فزدنا علما . وبعبارة أخرى إن موجة العلم أولا ماجت من الحجاز فعمت أمما فى الشرق وحاربوها فعمت أوروبا وبلاد الشرق كرة أخرى . وها نحن أولاء نتعلم من علومهم التى كان أصل التحريض عليها من ديننا فبالاختصار أن رقى العلم فى الشرق والغرب رقى للمسلمين منه . إذن الحركة الفكرية فى العلم فى الأمم استجابة لدعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأمته لأننا الآن ننقل فى هذا التفسير من علوم الأمم فزدنا علما وسيزيد قراء هذا التفسير علما . كل ذلك بنقل علوم الأمم فزيادة علمهم زيادة علمنا إجابة لدعوة نبينا ودعوتنا بازدياد العلم فاذا رأينا الصين فى هذا الأسبوع (يوليو سنة ١٩٢٨) ارتقت وأمرت الأوروبيين أن يسيروا على قوانينها فهذا من دعوته صلى الله عليه وسلم ، ياعجبا كل العجب إننا لم نسمع فى التاريخ أن الأمم كلها على نمط واحد فى التعلم إلا فى هذه الأعصر ولم يحصل ذلك إلا بعد نزول نبى من عند الله وبلغ الأمم قائلا إن الله أمرنى أن أدعوه أن يزيدنى علما ولم ينقطع العلم بعد أن نزلت هذه الآية وقد عمّ العلم الأمم كلها ولم يرد فى التاريخ نظير هذا . اللهم إنك أنت الذى جعلت الأمم كلها كأنها فرد واحد فإذا علمت واحدا فقد علمت العموم « ومن قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » اللهم إن أهل الأرض أمة واحدة بل هم كشخص واحد « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

كيف

كيف يتعاون ملوك أوروبا وعلماؤها على رقى العلم

لقد تقدم فى سورة (إبراهيم) عند قوله تعالى «وذكرهم بأيام الله» كيف تعاون القوم فى أوروبا على العلم وكيف نرى أن (تيخوبراهى) العالم بالأجرام السماوية قد أعانه ملك (الدانمارك) وملك الإنجليز وأمبراطور ألمانيا وهكذا غيره وغيره فارجع إليه هناك . وأقول هنا فوق ماذكرت هناك : تقدم أنى ذكرت هناك (ديدرو) الذى ألف دائرة المعارف الفرنسية وكانت هى السبب الأعظم فى الثورة الفرنسية وهى التى زلزلت عقائد الشعب فى رجال الدين فهذا المؤلف قد كان رقيق الحال فقيرا فى فرنسا . ولما كبرت ابنته وأراد تزوجها لم يكن عنده مهر لها وعلمت بذلك الأمبراطورة (كاترينا) فأرسلت رسولا اشترى منه مكتبته بألف جنيه وأبقتها فى باريس وأقامته حافظا لها براتب سنوى . فهذه امبراطورة (الروسيا) ساعدت عالما فرنسيا .

وانظر إلى الآمدى المتقدم ذكره كيف اضطهد فى مصر وفى بغداد لما أراد الله انحطاط العلم فى الإسلام وانظر إلى مجالس العلم عند الأمراء فى القرن الرابع الإسلامى فيما تقدم كيف تعاون العلماء على رفعة شأن العلم عند إرادة الله رقى الإسلام والمسلمين .

إعظام ملوك أوروبا وعلماؤها العلامة (لويس باستور) المتوفى سنة ١٨٩٥

أذكر هذا العالم الآن لأرى المسلمين الحاليين تعاون الأمم المسيحية الآن على رفع منار العلم وكيف كان هذا العالم قد نفع فرنسا وزاد ثروتها بعلمه بحيث يقوم مقام مئات الألوف من الأغنياء .

(١) أرسل له أستاذه (دىماس الكيماوى) الشهير ، وتوسل إليه توسلا أن يبحث فى أسباب (ضربة دود القز) التى فشت فى فرنسا سنة ١٨٥٣ لأن (دىماس) كان ساكنا فى المكان الذى اشتدت فيه الضربة وفعلت فعلها الذريع ولم يكن (باستور) رأى دود الحرير قط ، فاعتذر إليه بعدم اختباره فى ذلك وطلب منه أن يعفيه فجاءه الجواب من دىماس يقول فيه إنى لواثق بك وبقدرتك على إجابة طلبى رحمة لبلادى المسكينة فان الرزء يفوق التصوّر وكانت ظواهر هذا الداء نقطا سوداء تعلو جسم الدود فيتأخر نموّه وتختلف أقداره وتبطؤ حركته . وهكذا فعمل تجارب نجح فيها نجاحا باهرا .

(٢) ثم بحث مباحث أخرى مثل مبحث الاختمار فأثبت بعد تجارب لامحل لذكرها أن الأجسام الذائبة إذا عرضت للهواء امتلأت من الذرات الحية التى فيه ، ومتى ماتت الجراثيم التى فى تلك السوائل ولم تدخلها جراثيم أخرى من الهواء لم يتولد فيها شىء .

(٣) وهكذا بحث أمراض الدجاج والغنم والبقر وتوصل إلى ذلك ومنع تلك الأمراض بإضعاف الجراثيم المعدية وتطعيم المواشى بها . ولقد كان قبل ذلك يموت فى فرنسا وحدها من المواشى مايقدر ثمنه بعشرين ألف ألف فرنك سنويا . ولقد أثنى عليه المسيو (بولى) فى اجتماع المجامع الخمسة السنوى ، فقال (انظروا كيف أن الطبيعة قد كاشفته دفعة واحدة بسرّ من أغمض أسرارها (سر العدوى) وكيف أن العلم قد خوله تحويل مسبب الموت إلى دافع الموت الخ) .

وقال الأستاذ (هكسلى) (إن ما كشفه (باستور) يساوى المليارات الخمسة التى أعطتها دولة فرنسا لدولة ألمانيا غرامة) .

(٤) وقد قلده مجمع انكلترا الملكى نشان (رمفرد) سنة ١٨٥٦ وهكذا وزير الزراعة فى النمسا أجازه بعشرة آلاف (فلورين) على كشفه علة مرض دود القز . فانظر كيف تعاونت أوروبا على نصر العلم فحفظت أموالهم ومواشيهم بنفس العلم . وكيف تعاون معاصروهم من الأمم الإسلامية للجهل فطرد القرس جمال الدين الأفغانى . ولما جاء إلى مصر طردوه منها فالتجأ إلى الأستانة وكان معه نديم الكاتب المصرى

فاحتال فى قتلهما بمكروب السرطان السلطان عبد الحميد . هذا ولما حاربت ألمانيا فرنسا وكان (باستور) من متخرجى مدارس ألمانيا ورأى ظلما لقومه أرسل شهادة الدكتورية الألمانية إلى ألمانيا قائلا إنه لا يقبل إكراما من أمة تحارب بلاده فأراد أهل بلاده أن يقلدوه نشانا ويقيموا له احتفالا فأبى فعظم مقامه اه .

هذه حياة (باستور) وأنا لم أكتب باستور فى تفسير القرآن رمية من غير رام . كلا ، وإنما كتبت هذا لأريك أن أستاذه (دعاس) يقول له إنى واثق بك وبقدرتك على إجابة طلبى رحمة بيلادى المسكينة ، فأعجب لعالم يخاطب عالما كلاهما عالم بالكيمياء يقول له (رحمة بيلادى المسكينة) ما أحسن هذا العلم وما أحسن هؤلاء العلماء . عالم يرجو عالما أن يرحم البلاد من ضربة دود القز لأجل صنع الحرير . فمتى نسمع أن علماء الإسلام بالمعاهد الدينية يفقهون أن الأمة تحت إشرافهم وهم قوامون عليها على هذا النحو .

فانظر كيف عبر بالرحمة . وانظر كيف كان نشر العلم فى الشرق والغرب جاء بعد البعثة المحمدية والله يقول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فالرحمة التى جاءت لدود القز والغنم والبقر بعض الرحمة التى أرسل لها صلى الله عليه وسلم وهى الإيقاظ للعلم . إياك أيها الذكى أن تظن بى التعصب لدينى فهذه حقيقة ظاهرة لا تحتاج إلى دليل أو برهان ،

إن الهداية (ثلاث مراتب : المرتبة الأولى) هداية الأنبياء وهى هداية عامة لاتتعدى الإرشاد بدون دخول فى العلوم الجزئية والتفصيل (المرتبة الثانية) مرتبة الحكماء والهداة فى الأمم . ينزل الله فى كتاب سماوى على نبى فيقول له ادعى أن أزيدك علما فيتبعه بعض العلماء وهم حكماء الأمة فيفهمون قوله فيقرءون هذا التفسير وأمثاله . فماذا يقولون . يقولون إن هذا كلام الله الموجز ولكن نحن لا نقتصر على خطاب الناس بهذه الآية بل نخاطب الناس بما يعلمون ونشوقهم للعلم بما يألفون ونوضح لهم فيعقلون ونذكرهم فيذكرون (المرتبة الثالثة) هم العلماء المختصون الذين يختصون بعلوم أو صناعات فيتقنونها فينفعون الناس بعلمهم كأمثال (باستور) المذكور فهؤلاء قد شوقهم للعلم الحكماء والحكماء فى الاسلام شوقهم للعلم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإذا قلت لك أيها الذكى (باستور) قد أفاد فرنسا مالا قدر الذى بذلته لألمانيا فى الغرامة وأفاد جميع أوروبا وأفاد المسلمين لأن دوائنا قد حفظت ونفوسنا من الطاعون بالاحتياطات الصحية . فليس معنى هذا أن هذا أرقى ما يصل إليه العلماء فى الإسلام بعدنا . كلا . بل إن قراء هذا التفسير وأمثاله سيؤلف بعضهم وينشر كتبا تشوق المسلمين للعلم على نحو ما كتبناه أو أحسن أو أقل . فهذا التشويق يحدث شوقا فى بعض النفوس فيتخرج علماء فى مدارس ومدارس وينفعون الأمم لا المسلمين وحدهم فى علوم وصناعات مختلفات كما فعل (باستور) وغيره . إذن حكماء الاسلام الذين يسوقون العلماء لحوز علوم الكيمياء والطبيعة والفلك أفضل ألف مرة من العلماء الذين تأثروا بأقوالهم . وهؤلاء الحكماء ماهم إلا جنود الأنبياء . فالأنبياء كشموس والحكماء كالأقمار . والعلماء كالنجوم وهؤلاء العلماء أشبه بباستور المذكور وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابى كالنجوم » فهذا معناه . أما الحكماء فكالأقمار وهو صلى الله عليه وسلم شمس «يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » انتهى يوم الجمعة ١٣ يوليو سنة ١٩٢٨ .

تذكرة للأمم الإسلامية فى تعاليم أوروبا

قضى الله عز وجل أن يكون الخير مقرونا بالشر والمرض يتبع الصحة . قال الشاعر :

ودعوت ربى بالسلامة جاهدا ليصحنى فإذا السلامة داء

وقال آخر :

والخير والشر مقرونان فى قرن فالخير متبع والشر محذور

قال

قال تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » وفى آية أخرى « وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » الخ . وفى الآثار « اللهم إنى أعوذ بك من قلب لايخشع ومن علم لاينفع الخ » . أقول هذا بمناسبة ذكر (باستور) العالم الفرنسى وتحريض الأمة الإسلامية على علوم أوروبا فان هذا القول إذا أطلق على علاته أدى إلى ترك الديار بلاقع ، فما جنى الناس الورد إلا من خلال الشوك ولا أكلوا لحما إلا وجدوا معه عظما ولا سمكا إلا اجتهدوا فى اجتناب شوكاته والابتعاد عن مضراته ، فهذا العلم الأوروبى خير كثير يحيط به شر مستطير . أما كونه خيرا كثيرا فهو الذى أعتق تركيا وإيران والأفغان واليابان والصين من ظلم أوروبا . فهؤلاء كلهم استقاروا ولبسوا لأوروبا ثوب النمر وقاوموها مقاومة الأباة الفوارس . كل ذلك كان لما قابل القوم عتوهم بنظيره وسلاحهم بسلاح مثله فتكافأ الشرقى والغربى ورجع الظالمون الغربيون بخفى حنين . ذلك لأن حاملى العلم غير مغلوبين على أمرهم . أما أمتنا المصرية وأمثالها فانهم تعلموا ولكن احتلال الأجنبى أغرق العلم فى بحر من المفاسد والفسوق والخلاعة فما رأيت ذكيا من الأذكياء إلا انقلب على عقبيه وضل سواء السبيل فى زمن الشباب ولا مجداً جميل الصورة إلا استحوذ عليه الرجال والنسا ففتنوه وأنزلوه عن منازل الأشراف إلى دركات الزعانف والسوقة الجاهلين . وأكثر من تراه من المتوسطين فى العلم والذكاء من يمسى ويصبح ولاهم له إلا القيام على وظيفته والمحافظة على سمته وزيه ، فأما العلم فانما هو مطلب المكاسب سلم المعاش . فمتى وصل الشاب بهذا السلم إلى معاشه رضى بحاله ولم يزدد علما بل رجع فيه القهقرى وإذا مات فسوف يرى . سألت ناظر مدرسة من المدارس المصرية وكان من تلاميذى بالمدرسة الخديوية . فقلت له إن المتقدمين من أمم الإسلام كانت لهم فى العلم طريقة شيقة وحب عجيب وذكرت له بالطويل أسلوب موفق الدين عبد اللطيف البغدادى وكيف كان يحفظ الكتب فى أيام معدودات على ما مرّ بك ولم يذر علما إلا قرأه ولا حكمة إلا درسها ، فقال وهو مخلص فى خطابه (نحن الآن فى قبضة الإنجليز والدار عندنا أن تكون بزتنا وهيئتنا منمقة وننطق بالانجليزية كما ينطقون . بهذا نرتقى . فأما العلوم فإن الناس عنها معرضون . فلو أن الوسط الذى نعيش فيه والبيئة التى تجمعنا كانت مغرمة بالتحصيل مداومة على العلم معمورة بمجالس الأدباء ومسامرة الحكماء لكنا أسرع الناس إلى المزاحمة فى المعارف وأقربهم زلفى إلى التنافس فى العلوم وأشدهم رغبة فيه . فالمرء إذن موقوف على الرغبة العامة وعلى حال الوسط . فالناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم) . فقلت له قد صدقت وقلت قولا سديدا .

كل ذلك لنشر المفاسد فى البلاد وعدم قدرة الفضلاء على تغيير المنكر لشدة شيوعه ومساعدة المحتلين وامتيازات الأجانب فى البلاد ، فلتحذر الأمم الإسلامية أن يتعاطوا السم فى الدسم كما تعاطينا نحن المصريين . فهاك ماجاء يوم الاثنين ١٦ يوليوسنة ١٩٢٨ و ٢٧ محرم سنة ١٣٤٧ منشورا فى جرائدنا المصرية تحت عنوان :

القديم والجديد

عقدت إحدى صحف لندن فصلا فى موضوع القديم والجديد قالت فيه ما يأتى :

بينما تظهر مصر فى عيون الغربيين غريبة أو بالأحرى روائية لما يحيط بها من هالة الشفق التاريخى ترى المصريين يطمحون إلى أن يكونوا من أبناء العصر بل أن يبلغوا أسبابا (فوق العصرية) ونسمع اليوم من كل حدب وصوب عن التقديم فى مصر ، تقدم العلوم والمعارف . تقدم النهضة الفكرية . تقدم الأفكار الجديدة . تقدم اقتباس الآراء الغربية ونبذ كل شئ قديم ورجعى . هذه صورة حقيقية ولكن إلى حد معلوم ونقطة معينة . نعم إن أمورا جسيمة تحدث فى مصر اليوم . ولكن هناك ناحية أخرى تظهر فيها حاشية الرتق تلك الناحية الخافية التى تؤثر فى حياة الناشئة المصرية وتحط من شأن السجايا والطباع . فكم من الأحداث

والشبان يجد ما يأخذه بيده ويهوى به إلى أسفل الدركات فى تلك البدع التى يسمونها المدنية الغربية كأشرطة السينما القذرة المخلة بالآداب التى يرونها يوما بعد يوم فى دور السينما ، والمؤلفات البذيئة التى يطالعونها والعاشرة الرديئة التى يلاقونها فلا يتخرج الطالب من المدرسة إلا وهو عبد لعادات وشهوات شنيعة يظل أسيرا لها بقية أيام حياته وتكون عبئا ثقيلا يرزح تحته ومذلة تذله وتضع أنفه فى الرغام وتسمه بوصمة عار لا تمحى مازال حيا .

هذه حالة البنين . أما حالة البنات فأنكد وأضل سبيلا فان زوبعة الحمية التى هبت على مصر والاندفاع الشديد فى تعليم الإناث وتحرير المرأة واقتباس الملابس والأزياء الأوروبية ومعظم ضروب الرياضة البدنية والألعاب والرقص وما إلى ذلك قد أوجدت طفرة فى البلاد كان لها أشد مساس بالآداب وعبث بالفضيلة .

فاذا أرادت مصر أن تصل إلى مصاف الأمم الراقية فعليها أن تحرص على الحياة الأدبية ولاسيما بين الناشئة والأحداث وأن تحسن تربية البنين والبنات وتغرس فى قلوبهم التقوى ومخافة الله والحشمة والنزاهة ومبادىء الشرف والأمانة ، وخير التربية هى التى يوضع أساسها فى البيت ويشاد صرحها فى المدارس اه .

(تذكرة)

إن ظهور هذا التفسير اليوم فى بلاد الإسلام موافق لحركة الإصلاح فيها فقد ألهم الله رجال الإصلاح أن يضعوا بذوره ليتخرج رجال فى المعاهد الدينية على مشرب هذا التفسير . فانظر إلى ماقدمه صاحبنا الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر الحالى فى ١٩ صفر سنة ١٣٤٧ الموافق ٦ أغسطس سنة ١٩٢٨ لحكومتنا المصرية وهذا نصه :

إصلاح الأزهر الشريف

(مذكرة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر)

أوجب الدين الإسلامى على أهله أن تختص طائفة منهم بحمله وتبليغه إلى الناس «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» وأوجب الله على نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس إلى السبيل الموصلة إليه « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» وقواعد العلماء كلها متفقة على وجوب السعى إلى نشر الدين وإقناع العباد بصحته وعلى وجوب حمايته من نزغات الإلحاد وشبه المضلين . وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة تحثّ على النظر فى الكون وعلى فهم مافيه من جمال ودقة صنع . ولقد لفت النظر إلى ما فى العالم الشمسى من جمال باهر وصنع محكم ولفت النظر إلى مافى الحيوانات من غرائز تدفعها إلى الصنع الدقيق والأعمال التى لها غايات محدودة . وأشار إلى سير الأولين وحث القرآن على العلم وفاضل بين العلماء والجهال وأعمال السلف الصالح وسير العلماء لا تدع شبهة فى أن الدين الإسلامى يطلب من أهله السعى إلى معرفة كل شىء فى الحياة . وقد تولى سلف علماء الأمة القيام بهذه المهمة على أحسن وجه وأكمله فخلفوا تلك الثروة العظيمة من المؤلفات فى جميع فروع العلم ودرسوا أصول المذاهب فى العالم ودرسوا الديانات ودرسوا الفلسفة على ما كان معروفا فى زمنهم وكتبوا المقالات فى الرد على جميع الفرق ، وكانت للعقل عندهم حرمته وله حرّيته التامة فى البحث وكان الاجتهاد غاية يسعى إليها كل مشتغل بالعلم متفرغ له . ولكن العلماء فى القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة وظنوا أنه لا مطمع لهم فى الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث وجهلوا ماجد فى الحياة من علم وماجد فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس فلم يؤدوا الواجب الدينى

الذى

الذى خصصوا أنفسهم له وأصبح الإسلام بلا حملة وبلا دعاة بالمعنى الذى يتطلبه الدين . فى الدين الإسلامى عبادات وعقائد وأخلاق وفقه فى نظام الأسرة وفقه فى المعاملات مثل البيع والرهن وفقه فى الجنايات .

وقد عرض الدين الإسلامى لغيره من الأديان وعرض لعقائد لم تكن لأهل الأديان (كذا) وأشار إلى بعض الأمور الكونية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة من جماد ونبات وحيوان .

وقد هوجم الإسلام أكثر من غيره من الديانات السابقة . هوجم من أتباع الأديان السابقة وهوجم من ناحية العلم وهوجم من أهل القانون . لهذا كانت مهمة العلماء شاقة جدا تتطلب معلومات كثيرة . تتطلب معرفة المذاهب قديمها وحديثها ، ومعرفة مافى الأديان السابقة ، ومعرفة ماجدّ فى الحياة من معارف وآراء ، ومعرفة طرق البحث النظرى وطرق الإقناع . وتتطلب فهم الإسلام نفسه من ينابيعه الأولى فهما صحيحا . وتتطلب معرفة اللغة وفقهها وآدابها . وتتطلب معرفة التاريخ العام وتاريخ الأديان والمذاهب وتاريخ التشريع وأطواره . وتتطلب العلم بقواعد الاجتماع والأمة المصرية أمة دينها الإسلام فيجب عليها وهى تجاهر بذلك أن ترقى تعليمه لترقى حملته ويكونوا حفاظا ومرشدين يدعون الناس إليه . ولا يوجد دواء أنجع من الدين لإصلاح أخلاق الجماهير فإن العامة تتلقى أحكام الدين والأخلاق الدينية بسهولة لاتحتاج إلى أكثر من واعظ هاد حسن الأسلوب جذاب إلى الفضيلة بعمله ويحسن بصره فى تصريف القول فى مواضعه . ولذلك كان الدعاة إلى الفضيلة قديما وحديثا يلجئون إلى الأديان يتخذونها وسائل للإصلاح بل إن كل دعاة المذاهب السياسية وحملة السيوف لم يجدوا بدا من الرجوع إلى الأديان وصبغ دعواتهم بها . كل ذلك لأن حياة المجتمعات لاتدين لنوع من أنواع الإصلاح إلا إذا صبغ بصبغة دينية يكون قوامها الإيمان . والأمة المصرية بل والأمم الشرقية جمعاء تدهورت أخلاقها فضعفت لديها ملكات الصدق والوفاء بالوعد والشجاعة والصبر والإقدام والحزم وضبط النفس عن الشهوات وضعفت الروابط بين الجماعات فلم يعد الفرد يشعر بآلام الآخرين ومصائبهم ، وقد أثرت الحياة الفردية فى حياة الجماعة أثرها الضار فانحطت منزلة الأمم ورضيت من المكانة بأصغر المنازل .

إلى أن قال (يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة وأن تدرس السنة الشريفة دراسة جيدة . وأن يفهمها على وفق ماتتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعانى وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة وأن يبتعد فى تفسيرهما عن كل ما أظهر العلم بطلانه وعن كل مالا يتفق وقواعد اللغة العربية) .

(يجب أن تهذب العقائد والعبادات وتنقى مما جدّ فيها وابتدع ، وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق والعقل وقواعد الإسلام الصحيحة) .

(يجب أن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عنها فى الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها والنظر فى الأحكام الاجتهادية لجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء) .

(يجب أن تدرس الأديان لتقابل مافيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى ليظهر للناس يسره وقدسه وامتيازه عن غيره فى مواطن الاختلاف ، ويجب أن يدرس تاريخ الأديان وفرقها وأسباب التفرق وتاريخ الفرق الإسلامية على الخصوص وأسباب حدوثها) .

(يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها وكل المسائل العلمية فى النظام الشمسى والمواليد الثلاثة مما يتوقف عليه فهم القرآن فى الآيات التى أشارت إلى ذلك) .

(يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف وأن يضاف إلى هذه الدراسة دراسة أخرى على النحو الحديث فى بحث اللغات وآدابها) .

(يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة وأن تكون الدراسة جامعة بين الطرق القديمة فى عصور الإسلام الزاهرة والطرق الحديثة المعروفة الآن عند علماء التربية .

وعلى الجملة يجب أن يحافظ على جوهر الدين وكل ما هو قطعى فيه محافظة تامة وأن تهذب الأساليب ويهذب كل ماحدث بالاجتهاد بحيث لايبقى منه إلاماهوصحيح من جهة الدليل وكل ماهو موافق لمصلحة العباد)

(يجب أن يعمل هذا لإعداد رجال الدين لأن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة ودينه عام ، ويجب أن يطبق بحيث يلائم الصور المختلفة والأمكنة المختلفة وإن لم يعمل هذا فانه يكون عرضة النفور منه والابتعاد عنه كما فعلت بعض الأمم الإسلامية وكما حصل فى الأمة المصرية نفسها إذ تركت الفقه الإسلامى لأنها وجدته بحالته التى أوصله إليها العلماء غير ملائم ولو أن الأمة المصرية وجدت من الفقهاء من جارى أحوال الزمان وتبدل العرف والعادة وراعى الضرورات والحرج لما تركته إلى غيره لأنه يرتكن إلى الدين الذى هو عزيز عليها) ثم قال بعد كلام :

(وقد بدل الله هذه الأحوال وأصبح قانون الأزهر مشتملا على ضعفى العلوم التى كانت تدرس من قبل وأصبح يدرس فى الأزهر التاريخ الطبيعى وتدرس فيه الطبيعة والكيمياء ويدرس فيه الجبر والهندسة وقبل الأزهر فى قسم تخصص القضاء الشرعى دروسا فى وظائف الأعضاء ودروسا فى التشريع . قبل الأزهريون كل جديد وأعدوا أنفسهم له وزالت كل العقبات التى كانت من قبل ولم يبق إلا إصلاح طرق التعليم وإيجاد المعلمين الأكفاء وتوزيع العلوم على الأقسام توزيعا صحيحا .

وإذا كانت هناك بقية تعترض الجديد فلم يبق لها من الشأن ما تستطيع معه أن تكون عقبة فى طريق الإصلاح) انتهى .

هذا ما أردت نقله من ذلك التقرير المرفوع من صاحبنا شيخ الإسلام الحالى الذى هو موافق لروح هذا التفسير . كتبته هنا لتعلم أيها الذكى مبلغ ماأخبرتك عنه فى هذا التفسير مرارا وفى كل سورة من أن لهذا التفسير وأمثاله أثرا محمودا إن شاء الله فى الإسلام وأن الأمة قد استعدت له ولأمثاله . ولقد نشأت فى الأزهر وعاهدت الله على أنه إذا علمنى بعض حقائق هذا الدين التى كنت أجهلها بالأزهر نشرتها بين المسلمين لئلا يقع أذكياؤهم فى حيرة مثل ما اتفق لى .

ثم إن ما كتبه شيخ الجامع الأزهر فى هذا التقرير الذى رفعه للحكومة المصرية قد خطا خطوات واسعة فيما يطلبه الأزهر والمسلمون .

لقد طلب أن يكون التعليم فيه على قسمين : قسم لايحدد عدده ولا ترتب درجات التعليم فيه ولا يكون له شئ من الحقوق فى أعمال الدولة وإنما يراد منه التفقه فى الدين . وقسم يحدد عدد تلاميذه وترتب درجات التعليم فيه إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول مدته خمس سنوات وهكذا الثانى والثالث . فالأول والثانوى تدرس فيهما العلوم كالمدارس المصرية ماعدا اللغات الأجنبية وكذا علوم الأزهر الأصلية . والقسم العالى يدرسون فيه المنطق والتوحيد والأخلاق والفلسفة قديمها وحديثها وآداب اللغة والقرآن وعلم التربية وبعض اللغات وتاريخ التشريع الإسلامى ومايلزم القاضى والمحامى من نظم القضاء والإدارة وقوانين المرافعات وهكذا . وهؤلاء يكون منهم علماء اللغة العربية وعلماء الفقه وعلماء الإرشاد والدعوة ويوظفون فى الوظائف المناسبة لهم

هذا

هذا ملخص ما في التقرير . ثم اعلم أيها الذكي أن هذه خطوة تتبعها خطوات . فمتى تم ذلك تلتها خطوة أخرى فيقوم فريق من هؤلاء العلماء بعدنا ويقولون لانقف عند هذا الحد وأى فرق بين اللغة العربية وبين الطب والكيمياء والطبيعة وعلم النبات والحيوان فلم لا يكون منا السياسى المحنك الماهر والطبيب النطاسى والمهندس الذكى وعالم الكيمياء والنبات والحيوان وهذا ماسيكون بعد حين وإذن يكون الأزهر والمعاهد الإسلامية قد سارت على منهج قوله تعالى « لاتكلف نفس إلا وسعها » فيتخصص كل طالب بما استعد له والله هو الولى الحميد .

العلم علمان علم ضائع وعلم نافع

أما العلم الضائع فهو مالايفيد الأمم فى حياتها ولا فى أخلاقها ولاسمو نظامها . لقد تقدم فى سورة الكهف مانقلته عن علماء أئمة الإسلامية أنهم كانوا يعمدون إلى ما فى القرآن من الآيات ويحسبونها بالجمل ويستنتجون منها نتائج . وهذا الحساب يرونه سرا مصونا وجوهرا مكنونا ويقوى ذلك اطلاعهم على علوم الحساب والهندسة والجبر وأمثالها فينوعون فيه ويشغلون الحياة به ، فهذا فيه فائدة ولكن مضاره لاحصر لها . أما فائدته فان المسلم حين يطلع عليه تذعن نفسه للدين ولا يشك فيه لأنه يرى أن هذه العجائب وبدائع الحساب قد حواها دينه فيتمسك به وفى الوقت نفسه يقف عقله عند هذه ولا يتخطاها . فهذه العلوم أشبه ببعض شيوخ الصوفية الذين ليسوا كاملين . فهؤلاء يكون اعتقاد تلاميذهم فيهم سببا لوقوفهم فى العلم عند حد خاص لا يتعدونه . وأذكر أنى فى أيام شبابى كنت أقرأ ذلك فى بعض الكتب فكنت أدهش من ذلك الحساب وعجائبه مثل أن جمل محمد اللفظى (بحيث تكون الميم حرفين) يساوى (١٣٢) وحروف الفاتحة اللفظية عددها يساوى (١٣٢) أيضا ، فلما قرأت هذا أخذت أعد الحروف اللفظية فكانت تقرب من هذا العدد أو تبعد به فكان هذا عندى دليلا على صدق القرآن . وقد تقدم أن هذا وأمثاله يقبل المعارضة وليس فيه من العلم ولا الحقائق شىء ، وكنت أنظر فى الأوفاق وأعدادها ونظامها وأدهش وأقول ، ياعجبا . لماذا لا يجعل الله فى الطبيعة نظاما كنظام الأوفاق كهذا المثلث . وأقول : بالله إننا نرى هذا المثلث كل ضلع من أضلاعه (١٥) سواء أكان أفقيا أم رأسيا . وإذا كان هذا النظام جميلا فلماذا لم نجد الله فعل فى الطبيعة مثله ؟ هذا كان غرامى وأنا شاب بمثل هذا . وسبب ذلك وقوع أمثال تلك الكتب فى يدى ، جل الله وجل العلم . غلب على الحساب وغلب على عقلى حب نظام الأعداد وصارت هذه طبيعتى وليس الآن لى متسع أن أبسط القول فيما عرفته بعد ذلك لافى مدرسة دار العلوم ولافى الأزهر قبله بل فى كتب الغربيين وستراه مسطورا فى سورة (العنكبوت) إن العلماء فى زماننا لما رتبوا العناصر بعقولهم وجدوا بينها نظاما مدهشا يعتبر فى جانبه علم الأوفاق نسيا منسيا وأن النظام هناك والخواص وتناسبها أمر يفوق الحصر كالا وجمالا حتى إن الأوفاق العددية لا قيمة لها فى النظام إلا كقيمة الشمعة فى ضوء الشمس .

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

هذا هو الذى كان يخطر لى وأنا شاب وأقول يارب لم لم نر نظام الأوفاق فى عالم الطبيعة . هذه هى النتائج التى علمتها فى حياتى وإياك أن يصدك هذا عن أصل الموضوع فاننا نتكلم فى العلم الذى لاينفع وقد قلنا إن هذا العلم لاينفع لأنه وإن أفاد بعض فائدة يضيع على المسلمين فوائد لا حصر لها وأنه إن أفاد المشتغلين ببعض صغار العلم فانه يصد عنه ويحجب العقول عن التفكير .

وسبب ذلك أن الذين يقرءون تلك الكتب لايعرفون العلوم التى اشتقت منها هذه الأمور فيظنون أن ذلك سر القرآن وسر الأولياء فيرون أنه من طبقة فوق متناولهم ، ومن عقول فوق عقولهم فيذلون ويخضعون

ويموتون ولاهم يذكرون . ستقول لى أيها الذكى أسمع جعجعة ولا أرى طحنا فاضرب لنا مثلا حتى نعرف به ما تقول . أقول لك : انظر للمثلث السابق فقد جعلوه من أسرار (طه) وهذا هو السبب فى ذكرى له هنا . للمثلث السابق كل ضلع من أضلاعه عدده (١٥) كما تقدم ومجموعها كله (٤٥) ويقولون إن هذا لسر عظيم من أسرار القرآن . ألا ترى أن (٤٥) هى جمل (آدم) . إذن هذا المثلث هو سر آدم أبينا وإذا كان (٤٥) حاصل ضرب ٩ فى ٥ فله [ضلعان] ضلع ٩ وضلع ٥ و ٩ أكبر من ٥ فيكون آدم وهو (٤٥) ضلعه الأكبر (الضلع أحد المضروبين) ٩ لأنه آخر الأعداد البسيطة التى هى أمهات الأعداد كلها وآدم آخر المكونات وهى التسعة (العقل ، النفس ، الفلك ، الكوكب ، العنصر ، المعدن ، النبات ، الحيوان ، الإنسان) وضلعه الآخر (٥) فالأكبر نسميه أيمن والأصغر نسميه أيسر ، فاذن آدم له ضلع أيمن وضلع أيسر وحوّاء خلقت من الأيسر ولاشك أن حواء فى الجمل (١٥) وهى مخلوقة من ضرب ٥ فى ٣ وحواء تلد إنسانا تاما ، كما أن ٥ بضربها فى نفسها تأتى بمربع (٢٥) ومربع (٢٥) يكون ظاهرا فى جميع مضروباتها مثل (١٢٥) وما بعدها إلى ما لايتناهى ، فالخمسة هذا شأنها وحواء هذا شأنها كل منهما قد تم ماتولد منه .

وإذا كانت (طه) مركبة من (٩) ومن (٥) فيكون معناها هكذا « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » يعنى يا آدم ويا حوّاء ، يعنى أيها النوع الإنسانى ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى ، أى ماجعلناك جامعا لجميع مراتب الوجود لتشقى بل لتسعد بمطالبة حقائق الموجودات بسبب وجود نموذجها فيك وهذا المعنى على أن القرآن هو القرآن التكوينى أى صفحة العالم ونظامه وإن أريد به الوحى فيقال ماأنزلنا عليك القرآن بالوحى إلا لتسعد بالعمل بما فيه الخ .

أنا أيها الذكى نقلت لك عبارة القوم وأنا أعلم أن أكثر من يقرؤها يتعب فى فهمها إذ يرى أن مسألة عدد (٥) عدد كروى مثلا وأن هناك ضلعا أصغر وضلعا أكبر وألفاظا من علوم مختلفة فأمثال هذا كان يقرؤه المتعلمون فى الإسلام فيظنون أن هذا من علم أعلى وتقف العقول وتحصر الأفكار . ذلك لأن مسألة العدد الكروى وهو (٥) وأن (٢٥) ظاهرة فى كل مضروباتها . هذا من علم الارتماطيق (خواص الأعداد) الذى ذكرته فى كتاب (بهجة العلوم فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية) وإذا رأى ذلك متفقا مع حديث خلق حوّاء من الضلع الأيسر ويدخل على الأذكياء لفظ ضلع مع أنها أحد المضروبين فى العدد وآدم ليس له ضلعان اثنان أيمن وأيسر . كلا . بل له (٢٤) ضلعا لا ضلعان ولكن القارىء الذى يفهم هذا فى كتب القوم يظنّ أن هذه حقائق ذات قيمة فتهلع نفسه وينخلع قلبه ويرى أن هذه العلوم عالية جدّا فيعيش فى تلك الكتب ويقف عقله فيكون أشبه بالذباب إذا وقع فى العسل وهذه حال أكثر الأذكياء من رجال العلم والصوفية فى الأمم المتأخرة الإسلامية . أتدرى من أين نقلت لك هذا . نقلته من (سفينة الراغب) نقلا عن شرح العلامة الشيخ إبراهيم المصرى الحلبى على لغز اسم كتاب (الزبدة) لبهاء الدين العاملى سنة ١١٦٥ هـ فهذه كانوا يعدونها أسرارا القرآن وماهى بأسرار . كلا . بل هذا المحل يضل العقول ويضيع عليها الوقت ويخرجها إلى عالم الخيال ويجنبها عالم الحقائق ، هذا هو العلم الضائع .

العلم النافع

إن من قرأ هذا التفسير وأمثاله رأى أن هذه السورة مشحونة بعجائب الخالق وذكر عجائب السموات والأرض وما عليها من نبات وأنعام ويقول الله «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» وهذه الآية مثلا مفسرة بالعلوم التى أحاطت بنا من كل جانب وبها سعادتنا وسعادة الأمم حولنا بل فوق ذلك جعل فى هذا التفسير أن الطاء والهاء يشيران لتفسير هذه الجملة وقد فسرت بما ذرأ الله فى عالم الحيوان مشروحا شارحا

المسحور

الصدور . فما نتيجة ذلك الحساب الذى جعلوه سرا إلا أن يقال إنك أيها النوع الإنسانى جامع الحقائق يطالبها فى نفسك . فهل هذا هو السر . اللهم لا سر هنا ولا معنى فهذا المعنى جزء ضئيل من المعنى المخبوء فى آية واحدة من السورة فان قوله « أعطى كل شئ خلقه ثم هدى » شملت الإنسان ولم تقتصر عليه بل جمعت كل حيوان وكل نبات وكل فلك وكل جماد . فما هذا السر إذن «إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » فأمثال هذا الحساب قد أوقف العقول فى الأمم الإسلامية دهرا طويلا . فلعمرى أين هؤلاء العلماء ممن يحدثهم الله الآن للأمم الإسلامية ليرشدوهم ويعلموهم . إن الله أعد للمسلمين عقب ظهور هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات علماء زماننا رجالا فى ظهور آبائهم وآخرين فى بطون أمهاتهم سيدرسون هذه الدنيا على حقائقها ويقولون إنما مثل هذه التى سميت أسرارا إنما هى أشبه بتدريب الأطفال فى المدارس تدريبا عضليا جسميا لتقوية العضلات فى ساحات المدارس وهذا فائدته لتقوية الجسم وحده ولا ينتج فائدة مادية أخرى .

أما العمل فى الحقوق وفى الصناعات الذى سنه الله لخلقه فانه يفيد الأمرين : يفيد قوة البدن ويفيد نمو العمران وارتقاء الأمم وينتج الأغذية والملابس وسائر الصناعات . فنحن إذا وجدنا السابقين من متأخرى المسلمين أضاع بعضهم وقته فى هذه التى سموها أسرارا وقد مرنت عقولهم عليه ولكن ما نفعت أممهم فعلينا نحن أن نمرّن عقولنا على ما يكسبنا أمرين : رقى عقولنا ورقى أحوالنا المعاشية والمعادية . فانا إذا فعلنا كما كانت أوائلنا أيام الدولة العباسية وكما تفعل الفرنجة بعدهم من تحويل أرضنا من حال إلى حال وإحداث مالم يكن موجودا من المزارع واستخراج ما يستخرج من المعادن وأنواع السوائل المخزونة فى الأرض نلنا الأمرين رقى عقولنا بعجائب هذه المخلوقات وارتقاء مدنيتنا بالمنافع العامة . ففى عجائب تلك المخلوقات من النظام والجمال والبدائع مايدهش العقول ألف مرة بخلاف ذلك الوهم الذى لا يعجب به إلا المبتدئون فى العلم ثم يقولون أمر الله نبينا ﷺ أن يدعو الله أن يزيده علما . ولا جرم أن العلم الذى لا فائدة منه لا يطلبه نبينا ﷺ ويقولون إن العالم الذى يكون على قدم رسول الله ﷺ هو الذى يستخرج منافع هذه الدنيا ويكون كالنجم به يهتدى ومستحيل أن يكون كالنجم إلا إذا عمّ نفعه . ويقولون يقول الله تعالى « لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » فجعل الله التفكر فى الدنيا قبل الآخرة . ثم يقولون فلنبتدئ بالفكر فى الدنيا ونقرأ آيات الصدقات . يقول الله تعالى «فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة» فيفكرون إذن ويقولون إنّ إطعام المسكين والفقير له منزلة سامية وإذا كان آلاف آلاف من الأغنياء أطعموا ملايين من الفقراء وأغنوهم فهؤلاء لهم أجر عظيم ولكن ربما ظهر عالم فى الأمة فأبدع ما شاء الله أن يبدع فى هندسة الأرض بأن بنى قناطر حفظت الماء فسقت آلاف الفدادين (جمع فدان) . فهذا بعلمه نفع أمما لا أشخاصا فقط وهو وحده أفضل من هؤلاء الأغنياء كلهم وهكذا إذا ظهر من اقتحم العقبات العلمية ودرس طبائع الأرض وفهم خواصها فأدرك بعلمه ما فيها من معادن ومنافع كالنفط والقار التى ببلاد العراق فان من يتأمل فيها يجد الألمان والإنكليز لهم الحظ الأوفر فى استخراج ما بها من النفط والقار ويقطرونه وكان المسلمون أحق بتلك العلوم والمعارف لأن الله يأمرنا بالازدياد من العلم . الله أكبر ما أجمل العلم وما أبدع الحكمة . يا الله أدهشت عقولنا وأنرت بصائرنا عكمتك فى أرضك . يا الله أريتنا أرضك جنة واسعة . وكيف لا تكون جنة وقد رأيناها عروسا زينت للناظرين . عروسا قد حليت بأنواع الحلى .

فلا تدوم على حال تكون به كما تلون فى أثوابها الغول

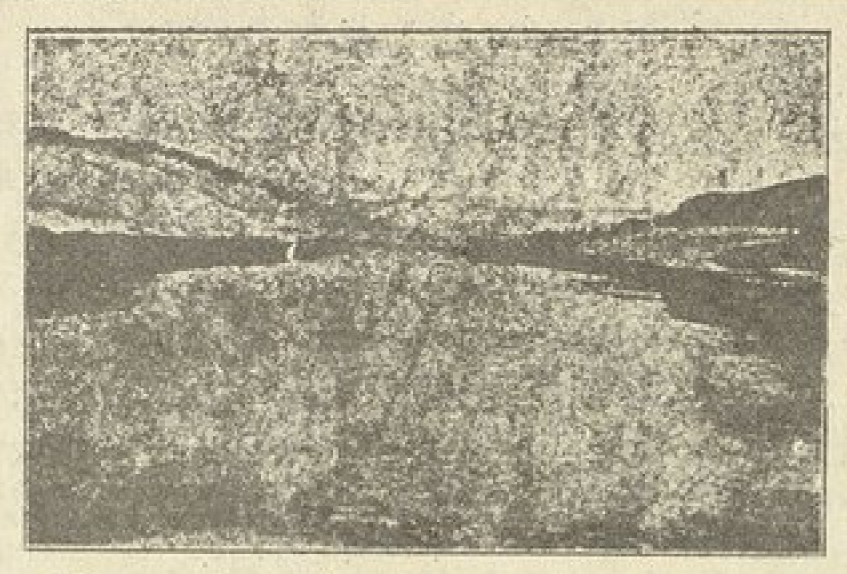
كيف لا ؟ وقد رأينا عيونا تنبع من الأرض بالماء البارد تارة والحار أخرى كما مرّ مصوّرا فى سورة الكهف وهكذا قد أخرجت عيونا كبارا وصغارا تنبع بالقار وهو فى حال الغليان وهناك يجتمع أشبه بالصلصال على الأرض أسود أملس صقيلا رطبا عطر الرائحة وذلك على بعد أربعة وأربعين ميلا إلى الجنوب من بلاد الموصل على الجانب الغربى من (دجلة) فى مكان يسمى (بالقيارة) .

وهناك بالعراق أيضا آبار يستخرج منها (النفط) كما يستخرج الماء من الآبار . ولقد فتحت بئر هناك فى زماننا فقذفت فى الجو ألوفا من القناطير من (النفط) فى مدينة (كركوك) التى تبعد من بغداد بنحو (٢٠٠) ميل إلى الشرق . وهناك مكان يقال له (بابا قرقر) يخرج منه غاز يتقد نارا متى لامس الهواء فاذا نكشت بأصبعك أو بعود رأيت اللهب يخرج من الأرض . وإذا حاولت سده بالتراب خرجت النار من مكان آخر وأرض النار هذه أربعة أمتار مربعة فيها بضعة عشر ثقبا يخرج من كل واحد منها نار ملتهبة كلهيب المصباح فى لونها (انظر شكل ١١) .

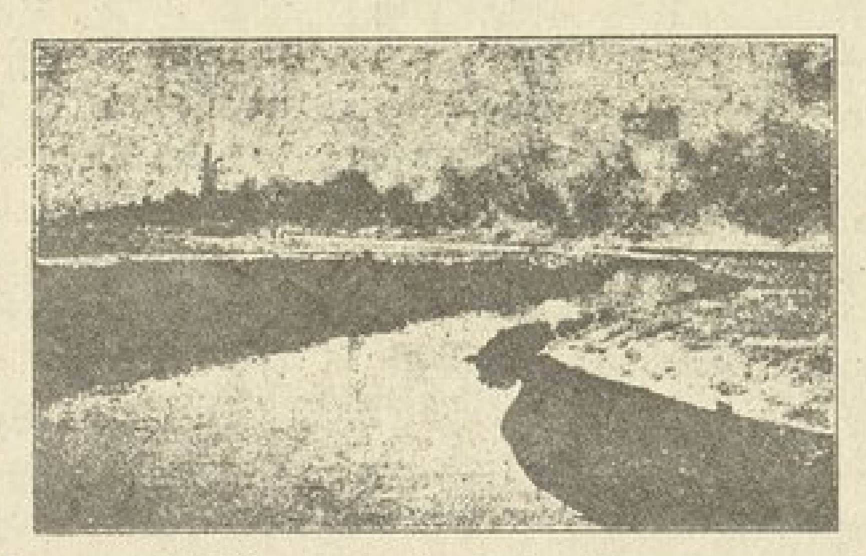


(شكل ١١ ــ رسم أطمة فى (كركوك) وهى عين من النار يقال لها (بابا قرقر) يظن أنها أتون النار المتقدة التى ألقى فيها الفتية الثلاثة على ما جاء فى سفر دانيال)

ويقال إن المجوس عبدوها لما رأوها تخرج على هذه الحال فى (باكو) وهو قول لم يحقق ، ولقد انفجرت بئر فى سنة ١٩٢١ بالقرب من (بابا قرقر) فجأة وارتفع فى الجو بضع مئات من الأمتار وكان يقذف (النفط) فى اليوم الواحد (٣٥٠٠٠) صفيحة من الصفائح المعروفة وذلك فى شهر ١ كتوبر من تلك السنة وجرى نهر من (النفط) وصار بحيرة وخشى على (كركوك) من الغرق وانهزم المهندسون والعمال ثم عادوا فردموا البئر ومات منهم ثلاثة خنقا بالغاز أحدهم مهندس أمريكى والآخران عراقيان . وبالجملة إن (النفط) و (القار) فى العراق كله (انظر شكل ١٢ وشكل ١٣) .



(شكل ١٢ ـ رسم بحيرة من النفط حيث تفجرت البئر قرب (بابا قرقر) فى (كركوك) ولعل البحيرة التى رآها الاسكندر كانت هناك)



(شكل ١٣ ـ رسم صورة أخرى لآبار (النفط) على مقربة من (كركوك) حيث تفجرت بئر واندفقت فجرى (النفط) نهرا واشتعل بعضه كما ترى فى الصورة ولا يزال مشتعلا)

﴿ تنبيه ﴾ هاتان الصورتان والتى قبلهما منقولة مع ملخص المعنى من مجلة (المقتطف)

خبرنى أيها الذكى هلا تخرّج من بلاد الإسلام علماء يختصون لذلك بالتعلم فى الأقطار الأوروبية ويشرحون الطريقة التى بها تستخرج تلك المواد من الأرض وننتفع بها . فهؤلاء لم يكن عملهم قاصرا على نفع مئات الألوف من الناس . كلا بل العالم منهم ينفع أهل الأرض كلهم لأن ذلك (القار) أو (النفط) ينقل بالتجارة إلى أقطار الأرض كلها فهو إذن قد نفع جميع الناس . فاذن العالم أفضل ألف ألف ألف ألف ألف مرة من الغنى وإنفاقه من علمه أفضل ألف ألف ألف ألف مرة من إنفاق الغنى من ماله . هذا هو سر قوله تعالى «وقل رب زدنى علما» . انتهى يوم الجمعة ٣ صفر سنة ١٣٤٧ و ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٨ .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « ولقد عهدنا إلى آدم » إلى قوله
« ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »

هذه الآيات ذكر الله فيها آدم ونسيانه وأنه ليس له عهد وذكر الجوع والعرى والظمأ الخ ووسوسة الشيطان والأكل من الشجرة وظهور عورتهما لهما .

اعلم أن هذه القصة أنزلها الله ليجعلها مرآة لبنى آدم فإذا تأملها الناس عرفوا أن ماجاء فيها منطبق عليهم تمام الانطباق ، وفى المثل (أسر حسوا فى ارتغاء) وأنت لك القصد والقرآن لا يواجه الناس بحقائق أحوالهم بل يكنى لهم ويرمز ليكون أدعى إلى التفكر وأقرب إلى التأمل ولو أن الحقائق التى تضمنتها هذه القصة ونحواها صرح بها القرآن ليئس بنو آدم من الرقى واليأس يمنع الرقى إلى الكمال . إن بنى آدم يعيشون فى هذه الأرض وقد أحاطت بهم الثلاث واستبانت الحقائق . فهذه الطيور والبهائم تعيش لا طبخ ولا عجن ولا خبز ولا إسراف فى مأكل ولا مشرب ولا يقرب الذكر أنثاه إلا عند الحاجة إلى الحمل ثم لايقربها إلى أجل مسمى . فالطبيعة المحيطة ببنى آدم قد برزت مكتوبة بخط جميل ظاهر .

إن السعادة والهناء والسلامة والصحة فى القناعة والرضا وعدم الإسراف . فماذا فعل هذا الإنسان ؟ طغى وبغى وتعدى حده فى مأكله ومشربه وملبسه وهذه كلها مذكورات فى هذه الآيات وجهل ماخطه الله على لوح الطبيعة من النظام .

هذا الإنسان خلق له الجوع والعطش والتألم من الحرّ والبرد فأمد بكل غذاء للجوع وبالماء للعطش وبالملابس لمنع آلام الجوّ ولكنه لما تناول الغذاء جهل أصل القصد منه فتفنن فى ضروبه وألوانه .

ولما تعاطى الماء ظهر جهله فيه فتفنن فى ضروب اللذات فأصبح سريع شهوته قتيل جهالته .

ولما استعمل اللباس لم يقف عند الحاجة بل أخذ يتزين به ونسى كمال نفسه فأصبح بنوآدم بهذا عبيد العصا وأدخلوا فى جهنم دار الذلة والهوان وقد نسوا نسيانا تاما سعادة الطير وقناعته بريشه واكتفاءه بالحب يلتقطه وهو مغرد طرب . وهكذا الأنعام لها جلودها وأشعارها وأوبارها لم ترد زيادة عنها . وهكذا الماء تشربه قراحا لاتمزجه بحلوى ولا تجعله خمرا . فهذه المحن التى وقع فيها بنو آدم هى المضاهية لما قيل فى آدم إن الشيطان وسوس له وأنه أكل من الشجرة وأن السوأة بدت لهما وأنهما أخذا يخصفان من ورق الجنة . فذكر الأكل وذكر الخصف راجع للجوع والعرى والأكل يتبعه الشرب ، ثم ذكر العداوة والإسراف ونسيان العهد ولا جرم أن الانهماك فى هذه المطالب إسراف وهو يورث العداوة . إن النسيان المذكور فى الآية قد عم هذه الكرة الأرضية كلنا نجهل أصل المقصود من الجوع ومن العطش الخ . ولقد ذكرت نبذة فى هذا الموضوع فى سورة (البقرة) عند قوله تعالى « أتستبدلون الذى هو أدنى » الخ وفى سورة (الأعراف) عند قوله تعالى «وكلوا واشربوا» وفى سورة (الحجر) عند ذكر آدم فى أول السورة وفى هذه المقامات الثلاث ذكرت أهم الشروط الصحية فى الملبس والمأكل والمشرب . وأن الأمم والأفراد الذين انهمكوا فيها ذلوا فى الدنيا بالضعف والذل «ولعذاب الآخرة أشد وأبقى» وها أناذا الآن أقرأ فى كتاب الصحة تأليف زعيم الهندوس الأكبر (مهاتما غاندى) الذى ترجمه الأستاذ الشيخ (عبد الرزاق المليح) آبادى فعجبت كل العجب أن يكون هو قد استطلع من الطب الحديث ما يقوى ما ذكرته سابقا فى هذه المواضع الثلاثة ولكنه هو زاد أمرا عجبا ذلك أنى كنت أتوخى فيما أكتبه أن أبين للمآكل الضارة مثل الدقيق المنخول والسكر وكذلك ما يشرب مثل القهوة والشاى والخمر .. وهكذا قد أبنت للضار الناجمة من ترك الرياضة البدنية التى جهلها كثير من المسلمين فضعفت أبدانهم ورقت عظامهم وقصرت آجالهم . أما هو فقد أطنب فى ذلك وأبدع فيه ثم أتبعه بما كنت

أود أن أعرفه أنا ويعرفه قراء هذا التفسير . ذلك أنى كنت أقرأ فى المادة الطبية للطبيب المصرى وهو الشيخ الرشيدى بعض أعمال طبية عجيبة تداوى من أكثر الأمراض بلا استعمال دواء، وذلك هو الاستحمام بالماء البارد أو الحار. وهكذا قرأت فى كتب أخرى أن الهواء وضوء الشمس والطين . كل هذه تقوم مقام الأدوية وهكذا كنت أقرأ فى الكتب القديمة والحديثة أن استعمال الأدوية التى ملئت به الصيدليات فى زماننا مادخلت معدة أو منزلا إلا كانت سببا فى تسلسل الأمراض كما قدمته فى سورة (البقرة) مفصلا ولكنى كنت أتمنى أن أرى طرق المداواة بهذه المواد ممهدة سهلة بحيث لايحتاج الإنسان فيها إلى مرشد سوى الكتاب . فلما اطلعت على هذا الكتاب ألفيت المؤلف قد أوضح طرق العلاج إيضاحا تاما وذكر أنه قد جربها فعلمت أن الله عز وجل قد أذن لذوى الجد من قراء هذا التفسير أن يستغنوا عن الأطباء غالبا متى قرءوا ماسأنقله عنه من تلك الكيفيات الصحية التى شملت الأمراض الظاهرة والباطنة اللهم إلا قليلا . فها أنا ذا أنقل من ذلك الكتاب القسم الأول منه وهو مايحفظ الصحة هنا وأرجئ قسم المداواة إلى سورة (الشعراء) فأكتبه عند قوله تعالى « والذى هو يطعمنى ويسقين » فان حفظ الصحة بمقامنا هنا أليق والمداواة بآية (الشعراء) أنسب وسأنقل من الكتاب فى القامين عيون كلامه وأهم ما يناسب التفسير وليس هذا خارجا عن التفسير بل هو من صميمه ، وإذا كنت فى سورة (آل عمران) أذكر نبذة جميلة من علم التشريح بمناسبة قوله تعالى « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » وأذكر عند قصة إبراهيم الخليل فى سورة (الأنعام) أجمل مافى علم الفلك وأذكر عند قوله تعالى فى سورة (المائدة) « وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم » الخ خلاصة ما جاء فى الكشف الحديث من ظهور حقائق جديرة بالاعتبار بها عرف الناس أن كثيراً من عبارات الأناجيل منقولة بالحرف من كتب الهنود .

وهكذا ترى أيها الذكى أن الآية قد يكتب عليها نحو عشرين ورقة أو أكثر أو أقل ثم ذلك كله فوائد علمية تشوق للعلم فما بالك بما يقوّم صحة الأبدان ويزيح عللها ويجعل المرء قوى البدن صحيح الجسم قوى العقل والذاكرة ليربح السعادة فى الدنيا ويعم نفعه أهل بلاده وأهل دينه . لاجرم أن هذا أحق بالعناية وكل علم رسم فى ذهن سقيم يسقم تبعا للعالم به والسقم يتبعه الموت . وفى المثل [العقل السليم فى البدن السليم] .

ولنبدأ الآن بذكر قسم حفظ الصحة هنا ملخصا أجمل ما ذكره لتستيقن بما كتبته سابقا لأنه ما كتب ذلك إلا بعد التجربة وقراءة كتب الطب الغربية العصرية المطولات. ولنذكر ما جاء فيه على ترتيب ما فى الآية فقد جاء فيها الجوع والعرى والظمأ فلنذكر الكلام على الغذاء ثم اللباس ثم الماء ثم الهواء تبع ترتيب الآية فنقول :

قد ذم إكثار الأكل الذى يوجب تعاطى المسهلات والحبوب الهاضمة وذكر أنه هو قد كان وقع فى ذلك إذ كان يشرب الشاى صباحا ثم يفطر بعد ساعتين ثم يتغذى الساعة الواحدة ثم يشرب الشاى ثانية ثم يجلس للعشاء بين الساعة السادسة والسابعة . قال فلا تسأل عن تعاسى وسوء حالى فى تلك الأيام فكان حشو جسمى الكثير من الشحم يوجب أن يكون عندى قوارير للأدوية تلازمنى . قال وكانت مقدرتى العقلية ونشاطى ثلث ما أحس به اليوم مع أنى كنت فى عنفوان الشباب ثم أخذ يذكر الطيور وقناعتها وهكذا جميع الحيوانات وتعجب كيف نعد أنفسنا أفضل المخلوقات وقد سبقنا الحيوان إلى هذه السعادة . ثم بين أن الغش والسرقة وغيرها من الذنوب مبنية على هذه الشراهة والطمع ، وأخذ يضحك من هذا النوع الانسانى للسرف فى لذة الأعراس والأفراح والأعياد ولا يخجل الناس من هذه الفضائح لشحن بطونهم . قال وهذا إثم كثير القلب مفخرة فبدل أن الناس فى الأعراس حين يقتلون أنفسهم بالبطنة يلومون أنفسهم تراهم يفتخرون بهذه المذبحة والمهلكة والموت الزؤام فأصبح ما يوجب الخجل والخزى بابا من أبواب الفخر والشرف وكأنه بهذا يعبر عن قوله تعالى « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » .

أقول : الحمد لله قد أصبح علم الطب فى العصر الحاضر كتفسير للقرآن . ذلك أن الله علم أن الأمم ستزداد عددهم على الأرض فيستبحر العمران ويزدحم السكان ويكثر الطاعون والوباء ، فذم فى القرآن الإسراف أولا وعمم الأطباء فى العالم الإنسانى ثانيا وزاد الطب رقيا على مقدار ازدياد الأمراض انتشاراً . ثم أفاد أن هذا النوع الانسانى بكره اللصوص والغشاشين ولكنه لا بعد البطنة ذنبا مع أنها إثم كبير وأصحابها أهل المقت والسخط وذكر ما يتبع ذلك من الخمر والحشيش والأفيون وأخذ يقبح التبغ وعادة تعاطيه كما قدمت الكلام على ذلك كله فى سورة (البقرة) عند آية الخمر وفى سورة (الأعراف) وأخذ يقول إن الناس لا يعلمون الدسائس المتنوعة التى يستعملها صناع السجاير إذ يرشون التبغ بحامض الأفيون وغيره من الحوامض المعطرة لكيلا نقدر على تحرير أنفسنا من قبضته إذا أردنا ذلك . ثم قال والمدخن يصبح عبداً خاضعا للتبغ إلى درجة يفقد فيها كل شعور الحياء والخجل وهؤلاء إذا لم ينالوا التبغ يرتكبون الجنايات المحمول عليه وحكى حكاية (ليون تولوستوى) الروسى إذ قال [أراد رجل لسبب ما قتل زوجته فاستلّ مديته وهمّ بالجناية ولكنه أحس حالا بالندامة فأعرض وأخذ يدخن فلم يلبث أن غشى على مشاعره تأثير التبغ فقام من فوره وقتل المرأة] قال فاستدلّ الحكيم بهذه الحكاية على أن الدخان أشد تأثيرا على المخ من الخمر وأكبر خطرا منها . ثم أبان أن التدخين يوجب انحطاطا كبيراً فى قوة الهضم لأن المدخن لا يشعر بالميل إلى الغذاء ولذلك يستعمل المربيات والبهارات والمعوقات بكثرة ونفسه يتعفن ويظهر فى بعض الحالات على وجهه البثور والنفاطات وتسود الأسنان واللثة وقد يقع بعضهم فى أمراض خطرة والدخان (التبغ) يعفن الهواء ويفسده وبهذا تستضر الصحة العامة ضرراً كبيرا . وقال مثل ذلك فى الشاى وأشدّ وهكذا القهوة والكاكاو . وأبان أن هذه المنبهات مضرة . وأنا أقول فأنا أحمد الله إذ نقل عن الأطباء واصطفى من أقوالهم ما اصطفيته سابقا فى المقالات التى ذكرتها لك قريبا وقال إنها تحتوى على نوع من السم ثم كرر القول وأكده أن القهوة والشاى والكاكاو كلها رديئة لاحتوائها على مواد كلها مضيعة لقوى الهضم ومن تعود على شىء منها لم يقدر على تركه إلا بعسر . وذكر أن شاعرا هنديا وصف القهوة بأنها تزيل البلغم والنفاخ ولكنها تضعف قوة الرجولية وترقق الدم وترقق المنى . ثم قال وقد صدق فيما قال فالأضرار الثلاثة حق ولكن البلغم والنفاخ يمكن الاستغناء عنها بسائل الزنجبيل فهو أنفع فيها لهذا الغرض . ثم قال إن إثم القهوة أكبر من نفعها . فإذا كان شىء يفسد المادة المنوية ويسمم الدّم أفلا يجب اجتنابه وقال إن الكاكاو فيه مادّة تضعف إحساس الجلد وفيه مضار كالشاى وكالقهوة .

ثم اخترع قهوة تقوم مقام الشاى والكاكاو ولكنها قهوة صحية نافعة ويجد الذين يشربون القهوة فيه طعما . لا يفرقون بينه وبين طعم القهوة .

وذلك أن يوضع قمح جيد منقى فى مرجل فوق النار فيقلى حتى يحمر ويضرب إلى السواد ثم يسحق كالبن ثم تأخذ من المسحوق ملعقة وتضعها فى فنجال وتصب فوقها ماء فاترا ، وإن وضعتها على النار نحو دقيقة فهو أحسن وتضع عليه اللبن والسكر إن شئت فهذا شراب لذيذ أرخص وأصح من القهوة . ثم ذكر أن الأغذية إما لحم لأهل المناطق الباردة كالإسكيمو وإما نبات لأمم كثيرة وإما مخلوط فيهما لأقوام .

ثم أثبت بالبحث أن الجسم الإنسانى أقرب إلى مناسبة الغذاء بالفاكهة . ذلك لأنه ليس كجسم البقر والجاموس مثلا فذلك لها أربع معدات كما تراه مرسوما بالشكل فى سورة (النحل) . أما الإنسان فله معدة واحدة . إذن ليس طعامه كطعامها فهى تأكل النبات . نعم الإنسان أقرب إليها من الآساد والنمور آكلات اللحوم ولكن تركيب المعدة مخالف ولكن الانسان أقرب إلى الحيوانات آكلات الثمار كالقرد مثلا فهو شبيه به فى شكله وتركيب بنيته . فإذن الإنسان أبعد عن نحو الأسد جدا وعن نحو البقر نوعا ولكنه أقرب إلى القرد آكل الثمر كالموز والبرتقال والتمر والعنب والتفاح واللوز والجوز والفول السودانى والجوز الهندى . ونقل عن الأطباء

أنّ

أن الانسان لا ينبغي له أن يعالج الطعام بالطبخ فهو يقدر أن يعيش على ما تنضجه الشمس بحرارتها كالحيوان وأيضا إن أكثر المواد الغذائية تضيع بالطبخ . فأما التي لا تؤكل نيئة فانها لم تخلق لغذائنا . وبعد أن ذكر هذه الآراء قال إن قراء الكتاب سيسخرون من هذا الرأي ولكن عليّ أن أقول المثل الأعلى لهم وماجربته بنفسي وأنا واثق أنه لاأحد من القراء يعمل به ولكن عليّ أن أظهر لهم حقيقة العلم ومن أراد ذلك فليسر فيه بالتدريج . هذا كلامه هو ثم قال [إن كثيرا من الناس في انكلترا اقتصروا على الفواكه ودوّنوا نتائج تجاربهم . قال وقد ألف الدكتور الألماني (جست) كتاباضخما في الموضوع أثبت فيه قيمة غذاء الثمار بكثير من الدلائل والشهادات وهكذا عالج كثيرا من الأمراض بوصف هذا الغذاء مصحوبا بالمعيشة في الهواء الطلق] قال [وقد توسع حتى قال إن أهالي كل قطر يقدرون أن يستغنوا بثمار بلادهم] ثم قال المؤلف نفسه إنه جرب الثمار وحدها ستة أشهر فاقتصر على الموز والفول السوداني والتمر وزيت الزيتون مع بعض الفواكه الحامضة كالليمون . قال وقد نجحت تماما . قال ولقد بقيت صحيحا وغيري قد مرضوا وقواي العقلية والجسمية أقوى الآن بكثير وأنا أكثر فيه ثباتا وعقلا وحزما . وهكذا جربت غذاء الثمار في كثير من المرضى . وبالجملة أقول إن تجاربي الشخصية وقراءتي لكتب الطب زادتني رسوخا في الاعتقاد بأن غذاء الثمار أحسن غذاء للانسان .

وبعد أن فرغ من هذا قال [إن غذاء النبات أحسن غذاء بعد غذاء الثمار . والمراد بالنبات مايشمل أنواع الخضروات والحبوب ويلحق بها اللبن ، ولكن النباتات تغذيتها أقل من الثمار لأنها تفقد جزءا من قوتها أثناء الطبخ ولابد منه لأنه يتعذر أكلها نيئة ، وههنا ذكر أحسن النبات فقال (القمح) أحسن أنواع الحبوب ويمكن أن يعيش الإنسان عليه وحده ففيه جميع المواد المغذية . وقد تقدم هذا في سورة الحجر موضحا وأقل منه الدخن والذرة وههنا أخذ يذم الدقيق والخبز في السوق وأنا أكتفي من هذا بما تقدم في سورة (الحجر) فانه هناك واضح كل الإيضاح . وهنا استحسن في القمح أن يجرش ثم يطبخ ويخلط معه اللبن والسكر فيكون طعاما لذيذا] . أقول وأنا أخالفه في أمر السكر لأنه مضر بالصحة وأخالفه في اللبن لأني سأنقل عنه أن تركه أفضل من تعاطيه ، ثم ذم غذاء الأرز وقد تقدم هذا في سورة (الحجر) .

ومن العجيب أنه أخذ يذم البقول ويقول إنها وإن كانت تساعد في تنظيف الدم فهي عسرة الهضم جدا فيجب الاعتدال فيها وذم العدس واستشهد بكلام الدكتور الانجليزي (بق) والقاف تنطق أشبه بالكاف إذ قال [إن العدس يجلب الشيخوخة قبل أوانها] وقال [فالأحسن لمن لا يقدر على ترك البقول والعدس أن يقتصر منهما على القليل] ثم أخذ يذم البهارات مرة أخرى والتوابل . وذكر أن السودانيين حقروها ومتى أكلوها أفسدت معدانهم وظهرت بثور على وجوههم ثم كرر القول أن البهارات والتوابل لا يقصد الناس منها إلا أنها تهضم طعامهم لكنها لا تحدث لهم إلا جوعا كاذبا وينتهي لهم ذلك بفقر الدم وبالاسهال . قال وقد مات رجل إنجليزي بسبب أكل الفلفل الأحمر ثم زاد على ذلك أن الملح أيضا ملحق بالبهارات ومن ترك الملح نظف دمه حتى لا يؤثر فيه لدغ الثعبان والمصاب بالبواسير وضيق النفس يشفى إذا ترك الملح . قال ولما تركت الملح استفدت فوائد منها عدم كثرة شرب الماء . ومن يترك الملح لابد أن يترك معه النبات والعدس، إن الخضروات والعدس لا يمكن هضمها بدون الملح . قال والذي يترك الملح بتاتا يشعر في أول الأمر بفتور واسترخاء ولكنه إذا ثبت على ذلك استفاد فائدة تامة . ثم أخذ يذم اللبن ولما ذمه كرر القول أنه واثق أن قراءه لايوافقونه ولكن عليه أن يقول الحقيقة والمثل الأعلى، ذلك لأن العجل يرضع لبن أمه فاذا كبر استغنى بالحشائش . ومعنى هذا أن الكبير منا لايصلح له اللبن كما فعل الثور تماما لأن هذا هو درس الطبيعة المشاهدة واستدل بقول الأطباء إن اللبن يورث نوعا من الحمى وإن هناك في الجو جراثيم تسقط على اللبن فتسممه وفوق ذلك ما يعلمه الناس أن المرأة المريضة لبنها يمرض ولدها هكذا البقرة المريضة يفعل معنا كذلك .

أين لنا البيئة السليمة والأطباء يطلون الهواء للأم ليضع رضيعها . فاذا كان هذا شأن اللبن فلنستعض بدله زيت الزيتون . واللوز الحلو بدل قوى جيد للبن فيوضع فى الماء الساخن ويزال قشره ثم يسحق جيداً ويعرس ويمزج مزجاً فهو يهيء شراباً محتوياً على جميع مزايا اللبن وسالما من جميع مضاره . ثم قال إذا كان العجل عند ظهور أسنانه يكتفى بالحشائش ويترك اللبن فهذا معناه أننا نحن إذا جاوزنا سن الطفولية نعيش على اللوز والتفاح واللوز وهكذا سائر الثمار أو على خبز القمح قال وبترك اللبن نجنى فوائد اقتصادية . قال وعرق الليمون الحامض بدل جيد للبن الحامض وأما السمن فألوف مؤلفة من الهنود يستعملون بدله الزيت ، ثم عقد فصلا للحم فقال قد ثبت بالفحص أنه ليس غذاء طبيعيا للانسان والدكتور (بق) المتقدم ذكره والدكتور (كنجزفورد) أظهرا بكل وضاحة مضاره فى أجسامنا وأثبتا أن الحمض الذى يولد المدس يولده اللحم واللحم يولد الأمراض فى الأسنان والروماتيزم فى الجسم ويحرك الأميال الرديئة كالغضب . وما الغضب وسائر الشرور إلا صور من صور الأمراض . قال وقد أخذ بعض آكلى اللحوم يهجرونها ويرجعون إلى الغذاء النباتى . ثم أبان أن المقتصرين على اللحم حالتهم رديئة . ثم أتى بهذه النتيجة أن الذين يعيشون على الثمار قليل ويسهل أن يعيش الإنسان على الثمار مع القمح وزيت الزيتون . فهذا غذاء يساعد مساعدة كبيرة فى تقوية الصحة ثم رتب الفواكه هكذا اللوز وبعده التمر والعنب والبرقوق والبرتقال وأمثالها . قال ويمكن تناولها مع الخبز ثم قال إن الخبز لا يفسد طعمه إذا بل بزيت الزيتون . قال وهذا الغذاء لا يحتاج فيه إلى الملح والفلفل واللبن والسكر وتحضيره سهل ورخيص ، ثم قال إن أكل السكر وحده حماقة والإكثار من الحلويات يضعف الأسنان ويضر بالصحة والمأكولات المصنوعة من البر والثمار جامعة بين الصحة واللذة .

﴿ مقدار الغذاء . ذكر أن الأطباء يسلمون بأن تسعين فى المائة من الناس يأكلون أكثر من حاجتهم ﴾

وهنا أطال فى أمر مضغ الطعام وجعل له المقام الأول ونقل عن الأطباء أن مضغ الطعام جيدا يفيد مواد غذائية كثيرة من طعام قليل حتى بالغ كاتب خبير فقال [لو مضغنا الطعام جيداً لم نحتج إلا إلى أوقيتين أو أربع أوقيات من الغذاء] . قال الدكتور هذا القول بعد أن جرب تجارب لا تحصى وقد بيعت نسخ كتابه ألوفا مؤلفة . وبراز الذى يأكل طعاما نافعا غير كثير يكون قليل المقدار متماسكا بعضه ببعض ولينا ذا لون قاتم وخاليا من كل رائحة خبيثة . ومن يرى أن برازه ليس كذلك فليعلم أنه يأكل طعاما كثيرا غير نافع ولا يمضغ جيدا وهكذا من يشكو الأرق أو ينام نوما متقطعا مقلقا بالأحلام أو يجد صباحا على لسانه اللعاب متجمدا فهو مكثر من الأكل والعفونة فى نفس الأسنان تدل على أن طعامه لم ينهضم تماما وظهور البثور فى الوجه وفى داخل الأنف وتولد الريح فى البطن كل ذلك من كثرة الأكل . وبالاختصار يقول إن أصل المصائب أننا جعلنا بطوننا مزابل . وهنا أخذ يحسن فرض الصيام وأوجب أن يصوم الإنسان كل أسبوعين يوما على الأقل لأجل الصحة قال وقد تأسست فى انكلترا وأمريكا جمعيات تحض على الاقتصار على الأكل مرتين فى اليوم فلا يفطرون صباحا ولا يأكلون إلا بعد ثلاث ساعات من استيقاظهم ، وهناك دكتور اسمه (ديوى) ألف كتابا جليلا فى الصوم وأثبت فوائد ترك الفطور . قال وأنا جربت فى مدة ثمان سنين أنى قد اكتفيت بمرتين فى اليوم وهذا خير لمن جاوز سن الشباب .

﴿ الرياضة ﴾

قال إنها ضرورية فى الهواء الطلق كضرورة الماء والهواء والغذاء . ومن لا يواظب عليها لا يكون صحيحا، وأفضل الرياضة العمل فى البساتين والحقول ساعات فى النهار ، فهذه رياضة جسمية وعقلية معا ويليها رياضة المشى وهى وإن كانت أقل من العمل فى الحقول والرياض قد سميت (ملكة الرياضات) وأنا أقول إننى أثناء تأليف هذا التفسير كنت لا أكتب مطلقا إلا بعد المشى على قدمى نحو ستة كيلو مترات كل يوم وأنا أعتقد أن هذا

قليل ولكنه نفعنى والحمد لله وأنا الآن مواظب على الرياضة غالبا . ولكن ممارسة الكتب العلمية تزيد الإتقان رغبة فى العمل . ثم ذكر المؤلف ما كتبه الكاتب الأمريكى الكبير (تورو) الذى أطنب فى فوائد الرياضة ، ثم قال ما نصه : إن كتابة أولئك الذين يعيشون فى البيوت ولا يخرجون منها أبدا فى الهواء الطلق تكون ضعيفة كأجسامهم وإن أحسن مؤلفاتى كلها هى أنى ألفتها فى الزمن الذى كنت أمشى فيه كثيرا . وقد كان يمشى أربع أو خمس ساعات كل يوم ، ثم قال : إن المشى ميلا أو ميلين ليس بمشى لأن مشى عشرة أو اثنى عشر ميلا ضرورى للرياضة فان لم يكن كل يوم فليكن يوما فى الأسبوع . ثم ذم لاعبى كرة القدم والصولجان فقال إنهم لا يملكون قوى عقلية تامة .

﴿ اللباس ﴾

أما اللباس فقد حدثتك عنه فى سورة (الأعراف) وكذلك الماء هناك موضحا وسأزيدهما هنا إيضاحا من كلامه وأزيد عليهما الماء فأقول :

يقول إن الإنسان خلق فى الأصل عاريا مكشوف الجسد فكان جلده متينا قويا يتحمل (حمارّة القيظ) (وصبارّة) الشتاء ووابل المطر ونحن لا نتنفس بفمنا فحسب بل بجلدنا كذلك فتغطية الجلد تمنعه عن أداء وظيفته ، فلما شاعت عادة اللبس أخذ أهل البلاد الباردة يغطون أجسادهم لأنهم لا يتحملون البرد ، ثم صار اللباس للزينة ثم صار عنوانا على الوطن والجنس ونحوهما . والحق أن جلدنا خلق كسوة لنا وتوهم الناس أن جسمنا العارى غير جميل توهم باطل ، ثم قال إن الجسم العارى أجمل من اللابس وأخذ يذم الحلى ، فقال إن منها ما يكون سببا فى تراكم الأوساخ كربقى الأنف والأذن . وذم الملابس الأفرنجية فى غير البلاد الباردة فيجب أن يكون واسعا فى غيرها ، وقال إن اللباس الأسود يكون أحر من الشمس بخلاف الأبيض لأن الأول يشرب الحرارة ويجمعها والثانى ينبذها ولا يقبلها ، وسمى الرجلين سماسرة الأمراض لأنها تتوسخ وتعرق وتتعفن تعفنا شديدا فيجب تغطية باطن الأقدام دون ظواهرها واختار هو لذلك القبقاب وذلك كما فعل قدماء المصريين من لبس نعال كنعال أهل الحجاز ولم يقتصر على ذلك حتى أمر الناس أن يمشوا حفاة .

﴿ الزواج ﴾

ولقد منع الإسراف فى هذه الشهوة وبالغ حتى حرم أكثر تمتع الناس بها لأن حفظها يقوى عقولنا ويحفظها إذا كبرنا فننفع الناس بعقولنا ولا نموت إلا وقد أدينا ما علينا للناس . إذن يكون موتنا سعادة لأننا أرضينا ربنا بمنفعة عباده ولا نقدر على ذلك إلا إذا صحت عقولنا وأجسامنا وهما لا صحة لهما إلا بحفظ هذه الشهوة وعدم خطورها بالبال . وإذا كان لابد منها فليكن ذلك لطلب النسل لا غير [أقول وذلك كما يفعل الحيوان سواء بسواء] ثم إنه بعد ذلك يقول : إن هذا القول لن يقبله أحد من الناس ، ولكن أنا ألفت الكتاب لإشراف نوع الإنسان النافعين للأمم أولئك هم المتقون «وقليل من عبادى الشكور» ويقول [من غلبته الشهوة من هذه الطائفة فليستحم بالماء البارد] وقال [إنى وقعت فى الإسراف فى هذه الشهوة عشرين سنة وها أنا ذا الآن أحمد الله إذ أحافظ عليها وأحفظ عقلى وجسمى مدة الحياة] .

هذا ما قاله فى الغذاء ، والغذاء لابد له من الرياضة ويتبعهما أمر الشهوة ثم مجمل ما ذكره فى اللباس وقد وعدت أن أذكر الغذاء لأجل ذكر الجوع فى الآية ثم اللباس وأتبع ذلك بالماء مراعاة لنظام الآية هنا إذ يقول تعالى «إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها» الخ فلأختم القول بالماء وأتبعه بالهواء .

أما الماء فقد وضح فى سورة (الأعراف) أى وضوح كما ذكرته هنا فلنذكر شذرة مما قاله هنا يقول :

إن الماء يفسد بسببين سبب المكان الذى هو فيه وسبب أنفسنا ، فالماء الذى فى مكان قذر تحذر منه عادة ، ولكن ماء الأنهار والمجارى النظيفة نلقى فيها القاذورات نحن ثم نشرب منها فليحذر الناس من شرب الماء من الأنهار التى فيها القذر فلتخصص الجهة العليا من النهر للشرب والسفلى للاغتسال وغسل الأشياء مثل الملابس والأوانى ، وهناك بلاد تعودوا أن يحفروا بجانب النهر حفرة فى الرمل ويأخذوا منها الماء لشربهم وهذا الماء يكون نظيفا جدا لأنه مصفى بالرمال ومنع شرب ماء الآبار إن لم تكن مبنية بناء محكما حتى لايقطر الماء الوسخ فيه وسقوط الطيور والهوام وتعفنها فيه واتخاذ الطيور أوكارها فيه . كل ذلك يفسد الماء وكثيرا مايتسرب إليها الماء الوسخ من باطن الأرض فليحترس من شرب ماء الآبار . وهكذا من خزن المياه فى الحوض المكشوف فليغط ولينظف حينا بعدحين . ثم قال وقليل من الناس من يراعون الأحواض والآبار فلا يصح الاغتسال فى النهر ولا غسل الملابس فى موارده العامة للشرب خاصة أو قضاء الحاجة والبول على شواطئ الأنهار فالماء الصافى نادر . لذلك هيأ الأطباء الماء المقطر لمرضاهم . فمن شكا الإمساك يشفى غالبا بشرب الماء المقطر . وفى كتاب حديث فى هذا الشأن مبالغة عظيمة فى الماء المقطر أن استعماله بطرق خاصة يمنع جميع الأمراض وهذه مبالغة ولكن تدل على فائدته .

﴿ الهواء ﴾

ثم ذكر أن الإنسان لا يعيش بدون الهواء خمس دقائق . نحن نعرف الماء القذر فنتجنبه ولكننا نتنفس فى الهواء الفاسد وكأننا نتعاطى القىء ولا نحس به . فاذا تنفس الناس فى حجرة قد أصبح هواؤها كالقىء ولكننا لا نعرف ذلك . وأخذ يتعجب ممن ينامون أو يجلسون طويلا فى حجرة مغلقة . ثم قال إن الهواء الفاسد قد قضى على صحة (٩٩) فى المائة من الناس ، فالسل وحمى الدق وسائر الأمراض العفنة سببها الهواء وقال إن المراحيض إذا لم تبن على طريق صحى أفسدت الهواء . والسنانير تدفن البراز فى التراب وكذلك الكلاب . يجب أن تنظف المراحيض بأيدينا ولا نخجل ونمنع البصق فى الطرق لأنه يعدى الناس إذا كان صاحبه مريضا ونمنع التنفس بالفم وهكذا . وأفاد أن ينام الإنسان ليلا تحت ضوء القمر فى ساحة طلقة الهواء ، ويكون فى النهار فى مكان طلق بقدر الإمكان . وإذا نام الإنسان فى حجرة فليترك بابها مفتوحا واستنشاق الهواء البارد لايحدث الزكام . ثم يحدث عند الذين أفسدوا رئاتهم بالنوم فى الحجرات المقفلة وغيروا عاداتهم فجأة ولكن لاينبغى لهم أن يخافوا من البرد لأنه إن أصابهم لايلبث أن يزول قريبا وكشف الوجه فى أثناء النوم ضرورى وإلا تنفس الانسان فى الهواء الذى قذفه وهكذا يقول فى النور لابد منه . قال وقد شفى كثير من المرضى على يد علماء أوروبا بالاستحمام الهوائى والاستحمام الشمسى بدلا من الأدوية . وقد شفى ألوف من المرضى بتعرضهم للهواء والشمس ولم يستعملوا أى دواء . فعلينا إذن أن نترك جميع أبواب بيوتنا ونوافذها مفتوحة ليدخل فيها النور والهواء بكثرة . هذا ما أردت أن أذكره من قسم المحافظة على الصحة من ذلك الكتاب ، ولقد لخصته لك تلخيصا لايضيع عليك وقتك مع الايضاح وأرجأت كيفية المداواة لجميع الأمراض غالبا بدون شرب دواء إلى سورة (الشعراء) كما ذكرت سابقا . وهنا اعتراض ، فرب قائل يقول لى إنك فى هذا التفسير قد أتيت بالمتناقضات لأنك فى سورة (الأعراف) قد جمعت بين أنواع اللحم وأنواع الخضروات وجعلتها مرتبة فى طرق استعمالها وهضمها . وهنا نقلت أن اللحم والخضروات لا لزوم لها وفى سورة (البقرة) أيضا منعت اللحم . فإذن أنت إنما تنقل الكلام على عواهنه والقارئ لا يعرف لك رأيا وهذا أمر لا يقبله العقلاء . أقول هذا حصل فعلا ولكن الأطباء عند المرضى وظيفتهم كوظيفة الوعاظ والمصلحين للعقول . فالطبيب عادة يجد الناس يأكلون كل شىء فعليه هو تنظيم مايأكلون . وهكذا المصلحون ينظمون أحوال الناس

وعاداتهم

وعاداتهم وليس فى استطاعة هؤلاء ولا هؤلاء أن يغيروا العادات تغييراً تاماً . فما ذكرته فى سورة (الأعراف) هو الطب المعتاد بين الأمم . وما ذكرته هنا لطبقة ترتفع به عن طبقات الناس وتحظى بسعادة وصحة خير ما عرفه الناس من السعادات . ثم إن ما ذكرته أنا فى سورة (الأعراف) مناسب لها لأن الله تعالى يقول «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» فوجب تنظيم الأكل هناك . أما هنا فالله يقول قولا آخر ، يقص علينا قصة أبينا آدم ومن هذه القصة نرجع إلى تاريخ حياتنا نحن . نحن كنا نعيش فى الغابات ونأكل من الثمرات فهذه جنتنا الصحية كجنة آدم أبينا . ثم إننا قلنا لابد من لذات وزينة فانتقلنا إلى ما نحن فيه الآن فعاقبنا الله بالخروج عن سنن الطبيعة . فاذا كان آدم نسى عهد الله وأكل من الشجرة فنحن خرجنا عن سنن الطبيعة فأكلنا فوق طاقتنا ولم نفعل فعل الحيوان فى أمر الشهوة البهيمية فلم نجعلها مثله لأجل الذرية . لهذا عوقب الناس بالمرض من سائر وجوهه كما عوقب آدم بالخروج من الجنة . وإذا قال الله فى آدم إنه لما أكل هو وحواء من الشجرة أخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة . هكذا لما خرجنا عن سنن الطبيعة أخذنا نجد فى طلب اللذات والزينة فى القوت واللباس . وإذا قال الله لهما « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » الخ فها هو ذا النداء فى كل وقت نسمعه بلسان الدين والطب يقرع أسماعنا كل يوم [اتركوا الشهوات تصحوا] . هذا قول الدين وقول الطب والعلم معاً لتصح العقول والأجسام . وإذا أجاب أبوانا ربهما بأنهما ظلما أنفسهما فهانحن أولاء نكتب جميعاً فى الشرق والغرب ونعترف على رءوس الأشهاد بأننا معاشر بنى آدم نزلنا عن الحيوان فى أكلنا وشربنا وهوائنا وشهواتنا التناسلية فكل كاتب يقول ذلك عن نفسه وعن نوع الإنسان فهذا الإقرار يقرر كل يوم كاقرار أبوينا . وإذا أجابهما الله بأن يهبطا بعضهم لبعض عدو . فهاهو ذا نوع الإنسان بعضه لبعض عدو . وإذا قال الله لهما إن من اتبع هداى لايضل ، ومن أعرض عن ذكرى يكون فى معيشة ضنكى . فهاهو ذا تذكير الله لنا بالكتب السماوية والكتب العلمية كل يوم فمن اتبع فاز ومن ضل هلك فى صحته إن خالف المثل الأعلى وفى عقله أيضاً بترك الصحة أو بترك التقوى . ثم إن هذه الآراء التى تكتب هنا وأمثالها تذكر قواد الأمم بالرجوع إلى حال الصحة التامة ليكونوا قادة للنوع الإنسانى « وقليل من عبادى الشكور » اللهم إنى أحمدك حمداً كثيراً إذ وفقتنى لكتابة هذا ، وتفسير الآية به . كتبت هذا يوم الاثنين ١٨ يونيو سنة ١٩٢٨ .

(زيارتى لمتحف فؤاد الصحى بمصر)

أقول لما اطلع على ما كتبت أحد الفضلاء قال إن فى هذا القول لمبالغة وشدة وتضييقاً وليس لهذا إلا أن يكون من المذكرات للعقلاء ، بل إن المؤلف نفسه قد قال ذلك . فهل لك أن تسير معى إلى جهة عابدين لأريك ماحدث بالقاهرة على كثب منك أنت . هذا كلام (غاندى) ولكن بعض القراء يقولون إن (غاندى) رجل أشبه برجال التصوف والزهاد . وهذه الطائفة مشددون فاذا أردفت كلام هذا العالم بما شيد فى مصر بعابدين وهو المتحف المذكور ثم ثبت ماتراه هناك وما أعد لمشاهدة الجمهور كان ذلك أحسن وقعاً وأدق صنعاً وأقرب إلى العقول فهماً لأنهم يعلمون أن هذا المتحف قد أنشئ فى مصر على منوال ماصنعه أهل أوروبا الذين روى الفساق من أبناء الشرق عن فساقهم أحاديث الخلاعة والشهوات القاتلات مسلسلة مصححة فاتبعوها بأمانة وإخلاص فعسى أنهم إذا سمعوا أحاديث الطب المروية عنهم يتبعون أحسنها ويهديهم الله ويجعلهم من أولى الألباب فقلت إن ماذكرته عن (غاندى) منقول عن أوروبا ، فقال ولكنه مقرون بعنعنه هو فيظن فيه التشديد والمبالغة فتوجهت معه إلى [متحف فؤاد الصحى] فأول مافاجأنى فيه بهو متسع وفيه تماثيل وصور شتى تمثل أنواع الأعضاء الجسمية .

(ا) فهناك صورة تمثل المصارع وقوته تحريضا على الرياضة البدنية .

(ب) وهيئة آلة كالمسواك موضوعة على الأسنان ترى الداخل أن الأسنان يكون التنظيف فيها طولا وعرضا .

(ج) وصورة الرأس متصلة بالرقبة وبيان عملى أن لها [حركتين] حركة تنثنى بها إلى الأمام والخلف وحركة جانبية ..

(د) صورة فقرة من فقرات العنق مكبرة وفيها النخاع الشوكى والأعصاب واضحة فيها .

(ه) صورة تبين قوة عظام الفك .

(و) وبيان أن وزن جسم الإنسان إذا كان (٧٠) كيلو جراما فان الماء فيها يكون (٤٥) منها وللمواد الصلبة (٢٥) وهذه منها موادّ زلالية (٤) ومواد دهنية (٧) وأملاح غير عضوية ٥ر٣ ومواد نشوية ٧ر٠ الخ

(ز) وصورة العمود الفقرى الخ ، وبالجملة يرى فى هذا البهو العظام والألياف العضلية مفصلات وهناك فى ذلك الدور الأرضى يتفرع من هذا البهو [ثلاث حجرات : الحجرة الأولى] فيها (١) جهاز الدورة الدموية (٢) وجهاز الأوعية اللمفاوية (٣) وجهاز التنفس (٤) والغدد ذوات الإفراز الداخلى. وقد كتب فيها هذه النصائح :

(١) ابتعد عن الخمور والتدخين (٢) وحاذر من عدوى الزهرى تسلم من كثير من أمراض القلب والأوعية الدموية [الحجرة الثانية] فيها :

(ا) الجهاز العصبى (ب) صورة الإنسان قبل التاريخ وهيكله العظمى نفسه (ج) نفس الأدوات التى استعملها الإنسان قبل التاريخ (د) الجلد الإنسانى وفيها ألواح مكتوب فى أحدها ما يأتى :

(١) النظافة من الإيمان (٢) الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى (٣) لو تسنى لك رؤية ما يتراكم تحت أظافرك من القاذورات بالمجهر (الميكرسكوب) لبذلت عناية كبرى فى قصها ونظافتها . وقد كتب فى لوحة ثانية ما نصه :

(١) العقل السليم فى الجسم الصحيح .

(٢) بعض أنواع الجنون وراثية فيجب العناية بانتقاء الأزواج .

(٣) المخدرات كالكوكايين والمورفين والخمر من أهم أسباب الجنون .

(٤) «تخيروا لنطفكم فان العرق دساس» وكتب تحته هكذا (حديث شريف) .

(٥) حجم مخ الإنسان منسوبا إلى وزن جسمه يفوق مخ أى حيوان آخر .

(٦) الأمراض الطفيلية المزمنة فى الأطفال تؤخر نموّ عقولهم .

[الحجرة الثالثة] فى الدور الأرضى المفرعة من هذا البهو فيها :

(١) الجهاز الهضمى (٢) المأكولات ومصدرها وطرق استعمالها (٣) الجهاز البولى .

(٤) الأمراض التى تنشأ عن نقص فى بعض مواد الغذاء (٥) الأذن ، وفيها لوحة كتب عليها ما يأتى : (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء) ولوحة أخرى كتب عليها ما يأتى :

(١) (الجاهل يعيش ليأكل والعاقل يأكل ليعيش) .

(٢) اشرب كثيرا من الماء القراح فانه ينقى الدم ويساعد على إفراز البول .

(٣) لا تركن إلى الأدوية الملينة لمعالجة الامساك إلا بارشاد الطبيب .

(٤) التدخين يسبب مرض القلب والأوعية الدموية وفقد الشهوة وضعف الإبصار :

ولوحة

ولوحة ثالثة كتب عليها ماياتى :

(١) (نحن قوم لانأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع) وكتب تحتها حديث شريف .

(٢) (رب أكلة حرمت أكلات) .

(٣) سوء التغذية يودى بحياة آلاف من الأطفال ؛

(٤) لبن الأم هو الغذاء الطبيعى للطفل حتى الشهر التاسع .

(٥) لاتدخل الطعام على الطعام .

وبعد أن اطلعت على الدور الأرضى صعدت إلى السلم المؤدى إلى الدور الذى فوقه فرأيت أمرا عجبا : رأيت صور وجوه مزعجة وأعضاء محزنة مشوهة تشوها فظيعا لأقوام أصيبوا بالزهرى وزهقت أرواحهم ضحيته ، وقد كتب تحت هذه الصور المشوهة ألواح فيها نصائح مثل قولهم :

(١) إن التعود على العادات الصحية فى الصغر أمر مهم . أما قراءة علم الصحة بلا تعوّد فلا فائدة منه .

(٢) ومثل (إنى لا أبصق على الأرض) .

(٣) إنى أمضغ طعامى جيدا .

(٤) إنى أغرف لنفسى الطعام بملعقة خاصة ولا أستعمل لذلك ملعقتى الخاصة بى .

(٥) إنى أذهب إلى المرحاض فى ساعة معينة كل يوم .

(٦) إنى لا أعود المرضى إلا إذا كنت مضطرا لتمريضهم لأن كثيرا من الأمراض سهلة الانتقال .

(٧) أنا أنام عشر ساعات كل ليلة ونوافذ غرفتى مفتوحة .

(٨) إنى أغسل يدى بالماء والصابون وأنظف أظافرى قبل أن ألمس الطعام .

(٩) إنى أنظف أسنانى مرتين كل يوم على الأقل مرة فى الصباح ومرة فى المساء .

(١٠) إنى أستحم استحماما كاملا مرة على الأقل كل أسبوع .

(١١) إنى أضع منديلى أمام أنفى إذا سعلت أو عطست . وقد كتب أيضا أن هذه اللوحات مستحضرة من بلاد الصين . ثم إن هذه النصائح المجملة قد فصلت فى ألواح أخرى وشرحت : ففى لوحة كتب ماياتى :

(١٢) الأطعمة المعروضة فى الأسواق بلا وقاية من الأتربة والذباب خطر تناولها . كذلك الطبيخ الذى يمسكه البائع بيده القذرة الخ .

وفى لوحة أخرى كتب ماياتى :

لا تأكل الخضراوات إلا بعد طبخها أو غسلها جيدا مثل الفجل والكرات والخس لأنها قد تكون مصابة من ماء البرك بالمكروب ، هذا ماقرأته وأنا صاعد فى السلم على اللوحات المعلقة على الحائط ، فلما دخلت الدور العلوى وجدت فيه ثلاث حجرات أيضا . فأما الحجرة الأولى ففيها الأعضاء المشوهة من مرض الزهرى بهيئة تقشعر منها الأبدان بحيث لو اطلع عليها شاب لا يسمح لنفسه بالزنا مرة واحدة فى حياته فكأن الأعضاء المشوهة بالسلم مقدمات لهذه الحجرة : وهذه الحجرة قد كتب على بابها فى لوحة مانصه :

[الأمراض السرية] : «ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا» والحق أن مايشاهده الإنسان فى هذه الحجرة لا يدع سبيلا للشك فى إهلاك الزنا للنفوس البشرية . وجوه كالحة وأنوف مائلة ورقاب ذابلة وقروح دامية وشفاه سائلة وآذان حائلة وعيون جاحظة وسوآت مفتتة وعورات محرقة وفروج متقطعة أو مقطعة وهيئات جهنمية وعظام ألوانها بنية (بتشديد النون والياء) فى أجسام بلية ، منظر مهول ومظهر كالغول ووصف أعجز القول فليس لى بوصفه حول ولا طول ، لذلك أنتقل من هنا إلى باب بقية الحجرات فى هذا الدور العلوى فأقول :

هناك على باب بقية الحجرات لوحة قد كتب عليها : (إن الذى فى البهو هى : الأمومة الطفل . الإسعافات الأولية) .

غرفة نمرة (١) الأمراض المعدية . الأمراض الطفيلية

غرفة نمرة (٢) أمراض العيون ، الأدوات الصحية ، السرطان ، الحياة التناسلية ، إذن دخلت البهو ، وهناك فيه رسمت الزهرة ولها أعضاء تذكير عددها خمسة صفراء اللون محيطة بخمسة أخرى داخلها وهى أعضاء تأنيث خضراء وكلها مجسمة واضحة . وهناك شاهدت أطوار النطفة من أول يوم إلى تمام كمال الجنين فى الشهر الأول وليس واضحا . أما فى الشهر الثانى والثالث فإنه يرى مخلقا بعض الخلق . أما فى الشهر الرابع فانه يرى تام الخلقة دائما على ظهره ولكنه فى الثانى والثالث يرى نائما على جنبه الأيسر وفى الشهر الخامس يكون أكبر وهو نائم على جنبه الأيمن . وفى السابع يكون نائما على ظهره وهكذا إلى الثامن . أما فى التاسع فانه يكون نائما على جنبه الأيسر كالشهر الثالث . وفى الأيام الأولى يرى تكوينه مبتدئا بجعل النطفة قسمين ثم أقساما ثم يظهر شكل العلقة ثم يكون له مايشبه الذيل ، ثم يرى أن هذا الذيل قد زال وأصبح أشبه بحيوان لا ذيل له فلأدخل إذن الحجرة الأولى نمرة ١ هناك ثلاثة أنواع من الألواح : ألواح كتب عليها نصائح للرجال وألواح كتب عليها نصائح للشبان وألواح كتب عليها نصائح للبنات .

﴿ نصائح الرجال ﴾

ألواح نصائح الرجال كثيرة فمنها جندى مدجج بالسلاح مكتوب تحته (إذا أردت أن تكون جنديا شجاعا فيجب أن تكون مخلصا مطيعا سليم البنية) وقد أمر أن ينظر فى اللوحات التى بعده مثل : (بيان كيف يمكن كبح جماح الشهوة البهيمية ، وذلك بعدم قراءة النوادر ورؤية الصور المبتذلة وكل مايوقظ الشهوة ، وينصح أيضا بالابتعاد عن النساء المبتذلات وعن شرب المشروبات الروحية ، ويؤمر بضبط النفس وبالاهتمام بالأعمال الخاصة وبالألعاب الرياضية ونحوها) . ثم هناك بيان كيفية إصابة الزهرى ، وبيان مايطلب من الرجل ومن المرأة من العفة والشرف وشرح المرض التناسلى وضرره . فكأنّ هذا شرح لما فى الحجرة الأولى التى يدخلها الإنسان قبل دخول البهو الملوءة صورا محزنة . فهذا شرح لها ، وهناك لوحة كتب عليها مانصه :

(هل الجماع ضرورى ؟ ليس الجماع ضروريا لحفظ الصحة لأن الطبيعة (يريد رب الطبيعة) تتصرف فى السوائل التى تفرزها الغدد التناسلية أثناء النوم . لا تصدّق من يقول لك إن (الاستحلام) مضرّ ويجب معالجته بالجماع . فهذا ليس حقيقيا ، فان المدربين الرياضيين يمنعون المصارعين من الجماع قبل المسابقة لأنهم يريدون أن يكونوا فى أحسن صحة ممكنة ، القبطان سكوت وجماعته فى ارتيادهم القطب الجنوبى وجماعات كثيرة غيرهم أمضوا وقتا طويلا حيث لا توجد امرأة ولا ينكر أحد أنهم كانوا رجالا أشداء) هذا ماأردت ذكره من لوحات نصائح الرجال .

لوحات نصائح الشبان

كتب فيها ما يأتى (المحافظة على الصحة . نصائح للرجال والأولاد نشرتها مصلحة الصحة بالولايات المتحدة باتحاد الجمعية الأمريكية للصحة الاجتماعية) وهذه صورتها :

(١) هل أنت صحيح (٢) هل يمكنك أن تمشى عشرين ميلا فى اليوم (٣) هل يمكنك أن تشتغل فى الحقل ثمانى ساعات فى اليوم (٤) هل يمكنك أن تجرى ١٠٠ ياردة فى ١٢ ثانية . مستلزمات الصحة :

(١) القوة العضلية (٢) الإجهاد (٣) النشاط (٤) قوة الإرادة (٥) الشجاعة (٦) ضبط النفس .

﴿ ماهى

(ما هي حدود مدة التمرين البدنى)

وهنا أمر بالمحافظة على قوانين الرياضة البدنية قال حافظ على صحتك لتقوم بالألعاب الرياضية أو لتعلم العلم أو الأشغال التجارية أو لأى عمل فى ميدان الحياة باتباع القوانين الآتية :

(١) تريض والعب بلا إفراط (٢) تناول الأطعمة الصالحة (٣) استنشق الهواء الطلق كلما أمكن ذلك (٤) نم وقتا كافيا (٥) اعتن بنظافة جسمك وثيابك ، ثم بعدها لوحة كتب عليها ما يأتى :

(تشرب بالروح الرياضية) (١) السباحة (٢) كرة القدم (٣) كرة الضرب (٤) ركوب الخيل (٥) المشى فى الهواء الطلق والصحارى . كل هذه أنواع الرياضة الشيقة . وفى لوحة أخرى أيضا ما يأتى :

(ريض بدنك بعمل نافع . الاشتغال فى الحديقة والتجارة . أنواع الرياضة المنزلية النافعة . تريض عند اليقظة من النوم . تريض أمام نافذة مفتوحة وأتبع ذلك بحمام ودلك جسمك بنشاط بمنشفة خشنة . قف معتدلا واجلس وامش معتدلا . الوضع الطبيعى للجسم يلفت النظر لجماله ويدعو إلى الاحترام والثقة بالنفس ويساعد على الهضم . أحن رقبتك إلى الخلف حتى تمس طوق الرقبة . أكثر من الاستحمام . كيفية الاستحمام . الماء الدفىء والصابون لمدة ثلاث دقائق ويعقب ذلك شعور بارتياح وحرارة فى الجسم ونشاط إن كان الانسان صحيح البدن . الاستحمام يوميا والإكثار من غسل الوجه بالماء والصابون والتجفيف بمنشفة نظيفة يساعد على منع الدمامل ولكن لا يشفيها فاذا اصبت بالدمل فاستشر طبيبا) انتهى ما أردته من نصائح هذه الدار .

(ظهور آثار ماتقدم من علم الطب فى الأمم وبيان بعض السر فى قوله تعالى «وعصى آدم ربه فغوى»)

اللهم إنك خلقتنا فى هذه الأرض وأودعت أرواحنا فى هذه الأجسام الأرضية وحكمت عليها أن تتبع فى صحتها ومرضها وذكائها وبلادتها طبيعة الأغذية والأهوية التى تتناولها وتستنشقها . خلقت يا ألله فى الإنسان شهوة وجعلت له عقلا ومكنته فى الأرض فجعلته خليفة وقلت له (يا عباد فاتقون) فزلت قدم هذا الإنسان بما سولت له الشهوة البهيمية فأخطأ فى تقدير الطعام والشراب واللذات ونسى أصل المقصود من الحياة واتبع اللذة وما هى إلا وسيلة للحياة والصحة فعكف على الوسيلة ونسى الغاية . نسى الغاية لأنه ظلوم جهول قال تعالى « نسوا الله فنسيهم » ومن نسيان الله نسيان حكمه فى بريته ونظامه فى خليقته :

يقول العلامة ابن خلدون فى مقدمته ما ملخصه : إن الأقاليم المعتدلة ليست كلها على وتيرة واحدة فى الخصب والعمران . فمنها مايكون لأهلها خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لوفور العمران ومنها مالا تنبت زرعا ولا عشبا وسكانها فى شظف العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن . ومثل الملثمين من صنهاجة الساكنين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم جملة ولا يتغذون إلا من الألبان واللحوم . وهكذا العرب الجائلون فى القفار وهم لاينالون إلا النزر اليسير من الحبوب والأدم وعماد أغذيتهم الألبان القائمة مقام الحنطة . فهؤلاء الفاقدون الحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالا فى جسومهم وأخلاقهم وأبعد عن الانحراف وأذهانهم أثقب فى المعارف والإدراكات ثم أبان السبب قائلا (إن كثرة الأغذية ورطوباتها تولد فى الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها عدم انتظام أقطار الجسم فى نسبة الخلق وانكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم وتغطى الرطوبات على الأذهان بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجىء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة . ثم وازن ما بين الناس وبين الحيوان . وأن الغزال والنعام والمها والزرافة والحمر الوحشية والبقر إذا وازناها مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعى الخصبة وجدنا البون شاسعا فى صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب

أعضائها وحدة مداركها . فالغزال أخو العنز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينها ما عرفت ؛ فالحيوانات الأهلية فى أبدانهـا رطوبات وفضلات رديئة وأخلاق فاسدة ظهرت آثارها على أبدانها وفى إدراكها والجوع لحيوان القفر حسن فى خلقه وأشكاله . هكذا فى الآدميين . فأهل الأقاليم الخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبا بالبلادة فى أذهانهم والخشونة فى أجسامهم وهذا شأن البربر المنغمسين فى الأدم والحنطة مع المتقشفين فى عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة ، فهم أحسن حالا فى عقولهم وجسومهم مثل المصامدة وأهل غمارة والسوس . ووازن هنا مابين أهل بلاد المغرب المنغمسين فى الأدم والبر مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة . فالآخرون أذكياء العقول خفيفو الأجسام يقبلون التعليم والأولون أقل منهم فى ذلك . ثم ذكر أن المعودين على الجوع من أهل البادية لا فضلات فى جسومهم غليظة ولا لطيفة . ثم إن أثر الخصب وأحواله يظهر فى حال الدين والعبادة فإن المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة الذين يتجافون عن الملاذ أحسن دينا وإقبالا على العبادة من أهل الترف والخصب بل أهل الدين قليلون فى الأمصار لما يعمها من الإكثار من اللحوم والأدم ولباب البر . وهكذا إذا نزلت بهم السنون وأخذتهم المجاعات يسرع الهلاك إلى أصحاب الملاذ والترف والانغماس فى طيبات المآكل والمشارب مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر . فأما أهل القفر والصحراء وبلاد النخل الذين يعيشون على التمر وهكذا أهل أفريقيا فى عهد ابن خلدون الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الأندلس فى زمانه الذين غالب عيشهم الذرة والزيت فإن هؤلاء لا تأخذهم السنون والمجاعات فلا يكثر فيهم الهلاك . قال بل ولا يندر قال لأن المنغمس فى النعم والملاذ كسبت أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية فإذا حيل بينها وبين ما ألفته أسرع إليها اليبس وتبعه الهلاك . فالهالكون فى المجاعات إنما قتلهم الشبع السابق لا الجوع اللاحق فالمدار إذن على العادة)

هذا ملخص ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته . فهذا هو العجب العجاب . أنزل الله فى القرآن قصة آدم وأكله من الشجرة وكررها فى القرآن . كررها ليلفت إليهـا أذهاننا نحن أبناء الإسلام . نحن الذين زحفنا من جزيرة العرب إلى شمال أفريقيا والأندلس والعراق وغيرها وقال الله لنا إن أباكم آدم أغراه إبليس فأكل من الشجرة فكشفت عورته فأخذ يخصف من ورق الجنة ليوارى تلك العورة . وها نحن أولاء الآن قد نهانا الله عن الإسراف فى المآكل والمشارب وحذرنا فقال « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون » فلما تفرقنا فى أقطار الأرض وملكنا نسينا عهد الله لنا كما فعل آدم سواء بسواء ولكن آدم تاب فتاب الله عليه . أما نحن أبناء العرب ومن معنا من أمم الإسلام فأكثرنا ناسون لعهد الله فأخذنا فى البطنة وسوء التدبير واستكثرنا من تلك اللذات وقد علمت أن اللذات والبطنة والاستكثار منها قد أورثت الناس قلة الجمال فى أجسامهم والخفة فى أرواحهم وفقد الصحة فى أبدانهم وذهاب الذكاء فى عقولهم وفقد الحمية فى شرفهم وتعرضهم للموت إذا حل الوباء، وقلة العبادة والعلم وحب الله . فهذه سبع خصال تقدم البرهان عليها من تاريخ ابن خلدون . وبضدها تتميز الأشياء . إنك يا ألله حشرتنا فى هذه الأرض وأريتنا طريق الشهوات والعفة فاتبع أكثر الناس الأولى وذلك لما أكثرت لهم الخيرات والمنافع وفتوح البلدان التى خاف منها رسول الله ﷺ علينا إذ قال « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم الخ » والحديث تقدم فى سورة الأنفال وغيرها . والذى خافه رسول الله ﷺ قد تحقق فعلا وصار المال الذى فتح الله به على الناس سببا فى ضرر الأجسام والعقول وضياع الدول والأنساب والشرف . أفليس من العجب أيها الذكى أن يتفق الحديث الآن وما جاء فى التاريخ . أفليس من أجمل النعم الإلهية أن ترى ما يقوله أطباء العصر

الحاضر الذي عقله أمثال (غاندى) الزعيم الهندى وعمل به وزهد ورأى فى نفسه خفة وذكاء وعقلا بعد أن كان كثير البطنة قليل الذكاء هو عين ما يقوله ابن خلدون سواء بسواء .

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم وعلى نعمة التوفيق وأسألك أن توفقنى فيا بقى من أيام حياتى أن أعمل صالحا وأقتدى بالصالحين . اللهم إنى أحمدك إذا استبانت الحقيقة لى ولإخوانى قراء هذا التفسير إذ يرون الحقائق ناصعة جيلة المحيا بهجة المنظر وأن ماقرّره ابن خلدون عملا فى زمانه من اختلاف الأجسام والعقول باختلاف المآكل عفة وشهوة هو عينه الذى يقوله علماء زماننا حرفا بحرف ثم يظهر فى الهند عالم فيقرر هذا فى نفسه . فحال (غاندى) المتقدمة قبل الهداية للقناعة هى حال أهل الأمصار التى ذكرها ابن خلدون وحال (غاندى) بعد القناعة هى حال أهل القفر الذين لايكثرون من الأغذية المورثة عفونة فى أجسامهم .

هذا بعض أسرار قوله تعالى « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » وقوله « فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » وقوله « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما » وقوله « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا » إلى قوله « وكذلك نجزى من أسرف » والحمد لله رب العالمين . انتهى صبيحة يوم الخميس ٢ أغسطس سنة ١٩٢٨ .

﴿ فصل فى إيضاح ما تقدم ﴾

تبين مما تقدم فى هذا المقام أن الإنسان اليوم تنطبق عليه قصة آدم بحذافيرها إلا قليلا . وهنا لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق العالم المفكر واطلع عليه فقال ما هذا الفصل الذى تريد شرحه الآن ولقد أطلت المقال والشرح . أفما كان يكفى ما تقدم فى هذه القصة . قلت إن الإطالة فى أمثال هذا إيضاح لأولى الأبصار وتبصرة لهم ولئن أطلنا فى هذا لنكونن أهدى ممن يطيل فى مقدمات بلا نتائج . فقال مامعنى مقدمات بلا نتائج . فقلت إن المسلمين اليوم محتاجون إلى الإيضاح عن الحقائق الدينية والعلمية . وأكثر الكتب المشتهرة فيما بينهم كانت الإطالة فيها فى الآلات المعدة للاستنتاج ولكننا اليوم فى زمان يجب علينا فيه أن نشرح الحقائق ونختصر المقدمات ونطيل فى النتائج والمقاصد . وأكثر ما فى هذا التفسير مقاصد وموارد يردها المسلمون فيصدرون عنها وقد انشرحت صدورهم إذ قرءوا فى التفسير ما كانوا يشتاقون إلى معرفته من نظام هذه الحياة الدنيا وما بعدها . قال لقد ذكرت ملخص ماقاله (غاندى) ومارأيته أنت مكتوبا فى المتحف الصحى وما ذكره ابن خلدون فى المقدمة فنى هذا المقام اجتمعت موارد النصائح الطبية من تجاريب الأمم فى المتحف الصحى وخلاصة تجارب الأطباء فى كلام (غاندى) ونتائج ذلك كله قديما فى أحوال الأمم أيام الأمم ابن خلدون المؤرخ . فماذا تبتغى بعد ذلك قلت أريد أن أوفى المقام حقه . فقال من أى ناحية . قلت من ناحية استعداد الإنسان . قال إذن تريد مقالا عاما ينطبق على جميع ما تقدم . قلت نعم . قال فما هو . قلت : اللهم إنك خلقتنا على هذه الأرض ومنحتنا غرائز بها قوام حياتنا وعقلا به نظام هذه الغرائز فأبى أكثر الناس على الأرض إلا اتباع خطوات اللذات وعصيان نصائح العقل والحكمة حتى قلت فينا « قتل الإنسان ما أكفره » فوالله لقد ظهر القتل فى نوع الانسان أيام حياته . كيف لا وقد جعل سطوة الحكومات مناسبة لمشارب الأمم وظلم الملوك على مقدار جهل الرعية واحتدام وطيس الحروب بين الدول على مقدار ما فى نفوسهم من الجشع وما فى قلوبهم من الطمع وهكذا إهلاك الأطباء للمرضى مقدر بمقدار انهماكهم فى لذاتهم وحبهم لما اعتادوه . فقال صاحبى أنا لم أفهم معنى قولك إن الأطباء يهلكون المرضى . إن الأطباء يشفونهم لا أنهم يقتلونهم ، فقلت نعم الطبيب أعد للشفاء ولكن لما رأى أن المرضى يميلون إلى شهواتهم نوع الدواء على مقتضى دواعى نفوسهم فأصبح الدواء من مسببات أمراض

جديدة وأوصاب حادثة . ألم تر رعاك الله أن علماء الطب اليوم قد نصوا على أن خير الدواء ما كان أبعد عن العقاقير وأقرب إلى الأغذية والهواء والماء وهكذا . ألم تر إلى ما ذكره (غاندى) المتقدم ذكره مما سأذكره إن شاء الله فى سورة (الشعراء) عند قوله تعالى « وإذا مرضت فهو يشفين » من القسم العملى فى الطب الذى لا يعوّل إلا على البسائط . قال فهل جربت شيئا من ذلك ؟ قلت نعم . فقال وما هو ؟ فقلت قد جربت مسألتين اثنتين : الأولى : أنى بعد ما قرأت كتاب (غاندى) فى الصحة اعترانى ليلة (أرق) فرأيت فيه أن الأرق يزول بالاستحمام بالماء الحار ثم البارد ثم أن ينام الإنسان فى الهواء الطلق ففعلت ذلك ولكن لما أردت النوم فى الهواء الطلق تدثرت بالدثار نحو دقيقة فلم أحس بهجوم النوم فكشفت الغطاء وجعلت جسمى ملاقيا للهواء فأسرع النوم إلى عينى فى لمح البصر . المسألة الثانية : إنى فى يوم من الأيام اعترانى مرض معدى وهو المسمى (بالزحير) وهو أن تستعصى الطبيعة عند قضاء الحاجة وتكون الفضلات مخاطية ملوثة بمادة دموية وقد كان هذا المرض يعتورنى منذ سنين وكنت أتعاطى له أدوية وعقاقير فيبرأ بالتدريج فلما اعترانى هذا المرض مرة أخرى رجعت إلى الكتاب المذكور فرأيت فيه ما ملخصه إن المريض عليه ألا يتعاطى الطعام ٣٧ ساعة وأن يشرب فى أثنائها الماء المحلى مع الليمون ويؤمر المريض أن يمشى ساعتين فى اليوم ويستحم الاستحمام الخاص بالماء البارد ويدلك البطن بخرقة وهكذا يضع لبخة الطين على معدته ليلا وهكذا فلما قرأت ذلك حتى تركت الطعام وتعاطيت الماء المحلى مع الليمون ومشيت مدة فى الهواء الطلق . فمن عجب أن المرض وقف وانقطع . وإنى أذكر هذا فى التفسير شكرا للنعمة وتذكرة لأولى الألباب . إن هذا النوع الانسانى كله فى جهل مركب وأنا أعجب من نوع الإنسان ، هذا النوع الذى اتفق فيه العالم والجاهل والطبيب والمريض . اتفقوا جميعاً « إلا من رحم ربك » على انتهاج خطة اللذات واتباع الشهوات . إن الطبيب المعتاد لا يمكنه أن يداوى المريض بما تداويت به . ويمنعه من ذلك سببان : السبب الأول : أن المريض لو أمره الطبيب بالمشى ساعتين ليشفى من هذا المرض وبأن يجوع ٣٧ ساعة لم يتسن للمريض اتباع مشورة الطبيب لأن المشى عمل شاقّ والجوع صعب على النفس . والسبب الثانى : أن المريض لايعطى الطبيب أجرا إلا إذا أعطاه دواء لأنه يجهل أن الشفاء قد يحصل بالمشى وبالجوع . إذن يضطر الطبيب أن يجارى المريض لذلك عمرت (الصيدليات) وفتكت بنوع الانسان فتكا ذريعا . ذلك لأن هذا الإنسان فى الأرض يتبع الشهوات والعادات . هو حيوان مقلد « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظنّ وإن هم إلا يخرصون » عصى آدم ربه فغوى ولكن آدم تاب الله عليه . أما بنوه فهم عصوا بداعى شهواتهم وتقليدهم وقلة تبصرهم . وها هو القرآن يذكرهم والأمراض توقظهم ويقول الله « ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا » الخ أنا سطرت هنا ليفكر أهل العلم فى الاسلام أن الله عز وجل ما أنزل بلاء لأهل الأرض إلا كان سببه الجهل ، فلولا الجهل ما أضعت فى الأيام الماضية أياما وليالى فى مداواة هذا المرض بل كنت أقطعه بما قطعته به هذه المرة . إن المانع للانسان من الرقى هو الجهل . إن المانع للأمم عن الرقى هو الجهل « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون » .

اللهم إن العذاب مقدر على مقدار الذنوب والذنوب هنا أن بنى آدم يقدمون لذاتهم فى مرضهم على صحتهم وسعادتهم فيعاقبون بازدياد المرض . ألا ترى رعاك الله أن الأطباء فى زماننا إذا رأوا مريضا بهذا المرض فى الشرق أو فى الغرب فان الطبيب يقول له إن أفضل علاج أن أحقنك بالحقن وهنالك يدخل الإبرة فى جلده ويدخل العقاقير فتجرى من الدم ويقول له إن هذه العقاقير تقتل الحيوانات الصغيرة المنتشرة فى الجسم المؤدية

إلى استقصاء الطبيعة، ولا يزال المريض يواظب على إدخال تلك الإبر في جسمه ولا يزال هو ناعما هادئا ساكنا ظانا أن هذا آخر علاج ويتغذى بالأغذية التي يصفها له الطبيب ، أما العلاج بالجوع وبالمشى وبالليمون الذى لم أعرفه ولم أعمل به أنا إلا فى مرضى الأخير للزحير فقطع المرض حالا فان الطبيب لا يصفه لأحد حتى لنفسه ولا لأخيه ولا لأمه ولا لأبيه ولا لصاحبته ولا لبنيه لأنه هو نفسه مسوق بالعادة وأكثر الناس عبيد العصا مسوقون بالغرائز والعادات ويعاقب المريض على ذلك بطول مدة الشفاء وبحدوث أمراض خفية فى جسمه بسبب تلك العقاقير التى أدخلها الطبيب فى جسمه كما قال تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» فهو استحق الراحة ووافقه طبيبه بالعادة فلم يستعمل الحمية وتعاطى الدواء فأدخل لها بذور الأمراض الخفية تفعل فعلها ويظهر مرض جديد بعد حين ، إذن الآلام المرضية التى تنتاب الإنسان مقدرة بمقدار اللذات التى وضعت فى غير موضعها وإذن صدق قول الله «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون» وهذا القول وإن كان فى الآخرة فآثاره فى الدنيا واضحة ، إذا علمت هذا فانتظر ما ستقرؤه فى سورة (الشعراء) من الأدوية التى لا عقاقير فيها وانصح للمسلمين وقل لهم حافظوا على الصحة وتداووا بالبسائط لا المركبات اهـ .

اللطيفة الرابعة

اعلم أن ملخص مافى هذه السورة يرجع لمقامين :

الأول : توحيد الله مع اشتغال القلب به .

الثانى: أن جميع الآيات الخارقة للعادة لا تصلح لإقامة الأمة بل لابد معها من العلم لأن عالم المادة متشابه والضلال مختلط بالحق ، وهذان المقامان جمعهما الله فى آخر السورة هنا كملخص لها ، فاذا قال فى أول السورة إنه خلق السموات والأرض واستوى على العرش وطلب من موسى الصلاة لذكره فقد قال هنا «وأمر» يا محمد « أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك » ، وإذا ذكر معجزات موسى من العصى واليد وأن عجل السامرى قد غطى على المعجزة عند الجهلة وأن العلوم العقلية هى المقصودة ، قال هنا ملخصا لذلك « أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى » .

انتهت اللطيفة الرابعة وبها تم تفسير سورة (طه) والحمد لله رب العالمين .

سورة الأنبياء مكية وهى مائتا واثنتا عشرة آية

اقرأ مناسبتها لما قبلها فى اللطيفة الأولى :

وهى قسمان

[القسم الأول] فى حقيقة النبوة وفى البعث ودقة الحساب وفى الاستدلال على الله بالعوالم الشاهدة من السموات والأرض وما بينهما وذكر عبادة الملائكة ودوامها من أول السورة إلى قوله «وكفى بنا حاسبين».

[القسم الثانى] من قوله تعالى «ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان» إلى آخر السورة وفيه ذكر (١٤) قديسا وهم الأنبياء المشهورون للاتعاظ بأحوالهم والاقتداء بسيرهم ، أولهم موسى ويليه إبراهيم فاسحاق فيعقوب فلوط فداود فسليمان فأيوب فإسماعيل فادريس فذو الكفل فذو النون فزكريا فيحيى ، وأتبعها بذكر مريم وهى أم نبى . ثم أكمل السورة بذكر الوعيد على الكافرين وأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فهو قائم مقام هؤلاء جميعا فى آخر الزمان . هذا ملخص السورة .

القِسْمُ الأَوَّلُ

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِى إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ * لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ

حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ۝ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَا
أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ
فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝ أَمِ اتَّخَذُوا
آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ۝ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً
سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝ وَمَنْ يَقُلْ
مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا
يُؤْمِنُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝
وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ
الْخَالِدُونَ ۝ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا
رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ
الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝ وَيَقُولُونَ
مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ
النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ۝ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا
وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ۝ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ۝ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ۝

أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ * قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ * وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ *

التفسير اللفظي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال تعالى (اقترب للناس حسابهم) أصله اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم (وهم فى غفلة) أى عن الحساب (معرضون) عن التفكر وهما خبران للضمير والجملة حال (ما يأتيهم من ذكر) يوقظهم من سنة الغفلة (من ربهم) صفة لذكر (إلا استمعوه وهم يلعبون) يستهزءون به ويسخرون والجملة حال من الواو. وقوله (لاهية قلوبهم) حال أخرى فهم يستمعون الذكر وقد جمعوا بين الاستهزاء والتلهى (وأسروا النجوى الذين ظلموا) أى بالغوا فى إخفاء التناجى، والذين ظلموا بدل من الواو فى «وأسروا» وقوله (هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) هذا كله بدل من النجوى يقول الله أسروا المناجاة وهى هذا الحديث وقوله « تبصرون » أى تعلمون أنه سحر (قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض) هما قراءتان «قال» أى محمد صلى الله عليه وسلم فى جوابهم و قل يا محمد الخ « ربى يعلم القول » سره وجهره فى كل مكان ومنه مناجاتكم (وهو السميع) لها (العليم) بما فى نفوسكم فهو يحاسبكم على ماأسررتم من هذه الأكاذيب (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) ثم أضربوا عن قولهم سحر وقالوا إنه تخاليط أحلام رآها فى نومه فتوهمها حقيقة ووحيا ثم أضربوا عن هذا أيضا إلى أنه افتراه من عنده قصدا وهو عالم بافترائه ، ثم أضربوا عن هذا أيضا إلى أنه شاعر كأولئك الذين ينمقون القصائد ويختلقون فيها ضروبا من الخيالات كما فى المعلقات السبع وغيرها وهى مشهورة عند العرب فليكنْ هذا مثلهم على أنه إن كان صادقا فى دعواه ولم يكن كما ذكرنا (فليأتنا بآية) بمعجزة تبهرنا كما أتى موسى وعيسى وكما اقترحنا عليه أن تزيل جبال مكة عنا وتجرى أنهارا فيها (كما أرسل الأولون) وفعلوا ذلك كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وكالعصا وما أشبه ذلك ، فقال لهم الله ردا عليهم (ما آمنت قبلهم من قرية) من أهل قرية (أهلكناها) صفة لقرية (أفهم يؤمنون) لو جئتم بها . كلا لا يؤمنون كما تقرر فى سورة طه ووضح هناك وإذا قلتم هل هذا إلا بشر مثلكم فالأنبياء لم نرسلهم للناس إلا من جنسهم فنجعلهم من جنس الرجال هكذا أرسلنا من قبله من الرسل لقومهم . فالرسل ليسوا من الملائكة إذ للملائكة لا يمشون مطمئنين على الأرض بل هم عالم روحانى غريب النزعة عنكم لايستقر بينكم ، فالنبى إذن يكون من الرجال ويأكل الطعام كما تأكلون ويموت كما تموتون ولا يكون خالدا وذلك ليشعر بما تشعرون به ويحس بما تحسون به فيلائم طباعكم فيطلكم وهذا قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر) أهل التوراة والإنجيل

فانهم وإن أنكروا نبوة محمد لايستطيعون أن يقولوا إن أنبياءهم كانوا ملائكة (إن كنتم لا تعلمون) ذلك (وماجعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) حتى تنكروا أن يأكل كما تأكلون ويمشى فى الأسواق كما تمشون (وماكانوا خالدين) فى الدنيا بل يموتون كما تموتون ولكن هؤلاء رجال ميزناهم بصفات استحقوا بها أن يوحى اليهم ووعدناهم بالنصر (ثم صدقناهم الوعد) أي فى الوعد كقوله « واختار موسى قومه » أى من قومه (فأنجيناهم) من الهلاك إنجازا لوعدنا وتصديقا لوحينا(ومن نشاء) وهم الذين آمنوا بهم (وأهلكنا المسرفين) الذين جاوزوا الحد فكفروا بهم . هذه هى قضية الأنبياء كلهم وقصتهم فهم بشر لهم ما للبشر وعليهم ما عليهم وعدناهم فصدقناهم فى الوعد ، وإذا كان هذا فعلنا معهم فهكذا فعلنا مع محمد . إن محمدا أنزلنا له قرآنا فيه صيتكم وذكركم بين الأمم فيعرفكم به أهل الشرق الأقصى من الصين واليابان وجزائر الهند الشرقية وأهل أوروبا وأمريكا . كل من هذه الأمم يعرفون أمة العرب وأن لها دينا وقرآنا ويدرسه المستشرقون منهم ويسلم من هؤلاء كثير بعد أن كنتم لا أنتم فى العير ولا فى النفير «مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس » وكذلك فى هذا الكتاب مايعلى صيتكم وشأنكم بمكارم الأخلاق التى يتحلى بها ذو والشهامة والمروءة منكم وهذا هو قوله (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) أيغيب عنكم ذلك (أفلا تعقلون) ما فضلتكم به على غيركم فتؤمنون وكان من حقكم أن تكونوا أسرع الناس إليه لما فيه من مزايا الشرف الدنيوى فوق ما هو موضوع له من الكمال الأخروى فان أبيتم إلا التمادى فى الضلال فانا نهلك الأمم الظالمة ولا نبقى فى الوجود إلا ماهو نافع وندع مالبس بصالحه ولادافع عارا ولا موز نارا ولانافع جارا فان لم تنتهوا أهلكناكم وأنشأنا غيركم فان العالم فى قبضتنا ولا نخلق إلا لمنفعة ومصلحة واضحة جلية عندنا ، فان لم تقبلوا هذا الدين أقصيناكم وأحللنا غيركم محلكم وهذا قوله (وكم قصمنا) أى أهلكنا (من قرية كانت ظالمة) أى من أهل قرية كانت ظالمة بكفر أو بغيره (وأنشأنا بعدها) بعد إهلاك أهلها (قوما آخرين) مكانهم (فلما أحسوا بأسنا) أى عذابنا أى أدركوه إدراك المشاهد المحسوس (إذا هم منها يركضون) يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو كالراكضين لها فيقال لهم (لا تركضوا) لا تهربوا (وارجعوا إلى ما أترفتم فيه) أى تنعمتم فيه من العيش (ومساكنكم لعلكم تسألون) أى تقصدون للسؤال والتشاور فى المهام والنوازل فيسألكم عبيدكم وأنتم على الأرائك فى خفض من العيش يقولون بم تأمرون ويسألكم الناس فى مجالسكم لتعاونوهم وتفد عليكم الوفود وأنتم فى أبهتكم يستمطرون سحائب أكفكم وأنتم فى بحبوحة العز وسعة الجاه وغنى عظيم أى يقال لهم ذلك استهزاء بهم كما فى قوله تعالى « ذق إنك أنت العزيز الكريم » (قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين) فاعترفوا بأنهم فرطوا أيام مجدهم وكفروا بالنعمة حيث لايفيد الاعتراف بعد فوات الفرصة (فمازالت تلك) أى قولهم « ياويلنا » الخ (دعواهم) دعاءهم وهى خبر زال وتلك اسمها وإنما سميت دعوى لأن المولول كأنه يدعو الويل ويناديه (حتى جعلناهم حصيدا) مثل الحصيد كما يحصد الزرع أى المحصود وهو يستوى فيه المفرد والجمع (خامدين) ميتين من خمدت النار وهذه الحال هى حال الأمم الشرقية الآن من المسلمين فانك تسمع فى كل وقت قول أهل الهند وأهل مصر وسوريا وأهل شمال أفريقيا يدعون بالويل ويقولون فرطنا فلا علم عقلنا ولا دين اتبعنا ولا مجد أسسنا فنزل بنا الفرنجة فاحتلوا بلادنا ياويلنا إنا كنا ظالمين وإن شاء الله لايحل بهم العذاب لأن هذا القرآن أنزل لذكرهم وعزهم فسيعرفون العلوم ولا يكونون خامدين فان هذا القول وإن صدق على أمم مضت فلا يصدق على هذه الأمم لأنهم نزل القرآن لاعلاء شأنهم فكيف يكونون حصيدا خامدين . ومن عجب أنى أكتب هذا التفسير وقد استقل أهل الأناضول من الترك وأمة الأفغان وأمة الفرس وهم قوم مسلمون وليسوا من العرب . أما أبناء العرب أى الذين نزل القرآن بلغتهم فهم الآن بين براثن الآساد الاوروبية وهم يريدون نهش عظام أبناء العرب وسواهم من الأمم الإسلامية الأخرى غير الذين

استفتوا ولكن الله يقول لأمة العرب أيضا لستم خامدين لأن القرآن أنزل لذكركم ولصيتكم فليرجعن مجدكم قريبا وجد أمم الإسلام فان القرآن نزل بلغتكم وأنذرنا الأمم به كما أنذرناكم وحذرناكم. وكيف نترك الناس بلاتحذير ولارسل فيهم منذرين (وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما لاعبين) ماخلقنا هذا الجمال للعب واللهو وإنما خلقناه لحكمة وأبدعناه لمنفعة وزوقناه لنربي نفوسا ونطلعها على عجائبنا ويدركون جمال الوجود ويكون ذلك لهم جناحا يطيرون به إلى العالم الأعلى (لوأردنا أن نتخذ لهوا لا تخذناه من لدنا) من عندنا أى من العوالم المجردة من المادة كالملائكة ولا ننزل لملابسة ماهو من شأنكم المادى كالزوجة والولد ولم نخلقكم لنتلهى بكم كما تتلهون أنتم بالصور المادية الأرضية بل يكون اللهو بمن عندنا من العوالم المجردة . على أن ذلك أيضا لا يليق بنا لأن هذا خارج عن نظام حكمتنا وقوانين نظامنا ورفعة قدرنا (إن كنا فاعلين) ما كنا فاعلين ذلك فلا نلهو بالصور الجسمية ولابالنفوس الروحانية بل نحن خلقناكم لحكمة وقدرناكم وصورناكم وجعلنا لكم السمع والأبصار لغايات قدرناها لكم لاللهوناوابنا وعلى ذلك نحن لانترككم سدى بل نحاسبكم ونؤاخذكم لأن الجد مطلبنا واللهو واللعب شأن العبيد المخلوقين لا رب العالمين فإذن ليس اللهو شأننا (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) بل أمرنا فوق ذلك فانا من شأننا أن نرمى الحق الذى من جملته الجد على الباطل الذى منه اللعب فيكسر دماغه بحيث يشق غشاءه المؤدى إلى زهوق الروح فإذا هو هالك وقد شبه بانسان كسر دماغه . هذا هو شأننا فكيف نترككم بلا إنذار كأننا خلقناكم لنلهو بكم . كلا . وإذا كنا نغلب الجد على اللهو وننصره عليه فنحن أولى أن لا نتخذ ،احقرناه وأقصيناه صفة لنا ثم إن نتيجة هذا كله أن الناس ينذرون ويحاسبون لأن الله خلقهم لحكمة ولغاية . فهذه الأرواح الانسانية سيصير قوم منها فى العالم العلوى مع الملأ الأعلى ويلحقون بهم فى الجنة ويسلمون عليهم « ولذلك خلقهم » . فالله إذن يربى الإنسان فى الأرض ليلحق بالعالم الأعلى ولم يخلق اللهو واللعب ولذلك أعقبه بذلك فقال (ولكم الويل مما تصفون . وله من فى السموات والأرض ومن عنده) يعنى الملائكة (لايستكبرون عن عبادته) لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها (ولا يستحسرون) ولا يعيون وليس كنوع الإنسان الذى ربى ليلحق بهم فان هذا الإنسان منه من تكبر عنها وهم الكافرون ومنهم من يجد ويعيا وهم المؤمنون . أما الملائكة فهم دائما فى العبادة فهم أشبه بالقلب الإنسانى فانه دائما يعمل ويدفع الدم فى الشرايين الجسمية دائبا ليلا ونهارا نام الانسان أواستيقظ . وكالكواكب الدائرة ليلا ونهارا . وكالنمو النباتى والحيوانى ليلا ونهارا . هكذا سيكون هناك قوم من هؤلاء المؤمنين: يرون الله ويرتقون عن أهل الجنة أويكونون فيها وهم مع الملائكة أو يصيرون أشبه بهم ، ثم وصف هؤلاء الملائكة فقال (يسبحون الليل والنهار لايفترون) أى ينزهون الله دائما لا يضعفون والجملة حال من الواو فى « يسبحون » هذه أوصاف الألوهية وهى أن يكون الإله عظيما يعبده أهل الأرض والملائكة المبرءون من المادة لا كتلك الآلهة المزيفة المكذوبة التى اتخذوها فى الأرض وهذا قوله (أم اتخذوا) أى بل اتخذوا (آلهة من الأرض) صفة لآلهة (هم ينشرون) أى يحيون الموتى فان الإله من لوازمه أن يحى الموتى فإذن هؤلاء الآلهة المكذوبة يحيون الموتى . وليس الأمر كذلك فانهم هم أنفسهم أموات فكيف يحيون الأموات على أنه (لو كان فيهما آلهة إلا الله) غير الله فإلا وصف لآلهة وليس يجوز أن يقال إنه بدل مرفوع لانه لا يمكن إلا إذا كان الكلام غير موجب ولا يجوز نصبه على الاستثناء لأن النكرة فى الإثبات لاعموم لها فإذن لم يدخل فيه المستثنى. فكيف تخرجه إلا وهو لم يدخل فيما قبلها ولو بمنزلة إن فلانى هنا . يقول لوكان فى السموات والارض آلهة مغايرون لله (لفسدتا) لخربتا وهلك من فيهما أى لو كان فيهماجنس الآلهة غير الله أى أى إله غيره لاختلفاأو اتفقا فاختلافهما يستلزم أن يصح العدم والوجود على شئ اختلفا فيه وهو محال واتفاقهما يوجب توارد خلقين على مخلوق واحد وهو مستحيل فيكون وجود الإلهين محالا . على أن هذا

البرهان إذا سلمنا جدلا أنهم آلهة ولكن الإله كما قلنا يسبح له من فى السموات والأرض والملائكة فكيف نجعل هناك موازنة بينه وبين الأحجار والصور الأرضية (فسبحان الله رب العرش) المحيطة بجميع الأجسام والملائكة حافون حوله يسبحون بحمد ربهم فلا معنى للتنزل والموازنة المذكورة لأنه أجل وأعلى وهو منزه (عما يصفون) من الشركاء ونحوها . وكيف يقارن بتلك الآلهة وهو (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فأين العظيم الذى يجل عن السؤال والضعيف المعرض للسؤال، ثم أعاد الكرة للانكار مرة أخرى بعد هذه الحجج فقال (أم اتخذوا من دونه آلهة) بعد ماظهر الدليل (قل هاتوا برهانكم) فقد ثبت الإله الواحد عندنا وعندكم وقد اتفقنا عليه . فأما الزيادة عن الواحد فنحن ننكره وأنتم أثبتموه فعليكم البرهان ولا دليل على الزائد (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) من الكتب السماوية فهى كلها متطابقة على التوحيد متباعدة عن الشرك (بل أكثرهم لا يعلمون الحق) لا يميزون بينه وبين الباطل (فهم معرضون) عن التوحيد لتباعدهم. ثم بين ذكر من قبله فقال (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) أى فوحدون . ولما كان الولد نقصا كالشريك لأنهما معا من صفات المحدثين قال (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيها له عن الولد وهؤلاء خزاعة قالوا الملائكة بنات الله (بل عباد مكرمون) مقربون (لايسبقونه بالقول) لا يقولون شيئا حتى يقوله لأنهم يدبرون أمر العالم كما يلهمهم لا أنهم عصاة مثل هؤلاء الذين جعلوهم أبناء الله (وهم بأمره يعملون) لايعملون إلا ما يأمرهم به (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) ماقدموا وماأخروا (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) أن يشفع له مهابة منه (وهم من خشيته) عظمته ومهابته (مشفقون) مرتعدون، إن العالم كجسم الانسان وقد جعل الله روحنا وتصريفها لأجسامنا تمثيلا لتصرفه فى العالم : فاذا كانت روحنا واحدة فهو واحد . وإذا كانت لنا حواس مختلفة فله ملائكة مختلفة . وإذا كان فى الحواس أعلى وأدنى كالعين وكاللمس ففى الملائكة كذلك سكان عالم السموات وسكان عالم الأرض. كل له درجة . وإذا كانت حواسنا تطيع إرادتنا فملائكة الله مطيعون إرادة الله . ولما سأل العلماء الأرواح التى حضروها وصفت الله والعالم هكذا ثم قالت : إن أرواح الناس كلما ارتقت بعد الموت تضامت مع الأرواح العالية وصارت معها رأيا واحدا لأنها كلما ارتقت فى المقامات العالية وطهرت ماتت الفوارق بينها فيصبح الفكر واحدا والخلاف يسقط لأن الصفاء يجمعهم والفكر متحد وكأن أهل الأرض إذا ارتقوا إلى عالم آخر يكونون وحدة متلائمة الأطراف ذات درجات مختلفة . هذا فى قسم الصالحين . أما الطالحون فهم نوع آخر ويكون القسمان أشبه بالعالم المحسوس بعضه نار وبعضه جنات كالأرض. ففى داخلها نار وفى خارجها جنات على سطحها . وهؤلاء الملائكة المقربون لاتصل بهم الجرأة أن يدعوا الألوهية فانهم من خشيته مشفقون (ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) كإبليس إذ دعا إلى نفسه . أما الملائكة فلم يدعوا هذه الدعوى ودخوله معهم فيه تجوز (كذلك نجزى الظالمين) الذين وضعوا الألوهية والعبادة فى غير موضعهما متبعين فى ذلك وسوسة إبليس .

﴿ فصل فى نبذة من علم الفلك وعلم طبقات الأرض للاستدلال على الوحدانية فى هذه الآيات وذلك من وجهين : الوجه الأول جهة الأحكام وحسن التصوير والتقدير . الوجه الثانى : من جهة القرآن إذ أخبر بأمور لم تعلم إلا فى القرن التاسع عشر ﴾

يقول الله (أو لم ير الذين كفروا) أى أولم يعلموا (أن السموات والأرض كانتا رتقا) ذواتى رتق أو مرتوقتين فهو مصدر بمعنى اسم المفعول . أى ملتحمتين متصلتين (ففتقناهما) فصلناهما وأزلنا اتحادهما . كما ثبت عن أهل أوروبا فى هذه العصور إذ هم الذين قرروا هذا العلم وقالوا إن الشمس كانت كرة أشبه بالنار دائرة ملايين من السنين والأرض والسيارات وتوابعها كانت معها . ثم إن أرضنا انفصلت كما انفصل غيرها من السيارات انفصلن جميعا من خط الاستواء الشمسى أثناء سرعة سير الشمس وجريها حول نفسها

فتباعدت أرضنا والأرضون الأخرى. وهى السيارات فان شمسنا والسيارات الأخرى كلها سيارات وكلها أرضون وهكذا كل الشموس التى نراها كأنها كواكب ثابتة على هذه الحال لها سيارات. وقد اشتقت منها وقد قدروا على سبيل الظن أن الأرضين فى العوالم كلها لا تنقص عن ثلثمائة مليون أرض مسكونة . ويقولون ليست جميع السيارات حول شمسنا يظن أنها مسكونة ، بل المسكون منها أرضنا وربما كان المريخ وسيار آخر الخ .

فثبت أن أرضنا مشتقة من الشمس والشمس أيضا من شمس أكبر منها ، وتلك من شمس أكبر منها وهكذا وكل شمس من هذه دائرة حول ما اشتقت منه إلى ما يقف عنده الفكر ويدهش العقل . هذه قصة العالم الذى نسكنه . وهذا هو القول المشهور الآن فى العالم الأوروبى الكافر بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جهلا به ، فقوله تعالى على سبيل الاستفهام التقديرى « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » من المعجزات. لأن هذا العلم لم يعرف عند العرب ولا عند الأمم المعاصرين لهم، وإنما عرف فى عصرنا الحاضر فعلى أن أعلن للمسلمين به وأقول لهم إن هذه معجزة واضحة فى القرآن فان الله قد استدل بحسن صنعه وإتقانه على تفرده بالقدرة والحكمة . إذ جعل الحرارة سببا فى حركات تلك العوالم التى كانت نارا محترقة ثم بواسطة هذه الدورات أزمانا برد ظاهر الشمس فانفصلت منه الأرض وغيرها من السيارات وأرضنا منها وكان هذا الحساب المدهش فى سيرها والخلق البديع على ظهرها وإتقان كل شىء عليها . هكذا كان ذكره فى القرآن مع جهل المسلمين وغير المسلمين من فرس وروم وأمم أخرى بهذه النظرية التى لم تكن إلا حديثا معجزة مدهشة فان أهل أوروبا وهم الكافرون بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم عرفوا هذا الرأى ، فالله تعالى يوبخ الأمم الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ويوبخنا أيضا لجهلنا . يقول أولم يعلم هؤلاء الكافرون بعقولهم أن العالم الأرضى قد فصل من العالم السماوى أى أن العقل البشرى مستعد لمعرفة هذا من اتباع الأسباب ومن قراءة الكتب ومن درس العجائب فكيف لا يؤمن الناس بإله واحد . وسيأتى إيضاحه قريبا لأن هذه المعجزة مهمة جدا ثم قال (وجعلنا من الماء كل شىء حى). أى وخلقنا من الماء كل حيوان كما قال تعالى « والله خلق كل دابة من ماء » وكذا كل نبات لأنه يحيا به . ويقول أيضا علماء العصر الحاضر إن كل حيوان خلق أولا فى البحر وأصل جميع الطيور والزواحف وحيوانات البر من البحر قد تطبعت بطباع حيوان البر على مدى الأزمان وتنوعت ولهم فى ذلك كلام كثير . فتكون هذه أيضا فى حكم ما رآه الذين كفروا وهذه معجزة للقرآن وسنوضحه قريبا ثم قال تعالى (أفلا يؤمنون) مع ظهور الآيات ثم أتى بمعجزة ثالثة فقال (وجعلنا فى الأرض رواسى) أى جبالا ثوابت كراهة (أن تميد) أى تميل (بهم) وتضطرب فإنك سترى أن الأرض لها ستة أدوار تقدم ذكرها فى سورة هود وهذه الأدوار الستة مقسمة إلى ٢٦ طبقة والدور الأول منها كان عبارة عن الزمن الذى كون فيه على الكرة الأرضية النارية قشرة صوانية صلبة. قدر زمنها بنحو ثلثمائة مليون سنة . ومعلوم أن الأرض كانت نارا ملتهبة فبردت قشرتها وصارت صوانية وهى الغلاف الحقيقى لتلك الكرة النارية ولا تزال الأرض تخرج لنا من أنفاسها المتضايقة ونارها المتقدة فى جوفها كل وقت نارا بالبراكين التى شرحناها سابقا فى هذا التفسير فى سورة (آل عمران) فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفس بها الأرض لتخرج بعض النار من باطنها ثم يخرب ذلك البركان وينفتح بركان آخر . وهذه البراكين تخرج نارا ومواد ذائبة تدلنا على أصل أرضنا وما كانت عليه قبل الدهر . فهذه القشرة الصلبة لولاها لتفجرت ينابيع النار من سائر أطرافها كما كانت بعد ما انفصلت من الشمس كثيرة الثورات والفوران وهذه القشرة الصوانية البعيدة المغلفة للكرة النارية هى التى ثبتت منها هذه الجبال التى نراها فوق أرضنا كما يقوله علماء طبقات الأرض . فمن هنا ظهر أن هذه الجبال جعلت لحفظها من أن تميل لأن الطبقة الصوانية هى الحافظة لكرة النار التى تحتها والكرة الصوانية هذه نبتت لها أسنان طالت وامتدت حتى ارتفعت فوق الأرض فلو زالت هذه الجبال لبقى ما تحتها مفتوحا وإذ ذاك تثور

البراكين آلافا مؤلفة وتضطرب الأرض اضطرابا عظيما وتزلزل زلزالا شديدا لأن البراكين وثوراتها زلزلة فما بالك إذا كانت الجبال كلها لم تسكن وخلت أماكنها ثم إن هذه الجبال قطعة من نفس القشرة غاية الامر أنها ارتفعت فما هي إذن إلا الحافظة للكرة النارية التي لو تركت وشأنها لاضطربت في أقرب من لمح البصر فأهلكت الحرث والنسل. هذه هي المعجزة الأخرى للقرآن لأن السابقين ومن عاصروهم كانوا يؤمنون به فقط فظهور ذلك اليوم من المعجزات القرآنية . ولقد أجمع العلماء قديما وحديثا أن الجبال على الأرض لا قيمة لها بالنسبة للكرة الأرضية فلو فرضنا أن هذه الكرة الأرضية كرة قطرها ذراع لم تكن الجبال فوقها إلا كنحو نصف سبع شعيرة فوقها . ولو أن الأرض كرة قطرها متر واحد لم تزد الجبال عليها ملليمترا واحدا ونصفه فقط فما هذا الجزء الحقير بالنسبة لتلك الكرة حتى انه يمنع ميلها وسقوطها فكأن الناس يؤمنون بهذه الآية. وقد ظهرت هذه النبوة فعلا في العلم الحديث ولم تظهر إلا على يد من كفروا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون لايعلمون إلا من الفرنجة، وأنا أكتب عنهم ومن كتبهم فصدق الله وجاءت المعجزات تترى في هذا التفسير .

فالله هو الذي فصل الأرض من الشمس وكانتا ملتحمتين والله هو الذي خلق الدواب في البحر ، ثم ارتقت إلى أن ارتفعت في الهواء وإن كان هذا المعنى فيه نظر إن حملنا الآية عليه والله هو الذي جعل الجبال حافظة للكرة الأرضية أن تهتز وتضطرب لأنها نار والجبال متصلة بالطبقة الصوانية المحيطة بالنار فالله هو الحافظ لها . كل ذلك دال على وحدته . ولكن الأهم من ذلك أن القرآن ورد به ولم يعرفه الناس بل لم يفسر به القرآن على وجه علمى برهانى إلا في هذا العصر، وإنما كان يفسر قديما بمجرد الإيمان ، فهذه هي المعجزة الثالثة . واعلم أن الكرة الأرضية بعد أن تمت أدوارها الستة المذكورة في سورة (هود) وفي سورة (الأنعام) ومضى دور الطوفان العام ثم الدور الحالى ونظمت الأحوال على ماهى عليه الآن ظهرت فيها (الفجاج) وهي المسالك الواسعة وكما نظمها الله وأخرج زرعها ونوّع حيوانها حتى وصل النبات الآن على ما يقول (اسبنسر) ٣٢٠ ألف نبات والحيوان أيضا مليونى نوع وخلق الإنسان وأبدع كل شيء فيها هكذا نظم السماء وجعلها سقفا محفوظا لحفظ الشموس في مداراتها بحيث لاتختلط ولاتختبط بل حفظها سالمة في أماكنها الخاصة بها وبقوة الجاذبية بالاصطلاح العلمى فالقمر والشمس والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها وإلا لاختلّ هذا العالم ، وبهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار الحادثان من جرى الأرض حول الشمس وقوله « كل في فلك يسبحون » راجع للأرض والشمس والقمر وهذا هو قوله (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) وهو بدل من « فجاجا » (لعلهم يهتدون) إلى مصالحهم ، وقوله (وهم عن آياتها معرضون) أى غير متفكرين وقوله (يسبحون) أى يسرعون في المدارات المخصصة لها ، أجراها مجرى العقلاء. فهى تسبح كما يسبح السمك في الماء، وهذا هو الرأى الحديث وهو أن الأرض تجرى وأن هذه كلها تجرى في عالم الأثير المالئ لهذا الفضاء.

فهنا معجزات :

(١) الأرض كانت ملتحمة مع السماء .

(٢) الأحياء خلقوا أولا من الماء .

(٣) الجبال قد ثبت أنه لولاها لتشققت الأرض بالنار .

(٤) الأرض تسبح لا ساكنة .

(٥) جريها وجرى الكواكب كسبح السمك في الماء .

كل هذا هو العلم الحديث وهذا أمر عجب . هذا هو النظر العام في السموات والأرض فالشمس تجرى والأرض تجرى وهما تسبحان والقمر معها وبينهما المخلوقات الحية فما هذه العوالم إلا كآلة طابعة والمخلوقات كلماتها وسطورها أو كدار صناعة تخرج كل يوم أدوات وآلات ومصنوعات مختلفة الاشكال ففي كل يوم تأتى

بأشكال حديثة بعد هلاك القديمة . فلما فرغ من الكلام على دار الصناعة أخذ يصف ما صور فيها من الصور والأشكال التى أعدت لأن تخرج إلى عالم أرقى من هذا العالم متى تم كمالها وأعلى هذه المخلوقات الانسان فأخذ يصف الصنعة بعد وصف آلتها فأبان أن البشر لا بقاء لهم فى الدنيا فأنت وهم ميتون على قاعدة التحليل والتركيب الذى اقتضاه نظامنا فى هذه الدار العظيمة الصناعية فاذا تربصوا بك ريب المنون فالمنون ليس خاصا بك بل هم خاضعون لقانونه فكلكم تذوقون الموت وإنما خلقناكم على هذا النظام لنعاملكم معاملة المختبرين ونرقيكم فى عالم الجمال والكمال وهذا قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) إلى قوله (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (وإلينا ترجعون) فنجازيكم على مقتضى شكركم وصبركم

﴿ فصل : فى استبعاد هذه العلوم وأمثالها والاستهزاء بها ووعد الله الناس بأنه سيريها الناس فى زماننا هذا كما اتضح لك تكميلا للمعجزة للقرآن فى آخر الزمان ﴾

اعلم أن الله تعالى أشار للأول بقوله (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك) أى ما يتخذونك (إلاهزوا) سخريا قائلا بعضهم لبعض (أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) أى منكرون فهم أحق بالاستهزاء . وأشار الثانى بقوله (خلق الإنسان من عجل) لأنه يكثر منه والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم : خلق من الكرم ، ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد واستبعاد ماجاء فى هذه الآيات من الأمور العلمية التى أوضحها علماء العصر الحاضر . فهو يستبعدها طبعا لأنه لا يعقلها فقال الله لا تستبعدوا أيها الناس (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) والآيات أمور عامة منها العلوم الطبيعية المثبتة لما تقدم وعلم طبقات الأرض وغيرها فإذا لم يفهمها أمم سابقة فانى سألقيها على قوم بعدهم . وقد ورد فى قول النبى ﷺ «رب مبلغ أوعى من سامع» وذلك فى حجة الوداع ورفع طرفه إلى السماء وقال «ألا هل بلغت . اللهم اشهد» ومن العلوم التى غيبت عن الناس واستعجلوها أمر القيامة حين تشقق الأرض وتظهر النار التى فى داخلها التى هى إحدى نيران جهنم. وقد كشفت فى العصر الحاضر وهذا هو قوله (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون) أى بحيث لا يقدرون على دفعها ما استعجلوا العذاب ولكنهم لجهلهم يستهزئون ويظنون أن هذا لا حقيقة له مع أنهم لو حفروا تحت أرجلهم لوجدوا أن الحرارة ترتفع درجة واحدة فى كل ثلاثين مترا من العمق . ففى عمق ثلثمائة متر عشر درجات ، وفى عمق ثلاثة آلاف متر مائة درجة وهى درجة الماء المغلى ، وفى عمق ثلاثين ألف كيلو متر ألف درجة، وفى عمق مائة ألف كيلو متر أكثر من ثلاثة آلاف وثلثمائة درجة . وهذه حرارة تذوب فيها كل الجوامد والمواد المعروفة وقطر الأرض نحو ثلاثة عشر ألف كيلو متر . فالأرض ماهى إلا نار متأججة وليس عليها إلا قشرة جامده يبلغ سمكها مائة كيلومتر فنسبتها إلى الارض كنسبة قشرة التفاحة الرقيقة للتفاحة نفسها. إن الأرض كانت فى أول أمرها نارا متأججة مشتقة من الشمس فبردت شيئا فشيئا وكان كل شىء نراه الآن فيها سائلا فلا حجر ولا شجر ولا غيرهما وهى الآن على ماهى عليه كما جاءت من الشمس ونحن على تلك القشرة الرقيقة . فاذا انشقت الأرض انشقاقا عظيما أكثر من انشقاقها منذ بضع سنين حوالى سنة ١٩٢٣ فى بلاد اليابان إذ زلزلت زلزلة شديدة وطفحت بنار من باطنها فأهلكت خمسمائة ألف إنسان وأهلكت قرى كثيرة . أقول فلو أنها شققت أكثر من هذا لانهدمت هذه القشرة كلها إذا كان الانشقاق فى كل مكان وحينئذ يسقط الناس فى النار فعلا وليست نارا وهمية بل هى نار حقيقية يحترق الناس بها فعلا . هكذا فلتكن المعجزات. وهكذا فليكن الصدق وهذا على الرأى المشهور الآن وإن كان ظنيا . نبى أمى يأتى منذ ألف وثلثمائة سنة ويأتى العلم الحديث بما يقوله بحذافيره ثم يقول الله (بل تأتيهم) أى النار حينما تهدم قشرة الأرض بانفجار عام أشبه بانفجار اليابان المتقدم ذكره (بغتة) فجأة وهو مصدر (فتبهتهم) فتغلبهم كما شوهد غلبتها لليابان (فلا يستطيعون ردها) أى صرفها (ولا هم ينظرون)

يجهلون للتوبة والمغفرة فكيف ساغ لهم أن يستهزئوا بك يا محمد وهذه العلوم غائبة عنهم سيعرفها من بعدهم . لأنهم ليسوا أهلا لها فكان يجب عليهم التصديق بها إيمانا وينقلون هذا العلم إلى أبنائهم من بعدهم وخلفهم، ويكون التصديق بك لما شاهدوا من الآيات العجيبة التي تناسبهم . وقد ادخرنا هذه الأمور لأمم ستأتي لتكون لهم آية علمية على صدقك فتكون الآيات دائما متجددة فتسل على استهزائهم بما حصل للرسل قبلك (ولقد استهزئ برسل من قبلك) كما استهزأ بك قومك (فحاق) فنزل (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) أي عقوبة استهزائهم . هكذا سيحيق بهؤلاء ذلك وقد تم ذلك فعلا يوم بدر وغيره . على أن العذاب الذي أعد لهؤلاء ليس قاصرا على يوم القيامة بل الناس على سطح هذه الأرض معرضون لخطر في قيامهم وقعودهم تحيط بهم حوادث مزعجة قد منعناها عنهم برحمتنا وهم لايشعرون بذلك . فنحن الذين لم نسلط عليهم الحيات مثلا فتلدغهم وهم نائمون . ولم نسلط عليهم الحر الشديد ولا البرد الشديد فيموتوا . وهاهم أولاء يرون الآفات العارضة لزرعهم فلو أنا أكثرناها لم يبق لهم زرعهم . فالناس أينما حلوا أو ارتحلوا يرون أصنافا من المهلكات ولكنا نحن نمنعها عنهم ، فالعذاب محيط بالناس الآن وهم غافلون . وإنما نحن لما متعناهم ومتعنا آباءهم ومنعنا عنهم جميع الآفات المحيطة بهم حتى طال عليهم العمر ظنوا أنهم يفلتون من عذابنا دائما مع أنهم لو فطنوا لكرتهم الأرضية وتأملوا سطحها لوجدوا أنها قد انكمشت من جهة القطبين بسبب دورانها أيام كانت سائلة فهذا دليل على أن أرضهم نار ملتهبة وكل مافوقها سريع الذهاب والتقلب فلا أمان للتقلب عليها . وهاهم أولاء يرون الأقوام تخطف من حولهم والأمم تؤخذ بذنوبهم من جيرانهم . فهلا اعتبروا بنقص أطراف الأرض وبنقص الأمم حولهم وأخذهم بحرب وضرب وتنكيل كما حصل في زمن النبوة بعد هذه السورة ونزولها لأنها نزلت بمكة فسلط الله المسلمين على أطراف البلاد وكما يجري الآن من تسلط الفرنجة على أطراف بلاد الإسلام فكل هذه آيات للناس ليستيقظوا ولايغفوا ويفكروا في أمر دنياهم وآخرتهم . أقول وإنما لم ينصر المسلمين في الأزمان القريبة لأن الأخلاق معطلة ، ألا ترى أن أهل أمريكا يبلغون نحو مائة مليون وهم من أمم شتى وقد كونوا مملكة واحدة . أما المسلمون فان العنصر العربي منهم الذي يقطن جزيرة العرب لا يزيد عن عشرة ملايين وفيه بضع ممالك وقد منعهم الحسد والجهل وسوء التربية وسوء الخلق والشره وقلة الدين أن يكونوا مملكة واحدة فكل منهم يحذر الآخر . فأدبهم الله بالفرنجة وسلطهم عليهم فأذلوهم وسيكون لهذا الأمر آخر وسيهديهم الله ويصلح بالهم ويؤدبهم ويسعدهم ويعلمهم الاتحاد إن شاء الله تعالى فهؤلاء يقول لهم الله « أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها » وأمم الفرنجة تنقص البلاد من حولكم نقصا . فكيف جهلتم هذا ولم تتحدوا كما يأمركم دينكم . إنكم إذن جاهلون صم بكم لا تعقلون وهذا قوله تعالى (قل من يكلؤكم) يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) من بأسه وعبر بالرحمة لما عرفت أن العذاب يكون بالآفات وهو يمنعه دائما ولما عرفت أن قشرة الأرض رقيقة ونحن عليها . فبرحمته حفظها من الفرقعة (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) لايخطرونه ببالهم (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) أي بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب (لايستطيعون نصر أنفسهم) أي لايقدرون على نصر أنفسهم فكيف ينصرون عبادهم (ولا هم منا يصحبون) أي ينصرون ويجارون (بل متعنا هؤلاء وآباءهم) في الدنيا وأمهلناهم (حتى طال عليهم العمر) أي امتد بهم الزمان (أفلا يرون) أي هؤلاء المشركون وغيرهم ممن يغترون بالسلامة (أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) وهذا في الحقيقة من اقتراب العذاب لهم فكيف لايعتبرون بنقص الأمم حولهم وبغير ذلك (أفهم الغالبون) إنما الغلبة لله ولرسوله وللقائمين بالحق (قل إنما أنذركم بالوحي) أي بما أوحي إلي (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ماينذرون ولئن مستهم نفحة) أصابهم شيء قليل (من عذاب ربك) وأصل النفح هبوب رائحة الشيء (ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين) أي لدعوا بالويل على أنفسهم واعترفوا عليها بالظلم كما تقدم في أول السورة (ونضع

الوازين القسط) أي ونحضر الوازين ذوات العدل توزن بها صحائف الأعمال والقسط مصدر يصح الوصف به مبالغة وهذا تمثيل لحال العدل (ليوم القيامة) أى لجزاء يوم القيامة (فلا تظلم نفس شيئاً) من حقها أو من الظلم (وإن كان مثقال حبة من خردل) أى وإن كان العمل مقدار حبة منه (أتينا بها) أحضرناها (وكفى بنا حاسبين) أى عالمين حافظين . انتهى تفسير القسم الأول من السورة . وفيه لطائف :

[اللطيفة الأولى] فى مناسبة السورة لما قبلها وفى قوله تعالى « اقترب للناس حسابهم » الخ مع قوله « ونضع الوازين القسط ليوم القيامة » إلى قوله « وكفى بنا حاسبين »

[اللطيفة الثانية] فى قوله تعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا » الخ

[اللطيفة الأولى فى (فائدتين : الفائدة الأولى) فى مناسبة هذه السورة لما قبلها]

لقد علمت أن الدائرة العلمية فى علم الطبيعة قد جاء ذكرها فى (الحجر) وفى (النحل) مرتين ثم ذكرت قصة موسى وقومه مجزأة فى (الاسراء) وما بعدها إلى (طه) وجاء فى هذه الأخيرة يؤيد العلوم العقلية بحيث انتهينا من عجل السامرى وعبادة القوم له وتفضيله على عصا موسى جهلا وغباوة وأن ذلك داع حثيث إلى الرجوع إلى العلوم العقلية والطبيعية والفلكية وأن الأمم لاتقوم إلا بها كما أن العقائد لاتصح إلا بالتكمل بها وظهر من هذا التقرير أن معرفة الله ليست مسألة ذات حلّ واحد . بل هى مسألة كثيرة الحلول كهيئة الغنى ونحوها . فكما أن الناس مختلفون أخلاقا وغنى وقوة وفضلا وجمالا وألوانا لا عد لها بل كل امرىء له مرتبة ليست الآخر هكذا هنا معرفة الله هى أن يتكمل الإنسان بالعلوم العقلية والأخلاق بقدر طاقته . والجاهل من اكتفى بقشور العلوم وظواهر الديانات . فالقرآن جاء لهدم نظريات جمع الديانات وتأسيس أساس آخر وهو أن الناس يجب عليهم التكمل بالعلوم العقلية بقدر طاقتهم : أى أن يكونوا ناهجين نهج الحكماء والفلاسفة هذا هو المقصود من السور التى سبقت هذه السورة . ولعمرك لقد أوضحت هذا المقام إيضاحا تاما فى هذا القول وما قبله وعليه . فكما أن الدين أمرنا أن نصلى الصلوات الخمس للتذكر ولم يكتف منا بصلاة يوم واحد أو بشهادة أن لا إله إلا الله . هكذا طلب منا أن نزداد علما دائما . فبالعبادة نتذكر وبالعلم تثبت العقائد ويكمل نظام الأمم وكما قال الله لرسوله « قم الليل إلا قليلا » قال له « وقل رب زدنى علما » ومن عجب أن تذكر هذه الآية فى سورة (طه) بعد الكلام على أن الإيمان لا يتم إلا بالعلم . فكأنه يقول : يا محمد ها أنت ذا رأيت أن خوارق العادات لم تؤثر إلا زمنا قليلا فى بنى إسرائيل فاطلب من ربك ازدياد العلم تعليما لأمتك فقل لهم يزدادوا علما أزدهم هدى وعمران بلاد وأجعلهم خلفائى فى خلقى وقد قلت لهم « كنتم خير أمة أخرجت للناس » فبهذا تكونون « خير أمة أخرجت للناس » كما وعدكم ربكم . وقد تبين بهذا أن معرفة الله ليست مسألة حسابية أو جبرية أو فلكية وإنما هى غذاء للنفوس . فكلما غذينا النفوس علما ازدادت بصيرة بربها [وبعبارة أصرح وأوضح] إن الله يطلب منا أن نلمّ بالعلوم الطبيعية التى لا تكون إلا بالرياضة وهذه العلوم يتبعها معرفة الله ، ومعنى معرفته الانتقال بالتدريج من النقص العلمى إلى الكمال العلمى وذلك درجات كدرجات الغنى والقوة الجسمية والقوة العقلية وقوة الحرارة وما أشبه ذلك . هذا مافهم من القرآن وماظهر فى سورة (طه) وما قبلها .

إذا علمت هذا فاعلم أن سورة (الأنبياء) أكملت ماتقدم . فاذا كانت السور قبلها قد كررت ذكر العلوم النباتية والحيوانية وسلسلة المواليد فهذه السورة قد أتت بنظام الأرض نفسها ومن أين اشتقت وأشارت إلى أنها فصلت من الشمس كما أوضحناه . فالسور قبلها علمت علم المواليد وهذه أشارت إلى اشتقاق السموات والأرض وتبطيط القطبين وأن الجبال متصلة بالطبقة الصلبة حافظة للكرة الأرضية النارية أن تميد فيهلك

من

من عليها وهكذا . هذه هي المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها فهي تتمة لها . وقد أظهرت أيضا أن العلوم ستجدد في الأزمان المقبلة : أي كزماننا هذا وأن الناس سيعلمون غوامض علوم القرآن ، كما تبين لك إيضاحه هنا إجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال « رب زدني علما » في آخر سورة (طه) وازدياد علم أمته تبع له وازدياد علمنا يكون بتجدد العلوم على مدى الأزمان كما سيحصل لأمة الإسلام المستقبلة . انتهت الفائدة الأولى .

[الفائدة الثانية من اللطيفة الأولى « اقترب للناس حسابهم »]

اعلم أني لما وصلت إلى هذا المقام جاء في ذلك الفاضل وأخذ يحاجني فقال : إن اقتراب الساعة أمر مشكل إن هذا القول قيل لآدم وإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . كل هؤلاء يقال لهم اقتربت الساعة ولم تقترب ولم تقم فأين الساعة . وإني أقول لك بصريح العبارة إن القيامة بعيدة علينا كما بعدت على من قبلنا . فاذا مضى علينا الآن ألف وثلثمائة وسبع وأربعون سنة بعد نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولم تأت القيامة وقد كان الصوفية في الألف الأولى يحسبون حساب القيامة . وأنها آتية في زمانهم وهكذا من قبلهم ومن بعدهم ولا قيامة إلى الآن . وهكذا الأمم قبلنا كانوا يحسبون وإلى الآن لم تقم القيامة فما هذا الوعد إذن ؟ فيظهر أن هذه القيامة طويلة المدى بعيدة جدا وهذا البعد يورث التراخي والعاقل الحازم لا يضيع يومه لمستقبل البعيد . فماذا ترى ؟ قلت إن القيامة الكبرى لا تكون إلا عند تفكك الكرات الأرضية والشمسية أي أن النظام الشمسي كله يحترق ويذهب . ثم يرجع إلى المصنع الكبير السماوي ويصنع مرة أخرى ونذهب نحن في عالم آخر .

هذا هو عالم القيامة الكبرى ، ولكن ليس العذاب قاصرا على القيامة الكبرى فان الدين الإسلامي جعله عند النزول في القبر . وورد في الشريعة أن النار يعرضون عليها غدوا وعشيا وهناك أحاديث كثيرة ، فقال وضح مسألة الحساب في القبر . فقلت له إن الشريعة أتت بها مبهمة لأنها أمور تأتي في عالم ألطف من عالمنا ، فذكر الشرع عذابا ونعيما مجملين وأبان أن الحجاب يكشف ويطلع الإنسان على أخلاقه وأعماله بعد الموت وأن الملائكة يسلمون والشياطين يقرنون كل بما يناسبه وذكر نارا ونعيما وهكذا . قال فهل أتى العلم الحديث من هذا بشيء في علم الأرواح . قلت اقرأ [كتاب الأرواح] الذي ألفته في هذا واقرأ كتب إخواننا الذين كتبوا في هذا . قال فاذكر لي قولا مجملا فيما قالته الأرواح مع العلم بأن كلامها لم يقم عليه دليل فاذكر بعض ما قرأته من المجلات عن أحوال الأموات مما ذكرته الأرواح والمسلمون فيما بعد يحضرونها ويبحثون الموضوع فقلت إن الأرواح تقول إننا بعد الموت نعيش على ما كنا عليه بحيث يبقى الإنسان بأخلاقه ومعه جميع مواهبه الأخلاقية والعقلية . ويوضع في مركزه المعد له في الآخرة ويعيش مع من هو مناسب لهم في الأطوار والأحوال ويجد الإنسان جميع أعماله حاضرة عنده فيعذب بها أو ينعم : والمرء له ثلاث حالات : حال وطنية ، وحال منزلية ، وحال شخصية . فقد يكون كاملا فيها جميعها فيرتقي . وقد يكون ناقصا في الأخلاق الشخصية فاضلا في الوطنية والمنزلية وبالعكس . فبعد الموت يؤمر أن يكفر عن ذنوبه بأن يعيش مع من ظلمه ويؤدي له كل ما عليه ويكون تحت أمره في أعمال يرضاها وهذه الأمور لا ندركها الآن . وقد يكون صالحا في نفسه نافعا لأهله ولكنه يظلم هو وأمته قوما آخرين فبعد الموت يعيش عيشة فردية لا ظلم فيها وهكذا حياته مع عشيرته ولكنه هو ومن معه من المشتركين يلزمون بأعمال يقهرون عليها لمن ظلموهم . ثم إن الأرواح تقول : إن القصاص عندنا عدل لا عوج فيه وهو من هذا القبيل . وعندهم أن البخيل معذب بماله والحريص مقطع القلب على أعماله ، وهكذا . فقال صاحبي هذا كلام لست أدري أحق أم باطل فقد يكون هذا من الأرواح

أشبه بنصائح اخترعوها لأجل هدايتنا بما يناسب عقولنا فى العصر الحاضر . وربما كنت أنت لما نقلتها تركت أشياء تراها غير موافقة لعقائدنا فأعرضت عنها وخاطبتنا بما نفهمه . وإذن المسألة كلها الخاطبة على مقتضى الأفهام سواء أكان المؤلفون أم الأرواح أم الديانات . فقلت له قل ما تشاء فلا ضرر وأن حرص الأرواح التى تكلم الناس وحرص الأنبياء وحرص الحكماء دليل على أن هناك عالما غير عالمنا نعيش فيه بعد الموت ونجازى . قال فهل تذكر لى شيئا مما نقلته فى كتاب [الأرواح] مما تقوله نفس الأرواح مع الاختصار حتى أن المسلمين يحققونه فى المستقبل وينظرونه بأنفسهم . قلت نعم أذكر لك من صفحة ١٠٥ من كتاب [الأرواح] الطبعة الثانية وها هو ذا :

(الحديث الحادى عشر مع حذف كثير من الأسئلة الخارجة عن موضوعنا)

روت المجلة الروحانية فى عدد شهر (آب) سنة ١٨٦٠ خبر حوادث مزعجة جرت فى مدينة (باريس) شارع (نويه) والأجوبة التى أعطاها الروح محدثها عندما استحضرته إحدى الجماعات الروحانية ماترجمه :

(س) إلى الروح الموكول إليه حراسة الجمعية . هل من صحة الحوادث التى تمت فى شارع (نويه) ؟

(ج) نعم ، وقد عظمتها مخيلة البعض إما من باب الخوف وإما من باب السخرية . أما محدثها فهو روح طائش يقصد اللهو وإرعاب سكان الناحية .

(س) ألأرواح تعلق بالأشخاص فقط أم بها وبالأشياء أيضا ؟

(ج) هذا منوط بدرجة ارتقائهم فلبعض الأرواح السفلية تعلق شديد بالأشياء الأرضية كالبخيل مثلا الذى لم يتجرد بعد من الماديات فانه يلازم الكنز الذى خبأه تحت الأرض ويحافظ عليه .

(س) هل للأرواح التائهة أماكن تسر بالاقامة بها .

(ج) المبدأ واحد: أى أن الروح الذى تجرد من الأرضيات يذهب حيثما تجذبه المحبة . وأما بعض الأرواح السفلية فتستحب أحيانا الإقامة بمكان تسر به لداع من الدواعى .

(س) هل تألف الأرواح القبور المدفونة فيها أجسادها ؟

(ج) إن الجسد كساء مؤقت فلا تكترث الروح به أكثر من اكتراث السجين بسلاسله ، إنما الشىء الوحيد الذى يميل الروح له هو ذكر أحبائه له .

(س) ألا تسرهم الصلاة التى تقام على لحودهم ؟

(ج) إن الصلاة استحضار يجذب روح الميت . وكلما كانت الصلاة حارة نقية ازداد سروره بها فمشهد القبر يزيد المصلى خشوعا وهيبة كما حفظ أثرا للميت يحرك فيه الذكر والمحبة . وعليه فالفكر هو الذى يفعل بالروح لا الأشياء المادية وتأثير هذا عائد على الحى أكثر مما على الميت .

(س) فعلى هذا المبدأ قد يمكن لبعض الأرواح أن يميلوا بزيادة إلى بعض الأماكن ؟

(ج) نعم وقد يدوم مكثهم فيه طالما دواعى الاجتذاب عاملة فيهم

(س) ماتكون هذه الدواعى ؟

(ج) أخصها محبتهم لبعض الأشخاص المترددين إلى تلك الأماكن ورغبتهم فى مناجاتهم . وإن كان الروح شريرا يقصد الانتقام من عدو له مقيم بتلك النواحى ويكون أحيانا مكثه فى مكان مخصوص اضطراريا حكم عليه به قصاصا عن جرم اقترفه فى ذاك المكان نفسه حتى تكون خطيئته دائما نصب عينيه فيحصل له من ذلك عذاب لايطاق .

(س) كثير من أهل الصلاح يكونون مع هذا عرضة لإزعاجات الأرواح الشريرة . فما الداعى لذلك ؟

(ج) إن كان هؤلاء حقا صالحين يكون لهم ذلك من باب التجربة لترويض صبرهم وحثهم على التقدم في الصلاح ولكن لاتثقوا كثيرا بظاهر الفضيلة ولاتظنوا أن من يكثر من ذكرها هو صاحبها فان من يملكها حقا ويحملها لايتكلم عنها .

(س) هل نستطيع أن نحضر الروح المسبب الجلبة فى شارع (نويه) ؟

(ج) يمكنكم ذلك . إنما هـذا روح طائش لاتأتيكم أجوبته بفائدة . وإليك الأجوبة التى أعطاها الروح المذكور وقت إحضاره . قال ماتقصدون من إحضارى . هل تشتهون أن أقذفكم بعض الحجارة لأشهد هزيمتكم رغما بما تبدونه من مظاهر البسالة .

(س) حجارتك لا تفزعنا بل نسألك إن كنت حقا تقوى على قذفها ؟

(ج) ربما لا أجسر على ذلك لأن ههنا حارسا جليلا متيقظا عليكم .

(س) هل وجدت فى شارع (نويه) شخصا تستعين به على الأعمال المنكرية التى أقلقت بها سكان المنزل ؟

(ج) نعم وجدت آلة نفيسة وصفا لى الجو بعدم وجود روح قدير يصدنى عن عملى . إنى كثير البسط والانشراح وأحب أحيانا أن أتسلى .

(س) من هى الآلة التى استعنت بها فى عملك ؟

(ج) هى خادمة . وبعد أسئلة كثيرة سألوه الأسئلة الآتية :

(س) كم لك من الزمان وأنت ميت ؟

(ج) خمسون سنة .

(س) ماذا كنت فى حياتك ؟

(ج) خرقيا لا نفع به أجول فى هذه النواحى والناس يهزءون بى لتعلق بشراب أبينا نوح الأحمر .

(س) ماذا تعمل الآن وهل تسعى فى أمر مستقبلك ؟

(ج) كلا . انا تائه الآن لأنه ليس من يفكر بى على الأرض ولا من يصلى لأجلى .

(س) ماذا كان إسمك فى حياتك ؟

(ج) حنين .

(س) إننا مستعدون لإسعافك بالصلاة . فقل لنا يا حنين هل سررت باحضارنا لك ؟

(ج) نعم أنتم قوم صلحاء محبو الزهد وقد سررت جدا باستماعكم لى . استودعتكم الله .

قال شير محمد . ماذا ترى فى هذه الحادثة من العجائب العلية . قلت يا شير محمد تذكرت بقول الروح أن الأرواح تألف الأمكنة التى يناجيهم فيها من يحبونهم ما قرأته فى كتاب [المضنون به على غير أهله] الامام الغزالى قال (ومن أقبل فى الدنيا بهمته وكليته على إنسان فى دار الدنيا فان ذلك الانسان يحس باقبال ذلك المقبل عليه ويخبره بذلك . فمن لم يكن فى هذا العالم فهو أولى بالتنبه وهو مهيأ لذلك التنبه فان اطلاع من هو خارج عن أحوال العالم على بعض أحوال العالم ممكن كما يطلع فى المنام على أحوال من هو فى الآخرة أهو مثاب أم معاقب فان النوم صنو الموت وأخوه ، فبسبب النوم صرنا مستعدين لمعرفة أحوال لم نكن مستعدين لها فى حال اليقظة فكذلك من وصل إلى الدار الآخرة ومات موتا حقيقيا كان بالاطلاع على هذا العالم أولى وأحرى . فأما كلية أحوال هذا العالم فى جميع الأوقات فلم تكن مندرجة فى سلك معرفتهم كما لم تكن أحوال الماضين حاضرة فى معرفتنا فى منامنا عند الرؤيا . ولآحاد المعارف معينات ومخصصات منها همة صاحب الحاجة وهى استيلاء صاحب تلك الروح على صاحب الحاجة وكما تؤثر مشاهدة صورة الحى فى حضوره

وخطور نفسه بالبال فكذلك تؤثر مشاهدة أثر ذلك الميت ومشاهدة تربته التى هى حجاب قالبه فان أثر ذلك الميت فى النفس عند غيبته مشهده ليس كأثره فى حال حضوره ومشاهدة قالبه ومشهده . ومن ظن أنه قادر على أن يحضر فى نفس ذلك الميت عند غيبة مشهده كما يحضر عند مشاهدة مشهده فذلك ظن خطأ فان للمشاهدة أثرا بينا ليس للغيبة مثله) انتهى المقصود منه بالحرف الواحد .

وإنما ذكرت لك ذلك لأريك العجب فى توافق أقوال علمائنا لما نطقت به الأرواح على اختلاف مشاربها ومنازعها واختلاف أقطار إحضارها فى مشارق الأرض ومغاربها فى الروسيا وأمريكا وانجلترا وفرنسا وأسبانيا حتى أصبح ذلك متواترا . فانظر كيف وافق قول الإمام الغزالى المذكور قول الروح . فمشهد القبر يزيد المصلى خشوعا وهيبة كما حفظ أثرا للميت يحرك فيه الذكر والمحبة . وعليه فالفكر هو الذى يفعل بالروح لا الأشياء المادية وتأثير هذا عائد على الحى أكثر مما على الميت وقولها أيضا أخص دواعى ميل الأرواح إلى الأماكن محبتهم لبعض الأشخاص المترددين على تلك الأماكن ورغبتهم فى مناجاتهم وإن كان الروح شريرا قصد الانتقام من عدو له مقيم بتلك النواحى فتأمل وتعجب .

فلما أتممت هذا المقال قال صاحبى قد فهمت أن العقول والديانات متضافرة مع علم الأرواح على أننا سنجازى بعد الموت فعلا . وأصبح الآن عندى أشبه بالحقائق ولكنى أقول أيضا إن هذا العقاب أيضا بعيد وكيف لا يكون بعيدا ونحن نرى أن الناس يعاقبون على ذنوبهم فى محاكمهم بعد الجرم وإننا نجد الحكومات تسامح من غاب عن الوطن مدة معينة إذا كانت عقوبته على جريمة متوسطة . فاذا كان الناس فى محاكم الشرق والغرب يراعون اقتراب الذنب من الجريمة فاذن تأخير العقاب إلى ما بعد الموت غير كاف فى تهذيب النفوس البشرية فقل ما تشاء . إن عذاب القبر وما بعده لا يردع النفوس البشرية كل الردع بل لا يرتدع به إلا أوساط الناس وعذاب الآخرة البعيد يرتدع به الجهال والنساء والأطفال . فأما أرقى الطبقات المتعلمة فليس شىء من ذلك بمقنع لها . ولذلك ترى أكثر الظلم إنما يكون من عظماء الأمم والملوك والذين بيدهم الحل والعقد والمجالس النيابية فى جميع الأمم . قلت إن العذاب كما جاء فى الدين ليس قاصرا على الآخرة والقبر . إن العذاب يحل بالأفراد والأمم من وقت وقوع الجريمة ولكن الناس فى الدنيا مساكين لا يشعرون وبعضهم يشعر به . قال فاضرب لى مثلا على شريطة أن تؤيده بالقرآن . فقلت له آتيك بأمثلة وبآيات . مثال ذلك من ظلم الناس بأخذ أموالهم وأصبح مثريا غنيا يشار إليه بالبنان وقد أخذها بسرقة أو بنهب فان هذا (أولا) يجد فى قلبه حزنا وهو يكتمه وألما لأن النفوس الإنسانية لها شعور بما كسبت ولها ميل للعدل فوخز الضمير ملازم لها ولكن يختفى ذلك كثيرا . قال أفلاطون (إن الظالم معذب بضميره كعذاب المظلوم الذى سلب ماله) (وثانيا) يرى فى الحرص عليه وحقد القلوب وكراهة الناس آلاما (وثالثا) النوائب التى تحل بالمال الحرام والمال الحلال . كلها عذاب لصاحب المال قال تعالى « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا » فانظر كيف ذكر العذاب فى الحياة الدنيا . ناهيك ما ترى من خبر خراب الأمم وزوالها فى القرآن ، فكل هذا عذاب دنيوى . إن الإنسان يعذب بالتفريط فى أى قوة من قواه الجسمية والعقلية فى هذه الدنيا . إن الانسان فى الدنيا يرى أنه بتقصيره فى كسب المعالى ينزل درجات عن غيره وهو فى الدنيا إنه يحس بألم فى القلب إذا وجد غيره عالما بمسألة هو يجهلها . إنه متى أكرم امرأ وجد المحبة له جزاء ومتى أهان آخر وجد الكراهة له جزاء . وما ترك وقتا بلا عمل وهو قادر إلا أحس بندامة . إنه إذا أكل فوق طاقته تجرع غصص الأمراض . وإذا ترك الطعام فلم يأكل أحس بألم الجوع . وإذا ترك الزوج مثلا أحس بألم الشبق . وإذا ترك التداوى ازداد به المرض . وإذا لم يحسن المعاشرة انصرفت القلوب عنه . إن الميزان منصوب فى الدنيا ومنصوب فى الآخرة والله هو الممسك بالميزان ونحن الآن توزن أعمالنا صباح مساء ، ونحن

غافلون ونحن بعض العذاب وبعض الثواب وسنشعر بالباقي بعد فراق هذه الدار . فلما سمع صاحبي ذلك أشرق وجهه واستبشر وقال حقا لقد أزلت الحجاب ونطقت بالصواب وأفهمتني قوله تعالى في هذه السورة « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » وإني لا أقول آمنت بل أقول أيقنت أن الحساب واقع الآن ولكنه مغطى علينا وأن ذلك الحساب مستمر بعد الموت ملازما لنا ملازمة الظل للشبح . وأيقنت أنه لا فرق بين قوله تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » وبين قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » وقوله « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » والحساب الآن موجود ولكن نحس منه ببعض الآثار فذا متنا نطلع على ذلك واضحا جليا « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » وإذا كنا نجد أن الماء مركب من ذرات الاكسوجين وذرات الادروجين بنسب لا خطأ فيها وأن أقل ذرة توضع في الماء من أحدهما خارجة عن الوزن لا يقبلها الماء ولا تدخل فيه . فهذا الميزان المشاهد أمامنا أثره . ونقرؤه في علم الكيمياء هو بعينه الذي يطلعنا الله عليه بعد الموت وهو الذي نصبه الآن وبعد الآن لوزن أعمالنا فيما حولنا وفيما بعد الموت والحمد لله على هذا العلم الصحيح .

انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

﴿ اللطيفة الثانية في قوله تعالى « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا » ﴾

ها أنت ذا قد اطلعت على ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين من أن السموات والأرض أي الشمس والكواكب وما هي فيه من العوالم كانت ملتحمة ففصلها الله تعالى . وقلنا إن هذه معجزة لأن هذا العلم لم يعرفه الناس إلا في هذه العصور . ألا ترى أن كثيرا من المفسرين قالوا إن الكفار في ذلك الوقت ليس لديهم هذا العلم . فكان جوابهم على ذلك أنهم أخبروا به في نفس هذه الآية فكأن الآية تستدل عليهم بنفس ما نزلت به وذلك أن هذه الأمور لم تحقق . وقد أخذ العلماء يؤولون تأويلات شتى لفرط ذكائهم وحرصهم رحمهم الله وها نحن أولاء نجد هذه العلوم المكنونة المخزونة قد أبرزها الله على أيدي الفرنجة كما نطق القرآن هنا كأنه يقول سيرى الذين كفروا أن السموات والأرض كانت مرتوقة ففصلنا بينهما فهو وإن ذكرها بلفظ الماضي فقد قصد منه المستقبل كقوله تعالى « أتى أمر الله » وهذه معجزة تامة للقرآن وعجيبة من أعجب ما يسمعه الناس في هذه الحياة الدنيا . ولذلك نجد نفس هذه المسألة أصبحت عقيدة في جميع المدارس شرقا وغربا فإنهم يقولون للتلميذ إن الأرض جزء من الشمس انفصلت منها وهي تدور حولها .

هذه العلوم أصبحت عقائد للذين كفروا وللذين آمنوا . هاهو ذا ربنا يقول لنا : لقد فهم الذين كفروا علوما فهلا آمنوا بي لأن هذه العلوم تدل على عظمتي وحكمتي وإبداعي وجمالي وإحكامي في عملي لأني هكذا خلقت الكائنات ورتبتها طبقا عن طبق باعترافهم وجعلت الماء لحياة الحيوان والجبال لحفظ الأرض من التموج والضياع في الخلاء الذي لا يتناهى .

خطاب لعلماء الإسلام

أيها العلماء : لا عطر بعد عروس ولا مخبأ بعد بوس . قد أعذر من أنذر . هل بعد ما تبين لكم الحق ورأيتم كيف رضي الله العلوم متى كانت موافقة للعقل وحض الناس عليها ؟ هل بعد هذا تتجافون عن النظر لعجائب ربكم . كفى يا أمة الإسلام . أيها الذكي القارئ لهذا التفسير . اسمع مني وتأمل ما أقول .

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » فقال صلى الله عليه وسلم « ما علم الله عالما علما إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على الأنبياء . لتبيننه للناس ولا تكتمونه » اهـ . هذا قوله صلى الله عليه وسلم « أخذ علينا العهد كما أخذ على الأنبياء » إن الأنبياء اليوم عند ربهم ونحن سكان الأرض الآن مأخوذة علينا العهود والعهد تابع لنفس العلم . فأنت أيها الذكي مسئول

عن هذه الأمة وعمن حولك على مقدار طاقتك . هل فى شرعة الإنصاف أن تكون أمة هذا كتابها أجهل الأمم به وبالعلوم التى أنزلها الله . هل من جادة الحق وطريق الصواب أن الله يقول « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون » ويصبح المخاطبون بهذا القول أجهل الأمم بهذه الأرض وعجائبها يقول الله إن الأرض التى جعلت لكم فيها معايش محل شكركم وأنتم لاتشكرون إلاقليلا ولا يكون الشكر إلا بالتذكر والتفكر أولا والعمل باليد واللسان ثانيا . ها أنت ذا عرفت وأنت مسئول بين يدى الله فلتكن أنت العامل لأمتك الإسلامية . إنها فى حاجة إلى التبصير والمعين فأذع هذا القول وأمثاله مما يفتح به عليك مادمت من الصادقين الموقنين .

اعتراض على المؤلف وسؤال وتبصرة

حينئذ قال لى ذلك العالم صديق : إذن أنت تريد أن تصورنا نحن العلماء بصورة المقصرين . فقلت له إن التقصير على مقدار العلم ومادام الناس لايعلمون فماذا يفعلون ولا يعلم إلا إذا تعلم . فأنا أطلب من العلماء أن يقرءوا العلوم ويفهموا الشبان أن الله خلق الأرض والسماء لدراستهم لأنه كما جعلها معايش جعلها دروسا أى محل دراسة فهى كتاب مسطور فانه قال فى هذه السورة « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » فجعلها آيات كما جعل فى القرآن آيات . وآيات القرآن تطلب منا آيات العوالم المحيطة بنا . قال : هاأنت ذا ذكرت عقاب الله للناس على الأرض ، فماذا عوقب به المسلمون اليوم ؟ قلت المسلمون عوقبوا باذلال الفرنجة لهم . فقال وعاذا أفاد العقاب ؟ قلت أفاد كثيرا ونجح نجاحا باهرا . ألم تر إلى أمم الترك كيف استقلت وصلح حالها وأمة الأفغان كذلك . وترى الأمم التركية تتجاذب وتتحد وهكذا . أما أمة العرب فانها إلى الآن تذوق العذاب . قال أوضح المقام ؟ قلت انظر إلى أمريكا وهى من أمم مختلفة أصبحت أمة واحدة تربو على مائة مليون وهى مكونة من عشرات الممالك . انظر إلى ألمانيا بلغت نحو (٧٠) مليونا وهى ممالك مختلفة صارت مملكة واحدة ، انظر إلى إنكلترا كذلك انظر إلى غيرها وغيرها ثم انظر إلى أمة العرب كمصر وتونس والجزائر ومراكش وبلاد الشام والعراق وبلاد الحجاز هؤلاء كلهم عرب؛ فانظر ماذا أصابهم فتحوا البلاد قديما ثم عاشوا فيها وخضعوا لأمم غيرهم فأصبح الشامى لايفهم المصرى إلا قليلا والعراقى لايفهم المغربى فى تونس إلا قليلا ولايمكنهم أن يجعلوا لهم وحدة . هكذا ترى الأقطار الحجازية واليمنية فى جزيرة العرب التى هى منشأ العلم والدين لم تتحد ممالكها بل هم أعداء مع أنهم لايبلغون عشر الممالك المتحدة . الحق والحق أقول إن الله لايأذن ببقاء أمم فى الأرض ضالة جاهلة . إن الله أذن بارتقاء الإنسان فمن ارتقى أبقاه ومن لم يرتق أقصاه . إن الله أعطى الترك نصيبا من العقل فعملوا بهذه الصيحة ، أما العرب فانهم لايزالون جاهلين خامدين وستعلمهم الحوادث فى المستقبل الاتحاد وتنشأ سكة حديد من مراكش إلى الجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام والعراق مخترقة الحجاز ويكونون دولة بينها وبين الأفغان والترك معاهدة ومع الفرس . هذا هو اليوم الذى يقال فيه إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قامت بما عليها . هذا هو اليوم الموعود للمسلمين . أما هذه الحياة فحياة الغباوة والكسل والجهالة « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » فليعرف كل قوم وطنهم ثم جنسيتهم ثم الجامعة العامة ولكن أبناء مصر الآن وأبناء العرب لايعلمون شيئا من هذا فان الأمير عبدالكريم القائم الآن فى مراكش يدافع عن بلاده ضد أسبانيا لم يساعده إخوانه فى مصر من العرب ولم يجيبوا نداءه بالمساعدة المالية فضلا عن الطبية والحربية . فالجهل مخيم ولكن الله يريد إزالته « ولتعلمن نبأه بعد حين » . إن الله لايبقى إلا الأصلح فى هذا الوجود والله هو الولى الحميد .

وكيف يدخل الناس الجنة ، ويقال إنهم على سرر متقابلين أو ينزع ما فى صدورهم من غل وهم لم يحوموا حول هذا فى الدنيا ، لكل عمل فى الآخرة أس فى الدنيا فأين الأس هنا .

إن

إن كل عمل يعمله المرء يرصد له فى حسابه حتى الحركة والخطوة والكلمة . وهذا يسجل له فى أعصابه وحركاته المستقبلة ويكون كل عمل مبدأ لما بعده ويصبح سجية راسخة صالحة أو طالحة ، فهذا نوع من الجزاء للفرد بحيث لايعمل عملا صغيرا أو كبيرا ولا يفكر فكرا كذلك إلا كان له أثر فى أعماله فى الحياة الدنيا شاء أم أبى . هكذا الأمم فكل جهل وكسل فى الأمة يضعف أعمالها وأملها ويؤخرها وتصبح فريسة لغيرها . فأين الاتحاد فى الإسلام . ولم اتحد أهل أوروبا وهم لايتحدون . أفلا يقرءون «ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا» فى الآخرة ولابد من مقدمة ذلك فى الدنيا ، أفلا يقرءون « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فأين التعارف وقد تعارف الألمان والطليان والأمريكان .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون» مع قوله تعالى «ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين» إلى قوله تعالى «فجعلناهم الأخسرين» وتبيان التماثيل التى عكفوا عليها وكسرها الخليل عليه السلام﴾

اعلم أن هذه الآية أيضا من المعجزات القرآنية. ذلك لأن الكشف الحديث أظهر أن كل دين كان فى أصله دين توحيد . وأذكرك بما تقدم فى سورة (آل عمران) من أن كتاب (الفيدا) الذى هو أصل دين (البراهمة) قال بالتوحيد وهكذا دين (كرشنا) قبل المسيح بنحو ٤٨٠٠ سنة و (بوذا) بعده بسنة ٦٠٠ ق.م ودين قدماء المصريين وبيان رؤيا (هرمس) التى صرح فيها بالتوحيد تصريحا واضحا . وهكذا دين (يو) الكبير بالصين ودين (ليونسو) بعده بالصين أيضا . هذه هى الديانات المنتشرة اليوم فى الأرض وأصلها التوحيد . وقد تقدم أيضا نحو هذا فى سورة (إبراهيم) فى المجلد السابع من أن علماء الهند ومصر وحدوا سرا وأشركوا جهرا لاضلال العامة ولتبقى لهم السيادة عليهم والتثليث عند هذه الأمم جاء بعد التوحيد، هذا هو ما تقدم ولكنى الآن أريد أن أضيف إلى ذلك جمالا فى العلم وحكمة ونورا أشرق على أهل الأرض بالكشف الحديث . ذلك الكشف الذى أيد هذه المسألة تأييدا أتم :

(١) فأوسع القول الآن فى دين قدماء المصريين لفوائد لم تكن ذكرت من قبل .

(٢) وأذكر دين الفرس القدماء وأبين أن أصل هذا أيضا التوحيد .

(٣) وأن الإسلام جاء لإيضاح الحقيقة التى غطاها الضالون من أهل الديانات فهى (ثلاثة فصول) .

﴿ الفصل الأول : فى دين قدماء المصريين ﴾

قد أظهر الكشف الذى ذكره (وولكنسن) البحاثة الإنجليزى ثلاثة وسبعين إلها وإلاهة وقال إنهم لم يبينوا عدادهم ووره فى كتابة مصرية لرعمسيس الثانى العبارة الآتية: وهى (الآلهة الألف أى الآلهة والإلاهات الذين فى مصر) وجعلها هيرودوتس (ثلاث رتب) ٨ منها فى الرتبة الأولى (و ١٢) فى الثانية والباقية فى الثالثة . ومن عجب أن هذه الأمة كانت تجمع بين المتناقضين العقل الكبير والسخافة، ففيهم انحطاط وارتفاع فى الأمور العقلية معا . فأما السخافة فهى الظاهرة للعامة . وأما سمو الفكر فهى عند الخاصة الذين كانوا يعتقدون إلها واحدا .

ثم إنه يؤخذ مما يقوله (برتش) دليل المتحف المصرى ومن كتاب (موقع مصر) لبنصن المجلد الخامس ومن كتاب (مصر فى الأزمنة القديمة) لبرتش و (وولكنسن) و (رولنصن) قد أخذ من مجموع كلامهم ما يأتى :

إنهم يقولون (الخالق الحق للسموات والأرض لم يخلقه أحد الواجب الوجود لنفسه الكائن منذ الأزل الروح الطاهر الكامل فى جميع أوصافه الكلى الحكمة والقدرة والنعمة) وهذا الإله يصفوا له رسما

ولم يكن له اسم عندهم ولا يبيحون التلفظ باسمه . ويقولون إن كل ما سواه من الآلهة ليس إلا صفة له أوقسما من الطبيعة التي خلقها وكانوا يقولون إن العبادة للآلهة الصغيرة هي قد أي « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وإذا كان الله لا يجوز التلفظ باسمه فوجب أن تقدم للآلهة الصغيرة لأن الله أكبر من أن نعبده نحن.

أقول إن ذلك أشبه بما يصنعه الناس اليوم إذ يخاطبون الوزير أو الأمير بقولهم حضرتك وسعادتك وجلالة الملك وعظمة السلطان وهذا من الغالي في العظمة . فاذا كان الإنسان اعتاد الغلو في عظمة المخلوق فما هو بالأولى لم يعرف بأي طريق يعظم الله إلا بترك اسمه ونسيانه وعبادة مخلوقاته . ولما كانت الآلهة الصغيرة المعروفة عند العامة ليست مقصودة لذاتها بل هي رمز لخالقها . أجازوا أن يسمي الواحد من هذه الآلهة باسم الإله الآخر منها لأنها مرجعها كلها إلى الإله الأول . هذا في العقيدة القلبية . أما اليوم الآخر فقد كان معروفا عند العامة والخاصة كانوا يعتقدون بخلود النفس ومتى فارقت الجسد دخلت دار الحق وحوكمت في حضرة (أوسيريس) والاثنين والأربعين قاضيا الذين معه فيأتي (انوبس) بن (أوسيريس) بميزان يضع في ناحية منه تمثال الحق وفي الكفة الأخرى إناء فيه حسنات الميت . فإذا رجحت الحسنات على التمثال أبيح للنفس أن تدخل قارب الشمس وقادتها الأرواح الصالحة إلى الفردوس ومساكن الأبرار ، وإن لم ترجح حكم عليها أن تتقمص في أجساد الحيوانات كما تقدم في أقوال (طيماوس) في محاوراته مع (سقراط) في سورة النحل فهناك يقول بهذا فقوله نفسه كما تقول الهنود . إذن هذه عقيدة أهل الهند ومصر واليونان الدنية والمدة التي تقضيها في تلك التقمصات تتوقف على مقدار اجتهادها في التطهير فإن لم تتطهر في تقمصها حكم عليها بالإعدام . فأما النفس الصالحة فتطهر من سيئاتها بالنار المطهرة وتقيم مع (أوسيريس) ثلاثة آلاف سنة ثم تعود إلى الأرض وتدخل الجسد الذي خرجت منه فيقوم من الأموات ويعيش كما عاش أولا ويتكرر عليه البعث والموت حتى يبلغ السعادة العظمى إذ ترجع نفسه إلى النور الإلهي الذي صدر منه وهناك كمال السعادة ، انتهى .

هذه هي الديانة القديمة عند قدماء المصريين . هذا الدين كان في أول أمره حقا كالإسلام . ولكن هذه الخرافات التي جاءت لهم من دين البراهمة بالهند قبل المسيح بأربعة آلاف وثمانمائة سنة هي التي أوقعتهم في خرافات أشد من غيرهم فهم ظنوا أن الروح ترجع إلى هذا الجسم فحنطوه وأبقوه لهذه العقيدة . فأما القضاة وأسماء الآلهة ونحوها فهي كلها ضرب أمثال للعامة .

(الفصل الثاني : في ذكر دين الفرس القدماء)

اعلم أن (الآريين) كانوا يسكنون قديما أواسط آسيا شرقي بحر قزوين والجزء الشمالي من (هندكوش) وقد تفرع من هذا الأصل (السلتيون) فرحلوا إلى أوروبا من طريق بلاد العجم وآسيا الصغرى . وارتحل بعدهم أسلاف إيطاليا واليونانيون والتوتونيون ، فبعض هؤلاء رحلوا إلى أوروبا في الطريق بين بحر قزوين والبحر الأسود وما بقي من ذلك الأصل ذهب منهم قسم إلى بلاد الهند جنوبا وقسم ذهب إلى بلخ وسمرقند وقسم ذهب إلى بلاد الفرس ، فهؤلاء هم قدماء الفرس . فهم إذن فرع من ذلك الأصل الآري وهم إخوة أهل الهند وأوروبا فقد كانت أصولهم جميعا تتكلم بلغة واحدة وتدين بدين واحد وليس منهم (الترك والمجر وأهل فنلنده ولابلانده) فهؤلاء القدماء لما استقر قرارهم بجهات إيران تفرقت عقائدهم وآلهتهم بأسباب عارضة فصار ذلك التفريق في العقائد بابا يجر إلى الحرب والضرب والعداوات والشحناء . فظهر بينهم رجل عظيم يسمى (زردشت) . وقال أبو القاسم منصور بن فخر الدين أحمد الفردوسي الطوسي الشاعر المولود بقرب طوس حوالي سنة ٣٢٠ الهجرة في كتابه (الشاه نامة) الذي يبلغ ستين ألف بيت وقد ألفه في ٣٠ سنة وهذا فضله المتأخرون على كل تاريخ منظوم ، إنه ظهر ببلخ في عهد الملك (كاي مستشب) رجل طاهر

اسمه (زردشت) بيده إناء فيه نار بلا دخان ولاوقود ولا بخور وقال للملك إنى نبى مرسل إليك لأريك سبيل الله وهذه النار التى بيدى من الفردوس أعط نبيا الله نفسه وقال لى خذها فان فيها صورة السماء والأرض . خذ منى الآن الدين الحق واستتر به وازدر بالدنيا وكان مع النبى كتب قال إن الله كتبها وهى (الاوستاوزند) ولقد ولد (زردشت) بالرى على مقربة من طهران (كما تقدمت الإشارة إليه فى سورة طه) عند قوله تعالى « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » بمناسبة تكاثر القرية فى الحيوان الضار هناك فى المائة السادسة قبل المسيح كما يقوله الفرس الآن أو فى جوار بلخ فى المائة الثانية عشرة قبل المسيح على أقوال المحققين من الفرنجة أى قبل وصول قدماء الفرس إلى إيران . ولقد قبل الفرس دعوته فاعتنقوا بها ولمت شملهم وبقيت تلك الديانة قائمة إلى انقضاء أسرة بنى (ساسان) فى خلافة عمر رضى الله عنه سنة ٦٥١م ودخل القوم دين الإسلام إلا شرذمة قليلة حافظت على ذلك الدين إلى الآن وهم قليل جدا ببلاد الفرس ونحو سبعين ألفا ببلاد الهند . ولقد قلنا فى سورة (طه) أيضا إن الله عز وجل عنده (قانونان) لابد منهما الموت والحياة والشر والخير كما فى القرآن سواء بسواء . ولقد حرم القوم عبادة الأصنام وأيقنوا بالخير وبالشر أنهما من الله وأن كلا منهما بالجزم الآخر من نور وظلمة وغنى وفقر وحق وباطل وهكذا والأول (أهو رامزدا) ثم صار (هرمزد) والثانى (أنخرومانيوس) ثم صار (اهرمان) فهذه التعاليم أعطيت للقوم قبل رحيلهم إلى إيران ولما حلوا ساحة (إيران) وخالطوا المجوس أصحاب البلاد اقتبسوا كثيرا من دينهم وعوائدهم فبعد أن كان (أهرمان) و (هرمزد) عملين من أعمال الله جعلوهما إلهين مستقلين بينهما حروب ونضال . فهذا يرسل القحط والجوع وهذا يعانده فيأتى بالخصب والشبع ولكل منهما أنصار ، وأنصار (هرمزد) ست (١) العقل التام (٢) الاستقامة (٣) الحكم التام (٤) العبادة والطهارة (٥) الصحة (٦) الخلود .

وهم يعتقدون أن الإنسان من مخلوقات (هرمزد) إله الخير وإذن عليه أن يعصى إله الشر وإذن يتصف (بأربع فضائل) : التقوى . الطهارة . الاجتهاد . الصدق . فالأول الاعتراف بأن (هرمزد) الإله الحق وإكرام الملائكة بالصلوات والتسبيحات والطهارة المداومة على الفرائض الدينية والتنزه فى الفكر والقول والفعل لأن (هرمزد) طاهر ورب الطهارة فليكن أتباعه طاهرين . والاجتهاد يرجع إلى حرث الأرض واستئصال الشوك منها . والصدق أهم الفضائل عندهم .

وروى (هيرودوتس) أن صبيان الفرس يمرنون على ركوب الخيل وأن يوتروا القوس وأن يتكلموا الصدق ، والكذب عندهم شر الرذائل وأسوؤها . وكانوا يعتقدون الخلود كالمصريين قبلهم والبونانيين وأهل الهند . ويقولون إن نفوس الصالحين والطالحين تمر بعد الموت على الصراط وهو جسر ضيق فى طريق الجنة وهو من فوق جهنم فأما نفوس الأخيار فانها تمر عليه سالمة وتعينها الملائكة لاسيما رئيسها (سروش) والدعوات التى يدعوها أصحابها الذين على الأرض . فأما نفوس الأشرار فانها تسقط فى الهاوية . ومتى وصلت نفس الصالح إلى الفردوس حياها العقل الصالح والملائكة يقولون طوبى لك أيتها النفس المقبلة فلك الخلود ونفوس الأشرار تقيم فى جهنم وهم يعتقدون إلى الآن بيوم القيامة وحشر الأجساد وكل ذلك بقى فى الدين بعد امتزاج (الزردشتية بالديانة المجوسية) والمجوس أصحاب البلاد الذين اختلط بهم الفرس كانوا يكرمون النار والهواء والماء والتراب ويحرسون النار المقدسة على مذابحهم معتقدين أن أصلها من السماء وأنهم يجب عليهم أن يحرصوا عليها حتى لاتنطفئ . أقول من العجب أن هذا القول فى حقيقته رمز للعلوم والدين . فالدين من السماء وهو النار والنور الحال فى القلوب فتجب المحافظة عليه فلعل ذلك رمز للمعانى العلمية فتبقى ما بقيت الرسوم الظاهرة وهناك مناسبة بين الحقيقة والمجاز إذ العلم نور والنور يصاحب النار أو الحرارة . ولا يجرءون على تدنيس الأنهار ولو بغسل الأيدى .

وهذه العقائد دخلت تدريجا فى دين (زردشت) حتى إن الفرس بعد ذلك كانوا يطعمون موتاهم طير السماء ووحش القفار كالمجوس لئلا يدنسوا النار إذا أحرقوهم بها والأرض إذا واروهم فيها والماء إذا طرحوهم فيه والهواء إذا وضعوهم فى تابوت فصعدت رائحتهم إليه.

وهاك (نبذتين) نبذة من كتاب (الاستاوزند) المذكور أى المتن والشرح وباللغات الافرنجية (الزندافستا) وهو فيه ألف ألف بيت من الشعر نظمه (زردشت) وشرحه من خلفه وقد أكثره أيام الإسكندر ثم جمع ما بقى منه الأكاسرة بنو ساسان. ونبذة فى قانون الإيمان بالله.

(النبذة الأولى) أقدم التحيات لسيدى ومولاى العظيم (أهورمزدا) وأسألك أيها السيد العظيم أن تغفر لى خطيئتى يوم الدين وتقدرنى على أن أقوم بشعائر الدين. إن فى الوجود (روحين) روحا شريرة وروحا فاضلة وللأولى الشرور وللثانية الفضائل والخيرات. فاخترت أنت ياقدوس الخير وتبعت الشر وأهل الشر قد اتفقوا عليه فكنت أنت غالبهم فلئن أنبت الأرض بالشوك والحسك بسبب شرهم تأتى أنت بالنعم فى الأرض وسوف يأتى يوم الحساب ويجازى كل بما عمل.

(النبذة الثانية قانون الايمان بالله) نؤمن بإله واحد خالق السموات والأرض والملائكة والشمس والقمر والنجوم والنار والماء وكل شىء. إياه نعبد وله نسجد وبه نستعين. إلهنا لا وجه له ولا شكل ولا له مكان محدود ولانستطيع وصف مجده ولاتدرك عقولنا كنهه. له ألف اسم واسم ولكن اسمه الأول (هومزد) أى الروح الحكيم. ومتى عبدنا نلتفت إلى بعض خلائقه كالشمس والنار والماء والقمر. وقد علمنا نبينا (زردشت) أن الله واحد وهو نبيه وأن نؤمن (بالاوستا) وبجود الله وأن نسلم لمشيئته ونطيع أوامره ونعمل الأعمال الصالحة ونقول الأقوال الحسنة ونفكر الأفكار الطاهرة ونصلى خمسا كل يوم ونؤمن بالحساب وبأنه يكون فى اليوم الرابع بعد الموت ونرجو السماء ونخاف جهنم ونؤمن بيوم القيامة. انتهى.

هاأنت ذاأيها اللبيب الذكى قدقرأت دين قدماء المصريين ودين المجوس ودين الفرس فكانت هذه الديانات الثلاث مثل غيرها مما ذكرناه فى سورة (إبراهيم) و (آل عمران) كما قدمنا جميعها ناطقات بلسان واحد أنه (لا إله إلا الله) وإنما ذكرت لك ذلك بنصوصه وأطلت فيه بعض الإطالة لغرضين شريفين: (الغرض الأول) أن تطلع على ديانات الأمم فيحصل لك اليقين بالاسلام من طريق الديانات لأنها كالاسلام من حيث وحدانية الله والخلود بعد الموت والجنة والنار ولا عبرة ببعض التطرف فى تلك الديانات (الغرض الثانى) أن تفهم الآية التى نحن بصددها. فالله يقول فيها إن الرسل الذين أرسلوا قبلك يامحمد لم يدعوا إلا إلى إله واحد. أليس ذلك معجزة وأى معجزة ثم أن تطابق الأقوال واتحادها فى جميع الديانات طريقا واحدا بعد إجماعا من أكثر الأمم وهذا مما يزيد اليقين ويقوى العقائد ويقلل الزيغ عند الذين لا بصيرة لديهم ولا قوة بها يدركون الحق. واعلم أن مثل هذا الإنسان على الأرض فى دينه كمثله فى أمر طعامه. فكما أن فى الطعام أنواعا وأجناسا هكذا فى الديانات والأمور العقلية ألوان وأجناس، وكما أن الإنسان قديما وحديثا قد غش فى الأطعمة كما شرحته لك فى سورة (الحجر) عند ذكر للملائكة وآدم هكذا غش فى الديانات. فترى هناك ما نقله من الأطباء فى مصر وفى أوروبا فقد جاهروا بأن الناس غشوا فى الدقيق والخبز واللبن الأخضر واللبن المصحون والتبن وكل سائل كالزيت وكالزجاجات المقفلات بالمياه الغازية. فكل هذه دخلها الغش. فلا زيت ولا سمن ولا لبن ولاخبز إلا فيها غش. فاللبن يدخلون فيه الطين، واللبن يدخلون فيه ماء قذرا فيأتى بالأمراض المعدية.

أقول. فكما غش الناس فى طعامهم غشوا فى دينهم وفى علمهم كما علمت فى دين قدماء المصريين وفى دين (زردشت) الذى دخله التعدد فى الله بعد الوحدانية. وترى الناس على الأرض هذا دأبهم وهذا

كله من ضعف استعداد سكان هذا الكوكب الأرضى فان الكمال قليل فيه ولا يكاد دين ينزل إلى الأرض حتى يختلط بعلمها ووحلها ويصبح أشبه بآراء أهلها الخاطئة « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن الجهل شديد .

إن هذا الإنسان يريد تعظيم الإله . فماذا يفعل؟ يتجاوز الحد فيقول أنا لا أذكر اسمه تعظيما له فيقع فى عبادة المخلوقات كما عرفت فى ديانة الفرس وديانة قدماء المصريين والنبى ؓ إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده والمسلمون لما طال عليهم الأمد أرادوا تعظيم الله تعظيما تاما فتقربوا إليه سبحانه بترك العلوم الطبيعية وعدّوها كفرا وهذا من شدة عنايتهم بتعظيم الله فهم لشغفهم بتعظيمه نهوا عن النظر فى صنعته كما تقدم عن الأمم السابقة إذ لا يذكرون اسمه إعظاما له بل يذكرون اسم مخلوقاته كما نسمع أن أهل اليابان كانوا يعظمون الميكادو فلا يرون وجهه . وكما نسمع عن بعض أتباع شيخ عظيم من المسلمين بشمال أفريقيا . فأهل البلاد محرم عليهم النظر إلى وجهه « إن الإنسان لظلوم كفار - إنه كان ظلوما جهولا » .

فلما سمع صاحبى ذلك قال إن فى معرفة آراء الأمم السابقة لحكمة ونورا وهدى وإن ذلك يفيدنا معنى الآية التى نحن بصددها . حقا إن المسلمين عليهم أن يقرءوا علوم الأمم وتاريخهم . يقول الله فى الآية إن كل الأنبياء كانوا يقولون بإله واحد وهذا أمر صحيح ولايكون السمعى بالنقل إلا بالاطلاع وهذا هو اليقين واليقين أفضل من الإيمان . ولا جرم أن ازدياد العلم به تزداد المدنية وترقى الأمم . فيناهم يختلفون فى أمر آية أو عقيدة إذا هم ارتقوا فى أمورهم المادية والمعنوية . ثم قال وإذا كان الأمر كذلك فانى أقول لقد ذكرت أن فى الهند كتاب (الفيدا) ثم كان (خريستا العظيم) ثم (بوذا) وفى الصين كان أولا (يو الكبير) ثم (ليونسو) بعده وأن دين الجميع التوحيد فأرجو أن تذكر آخر دين بالصين لأن ديانات أهل الهند قد شرحت سابقا فى هذا التفسير وكذلك دين أهل (بابل) . فقلت أما آخر دين فى الصين فهو دين (كنفوشيوس) هو فيلسوف الصين صاحب المؤلفات الكثيرة يقر بفضله أهل الصين كلهم . ولد سنة ٥٥٠ قبل الميلاد وزمانه كان يقرب من زمان (بوذا) بالهند . وكان والده من أسرة شريفة حاكما على بلده وتوفى وابنه صغير وتعلم علوم بلاده وعين معاونا فى وزارة المالية وسنه ١٧ سنة ثم ترك الحكومة ثم رجع قاضيا فوزيرا ثم ترك المنصب إذ وجد أن الشعب لا يرتقى إلا بالتعليم فأخذ يجوب البلاد ويعلم الجاهل ويرشد الضال والناس مابين مهين له ومكرم وهو يقول لا أهتم بإيذاء الناس مادمت أسعى فى رقيهم . وكتب فى الفلسفة واللغة الصينية والعلوم القديمة وتاريخ بلاده وتقاطرت إليه الناس من كل حدب ينسلون . وقد كانت البلاد تحت حكام ظلمة مرتشين يلقون بين الناس العداوة والبغضاء ليبقى لهم السلطان عليهم فأخذ يذم فعلهم تارة وينصحهم أخرى فأصلح حال أكثرهم . ويقال إنه لولا مؤلفاته لم يعرف الناس عن تاريخ بلاده شيئا ومات سنة ٤٦٨ ق . م وكان تلاميذه ثلاثة آلاف تلميذ أشهرهم (٧٢) اشتهروا بحبه العظيم له ويعتبر الصينيون اليوم علومه وآراءه واسمه . ولا يرتقى الرجل عندهم إن لم يكن أتقن تعاليمه واشتهر بها . وذريته اليوم يعدون أشراف بلادهم وكان فى تعاليمه يضرب الأمثال بما حوله كما كان يضربها المسيح . فمن أقواله أنه مر بساقية فقال لأصحابها (للماء كحكمة الناس فأفيضوا من علمكم على الناس كما يفيض هذا الماء فيعود عليكم بالنفع ويبقى سيركم كما يبقى الماء ولا يفنى) . ورأى صائدا معه طيور فقال له مالى لا أرى معك طيورا كبيرة فأجابه إن الكبيرة تعرف الشرك فتنجو منه أما الصغيرة وما يتبعها من الكبار فانها تقع فيه فقال لتلاميذه هكذا الناس فمن اتبع نصيحة الشيوخ نجا ومن اتبع الجهال وصغار الأحلام والشبان هلك . انتهى .

أما دين (بابل) الذي سألت عنه فاعلم أن الآثار التي عثر الناس عليها اليوم قد أبانت ديانة هؤلاء أكثر مما أبانت التوراة فكان رأس آلهة الآشوريين (آشور) ورأس آلهة البابليين (إل) وبه سميت مدينتهم فهي (باب إل) أو (باب الإله) إذن دين الآشوريين التوحيد ودين البابليين التوحيد لأنهم مهما نصبوا من التماثيل والأصنام فقد عبد كل منهما إلها واحدا وهو الرئيس كما عبد (كونفوس) في الصين إلها واحدا كما عبده (التبيان) قبله بها فهم كأهل الهند عندهم إله واحد ولكن عند العامة أظهروا التعدد وهكذا قدماء المصريين. إذن الأمم القديمة كلها متشابهة توحد وتعدد في آن واحد. وبعد الإله آشور الذي هو رئيس الآلهة عند الآشوريين (ثلاثة آلهة) وهم (انو) و (بل) و (ايا) وهذا مثلث الآشوريين وبعد هذا المثلث مثلث آخر وهو (الإله سن القمر) و (الإله شمس الشمس) و (الإله أدا) أو (فل) أو (رم) أي إله الهواء وهكذا آلهة وراء آلهة. ولهم اعتقاد بالآخرة مثل بقية الأمم. وهكذا كان المصريون يعتقدون تثليث الإله فبكل جماعة كانوا يعبدون مثلثا غير الآخرين. فالتوحيد والتثليث إذن في الهند وبابل ومصر على حد سواء. وأذكرك أيها الذكي بما مر في آخر سورة (المائدة) إذ نقلت لك هناك صفحات كلها منقولة من شمس علوم أهل الهند أي إن عشرات الآيات من الأناجيل الأربعة نقلت بنصها وفصها مما كتب على (بوذا) مما كتب على (خريشنا) انظره هناك فإن الأمر عجب وأعجب من هذه الإنسانية المخرفة الطفلة لم على الإنسان إلا أن يأتي بضلالة فتزرع في الأرض فلا يخرجها علم ولا حكمة ولا صدق ولا دين بل تبقى ثابتة مادام لها أنصار يأكلون منها الخبز. بهذا تعلم أن تثليث المسيحيين لافرق بينه وبين تثليث المصريين والبابليين وأهل الهند. وأذكرك بما تقدم في سورة (مريم) عند قوله تعالى «فاختلف الأحزاب من بينهم» فقد ذكرت هناك الرواية التي تشبه الرواية المقولة عن المسيح حرفا بحرف نقلتها هناك من كتاب (اللورد هيدلي) رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية. فهناك ما كتب في اللوحين البابليين التابعين لمجموعة السجلات المكتوبة بالخط الأشوري التي كشفت بواسطة الحفارين الألمانيين سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٠٤ في (كاله سيرجات) قاعدة الآشوريين القدماء، وهما يتممان مكتبة الآشوريين التي أنشئت في القرن التاسع قبل الميلاد وقبل ذلك وهما مع ذلك صورتان طبق الأصل. ففي تلك الرواية ترى رواية الأناجيل نفسها كما ترى روايات دين الهنود.

وملخص ما مضى أن هذا النوع الإنساني فيه طبعان ثابتان: الأول أنه كله متدين معتقد إله وآخرة وموحد. الثاني أنه لا يصبر على التوحيد بل يثلث ويكثر الآلهة التي قد تصل إلى ألف أو ألوف. هذان طبعان في الإنسان لايفترقان مادام على هذه الأرض فهو متدين بالطبع مشرك بالعادة وهذا نفسه برهان على الله واليوم الآخر لأن ما كان ملازما للطبيعة فهو حق كالغذاء، وعموم حب الزوج وهكذا «والله يعلم وأنتم لاتعلمون» والحمد لله رب العالمين. كتب يوم ٢٠ فبراير سنه ١٩٢٨ م.

بعد أن أتممت هذا المقال حضر ذلك الصديق العالم وقال لي إن هذا المقام جليل جميل ولكن يحتاج إلى الإيضاح فقلت له توضيح الواضحات من المشكلات. قال لست أريد أن ما مضى ليس واضحا بل أريد أن نزج في بحر النور العلمي ونقتبس من هذه الآثار والأخبار التي وردت عن الأمم السابقة ما ينفعنا في عصرنا فقلت سل ما تشاء. فقال أرجو إيضاح هذا التثليث عند القوم فنحن عرفنا أن هناك مثلثا عند الآشوريين والبابليين وهم الآلهة العظام عندهم ومثلثا أقل منه القمر والشمس والهواء. لم نعرف أهؤلاء الآلهة عندهم زوجات أم لا. فقلت لهؤلاء الآلهة الست إلهات زوجات للمثلثين ولكن (آشور) و (إل) لم يتزوجا فقال وهل من آلهة بعد ذلك مشهورين. فقلت خمسة (زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد) فهؤلاء خمسة آلهة ولكل درجة عندهم وهذه أوصافهم:

(١) زحل الجبار المحارب الظافر قاهر العصاة الرب القدير قاهر الخارجين وهو معظم عند الأغوريين وأكثر البابليين وله صورة ثور ورأس إنسان وجناحا طائر .

(٢) المشترى معظم عند البابليين ، وهو عندهم الرب المعظم والملك وملك الآلهة والإله المجيد والقاضى والقديم وقاضى الآلهة وبكر السماء ورب الحروب وملك السماء ورب الأبدية المعظم ورب الكائنات ورئيس الآلهة وإله الآلهة .

(٣) المريخ إله الحرب والصيد الرجل العظيم البطل القدير ملك الحرب المهلك جبار الآلهة وله صورة أسد ورأس إنسان وجناحا طائر .

(٤) الزهرة ملكة الحب والجمال ، وكانوا يعبدونها عبادة خاصة فاحشة كما كانت تعبد عند الفينيقيين واليونان والرومان ، ويجعلها هؤلاء أيضا آلهة الحرب ويقرنونها مع آشور ورئيسة السماء وملكة الآلهة والآلهات

(٥) عطارد إله الحكمة والفهم والتعلم ورسول الآلهة وتارة يقولون رب الأرباب الذى لا مثيل له فى القدرة حارس السموات والأرض الذى يسلم الملوك صولجان الملك .

ثم إنهم يصنعون أصناما من الحجارة والمعادن فيكون البدن بدن حيوان له رأس إنسان وجناحا طائر ويعبدونها فى معابد خاصة وينشدون الأناشيد ويذبحون الذبائح ويقربون القرابين . ومما يتبع ذلك أنهم يقولون (أيتها النار الربة العظيمة المتعالية فوق كل شىء . أنت سابكة النحاس والرصاص . أنت محصة الذهب والفضة) وكان كل يوم من أيام السنة عيد الإله أو أكثر من آلهتهم ويعتقدون اليوم الآخر ويصلون على موتاهم . هذا ملخص ما عند القوم . فقال كيف يقع العقلاء فى هذه الجهالة الظاهرة البطلان وكيف يكون المريخ والمشترى وأشالها آلهة ثم ما هذه المبالغات وإذا كانت الأمم القديمة كلها على هذا المنوال مخرفين ضالين فكيف كانوا منبع الحكمة . إن الحكمة ظهرت عند جميع هذه الأمم فكيف تجتمع الخرافات والحكمة . وإذا كان دين الإسلام قد خلا من هذه الشوائب فلماذا لم نر فيه حكماء أشبه بمن مضوا فى الأمم فهل الخرافات تكون سببا فى الحكمة والقول الحق يتبعه قوم يقل الحكماء بينهم . إن هذا لعجب عجاب قلت هوّن عليك ياصاح .

اعلم أن الله عز وجل مشرق نوره على جميع الأمم قديمها وحديثها وهو القائل «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» والقائل «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة» فهو سبحانه لم يذر أمة من الأمم السابقة إلا وأرسل لها هداة وهذا المقام يحتاج إلى مقدمة فأقول :

إن الله عز وجل هو الذى بث الحيوانات فى البحر والتراب وفوق الأرض وفى الهواء وهو الذى نظم تلك الممالك وأودع فيها غرائز فهى بذلك حافظات لنظامها قائمات بأمر ذريتها مادام الفرقدان وطلع النيران ولكن انظر ماذا فعل . أعطى كل نوع من أنواع الحيوان فطرا وغرائز تخالف بقية الحيوان . فهل فطرة النمر كفطرة الغزال ، قل لا ؟ قلت فهذه فطر مختلفات . مثلا ترى أصواتها لاتشابه بينها . فكل نوع صوته ونغمته تخالف النوع الآخر والنوع الواحد من الشرق لايخالف فى صوته ماعاش منه فى الغرب فصوت الغربان والكراكى وأبى قردان فى الشرق هو صوت الغربان والكراكى وأبى قردان فى الغرب لااختلاف بينها .

أما هذا الإنسان فأمره عجب . أعطى عقلا وأعطى حرية يتصرف فى الكلام كما يشاء ، فلما استقل عقله قدر على التصرف . فماذا فعل . سار على ناموس الوجود . ومعنى هذا أن هذا الوجود فطر على الاختلاف

والتوبيع . فكما نوع الله أصوات الحيوان باختلاف الأنواع أخذ هذا الإنسان ينوع أصواته كما فعل الله في حيوانه فجعل الإنسان نفسه كأنه أنواع لا نوع واحد ، فترى اللغات الأصلية الثلاثة وهي (الآرية والطورانية والسامية) تختلف عن بعضها اختلافا بينا وكل لغة لها فروع كثيرة ، فاذا رأيت الآريين يتكلمون بالسنسكريتية وبالفارسية وبكثير من لغات أوروبا ترى الطورانيين يتكلمون باللغة التركية والقازانية وغيرها وترى الساميين يتكلمون بالعربية والعبرية والحبشية وماشاكلها . فإذن أصبح التركي والفارسي والعربي في لغاتهم أشبه بالكركي والبازي والسنور مختلفي الأصوات مختلفي اللغات ذلك لأن الله من عادته أن لا يكرر في الخلق أي أنه دائما ينوع مخلوقاته هكذا الإنسان لما أعطى قوة وتلك القوة من عند المبدع الحكيم نوع كما نوع المعطى القادر . فكما نوع الله في أصوات الحيوان نوع الإنسان الذي هو خليفته في صوت نفسه فحدثت اللغات ولكل لغة لهجات . وكما نوع الله في الغرائز الحيوانية نوع الإنسان في الديانات .

فهذا المثل ضربته لك أيها الفاضل لتقيس عليه . وقد قلنا إن الله لم يذر أمة إلا أرسل لها رسولا والمجددون في كل دين هم قائمون مقام الرسل . فهذه الديانات تنوعت على حسب ماطبع عليه الإنسان من التنويع في عاداته وأطواره . ثم إن كل دين ينزل لأهل الأرض كما قدمنا يكون بالتوحيد وهذا التوحيد سار في جميع الكائنات والله لم يره أحد، فاذا فكر العقلاء لم يجدوا إلا جمال هذا الوجود فيتفننون في وصف جمال العوالم ويعشقون الصانع بنظرهم إلى الصنعة والدين إذا لم يكن مستندا إلى هذه العوالم الطبيعية لم يدم .

إن الله لم يره الناس ولكنهم رأوا جمالا باهرا وحسنا ظاهرا وبهجة وكلا فهذا الجمال يسوقهم إلى أن تهرع عقولهم إلى مبدع العالم .

ولا جرم أن زحل والمشتري وأمثالها ذات جمال باهر وحسن ظاهر فهذه السيارات وكذلك الشمس والقمر والنجوم الثوابت هي الزرعة العلية التي بها يعشق الناس خالقهم ويرتقون في صناعاتهم الدنيوية . ومتى مضت الأيام والسنون أصبح ماكان بهجة الجمال وبابا للعلم وسلما للمعرفة حجابا على العقول ومانعا يمنع من الوصول وذلك بالإطناب في مدح هذه الدلائل والغالى في وصفها جيلا بعد جيل فينزل هذا الدين إلى السفاسف ويجعل الناس هذه الكواكب كأنها آلهة صغرى تقرب إلى الإله الأكبر ثم إذا تمادى الزمان انحطوا إلى عبادة التماثيل التي تمثل هؤلاء المعبودين من الكواكب . والدليل على ذلك أن الأوصاف المتقدمة تخوّل لكل كوكب فيها أنه رئيس الآلهة فتراهم يقولون في أكثرها إنه رب الآلهة وهذا مبالغة كعادة الشعراء في كل عصر إذ يصفون وصفا كاذبا من كثرة المبالغة . وقصارى الأمر وحماداه أن هؤلاء الصابئين كانوا أولا يعبدون الله ولله ملائكة والملائكة موكلون بالكواكب فالله هو المعبود والملائكة يعملون بأمره والكواكب كأنها أجسام تلك الأرواح فعبادة الملك يتقربون بها إلى الله والكوكب حجابه أو جسمه أو نحو ذلك فهو رمزه والتماثيل في الأرض مذكرات بالكواكب إذا غابت عنهم . إذن العبادة في نظرهم كلها راجعات إلى الله كما قال تعالى «مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» فاذا عبدوا زحلا أو المشترى فقد أرادوا بذلك أنهما ملكان ثم اعتبروا الكوكبين ثم التماثيل .

(ضرب مثل)

وما مثل الديانات إلا كمثل الناس على الأرض . يكون المرء طفلا فصبيا فمراهقا ففتى وشابا فبالغا أشده فكهلا فشيخا فهرما فميتا . هكذا الدين يكون أولا قولا على لسان رسول فيلقنه فينتشر في الأمم فيرتقون به ثم يأخذ في الاضمحلال شيئا فشيئا حتى لايصلح للأمم فيزول من الوجود أو ينكمش في جماعة محصورين وجل الله أن يبقى في الأرض مالافائدة فيه ، فهذه الديانات وهي قائمة في الأرض كان يتبعها علوم وحكم

وأخلاق

وأخلاق ومواعظ . كل هذه تغلب على الخرافات فلا يكون لها أثر ولكن بتمادى الزمان تزداد الخرافات فتغلب على جوهر الدين فلا يبقى صالحاً لحياة الأمم فيزول من الوجود وتلك الديانات لم تزل من الأمم إلا حين ضاعت ثمرتها وذهبت جدتها وفارقت الصواب . واعلم أن أهل كل دين يظنون أنهم على الحق وسواهم على ضلال ونحن المسلمين اليوم نظن أن تلك الأمم لم يكن لهم من الهدى نصيب وهذا حق من وجه ولكن من وجه آخر باطل لأنهم لو جردوا من كل حكمة فى الدين ما بقى ذلك الدين فكانت لهم شرائع وقوانين وعلوم تربو على تلك الخرافات فيعيش بالدين الناس بسلام .

فلما سمع صاحبي ذلك قال الحمد لله ديننا برىء مما وقعت فيه الأمم السابقة . فقلت إن ديننا وقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة حذو القذة بالقذة كما روى « لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » . فقال وكيف ذلك ؟ قلت ما الذى ضر الناس من عبادة الكواكب ؟ قال تفرق الوجهة فلا يدرى الناس من المعبود وحينئذ يضيع الوقت سدى ويتفرق الناس شيعا ويذوق بعضهم بأس بعض وتنحل الرابطة . فقلت هذا وإن لم يحصل بنفسه قد حصل نظيره فى بلاد الإسلام وذلك فى رجال العلم ورجال التصوف والكتب الموروثة عن المتقدمين أما رجال العلم والكتب فانك ترى أتباع الحنفى والشافعى وابن حنبل والإمام زيد وهكذا الشيعة وجميع الفرق المبتدعة فى أمم الإسلام « ولكل وجهة هو موليها » فهؤلاء جميعا يقرءون العلم الموروث عن الشافعى وأبى حنيفة الخ ولكن لا يجوز لهم أن ينظروا فى كتاب الله ولا سير الصحابة ولا التابعين إلا نظرا تابعا لأولئك الأئمة . وإيضاح المقام أن الله أنزل القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم فقام به الصحابة والتابعون ثم قام الأئمة واجتهدوا ثم المجتهد منهم له أتباع وهؤلاء الأتباع ألفوا كتبا وبعدهم مؤلفون وراء مؤلفين . فالطالب فى زماننا يقرأ فى مذهب الشافعى مثلا الكتب المقررة فى الأزهر كالمنهج ولا يزيد عليه مع أن المنهج من المنهاج والمنهاج مشتق من كتاب من كتب الإمام الغزالى فى مذهب الشافعى فكل متأخر لا يجرؤ أن يقرأ كتب أحد إلا الطبقة القريبة منه ويفهمه شيوخه أنه ليس أهلا للطبقة العليا فاذا لم يكن أهلا لكتب الغزالى كالوسيط والبسيط والوجيز فمن باب أولى ليس أهلا لكتاب الأم للشافعى ومن باب أولى ليس أهلا للترجيح فى أحاديث البخارى ومن باب أولى ليس من رجال فهم كلام الله تعالى لأنه مفروض أن قوته حكم عليها ألا تتطاول إلى ذلك . وبناء عليه تنازل العلم وانحصر فى علوم المتأخرين مع تعظيم المتقدمين ؛ فالقرآن معظم والحديث محترم والشافعى وأصحاب الشافعى والإمام النووى والرملى وابن حجر ، ولكن كتب هؤلاء أكبر من أن يدرسها الإنسان وهذا كله حاصل عند المتعلمين فى أكثر ديار الإسلام وقد فرض الناس أن الدين كله فيها مع أن هذه المذاهب ليس فيها إلا أحوال عارضة للانسانية وليست كل الدين بل هى حاشية من حواشيه أو سياج لروضته . فعلم الفقه الذى أسمعتك وصفه وأن الطالب فى زماننا ليس أهلا إلا لقراءة كتب المتأخرين من المؤلفين فيه ليس له حظ من الدين إلا أنه سياج له والدين روضة ذات أشجار وثمار والأشجار هى المعارف العلوية والسفلية والثمار هى الأخلاق والمودات والمحبات ورقى الأمم وكل ذلك لا يتم إلا بالسياج الذى سميناه فقها . فاذا كانت هذه حال دين الإسلام وأن أصوله تركت وهى الأخلاق والعلوم التى ملأت الدنيا وأن سياج الدين أيضا لم يأخذ الناس منه إلا بشذرات وحرموا من الأصل . أقول إذا كان هذا شأن دين الإسلام أفلسنا نقول إن هذا تنزل وسقوط فى هاوية كسقوط الآشوريين والبابليين فى أصول الدين إذ عبدوا الكواكب والتماثيل ونسوا الأصل فلكل منا ومن تلك الأمم وجهة هو موليها فهم سقطوا من جهة الأصول ونحن هوينا من جهة الفروع . والفرق بيننا وبينهم أن سقوطنا يمكن تداركه أما سقوطهم فلا ، وعلى ذلك حل الإسلام محل أديان تلك الأمم وديننا ليس يعوزه شىء إلا أن نوقظ الأمة إلى القرآن ونقول لهم ما قلناه فى هذا التفسير الذى رجع بالأمة إلى ما كان عليه الصدر الأول ولكن

بطريق يناسب العصر الحاضر فهذا فرق ما بيننا وبينهم . القرآن باق ولولا القرآن لاضمحل الدين ولم تقم له قائمة فهذا القرآن فيه إصلاح الأمة وإصلاحها بالعلم والعلم هو ملاك الأمر . هذا ما نقوله فى رجال العلم . أما رجال التصوف لحدّث عنهم ولاحرج فقد اتخذ كل منهم له طريقة تخالف الآخر ليتميز أصحابه عن غيرهم ثم يرى أتباعه أنه خير من غيره مع احترام الباقين ويجعل لهم ذكرا خاصا وأورادا وآيات من القرآن ويصرفهم عن بقية الدين وعن فهم القرآن وعن سائر العلوم وإنى أعلم أن بعض رجال الصوفية فى زماننا قد أمروا تلاميذهم أن يذكروا اسمه مائة ألف كما يذكرون الله ولقد تغالى أهل كل طريق فى شيوخهم وبالغوا فى تعظيمهم بل إن بعضهم قد حرم على أتباعه أن يروا وجهه ويذكرون فى مناقبهم مآثر وخوارق كما نسمع من أصحاب الدسوقى والرفاعى والسيد أحمد البدوى . فهؤلاء الشيوخ كانوا قوما صالحين ولكن أتباعهم أسندوا إليهم من الأعمال الصالحة مالا يسند إلا إلى الله أو إلى الأنبياء فتاهت العقول وضلت . أفلا ترى أن أولئك الشيوخ فعل معهم أتباعهم ما فعله الصابئة مع الكواكب التى هى مقام الملائكة ومقرّهم ثم التماثيل . الله أكبر . لقد وصف كل من زحل والمشترى والزهرة الخ بما وصف به الله ، فكل من تلك الكواكب وصف بأنه رب الأرباب وقاهر وهكذا وقال الجهلة من المسلمين فى شيوخهم من التعظيم ما يضاهى وصف الله القدير كأن يقولوا هو يحيى الموتى بدعوته ونحو ذلك وهذا مشهور معلوم فكيف يرجع للقرآن هؤلاء، وكيف يعرفون أوصاف النبى ، ذلك النبى الذى لم يحى ميتا أما شيخه فقد كان على هذا المقام العظيم . إن المسلمين تفرقوا بتفرق قلوبهم وتفرق قلوبهم ناجم من جهلهم وجهلهم بسقوط الهمم فى التعلم وجهل الأصول والأخذ بأذناب الدين وترك رأس الأمور والغش والتدليس من المتصوفة . فنحن وإن لم يكن عملنا كفرا فى الإسلام فهو مسقط لهمم الأمم مؤدّ للنتيجة التى أدى إليها تنزّل الآشوريين والبابليين فى عباداتهم والباب الذى للجناه لارتقاء الأمم الإسلامية اليوم أصبح والحمد لله مفتوحا على مصراعيه وذلك بأمثال هذا التفسير، انظر ماتقدم فى (آل عمران) عند قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله » الخ فهذا المقام هناك موضح غاية الإيضاح . ففيه ذكر المغرورين من أمة الإسلام وما نتيجة الغرور وأنواعه وما السبيل إلى رقى الأمم الإسلامية .

فلما سمع صاحبى ذلك قال حيا الله العلم فوالله ما كان ليهجس بخاطرى أن تكون هناك موازنة بين عبادة الكواكب وبين التغالى فى الشيوخ . فقلت إن الأمر فوق ذلك . فقال زدنى إذن . فقلت إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يقرءون القرآن لغرض ويتعلمون العلم لغرض والغرضان شريفان . قرءوا القرآن لينظموا أرض الله ويرقوا الشعوب . وتعلموا العلم وأخذوا عن الشيوخ ليكونوا قادة وسادة وعمالا نافعين لنوع الإنسان . أما الأمم الإسلامية المتأخرة فإن بعض حفاظ القرآن لايقصدون منه إلا أمرين . الأول: أن يكون حرفة يعيش بها بين الناس . الثانى: أن يقرأ القرآن لأجل لفظه لا لأجل معناه . وقد رسخ فى عقول الكافة أن القرآن بدون معنى كاف ، قد زاد فى الطين بلة ، قوم نقلوا علوم الصابئة ومزجوها بالقرآن وصار هذا الكتاب يقصد لجلب الرزق ودفع الأذى ومنع الأعداء وهكذا . وكما يقصدون من القرآن يقصدون من الشيوخ . فإذا كان المتقدّمون يتعلمون من الشيوخ العلم لذات العلم صار المتأخرون لا سيما تلاميذ الصوفية يعتقدون فيهم أنهم هم الذين يقربونهم إلى ربهم بهممهم مع أن القرآن لمعناه والعمل به والشيوخ ليسوا مقصودين لشفاعتهم عند الله بل لترقية العقول وحث التلاميذ على الاجتهاد والعمل ومساعدة الناس وهذا وحده هو الذى يرقى المرء فى الدنيا والآخرة ويجعل المرء مستعدا لشفاعة نبيه صلى الله عليه وسلم؟ فكما كان الصابئة فى بلاد بابل وآشور يعبدون أولا إلها واحدا وهو الذى سموه رئيس الآلهة فيما بعد أخذوا بعد ذلك فى عبادة مخلوقاته من الكواكب وغيرها . فبعد أن كان القصد من الكوكب أن يعرف جمال الله

به وحكمته وعظمته صار نفس الكوكب إلها صغيرا متصرفا ومثل هذا يقال فى الشيوخ وفى الأوراد وفى قراءة القرآن . فبعد أن كان هؤلاء جميعا لارتقاء الإنسانية انحطت القوى فصارت قراءة القرآن والأحزاب واتباع شيوخ الصوفية يقصد منه عند صغار العقول طلب الدنيا أو الاتكال على ما ذكرناه فى النجاة يوم القيامة وما نجاة الإنسان إلا بعمله هو فى الحياة الدنيا علما وعملا وأخلاقا . فقال إن قولك إن المسلمين مزجوا دين الصابئة بالإسلام لم أفهم مرادك منه . فقلت إن أكثر أهل العلم فى بلاد الإسلام تقع فى أيديهم كتب جعلت لجلب الرزق والمنافع الدنيوية وقد جعل القرآن فيها وسيلة لسعادة الحياة الدنيا ولكن بطريق تخالف طريق الصحابة، فالصحابة والتابعون اتبعوا سنن الله فى تحصيل الرزق بالعمل فى الأرض أو بالتجارة أو بالجهاد . أما المتأخرون فبعضهم جعل قراءة القرآن وحدها سببا لجلب الرزق لا العمل بمعناه فى أمور الحياة ، فترى كتاب البونى المسمى (شمس المعارف الكبرى) يطبع منه مالا يطبع من هذا التفسير وغيره آلافا وآلافا ويباع وفيه فوائد تكتب إما بأرقام عددية وأوفاق وإما برياضة وبخور وتقرأ الآيات مع ذلك على طهارة وإما بتعيين ساعات الكوكب كزحل والمشترى والمريخ إلى آخره وكل ذلك منقول حرفيا عن الصابئين أهل بابل الذين جعلوا هم والمصريون وأهل الهند للكواكب أوفاقا وأعدادا خاصة منظمة ترجع فى أصولها إلى علم (الارثماطيقى) الذى ذكرته سابقا فى هذا التفسير وألف فيه أستاذنا المرحوم على باشا مبارك بعنوان (خواص الأعداد) فهذا العلم الذى هو أصل علم الحساب ظهرت فيه عند تلك الأمم عجائب لا محل لذكرها تأخذ باللب . فهذه العجائب استعملها البابليون والآشوريون إلى آخره لجلب الرزق والتقرب من الكوكب إذ لكل كوكب مربع خاص فاذا كان الله له عدد (١) فالمادة لها عدد (٢) ومربعه (٤) أما مربع (١) فهو الواحد إشارة إلى أن وحدة الله عندهم مقدسة وزحل (٣) مضروبا فى (٣) يساوى (٩) والمشترى المربع (٤ فى ٤) يساوى ١٦ وللمريخ (٥ فى ٥) يساوى (٢٥) مربعا وللشمس (٦ فى ٦) يساوى (٣٦) وللزهرة (٧ فى ٧) يساوى (٤٩) ولعطارد (٨ فى ٨) يساوى (٦٤) ولكوكب القمر (٩ فى ٩) يساوى (٨١) .

ومعنى هذا أنهم يرسمون مربعات إما (٩) للأول وإما (١٦) للثانى وإما (٢٥) للثالث وهكذا ولولا خيفة التطويل والخروج عن المقصد لرسمت هذه المربعات وأريتك حسابها فتعرف كيف تكون الأعداد فى هذه المربعات من (١) إلى (٩) فى الأول ومن (١) إلى (١٦) فى الثانى ومن (١) إلى (٢٥) فى الثالث بهيئة منظمة فتعجب غاية التعجب ومتى وقع هذا الوفق فى يد الطالب أيقن أن فيه سرا عجيبا وإذن يتقرب به إلى الكوكب الخاص به لأجل ما فيه من سحر النفس ودهشتها به وبدقة حسابه . هذا فعل الأمم القديمة الذين جعلوا فن خواص الأعداد المقصود به استخراج علوم الأعداد المتفرعة عليه كلها كما قدمناه فى آية الميراث فى سورة (النساء) بابا لجلب الرزق بالتقرب للكوكب وقلدهم فى ذلك المسلمون المتأخرون فجعلوا نفس هذه الأوفاق مع جهلهم حسابها ونظامها بابا لجلب الرزق بالآيات القرآنية بدل الكواكب السبعة بل منهم من أدخل الكواكب مع القرآن والرياضات والخلوة وهكذا وساعات الأيام الخاصة بالكواكب ، فقال فى أى كتب قرأت هذا وهل تسمعنى نقلا عن عالم إسلامى ؟ قال هذا حتى يكون لهذا القول أثره فى أمم الإسلام بعدنا لأن هذا التفسير من الكتب التى تتناولها الأيدى فى بلاد الإسلام فاذا وفيت المقام بمثل ماطلبته منك الآن كان ذلك خيرا وأبقى ، فقلت إن العلامة ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان [علوم السحر والطلسمات] قد أوضح الفرق بين السحر والطلسمات وأن هذه العلوم مهجورة عند الشرائع وأنها كانت علوم النبط والكلدانيين والمصريين وأهل بابل والسريانيين وأن الذى ترجم لنا من تلك الأمم قليل مثل (الفلاحة النبطية) من أوضاع أهل بابل ومثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندى فى صور الدرج والكواكب . ثم قال إن جابر بن حيان من كبير السحرة المسلمين ألف فى هذا وجاء بعده مسلمة بن أحمد المجريطى إمام أهل

الأندلسي في التعاليم والسحر وأطال في ذلك بما يخرج بنا عن موضوعنا لو كتبناه إلى أن ذكر تحت عنوان [أسرار الحروف] ما ملخصه :

إن الذين يذكرون أسماء الله لأجل المنافع الدنيوية يمزجون قوى الكلمات والأسماء بقوى الكواكب فيعين لذكر الأسماء الحسنى أو ما يرسم من أوفاقها . وهكذا لسائر الأسماء أوقاتا تكون من حظوظ الكوكب الذي يناسب ذلك الاسم كما فعل البوني في كتابه الذي سماه الأنماط .

وذكر أيضا أنهم قسموا الكواكب على هذه العوالم من جواهر وأعراض وهكذا الحروف والأسماء أيضا مقسمة عليها الكواكب كما قسمت على عوالم المادة . قال ويبنون على ذلك مباني غريبة منكرة من تقسيم سور القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة المجريطي في الغاية ، والظاهر من حال البوني في أنماطه أنه اعتبر طريقتهم فان تلك الأنماط إذا تصفحتها وتصفحت الدعوات التي تضمنتها وتقسيمها على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت قيامات الكواكب التي فيها وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب يسمونها [قيامات الكواكب] أي الدعوة التي يقام لها بها . إذا فعلت ذلك عرفت أحد أمرين : إما أنه من مادتها وإما أن ذلك أمر أوجبه التناسب الذي كان في أصل الإبداع وبرزخ العلم ، انتهى بتصرف يسير جدا للفهم .

فلما سمع صاحبي ذلك قال ياعجبا كل العجب . إذن تنزل المسلمين وسقوطهم إلى الهاوية كان مسبوقا بالأمم التي هوت مثلنا . إذن تلك الأمم استعملت أمثال الحساب الذي خلق لرقي الأمم بابا وسلما للاستجداء من الكوكب وقد قلدهم المسلمون في ذلك وصاروا كالصابئة ومزجوا القرآن بعلم الصابئين والذي تبين لي من هذا القول أن سقوط الأمم وانحطاط أخلاقها جار على سنن واحد قديما وحديثا . فهذه الآيات القرآنية لرقي المسلمين وتلك الكواكب عند الصابئين لمعرفة حسابها والانتفاع به في أمور الحياة ولمعرفة جمال الله والغرام به فانحطت تلك الأمم انحطاطا أنقذهم منه الإسلام وصاروا يبتهلون إلى نفس الكوكب . فهكذا نحن جاء القرآن لرقي العقول والأعمال والمدن والأمم فصار يقرأ للتضرع وتركت المواهب العقلية والجسمية كما فعل الصابئون حذو القذة بالقذة وهذا انحطاط وموت عاجل وهذا داء قد فشا في الأمم الإسلامية . وأرى من مجموع مذكراتنا في هذا المقام وغيره أن الذي يخرج المسلمين من هذه الدرجة المنحطة أمران : الأول دراسة أمثال هذا التفسير وتأليف كتب مثله مختلفة ليتعقل المسلمون . الثاني أن يجد كل قطر من أقطار الإسلام في تقليل الفقر المدقع عن الأمة وذلك بأن يحصوا جميع أفراد الشعب ويعرفوا صناعة كل منهم فلا يتركون قادرا على العمل إلا ألزموه به وأتوا له بعمل . فهذا العمل للفقراء يغنيهم ويلهيهم عن الاستعانة بهذه الكتب المنتشرة في أقطار الإسلام ويصبح هؤلاء العاطلون نافعين للمسلمين . فقلت أنا أوافق عليه وأزيد أن الزكاة الواجبة شرعا يعطى منها للعاطلين الذين لايقدرون على العمل مايسد حاجتهم والباقي يجعل لشراء آلات العمل أو تمهيد أرض لأصحاب الأعمال الذين لايجدون وسيلة لعمل يعيشون به ، فقال الحمد لله إن هذا المقام قد استوفينا القول فيه ولكني أرى أن حساب الأوفاق المتقدم ذكره يقرؤه القارئ فلا يعقله . وإذا كان الإمام الغزالي في بعض كتبه وهو يرد على علماء الباطنية في زمانه وقد أنكر بعضهم فائدة الصلاة يحتج عليهم بالوفق المثلث الذي ذكرته أنت أنه لزحل ويقول أنتم تعتقدون في هذا الوفق الذي ترون أنه إذا وضع على هيئة خاصة يؤثر في تسهيل الوضع للحامل فكيف لا تعتقدون أن يكون بين الصلاة وبين الثواب في الآخرة مناسبة كالمناسبة التي بين الوفق المثلث وتسهيل الوضع . أقول إن الإمام الغزالي كما قال هذا رسم الوفق المثلث لكي يفهمه القارئ فأرى أن ترسم لنا وفقا آخر حتى يعرف القارئ كيف كانت الأوفاق عند البابليين وجميع الأمم الوثنية وكيف انحطوا بها وكيف قلدهم المسلمون وكيف انحطوا كمن سبقهم من الأمم . فقلت إن سؤالك

هذا

هذا فتح لى بابا ما كان ليخطر لى . ذلك أنك ذكرت الباطنية فى زمان الغزالى وذكرت الوفق المثلث وهـذا يذكرنى أن هؤلاء الباطنية فى زمانه نقلوا علوم تلك الأمم وأدخلوها فى الإسلام كما ذكره ابن خلدون فيما تقدم آنفا وأما الوفق الذى طلبته فأنا أثبت لك أحد الأوفاق ليهدأ خاطرك وتعلم أن (علم الارتماطيقى) أو (علم خواص الأعداد) قد استعملته الأمم المسلمة وغير المسلمة فى غير ماوضع له وتنزلوا به عن المعالى فلأذكر لك الشكل المخمس مما ذكرته فى كتابى [فى الفلسفة] نقلا عن كتاب أستاذى المرحوم على باشا مبارك وهذا صورته :

١١	٢٤	٧	٢٠	٣
٤	١٢	٢٥	٨	١٦
١٧	٥	١٣	٢١	٠٩
١٠	١٨	١	١٤	٢٢
٢٣	٦	١٩	٢	١٥

فالصف الأفقى والصف الرأسى والقطران كلها متساويات إذا جمعناها . فكل صف منها (٦٥) وهكذا القطران . فهنا حصل التساوى فى (١٢) صف كل واحد منها (٦٥) .

هذا هو الوفق المخمس من الأوفاق التى كانت فى علم خواص الأعداد الذى هو أصل العلوم الرياضية والعلوم الرياضية بها تحل مشكلات العلوم الطبيعية وترتقى المدنية فجعلوه هو وأمثاله للاستجداء من الكواكب أو بآيات القرآن فصار الدين بابا للذلة والمسكنة والجهالة وقد اتضح هذا المقام والحمد لله رب العالمين .

جوهرة فى قوله تعالى «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» الخ

اعلم أن الخير مقرون بالشر وليس لأهل الأرض علم بعواقب الأمور. فربّ شر فى نظرهم كان خيرا كثيرا ، فههنا حروب كثيرة وزلازل وجدب وماأشبه ذلك فى الأرض . يعيش الناس ويموتون وأكثرهم لا يعلمون ذلك فلأضرب لك مثلا واحدا لشرّ فى نظر جميع الأمم ولكنه فى الحقيقة خير . هاك مسألة القطن نحن فى مصر نزرعه ويزرعه كثير من أهل الأرض وأهمهم أهل الممالك المتحدة . ولعمرى ليس للقطن من فائدة إلا الزيت والملابس والزينة .

إن قطن بلادنا يخرج نوعا يسمى (السيكلاريدس) يستخرج الإنجليز فى معاملهم منه مايشبه الحرير ويبيعونه بأغلى الأثمان . فالقطن فى الحقيقة ليس من ضروريات هذه الدنيا بل هو أشبه بالحاجيات أو بالزينة . ففى الأرض جلود الأنعام وصوف الغنم ووبر الجمال ولذلك تجد عرب البادية يكتفون غالبا بالأصواف عن القطن إذن الناس محتاجون إلى القطن لا أنه ضرورى كالغذاء والماء والهواء . إذن يكون ظهور القطن فى أرضنا بقدر فليس يجب أن يكون عاما كعموم القمح . فتعجب من صنع الله الذى أرانا حكمته فى ذلك . وبيانه أنه قد جاء فى كتاب (الجغرافية الحديثة) ما ملخصه أن مساحة الأرض التى تزرع قطنا فى الولايات المتحدة (٧٠٠) ألف ميل مربع وهى تنتج (٧٨) مليون قنطار فيصنع منها ⅔ فى مغازل (نيو انجلند) وتجرى الآن تجارب لانماء القطن الملون وتكاد تنجح . فهم يطعمون القطن الأمريكى بالمصرى فينتج (تسكانى) وبالبيروى فينتج أحمر قانيا وبالصينى فينتج أصفر وبالهندى فينتج أزرق وبالكارولينى فينتج أخضر وتطعم الأمريكى الجنوبى بالمكسيكى ينتج أسود ولابد أن تحدث هذه التجارب انقلابا عظيما فى الصناعة .

هذا هو الخير المنتظر من القطن فى الولايات المتحدة . أما الشر المنتظر منه فهو أن هناك إقليم القطن

الواقع جنوب خط (٣٨) درجة من خطوط العرض وشرق خط (١٠٠) درجة من خطوط الطول الغربية الذى يشمل جزءا كبيرا من ولايات المحيط الاطلانطيكى الجنوبية . فهذا الإقليم فيه أراض واسعة لزراعة القطن وأهل البلاد يبيعونه ويشترون بثمنه ما يحتاجون إليه وقد استعملوا السماد لإنماء القطن . ولقد ضعفت الأرض كثيرا مع هذا التسميد المتكرر بتكرر زراعة القطن وكثرة الحيل المستنبطة لتقوية الأرض. هنالك عرفت الحكومة أنه لابد من تنوع الزراعة فى البلاد وقام الخطباء ونصحوا الفلاحين ولكن لم يجد نصح الحكومة ولا خطب الخطباء . ذلك لأن غير القطن من الغلات كالخنازير والفول والشوفان لا يسهل بيعه أو رهنه بخلاف القطن . أتدرى ماذا حصل بعد ذلك . أرسل الله لهم خطباء من عنده فعلوهم كيف يزرعون أولئك الخطباء هم دود القطن . ذلك دود اللوز الذى هجم بجموعه على القطن فى إقليم (تكساس) سنة ١٨٩٢ وظل الدود يفتك وينتشر ثلاث سنين ولم يقدر العلماء على صده أو تقليل ضرره وإلى الآن لم يجد الناس سبيلا لإبادة هذه الجنود المجندة . فماذا حصل بعد ذلك ؟ حصل المقصود وهو أن القوم قللوا زراعة القطن فزرعوا الشوفان والبطاطس والبطاطة وربوا المواشى والخنازير وزبدت الخضر وصدرت للأسواق الشمالية وزاد ذلك أثناء الحرب الأوربية . إذن الدودة أحدثت إنقلابا زراعيا فاق ما أحدثته فصاحة الخطباء والحرب الأهلية من قبل ذلك . تلك الحرب التى منعت استعباد السود الذين كانوا وحدهم يقومون بزرعه وبعد الحرب ما زالوا يزرعون القطن بطريق الايجار . فتحرير الرقيق لم يقلل زراعة القطن وهكذا الخطباء . وإنما الذى أتى بالفرج والعلم هى الدودة التى علمتهم « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » نسبحك يا الله لأنك تفعل معنا ما فعلته مع الولايات المتحدة . نجهل كل شىء فترسل الشر ليكون الخير . هذا معنى قوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » انتهى القسم الأول .

(القِسْمُ الثَّانِى)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ● الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ● وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ● وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ● إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ● قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ● قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ● قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ● قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ● وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ● فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ● قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ● قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ● قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ● قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ● قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ●

فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ *
أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا
فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ
فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ * وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا
وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ
فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ
الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ
وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ
الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ
بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا
فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ
وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ
فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا
لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ * وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا
وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ

فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ * وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ * إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ * وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ * إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ * وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ * إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ *

التفسير اللفظي

ذكر سيدنا موسى عليه السلام

قال تعالى (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) فهذه ثلاثة أوصاف للتوراة يفرق بين الحق والباطل ويستضاء به في المشكلات وهو تذكرة وموعظة، ثم وصف المتقين فقال (الذين يخشون ربهم بالغيب) حال (وهم من الساعة مشفقون) خائفون (وهذا ذكر) القرآن (مبارك) كثير خيره (أنزلناه) على محمد صلى الله عليه وسلم (أفأنتم له منكرون) استفهام توبيخ .

ذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى : (ولقد آتينا إبراهيم رشده) الاهتداء والصلاح (من قبل) من قبل موسى وهرون (وكنا به عالمين) بأنه أهل لذلك آتيناه ذلك (إذ قال لأبيه) آزر (وقومه) نمرود بن كنعان وأصحابه (ماهذه التماثيل) على صورة السباع والطيور والإنسان وفي هذا تجاهل لها تحقيراً مع علمه بتعظيمهم لها (التي أنتم لها عاكفون) أي لأجل عبادتها مقيمون ، فعجزوا عن إقامة الدليل على صحة ألوهيتها واستحقاق عبادتها و (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فقلدناهم (قال) إبراهيم (لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) فالمقلدون والمقلدون معا منخرطون في سلك ضلال ظاهر (قالوا أجئتنا بالحق) بالجد (أم أنت من اللاعبين) أي أجادّ أنت فيما تقول أم لاعب ، فأضرب عن قولهم قائلا إنه جاد و (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن) خلقهن . يقول الخليل كيف قلدتم الآباء وتركتم عقولكم والعقول بنظرها الثاقب فيما خلق الله من السموات والأرض تعرف صانعها ، فالله نقش وصور وزوّق صورا في السموات والأرض لا تعدّ ، وما أصنامكم إلا تماثيل صنعتموها ، وهذه الحجة على النظام الذي جاء في قصة موسى وقد تقدم في سورة (طه) وأن ماعدا دلائل العقل ملغى فالتقليد هنا والدلائل التي تقام بخوارق العادات لاحجة تقام بها إلا زمناً قليلا ولذلك ابتدأ بذكر قصة موسى تنبيهاً على الحجة العقلية التي استنتجت من قصته وأتبعها بهذه القصة وفيها نفس حجة العقل وأن النظر في السموات والأرض هو السعد للأمم فلا تقليد ولاخوارق عادات ولا نحوها (وأنا على ذلكم) المذكور من التوحيد المبني على التعقل والنظر في العوالم العلوية والسفلية (من الشاهدين) من المتحققين والمبرهنين فإني نظرت الكوكب والقمر والشمس واحدا بعد الآخر فوجدتها لاتصلح للعبادة ، ثم عرفت أن العبادة لاتصح للأصنام لأنها أقل من الأجرام العلوية ولا لهذه الكواكب كلها فرجعت إلى الله كما في سورة (الأنعام) «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا» الخ ، فهذه أيضاً مما يدعو المسلمين أن يترفعوا عن الجهالة وينظروا في العوالم العلوية والسفلية ويتعلموا علومها فقد غلبتهم الفرنجة . وقد قدمنا أن الإيمان ليس مسألة معينة بل هو كالعلم وكالقوة وكالماء قليله ماء وكثيره ماء . فالاعتراف من بحر العلوم العلوية والسفلية أوسع نطاقا فتكون القلوب أوسع حكمة وأوفى وأعلى وأبهج إشراقا وأصح مدنية وأكثر غنى وثروة وقوة . ولما كان الأنبياء قد أخذ عليهم الميثاق أن يعلموا أممهم ويرشدوهم قال (وتالله لأكيدن أصنامكم) أي لأجتهدن في كسرها (بعد أن تولوا) عنها (مدبرين) إلى عيدكم وكان ذلك القول في سرّه (فجعلهم جذاذا) بضم الجيم وكسرها جمع جذاذة ، كزجاجة وزجاج على الأول أي قطعا وجمع جذيذ كخفيف وخفاف على الثاني وجذيذ فعيل بمعنى مفعول أي مقطوع (إلا كبيراً لهم) للأصنام فكسرها كلها بالفأس في يده إلا كبيرها فعلق الفأس في عنقه (لعلهم إليه) إلى الكبير (يرجعون) فيسألونه عن كاسرها فيتبين لهم عجزه (قالوا) أي الكفار حين رجعوا من عيدهم (من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أي لشديد الظلم لجراءته على الآلهة المعظمة عندنا (قالوا) قال رجل منهم (سمعنا فتى يذكرهم) بالعيب والسب ويعد بالكسر (يقال له إبراهيم) أي هو إبراهيم (قالوا فأتوا به على أعين الناس) أي جيئوا به ظاهرا بمرأى من الناس وإنما قاله نمرود (لعلهم يشهدون) عليه بأنه الذي فعل ذلك لأنهم يكرهون أن يحكموا عليه بغير بينة (قالوا) له (ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال) إبراهيم (بل فعله كبيرهم هذا) لأنه غضب إذ تعبدون معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرها وذلك ليقيم الحجة عليهم (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) حتى يخبروا بمن فعل ذلك بهم . وفي حديث البخاري ومسلم وغيرهما ملخصا « أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات منها اثنتان في ذات الله قوله : إني سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لسارة : هذه أختي » . وقد قال العلماء في قوله « بل فعله كبيرهم هذا » قيل على سبيل التبكيت والاستهزاء ، فهو نفي للفعل بطريق ينفي الإلهية

بما هو أبلغ . وقوله « إنى سقيم » أى إن قلبى مغتم بكفركم أو إنى سأسقم . وقوله فى سارة هذه أختى : أى فى الدين فهذه أشبه بالمعاريض والمعاريض صورتها صورة الكذب وباطنها حقائق وسماها رسول الله ﷺ كذبات بحسب ظاهرها . وفى حديث الشفاعة أن إبراهيم أشفق منها بمؤاخذته بها وهذا من المبالغة فى محاذرة الأنبياء من الكذب فأشفقوا مما يشبهه تعليما لنا أن نكون صادقين لأن الكاذب لايصدقه الناس فكيف يعلمهم وكيف يثقون به فلا شفاعة لعالم كاذب لأنه لا يسمع عنه فى الدنيا (فرجعوا إلى أنفسهم) وراجعوا عقولهم (فقالوا) فقال بعضهم لبعض (إنكم أنتم الظالمون) بعبادة من لاينطق . ومن عادة المقلدين أنهم يعلمون ثم تغلب عليهم العادة بالتقليد (ثم نكسوا على رؤوسهم) انقلبوا إلى المجادلة . يقال نكسته قلبته فجعلت أعلاه أسفله فهؤلاء استقاموا حين أقروا بأنهم ظالمون ثم انقلبوا عن تلك الحالة رأساً على عقب مكابرين وقالوا (لقد علمت ماهؤلاء ينطقون) فكيف تأمر بسؤالها ، والجملة سدت مسد مفعولى علمت (قال) محتجا (أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا) أى شيئا من النفع (ولايضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله) أف صوت يدل على التضجر أى قبحا ونتنا واللام للتبيين (أفلا تعقلون) قبح صنعكم (قالوا) لما عجزوا عن الحجة (حرقوه وانصروا آلهتكم) بالانتقام لها (إن كنتم فاعلين) ناصرين لها نصراً مؤزرا . والذى أشار بإحراقه نمروذ أو رجل آخر من أكراد فارس فحبسوا إبراهيم ثم بنوا بيتاً وجمعوا خشبا وأشعلوه نارا كاد طير الجو أن يحترق من لهبها ثم وضعوه فى المنجنيق مقيدا مغلولا فرموا به وهو يقول : « حسبى الله ونعم الوكيل » وقال له جبريل هل لك حاجة قال أما إليك فلا ؟ قال فسل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى . وما أحرقت النار إلا وثاقه وجعل الله الحظيرة روضة فاطلع عليه نمروذ من الصرح فذبح أربعة آلاف بقرة تقربا إلى إله إبراهيم وكف عن إبراهيم وأذاه . وهناك رأى آخر وهو أن النار كانت باقية على حالها ولكن لم تؤثر فى إبراهيم وهذا قوله تعالى (قلنا يانار كونى بردا وسلاما) ذات برد وسلام : أى ابردى برداً غير ضار (على إبراهيم . وأرادوا به كيدا) مكرا فى إضراره (فجعلناهم الأخسرين) أخسر من كل خاسر (ونجيناه ولوطا إلى الارض التى باركنا فيها للعالمين) أى من العراق إلى الشام المباركة بالشجر والأثمار الكثيرة والأنهار والأنبياء وهكذا (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) أى زيادة لأنه سأل الله إسحق فأعطاه إسحق وزاده يعقوب (وكلا جعلنا صالحين) أى كلا من الأربعة وفقناه للصلاح (وجعلناهم أئمة) يقتدى بهم (يهدون) الناس إلى الحق (بأمرنا) لهم بذلك (وأوحينا إليهم فعل الخيرات) العمل بالشرائع (وإقام الصلاة) المحافظة عليها (وإيتاء الزكاة) الواجبة والصلاة لتعظيم الله والزكاة للشفقة على الخلق وهما إشارة للصلة بين العبد وربه وبينه وبين خلقه فيكون الإنسان إذ ذاك خليفة له (وكانوا لنا عابدين) موحدين مخلصين .

هذه هى قصة إبراهيم ومعه إسحاق ويعقوب من ذريته . أما لوط فسيأتى الكلام عليه . وفى هذه لطائف :

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين»)

اعلم أن هذا الدرس هو عين الذى ألقاه موسى على فرعون إذ قال له ردا على طلب معرفة الله تعالى : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه » الخ أن الله ما أنزل هذا فى القرآن لمجرد الحادثة معا وكرر ذلك واتحد الأنبياء فى التعليم بحيث ترى موسى وترى إبراهيم اتفقا على تعليم واحد . فموسى يقول انظروا الأرض والماء والنبات ، وإبراهيم يقول كذلك ؟ وهذا لم ينزل فى القرآن لأحد إلا لنا الآن ولا ينطق به إلا لأجلنا فإذا متنا خوطب به من بعدنا . فياحسرة على العلماء إذا لم يوقظوا الشعوب الإسلامية . وياحسرة على أمة سيدنا محمد ﷺ إذ نامت عيونها وظهرت عيوبها . أجيبوا داعى الله أيها المسلمون . انظروا دعاكم الله على لسان موسى

وعلى لسان إبراهيم لتفكروا فى العالم . إن دين الإسلام هو هذا . دين الإسلام هو الذى يدعو إلى العلوم العقلية والفكرية وإلا فلماذا يكرر هذا . ولماذا نرى إبراهيم ينظر فى النجم والقمر والشمس ثم يوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض ثم يقول « وأنا على ذلكم من الشاهدين » .

إن دروس إبراهيم الخليل ترجع إلى دروس العلوم الطبيعية والرياضية ثم الانتهاء إلى ماوراء الطبيعة لأنه درس الكواكب من أدناها إلى أعلاها . وهذا هو علم الفلك ولا يكون إلا بالرياضيات ومن درس النجوم فلابد أن يعرف الطبيعة لأنها مركبة من عناصر تعرف بالطبيعة وبالكيمياء وبتقصير المسلمين فى ذلك أذلتهم أوروبا . ومتى قرءوا فكروا . ومتى فكروا ارتقوا وطردوا أوروبا من الشرق . يا رب ألهم أمتنا الحكمة والعلم ورقهم « إنك أنت السميع العليم » .

أليس من عجب أن المسلم فى كل صلاة من صلواته يبتدىء قائلا « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » وذلك اتباع للخليل عليه السلام . ثم تراه لا يفكر فى علوم السموات والأرض حتى لا فى علم التوحيد يمر عليها كأنها ليست من دينه وبذلك وحده سبقتنا أوروبا فان العلم يورث حب الطبيعة وحب الأمة وحب النظام وحب العشيرة وحب الوطن . ومتى انفتح باب الحب فحدث ولا حرج . ولكن المسلم الغافل أقفل أمامه باب الحب فلا يعشق العلوم ولا يحب الله . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

جاء فى حديث البخارى عن ابن عباس أن قوله تعالى « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار وقالها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى آية « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » إلى قوله « ونعم الوكيل » وهذا يفيدنا أن الذين ينقذون الأمم من الهلاك يكونون متوكلين على الله تعالى وهذا التوكل أحد قسمين . القسم الأول : التوكل بالقلب مع القيام بالأسباب . الثانى أنه إذا وقع فيما لا يقدر على دفعه فليسلم أمره لله تسليما تاما . انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

إن إبراهيم كسر الأصنام وهكذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهذان قدوتنا . فعلى علماء الإسلام وعليك أيها الذكى أن تكسر بقلمك وبلسانك كل ما تراه معطلا لرقى الأمة الإسلامية . أليس من العار علينا أن نذر الأمة جاهلة فلا نرشدها . ليسمع الناس قولك أيها الذكى . قل لهم فى مشارق الأرض ومغاربها إلى متى تنامون . إن عبادة الأصنام تحصر الفكر فيها فتصده عن جمال السموات والأرض . إن عباد الأصنام لم يقولوا شيئا سوى أنهم يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ولكن هذه الأصنام حجاب بينهم وبين جمال الله فى الأرض وفى السماء . فليفهم المسلمون أن انحصار عقولهم فى علوم خاصة وحجابها عن السموات والأرض سيئة من سيئات التعطيل ، إن هذه ظلمة من الظلمات التى حجبت شمس الإسلام . حرام أن ينام المسلمون عن جمال الله ومعرفة كماله حرام أن يقف المسلمون مكتوفى الأيدى وأوروبا برعت فيما قاله الخليل « بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن » ثم أخذ يكسر الأصنام التى عاقت القوم عن هذه العوالم . فأف لأمة تقعد عن دراسة العلوم الشرقية والعلوم الغربية من جميع الأنواع . يا قوم إن الوقت جد وقد « أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » انتهت اللطيفة الثالثة .

(اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم »)

هذه من خوارق العادات وقد جاءت بعد قصة موسى سابقا وقصة موسى قد شرح فيها خوارق العادات شرحا وافيا . إن خوارق العادات استبدلت فى القرآن بالعلوم العقلية كما رأيت فى سورة (طه) .

ولتعلم أن المسلم إذا عمل عملا صالحا ولأجل تلك الطاعة ألقى فى النار فان النار لن تكون بردا وسلاما عليه بل يحرق بها . فنرق بين المسلم الذى جاء القرآن لتذكيره وبين إبراهيم . فإبراهيم صارت النار عليه بردا ونحن لا تكون علينا بردا ولكن أنزلها الله لترينا عجبا . ترينا أن الآلام فى طريق المحامد وضياع العمر وإزهاق الروح إذا كان ذلك لإقامة مجد الأمة وإسعادها سعادة هى كل السعادات . إبراهيم عليه السلام جاهد لنشر الدين فلنجاهد نحن . فإذا متنا أو قتلنا أو نصرنا فالمعنى واحد بل نحن ننال إحدى الحسنيين . إما الحياة أعزاء وإما الموت أعزاء فنحن فى الدارين بالفضيلة والجهاد أعزاء فيكون كل ما يصيبنا فى سبيل المجد عزا وشرفا . فنحن إذن تكون النار التى يسببها الألم بردا وسلاما علينا . وقد وعد الله المجاهدين فوزا والفوز بموتهم كالفوز بنصرهم ، والله لا معنى لحياتنا إلا رفع شأن أممنا والقيام بما خلقنا له . ثم إن القائم بالخير يجد فى نفسه سلوى عند المصائب تخففها ويأمل فى نفسه آمالا ترفع نفسه والمصائب فى سبيل الواجب ترفع النفس . انتهت اللطيفة الرابعة .

الكلام على قصة لوط عليه السلام

قال تعالى (و) آتينا (لوطا آتيناه حكما) حكمة ونبوة وفصلا بين الخصوم (وعلما) بما ينبغى أن يعلمه الأنبياء (ونجيناه من القرية) سدوم (التى كانت تعمل الخبائث) أى اللواط (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) هذا تعليل (وأدخلناه فى رحمتنا) فى أهل رحمتنا (إنه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى .

لطيفة

هذه القصة ترينا أن الصبر دائما يتبعه النصر والفوز . صبر إبراهيم فصارت النار عليه بردا وسلاما، وصبر لوط فنجاه الله من القرية الفاسقة لأنه من الصالحين فجعل النجاة والإدخال فى الرحمة لصلاحه . وهذا معقول لأن الله يميز الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض والطيب بعضه على بعض .

قصة نوح عليه السلام

قال تعالى (و) اذكر (نوحا إذ نادى من قبل) إذ دعا الله على قومه بالهلاك من قبل المذكورين (فاستجبنا له) دعاءه (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) من الطوفان أو أذى قومه والكرب هو الغم الشديد (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) وإنما كانوا قوم سوء لأمرين : التكذيب بالحق ، والانهماك فى الشر .

لطيفة

هذه القصة قدوة لنا . إن الإنسان إذا عمل ما قدر عليه وأخذ بالأسباب ولم يظلم غيره وإنما قصد النفع العام بعقل ثم رأى أنه يهان ودعا الله فإن الله يستجيب له . وهذه المسائل لاتصبح يقينا عندك إلا إذا جربتها ، أما أنا فانى جربت منها كثيرا لا سيما فى أثناء تأليف هذا التفسير فقد رأيت عجائب وغرائب لا محل لذكرها .

قصة داود وسليمان عليهما السلام

(١) جاء فى بعض الأحاديث عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال ائتونى بسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى » أخرجاه فى الصحيحين .

(٢) وورد أيضا «أن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع إن غنم هذا دخلت زرعى ليلا فوقعت فيه فأفسدته فلم تبق منه شيئا فأعطاه رقاب الغنم بالزرع فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا أو قال غير هذا أرفق

بالفريقين

بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه وقال كيف تقضى قال أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فإذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك» وكان سليمان ابن إحدى عشرة سنة وحكم داود وسليمان كان باجتهاد . حكم الإسلام فى هذه المسألة . أما مذهب الشافعى فانه يوجب ضمان المتلف بالليل فى هذه المسألة إذ المعتاد ضبط الدواب ليلا وهكذا قضى النبى صلى الله عليه وسلم لما دخلت ناقة البراء حائطا وأفسدته فقال «على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل» . وأما مذهب أبى حنيفة فانه يقول لا ضمان إلا أن يكون مع الدابة صاحبها ليلا كان أو نهارا مستدلا بقوله صلى الله عليه وسلم « جرح العجماء جبار » .

﴿ فصل: فى حكم الاجتهاد ﴾

فى حديث البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر » فالمجتهد مصيبا كان أو مخطئا له أجر .

وجه نظر داود وسليمان عليهما السلام

إن داود قدر الضرر فى الحرث فكان مساويا لقيمة الغنم، وكان الواجب قيمة مثل الحرث فسلم الغنم إلى المجنى عليه . وسليمان عليه السلام أوجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد وربما كانت منافع الغنم تلك السنة موازية لمنافع الحرث فحكم بها، وهذا قوله تعالى (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) فى الزرع ويقال إنه كرم تدلت عناقيده (إذ نفشت فيه غنم القوم) رعته ليلا (وكنا لحكمهم) لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما (شاهدين) عالمين (ففهمناها) أى الحكومة (سليمان وكلا) أى داود وسليمان (آتينا حكما وعلما) واستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب، وهذا قول أصحاب الرأى . وقال آخرون ليس كل مجتهد مصيبا فالحق مع واحد لا بعينه وأجر المخطىء ليس على خطئه ولكن على اجتهاده .

ولما وصف داود وسليما فى طريق حكمهما أخذ يصفهما فيما أنعم عليهما بغير ذلك فذكر سبحانه أن داود أنعم عليه (بنعمتين): تسبيح الجبال والطيور معه أنى سار، وتعليمه صنعة الدروع لتكون صيانة للناس فى الحرب . فأما سليمان فسخر له ألطف الأجسام الطبيعية فى مقابلة التسبيح هناك وأخبثها وهى شياطين الجن والإنس فى مقابلة الدروع التى تقى من الأعداء .

نعم الله على داود عليه السلام

قال تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن) يقدسن الله بلسان الحال بحيث تتمثل له مسبحة فتكون أملك لوجدانه وجميع مشاعره فيستغرق فى التسبيح (والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه (وكنا فاعلين) لأمثال ذلك ، فليس ببدع منا ذلك وإن كنتم أنتم منه تعجبون، فإن المستغرقين فى التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأنس بالله ما يجعل العالم فى نظرهم مسبحا وكأن العوالم تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال وليس يدرك هذا أحد إلا بوجدانه (وعلمناه صنعة لبوس) عمل الدروع وقد كانت صفائح فجعلها حلقا وسردها ، وقوله (لكم) صفة للبوس ثم أبدل منه قوله (لتحصنكم من بأسكم) أى ليحصنكم داود من حرب عدوكم أو لتحصنكم اللبوس على تأويل الدرع (فهل أنتم شاكرون) أمر فى صورة استفهام للمبالغة فى التقريع .

نعم الله على سليمان عليه السلام

قال تعالى (و) سخرنا (لسليمان الريح) حال كونها (عاصفة) شديدة الهبوب وفى آية أخرى «رخاء»

أى لينة فكانت كما يريد عاصفة أو رخاء (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) يعنى إلى الشام وكانت تجرى بسليمان وأصحابه رواحا بعدما سارت منه بكرة (وكنا بكل شىء عالمين) أى بصحة التدبير فيه فنجزيه على ما تقتضيه الحكمة وإنا نعلم أن سليمان سيعرف نعمتنا ونشكرنا عليها (ومن الشياطين) أى وسخرنا منهم (من يغوصون له) فى البحار ويستخرجون الدرّ والمرجان وما يكون فيها (ويعملون عملا دون ذلك) أى دون الغوص كبناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور والجفان (وكنا لهم حافظين) أن يزيغوا عن أمره.

لطيفة . سؤال

قال لى فاضل ما فائدة هذه القصص فى كتاب الله تعالى وقد خول الله سليمان ملكا لا يبلغه أحد من العالمين . وإذا كان قصص الأنبياء للاقتداء فأين الاقتداء هنا ونحن نسمع أن الشياطين تغوص فى البحر وتصنع المحاريب والتماثيل ونسمع تسخير الحديد كتسخير الهواء ونحن لا قدرة لنا على هذا .

الجواب

اعلم أن الله قد أعطى داود خصلتين : الأولى حب وشوق وإخلاص لله وذكر يجعل ما حوله كأنه يسبح ويرى الطير والجبال تسبح بلسان حالها . ويرى فى حفيف الأشجار وهبوب الرياح وطنين الذباب وحركات الماء أصواتا تكاد تسحره وتشجيه وتهز أعصابه وكأنما الأطيار على الأشجار مغردات فرحات فى النسمات وكأن هاتيك المغردات خطباء على منابر القلوب أو أوتار تحرك النفوس وتثير الوجدان وتبعث فى القلب أثرا وفى العقل حكما وفى الفؤاد بهرا . فاذ ذاك يرى الذاكر أو المفكر المعتبر الدارس للعلوم كأن الجو كله خطرات أفكار وحركات أسرار ومجالس أنس وحبور وذكر وسرور . الخصلة الثانية : إنه أعطى صنعة الدروع لتق المجاهدين مصارع القاتلين ومقاتل المحاربين . فعلى هذا صار داود روحانيا جسمانيا وسماويا أرضيا فلم يصده ذكر الله عن نظام الحروب ودفع الأعداء ولا الانهماك فى الحرب عن ذكر الله وتسبيح الطير والجبال . هاتان الخصلتان يجب أن يزدان بها المسلمون . فعلى طلاب العلم أن يقوموا بالصلاة خاشعين وبالتسبيح مخبتين وأن يكونوا على علم بنظام الحروب والضرب والكر والفر . إن علماء الدين يجب عليهم أن يكونوا قد تعلموا الصناعة الحربية وليكن منهم قوّاد ماهرون وأى فرق بين قائد الجيش وقاضى النفقات النسائية بل قائد الجيش أعلى وأوفق لحفظ الأمة . والأمة قد تركت الجهاد ظهريا . حرام أن ينام المسلمون وأن يقتصروا على عبادة المساجد فهناك عبادة السيوف والرماح والمدافع والعقاقير السامة والمعمية والقاتلة فليعرفوها وليدرسوها . ومن عجب أن يقول الله « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » . طلب منا الله شكر النعمة وكيف نشكر نعمة يا الله فقدناها وما عرفناها بل عرفتها ألمانيا واليابان وانكلترا وفرنسا أما نحن فانا بها جاهلون . ألا فليشكر الله المسلمون بتعلم علوم الحرب كلها من طيارات وأساطيل وليقوموا بحفظ ديارهم . هذا هو الشكر الحقيقى للنعمة . أما التفرج على أساطيل الأمم والتلهى بحفظ آيات القرآن فذلك لا يبدى ولا يعيد ولا ينفع شروى نقير .

مواهب سليمان عليه السلام

أما سليمان عليه السلام فان الله تعالى وهبه أن يسخر الشياطين لبناء المحاريب وأمثالها . ووهبه الريح فكانت تسير به مسيرة شهر فى الروحة وشهر فى الغدوة . وهل كان سليمان وجيشه على خشب منظم يجلس عليه هو وجنده فتدخل الريح تحت الخشب فتحمله . أم ذلك كان بساطا وهو فرسخ فى فرسخ منسوجا من ذهب وحرير وله فى وسطه منبر وحوله منابر من ذهب وفضة وغيرها والناس عليها بحسب مراتبهم ويكون هو وجيشه عليه ويغدو إلى بابل أو إلى أرض الترك وأرض الصين وأنه سار إلى أرض السند ومكران وفارس كل ذلك لا علم للناس به وإنما رواه الرواة عن بنى إسرائيل ، والقرآن ليس فيه إلا ما سمعت فلا نثق بشىء

ليس

ليس متواترا . فكل ما فى الأمر أنه سخرت له الريح على ما رسمه الله فى القرآن وسخرت له الشياطين تصنع له العجائب .

انظر الذى يهمنا من هذا

يهمنا من هذا أن الله يقول للمسلمين : انظروا نبى سليمان سخرت له الريح ولا أسخرها لأحد من بعده بطريق المعجزة لأن هذا خاص بسليمان وحرمته على من بعده وإنما حرمته لأنى قدمت لكم فى سورة (طه) أن خوارق العادات لا ترقى الأمم ولا تثبت إيمانهم فأنا إنما أرقى الأمم بأعمالها لا بظهور الخوارق فيها فآياتى فى الكون هى هذا النظام العجيب . فاذا كان ذلك عملى فى أرضى وقد قلت لكم إن الريح سخرت لسليمان فكل ما يسخر ممكن الوقوع لأن المستحيل لاوجود له وإذا أمكن الحصول أمكن التحصيل فالعقول الإنسانية يجب عليها البحث . فليبحث أبناء آدم فى الهواء هل يمكن تسخيره بعقولهم وصناعاتهم بحيث لا يكون معجزة بل علما وصناعة . أما ألمانيا وأوروبا فقد عرفوا بعضه واستخرجوا من الهواء (النترات) فأصبحت ذات عمل كبير فى الحرب العامة ولما انتهت حولوا المصانع الحربية التى قوامها على المواد المستخرجة من الهواء إلى مواد أزوتية نافعة فى تسميد الزرع ، وهناك نحو سبع مصانع فى ألمانيا كل مصنع فيه (٣٦٠) تليفونا لمخابرة الناس وبيع هذا السماد العجيب . وهكذا سخر الهواء لحمل الطيارات للتجارات والحرب والسفر والبريد . فالناس بهذا فتح الله لهم فى القرآن باب الرزق من الهواء بطريق الصناعة لا بطريق المعجزة الخاصة بالأنبياء فنام المسلمون وقام بهذا العمل أهل أوروبا وهم لم يستنتجوها إلا من عقولهم وآرائهم واجتهادهم .

تنظيم الدولة

وأما تسخير الشياطين فى عمل المحاريب فان هذا فرع مما قدمناه فى سورة (البقرة) إذ وضح هناك أن الأمة عليها أن تقسم العمل على أفراد الشعب والأعمال جميعها فرض كفاية ويعطى لذوى العقول الضعيفة والأجسام الغليظة الأعمال المذكورة من غوص البحار وبناء القصور .

عجائب هذا المقام

فهذا يأمر الله المسلمين أن ينظروا فى ألطف أجزاء الطبيعة كالهواء وإلى أصلبها كالحديد وإلى أشق الأعمال الجسمية كعمل المحاريب وإلى ألطفها وأشرفها كأعمال الملوك

المبانى العظيمة فى الدول

وللمبانى العظيمة فى الدولة فوائد تنوير الأذهان وتعليم الأطفال وإيجاد أشكال عجيبة تكون ماثلة أمام المتعلمين ترفع من أقدارهم وتريهم الجمال والبهجة وهذه إحدى طرق ارتقاء العقول .

الجوهر والدّر والعسل والحرير

وقد ذكر الغواصين المستخرجين الدّر والمرجان . يذكر المسلمين بما يجب عليهم فهذه من إحدى الصناعات الواجبة وجوبا كفائيا . إذا ترك الناس ما خلق الله لهم وأعرضوا عما فى البر من العجائب وما فى البحر من الدّر والمرجان أعرض الله عنهم وسلط عليهم من يأخذ الأرض منهم ويستولى عليها لأن الله خلق الدّر والمرجان لينتفع بهما عباده وخلق ما فى الأرض وسخره لهم فاذا أعرضوا عنه عاقبهم بأن يستحوذ على أرضهم غيرهم هكذا فعل سبحانه بعض المسلمين وسينجلى الأفرنج عنهم حينما يستيقظون . وإن أمثال الدّر والمرجان بهجة وجمال تولى العقول بهجة وتصقلها إذا تأملتها وتفكرت فيها . إن الله خلق ألذ المطعومات من حشرة وأنعم وأشرف الملبوسات من دودة وأجل الحلى وأجملها من الصدفة . فالأولى النحلة والثانية دودة الحرير والثالثة الصدفة التى تكونت فيها الدرارى فى البحار وهذا تقدم فى سورة الكهف موضحا عند ذكر الحرير .

ذكر قصة أيوب عليه السلام

قال تعالى (و) اذكر (أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر) أى دعا بأنى مسنى الضر بالضم الضرر فى النفس وبالفتح الضر فى كل شىء (وأنت أرحم الراحمين) وصف نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فكأنه يقول أنا أهل أن أرحم وأنت أهل الرحمة والإحسان . يقال إنه إنما شكا تلذذا بالنجوى ولم يشك تضررا بالشكوى منه فالشكاية إليه غاية القرب والشكاية منه غاية البعد وهذا الأسلوب من الطلب ألطف ما يكون فى السؤال . يقال إن أباه كان من أولاد عيص بن إسحاق وأمه من ولد لوط ابن هاران وقد اصطفاه الله للنبوة وكان له فى أرض خوارزم مع أرض الشام وما بينها مال كثير وولد فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيته عليهم وذهاب أمواله والمرض فى بدنه مدة والاختلاف فيها عظيم من (٧) ساعات إلى (١٨) سنة فلا طائل فى ذكره . روى أن امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال أستحى من الله أن أدعوه ما بلغت مدة بلائى مدة رخائى (فاستجبنا له) أجبنا دعاءه (فكشفنا ما به من ضر) فكشفنا ضره (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) بأن ولد له ضعف ما كان . ويقال إنه أحيى له أبناؤه وهؤلاء رزقوا مثلهم . فأما كشف الضر فذلك أنه قال له تعالى « اركض برجلك » فركض برجله فنبعت عين ماء فأمره أن يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم أمره أن يضرب برجله الأرض مرة أخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد فأمره أن يشرب منها فشرب فذهب كل داء كان بباطنه فصار كأصح مما كان وقوله (رحمة من عندنا) مفعول لأجله أى رحمة لأيوب (وذكرى للعابدين) أى تذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره فيثابوا كثوابه اهـ .

لطيفة

انظر فى ترتيب القرآن ولطفه كيف ذكر قصة أيوب التى فيها الصبر على البلاء عقب قصة سليمان التى هى شكر على النعماء . فداود وسليمان شاكران للنعم المترادفة وأيوب صابر للنقم النازلة فأزيلت عنه . قصتان ذكرهما الله إحداهما للشكر والثانية للصبر . إن الإنسان لا يخلو من صبر ومن شكر فصبر على مكروه وشكر على محبوب فالمحبوب ذكرنا به داود وسليمان والمكروه ذكرنا به أيوب وترى الله يقول « إن ذلك لآيات لكل صبار شكور » فهذا هو الصبار وهذا هو الشكور . ما أعجب هذا الترتيب . إن الله ينزل البلاء وينزل النعماء للتربية . ألا أذكرك بما ذكرته لك فى سورة (البقرة) من (لغز قابس) والآيات التى جاءت فى هذا المعنى « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة » الخ .

ألا تعجب معى كيف يذكر القول هناك تصريحا وهنا تلويحا . إن الأمم لا ترقى بالنعماء وحدها . كتب أرسطاطاليس الفيلسوف لتلميذه (اسكندر المقدونى) لما ملك بلاد فارس واستحكم أمره واستشاره ماذا يفعل بالملك وكيف يسوس الرعية فقال (لاتدع الرعية فى لهو ولعب ولا تسلط عليهم النعمة وحدها فيهلكوا ، إن الأمم تقدر على تحمل المشاق والمتاعب كالحروب والأعمال العظيمة والشغل الشاغل ولكنها قط لا تتحمل النعم وترادف العطايا ، فما أهلك الأمم إلا رخاؤهم ولا أبقى ملكهم إلا حذرهم وبلاؤهم) اهـ .

ويقال (إذا رأيت أمة خامدة فسلط عليها ضروب الرزايا والمحن فإنها تستيقظ من غفلتها وتقوم من رقدتها)

إن الأمم أيام حربها محتربها حال تستخرج علم العليم وكرم الكريم وموهبة الذكى وتحدث فى النفوس حالا عجيبة كأنها استخرجت بالكهرباء أو دلكت بالمغناطيس إذا حمى الوطيس وهذا من بدائع القرآن وعجائب الفرقان . ثم إذا قرأت الشعر العربى رأيت هذه المعانى كثيرة فيه قال أبو تمام :

قال

قال أبو تمام :

ملك يرى تعب المكارم راحة ويعد راحات الفراغ متاعبا

فيا أيها الذكى اعلم أنك إذا كنت ساعيا فى الأعمال النافعة مخلصا لأمتك ولربك فإن الله مخلصك من كل شدة ولا تعرف هذا إلا بالتجربة فجرب أمثال هذه القصص وبها تعرف كيف يكون الإيمان .

ويلحق بأيوب إسماعيل وإدريس وذو الكفل

قال تعالى (و) اذكر (إسماعيل وإدريس وذا الكفل) سمى به لأنه ذو الحظ من الله والكفل الحظ (كل من الصابرين) . أما إسماعيل فقد صبر على الذبح . وأما إدريس وهو أخنوخ فإنه كان خياطا ؛ وهو أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وهو أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار . وقد تقدم أنه هو الذى كان يعظمه المصريون (انظره فى سورة مريم) وهو نفس (أزوريس) وأما ذو الكفل الذى اختلف العلماء من هو ؟ فقد تكفل أنه يصلى الليل ولا يفتر ويصوم النهار ولا يفطر ويقضى بين الناس ولا يغضب فشكر الله له ونبأه فسمى ذا الكفل وهذا صبر عظيم . فهؤلاء الثلاثة صبروا على مشاق التكاليف وشدائد العبادة كما صبر أيوب على البلاء . فها هو ذا ذكر النعمة بداود وسليمان والصبر على البلاء بأيوب وعلى التكاليف والعبادة بالثلاثة بعده (وأدخلناهم فى رحمتنا) نعمة الآخرة (إنهم من الصالحين) الكاملين فى الصلاح .

قصة ذى النون

بعد أن ذكر الله الشاكرين ثم الصابرين بجميع أنواع الصبر أتبعهم بذكر ذى النون الذى لم يصبر كصبر هؤلاء على ما ابتلى به فقال (وذا النون) وصاحب الحوت يونس بن متى : أى اذكره (إذ ذهب مغاضبا) لقومه ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بفراقه ، وفعل غاضب للمغالبة مبالغة فى أنه أغضبهم بالمهاجرة من ديارهم . ذلك أنهم لما تمادوا فى تكذيبه وعدهم بالعذاب فلم يأتهم العذاب لأنهم تابوا فكره أن يكون بين ظهرانى قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحيا منهم ولم يعلم السبب الذى رفع العذاب عنهم به فكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وأنه يسمى كذابا لا كراهية لحكم الله وبحث عنه قومه فلم يجدوه . لأنه نزل إلى سفينة فى البحر هاربا فأخرجه الله من أولى العزم . وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » وقال « ولا تكن كصاحب الحوت » . ذلك أن ذا النون انطلق إلى السفينة فثقلت بمن فيها وأشرفت على الغرق فعمل أهلها قرعة فخرجت على يونس ليرمى فى البحر لتخفيف الحمل فقذف بنفسه فى البحر فالتقمه الحوت مدة اختلف فيها من أربع ساعات إلى (٧) أيام . يقول الله إنه ذهب مغضبا قومه لأنهم خافوا لحوق العذاب بهم حين تركهم (فظن أن لن نقدر عليه) أى لن نقضى عليه بالعقوبة ، مأخوذ من القدر . وقرئ « نقدر » مثقلا بمعناه أى لن نضيق عليه (فنادى فى الظلمات) الثلاث بطن الحوت والبحر والليل (أن لا إله إلا أنت) أى بأنه لا إله إلا أنت (سبحانك) من أن يعجزك شىء (إنى كنت من الظالمين) لنفسى بالمبادرة إلى المهاجرة . وفى الحديث « ما من مكروب يدعو بهذا إلا استجيب له » (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان فى بطنه فيها وقيل ثلاثة أيام وقيل سبعة . والغم غم الالتقام وغم الخطيئة (وكذلك ننجى المؤمنين) إذا دعونا لتفريج غمومهم وذلك لا تعرفه إلا إذا جربته بنفسك .

لطيفة

انظر كيف كان هذا الترتيب العجيب : ذكر أهل الشكر . فأهل الصبر . فالذى ليس بصابر .

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال تعالى (و) اذكر يا محمد (زكريا إذ نادى ربه) دعاه فقال (رب لا تذرنى فردا) لاتتركنى وحيدا بلا معين (وأنت خير الوارثين) فان لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى به (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) أى أصلحناها للولادة بعد عقرها وهكذا كانت حردة على زكريا فأصلحنا أخلاقها له لتحسن عشرته ثم علل ما تقدم كله من إكرام هؤلاء الأنبياء المذكورين بهذه السورة . فقال (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) يبادرون إلى الطاعات ومنهم زكريا ويحيى (ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) فهم مع طاعتهم يفزعون إلى الله رغبة فى ثوابه ورهبة من عقوبته . ويخشعون له أى يخافون خوفا ملازما للقلوب فلا ينبسطون فى الأمور حذرا من الوقوع فى الإثم . فهؤلاء الأنبياء عليهم السلام بطاعتهم وفزعهم فى حالى الرغبة والرهبة إلى الله وخشوعهم له ، كل ذلك جعلهم أهلا للعطايا التى تقدمت .

قصة السيدة مريم وابنها عيسى عليهما السلام

قال تعالى (و) اذكر يا محمد (التى أحصنت فرجها) من الحلال والحرام يعنى مريم (فنفخنا فيها من روحنا) أى أمرنا جبريل فنفخ فى جيب درعها فخلقنا المسيح فى بطنها بذلك النفخ . ويصح أن يقال أجرينا فيها روح المسيح وأضافه إليه تشريفا فإن الروح من أمر الله (وجعلناها وابنها) أى قصتهما أو حالهما (آية للعالمين) فإن المتأمل لقصتهما يتحقق بهما كمال قدرة الله تعالى . ثم إن نتيجة السير المتقدمة فى هذه السورة هى ما يأتى :

(١) التذكير بالعلوم العقلية فى قصة إبراهيم وموسى وأن المعوّل عليها .

(٢) إزالة الضلالات العائقة عنها وذلك كتكسير الأصنام المذكور ويناسبه تكسير قيود الجهل فى أمة الإسلام .

(٣) قيام الأمم بالأعمال العظيمة كالأبنية المشيدة واستخدام قوى الطبيعة من أصلب الأشياء كالحديد إلى ألطفها كالهواء، وقيام الأمة كلها بالأعمال من أعلاها كالأنبياء إلى أدناها كالجهال وشياطين الإنس والجن وأن لايمنع الصلاح القلبى العمل الجسمى .

(٤) وأن تتحلى الأمة بالصبر اقتداء بأيوب عليه السلام حتى يتموا أمورهم ولايكونوا غير صابرين كذى النون عليه السلام .

(٥) وأن تكون الأمة واثقة بالفرج خاشعة لله راجية منه بما قدمت من الأعمال الصالحة كزكريا ومريم .

(٦) وأن يكون فى عامتها وخاصتها العفة والوقوف فى الشهوات عند حدّ لأن العفة ممدوحة كما مدحت مريم .

هذا هو المقصود من ذكر هذه القصص : علم وصبر وشكر على النعمة، أى قولا وعملا، وعفة وإخلاص واستخدام جميع ما خلقه الله فى الأرض للمنافع العامة . وهنا سؤال قال لى قائل : لقد اقتنعنا أن نشغل أمتنا كلها فى الأعمال النافعة . فى العلم وفى الصناعات ونجتهد فى بلوغ المآرب وجميع أعمال الحياة لإصلاح الأحوال . فمن أين لنا استخدام الجن كسليمان . فقلت له نظير الجن أى النفوس الشريرة عندنا صغار العقول وأهل الشر من النوع الإنسانى هم الذين نستخدمهم عونا على الأعمال العظيمة وذلك فى كل الأمم . أما الجن وهم النفوس الشريرة فاعلم أنه قد جاء فى علم الأرواح أن الأرواح الكبيرة فى هذه الأيام تستخدم الأرواح

التى ماتت وهى لا تزال متعلقة بعالمنا الأرضى فى أعمال صغيرة لا تقدر تلك الأرواح العالية على مزاولتها كما نستعمل نحن العتالين والشيالين للأعمال التى يعجز عنها المفكرون منا . فاذا طلب من تلك الأرواح العالية شىء من الاعمال التى هى أقرب إلى المادية قهرت تلك الأرواح العالية تلك الأرواح المادية على عملها . فهذا من علم الأرواح الذى ملأ أوروبا كما قدمنا فى هذا التفسير . عجيب جدا . وكيف يجىء فى القرآن أن سليمان سخر الجن ويجىء العلم الحديث فيقول بهذا المعنى لكن على هيئة أخرى وبطريق غير ما ذكر لسليمان مما يدلنا أن العالم سلسلة واحدة متحدة منتظمة وأن ما هناك من هنا وأن الآخرة والأولى أمران متشابهان متشابهان، فقال من أين لنا صدق الأرواح وعلمها . قلت المقام ليس فى صدقها وكذبها إنما أنت أتيت بشبهة على الدين وإن ما جاء فيه لا تجد له مساغا . أقول لك كما أن العلم الحديث أرانا كيف استخدم الناس الهواء لحمل أثقالهم ولصنع الأسمدة وإجادة الآلات الحربية أرانا من جهة أخرى أن الأرواح الشريرة تستخدمها من هى أعلى منها ويكون ذكر هذا لسليمان فتحا لباب البحث . فعلى المسلمين أن يدرسوا هذا العلم لأن الدين يطلبه يا قادة الأمة لا مفر من دراسة العلوم كلها شرقيها وغربيها لا مفر منها ها هو ذا ديننا ها هو ذا . انظروا كيف ذكر فى سورة (طه) الوجه والسبب فى كون خوارق العادات لا ترقى أمة ولا تكون سببا فى بقاء الإيمان . وملخص ذلك أن تهرع الناس إلى العلوم العقلية ثم جاء فى سورة (الأنبياء) فأتم العلوم الطبيعية بذكر منابعها وأصولها وهى السموات والأرض وأنهما صارا متميزين بعد الاتحاد ، ثم تعالى فوق ذلك بذكر قصص الأنبياء ليرينا العلم بقصة إبراهيم والملك بقصة داود وسليمان والصبر بالأنبياء بعده والعفة بذكر مريم وابنها . والقصص مرتبة ترتيبا عجيبا . فموسى لتبيان ماجاء فى خوارق العادات وعدم الاتكال عليه وإبراهيم للعلوم وتقوية القوة العقلية فالملك فالصبر وختم ذلك كله بالعفة . فالقوة العقلية مقدمة ثم انتهى ذلك بالعفة التى هى إصلاح للقوة الشهوية . فالقوة العقلية تحتها القوة الغضبية والشجاعة التى أشار لها بتكسير الأصنام ثم العفة الخ . فتعجب من ترتيب فى ديننا لترقية عقولنا . قوموا أيها العقلاء ويا أيها الأمراء لترقية الشعب وأفهموه كل علم وكل صناعة . إن المسلمين مطالبون بالعلم الذى أنزل على الأنبياء وانتهاج خطة الكمال .

نتائج القصص المذكورة لأمة الإسلام

قال تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة) يقول الله إن هذه الملة الإسلامية ملتكم حال كونها متوحدة غير متفرقة . وإذا كانت هذه ملتكم فعليكم أن لا تنحرفوا عنها وهى فى حال يشار إليها فيها بأنها ملة واحدة غير مختلفة ولا متفرقة . وملخص ذلك طلب الاتحاد من أمة الإسلام (وأنا ربكم) لا إله غيرى (فاعبدون) لا غيرى أى فليكن اتحاد فى النظام العام للأمة واتحاد فى عبادتى . يقول الله ها أنتم أولاء أيها المسلمون قرأتم قصص الأنبياء وعلومهم ورأيتم مشاربهم ودروسهم. وقد شرحتها لكم لكيما تنهجوا جميع المناهج التى نهجوها فتعلمون علوم الطبيعة والفلك كما أشار لذلك إبراهيم ولا تركنوا إلى خوارق العادات كما يدل عليه قصص موسى ولا تدعوا نظام الدولة كما كان داود وسليمان ولا تذروا الصبر فى جميع الأعمال وفى ترك المعاصى كأيوب ومن بعده وأن تكونوا أعفاء، وهذه مزايا الأنبياء متفرقة جمعتها لكم فى هذه السورة وجعلتكم أمة واحدة فإياكم أن تتفرقوا (وتقطعوا أمرهم بينهم) أى وتقطعتم التفت عن الخطاب إلى الغيبة كأنه ينقل عن الأمة الإسلامية ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح فعلهم ويقول لهم ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء المسلمون من الإثم . انظروا كيف غفلوا عن اتحاد هذه الملة وتفرقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض وجعلوا الدين قطعا فيما بينهم كما تتوزع الجماعة الشىء ويقتسمونه فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب (كل إلينا راجعون) فنجازيهم على تفرقهم وهذا إخبار بالغيب لما سيحصل فى هذه الأمة الإسلامية وقد حصل فعلا وافترقت سياسة واجتماعات وفرق بينها بعض رؤساء الدين وقد أعرض الله عن هؤلاء المختلفين وقطعهم بين الأمم كما قطعوا أمرهم بينهم واقتسموه، فقوم نظروا إلى العبادات وقوم إلى الصبر وقوم إلى العفة وقوم أنكروا ذلك بقلوبهم . يقول الله هنا . كلا .

خذوا علوم هذه السورة كلها واعملوا بها . فلتكونوا على دين إبراهيم علوما ومعارف وإزالة للمنكر وعلى دين داود وسليمان صناعات وملكا وعلى دين أيوب ومن معه صبرا . فأما أخذكم أيها المسلمون بعض الدين علما أو عملا فهذا تقطيع لما جمعناه فى هذه السورة ولذلك أعرض عنهم فلم يخاطبهم وقال « وتقطعوا أمرهم بينهم » .

هذا هو الحاصل الآن فى أمة الإسلام . أعرضت عن العلوم الطبيعية والفلكية وقد أحياها إبراهيم وأعرضت عن نظام الممالك وقد أحياها سليمان وأعرضت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد أحياها إبراهيم وغيره ، فلذلك أعرض الله عنهم ولم يخاطبهم وونحا ولذلك قطعنا بين الأمم كما قطعنا ديننا قطعا لكل جماعة منا قطعة يقول الله : أموا الدين كله على حسب مافى هذه السورة وإلا أهلكتكم بتوزيعكم بين الأمم كما قطعتم دينى وقد ذكر قطع بلفظ الماضى لبيان أنه محقق وقد تم هذا وهذه من إحدى معجزات الإسلام .

نظرة

يا أمة الإسلام . هل من مدكر . هل من متفكر . انظروا كيف يعبر بلفظ قطعنا وهى فعل ماض تدل على التحقق فى المستقبل من باب المجاز بالاستعارة كقوله « أتى أمر الله » . انظروا كيف تم هذا . انظروا كيف عبر بتقطعوا أمرهم بينهم أى اقتسموه بحيث أخذ كل جماعة منه بشىء . أنظروا كيف تم ذلك فعلا . انظروا كيف تقطعتنا الأمم واقتسمتنا كما اقتسمنا العلوم والمعارف بيننا فكل أخذ بعض وترك بعضا . انظروا كيف كان هذا إشارة منه تعالى إلى أن هذا التقطيع يلزمه تقطيعنا وتقسيمنا بين الدول . نعم القرآن لم يذكره ولكنه يفهم ضمنا لأنه فيما سيأتى يقول « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » وسترى تفسيرها . فالله يقول لنا تقطعتم وتوزعتم واقتسمتم الدين فكل أخذ بقطعة ومن أخذ بعض القطع فهو ناقص والناقص ليس صالحا لعمارة الأرض : فإذن لابد أن أرسل أمما أخرى تشاركم لتكمل النقص فان كنتم جهالا بالعلم جاءوا هم وعمروا أرضكم وشاركوكم ، وإن كنتم ناقصين فى إزالة المنكر أرسلتهم ليدربوكم . فإذن هذه الآية قد ذكرت استعمار أوروبا لبلاد الإسلام بانضمام الآية الآتية اليها وذكر التقطيع إشارة إلى تقطيع دولنا بين دول أوروبا وتقسيمها لنا وكأن الله سبحانه وتعالى أبقى ممالكنا تحت أيديهم حتى تظهر معجزة هذه الآيات وينشر هذا التفسير وأمثاله وتظهر المعجزة الدينية ثم يخرج المسلمين من ضيقهم وتبقى هذه الذكرى ماثلة عند الأجيال المقبلة وتصبح الأمم الإسلامية المستقبلة رشيدة بالاختبارات التى حصلت عليها ويكون تمامها إن شاء الله معرفة الناس هذه العلوم وتحصل حركة كبرى لامرد لها وسيراها المسلمون جميعا بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله وستكون أمة لا نظير لها فى الأمم كما سيأتى فى آخر السورة شرحه .

افتراق الأمة الإسلامية فرقا تبلغ نيفا وسبعين فرقة

قد ذكر المفسرون فى هذا المقام قوله صلى الله عليه وسلم « تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة فهلك سبعون وخلصت فرقة وإن أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة فهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة ، قالوا يارسول الله من تلك الفرقة الناجية؟ قال الجماعة الجماعة » والمراد بالجماعة هم المتمسكون بعلوم هذه السورة فيحفظون كيان دولتهم ويكونون علماء بجميع الفنون والصناعات ويقتسمون جميع أعمال الحياة بينهم ملكا وعلما وصناعة كما تقدم . وقد طعن قوم فى صحة هذا الخبر لأن الأمة لم تفرق فى أصول الدين بهذا المقدار . وقد روى ضد هذا أيضا (وهو أنها كلها ناجية إلا فرقة واحدة) وعلى كل حال الآية باقية وعلمها قد اتضح الآن وأن أمة الإسلام التى اختلفت فى أعمالها لاسعادة لها إلا إذا بذلت الجهد فى الارتقاء كرة أخرى وإلا فبالله كيف يقول الله لنا إنه علم داود صنعة الدروع لعلنا نشكره فأين شكر الله الآن ونحن أجهل الأمم

بعلوم

بعلوم الحرب وإتقانها وقد سبقتنا أوروبابها . رحماك يا الله. رحماك يا الله، أمة دينها يحرم عليها الحرب تنبغ فيه وهم أمم النصارى وأمة ينص دينها على أن الله مشكور على تعليمهم الحرب فتجهل أسبابه . رحماك اللهم . أمة الإسلام نامت ونامت فعلها اللهم «إنك أنت السميع العليم» .

فتح باب الرجاء لأمة الإسلام

لما ذكر الله افتراق الأمة وأنه واقع لامحالة وأن تعاليم الأنبياء السابقة سيقصرون فيها وأنه يلزم ذلك أن تقتسمهم الأمم أردفه بفتح باب الرجاء ، فقال (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون) أى فلا تضييع لسعيه وإنا لسعيه مثبتون فى صحيفة عمله لانضيعه بوجه ما فيقبل الله توبة الأفراد وتوبة الأمم ، فأمة الإسلام متسع أمامها باب الفرج فلا يأس من رحمة الله .

جوهرة فى قوله تعالى « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين »
إلى قوله تعالى «إن هذه أمتكم أمة واحدة» إلى قوله « كل إلينا راجعون»

اعلم أن أرضنا التى نسكنها تبين اليوم فى علم الفلك أنها كالعدم وبيانه أنهم أثبتوا حديثا أن الفضاء فيه أجرام عظيمة هى الكواكب والمجرات فكل مجرة مركبة من مئات الملايين من الكواكب ومجرتنا التى منها شمسنا فيها نجوم نسبة شمسنا إليها ضئيلة جدا. حتى إن الجوزاء حجمها أكبر من حجم الشمس ٢٥ مليون مرة . قالوا ولو أن أرضنا صغرناها حتى صار حجمها كحجم الجوهر الفرد ومعلوم أنه لايرى لصار حجم الكون الذى يرى بالتلسكوب مثل حجم الأرض الحالى ولصار حجم الكون كله على مايقضى به مذهب (أينشتين) ألف مليون أرض منتشرة حولها فى الفضاء . إذن أرضنا على مقتضى تقريب هؤلاء العلماء عالم لاقيمة له صغير جدا وعلى قدر صغره يكون قدر سكانه وأخلاقهم . وأشار الله لذلك بقوله «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير» .

فانظر لجهل هذا الإنسان الذى أظهره العلم الحديث وأشار له القرآن واعجب لنظام الآية فى سورة (المائدة) حكم الله بكفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . لماذا كفروا ؟ لأن الأرض ومن عليها لاقيمة لهم بالنسبة لمخلوقاتنا فأنا قادر أن أهلك هذا الإله الذى ادعيتموه وأهلك أمه وأهلك من فى الأرض جميعا فيقال ولماذا هذا ؟ فيقول وكيف أبالى بهؤلاء وأرضكم بالنسبة لمخلوقاتى أشبه بالمعدوم . فكيف أتخذ ولدا لى فى عالم لاقيمة له ، ألم تروا أنى أملك السموات والأرض وأنا على كل شىء قدير . فاذا كانت أرضكم أصبحت بالنسبة للعوالم أشبه بالجوهر الفرد بالنسبة لألف مليون أرض . فقد انقلب الوضع فبعد أن كان أهل الأرض مغترين بأرضهم ظانين هذه الكواكب كلها ماهى إلا سرج وضعت فى السموات لتضىء لأهل الأرض أصبحت الأرض اليوم ملحقة بالعدم وسكانها أضعف منها وأقل حيلة . إذن سكان هذه الأرض قد اغتروا بأنفسهم حين جعلوا لله ولدا فى أرضهم الفانية الضعيفة المعدومة فى جانب مخلوقاتى . هذا كله يفهم من قوله « ولله ملك السموات والأرض» الخ .

يقول الله هنا إن المسيح ابن مريم وأمه جعلناهما آية للعالمين لا أنه إله ومن هى أمه ومن هم أهل الأرض حتى يكون لى ابن فيهم . ولما كانت قصة مريم وموسى آخر أنباء الأنبياء فى هذه السورة خاطب الله جميع الأمم شرقا وغربا ، فقال : أيها الناس إن هذه للة واحدة . فان جميع الأنبياء إنما جاءوا بالتوحيد فلم تفرقون ثم أتبعه بما يدل على حقارة الأرض ومن عليها كما جاء فى حكاية عيسى سواء بسواء . فهناك يقول أنه لا أحد يقدر أن يدفع الإهلاك عن الأرض ومن عليها . وهنا يقول : أيها الناس أمتكم واحدة فلم اختلفتم .

إن محمدا وموسى وعيسى ومن قبلهم من أنبياء جميع الأمم كلهم واحدة نزلوا لاجتماع الكلمة فتفرقتم أنتم وإنما تفرق الناس لأن عالم الأرض عالم متأخر . فاستعداد أهل الأرض ضعيف لا يقوى على الاتحاد من أول وهلة فقد استبان ضعف أهل الأرض التى نسكنها بقراءة علم الفلك الحديث . وبه استبان علما لماذا لايبالى الله بإهلاكهم جميعا واستبان أيضا ؟ لماذا تفرّقوا مع أن الدين واحد فالأنبياء كلهم جاءوا لمقصد واحد وهو اتحاد الأمم ولكن الناس لجهلهم قلبوا الوضع فجعلوا ماهو سبب الاتحاد سببا فى الخلاف ثم هددهم بقوله « كل إلينا راجعون » .

الله عز وجل نادى جميع الأمم على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قائلا لهم إن أمتكم واحدة . وفى هذا النداء رائحة اتحاد الأمم وربما يتم هذا أو مايقرب منه ، فان لم يتحدوا على دين واحد فليتحدوا على المسالمة والمسالمة العامة من مطالب الإسلام بل أهم مطالبه . ولقد ألفت لذلك كتاب [أين الإنسان] الذى ذكرته كثيرا فى هذا التفسير ولخصه أهل أوروبا وستقرأ ذلك التلخيص فى الأجزاء الأخيرة من هذا التفسير . ومقتضاه أن كل أمة تعلم الرجال والنساء على حد سواء وتستخرج ما كمن فى الأرض ومن عندهم أرض لاعامل فيها يجب عليهم أن يقبلوا فى أرضهم من يعمل فيها ويكون هذا فرضا لازما على الأمم وهكذا مما ستقرؤه . وهذه الأمنية تدور على الألسنة فى كل زمان ومكان ومنها ماجاء فى الأخبار العامة يوم الأربعاء ٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ وهذا نصه :

[افتتح المؤتمر الاشتراكى الأممى أمس الأول فى بروكسل بحضور ستمائة مندوب يمثلون (٣٢) أمة من الأمم الغربية والشرقية . وإذا عرفنا أن الأحزاب الاشتراكية بلغت من القوة درجة استطاعت معها أن تتولى زمام الحكم فى بعض الدول كألمانيا وسكندينافيا وأن تؤلف معارضة قوية فى البعض الآخر كفرنسا وانجلترا أدركنا ماسيكون لمقررات المؤتمر الذى تعقده الآن فى عاصمة البلجيك من التأثير المعظم فى سياسة العالم . ويؤخذ من خطبة الافتتاح التى ألقاها السير (أرنورهندرسون) أن الاشتراكية الدولية عيل صبرها من تردد جمعية الأمم وتذبذبها وأنها تنوى إحراج مركزها فى اجتماعها المقبل وحملها على تحديد خطتها تحديدا صريحا يعزز الآمال المعقودة عليها أو يفقدها الثقة التى وضعها البشر فيها . ولا ريب فى أن مندوبى معظم شعوب العالم ولا سيما الشعوب الصغيرة فى هذه الجمعية غير مرتاحين إلى أعمالها يتذمرون فى سرّهم من ضعفها واستكانتها ومن سيطرة المجلس عليها سيطرة جعلها آلة فى يد الدول العظمى . وقد بدأ هذا التذمر يظهر منذ الاجتماع السابق ولا يبعد أن يتحول إلى انفجار شديد فى الاجتماع المقبل خصوصا إذا اتخذ المؤتمر الحالى قرارات حاسمة فى الموضوع .

ومما قاله السيو (فندرفلد) الوزير البلجيكى السابق فى أول جلسة عقدها هذا المؤتمر أن الاشتراكية الدولية يجب أن توجه أنظارها الآن إلى (آسيا) و (افريقية) حيث يعمل الرأسماليون على استنزاف دم الوطنيين وهى كلة خطيرة لايسع حكومات الاستعمار إهمالها أو سد الآذان عن سماعها لأنها صدى ذلك الصوت الهائل الصادر من أعماق الشرق منذرا العالم بسوء المصير . وقد كان أحرار الغرب وفى مقدمتهم الاشتراكيون أول من أدرك خطورة الحالة وسعى إلى معالجتها ودرء أخطارها . ولكن الجشع الاستعمارى الذى أصبح طبيعة ثانية للشعوب القوية حال دون نجاحهم فى الماضى . أما الآن وقد لمس الغرب الحقيقة بيديه ورآها بعينى رأسه سواء فى تركيا وإيران أو فى الصين وبلاد الأفغان فلم يبق له مناص من الإذعان لصوت الحق تأمينا لمصالحه ودرءا للأخطار التى تهدده وقد تناول برنامج المؤتمر المنعقد الآن فى بروكسل هذا الموضوع فقسم الشعوب الشرقية إلى ثلاثة أقسام وهى :

(١) الشعوب التى هى جديرة بالاستقلال التام ويجب أن تتمتع به فى الحال وبينها الصين ومصر وسورية والعراق .

(٢) الشعوب التى تصير كفؤا لإدارة شئونها بنفسها بعد تمرن قصير وهذه الشعوب يجب أن تساعدها الدول على ذلك وفاقا للقواعد التى سيقررها المؤتمر الاشتراكى بحيث تصبح بعد مدة قليلة أهلا للتمتع باستقلالها التام .

(٣) الشعوب التى لاينتظر أن تبلغ قريبا إلى درجة تؤهلها لإدارة شئونها بنفسها كبعض الشعوب الأفريقية وسينظر المؤتمر فى شأنها ويقرر التدابير التى يراها ضرورية لصيانتها من عبث الدول الاستعمارية ومن سوء استعمال سلطتها وقوتها .

وقد وافقت اللجنة التحضيرية للمؤتمر الاشتراكى الأممى التى عقدت فى بروكسل فى شهر يونيو الماضى على قبول مندوبى هذه الشعوب فى المؤتمر ضيوفا وخبراء للوقوف على آرائهم فى شئون بلادهم وسماع مطالبهم ونيل موافقتهم على القرارات التى تتخذ ويكون لها صلة بشعوبهم . وسيعهد فى تنفيذ هذه القرارات إلى الأحزاب الاشتراكية فى مختلف البلدان . فالبلاد التى يسيطر الاشتراكيون على حكومتها تدعى إلى تنفيذ مقررات المؤتمر فى الحال أما البلاد التى يكون فيها الاشتراكيون فى جانب المعارضة فيجب استعمال جميع الطرق للتأثير فى حكومتها وحملها على تنفيذ هذه القرارات فى أقرب وقت ممكن بالتعاون مع جمعية الأمم ومع جميع الأحزاب الاشتراكية فى العالم . وهكذا تقف الاشتراكية الدولية موقفا صريحا بازاء الاستعمار أساسه المنطق والعدل فتكافحه فى البلاد التى نعدّها جديرة بالاستقلال التام وتحاول تقييده فى البلاد التى لم تبلغ درجة من الرشد السياسى تؤهلها إلى هذا الاستقلال وتحاول إصلاح وتخفيف أضراره فى البلدان التى لاتزال متأخرة فى مضمار الحضارة والعرفان . وهذه خطوة واسعة تخطوها الاشتراكية الدولية الآن فى سبيل سلم البشر وراحتهم وطمأنينتهم، وقد راعت فيها المنطق كما راعت مصالح الشعوب الحاكمة والمحكومة فلم تلجأ إلى التطرف فى مطالبها شأن بعض الأحزاب المتطرفة ولم تقل بقول الرجعيين والرأسماليين الذين يجدون باستعباد الشعوب لذة تنسيهم الأخطار التى تهددهم من جراء هذا الاستعباد بل تقدمت بمطالب معقولة يقرها جميع الأحرار وأنصار الحق والعدل من كل حزب وفى كل بلاد . فعسى أن تكون هذه الخطوة مقدمة لتسوية العلاقات بين الشرق والغرب على أساس ثابت وطيد الأركان وأن تتلوها خطوات أخرى من جانب الحكومات المختلفة تؤدى إلى تعزيز السلم وتكون فاتحة عصر جديد يسوده الأمن والرخاء فى ظل العدل المنظم اهـ .

هذا ماوصل إليه الاشتراكيون أثناء طبع هذا التفسير ، ولا يدرى إلا الله ماذا يفعل هذا الإنسان الذى سماه الله «ظلوما جهولا» وقال فى حقه «قتل الإنسان ما أكفره» .

ومن عجب أن كلام الاشتراكيين المذكور هنا فى الأمم المتوحشة قد اقترب بعض الاقتراب مما ذكرته فى ذلك الكتاب فانى رأيت أن المتوحشين كما أشرت إليه فى أول سورة (طه) يستحيل عليهم رقيهم إلا بأقرب الأمم إليهم ، فأهل مصر وأهل السودان المصرى هم الذين يكونون سببا فى رقى أقرب البلاد إليهم من أهل أفريقيا وهكذا . وقصارى الأمر ومحاداه أن هذا العالم جميل تام ولكن أهل الأرض من العوالم المتأخرة فهم أقرب إلى النقص لا إلى الكمال ولكنى أرجو أن تكون الحركة الجديدة فى العالم مبشرة بالاتحاد كما يشتم من قوله تعالى «إن هذه أمتكم أمة واحدة» .

زيادة إيضاح لهذا المقام

يقول الله هنا «وأنا ربكم فاعبدون» ويقول فى (آل عمران) على لسان عيسى ابن مريم «إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه» ويقول المفسرون هناك إن هذه الجملة قد جمعت كل دين فى الأرض لأن الدين إنما هو علم

وعمل والعلم يرجع إلى ربى وربكم والعمل يرجع إلى العبادة فى قوله «فاعبدوه» وهـذا تقدم هناك ولـكن هنا جاء بالجملة موجزة لاعلى لسان عيسى ولا على لسان غيره بل أرسلها الله من تلقاء نفسه لأن المقام هناك فى عيسى فجاء القول على لسانه . أما المقام هنا فهـو فى الأنبياء المذكورين هنا فلذلك خاطب الله الأمم كلها هنا بنفسه . يخاطب الله الأمم كلها جيلا بعـد جيل . يخاطب الله أهل آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا والاوقيانوسية وسكان الجزائر فى البحار بقول موجز . يخاطبهم جميعا بهذه الجملة الموجزة والموجز دائما كلام الملوك فما بالك بملك الملوك ، بخلاف هذه الجملة نفسها على لسان عيسى فهى ليست فى إعجاز هذه الجملة لأنها على لسان عبد من عباده وهو عيسى . يقول الله هنا «وأنا ربكم» أى أنا المربى لكم والتربية ظاهرة فى قوله تعالى «والحمد لله رب العالمين» وليست تعرف هذه الجملة إلا بمـا عرف به القسم الأول من الفاتحة فاقرأه هناك . لعمرى كيف يعقل الناس تربية الله للعالمين ورحمته لهم من غير دراسة العوالم العلوية والسفلية وملاحظة التربية على وجه أخص فى عوالم النبات والحيوان كما تقدم فى سورة (الفاتحة) وفى سور أخرى لاسيما ماتقدم قريبا فى سورة (طه) عند قوله تعالى «الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» فانه تقـدم هنا ماظهر من الفرق بين جنين السمك وجنين المرأة وجنين الدجاجة وجنين دود القز وجنين حشرة أبى دقيق ، وكيف رأينا من هذه الأجنة غذّالا نساجلومغتذيا بالدم أو بمادة زلالية أو غـير زلالية حفظت له كما فى الحيوانات اللبونية والدجاج والسمك «إن ربى لطيف لمـا يشاء إنه هو العليم الحكيم» هكذا لابد من معرفة عوالم السموات وكيف ربيت فى عصور قديمة وما تراه فى سـور كثيرة كيونس والأنعام . وهكذا ترى بعض الحيوانات والحشرات فى سورة (النحل) وفى (هود) وفى (مريم) وغيرها . كل هـذا لابد منه لمعرفة قوله تعالى «وأنا ربكم» وقوله «فاعبدون» راجع القسم الثانى من (الفاتحة) من أننا نعبـده ونستعين به ونطلب منه الهداية للصراط المستقيم صراط المنعم عليهم . فاذا كان الله بهذه الصفات من التربية والرحمة فعلى هذا النوع الإنسانى أن يعاون بعضه بعضا فى تربية المجموع وهذا النوع الإنسانى لم يظهر منه الإخلاص العام والصدق فى المنفعة العمومية لسائر الناس .

نبى الله على الناس تقاطعهم . يقول أنا ربيتكم ورحمتكم . أضأت شمسى وقمرى لأنير سبلكم وخلقت بحارا وأنهارا وجبالا ومزارع ودواب . كل ذلك لتربيتكم ولـكنكم أنتم أيها الناس تجهلون قدرى «وما قدروا الله حق قدره» ولو كنتم تعلمون قدرى لكان بعضكم لبعض فى الشرق والغرب ظهيرا . لذلك كان على أن أقول «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» .

إن هذا النوع الانسانى لن يكون قائما بأمرى إلا إذا تعاون جميع الناس فى الأرض شرقا وغربا وعلى المسلمين حاملى هذا الكتاب أن يكون أول الأمم قوة وبأسا ثم هم الذين يقومون ببث فكرة التعاون العام بين الأمم . فان لم تقم الناس بحق الربوبية حقت عليهم كلمتنا وهى «وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون» وهؤلاء يرجعون إلينا غير كامل أكثرهم بل هم جاهلون غافلون . انتهى يوم ١٦ أغسطس سنة ١٩٢٨ م .

خاتمة الأمم . قيام الساعة

ولما كانت أمة الإسلام وغيرها خاتمتها قيام الساعة وخراب الأرض أردفه بقوله (وحرام) وواجب (على قرية أهلكناها) صفة لقرية (أنهم لايرجعون) أى واجب على كل أمة أهلكناها عدم رجوعهم إلى الحياة، أو ممنوع على قرية أهلكناها أنهم يرجعون بزيادة لا . وكلا المعنيين مقبول لأن حراما جاء بمعنى الواجب واستعمال الشىء فى ضده مجاز مقبول فى كلام العرب . قالت الخنساء :

وإن حراما لا أرى الدهر باكيا ... على شجوة إلا بكيت على عمرو

لحرام بمعنى واجب فى البيت وزيادة لا كثيرة فى القرآن وغيره وكلاهما يفيد أن من هلكوا لا يرجعون إلى الدنيا قطعا . ثم بين نهاية الوقت الذى فيه يمتنع الرجوع للحياة فقال (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) أى يستمر الامتناع من الرجوع أو وجوب عدم الرجوع إلى ظهور أمارات الساعة وقيامها ، وحتى هذه هى التى تحكى بعدها الجمل ، وقوله (وهم من كل حدب) نشز من الأرض أو « جدث » فى قراءة أخرى أى قبر (ينسلون) يسرعون النزول من الآكام والتلال . يقول الله لا تزال حياة الناس الذين ماتوا وهلكوا ممتنعة فلا يرجعون حتى تقوم الساعة وتظهر أماراتها والناس من كل حدب ينسلون (واقترب الوعد الحق) وهو القيامة (فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) والفاء هى وإذا التى للمفاجأة تظاهرتا على ربط الجواب بالشرط والجواب قوله « هى شاخصة » الخ وهى ضمير القصة . المعنى أن الناس لا يرجعون للحياة حتى تزلزل الأرض زلزالها وتختلط الأمم ويختل نظام الأرض فتموج الأمم بعضها فى بعض بتفرق أجزائها لا فرق بين يأجوج ومأجوج وغيرها . فاذن ذكر يأجوج ومأجوج رمز لاختلال الأرض وخرابها كأنه قيل إذا اختلطت الناس وماجت لخراب الأرض «واقترب الوعد الحق» هناك تشخص أبصار الذين كفروا إذ يقومون من قبورهم أى ترتفع أجفانها فلا تكاد تطرف من هول ما هم فيه يقولون (ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا) لم نعلم أنه حق (بل كنا ظالمين) لأنفسنا بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنذر . فالقصد من فتح يأجوج الرمز لخراب الأرض وقد قدمنا فى سورة الكهف من هم يأجوج ومأجوج وأين مساكنهم . وعليه يكون القصد هنا اختلال حال الأرض وخرابها كما كان يختل بهم نظام الأمم حين يخرجون عليها كما تقدم فى سورة الكهف وهناك مقال واسع مستوفى فلا نعيده هنا .

خطاب الله للكفار وتذكيرهم بما يكون يوم القيامة

قال تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله) من الأصنام وإبليس وأعوانه الذين أطاعوهم (حصب جهنم) حطبها ، وقرئ «حطب» (أنتم لها واردون) داخلون فيها . فقال ابن الزبعرى أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة فقال عليه الصلاة والسلام بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فنزل «إن الذين سبقت لهم منا الحسنى » الآية (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها) لأن الذى يعذب لا يكون إلها (وكل فيها خالدون) لاخلاص لهم (لهم فيها زفير) أنين وتنفس شديد (وهم فيها لا يسمعون) من الهول وشدة العذاب أو لايسمعون ما يسرهم (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) الخصلة الحسنى وهى السعادة والتوفيق والبشرى بالجنة (أولئك عنها مبعدون) لأنهم يرفعون إلى أعلى عليين والذين سبقت لهم الحسنى أعم من المسيح وعزير وغيرهما من المؤمنين (لايسمعون حسيسها) صوتها وحركة لهبها إذا نزلوا منازلهم فى الجنة (وهم فى ما اشتهت أنفسهم) من النعيم والكرامة (خالدون) مقيمون (لايحزنهم الفزع الأكبر) النفخة الأخيرة (وتتلقاهم الملائكة) تستقبلهم على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) فى الدنيا . يقول الله وتتلقاهم الملائكة (يوم نطوى السماء) طيا (كطى السجل) أى الطومار وهى ما يكتب فيه الكاتب (للكتب) أى للمعانى الكثيرة المكتوبة فيه . يقول الله يوم نطوى السماء فنجعلها ممحوة الرسوم ذاهبة الأثر مكورة النجوم بحيث نرتق فتقها ، فكما فتقنا الأرض منها نرتقهما ونجعل العالم المشاهد محولا مغيرا ثم ندخل تلك الآثار فى حال جديدة فنخلق أرضا جديدة وكواكب أخرى بعد حين وهكذا نخلقكم كذلك للحشر كى تحاسبوا فنحن نرجع الناس للحياة ونغير طراز هذه الدنيا فنجعلها عالما جديدا غير هذا كما نحشركم فى حال أخرى غير هذه الحال وهذا قوله (كما بدأنا أول خلق نعيده) فكما خلقناه أولا نعيده فنعيد الناس ونعيد هذه العوالم فى حال أخرى « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » راجع للثانى « وبرزوا لله الواحد القهار » راجع للأول . فتعجب كيف تطابق القرآن فى

للوضعين وكانت تلك الآية تفسيرا لهذه (وعدا علينا) مصدر مؤكد لما قبله (إنا كنا فاعلين) ذلك لا محالة هذه هي قصة الإنسان في حشره وقصة عالمنا يوم حشرنا .

لطيفة

من العجائب أن الله في أواخر هذه السورة يذكر لنا أن السموات والأرض يعيدها كما بدأها وفي أول السورة أرانا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما . ومن أبدع ما يراه العلم الحديث أن علماء العصر الحاضر يقولون [الدليل على أن الأرض كانت كرة واحدة مع الشمس وأن الأرض وجميع السيارات قد فصلت من الشمس أنهم يرون بالآلات الفلكية والمناظير المقربة أن هناك ستين ألف كوكب تتكون وهي في حالها القطرى الأولى بصورة نارية ، فبعضها لايزال في أول التكوين وبعضها قارب أن يتم نظامه . انظره في كتاب (قراءة الدنيا الواسعة) في علم الجغرافيا باللغة الانجليزية في أوائل الكتاب . وأيضا نرى حلقات حوله مضيئات متأهبات للانفصال منه كما انفصل القمر عن الأرض . وقد تقدم رسمه في سورة الأنعام] .

هذه هي العجائب التي كشفها العلم الحديث فلنفسر بها القرآن ولنقل هذه معجزة أخرى . قد ذكر الله في أوائل السورة أن الشمس كانت مع الأرض لمزجها وها هو ذا هنا يقول سأعيد العالم لحاله الأولى فيعيد الشمس والكواكب بعد رجوعها للحال الأولى فيجعلها كما هي الآن أيضا ويجعلنا في حياة جديدة في عالم الآخرة في جنة أو نار وهذه معجزات عجيبة للقرآن . فانظر كيف ذكر العالم الحيواني والنباتي وغيرهما في سورة (الحجر) كما قدمنا مرارا وفي سورة (النحل) مرتين إلى أن وصل إلى سورة (الأنبياء) فذكر منشأ العالم ثم هاهو ذا يفهمنا كيف يرجعه . إن هذا هو منطوق العلوم التي عرفها الناس . فلتعجب معي ولتقرأ كل علم وكل صناعة ومعناه أن الأمة تجدّ في جميع العلوم والصناعات وكل طائفة تقوم بأحدها والله هو الولي الحميد .

زيادة إيضاح لقوله تعالى « كطي السجل للكتب » أيضا

ليت شعري لم اختير التعبير بهذا التشبيه . نعم اختير ذلك لما فيه من الإيجاز العجيب المشتمل على معنى كبير . ألم تر إلى ماذكرته لك من أن السموات والأرض ترجع إلى حال أخرى لطيفة جدا تدق عن الأبصار وتدخل في معمل الطبيعة حتى تكون مغمورة فيها تائهة بين أجزائها في وسط العالم اللطيف الذي يسمى الأثير وهو مادة ألطف من النور وجميع العوالم مغمورة في بحرها اللجيّ . فاذا رجعت هذه العوالم لذلك العالم طويت صورها وخفيت رسومها ولم يظهر ما نرى من جمال وكمال وعمل وصور وعجائب بل يكون كامنا فيها كون النار في الأحجار والكهرباء في المواد المحسوسة .

فانظر كيف تحمل عناصر الأرض والشمس والكواكب صورا كامنة فيها . وكيف يكون استعدادها منطويا على صور متتالية أدوارا وأدوارا وأجيالا وأجيالا ودهورا ودهورا . كل ذلك قد اختفى وانطوى في تلك المادة المتحللة من عالمنا المغمورة في الأثير المعدة للظهور كرة أخرى . أتدرى أين تلك المعاني كلها . كلها قد جمعت وطويت تحت قوله « كطي السجل للكتاب » أو « للكتب » على القراءتين أى كما ينطوى الطومار أو القرطاس على المعاني فتعجب . أليست الطبيعة كتابا ؟ أليست الصور فيها مكتوبا يكتب للناس فيقرءونه . أليس طيها بعد نشرها إخفاء لتلك المعاني التي كانت مجسمة فصارت خفية . أليست تلك الصور البديعة المخبوءة في عوالمنا بعد فنائها أشبه بما يكتب في الكتب فيكون حروفا صغيرة يستخرج منه أعمال وآراء كثيرة . فجلّ العلم وجل الدين وجل مبدع الكون .

بمثل هذا تعرف بلاغة القرآن . بمثل هذا فليفهم المسلمون الكتاب الحكيم . ليقرأ المسلمون صحائف السموات وصحائف الله في الأرض . فالله يقول إنها كتاب يطوى في يمينه يوم القيامة . ومقتضى هذا أنه كتاب منشور الآن لأن ما يطويه غدا هو ماينشره الآن .

إن العوالم التى نسكنها اليوم جميلة ، إنها كتاب يدرس . إن الله بهذه الآية يقول لنا ادرسوها واعقلوها.

إن القرآن يقول هنا كتابكم الآن منشور وغدا يطوى . يقول الله إن الأرض والسموات صحائف منشورة هى كتابى فاقرءوه وافهموه واعرفوا نظامى تعرفوا مقامى . هكذا يقول الله هنا ولمثل هذا فليعمل العاملون» وفى مثل هذا فليتنافس المتنافسون ولهذا فليقرأ المسلمون . ليقرأ المسلمون كتاب ربهم الذى كتبه بيده ثم يطويه بيمينه . فليقرءوه وليفهموا ماسيأتى بعد وهو ـ أى الأمم أحق بالملك فى الأرض اليوم وبالجنة فى الآخرة ـ (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) لقد كتب الله عنده وأثبت فى علمه القديم الذى لايسهو معه ولا غفلة ولا نسيان أن جنس الأرض سواء أكانت أرض الدنيا أم أرض الجنة يرثها عباده الصالحون لها . وإذا كتب الكاتب شيئا وأثبته وهو ذاكر غير ناس ولا غافل كان ما كتبه لابد أن يتمه وينفذه فخبر الله عن هذا بأنه كتبه بعد الذكر الذى بيده لاينسى المكتوب أو كتب فى الزبور أى جنس الكتب السماوية المنزلة من بعد اللوح المحفوظ ماتقدم . ثم انظر أيضا كيف قال الله إن السموات والأرض بعد فنائهما يكونان كتابا مطويا أى كما كانا مطويين يوم كانتا رتقا وفيهما انطوى هذا العالم وها هوذا يظهر الآن على مقتضى ماطوى فى صحائف السموات والأرض واستعدادهما ولا يبرز شىء إلا على مقتضى الاستعداد ومن ذلك أنه كتب فى الزبور أن الأرض الخ .

تقسيم الصلاح وكيف يكون

اعلم أن الله عز وجل لايضع شيئا فى غير موضعه لأنه وزن كل شىء وقدره تقديرا . انظر ألست تراه أسكن الطيور أشجارها والحيات أوكارها والهوامّ ترابها والحشرات أوطانها والحيوانات البرية أقطارها والسمك بحارها والطيارات التى صنعها الإنسان حلقت فى جوها . وضع الله كل مخلوق فى المكان الذى استعد له هكذا هنا يقول جل جلاله . كتبت فى كتابى الأول وأثبته بكتابى الثانى . كتبت فى لوحى المحفوظ وأثبته بكتابى المنزل وقلت لكم لا أعطى القوس إلا باريها ولا أسكن الدار إلا بانيها ولا أعطى شنا [1] إلا إلى طبقة ولا أعشق كثيرا إلا فى عزة ولا أعطى إلا بمقدار ولا أهب إلا على استعداد . فأنا حكيم والحكمة هى التى بها قامت السموات والأرض . فهل ترون فى خلق من تفاوت . وهل رأيتم فى عملى عوجا . انظروا ياعبادى . انظروا . فصلاح كل شىء بحسبه ولا أعطى الشىء إلا لما يصلح له . فالصلاح للملك فى الأرض بأربعة شروط وهى :

(١) أن يكون القادة فى الأمة علماء حكماء مفكرين فهم يكونون أشبه بالعقل فى الدماغ بالجسم الإنسانى.

(٢) وأن يكون للأمة جيش منظم يقوده ضباطه على شريطة أن يخضع لأولئك العقلاء. وهذا أشبه بالقوة الصموية فى جسم الإنسان التى يقوم بتصريفها القلب فى تجويفى الأذينين وتجويفى البطينين والحركات المنظمة بطريق الآلة الماصة الكابسة أى الجاذبة والدافعة .

(٣) أن يكون الفلاحون والعمال والصناع قائمين بأعمالهم مطيعين للفريقين .

(٤) أن تنظم هذه الطوائف الثلاثة بحيث تقسم جميع أعمال الدولة عليهم والصناعات التى يحتاج إليها العمران الإنسانى فلا يذرون علما ولا صناعة إلا قسمها أولئك الرؤساء على الشعب . هذا هو الصلاح الذى ذكره الله هنا للملك فى الأرض .

(اعتراض على المؤلف وجوابه)

قال لى قائل لما سمع هذا المعنى : أيها الأستاذ . هل الله قال ذلك فوالله إنك لتقول المعانى من تلقاء نفسك ووالله مافى الكتاب شىء من هذا . فقلت له لاتخف وانظر معى . لم ذكر الله هذه الآية فى السورة

---

(١) هذا مأخوذ من المثل (وافق شنّ طبقة) التى وفتاة توافقا طبعا فتزوجا .

ثم لم أخرها إلى آخرها . ألم تر أنه ذكر الأنبياء ، وقد قسم أعمال الدولة عليهم فمنهم صاحب الدولة ومنهم صاحب العلم والحكمة ومنهم من يهدم الأصول الضالة ومنهم من استبانت عفته واضحة ، وقد شرحنا هذا شرحا وافيا ثم قال «إن هذه أمتكم أمة واحدة» فلتجمع جميع هذه الخصال . ثم ذكر أن المسلمين سيقصرون ويأخذ كل فريق بطرف من الدين وذمهم على ذلك ، ثم حذر وذكر أمور الآخرة وفناء العالم ، ثم أتبعه بهذه الآية فهي ملخص ما تقدم كله فان ما تقدم نظام فى الدنيا وحشر وبعث فى الآخرة فكأنه قيل أى الناس أحق بهذا الملك وبذلك المجد فقال ما معناه «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» فأنا كما أسكنت السمك فى البحر والطير فى الجو والأنعام والوحوش فى القفر أسكنت الأمم المنظمة القوية فى أرضى وملكتها ناصية الأمم فلتكن حافظة للأوضاع النظامية الثلاثة المتقدمة التى ذكرها (أفلاطون) فى جمهوريته فإنى أملكها ناصية الأرض وتكون خليفة لى . وهكذا ليكن كل رب بيت فيها قائما بنظام أسرته على الوجه الذى ينبغى وكل فرد من أفراد الأمة حافظا لأخلاقه وآدابه . والقوة العقلية فى الفرد والقوة الغضبية والقوة الشهوية فيه كلها على نظام المجموع فليذلل المرء القوة الغضبية والشهوية للقوة العاقلة فان ذلك هو الذى يجعله كاملا وليحفظ نظام الأسرة بضبطها وتنظيم معاشها . الأمة التى على هذه الشريطة هى التى تملك قياد خلقى وأستخلفها فى الأرض فإذا اختل هذا الصلاح فأنا لست بغافل فلأسلطن عليهم من يتولى أمر أرضى فإنه لا يرثها إلا الصالحون لعمارتها . هذا هو الكلام على ملك الدنيا .

(الصلاح للجنة)

أما صلاح الناس لأرض الجنة فذلك راجع إلى لطافة النفس وميلها إلى الامور العلوية . فكلما كان المرء قائما ذا كرا ربه أو صارفا قواه العقلية والجسدية فى خدمة المجموع نظيفا باطنه وظاهره محافظا على الأخلاق الجميلة مساعدا لأهله ولمن يقدر على مساعدته فى الأمة كان إلى الجنة أقرب . وكلما كان أقرب إلى التقصير فى مواهبه فحجبها ولم ينتفع بها على مقدار طاقته أو مؤذيا أوكارها للناس غير نافع للمجموع انحطت درجته بعد الموت فقلت قيمته فمات بعيدا عن السعادة ، هذا نموذج من صلاح الناس للجنة ومن صلاحهم للدنيا .

ولما كان هذا الكلام قد جمع نظام الدارين وأصبحت هذه السورة عروس القرآن وقلبه ومناره وفيها الأنبياء الذين تجلت العلوم ونظام الدولة فى قصصهم وازدانت بنظام الدولة وبنظام الأخلاق حتى يصل الناس إلى ربهم فى جنته وبها عرف المسلم كيف احتلت أوروبا أكثر بلاد الإسلام . ولماذا أزال ملك كثير منا وإن اجتياح أهل أوروبا لأهل أمريكا الأصليين وكذلك أهل استراليا وغير ذلك . كل هذا لتقصير أهل البلاد فانحطت مداركهم فأرسل لهم أمما لأنهم لا يصلحون لإدارة بلادهم . وأمة الإسلام لا تصل إلى هذا الدرك فان هذا كتابها وقد بينا بعض مقاصده وسيقوم فى كل قطر منادون بهذه الآراء وينشطون بعد الخمول ويعظمون بعد الضعة ويصلحون بعد الفساد ويعرفون بعد الجهل ويجتمعون بعد الافتراق . هكذا سيكون إن شاء الله فلا يتطرق إلى هذه الأمم الفناء والدمار واستباحة الدار ولابد من رجوع مجدهم كما قررناه مرارا فى هذا التفسير . أقول لما كان الأمر كذلك أعقب الله ما تقدم بقوله (إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) أى إن مافى هذه السورة من نظام الدول وقيام الدولة وحفظ الناس والتسلط على ألطف الأشياء كالهواء وعلى أصلبها كالحديد وعلى الجمع بين حرب الأعداء والاستغراق فى ذكر الله والشجاعة والإقدام وتسخير العمال فى المبانى العظيمة واستخراج مافى البحار من الحلى وغير ذلك . يقول الله إن فى ذلك المذكور لبلاغا أى كفاية لقوم جامعين بين العلم والعمل فان العلم شجر والعمل ثمر . هذا معنى الآية وهو ترتيب عجيب لم يذكر الله هذه الآية إلا بعد ما أتم الأمر وبين نظام الدول والأعمال ، ثم بين من هم الذين يصلحون لعمارة الأرض . ثم أتبعه بما يفيد أن علوم هذه السورة السياسية والنظامية كفاية لمن جمعوا بين العلم والعمل .

فتعجب أيها الذكى والله سائلك عن كتابه وعن أمتك وعن أهل بلدتك فاصدع بما تؤمر فى هذا القرآن مع الحكمة وأعرض عن الجاهلين ولتعلم أن الله سينصرك كما نصر الأنبياء المذكورين فلا تتم عن إبلاغ معانى هذا القرآن . لا تغفل والله يحاسبك على علمك كما يحاسبك على قدرتك الجسمية فإنى موقن أن الأمة الإسلامية متى ذاعت هذه الآراء فيها وهى مقصود كتابها قامت كلها قومة رجل واحد إلى نظام أممها ثم قامت بتربية الأمم والأمم اليوم فى ضلال . فليكن المسلمون بعد تدبر أمثال هذا والعمل به قادة العالم الإنسانى ولذلك أعقبه سبحانه وتعالى بقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وهذا المقام يحتاج إلى بيان أمرين : الأول هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فيما مضى مع أنه استل السيف وقتل به كثيرا من الناس. الثانى هل هذا الدين سيكون رحمة فى مستقبل الزمان وكيف ذلك . لقد كنت كتبت مقالة فى هذا الموضوع عنوانها [كيف كانت حال العالم لو لم يفتحه المسلمون] فى مجلة (الموسوعات) صفحة ٢٤٥ وجعلت هذا المقام أربعة مباحث وخاتمة : البحث الأول فى أشهر الدول التى كانت حين ظهر الإسلام . البحث الثانى فى ثمرات انتشار الإسلام وفى الدين المسيحى ونحو ذلك . البحث الثالث فى نتائج الحروب الصليبية . البحث الرابع فى تقدير عدم وجود الأمة الإسلامية (الخاتمة) فى حكمة الله فى ذلك وفوائده وفى تلخيص ما تقدم .

فأما البحث الأول فملخصه أن الدولتين اللتين لم يشتهر غيرهما إذ ذاك هما دولة الفرس بآسيا ودولة الرومان بأوروبا . فدولة الفرس كانت آخذة فى السقوط . ودولة الرومان كانت منقسمة إلى شرقية وغربية فالغربية قد أحاط بها الأمم المتوحشة بأوروبا فدمروها تدميرا وكونوا أمما صغيرة باقية إلى الآن . وأما الشرقية التى كانت عاصمتها القسطنطينية فكانت مبتدئة فى الضعف وزالت بعد الهجرة بتسع قرون لأن زوال الأمم على مقدار ضخامتها واتساعها يكون بطؤه . فأما البحث الثانى فقد لخصته فى أن الإسلام امتد إلى الجهات الأربع وأن الخلفاء الراشدين وملوك بنى أمية وطدوا الأمن فى البلاد التى حكموها وترجم العلماء فى زمن العباسيين كتب الأمم السابقة . وأما الأمم النصرانية فكانت كلها متوحشة إلا دولة الرومان. ثم إن الأمم المجاورة للمسلمين فى الأندلس وهم الأسبانيون والفرنسيون كان لهم نوع شعور بالحاجة إلى التعلم . وذكرت فى البحث الثالث أن قراءة العلوم أغذية للأمم وقراءة الدين أدوية والأمم التى تأخذ بظواهر الدين وقد جهلت أنه يسوقها للعلوم تموت لأنها لا أغذية لها والأمم التى تغتذى بالعلم ولا ترعى الدين تمرض مرضا اجتماعيا، والمسلمون أخذوا بالأمرين والأوروبيون اقتصروا على الدين وأول من تنبه للعلوم فرنسا حين دخل قواد المسلمين أسبانيا ووصلوا فرنسا حتى (نهر الوار) مسيرة ثلاثة أيام من باريس ومن هذا التاريخ تنبهت فرنسا بين المتوحشين آباء الأوروبيين الحاليين ولذلك لم يكن المسلمون يعرفون أوروبا إلا باسم الإفرنج أى فرنسا حتى كان شرلكان ملكها يود هرون الرشيد . ولما كانت أوروبا متوحشة إذ ذاك كان القسيسون يجثون بالأعراض والأموال ويسيطرون على الملوك وما كانت العروس تجلى لزوجها إلا بعد أن تزف إلى القسيس أولا وكان الرؤساء يبيعون الأرض بمن فيها من الرجال والبهائم . ولما رأى القسيسون أن دين الإسلام قد هدد سيطرتهم ونفوذهم قاموا بحركة عظيمة لحرب المسلمين ليتخلصوا من هذا الدين فكانت الحروب الصليبية هى التى انتهت بفشل رجال الدين وقيام سلطة الأمم والشعوب والحرية الحاضرة فأصلت الحرب الناس نارا حامية وقد احترق رؤساء المسيحية بنارها إذ فقدوا سلطتهم ورجع القوم بنورها حملوا الكتب من بلاد الشرق واستناروا وأخذوا يحاربون الترك جهة الشرق وأهل الأندلس جهة الغرب فاقتطفوا بعض ثمار العلوم فبعث أوروبا من مرقدها من ذلك الحين حين هاجر إليها علماء الأستانة من الدولة الشرقية وضعت هذه المدنية فى أربعة قرون تقريبا.

﴿ الشرقيون ﴾

فأما الشرقيون فإن توالى الحروب الصليبية من الغرب وحروب التتر من الشرق أضعف القرائح وأمات العلماء وأضاع الكتب وخرجت أجيال تجهل مامضى . ولكن انحطاط المسلمين الآن أقل من انحطاط أوروبا فى قديم الزمان فرجوع مجدنا أقرب من رجوع مجدهم . وقلت فى المبحث الرابع [إن الأمة العربية كانت واسطة هى ومن معها من الأمم الإسلامية فى نقل العلوم بجميع أنواعها ثم تهذيبها] وهناك فى المقالة نقلت ما كتبه العالم الكبير (سديو) الفرنسى إذ شهد لهم بتوسيع العلوم واختراع كثير من أنواعها وأنهم لم يكتفوا بما نقلوه عن اليونان وأن أوروبا نقلت عنهم وذكرت ما قرأته فى الكتاب المذكور المترجم من الفرنسية إلى العربية ترجمة المرحوم أستاذنا على باشا مبارك صفحة (٢٤٠) ولا أطيل بنقل تلك العبارة وإنما أوجز لك ملخصا منها وها هو ذا .

(١) كذب المؤلف علماء الفرنجة وهو نفسه فرنسى كما عرفت فى قولهم إن العرب لافلسفة لهم وأثبت أن جميع مدارس أوروبا فى القرون المتوسطة مستمدة من تآليف العرب الفلسفية كترجمة (حنين الطبيب) ويحيى وغيرهما .

(٢) أثبت المؤلف أن العرب زادوا كثيرا على ما نقلوه عن اليونان وكانوا يعرفون كتب (أفلاطون) و (فيثاغورس) و (أوميروس) و (ابراقليط) و (ديموقريط) .

(٣) فضل المؤلف طب العرب واستعمالهم للعقاقير عن طب القدماء بما اخترعوه هم .

(٤) ذكر المؤلف أن المؤلف (بيـل) أنصف العرب وأنهم اشتغلوا بعلم الزولوجيا . وقال أيضا المؤلف إن العلامة (دساسى) نقل فصولا من كتاب (القزوينى) المشهور .

(٥) وقال أيضا إن بحث اليونان كان فى الأجسام العضوية وهى الحيوان والنبات . ولكن العرب رقوه إلى البحث فى القوة الطبيعية والجواهر الأولية .

(٦) وأثبت أيضا أن ما ادعاه الفرنج من الكشف فى القرن الخامس عشر والسادس عشر من الميلاد كان أكثره قد اخترعه العرب من قبلهم وأثبت ذلك بأدلة كثيرة فى صفحة ٢٣٣ وما بعدها .

(٧) ذكر المؤلف كيف دخلت العلوم أوروبا بالتدريج من طريق العرب وأنها لم تدخل العلوم الرياضية بلاد الإنجليز إلا بعد ماساح سائح إنجليزى من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ فى أسبانيا ومصر وترجم كتبا كثيرة

وقلت فى الخاتمة [إن المدنية لو لم يكن الإسلام لبقيت منحطة فالرؤساء فى أوربا يستعبدون الشعب وأمم أوروبا المتمدنة كانت شديدة الوطأة حتى إن ملك (رومه) أمر باحراقها ليتمتع بمشاهدة احتراقها ثم ذلك بالنصارى فنكل ذريعا وكانوا ما بين مترفين منعمين وعبيد أذلاء]

ومن هنا نفهم كون نبى الأمة سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين إذ الخاتم مايطبع به على الشئ القابل للطبع ويظهر أثره فيه . وبالنظر فى التاريخ والتأمل بالعقل يرى أن هذه الأمة الإسلامية أثرت فى الأمم الغربية كما يؤثر الخاتم فى الورق ولذلك ظهرت النتائج فى أوروبا كما تقدم وجاء فى القرآن أنه رحمة للعالمين ولم يقل للمؤمنين فقط واعلم أنه بهذه العلوم المنتشرة فى الشرق والغرب الذى كان سببها الوحيد الأمة الإسلامية بتعليمها وجروبها المنبهة للأفكار صارت الكرة الأرضية كبيت واحد يظهر لكل واحد فى أقطار الأرض ما عليها من العلوم والمعارف حتى أصبح كل يأخذ ماتستعد له نفسه من ضعة ورفعة ودين فثبتت حجة الله على خلقه فلم يبق احتياج لرسل يأتون بعده ولم نسمع فى التاريخ أنه حصل مثل ذلك بعد نبى من الأنبياء فلذلك كان خاتم الأنبياء .

ثم اعلم أن شريعة عيسى عليه السلام جاءت بالعلم وموسى بالعمل وهذه الشريعة جاءت بالأمرين معا فكان خاتما طبع به عليهما وبقيا فى جدال مع أهل الدين الإسلامى ولقد علمت مامضى فى هذه السورة من علوم الأنبياء وصناعاتهم الخ .

(الحاصل)

(أولا) أن تقدم أوروبا فى الأعصر الأخيرة لحصول اختلاط أهلها بالمسلمين بعد الحروب الصليبية واقتباس الأوروباويين منهم المعارف والفنون .

(ثانيا) انحطاط المسلمين نشأ من طول العهد فقست القلوب وكثرت الحروب الصليبية والتتارية والحروب الداخلية فانحلت قوائم العقلية وتمسكوا ببقية من الدين ليست هى الدين كله .

(ثالثا) لا نسبة بين الشرقيين فى حال انحطاطهم والغربيين فى إبان جهالتهم إذ لا تخفى رفعة المسلمين لأن عندهم بقايا من الأصول المرعية .

(رابعا) ينتج من ذلك أنه لو لم يكن الإسلام لكانت الأمم الآن فى خمود تام لعدم مايحرك أفكار الأوروباويين والحروب التى لأجل الملك وحده لا تكون عمومية فلا تكفى لترقية الأفكار العمومية .

(خامسا) أن آثار المدنية الآن فى أمريكا واليابان والاقيانوسية وبعض أفريقية وكثير من جهات (آسيا) أكثرها عن الأوروبيين الذين استمدوا من المسلمين إما مباشرة وإما بالنقل من الناقلين فلو لم تكن أمة الإسلام لكانت هذه الأمم كلها الآن فى خمود تام وجهالة عامة «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .

هذا ملخص تلك المقالة المذكورة . وياعجبا كيف كنت أكتبها منذ عشرين سنة وأنا لم أعلم أنى يوما سأكتب فى تفسير القرآن . فالحمد لله الذى وفقنى لهذا وما كنت لأعلم منه شيئا ولم يكن ليدور بخلدى أن هذه الآية سأكتب فى تفسيرها من قبل . واعلم أن الأنبياء السابقين لم تحصل بعد من أحد منهم حركات عمرانية مثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

انظر كيف امتد البريد والبرق وأخذ الناس يتكلمون معا من بلاد بعيدة وأخذ العقل يفكر ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو العزيز الحكيم .

واعلم أن مثل المصلحين فى الأرض كمثل الماء وكمثل الهواء وكمثل الحرارة . فالماء مثلا به حياة كل شىء ولكن نراه يغرق فيه جماعة فى سفينة فيهم الأطفال الرضع والشيوخ الركع والنساء الضعيفات وهذا محتمل فى جانب منفعته . هكذا نبينا صلى الله عليه وسلم قتل فى الحروب قوما توجب الحكمة قتلهم ، ومع ذلك بقى أعقابهم جميعا فى الإسلام وعم الخير أمم المسكونة إما مباشرة وإما بواسطة فهذا لا ينافى أنه رحمة للعالمين . انتهى الأمر الأول .

(الأمر الثانى هل هذا الدين سيكون رحمة فى مستقبل الزمان وكيف ذلك)

أقول : من عجب أنى كنت كتبت مقالة فى مجلة تسمى [نور الإسلام] كانت تصدر بالزقازيق منذ نحو (٢٥) سنة ذكرت فيها حديث مسلم وهو عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء» .

تفسير الحديث فيما كتبته فى الجريدة المذكورة ورؤيا منامية

اعلم أنى كنت نائما فى ليلة ببندر الجيزة وأنا إذ ذاك مدرس اللغة العربية فى المدرسة هناك . وبينما أنا نائم ليلا إذا قائل يقول لى فى المنام مكررا ما يقوله كرة بعد كرة من العشاء إلى طلوع الفجر وكان قوله هكذا «بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا» أتفهم معناه .

اعلم أن غريبا صفة لمصدر محذوف أى بدأ بدءا غريبا أى لا نظير له وسيعود كما بدأ غريبا لا نظير له فى نشأته وانتشاره ونفعه للناس . ثم يقول هل فهمت فأقول نعم . ثم أعاد الكرة وصار يعرب ويقول إن غريبا وصف لمصدر محذوف فهو مفعول مطلق الخ . ثم يقول هل فهمت فأقول نعم . ولا زال طول الليل يقول لى هل فهمت أن الإسلام سيعود غريبا كما بدأ : أن يكون غريب الأطوار عجيب النشأة والانتشار والإسراع فى إعلاء نظام الإنسان والعدل وما أشبه ذلك ، ومازال كذلك حتى طلع الفجر . فلما استيقظت صرت أعجب من نفسى وأقول لعل هذا أضغاث أحلام لأنه كان يقوم بتفهيم فى الإعراب كما أفهم التلاميذ المفعول المطلق فى النحو وهذا أشبه بمثال من تلك الأمثلة . ثم إنى مع كثرة ترددى فى الأحلام لا سيما أنك تعلم ماتقدم فى سورة (يوسف) من أن الأحلام يكاد لايصدق فيها إلا النادر الذى هو كالكبريت الأحمر ومع هذا كله رأيت فى وجدانى معانى تختلج وفكرا يختمر ولم أجد سبيلا أحفظ به هذه الفكرة خيفة ضياعها إلا أن أنشرها فى مجلة [نور الإسلام] بصفة أن هذا المعنى من عندى فلا رؤيا ولا أحلام . ولما نشرت رد عليها بعض الناس وانتهى الأمر . ثم إن أحد الفضلاء كتب فى جريدة الأهرام هذا المعنى وذلك أثناء طبع هذه السورة وقال : لعلى قرأته من قول فلان أو فلان وعد نحو خمسة فى عصرنا فحمدت الله عز وجل إذ أصبحت هذه الفكرة معلومة ثم نشرت بين الناس ليعرفوها . فلما جاء تفسير الآية وأنا سائر فى التفسير تبدى لى أن أكتبها معللا ذلك لأن الله ألهم بعض الناس فنشرها فى الجرائد فلم أجد بدا من ذكرها هنا وتبيان مصدرها ومن أين أقبلت إلى نفسى حتى نشرتها فى مجلة [نور الإسلام] منذ أمد بعيد .

واعلم أن أمة الإسلام أيام تلك الرؤيا والنشر أعنى منذ نحو (٣٦) سنة لم تكن فيها أمة مستقلة إلا الترك وكانت قد أشرفت على الموت . أما الآن فان الأفغان استقلت والترك خلقت من جديد والفرس كذلك وهكذا مصر تجاهد للاستقلال ومثلها مراكش وهكذا أهل الهند يجدّون الخلاص من ذل الاستعمار .

هذا هو الذى تم فى العالم الإسلامى منذ الرؤيا إلى الآن . ولتعلم أيها الذكى أن هذا المقام ليس مقام الرؤى بل هو مقام الحكمة والعلم والعقل . واعلم أن الله قد حكم أن يجعل الرفع بعد الخفض والحياة بعد الموت وكل ضد بعده ضده والمسلمون كانوا فى ارتفاع ثم ناموا ثم هم الآن قد وصلوا إلى أدنى دركات الانحطاط فهذا بعد المرض إلا الصحة . وهل بعد الموت إلا الحياة . وهل بعد الضعف إلا القوة . إن الله يجعل الضد بعد ضده . وإذا صحت هذه القاعدة طبعا فلنطبقها على المسلمين ولنقل إن هذا الزمان هو زمان ارتفاعهم . إنى والله بشرت بأكثر من هذا فى المنام ولكن لا سبيل لذكره الآن فلست أعول إلا على العمل والفكر وهذه الرؤى لما كان يداخل الإنسان الشك فى صحتها وأنها ربما كانت حديث نفس . كنت لاأعول إلا على الوجدان ولعل الوجدان انبعث منها أوهى من الوجدان أوهما متلازمان . أقول فأنا الآن أعمل على هذا الأمل وهذا الأمل ألفيته ملازما لى منذ الصبا ولا فرق فى اعتقادى ووجدانى بنجاح الأمة الإسلامية بين زمن الشباب وزمن الشيخوخة بل إنى أجد الوجدان الآن فى قلبى أشد منه فى كل وقت فأنا أكتب وأنا واثق أن الأمم الإسلامية سيظهر فيها مفكرون وعلماء محققون وقضاة أرقى ممن سبقهم بعد العصر الأول ودول وممالك أمم وأعم وأنهم يكونون شهودا على الأمم يقضون بينهم بالحق ويعدلون بالصدق ويكونون خلفاء الله فى الأرض وإذن يكونون رحمة للعالمين . إن المسلمين لن يكونوا رحمة للعالمين رحمة تامة إلا إذا قرءوا كل علم وكل صناعة وأتقنوا فروع النظم العامة فى الكون فإذن يصبحون قادة الشعوب قيادة رحمة ممزوجة بالحزم ويكونون هم أنفسهم جمعية الأمم القاضية بالعدل فالناس كلهم عيال الله وأفضلهم من قام بشأن هذه العيال

﴿ امتياز أمة الإسلام ﴾

ثم إن أمة الإسلام تمتاز بأن العلوم والصناعات إذا قرأتها وعملت بها يكون كل ذلك باعتبار أنه أوامر دينية . فمتى دخل المسلمون فى هذا الطور وأن كل علم وكل صناعة وكل زراعة وكل تجارة وكل معدن وكل حكومة وهكذا كل ذلك من أعمال الدين. وأن سكة الحديد والتلغراف والكهرباء وعمل الآلات الحربية كل ذلك وغيره عبادات دينية والقائم بها قائم بعبادة شرعية وأن ذلك وإن لم يكن كالصلاة فى فضلها فان له فضلا آخر أشبه بفضل الجهاد . فاذا عرف المسلم ذلك ولقنه فى صغره وأن القائم فى كهربائيته والمجرى لقطاره والصانع فى صنعته والزارع فى مزرعته والتاجر فى تجارته . هؤلاء متى كانوا مجدّين صالحين يكونون فى عبادة ورضاء الله ولكن أفضلهم أعمهم نفعا . إذا عرف ذلك المسلم فإن الأمة تكون فى طور لم تحلم به من قبل ولم تحلم به أمة فى الأرض ذلك لأن أرباب الأديان الأخرى غالبا لا يعملون هذه الأعمال باعتبار أن الدين يأمر بها كلا بل يقولون إنها أعمال دنيوية أما فى الإسلام على مقتضى هذا النمط القرآنى فان العلوم كلها عبادات وهكذا الصناعات وأن العلوم الطبيعية هى العلوم التى يوصل الفكر فيها لله ويقرب العبد من ربه . ذلك هو المثل الأعلى فى الإسلام . وإنى أرى أن نشر هذا التفسير وأمثاله من كتب الفضلاء من الأمم الإسلامية سيجعل فى الإسلام أمة لم يحلم الدهر بها . ألا ترى كيف جمعت هذه السورة من قصص الأنبياء ما جمع كل فضائل الدين والعبادة . ألم تر كيف رأيت داود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث أن القضاء اتبع فيه ما هو أصلح للمتقاضين وان كان الحكمان اعتبر فيهما المماثلة ولكن الرفق بهما كان فى الثانى أكثر وهو حكم سليمان عليه السلام . فالقضاء أشبه بالطب فقوم يداوون بالماء الحار والاستحمام به . وقوم يداوون بالحرارة الشمسية . وقوم بالهواء وقوم بتعاطى الدواء . وقوم بالحمية ويكون ذلك كله لمرض واحد . ولكن الطبيب الحاذق من يراعى حالة المريض وأىّ هذه أوفق له بحيث لا يعود الدواء على المريض بالضرر . هكذا القضاء فيجب أن يكون القاضى مجتهدا أى عالما بالمذاهب الإسلامية والخلاف فيها ثم يحكم بأقربها لحل التخاصمين ولزمانهم ولا يجمد على قول واحد أو مذهب واحد كما لم يجمد داود على الرأى الأول وهو نبى فكيف بمن ليس بنبى ؟.

لعمرى إن الله ما أنزل هذا إلا لتعليمنا كيف نسير فى القضاء ولا أنزل ما بعده إلا ليعلمنا كيف نقوم بعمارة المدن ونتعلم العلوم ونصبر ونشكر ونعف عن الحرام إلى آخر ما ذكرناه فيما تقدم والله هو الولى الحميد

وأما قوله ﷺ « فطوبى للغرباء » معناه أن هؤلاء الغرباء الذين بدأ بهم الإسلام غريبا غرابة لم يعهد لها نظير سواء أكان فى بدئه الأول أو فى نشأته الأخرى فى هذه الأيام طوبى لهم فلهم فى الدنيا الرفعة والسؤدد ولهم فى الآخرة النعيم لأنهم رحمة للعالمين. قاموا مقام نبيهم ﷺ ورحموا العالم الإنسانى لأن الراحمين يرحمهم الرحمن ويزفون إلى نفوسهم ثم إلى العالم كله أبكار العلوم والمعارف ويصيحون صيحة أخرى أوسع من الصيحة الأولى يدوى صداها فى الخافقين . هذا آخر القول فى تفسير قوله « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

ثم قال تعالى (قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون : فان تولوا) أعرضوا عن التوحيد (فقل آذنتكم) أعلمتكم ما أمرت به (على سواء) مستوين أنا وأنتم فى العلم بما أعلمتكم به (وإن أدرى) أى وما أدرى (أقريب أم بعيد ماتوعدون) من غلبة المسلمين عليكم والحشر ومع ذلك فهما كائنان لا محالة (إنه يعلم الجهر من القول) ومنه ما تجهرون به من الطعن فى الإسلام (ويعلم ما تكتمون) ومنه إحنكم وضغائنكم على المسلمين فيجازيكم عليها (وان أدرى لعله فتنة لكم) أى وما أدرى لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة فى افتتانكم وامتحانكم لينظر كيف تعملون (ومتاع إلى حين) أى تتمتعون إلى انقضاء آجالكم (قال رب احكم بالحق) وفى قراءة « قل رب » والأولى على حكاية قول الرسول ﷺ أى رب اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل أى بما يظهر العدل الجميع وذلك لا يكون إلا بنصرى عليهم وهذا استعجال للعذاب

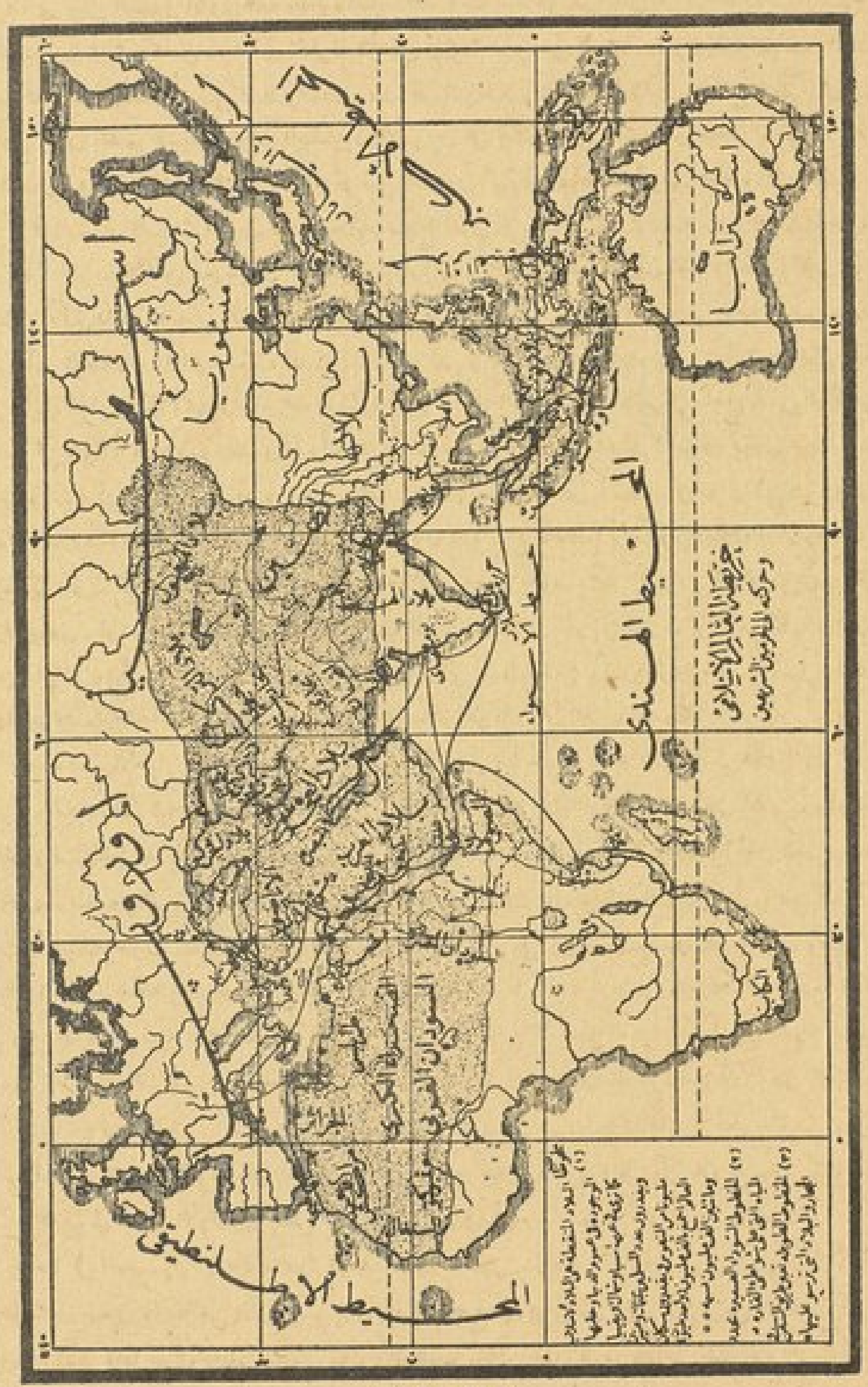
فعذبوا يوم بدر (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) من الشرك والكفر والكذب والأباطيل والسخرية إن الله أمره أن يدعو الله بأن يحكم بما يظهر الحق للجميع ، وأمره أن يتوعد الكفار بقوله « وربنا الرحمن المستعان » الخ أى نستعين به الخ . تم تفسير سورة الأنبياء اللفظى ليلة السبت ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤ و٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣ وقد سنحت هذه السانحة عند الطبع وهى :

جوهرة فى قوله تعالى « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون »

أكتب هذا هذه الليلة السبت (١٢) من شهر مايو سنة ١٩٢٧ قبيل الفجر وأمامى هذه الخريطة التى رسمها صديق لبيب بك البتنونى فى كتابه (الرحلة الحجازية) مبينا فيها بلاد الإسلام فى وقتنا الحاضر تلك البلاد المترامية الأطراف فقلت فى نفسى هذه بلاد الإسلام . فيا ليت شعرى أين مكان هذه الأمة من هذه الآيات . يقول الله إن الأرض يرثها الصالحون من عباده وهذه الأرض هى التى كان فيها الأنبياء المذكورون فى القرآن فى هذه السورة وفى غيرها فهمّ إبراهيم الذى كان فى بابل وهاجر إلى الشام وسافر يوما ما إلى مكة وداود بالشام أيضا ومثله سليمان ، وأما يوسف فقد كان بمصر وموسى وهرون كذلك بمصر وبالشام وهكذا زكريا بالشام ومثله يحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل بالحجاز. وأما يونس فكان فى نينوى ولوط بالشام ونوح بناحية الجزيرة وإدريس نبى المصريين القدماء فهؤلاء هم الأنبياء وهذه هى بلادهم وما هى إلا بعض هذه الخريطة التى يملكها المسلمون . إذن المسلمون ورثوا الأرض التى كان فيها الأنبياء المذكورون فى هذه السورة وفى غيرها أى أن الله ذكر كثيرا من الأنبياء فى هذه السورة ثم أعقبها بقوله « إن هذه أمتكم أمة واحدة » ثم قال أخيرا إنه لايرث أرضى إلا عبادى الصالحون ثم نظرنا فلم نجد أحدا ورث أرض هؤلاء الأنبياء إلا المسلمين الذين تراهم فى هذه الخريطة . هذا هو الذى أراه الآن أمامى وتراه أنت أيها الذكى ولكن تنظر نظرة أخرى هل المسلمون الحاليون قاموا بإصلاح هذه الأرض وهل هم يستحقون هذا الميراث حتى يدوموا فى هذه الديار التى ورثوها . يقول الله « ولله ميراث السموات والأرض » ويقول فى آية أخرى « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فالميراث لله وهو يعطيه لمن يشاء من عباده . ومعلوم أنه حكيم والحكيم لا يعطى إلا لمن يستحق ويمنع من لا يستحق (انظر الخريطة فى الصفحة التالية شكل ١٤)

خريطة

(خريطة العالم الاسلامى)



(شكل ١٤)

فلتنظر فى هذه الخريطة وتعرضها على هذه الآيات ترى الله يقول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وأعقبه بذكر أنه إله واحد . فالنبى صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة وأرسل للتوحيد فأمته أمة موحدة والتوحيد

يكون تمامه وكماله الاتحاد فى الأعمال وفى النظام العام وقد تم هذا فعلا، فقد كانت هـذه البلاد التى أمامك فى الخريطة فى بعض العصور الأولى تحت نظام واحد، فقد كانت تمتد من مراكش بل من الأندلس وتنتهى إلى بلاد الهند وذلك نحو ثمانين درجة فى الطول فتأمله . حقيقة هذه هى الرحمة . أمم مختلفة اللغات والأحوال تجتمع تحت قيادة واحدة وتصلى لقبلة واحدة . هذا هو التوحيد وهذا هو النظام . ولكن انظر ماذا جرى قام أهل الدين بعضهم على بعض فغلب العباسيون الأمويين على الملك فتمزق الشمل وأخذت الأطراف تنفصل من الأصل وهكذا واستمر ذلك إلى اليوم ثم نسى المسلمون أنهم أمة واحدة وتمزقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض . فماذا جرى ؟ جاءت الحرب الصليبية أيام صلاح الدين الأيوبى فما كان للمسلمين إذ ذاك جامعة قوية بل كان ملوك المغرب الأقصى غير مبالين بما جرى لإخوانهم فى الشام ومصر مع أن الأمة واحدة والدين واحد والقبائل أكثرها عربية ، ثم نظر فى أمر هذه الأمم فى أيامنا هذه ها أنا ذا فى مصر وجدت فيها ونظرت فى أمر أمم الإسلام . فماذا وجدت ، ألفيت أبناء مراكش وأبناء الجزائر وأبناء تونس وأبناء طرابلس وأبناء مصر وأبناء الشام وأبناء اليمن وأبناء نجد وأبناء الحجاز وأبناء البحرين وأبناء العراق وأهل السودان المصرى، وجدت كل هؤلاء لهم دين واحد ولغة واحدة وبلاد متصلة ولكن وجدتهم لايعرف بعضهم بعضا . تقوم الحرب فى مراكش أو فى مصر أو فى الجزائر فلا يهتم مسلم عربى بما حل بأخيه المسلم العربى من شؤم وذل مع اتحادهم (لغة ودينا وأصلا وتجاورهم ديارا) فهم متحدون فى (أربع خصال) ولكنهم يجهلون مابه تواصلهم وهم متخاذلون . وإذا كان هـذا فى أبناء العرب وحدهم فكيف يكون الأمر فيهم مع غيرهم من أمم الفرس والترك وأهل جاوه وسومطرة تلك الأمم الإسلامية البعيدة الأقطار . ثم إنى نظرت فى الأمم كلها فرأيت أمم الصين واليابان والأسبان والفرنسيين وهكذا متحدين : أى أن الناطقين بلسان واحد وهم من أصل واحد قد جعلوا لهم مملكة واحدة فعجبت كل العجب لأمم الإسلام عموما ولأمم العرب خصوصا .

وقد جاءت الأخبار يوم الجمعة ١١ مايو سنة ١٩٢٨ بما حصل فى بلاد الصين . تلك البلاد المترامية الأطراف البعيدة الأكناف التى انقسم أهلها إلى (فريقين) فريق أهل الشمال وفريق أهل الجنوب وقد تخاصم الحزبان واقتتل الطرفان لإصلاح البلاد . ولما أراد أهل اليابان التدخل فى أمرهم وحاربوا أهل الجنوب وقالوا إنما نحتل أرضا بين الفريقين ليبطلوا الحرب بينهم ، لما قالوا ذلك ماوسع قائد الشمال إلا أن أعلن أنه أبطل الحرب لأنه إنما يحارب لحفظ البلاد وإن تدخل اليابان أوجب على أن أصطلح مع أبناء بلادى . ومعنى هذا أن ذلك القائد يريد فعلا أن ينضم إلى خصمه لأنه لايريد أن يدخل العدو أرضهم وهذه مكرمة عظيمة وشرف نفس وهمة عالية وهم استفاد هذا سواء أتم مايقوله أم لم يتم فنحن لا نعلم الغيب . أقول إن القوم استفادوا هذا من العلم إن العلم هو الذى يجعل الأمم متحدة . أعد نظرك فى الخريطة مرة أخرى وانظر بلاد الصين التى أرادت أن تتحد اليوم . ألست ترى أن بلادها تمتد نحو ثلاثين درجة أمامك فى الخريطة من درجات العرض أى من نحو درجة (٢٠) فى العرض الشمالى إلى درجة (٥٠) ثم انظر إلى بلاد الإسلام كرة أخرى كيف اتحدت فى العصر الأول وفى بعض الثانى وهى تمتد فى درجات الطول نحو سبعين درجة .

ياعجبا كل العجب إن الاتحاد وعموم الرحمة المحمدية ظهر بكماله فى القرون الأولى كيف تكون أمة واحدة تشغل سبعين درجة من الأرض . إذن الإسلام جمع أمما فى أرض أوسع من أرض الصين أكثر من مرتين أما الآن فماذا جرى تخاذل المسلمون ذلك والله الجهل ذلك الجهل الذى خيم على أقطار الإسلام ، وأذكرك بما تقدم فى هذا التفسير أن أبناء العرب لما طردهم الأسبانيون من الأندلس ورجعوا إلى شمال أفريقيا نبذهم أبناء البربر هناك نبذ النواة وحقروهم أجمعين ولم يقبلوهم إلا بعد أن أخذوا أموالهم ، وتقدم أن (سديو) الفرنسى قال [مع أنهم أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد وكانوا أمة واحدة] أقول وهذا قوله تعالى

إن

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال »

ظهر الحق أيها المسلمون . أنتم قوم لم تتعلموا والذى أضر بنا أننا قوم جاهلون نائمون . ظن كثير من أسلافنا أن المقصود من الخلافة أو الإمارة إنما هو أن يعيش الأمير أو الخليفة عيشة الترف والنعيم والثمرات تجبى إليه ولم يعلموا أن نفس الترف هو الداعى إلى سقوط الأمم والأسرات فى الذل والهوان .

اللهم إنى أبرأ إليك من الكتمان . اللهم إنى بينت فى هذا التفسير داء المسلمين ودواءهم فى أكثر سور كتابك . اللهم إنك أنت الملهم للعلم . ولقد بحثت فى نفسى شوقا قلبيا وغراما وولوعا بالنظر العام فى أمم الإسلام فها أناذا أدعوهم إلى العلم والحكمة . اللهم إنى أخاطب بهذا كل ذكى مطلع فاهم ما أقول . اللهم إنى أنذرت وحذرت وأنا تارك هذه الأرض وذاهب إليك ، وقد تركت هذه الآراء لأذكياء المسلمين فأصبح كل من اطلع على هذا القول وفهم ما أقول وأيقن به مسئولا عن نشره بين المسلمين عموما بلسانه وبقلمه وبماله وبأصحابه وبأهل وطنه .

أيها المسلمون . مافرقكم إلا الجهل وهذه البلاد التى ملكتموها شرقا وغربا إذا بقيتم على ما أنتم عليه من الجهل أو قال كل امرئ منكم : يارب نفسى نفسى وترك حبل الأمة على غاربها فاعلموا علما ليس بالظن أن الله يسترد منكم ميراثه الذى ورثكم إياه . ألم تعلموا أنه هو الذى أدخل فرنسا وأسبانيا فى مراكش ، وفرنسا فى الجزائر وتونس ، وإيطاليا فى طرابلس ، والانجليز فى مصر ، والفرنسيين فى الشام وإنما أدخلهم فى هذه البلاد الإسلامية ليوقظكم أيها المسلمون إلى قراءة التاريخ والعلوم . هنالك تعرفون أن لغتكم ودينكم وأوطانكم وأصلكم واحد ولكنكم لم تتعلموا ، ومن تعلم منكم لم يفكر فكرا عاما فى هذه الأمم ولم يخجل أبناء العرب أن يروا الصين المترامية الأطراف قد مالت للاتحاد وذلك بالعلم . اللهم إن كل من قرأ هذا التفسير وهو موقن به مسئول عن نشر الفكرة فليعلن للمسلمين فى أقطار المعمورة أن يعم التعليم الرجال والنساء وأن يكون شاملا لخلاصة التاريخ والجغرافيا وسائر العلوم الرياضية والطبيعية والسياسة العامة ، وليعلم أهل السنة والشيعة والزيدية والوهابية وغيرهم أن هذا التنابذ والتباعد بين الأمم الإسلامية سببه الحقيق هو الجهل ، الجهل هو الذى أحاط بالمسلمين . وإلا فكيف نسمع ما يخجل فى أمم الإسلام إذ يشاع من وقت لآخر أن يقال إن أصحاب مذهب من المذاهب الإسلامية يكفرون أصحاب المذهب الآخر ويستحلون قتلهم وأخذ مالهم وهذا حصل فعلا فى أوقات مختلفة جهالة وغرورا بل إن بعض أبناء العرب أنفسهم يكفر بعضا آخر لأجل المخالفة فى بعض أمور دينية .

واعلم أن اختلاف الأمم العربية فى القرون المتأخرة لا يختلف عن اختلافهم أيام جاهليتهم وقد أوضحت هذا فى سورة (آل عمران) إيضاحا تاما ، فالجاهلية من العرب كانوا مختلفين وهكذا جاهلية المسلمين اليوم فهم مختلفون إما لمذهب اتبعوه أو لرأى أحبوه أو هوى لزموه .

أيها المسلمون ، أليس فيكم رجل رشيد . أليس فيكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى هذه الأرض التى ملكتموها ، اسمعوا يا أبناء العرب خصوصا ويا أيها المسلمون عموما . هاهم أولاء الفرنجة يحيطون بكم من كل جانب . وقد ملكوا كثيرا من بلاد أبناء العرب ومن بلاد غيرهم أنذركم صاعقة العذاب الهون عذاب الخزى فى الحياة الدنيا وأنذر كل ذكى عالم موقن بما أقول ، إنهم إن لم يجمعوا شملهم ويلموا شعثهم ويعلنوا على رؤوس الأشهاد التعليم العام الذى ذكرته فى هذا التفسير كما تعلمت جميع الأمم فان الله يغضب غضبة لا تقوم للمسلمين الحاليين قائمة بعدها ويملك أرضكم ودينكم لمن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وليس هذا الدين حاميا بكم فقد أخذ ينشره الله الآن فى بلاد أمريكا واليابان والصين ، فاذا أنتم لم تسمعوا ما ذكرته لكم وهو

الإرشاد التعليم العام فالعذاب واقع ماله من دافع أى عذاب الخزى فى الحياة الدنيا بالاحتلال ثم الاحتلال وأشد العذاب يكون واقعا على أولى العلم والجاه . الذين يعقلون هذا ولا ينشرونه بين المسلمين .

هذا، وأختم هذا المقال بأنه لولا أنى قد بشرت من الله بما يفيد قبول دعوتى للمسلمين ولولا أنه هو بعد هذه البشارة وفقنى لكتابة هذا ولولا أنه هو الذى وفق أناسا لطبعه ونشره ولولا أنه هو الذى حبب كثيرا من المسلمين فى قراءته . أقول لولا أن الله هو الذى فعل ذلك كله ماقدرت على شىء من ذلك . أفلست على حق إذا بشرت دعاة الإصلاح من قراء هذا التفسير بالنجاح والفلاح . بلى إننى أبشرهم بالسعادة وبالنجاح والإصلاح والقبول والحمد لله رب العالمين .

تذكرتان : الأولى فى قوله تعالى «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج» الخ

أذكرك أيها الذكى بما تقدم فى سورة (الكهف) فهو هناك مستوفى .

[الثانية] فى قوله تعالى « إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين » وبيان أن هذه العبادة هى الواردة فى قول المصلى «إياك نعبد» وهذه الجملة جاءت بعد بيان أن الحمد يختص بالله رب العالمين وهذا الحمد لايتم إلا بقراءة علوم هذه الدنيا ولا يكلف الله نفسا فى هذه العلوم إلا وسعها اه .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء العاشر من كتاب (الجواهر)

فى تفسير القرآن الكريم

ويليه

الجزء الحادى عشر، وأوله : تفسير سورة الحج

فهرس

الجزء العاشر من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

صحيفة

لشاب في سن التاسعة عشرة في جزائر (زيلنده) إذ اتفق مع أصحابه أن يذهبوا صباحا للصيد في جزيرة في البحر فسمع هاتفا يحذره من الذهاب معهم فامتثل وغرق أصحابه ضحى . هكذا السيدة (كايدلى) وقت الاستحمام سمعت هاتفا حذرها فنجت من الهلاك .

١٣ القصص في التعليم أشبه بالكهرباء . والعقول في قبول العلم (قسمان) سريع وبطىء كالأجسام في قبول الكهرباء . القصص كالأحلام صادقة وكاذبة والكاذبة أكثر والصادقة كقصص القرآن .

١٤ الأذكياء والبلداء من بني آدم يحبون القصص وهذا القصص يورث التعجب ، وكلما كان التعجب أكثر كان الإنسان أقرب إلى العلم بمقداره وبضدها تتميز الأشياء . فالقصة تقوى الخيال في الصغر وبهذا يستعد العقل للعلم في الكبر . وبيان ملخص ما جاء في السور السابقة على (مريم) من ذكر العلوم الطبيعية. وبيان أن عجائب السموات والأرض أرقى من هذه القصص لأن علم الله لا ينتهي وأن التلميذ إذا تعجب من أمر عيسى يقال له فلتعجب إذن من الأشجار فمنها ما يلحقه الهواء كالسنط والغار . ومنها ما يلحقه الحشرات كأشجار الفاكهة وذكر الذبابة التي تدخل الزهرة لتستدفىء فتكون سببا في الإلقاح ثم تخرج وهكذا ذكر نوم الزهر واستيقاظه مختلفا باختلاف أنواعه مقدرا باستيقاظ الحشرات ونومها . فهذا كله أعجب من أمر عيسى مثلا الذى ذكره الله في القرآن ليفتح للعقول هذا المجال . إذن عجائب الطبيعة تفوق الوصف وما خرق العادات إلا إيقاظا لأمثال هذا .

١٧ كيف تقرأ سورة (مريم) و (الكهف) في الزهر . وكيف ذكر الله النخلة رمزا لذلك . وبيان أن امتياز النخل انفصال ذكوره عن إناثه يماثل امتياز مريم عن النساء بأنها حملت بلا ذكر وبقية النبات تجد ذكرانه وإناثه في زهره في نبات أو زهرتين فيه وهكذا وهنا (ثلاث جواهر: الجوهرة الأولى) في قوله تعالى « ذلك عيسى ابن مريم » الخ وبيان أن احتياج الأنثى للذكر عام لأجل النسل ولو بطريق عالم المثال كمريم، وأن في عالم الحيوان مملكة عظيمة تقوم الأنثى فيها بالحمل والتربية بلا ذكر فلاندرى هل تمثلت ذكرا كمريم أم فيها قوة الإناث وقوة الذكور ، إذن الله يقول للناس إن المألوف عندكم يجب أن لا يحكم عليكم . ألا ترون مريم ونظيرها في المملكة الحيوانية المحار والودع وأم الخلول . وبيان وصف حيوان المحار وأنه ذو (ثلاث رتب) ذو الصدفة وذو الصدفتين وكثير الصدف وجميع أنواعه تقوم الأم فيها مقام الأب والأم معا كمسألة مريم وبيان نظام هيكل هذا الحيوان وبيان أن دمه عديم اللون وأن له عرقا يوصل الدم إلى أعلى وعرقا يوصله إلى الكبد وعرقا يوصله إلى سائر الجسد وله أمعاء وكبد وقلب له أذينان وبطينان مثل كل حيوان .

١٩ وأن الحيوان الواحد منه قد يبيض ألفي ألفي بيضة وهذا البيض لا تراه العين وربي كما يربى بيض الدجاج ويمكث أولا في طيات غشاء المحار الذى لا تراه العيون ثم تلفظ الأم عند الفقس جميع صغارها في الماء وهذه الصغار التي لا تميز إلا بالمنظار المعظم تسبح في الماء بشعور دقيقة وتحتمى بأمها من نوائب الدهر ، ومتى كبرت أزالت تلك الشمرات ولصقت ببعض الصخور والأحجار ، ومن المحار (الودع).

(الجوهرة الثانية) في عجائب العلم الحديث وبيان توليد الحياة بطريق كيمائية . ذلك أن المستر (مازور) يقول إنه أخذ مجموعة من بيض (القوقعة) ومزجها بالكالسيوم فأصبح الجميع بعد أيام قوقعات طبيعية حية . ويقول إن هذه تثبيت نظرية التولد الذاتي وتدحض ما يسمونه مذهب (داروين) . ويقول أيضا إنه مزج الغراء المعروف (بالماء المقطر) مع حمض الفنيك وعلى الجميع على النار فلما برد صار خلايا صناعية الخ .

صحيفة

٢١ وبيان أن هذا القول إن صح فلم يفعل شيئاً أكثر مما قاله علماؤنا ، إن كل حيوان خلق أولا فى خط الاستواء إذ كانت الأحوال ملائمة وقد فات ذلك الآن وهذا الشاب يقول إنه ركب تركيبا يناسب تلك الأحوال بعض المناسبة ، وتبيان أن الله كأنه يوبخ المسلمين بقصة عيسى التى ظهر سرها على يد المسيحيين ، فالمسلمون كانوا أولى بذلك من الأستاذ (لوب) الذى بحث حيوانا بحريا نسميه فى مصر (ترسا) إذ أخذ بيضه وصب عليه لقاحا ممزوجا بماء البحر ففقس . وهكذا فعل فى حيوان يسمى (التوتيا) إذ ينمو بغير تلقيح . وهكذا فعل فى الضفادع . إذن أثبت أن الحيوان له أمّ وليس له أب كما تقدم فى (المحار) هنا وكما تقدم فى أول سورة (الأنفال) من وجود حشرة لا أب لها غالبا .

٢١ سر وجود الكهرباء والأرواح . وبيان أن الكهرباء فى كل مكان ولا تظهر إلا بالتفاعل . هكذا النفس الكلية المحيطة بالأكوان لا تظهر إلا إذا حصل التفاعل فى أجسام فاستعدت لظهورها والكهرباء أنتجت سالبا وموجبا والحيوان جاء ذكراً وأنثى وهكذا النبات . وكما تختلف الكهرباء قوة وضعفا عند ظهورها هكذا تختلف الأرواح . فالمدار إذن على الاستعداد بذلك التفاعل .

(الجوهرة الثالثة) فى قوله تعالى « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب » الخ . بيان أن كل دين نزل من السماء فى أرضنا يختلط بأوهام الناس وخرافاتهم على مدى الزمان كدين (زردشت) وديانة المجوس والآشوريين والبابليين وخريستا بالهند وقبله البراهمة وقبلهم (كتاب الفيدا) الخ فلذلك أنزل الله هذا الدين . وتبيان ما قاله اللورد (هيدلى) الإنجليزى فى تأليفه المسمى (إيقاظ الغرب للاسلام) فى شأن المسيح وصلبه وأن هذا الصلب وروايته منقولة من لوحين بابليين مكتوبين بالخط الآشورى عثر عليها الألمانيون سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٠٤ فى بلاد الآشوريين وفيها أن (بيل) سيق أسيرا وحوكم وضرب وتألم ومعه شريران ، ولما صعد على الرابية زلزلت المدينة وأخذوا ملابسه وبكت عليه امرأة ثم رجع إلى الحياة فى يوم صار عيدا أكبر عند البابليين . وهذه القصة هى قصة المسيح سواء بسواء . وهنا قال اللورد هيدلى (من أين أتت عظمة المسيحية وقد رأينا روايته موجودة قبل ظهوره بألف سنة) وهنا خاطب أوروبا كلها قائلا (هذه حكاية من حكايات ملاجىء الأطفال ولا خلاص لكم بآلام المسيح بل بعملكم الروحى بأنفسكم كما جاء به الإسلام) .

٢٥ بيان أنى أنا (مؤلف التفسير) قد اجتمعت به وذكر لنا تاريخ حياته ، وبيان أن هذا هو الزمان الذى ظهر فيه سر قوله تعالى « ثم إن علينا بيانه » وقوله « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وأن الأستاذ (سنتلانه) الطليانى أبان أن فلاسفة أوربا لم يصلوا لعشر معشار ما عرفه (سقراط) و (أفلاطون) فى مقصود الفلسفة الحقيقية وهو معرفة الله والنفس ونحو ذلك وأن نبوغهم إنما هو فى الأمور المادية الحيوانية وأن نسبتهم إلى أولئك كنسبة البقة إلى الفيل . ولذلك قلت (يا أمة الإسلام . ديانات الأمم اليوم خرافاتهم باقرارهم هم وعلمائهم . فعلينا إذن أن نقرأ كل علم ونعلم الأمم ديننا ممزوجا بالعلم فان بعض أسلافنا الشرقيين حملوا دينا مخلوطا مشوّها وأتوا لهم بنبى لم يصلب ولم يضرب وقالوا لهم قد صلب) جوهرة فى قوله تعالى « ما كان لله أن يتخذ من ولد » إلى قوله « مستقيم » .

٢٦ وبيان أن هذه الآية متصلة بآخر سورة (الإسراء) وأول (الكهف) وآخرها وأول سورة (مريم) إذن اتصلت السور الثلاث بهذه المعانى المتحدة . وبيان أن القول هنا هو عين الكلمة فى سورة (النساء) والكلمة إحدى كلمات الله التى فى آخر سورة (الكهف) ولا نهاية لها . فما عيسى إلا كلمة واحدة

صحيفة

من كاتنه ، إذن هو كثيره فى كونه كلمة وقد تجلت عظمة الله فى هذا العصر . كيف لا والجوزاء أكبر من شمسنا (١٥) ألف ألف مرة ، وبيان ماترتب على جهل الإنسان قديما وحديثا .

٢٧ كلمات الله مطربات منعشات ولكنها تدرك بالبصر وكلمات الإنسان تدرك بالسمع أعنى أن هذه العوالم منظمات مطربات بنظامها للمفكرين وحدهم كما أطرب الصوت الناس أجمعين . وضوح جهل الإنسان فى العصور السابقة . بحث عن ربه بنظر لا يزيد عن نظر الخفش فظنه المسيح ابن مريم مع أن الأرض ومن عليها من المسيح وغيره كلمة من كلماته التى لانهاية لها وهذا قوله «قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم» الخ . فالأمم قبلنا لم يتعدوا المخلوق إلى الخالق لأنهم رأوا كلمة من كلمات الله أطربتهم بمعجزات وحكم لا بنغمات صوتية شجية فحصروا فيها أفكارهم كما فتن أهل الهند بوذا وأهل بابل وآشور فتنوا بمن يسموه ابن الله وكذلك أهل (المكسيك) . وهنا عجب ، تشابهت قلوب الأمم تثليثا ونبوة وصلبا .

هذه جهالة الإنسان فى (٥٠) ألف سنة أو (٣٠٠) ألف سنة .

الإسلام أخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور . كسر الإسلام الأصنام كما فعل الخليل . إذن ننظر لكل حجر وشجر وحشرة ونقول إن جمالها دال على جمال خالقها ولا نقف عند شىء منها ولو أن الشمس ظلت معبودة لم يعرف الناس هذه الكواكب العظيمة التى هى أكبر من الشمس بمقدار آلاف الآلاف ، وأيضا ظهر للناس أن الاعتقاد بابن لله خدعة من خدع العقل كانخداع العين فترى النور الصغير فى ظلام الليل كبيرا ، وهذا القول ينطبق على المفكرين ؛ فأما عامة المسيحيين فلازالوا على ماكان عليه آباؤهم ولو كان عيسى أو غيره ابنا لله لوجب علينا أن لانتعدى قوله إذن نقرأ كل علم لرقينا . وترى الجهال من المسلمين وقفت عقولهم على بعض شيوخ الصوفية الجاهلين أو على بعض الآراء . وترى الفقيه يرى الفقه كل شىء وهكذا . اقرأ هذا المقام فى سورة (آل عمران) عند قوله تعالى «وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون» وبيان أن من وقف على مذهب واحد ولم يرفع رأسه إلى أصل الدين ونظام هذا العالم فهو مغرور والمسلم له إخوان فى دينه وإخوان فى وطنه وإخوان فى نوع الإنسان كله ، وهكذا نجد المسلم أنه مرتبط بالحيوان والنبات والعوالم الساكنة فى السموات ويدرس الكواكب ليشتاق إليها ويعلم أن هناك رابطة بيننا وبينها .

تفصيل لبعض الإجمال .

٣٠ الموسيقى فى الأصوات ، وبيان أن الفرنجة جعلوها من العلوم الطبيعية والمتقدمين جعلوها من العلوم الرياضية ، وبيان تاريخ الموسيقى كأخذه عن العندليب والهزار والهواء الداخل فى المنافذ وطرق الصين والروم ، والآلات وهى [قسمان] ذوات الأوتار كالعود وذوات النفخ كالأرغن ، ويجمعها الطبل والمزمار .

٣١ آلات الصوت فى الإنسان سبع أولها تجويف الصدر وآخرها الأنف ، مجال السمع الإنسانى ١١ ديوانا ولكن المجال الاعتيادى عشرة دواوين من (١٦) موجة فى الثانية إلى ١٦٫٣٨٤ فيها وليس للموسيقى إلا السبعة الأولى منها من ٣٢ فى الثانية إلى ٤٠٩٦ . خلق الجنين فى رحم أمه جار على هذا المنوال فيضته تقسم ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ وعلى هذه الطريقة مسألة الشطرنج فى حبات القمح التى اخترعها الحكيم الهندى التى ستأتى فى سورة (طه) . بيان أن الكلمة جاءت فى الكتب القديمة كما جاء فى (ويليام) و (فشنوبورانا) وهكذا نيف وأربعون كتابا وهى ناطقات كلها بالتثليث وبالروح القدس وهكذا قبل المسيح .

صحيفة

صحيفة

الشريرة وقاصر الفهم من الأرواح إذا كان متواضعا ينقاد لمن يفهمه ، وبيان الإحضار الفكرى وأن الروح قد يمنع من المناجاة عقابا له وشروط الاستحضار والأرواح تسمع طالبها مهما تباعدت ، والأرواح تهاب الوسيط الفاضل . ثم إن الطلاسم ونحوها لاتؤثر فى الأرواح والروح العلوى يحضر مجالس كثيرة فى آن واحد لأنه كالشمس . الأرواح النقية لا تحضر إلا لقلوب نقية وتحضر روح الحى ولا تحضر روح الجنين وروح الحى قد يضرها الاستحضار مثل المريض والشيخ .

٥١ تطبيق هذه الأسئلة على ديننا الإسلامى . وبيان أن بعض ما تقدم يناسب قوله تعالى «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا» الخ أى قصة بلعام بن باعوراء وهكذا .

٥٦ جوهرة فى قوله تعالى «فاختلف الأحزاب من بينهم» وذكر التثليث الذى كان عند قدماء المصريين وأنهم أب وابن وأم . وبيان أن كنائس النصارى كانت مقسمة فى القرن الرابع (قسمين) قوم يقولون إن المسيح إله وقوم ينكرون ذلك وكيف اختل الأمن بسبب ذلك وبيان ما كتبه لهم الملك (قسطنطين) ثم ما كتبه المؤرخون .

٥٨ بيان نشاط ألوهية المسيح بعد موت (قسطنس) وبيان الموازنة بين تثليث الهنود وتثليث المسيحيين ، كيف ضل الإنسان وغوى وما أصل التثليث عند الأمم .

٦٠ (سورة طه) وفيها [ثلاثة مقاصد : المقصد الأول] مشكل إلى قوله «له الأسماء الحسنى» والتفسير اللفظى له وبيان أن فواتح السور مقسمة إلى قسمين ١٤ فى القرآن و١٤ فى أوائل السور وهى كمنازل القمر عددا واختفاء وظهورا وأن هذا العدد هو الذى قدمه مهندس لجمعية الأمم لإصلاح الشهور فى العالم . واستحسنه الناس . وبيان أن نفس هذا العدد تام وما معنى التمام .

٦٢ وبيان أن الطاء والهاء فى طه يرمزان إلى المقصود من السورة وهى لإعطاء الهداية فى قوله «أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» وهذا قد جعلت له المقدمة فى أول السورة .

٦٣ بيان أن الصانع تدخل ضمن القصص كما فى «إذا الشمس كورت» فقد دخل فيها تحريم الوأد فى جملتين اثنتين من السورة . هكذا هنا دخل الإعطاء والهداية فى خلال قصص موسى لحوى ذلك كل علم وكل فن .

٦٥ بيان أن قوله «الرحمن على العرش استوى» فتح باب لمعرفة وظائف الملوك والأمراء فى الأرض فكل من لم يكن منهم رحمة أخذ الله منه ملكه . فرحمة الله بها بقى كل مخلوق . وبيان أن قوله «وما تحت الثرى» فتح باب لعلم الآثار وطبقات الأرض . وبيان أن سد العرم عرفه الأوروبى وجهله المسلم وهو يتلوه فى القرآن .

٦٦ استيقظت قبل الفجر وفهمت من الوجود أن الكوكب الأصغر يكون أهله أجهل والأكبر يكون أهله أعلم وأن الأرواح تقول إن أرواحنا ستفنى هذه الأرض وهى ترتقى فى العوالم العلوية .

٦٧ بيان معنى «تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى» وأن أهل أرضنا المتمدنين منهم والمتوحشين متأخرون فى الأخلاق . فانظر إلى مملكة اشانتى الواقعة فى سواحل بلاد الذهب وكيف يذبح كل أمير بعض عبيده فى يوم مخصوص وكيف يشربون المسكر فى يوم العيد حتى يقعوا على الأرض وتلحسهم الكلاب وبيان عقائدهم ودياناتهم وشيوخهم وأنهم أقسام منهم من يعيشون فى الغابات كبعض البوذية وكيف تدفن المرأة مع زوجها وكيف يذبحون العبيد ليخدموا سيدهم الميت بعد الموت وكيف يكون للملك يوم

واحد

صحيفة

واحد من السنة يقتل فيه كل من ظهر فى المدينة فيفرون منها وهكذا وكيف تركهم أهل أوروبا لأجل أنهم لايعيشون فى تلك البلاد لأنهم يموت فيها نصف رجالهم كل سنة لعدم ملاءمة الجو . وبيان أن هذه صفحة من أخلاق هذا الانسان . إذن السموات هى العلى والأرض ضدها وهو المقصود .

٧١ (المقصد الثانى) من السورة والكلام على الفصل الأول والثانى من فصوله الأربعة مشكلا من قوله « وهل أتاك حديث موسى » إلى قوله « لا إله إلا هو وسع كل شىء علما » .

٧٥ والتفسير اللفظى لذلك كله .

٧٧ (اللطيفة الأولى) فى قوله « وهل أتاك حديث موسى » وبيان فائدة هذا الحديث فى عصرنا وأن اشتعال النار فى شجرة العليق فتح لك الباب على مصراعيه فاجلس كل يوم ساعة واذكر ربك حاضر القلب فترى فتوحا عليك به يستنير قلبك كما استنارت شجرة العليق ومن لم يحب ارتقاء الأمة الإسلامية من المسلمين فهو ناقص عن هذه المعالى . وبيان حديث مسلم « لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره » .

٧٩ (اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى « فألقاها فاذا هى حية تسعى » وأن فى المادة من التنوع والعجائب ما هو أعظم من تنوع عصا موسى بقدرة الله تعالى ، إذن ما جاء على يد موسى أقل مما جاء فى فعل الله فى عوالمه المعجبة . إذن هو فتح باب لدراسة هذه الكائنات التى أبدعها الله .

٨٠ نداء للأذكياء وبيان أن المسلمين ناموا نوما عميقا وأن من وقفوا على عصا موسى وتركوا هذا الوجود فهم غافلون كأكثر المسلمين اليوم .

٨١ (اللطيفة الثالثة) فى قوله تعالى « والسلام على من اتبع الهدى » وهذا السلام ظاهر فى سلام المصلى فى صلاته على نبيه وعلى عباد الله الصالحين الخ ومعرفة العوالم تزيد الإنسان أمانا لازدياد علمه بالله تعالى وفى قصة موسى الأمان والسلام له فى (عشرة مواطن) مثل إلقاء الحب عليه ورجوعه إلى أمه وهكذا .

٨٢ (الجوهرة الأولى) « لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » وبيان أن فى أضواء العناصر الأرضية خطوطا سودا حين إيقادها بالنار هدتنا إلى أن نعرف بها عناصر الكواكب فهذا من هدى النار وهكذا اهتدينا إلى مسألة التربيع فى المسافة والجذر فى أمر النار والكهرباء والجاذبية والنور وهكذا ، وأن الحياة فى الأرض لا تتم إلا بالحرارة وهى نارية وأن النار فى الشجر جعل دليلا على البعث لأن أجسامنا كالشجر والأرواح كالنار وهكذا رواية حى بن يقظان التى ألفها ابن الطفيل ، فقد أظهر أن الروح لا تكون فى الجسم إلا حيث تكون الحرارة مناسبة فى القلب ثم ترتفع إلى السماء فى الأماكن المناسبة لها فهذا كله من سر « أو أجد على النار هدى » وبيان أن النور والحرارة والكهرباء والحركات يرجع بعضها إلى بعض .

٨٥ آية موسى فى العصا وفى اليد وآية نبينا صلى الله عليه وسلم إذ رفع إلى سدرة المنتهى كلاهما كبرى وهاتان تفتحان لنا باب العلوم ولا ينتفع الناس بالآيات إلا إذا أثرت فى عقولهم . أما الغافلون عن ذلك فلا تنفع لهم من الآيات . فهذه السموات وهذه الأرضون جميعها حاضرة ولكننا لا ننتفع بها إلا بالبحث . فالله أرانا الآيات العلية فى العلوم المنقولة عن الأمم ثم سلط علينا المدافع ليقول لنا إن لم تقرءوا العلوم أهلكتكم على يد عبادى . وبيان أن الفحم تستخرج منه مئات الألوان والإنسان لا يتأثر إلا بأمر غريب وإما بالسحر فى العلم والثانى هو المطلوب . وبيان أن الألمان يستخرجون من غاباتهم رب الورق

صحيفة

وماية صنع الحرير لمنه الورق ومنه الحرير فهذا عجب ومن الصخر يثبت الحرير الصخرى المعروف والكلام على شجرة القشدة .

٨٨ التفسير اللفظى لقوله « إنا قد أوحى إلينا » إلى قوله « وذلك جزاء من تزكى » .

٩٠ (اللطيفة الأولى) فى قوله تعالى « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه » الخ وبيان أن هذه الآية أشبه ببيت القصيد من قصة موسى واتصال هذه السورة بالسور المتقدمة من الحجر إليها وأن الواليد الثلاثة رتبت فى كل منها بترتيب خاص لحكمة وسورة الإسراء والصلوات الخمس والمحاورات مع موسى لما بين الأمتين من علاقات العلم وقصص القرآن كالجمال الطبيعى وقصص (كليلة ودمنة) كالحلى المصنوعة بأيدى الناس والجمال بقسميه أنتج البنين والبنات فى الزواج . هكذا فى الجمال الحقيقى فى قصص القرآن من العصا والحية والجمال الصناعى بالروايات التى ألفها الناس أنتجا العلم الجم والحكمة . وكما أن الشاب والشابة فى أول الحياة يقترنان للشهوة ثم ينتهى الأمر بالتربية هكذا هنا نسمع قصص القرآن ثم يتدرج فيه إلى العليق الذى اتقدت فيه نار ثم ينتهى الأمر بالحقائق العلمية التى هى المقصود بالذات وهى النور وسر النار .

٩٢ (اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى « قال فما بال القرون الأولى » الخ وبيان أن فرعون أراد المغالطة بمعرفة تاريخ الأمم السابقة فقال موسى لا تسألنى هذا السؤال فعندى (حجتان . إحداهما) العصا واليد (والثانية) مصنوعات الله تعالى وهى أرقى من معجزتى فهل تريد يا فرعون أن تخرجنى من علم الطبيعة الحقيقى إلى علم التاريخ . كلا . موازنة إيمان سحرة فرعون بكفر بنى إسرائيل إذ عبدوا العجل ذلك أن بنى إسرائيل جهال فلم يدركوا قوة موسى القدسية ولما شاهدوا عجلا جسدا له خوار فضلوه على العصا والسحرة علماء فآمنوا . إذن المدار على العلم فى الإيمان لا على ظواهر المعجزات . مصداق هذا المقام من كلام (سبنسر) أنه فضل نظام الطبيعة على نظام اللغات وهو العلم الأدبى واللغات تقوى الذاكرة ولكن العلوم الطبيعية أشد تقوية والطبيعية فيها تقدمنا فى الحياة وتعريفنا معا وذم المناقشات التافهة فى القصائد اليونانية والمسائل التاريخية وحض على دراسة الطبيعة ومثل ذلك ضياع وقت المسلمين فى الخلاف بين سيبويه والكسائى ونحو ذلك . ونرى كثيرا من المتأدبين يفخرون بعلم أدب اللغة وهم عن العلوم الطبيعية ونحوها معرضون . كل ذلك داخل فى محاورة فرعون مع موسى فى مسألة القرون الأولى والكلام على عجائب الأرض . يحث مؤلف التفسير القراء أن يخطبوا بهذه المعانى فى بلاد الإسلام ويبينوا أن شعر الطبيعة أجمل من شعر الشعراء بالوحى والعلم معا . ويقول (سبنسر) إن عدد نجوم السماء وأنواع النبات والحيوان وصور الطبيعة أفضل للذاكرة من حيث الكثرة ومن حيث اتصال بعضها ببعض ومن حيث قوة الحكم وتهذيب الأخلاق والاستقلال فى الرأى والإخلاص فى الطلب لحسن الجمال كل ذلك يؤخذ من الآية المذكورة .

٩٦ بهجة العلوم الطبيعية . نظم فى جمال العلوم الطبيعية (فوق مائة بيت) أولها :

● قرأت كتاب الله فى كل سورة ● الخ فيه الكلام على الكواكب وأعدادها بالعين المجردة وبالآلات واسم المجرة عند العامة ، والعلماء وأشكال النجوم وعجائب الأرض . وذكر المعادن السبعة والأحجار الثمينة وأنواع النبات مع اتصاله بسلسلة الحيوان وعجائب الماء فى الجبال وأنه يبرد فى باطنها فيكسر الحجر بعظم حجمه فتكون العيون . ونظام السحاب وأنه مع الماء والشمس كالقدر والنار الخ وعجائب

صحيفة

صحيفة

والعفة والعفو وهكذا . ومتى نزعت هذه الصفات نزعت السياسة أيضا والمزان الأكبر احترام العلم والعلماء ، فاذا ظهر فى قوم لحقته سائر صفات الكمال فى السياسة ومتى نزع من قوم لحقته بقية صفات الكمال فزال الملك .

١٥٩ بيان الأدوار الأربعة فى الدولة العباسية من سنة ١٣٢ إلى سنة ٦٥٦ هجرية وإكرام الرشيد للعلماء ومن بعده إلى الواثق . وبيان محادثته مع العلماء فى أمر الصحة واختلاف البلدان والبحار والجبال وهكذا . ولما جاء المتوكل قتل ابن السكيت وأهان العلماء والأطباء فقتل هو ثم انتقل العلم إلى الممالك المتفرعة مثل المروانية بالأندلس والسامانيــة وراء النهر والزيارية وجرجان والحمدانيــة بين النهرين والبويهية فى العراق وفارس والغزنوية فى أفغانستان والهنــد والفاطمية بمصر ، وهؤلاء كانت لهم مع العلماء مجالس وهم يكرمونهم ويأمرونهم بالتأليف مثل ما ألف أبو على الفارسى لعضد الدولة وأبو إسحق الصابى كتبا علمية وفى الدولة السامانية منصور بن نوح الذى استوزر العالم الفارسى ثم ابنه نوح الذى اقترح نظم (الشاهنامه) وفى الدولة الزيارية شمس المعالى قابوس وكان هو نفسه عالما وشاعرا ، وفى الدولة الغزنوية بأفغانستان والهند السلطان محمود أمر الفردوسى باتمام الشاهنامه . والكلام على ما أمر به مأمون بن مأمون أن يرسل له العلماء الذين فى مجلسه كابن سينا والبيرونى وأبى سهل وهكذا فقبل بعضهم وامتنع البعض. وبيان حب الدولة الحمدانية للعلم وكذا المروانية بالأندلس والدولة الفاطمية بمصر. وبيان ما أمر به أحمد بن طولون عالما قبطيا وهو أعلم أهل زمانه ، وقد تكلم فى النصرانية واليهودية وأتى بأمور عجيبة فى علم الجغرافيا وبناء الهرم ولغة قدماء المصريين وهكذا .

١٦٣ ذكر انحطاط التعاليم فى بلاد الإسلام إذ أحرقوا الكتب فى بغداد فالتجأ العلم إلى أوروبا فعذبوهم هناك وقتلوا أتباعه ثم انتصر العلم عليهم ونبغ فى بلادهم بعد أن ألحش ديوان التفتيش فى قتل الملايين من الناس ثم رجوع العلم إلينا ثانيا مرتقيا .

١٦٥ كيف يتعاون ملوك أوروبا الآن على العلم وأن ملكة الروسيا ساعدت مؤلف دائرة المعارف الفرنسية فى بلاده . وبيان أن (باستور) العالم الفرنسى قد أنقذ بعلمه فى الكيمياء فرنسا من الخراب فنفعها بحقن البقر والغنم وهكذا وحفظ لها مالا بمقدار ما أعطته لألمانيا فى الحرب ونفع الأمم كلها بذلك ومدحه (هكسلى) ومجمع انكلترا الملكى وكافأته النمسا . فانظر كيف تعاونت أوروبا على نصر عالم فى وقت تعاون الترك والفرس ومصر فى مطاردة الشيخ جمال الدين الأفغانى . وبيان مراتب العلماء . لا يجوز أن نأخذ مع علم أوروبا شرورها وإلا كان الضرر ، فقد أحدث تدخل الأوروبيين فى مصر شرا كثيرا أربى على العلم الأوروبى . محادثتى مع ناظر مدرسة مصرى . النظام القديم والجديد . وبيان ما يقوله الفرنجة عن المفاسد فى مصر التى يتصف بها الشبان والشابات .

١٦٨ مذكرة الإصلاح بالأزهر الشريف والمقصد منها الرجوع إلى روح الإسلام وبهجته بقراءة العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها . ويراد به جعل الأزهر (قسمين) قسم كالمعتاد سابقا وقسم يدرس الطالب فيه (١٥) سنة فى درجات التعليم الثلاث ويكون منهم رجال القضاء وغيرهم وهذا التقرير خطوة أولى فى المقصود من هذا التفسير .

١٧١ العلم علمان علم ضائع وعلم نافع . فالضائع هو ما نراه فى كتب كثيرة من علم الأوفاق ومن حساب الجمل بجمل (محمد) ١٣٢ باعتبار الميم حرفين وهذا عدد حروف الفاتحة اللفظية فيظن الناس أن هذا سر وما هو بسر بل هو أمر اتفاق وهكذا الأوفاق كالمثلث الموضح فى صفحة (١٧٤) وبجمل (طه)

مناسبة

صحيفة

وإذا كانت السور السابقة فيها للمواليد الثلاثة فهذه فيها أصل المواليد وهي السموات والأرض وفتقهما ورتقهما
(الفائدة الثانية) « اقترب للناس حسابهم » وبيان أن القيامة مع تكرر وعد الأنبياء بها لم تقم وذلك يورث الشك عند البعض ويورث التوانى والتباطؤ عند آخرين فيعصون الله لطول المدة بين المعصية وجزائها . وبيان أن ذلك مدفوع بأن عذاب القبر بعد الموت والكشف الحديث يؤيده وأيضا العذاب فى الدنيا واقع والقرآن طافح بعذاب الدنيا . ألم تر إلى أكل ما يضر أو شربه أو الإفراط أو التفريط فى حركة أو سكون أو أى عمل ما . فكل ذلك يعقبه ألم على مقداره وهكذا الجهل والكسل كل ذلك له جزاء بقدره . إذن العذاب يبتدئ فى الدنيا والناس لا يشعرون كما قال تعالى « سنعذبهم مرتين » الخ وقال « أولئك لهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا » .

٢٠٤ (الحديث الحادى عشر) وفيه مقال للأرواح والكلام على الأرواح التائهة والأرواح اللازمة لقبورها وهل تتجسد فى الدنيا والصلاة على الميت وجذبها لروحه وميل بعض الأرواح لبعض الأماكن وكيف يكون الصالحون مفتونين بإزعاج الأرواح وصاحب الفضيلة فى الأرض قليل ، ومحادثة مع الروح الذى أحدث قلقا فى شارع (نوبه) وإنه مات منذ خمسين سنة وكان فى حياته لا عمل له . وبيان أن ما تقدم أشبه بما جاء فى كلام الإمام الغزالى .

٢٠٦ إيضاح لما تقدم وأن هذا المقام يفسر قوله تعالى « ونضع الموازين القسط » الخ .

٢٠٧ (اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا » وبيان أن هذه معجزة نبوية لأن مسألة اشتقاق الأرض من الشمس لم يذكرها إلا الفرنجة فى عصرنا وقد جهلتها الأمم السابقة وخطاب المؤلف لأذكياء الأمم الإسلامية قائلا (هل يليق أن يكون هذا الكتاب فى أيدى أجهل الأمم فى الأرض مع سمو مطالبه) .

٢٠٨ بيان عقاب المسلمين فى الدنيا وأن ألمانيا ٧٠ مليونا والممالك المتحدة فوق مائة مليون نفس ، والأولون مملكة متحدة والآخرون كذلك . وترى أبناء العرب لا يزيدون عن ثمانين مليونا فى العراق والشام ومصر وبلاد المغرب والسودان فلم يكونوا مملكة واحدة بل ممالك . وهكذا تراهم فى جزيرة العرب لا يكادون يبلغون بضع ملايين وهم دول متنافرة . أليس ذلك لجهلنا مع أن ديننا أشرف الأديان وهم علماء مع أن دينهم منسوخ .

جوهرة فى قوله تعالى «وما أرسلنا من قبلك من رسول» الخ .

٢٠٩ (الفصل الأول) فى دين قدماء المصريين وأن لهم ألف إله وإلاهة وأنهم ثلاث مراتب وأن هذه الأمة جمعت المتناقضات : سمو عقلى وسخافة والإله لا يسمى عندهم تعظيما له فلذلك عبدوا المخلوقات وهم يقولون بالتناسخ حتى تكمل النفس .

٢١٠ دين قدماء الفرس وبيان أنهم من الآريين بالهند الذين تفرع منهم الفرس وكثير من أهل أوروبا وأن (زردشت) العظيم عندهم جمهم وأنه كان موحدا ولكن لما اختلطوا بالمجوس أشركوا . فهناك قالوا هما [إلهان : أحدهما] للخير والآخر للشر وعبدوا إله الخير وذلك بأربع فضائل والكلام على جهنم عندهم وعلى الصراط . ذكر نبذتين من كتاب (الاستاوزند) إحداهما التحيات إلى إله الخير ، والثانية قانون الإيمان .

٢١٣ بيان أن ذكر ذلك هنا [لغرضين : الأول] الاطلاع على الديانات [الثانى] فهم قوله تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات» الخ وبيان أن الناس غشوا فى الديانات كما غش التجار فى الأطعمة

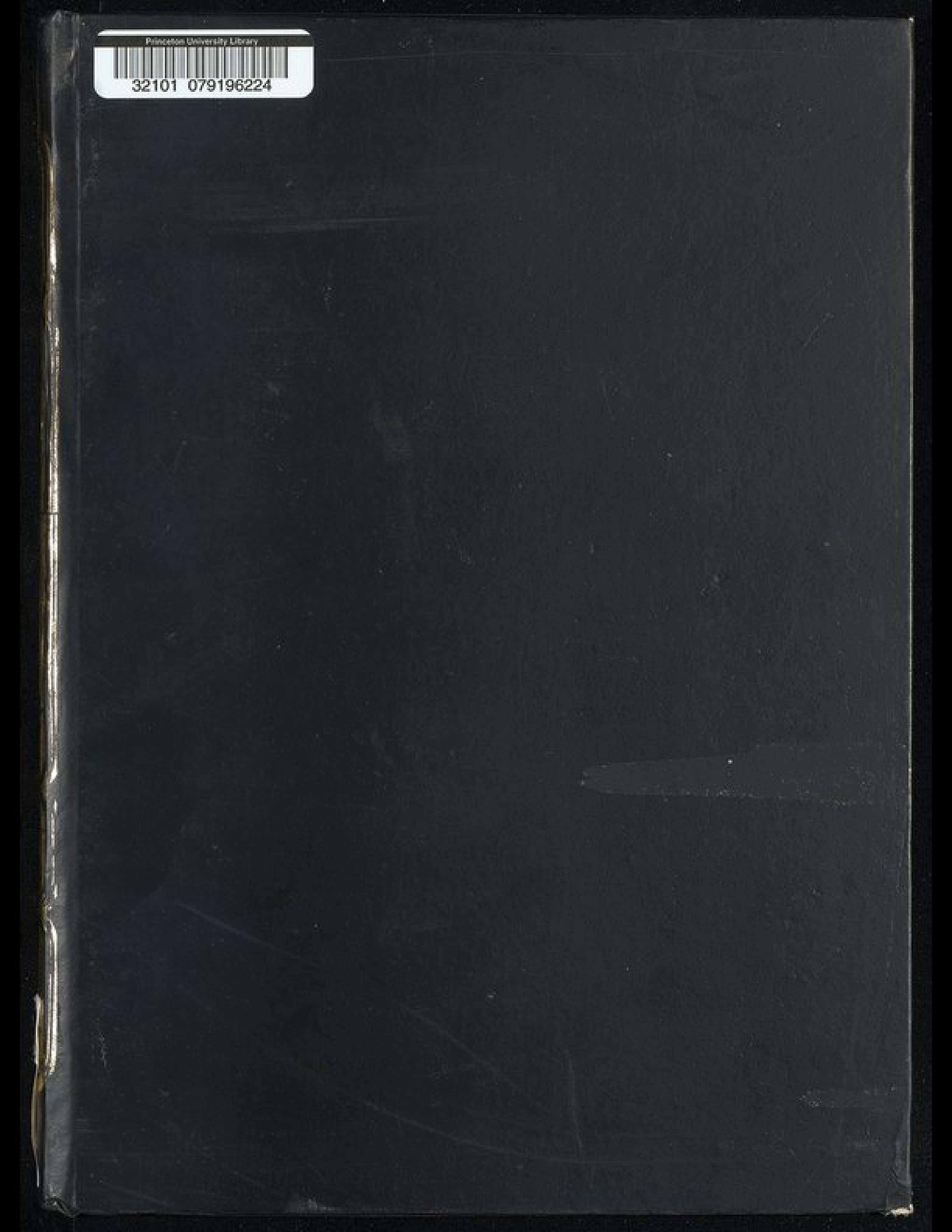
صحيفة

صحيفة

[تمت]



شعارنا
الدين واللغة
مطبعة البابى الحلبى وأولاده بمصر
مكتبة البابى الحلبى وأولاده بمصر
مكتبة
مصطفى البابى الحلبى
وأولاده
بمصر
مطبعة
مصطفى البابى الحلبى
وأولاده
بمصر
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
صندوق بوستة الغورية نمرة ٧١


Princeton University Library
32101 079196224